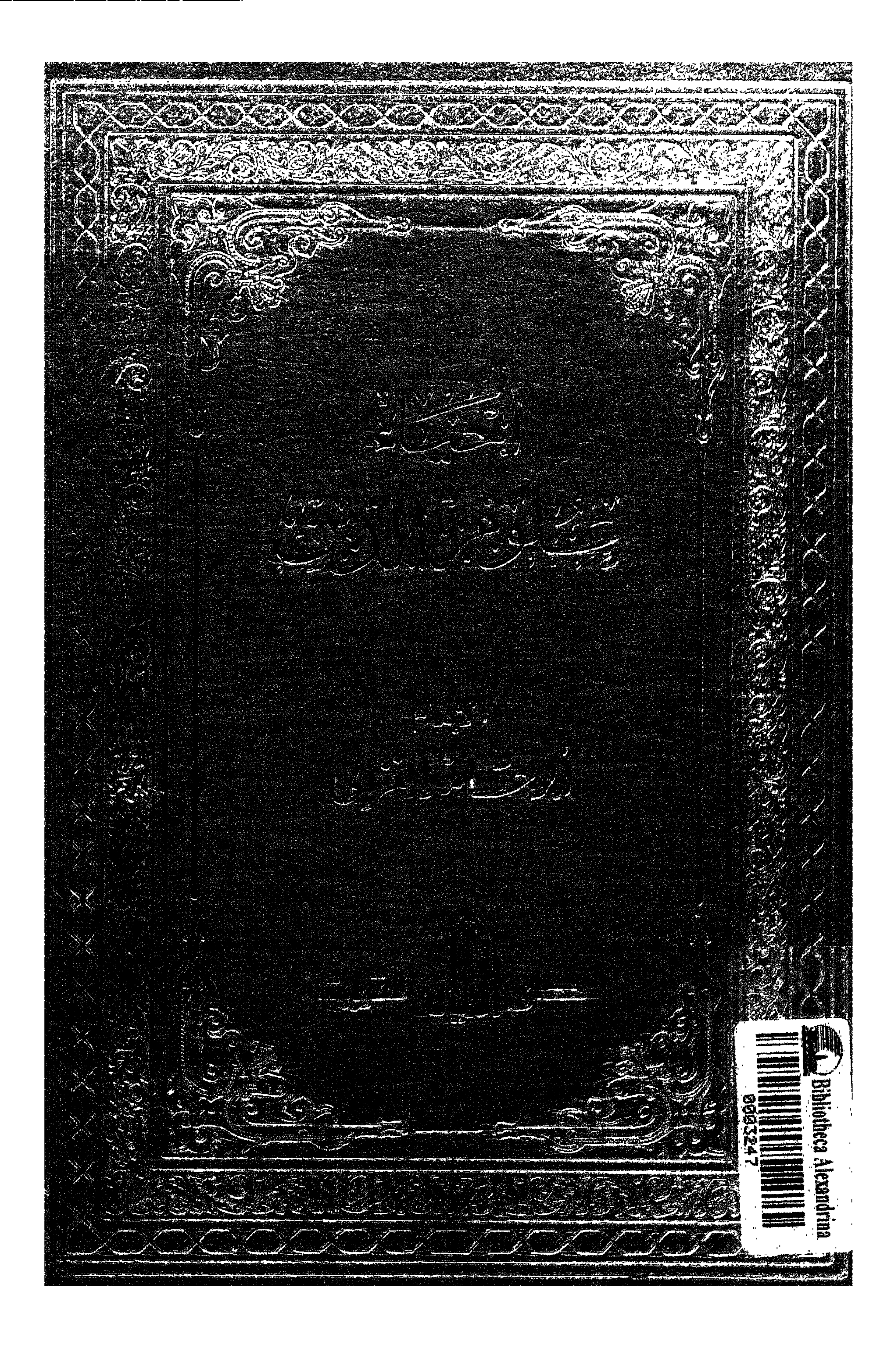

Bibliotheca Alexandrina
0003247







إحياء علوم الدين

تصنيف

الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي

المتوفى في سنة ٥٠٥ هـ

وبذيله كتاب

المغني عن حمل الأسفار في الأسفار

في تخريج ما في الإحياء من الأخبار

للعلامة زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي

المتوفى في سنة ٨٠٦ هـ

وتماما للنفع ألحقنا بالكتاب في آخره ثلاثة كتب:

الأول: تعريف الأحياء بفضائل الإحياء للعلامة عبد القادر بن شيخ بن عبد الله ابن شيخ بن عبد الله العيدروس باعلوي

الثاني: الإملاء عن إشكالات الإحياء للإمام الغزالي، رد به اعتراضات أوردها بعض المعاصرين له على بعض مواضع من الإحياء.

الثالث: عوارف المعارف: للعارف بالله تعالى الإمام السهروردي

الجزء الثالث

المكتبة التجارية الكبرى

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب شرح عجائب القلب

وهو الكتاب الأول من ربع المهلكات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى تتحير دون إدراك جلاله القلوب والخواطر ، وتدهش فى مبادى إشراق أنواره الأحداق والنواظر ، المطلع على خفيات السرائر ، العالم بمكنونات الضمائر ، المستغنى فى تدبير مملكته عن المشاور والموازر ، مقلب القلوب وغفار الذنوب ، وستار العيوب ، ومفرج الكروب .

والصلاة على سيدالمرسلين ، وجامع شمل الدين ، وقاطع دابر الملحدين . وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وسلم كثيرا .

أما بعد : فشرف الإنسان وفضيلته التى فاق بها جملة من أصناف الخلق باستعداده لمعرفة الله سبحانه ، التى هى فى الدنيا جماله وكماله وفخره ، وفى الآخرة عدّته وذخره ، وإنما استعدّ للمعرفة بقلبه لابجارحة من جوارحه ؛ فالقلب هو العالم بالله . وهو المتقرب إلى الله ؛ وهو العامل لله ، وهو الساعى إلى الله ، وهو المكاشف بما عند الله ولديه ، وإنما الجوارح أتباع وخدم وآلات ، يستخدمها القلب ويستعملها استعمال المالك للعبد واستخدام الراعى للرعية والصانع للآلة ؛ فالقلب هو المقبول عند الله إذا سلم من غير الله ، وهو المحجوب عن الله إذا صار مستغرقا بغير الله ، وهو المطالب وهو المخاطب وهو المعاتب وهو الذى يسعد بالقرب من الله فيفلح إذا زكاه ، وهو الذى يخيب ويشقى إذا دنسه ودساه ؛ وهو المطيع بالحقيقة لله تعالى ، وإنما الذى ينتشر على الجوارح من العبادات أنواره ، وهو العاصى المتمرّد على الله تعالى وإنما السارى إلى الأعضاء من الفواحش آثاره ؛ وباظلامه واستنارته تظهر محاسن الظاهر ومساويه ، إذ كل إناء ينضح بما فيه ، وهو الذى إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه ، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه ، وهو الذى إذا جهله الإنسان فقد جهل نفسه ، وإذا جهل نفسه فقد جهل ربه ، ومن جهل قلبه فهو بغيره أجهل ، إذ أكثر الخلق جاهلون بقلوبهم وأنفسهم ، وقد حيل بينهم وبين أنفسهم ، فإن الله يحول بين المرء وقلبه . وحيلولته بأن يمنعه عن مشاهدته ومراقبته ومعرفة صفاته وكيفية تقلبه بين أصبعين من أصابع الرحمن ، وأنه كيف يهوى مرة إلى أسفل السافلين وينخفض إلى أفق الشياطين ، وكيف يرتفع أخرى إلى أعلى عليين ويرتقى إلى عالم الملائكة المقربين . ومن لم يعرف قلبه ليراقبه ويراعيه ويترصد لما يلوح من خزائن الملكوت عليه وفيه ، فهو ممن قال الله تعالى فيه ﴿ نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾ فمعرفة القلب وحقيقة أوصافه

أصل الدين وأساس طريق السالكين .

وإذ فرغنا من الشطر الأول من هذا الكتاب من النظر فيما يجرى على الجوارح من العبادات والعادات - وهو العلم الظاهر ، ووعدنا أن نشرح فى الشطر الثانى ما يجرى على القلب من الصفات المهلكات والمنجيات - وهو العلم الباطن ؛ فلابدّ أن نقدّم عليه كتابين : كتابا فى شرح عجائب صفات القلب وأخلاقه ، وكتابا فى كيفية رياضة القلب وتهذيب أخلاقه . ثم نندفع بعد ذلك فى تفصيل المهلكات والمنجيات .

فلنذكر الآن من شرح عجائب القلب بطريق ضرب الأمثال ما يقرب من الأفهام ، فإنّ التصريح بعجائبه وأسراره الداخلة فى جملة عالم الملكوت مما يكل عن دركه أكثر الأفهام .

بيان معنى النفس ، والروح ، والقلب ، والعقل ، وما هو المراد بهذه الأسامى

اعلم أنّ هذه الأسماء الأربعة تستعمل فى هذه الأبواب . ويقل فى فحول العلماء من يحيط بهذه الأسامى واختلاف معانيها وحدودها ومسمياتها ، وأكثر الأغاليط منشؤها الجهل بمعنى هذه الأسامى واشتراكها بين مسميات مختلفة . ونحن نشرح فى معنى هذه الأسامى ما يتعلق بغرضنا :

اللفظ الأوّل : لفظ القلب ، وهو يطلق لمعنيين (أحدهما) اللحم الصنوبرى الشكل المودع فى الجانب الأيسر من الصدر ، وهو لحم مخصوص ، وفى باطنه تجويف ، وفى ذلك التجويف دم أسود هو منبع الروح ومعدنه ، ولسنا نقصد الآن شرح شكله وكيفيته ، إذ يتعلق به غرض الأطباء ولا يتعلق به الأغراض الدينية . وهذا القلب موجود للبهائم ، بل هو موجود للميت . ونحن إذا أطلقنا لفظ القلب فى هذا الكتاب لم نعن به ذلك ؛ فإنه قطعة لحم لا قدر له ، وهو من عالم الملك والشهادة إذ تدركه البهائم بحاسة البصر فضلا عن الآدميين . (والمعنى الثانى) هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسمانى تعلق ، وتلك اللطيفة هى حقيقة الإنسان وهو المدرك العالم العارف من الإنسان ، وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب . ولها علاقة مع القلب الجسمانى ، وقد تحيرت عقول أكثر الخلق فى إدراك وجه علاقته ؛ فإنّ تعلقه به يضاهى تعلق الأعراض بالأجسام والأوصاف بالموصوفات ، أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة . أو تعلق المتمكن بالمكان ، وشرح ذلك مما نتوقاه لمعنيين : (أحدهما) أنه متعلق بعلوم المكاشفة ، وليس غرضنا من هذا الكتاب إلا علوم المعاملة (والثانى) أن تحقيقه يستدعى إفشاء سر الروح وذلك مما لم يتكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ [1] فليس لغيره أن يتكلم فيه ، والمقصود أنا إذا أطلقنا لفظ القلب فى هذا الكتاب أردنا به هذه اللطيفة وغرضنا ذكر أوصافها وأحوالها لا ذكر حقيقتها فى ذاتها وعلم المعاملة يفتقر إلى معرفة صفاتها وأحوالها ولا يفتقر إلى ذكر حقيقتها .

اللفظ الثانى : الروح ، وهو أيضا يطلق فيما يتعلق بجنس غرضنا لمعنيين : (أحدهما) جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسمانى ، فينشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن ، وجريانه فى البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها ، يضاهى فيضان النور من السراج الذى يدار فى زوايا البيت ؛ فإنه لا ينتهى إلى جزء من البيت إلا ويستنير به ، والحياة مثالها النور الحاصل فى الحيطان ، والروح مثالها السراج ، وسريان الروح وحركته فى الباطن مثال حركة السراج فى جوانب البيت بتحريك محركه ، والأطباء إذا أطلقوا لفظ

---

[1] حديث : أنه صلى الله عليه وسلم لم يتكلم فى الروح . متفق عليه من حديث ابن مسعود فى سؤال اليهود عن الروح . وفيه . فأمسك النبى صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم ، فعلمت أنه يوحى إليه . الحديث ، وقد تقدم .

الروح أرادوا به هذا المعنى : وهو بخار لطيف أنضجته حرارة القلب ، وليس شرحه من غرضنا ، إذ المتعلق به غرض الأطباء الذين يعالجون الأبدان ؛ فأما غرض أطباء الدين المعالجين للقلب حتى ينساق إلى جوار رب العالمين ، فليس يتعلق بشرح هذه الروح أصلا . (المعنى الثانى) هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان ، وهو الذى شرحناه فى أحد معانى القلب ، وهو الذى أراده الله تعالى بقوله ﴿ قل الروح من أمر ربى ﴾ وهو أمر عجيب ربانى تعجز أكثر العقول والأفهام عن درك حقيقته

اللفظ الثالث : النفس ، وهو أيضا مشترك بين معان ، ويتعلق بغرضنا منه معنيان : (أحدهما) أنه يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة فى الإنسان على ما سيأتى شرحه ، وهذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوف ؛ لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان ، فيقولون : لابد من مجاهدة النفس وكسرها ، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام « أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك [1] » . (المعنى الثانى) هى اللطيفة التى ذكرناها التى هى الإنسان بالحقيقة ، وهى نفس الإنسان وذاته ، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها ؛ فإذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة . قال الله تعالى فى مثلها ﴿ ياأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية ﴾ والنفس بالمعنى الأول لايتصور رجوعها إلى الله تعالى ؛ فإنها مبعدة عن الله ، وهى من حزب الشيطان . وإذا لم يتم سكونها ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعترضة عليها سميت النفس اللوامة ؛ لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره فى عبادة مولاه . قال الله تعالى ﴿ ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾ وإن تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعى الشيطان سميت النفس الأمارة بالسوء . قال الله تعالى إخبارا عن يوسف عليه السلام أو امرأة العزيز ﴿ وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ وقد يجوز أن يقال : المراد بالأمارة بالسوء : هى النفس بالمعنى الأول ، فإذن النفس بالمعنى الأول مذمومة غاية الذم ، وبالمعنى الثانى محمودة لأنها نفس الإنسان أى ذاته وحقيقته العالمة بالله تعالى وسائر المعلومات .

اللفظ الرابع : العقل ، وهو أيضاً مشترك لمعان مختلفة ذكرناها فى كتاب العلم ، والمتعلق بغرضنا من جملتها معنيان : (أحدهما) أنه قد يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور ، فيكون عبارة عن صفة العلم الذى محله القلب . (والثانى) أنه قد يطلق ويراد به المدرك للعلوم فيكون هو القلب أعنى تلك اللطيفة . ونحن نعلم أن كل عالم فله فى نفسه وجود هو أصل قائم بنفسه ، والعلم صفة حالة فيه ، والصفة غير الموصوف ، والعقل قد يطلق ويراد به صفة العالم ، وقد يطلق ويراد به محل الإدراك أعنى المدرك ، وهو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم : أول ما خلق الله العقل [2] : فإن العلم عرض لايتصور أن يكون أول مخلوق ، بل لابد وأن يكون المحل مخلوقا قبله أو معه ، ولأنه لايمكن الخطاب معه . وفى الخبر : أنه قال له تعالى أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ... الحديث .

فإذن قد انكشف لك أن معانى هذه الأسماء موجودة : وهى القلب الجسمانى ، والروح الجسمانى ، والنفس الشهوانية ، والعلوم . فهذه أربعة معان يطلق عليها الألفاظ الأربعة ، ومعنى خامس : وهى اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان . والألفاظ الأربعة بجملتها تتوارد عليها ، فالمعانى خمسة ، والألفاظ أربعة ، وكل لفظ أطلق لمعنيين ،

---

(١) حديث « أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك » أخرجه البيهقى فى كتاب الزهد من حديث ابن عباس ، وفيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان أحد الوضاعين . (٢) حديث « أول ما خلق الله العقل » وفى الخبر أنه قال له : أقبل فأقبل وقال أدبر فأدبر ... الحديث » تقدم فى العلم .

وأكثر العلماء قد التبس عليهم اختلاف هذه الألفاظ وتواردها ؛ فتراهم يتكلمون فى الخواطر ويقولون: هذا خاطر العقل ، وهذا خاطر الروح ، وهذا خاطر القلب ، وهذا خاطر النفس ، وليس يدرى الناظر اختلاف معانى هذه الأسماء ، ولأجل كشف الغطاء عن ذلك قدمنا شرح هذه الأسامى ، وحيث ورد فى القرآن والسنة لفظ القلب ، فالمراد به المعنى الذى يفقه من الإنسان ويعرف حقيقة الأشياء ، وقد يكنى عنه بالقلب الذى فى الصدر ، لأن بين تلك اللطيفة وبين جسم القلب علاقة خاصة ، فإنها وإن كانت متعلقة بسائر البدن ومستعملة له ولكنها تتعلق به بواسطة القلب ، فتعلقها الأول بالقلب وكأنه محلها ومملكتها وعالمها ومطيتها ، ولذلك شبه سهل التسترى القلب بالعرش ، والصدر بالكرسى فقال : القلب هو العرش والصدر هو الكرسى ، ولايظن به أنه يرى أنه عرش الله وكرسيه فإن ذلك محال ، بل أراد به أنه مملكة الإنسان والمجرى الأول لتدبيره وتصرفه ، فهما بالنسبة إليه كالعرش والكرسى بالنسبة إلى الله تعالى ، ولايستقيم هذا التشبيه أيضا إلا من بعض الوجوه ، وشرح ذلك أيضا لايليق بغرضنا فلنجاوزه .

بيان جنود القلب

قال الله تعالى ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ فلله سبحانه فى القلوب والأرواح وغيرها من العوالم جنود مجندة لايعرف حقيقتها وتفصيل عددها إلا هو . ونحن الآن نشير إلى بعض جنود القلب ، فهو الذى يتعلق بغرضنا . وله جندان : جند يرى بالأبصار ، وجند لايرى إلا بالبصائر ، وهو فى حكم الملك ، والجنود فى حكم الخدم والأعوان ، فهذا معنى الجند : فأما جنده المشاهد بالعين فهو اليد والرجل والعين والأذن واللسان وسائر الأعضاء الظاهرة والباطنة ، فإن جميعها خادمة للقلب ومسخرة له ، فهو المتصرف فيها والمردد لها ، وقد خلقت مجبولة على طاعته لاتستطيع له خلافا ولا عليه تمردا ، فإذا أمر العين بالانفتاح انفتحت ، وإذا أمر الرجل بالحركة تحركت ، وإذا أمر اللسان بالكلام وجزم الحكم به تكلم ، وكذا سائر الأعضاء . وتسخير الأعضاء والحواس للقلب يشبه من وجه تسخير الملائكة لله تعالى ، فإنهم مجبولون على الطاعة لايستطيعون له خلافا ، بل لايعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون ، وإنما يفترقان فى شىء : وهو أن الملائكة عليهم السلام عالمة بطاعتها وامتثالها ، والأجفان تطيع القلب فى الانفتاح والانطباق على سبيل التسخير ولا خبر لها من نفسها ومن طاعتها للقلب ، وإنما افتقر القلب إلى هذه الجنود من حيث افتقاره إلى المركب والزاد لسفره الذى لأجله خلق ، وهو السفر إلى الله سبحانه وقطع المنازل إلى لقائه ، فلأجله خلقت القلوب . قال الله تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ وإنما مركبه البدن وزاده العلم . وإنما الأسباب التى توصله الى الزاد وتمكنه من التزود منه هو العمل الصالح ، وليس يمكن العبد أن يصل الى الله سبحانه مالم يسكن البدن ولم يجاوز الدنيا ، فإن المنزل الأدنى لابد من قطعه للوصول إلى المنزل الأقصى ، فالدنيا مزرعة الآخرة ، وهى منزل من منازل الهدى ، وإنما سميت دنيا : لأنها أدنى المنزلتين ، فاضطر الى أن يتزود من هذا العالم ، فالبدن مركبه الذى يصل به الى هذا العالم ، فافتقر إلى تعهد البدن وحفظه ، وإنما يحفظ البدن بأن يجلب إليه ما يوافقه من الغذاء وغيره ، وأن يدفع عنه ماينافيه من أسباب الهلاك ، فافتقر لأجل جلب الغذاء إلى جندين : باطن ، وهو الشهوة . وظاهر ، وهو اليد والأعضاء الجالبة للغذاء ، فخلق فى القلب من الشهوات مااحتاج إليه ، وخلقت الأعضاء التى هى آلات الشهوات فافتقر لأجل دفع المهلكات إلى جندين : باطن ، وهو الغضب الذى به يدفع المهلكات وينتقم من الأعداء . وظاهر ،

وهو اليد والرجل اللذين بهما يعمل بمقتضى الغضب ، وكل ذلك بأمور خارجة ؛ فالجوارح من البدن كالأسلحة وغيرها ، ثم المحتاج إلى الغذاء مالم يعرف الغذاء لم تنفعه شهوة الغذاء وإلفه ، فافتقر للمعرفة إلى جندين : باطن ، وهو إدراك السمع والبصر والشم واللمس والذوق : وظاهر ، وهو العين والأذن والأنف وغيرها . وتفصيل وجه الحاجة إليها ووجه الحكمة فيها يطول ولا تحويه مجلدات كثيرة . وقد أشرنا إلى طرف يسير منها فى كتاب الشكر فليقتنع به .

فجملة جنود القلب تحصرها ثلاثة أصناف : صنف باعث ومستحث : إما إلى جلب النافع الموافق كالشهوة ، وإما إلى دفع الضار المنافى كالغضب ، وقد يعبر عن هذا الباعث بالإرادة . والثانى : هو المحرك للاعضاء إلى تحصيل هذه المقاصد ، ويعبر عن هذا الثانى بالقدرة : وهى جنود مبثوثة فى سائر الأعضاء لاسيما العضلات منها والأوتار . والثالث : هو المدرك المتعرف للاشياء كالجواسيس : وهى قوة البصر والسمع والشم والذوق واللمس ، وهى مبثوثة فى أعضاء معينة ، ويعبر عن هذا بالعلم والإدراك ، ومع كل واحد من هذه الجنود الباطنة جنود ظاهرة وهى الأعضاء المركبة من الشحم واللحم والعصب والدم والعظم التى أعدت آلات لهذه الجنود ، فإن قوة البطش إنما هى بالأصابع ، وقوة البصر إنما هى بالعين ، وكذا سائر القوى ، ولسنا نتكلم فى الجنود الظاهرة أعنى الأعضاء فإنها من عالم الملك والشهادة ، وإنما نتكلم الآن فيما أيدت به من جنود لم تروها . وهذا الصنف الثالث وهو المدرك من هذه الجملة ينقسم إلى ماقد أسكن المنازل الظاهرة وهى الحواس الخمس : أعنى السمع والبصر والشم والذوق واللمس وإلى ما أسكن منازل باطنة : وهى تجاويف الدماغ ، وهى أيضا خمسة ، فإن الإنسان بعد رؤية الشيء يغمض عينه فيدرك صورته فى نفسه وهو الخيال ، ثم تبقى تلك الصورة معه بسبب شيء يحفظه وهو الجند الحافظ ، ثم يتفكر فيما حفظه فيركب بعض ذلك إلى البعض ، ثم يتذكر ماقد نسيه ويعود إليه ، ثم يجمع جملة معانى المحسوسات فى خياله بالحس المشترك بين المحسوسات ؛ ففى الباطن حس مشترك وتخيل وتفكر وتذكر وحفظ ، ولولا خلق الله قوة الحفظ والفكر والذكر والتخيل لكان الدماغ يخلو عنه كما تخلو اليد والرجل عنه ؛ فتلك القوى أيضا جنود باطنة وأماكنها أيضا باطنه ، فهذه هى أقسام جنود القلب ، وشرح ذلك بحيث يدركه فهم الضعفاء بضرب الأمثلة يطول . ومقصود مثل هذا الكتاب أن ينتفع به الأقوياء والفحول من العلماء ، ولكنا نجتهد فى تفهيم الضعفاء بضرب الأمثلة ليقرب ذلك من أفهامهم .

بيان أمثلة القلب مع جنوده الباطنة

اعلم أن جندى الغضب والشهوة قد ينقادان للقلب انقيادا تاما ، فيعينه ذلك على طريقه الذى يسلكه وتحسن مرافقتهما فى السفر الذى هو بصدده ، وقد يستعصيان عليه استعصاء بغى وتمرد حتى يملكاه ويستعبداه ، وفيه هلاكه وانقطاعه عن سفره الذى به وصوله إلى سعادة الأبد ، وللقلب جند آخر : وهو العلم والحكمة والتفكر ، كما سيأتى شرحه ، وحقه أن يستعين بهذا الجند فإنه حزب الله تعالى على الجندين الآخرين ، فإنهما قد يلتحقان بحزب الشيطان . فإن ترك الاستعانة وسلط على نفسه جند الغضب والشهوة هلك يقينا وخسر خسرانا مبينا ، وذلك حالة أكثر الخلق ، فإن عقولهم صارت مسخرة لشهواتهم فى استنباط الحيل لقضاء الشهوة ، وكان ينبغى أن تكون الشهوة مسخرة لعقولهم فيما يفتقر العقل إليه ؛ ونحن نقرب ذلك إلى فهمك بثلاثة أمثلة :

المثال الأول : أن نقول : مثل نفس الإنسان فى بدنه أعنى بالنفس اللطيفة المذكورة كمثل ملك فى مدينته ومملكته

فإن البدن مملكة النفس وعالمها ومستقرها ومدينتها ، وجوارحها وقواها بمنزلة الصناع والعملة ، والقوة العقلية المفكرة له كالمشير الناصح والوزير العاقل . والشهوة له كالعبد السوء يجلب الطعام والميرة إلى المدينة ، والغضب والحمية له كصاحب الشرطة . والعبد الجالب للميرة كذاب مكار خداع خبيث يتمثل بصورة الناصح وتحت نصحه الشر الهائل والسم القاتل ، وديدنه وعادته منازعة الوزير الناصح فى آرائه وتدبيراته حتى لايخلو من منازعته ومعارضته ساعة ، كما أن الوالى فى مملكته إذا كان مستغنيا فى تدبيراته بوزيره مستشيرا له ومعرضا عن إشارة هذا العبد الخبيث ، مستدلا بإشارته فى أن الصواب فى نقيض رأيه ، أدبه صاحب شرطته وساسه لوزيره وجعله مؤتمرا له مسلطا من جهته على هذا العبد الخبيث وأتباعه وأنصاره ، حتى يكون العبد مسوسا لا سائسا ، ومأمورا مدبرا لاأميرا مدبرا ، استقام أمر بلده وانتظم العدل بسببه ؛ فكذا النفس متى استعانت بالعقل ، وأدبت بحمية الغضب ، وسلطتها على الشهوة ، واستعانت بإحداهما على الأخرى تارة بأن تقلل مرتبة الغضب وغلوائه بمخالفة الشهوة واستدراجها ، وتارة بقمع الشهوة وقهرها بتسليط الغضب والحمية عليها وتقبيح مقتضياتها ، اعتدلت قواها وحسنت أخلاقها ، ومن عدل عن هذه الطريقة كان كمن قال الله تعالى فيه ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم ﴾ وقال تعالى ﴿ واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾ وقال عز وجل فيمن نهى النفس عن الهوى ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى ﴾ وسيأتى كيفية مجاهدة هذه الجنود وتسليط بعضها على بعض فى كتاب رياضة النفس إن شاء الله تعالى .

المثال الثانى : اعلم أن البدن كالمدينة والعقل ـ أعنى المدرك ـ من الإنسان كملك مدبر لها ، وقواه المدركة من الحواس الظاهرة والباطنة كجنوده وأعوانه ، وأعضاؤه كرعيته ، والنفس الأمارة بالسوء التى هى الشهوة والغضب كعدو ينازعه فى مملكته ويسعى فى إهلاك رعيته ، فصار بدنه كرباط وثغر ، ونفسه كمقيم فيه مرابط ، فإن هو جاهد عدوه وهزمه وقهره على مايحب حمد أثره إذا عاد إلى الحضرة كما قال الله تعالى ﴿ والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ﴾ وإن ضيع ثغره وأهمل رعيته ذم أثره فانتقم منه عند الله تعالى فيقال له يوم القيامه : ياراعى السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم تأو الضالة ولم تجبر الكسير اليوم أنتقم منك (١) كما ورد فى الخبر . وإلى هذه المجاهدة الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر (٢) » .

المثال الثالث : مثل العقل مثل فارس متصيد وشهوته كفرسه وغضبه ككلبه ، فمتى كان الفارس حاذقا وفرسه مروضا وكلبه مؤدبا معلما كان جديرا بالنجاح ، ومتى كان هو فى نفسه أخرق وكان الفرس جموحا والكلب عقورا فلا فرسه ينبعث تحته منقادا ولا كلبه يسترسل بإشارته مطيعا فهو خليق بأن يعطب فضلا عن أن ينال ماطلب ، وإنما خرق الفارس مثل جهل الإنسان وقلة حكمته وكلال بصيرته ، وجماح الفرس مثل غلبة الشهوة خصوصا شهوة البطن والفرج ، وعقر الكلب مثل غلبة الغضب واستيلائه . نسأل الله حسن التوفيق بلطفه .

بيان خاصية قلب الإنسان

اعلم أن جملة ماذكرناه قد أنعم الله به على سائر الحيوانات سوى الآدمى ؛ إذ للحيوان الشهوة والغضب والحواس

---

(١) حديث . يقال يوم القيامة ياراعى السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم ترد الضالة ... الخبر ، لم أجد له أصلا

(٢) حديث « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » أخرجه البيهقى فى الزهد من حديث جابر وقال : هذا إسناد فيه ضعف .

الظاهرة والباطنة أيضا ، حتى إن الشاة ترى الذئب بعينها فتعلم عداوته بقلبها فتهرب منه فذلك هو الإدراك الباطن .

فلنذكر ما يختص به قلب الإنسان ، ولأجله عظم شرفه واستأهل القرب من الله تعالى . وهو راجع إلى علم وإرادة :

أما العلم فهو العلم بالأمور الدنيوية والأخروية والحقائق العقلية فإن هذه أمور وراء المحسوسات ولا يشاركه فيها الحيوانات ، بل العلوم الكلية الضرورية من خواص العقل إذ يحكم الإنسان بأن الشخص الواحد لا يتصور أن يكون فى مكانين فى حالة واحدة ، وهذا حكم منه على كل شخص . ومعلوم أنه لم يدرك بالحس إلا بعض الأشخاص فحكمه على جميع الأشخاص زائد على ما أدركه الحس . وإذا فهمت هذا فى العلم الظاهر الضرورى فهو فى سائر النظريات أظهر .

وأما الإرادة فإنه إذا أدرك بالعقل عاقبة الأمر وطريق الصلاح فيه انبعث من ذاته شوق إلى جهة المصلحة وإلى تعاطى أسبابها والإرادة لها ، وذلك غير إرادة الشهوة وإرادة الحيوانات بل يكون على ضد الشهوة . فإن الشهوة تنفر عن الفصد والحجامة ، والعقل يريدها ويطلبها ويبذل المال فيها . والشهوة تميل إلى لذائذ الأطعمة فى حين المرض والعاقل يجد فى نفسه زاجرا عنها ، وليس ذلك زاجر الشهوة . ولو خلق الله العقل المعرف بعواقب الأمور ولم يخلق هذا الباعث المحرك للأعضاء على مقتضى حكم العقل لكان حكم العقل ضائعا على التحقيق .

فإذن قلب الإنسان اختص بعلم وإرادة ينفك عنها سائر الحيوان بل ينفك عنها الصبى فى أول الفطرة وإنما يحدث ذلك فيه بعد البلوغ . وأما الشهوة والغضب والحواس الظاهرة والباطنة فإنها موجودة فى حق الصبى .

ثم الصبى فى حصول هذه العلوم فيه له درجتان ؛ إحداهما : أن يشتمل قلبه على سائر العلوم الضرورية الأولية ؛ كالعلم باستحالة المستحيلات وجواز الجائزات الظاهرة فتكون العلوم النظرية فيها غير حاصلة إلا أنها صارت ممكنة قريبة الإمكان والحصول ، ويكون حاله بالإضافة إلى العلوم كحال الكاتب الذى لا يعرف من الكتابة إلا الدواة والقلم والحروف المفردة دون المركبة فإنه قد قارب الكتابة ولم يبلغها بعد .

الثانية : أن تتحصل له العلوم المكتسبة بالتجارب والفكر فتكون كالمخزونة عنده ، فإذا شاء رجع إليها وحاله حال الحاذق بالكتابة إذ يقال له كاتب وإن لم يكن مباشراً للكتابة بقدرته عليها . وهذه هى غاية درجة الإنسانية . ولكن فى هذه الدرجة مراتب لا تحصى يتفاوت الخلق فيها بكثرة المعلومات وقلتها وبشرف المعلومات وخستها وبطريق تحصيلها ؛ إذ تحصل لبعض القلوب بإلهام إلهى على سبيل المبادأة والمكاشفة ، ولبعضهم بتعلم واكتساب ، وقد يكون سريع الحصول وقد يكون بطىء الحصول . وفى هذا المقام تتباين منازل العلماء والحكماء والأنبياء والأولياء ، فدرجات الترقى فيه غير محصورة إذ معلومات الله سبحانه لا نهاية لها . وأقصى الرتب رتبة النبى الذى تنكشف له كل الحقائق أو أكثرها من غير اكتساب وتكلف ، بكشف إلهى فى أسرع وقت ، وبهذه السعادة يقرب العبد العبد من الله تعالى قربا بالمعنى والحقيقة والصفة لا بالمكان والمسافة ومراقى هذه الدرجات هى منازل السائرين إلى الله تعالى ولا حصر لتلك المنازل ، وإنما يعرف كل سالك منزله الذى بلغه فى سلوكه فيعرفه ويعرف ما خلفه من المنزل . فأما ما بين يديه فلا يحيط بحقيقته علما لكن قد يصدق به إيمانا بالغيب ، كما أنا نؤمن بالنبوة والنبى ونصدق بوجوده ولكن لا يعرف حقيقة النبوة إلا النبى ، وكما لا يعرف الجنين حال الطفل ، ولا الطفل حال المميز وما يفتح له من

العلوم الضرورية ، ولا المميز حال العاقل وما اكتسبه من العلوم النظرية فكذلك لايعرف العاقل ماافتتح الله على أوليائه وأنبيائه من مزايا لطفه ورحمته ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ﴾ وهذه الرحمة مبذولة بحكم الجود والكرم من الله سبحانه وتعالى غير مضنون بها على أحد ولكن إنما تظهر فى القلوب المتعرضة لنفحات رحمة الله تعالى كما قال صلى الله عليه وسلم « إن لربكم فى أيام دهركم لنفحات ألا فتعرضوا لها [1] » والتعرض لها بتطهير القلب وتزكيته من الخبث والكدورة الحاصلة من الأخلاق المذمومة - كما سيأتى بيانه - وإلى هذا الجود الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « ينزل الله كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول هل من داع فأستجيب له » ؟ وبقوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن ربه عز وجل « لقد طال شوق الأبرار إلى لقائى وأنا إلى لقائهم أشد شوقا [2] » وبقوله تعالى « من تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا [3] » كل ذلك إشارة إلى أن أنوار العلوم لم تحتجب عن القلوب لبخل ومنع من جهة المنعم - تعالى عن البخل والمنع علوا كبيرا - ولكن حجبت لخبث وكدورة وشغل من جهة القلوب فإن القلوب كالأوانى فما دامت ممتلئة بالماء لايدخلها الهواء فالقلوب المشغولة بغير الله لاتدخلها المعرفة بجلال الله تعالى . وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السماء [4] » ومن هذه الجملة يتبين أن خاصية الإنسان العلم والحكمة .

وأشرف أنواع العلم هو العلم بالله وصفاته وأفعاله فيه كمال الإنسان وفى كماله سعادته وصلاحه لجوار حضرة الجلال والكمال . فالبدن مركب للنفس ، والنفس محل للعلم ، والعلم هو مقصود الإنسان وخاصيته التى لأجله خلق . وكما أن الفرس يشارك الحمار فى قوة الحمل ويختص عنه بخاصية الكر والفر وحسن الهيئة فيكون الفرس مخلوقا لأجل تلك الخاصية ، فإن تعطلت منه نزل إلى حضيض رتبة الحمار . وكذلك الإنسان يشارك الحمار والفرس فى أمور ويفارقها فى أمور هى خاصيته وتلك الخاصية من صفات الملائكة المقربين من رب العالمين . والإنسان على رتبة بين البهائم والملائكة ، فإن الإنسان من حيث يتغذى وينسل فنبات ، ومن حيث يحس ويتحرك بالاختيار فحيوان ، ومن حيث صورته وقامته فكالصورة المنقوشة على الحائط ، وإنما خاصيته معرفة حقائق الأشياء .

من استعمل جميع أعضائه وقواه على وجه الاستعانة بها على العلم والعمل فقد تشبه بالملائكة ؛ فحقيق بأن يلحق بهم وجدير بأن يسمى ملكا وربانيا كما أخبر الله تعالى عن صواحبات يوسف عليه السلام بقوله ﴿ ماهذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ﴾ .

ومن صرف همته إلى اتباع اللذات البدنية يأكل كما تأكل الأنعام فقد انحط إلى حضيض أفق البهائم فيصير إما غمرا كثور ، وإما شرها كخنزير . وإما ضريا ككلب أو سنور ، أو حقودا كجمل . أو متكبرا كنمر ، أوذاروغان كثعلب ، أو يجمع ذلك كله كشيطان مريد .

وما من عضو من الأعضاء ولا حاسة من الحواس إلا ويمكن الاستعانة به على طريق الوصول إلى الله تعالى - كما سيأتى بيان طرف منه فى كتاب الشكر - فمن استعمله فيه فقد فاز ، ومن عدل عنه فقد خسر وخاب . وجملة السعادة فى ذلك أن يجعل لقاء الله تعالى مقصده ، والدار الآخرة مستقره ، والدنيا منزله ، والبدن مركبه ، والأعضاء

---

(١) حديث « إن لربكم فى أيام دهركم لنفحات ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة وأبى سعيد وقد تقدم .
(٢) حديث « يقول الله عزوجل لقد طال شوق الأبرار إلى لقائى ... الحديث » لم أجد له أصلا إلا أن صاحب الفردوس خرجه من حديث أبى الدرداء ولم يذكر له ولده فى مسند الفردوس إسنادا . (٣) حديث « يقول الله من تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا » متفق عليه من حديث أبى هريرة . (٤) حديث « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث أبى هريرة بنحوه وقد تقدم فى الصيام .

خدمه . فيستقر هو - أعنى المدرك من الإنسان - فى القلب الذى هو وسط مملكته كالملك ، ويجرى القوة الخيالية المودعة فى مقدم الدماغ مجرى صاحب بريده إذ تجتمع أخبار المحسوسات عنده ، ويجرى القوة الحافظة التى مسكنها مؤخر الدماغ مجرى خازنه ، ويجرى اللسان مجرى ترجمانه ، ويجرى الأعضاء المتحركة مجرى كتابه ، ويجرى الحواس الخمس مجرى جواسيسه فيوكل كل واحد منها بأخبار صقع من الأصقاع ؛ فيوكل العين بعالم الألوان ، والسمع بعالم الأصوات ، والشم بعالم الروائح . وكذلك سائرها فإنها أصحاب أخبار يلتقطونها من هذه العوالم ويؤدونها إلى القوة الخيالية التى هى كصاحب البريد ، ويسلمها صاحب البريد إلى الخازن وهى الحافظة ، ويعرضها الخازن على الملك فيقتبس الملك منها مايحتاج إليه فى تدبير مملكته وإتمام سفره الذى هو بصدده ، وقمع عدوه الذى هو مبتلى به ، ودفع قواطع الطريق عليه فإذا فعل ذلك كان موفقا سعيدا شاكرا نعمة الله وإذا عطل هذه الجملة أو استعملها لكن فى مراعاة أعدائه وهى الشهوة والغضب وسائر الحظوظ العاجلة ، أو فى عمارة طريقه دون منزله إذ الدنيا طريقه التى عليها عبوره ، ووطنه ومستقره الآخرة ؛ كان مخذولا شقيا كافرا بنعمة الله تعالى مضيعا لجنود الله تعالى ناصرا لأعداء الله مخذلا لحزب الله فيستحق المقت والإبعاد فى المنقلب والمعاد . نعوذ بالله من ذلك .

وإلى المثال الذى ضربناه أشار كعب الأحبار حيث قال : دخلت على عائشة رضى الله عنها فقلت : الإنسان عيناه هاد وأذناه قمع ولسانه ترجمان ويداه جناحان ورجلاه بريد والقلب منه ملك [١] فإذا طاب الملك طابت جنوده ، فقالت : هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . وقال على رضى الله عنه فى تمثيل القلوب : إن لله تعالى فى أرضه آنية وهى القلوب فأحبها إليه تعالى أرقها وأصفاها وأصلبها ؛ ثم فسره فقال : أصلبها فى الدين وأصفاها فى اليقين وأرقها على الإخوان ، وهو إشارة إلى قوله تعالى ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ وقوله تعالى ﴿ مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ﴾ قال أبى بن كعب رضى الله عنه : معناه مثل نور المؤمن وقلبه وقوله تعالى ﴿ أو كظلمات فى بحر لجى ﴾ مثل قلب المنافق . وقال زيد بن أسلم فى قوله تعالى ﴿ فى لوح محفوظ ﴾ وهو قلب المؤمن . وقال سهل : مثل القلب والصدر مثل العرش والكرسى فهذه أمثلة القلب .

بيان مجامع أوصاف القلب وأمثلته

اعلم أن الإنسان قد اصطحب فى خلقته وتركيبه أربع شوائب ، فلذلك اجتمع عليه أربعة أنواع من الأوصاف وهى : الصفات السبعية والبهيمية والشيطانية والربانية . فهو من حيث سلط عليه الغضب يتعاطى أفعال السباع من العداوة والبغضاء والتهجم على الناس بالضرب والشتم . ومن حيث سلطت عليه الشهوة يتعاطى أفعال البهائم من الشره والحرص والشبق وغيره ؛ ومن حيث إنه فى نفسه أمر ربانى كما قال الله تعالى ﴿ قل الروح من أمر ربى ﴾ فإنه يدعى لنفسه الربوبية ، ويحب الاستيلاء ، والاستعلاء ، والتخصص ، والاستبداد بالأمور كلها ، والتفرد بالرياسة ، والانسلال عن ربقة العبودية والتواضع ، ويشتهى الاطلاع على العلوم كلها ؛ بل يدعى لنفسه العلم ، والمعرفة ، والإحاطة بحقائق الأمور ، ويفرح إذا نسب إلى العلم ، ويحزن إذا نسب إلى الجهل والإحاطة بجميع الحقائق والاستيلاء بالقهر على جميع الخلائق من أوصاف الربوبية ، وفى الإنسان حرص على ذلك . ومن حيث يختص من البهائم بالتمييز مع مشاركته لها فى الغضب والشهوة حصلت فيه شيطانية فصار شريرا يستعمل التمييز فى

---

(١) حديث عائشة : الإنسان عيناه هاد وأذناه قمع ولسانه ترجمان ... الحديث . أخرجه أبو نعيم فى الطب النبوى والطبرانى فى مسند الشاميين والبيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة نحوه وله ولأحمد من حديث أبى ذر : وأما الأذن فقمع وأما العين فقرة لما يوعى القلب ولا يصح منها شىء .

استنباط وجوه الشر ، ويتوصل إلى الأغراض بالمكر والحيلة والخداع ، ويظهر الشر فى معرض الخير ، وهذه أخلاق الشياطين .

وكل إنسان فيه شوب من هذه الأصول الأربعة - أعنى الربانية والشيطانية والسبعية والبهيمية - وكل ذلك مجموع فى القلب . فكأن المجموع فى إهاب الإنسان : خنزير وكلب وشيطان وحكيم .

فالخنزير هو الشهوة فإنه لم يكن الخنزير مذموما للونه وشكله وصورته بل لجشعه وكلبه وحرصه .

والكلب هو الغضب فإن السبع الضارى والكلب العقور ليس كلبا وسبعا باعتبار الصورة واللون والشكل ، بل روح معنى السبعية الضراوة والعدوان والعقر ، وفى باطن الإنسان ضراوة السبع وغضبه وحرص الخنزير وشبقه : فالخنزير يدعو بالشره إلى الفحشاء والمنكر والسبع بالغضب إلى الظلم والإيذاء .

والشيطان لايزال يهيج شهوة الخنزير وغيظ السبع ويغرى أحدهما بالآخر ويحسن لهما ماهما مجبولان عليه .

والحكيم الذى هو مثال العقل مأمور بأن يدفع كيد الشيطان ومكره بأن يكشف عن تلبيسه ببصيرته النافذة ونوره المشرق الواضح ، وأن يكسر شره هذا الخنزير بتسليط الكلب عليه إذ بالغضب يكسر سورة الشهوة ويدفع ضراوة الكلب بتسليط الخنزير عليه ويجعل الكلب مقهورا تحت سياسته ، فإن فعل ذلك وقدر عليه اعتدل الأمر وظهر العدل فى مملكة البدن وجرى الكل على الصراط المستقيم ، وإن عجز عن قهرها قهروه واستخدموه ، فلا يزال فى استنباط الحيل وتدقيق الفكر ليشبع الخنزير ويرضى الكلب فيكون دائما فى عبادة كلب وخنزير .

وهذا حال أكثر الناس مهما كان أكثر همتهم البطن والفرج ومنافسة الأعداء ، والعجب منه أنه ينكر على عبدة الأصنام عبادتهم للحجارة ، ولو كشف الغطاء عنه وكوشف بحقيقة حاله ومثل له حقيقة حاله كما يمثل للمكاشفين إما فى النوم أوفى اليقظة لرأى نفسه ماثلا بين يدى خنزير ساجدا له مرة وراكعا أخرى ومنتظرا لإشارته وأمره . فمهما هاج الخنزير لطلب شىء من شهواته انبعث على الفور فى خدمته وإحضار شهوته ، أو رأى نفسه ماثلا بين يدى كلب عقور عابدا له مطيعا سامعا لما يقتضيه ويلتمسه مدققا بالفكر فى حيل الوصول إلى طاعته وهو بذلك ساع فى مسرة شيطانه فإنه الذى يهيج الخنزير ويثير الكلب ويبعثهما على استخدامه فهو من هذا الوجه يعبد الشيطان بعبادتهما فليراقب كل عبد حركاته وسكناته وسكوته ونطقه وقيامه وقعوده ، ولينظر بعين البصيرة فلا يرى إن أنصف نفسه إلا ساعيا طول النهار فى عبادة هؤلاء ، وهذا غاية الظلم إذ جعل المالك مملوكا والرب مربوبا والسيد عبداً والقاهر مقهوراً ، إذ العقل هو المستحق للسيادة والقهر والاستيلاء وقد سخره لخدمة هؤلاء الثلاثة فلا جرم ينتشر إلى قلبه من طاعة هؤلاء الثلاثة صفات تتراكم عليه حتى يصير طابعا ورينا مهلكا للقلب ومميتا له ، أما طاعة خنزير الشهوة فتصدر منها صفة الوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والهتكة والمجانة والعبث والحرص والجشع والملق والحسد والحقد والشماتة وغيرها . وأما طاعة كلب الغضب فتنتشر منها إلى القلب صفة التهور والبذالة والبذخ والصلف والاستشاطة والتكبر والعجب والاستهزاء والاستخفاف وتحقير الخلق وإرادة الشر وشهوة الظلم وغيرها . وأما طاعة الشيطان بطاعة الشهوة والغضب فيحصل منها صفة المكر والخداع والحيلة والدهاء والجراءة والتلبيس والتضريب والغش والخب والخنا وأمثالها . ولوعكس الأمر وقهر الجميع تحت سياسة الصفة الربانية : لاستقر فى القلب من الصفات الربانية العلم والحكمة واليقين والإحاطة بحقائق الأشياء ومعرفة الأمور على ماهى عليه ، والاستيلاء على الكل بقوة العلم والبصيرة ، واستحقاق التقدم على الخلق لكمال العلم وجلاله ، ولاستغنى عن عبادة الشهوة والغضب ، ولانتشر إليه

من ضبط خنزير الشهوة ورده إلى حد الاعتدال صفات شريفة مثل العفة والقناعة والهدو والزهد والورع والتقوى والانبساط وحسن الهيئة والحياء والظرف والمساعدة وأمثالها ، ويحصل فيه من ضبط قوة الغضب وقهرها وردها إلى حد الواجب صفة الشجاعة والكرم والنجدة وضبط النفس والصبر والحلم والاحتمال والعفو والثبات والنبل والشهامة والوقار وغيرها :

فالقلب فى حكم مرآة قد اكتنفته هذه الأمور المؤثرة فيه ، وهذه الآثار على التواصل واصلة إلى القلب . أما الآثار المحمودة التى ذكرناها فإنها تزيد مرآة القلب جلاء وإشراقا ونورا وضياء حتى يتلألأ فيه جلية الحق وينكشف فيه حقيقة الأمر المطلوب فى الدين ، وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « إذا أراد الله بعبد خيرا جعل له واعظا من قلبه »[١] ، وبقوله صلى الله عليه وسلم « من كان له من قلبه واعظ كان عليه من الله حافظ »[٢] ، وهذا القلب هو الذى يستقر فيه الذكر قال الله تعالى ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ .

وأما الآثار المذمومة فإنها مثل دخان مظلم يتصاعد إلى مرآة القلب ولايزال يتراكم عليه مرة بعد أخرى إلى أن يسود ويظلم ويصير بالكلية محجوبا عن الله تعالى ، وهو الطبع وهو الرين قال الله تعالى ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ وقال عز وجل ﴿ أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لايسمعون ﴾ فربط عدم السماع بالطبع بالذنوب كما ربط السماع بالتقوى فقال تعالى ﴿ واتقوا الله واسمعوا - واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾

ومهما تراكمت الذنوب طبع على القلوب وعند ذلك يعمى القلب عن إدراك الحق وصلاح الدين ويستهين بأمر الآخرة ويستعظم أمر الدنيا ويصير مقصور الهم عليها . فإذا قرع سمعه أمر الآخرة وما فيها من الأخطار دخل من أذن وخرج من أذن ولم يستقر فى القلب ولم يحركه إلى التوبة والتدارك أولئك ﴿ يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور ﴾ وهذا هو معنى اسوداد القلب بالذنوب كما نطق به القرآن والسنة ،

قال ميمون بن مهران : إذا أذنب العبد ذنبا نكت فى قلبه نكتة سوداء فإذا هو نزع وتاب صقل ، وإن عاد زيد فيها حتى يعلو قلبه فهو الران وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن أجرد فيه سراج يزهر وقلب الكافر أسود منكوس »[٣] ، فطاعة الله سبحانه بمخالفة الشهوات مصقلة للقلب ، ومعاصيه مسودات له فمن أقبل على المعاصى اسود قلبه ، ومن أتبع السيئة الحسنة ومحا أثرها لم يظلم قلبه ، ولكن ينقص نوره كالمرآة التى يتنفس فيها ثم تمسح ويتنفس ثم تمسح ، فإنها لاتخلو عن كدورة . وقد قال صلى الله عليه وسلم « القلوب أربعة قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر وقلب أغلف مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق »[٤] ، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب . ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد فأى المادتين غلبت عليه حكم له بها ؟ وفى رواية : ذهبت به . قال الله تعالى ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ فأخبر أن جلاء القلب وإبصاره يحصل بالذكر وأنه لايتمكن منه إلا الذين اتقوا . فالتقوى باب الذكر ، والذكر باب الكشف ، والكشف باب الفوز الأكبر ، وهو الفوز بلقاء الله تعالى .

---

(١) حديث : اذا أراد الله بعبده خيرا جعل له واعظا من قلبه . أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أم سلمة وإسناده جيد . (٢) حديث : من كان له من قلبه واعظ كان عليه من الله حافظ . لم أجد له أصلا .

(٣) حديث « قلب المؤمن أجرد فيه سراج يزهر ... الحديث » أخرجه أحمد والطبرانى فى الصغير من حديث أبى سعيد وهو بعض الحديث الذى يليه . (٤) حديث « القلوب أربعة : قلب أجرد فيه سراج يزهر ... الحديث » أخرجه أحمد والطبرانى فى الصغير من حديث أبى سعيد الخدرى . وقد تقدم .

بيان مثل القلب بالإضافة إلى العلوم خاصة

اعلم أن محل العلم هو القلب ؛ أعنى اللطيفة المدبرة لجميع الجوارح وهى المطاعة المخدومة من جميع الأعضاء ، وهى بالإضافة إلى حقائق المعلومات كالمرآة بالإضافة إلى صور المتلونات ؛ فكما أن للمتلون صورة ومثال تلك الصورة ينطبع فى المرآة ويحصل بها ، كذلك لكل معلوم حقيقة ولتلك الحقيقة صورة تنطبع فى مرآة القلب وتتضح فيها ، وكما أن المرآة غير وصور الأشخاص غير وحصول مثالها فى المرآة غير فهى ثلاثة أمور . فكذلك ههنا ثلاثة أمور القلب ، وحقائق الأشياء ، وحصول نفس الحقائق فى القلب وحضورها فيه .

فالعالم عبارة عن القلب الذى فيه يحل مثال حقائق الأشياء ، والمعلوم عبارة عن حقائق الأشياء . والعلم عبارة عن حصول المثال فى المرآة .

وكما أن القبض مثلا يستدعى (قابضا) كاليد (ومقبوضا) كالسيف ، ووصولا بين السيف واليد ـ بحصول السيف فى اليد ـ ويسمى (قبضا) فكذلك وصول مثال المعلوم إلى القلب يسمى علما ، وقد كانت الحقيقة موجودة والقلب موجودا ولم يكن العلم حاصلا ، لأن العلم عبارة عن وصول الحقيقة إلى القلب ، كما أن السيف موجود واليد موجودة ولم يكن اسم القبض والأخذ حاصلا لعدم وقوع السيف فى اليد ، نعم القبض عبارة عن حصول السيف بعينه فى اليد والمعلوم بعينه لايحصل فى القلب ، فمن علم النار لم تحصل عين النار فى قلبه ، ولكن الحاصل حدها وحقيقتها المطابقة لصورتها ، فتمثيله بالمرآة أولى لأن عين الإنسان لاتحصل فى المرآة وإنما يحصل مثال مطابق له . وكذلك حصول مثال مطابق لحقيقة المعلوم فى القلب يسمى علما .

وكما أن المرآة لاتنكشف فيها الصورة لخمسة أمور (أحدها) نقصان صورتها كجوهر الحديد قبل أن يدور ويشكل ويصقل . (والثانى) لخبثه وصدئه وكدورته وإن كان تام الشكل . (والثالث) لكونه معدولا به عن جهة الصورة إلى غيرها كما إذا كانت الصورة وراء المرآة . (والرابع) لحجاب مرسل بين المرآة والصورة . (والخامس) للجهل بالجهة التى فيها الصورة المطلوبة حتى يتعذر بسببه أن يحاذى بها شطر الصورة وجهتها .

فكذلك القلب مرآة مستعدة لأن ينجلى فيها حقيقة الحق فى الأمور كلها ، وإنما خلت القلوب عن العلوم التى خلت عنها لهذه الأسباب الخمسة (أولها) نقصان فى ذاته كقلب الصبى فإنه لاينجلى له المعلومات لنقصانه . (والثانى) لكدورة المعاصى والخبث الذى يتراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات فإن ذلك يمنع صفاء القلب وجلاءه فيمتنع ظهور الحق فيه لظلمته وتراكمه . وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « من قارف ذنبا فارقه عقل لايعود إليه أبدا [1] » أى حصل فى قلبه كدورة لايزول أثرها إذ غايته أن يتبعه بحسنة يمحوه بها ، فلو جاء بالحسنة ولم تتقدم السيئة لازداد لامحالة إشراق القلب فلما تقدمت السيئة سقطت فائدة الحسنة لكن عاد القلب بها إلى ما كان قبل السيئة ولم يزدد بها نورا . فهذا خسران مبين ونقصان لاحيلة له فليست المرآة التى تتدنس ثم تمسح بالمصقلة كالتى تمسح بالمصقلة لزيادة جلائها من غير دنس سابق ؟ فالإقبال على طاعة الله والإعراض عن مقتضى الشهوات هو الذى يجلو القلب ويصفيه ولذلك قال الله تعالى ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم [2] » .

---

(١) حديث « من قارف ذنبا فارقه عقل لايعود إليه أبدا » لم أرله أصلا . (٢) حديث « من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم » رواه أبو نعيم فى الحلية من حديث أنس وقد تقدم فى العلم .

الثالث أن يكون معدولا به عن جهة الحقيقة المطلوبة فإن قلب المطيع الصالح وإن كان صافيا فإنه ليس يتضح فيه جلية الحق لأنه ليس يطلب الحق وليس محاذيا بمرآته شطر المطلوب : بل ربما يكون مستوعب الهم بتفصيل الطاعات البدنية أو بتهيئة أسباب المعيشة ولا يصرف فكره إلى التأمل فى حضرة الربوبية والحقائق الخفية الإلهية ، فلاينكشف له إلا ماهو متفكر فيه من دقائق آفات الأعمال وخفايا عيوب النفس إن كان متفكرا فيها ، أومصالح المعيشة إن كان متفكرا فيها . وإذا كان تقييد الهم بالأعمال وتفصيل الطاعات مانعا عن انكشاف جليه الحق فما ظنك فيمن صرف الهم إلى الشهوات الدنيوية ولذاتها وعلاقتها فكيف لايمنع عن الكشف الحقيق ؟ .

الرابع : الحجاب فإن المطيع القاهر لشهواته المتجرد الفكر فى حقيقة من الحقائق قدلاينكشف له ذلك لكونه محجوبا عنه باعتقاد سبق إليه منذ الصبا على سبيل التقليد والقبول بحسن الظن ، فإن ذلك يحول بينه وبين حقيقة الحق ويمنع من أن ينكشف فى قلبه خلاف ماتلقفه من ظاهر التقليد ، وهذا أيضا حجاب عظيم به حجب أكثر المتكلمين والمتعصبين للمذاهب ، بل أكثر الصالحين المتفكرين فى ملكوت السموات والأرض لأنهم محجوبون باعتقادات تقليدية جمدت فى نفوسهم ورسخت فى قلوبهم وصارت حجابا بينهم وبين درك الحقائق .

الخامس : الجهل بالجهة التى يقع منها العثور على المطلوب فإن طالب العلم ليس يمكنه أن يحصل العلم بالمجهول إلا بالتذكر للعلوم التى تناسب مطلوبه حتى إذا تذكرها ورتبها فى نفسه ترتيبا مخصوصا يعرفه العلماء بطرق الاعتبار فعند ذلك يكون قد عثر على جهة المطلوب فتنجلى حقيقة المطلوب لقلبه ، فإن العلوم المطلوبة التى ليست فطرية لاتقتنص إلا بشبكة العلوم الحاصلة ، بل كل علم لايحصل إلا عن علمين سابقين يأتلفا ويزدوجان على وجه مخصوص فيحصل من ازدواجهما علم ثالث على مثال مايحصل النتاج من ازدواج الفحل والأنثى . ثم كما أن من أراد أن يستنتج رمكة لم يمكنه ذلك من حمار وبعير وإنسان بل من أصل مخصوص من الخيل الذكر والأنثى ، وذلك إذا وقع بينهما ازدواج مخصوص . فكذلك كل علم فله أصلان مخصوصان وبينهما طريق فى الازدواج يحصل من ازدواجهما العلم المستفاد المطلوب ، فالجهل بتلك الأصول وبكيفية الازدواج هو المانع من العلم . ومثاله ماذكرناه من الجهل بالجهة التى الصورة فيها ، بل مثاله أن يريد الإنسان أن يرى قفاه مثلا بالمرآة فإنه إذا رفع المرآة بإزاء وجهه لم يكن قد حاذى بها شطر القفا فلا يظهر فيها القفا ، وإن رفعها وراء القفا وحاذاه كان قد عدل بالمرآة عن عينه فلا يرى المرآة ولا صورة القفا فيها فيحتاج إلى مرآة أخرى ينصبها وراء القفا ، وهذه فى مقابلتها بحيث يبصرها ويراعى مناسبة بين وضع المرآتين حتى تنطبع صورة القفا فى المرآة المحاذية للقفا ، ثم تنطبع صورة هذه المرآة فى المرآة الأخرى التى فى مقابلة العين ، ثم تدرك العين صورة القفا ، فكذلك فى اقتناص العلوم طرق عجيبة فيها ازورارات وتحريفات أعجب مما ذكرناه فى المرآة يعز على بسيط الأرض من يهتدى إلى كيفية الحيلة فى تلك الازورارات . فهذه هى الأسباب المانعة للقلوب من معرفة حقائق الأمور . وإلا فكل قلب فهو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق لأنه أمر ربانى شريف فارق سائر جواهر العالم بهذه الخاصية والشرف . وإليه الإشارة بقوله عز وجل ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ﴾ إشارة إلى أن له خاصية تميز بها عن السموات والأرض والجبال بها صار مطيقا لحمل أمانة الله تعالى . وتلك الأمانة هى المعرفة والتوحيد وقلب كل آدمى مستعد لحمل الأمانة ومطيق لها فى الأصل ولكن يثبطه عن النهوض بأعبائها والوصول إلى تحقيقها الأسباب التى ذكرناها . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه [1] » وقول رسول الله

---

(١) حديث « كل مولود يولد على الفطرة ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة .

صلى الله عليه وسلم « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السماء [١] » إشارة إلى بعض هذه الأسباب التى هى الحجاب بين القلوب وبين الملكوت .

وإليه الإشارة بما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قيل لرسول الله ، يارسول الله أين الله فى الأرض أو فى السماء ؟ قال فى قلوب عباده المؤمنين [٢] ، وفى الخبر « قال الله تعالى : لم يسعنى أرضى ولاسمائى ووسعنى قلب عبدى المؤمن اللين الوادع [٣] » وفى الخبر « أنه قيل يارسول الله من خير الناس فقال « كل مؤمن مخموم القلب » فقيل: وما مخموم القلب ؟ فقال « هو التقى النقى الذى لاغش فيه ولا بغى ولا غدر ولاغل ولا حسد [٤] » ولذلك قال عمر رضى الله عنه : رأى قلبى ربى . إذ كان قد رفع الحجاب بالتقوى ، ومن ارتفع الحجاب بينه وبين الله تجلى صورة الملك والملكوت فى قلبه فيرى جنة عرض بعضها السموات والأرض ، أما جملتها فأكثر سعة من السموات والأرض لأن السموات والأرض عبارة عن عالم الملك والشهادة وهو وإن كان واسع الأطراف متباعد الأكناف فهو متناه على الجملة ، وأما عالم الملكوت وهى الأسرار الغائبة عن مشاهدة الأبصار المخصوصة بإدراك البصائر فلا نهاية له ، نعم الذى يلوح للقلب منه مقدار متناه ولكنه فى نفسه وبالإضافة إلى علم الله لانهاية له . وجملة عالم الملك والملكوت إذا أخذت دفعة واحدة تسمى الحضرة الربوبية لأن الحضرة الربوبية محيطة بكل الموجودات إذ ليس فى الوجود شىء سوى الله تعالى وأفعاله ، ومملكته وعبيده من أفعاله ، فما يتجلى من ذلك للقلب هى الجنة بعينها عند قوم وهو سبب استحقاق الجنة عند أهل الحق ، ويكون سعة ملكه فى الجنة بحسب سعة معرفته وبمقدار ماتجلى له من الله وصفاته وأفعاله . وإنما مراد الطاعات وأعمال الجوارح كلها تصفية القلب وتزكيته وجلاؤه ﴿قد أفلح من زكاها﴾ ومراد تزكيته حصول أنوار الإيمان فيه أعنى إشراق نور المعرفة وهو المراد بقوله تعالى ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام . أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ .

نعم هذا التجلى وهذا الإيمان له ثلاث مراتب (المرتبة الأولى) إيمان العوام وهو إيمان التقليد المحض . (والثانية) إيمان المتكلمين وهو ممزوج بنوع استدلال ، ودرجته قريبة من درجة إيمان العوام (والثالثة) إيمان العارفين وهو المشاهد بنور اليقين .

ونبين لك هذه المراتب بمثال : وهو أن تصديقك بكون زيد مثلا فى الدار له ثلاث درجات .

الأولى : أن يخبرك من جربته بالصدق ولم تعرفه بالكذب ولااتهمته فى القول ، فإن قلبك يسكن إليه ويطمئن بخبره بمجرد السماع ، وهذا الإيمان بمجرد التقليد ، وهو مثل إيمان العوام فإنهم لما بلغوا سن التمييز سمعوا من آبائهم وأمهاتهم وجود الله تعالى وعلمه وإرادته وقدرته وسائر صفاته وبعثة الرسل وصدقهم وما جاءوا به ، وكما سمعوا به قبلوه وثبتوا عليه واطمأنوا إليه ، ولم يخطر ببالهم خلاف ماقالوه لهم لحسن ظنهم بآبائهم وأمهاتهم ومعلميهم ، وهذا الإيمان سبب النجاة فى الآخرة وأهله من أوائل رتب أصحاب اليمين وليسوا من المقربين لأنه ليس فيه كشف وبصيرة وانشراح صدر بنور اليقين ، إذ الخطأ ممكن فيما سمع من الآحاد بل من الأعداد فيما يتعلق

---

(١) حديث : لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم ... الحديث . تقدم . (٢) حديث ابن عمر : أين الله ؟ قال : فى قلوب عباده المؤمنين . لم أجده بهذا اللفظ ، وللطبرانى من حديث أبى عتبة الخولانى يرفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن لله آنية من أهل الأرض وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين ... الحديث » فيه بقية بن الوليد وهو مدلس لكنه صرح فيه بالتحديث . (٣) حديث « قال الله ماوسعنى أرضى ولاسمائى ووسعنى قلب عبدى المؤمن اللين الوادع » لم أر له أصلا وفى حديث أبى عتبة قبله عند الطبرانى بعد قوله « وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين وأحبها إليه ألينها وأرقها » . (٤) حديث : قيل من خير الناس ؟ قال « كل مؤمن مخموم القلب ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر بإسناد صحيح .

بالاعتقادات ، فقلوب اليهود والنصارى أيضا مطمئنة بما يسمعونه من آبائهم وأمهاتهم إلا أنهم اعتقدوا ما اعتقدوا خطأ لأنهم ألقى إليهم الخطأ ، والمسلمون اعتقدوا الحق لا لاطلاعهم عليه ولكن ألقى إليهم كلمة الحق .

الرتبة الثانية : أن تسمع كلام زيد وصوته من داخل الدار ولكن من وراء جدار فتستدل به على كونه فى الدار فيكون إيمانك وتصديقك ويقينك بكونه فى الدار أقوى من تصديقك بمجرد السماع ، فإنك إذا قيل لك إنه فى الدار ثم سمعت صوته ازددت به يقينا لأن الأصوات تدل على الشكل والصورة عند من يسمع الصوت فى حال مشاهدة الصورة ، فيحكم قلبه بأن هذا صوت ذلك الشخص ؛ وهذا إيمان ممزوج بدليل والخطأ أيضا ممكن أن يتطرق إليه ، إذ الصوت قد يشبه الصوت وقد يمكن التكلف بطريق المحاكاة إلا أن ذلك قد لا يخطر ببال السامع لأنه ليس يجعل للتهمة موضعا ولا يقدر فى هذا التلبيس والمحاكاة غرضا .

الرتبة الثالثة : أن تدخل الدار فتنظر إليه بعينك وتشاهده ؛ وهذه هى المعرفة الحقيقية والمشاهدة اليقينية وهى تشبه معرفة المقربين والصديقين لأنهم يؤمنون عن مشاهدة فينطوى فى إيمانهم إيمان العوام والمتكلمين ، ويتميزون بمزية بينة يستحيل معها إمكان الخطأ . نعم وهم أيضا يتفاوتون بمقادير العلوم وبدرجات الكشف .

أما درجات الكشف فمثاله أن يبصر زيدا فى الدار عن قرب وفى صحن الدار فى وقت إشراق الشمس فيكمل له إدراكه والآخر يدركه فى بيت أو من بعد أو فى وقت عشية فيتمثل له فى صورته ما يستيقن معه أنه هو ؛ ولكن لا يتمثل فى نفسه الدقائق والخفايا من صورته . ومثل هذا متصور فى تفاوت المشاهدة للأمور الإلهية .

وأما مقادير العلوم فهو بأن يرى فى الدار زيدا وعمرا وبكرا غير ذلك وآخر لا يرى إلا زيدا فمعرفة ذلك تزيد بكثرة المعلومات لا محالة . فهذا حال القلب بالإضافة إلى العلوم والله تعالى أعلم بالصواب .

بيان حال القلب بالإضافة إلى أقسام العلوم العقلية والدينية والدنيوية والأخروية

اعلم أن القلب بغريزته مستعد لقبول حقائق المعلومات كما سبق ولكن العلوم التى تحل فيه تنقسم إلى عقلية وإلى شرعية . والعقلية تنقسم إلى ضرورية ومكتسبة . والمكتسبة إلى دنيوية وأخروية .

أما العقلية : فنعنى بها ما تقضى بها غريزة العقل ولا توجد بالتقليد والسماع ؛ وهى تنقسم إلى ضرورية : لا يدرى من أين حصلت وكيف حصلت ؟ كعلم الإنسان بأن الشخص الواحد لا يكون فى مكانين والشىء الواحد لا يكون حادثا قديما موجودا معدوما معا ؛ فإن هذه علوم يجد الإنسان نفسه منذ الصبا مفطورا عليها ولا يدرى متى حصل له هذا العلم ولا من أين حصل له ؟ أعنى أنه لا يدرى له سببا قريبا ، وإلا فليس يخفى عليه أن الله هو الذى خلقه وهداه . وإلى علوم مكتسبة : وهى المستفادة بالتعلم والاستدلال . وكلا القسمين قد يسمى عقلا .

قال على رضى الله عنه :

رأيت العقل عقلين فمطبوع ومسموع
ولا ينفع مسموع إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

والأول هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم لعلى « ماخلق الله خلقا أكرم عليه من العقل » (١) ، والثانى هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم لعلى رضى الله عنه « إذا تقرب الناس إلى الله تعالى بأنواع البر فتقرب أنت بعقلك » (٢) ،

---

(١) حديث « ماخلق الله خلقا أكرم عليه من العقل » أخرجه الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول بإسناد ضعيف وقد تقدم فى العلم . (٢) حديث « إذا تقرب الناس إلى الله بأنواع البر فتقرب أنت بعقلك » أخرجه أبو نعيم من حديث على بإسناد ضعيف

إذ لا يمكن التقرب بالغريزة الفطرية ولا بالعلوم الضرورية بل بالمكتسبة . ولكن مثل على رضى الله عنه هو الذى يقدر على التقرب باستعمال العقل فى اقتناص العلوم التى بها ينال القرب من رب العالمين ، فالقلب جار مجرى العين وغريزة العقل فيه جارية مجرى قوة البصر فى العين ، وقوة الابصار لطيفة تفقد فى العمى وتوجد فى البصر وإن كان قد غمض عينيه أو جن عليه الليل ، والعلم الحاصل منه فى القلب جار مجرى قوة إدراك البصر فى العين ورؤيته لأعيان الأشياء . وتأخر العلوم عن عين العقل فى مدة الصبا إلى أوان التميز أو البلوغ يضاهى تأخر الرؤية عن البصر إلى أوان إشراق الشمس وفيضان نورها على المبصرات . والقلم الذى سطر الله به العلوم على صفحات القلوب يجرى مجرى قرص الشمس . وإنما لم يحصل العلم فى قلب الصبى قبل التمييز لأن لوح قلبه لم يتهيأ بعد لقبول نفس العلم . والقلم عبارة عن خلق من خلق الله تعالى جعله سببا لحصول نقش العلوم فى قلوب البشر قال الله تعالى ﴿ الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم ﴾ وقلم الله تعالى لايشبه قلم خلقه كما لايشبه وصفه وصف خلقه ، فليس قلمه من قصب ولا خشب كما أنه تعالى ليس من جوهر ولا عرض ؛ فالموازنة بين البصيرة الباطنة والبصر الظاهر صحيحة من هذه الوجوه إلا أنه لامناسبة بينهما فى الشرف ؛ فإن البصيرة الباطنة هى عين النفس التى هى اللطيفة المدركة ، وهى كالفارس والبدن كالفرس ، وعمى الفارس أضر على الفارس من عمى الفرس بل لا نسبة لأحد الضررين إلى الآخر . ولموازنة البصيرة الباطنة للبصر الظاهر سماه الله تعالى باسمه فقال ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ سمى إدراك الفؤاد رؤية وكذلك قوله تعالى ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ﴾ وما أراد به الرؤية الظاهرة فإن ذلك غير مخصوص بإبراهيم عليه السلام حتى يعرض فى معرض الامتنان ، ولذلك سمى ضد إدراكه عمى فقال تعالى ﴿ فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ﴾ فهذا بيان العلم العقلى .

أما العلوم الدينية : فهى المأخوذة بطريق التقليد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، وذلك يحصل بالتعلم لكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وفهم معانيهما بعد السماع ، وبه كمال صفة القلب وسلامته عن الادواء والامراض ، فالعلوم العقلية غير كافية فى سلامة القلب وإن كان محتاجا إليها ، كما أن العقل غير كاف فى استدامة صحة أسباب البدن بل يحتاج إلى معرفة خواص الادوية والعقاقير بطريق التعلم من الاطباء ، إذ مجرد العقل لايهتدى إليه ولكن لايمكن فهمه بعد سماعه إلا بالعقل ، فلا غنى بالعقل عن السماع ولا غنى بالسماع عن العقل . فالداعى إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل ، والمكتفى بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور ، فإياك أن تكون من أحد الفريقين وكن جامعا بين الأصلين ، فإن العلوم العقلية كالأغذية والعلوم الشرعية كالأدوية والشخص المريض يستضر بالغذاء متى فاته الدواء ، فكذلك أمراض القلوب لايمكن علاجها إلا بالأدوية المستفادة من الشريعة وهى وظائف العبادات والأعمال التى ركبها الأنبياء صلوات الله عليهم لإصلاح القلوب ، فمن لايداوى قلبه المريض بمعالجات العبادة الشرعية واكتفى بالعلوم العقلية استضر بها كما يستضر المريض بالغذاء . وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية وأن الجمع بينهما غير ممكن هو ظن صادر عن عمى فى عين البصيرة نعوذ بالله منه ، بل هذا القائل ربما يناقض عنده بعض العلوم الشرعية لبعض فيعجز عن الجمع بينهما . فيظن أنه تناقض فى الدين ، فيتحير به فينسل من الدين انسلال الشعرة من العجين . وإنما ذلك لأن عجزه فى نفسه خيل إليه نقضا فى الدين وهيهات . وإنما مثاله مثال الأعمى الذى دخل دار قوم فتعثر فيها بأوانى الدار فقال لهم : ما بال هذه الأوانى

تركت على الطريق لم لاترد إلى مواضعها ؟ فقالوا له : تلك الأوانى فى مواضعها ! وإنما أنت لست تهتدى للطريق لعماك فالعجب منك أنك لاتحيل عثرتك على عماك وإنما تحيلها على تقصير غيرك ؟ فهذه نسبة العلوم الدينية إلى العلوم العقلية .

والعلوم العقلية تنقسم إلى دنيوية وأخروية . فالدنيوية : كعلم الطب والحساب والهندسة والنجوم وسائر الحرف والصناعات . والأخروية : كعلم أحوال القلب وآفات الأعمال والعلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله ـ كما فصلناه فى كتاب العلم ـ وهما علمان متنافيان ـ أعنى أن من صرف عنايته إلى أحدهما حتى تعمق فيه قصرت بصيرته عن الآخر على الأكثر ـ ولذلك ضرب على رضى الله عنه للدنيا والآخرة ثلاثة أمثلة فقال : هما ككفتى الميزان ، وكالمشرق والمغرب ، وكالضرتين إذا أرضيت إحداهما أسخطت الاخرى .

ولذلك ترى الأكياس فى أمور الدنيا وفى علم الطب والحساب والهندسة والفلسفة جهالا فى أمور الآخرة . والأكياس فى دقائق علوم الآخرة جهالا فى أكثر علوم الدنيا ، لأن قوة العقل لاتفى بالأمرين جميعا فى الغالب فيكون أحدهما مانعا من الكمال فى الثانى . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن أكثر أهل الجنة البله [1] » أى البله فى أمور الدنيا .

وقال الحسن فى بعض مواعظه : لقد أدركنا أقواما لو رأيتموهم لقلتم مجانين ولو أدركوكم لقالوا شياطين . فمهما سمعت أمرا غريبا من أمور الدين جحده أهل الكياسة فى سائر العلوم ، فلا يغرنك جحودهم عن قبوله إذ من المحال أن يظفر سالك طريق المشرق بما يوجد فى المغرب ، فكذلك يجرى أمر الدنيا والآخرة ولذلك قال تعالى ﴿ إن الذين لايرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ﴾ الآية وقال تعالى ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ وقال عز وجل ﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ﴾ فالجمع بين كمال الاستبصار فى مصالح الدنيا والدين لايكاد يتيسر إلا لمن رسخه الله لتدبير عباده فى معاشهم ومعادهم وهم الأنبياء المؤيدون بروح القدس المستمدون من القوة الإلهية التى تتسع لجميع الأمور ولا تضيق عنها . فأما قلوب سائر الخلق فإنها إذا استقلت بأمر الدنيا انصرفت عن الآخرة وقصرت عن الاستكمال فيها .

بيان الفرق بين الإلهام والتعلم ، والفرق بين طريق الصوفية فى استكشاف الحق وطريق النظار

اعلم أن العلوم التى ليست ضرورية ـ وإنما تحصل فى القلب فى بعض الأحوال ـ تختلف الحال فى حصولها فتارة تهجم على القلب كأنه ألقى فيه من حيث لايدرى ، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم . فالذى يحصل لابطريق الاكتساب وحيلة الدليل يسمى إلهاما ، والذى يحصل بالاستدلال يسمى اعتبارا واستبصارا . ثم الواقع فى القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد ينقسم إلى مالايدرى العبد أنه كيف حصل له ومن أين حصل ؟ وإلى مايطلع معه على السبب الذى منه استفاد ذلك العلم وهو مشاهدة الملك الملقى فى القلب . والأول : يسمى إلهاما ونفثا فى الروع والثانى : يسمى وحيا وتختص به الأنبياء . والأول يختص به الأولياء والأصفياء . والذى قبله ـ وهو المكتسب بطريق الاستدلال ـ يختص به العلماء . وحقيقة القول فيه أن القلب مستعد لأن تنجلى فيه حقيقة الحق فى الأشياء كلها ،

(١) حديث « أكثر أهل الجنة البله » أخرجه البزار من حديث أنس وضعفه وصححه القرطبى فى التذكرة وليس كذلك فقد قال ابن عدى انه منكر .

وإنما حيل بينه وبينها بالأسباب الخمسة ـ التي سبق ذكرها ـ فهي كالحجاب المسدل الحائل بين مرآة القلب وبين اللوح المحفوظ الذي هو منقوش بجميع ماقضى الله به إلى يوم القيامة . وتجلى حقائق العلوم من مرآة اللوح فى مرآة القلب يضاهى انطباع صورة من مرآة فى مرآة تقابلها ، والحجاب بين المرآتين تارة يزال باليد وأخرى يزول بهبوب الرياح تحركه . وكذلك قد تهب رياح الألطاف وتنكشف الحجب عن أعين القلوب فينجلى فيها بعض ماهو مسطور فى اللوح المحفوظ ، ويكون ذلك تارة عند المنام فيعلم به ما يكون فى المستقبل . وتمام ارتفاع الحجاب بالموت فبه ينكشف الغطاء ، وينكشف أيضا فى اليقظة حتى يرتفع الحجاب بلطف خفى من الله تعالى ، فيلمع فى القلوب من وراء ستر الغيب شيء من غرائب العلم تارة كالبرق الخاطف ، وأخرى على التوالى إلى حدما . ودوامه فى غاية الندور فلم يفارق الإلهام الاكتساب فى نفس العلم ولا فى محله ولا فى سببه ولكن يفارقه من جهة زوال الحجاب ، فإن ذلك ليس باختيار العبد ولم يفارق الوحى الإلهام فى شيء من ذلك بل فى مشاهدة الملك المفيد للعلم ، فإن العلم إنما يحصل فى قلوبنا بواسطة الملائكة ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه مايشاء ﴾ .

فإذا عرفت هذا فاعلم أن ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية . فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ماصنفه المصنفون والبحث عن الأقاويل والأدلة المذكورة ، بل قالوا الطريق تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولى لقلب عبده والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم ، وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة وأشرق النور فى القلب وانشرح الصدر وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة والتعطش التام والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة .

فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر وفاض على صدورهم النور لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب ، بل بالزهد فى الدنيا والتبرى من علائقها وتفريغ القلب من شواغلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى . فمن كان لله كان الله له . وزعموا أن الطريق فى ذلك أولا بانقطاع علائق الدنيا بالكلية وتفريغ القلب منها وبقطع الهمة عن الأهل والمال والولد والوطن وعن العلم والولاية والجاه بل يصير قلبه إلى حالة يستوى فيها وجود كل شيء وعدمه ، ثم يخلو بنفسه فى زاوية مع الاقتصار على الفرائض والرواتب ، ويجلس فارغ القلب مجموع الهم ، ولا يفرق فكره بقراءة قرآن ولا بالتأمل فى تفسير ولا يكتب حديث ولا غيره ، بل يجتهد أن لا يخطر بباله شيء سوى الله تعالى ، فلا يزال بعد جلوسه فى الخلوة قائلا بلسانه : الله الله على الدوام مع حضور القلب حتى ينتهى إلى حالة يترك تحريك اللسان ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه ، ثم يصبر عليه إلى أن يمحى أثره عن اللسان ويصادف قلبه مواظبا على الذكر ، ثم يواظب عليه إلى أن يمحى عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة ، ويبقى معنى الكلمة مجردا فى قلبه حاضرا فيه كأنه لازم له لايفارقه وله اختيار إلى أن ينتهى إلى هذا الحد واختيار فى استدامة هذه الحالة بدفع الوسواس ، وليس له اختيار فى استجلاب رحمة الله تعالى ، بل هو بما فعله صار متعرضا لنفحات رحمة الله فلايبقى إلا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريق ؛ وعند ذلك إذا صدقت إرادته وصفت همته وحسنت مواظبته فلم تجاذبه شهواته ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا تلمع لوامع الحق فى قلبه ، ويكون فى ابتدائه

كالبرق الخاطف لايثبت ؛ ثم يعود وقد يتأخر ، وإن عاد فقد يثبت وقد يكون مختطفا ؛ وإن ثبت قد يطول ثباته وقد لايطول ، وقد يتظاهر أمثاله على التلاحق وقد يقتصر على فن واحد . ومنازل أولياء الله تعالى فيه لاتحصر كما لايحصى تفاوت خلقهم وأخلاقهم . وقد رجع هذا الطريق إلى تطهـــير محض من جانبك وتصفية وجلاء ، ثم استعداد وانتظار فقط .

وأما النظار وذوو الاعتبار فلم ينكروا وجود هذا الطريق وإمكانه وإفضائه إلى هذا المقصد على الندور فإنه أكثر أحوال الأنبياء والأولياء ، ولكن استوعروا هذا الطريق واستبطؤا ثمرته واستبعدوا استجماع شروطه ، وزعموا أن محو العلائق إلى ذلك الحد كالمتعذر وإن حصل فى حال فثباته أبعد منه ، إذ أدنى وسواس وخاطر يشوش القلب وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن أشد تقلبا من القدر فى غليانها [١] » وقال عليه أفضل الصلاة والسلام « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن [٢] » وفى أثناء هذه المجاهدة قد يفسد المزاج ويختلط العقل ويمرض البدن ، وإذا لم تتقدم رياضة النفس وتهذيبها بحقائق العلوم نشبت بالقلب خيالات فاسدة تطمئن النفس إليها مدة طويلة إلى أن يزول وينقضى العمر قبل النجاح فيها ، فكم من صوفى سلك هذا الطريق ثم بقى فى خيال واحد عشرين سنة ولو كان قد أتقن العلم من قبل لانفتح له وجه التباس ذلك الخيال فى الحال ، فالاشتغال بطريق التعلم أوثق وأقرب إلى الغرض . وزعموا أن ذلك يضاهى ما لوترك الإنسان تعلم الفقه . وزعم أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يتعلم ذلك وصار فقيها بالوحى والإلهام من غير تكرير وتعليق وأنا أيضا ربما انتهت بى الرياضة والمواظبة إليه ومن ظن ذلك فقد ظلم نفسه وضيع عمره ، بل هو كمن يترك طريق الكسب والحراثة رجاء العثور على كنز من الكنوز ، فإن ذلك ممكن ولكنه بعيد جدا ؛ فكذلك هذا . وقالوا : لابد أولا من تحصيل ماحصله العلماء وفهم ماقالوه ثم لابأس بعد ذلك بالانتظار لما لم ينكشف لسائر العلماء فعساه ينكشف بعد ذلك بالمجاهدة .

بيان الفرق بين المقامين بمثال محسوس

اعلم أن عجائب القلب خارجة عن مدركات الحواس ، لأن القلب أيضا خارج عن إدراك الحس ومالبس مدركا بالحواس تضعف الأفهام عن دركه إلا بمثال محسوس . ونحن نقرب ذلك إلى الأفهام الضعيفة بمثالين :

أحدهما : أنه لوفرضنا حوضا محفورا فى الأرض احتمل أن يساق الماء من فوقه بأنهار تفتح فيه ، ويحتمل أن يحفر أسفل الحوض ويرفع منه التراب إلى أن يقرب من مستقر الماء الصافى ، فينفجر الماء من أسفل الحوض ويكون ذلك الماء أصفى وأدوم وقد يكون أغزر وأكثر . فذلك القلب مثل الحوض ، والعلم مثل الماء ، وتكون الحواس الخمس مثال الأنهار . وقد يمكن أن تساق العلوم إلى القلب بواسطة أنهار الحواس والاعتبار بالمشاهدات حتى يمتلئ علما ، ويمكن أن تسد هذه الأنهار بالخلوة والعزلة وغض البصر ويعمد إلى عمق القلب بتطهيره ورفع طبقات الحجب عنه حتى تنفجر ينابيع العلم من داخله .

« فإن قلت : فكيف يتفجر العلم من ذات القلب وهو خال عنه ؟ فاعلم أن هذا من عجائب أسرار القلب ولا يسمح بذكره فى علم المعاملة بل القدر الذى يمكن ذكره أن حقائق الأشياء مسطورة فى اللوح المحفوظ بل فى قلوب الملائكة المقربين . فكما أن المهندس يصور أبنية الدار فى بياض ثم يخرجها إلى الوجود على وفق تلك النسخة فكذلك فاطر

(١) حديث « قلب المؤمن أشد تقلبا من القدر فى غليانها » أخرجه أحمد والحاكم وصححه من حديث المقداد بن الأسود .
(٢) حديث « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو .

السموات والأرض كتب نسخة العالم من أوله إلى آخره فى اللوح المحفوظ ثم أخرجه إلى الوجود على وفق تلك النسخة ، والعالم الذى خرج إلى الوجود بصورته تتأدى منه صورة أخرى إلى الحس والخيال ، فإن من ينظر إلى السماء والأرض ثم يغض بصره يرى صورة السماء والأرض فى خياله حتى كأنه ينظر إليها ، ولو انعدمت السماء والأرض وبقى هو فى نفسه لوجد صورة السماء والأرض فى نفسه كأنه يشاهدهما وينظر إليهما ، ثم يتأدى من خياله أثر إلى القلب فيحصل فيه حقائق الأشياء التى دخلت فى الحس والخيال . والحاصل فى القلب موافق للعالم الحاصل فى الخيال والحاصل فى الخيال موافق للعالم الموجود فى نفسه خارجا من خيال الإنسان وقلبه . والعالم الموجود موافق للنسخة الموجودة فى اللوح المحفوظ .

فكأن للعالم أربع درجات فى الوجود : وجود فى اللوح المحفوظ وهو سابق على وجوده الجسمانى ، ويتبعه وجوده الحقيقى ، ويتبع وجوده الحقيقى وجوده الخيالى - أعنى وجود صورته فى الخيال - ويتبع وجوده الخيالى وجوده العقلى - أعنى وجود صورته فى القلب -

وبعض هذه الوجودات روحانية وبعضها جسمانية . والروحانية بعضها أشد روحانية من البعض ؛ وهذا اللطف من الحكمة الإلهية ، إذ جعل حدقتك على صغر حجمها بحيث تنطبع صورة العالم والسموات والأرض على اتساع أكنافها فيها ، ثم يسرى من وجودها فى الحس وجود إلى الخيال ، ثم منه وجود فى القلب فإنك أبدا لا تدرك إلا ماهو واصل إليك ، فلو لم يجعل للعالم كله مثالا فى ذاتك لما كان لك خبر مما يباين ذاتك ، فسبحان من دبر هذه العجائب فى القلوب والأبصار ثم أعمى عن دركها القلوب والأبصار ، حتى صارت قلوب أكثر الخلق جاهلة بأنفسها وبعجائبها .

ولنرجع إلى الغرض المقصود فنقول : القلب قد يتصور أن يحصل فيه حقيقة العالم وصورته تارة من الحواس وتارة من اللوح المحفوظ ، كما أن العين يتصور أن يحصل فيها صورة الشمس تارة من النظر إليها وتارة من النظر إلى الماء الذى يقابل الشمس ويحكى صورتها . فمهما ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ رأى الأشياء فيه وتفجر إليه العلم منه فاستغنى عن الاقتباس من داخل الحواس ، فيكون ذلك كتفجر الماء من عمق الأرض . ومهما أقبل على الخيالات الحاصلة من المحسوسات كان ذلك حجابا له عن مطالعة اللوح المحفوظ كما أن الماء إذا اجتمع فى الأنهار منع ذلك من التفجر فى الأرض ، وكما أن من نظر إلى الماء الذى يحكى صورة الشمس لا يكون ناظرا إلى نفس الشمس ؛ فإذن للقلب بابان : باب مفتوح إلى عالم الملكوت وهو اللوح المحفوظ وعالم الملائكة ، وباب مفتوح إلى الحواس الخمس المتمسكة بعالم الملك والشهادة . وعالم الشهادة والملك أيضا يحاكى عالم الملكوت نوعا من المحاكاة . فأما انفتاح باب القلب إلى الاقتباس من الحواس فلا يخفى عليك . وأما انفتاح بابه الداخل إلى عالم الملكوت ومطالعة اللوح المحفوظ فتعلمه علما يقينيا بالتأمل فى عجائب الرؤيا واطلاع القلب فى النوم على ماسيكون فى المستقبل أو كان فى الماضى من غير اقتباس من جهة الحواس . وإنما ينفتح ذلك الباب لمن انفرد بذكر الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم « سبق المفردون » قيل ومن هم المفردون يارسول الله ؟ قال « المتنزهون بذكر الله تعالى وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافا » ثم قال فى وصفهم إخبارا عن الله تعالى فقال « ثم أقبل بوجهى عليهم أترى من واجهته بوجهى يعلم أحد أى شىء أريد أن أعطيه ؟ ثم قال تعالى : أول ما أعطيهم أن أقذف النور فى قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبر عنهم [1] » ومدخل

---

(١) حديث « سبق المفردون » قيل ومن هم ؟ قال « المستهترون بذكر الله ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة مقتصرا على أول الحديث وقال فيه : وما المفردون ؟ قال « الذاكرون الله كثيرا والذاكرات » ورواه الحاكم بلفظ « قال الذين =

هذه الأخبار هو الباب الباطن فإذا الفرق بين علوم الأولياء والأنبياء وبين علوم العلماء والحكماء هذا وهو أن علومهم تأتى من داخل القلب من الباب المنفتح إلى عالم الملكوت ، وعلم الحكمة يتأتى من أبواب الحواس المفتوحة إلى عالم الملك ، وعجائب عالم القلب وتردده بين عالمى الشهادة والغيب لا يمكن أن يستقصى فى علم المعاملة . فهذا مثال يعلمك الفرق بين مدخل العالمين

المثال الثانى يعرفك الفرق بين العملين ، أعنى عمل العلماء وعمل الأولياء : فإن العلماء يعملون فى اكتساب نفس العلوم واجتلابها إلى القلب ، وأولياء الصوفية يعملون فى جلاء القلوب وتطهيرها وتصفيتها وتصقيلها فقط ، فقد حكى أن أهل الصين وأهل الروم تباهوا بين يدى بعض الملوك بحسن صناعة النقش والصور فاستقر رأى الملك على أن يسلم إليهم صفة لينقش أهل الصين منها جانبا وأهل الروم جانبا ويرخى بينهما حجاب يمنع اطلاع كل فريق على الآخر ففعل ذلك ، فجمع أهل الروم من الأصباغ الغريبة مالا ينحصر ودخل أهل الصين من غير صبغ وأقبلوا يجلون جانبهم ويصقلونه و فلما فرغ أهل الروم ادعى أهل الصين أنهم قد فرغوا أيضا فعجب الملك من قولهم وأنهم كيف فرغوا من النقش من غير صبغ ؟ فقيل : وكيف فرغتم من غير صبغ ! فقالوا : ما عليكم ارفعوا الحجاب ، فرفعوا وإذا بجانبهم يتلألأ منه عجائب الصنائع الرومية مع زيادة إشراق وبريق ، إذ كان قد صار كالمرآة المجلوة لكثرة التصقيل فازداد حسن جانبهم بمزيد التصقيل ؛ فكذلك عناية الأولياء بتطهير القلب وجلائه وتزكيته وصفائه حتى يتلألأ فيه جلية الحق بنهاية الإشراق كفعل أهل الصين ، وعناية الحكماء والعلماء بالاكتساب ونقش العلوم وتحصيل نقشها فى القلب كفعل أهل الروم ، فكيفما كان الأمر فقلب المؤمن لا يموت وعلمه عند الموت لا يمحى وصفاؤه لا يتكدر وإليه أشار الحسن رحمة الله عليه بقوله : التراب لا يأكل محل الإيمان بل يكون وسيلة وقربة إلى الله تعالى .

وأما ما حصله من نفس العلم وما حصله من الصفاء والاستعداد لقبول نفس العلم فلا غنى به عنه ولا سعادة لأحد إلا بالعلم والمعرفة ، وبعض السعادات أشرف من بعض كما أنه لا غنى إلا بالمال . فصاحب الدرهم غنى وصاحب الخزائن المترعة غنى ، وتفاوت درجات السعداء بحسب تفاوت المعرفة والإيمان كما تتفاوت درجات الأغنياء بحسب قلة المال وكثرته ، فالمعارف أنوار ولا يسعى المؤمنون إلى لقاء الله تعالى إلا بأنوارهم قال الله تعالى ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ﴾ وقد روى فى الخبر « إن بعضهم يعطى نورا مثل الجبل وبعضهم أصغر حتى يكون آخرهم رجلا يعطى نورا على إبهام قدميه فيضىء مرة وينطفى أخرى فإذا أضاء قدم قدميه فمشى وإذا طفى قام ، ومرورهم على الصراط على قدر نورهم فمنهم من يمر كطرف العين ومنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالسحاب ومنهم من يمر كانقضاض الكواكب ومنهم من يمر كالفرس إذا اشتد فى ميدانه ، والذى أعطى نورا على إبهام قدمه يحبو حبوا على وجهه ويديه ورجليه يجر يدا ويعلق أخرى ويصيب جوانبه النار فلا يزال كذلك حتى يخلص (١) » الحديث فبهذا يظهر تفاوت الناس فى الإيمان ولو وزن إيمان أبى بكر بإيمان العالمين سوى النبيين والمرسلين لرجح . فهذا أيضا يضاهى قول القائل : لو وزن نور الشمس بنور السرج كلها لرجح ؛ فإنما آحاد العوام نوره مثل نور السراج وبعضهم نوره كنور الشمع ، وإيمان الصديقين نوره كنور القمر والنجوم . وإيمان الأنبياء كالشمس . وكما ينكشف فى نور الشمس صورة الآفاق مع

= يستهترون بذكر الله » وقال صحيح على شرط الشيخين وزاد فيه البيهقى فى الشعب « يضع الذكر عنهم أثقالهم ويأتون يوم القيامة خفافا » ورواه هكذا الطبرانى فى المعجم الكبير من حديث أبى الدرداء دون الزيادة التى ذكرها المصنف فى آخره وكلاهما ضعيف .

(١) حديث « ان بعضهم يعطى نورا مثل الجبل حتى يكون أصغرهم رجل يعطى نوره على ابهام قدمه ... الحديث » أخرجه الطبرانى والحاكم من حديث ابن مسعود قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين .

اتساع اقطارها ولاينكشف فى نور السراج إلا زواية ضيقه من البيت فكذلك تفاوت انشراح الصدر بالمعارف وانكشاف سعة الملكوت لقلوب العارفين . ولذلك جاء فى الخبر « أنه يقال يوم القيامة أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ، ونصف مثقال وربع مثقال وشعيرة وذرة [١] » كل ذلك تنبيه على تفاوت درجات الإيمان وأن هذه المقادير من الإيمان لاتمنع دخول النار ، وفى مفهومه أن من إيمانه يزيد على مثقال فإنه لايدخل النار ، إذ لو دخل لأمر بإخراجه أولا وأن من فى قلبه مثقال ذرة لايستحق الخلود فى النار وإن دخلها . وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « ليس شيء خيرا من ألف مثله إلا الإنسان المؤمن [٢] » إشارة إلى تفضيل قلب العارف بالله تعالى الموقن فإنه خير من ألف قلب من العوام . وقد قال تعالى ﴿ وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ تفضيلا للمؤمنين على المسلمين والمراد به المؤمن العارف دون المقلد . وقال عز وجل ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ فأراد ههنا بالذين آمنوا الذين صدقوا من غير علم وميزهم عن الذين أوتوا العلم . ويدل ذلك على أن اسم المؤمن يقع على المقلد وإن لم يكن تصديقه عن بصيرة وكشف .

وفسر ابن عباس رضى الله عنهما قوله تعالى ﴿ والذين أوتوا العلم درجات ﴾ فقال يرفع الله العالم فوق المؤمن بسبعمائة درجة بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، وقال صلى الله عليه وسلم « أكثر أهل الجنة البله وعليون لذوى الألباب [٣] » وقال صلى الله عليه وسلم « فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى [٤] » وفى رواية « كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » فبهذه الشواهد يتضح لك تفاوت درجات أهل الجنة بحسب تفاوت قلوبهم ومعارفهم ، ولهذا كان يوم القيامة يوم التغابن إذ المحروم من رحمة الله عظيم الغبن والخسران ، والمحروم يرى فوق درجته درجات عظيمة فيكون نظره إليها كنظر الغنى الذى يملك عشرة دراهم إلى الغنى الذى يملك الأرض من المشرق إلى المغرب وكل واحد منهما غنى ولكن ما أعظم الفرق بينهما وما أعظم الغبن على من يخسر حظه من ذلك ﴿ وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴾ .

بيان شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف فى اكتساب المعرفة لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد

اعلم أن من انكشف له شيء ولو الشيء اليسير بطريق الإلهام والوقوع فى القلب من حيث لايدرى فقد صار عارفا بصحة الطريق ، ومن لم يدرك ذلك من نفسه قط فينبغى أن يؤمن به ، فإن درجة المعرفة فيه عزيزة جدا ، ويشهد لذلك شواهد الشرع والتجارب والحكايات :

أما الشواهد : فقوله تعالى ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ فكل حكمة تظهر من القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلم فهو بطريق الكشف والإلهام . وقال صلى الله عليه وسلم « من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم ووفقه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة ومن لم يعمل بما يعلم تاه فيما يعلم ولم يوفق فيما يعمل حتى يستوجب النار [٥] » وقال الله تعالى ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ﴾ من الإشكالات والشبه ﴿ ويرزقه من حيث لايحتسب ﴾ يعلمه

---

(١) حديث « يقال يوم القيامة أخرجوا من النار من فى قلبه ربع مثقال من إيمان ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى سعيد وليس فيه قوله « ربع مثقال » . (٢) حديث « ليس شيء خيرا من ألف مثله إلا الإنسان أو المؤمن » أخرجه الطبرانى من حديث سلمان بلفظ « الإنسان » ولأحمد من حديث ابن عمر « لانعلم شيئا خيرا من مائة مثله إلا الرجل المؤمن » وإسنادهما حسن (٣) حديث « أكثر أهل الجنة البله وعليون لذوى الألباب » تقدم دون هذه الزيادة ولم أجد لهذه الزيادة أصلا (٤) حديث « فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى » أخرجه الترمذى من حديث أبى أمامة وصححه وقد تقدم فى العلم وكذلك الرواية الثانية . (٥) حديث « من عمل بما علم ... الحديث » تقدم فى العلم دون قوله « ووفقه فيما يعمل » فلم أرها .

علما من غير تعلم ويفطنه من غير تجربة . وقال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ﴾ قيل نورا يفرق به بين الحق والباطل ويخرج به من الشبهات ، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يكثر فى دعائه من سؤال النور فقال عليه الصلاة السلام « اللهم أعطنى نورا وزدنى نورا واجعل لى فى قلبى نورا وفى قبرى نورا وفى سمعى نورا وفى بصرى نورا حتى قال فى شعرى وفى بشرى وفى لحمى ودمى وعظامى »[1] ، وسئل صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ ماهذا الشرح ؟ فقال « هو التوسعة إن النور إذا قذف به فى القلب اتسع له الصدر وانشرح »[2] ، وقال صلى الله عليه وسلم لابن عباس « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل »[3] ، وقال على رضى الله عنه : ماعندنا شىء أسره النبى صلى الله عليه وسلم إلينا إلا أن يؤتى الله تعالى عبدا فهما فى كتابه وليس هذا بالتعلم[4] ؟ وقيل فى تفسير قوله تعالى ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ﴾ إنه الفهم فى كتاب الله وقال تعالى ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ خص ما انكشف باسم الفهم . وكان أبو الدرداء يقول : المؤمن من ينظر بنور الله من وراء ستر رقيق والله إنه للحق يقذفه الله فى قلوبهم ويجريه على ألسنتهم . وقال بعض السلف : ظن المؤمن كهانة .

وقال صلى الله عليه وسلم « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى »[5] ، وإليه يشير قوله تعالى ﴿ إن فى ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ وقوله تعالى ﴿ قد بينا الآيات لقوم يوقنون ﴾ وروى الحسن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « العلم علمان فعلم باطن فى القلب فذلك هو العلم النافع »[6] ، وسئل بعض العلماء عن العلم الباطن ما هو ؟ فقال : هو سر من أسرار الله تعالى يقذفه الله تعالى فى قلوب أحبابه لم يطلع عليه ملكا ولا بشرا . وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن من أمتى محدثين ومعلمين ومكلمين وإن عمر منهم »[7] ، وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى ولا محدث ﴾ يعنى الصديقين والمحدث هو الملهم ، والملهم هو الذى انكشف له فى باطن قلبه من جهة الداخل لا من جهة المحسوسات الخارجة .

والقرآن مصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف : وذلك علم من غير تعلم . وقال الله تعالى ﴿ وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون ﴾ خصصها بهم وقال تعالى ﴿ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾ وكان أبو يزيد وغيره يقول : ليس العالم الذى يحفظ من كتاب فإذا نسى ما حفظه صار جاهلا ، إنما العالم الذى يأخذ علمه من ربه أى وقت شاء ؟ بلا حفظ ولا درس . وهذا هو العلم الربانى وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وعلمناه من لدنا علما ﴾ مع أن كل علم من لدنه ولكن بعضها بوسائط تعليم الخلق فلا يسمى ذلك علما لدنيا بل اللدنى الذى ينفتح فى سر القلب من غير سبب مألوف من خارج فهذه شواهد النقل ولو جمع كل ماورد فيه من الآيات والأخبار والآثار لخرج عن الحصر .

وأما مشاهدة ذلك بالتجارب فذلك أيضا خارج عن الحصر وظهر ذلك على الصحابة والتابعين ومن بعدهم . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه لعائشة رضى الله عنها عند موته : إنما هما أخواك وأختاك ، وكانت زوجته

---

(١) حديث « اللهم اعطنى نورا وزدنى نورا ... الحديث متفق عليه من حديث ابن عباس .

(٢) حديث : سئل عن قوله تعالى أفمن شرح الله صدره للاسلام ... الحديث . وفى المستدرك من حديث ابن مسعود وقد تقدم فى العلم . (٣) حديث « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » قاله لابن عباس متفق عليه من حديث ابن عباس دون قوله « وعلمه التأويل » فأخرجه بهذه الزيادة أحمد وابن حبان والحاكم وصححه وقد تقدم فى العلم . (٤) حديث على : ماعندنا شىء أسره إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن يؤتى الله عبدا فهما فى كتابه . تقدم فى آداب تلاوة القرآن . (٥) حديث « اتقوا فراسة المؤمن ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد وقد تقدم . (٦) حديث « العلم علمان ... الحديث » تقدم فى العلم . (٧) حديث « ان من أمتى محدثين ومكلمين وان عمر منهم » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة « لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون فإن يك فى أمتى أحد فإنه عمر » ورواه مسلم من حديث عائشة .

حاملا فولدت بنتا فكان قد عرف قبل الولادة أنها بنت . وقال عمر رضى الله عنه فى أثناء خطبته : ياسارية الجبل الجبل ؛ إذ انكشف له أن العدو قد أشرف عليه لحذره لمعرفته ذلك ، ثم بلوغ صوته إليه من جملة الكرامات العظيمة وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : دخلت على عثمان رضى الله عنه وكنت قد لقيت امرأة فى طريق فنظرت إليها شزرا وتأملت محاسنها فقال عثمان رضى الله عنه لما دخلت : يدخل على أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينيه أما علمت أن زنا العينين النظر ؟ لتتوبن أو لأعزرنك فقلت : أوحى بعد النبي ؟ فقال . لا ، ولكن بصيرة وبرهان وفراسة صادقة . وعن أبى سعيد الخراز قال : دخلت المسجد الحرام فرأيت فقيرا عليه خرقتان ، فقلت فى نفسى : هذا وأشباهه كل على الناس ، فنادانى وقال ﴿ والله يعلم مافى أنفسكم فاحذروه ﴾ فاستغفرت الله فى سرى فنادانى وقال ﴿ وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ﴾ ثم غاب عنى ولم أره .

وقال زكريا بن داود : دخل أبو العباس بن مسروق على أبى الفضل الهاشمى ـ وهو عليل وكان ذا عيال ولم يعرف له سبب يعيش به ـ قال : فلما قمت قلت فى نفسى من أين يأكل هذا الرجل ؟ قال : فصاح بى يا أبا العباس رد هذه الهمة الدنية فإن لله تعالى ألطافا خفية . وقال أحمد النقيب . دخلت على الشبلى فقال مفتونا : يا أحمد فقلت : ما الخبر؟ قال : كنت جالسا فجرى بخاطرى أنك بخيل ، فقلت : ما أنا بخيل ، فعاد منى خاطرى وقال : بل أنت بخيل ، فقلت: ما فتح اليوم على بشيء إلا دفعته إلى أول فقير يلقانى ، قال : فما استتم الخاطر حتى دخل على صاحب لمؤنس الخادم ومعه خمسون دينارا فقال : اجعلها فى مصالحك ، قال : وقمت فأخذتها وخرجت وإذا بفقير مكفوف بين يدى مزين يحلق رأسه فتقدمت إليه وناولته الدنانير ، فقال : أعطها المزين ، فقلت : إن جملتها كذا وكذا ، قال : أوليس قد قلنا لك إنك بخيل ؟ قال : فناولتها المزين فقال المزين : قد عقدنا لما جلس هذا الفقير بين أيدينا أن لا نأخذ عليه أجرا ، قال: فرميت بها فى دجلة وقلت : ما أعزك أحد إلا أذله الله عز وجل . وقال حمزة بن عبد الله العلوى : دخلت على أبى الخير التينانى واعتقدت فى نفسى أن أسلم عليه ولا آكل فى داره طعاما ، فلما خرجت من عنده إذا به قد لحقنى وقد حمل طبقا فيه طعام وقال : يافتى كل فقد خرجت الساعة من اعتقادك ، وكان أبو الخير التينانى هذا مشهورا بالكرامات وقال إبراهيم الرقى : قصدته مسلما عليه فحضرت صلاة المغرب فلم يكد يقرأ الفاتحة مستويا فقلت فى نفسى : ضاعت سفرتى ! فلما سلم خرجت إلى الطهارة فقصدنى سبع فعدت إلى أبى الخير وقلت : قصدنى سبع ، فخرج وصاح به وقال : ألم أقل لك لا تتعرض لضيفانى ؟ فتنحى الأسد فتطهرت فلما رجعت قال لى : اشتغلتم بتقويم الظاهر فخفتم الأسد ، واشتغلنا بتقويم البواطن فخافنا الأسد .

وما حكى من تفرس المشايخ وإخبارهم عن اعتقادات الناس وضمائرهم يخرج عن الحصر بل ما حكى عنهم من مشاهدة الخضر عليه السلام والسؤال منه ، ومن سماع صوت الهاتف ، ومن فنون الكرامات خارج عن الحصر والحكاية لا تنفع الجاحد مالم يشاهد ذلك من نفسه ، ومن أنكر الأصل أنكر التفصيل والدليل القاطع الذى لا يقدر أحد على جحده أمران أحدهما : عجائب الرؤيا الصادقة فإنه ينكشف بها الغيب وإذا جاز ذلك فى النوم فلا يستحيل أيضا فى اليقظة فلم يفارق النوم اليقظة إلا فى ركود الحواس وعدم اشتغالها بالمحسوسات فكم من مستيقظ غائص لا يسمع ولا يبصر لاشتغاله بنفسه ! والثانى : إخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيب وأمور فى المستقبل كما اشتمل عليه القرآن وإذا جاز ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم جاز لغيره إذ النبي عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور وشغل بإصلاح الخلق فلا يستحيل أن يكون فى الوجود شخص مكاشف بالحقائق ولا يشتغل بإصلاح الخلق ، وهذا

لايسمى نبيا بل يسمى وليا ، فمن آمن بالأنبياء وصدق بالرؤيا الصحيحة لزمه لامحالة أن يقر بأن القلب له بابان : باب إلى خارج وهو الحواس ، وباب إلى الملكوت من داخل القلب وهو باب الإلهام والنفث فى الروع والوحى ، فإذا أقربهما جميعا لم يمكنه أن يحصر العلوم فى التعلم ومباشرة الأسباب المألوفة ، بل يجوز أن تكون المجاهدة سبيل إليه فهذا ماينبه على حقيقة ماذكرناه من عجيب تردد القلب بين عالم الشهادة وعالم الملكوت . وأما السبب فى انكشاف الأمر فى المنام بالمثال المحوج إلى التعبير وكذلك تمثل الملائكة للأنبياء والأولياء بصور مختلفة فذلك أيضا من أسرار عجائب القلب ، ولا يليق ذلك إلا بعلم المكاشفة فلنقتصر على ماذكرناه فإنه كاف للاستحثاث على المجاهدة وطلب الكشف منها . فقد قال بعض المكاشفين ظهر لى الملك فسألنى أملى عليه شيئا من ذكرى الخفى عن مشاهدتى من التوحيد وقال : مانكتب لك عملا ونحن نحب أن نصعد لك بعمل تتقرب به إلى الله عز وجل فقلت : ألستما تكتبان الفرائض ؟ قالا : بلى ، قلت : فيكفيكما ذلك . وهذه إشارة إلى أن الكرام الكاتبين لايطلعون على أسرار القلب وإنما يطلعون على الأعمال الظاهرة . وقال بعض العارفين : سألت بعض الأبدال عن مسألة من مشاهدة اليقين فالتفت إلى شماله فقال : ماتقول رحمك الله ؟ ثم التفت إلى يمينه فقال : ماتقول رحمك الله ؟ ثم أطرق إلى صدره وقال : ماتقول رحمك الله ؟ ثم أجاب بأغرب جواب سمعته فسألته عن التفاته فقال : لم يكن عندى فى المسألة جواب عتيد، فسألت صاحب الشمال فقال لا أدرى ! فسألت صاحب اليمين وهو أعلم منه فقال لا أدرى ، فنظرت إلى قلبى وسألته لحدثنى بما أجبتك فإذا هو أعلم منهما . وكأن هذا هو معنى قوله عليه السلام « إن فى أمتى محدثين وإن عمر منهم ».

وفى الأثر : إن الله تعالى يقول : أيما عبد اطلعت على قلبه فرأيت الغالب عليه التمسك بذكرى توليت سياسته وكنت جليسه ومحادثه وأنيسه . وقال أبو سليمان الدارانى رحمة الله عليه : القلب بمنزلة القبة المضروبة حولها أبواب مغلقة فأى باب فتح له عمل فيه ؟ فقد ظهر انفتاح باب من أبواب القلب إلى جهة الملكوت والملأ الأعلى ، وينفتح ذلك الباب بالمجاهدة والورع والإعراض عن شهوات الدنيا . ولذلك كتب عمر رضى الله عنه إلى أمراء الأجناد : احفظوا ماتسمعون من المطيعين فإنهم ينجلى لهم أمور صادقة . وقال بعض العلماء : يد الله على أفواه الحكماء لاينطقون إلا بما هيأ الله لهم من الحق . وقال آخر : لو شئت لقلت إن الله تعالى يطلع الخاشعين على بعض سره .

بيان تسلط الشيطان على القلب بالوساوس ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها

اعلم أن القلب كما ذكرناه مثال قبة مضروبة لها أبواب تنصب إليه الأحوال من كل باب ، ومثاله أيضا مثال هدف تنصب إليه السهام من الجوانب ، أو هو مثال مرآة منصوبة تجتاز عليها أصناف الصور المختلفة فتتراءى فيها صورة بعد صورة ولاتخلو عنها ، أو مثال حوض تنصب فيه مياه مختلفة من أنهار مفتوحة إليه . وإنما مداخل هذه الآثار المتجددة فى القلب فى كل حال ؛ أما من الظاهر فالحواس الخمس ، وأما من الباطن فالخيال والشهوة والغضب والأخلاق المركبة من مزاج الإنسان ؛ فإنه إذا أدرك بالحواس شيئا حصل منه أثر فى القلب ، وكذلك إذا هاجت الشهوة مثلا بسبب كثرة الأكل وبسبب قوة فى المزاج حصل منها فى القلب أثر وإن كف عن الإحساس فالخيالات الحاصلة فى النفس تبقى وينتقل الخيال من شىء إلى شىء ، وبحسب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال إلى حال آخر. والمقصود أن القلب فى التغير والتأثر دائما من هذه الأسباب . وأخص الآثار الحاصلة فى القلب هو الخواطر ؛ وأعنى بالخواطر مايحصل فيه من الأفكار ، والأذكار ، وأعنى به إدراكاته علوما إما على سبيل التجدد وإما على سبيل التذكر فإنها تسمى خواطر من حيث إنها تخطر بعد أن كان القلب غافلا عنها . والخواطر هى المحركات للإرادات

فإن النية والعزم والإرادة إنما تكون بعد خطور المنوى بالبال لامحالة ، فمبدأ الأفعال الخواطر ، ثم الخاطر يحرك الرغبة ، والرغبة تحرك العزم ، والعزم يحرك النية ، والنية تحرك الأعضاء . والخواطر المحركة للرغبة تنقسم إلى مايدعو إلى الشر أعنى إلى مايضر فى العاقبة ، وإلى مايدعو إلى الخير أعنى إلى ماينفع فى الدار الآخرة . فهما خاطران مختلفان فافتقرا إلى اسمين مختلفين ، فالخاطر المحمود يسمى إلهاما ، والخاطر المذموم أعنى الداعى إلى الشر يسمى وسواسا ، ثم إنك تعلم أن هذه الخواطر حادثة ، ثم إن كل حادث فلا بد له من محدث . ومهما اختلفت الحوادث دل ذلك على اختلاف الأسباب هذا ماعرف من سنة الله تعالى فى ترتيب المسببات على الأسباب . فمهما استنارت حيطان البيت بنور النار وأظلم سقفه واسود بالدخان علمت أن سبب السواد غير سبب الاستنارة .

وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان : فسبب الخاطر الداعى إلى الخير يسمى ملكا ، وسبب الخاطر الداعى إلى الشر يسمى شيطانا ، واللطف الذى يتهيأ به القلب لقبول إلهام الخير يسمى توفيقا ، والذى به يتهيأ لقبول وسواس الشيطان يسمى إغواء وخذلانا ، فإن المعانى المختلفة تفتقر إلى أسامى مختلفة والملك عبارة عن خلق خلقه الله تعالى شأنه إفاضة الخير وإفادة العلم وكشف الحق والوعد بالخير والأمر بالمعروف ، وقد خلقه وسخره لذلك والشيطان عبارة عن خلق شأنه ضد ذلك وهو الوعد بالشر والأمر بالفحشاء ، والتخويف عند الهم بالخير بالفقر . فالوسوسة فى مقابلة الإلهام ، والشيطان فى مقابلة الملك ، والتوفيق فى مقابلة الخذلان . وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ ومن كل شىء خلقنا زوجين ﴾ فإن الموجودات كلها متقابلة مزدوجة إلا الله تعالى فإنه فرد لامقابل له بل هو الواحد الحق الخالق للأزواج كلها . فالقلب متجاذب بين الشيطان والملك . وقد قال صلى الله عليه وسلم « فى القلب لمتان لمة من الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه وليحمد الله ، ولمة من العدو إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهى عن الخير فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم - ثم تلا قوله تعالى ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ﴾ [1] الآية » . وقال الحسن إنما هما همان يجولان فى القلب هم من الله تعالى وهم من العدو ، فرحم الله عبدا وقف عند همه فما كان من الله تعالى أمضاه وما كان من عدوه جاهده .

ولتجاذب القلب بين هذين المسلطين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن [2] » فالله يتعالى عن أن يكون له أصبع مركبة من لحم ودم وعصب منقسمة بالأنامل ولكن روح الأصبع سرعة التقليب والقدرة على التحريك والتغيير ، فإنك لاتريد أصبعك لشخصه بل لفعله فى التقليب والترديد كما أنك تتعاطى الأفعال بأصابعك . والله تعالى يفعل مايفعل باستسخار الملك والشيطان وهما مسخران بقدرته فى تقليب القلوب ، كما أن أصابعك مسخرة لك فى تقليب الأجسام مثلا . والقلب بأصل الفطرة صالح لقبول آثار الملك ولقبول آثار الشيطان صلاحا متساويا ليس يترجح أحدهما على الآخر ، وإنما يترجح أحد الجانبين باتباع الهوى والإكباب على الشهوات أو الإعراض عنها ومخالفتها ، فإن اتبع الإنسان مقتضى الغضب والشهوة ظهر تسلط الشيطان بواسطة الهوى وصار القلب عش الشيطان ومعدنه لأن الهوى هو مرعى الشيطان ومرتعه ، وإن جاهد الشهوات ولم يسلطها على نفسه وتشبه بأخلاق الملائكة عليهم السلام صار قلبه مستقر الملائكة ومهبطهم ولما كان لايخلو قلب عن شهوة وغضب وحرص وطمع وطول أمل إلى غير ذلك من صفات البشرية المتشعبة عن الهوى لاجرم لم يخل قلب عن أن يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « مامنكم

---

(١) حديث « فى القلب لمتان لمة من الملك إيعاد بالخير ... الحديث » أخرجه الترمذى وحسنه والنسائى فى الكبرى من حديث ابن مسعود (٢) حديث « قلب المؤمن بين أصبعين ... الحديث » تقدم

من أحد إلا وله شيطان » قالوا وأنت يارسول الله ؟ قال « وأنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمر إلا بخير [١] » وإنما كان هذا لأن الشيطان لايتصرف إلا بواسطة الشهوة فمن أعانه الله على شهوته حتى صارت لاتنبسط إلا حيث ينبغي وإلى الحد الذي ينبغي فشهوته لاتدعو إلى الشر فالشيطان المتدرع بها لايأمر إلا بالخير . ومهما غلب على القلب ذكر الدنيا بمقتضيات الهوى وجد الشيطان مجالا فوسوس . ومهما انصرف القلب إلى ذكر الله تعالى ارتحل الشيطان وضاق مجاله وأقبل الملك وألهم . والتطارد بين جندي الملائكة والشياطين في معركة القلب دائم إلى أن ينفتح القلب لأحدهما فيستوطن ويستمكن ، ويكون اجتياز الثاني اختلاسا . وأكثر القلوب قد فتحتها جنود الشياطين وتملكتها فامتلأت بالوساوس الداعية إلى إيثار العاجلة واطراح الآخرة . ومبدأ استيلائها اتباع الشهوات والهوى . ولايمكن فتحها بعد ذلك إلا بتخلية القلب عن قوت الشيطان وهو الهوى والشهوات وعمارته بذكر الله تعالى الذي هو مطرح أثر الملائكة . وقال جابر بن عبيدة العدوي : شكوت إلى العلاء بن زياد ماأجد في صدري من الوسوسة فقال : إنما مثل ذلك مثل البيت الذي يمر به اللصوص فإن كان فيه شيء عالجوه وإلا مضوا وتركوه . يعني أن القلب الخالي عن الهوى لايدخله الشيطان . ولذلك قال الله تعالى ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ فكل من اتبع الهوى فهو عبد الهوى لاعبد الله ولذلك سلط الله عليه الشيطان . وقال تعالى ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ وهو إشارة إلى أن من الهوى إلهه ومعبوده فهو عبد الهوى لاعبد الله . ولذلك قال عمرو ابن العاص للنبي صلى الله عليه وسلم : يارسول الله حال الشيطان بيني وبين صلاتي وقراءتي فقال « ذلك شيطان يقال له خنزب فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل على يسارك ثلاثا » قال : ففعلت ذلك فأذهبه الله عني [٢] .

وفي الخبر « إن للوضوء شيطانا يقال له الولهان فاستعيذوا بالله منه [٣] » ولايمحو وسوسة الشيطان من القلب إلا ذكر ماسوى مايوسوس به ، لأنه إذا خطر في القلب ذكر شيء انعدم منه ماكان فيه من قبل ، ولكن كل شيء سوى الله تعالى وسوى مايتعلق به فيجوز أيضاً أن يكون مجالا للشيطان ، وذكر الله هو الذي يؤمن جانبه ويعلم أنه ليس للشيطان فيه مجال . ولا يعالج الشيء إلا بضده وضد جميع وساوس الشيطان ذكر الله بالاستعاذة والتبري عن الحول والقوة ، وهو معنى قولك : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ولاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم . وذلك لايقدر عليه إلا المتقون الغالب عليهم ذكر الله تعالى ، وإنما الشيطان يطوف عليهم في أوقات الفلتات على سبيل الخلسة . قال الله تعالى ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ وقال مجاهد في معنى قول الله تعالى ﴿ من شر الوسواس الخناس ﴾ قال : هو منبسط على القلب ؛ فإذا ذكر الله تعالى خنس وانقبض ، وإذا غفل انبسط على قلبه . فالتطارد بين ذكر الله تعالى ووسوسة الشيطان كالتطارد بين النور والظلام وبين الليل والنهار ، ولتضادهما قال الله تعالى ﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله﴾ وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان واضع خرطومه على قلب ابن آدم فإن هو ذكر الله تعالى خنس وإن نسي الله تعالى التقم قلبه [٤] » وقال ابن وضاح في حديث ذكره : إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب ولم يتب مسح الشيطان وجهه بيده

---

(١) حديث « مامنكم من أحد الا وله شيطان ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود .
(٢) حديث ابن أبي العاص : ان الشيطان حال بيني وبين صلاتي ... الحديث . أخرجه مسلم من حديث ابن أبي العاص .
(٣) حديث : ان للوضوء شيطانا يقال له الولهان ... الحديث » أخرجه ابن ماجه والترمذي من حديث أبي بن كعب وقال غريب وليس اسناده بالقوى عند أهل الحديث . (٤) حديث أنس « ان الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب مكايد الشيطان وأبو يعلى الموصلي وابن عدى في الكامل وضعفه .

وقال : بأبى وجه من لا يفلح [١] .

وكما أنّ الشهوات ممتزجة بلحم ابن آدم ودمه فسلطنة الشيطان أيضا سارية فى لحمه ودمه ومحيطة بالقلب من جوانبه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إنّ الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع [٢] » . وذلك لأنّ الجوع يكسر الشهوة ومجرى الشيطان الشهوات . ولأجل اكتناف الشهوات للقلب من جوانبه قال الله تعالى إخبارا عن إبليس ﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « إنّ الشيطان قعد لابن آدم بطرق فقعد له بطريق الإسلام فقال : أتسلم وتترك دينك ودين آبائك ؟ فعصاه وأسلم ، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال : أتهاجر أتدع أرضك وسماءك ؟ فعصاه وهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد فقال : أتجاهد وهو تلف النفس والمال فتقاتل فتقتل فتنكح نساؤك ويقسم مالك ، فعصاه وجاهد [٣] » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فمن فعل ذلك فمات كان حقا على الله أن يدخله الجنة » فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى الوسوسة وهى هذه الخواطر التى تخطر للمجاهد أنه يقتل وتنكح نساؤه وغير ذلك مما يصرفه عن الجهاد وهذه الخواطر معلومة . فإذاً الوسواس معلوم بالمشاهدة وكل خاطر فله سبب ويفتقر إلى اسم يعرفه فاسم سببه الشيطان ولايتصوّر أن ينفك عنه آدمى وإنما يختلفون بعصيانه ومتابعته ، ولذلك قال عليه السلام « مامن أحد إلا وله شيطان [٤] » .

فقد اتضح بهذا النوع من الاستبصار معنى الوسوسة والإلهام والملك والشيطان والتوفيق والخذلان فبعد هذا نظر من ينظر فى ذات الشيطان أنه جسم لطيف أوليس بجسم . وإن كان جسما فكيف يدخل بدن الإنسان ماهو جسم؟ فهذا الآن غير محتاج إليه فى علم المعاملة . بل مثال الباحث عن هذا مثال من دخلت فى ثيابه حية وهو محتاج إلى إزالتها ودفع ضررها فاشتغل بالبحث عن لونها وشكلها وطولها وعرضها وذلك عين الجهل فمصادمة الخواطر الباعثة على الشر قد علمت ودل ذلك على أنه عن سبب لامحالة ، وعلم أنّ الداعى إلى الشر المحذور فى المستقبل عدوّ فقد عرف العدوّ لامحالة فينبغى أن يشتغل بمجاهدته وقد عرف الله سبحانه عداوته فى مواضع كثيرة من كتابه ليؤمن به ويحترز عنه فقال تعالى ﴿ إنّ الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدوّا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ وقال تعالى ﴿ ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لاتعبدوا الشيطان إنه لكم عدوّ مبين ﴾ فينبغى للعبد أن يشتغل بدفع العدوّ عن نفسه لا بالسؤال عن أصله ونسبه ومسكنه . نعم ينبغى أن يسأل عن سلاحه ليدفعه عن نفسه وسلاح الشيطان الهوى والشهوات وذلك كاف للعالمين . فأما معرفة ذاته وصفاته وحقيقته ـ نعوذ بالله منه ـ وحقيقة الملائكة فذلك ميدان العارفين المتغلغلين فى علوم المكاشفات فلا يحتاج فى علم المعاملة إلى معرفته . نعم ينبغى أن يعلم أن الخواطر تنقسم إلى مايعلم قطعا أنه داع إلى الشر فلا يخفى كونه وسوسة ، وإلى مايعلم أنه داع إلى الخير فلايشك فى كونه إلهاما ، وإلى مايتردد فيه فلا يدرى أنه من لمة الملك أو من لمة الشيطان ؟ فإن من مكايد الشيطان أن يعرض الشر فى معرض الخير ، والتمييز فى ذلك غامض وأكثر العباد به يهلكون ، فإن الشيطان لايقدر على دعائهم إلى الشر الصريح فيصوّر الشر بصورة الخير ، كما يقول للعالم بطريق الوعظ : أماتنظر إلى الخلق وهم موتى من الجهل هلكى من الغفلة قد أشرفوا على النار؟

(١) حديث ابن وضاح « اذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب مسح الشيطان بيده وجهه وقال : بأبى وجه من لايفلح » لم أجد له أصلا . (٢) حديث « ان الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » تقدم .
(٣) حديث « ان الشيطان قعد لابن آدم بطرق ... الحديث » أخرجه النسائى من حديث سبرة بن أبى فاكه بإسناد صحيح
(٤) حديث « مامن أحد الا له شيطان ... الحديث » تقدم .

أما لك رحمة على عباد الله تنقذهم من المعاطب بنصحك ووعظك وقد أنعم الله عليك بقلب بصير ولسان ذلق ولهجة مقبولة ؟ فكيف تكفر نعمة الله تعالى وتتعرض لسخطه وتسكت عن إشاعة العلم ودعوة الخلق إلى الصراط المستقيم ؟ وهو لا يزال يقرر ذلك فى نفسه ويستجره بلطيف الحيل إلى أن يشتغل بوعظ الناس ، ثم يدعوه بعد ذلك إلى أن يتزين لهم ويتصنع بتحسين اللفظ وإظهار الخير ويقول له : إن لم تفعل ذلك سقط وقع كلامك من قلوبهم ولم يهتدوا إلى الحق . ولا يزال يقرر ذلك عنده وهو فى أثنائه يؤكد فيه شوائب الرياء وقبول الخلق ولذة الجاه والتعزز بكثرة الأتباع والعلم والنظر إلى الخلق بعين الاحتقار فيستدرج المسكين بالنصح إلى الهلاك ، فيتكلم وهو يظن أن قصده الخير وإنما قصده الجاه والقبول ، فيهلك بسببه وهو يظن أنه عند الله بمكان وهو من الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله ليؤيد هذا الدين بقوم لاخلاق لهم [1] » . و « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر [2] » ولذلك روى أن إبليس لعنه الله تمثل لعيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم فقال له : قل لا إله إلا الله . فقال : كلمة حق ولا أقولها بقولك . لأن له أيضا تحت الخير تلبيسات ، وتلبيسات الشيطان من هذا الجنس لا تتناهى وبها يهلك العلماء والعباد والزهاد والفقراء والأغنياء وأصناف الخلق ممن يكرهون ظاهر الشر ولا يرضون لأنفسهم الخوض فى المعاصى المكشوفة .

وسنذكر جملة من مكايد الشيطان فى كتاب الغرور فى آخر هذا الربع . ولعلنا إن أمهل الزمان صنفنا فيه كتابا على الخصوص نسميه (تلبيس إبليس) فإنه قد انتشر الآن تلبيسه فى البلاد والعباد لاسيما فى المذاهب والاعتقادات ، حتى لم يبق من الخيرات إلا رسمها . كل ذلك إذعانا لتلبيسات الشيطان ومكايده .

فحق على العبد أن يقف عند كل هم يخطر له ليعلم أنه من لمة الملك أو لمة الشيطان وأن يمعن النظر فيه بعين البصيرة لا بهوى من الطبع ، ولا يطلع عليه إلا بنور التقوى والبصيرة وغزارة العلم كما قال تعالى ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا ﴾ أى رجعوا إلى نور العلم ﴿ فإذا هم مبصرون ﴾ أى ينكشف لهم الإشكال فأما من لم يرض نفسه بالتقوى فيميل طبعه إلى الإذعان بتلبيسه بمتابعة الهوى فيكثر فيه غلطه ويتعجل فيه هلاكه وهو لا يشعر . وفى مثلهم قال سبحانه وتعالى ﴿ وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون ﴾ قيل هى أعمال ظنوها حسنات فإذا هى سيئات . وأغمض أنواع علوم المعاملة الوقوف على خدع النفس ومكايد الشيطان وذلك فرض عين على كل عبد وقد أهمله الخلق واشتغلوا بعلوم تستجر إليهم الوسواس وتسلط عليهم الشيطان وتنسيهم عداوته وطريق الاحتراز عنه . ولا ينجى من كثرة الوسواس إلا سد أبواب الخواطر . وأبوابها الحواس الخمس ، وأبوابها من داخل الشهوات وعلائق الدنيا . والخلوة فى بيت مظلم تسد باب الحواس . والتجرد عن الأهل والمال يقلل مداخل الوسواس من الباطن ويبقى مع ذلك مداخل باطنة فى التخيلات الجارية فى القلب وذلك لا يدفع إلا بشغل القلب بذكر الله تعالى ثم إنه لا يزال يجاذب القلب وينازعه ويلهيه عن ذكر الله تعالى فلا بد من مجاهدته ، وهذه مجاهدة لا آخر لها إلا الموت إذ لا يتخلص أحد من الشيطان مادام حيا . نعم قد يقوى بحيث لا ينقاد له ويدفع عن نفسه شره بالجهاد ، ولكن لا يستغنى قط عن الجهاد والمدافعة مادام الدم يجرى فى بدنه . فإذا مادام حيا فأبواب الشيطان مفتوحة إلى قلبه لا تنغلق وهى الشهوة والغضب والحسد والطمع والشره وغيرها ـ كما سيأتى شرحها ـ ومهما كان الباب مفتوحا والعدو غير غافل لم يدفع إلا بالحراسة والمجاهدة .

---

(١) حديث « ان الله يؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم » أخرجه النسائى من حديث أنس بإسناد جيد . (٢) حديث « ان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم فى العلم .

قال رجل للحسن يا أبا سعيد أينام الشيطان ؟ فتبسم وقال : لو نام لاسترحنا . فإذن لاخلاص للمؤمن منه . نعم له سبيل إلى دفعه وتضعيف قوته . قال صلى الله عليه وسلم « إن المؤمن ينضى شيطانه كما ينضى أحدكم بعيره فى سفره [١] » وقال ابن مسعود شيطان المؤمن مهزول . وقال قيس بن الحجاج : قال لى شيطانى، دخلت فيك وأنا مثل الجزور وأنا الآن مثل العصفور ، قلت : ولم ذاك ؟ قال : تذيبنى بذكر الله تعالى . فأهل التقوى لايتعذر عليهم سد أبواب الشيطان وحفظها بالحراسة ، أعنى الأبواب الظاهرة والطرق الجلية التى تفضى إلى المعاصى الظاهرة ، وإنما يتعثرون فى طرقه الغامضة فإنهم لا يهتدون إليها فيحرسونها كما أشرنا إليه فى غرور العلماء والوعاظ والمشكل أن الأبواب المفتوحة إلى القلب للشيطان كثيرة وباب الملائكة باب واحد ، وقد التبس ذلك الباب الواحد بهذه الأبواب الكثيرة فالعبد فيها كالمسافر الذى يبقى فى بادية كثيرة الطرق غامضة المسالك فى ليلة مظلمة فلا يكاد يعلم الطريق إلا بعين بصيرة وطلوع شمس مشرقة . والعين البصيرة ههنا هى القلب المصفى بالتقوى . والشمس المشرقة هو العلم الغزير المستفاد من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بما يهدى إلى غوامض طرقه ، وإلا فطرقه كثيرة وغامضة . قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما خطا وقال « هذا سبيل الله » ثم خط خطوطا عن يمين الخط وعن شماله ثم قال « هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه » ثم تلا ﴿ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل ﴾ لتلك الخطوط [٢] فبين صلى الله عليه وسلم كثرة طرقه .

وقد ذكرنا مثالا للطريق الغامض من طرقه وهو الذى يخدع به العلماء والعباد المالكين لشهواتهم الكافين عن المعاصى الظاهرة ، فلنذكر مثالا لطريقه الواضح الذى لا يخفى إلا أن يضطر الآدمى إلى سلوكه . وذلك كما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « كان راهب فى بنى إسرائيل فعمد الشيطان إلى جارية فخنقها وألقى فى قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب ، فأتوا بها إليه فأبى أن يقبلها فلم يزالوا به حتى قبلها ، فلما كانت عنده ليعالجها أتاه الشيطان فزين له مقاربتها ولم يزل به حتى واقعها فحملت منه ، فوسوس إليه وقال : الآن تفتضح يأتيك أهلها فاقتلها فإن سألوك فقل ماتت ، فقتلها ودفنها ، فأتى الشيطان أهلها فوسوس إليهم وألقى فى قلوبهم أنه أحبلها ثم قتلها ودفنها ، فأتاه أهلها فسألوه عنها فقال : ماتت ، فأخذوه ليقتلوه بها فأتاه الشيطان فقال : أنا الذى خنقتها وأنا الذى ألقيت فى قلوب أهلها فأطعنى تنج وأخلصك منهم قال : بماذا ؟ قال : اسجد لى سجدتين ؛ فسجد له سجدتين فقال له الشيطان : إنى برىء منك . فهو الذى قال الله تعالى فيه ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك ﴾ [٣] فانظر الآن إلى حيله واضطراره الراهب إلى هذه الكبائر ، وكل ذلك لطاعته له فى قبول الجارية للمعالجة وهو أمر هين وربما يظن صاحبه أنه خير وحسنة فيحسن ذلك فى قلبه بخفى الهوى فيقدم عليه كالراغب فى الخير فيخرج الأمر بعد ذلك عن اختياره ويجره البعض إلى البعض بحيث لا يجد محيصا: فنعوذ بالله من تضييع أوائل الأمور وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه [٤] » .

---

(١) حديث « إن المؤمن ينضى شيطانه ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث أبى هريرة وفيه ابن لهيعة .

(٢) حديث ابن مسعود : خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا فقال « هذا سبيل الله ... الحديث . أخرجه النسائى فى الكبرى والحاكم وقال صحيح الإسناد . (٣) حديث « كان راهب فى بنى إسرائيل فأخذ الشيطان جارية فخنقها وألقى فى قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب .. الحديث » بطوله فى قوله تعالى ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر ﴾ رواه ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان وابن مردويه فى تفسيره فى حديث عبيد بن أبى رفاعة مرسلا والحاكم نحوه موقوفا على على بن أبى طالب وقال صحيح الإسناد ووصله بطين فى مسنده من حديث على . (٤) حديث « من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه » متفق عليه من حديث النعمان ابن بشير « من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه » لفظ البخارى .

بيان تفصيل مداخل الشيطان إلى القلب

اعلم أن مثال القلب مثال حصن والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن فيملكه ويستولى عليه ، ولا يقدر على حفظ الحصن من العدو إلا بحراسة أبواب الحصن ومداخله ومواضع ثلمه ، ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يدرى أبوابه ، فحماية القلب عن وسواس الشيطان واجبة وهو فرض عين على كل عبد مكلف ، وما لا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو أيضا واجب ، ولا يتوصل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله فصارت معرفة مداخله واجبة. ومداخل الشيطان وأبوابه صفات العبد وهي كثيرة ، ولكنا نشير إلى الأبواب العظيمة الجارية مجرى الدروب التى لا تضيق عن كثرة جنود الشيطان .

فمن أبوابه العظيمة : الغضب والشهوة ؛ فإن الغضب هو غول العقل وإذا ضعف جند العقل هجم جند الشيطان . ومهما غضب الإنسان لعب الشيطان به كما يلعب الصبي بالكرة . فقد روى أن موسى عليه السلام لقيه إبليس فقال له : ياموسى أنت الذى اصطفاك الله برسالته وكلمك تكليما وأنا خلق من خلق الله أذنبت وأريد أن أتوب فاشفع لى إلى ربى أن يتوب على ، فقال موسى : نعم ؛ فلما صعد موسى الجبل وكلم ربه عز وجل وأراد النزول قال له ربه : أد الأمانة ، فقال موسى : يارب عبدك إبليس يريد أن تتوب عليه ، فأوحى الله تعالى إلى موسى : ياموسى قد قضيت حاجتك مره أن يسجد لقبر آدم حتى يتاب عليه ، فلقى موسى إبليس فقال له : قد قضيت حاجتك امرت أن تسجد لقبر آدم حتى يتاب عليك ، فغضب واستكبر وقال : لم أسجد له حيا أسجد له ميتا ؟ ثم قال له : ياموسى إن لك على حقا بما شفعت لى إلى ربك فاذكرنى عند ثلاث لا أهلكك فيهن : اذكرنى حين تغضب فإن روحى فى قلبك وعينى فى عينك وأجرى منك مجرى الدم ؛ اذكرنى إذا غضبت فإنه إذا غضب الإنسان نفخت فى أنفه فما يدرى ما يصنع ، واذكرنى حين تلقى الزحف فإنى آتى ابن آدم حين يلقى الزحف فأذكره زوجته وولده وأهله حتى يولى ، وإياك أن تجالس إلى امرأة ليست بذات محرم فإنى رسولها إليك ورسولك إليها فلا أزال حتى أفتنك بها وأفتنها بك . فقد أشار بهذا إلى الشهوة والغضب والحرص فإن الفرار من الزحف حرص على الدنيا ، وامتناعه من السجود لآدم ميتا هو الحسد وهو أعظم مداخله وقد ذكر أن بعض الأولياء قال لإبليس : أرنى كيف تغلب ابن آدم ؟ فقال : آخذه عند الغضب وعند الهوى ، وقد حكى أن إبليس ظهر لراهب فقال له الراهب : أى أخلاق بنى آدم أعون لك ؟ قال : الحدة فإن العبد إذا كان حديدا قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة : وقيل : إن الشيطان يقول كيف يغلبنى ابن آدم وإذا رضى جئت حتى أكون فى قلبه وإذا غضب طرت حتى أكون فى رأسه ؟

ومن أبوابه العظيمة الحسد والحرص فمهما كان العبد حريصا على كل شيء أعماه حرصه وأصمه إذ قال صلى الله عليه وسلم « حبك للشيء يعمى ويصم [1] » ونور البصيرة هو الذى يعرف مداخل الشيطان فإذا غطاه الحسد والحرص لم يبصر فحينئذ يجد الشيطان فرصة فيحسن عند الحريص كل ما يوصله إلى شهوته وإن كان منكرا وفاحشا . فقد روى أن نوحا عليه السلام لما ركب السفينة حمل فيها من كل زوجين اثنين كما أمره الله تعالى ، فرأى فى السفينة شيخا لم يعرفه فقال له نوح : ما أدخلك ؟ فقال : دخلت لأصيب قلوب أصحابك فتكون قلوبهم معى وأبدانهم معك، فقال له نوح : أخرج منها ياعدو الله فإنك لعين ، فقال له إبليس : خمس أهلك بهن الناس وسأحدثك منهن بثلاث ولا أحدثك باثنتين ، فأوحى الله تعالى إلى نوح : أنه لا حاجة لك بالثلاث فليحدثك بالاثنتين ، فقال له نوح :

---

(١) حديث « حبك الشيء يعمى ويصم » أخرجه أبو داود من حديث أبى الدرداء بإسناد ضعيف .

ماالاثنتان ؟ فقال : هما اللتان لاتكذبانى هما اللتان لاتخلفانى بهما أهلك الناس ؛ الحرص والحسد ، فبالحسد لعنت وجعلت شيطانا رجيما ، وأما الحرص فإنه أبيح لآدم الجنة كلها إلا الشجرة فأصبت حاجتى منه بالحرص .

ومن أبوابه العظيمة : الشبع من الطعام وإن كان حلالا صافيا ؛ فإنّ الشبع يقوّى الشهوات والشهوات أسلحة الشيطان . فقد روى أنّ إبليس ظهر ليحيى بن زكريا عليهما السلام فرأى عليه معاليق من كل شيء فقال له : ياإبليس ماهذه المعاليق ؟ قال : هذه الشهوات التى أصبت بها ابن آدم فقال : فهل فيها من شيء ؟ قال . ربما شبعت فثقلناك عن الصلاة وعن الذكر ، قال : فهل غير ذلك ؟ قال . لا ، قال لله على أن لاأملأ بطنى من الطعام أبدا ، فقال له إبليس : ولله على أن لاأنصح مسلما أبدا . ويقال فى كثرة الأكل ست خصال مذمومة ؛ أولها : أن يذهب خوف الله من قلبه . الثانى : أن يذهب رحمة الخلق من قلبه لأنه يظن أنهم كلهم شباع . والثالث : أنه يثقل عن الطاعة . والرابع : أنه إذا سمع كلام الحكمة لايجد له رقة والخامس : أنه إذا تكلم بالموعظة والحكمة لايقع فى قلوب الناس . والسادس : أن يهيج فيه الأمراض .

ومن أبوابه : حب التزين من الأثاث والثياب والدار ، فإن الشيطان إذا رأى ذلك غالبا على قلب الإنسان باض فيه وفرخ ، فلا يزال يدعوه إلى عمارة الدار وتزيين سقوفها وحيطانها وتوسيع أبنيتها ويدعوه إلى التزين بالثياب والدواب ويستسخره فيها طول عمره ، وإذا أوقعه فى ذلك فقد استغنى أن يعود إليه ثانية ، فإن بعض ذلك يجره إلى البعض فلايزال يؤديه من شيء إلى شيء إلى أن يساق إليه أجله فيموت وهو فى سبيل الشيطان واتباع الهوى ويخشى من ذلك سوء العاقبة بالكفر نعوذ بالله منه .

ومن أبوابه العظيمة : الطمع فى الناس : لأنه إذا غلب الطمع على القلب لم يزل الشيطان يحبب إليه التصنع والتزين لمن طمع فيه بأنواع الرياء والتلبيس حتى المطموع فيه كأنه معبوده فلا يزال يتفكر فى حيلة التودد والتحبب إليه ويدخل كل مدخل للوصول إلى ذلك . وأقل أحواله الثناء عليه بما ليس فيه والمداهنة له بترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فقد روى صفوان بن سليم أن إبليس تمثل لعبد الله بن حنظلة فقال له : يا ابن حنظلة احفظ عنى شيئا أعلمك به فقال : لا حاجة لى به . قال : انظر فإن كان خيرا أخذت وإن كان شرا رددت ، يا ابن حنظلة لا تسأل أحدا غير الله سؤال رغبة ؟ وانظر كيف تكون إذا غضبت ؟ فإنى أملكك إذا غضبت .

ومن أبوابه العظيمة : العجلة وترك التثبت فى الأمور ، وقال صلى الله عليه وسلم « العجلة من الشيطان والتأنى من الله تعالى [1] » وقال عزوجل ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ وقال تعالى ﴿ وكان الإنسان عجولا ﴾ وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ ولاتعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ﴾ وهذا لأن الأعمال ينبغى أن تكون بعد التبصرة والمعرفة ، والتبصرة تحتاج إلى تأمل وتمهل ، والعجلة تمنع من ذلك ، وعند الاستعجال يروج الشيطان شره على الإنسان من حيث لايدرى . فقد روى أنه لما ولد عيسى بن مريم عليه السلام أتت الشياطين إبليس فقالوا ؛ أصبحت الأصنام قد نكست رءوسها فقال هذا حادث ، مكانكم ! فطار حتى أتى خافقى الأرض فلم يجد شيئاً ، ثم وجد عيسى عليه السلام قد ولد وإذا الملائكة حافين به ، فرجع إليهم فقال : إن نبيا قد ولد البارحة ماحملت أنثى قط ولاوضعت إلا وأنا حاضرها إلا هذا ، فأيسوا من أن تعبد الأصنام بعد هذه الليلة ولكن ائتوا بنى آدم من قبل العجلة والخفة .

ومن أبوابه العظيمة : الدراهم والدنانير وسائر أصناف الأموال من العروض والدواب والعقار ؛ فإن كل مايزيد

(١) حديث « العجلة من الشيطان والتأنى من الله » أخرجه الترمذى من حديث سهل بن سعد بلفظ الأناة وقال حسن .

على قدر القوت والحاجة فهو مستقر الشيطان ، فإن من معه قوته فهو فارغ القلب . فلو وجد مائة دينار مثلا على طريق انبعث من قلبه شهوات تحتاج كل شهوة منها إلى مائة دينار أخرى فلا يكفيه ما وجد بل يحتاج إلى تسعمائة أخرى ، وقد كان قبل وجود المائة مستغنياً ، فالآن لما وجد مائة ظن أنه صار بها غنيا وقد صار محتاجا إلى تسعمائة ليشترى داراً يعمرها وليشترى جارية وليشترى أثاث البيت ويشترى الثياب الفاخرة ، وكل شيء من ذلك يستدعى شيئاً آخر يليق به . وذلك لا آخر له فيقع فى هاوية آخرها عمق جهنم فلا آخر لها سواه . قال ثابت البنانى لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إبليس لشياطينه : لقد حدث أمر فانظروا ماهو فانطلقوا حتى أعيوا ثم جاءوا وقالوا ماندرى ؟ قال : أنا آتيكم بالخبر فذهب ثم جاء وقال : قد بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم قال : فجعل يرسل شياطينه إلى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فينصرفون خائبين ويقولون : ماصحبنا قوما قط مثل هؤلاء نصيب منهم ثم يقومون إلى صلاتهم فيمحى ذلك ، فقال لهم إبليس : رويداً بهم عسى الله أن يفتح لهم الدنيا فنصيب منهم حاجتنا [1] . وروى أن عيسى عليه الصلاة والسلام توسد يوما حجرا فمر به إبليس فقال : ياعيسى رغبت فى الدنيا ؟ فأخذه عيسى صلى الله عليه وسلم فرمى به من تحت رأسه وقال : هذا لك مع الدنيا وعلى الحقيقة من يملك حجرا يتوسد به عند النوم فقدملك من الدنيا مايمكن أن يكون عدة للشيطان عليه . فإن القائم بالليل مثلا للصلاة مهما كان بالقرب منه حجر ، يمكن أن يتوسده ؟ فلا يزال يدعوه إلى النوم وإلى أن يتوسده ، ولو لم يكن ذلك لكان لا يخطر له ذلك ببال ولا تتحرك رغبته إلى النوم . هذا فى حجر فكيف بمن يملك المخاد الميثرة والفرش الوطيئة والمتنزهات الطيبة فتى ينشط لعبادة الله تعالى ؟ .

ومن أبوابه العظيمة . البخل وخوف الفقر ؛ فإن ذلك هو الذى يمنع الإنفاق والتصدق ويدعو إلى الادخار والكنز والعذاب الأليم وهو الموعود للمكاثرين كما نطق به القرآن العزيز . قال خيثمة بن عبد الرحمن : إن الشيطان يقول : ما غلبنى ابن غلبة فلن يغلبنى على ثلاث ، أن آمره أن يأخذ المال من غير حقه ، وإنفاقه فى غير حقه ، ومنعه من حقه . وقال سفيان : ليس للشيطان سلاح مثل خوف الفقر فإذا قبل ذلك منه أخذ فى الباطل ومنع من الحق وتكلم بالهوى وظن بربه ظن السوء .

ومن آفات البخل الحرص على ملازمة الأسواق لجمع المال ، والأسواق هى معشش الشياطين . وقال أبو أمامة إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن إبليس لما نزل إلى الأرض قال : يارب أنزلتنى إلى الأرض وجعلتنى رجيما فاجعل لى بيتا قال الحمام ، قال : اجعل لى مجلسا قال الأسواق ومجامع الطرق ، قال : اجعل لى طعاما قال طعامك مالم يذكر اسم الله عليه ، قال : اجعل لى شرابا قال كل مسكر ، قال : اجعل لى مؤذنا قال المزامير ، قال : اجعل لى قرآنا قال الشعر ، قال : اجعل لى كتابا قال الوشم ، قال : اجعل لى حديثا قال الكذب ، قال : اجعل لى مصايد قال النساء [2] » .

ومن أبوابه العظيمة التوصل : التعصب للمذاهب والأهواء والحقد على الخصوم والنظر إليهم بعين الازدراء والاستحقار ، وذلك مما يهلك العباد والفساق جميعا فإن الطعن فى الناس والاشتغال بذكر نقصهم صفة مجبولة فى

(١) حديث ثابت : لما بعث صلى الله عليه وسلم قال لإبليس لشياطينه : لقد حدث أمر ... الحديث . أخرجه ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان هكذا مرسلا . (٢) حديث أبى أمامة « ان إبليس لما نزل الى الأرض قال يارب أنزلتنى الى الأرض وجعلتنى رجيما فاجعل لى بيتا قال الحمام ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى الكبير وإسناده ضعيف جدا ورواه بنحوه من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف أيضاً .

الطبع من الصفات السبعية ، فإذا خيل إليه الشيطان أن ذلك هو الحق وكان موافقا لطبعه غلبت حلاوته على قلبه فاشتغل به بكل همته ، وهو بذلك فرحان مسرور يظن أنه يسعى فى الدين وهو ساع فى اتباع الشياطين ، فترى الواحد منهم يتعصب لأبى بكر الصديق رضى الله عنه وهو آكل الحرام ومطلق اللسان بالفضول والكذب ومتعاط لأنواع الفساد ولو رآه أبو بكر لكان أول عدو له إذ موالى أبى بكر من أخذ سبيله وسار بسيرته وحفظ ما بين لحييه ، وكان من سيرته رضى الله عنه أن يضع حصاة فى فيه ليكف لسانه عن الكلام فيما لا يعنيه فأنى لهذا الفضولى أن يدعى ولاءه وحبه ولا يسير بسيرته ؟ وترى فضوليا آخر يتعصب لعلى رضى الله عنه وكان من زهد على وسيرته أنه لبس فى خلافته ثوبا اشتراه بثلاثة دراهم وقطع رأس الكمين إلى الرسغ ، وترى الفاسق لابسا الثياب الحرير ومتجملا بأموال اكتسبها من حرام وهو يتعاطى حب على رضى الله عنه ويدعيه وهو اول خصمائه يوم القيامة ، وليت شعرى من أخذ ولدا عزيزاً لإنسان هو قرة عينه وحياة قلبه فأخذ يضربه ويمزقه وينتف شعره ويقطعه بالمقراض وهو مع ذلك يدعى حب أبيه وولاءه فكيف يكون حاله عنده ؟ ومعلوم أن الدين والشرع كانا أحب إلى أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وسائر الصحابة رضى الله عنهم ، من الأهل والولد بل من أنفسهم والمقتحمون لمعاصى الشرع هم الذين يمزقون الشرع ويقطعونه بمقاريض الشهوات ويتوددون به إلى عدو الله إبليس وعدو أوليائه فترى كيف يكون حالهم يوم القيامة عند الصحابة وعند أولياء الله تعالى ؟ لا بل لو كشف الغطاء وعرف هؤلاء ماتحبه الصحابة فى أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لاستحيوا أن يجروا على اللسان ذكرهم مع قبح أفعالهم ؟ ثم إن الشيطان يخيل إليهم أن من مات محبا لأبى بكر وعمر فالنار لاتحوم حوله ، ويخيل إلى الآخر أنه إذا مات محبا لعلى لم يكن عليه خوف وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لفاطمة رضى الله عنها وهى بضعة منه (١) « اعملى فإنى لا أغنى عنك من الله شيئا (٢) » وهذا مثال أوردناه من جملة الأهواء . وهكذا حكم المتعصبين للشافعى وأبى حنيفة ومالك وأحمد وغيرهم من الأئمة فكل من ادعى مذهب إمام وهو ليس يسير بسيرته فذلك الإمام هو خصمه يوم القيامة إذ يقول له : كان مذهبى العمل دون الحديث باللسان ، وكان الحديث باللسان لأجل العمل لا لأجل الهذيان ؛ فما بالك خالفتنى فى العمل والسيرة التى هى مذهبى ومسلكى الذى سلكته وذهبت فيه إلى الله تعالى ثم ادعيت مذهبى كاذبا ؟ وهذا مدخل عظيم من مداخل الشيطان قد أهلك به أكثر العالم ، وقد سلمت المدارس لأقوام قل من الله خوفهم وضعفت فى الدين بصيرتهم وقويت فى الدنيا رغبتهم واشتد على الاستتباع حرصهم ولم يتمكنوا من الاستتباع وإقامة الجاه إلا بالتعصب ، فحبسوا ذلك فى صدورهم ولم ينبهوهم على مكايد الشيطان فيه ، بل نابوا عن الشيطان فى تنفيذ مكيدته فاستمر الناس عليه ونسوا أمهات دينهم فقد هلكوا وأهلكوا فالله تعالى يتوب علينا وعليهم ، وقال الحسن . بلغنا أن إبليس قال : سولت لأمة محمد صلى الله عليه وسلم المعاصى فقصموا ظهرى بالاستغفار فسولت لهم ذنوبا لا يستغفرون الله تعالى منها وهى الأهواء . وقد صدق الملعون فإنهم لا يعلمون أن ذلك من الأسباب التى تجر إلى المعاصى فكيف يستغفرون منها ؟

ومن عظيم حيل الشيطان أن يشغل الإنسان عن نفسه بالاختلافات الواقعة بين الناس فى المذاهب والخصومات قال عبدالله بن مسعود . جلس قوم يذكرون الله تعالى فأتاهم الشيطان ليقيمهم عن مجلسهم ويفرق بينهم فلم يستطع ، فأتى رفقة أخرى يتحدثون بحديث الدنيا فأفسد بينهم فقاموا يقتتلون ـ وليس إياهم يريد ـ فقام الذين يذكرون الله تعالى

(١) حديث « فاطمة بضعة منى » متفق عليه من حديث المسور بن مخرمة . (٢) حديث « انى لا أغنى عنك من الله شيئا » قاله لفاطمة متفق عليه من حديث أبى هريرة .

فاشتغلوا بهم يفصلون بينهم فتفرقوا عن مجلسهم ، وذلك مراد الشيطان منهم

ومن أبوابه حمل العوام الذين لم يمارسوا العلم ولم يتبحروا فيه على التفكر فى ذات الله تعالى وصفاته وفى أمور لايبلغها حدعقولهم حتى يشككهم فى أصل الدين ، أويخيل إليهم فى الله تعالى خيالات يتعالى الله عنها يصير أحدهم بها كافرا أو مبتدعا وهو به فرح مسرور مبتهج بما وقع فى صدره ، يظن ذلك هو المعرفة والبصيرة وأنه انكشف له ذلك بذكائه وزيادة عقله فأشد الناس حماقة أقواهم اعتقادا فى عقل نفسه وأثبت الناس عقلا أشدهم اتهاما لنفسه وأكثرهم سؤالا من العلماء . قالت عائشة رضى الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان يأتى أحدكم فيقول من خلقك ؟ فيقول الله تبارك وتعالى فيقول فمن خلق الله ؟ فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل آمنت بالله ورسوله فإن ذلك يذهب عنه (١) » والنبى صلى الله عليه وسلم لم يأمر بالبحث فى علاج هذا الوسواس فإن هذا وسواس يجده عوام الناس دون العلماء وإنما حق العوام أن يؤمنوا ويسلموا ويشتغلوا بعبادتهم ومعايشهم ويتركوا العلم للعلماء فالعامى لو يزنى ويسرق كان خيرا له من أن يتكلم فى العلم فإنه من تكلم فى الله وفى دينه من غير إتقان العلم وقع فى الكفر من حيث لايدرى ، كمن يركب لجة البحر وهو لا يعرف السباحة ومكايد الشيطان فيما يتعلق بالعقائد والمذاهب لاتحصر وإنما أردنا بما أوردناه المثال.

ومن أبوابه سوء الظن بالمسلمين قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ﴾ فمن يحكم بشر على غيره بالظن بعثه الشيطان على أن يطول فيه اللسان بالغيبة فيهلك أو يقصر فى القيام بحقوقه أو يتوانى فى إكرامه وينظر إليه بعين الاحتقار ويرى نفسه خيرا منه . وكل ذلك من المهلكات ولأجل ذلك منع الشرع من التعرض للتهم فقال صلى الله عليه وسلم « اتقوا مواضع التهم (٢) » حتى احترز هو صلى الله عليه وسلم من ذلك . روى عن على بن حسين أن صفية بنت حيى بن أخطب أخبرته أن النبى صلى الله عليه وسلم كان معتكفا فى المسجد قالت : فأتيته فتحدثت عنده فلما أمسيت انصرفت فقام يمشى معى فمر به رجلان من الأنصار فسلما ثم انصرفا فناداهما وقال « إنها صفية بنت حيى » فقالا يارسول الله ما نظن بك إلا خيرا ، فقال « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم من الجسد وإنى خشيت أن يدخل عليكما (٣) » فانظر كيف أشفق صلى الله عليه وسلم على دينهما فحرسهما ؟ وكيف أشفق على أمته فعلمهم طريق الاحتراز من التهمة حتى لا يتساهل العالم الورع المعروف بالدين فى أحواله ؟ فيقول : مثلى لا يظن به إلا الخير إعجابا منه بنفسه . فإن أورع الناس وأتقاهم وأعلمهم لاينظر الناس كلهم إليه بعين واحدة ، بل بعين الرضا بعضهم وبعين السخط بعضهم ولذلك قال الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدى المساويا

فيجب الاحتراز عن ظن السوء وعن تهمة الأشرار فإن الأشرار لايظنون بالناس كلهم إلا الشر . فهما رأيت إنسانا يسىء الظن بالناس طالبا للعيوب فاعلم أنه خبيث الباطن وأن ذلك خبثه يترشح منه ، وإنما رأى غيره من حيث هو فإن المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العيوب ، والمؤمن سليم الصدر فى حق كافة الخلق . فهذه بعض مداخل الشيطان إلى القلب ولو أردت استقصاء جميعها لم أقدر عليه وفى هذا القدر ما ينبه على غيره فليس فى الآدمى صفة

---

(١) حديث عائشة « ان الشيطان يأتى أحدكم فيقول من خلقك ؟ فيقول الله ... الحديث » أخرجه أحمد والبزار وأبو يعلى فى مسانيدهم ورجاله ثقات وهو متفق عليه من حديث أبى هريرة . (٢) حديث « اتقوا مواضع التهم » لم أجد له أصلا .
(٣) حديث « صفية بنت حيى : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان معتكفا فأتيته فتحدثت عنده ... الحديث . وفيه « ان الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » متفق عليه .

مذمومة إلا وهى سلاح الشيطان ومدخل من مداخله .

* فإن قلت : فما العلاج فى دفع الشيطان وهل يكفى فى ذلك ذكر الله تعالى وقول الإنسان لاحول ولاقوة إلا بالله فاعلم أن علاج القلب فى ذلك سد هذه المداخل بتطهير القلب من هذه الصفات المذمومة وذلك مما يطول ذكره . وغرضنا فى هذا الربع من الكتاب بيان علاج الصفات المهلكات وتحتاج كل صفة إلى كتاب تنفرد على ما سيأتى شرحه — نعم إذا قطعت من القلب أصول هذه الصفات كان للشيطان بالقلب اجتيازات وخطرات ولم يكن له استقرار ويمنعه من الاجتياز ذكر الله تعالى لأن حقيقة الذكر لا تتمكن من القلب إلا بعد عمارة القلب بالتقوى وتطهيره من الصفات المذمومة ، وإلا فيكون الذكر حديث نفس لا سلطان له على القلب فلا يدفع سلطان الشيطان . ولذلك قال الله تعالى ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ خصص بذلك المتقى فمثل الشيطان كمثل كلب جائع يقرب منك فإن لم يكن بين يديك خبز أو لحم فإنه ينزجر بأن تقول له : اخسأ ، فمجرد الصوت يدفعه . فإن كان بين يديك لحم وهو جائع فإنه يهجم على اللحم ولا يندفع بمجرد الكلام ، فالقلب الخالى عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر ، فأما الشهوة إذا غلبت على القلب دفعت حقيقة الذكر إلى حواشى القلب فلم يتمكن من سويدائه فيستقر الشيطان فى سويداء القلب . وأما قلوب المتقين الخالية من الهوى والصفات المذمومة فإنه يطرقها الشيطان لا للشهوات بل لخلوها بالغفلة عن الذكر ، فاذا عاد إلى الذكر خنس الشيطان ودليل ذلك قوله تعالى ﴿ فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ وسائر الأخبار والآيات الواردة فى الذكر .

قال أبو هريرة : التقى شيطان المؤمن وشيطان الكافر فاذا شيطان الكافر دهين سمين كاس وشيطان المؤمن مهزول أشعث أغبر عار ، فقال شيطان الكافر لشيطان المؤمن : مالك مهزول ؟ قال : أنا مع رجل إذا أكل سمى الله فأظل جائعا وإذا شرب سمى الله فأظل عطشانا ، وإذا لبس سمى الله فأظل عريانا ، وإذا ادهن سمى الله فأظل شعثا، فقال : لكنى مع رجل لا يفعل شيئا من ذلك فأنا أشاركه فى طعامه وشرابه ولباسه . وكان محمد بن واسع يقول كل يوم بعد صلاة الصبح : اللهم إنك سلطت علينا عدوا بصيرا بعيوبنا يرانا هو وقبيله من حيث لانراهم اللهم فآيسه منا كما آيسته من رحمتك وقنطه منا كما قنطته من عفوك وباعد بيننا وبينه كما باعدت بينه وبين رحمتك إنك على كل شىء قدير . قال : فتمثل له إبليس يوما فى طريق المسجد فقال له : يا ابن واسع هل تعرفنى ؟ قال : ومن أنت ؟ قال : أنا إبليس ، فقال : وما تريد ؟ قال : أريد أن لا تعلم أحد هذه الاستعاذة ولا أتعرض لك ، قال: والله لا أمنعها عن أراد فاصنع ما شئت . وعن عبد الرحمن ابن أبى ليلى قال : كان شيطان يأتى النبى صلى الله عليه وسلم بيده شعلة من نار فيقوم بين يديه وهو يصلى فيقرأ ويتعوذ فلا يذهب ، فأتاه جبرائيل عليه السلام فقال له: قل أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ومن فتن الليل والنهار ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن . فقال ذلك فطفئت شعلته وخر على وجهه [1] وقال الحسن . نبئت أن جبرائيل عليه السلام أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : إن عفريتا من الجن يكيدك فاذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى [2] وقال صلى الله عليه وسلم أتانى الشيطان فنازعنى ثم نازعنى فأخذت

---

(١) حديث عبد الرحمن بن أبى ليلى : كان الشيطان يأتى النبى صلى الله عليه وسلم بيده شعلة من نار ... الحديث أخرجه ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان هكذا مرسلا ولمالك فى الموطأ نحوه عن يحيى بن سعيد مرسلا ووصله ابن عبد البر فى التمهيد من رواية يحيى ابن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة عن عياش الشامى عن ابن مسعود ورواه أحمد والبزار من حديث عبد الرحمن بن حبيش وقيل له : كيف صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة كادته الشياطين ؟ فذكر نحوه (٢) حديث الحسن : نبئت أن جبريل أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ان عفريتا من الجن يكيدك ... الحديث أخرجه ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان هكذا مرسلا

بحلقه فوالذى بعثنى بالحق ما أرسلته حتى وجدت برد ماء لسانه على يدى ولولا دعوة أخى سليمان عليه السلام لأصبح طريحا فى المسجد [١] ، وقال صلى الله عليه وسلم « ما سلك عمر فجا إلا سلك الشيطان فجا غير الذى سلكه عمر [٢] » وهذا لأن القلوب كانت مطهرة عن مرعى الشيطان وقوته وهى الشهوات فهما طمعت فى أن يندفع الشيطان عنك بمجرد الذكر كما اندفع عن عمر رضى الله عنه كان محالا ، وكنت كمن يطمع أن يشرب دواء قبل الاحتماء والمعدة مشغولة بغليظ الأطعمة ، ويطمع أن ينفعه كما نفع الذى شربه بعد الاحتماء وتخلية المعدة ، والذكر الدواء والتقوى احتماء وهى تخلى القلب عن الشهوات . فإذا نزل الذكر قلبا فارغا عن غير الذكر اندفع الشيطان كما تندفع العلة بنزول الدواء فى المعدة الخالية عن الأطعمة . قال الله تعالى ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب ﴾ وقال تعالى ﴿ كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير ﴾ ومن ساعد الشيطان بعمله فهو مواليه وإن ذكر الله بلسانه . وإن كنت تقول الحديث قد ورد مطلقا بأن الذكر يطرد الشيطان [٣] ولم تفهم أن أكثر عمومات الشرع مخصوصة بشروط نقلها علماء الدين فانظر إلى نفسك ، فليس الخبر كالعيان ، وتأمل أن منتهى ذكرك وعبادتك الصلاة ؛ فراقب قلبك إذا كنت فى صلاتك كيف يجاذبه الشيطان إلى الأسواق وحساب العالمين وجواب المعاندين وكيف يمر بك فى أودية الدنيا ومهالكها حتى إنك لا تذكر ماقد نسيته من فضول الدنيا إلا فى صلاتك ولا يزدحم الشيطان على قلبك إلا إذا صليت ؟ فالصلاة محك القلوب فبها يظهر محاسنها ومساويها ؛ فالصلاة لا تقبل من القلوب المشحونة بشهوات الدنيا فلا جرم لا ينطرد عنك الشيطان بل ربما يزيد عليك الوسواس ، كما أن الدواء قبل الاحتماء ربما يزيد عليك الضرر ، فإن أردت الخلاص من الشيطان فقدم الاحتماء بالتقوى ثم أردفه بدواء الذكر يفر الشيطان منك كما فر من عمر رضى الله عنه . ولذلك قال وهب بن منبه : اتق الله ولا تسب الشيطان فى العلانية وأنت صديقه فى السر ؛ أى أنت مطيع له . وقال بعضهم : يا عجبا لمن يعصى المحسن بعد معرفته بإحسانه ويطيع اللعين بعد معرفته بطغيانه . وكما أن الله تعالى قال ﴿ ادعونى استجب لكم ﴾ وأنت تدعوه ولا يستجيب لك فكذلك تذكر الله ولا يهرب الشيطان منك لفقد شروط الذكر والدعاء .

قيل لإبراهيم بن أدهم : ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا وقد قال تعالى ﴿ ادعونى استجب لكم ﴾ ؟ قال : لأن قلوبكم ميتة ، قيل وما الذى أماتها ؟ قال : ثمان خصال ؛ عرفتم حق الله ولم تقوموا بحقه ، وقرأتم القرآن ولم تعملوا بحدوده ، وقلتم نحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تعملوا بسنته ، وقلتم نخشى الموت ولم تستعدوا له ، وقال تعالى ﴿ إن الشيطان لكم عدوا فاتخذوه عدوا ﴾ فواطأتموه على المعاصى ، وقلتم نخاف النار وأرهقتم أبدانكم فيها ، وقلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها ، وإذا قمتم من فرشكم رميتم عيوبكم وراء ظهوركم وافترشتم عيوب الناس أمامكم فأسخطتم ربكم ، فكيف يستجيب لكم ؟

« فإن قلت فالداعى إلى المعاصى المختلفة شيطان واحد أو شياطين مختلفون ؟ فاعلم أنه لا حاجة لك إلى معرفة ذلك فى المعاملة فاشتغل بدفع العدو ولا تسأل عن صفته . كل البقل من حيث يؤتى ولا تسأل عن المبقلة ، ولكن الذى

(١) حديث « أتانى شيطان فنازعنى ثم نازعنى فأخذت بحلقه .. الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا من رواية الشعبى مرسلا هكذا وللبخارى من حديث أبى هريرة « أن عفريتا من الجن تفلت على البارحة ـ أو كلمة نحوها ـ ليقطع على صلاتى فأمكننى الله منه ... الحديث » والنسائى فى الكبرى من حديث عائشة : كان يصلى فأتاه الشيطان فأخذه فصرعه فخنقه قال حتى وجدت برد لسانه على يدى ... الحديث » وإسناده جيد (٢) حديث « ماسلك عمر فجا إلا سلك الشيطان فجا غير فجه » متفق عليه من حديث سعد بن أبى وقاص بلفظ « يا ابن الخطاب مالقيك الشيطان سالكا فجا ... الحديث » (٣) الحديث الوارد بأن الذكر يا عمر يطرد الشيطان . تقدم

يتضح بنور الاستبصار فى شواهد الأخبار : أنهم جنود مجندة وأن لكل نوع من المعاصى شيطانا يخصه ويدعو إليه فأما طريق الاستبصار فذكره يطول ويكفيك القدر الذى ذكرناه وهو أن اختلاف المسببات يدل على اختلاف الأسباب كما ذكرناه فى نور النار وسواد الدخان.

وأما الأخبار فقد قال مجاهد : لإبليس خمسة من الأولاد قد جعل كل واحد منهم على شىء من أمره: ثبر والأعور ومبسوط وداسم وزلنبور . فأما ثبر : فهو صاحب المصائب الذى يأمر بالثبور وشق الجيوب ولطم الخدود ودعوى الجاهلية . وأما الأعور : فإنه صاحب الزنا يأمر به ويزينه . وأما مبسوط : فهو صاحب الكذب . وأما داسم : فإنه يدخل مع الرجل إلى أهله يرميهم بالعيب عنده ويغضبه عليهم وأما زلنبور : فهو صاحب السوق فبسببه لا يزالون متظلمين . وشيطان الصلاة يسمى خنزب [١] وشيطان الوضوء يسمى الولهان [٢] وقد ورد فى ذلك أخبار كثيرة .

وكما أن الشياطين فيهم كثرة فكذلك فى الملائكة . وقد ذكرنا فى كتاب الشكر السر فى كثرة الملائكة واختصاص كل واحد منهم بعمل منفرد به ، وقد قال أبو أمامة الباهلى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وكل بالمؤمن مائة وستون ملكا يذبون عنه ما لم يقدر عليه من ذلك ؛ للبصر سبعة أملاك يذبون عنه كما يذب الذباب عن قصعة العسل فى اليوم الصائف ، وما لو بدا لكم لرأيتموه على كل سهل وجبل كل باسط يده فاغرفاه، ولو وكل العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين [٣] » .

وقال أيوب بن يونس بن يزيد : بلغنا أنه يولد مع أبناء الإنس من أبناء الجن ثم ينشئون معهم . وروى جابر ابن عبد الله : أن آدم عليه السلام لما هبط إلى الأرض قال يارب هذا الذى جعلت بينى وبينه عداوة إن لم تعنى عليه لا أقوى عليه ، قال : لا يولد لك ولد إلا وكل به ملك ، قال : يارب زدنى ، قال: أجزى بالسيئة سيئة وبالحسنة عشرا إلى ما أريد ، قال : رب زدنى ، قال : باب التوبة مفتوح مادام فى الجسد الروح ، قال إبليس: يارب هذا العبد الذى كرمته على إن لا تعنى عليه لا أقوى عليه ؟ قال لا يولد له ولد إلا ولد لك ولد ، قال : يارب زدنى ، قال : تجرى منهم مجرى الدم وتتخذون صدورهم بيوتا ، قال : رب زدنى ، قال : اجلب عليهم بخيلك ورجلك إلى قوله غرورا ، وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خلق الله الجن ثلاثة أصناف : صنف حيات وعقارب وخشاش الأرض ، وصنف كالريح فى الهواء ، وصنف عليهم الثواب والعقاب . وخلق الله تعالى الإنس ثلاثة أصناف : صنف كالبهائم كما قال تعالى ﴿ لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾وصنف أجسامهم أجسام بنى آدم وأرواحهم أرواح الشياطين، وصنف فى ظل الله تعالى يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله [٤] » ، وقال وهيب بن الورد : بلغنا أن إبليس تمثل ليحيى بن زكريا عليهما السلام وقال : إنى أريد أن أنصحك ، قال : لا حاجة لى فى نصحك ولكن أخبرنى عن بنى آدم قال : هم عندنا ثلاثة أصناف : أما صنف منهم وهم أشد الأصناف علينا نقبل على أحدهم حتى نفتنه ونتمكن منه

---

(١) حديث « إن شيطان الصلاة يسمى خنزب » أخرجه مسلم من حديث عثمان بن أبى العاص وقد تقدم أول الحديث
(٢) حديث « إن شيطان الوضوء يسمى الولهان » تقدم وهو عند الترمذى من حديث أبى .
(٣) حديث أبى أمامه « وكل بالمؤمن مائة وستون ملكا يذبون عنه ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان والطبرانى فى المعجم الكبير باسناد ضعيف (٤) حديث أبى الدرداء « خلق الله الجن ثلاثة أصناف: صنف حيات وعقارب ... الحديث أخرجه ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان وابن حبان فى الضعفاء فى ترجمة يزيد بن سنان وضعفه والحاكم نحوه مختصرا : فى الجن فقط ثلاثة أصناف . من حديث أبى ثعلبة الخشنى وقال صحيح الاسناد .

فيفزع إلى الاستغفار والتوبة فيفسد علينا كل شيء أدركنا منه ثم نعود إليه فيعود فلانحن نيأس منه ولانحن ندرك منه حاجتنا فنحن منه فى عناء . وأما الصنف الآخر فهم فى أيدينا بمنزلة الكرة فى أيدى صبيانكم نقلبهم كيف شئنا قد كفونا أنفسهم . وأما الصنف الثالث فهم مثلك معصومون لانقدر منهم على شيء .

فإن قلت : فكيف يتمثل الشيطان لبعض الناس دون البعض ، وإذا رأى صورة فهل هى صورته الحقيقية أو هو مثال يمثل له به ؟ فإن كان على صورته الحقيقية فكيف يرى بصور مختلفة ؟ وكيف يرى فى وقت واحد فى مكانين وعلى صورتين حتى يراه شخصان بصورتين مختلفتين ؟ فاعلم أن الملك والشيطان لهما صورتان هى حقيقة صورتهما ولا تدرك حقيقة صورتهما بالمشاهدة إلا بأنوار النبوة ، فما رأى النبى صلى الله عليه وسلم جبرائيل عليه السلام فى صورته إلا مرتين (١) وذلك أنه سأله أن يريه نفسه على صورته فواعده بالبقيع وظهر له بحراء فسد الأفق من المشرق إلى المغرب ورآه مرة أخرى على صورته ليلة المعراج عند سدرة المنتهى وإنما كان يراه فى صورة الآدمى غالبا (٢) فكان يراه فى صورة دحية الكلبى (٣) وكان رجلا حسن الوجه . والأكثر أنه يكاشف أهل المكاشفة من أرباب القلوب بمثال صورته فيتمثل الشيطان له فى اليقظة ، فيراه بعينه ويسمع كلامه بأذنه فيقوم ذلك مقام حقيقة صورته كما ينكشف فى المنام لأكثر الصالحين . وإنما المكاشف فى اليقظة هو الذى انتهى إلى رتبة لا يمنعه اشتغال الحواس بالدنيا عن المكاشفة التى تكون فى المنام فيرى فى اليقظة مايراه غيره فى المنام ، كما روى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن رجلا سأل ربه أن يريه موضع الشيطان من قلب ابن آدم ، فرأى فى النوم جسد رجل شبه البلور يرى داخله من خارجه ورأى الشيطان فى صورة ضفدع قاعد على منكبه الأيسر بين منكبه وأذنه ، له خرطوم طويل دقيق قد أدخله من منكبه الأيسر إلى قلبه يوسوس إليه ، فإذا ذكر الله تعالى خنس . ومثل هذا قد يشاهد بعينه فى اليقظة ، فقد رآه بعض المكاشفين فى صورة كلب جاثم على جيفة يدعو الناس إليها ، وكانت الجيفة مثال الدنيا . وهذا يجرى مجرى مشاهدة صورته الحقيقية ، فإن القلب لابد وأن تظهر فيه حقيقة من الوجه الذى يقابل عالم الملكوت وعند ذلك يشرق أثره على وجهه الذى يقابل عالم الملك والشهادة لأن أحدهما متصل بالآخر . وقد بينا أن القلب له وجهان : وجه إلى عالم الغيب وهو مدخل الإلهام والوحى ، ووجه إلى عالم الشهادة . فالذى يظهر منه فى الوجه الذى يلى جانب عالم الشهادة لايكون إلا صورة متخيلة لأن عالم الشهادة كله متخيلات ، إلا أن الخيال تارة يحصل من النظر إلى ظاهر عالم الشهادة بالحس فيجوز أن لاتكون الصورة على وفق المعنى ، حتى يرى شخصا جميل الصورة وهو خبيث الباطن قبيح السر لأن عالم الشهادة عالم كثير التلبيس . أما الصورة التى تحصل فى الخيال من إشراق عالم الملكوت على باطن سر القلوب فلا تكون إلا محاكية للصفة وموافقة لها ، لأن الشيطان فى صورة كلب وضفدع للصفة وموافقة لها ، فلا جرم لايرى المعنى القبيح إلا بصورة قبيحة ، فيرى الشيطان فى صورة كلب وضفدع وخنزير وغيرها ، ويرى الملك فى صورة جميلة فتكون تلك الصورة عنوان المعانى ومحاكية لها بالصدق ، ولذلك يدل القرد والخنزير فى النوم على إنسان خبيث ، وتدل الشاة على إنسان سليم الصدر وهكذا جميع أبواب الرؤيا والتعبير . وهذه أسرار عجيبة وهى من أسرار عجائب القلب ولا يليق ذكرها بعلم المعاملة . وإنما المقصود أن تصدق

---

(١) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم مارأى جبريل فى صورته إلا مرتين أخرجه الشيخان من حديث عائشة : وسئلت هل رأى محمد ربه ؟ وفيه : ولكنه رأى جبريل فى صورته مرتين . (٢) حديث : أنه كان يرى جبريل فى صورة الآدمى غالبا أخرجه الشيخان من حديث عائشة وسئلت : فأين قوله ثم دنا فتدلى قالت ذاك جبريل كان يأتيه فى صورة الرجل الحديث ... »

(٣) حديث : أنه كان يرى جبريل فى صورة دحية الكلبى أخرجه الشيخان من حديث أسامة بن زيد : أن جبريل أتى النبى صلى الله عليه وسلم وعنده أم سلمة فجعل يحدث ثم قام قال النبى صلى الله عليه وسلم لأم سلمة « من هذا؟» قالت : دحية ... الحديث

بأن الشيطان ينكشف لأرباب القلوب وكذلك الملك ، تارة بطريق التمثيل والمحاكاة كما يكون ذلك فى النوم ، وتارة بطريق الحقيقة . والأكثر هو التمثيل بصورة محاكية للمعنى ـ هو مثال المعنى لا عين المعنى ـ إلا أنه يشاهد بالعين مشاهدة محققة وينفرد بمشاهدته المكاشف دون من حوله كالنائم .

بيان ما يؤاخذ به العبد من وساوس القلوب وهمها وخواطرها وقصودها وما يعفى عنه ولا يؤاخذ به

اعلم أن هذا أمر غامض ، وقد وردت فيه آيات وأخبار متعارضة يلتبس طريق الجمع بينها إلا على سماسرة العلماء بالشرع . فقد روى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال « عفى عن أمتى ما حدثت به نفوسها ما لم تتكلم به أو تعمل به [١] » وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم « إن الله تعالى يقول للحفظة : إذا هم عبدى بسيئة فلا تكتبوها فإن عملها فاكتبوها سيئة وإذا هم بحسنة لم يعملها فاكتبوها حسنة فإن عملها فاكتبوها عشرا [٢] » وقد خرجه البخارى ومسلم فى الصحيحين وهو دليل على العفو عن عمل القلب وهمه بالسيئة . وفى لفظ آخر « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ومن هم بحسنة فعملها كتبت له إلى سبعمائة ضعف ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه وإن عملها كتبت » وفى لفظ آخر ، « وإذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها » وكل ذلك يدل على العفو فأما ما يدل على المؤاخذة فقوله سبحانه ﴿إن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾ وقوله تعالى ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا﴾ فدل على أن عمل الفؤاد كعمل السمع والبصر فلا يعفى عنه وقوله تعالى ﴿ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه﴾ وقوله تعالى ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ والحق عندنا فى هذه المسألة لا يوقف عليه ما لم تقع الإحاطة بتفصيل أعمال القلوب من مبدأ ظهورها إلى أن يظهر العمل على الجوارح .

فنقول : أول ما يرد على القلب الخاطر ، كما لو خطر له مثلا صورة امرأة وأنها وراء ظهره فى الطريق لو التفت إليها لرآها . (والثانى) هيجان الرغبة إلى النظر وهو حركة الشهوة فى الطبع وهذا يتولد من الخاطر الأول ونسميه ميل الطبع ويسمى الأول حديث النفس . (والثالث) حكم القلب بأن هذا ينبغى أن يفعل أى ينبغى أن ينظر إليها فإن الطبع إذا مال لم تنبعث الهمة والنية ما لم تندفع الصوارف ، فإنه قد يمنعه حياء أو خوف من الالتفات وعدم هذه الصوارف ربما يكون بتأمل وهو على كل حال حكم من جهة العقل ، ويسمى هذا اعتقادا وهو يتبع الخاطر والميل . (الرابع) تصميم العزم على الالتفات وجزم النية فيه وهذا نسميه هما بالفعل ونية وقصدا ، وهذا الهم قد يكون له مبدأ ضعيف ولكن إذا أصغى القلب إلى الخاطر الأول حتى طالت مجاذبته للنفس تأكد هذا الهم وصار إرادة مجزومة فإذا انجزمت الإرادة فربما يندم بعد الجزم فيترك العمل وربما يغفل بعارض فلا يعمل به ولا يلتفت إليه وربما يعوقه عائق فيتعذر عليه العمل .

فههنا أربع أحوال للقلب قبل العمل بالجارحة : الخاطر وهو حديث النفس ، ثم الميل ، ثم الاعتقاد ، ثم الهم .

فنقول : أما الخاطر فلا يؤاخذ به لأنه لا يدخل تحت الاختيار وكذلك الميل وهيجان الشهوة لأنهما لا يدخلان

---

(١) حديث « عفى لأمتى عما حدثت به نفوسها » متفق عليه من حديث أبى هريرة « إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ... الحديث » (٢) حديث أبى هريرة « يقول الله إذا هم عبدى بسيئة فلا تكتبوها عليه ... الحديث » قال المصنف أخرجه مسلم والبخارى فى الصحيحين قلت هو كما قال واللفظ لمسلم فلهذا والله أعلم قدمه فى الذكر .

أيضا تحت الاختيار ، وهما المرادان بقوله صلى الله عليه وسلم « عفى عن أمتى ماحدثت به نفوسها » فحديث النفس عبارة عن الخواطر التى تهجس فى النفس ولا يتبعها عزم على الفعل ، فأما الهم والعزم فلا يسمى حديث النفس ، بل حديث النفس كما روى عن عثمان بن مظعون حيث قال للنبى صلى الله عليه وسلم : يارسول الله نفسى تحدثنى أن أطلق خولة ، قال « مهلا إن من سنتى النكاح » قال : نفسى تحدثنى أن أجب نفسى ، قال « مهلا خصاء أمتى دءوب الصيام » قال : نفسى تحدثنى أن أترهب ، قال « مهلا رهبانية أمتى الجهاد والحج » قال : نفسى تحدثنى أن أترك اللحم ، قال مهلا فإنى أحبه ولو أصبته لأكلته ولو سألت الله لأطعمنيه [١] » فهذه الخواطر التى ليس معها عزم على الفعل هى حديث النفس ، ولذلك شاور رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لم يكن معه عزم وهم بالفعل .

وأما الثالث : وهو الاعتقاد وحكم القلب بأنه ينبغى أن يفعل فهذا تردد بين أن يكون اضطرارا أو اختيارا ، والأحوال تختلف فيه فالاختيارى منه يؤاخذ به والاضطرارى لا يؤاخذ به .

وأما الرابع وهو الهم بالفعل ؛ فإنه مؤاخذ به إلا أنه إن لم يفعل نظر فإن كان قد تركه خوفا من الله تعالى وندما على همه كتبت له حسنة لأن همه سيئة وامتناعه ومجاهدته نفسه حسنة ، والهم على وفق الطبع مما يدل على تمام الغفلة عن الله تعالى ، والامتناع بالمجاهدة على خلاف الطبع يحتاج إلى قوة عظيمة فجده فى مخالفة الطبع هو العمل لله تعالى والعمل لله تعالى أشد من جده فى موافقة الشيطان بموافقة الطبع فكتب له حسنة لأنه رجح جده فى الامتناع وهمه به على همه بالفعل ، وإن تعوق الفعل بعائق أو تركه بعذر لا خوفا من الله تعالى كتبت عليه سيئة ، فإن همه فعل من القلب اختيارى .

والدليل على هذا التفصيل ماروى فى الصحيح مفصلا فى لفظ الحديث قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « قالت الملائكة عليهم السلام رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقال : ارقبوه ، فإن هو عملها فاكتبوها له بمثلها وإن تركها فاكتبوها له حسنة إنما تركها من جرائى [٢] » وحيث قال : فإن لم يعملها : أراد به تركها لله ، فأما إذا عزم على فاحشة فتعذرت عليه بسبب أو غفلة فكيف تكتب له حسنة ؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم « إنما يحشر الناس على نياتهم [٣] » ونحن نعلم أن من عزم ليلا على أن يصبح ليقتل مسلما أو يزنى بامرأة فمات تلك

---

(١) حديث : إن عثمان بن مظعون قال يارسول الله نفسى تحدثنى أن أطلق خولة قال « مهلا إن من سنتى النكاح .. الحديث » أخرجه الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول من رواية على بن زيد عن سعيد بن المسيب مرسلا نحوه وفيه القاسم بن عبيد الله العمرى كذبه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وللدارمى من حديث سعد بن أبى وقاص : لما كان من أمر عثمان بن مظعون الذى كان من ترك النساء بعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ياعثمان إنى لم أومر بالرهبانية .. الحديث » وفيه « من رغب عن سنتى فليس منى » وهو عندكم بلفظ : رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على عثمان بن مظعون التبتل ولو أذن له لاختصينا . وللبغوى والطبرانى فى معجمى الصحابة بإسناد حسن من حديث عثمان بن مظعون : أنه قال يارسول الله إنى رجل تشق على هذه العزوبة فى المغازى فتأذن لى يارسول الله فى الخصاء فأختصى قال « لا ، ولكن عليك ياابن مظعون بالصيام فإنه مجفرة » ولأحمد والطبرانى بإسناد جيد من حديث عبد الله بن عمرو « خصاء أمتى الصيام والقيام » وله من حديث سعيد بن العاص بإسناد فيه ضعف : أن عثمان بن مظعون قال : يارسول الله ائذن لى فى الاختصاء ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله قد أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة والتكبير على كل شرف .. الحديث » وابن ماجه بسند ضعيف من حديث عائشة « النكاح من سنتى » ولأحمد وأبى يعلى من حديث أنس « لكل نبى » وقال أبو يعلى « لكل أمة رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد فى سبيل الله » وفيه زيد العمى وهو ضعيف ولأبى داود من حديث أبى أمامة « إن سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله » وإسناده جيد .

(٢) حديث : قالت الملائكة رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر .. الحديث . قال المصنف إنه فى الصحيح وهو كما قال فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة

(٣) حديث « إنما يحشر الناس على نياتهم » أخرجه ابن ماجه من حديث جابر دون قوله « إنما » وله من حديث أبى هريرة « إنما يبعث الناس على نياتهم » وإسنادهما حسن ومسلم من حديث عائشة « يبعثهم الله على نياتهم » وله من حديث أم سلمة « يبعثون على نياتهم »

الليلة مات مصرا ويحشر على نيته وقدهم بسيئة ولم يعملها .

والدليل القاطع فيه ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار » فقيل يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال « لأنه أراد قتل صاحبه »[1] ، وهذا نص فى أنه صار بمجرد الإرادة من أهل النار مع أنه قتل مظلوما فكيف يظن أن الله لايؤاخذ بالنية والهم ؟ بل كل هم دخل تحت اختيار العبد فهو مؤاخذ به إلا أن يكفره بحسنة ، ونقض العزم بالندم حسنة فلذلك كتبت له حسنة ، فأمافوت المراد بعائق فليس بحسنة . وأما الخواطر وحديث النفس وهيجان الرغبة فكل ذلك لايدخل تحت اختيار فالمؤاخذة به تكليف مالا يطاق ولذلك لما نزل قوله تعالى ﴿ وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : كلفنا مالا نطيق إن أحدنا ليحدث نفسه بما لايحب أن يثبت فى قلبه ثم يحاسب بذلك فقال صلى الله عليه وسلم : « لعلكم تقولون كما قالت اليهود سمعنا وعصينا قولوا سمعنا وأطعنا فقالوا سمعنا وأطعنا »[2] ، فأنزل الله الفرج بعد سنة بقوله ﴿ لايكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ فظهر به أن كل مالايدخل تحت الوسع من أعمال القلب هو الذى لا يؤاخذ به . فهذا هو كشف الغطاء عن هذا الالتباس . وكل من يظن أن كل مايجرى على القلب يسمى حديث النفس ولم يفرق بين هذه الأقسام الثلاثة فلا بد وأن يغلط وكيف لايؤاخذ بأعمال القلب من الكبر والعجب والرياء والنفاق والحسد وجملة الخبائث من أعمال القلب ؟ بل السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ؟ أى مايدخل تحت الاختيار . فلو وقع البصر بغير اختيار على غير ذى محرم لم يؤاخذ به فإن أتبعها نظرة ثانية كان مؤاخذا به لأنه مختار فكذا خواطر القلب تجرى هذا المجرى بل القلب أولى بمؤاخذته لأنه الأصل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « التقوى ههنا وأشار إلى القلب »[3] ، وقال الله تعالى ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « الإثم حواز القلوب »[4] ، وقال « البر مااطمأن إليه القلب وإن أفتوك وأفتوك »[5] ، حتى إنا نقول إذا حكم القلب المفتى بإيجاب شىء وكان مخطئا فيه صار مثابا عليه بل من قد ظن أنه تطهر فعليه أن يصلى . فإن صلى ثم تذكر أنه لم يتوضأ كان له ثواب بفعله . فإن تذكر ثم تركه كان معاقبا عليه . ومن وجد على فراشه امرأة فظن أنها زوجته لم يعص بوطئها وإن كانت أجنبية . فإن ظن أنها أجنبية ثم وطئها عصى بوطئها وإن كانت زوجته . وكل ذلك نظر إلى القلب دون الجوارح .

بيان أن الوسواس هل يتصور أن ينقطع بالكلية عند الذكر أم لا ؟

اعلم أن العلماء المراقبين للقلوب الناظرين فى صفاتها وعجائبها اختلفوا فى هذه المسألة على خمس فرق :

فقالت فرقة : الوسوسة تنقطع بذكر الله عز وجل لأنه عليه السلام قال « فإذا ذكر الله خنس »[6] ، والخنس هو السكوت فكأنه يسكت .

---

(١) حديث « إذا التقى بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار » الحديث متفق عليه من حديث أبى بكرة .

(٢) حديث : لما نزل قوله تعالى (وإن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) جاء ناس من الصحابة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا كلفنا مالانطيق.. الحديث . أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة وابن عباس نحوه (٣) حديث « التقوى ههنا — وأشار إلى القلب » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة وقال — الى صدره — (٤) حديث « الإثم حواز القلوب » تقدم فى العلم (٥) حديث « البر مااطمأن إليه القلب وإن أفتوك وأفتوك » أخرجه الطبرانى من حديث أبى ثعلبة ولأحمد نحوه من حديث وابصة وفيه « وإن أفتاك الناس وأفتوك » وقد تقدما (٦) حديث « وإذا ذكر الله خنس » أخرجه ابن أبى الدنيا وابن عدى من حديث أنس فى أثناء حديث « إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم ». الحديث » وقد تقدم قريبا .

وقالت فرقة : لاينعدم أصله ولكن يجرى فى القلب ولا يكون له أثر لأن القلب إذا صار مستوعبا بالذكر كان محجوبا عن التأثر بالوسوسة كالمشغول بهمه فإنه قد يتكلم ولا يفهم وإن كان الصوت يمر على سمعه .

وقالت فرقة : لاتسقط الوسوسة ولا أثرها أيضا ولكن تسقط غلبتها للقلب فكأنه يوسوس من بعد وعلى ضعف .

وقالت فرقة : ينعدم عند الذكر فى لحظة وينعدم الذكر فى لحظه ، ويتعاقبان فى أزمنة متقاربة يظن لتقاربها أنها متساوقة وهى كالكرة التى عليها نقط متفرقة فإنك إذا أدرتها بسرعة تواصلها بالحركة ، واستدل هؤلاء بأن الخنس قد ورد ونحن نشاهد الوسوسة مع الذكر ولا وجه له إلا هذا .

وقالت فرقة : الوسوسة والذكر يتساوقان فى الدوام على القلب تساوقا لاينقطع ، وكما أن الإنسان قد يرى بعينيه شيئين فى حالة واحدة فكذلك القلب قد يكون مجرى لشيئين فقد قال صلى الله عليه وسلم « مامن عبد إلا وله أربعة أعين : عينان فى رأسه يبصر بهما أمر دنياه ، وعينان فى قلبه يبصر بهما أمر دينه (١) » وإلى هذا ذهب المحاسبى . والصحيح عندنا أن كل هذه المذاهب صحيحة ولكن كلها قاصرة عن الإحاطة بأصناف الوسواس، وإنما نظر كل واحد منهم إلى صنف واحد من الوسواس فأخبر عنه .

والوسواس أصناف ؛ الأول : أن يكون من جهة التلبيس بالحق ، فإن الشيطان قد يلبس بالحق فيقول للإنسان تترك التنعم باللذات فإن العمر طويل والصبر عن الشهوات طول العمر ألمه عظيم ، فعند هذا إذا ذكر العبد عظيم حق الله تعالى وعظيم ثوابه وعقابه وقال لنفسه : الصبر عن الشهوات شديد ولكن الصبر على النار أشد منه ،ولا بد من أحدهما فإذا ذكر العبد وعد الله تعالى ووعيده وجدد إيمانه ويقينه خنس الشيطان وهرب ، إذ لايستطيع أن يقول له النار أيسر من الصبر على المعاصى ولا يمكنه أن يقول المعصية لاتفضى إلى النار ، فإن إيمانه بكتاب الله عز وجل يدفعه عن ذلك فينقطع وسواسه . وكذلك يوسوس إليه بالعجب بعمله فيقول : أى عبد يعرف الله كما تعرفه ويعبده كما تعبده ؟ فما أعظم مكانك عند الله تعالى ! فيتذكر العبد حينئذ أن معرفته وقلبه وأعضاءه التى بها عمله وعلمه كل ذلك من خلق الله تعالى فمن أين يعجب به ؟ فيخنس الشيطان إذ لايمكنه أن يقول ليس هذا من الله. فإن المعرفة والإيمان يدفعه . فهذا نوع من الوسواس ينقطع بالكلية عن العارفين المستبصرين بنور الإيمان والمعرفة .

الصنف الثانى . أن يكون وسواسه بتحريك الشهوة وهيجانها ، وهذا ينقسم إلى مايعلم العبد يقيناً أنه معصية وإلى مايظنه بغالب الظن . فإن علمه يقيناً خنس الشيطان عن تهييج يؤثر فى تحريك الشهوة ولم يخنس عن التهييج وإن كان مظنونا ، فربما يبقى مؤثراً بحيث يحتاج إلى مجاهدة فى دفعه فتكون الوسوسة موجودة ولكنها مدفوعة غير غالبة .

الصنف الثالث : أن تكون وسوسة بمجرد الخواطر وتذكر الأحوال الغالبة والتفكر فى غير الصلاة مثلا، فإذا أقبل على الذكر تصور أن يندفع ساعة ويعود ، ويندفع ويعود ، فيتعاقب الذكر والوسوسة ويتصور أن يتساوقا جميعا حتى يكون الفهم مشتملا على فهم معنى القراءة وعلى تلك الخواطر كأنهما فى موضعين من القلب . وبعيد جداً أن يندفع هذا الخنس بالكلية بحيث لايخطر ، ولكنه ليس محالا إذ قال عليه السلام « من صلى ركعتين لم يحدث فيهما

(١) حديث « مامن عبد إلا وله أربعة أعين عينان فى رأسه يبصر بهما أمر دنياه وعينان فى قلبه يبصر بهما أمر دينه » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث معاذ بلفظ « الآخرة » مكان « دينه » وفيه الحسين بن أحمد بن محمد الهروى الشماخى الحافظ كذبه الحاكم والآفة منه .

نفسه بشيء من أمر الدنيا غفر له ماتقدم من ذنبه [١] » فلولا أنه متصوّر لما ذكره ، إلا أنه لايتصوّر ذلك إلا فى قلب استولى عليه الحب حتى صار كالمستهتر ، فإنا قد نرى المستوعب القلب بعدو تأذى به قد يتفكر بمقدار ركعتين وركعات فى مجادلة عدوّه بحيث لايخطر بباله غير حديث عدوّه ، وكذلك المستغرق فى الحب قد يتفكر فى محادثة محبوبه بقلبه ويغوص فى فكره بحيث لايخطر بباله غير حديث محبوبه ، ولو كلمه غيره لم يسمع ولو اجتاز بين يد أحد لكان كأن لايراه . وإذا تصور هذا فى خوف من عدو وعند الحرص على مال وجاه فكيف لايتصوّر من خوف النار والحرص على الجنة ولكن ذلك عزيز لضعف الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر ، وإذا تأملت جملة هذه الأقسام وأصناف الوسواس علمت أنّ لكل مذهب من المذاهب وجها فى محل مخصوص .

وبالجملة فالخلاص من الشيطان فى لحظة أو ساعة غير بعيد ولكن الخلاص منه عمراً طويلا بعيد جدا ، ومحال فى الوجود ولو تخلص أحد من وساوس الشيطان بالخواطر وتهييج الرغبة لتخلص رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد روى : أنه نظر إلى علم ثوبه فى الصلاة فلما سلم رمى بذلك الثوب وقال « شغلنى عن الصلاة » وقال « اذهبوا به إلى أبى جهم وائتونى بأنبجانيته [٢] » وكان فى يده خاتم من ذهب فنظر إليه وهو على المنبر ثم رمى به وقال « نظرة إليه ونظرة إليكم [٣] » وكان ذلك لوسوسة الشيطان بتحريك لذة النظر إلى خاتم الذهب وعلم الثوب ـ وكان ذلك قبل تحريم الذهب فلذلك لبسه ثم رمى به ـ فلا تنقطع وسوسة عروض الدنيا ونقدها إلا بالرمى والمفارقة ، فما دام يملك شيئا وراء حاجته ولو ديناراً واحداً لايدعه الشيطان فى صلاته من الوسوسة فى الفكر فى ديناره ، وأنه كيف يحفظه ؟ وفيماذا ينفقه ؟ وكيف يخفيه حتى لايعلم به أحد وكيف يظهره حتى يتباهى به ؟ إلى غير ذلك من الوساوس . فمن أنشب مخالبه فى الدنيا وطمع فى أن يتخلص من الشيطان كان كمن انغمس فى العسل وظن أنّ الذباب لايقع عليه فهو محال . فالدنيا باب عظيم لوسوسة الشيطان . وليس له باب واحد بل أبواب كثيرة . قال حكيم من الحكماء : الشيطان يأتى ابن آدم من قبل المعاصى ، فإن امتنع أتاه من وجه النصيحة حتى يلقيه فى بدعة ، فإن أبى أمره بالتحرج والشدّة حتى يحرم ماليس بحرام ، فإن أبى شككه فى وضوئه وصلاته حتى يخرجه عن العلم ، فإن أبى خفف عليه أعمال البر حتى يراه الناس صابرا عفيفاً فتميل قلوبهم إليه فيعجب بنفسه وبه يهلكه ، وعند ذلك يشتدّ إلحاحه فإنها آخر درجة ويعلم أنه لو جاوزها أفلت منه إلى الجنة .

بيان سرعة تقلب القلب وانقسام القلوب فى التغير والثبات

اعلم أن القلب كما ذكرناه تكتنفه الصفات التى ذكرناها وتنصب إليه الآثار والأحوال من الأبواب التى وصفناها ، فكأنه هدف يصاب على الدوام من كل جانب ، فإذا أصابه شيء يتأثر به أصابه من جانب آخر مايضاده فتتغير صفته . فإن نزل به الشيطان فدعاه إلى الهوى نزل به الملك وصرفه عنه ، وإن جذبه شيطان إلى شر جذبه شيطان آخر إلى غيره ، وإن جذبه ملك إلى خير جذبه آخر إلى غيره . فتارة يكون متنازعا بين ملكين ، وتارة بين شيطانين ، وتارة بين ملك وشيطان ـ لايكون قط مهملا ـ وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ﴾ ولاطلاع رسول الله صلى الله عليه وسلم على عجيب صنع الله تعالى فى عجائب القلب وتقلبه كان يحلف

---

(١) حديث « من صلى ركعتين لم يحدث فيهما نفسه بشيء من الدنيا .. » تقدم فى الصلاة .

(٢) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم نظر الى علم فى ثوبه فى الصلاة .. الحديث . تقدم (٣) حديث : كان فى يده خاتم من ذهب فنظر اليه على المنبر فرماه فقال « نظرة اليكم » أخرجه النسائى من حديث ابن عباس وتقدم فى الصلاة .

به فيقول « لا ومقلب القلوب [١] » وكان كثيراً مايقول « يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » قالوا أو تخاف يارسول الله ؟ قال « وما يؤمنني والقلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء [٢] » وفى لفظ آخر « إن شاء أن يقيمه أقامه وإن شاء أن يزيغه أزاغه » .

وضرب له صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمثلة : فقال « مثل القلب مثل العصفور يتقلب فى كل ساعة [٣] » وقال عليه السلام « مثل القلب فى تقلبه كالقدر إذا استجمعت غليانا [٤] » وقال « مثل القلب كمثل ريشة فى أرض فلاة تقلبها الرياح ظهراً لبطن [٥] » وهذه التقلبات وعجائب صنع الله تعالى فى تقلبها من حيث لاتهتدى إليه المعرفة لايعرفها إلا المراقبون والمراعون لأحوالهم مع الله تعالى .

والقلوب فى الثبات على الخير والشر والتردد بينهما ، ثلاثة : قلب عمر بالتقوى وزكا بالرياضة وطهر عن خبائث الأخلاق تنقدح فيه خواطر الخير من خزائن الغيب ومداخل الملكوت ، فينصرف العقل إلى التفكر فيما خطر له ليعرف دقائق الخير فيه ويطلع على أسرار فوائده فينكشف له بنور البصيرة وجهه ، فيحكم بأنه لابد من فعله فيستحثه عليه ويدعوه إلى العمل به ، وينظر الملك إلى القلب فيجده طيبا فى جوهره طاهرا بتقواه مستنيرا بضياء العقل معمورا بأنوار المعرفة فيراه صالحا لأن يكون له مستقرا ومهبطا ، فعند ذلك يمده بجنود لاترى ويهديه إلى خيرات أخرى حتى ينجر الخير إلى الخير وكذلك على الدوام ، ولايتناهى إمداده بالترغيب بالخير وتيسير الأمر عليه . وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ﴾ وفى مثل هذا القلب يشرق نور المصباح من مشكاة الربوبية حتى لايخفى فيه الشرك الخفى الذى هو أخفى من دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء ، فلا يخفى على هذا النور خافية ولايروج عليه شيء من مكايد الشيطان ، بل يقف الشيطان ويوحى زخرف القول غرورا فلا يلتفت إليه وهذا القلب بعد طهارته من المهلكات يصير على القرب معمورا بالمنجيات — التى سنذكرها — من الشكر والصبر والخوف والرجاء والفقر والزهد والمحبة والرضا والشوق والتوكل والتفكر والمحاسبة وغير ذلك . وهو القلب الذى أقبل الله عزوجل بوجهه عليه ، وهو القلب المطمئن المراد بقوله تعالى ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ وبقوله عزوجل ﴿ ياأيتها النفس المطمئنة ﴾ .

القلب الثانى : القلب المخذول المشحون بالهوى ، المدنس بالأخلاق المذمومة والخبائث ، المفتوح فيه أبواب الشياطين ، المسدود عنه أبواب الملائكة . ومبدأ الشر فيه أن ينقدح فيه خاطر من الهوى ويهجس فيه فينظر القلب إلى حاكم العقل ليستفتى منه ويستكشف وجه الصواب فيه ، فيكون العقل قد ألف خدمة الهوى وأنس به واستمر على استنباط الحيل له وعلى مساعدة الهوى ، فتستولى النفس وتساعد عليه فينشرح الصدر بالهوى وتنبسط فيه

---

(١) حديث « لاومقلب القلوب » أخرجه البخارى من حديث ابن عمر (٢) حديث « يامثبت القلوب ثبت قلبي على دينك » الحديث أخرجه الترمذى من حديث أنس وحسنه والحاكم من حديث جابر وقال ابن أبى الدنيا صحيح على شرط مسلم ولمسلم من حديث عبد الله ابن عمرو « اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك » والنسائى فى الكبرى وابن ماجه والحاكم وصححه على شرط البخارى ومسلم من حديث النواس بن سمعان « مامن قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه » والنسائى فى الكبرى باسناد جيد نحوه من حديث عائشة (٣) حديث « مثل القلب مثل العصفور يتقلب فى كل ساعة » أخرجه الحاكم فى المستدرك وقال صحيح على شرط مسلم والبيهقى فى الشعب من حديث أبى عبيدة بن الجراح . قلت رواه البغوى فى معجمه من حديث أبى عبيد غير منسوب وقال لا أدرى له صحبة أم لا .

(٤) حديث « مثل القلب فى تقلبه كالقدر إذا استجمعت غليانا » أخرجه أحمد والحاكم وقال صحيح على شرط البخارى من حديث المقداد بن الأسود (٥) حديث « مثل القلب كمثل ريشة بأرض فلاة .. » الحديث » أخرجه الطبرانى فى الكبير والبيهقى فى الشعب من حديث أبى موسى الأشعرى باسناد حسن وللبزار نحوه من حديث أنس باسناد ضعيف .

ظلماته لانحباس جند العقل عن مدافعته . فيقوى سلطان الشيطان لاتساع مكانه بسبب انتشار الهوى فيقبل عليه بالتزيين والغرور والأمانى ، ويوحى بذلك زخرفا من القول غرورا فيضعف سلطان الإيمان بالوعد والوعيد ، ويخبو نور اليقين لخوف الآخرة إذ يتصاعد عن الهوى دخان مظلم إلى القلب يملأ جوانبه حتى تنطفىء أنواره ، فيصير العقل كالعين التى ملأ الدخان أجفانها فلا يقدر على أن ينظر ، وهكذا تفعل غلبة الشهوة بالقلب حتى لايبقى للقلب إمكان التوقف والاستبصار ، ولو بصره واعظ وأسمعه ماهو الحق فيه عمى عن الفهم ، وصم عن السمع ، وهاجت الشهوة فيه ، وسطا الشيطان ، وتحركت الجوارح على وفق الهوى فظهرت المعصية إلى عالم الشهادة من عالم الغيب بقضاء من الله تعالى وقدرة . وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله تعالى ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا . أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾ وبقوله عزوجل ﴿ لقد حق القول على أكثرهم فهم لايؤمنون ﴾ وبقوله ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون ﴾ ورب قلب هذا حاله بالإضافة إلى بعض الشهوات كالذى يتورع عن بعض الأشياء ولكنه إذا رأى وجهاً حسناً لم يملك عينه وقلبه وطاش عقله وسقط مساك قلبه ، أو كالذى لايملك نفسه فيما فيه الجاه والرياسة والكبر ، ولايبقى معه مسكة للتثبت عند ظهور أسبابه ، أو كالذى لايملك نفسه عند الغضب مهما استحقر وذكر عيب من عيوبه ، أو كالذى لايملك نفسه عند القدرة على أخذ درهم أو دينار بل يتهالك عليه تهالك الواله المستهتر فينسى فيه المروءة والتقوى ، فكل ذلك لتصاعد دخان الهوى إلى القلب حتى يظلم وتنطفىء منه أنواره فينطفىء نور الحياء والمروءة والإيمان ويسعى فى تحصيل مراد الشيطان .

القلب الثالث : قلب تبدو فيه خواطر الهوى فتدعوه إلى الشر فيلحقه خاطر الإيمان فيدعوه إلى الخير ، فتنبعث النفس بشهوتها إلى نصرة خاطر الشر فتقوى الشهوة وتحسن التمتع والتنعم ، فينبعث العقل إلى خاطر الخير ويدفع فى وجه الشهوة ويقبح فعلها وينسبها إلى الجهل ويشبهها بالبهيمة والسبع فى تهجمها على الشر وقلة اكتراثها بالعواقب فتميل النفس إلى نصح العقل فيحمل الشيطان حملة على العقل فيقوى داعى الهوى ويقول ماهذا التحرج البارد ولم تمتنع عن هواك فتؤذى نفسك ؟ وهل ترى أحداً من أهل عصرك يخالف هواه أو يترك غرضه ؟ أفتترك لهم ملاذ الدنيا يتمتعون بها وتحجر على نفسك حتى تبقى محروما شقياً متعوبا يضحك عليك أهل الزمان ؟ أفتريد أن يزيد منصبك على فلان وفلان وقد فعلوا مثل ما اشتهيت ولم يمتنعوا ؟ أماترى العالم الفلانى ليس يحترز من مثل ذلك ولو كان ذلك شرا لامتنع منه ؟ فتميل النفس إلى الشيطان وتنقلب إليه ؛ فيحمل الملك حملة على الشيطان ويقول هل لك إلا من اتبع لذة الحال ونسى العاقبة ؟ أفتقنع بلذة يسيرة وتترك لذة الجنة ونعيمها أبد الآباد ؟ أم تستثقل ألم الصبر عن شهوتك ولا تستثقل ألم النار ؟ أتغتر بغفلة الناس عن أنفسهم واتباعهم هواهم ومساعدتهم الشيطان مع أن عذاب النار لايخففه عنك معصية غيرك ؟ أرأيت لو كنت فى يوم صائف شديد الحر ووقف الناس كلهم فى الشمس وكان لك بيت بارد أكنت تساعد الناس أو تطلب لنفسك الخلاص ؟ فكيف تخالف الناس خوفا من حر الشمس ولاتخالفهم خوفا من حر النار ؟ فعند ذلك تمتثل النفس إلى قول الملك فلايزال يتردد بين الجندين متجاذبا بين الحزبين إلى أن يغلب على القلب ماهو أولى به فإن كانت الصفات التى فى القلب الغالب عليها الصفات الشيطانية التى ذكرناها غلب الشيطان ومال القلب إلى جنسه من أحزاب الشيطان معرضا عن حزب الله تعالى وأوليائه ، ومساعداً لحزب الشيطان وأعدائه ، وجرى على جوارحه بسابق القدر ماهو سبب بعده عن الله تعالى ، وإن كان الأغلب على القلب الصفات الملكية لم يصغ القلب إلى إغواء الشيطان

وتحريضه إياه على العاجلة وتهوينه أمر الآخرة ، بل مال إلى حزب الله تعالى وظهرت الطاعة بموجب ماسبق من القضاء على جوارحه ، فقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن - أى بين تجاذب هذين الجندين وهو الغالب - أعنى التقليب والانتقال من حزب إلى حزب ، أما الثبات على الدوام مع حزب الملائكة أو مع حزب الشيطان فنادر من الجانبين وهذه الطاعات والمعاصى تظهر من خزائن الغيب إلى عالم الشهادة بواسطة خزانة القلب فإنه من خزائن الملكوت ، وهى أيضا إذا ظهرت كانت علامات تعرّف أرباب القلوب سابق القضاء . فمن خلق للجنة يسرت له أسباب الطاعات ومن خلق للنار يسرت له أسباب المعاصى وسلط عليه أقران السوء وألقى فى قلبه حكم الشيطان ، فإنه بأنواع الحكم يغر الحمقى بقوله : إنّ الله رحيم فلا تبال ، وإنّ الناس كلهم ما يخافون الله فلا تخالفهم ، وإن العمر طويل فاصبر حتى تتوب غدا ﴿ يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ﴾ يعدهم التوبة ويمنيهم المغفرة فيهلكهم بإذن الله تعالى بهذه الحيل ومايجرى مجراها ، فيوسع قلبه لقبول الغرور ويضيقه عن قبول الحق ، وكل ذلك بقضاء من الله وقدر ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء - إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ﴾ فهو الهادى والمضل يفعل ما يشاء ويحكم مايريد لاراد لحكمه ولا معقب لقضائه . خلق الجنة وخلق لها أهلا فاستعملهم بالطاعة ، وخلق النار وخلق لها أهلا فاستعملهم بالمعاصى . وعرف الخلق علامة أهل الجنة وأهل النار فقال ﴿ إنّ الأبرار لفى نعيم وإنّ الفجار لفى جحيم ﴾ ثم قال تعالى فيما روى عن نبيه صلى الله عليه وسلم « هؤلاء فى الجنة ولاأبالى وهؤلاء فى النار ولا أبالى (١) » فتعالى الله الملك الحق لايسئل عما يفعل وهم يسئلون .

ولنقتصر على هذا القدر اليسير من ذكر عجائب القلب فإن استقصاءه لايليق بعلم المعاملة ، وإنما ذكرنا منه مايحتاج إليه لمعرفة أغوار علوم المعاملة وأسرارها لينتفع بها من لايقنع بالظواهر ولايجتزئ بالقشر عن اللباب بل يتشوق إلى معرفة دقائق حقائق الأسباب . وفيما ذكرناه كفاية له ومقنع إن شاء الله تعالى والله ولى التوفيق .

تم كتاب عجائب القلب ولله الحمد والمنة . ويتلوه كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ، والحمد لله وحده وصلى الله على كل عبد مصطفى .

كتاب رياضة النفس

وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب

وهو الكتاب الثانى من ربع المهلكات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى صرف الأمور بتدبيره وعدل تركيب الخلق فأحسن فى تصويره ، وزين صورة الإنسان بحسن تقويمه وتقديره ، وحرسه من الزيادة والنقصان فى شكله ومقاديره ، وفوض تحسين الأخلاق إلى اجتهاد العبد وتشميره واستحثه على تهذيبها بتخويفه وتحذيره ، وسهل على خواص عباده تهذيب الأخلاق بتوفيقه وتيسيره ، وامتن عليهم

(١) حديث « قال الله عزوجل هؤلاء الى الجنة ولا أبالى وهؤلاء الى النار ولا أبالى » أخرجه أحمد وابن حبان من حديث عبد الرحمن بن قتادة السلمى وقال ابن عبد البر فى الاستيعاب انه مضطرب الاسناد .

بتسهيل صعبه وعسيره ، والصلاة والسلام على محمد عبد الله ونبيه وحبيبه وصفيه وبشيره ونذيره ،الذى كان يلوح أنوار النبوة من بين أساريره ، ويستشرف حقيقة الحق من مخايله وتباشيره ، وعلى آله وأصحابه الذين طهروا وجه الإسلام من ظلمة الكفر ودياجيره ، وحسموا مادة الباطل فلم يتدنسوا بقليله ولا بكثيره :

أما بعد : فالخلق الحسن صفة سيد المرسلين وأفضل أعمال الصديقين ، وهو على التحقيق شطر الدين وثمرة مجاهدة المتقين ورياضة المتعبدين . والأخلاق السيئة هى السموم القاتلة والمهلكات الدامغة والمخازى الفاضحة والرذائل الواضحة والخبائث المبعدة عن جوار رب العالمين ، المنخرطة بصاحبها فى سلك الشياطين ، وهى الأبواب المفتوحة إلى نار الله تعالى الموقدة التى تطلع على الأفئدة ، كما أن الأخلاق الجميلة هى الأبواب المفتوحة من القلب إلى نعيم الجنان وجوار الرحمن ، والأخلاق الخبيثة أمراض القلوب وأسقام النفوس إلا أنه مرض يفوت حياة الأبد ، وأين منه المرض الذى لايفوت إلاحياة الجسد ؟ ومهما اشتدت عناية الأطباء بضبط قوانين العلاج للأبدان وليس فى مرضها إلا فوت الحياة الفانية ، فالعناية بضبط قوانين العلاج لأمراض القلوب وفى مرضها فوت حياة باقية أولى ، وهذا النوع من الطب واجب تعلمه على كل ذى لب إذ لايخلو قلب من القلوب عن أسقام لو أهملت تراكمت وترادفت العلل وتظاهرت ، فيحتاج العبد إلى تأنق فى معرفة علمها وأسبابها ثم إلى تشمير فى علاجها وإصلاحها ، فمعالجتها هو المراد بقوله تعالى ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ وإهمالها هو المراد بقوله ﴿ وقد خاب من دساها ﴾ ونحن نشير فى هذا الكتاب إلى جمل من أمراض القلوب وكيفية القول فى معالجتها على الجملة من غير تفصيل لعلاج خصوص الأمراض ، فإن ذلك يأتى فى بقية الكتب من هذا الربع وغرضنا الآن النظر الكلى فى تهذيب الأخلاق وتمهيد منهاجها . ونحن نذكر ذلك ونجعل علاج البدن مثالا له ليقرب من الأفهام دركه ويتضح ذلك ببيان فضيلة حسن الخلق ، ثم بيان حقيقة حسن الخلق ، ثم بيان قبول الأخلاق للتغير بالرياضة ، ثم بيان السبب الذى به ينال حسن الخلق ، ثم بيان الطرق التى بها يعرف تفصيل الطرق إلى تهذيب الأخلاق ورياضة النفوس ، ثم بيان العلامات التى بها يعرف مرض القلب ثم بيان الطرق التى بها يعرف الإنسان عيوب نفسه ، ثم بيان شواهد النقل على أن طريق المعالجة للقلوب بترك الشهوات لاغير ، ثم بيان علامات حسن الخلق ، ثم بيان الطريق فى رياضة الصبيان فى أول النشو ، ثم بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة فهى أحد عشر فصلا يجمع مقاصدها هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

بيان فضيلة حسن الخلق ومذمة سوء الخلق

قال الله تعالى لنبيه وحبيبه مثنيا عليه ومظهرا نعمته لديه ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ وقالت عائشة رضى الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خلقه القرآن (١) وسأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حسن الخلق فتلا قوله تعالى ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين ﴾ ثم قال صلى الله عليه وسلم « هو أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « أثقل مايوضع فى الميزان يوم القيامة تقوى الله وحسن الخلق (٤) » وجاء رجل إلى رسول الله

(١) حديث عائشة : كان خلقه القرآن تقدم وهو عند مسلم (٢) حديث « تأويل قوله تعالى (خذ العفو) الآية هو أن تصل من قطعك . . الحديث » أخرجه ابن مردويه من حديث جابر وقيس بن سعد بن عبادة وأنس بأسانيد حسان (٣) حديث « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » أخرجه أحمد والحاكم والبيهقى من حديث أبى هريرة وتقدم فى آداب الصحبة .
(٤) حديث « أثقل مايوضع فى الميزان خلق حسن » أخرجه أبو داود والترمذى وصححه من حديث أبى الدرداء .

صلى الله عليه وسلم من بين يديه فقال : يارسول الله ما الدين ؟ قال « حسن الخلق » فأتاه من قبل يمينه فقال : يارسول الله ماالدين ؟ قال « حسن الخلق » ثم أتاه من قبل شماله فقال : ماالدين ؟ فقال « حسن الخلق » ثم أتاه من ورائه فقال يارسول الله ماالدين ؟ فالتفت إليه وقال « أما تفقه ؟ هوأن لاتغضب (١) » وقيل يارسول الله ماالشؤم ؟ قال « سوء الخلق (٢) » وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : أوصنى فقال « اتق الله حيثما كنت » قال زدنى قال « أتبع السيئة الحسنة تمحها » قال زدنى قال « خالق الناس بخلق حسن (٣) » وسئل عليه السلام : أى الأعمال أفضل ؟ قال « خلق حسن » وقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « ماحسن الله خلق عبد وخلقه فيطعمه النار (٤) » وقال الفضيل قيل لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهى سيئة الخلق تؤذى جيرانها بلسانها قال « لاخير فيها هى من أهل النار » وقال أبو الدرداء سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم يقول « أول ما يوضع فى الميزان حسن الخلق والسخاء ولما خلق الله الإيمان قال اللهم قونى فقواه بحسن الخلق والسخاء ، ولما خلق الله الكفر قال اللهم قونى فقواه بالبخل وسوء الخلق (٥) » وقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « إن الله استخلص هذا الدين لنفسه ولا يصلح لدينكم إلا السخاء وحسن الخلق ألا فزينوا دينكم بهما (٦) » وقال عليه السلام « حسن الخلق خلق الله الأعظم (٧) » وقيل : يارسول الله أى المؤمنين أفضل إيمانا ؟ قال « أحسنهم خلقا (٨) » وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق (٩) » وقال أيضا صلى الله تعالى عليه وسلم « سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل (١٠) » وعن جرير بن عبدالله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنك امرؤ قد حسن الله خلقك فحسن خلقك (١١) » وعن البراء بن عازب قال كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أحسن الناس وجها وأحسنهم خلقا (١٢) وعن أبى مسعود البدرى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه « اللهم حسنت خلقى فحسن خلقى (١٣) » وعن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر الدعاء فيقول « اللهم إنى أسألك

---

(١) حديث : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم من بين يديه فقال : ما الدين ؟ قال « حسن الخلق .. الحديث » أخرجه محمد بن نصر المروزى فى كتاب تعظيم قدر الصلاة من رواية أبى العلاء بن الشخير مرسلا (٢) حديث : ماالشؤم ؟ قال « سوء الخلق » أخرجه أحمد من حديث عائشة « الشؤم سوء الخلق » ولأبى داود من حديث رافع بن مكيث « سوء الخلق شؤم » وكلاهما لايصح (٣) حديث : قال رجل أوصنى قال « اتق الله حيثما كنت .. الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبى ذر وقال حسن صحيح (٤) حديث « ماحسن الله خلق امرئ وخلقه فتطعمه النار » تقدم فى آداب الصحبة .

(٥) حديث أبى الدرداء « أول مايوضع فى الميزان حسن الخلق .. الحديث » لم أقف له على أصل هكذا ولأبى داود والترمذى من حديث أبى الدرداء « مامن شىء فى الميزان أثقل من حسن الخلق » وقال غريب وقال فى بعض طرقه حسن صحيح (٦) حديث « إن الله استخلص هذا الدين لنفسه .. الحديث » أخرجه الدارقطنى فى كتاب المستجاد ، والخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث أبى سعيد الخدرى باسناد فيه لين (٧) حديث « حسن الخلق خلق الله الأعظم » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث عمار ابن ياسر بسند ضعيف (٨) حديث : قيل يارسول الله أى المؤمنين أفضلهم إيمانا ؟ قال « أحسنهم خلقا » أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى والحاكم من حديث أبى هريرة وتقدم فى النكاح بلفظ « أكمل المؤمنين » والطبرانى من حديث أبى أمامة « أفضلكم إيمانا أحسنكم خلقا » (٩) حديث « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق » أخرجه البزار وأبو يعلى والطبرانى فى مكارم الأخلاق من حديث أبى هريرة وبعض طرق البزار رجاله ثقات (١٠) حديث « سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل » أخرجه ابن حبان فى الضعفاء من حديث أبى هريرة والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس وأبى هريرة أيضاً وضعفهما ابن جرير (١١) حديث « إنك امرؤ قد حسن الله خلقك فأحسن خلقك » أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق وأبو العباس الدغولى فى كتاب الآداب وفيه ضعف (١٢) حديث البراء : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجها وأحسنهم خلقا أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق بسند حسن (١٣) حديث أبى مسعود البدرى « اللهم كما حسنت خلقى فحسن خلقى » أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق هكذا من رواية عبد الله بن أبى الهذيل عن أبى مسعود البدرى وإنما هو ابن مسعود أى عبد الله ، هكذا رواه ابن حبان فى صحيحه ورواه أحمد من حديث عائشة .

الصحة والعافية وحسن الخلق (١) » وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال « كرم المؤمن دينه ، وحسبه حسن خلقه ، ومروءته عقله (٢) » وعن أسامة بن شريك قال : شهدت الأعاريب يسألون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقولون ماخير ماأعطى العبد ؟ قال « خلق حسن (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن أحبكم إلى وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا (٤) » وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث من لم تكن فيه أو واحدة منهن فلا تعتدوا بشيء من عمله تقوى تحجزه عن معاصى الله أو حلم يكف به السفيه أو خلق يعيش به بين الناس (٥) » وكان من دعائه صلى الله تعالى عليه وسلم في افتتاح الصلاة « اللهم اهدنى لأحسن الأخلاق لايهدى لأحسنها إلا أنت واصرف عنى سيئها لايصرف عنى سيئها إلا أنت (٦) » وقال أنس : بينما نحن مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوما إذ قال « إن حسن الخلق ليذيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد (٧) » وقال عليه السلام « من سعادة المرء حسن الخلق (٨) » وقال صلى الله عليه وسلم « اليمن حسن الخلق (٩) » وقال عليه السلام لأبى ذر « ياأبا ذر لاعقل كالتدبير ولا حسب كحسن الخلق (١٠) » وعن أنس قال : قالت أم حبيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أرأيت المرأة يكون لها زوجان فى الدنيا فتموت ويموتان ويدخلون الجنة لأيهما هى تكون ؟ قال « لأحسنهما خلقا كان عندها فى الدنيا ، ياأم حبيبة ذهب حسن الخلق بخيرى الدنيا والآخرة (١١) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن المسلم المسدد ليدرك درجة الصائم القائم بحسن خلقه وكرم مرتبته (١٢) » وفى رواية « درجة الظمآن فى الهواجر » وقال عبد الرحمن بن سمرة : كنا عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال « إنى رأيت البارحة عجبا رأيت رجلا من أمتى جاثيا على ركبتيه وبينه وبين الله حجاب فجاء حسن خلقه فأدخله على الله تعالى (١٣) » وقال أنس : قال النبى صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وشرف المنازل وإنه لضعيف فى العبادة (١٤) » وروى : أن عمر رضى الله عنه استأذن على النبى صلى الله عليه وسلم وعنده

---

(١) حديث عبد الله بن عمرو « اللهم إنى أسألك الصحة والعافية وحسن الخلق » أخرجه الخرايطى فى مكارم الأخلاق بإسناد فيه ابن (٢) حديث أبى هريرة « كرم المرء دينه ومروءته عقله وحسن خلقه » أخرجه ابن حبان والحاكم وصححه على شرط مسلم والبيهقى . قلت فيه مسلم بن خالد الزنجى وقد تكلم فيه . قال البيهقى وروى من وجهين آخرين ضعيفين ثم رواه موقوفا على عمر وقال إسناد صحيح (٣) حديث أسامة بن شريك : شهدت الأعاريب يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم ماخير ما أعطى العبد ؟ قال « خلق حسن » أخرجه ابن ماجه وتقدم فى آداب الصحبة .

(٤) حديث « إن أحبكم إلى الله وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا » أخرجه الطبرانى فى الصغير والأوسط من حديث أبى هريرة « إن أحبكم إلى الله أحاسنكم أخلاقا » وللطبرانى فى مكارم الأخلاق من حديث جابر « إن أقربكم منى مجلسا أحاسنكم أخلاقا » وقد تقدم الحديثان فى آداب الصحبة (٥) حديث ابن عباس « ثلاث من لم يكن فيه أو واحدة منهن فلا يعتد بشيء من عمله ... الحديث » أخرجه الخرايطى فى مكارم الأخلاق بإسناد ضعيف ورواه الطبرانى فى الكبير وفى مكارم الأخلاق من حديث أم سلمة (٦) حديث « اللهم اهدنى لأحسن الأخلاق .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث على (٧) حديث أنس : إن حسن الخلق ليذيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد » أخرجه الخرايطى فى مكارم الأخلاق بسند ضعيف ورواه الطبرانى والطيالسى والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس وضعفه وكذا رواه من حديث أبى هريرة وضعفه أيضاً (٨) حديث « من سعادة المرء حسن الخلق » أخرجه الخرايطى فى مكارم الأخلاق والبيهقى فى الشعب من حديث جابر بسند ضعيف (٩) حديث « اليمن حسن الخلق » أخرجه الخرايطى فى مكارم الأخلاق من حديث على بإسناد ضعيف (١٠) حديث « ياأباذر لاعقل كالتدبير ولاحسب كحسن الخلق » أخرجه ابن ماجه وابن حبان من حديث أبى ذر (١١) حديث أنس : قالت أم حبيبة يارسول الله أرأيت المرأة يكون لها زوجان الحديث أخرجه البزار والطبرانى فى الكبير والخرايطى فى مكارم الأخلاق بإسناد ضعيف (٢) حديث « إن المسلم المسدد ليدرك درجة الصائم القائم بحسن خلقه .. الحديث » أخرجه أحمد من حديث عبدالله بن عمرو بالرواية الأولى ومن حديث أبى هريرة بالرواية الثانية وفيهما ابن لهيعة (١٣) حديث عبد الرحمن بن سمرة « إنى رأيت البارحة عجبا ... الحديث » أخرجه الخرايطى فى مكارم الأخلاق بسند ضعيف (١٤) حديث « إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة . الحديث » أخرجه الطبرانى والخرايطى فى مكارم الأخلاق وأبو الشيخ فى كتاب مكارم الأخلاق وأبو الشيخ فى كتاب طبقات الأصبهانيين من حديث أنس بإسناد جيد .

نساء من نساء قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن على صوته فلما استأذن عمر رضى الله عنه تبادرن الحجاب فدخل عمر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك فقال عمر رضى الله عنه : مم تضحك بأبى أنت وأمى يارسول الله؟ فقال « عجبت لهؤلاء اللاتى كن عندى لما سمعن صوتك تبادرن الحجاب » فقال عمر : أنت كنت أحق أن يهبنك يا رسول الله ، ثم أقبل عليهن عمر فقال : يا عدوات أنفسهن أتهبننى ولا تهبن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قلن: نعم أنت أغلظ وأفظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم « إيهاً يا ابن الخطاب والذى نفسى بيده مالقيك الشيطان قط سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك [١] » وقال صلى الله عليه وسلم « سوء الخلق ذنب لايغفر وسوء الظن خطيئة تفوح [٢] » وقال عليه السلام « إن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم [٣] ».

الآثار : قال ابن لقمان الحكيم لأبيه : يا أبت أى الخصال من الإنسان خير ؟ قال : الدين ، قال : فإذا كانت اثنتين ؟ قال : الدين والمال . قال : فإذا كانت ثلاثا ؟ قال : الدين والمال والحياء ، قال : فإذا كانت أربعا؟قال: الدين والمال والحياء وحسن الخلق ، قال : فإذا كانت خمساً ؟ قال : الدين والمال والحياء وحسن الخلق والسخاء ، قال : فإذا كانت ستاً ؟ قال : يابنى إذا اجتمعت فيه الخمس خصال فهو نقى تقى ولله ولى ومن الشيطان برى ، وقال الحسن من ساء خلقه عذب نفسه . وقال أنس بن مالك : إن العبد ليبلغ بحسن خلقه أعلى درجة فى الجنة وهو غير عابد ويبلغ بسوء خلقه أسفل درك فى جهنم وهو عابد . وقال يحيى بن معاذ : فى سعة الأخلاق كنوز الأرزاق . وقال وهب ابن منبه : مثل السيء الخلق كمثل الفخارة المكسورة لاترقع ولاتعاد طينا . وقال الفضيل : لأن يصحبنى فاجر حسن الخلق أحب إلى من أن يصحبنى عابد سيء الخلق . وصحب ابن المبارك رجلا سيء الخلق فى سفر فكان يحتمل منه ويداريه فلما فارقه بكى فقيل له فى ذلك فقال : بكيته رحمة له ، فارقته وخلقه معه لم يفارقه ، وقال الجنيد : أربع ترفع العبد إلى أعلى الدرجات وإن قل عمله وعلمه ، الحلم والتواضع والسخاء وحسن الخلق وهو كمال الإيمان. وقال الكتانى التصوف خلق فمن زاد عليك فى الخلق زاد عليك فى التصوف . وقال عمر رضى الله عنه : خالطوا الناس بالأخلاق وزايلوهم بالأعمال . وقال يحيى بن معاذ : سوء الخلق سيئة لاتنفع معها كثرة الحسنات ، وحسن الخلق حسنة لاتضر معها كثرة السيئات . وسئل ابن عباس : ماالكرم ؟ فقال : هو مابين الله فى كتابه العزيز ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ قيل فما الحسب ؟ قال : أحسنكم خلقاً أفضلكم حسباً . وقال : لكل بنيان أساس وأساس الإسلام حسن الخلق . وقال عطاء ماارتفع من ارتفع إلا بالخلق الحسن ، ولم ينل أحد كماله إلا المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فأقرب الخلق إلى الله عز وجل السالكون آثاره بحسن الخلق .

بيان حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق

اعلم أن الناس قد تكلموا فى حقيقة حسن الخلق وأنه ماهو ، وما تعرضوا لحقيقته وإنما تعرضوا لثمرته ثم لم يستوعبوا جميع ثمراته ، بل ذكر كل واحد من ثمراته ما خطر له وما كان حاضرا فى ذهنه ولم يصرفوا العناية إلى ذكر حده وحقيقته المحيطة بجميع ثمراته على التفصيل والاستيعاب ، وذلك كقول الحسن : حسن الخلق بسط الوجه

---

(١) حديث : إن عمر استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكثرنه . . الحديث . متفق عليه . (٢) حديث « سوء الخلق ذنب لايغفر . . الحديث . أخرجه الطبرانى فى الصغير من حديث عائشة : مامن شيء إلا له توبة إلا صاحب سوء الخلق فإنه لايتوب من ذنب إلا عاد فى شر منه . وإسناده ضعيف (٣) حديث : إن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم » أخرجه الطبرانى والخرائطى فى مكارم الأخلاق وأبو الشيخ فى طبقات الأصبهانيين من حديث أنس بإسناد جيد وهو بعض الحديث الذى قبله بحديثين .

وبذل الندى وكف الأذى . وقال الواسطى : هو أن لايخاصم ولايخاصم من شدة معرفته بالله تعالى . وقال شاه الكرمانى : هو كف الأذى واحتمال المؤن . وقال بعضهم : هو أن يكون من الناس قريباً وفيما بينهم غريبا . وقال الواسطى مرة : هو إرضاء الخلق فى السراء والضراء . وقال أبو عثمان : هو الرضا عن الله تعالى . وسئل سهل التسترى عن حسن الخلق فقال . أدناه الاحتمال وترك المكافأة والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه ، وقال مرة : أن لايتهم الحق فى الرزق ويثق به ويسكن الى الوفاء بما ضمن فيطيعه ولا يعصيه فى جميع الأمور فيما بينه وبينه وفيما بينه وبين الناس . وقال على رضى الله عنه . حسن الخلق فى ثلاث خصال اجتناب المحارم وطلب الحلال والتوسعة على العيال . وقال الحسين بن منصور : هو أن لايؤثر فيك جفاء الخلق بعد مطالعتك للحق . وقال أبو سعيد الخراز : هو أن لايكون لك هم غير الله تعالى . فهذا وأمثاله كثير ، وهو تعرض لثمرات حسن الخلق لالنفسه ، ثم ليس هو محيطا بجميع الثمرات أيضاً . وكشف الغطاء عن الحقيقة أولى من نقل الأقاويل المختلفة .

فنقول : الخلق والخلق عبارتان مستعملتان معا ، يقال : فلان حسن الخلق والخلق ـ أى حسن الباطن والظاهر ـ فيراد بالخلق الصورة الظاهرة ، ويراد بالخلق الصورة الباطنة . وذلك لأن الإنسان مركب من جسد مدرك بالبصر ومن روح ونفس مدرك بالبصيرة . ولكل واحد منهما هيئة وصورة إما قبيحة وإما جميلة . فالنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المدرك بالبصر . ولذلك عظم الله أمره بإضافته إليه إذ قال تعالى ﴿ إنى خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ﴾ فنبه على أن الجسد منسوب إلى الطين والروح إلى رب العالمين . والمراد بالروح والنفس فى هذا المقام واحد ؛ فالخلق عبارة عن هيئة فى النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية ، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقاً حسنا ، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التى هى المصدر خلقا سيئا . وإنما قلنا إنها هيئة راسخة ، لأن من يصدر منه بذل المال على الندور لحاجة عارضة لايقال خلقه السخاء مالم يثبت ذلك فى نفسه ثبوت رسوخ . وإنما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لايقال خلقه السخاء والحلم .

فههنا أربعة أمور ؛ أحدها : فعل الجميل والقبيح . والثانى : القدرة عليهما . والثالث : المعرفة بهما . والرابع هيئة للنفس بها تميل إلى أحد الجانبين ويتيسر عليها أحد الأمرين ؛ إما الحسن وإما القبيح .

وليس الخلق عبارة عن الفعل ، فرب شخص خلقه السخاء ولايبذل إما لفقد المال أو لمانع ، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل إما لباعث أو لرياء وليس هو عبارة عن القوة ؛ لأن نسبة القوة إلى الإمساك والإعطاء بل إلى الضدين واحد . وكل إنسان خلق بالفطرة قادر على الإعطاء والإمساك ، وذلك لايوجب خلق البخل ولا خلق السخاء وليس هو عبارة عن المعرفة فإن المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعاً على وجه واحد . بل هو عبارة عن المعنى الرابع ، وهو الهيئة التى بها تستعد النفس لأن يصدر منها الإمساك أو البذل . فالخلق إذن عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة . وكما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقا لايتم بحسن العينين دون الأنف والفم والخد بل لابد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر ؛ فكذلك فى الباطن أربعة أركان لابد من الحسن فى جميعها حتى يتم حسن الخلق . فإذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق وهو : قوة العلم ، وقوة الغضب وقوة الشهوة ، وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث

أما قوة العلم فحسنها وصلاحها فى أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب فى الأقوال ، وبين الحق والباطل فى الاعتقادات ، وبين الجميل والقبيح فى الأفعال فإذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة والحكمة رأس الأخلاق الحسنة ـ وهى التى قال الله فيها ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ﴾ .

وأما قوة الغضب : فحسنها فى أن يصير انقباضها وانبساطها على حدّ ماتقتضيه الحكمة ؛ وكذلك الشهوة حسنها وصلاحها فى أن تكون تحت إشارة الحكمة ، أعنى إشارة العقل والشرع .

وأما قوة العدل فهو ضبط الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع

فالعقل مثاله مثال الناصح المشير . وقوة العدل هى القدرة ، ومثالها مثال المنفذ الممضى لإشارة العقل . والغضب هو الذى تنفذ فيه الإشارة ، ومثاله مثال كلب الصيد فإنه يحتاج إلى أن يؤدب حتى يكون استرساله وتوقفه بحسب الإشارة لابحسب هيجان شهوة النفس . والشهوة مثالها مثال الفرس الذى يركب فى طلب الصيد فإنه تارة يكون مروضا مؤدبا وتارة يكون جموحا . فمن استوت فيه هذه الخصال واعتدلت فهو حسن الخلق مطلقا . ومن اعتدل فيه بعضها دون البعض فهو حسن الخلق بالإضافة إلى ذلك المعنى خاصة كالذى يحسن بعض أجزاء وجهه دون بعض . وحسن القوة الغضبية واعتدالها يعبر عنه بالشجاعة . وحسن قوة الشهوة واعتدالها يعبر عنه بالعفة .

فإن مالت قوة الغضب عن الاعتدال إلى طرف الزيادة تسمى تهورا ، وإن مالت إلى الضعف والنقصان تسمى جبنا وخورا . وإن مالت قوة الشهوة إلى طرف الزيادة تسمى شرها ، وإن مالت إلى النقصان تسمى جمودا .

والمحمود هو الوسط وهو الفضيلة ، والطرفان رذيلتان مذمومتان والعدل إذا فات فليس له طرفا زيادة ونقصان بل له ضدّ واحد ومقابل وهو الجور .

وأما الحكمة فيسمى إفراطها عند الاستعمال فى الأغراض الفاسدة خبثا وجربزة ، ويسمى تفريطها بلهـا ، والوسط هو الذى يختص باسم الحكمة .

فإذن أمهات الأخلاق وأصولها أربعة : الحكمة ، والشجاعة ، والعفة ، والعدل ونعنى بالحكمة حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ فى جميع الأفعال الاختيارية . ونعنى بالعدل حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملهما على مقتضى الحكمة وتضبطهما فى الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها . ونعنى بالشجاعة كون قوة الغضب منقادة للعقل فى إقدامها وإحجامها . ونعنى بالعفة تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع .

فمن اعتدال هذه الأصول الأربعة تصدر الأخلاق الجميلة كلها .

إذ من اعتدال قوة العقل : يحصل حسن التدبير وجودة الذهن وثقابة الرأى وإصابة الظن والتفطن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس . ومن إفراطها : تصدر الجربزة والمكر والخداع والدهاء . ومن تفريطها : يصدر البله والغمارة والحمق والجنون ـ وأعنى بالغمارة قلة التجربة فى الأمور مع سلامة التخيل فقد يكون الإنسان غمرا فى شىء دون شىء . والفرق بين الحمق والجنون : أن الأحمق مقصوده صحيح ولكن سلوكه الطريق فاسد فلا تكون له روية صحيحة فى سلوك الطريق الموصل إلى الغرض ، وأما المجنون فإنه يختار مالا ينبغى أن يختار فيكون أصل اختياره وإيثاره فاسدا ـ .

وأما خلق الشجاعة : فيصدر منه الكرم والنجدة والشهامة وكسر النفس والاحتمال والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار والتودد وأمثالها وهى أخلاق محمودة . وأما إفراطها وهو التهور : فيصدر منه الصلف والبذخ

والاستشاطة والتكبر والعجب . وأما تفريطها : فيصدر منه المهانة والذلة والجزع والخساسة وصغر النفس والانقباض عن تناول الحق الواجب .

وأما خلق العفة : فيصدر منه السخاء والحياء والصبر والمسامحة والقناعة والورع واللطافة والمساعدة والظرف وقلة الطمع . وأما ميلها إلى الإفراط أو التفريط : فيحصل منه الحرص والشره والوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والهتكة والمجانة والعبث والملق والحسد والشماتة والتذلل للأغنياء واستحقار الفقراء وغير ذلك .

فأمهات محاسن الأخلاق هذه الفضائل الأربعة : وهى الحكمة ، والشجاعة ، والعفة ، والعدل . والباقى فروعها .

ولم يبلغ كمال الاعتدال فى هذه الأربع إلا رسول صلى الله عليه وسلم ، والناس بعده متفاوتون فى القرب والبعد منه . فكل من قرب منه فى هذه الأخلاق فهو قريب من الله تعالى بقدر قربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل من جمع كمال هذه الأخلاق استحق أن يكون بين الخلق ملكا مطاعا يرجع الخلق كلهم إليه ويقتدون به فى جميع الأفعال . ومن انفك عن هذه الأخلاق كلها واتصف بأضدادها استحق أن يخرج من بين البلاد والعباد فإنه قد قرب من الشيطان اللعين المبعد ، فينبغى أن يبعد ، كما أن الأول قريب من الملك المقرب فينبغى أن يقتدى به ويتقرب إليه فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبعث إلا ليتمم مكارم الأخلاق كما قال [1] .

وقد أشار القرآن إلى هذه الأخلاق فى أوصاف المؤمنين فقال تعالى ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾ فالإيمان بالله وبرسوله من غير ارتياب هو قوة اليقين وهو ثمرة العقل . ومنتهى الحكمة والمجاهدة بالمال هو السخاء الذى يرجع إلى ضبط قوة الشهوة . والمجاهدة بالنفس هى الشجاعة التى ترجع إلى استعمال قوة الغضب على شرط العقل وحد الاعتدال . فقد وصف الله تعالى الصحابة فقال ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ إشارة إلى أن للشدة موضعا وللرحمة موضعا ، فليس الكمال فى الشدة بكل حال ولا فى الرحمة بكل حال . فهذا بيان معنى الخلق وحسنه وقبحه وبيان أركانه وثمراته وفروعه .

بيان قبول الأخلاق للتغيير بطريق الرياضة

اعلم أن بعض من غلبت البطالة عليه استثقل المجاهدة والرياضة والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق ، فلم تسمح نفسه بأن يكون ذلك لقصوره ونقصه وخبث دخلته فزعم أن الأخلاق لا يتصور تغييرها فإن الطباع لا تتغير .

واستدل فيه بأمرين ؛ أحدهما : أن الخلق هو صورة الباطن كما أن الخلق هو صورة الظاهر . فالخلقة الظاهرة لا يقدر على تغييرها فالقصير لا يقدر أن يجعل نفسه طويلا ولا الطويل يقدر أن يجعل نفسه قصيرا ولا القبيح يقدر على تحسين صورته ، فكذلك القبح الباطن يجرى هذا المجرى . والثانى : أنهم قالوا حسن الخلق يقمع الشهوة والغضب . وقد جربنا ذلك بطول المجاهدة وعرفنا أن ذلك من مقتضى المزاج والطبع فإنه قط لا ينقطع عن الآدمى فاشتغاله به تضييع زمان بغير فائدة . فإن المطلوب هو قطع التفات القلب إلى الحظوظ العاجلة وذلك محال وجوده .

فنقول : لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ، ولما قال رسول الله

(١) حديث « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » تقدم فى آداب الصحبة .

صلى الله عليه وسلم « حسنوا أخلاقكم »[1] ، وكيف ينكر هذا فى حق الآدمى وتغيير خلق البهيمة ممكن إذ ينقل البازى من الاستيحاش إلى الأنس ، والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك والتخلية ، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد وكل ذلك تغيير للأخلاق .

والقول الكاشف للغطاء عن ذلك أن نقول : الموجودات منقسمة إلى مالا مدخل للآدمى واختياره فى أصله وتفصيله ، كالسماء والكواكب ، بل أعضاء البدن داخلا وخارجا ، وسائر أجزاء الحيوانات . وبالجملة كل ما هو حاصل كامل وقع الفراغ من وجوده وكماله وإلى ما وجد وجودا ناقصا وجعل فيه قوة لقبول الكمال بعد أن وجد شرطه . وشرطه قد يرتبط باختيار العبد فأن النواة ليست بتفاح ولا نخل إلا أنها خلقت خلقة يمكن أن تصير نخلة إذا انضاف التربية إليها ، ولا تصير تفاحا أصلا ولا بالتربية ، فإذا صارت النواة متأثرة بالاختيار حتى تقبل بعض الأحوال دون بعض فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلية حتى لا يبقى لهما أثر لم نقدر عليه أصلا ، ولو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه . وقد أمرنا بذلك وصار ذلك سبب نجاتنا ووصولنا إلى الله تعالى . نعم الجبلات مختلفة بعضها سريعة القبول وبعضها بطيئة القبول ولاختلافها سببان .

أحدهما : قوة الغريزة فى أصل الجبلة وامتداد مدّة الوجود فإن قوة الشهوة والغضب والتكبر موجودة فى الإنسان ، ولكن أصعبها أمرا وأعصاها على التغيير قوة الشهوة ، فإنها أقدم وجودا ، إذ الصبى فى مبدإ الفطرة تخلق له الشهوة ، ثم بعد سبع سنين ربما تخلق له الغضب ، وبعد ذلك يخلق له قوة التمييز :

والسبب الثانى : أن الخلق قد يتأكد بكثرة العمل بمقتضاه والطاعة له وباعتقاد كونه حسنا ومرضيا والناس فيه على أربع مراتب ﴿ الأولى ﴾ وهو الإنسان الغفل الذى لا يميز بين الحق والباطل والجميل والقبيح بل بقى كما فطر عليه خاليا عن جميع الاعتقادات ولم تستتم شهوته أيضا باتباع اللذات ، فهذا سريع القبول للعلاج جدا فلا يحتاج إلا إلى معلم ومرشد ، وإلى باعث من نفسه يحمله على المجاهدة فيحسن خلقه فى أقرب زمان ﴿ والثانية ﴾ أن يكون قد عرف قبح القبيح ، ولكنه لم يتعود العمل الصالح بل زين له سوء عمله فتعاطاه انقيادا لشهواته وإعراضا عن صواب رأيه لاستيلاء الشهوة عليه ، ولكن علم تقصيره فى عمله فأمره أصعب من الأول ، إذ قد تضاعفت الوظيفة عليه ؛ إذ عليه قلع ما رسخ فى نفسه أولا من كثرة الاعتياد للفساد ، والآخر أن يغرس فى نفسه صفة الاعتياد للصلاح ولكنه بالجملة محل قابل للرياضة إن انتهض لها بجد وتشمير وحزم . ﴿ والثالثة ﴾ أن يعتقد فى الأخلاق القبيحة أنها الواجبة المستحسنة وأنها حق وجميل وتربى عليها ، فهذا يكاد تمتنع معالجته ولا يرجى صلاحه إلا على الندور ، وذلك لتضاعف أسباب الضلال . ﴿ والرابعة ﴾ أن يكون مع نشئه على الرأى الفاسد وتربيته على العمل به يرى الفضيلة فى كثرة الشر واستهلاك النفوس ويباهى به ويظن أن ذلك يرفع قدره ، وهذا هو أصعب المراتب . وفى مثله قيل : ومن العناء رياضة الهرم ، ومن التعذيب تهذيب الذيب . والأول : من هؤلاء جاهل فقط . والثانى : جاهل وضال . والثالث : جاهل وضال وفاسق . والرابع : جاهل وضال وفاسق وشرير .

وأما الخيال الآخر الذى استدلوا به : وهو قولهم إن الآدمى مادام حيا فلا تنقطع عنه الشهوة والغضب وحب الدنيا وسائر هذه الأخلاق ، فهذا غلط وقع لطائفة ظنوا أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها وهيهات ! فإن الشهوة خلقت لفائدة وهى ضرورية فى الجبلة ، فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان ، ولو انقطعت

---

(١) حديث « حسنوا أخلاقكم » أخرجه أبو بكر ابن لال فى مكارم الأخلاق من حديث معاذ « يامعاذ حسن خلقك للناس » منقطع ورجاله ثقات .

شهوة الوقاع لانقطع النسل ، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه مايهلكه ولهلك . ومهما بقى أصل الشهوة فيبقى لا محالة حب المال الذى يوصله إلى الشهوة حتى يحمله ذلك على إمساك المال . وليس المطلوب إماطة ذلك بالكلية بل المطلوب ردها إلى الاعتدال الذى هو وسط بين الإفراط والتفريط . والمطلوب فى صفة الغضب حسن الحمية وذلك بأن يخلو عن التهور وعن الجبن جميعاً . وبالجملة أن يكون فى نفسه قويا ومع قوته منقاداً للعقل. ولذلك قال الله تعالى ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ وصفهم بالشدة وإنما تصدر الشدة عن الغضب ولو بطل الغضب لبطل الجهاد . وكيف يقصد قلع الشهوة والغضب بالكلية والأنبياء عليهم السلام لم ينفكوا عن ذلك ، إذ قال صلى الله عليه وسلم « إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر [1] » . وكان إذا تكلم بين يديه بما يكرهه يغضب حتى تحمر وجنتاه ولكن لايقول إلا حقا فكان عليه السلام لا يخرجه غضبه عن الحق [2] وقال تعالى ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ﴾ ولم يقل والفاقدين الغيظ فرد الغضب والشهوة إلى حد الاعتدال بحيث لايقهر واحد منهما العقل ولايغلبه ، بل يكون العقل هو الضابط لهما والغالب عليهما ممكن ، وهو المراد بتغيير الخلق فإنه ربما تستولى الشهوة على الإنسان بحيث لايقوى عقله على دفعها فيقدم على الانبساط إلى الفواحش . وبالرياضة تعود إلى حد الاعتدال فدل أن ذلك ممكن ، والتجربة والمشاهدة تدل على ذلك دلالة لاشك فيها والذى يدل على أن المطلوب هو الوسط فى الأخلاق دون الطرفين أن السخاء خلق محمود شرعا ، وهو وسط بين طرفى التبذير والتقتير . وقد أثنى الله تعالى عليه فقال ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ وكذلك المطلوب فى شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والجمود قال الله تعالى ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ وقال فى الغضب ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « خير الأمور أوساطها [3] » وهذا له سر وتحقيق وهو أن السعادة منوطة بسلامة القلب عن عوارض هذا العالم . قال الله تعالى ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ والبخل من عوارض الدنيا ، والتبذير أيضاً من عوارض الدنيا ، وشرط القلب أن يكون سليما منهما أى لا يكون ملتفتا إلى المال ولايكون حريصاً على إنفاقه ولا على إمساكه ، فإن الحريص على الإنفاق مصروف القلب إلى الإنفاق كما أن الحريص على الإمساك مصروف القلب إلى الإمساك فكان كمال القلب أن يصفو عن الوصفين جميعاً . وإذا لم يكن ذلك فى الدنيا طلبنا ماهو الأشبه لعدم الوصفين وأبعد عن الطرفين وهو الوسط ، فإن الفاتر لا حار ولا بارد بل هو وسط بينهما فكأنه خال عن الوصفين . فكذلك السخاء بين التبذير والتقتير . والشجاعة بين الجبن والتهور . والعفة بين الشره والجمود . وكذلك سائر الأخلاق فكلا طرفى الأمور ذميم ؛ هذا هو المطلوب وهو ممكن . نعم يجب على الشيخ المرشد للمريد أن يقبح عنده الغضب رأسا ، ويذم إمساك المال رأسا ، ولايرخص له فى شىء منه لأنه لو رخص له فى أدنى شىء اتخذ ذلك عذرا فى استبقاء بخله وغضبه وظن أنه القدر المرخص فيه . فإذا قصد الأصل وبالغ فيه ولم يتيسر له إلا كسر

(١) حديث « إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر » أخرجه مسلم من حديث أنس وله من حديث أبى هريرة « إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر » (٢) حديث : أنه كان يتكلم بين يديه بما يكرهه فيغضب حتى تحمر وجنتاه ولكن لايقول إلا حقا فكان الغضب لايخرجه عن الحق » أخرجه الشيخان من حديث عبد الله بن الزبير فى قصة شراج الحرة فقال : لأن كان ابن عمتك؟ فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهما من حديث أبى سعيد الخدرى : وكان إذا كره شيئاً عرفناه فى وجهه . ولهما من حديث عائشة : وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله ولمسلم : ماينال منه شىء قط فينتقم من صاحبه ... الحديث .

(٣) حديث « خير الأمور أوساطها » أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان من رواية مطرف بن عبد الله معضلا .

سورته بحيث يعود إلى الاعتدال فالصواب له أن يقصد قلع الأصل حتى يتيسر له القدر المقصود . فلا يكشف هذا السر للمريد فإنه موضع غرور الحمق إذ يظن بنفسه أن غضبه بحق وأن إمساكه بحق .

بيان السبب الذى به ينال حسن الخلق على الجملة

قد عرفت أن حسن الخلق يرجع إلى اعتدال قوة العقل وكمال الحكمة . وإلى اعتدال قوة الغضب والشهوة ، وكونها للعقل مطيعة وللشرع أيضا . وهذا الاعتدال يحصل على وجهين :

أحدهما : بجود إلهى وكمال فطرى بحيث يخلق الإنسان ويولد كامل العقل حسن الخلق قد كفى سلطان الشهوة والغضب ، بل خلقتا معتدلتين منقادتين للعقل والشرع فيصير عالما بغير تعليم ومؤدبا بغير تأديب كعيسى بن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام وكذا سائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين . ولا يبعد أن يكون فى الطبع والفطرة ما قد ينال بالاكتساب فرب صبى خلق صادق اللهجة سخيا جريا ، وربما يخلق بخلافه ، فيحصل ذلك فيه بالاعتياد ومخالطة المتخلقين بهذه الأخلاق ، وربما يحصل بالتعلم .

والوجه الثانى : اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة وأعنى به حمل النفس على الأعمال التى يقتضيها الخلق المطلوب . فمن أراد مثلا أن يحصل لنفسه خلق الجود فطريقه أن يتكلف تعاطى فعل الجواد وهو بذل المال ، فلا يزال يطالب نفسه ويواظب عليه تكلفاً مجاهداً نفسه فيه حتى يصير ذلك طبعاً له ويتيسر عليه فيصير به جواداً ، وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليه الكبر فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف إلى أن يصير ذلك خلقاً له وطبعاً فيتيسر عليه . وجميع الأخلاق المحمودة شرعا تحصل بهذا الطريق ، وغايته أن يصير الفعل الصادر منه لذيذاً فالسخى هو الذى يستلذ بذل المال الذى يبذله دون الذى يبذله عن كراهة ، والمتواضع هو الذى يستلذ التواضع ولن ترسخ الأخلاق الدينية فى النفس ، مالم تتعود النفس جميع العادات الحسنة ومالم تترك جميع الأفعال السيئة ، ومالم تواظب عليه مواظبة من يشتاق إلى الأفعال الجميلة ويتنعم بها ، ويكره الأفعال القبيحة ويتألم بها ، كما قال صلى الله عليه وسلم « وجعلت قرة عينى فى الصلاة [1] » ومهما كانت العبادات وترك المحظورات مع كراهة واستثقال فهو النقصان ولا ينال كمال السعادة به . نعم المواظبة عليها بالمجاهدة خير ولكن بالإضافة إلى تركها لا بالإضافة إلى فعلها عن طوع ولذلك قال الله تعالى ﴿ وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « اعبد الله فى الرضا فإن لم تستطع ففى الصبر على ما تكره خير كثير [2] » ثم لا يكفى فى نيل السعادة الموعودة على حسن الخلق استلذاذ الطاعة واستكراه المعصية فى زمان دون زمان ، بل ينبغى أن يكون ذلك على الدوام وفى جملة العمر . وكلما كان العمر أطول كانت الفضيلة أرسخ وأكمل ولذلك لما سئل صلى الله عليه وسلم عن السعادة فقال « طول العمر فى طاعة الله تعالى [3] » ولذلك كره الأنبياء والأولياء الموت فإن الدنيا مزرعة الآخرة . وكلما كانت العبادات أكثر بطول العمر كان الثواب أجزل والنفس أزكى وأطهر والأخلاق أقوى وأرسخ ، وإنما مقصود العبادات تأثيرها فى القلب ، وإنما يتأكد تأثيرها بكثرة المواظبة على العبادات . وغاية هذه الأخلاق أن ينقطع عن النفس حب الدنيا ويرسخ فيها حب الله تعالى فلا يكون

---

(١) حديث « وجعلت قرة عينى فى الصلاة » أخرجه النسائى من حديث أنس وقد تقدم (٢) حديث « اعبدالله فى الرضا فإن لم تستطع ففى الصبر على ماتكره خير كثير » أخرجه الطبرانى (٣) حديث : سئل عن السعادة فقال « طول العمر فى عبادة الله » رواه القضاعى فى مسند الشهاب وأبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عمر باسناد ضعيف وللترمذى من حديث أبى بكرة وصححه : أى الناس خير ؟ قال « من طال عمره وحسن عمله » .

شيء أحب إليه من لقاء الله تعالى عز وجل ، فلا يستعمل جميع ماله إلا على الوجه الذى يوصله إليه وغضبه وشهوته من المسخرات له فلا يستعملهما إلى على الوجه الذى يوصله إلى الله تعالى ، وذلك بأن يكون موزوناً بميزان الشرع والعقل ، ثم يكون بعد ذلك فرحا به مستلذاً له ، ولاينبغى أن يستبعد مصير الصلاة إلى حد تصير هى قرة العين. ومصير العبادات لذيذة فإن العادة تقتضى فى النفس عجائب أغرب من ذلك ؛ فإنا قد نرى الملوك والمنعمين فى أحزان دائمة ، ونرى المقامر قد يغلب عليه من الفرح واللذة بقماره وما هو فيه ما يستثقل معه فرح الناس بغير قمار ، مع أن القمار ربما سلبه ماله وخرب بيته وتركه مفلساً ومع ذلك فهو يحبه ويلتذ به ، وذلك لطول إلفه له وصرف نفسه إليه مدة . وكذلك اللاعب بالحمام قد يقف طول النهار فى حر الشمس قائماً على رجليه وهو لايحس بألمها لفرحه بالطيور وحركاتها وطيرانها وتحليقها فى جو السماء ، بل نرى الفاجر العيار يفتخر بما يلقاه من الضرب والقطع والصبر على السياط وعلى أن يتقدم به للصلب وهو مع ذلك متبجح بنفسه وبقوته فى الصبر على ذلك ، حتى يرى ذلك فخراً لنفسه ، ويقطع الواحد منهم إربا إربا على أن يقر بما تعاطاه أو تعاطاه غيره فيصر على الإنكار ولا يبالى بالعقوبات فرحاً بما يعتقده كمالا وشجاعة ورجولية ، فقد صارت أحواله مع ما فيها من النكال قرة عينه وسبب افتخاره ، بل لاحالة أخس وأقبح من حال المخنث فى تشبهه بالإناث فى نتف الشعر ووشم الوجه ومخالطة النساء فترى المخنث فى فرح بحاله وافتخار بكماله فى تخنثه يتباهى به مع المخنثين ، حتى يجرى بين الحجامين والكناسين التفاخر والمباهاة كما يجرى بين الملوك والعلماء . فكل ذلك نتيجة العادة والمواظبة على نمط واحد على الدوام مدة مديدة ومشاهدة ذلك فى المخالطين والمعارف . فإذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل وتميل إليه وإلى المقابح فكيف لاتستلذ الحق لو ردت إليه مدة والتزمت المواظبة عليه ؟ بل ميل النفس إلى هذه الأمور الشنيعة خارج عن الطبع يضاهى الميل إلى أكل الطين فقد يغلب على بعض الناس ذلك بالعادة ؛ فأما ميله إلى الحكمة وحب الله تعالى ومعرفته وعبادته فهو كالميل إلى الطعام والشراب فإنه مقتضى طبع القلب فإنه أمر ربانى ، وميله إلى مقتضيات الشهوة غريب من ذاته وعارض على طبعه ، وإنما غذاء القلب الحكمة والمعرفة وحب الله عز وجل ولكن انصرف عن مقتضى طبعه لمرض قد حل به كما قد يحل المرض بالمعدة فلا تشتهى الطعام والشراب وهما سببان لحياتها ،فكل قلب مال إلى حب شيء سوى الله تعالى فلا ينفك عن مرض بقدر ميله ، إلا إذا كان أحب ذلك الشيء لكونه معيناً له على حب الله تعالى وعلى دينه ، فعند ذلك لايدل ذلك على المرض

فإذن قد عرفت بهذا قطعاً أن هذه الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة وهى تكلف الأفعال الصادرة عنها ابتداء لتصير طبعاً انتهاء ، وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح ـ أعنى النفس والبدن ـ فإن كل صفة تظهر فى القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لاتتحرك إلا على وفقها لامحالة ، وكل فعل يجرى على الجوارح فإنه قد يرتفع منه أثر إلى القلب ، والأمر فيه دور ، ويعرف ذلك بمثال : وهو أن من أراد أن يصير الحذق فى الكتابة له صفة نفسية ـ حتى يصير كاتباً بالطبع ـ فلا طريق له إلا أن يتعاطى بجارحة اليد ما يتعاطاه الكاتب الحاذق ويواظب عليه مدة طويلة يحاكى الخط الحسن ، فان فعل الكاتب هو الخط الحسن فيتشبه بالكاتب تكلفاً ، ثم لايزال يواظب عليه حتى يصير صفة راسخة فى نفسه ، فيصدر منه فى الآخر الخط الحسن طبعاً كما كان يصدر منه فى الابتداء تكلفا ، فكان الخط الحسن هو الذى جعل خطه حسنا ، ولكن الأول بتكلف إلا أنه ارتفع منه أثر إلى القلب ثم انخفض من القلب إلى الجارحة فصار يكتب الخط الحسن بالطبع .

وكذلك من أراد أن يصير فقيه النفس فلا طريق له إلا أن يتعاطى أفعال الفقهاء ، وهو التكرار للفقه حتى تنعطف منه على قلبه صفة الفقه فيصير فقيه النفس . وكذلك من أراد أن يصير سخيا عفيف النفس حليما متواضعاً فيلزمه أن يتعاطى أفعال هؤلاء تكلفاً حتى يصير ذلك طبعاً له ، فلا علاج له إلا ذلك وكما أن طالب فقه النفس لاييأس من نيل هذه الرتبة بتعطيل ليلة ولا ينالها بتكرار ليلة ، فكذلك طالب تزكية النفس وتكميلها وتحليتها بالأعمال الحسنة لا ينالها بعبادة يوم ولا يحرم عنها بعصيان يوم . وهو معنى قولنا إن الكبيرة الواحدة لاتوجب الشقاء المؤبد ولكن العطلة فى يوم واحد تدعو إلى مثلها ، ثم تتداعى قليلا قليلا حتى تأنس النفس بالكسل وتهجر التحصيل رأسا فيفوتها فضيلة الفقه . وكذلك صغائر المعاصى يجر بعضها إلى بعض حتى يفوت أصل السعادة بهدم أصل الإيمان عند الخاتمة . وكما أن تكرار ليلة لا يحس تأثيره فى فقه النفس بل يظهر فقه النفس شيئاً فشيئا على التدريج - مثل نمو البدن وارتفاع القامة - فكذلك الطاعة الواحدة لايحس تأثيرها فى تزكية النفس وتطهيرها فى الحال ، ولكن لاينبغى أن يستهان بقليل الطاعة فإن الجملة الكثيرة منها مؤثرة ، وإنما اجتمعت الجملة من الآحاد ، فلكل واحد منها تأثير ، فما من طاعة إلا ولها أثر وإن خفى ، فله ثواب لامحالة . فإن الثواب بإزاء الأثر وكذلك المعصية . وكم من فقيه يستهين بتعطيل يوم وليلة وهكذا على التوالى يسوف نفسه يوما فيوما إلى أن يخرج طبعه عن قبول الفقه . فكذا من يستهين صغائر المعاصى ويسوف نفسه بالتوبة على التوالى إلى أن يختطفه الموت بغتة أوتتراكم ظلمة الذنوب على قلبه وتتعذر عليه التوبة ، إذ القليل يدعو إلى الكثير فيصير القلب مقيداً بسلاسل شهوات لا يمكن تخليصه من مخالبها . وهو المعنى بانسداد باب التوبة وهو المراد بقوله تعالى ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سداً ﴾ الآية ولذلك قال رضى الله تعالى عنه : إن الإيمان ليبدو فى القلب نكتة بيضاء ، كلما ازداد الايمان ازداد ذلك البياض فاذا استكمل العبد الإيمان أبيض القلب كله . وإن النفاق ليبدو فى القلب نكتة سوداء كلما ازداد النفاق ازداد ذلك السواد فإذا استكمل النفاق اسود القلب كله .

فإذا عرفت أن الأخلاق الحسنة تارة تكون بالطبع والفطرة ، وتارة تكون باعتياد الأفعال الجميلة ، وتارة بمشاهدة أرباب الفعال الجميلة ومصاحبتهم وهم قرناء الخير وإخوان الصلاح ، إذ الطبع يسرق من الطبع الشر والخير جميعا . فمن تظاهرت فى حقه الجهات الثلاث حتى صار ذا فضيلة طبعاً واعتيادا وتعلما فهو فى غاية الفضيلة ، ومن كان رذلا بالطبع واتفق له قرناء السوء فتعلم منهم وتيسرت له أسباب الشر حتى اعتادها فهو فى غاية البعد من الله عز وجل ، وبين الرتبتين من اختلفت فيه من هذه الجهات ولكل درجة فى القرب والبعد بحسب ماتقتضيه صورته وحالته ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره - وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ .

بيان تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق

قد عرفت من قبل أن الاعتدال فى الأخلاق هو صحة النفس ، والميل عن الاعتدال سقم ومرض فيها . كما أن الاعتدال فى مزاج البدن هو صحة له ، والميل عن الاعتدال مرض فيه فلنتخذ البدن مثالا . فنقول :

مثال النفس فى علاجها بمحو الرذائل والأخلاق الرديئة عنها وجلب الفضائل والأخلاق الجميلة إليها ، مثال البدن فى علاجه بمحو العلل عنه وكسب الصحة له وجلبها إليه . وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال وإنما تعترى المعدة المضرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال ، فكذلك كل مولود يولد معتدلا صحيح الفطرة ،

وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ـ أى بالاعتياد والتعليم تكتسب الرذائل ـ وكما أن البدن فى الابتداء لا يخلق كاملا وإنما يكمل ويقوى بالنشو والتربية بالغذاء ؛ فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال ؛ وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم . وكما أن البدن إن كان صحيحاً فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحة وإن كان مريضاً فشأنه جلب الصحة إليه ؛ فكذلك النفس منك إن كانت زكية طاهرة مهذبة فينبغى أن تسعى لحفظها وجلب مزيد قوة إليها واكتساب زيادة صفائها ، وإن كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغى أن تسعى لجلب ذلك إليها . وكما أن العلة المغيرة لاعتدال البدن الموجبة للمرض لا تعالج إلا بضدها فإن كانت من حرارة فبالبرودة ، وإن كانت من برودة فبالحرارة ، فكذلك الرذيلة التى هى مرض القلب علاجها بضدها . فيعالج مرض الجهل بالتعلم ، ومرض البخل بالتسخى ، ومرض الكبر بالتواضع ، ومرض الشره بالكف عن المشتهى تكلفا . وكما أنه لابد من الاحتمال لمرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتهيات لعلاج الأبدان المريضة فكذلك لابد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب بل أولى . فإن مرض البدن يخلص منه بالموت ومرض القلب والعياذ بالله تعالى مرض يدوم بعد الموت أبد الآباد . وكما أن كل مبرد لا يصلح لعلة سببها الحرارة إلا إذا كان على حد مخصوص ـ ويختلف ذلك بالشدة والضعف والدوام وعدمه وبالكثرة والقلة ، ولا بد له من معيار يعرف به مقدار النافع منه فإنه إن لم يحفظ معياره زاد الفساد ـ فكذلك النقائص التى تعالج بها الأخلاق لا بد لها من معيار . وكما أن معيار الدواء مأخوذ من عيار العلة حتى إن الطبيب لا يعالج مالم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة ، فإن كانت من حرارة فيعرف درجتها أهى ضعيفة أم قوية ؟ فإذا عرف ذلك التفت إلى أحوال البدن وأحوال الزمان وصناعة المريض وسنه وسائر أحواله ثم يعالج بحسبها .

فكذلك الشيخ المتبوع الذى يطبب نفوس المريدين ويعالج قلوب المسترشدين ينبغى أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف فى فن مخصوص وفى طريق مخصوص مالم يعرف أخلاقهم وأمراضهم . وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم فكذلك الشيخ لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم . بل ينبغى أن ينظر فى مرض المريد وفى حاله وسنه ومزاجه وما تحتمله بنيته من الرياضة ويبنى على ذلك رياضته . فإن كان المريد مبتدئاً جاهلا بحدود الشرع فيعلمه أولا الطهارة والصلاة وظواهر العبادات ، وإن كان مشغولا بمال حرام أو مقارفا لمعصية فيأمره أولا بتركها ، فإذا تزين ظاهره بالعبادات وطهر عن المعاصى الظاهرة جوارحه نظر بقرائن الأحوال إلى باطنه ليتفطن لأخلاقه وأمراض قلبه: فإن رأى معه مالا فاضلا عن قدر ضرورته أخذه منه وصرفه إلى الخيرات وفرغ قلبه منه حتى لا يلتفت إليه ، وإن رأى الرعونة والكبر وعزة النفس غالبة عليه فيأمره أن يخرج إلى الأسواق للكدية والسؤال ، فإن عزة النفس والرياسه لا تنكسر إلا بالذل ولا ذل أعظم من ذل السؤال فيكلفه المواظبة على ذلك مدة حتى ينكسر كبره وعز نفسه ، فإن الكبر من الأمراض المهلكة وكذلك الرعونة ، وإن رأى الغالب عليه النظافة فى البدن والثياب ورأى قلبه مائلا إلى ذلك فرحا به ملتفتاً إليه استخدمه فى تعهد بيت الماء وتنظيفه وكنس المواضع القذرة وملازمة المطبخ ومواضع الدخان حتى تتشوش عليه رعونته فى النظافة . فإن الذين ينظفون ثيابهم ويزينونها ويطلبون المرقعات النظيفة والسجادات الملونة لا فرق بينهم وبين العروس التى تزين نفسها طول النهار ، فلا فرق بين أن يعبد الإنسان نفسه أو يعبد صنما فمهما عبد غير الله تعالى فقد حجب عن الله، ومن راعى فى ثوبه شيئاً سوى كونه حلالا وطاهراً مراعاة يلتفت إليها قلبه فهو مشغول بنفسه

ومن لطائف الرياضة إذا كان المريد لايسخو بترك الرعونة رأساً أو بترك صفة أخرى ولم يسمح بضدهادفعة ؛ فينبغى أن ينقله من الخلق المذموم إلى خلق مذموم آخر أخف منه ، كالذى يغسل الدم بالبول ، ثم يغسل البول بالماء إذا كان الماء لايزيل الدم . كما يرغب الصبي فى المكتب باللعب بالكرة والصولجان وما أشبهه ، ثم ينقل من اللعب إلى الزينة وفاخر الثياب ، ثم ينقل من ذلك بالترغيب فى الرياسة وطلب الجاه ، ثم ينقل من الجاه بالترغيب فى الآخرة ، فكذلك من لم تسمح نفسه بترك الجاه دفعة فلينقل إلى جاه أخف منه ، وكذلك سائر الصفات . وكذلك إذا رأى شره الطعام غالباً عليه ألزمه الصوم وتقليل الطعام ، ثم يكلفه أن يهيء الأطعمة اللذيذة ويقدمها إلى غيره وهو لايأكل منها حتى يقوى بذلك نفسه فيتعود الصبر وينكسر شرهه . وكذلك إذا رآه شابا متشوقا إلى النكاح وهو عاجز عن الطول فيأمره بالصوم ، وربما لاتسكن شهوته بذلك فيأمره أن يفطر ليلة على الماء دون الخبز وليلة على الخبز دون الماء . ويمنعه اللحم والأدم رأساً حتى تذل نفسه وتنكسر شهوته ... فلاعلاج فى مبدأ الإرادة أنفع من الجوع . وإن رأى الغضب غالباً عليه ألزمه الحلم والسكوت وسلط عليه من يصحبه ممن فيه سوء خلق ، ويلزمه خدمة من ساء خلقه حتى يمرن نفسه على الاحتمال معه .

كما حكى عن بعضهم أنه كان يعوّد نفسه الحلم ويزيل عن نفسه شدة الغضب ، فكان يستأجر من يشتمه على ملأ من الناس ويكلف نفسه الصبر ، ويكظم غيظه حتى صار الحلم عادة له بحيث كان يضرب به المثل . وبعضهم كان يستشعر فى نفسه الجبن وضعف القلب فأراد أن يحصل لنفسه خلق الشجاعة فكان يركب البحر فى الشتاء عند اضطراب الأمواج . وعباد الهند يعالجون الكسل عن العبادة بالقيام طول الليل على نصبة واحدة . وبعض الشيوخ فى ابتداء إرادته كان يكسل عن القيام فألزم نفسه القيام على رأسه طول الليل ليسمح بالقيام على الرجل عن طوع . وعالج بعضهم حب المال بأن باع جميع ماله ورمى به فى البحر ؛ إذ خاف من تفرقته على الناس رعونة الجود والرياء بالبذل .

فهذه الأمثلة تعرفك طريق معالجة القلوب . وليس غرضنا ذكر دواء كل مرض ـ فإن ذلك سيأتى فى بقية الكتب ـ وإنما غرضنا الآن التنبيه على أن الطريق الكلى فيه سلوك مسلك المضاد لكل ماتهواه النفس وتميل إليه وقد جمع الله ذلك كله فى كتابه العزيز فى كلمة واحدة فقال تعالى ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى﴾ والأصل المهم فى المجاهدة الوفاء بالعزم فإذاعزم على ترك شهوة فقد تيسرت أسبابها ويكون ذلك ابتلاء من الله تعالى واختبارا . فينبغى أن يصبر ويستمر ، فإنه إن عود نفسه ترك العزم ألفت ذلك ففسدت وإذا اتفق منه نقض عزم فينبغى أن يلزم نفسه عقوبة عليه ـ كما ذكرناه فى معاقبة النفس فى كتاب المحاسبة والمراقبة ـ وإذا لم يخوّف النفس بعقوبة غلبته وحسنت عنده تناول الشهوة فتفسد بها الرياضة بالكلية .

بيان علامات أمراض القلوب وعلامات عودها إلى الصحة

اعلم أن كل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص به ، وإنما مرضه أن يتعذر عليه فعله الذى خلق له حتى لايصدر منه أصلا أو يصدر منه مع نوع من الاضطراب . فمرض اليد أن يتعذر عليها البطش . ومرض العين أن يتعذر عليها الإبصار . وكذلك مرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاص به الذى خلق لأجله ؛ وهو العلم والحكمة والمعرفة وحب الله تعالى وعبادته والتلذذ بذكره وإيثاره ذلك على كل شهوة سواه والاستعانة بجميع الشهوات والأعضاء عليه قال الله تعالى ﴿وماخلقت الجن والإنس إلاليعبدون﴾ ففى كل عضو فائدة وفائدة القلب الحكمة والمعرفة . وخاصية

النفس التى للآدمى ، مايتميز بها عن البهائم ، فإنه لم يتميز عنها بالقوة على الأكل والوقاع والإبصار أو غيرها ؛ بل بمعرفة الأشياء على ماهى عليه . وأصل الأشياء وموجدها ومخترعها هو الله عزوجل الذى جعلها أشياء . فلوعرف كل شىء ولم يعرف الله عزوجل فكأنه لم يعرف شيئا . وعلامة المعرفة المحبة فمن عرف الله تعالى أحبه وعلامة المحبة أن لايؤثر عليه الدنيا ولا غيرها من المحبوبات كما قال الله تعالى ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم﴾ إلى قوله ﴿أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره﴾ فمن عنده شىء أحب إليه من الله فقلبه مريض ، كما أن كل معدة صار الطين أحب إليها من الخبز والماء أو سقطت شهوتها عن الخبز والماء فهى مريضة . فهذه علامات المرض وبهذا يعرف أن القلوب كلها مريضة إلا ما شاء الله إلا أن من الأمراض مالا يعرفها صاحبها ، ومرض القلب مما لا يعرفه صاحبه ، فلذلك يغفل عنه . وإن عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه فإن دواءه مخالفة الشهوات وهو نزع الروح . فإن وجد من نفسه قوة الصبر عليه لم يجد طبيباً حاذقا يعالجه ، فإن الأطباء هم العلماء وقد استولى عليهم المرض . فالطبيب المريض قلما يلتفت إلى علاجه . فلهذا صار الداء عضالا والمرض مزمنا واندرس هذا العلم ، وأنكر بالكلية طب القلوب وأنكر مرضها ، وأقبل الخلق على حب الدنيا ، وعلى أعمال ظاهرها عبادات وباطنها عادات ومراءات . فهذه علامات أصول الأمراض .

وأما علامات عودها إلى الصحة بعد المعالجة فهو أن ينظر فى العلة التى يعالجها ، فإن كان يعالج داء البخل فهو المهلك المبعد عن الله عز وجل وإنما علاجه ببذل المال وإنفاقه ، ولكنه قد يبذل المال إلى حد يصير به مبذرا فيكون التبذير أيضا داء ، فكان كمن يعالج البرودة بالحرارة حتى تغلب الحرارة فهو أيضا داء ، بل المطلوب الاعتدال بين الحرارة والبرودة . وكذلك المطلوب الاعتدال بين التبذير والتقتير حتى يكون على الوسط وفى غاية من البعد عن الطرفين ، فإن أردت أن تعرف الوسط فانظر إلى الفعل الذى يوجبه الخلق المحذور فإن كان أسهل عليك وألذ من الذى يضاده فالغالب عليك ذلك الخلق الموجب له ، مثل أن يكون إمساك المال وجمعه ألذ عندك وأيسر عليك من بذله لمستحقه فاعلم أن الغالب عليك خلق البخل فزد فى المواظبة على البذل ، فإن صار البذل على غير المستحق ألذ عندك وأخف عليك من الإمساك بالحق فقد غلب عليك التبذير فارجع إلى المواظبة على الإمساك ، فلا تزال تراقب نفسك وتستدل على خلقك بتيسير الأفعال وتعسيرها حتى تنقطع علاقة قلبك عن الالتفات إلى المال فلا تميل إلى بذله ولا إلى إمساكه ، بل يصير عندك كالماء فلا تطلب فيه إلا إمساكه لحاجة محتاج أو بذله لحاجة محتاج ، ولا يترجح عندك البذل على الإمساك فكل قلب صار كذلك فقد أتى الله سليما عن هذا المقام خاصة . ويجب أن يكون سليما عن سائر الأخلاق حتى لا يكون له علاقة بشىء مما يتعلق بالدنيا ، حتى ترتحل النفس عن الدنيا منقطعة العلائق منها غير ملتفتة إليها ولا متشوقة إلى أسبابها ، فعند ذلك ترجع إلى ربها رجوع النفس المطمئنة راضية مرضية داخلة فى زمرة عباد الله المقربين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

ولما كان الوسط الحقيقى بين الطرفين فى غاية الغموض بل هو أدق من الشعر وأحد من السيف فلا جرم أن من استوى على هذا الصراط المستقيم فى الدنيا ، جاز على مثل هذا الصراط فى الآخرة وقلما ينفك العبد عن ميل عن الصراط المستقيم - أعنى الوسط - حتى لايميل إلى أحد الجانبين فيكون قلبه معلقا بالجانب الذى مال إليه .

ولذلك لاينفك عن عذاب ماواجتياز على النار وإن كان مثل البرق قال الله تعالى ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا . ثم ننجي الذين اتقوا ﴾ أى الذين كان قربهم إلى الصراط المستقيم أكثر من بعدهم عنه . ولأجل عسر الاستقامة وجب على كل عبد أن يدعو الله تعالى فى كل يوم سبع عشرة مرة فى قوله ﴿ إهدنا الصراط المستقيم ﴾ إذ وجب قراءة الفاتحة فى كل ركعة .

فقد روى أنّ بعضهم رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال : قد قلت يارسول الله شيبتنى هود ، فلم قلت ذلك ؟ فقال عليه السلام لقوله تعالى ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ فالاستقامة على سواء السبيل فى غاية الغموض، ولكن ينبغى أن يجتهد الإنسان فى القرب من الاستقامة إن لم يقدر على حقيقتها . فكل من أراد النجاة فلا نجاة له إلا بالعمل الصالح ، ولا تصدر الأعمال الصالحة إلا عن الأخلاق الحسنة فليتفقد كل عبد صفاته وأخلاقه ، وليعددها وليشتغل بعلاج واحد واحد فيها على الترتيب . فنسأل الله الكريم أن يجعلنا من المتقين .

بيان الطريق الذى يعرف به الإنسان عيوب نفسه

اعلم أنّ الله عز وجل إذا أراد بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه ، فمن كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه ، فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج ، ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم يرى أحدهم القذى فى عين أخيه ولا يرى الجذع فى عين نفسه . فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربعة طرق :

الأول : أن يجلس بين يدى شيخ بصير بعيوب النفس مطلع على خفايا الآفات ويحكمه فى نفسه ويتبع إشارته فى مجاهدته . وهذا شأن المريد مع شيخه والتلميذ مع أستاذه ، فيعرفه أستاذه وشيخه عيوب نفسه ويعرفه طريق علاجه . وهذا قد عز فى الزمان وجوده .

الثانى : أن يطلب صديقا صدوقا بصيرا متدينا فينصبه رقيبا على نفسه ليلاحظ أحواله وأفعاله ، فما كره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة ينبهه عليه . فهكذا كان يفعل الأكياس والأكابر من أئمة الدين .

كان عمر رضى الله عنه يقول : رحم الله امرأ أهدى إلى عيوبى . وكان يسأل سلمان عن عيوبه فلما قدم عليه قال له : ما الذى بلغك عنى مما تكرهه ؟ فاستعفى فألح عليه فقال : بلغنى أنك جمعت بين إدامين على مائدة ، وأن لك حلتين حلة بالنهار وحلة بالليل ، قال : وهل بلغك غير هذا ؟ قال : لا ، فقال : أما هذان فقد كفيتهما . وكان يسأل حذيفة ويقول له أنت صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنافقين ، فهل ترى على شيئا من آثار النفاق ؟ فهو على جلالة قدره وعلو منصبه هكذا كانت تهمته لنفسه رضى الله عنه !

فكل من كان أوفر عقلا وأعلى منصبا كان أقل إعجابا وأعظم اتهاما لنفسه ، إلا أن هذا أيضا قد عز فقل فى الأصدقاء من يترك المداهنة فيخبر بالعيب ، أو يترك الحسد فلا يزيد على قدر الواجب . فلا تخلو فى أصدقائك عن حسود أو صاحب غرض يرى ما ليس بعيب عيبا ، أو عن مداهن يخفى عنك بعض عيوبك .

ولهذا كان داود الطائى قد اعتزل الناس فقيل له : لم لا تخالط الناس ؟ فقال : وماذا أصنع بأقوام يخفون عنى عيوبى ؟ فكانت شهوة ذوى الدين أن يتنبهوا لعيوبهم بتنبيه غيرهم ، وقد آل الأمر فى أمثالنا إلى أنّ أبغض الخلق إلينا من ينصحنا ويعرّفنا عيوبنا . ويكاد هذا أن يكون مفصحا عن ضعف الإيمان فإنّ الأخلاق السيئة حيات وعقارب لداغة ، فلو نبهنا منبه على أن تحت ثوبنا عقرباً لتقلدنا منه منة وفرحنا به واشتغلنا بإزالة العقرب وإبعادها وقتلها ، وإنما نكايتها على البدن ويدوم ألمها يوما فما دونه ، ونكاية الأخلاق الرديئة على صميم القلب أخشى أن تدوم

بعد الموت أبداً وآلافا من السنين . ثم إنا لا نفرح بمن ينبهنا عليها ولا نشتغل بإزالتها بل نشتغل بمقابلة الناصح بمثل مقالته فنقول له : وأنت أيضاً تصنع كيت وكيت وتشغلنا العداوة معه عن الانتفاع بنصحه ، ويشبه أن يكون ذلك من قساوة القلب التي أثمرتها كثرة الذنوب . وأصل كل ذلك ضعف الإيمان . فنسأل الله عز وجل أن يلهمنا رشدنا ويبصرنا بعيوبنا ويشغلنا بمداواتها ويوفقنا للقيام بشكر من يطلعنا على مساوينا بمنه وفضله .

الطريق الثالث : أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه فإن عين السخط تبدى المساويا . ولعل انتفاع الإنسان بعدو مشاحن يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثنى عليه ويمدحه ويخفى عنه عيوبه ، إلا أن الطبع مجبول على تكذيب العدو وحمل ما يقوله على الحسد ، ولكن البصير لايخلو عن الانتفاع بقول أعدائه فإن مساويه لابد وأن تنتشر على ألسنتهم .

الطريق الرابع : أن يخالط الناس فكل ما رآه مذموما فيما بين الخلق فليطالب نفسه به وينسبها إليه ، فإن المؤمن مرآة المؤمن ، فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه ويعلم أن الطباع متقاربة فى اتباع الهوى . فما يتصف به واحد من الأقران لا ينفك القرن الآخر عن أصله أو عن أعظم منه أو عن شيء منه ، فليتفقد نفسه ويطهرها من كل مايذمه من غيره وناهيك بهذا تأديبا ، فلو ترك الناس كلهم ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدب .

قيل لعيسى عليه السلام : من أدبك ؟ قال ما أدبنى أحد ، رأيت جهل الجاهل شيناً فاجتنبته . وهذا كله حيل من فقد شيخاً عارفا ذكيا بصيرا بعيوب النفس مشفقا ناصحا فى الدين فارغا من تهذيب نفسه مشتغلا بتهذيب عباد الله تعالى ناصحاً لهم ، فمن وجد ذلك فقد وجد الطبيب فليلازمه فهو الذى يخلصه من مرضه وينجيه من الهلاك الذى هو بصدده .

بيان شواهد النقل من أرباب البصائر وشواهد الشرع على أن الطريق فى معالجة أمراض القلب ترك الشهوات وأن مادة أمراضها هى اتباع الشهوات

اعلم أن ماذكرناه إن تأملته بعين الاعتبار انفتحت بصيرتك وانكشفت لك علل القلوب وأمراضها وأدويتها بنور العلم واليقين ، فإن عجزت عن ذلك فلا ينبغى أن يفوتك التصديق والإيمان على سبيل التلقى والتقليد لمن يستحق التقليد، فان للإيمان درجة كما أن للعلم درجة ، والعلم يحصل بعد الإيمان وهو وراءه قال الله تعالى ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ فمن صدق بأن مخالفة الشهوات هى الطريق إلى الله عز وجل ولم يطلع على سببه وسره فهو من الذين آمنوا ، وإذا اطلع على ماذكرناه من أعوان الشهوات فهو من الذين أوتوا العلم وكلا وعد الله الحسنى .

والذى يقتضى الإيمان بهذا الأمر فى القرآن والسنة وأقاويل العلماء أكثر من أن يحصر . قال الله تعالى : ﴿ ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى ﴾ وقال تعالى ﴿ أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ﴾ قيل نزع منها محبة الشهوات . وقال صلى الله عليه وسلم « المؤمن بين خمس شدائد : مؤمن يحسده ومنافق يبغضه وكافر يقاتله وشيطان يضله ونفس تنازعه [1] » فبين أن النفس عدو منازع يجب عليه مجاهدتها .

ويروى أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام ياداود حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات فإن القلوب

(١) حديث « المؤمن بين خمس شدائد : مؤمن يحسده ومنافق يبغضه ... الحديث » أخرجه أبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق من حديث أنس بسند ضعيف .

المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها عن محجوبة . وقال عيسى عليه السلام : طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعود غائب لم يره وقال نبينا صلى الله عليه وسلم لقوم قدموا من الجهاد « مرحبا بكم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » قيل يا رسول وما الجهاد الأكبر ؟ قال « جهاد النفس »(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « المجاهد من جاهد نفسه فى طاعة الله عز وجل »(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « كف أذاك عن نفسك ولا تتابع هواها فى معصية الله تعالى إذن تخاصمك يوم القيامة فيلعن بعضك بعضا إلا أن يغفر الله تعالى ويستر »(٣) » وقال سفيان الثورى : ما عالجت شيئا أشد على من نفسى مرة لى ومرة على وكان أبو العباس الموصلى يقول لنفسه : يانفس لا فى الدنيا مع أبناء الملوك تتنعمين ولا فى طلب الآخرة مع العباد تجتهدين كأنى بك بين الجنة والنار تحبسين يانفس ألا تستحين ! وقال الحسن : ما الدابة الجموح بأحوج إلى اللجام الشديد من نفسك .

وقال يحيى بن معاذ الرازى : جاهد نفسك بأسياف الرياضة . والرياضة على أربعة أوجه : القوت من الطعام ، والغمض من المنام ، والحاجة من الكلام وحمل الأذى من جميع الأنام فيتولد من قلة الطعام موت الشهوات ، ومن قلة المنام صفو الإرادات ، ومن قلة الكلام السلامة من الآفات ، ومن احتمال الأذى ، البلوغ إلى الغايات وليس على العبد شىء أشد من الحلم عند الجفاء والصبر على الأذى وإذا تحركت من النفس إرادة الشهوات والآثام وهاجت منها حلاوة فضول الكلام جردت سيوف قلة الطعام من غمد التهجد وقلة المنام ، وضربتها بأيدى الخمول وقلة الكلام حتى تنقطع عن الظلم والانتقام ، فتأمن من بوائقها من بين سائر الأنام وتصفيها من ظلمة شهواتها فتنجو من غوائل آفاتها ؛ فتصير عند ذلك نظيفة ونورية خفيفة روحانية فتجول فى ميدان الخيرات وتسير فى مسالك الطاعات كالفرس الفاره فى الميدان وكالملك المتنزه فى البستان . وقال أيضا : أعداء الإنسان ثلاثة : دنياه وشيطانه ونفسه ، فاحترس من الدنيا بالزهد فيها ، ومن الشيطان بمخالفته ؛ ومن النفس بترك الشهوات .

قال بعض الحكماء : من استولت عليه النفس صار أسيرا فى حب شهواتها ؛ محصورا فى سجن هواها ، مقهورا مغلولا زمامه فى يدها تجره حيث شاءت فتمنع قلبه من الفوائد . وقال جعفر بن حميد : أجمعت العلماء والحكماء على أن النعيم لايدرك إلا بترك النعيم . وقال أبو يحيى الوراق : من أرضى الجوارح بالشهوات فقد غرس فى قلبه شجر الندامات . وقال وهيب بن الورد : مازاد على الخبز فهو شهوة . وقال أيضا : من أحب شهوات الدنيا فليتهيأ للذل .

ويروى أن امرأة العزيز قالت ليوسف عليه السلام - بعد أن ملك خزائن الأرض وقعدت له على رابيه الطريق فى يوم موكبه وكان يركب فى زهاء اثنى عشر ألفا من عظماء مملكته - سبحان من جعل الملوك عبيدا بالمعصية وجعل العبيد ملوكا بطاعتهم له . إن الحرص والشهوة صيرا الملوك عبيدا وذلك جزاء المفسدين ، وإن الصبر والتقوى صيرا العبيد ملوكا . . فقال يوسف - كما أخبر الله تعالى عنه ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين ﴾ .

وقال الجنيد : أرقت ليلة فقمت إلى وردى فلم أجد الحلاوة التى كنت أجدها فأردت أن أنام فلم أقدر ، فجلست فلم أطق الجلوس ، فخرجت فإذا رجل ملتف فى عباءة مطروح على الطريق ، فلما أحس بى قال : ياأبا القاسم إلى الساعة ، فقلت : ياسيدى من غير موعد ؟ قال : بلى سألت الله عز وجل أن يحرك لى قلبك ، فقلت : قد فعل فما حاجتك ؟ قال : فتى يصير داء النفس دواءها ؟ فقلت : إذا خالفت النفس هواها ؛ فأقبل على نفسه فقال : اسمعى فقد

(١) حديث « مرحبا بكم قدمتم من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر » أخرجه البيهقى فى الزهد وقد تقدم فى شرح عجائب القلب (٢) حديث « المجاهد من جاهد نفسه » أخرجه الترمذى فى أثناء حديث وصححه وابن ماجه من حديث فضالة بن عبيد (٣) حديث « كف أذاك عن نفسك ولا تتابع هواها فى معصية الله .. الحديث » لم أجده بهذا السياق .

أجبتك بهذا سبع مرات فأبيت أن تسمعيه إلا من الجنيدها قد سمعتيه ، ثم انصرف وما عرفته وقال يزيدالرقاشى : إليكم عنى الماء البارد فى الدنيا لعلى لاأحرمه فى الآخرة . وقال رجل لعمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى : متى أتكلم ؟ قال : إذا اشتهيت الصمت ، قال : متى أصمت ؟ قال : إذا اشتهيت الكلام . وقال على رضى الله عنه : من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات فى الدنيا . وكان مالك بن دينار يطوف فى السوق فإذا رأى الشيء يشتهيه قال لنفسه : اصبرى فوالله ما أمنعك إلا من كرامتك على .

فإذن قد اتفق العلماء والحكماء على أن لاطريق إلى سعادة الآخرة إلا بنهى النفس عن الهوى ومخالفة الشهوات فالإيمان بهذا واجب . وأما علم تفصيل مايترك من الشهوات ومالا يترك فلايدرك إلا بما قدمناه . وحاصل الرياضة وسرها أن لاتتمتع النفس بشيء مما لايوجد فى القبر إلا بقدر الضرورة ، فيكون مقتصراً من الأكل والنكاح واللباس والمسكن وكل ماهو مضطر إليه على قدر الحاجة والضرورة ، فإنه لو تمتع بشيء منه أنس به وألفه ، فإذا مات تمنى الرجوع إلى الدنيا بسببه ولا يتمنى الرجوع إلى الدنيا إلا من لاحظ له فى الآخرة بحال ، ولا خلاص منه إلا بأن يكون القلب مشغولا بمعرفة الله وحبه والتفكر فيه والانقطاع إليه ، ولا قوة على ذلك إلا بالله ، ويقتصر من الدنيا على مايدفع عوائق الذكر والفكر فقط . فمن لم يقدر على حقيقة ذلك فليقرب منه والناس فيه أربعة :

رجل مستغرق قلبه بذكر الله فلا يلتفت إلى الدنيا إلا فى ضرورات المعيشة فهو من الصديقين . ولاينتهى إلى هذه الرتبة إلا بالرياضة الطويلة والصبر عن الشهوات مدة مديدة .

الثانى : رجل استغرقت الدنيا قلبه ولم يبق لله تعالى ذكر فى قلبه إلا من حيث حديث النفس ، حيث يذكره باللسان لابالقلب فهذا من الهالكين .

والثالث : رجل اشتغل بالدنيا والدين ولكن الغالب على قلبه هو الدين فهذا لابد له من ورود النار إلا أنه ينجو منها سريعاً بقدر غلبة ذكر الله تعالى على قلبه .

والرابع : رجل اشتغل بهما جميعاً لكن الدنيا أغلب على قلبه فهذا يطول مقامه فى النار لكن يخرج منها لامحالة لقوة ذكر الله تعالى فى قلبه وتمكنه من صميم فؤاده ، وإن كان ذكر الدنيا أغلب على قلبه . اللهم إنا نعوذ بك من خزيك فإنك أنت المعاذ .

وربما يقول القائل إن التنعم بالمباح مباح فكيف يكون التنعم سبب البعد من الله عز وجل ؟ وهذا خيال ضعيف بل حب الدنيا رأس كل خطيئة وسبب إحباط كل حسنة . والمباح الخارج عن قدر الحاجة أيضاً من الدنيا وهو سبب البعد ـ وسيأتى ذلك فى كتاب ذم الدنيا ـ وقد قال إبراهيم الخواص كنت مرة فى جبل اللكام فرأيت رمانا فاشتهيته فأخذت منه واحدة فشققتها فوجدتها حامضة فمضيت وتركتها ، فرأيت رجلا مطروحا وقد اجتمعت عليه الزنابير فقلت : السلام عليك ، فقال : وعليك السلام يا إبراهيم ، فقلت : كيف عرفتنى ؟ فقال : من عرف الله عز وجل لم يخف عليه شيء ، فقلت : أرى لك حالا مع الله عز وجل فلو سألته أن يحميك من هذه الزنابير ؟ فقال : وأرى لك حالا مع الله تعالى فلو سألته أن يحميك من شهوة الرمان فإن لدغ الرمان يجد الإنسان ألمه فى الآخرة ولدغ الزنابير يجد ألمه فى الدنيا ، فتركته ومضيت . وقال السرى : أنا منذ أربعين سنة تطالبنى نفسى أن أغمس خبزة فى دبس فما أطعمتها .

فإذن لايمكن إصلاح القلب لسلوك طريق الآخرة مالم يمنع نفسه عن التنعم بالمباح ، فإن النفس إذا لم تمنع

بعض المباحات طمعت فى المحظورات فمن أراد حفظ لسانه عن الغيبة والفضول فحقه أن يلزمه السكوت ؛ إلا عن ذكر الله وإلا عن المهمات فى الدين ، حتى تموت منه شهوة الكلام فلا يتكلم إلا بحق فيكون سكوته عبادة وكلامه عبادة . ومهما اعتادت العين رمى البصر إلى كل شىء جميل لم تتحفظ عن النظر إلى مالا يحل ، وكذلك سائر الشهوات ، لأن الذى يشتهى به الحلال هو بعينه الذى يشتهى الحرام ، فالشهوة واحدة وقد وجب على العبد منعها من الحرام فإن لم يعوّدها الاقتصاد على قدر الضرورة من الشهوات غلبته . فهذه إحدى آفات المباحات ووراءها آفات عظيمة أعظم من هذه ، وهو أن النفس تفرح بالتنعم فى الدنيا وتركن إليها وتطمئن إليها أشراً وبطرا حتى تصير ثملة كالسكران الذى لا يفيق من سكره . وذلك الفرح بالدنيا سم قاتل يسرى فى العروق فيخرج من القلب الخوف والحزن وذكر الموت وأهوال يوم القيامة ، وهذا هو موت القلب . قال الله تعالى ﴿ ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ﴾ وقال تعالى ﴿ وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع ﴾ وقال تعالى ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد ﴾ الآية وكل ذلك ذم لها فنسأل الله السلامة :

فأولو الحزم من أرباب القلوب جربوا قلوبهم فى حال الفرح بمؤاتاة الدنيا فوجدوها قاسية نفرة بعيدة التأثر عن ذكر الله واليوم الآخر ، وجربوها فى حالة الحزن فوجدوها لينة رقيقة صافية قابلة لأثر الذكر . فعلموا أن النجاة فى الحزن الدائم والتباعد من أسباب الفرح والبطر ، ففطموها عن ملاذها وعوّدوها الصبر عن شهواتها ـ حلالها وحرامها ـ وعلموا أن حلالها حساب وحرامها عقاب ومتشابهها عتاب وهو نوع عذاب ، فمن نوقش الحساب فى عرصات القيامة فقد عذب . فخلصوا أنفسهم من عذابها وتوصلوا إلى الحرية والملك الدائم فى الدنيا والآخرة بالخلاص من أسر الشهوات ورقها والأنس بذكر الله عز وجل والاشتغال بطاعته . وفعلوا بها ما يفعل بالبازى إذا قصد تأديبه ونقله من التوثب والاستيحاش إلى الانقياد والتأديب ؛ فإنه يحبس أولا فى بيت مظلم وتخاط عيناه حتى يحصل به الفطام عن الطيران فى جوّ الهواء ، وينسى ما قد كان ألفه من طبع الاسترسال ، ثم يرفق . باللحم حتى يأنس بصاحبه ويألفه إلفاً إذا دعاه أجابه ، ومهما سمع صوته رجع إليه . فكذلك النفس لا تألف ربها ولا تأنس بذكره إلا إذا فطمت عن عادتها بالخلوة والعزلة أوّلا ليحفظ السمع والبصر عن المألوفات ، ثم عودت الثناء والذكر والدعاء ثانياً فى الخلوة حتى يغلب عليها الأنس بذكر الله عز وجل عوضا عن الأنس بالدنيا وسائر الشهوات وذلك يثقل على المريد فى البداية ثم يتنعم به فى النهاية ، كالصبى يفطم عن الثدى وهو شديد عليه إذا كان لا يصبر عنه ساعة فلذلك يشتد بكاؤه وجزعه عند الفطام ، ويشتد نفوره عن الطعام الذى يقدم إليه بدلا عن اللبن ، ولكنه إذا منع اللبن رأسا يوما فيوما وعظم تعبه فى الصبر عليه وغلبه الجوع تناول الطعام تكلفا ، ثم يصير له طبعاً . فلو رد بعد ذلك إلى الثدى لم يرجع إليه ، فيهجر الثدى ويعاف اللبن ويألف الطعام . وكذلك الدابة فى الابتداء تنفر عن السرج واللجام والركوب فتحمل على ذلك قهراً ، وتمنع عن السرج الذى ألفته بالسلاسل والقيود أوّلا ، ثم تأنس به بحيث تترك فى موضعها فتقف فيه من غير قيد . فكذلك تؤدب النفس كما تؤدب الطير والدواب ، وتأديبها بأن تمنع من النظر والأنس والفرح بنعيم الدنيا بل بكل ما يزايلها بالموت ، إذ قيل له أحبب ما أحببت فإنك مفارقه . فإذا علم أنه من أحب شيئاً يلزمه فراقه ويشقى لا محالة لفراقه شغل قلبه بحب مالا يفارقه وهو ذكر الله تعالى ، فإن ذلك يصحبه فى القبر ولا يفارقه . وكل ذلك يتم بالصبر أولا أياما قلائل فإن العمر قليل بالإضافة إلى مدة حياة الآخرة . وما من عاقل إلا وهو راض باحتمال المشقة فى سفر وتعلم صناعة وغيرها شهراً ليتنعم به سنة أودهراً . وكل

العمر بالإضافة إلى الأبد أقل من الشهر بالإضافة إلى عمر الدنيا . فلا بد من الصبر والمجاهدة . فعند الصباح يحمد القوم السرى وتذهب عنهم عمايات الكرى كما قاله على رضى الله عنه .

وطريق المجاهدة والرياضة لكل إنسان تختلف بحسب اختلاف أحواله . والأصل فيه أن يترك كل واحد مابه فرحه من أسباب الدنيا فالذى يفرح بالمال أو بالجاه أو بالقبول فى الوعظ أو بالعز فى القضاء والولاية أو بكثرة الأتباع فى التدريس والإفادة فينبغى أن يترك أولا مابه فرحه ، فإنه إن منع عن شيء من ذلك وقيل له ثوابك فى الآخرة لم ينقص بالمنع فكره ذلك وتألم به فهو ممن فرح بالحياة الدنيا واطمأن بها ، وذلك مهلك فى حقه . ثم إذا ترك أسباب الفرح فليعتزل الناس ولينفرد بنفسه وليراقب قلبه حتى لا يشتغل إلا بذكر الله تعالى والفكر فيه . وليترصد لما يبدو فى نفسه من شهوة ووسواس حتى يقمع مادته مهما ظهر ، فإن لكل وسوسة سببا ولا تزول إلا بقطع ذلك السبب والعلاقة . وليلازم ذلك بقية العمر فليس للجهاد آخر إلا بالموت .

بيان علامات حسن الخلق

اعلم أن كل إنسان جاهل بعيوب نفسه ، فإذا جاهد نفسه أدنى مجاهدة حتى ترك فواحش المعاصى ربما يظن بنفسه أنه هذب نفسه وحسن خلقه واستغنى عن المجاهدة ، فلا بد من إيضاح علامة حسن الخلق . فإن حسن الخلق هو الإيمان ، وسوء الخلق هو النفاق . وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والمنافقين فى كتابه وهى بجملتها ثمرة حسن الخلق وسوء الخلق . فلنورد جملة من ذلك لتعلم آية حسن الخلق . قال الله تعالى ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ إلى قوله ﴿ أولئك هم الوارثون ﴾ وقال عز وجل ﴿ التائبون العابدون الحامدون ﴾ إلى قوله ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ وقال عزوجل ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ إلى قوله ﴿ أولئك هم المؤمنون حقا ﴾ وقال تعالى ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ إلى آخر السورة . من أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق ، وفقد جميعها علامة سوء الخلق ، ووجود بعضها دون بعض يدل على البعض دون البعض فليشتغل بتحصيل مافقده وحفظ ما وجده . وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن بصفات كثيرة وأشار بجميعها إلى محاسن الأخلاق فقال « المؤمن يحب لأخيه مايحب لنفسه [1] » وقال عليه السلام « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه [2] » وقال صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره [3] » وقال « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت [4] » وذكر أن صفات المؤمنين هى حسن الخلق فقال صلى الله عليه وسلم « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقا [5] » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا فادنوا منه فإنه يلقن الحكمة [6] » وقال « من سرته حسنته

---

(١) حديث « المؤمن يحب لأخيه مايحب لنفسه » أخرجه الشيخان من حديث أنس « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه »

(٢) حديث من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » متفق عليه من حديث أبى شريح الخزاعى ومن حديث أبى هريرة

(٣) حديث « من كان يؤمن بالله واليوم والآخر فليكرم جاره » متفق عليه من حديثهما وهو بعض الحديث الذى قبله

(٤) حديث « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » متفق عليه أيضاً من حديثهما وهو بعض الذى قبله

(٥) حديث « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا » تقدم غير مرة (٦) حديث « إذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا فادنوا منه فإنه يلقن الحكمة » أخرجه ابن ماجه من حديث أبى خلاد بلفظ « إذا رأيتم الرجل قد أعطى زهداً فى الدنيا وقلة منطق

وساءته سيئته فهو مؤمن (١) » وقال « لايحل لمؤمن أن يشير إلى أخيه بنظرة تؤذيه (٢) » وقال عليه السلام « لايحل لمسلم أن يروع مسلما (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله عز وجل فلايحل لأحدهما أن يفشى على أخيه ما يكرهه (٤) » .

وجمع بعضهم علامات حسن الخلق فقال : هو أن يكون كثير الحياء قليل الأذى كثير الصلاح صدوق اللسان ، قليل الكلام كثير العمل ، قليل الزلل قليل الفضول ، برا وصولا وقورا صبورا شكورا رضيا حليما رفيقا عفيفا شفيقا ، لالعانا ولا سبابا ولا نماما ولا مغتابا ولا عجولا ولا حقودا ولا بخيلا ولا حسودا ، بشاشا هشاشا يحب فى الله ويبغض فى الله ويرضى فى الله ويغضب فى الله فهذا هو حسن الخلق .

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن علامة المؤمن والمنافق فقال « إن المؤمن همته فى الصلاة والصيام والعبادة ، والمنافق همته فى الطعام والشراب كالبهيمة (٥) » وقال حاتم الأصم : المؤمن مشغول بالفكر والعبر ، والمنافق مشغول بالحرص والأمل ، والمؤمن آيس من كل أحد إلا من الله ، والمنافق راج كل أحد إلا الله ، والمؤمن آمن من كل أحد إلا من الله ، والمنافق خائف من كل أحد إلا من الله ، والمؤمن يقدم ماله دون دينه ، والمنافق يقدم دينه دون ماله ، والمؤمن يحسن ويبكى ، والمنافق يسىء ويضحك ، والمؤمن يحب الخلوة والوحدة ، والمنافق يحب الخلطة والملأ ، والمؤمن يزرع ويخشى الفساد ، والمنافق يقلع ويرجو الحصاد ، والمؤمن يأمر وينهى للسياسة فيصلح ، والمنافق يأمر وينهى للرياسة فيفسد .

وأولى مايمتحن به حسن الخلق الصبر على الأذى واحتمال الجفاء ، ومن شكا من سوء خلق غيره دل ذلك على سوء خلقه ، فإن حسن الخلق احتمال الأذى فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يوما يمشى ومعه أنس فأدركه أعرابى فجذبه جذبا شديدا وكان عليه برد نجرانى غليظ الحاشية ، قال أنس رضى الله عنه : حتى نظرت إلى عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أثرت فيه حاشية البرد من شدة جذبه ، فقال : يامحمد هب لى من مال الله الذى عندك ، فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وضحك ، ثم أمر بإعطائه (٦) ولما أكثرت قريش إيذاءه وضربه قال « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون (٧) » قيل إن هذا يوم أحد فلذلك أنزل الله تعالى ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ ويحكى أن إبراهيم بن أدهم خرج يوما إلى بعض البرارى فاستقبله رجل جندى فقال : أنت عبد ؟ قال : نعم ، فقال له : أين العمران ؟ فأشار إلى المقبرة ، فقال الجندى : إنما أردت العمران ؟ فقال : هو المقبرة ، فغاظه ذلك فضرب رأسه بالسوط فشجه ورده إلى البلد فاستقبله أصحابه فقالوا ما الخبر ؟ فأخبرهم الجندى ماقال له فقالوا ، هذا إبراهيم بن أدهم ! فنزل الجندى عن فرسه وقبل يديه ورجليه وجعل يعتذر إليه ، فقيل بعد ذلك له : لم قلت له أنا عبد ؟ فقال : إنه لم يسألنى : عبد من أنت بل قال : أنت عبد ؟ فقلت : نعم ، لأنى عبد الله ، فلما ضرب رأسى سألت

---

(١) حديث « من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن » أخرجه أحمد والطبرانى والحاكم وصححه على شرطهما من حديث أبى موسى ورواه الطبرانى والحاكم وصححه على شرط الشيخين من حديث أبى أمامة (٢) حديث « لايحل لمسلم أن يشير إلى أخيه بنظر يؤذيه » أخرجه ابن المبارك فى الزهد والرقائق وفى البر والصلة مرسلا وقد تقدم (٣) حديث « لايحل لمسلم أن يروع مسلماً » أخرجه الطبرانى والطيالسى من حديث النعمان بن بشير والبزار من حديث عمر وإسناده ضعيف .

(٤) حديث « إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله . . الحديث » تقدم فى آداب الصحبة .

(٥) حديث : سئل عن علامة المؤمن والمنافق فقال « إن المؤمن همه فى الصلاة والصيام ... الحديث » لم أجد له أصلا

(٦) حديث : كان يمشى فأدركه أعرابى فجذبه جذبا شديداً وكان عليه برد نجرانى غليظ الحاشية ... الحديث . متفق عليه من حديث أنس (٧) حديث « اللهم اغفر لقومى فإنهم لايعلمون » أخرجه ابن حبان والبيهقى فى دلائل النبوة من حديث سهل ابن سعد وفى الصحيحين من حديث ابن مسعود أنه حكاه صلى الله عليه وسلم عن نبى من الأنبياء ضربه قومه .

الله له الجنة قيل كيف وقد ظلمك ؟ فقال : علمت أنى أوجر على ما نالنى منه فلم أرد يكون نصيبى منه الخير ونصيبه منى الشر . ودعى أبو عثمان الحيرى إلى دعوة - وكان الداعى قد أراد تجربته - فلما بلغ منزله قال له : ليس لى وجه ، فرجع أبو عثمان فلما ذهب غير بعيد دعاه ثانيا فقال له : يا أستاذ ارجع فرجع أبو عثمان فقال له مثل مقالته الأولى فرجع ، ثم دعاه الثالثة وقال : ارجع على ما يوجب الوقت فرجع ، فلما بلغ الباب قال له مثل مقالته الأولى فرجع أبو عثمان ، ثم جاءه الرابعة فرده حتى عامله بذلك مرات وأبو عثمان لا يتغير من ذلك ، فأكب على رجليه وقال : يا أستاذ إنما أردت أن أختبرك فما أحسن خلقك ! فقال : إن الذى رأيت منى هو خلق الكلب ، إن الكلب إذا دعى أجاب وإذا زجر انزجر . وروى عنه أيضا أنه اجتاز يوما فى سكة فطرحت عليه إجانة رماد فنزل عن دابته فسجد سجدة الشكر ثم جعل ينفض الرماد عن ثيابه ولم يقل شيئا فقيل ألا زبرتهم فقال إن من استحق النار فصولح على الرماد لم يجز له أن يغضب وروى أن على بن موسى الرضا رحمة الله عليه كان لونه يميل إلى السواد - إذ كانت أمه سوداء - وكان بنيسابور حمام على باب داره ، وكان إذا أراد دخول الحمام فرغه له الحمامى ، فدخل ذات يوم فأغلق الحمامى الباب ومضى فى بعض حوائجه ، فتقدم رجل رستاقى إلى باب الحمام ففتحه ودخل فنزع ثيابه ودخل فرأى على بن موسى الرضا فظن أنه بعض خدام الحمام ، فقال له : قم واحمل إلى الماء فقام على بن موسى وامتثل جميع ما كان يأمره به ، فرجع الحمامى فرأى ثياب الرستاقى وسمع كلامه مع على بن موسى الرضا فخاف وهرب وخلاهما ، فلما خرج على بن موسى سأل عن الحمامى فقيل له : إنه خاف مما جرى فهرب قال : لا ينبغى له أن يهرب إنما الذنب لمن وضع ماءه عند أمة سوداء . وروى أن أبا عبد الله الخياط كان يجلس على دكانه ، وكان له حريف مجوسى يستعمله فى الخياطة فكان إذا خاط له شيئاً حمل إليه دراهم زائفة ، فكان أبو عبدالله يأخذ منه ولا يخبره بذلك ولا يردها عليه ، فاتفق يوما أن أبا عبدالله قام لبعض حاجته ، فأتى المجوسى فلم يجده فدفع إلى تلميذه الأجرة واسترجع ما قد خاطه فكان درهما زائفا ، فلما نظر إليه التلميذ عرف أنه زائف فرده عليه ، فلما عاد أبو عبد الله أخبره بذلك فقال : بئس ما عملت هذا المجوسى يعاملنى بهذه المعاملة منذ سنة وأنا أصبر عليه وآخذ الدراهم منه وألقيها فى البئر لئلا يغتر بها مسلما . وقال يوسف بن أسباط : علامة حسن الخلق عشر خصال : قلة الخلاف ، وحسن الإنصاف ، وترك طلب العثرات ، وتحسين ما يبدو من السيئات ، والتماس المعذرة ، واحتمال الأذى ، والرجوع بالملامة على النفس والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون عيوب غيره ، وطلاقة الوجه للصغير والكبير ، ولطف الكلام لمن دونه ولمن فوقه . وسئل سهل عن حسن الخلق فقال : أدناه احتمال الأذى وترك المكافأة والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه . وقيل للأحنف بن قيس ممن تعلمت الحلم ؟ فقال : من قيس بن عاصم ، قيل وما بلغ من حلمه ؟ قال : بينما هو جالس فى داره إذ أتته جارية له بسفود عليه شواء فسقط من يدها فوقع على ابن له صغير فمات ، فدهشت الجارية فقال لها : لا روع عليك أنت حرة لوجه الله تعالى . وقيل إن أويسا القرنى كان إذا رآه الصبيان يرمونه بالحجارة فكان يقول لهم : يا إخوتاه إن كان ولابد فارمونى بالصغار حتى لا تدموا ساقى فتمنعونى عن الصلاة . وشتم رجل الأحنف بن قيس وهو لا يجيبه وكان يتبعه فلما قرب من الحى وقف وقال : إن كان قد بقى فى نفسك شىء فقله كى لا يسمعك بعض سفهاء الحى فيؤذوك وروى أن عليا كرم الله وجهه دعا غلاما فلم يجبه فدعاه ثانياً وثالثاً فلم يجبه ، فقام إليه فرآه مضطجعاً فقال : أما تسمع يا غلام ؟ قال ، بلى ، قال : فما حملك على ترك إجابتى ؟ قال : أمنت عقوبتك فتكاسلت ، فقال : امض فأنت حر لوجه الله تعالى . وقالت امرأة لمالك بن دينار رحمه الله :

يامرائى ، فقال : ياهذه وجدت اسمى الذى أضله أهل البصرة . وكان ليحيى بن زياد الحارثى غلام سوء فقيل له : لم تمسكه ؟ فقال : لأتعلم الحلم عليه .

فهذه نفوس قد ذللت بالرياضة فاعتدلت أخلاقها ، ونقيت من الغش والغل والحقد بواطنها فأثمرت الرضا بكل ما قدره الله تعالى وهو منتهى حسن الخلق . فإن من يكره فعل الله تعالى ولا يرضى به فهو غاية سوء خلقه ، فهؤلاء ظهرت العلامات على ظواهرهم كما ذكرناه . فمن لم يصادف من نفسه هذه العلامات فلا ينبغى أن يغتر بنفسه فيظن بها حسن الخلق ، بل ينبغى أن يشتغل بالرياضة والمجاهدة إلى أن يبلغ درجة حسن الخلق فإنها درجة رفيعة لاينالها إلا المقربون والصديقون .

بيان الطريق فى رياضة الصبيان فى أول نشوهم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم

اعلم أن الطريق فى رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها والصبيان أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل ما نقش ومائل إلى كل ما يمال به إليه ، فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد فى الدنيا والآخرة وشاركه فى ثوابه أبوه وكل معلم له ومؤدب ؛ وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقى وهلك وكان الوزر فى رقبة القيم عليه والوالى له . وقد قال الله عز وجل ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾ ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى ؛ وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من القرناء السوء ولا يعوده التنعم ، ولا يحبب إليه الزينة والرفاهية فيضيع عمره فى طلبها إذا كبر فيهلك هلاك الأبد ، بل ينبغى أن يراقبه من أول أمره فلا يستعمل فى حضانته وإرضاعه إلا امرأة متدينة تأكل الحلال ، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه ، فإذا وقع عليه نشوء الصبى انعجنت طينته من الخبيث فيميل طبعه إلى ما يناسب الخبائث . ومهما رأى فيه مخايل التمييز فينبغى أن يحسن مراقبته ، وأول ذلك ظهور أوائل الحياء ، فإنه إذا كان يحتشم ويستحى ويترك بعض الأفعال فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه ، حتى يرى بعض الأشياء قبيحا ومخالفاً للبعض فصار يستحى من شىء دون شىء ، وهذه هدية من الله تعالى إليه وبشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب وهو مبشر بكمال العقل عند البلوغ فالصبى المستحى لا ينبغى أن يهمل بل يستعان على تأديبه بحيائه أو تمييزه ، وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام فينبغى أن يؤدب فيه ، مثل أن لا يأخذ الطعام إلا بيمينه ، وأن يقول عليه بسم الله عند أخذه ، وأن يأكل مما يليه وأن لايبادر إلى الطعام قبل غيره ، وأن لا يحدق النظر إليه ولا إلى من يأكل ، وأن لايسرع فى الأكل ، وأن يجيد المضغ ، وأن لايوالى بين اللقم ، ولا يلطخ يده ولا ثوبه ، وأن يعوّد الخبز القفار فى بعض الأوقات حتى لايصير بحيث يرى الأدم حتما ، ويقبح عنده كثرة الأكل بأن يشبه كل من يكثر الأكل بالبهائم ، وبأن يذم بين يديه الصبى الذى يكثر الأكل ويمدح عنده الصبى المتأدب القليل الأكل ، وأن يحبب إليه الإيثار بالطعام وقلة المبالاة به والقناعة بالطعام الخشن أى طعام كان ، وأن يحبب إليه من الثياب البيض دون الملون والإبريسم ويقرر عنده أن ذلك شأن النساء والمخنثين وأن الرجال يستنكفون منه ويكرر ذلك عليه ، ومهما رأى على صبى ثوباً من إبريسم أو ملون فينبغى أن يستنكره ويذمه ، ويحفظ الصبى عن الصبيان الذين عودوا التنعم والرفاهية ولبس الثياب الفاخرة ، وعن مخالطة كل من يسمعه ما يرغبه فيه فإن الصبى مهما أهمل فى ابتداء نشوه خرج فى الأغلب ردىء الأخلاق كذابا حسوداً سروقا نماما لحوحا ذا فضول وضحك وكياد ومجانة ، وإنما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التأديب ،

ثم يشغل فى المكتب فيتعلم القرآن وأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار وأحوالهم لينغرس فى نفسه حب الصالحين ويحفظ من الأشعار التى فيها ذكر العشق وأهله ، ويحفظ من مخالطة الأدباء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع ، فإن ذلك يغرس فى قلوب الصبيان بذر الفساد .

ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود فينبغى أن نكرم عليه ويجازى عليه بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس ، فإن خالف ذلك فى بعض الأحوال مرة واحدة فينبغى أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولا يكاشفه ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسروا أحد على مثله ، ولاسيما إذا ستره الصبي واجتهد فى إخفائه ؛ فإن إظهار ذلك عليه ربما يفيده جسارة حتى لا يبالى بالمكاشفة ، فعند ذلك إن عاد ثانيا فينبغى أن يعاتب سرا ويعظم الأمر فيه ويقال له : إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا وأن يطلع عليك فى مثل هذا فتفتضح بين الناس ، ولاتكثر القول عليه بالعتاب فى كل حين فإنه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح ويسقط وقع الكلام من قلبه ، وليكن الأب حافظا هيبة الكلام معه فلا يوبخه إلا أحياناً ، والأم تخوفه بالأب وتزجره عن القبائح ، وينبغى أن يمنع عن النوم نهاراً فإنه يورث الكسل ولا يمنع منه ليلا ولكن يمنع الفرش الوطيئة حتى تتصلب أعضاؤه ولا يسمن بدنه فلا يصبر عن التنعم ؛ بل يعوّد الخشونة فى المفرش والملبس والمطعم ، وينبغى أن يمنع من كل مايفعله فى خفية فإنه لايخفيه إلا وهو يعتقد أنه قبيح ، فاذا ترك تعود فعل القبيح ، ويعود فى بعض النهار المشى والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل ، ويعود أن لايكشف أطرافه ولا يسرع المشى ، ولا يرخى يديه بل يضمها إلى صدره ، ويمنع من أن يفتخر على أقرانه بشيء مما يملكه والداه أو بشيء من مطاعمه وملابسه أو لوحه ودواته ، بل يعود التواضع والإكرام لكل من عاشره والتلطف فى الكلام معهم ، ويمنع من أن يأخذ من الصبيان شيئا بدا له حشمة إن كان من أولاد المحتشمين ، بل يعلم أن الرفعة فى الإعطاء لا فى الأخذ وأن الأخذ لؤم وخسة ودناءة : وإن كان من أولاد الفقراء فليعلم أن الطمع والأخذ مهانة وذلة وأن ذلك من دأب الكلب فإنه يبصبص فى انتظار لقمة والطمع فيها .

وبالجملة يقبح إلى الصبيان حب الذهب والفضة والطمع فيهما ويحذر منهما أكثر مما يحذر من الحيات والعقارب ، فإن آفة حب الذهب والفضه والطمع فيهما أضر من آفة السموم على الصبيان بل على الأكابر أيضا ، وينبغى أن يعود أن لا يبصق فى مجلسه ولا يمتخط ولا يتثاءب بحضرة غيره ولا يستدبر غيره ولا يضع رجلا على رجل ولا يضع كفه تحت ذقنه ، ولا يعمد رأسه بساعده فإن ذلك دليل الكسل . ويعلم كيفية الجلوس ويمنع كثرة الكلام ويبين له أن ذلك يدل على الوقاحة وأنه فعل أبناء اللئام ، ويمنع اليمين رأساً ـ صادقا كان أو كاذبا ـ حتى لا يعتاد ذلك فى الصغر ، ويمنع أن يبتدئ بالكلام ، ويعود أن لا يتكلم إلا جوابا وبقدر السؤال ، وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو اكبر منه سنا ، وأن يقوم لمن فوقه ويوسع له المكان ويجلس بين يديه ، ويمنع من لغو الكلام وفحشه ، ومن اللعن والسب ، ومن مخالطة من يجرى على لسانه شيء من ذلك فإن ذلك يسرى لا محالة من القرناء السوء ، وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء . وينبغى إذا ضربه المعلم أن لا يكثر الصراخ والشغب ، ولا يستشفع بأحد بل يصبر ويذكر له أن ذلك دأب الشجعان والرجال ، وأن كثرة الصراخ دأب المماليك والنسوان . وينبغى أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعبا جميلا يستريح إليه من تعب المكتب بحيث لا يتعب فى اللعب ، فإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه إلى التعلم دائما يميت قلبه ويبطل ذكاءه وينغص عليه العيش ، حتى يطلب الحيلة فى الخلاص منه رأساً . وينبغى أن يعلم طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه ومن هو أكبر منه سنا من قريب وأجنبي ، وأن ينظر إليهم بعين الجلالة والتعظيم ، وأن يترك اللعب بين أيديهم . ومهما بلغ سن التمييز ، فينبغى

أن لا يسامح فى ترك الطهارة والصلاة ويؤمر بالصوم فى بعض أيام رمضان ، ويجنب لبس الديباج والحرير والذهب ويعلم كل مايحتاج إليه من حدود الشرع .

ويخوف من السرقة وأكل الحرام ومن الخيانة والكذب والفحش ، وكل مايغلب على الصبيان ، فإذا وقع نشوه كذلك فى الصبا فمهما قارب البلوغ أمكن أن يعرف أسرار هذه الأمور ، فيذكر له أن الأطعمة أدوية وإنما المقصود منها أن يقوى الإنسان بها على طاعة الله عز وجل ، وأن الدنيا كلها لا أصل لها إذلا بقاء لها ، وإن الموت يقطع نعيمها ، وأنها دار ممر لادار مقر ، وأن الآخرة دار مقر لادار ممر ، وأن الموت منتظر فى كل ساعة ، وأن الكيس العاقل من تزود من الدنيا للآخرة حتى تعظم درجته عند الله تعالى ويتسع نعيمه فى الجنان ، فإذا كان النشو صالحا كان هذا الكلام عند البلوغ واقعا مؤثرا ناجعا يثبت فى قلبه كما يثبت النقش فى الحجر . وإن وقع النشو بخلاف ذلك حتى ألف الصبى اللعب والفحش والوقاحة وشره الطعام واللباس والتزين والتفاخر نبا قلبه عن قبول الحق نبوة الحائط عن التراب اليابس . فأوائل الأمور هى التى ينبغى أن تراعى ، فإن الصبى بجوهره خلق قابلا للخير والشر جميعا وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين . قال صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه [(١)] » قال سهل بن عبد الله التسترى : كنت وأنا ابن ثلاث سنين أقوم بالليل فأنظر إلى صلاة خالى محمد بن سوار فقال لى يوما : ألا تذكر الله الذى خلقك فقلت : كيف أذكره ؟ قال : قل بقلبك عند تقلبك فى ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك ، الله معى الله ناظر إلى الله شاهدى ، فقلت ذلك ليالى ثم أعلمته فقال : قل فى كل ليلة سبع مرات ، فقلت ذلك ثم أعلمته فقال : قل ذلك كل ليلة إحدى عشر مرة ، فقلته فوقع فى قلبى حلاوته ، فلما كان بعد سنة قال لى خالى : احفظ ماعلمتك ودم عليه إلى أن تدخل القبر فانه ينفعك فى الدنيا والآخرة ، فلم أزل على ذلك سنين فوجدت لذلك حلاوة فى سرى ، ثم قال لى خالى يوما : ياسهل من كان الله معه وناظرا إليه وشاهده أيعصيه ؟ إياك والمعصية ، فكنت أخلو بنفسى فبعثوا بى إلى المكتب فقلت : إنى لأخشى أن يتفرق على همى ولكن شارطوا المعلم أنى أذهب إليه ساعة فأتعلم ثم أرجع ، فمضيت إلى الكتاب فتعلمت القرآن وحفظته وأنا ابن ست سنين أو سبع سنين ، وكنت أصوم الدهر وقوتى من خبز الشعير اثنتى عشرة سنة ، فوقعت لى مسألة وأنا ابن ثلاث عشرة سنة فسألت أهلى أن يبعثونى إلى أهل البصرة لأسأل عنها ، فأتيت البصرة فسألت علماءها فلم يشف أحد عنى شيئا . فخرجت إلى عبادان إلى رجل يعرف بأبى حبيب حمزة بن أبى عبد الله العباداني فسألته عنها فأجابنى ، فأقمت عنده مدة أنتفع بكلامه وأتأدب بآدابه ، ثم رجعت إلى تستر فجعلت قوتى اقتصادا على أن يشترى لى بدرهم من الشعير الفرق فيطحن ويخبز لى ، فأفطر عند السحر على أوقية كل ليلة بحتا من غير ملح ولا أدم ، فكان يكفينى ذلك الدرهم سنة . ثم عزمت على أن أطوى ثلاث ليال ثم أفطر ليلة . ثم خمسا ، ثم سبعا ، ثم خمسا وعشرين ليلة ، فكنت على ذلك عشرين سنة ، ثم خرجت أسيح فى الأرض سنين ، ثم رجعت إلى تستر وكنت أقوم الليل كله ماشاء الله تعالى قال أحمد : فما رأيته أكل الملح حتى لقى الله تعالى :

بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة وتدريج المريد فى سلوك سبيل الرياضة

واعلم أن من شاهد الآخرة بقلبه مشاهدة يقين أصبح بالضرورة مريدا حرث الآخرة مشتاقا إليها سالكا سبيلها مستهينا بنعيم الدنيا ولذاتها ، فإن من كانت عنده خرزة فرأى جوهرة نفيسة لم يبق له رغبة فى الخرزة وقويت إرادته

(١) حديث « كل مولود يولد على الفطرة ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة .

فى بيعها بالجوهرة ، ومن ليس مريدا حرث الآخرة ولا طالبا للقاء الله تعالى فهو لعدم إيمانه بالله واليوم الآخر - ولست أعنى بالإيمان حديث النفس وحركة اللسان بكلمتى الشهادة من غير صدق وإخلاص ، فإن ذلك يضاهى قول من صدق بأن الجوهرة خير من الخرزة إلا أنه لايدرى من الجوهرة إلا لفظها وأما حقيقتها فلا ومثل هذا المصدق إذا ألف الخرزة قد لايتركها ولايعظم اشتياقه إلى الجوهرة ، فإذن المانع من الوصول عدم السلوك والمانع من السلوك عدم الإرادة والمانع من الإرادة عدم الإيمان ، وسبب عدم الإيمان عدم الهداة والمذكرين والعلماء بالله تعالى الهادين إلى طريقه والمنبهين على حقارة الدنيا وانقراضها وعظم أمر الآخرة ودوامها - فالخلق غافلون قد انهمكوا فى شهواتهم وغاصوا فى رقدتهم وليس فى علماء الدين من ينبههم ، فإن تنبه منهم متنبه عجز عن سلوك الطريق لجهله ، فإن طلب الطريق من العلماء وجدهم مائلين إلى الهوى عادلين عن نهج الطريق ، فصار ضعف الإرادة والجهل بالطريق ونطق العلماء بالهوى سببا لخلو طريق الله تعالى عن السالكين فيه . ومهما كان المطلوب محجوبا والدليل مفقودا والهوى غالبا والطالب غافلا امتنع الوصول وتعطلت الطرق لامحالة ، فإن تنبه متنبه من نفسه أومن تنبيه غيره وانبعث له إرادة فى حرث الآخرة وتجارتها فينبغى أن يعلم له شروطا لابدّ من تقديمها فى بداية الإرادة وله معتصم لابدّ من التمسك به ، وله حصن لابدّ من التحصن به ليأمن من الأعداء القطاع لطريقه ، وعليه وظائف لابد من ملازمتها فى وقت سلوك الطريق .

أما الشروط التى لابدّ من تقديمها فى الإرادة فهى رفع السدّ والحجاب الذى بينه وبين الحق ، فإن حرمان الخلق عن الحق سببه تراكم الحجب ووقوع السدّ على الطريق قال الله تعالى ﴿ وجعلنا من بين أيديهم ومن خلفهم سدّا فأغشيناهم فهم لايبصرون ﴾ .

والسد بين المريد وبين الحق أربعة : المال ، والجاه ، والتقليد ، والمعصية . وإنما يرفع حجاب المال بخروجه عن ملكه حتى لا يبقى له إلا قدر الضرورة ، فما دام يبقى له درهم يلتفت إليه فهو مقيد به محجوب عن الله عز وجل . وإنما يرتفع حجاب الجاه بالبعد عن موضع الجاه بالتواضع وإيثار الخمول والهرب من أسباب الذكر وتعاطى أعمال تنفر قلوب الخلق عنه . وإنما يرتفع حجاب التقليد بأن يترك التعصب للمذاهب وأن يصدق بمعنى قوله « لا إله إلا الله محمد رسول الله » تصديق إيمان ويحرص فى تحقيق صدقه بأن يرفع كل معبود له سوى الله تعالى - وأعظم معبود له الهوى - حتى إذا فعل ذلك انكشف له حقيقة الأمر فى معنى اعتقاده الذى تلقفه تقليدا فينبغى أن يطلب كشف ذلك من المجاهدة لامن المجادلة ، فإن غلب عليه التعصب لمعتقدة ولم يبق فى نفسه متسع لغيره صار ذلك قيداً له وحجابا إذ ليس من شرط المريد الانتماء إلى مذهب معين أصلا . وأما المعصية فهى حجاب ولا يرفعها إلا التوبة والخروج من المظالم وتصميم العزم على ترك العود وتحقيق الندم على مامضى ورد المظالم وإرضاء الخصوم ، فإنّ من لم يصحح التوبة ولم يهجر المعاصى الظاهرة وأراد أن يقف على أسرار الدين بالمكاشفة كان كمن يريد أن يقف على أسرار القرآن وتفسيره وهو بعد لم يتعلم لغة العرب ، فإنّ ترجمة عربية القرآن لابد من تقديمها أوّلا ثم الترقى منها إلى أسرار معانيه ، فكذلك لابد من تصحيح الشريعة أوّلا وآخرا ثم الترقى إلى أغوارها وأسرارها .

فإذا قدم هذه الشروط الأربعة وتجرد عن المال والجاه كان كمن تطهر وتوضأ ورفع الحدث وصار صالحاً للصلاة فيحتاج إلى إمام يقتدى به ، فكذلك المريد يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدى به لامحالة ليهديه إلى سواء السبيل فإنّ سبيل الدين غامض وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة ، فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه لامحالة ، فمن

سلك سبل البوادى المهلكة بغير خفير فقد خاطر بنفسه وأهلكها ، ويكون المستقل بنفسه كالشجرة التى تنبت بنفسها فإنها تجف على القرب ، وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر . فمعتصم المريد بعد تقديم الشروط المذكورة شيخه فليتمسك به تمسك الأعمى على شاطئ النهر بالقائد بحيث يفوض أمره إليه بالكلية ، ولا يخالفه فى ورده ولا صدره ولا يبقى فى متابعته شيئا ولا يذر ، وليعلم أن نفعه فى خطأ شيخه لو أخطأ أكثر من نفعه فى صواب نفسه لو أصاب فإذا وجد مثل هذا المعتصم وجب على معتصمه أن يحميه ويعصمه بحصن حصين يدفع عنه قواطع الطريق وهو أربعة أمور : الخلوة ، والصمت ، والجوع ، والسهر . وهذا تحصن من القواطع فإن مقصود المريد إصلاح قلبه ليشاهد به ربه ويصلح لقربه .

أما الجوع فإنه ينقص دم القلب ويبيضه وفى بياضه نوره ، ويذيب شحم الفؤاد وفى ذوبانه رقته ، ورقته مفتاح المكاشفة كما أن قساوته سبب الحجاب . ومهما نقص دم القلب ضاق مسلك العدو فإن مجاريه العروق الممتلئة بالشهوات . وقال عيسى عليه السلام : يامعشر الحواريين جوعوا بطونكم لعل قلوبكم ترى ربكم ! وقال سهل بن عبد الله التسترى : ما صار الأبدال أبدالا إلا بأربع خصال ، بإخماص البطون ، والسهر ، والصمت ، والاعتزال عن الناس . ففائدة الجوع فى تنوير القلب أمر ظاهر يشهد له التجربة .وسيأتى بيان وجه التدريج فيه فى كتاب كسر الشهوتين

وأما السهر فإنه يجلو القلب ويصفيه وينوره ، فيضاف ذلك إلى الصفاء الذى حصل من الجوع فيصير القلب كالكوكب الدرى والمرآة المجلوة فيلوح فيه جمال الحق ، ويشاهد فيه رفيع الدرجات فى الآخرة وحقارة الدنيا وآفاتها ، فتتم بذلك رغبته عن الدنيا وإقباله على الآخرة . والسهر أيضا نتيجة الجوع فإن السهر مع الشبع غير ممكن ، والنوم يقسى القلب ويميته إلا إذا كان بقدر الضرورة فيكون سبب المكاشفة لأسرار الغيب . فقد قيل فى صفة الأبدال : إن أكلهم فاقة ونومهم غلبة وكلامهم ضرورة . وقال إبراهيم الخواص رحمه الله : أجمع رأى سبعين صدّيقا على أن كثرة النوم من كثرة شرب الماء .

وأما الصمت فإنه تسهله العزلة ، ولكن المعتزل لا يخلو عن مشاهدة من يقوم له بطعامه وشرابه وتدبير أمره ، فينبغى أن لا يتكلم إلا بقدر الضرورة فإن الكلام يشغل القلب وشره القلوب إلى الكلام عظيم ، فإنه يستروح إليه ويستثقل التجرد للذكر والفكر فيستريح إليه . فالصمت يلقح العقل ويجلب الورع ويعلم التقوى .

وأما حياة الخلوة ففائدتها دفع الشواغل وضبط السمع والبصر فإنهما دهليز القلب . والقلب فى حكم حوض تنصب إليه مياه كريهة كدرة قذرة من أنهار الحواس ، ومقصود الرياضة تفريغ الحوض من تلك المياه ومن الطين الحاصل منها ليتفجر أصل الحوض فيخرج منه الماء النظيف الطاهر ، وكيف يصح له أن ينزح الماء من الحوض والأنهار مفتوحة إليه فيتجدد فى كل حال أكثر مما ينقص ؟ فلا بد من ضبط الحواس إلا عن قدر الضرورة ، وليس يتم ذلك إلا بالخلوة فى بيت مظلم ، وإن لم يكن له مكان مظلم فليلف رأسه فى جيبه أو يتدثر بكساء أو إزار ، ففى مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق ويشاهد جلال الحضرة الربوبية . أما ترى أن نداء رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغه وهو على مثل هذه الصفة فقيل له « يا أيها المزمل — يا أيها المدثر [1] » .

(١) حديث : بدئ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مدثر فقيل له (يا أيها المزمل — يا أيها المدثر) متفق عليه من حديث جابر « جاورت بحراء فلما قضيت جوارى هبطت فنوديت فنظرت عن يمينى ... الحديث » وفيه « فأتيت خديجة فقلت : دثرونى وصبوا على الماء باردا فدثرونى وصبوا على ماء باردا » قال فنزلت (يا أيها المدثر) وفى رواية فقلت « زملونى زملونى » ولهما من حديث عائشة فقال « زملونى زملونى » فزملوه حتى ذهب عنه الروع .

فهذه الأربعة جنة وحصن بهـا تدفع عنه القواطع وتمنع العوارض القاطعة للطريق . فإذا فعل ذلك اشتغل بعـده بسلوك الطريق . وإنمـا سلوكه بقطع العقبات ولا عقبة على طريق الله تعالى إلا صفات القلب التى سببها الالتفات إلى الدنيا وبعض تلك العقبات أعظم من بعض . والترتيب فى قطعها أن يشتغل بالأسهل فالأسهل. وهى تلك الصفات ؛ أعنى أسرار العلائق التى قطعها فى أول الإرادة ، وآثارها ؛ أعنى المـال والجاه وحب الدنيا والالتفات إلى الخلق والتشوف إلى المعاصى ، فلا بد أن يخلى الباطن عن آثارها كما أخلى الظاهر عن أسبابها الظاهرة ، وفيـه تطول المجاهدة ، ويختلف ذلك باختلاف الأحوال ؛ فرب شخص قد كفى أكثر الصفات فلا تطول عليه المجاهدة ، وقد ذكرنا أن طريق المجاهدة مضادة الشهوات ومخالفة الهوى فى كل صفة غالبة على نفس المريد ـ كما سبق ذكره ـ فإذا كفى ذلك أو ضعف بالمجاهدة ولم يبق فى قلبه علاقة ؛ شغله بعد ذلك بذكر يلازم قلبه على الدوام ويمنعه من تكثير الأوراد الظاهرة ، بل يقتصر على الفرائض والرواتب ويكون ورده ورداً واحداً . وهو لباب الأوراد وثمرتها ؛ أعنى ملازمة القلب لذكر الله تعالى بعد الخلو من ذكر غيره ، ولا يشغله به ما دام قلبه ملتفتاً إلى علائقه. قال الشبلى للحصرى: إن كان يخطر بقلبك من الجمعة التى تأتينى فيها إلى الجمعة الأخرى شىء غير الله تعـالى فحرام عليك أن تأتينى . وهـذا التجرد لا يحصل إلا مع صدق الإرادة واستيلاء حب الله تعالى على القلب حتى يكون فى صورة العاشق المستهتر الذى ليس له إلا هم واحـد . فإذا كان كـذلك ألزمه الشيخ زاوية ينفرد بهـا ويوكل به من يقوم له بقدر يسير من القوت الحلال ، فإن أصل طريق الدين القوت الحلال ، وعند ذلك يلقنه ذكراً من الأذكار حتى يشغل به لسانه وقلبه فيجلس ويقول مثلا : الله الله . أو : سبحان الله سبحان الله . أو ما يراه الشيخ من الكلمات فلا يزال يواظب عليه حتى تسقط حركة اللسان وتكون الكلمة كأنها جارية على اللسان من غير تحريك، ثم لا يزال يواظب عليه حتى يسقط الأثر عن اللسان وتبقى صورة اللفظ فى القلب ، ثم لا يزال كذلك حتى يمحى عن القلب حروف اللفظ وصورته ، وتبقى حقيقة معناه لازمة للقلب حاضرة معه غالبة عليه قد فرغ عن كل ما سواه ، لأن القلب إذا شغل بشىء خلا عن غيره ـ أى شىء كان ـ فإذا اشتغل بذكر الله تعالى وهو المقصود خلا لا محالة عن غيره، وعند ذلك يلزمه أن يراقب وساوس القلب والخواطر التى تتعلق بالدنيا وما يتذكر فيه مما قد مضى من أحواله وأحوال غيره ، فإنه مهما اشتغل بشىء منه ولو فى لحظة خلا قلبه عن الذكر فى تلك اللحظة وكان أيضا نقصانا ، فليجتهد فى دفع ذلك . ومهما دفع الوساوس كلها ورد النفس إلى هذه الكلمة جاءته الوساوس من هذه الكلمة، وأنها: ما هى ؟ وما معنى قولنا : الله ؟ ولأى معنى كان إلها وكان معبودا ؟ ويعتريه عند ذلك خواطر تفتح عليه باب الفكر وربمـا يرد عليه من وساوس الشيطان ما هو كفر وبدعة . ومهما كان كارها لذلك ومتشمرا لإماطته عن القلب لم يضره ذلك . وهى منقسمة إلى ما يعلم قطعاً أن الله تعالى منزه عنـه ولكن الشيطان يلقى ذلك فى قلبه ويجريه على خاطره ، فشرطه أن يبالى به ويفزع إلى ذكر الله تعالى ويبتهل إليه ليدفعه عنه كما قال الله تعالى ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميـع عليم ﴾ وقال تعالى ﴿ إنّ الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ وإلى ما يشك فيه فينبغى أن يعرض ذلك على شيخه ، بل كل ما يجد فى قلبه من الأحوال من فترة أو نشاط أو التفات إلى علقة أو صدق فى إرادة فينبغى أن يظهر ذلك لشيخه ، وأن يستره عن غيره فلا يطلع عليه أحداً ، ثم إن شيخه ينظر فى حاله ويتأمل فى ذكائه وكياسته ، فلو علم أنه لو تركه وأمره بالفكر تنبه من نفسه على حقيقة الحق فينبغى أن يحيله على الفكر ويأمره بملازمته حتى يقذف فى قلبه من النور ما يكشف له حقيقته، وإن علم

أن ذلك مما لا يقوى عليه مثله رده إلى الاعتقاد القاطع بما يحتمله قلبه من وعظ وذكر ودليل قريب من فهمه ، وينبغى أن يتأنق الشيخ ويتلطف به فإن هذه مهالك الطريق ومواضع أخطارها ، فكم من مريد اشتغل بالرياضة فغلب عليه خيال فاسد لم يقو على كشفه فانقطع عليه طريقه فاشتغل بالبطالة وسلك طريق الإباحة؟ وذلك هو الهلاك العظيم . ومن تجرد للذكر ودفع العلائق الشاغلة عن قلبه لم يخل عن أمثال هذه الأفكار فإنه قد ركب سفينة الخطر ، فإن سلم كان من ملوك الدين وإن أخطأ كان من الهالكين . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « عليكم بدين العجائز »[1] وهو تلقى أصل الإيمان وظاهر الاعتقاد بطريق التقليد والاشتغال بأعمال الخير ، فإن الخطر فى العدول عن ذلك كثير . ولذلك قيل يجب على الشيخ أن يتفرس فى المريد فإن لم يكن ذكيا فطنا متمكنا من اعتقاد الظاهر لم يشغله بالذكر والفكر ، بل يرده إلى الأعمال الظاهرة والأوراد المتواترة ، أو يشغله بخدمة المتجردين للفكر لتشمله بركتهم فإن العاجز عن الجهاد فى صف القتال ينبغى أن يسقى القوم ويتعهد دوابهم ليحشر يوم القيامة فى زمرتهم وتعمه بركتهم ، وإن كان لا يبلغ درجتهم ، ثم المريد المتجرد للذكر والفكر قد يقطعه قواطع كثيرة من العجب والرياء والفرح بما ينكشف له من الأحوال وما يبدو من أوائل الكرامات . ومهما التفت إلى شيء من ذلك وشغلت به نفسه كان ذلك فتورا فى طريقه ووقوفا ، بل ينبغى أن يلازم حاله جملة عمره ملازمة العطشان الذى لا ترويه البحار ولو أفيضت عليه ويدوم على ذلك ، ورأس ماله الانقطاع عن الخلق إلى الحق والخلوة .

قال بعض السياحين : قلت لبعض الأبدال المنقطعين عن الخلق كيف الطريق إلى التحقيق ؟ فقال أن تكون فى الدنيا كأنك عابر طريق . وقال مرة : قلت له دلنى على عمل أجد قلبى فيه مع الله تعالى على الدوام فقال لى : لا تنظر إلى الخلق فإن النظر إليهم ظلمة ، قلت : لابد لى من ذلك ، قال : فلا تسمع كلامهم فإن كلامهم قسوة ، قلت : لابد لى من ذلك ، قال : فلا تعاملهم فإن معاملتهم وحشة ، قلت : أنا بين أظهرهم لابد لى من معاملتهم ، قال فلا تسكن إليهم فإن السكون إليهم هلكة ، قلت : هذا لعلة ، قال : ياهذا أتنظر إلى الغافلين وتسمع كلام الجاهلين وتعامل البطالين وتريد أن تجد قلبك مع الله تعالى على الدوام ؟ هذا مالا يكون أبدا .

فإذاً منتهى الرياضة أن يجد قلبه مع الله تعالى على الدوام ولا يمكن ذلك إلا بأن يخلو عن غيره ولا يخلو عن غيره إلا بطول المجاهدة ، فإذا حصل قلبه مع الله تعالى انكشف له جلال الحضرة الربوبية وتجلى له الحق وظهر له من لطائف الله تعالى مالا يجوز أن يوصف بل لا يحيط به الوصف أصلا ، وإذا انكشف للمريد شيء من ذلك فأعظم القواطع عليه أن يتكلم به وعظا ونصحا ويتصدى للتذكير فتجد النفس فيه لذة ليس وراءها لذة ، فتدعوه تلك اللذة إلى أن يتفكر فى كيفية إيراد تلك المعانى وتحسين الألفاظ المعبرة عنها وترتيب ذكرها وتزيينها بالحكايات وشواهد القرآن والأخبار وتحسين صنعة الكلام لتميل إليه القلوب والأسماع ، فربما يخيل إليه الشيطان أن هذا إحياء منك لقلوب الموتى الغافلين عن الله تعالى ، وإنما أنت واسطة بين الله تعالى وبين الخلق تدعو عباده إليه ومالك فيه نصيب ولا لنفسك فيه لذة ، ويتضح كيد الشيطان بأن يظهر فى أقرانه من يكون أحسن كلاما منه وأجزل لفظا وأقدر على استجلاب قلوب العوام ، فإنه يتحرك فى باطنه عقرب الحسد لا محالة إن كان محركه كيد القبول وإن

(١) حديث « عليكم بدين العجائز » قال ابن طاهر فى كتاب التذكرة هذا اللفظ تداوله العامة ولم أقف له على أصل يرجع إليه من رواية صحيحة ولا سقيمة حتى رأيت حديثا لمحمد بن عبد الرحمن بن السلمانى عن ابن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم « إذا كان فى آخر الزمان واختلف الأهواء فعليكم بدين أهل البادية » والنساء وابن السلمانى له عن أبيه عن ابن عمر نسخة كان يتهم بوضعها انتهى وهذا اللفظ من هذا الوجه رواه ابن حبان فى الضعفاء فى ترجمة ابن السلمانى والله أعلم .

كان محركه هو الحق حرصا على دعوة عباد الله تعالى إلى صراطه المستقيم فيعظم به فرحه ويقول : الحمد لله الذى عضدنى وأيدنى بمن وازرنى على إصلاح عباده . كالذى وجب عليه مثلا أن يحمل ميتا ليدفنه إذ وجده ضائعا وتعين عليه ذلك شرعا فجاء من أعانه عليه فإنه يفرح به ولايحسد من يعينه ، والغافلون موتى القلوب ، والوعاظ هم المنبهون والمحيون لهم ففى كثرتهم استرواح وتناصر فينبغى أن يعظم الفرح بذلك ، وهذا عزيز على الوجود جدا فينبغى أن يكون المريد على حذر منه فإنه أعظم حبائل الشيطان فى قطع الطريق على من انفتحت له أوائل الطريق فإن إيثار الحياة الدنيا طبع غالب على الإنسان ولذلك قال الله تعالى ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا ﴾ ثم بين أن الشر قديم فى الطباع وأن ذلك مذكور فى الكتب السالفة فقال ﴿ إن هذا لفى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى ﴾ فهذا منهاج رياضة المريد وتربيته فى التدريج إلى لقاء الله تعالى . فأما تفصيل الرياضة فى كل صفة فسيأتى فإن أغلب الصفات على الإنسان بطنه وفرجه ولسانه - أعنى به الشهوات المتعلقة بها - ثم الغضب الذى هو كالجند لحماية الشهوات ، ثم مهما أحب الإنسان شهوة البطن والفرج وأنس بهما أحب الدنيا ، ولم يتمكن منها إلا بالمال والجاه وإذا طلب المال والجاه حدث فيه الكبر والعجب والرياسة ، وإذا ظهر ذلك لم تسمح نفسه بترك الدنيا رأسا وتمسك من الدين بما فيه الرياسة وغلب عليه الغرور .

فلهذا وجب علينا بعد تقديم هذين الكتابين أن نستكمل ربع المهلكات بثمانية كتب إن شاء الله تعالى: كتاب فى كسر شهوة البطن والفرج ، وكتاب فى آفات اللسان ، وكتاب فى كسر الغضب والحقد والحسد ، وكتاب فى ذم الدنيا وتفصيل خدعها ، وكتاب فى كسر حب المال وذم البخل ، وكتاب فى ذم الرياء وحب الجاه ، وكتاب فى ذم الكبر والعجب ، وكتاب فى مواقع الغرور . وبذكر هذه المهلكات وتعليم طرق المعالجة فيها يتم غرضنا من ربع المهلكات إن شاء الله تعالى فإن ماذكرناه فى الكتاب الأول هو شرح لصفات القلب الذى هو معدن المهلكات والمنجيات ، وما ذكرناه فى الكتاب الثانى هو إشارة كلية إلى طريق تهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلوب . أما تفصيلها فإنه يأتى فى هذه الكتب إن شاء الله تعالى . تم كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق بحمد الله وعونه وحسن توفيقه ، يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب كسر الشهوتين والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

كتاب كسر الشهوتين

وهو الكتاب الثالث من ربع المهلكات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المنفرد بالجلال فى كبريائه وتعاليه ، المستحق للتحميد والتقديس والتسبيح والتنزيه ، القائم بالعدل فيما يبرمه ويقضيه ، المتطول بالفضل فيما ينعم به ويسديه ، المتكفل بحفظ عبده فى جميع موارده ومجاريه ، المنعم عليه بما يزيد على مهمات مقاصده بل بما يفى بأمانيه ، فهو الذى يرشده ويهديه ، وهو الذى يميته ويحييه ، وإذا مرض فهو يشفيه ، وإذا ضعف فهو يقويه ، وهو الذى يوفقه للطاعة ويرتضيه ، وهو الذى يطعمه ويسقيه ، ويحفظه من الهلاك ويحميه ، ويحرسه بالطعام والشراب عما يهلكه ويرديه ، ويمكنه من القناعة بقليل القوت ويقربه حتى تضيق به مجارى الشيطان الذى يناويه ، ويكسر به شهوة النفس التى تعاديه ، فيدفع شرها ثم يعبد ربه ويتقيه ، هذا

بعد أن يوسع عليه ما يلتذ به ويشتهيه ، ويكثر عليه ما يهيج بواعثه ويؤكد دواعيه ، كل ذلك يمتحنه به ويبتليه ، فينظر كيف يؤثره على ما يهواه وينتحيه ، وكيف يحفظ أوامره وينتهي عن نواهيه ، ويواظب على طاعته وينزجر عن معاصيه . والصلاة على محمد عبده النبيه ، ورسوله الوجيه ، صلاة تزلفه وتحظيه ، وترفع منزلته وتعليه ، وعلى الأبرار من عترته وأقربيه ، والأخيار من صحابته وتابعيه .

أما بعد : فأعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن ، فبها أخرج آدم عليه السلام وحواء من دار القرار إلى دار الذل والافتقار ؛ إذ نهيا عن الشجرة فغلبتهما شهواتهما حتى أكلا منها فبدت لهما سوآتهما . والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات ومنبت الأدواء والآفات ، إذ يتبعها شهوة الفرج وشدة الشبق إلى المنكوحات ؛ ثم تتبع شهوة الطعام والنكاح شدة الرغبة في الجاه والمال اللذين هما وسيلة إلى التوسع في المنكوحات والمطعومات ؛ ثم يتبع استكثار المال والجاه أنواع الرعونات وضروب المنافسات والمحاسدات ؛ ثم يتولد بينهما آفة الرياء وغائلة التفاخر والتكاثر والكبرياء ، ثم يتداعى ذلك إلى الحقد والحسد والعداوة والبغضاء ، ثم يفضى ذلك بصاحبه إلى اقتحام البغى والمنكر والفحشاء ، وكل ذلك ثمرة إهمال المعدة وما يتولد منها من بطر الشبع والامتلاء ، ولو ذلل العبد نفسه بالجوع وضيق به مجارى الشيطان لأذعنت لطاعة الله عزوجل ولم تسلك سبيل البطر والطغيان ، ولم ينجر به ذلك إلى الانهماك في الدنيا وإيثار العاجلة على العقبى ولم يتكالب كل هذا التكالب على الدنيا ، وإذا عظمت آفة شهوة البطن إلى هذا الحد وجب شرح غوائلها وآفاتها تحذيراً منها ، ووجب إيضاح طريق المجاهدة لها والتنبيه على فضلها ترغيباً فيها ، وكذلك شرح شهوة الفرج فإنها تابعة لها . ونحن نوضح ذلك بعون الله تعالى في فصول يجمعها بيان فضيلة الجوع ثم فوائده ، ثم طريق الرياضة في كسر شهوة البطن بالتقليل من الطعام والتأخير ، ثم بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته باختلاف أحوال الناس ، ثم بيان الرياضة في ترك الشهوة ، ثم القول في شهوة الفرج ، ثم بيان ما على المريد في ترك التزويج وفعله ؛ ثم بيان فضيلة من يخالف شهوة البطن والفرج والعين .

بيان فضيلة الجوع وذم الشبع

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش فإن الأجر في ذلك كأجر المجاهد في سبيل الله وأنه ليس من عمل أحب إلى الله من جوع وعطش (١) » وقال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يدخل ملكوت السماء من ملأ بطنه (٢) » وقيل يارسول الله أى الناس أفضل ؟ قال « من قل مطعمه وضحكه ورضى بما يستر به عورته (٣) » وقال النبي صلى الله عليه وسلم « سيد الأعمال الجوع وذل النفس لباس الصوف (٤) » وقال أبو سعيد الخدرى : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « البسوا وكلوا واشربوا في أنصاف البطون فإنه جزء من النبوة (٥) » وقال الحسن : قال النبي صلى الله عليه وسلم « الفكر نصف العبادة وقلة الطعام هى العبادة (٦) » وقال الحسن أيضاً : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أفضلكم عند الله منزلة يوم القيامة أطولكم جوعا وتفكرا في الله سبحانه ، وأبغضكم

كتاب كسر الشهوتين

(١) حديث « جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش » لم أجد له أصلا (٢) حديث ابن عباس « لا يدخل ملكوت السموات من ملأ بطنه » لم أجده أيضاً (٣) حديث : أى الناس أفضل ؟ قال « من قل طعمه وضحكه ورضى بما يستر عورته » يأتى الكلام عليه وعلى مابعده من الأحاديث (٤) حديث « سيد الأعمال الجوع وذل النفس لباس الصوف » (٥) حديث أبى سعيد الخدرى « البسوا وكلوا واشربوا في أنصاف البطون » (٦) حديث « الفكر نصف العبادة وقلة الطعام هى العبادة »

عند الله عز وجل يوم القيامة كل نئوم أكول شروب [١] » وفى الخبر : أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم كان يجوع من غير عوز [٢] » أى مختارا لذلك وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى يباهى الملائكة بمن قل مطعمه ومشربه فى الدنيا يقول الله تعالى انظروا إلى عبدى ابتليته بالطعام والشراب فى الدنيا فصبر وتركهما اشهدوا ياملائكتى ما من أكلة يدعها إلا أبدلته بها درجات فى الجنة [٣] » وقال صلى الله عليه وسلم « لاتميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فإن القلب كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء [٤] » وقال صلى الله عليه وآله وسلم « ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه وإن كان لابد فاعلا فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه [٥] » وفى حديث أسامة بن زيد وحديث أبى هريرة الطويل ذكر فضيلة الجوع إذ قال فيه « إن أقرب الناس من الله عز وجل يوم القيامة من طال جوعه وعطشه وحزنه فى الدنيا ، الأحفياء الأتقياء الذين إن شهدوا لم يعرفوا وإن غابوا لم يفتقدوا ، تعرفهم بقاع الأرض وتحف بهم ملائكة السماء نعم الناس بالدنيا ونعموا بطـــاعة الله عز وجل ، افترش الناس الفرش الوثيرة وافترشوا الجباه والركب ، ضيع الناس فعل النبيين وأخلاقهم وحفظوها هم ، تبكى الأرض إذا فقدتهم ويسخط الجبار على كل بلدة ليس فيها منهم أحد لم يتكالبوا على الدنيا تكالب الكلاب على الجيف أكلوا العلق ولبسوا الخرق شعثا غبرا يراهم النـاس فيظنون أن بهم داء وما بهم داء ، ويقال قد خولطوا فذهبت عقولهم وما ذهبت عقولهم ولكن نظر القوم بقلوبهم إلى أمر الله الذى أذهب عنهم الدنيا ، فهم عند أهل الدنيا يمشون بلا عقول عقلوا حين ذهبت عقول الناس ، لهم الشرف فى الآخرة ، ياأسـامة إذا رأيتهم فى بلدة فاعلم أنهم أمان لأهل تلك البلدة ولا يعذب الله قوما هم فيهم . الأرض بهم فرحة والجبار عنهم راض . اتخذهم لنفسك إخوانا عسى أن تنجو بهم . وإن استطعت إن يأتيك الموت وبطنك جائع وكبدك ظمآن فافعل . فإنك تدرك بذلك شرف المنازل وتحل مع النبيين . وتفرح بقدوم روحك الملائكة ويصلى عليك الجبار [٦] » .

روى الحسن عن أبى هريرة : أن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال « البسوا الصوف وشمروا وكلوا فى أنصاف البطون تدخلوا فى ملكوت السماء [٧] » وقال عيسى عليه السلام : يامعشر الحواريين أجيعوا أكبادكم وأعروا أجسادكم لعل قلوبكم ترى الله عز وجل [٨] » . وروى ذلك أيضاً عن نبينا صلى الله عليه وسلم رواه طاوس . وقيل مكتوب فى التوراة : إن الله ليبغض الحبر السمين لأن السمن يدل على الغفلة وكثرة الأكل وذلك قبيح خصوصاً بالحبر . ولأجل ذلك قال ابن مسعود رضى الله عنه : إن الله تعالى يبغض القـارىء السمين وفى خبر مرسل « إن

---

(١) حديث الحسن « أفضلكم عند الله أطولكم جوعا وتفكرا ... الحديث » لم أجد لهذه الأحاديث المتقدمة أصلا (٢) حديث كان يجوع من غير عوز — أى مختارا لذلك — أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان من حديث عائشة : قالت لوشئنا أن نشبع لشبعنا ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم كان يؤثر على نفسه . وإسناده معضل (٣) حديث « ان الله يباهى الملائكة بمن قل مطعمه فى الدنيا ... الحديث » أخرجه ابن عدى فى الكامل وقد تقدم فى الصيام (٤) حديث « لاتميتوا القلب بكثرة الطعام والشراب الحديث » لم أقف له على أصل (٥) حديث « ماملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث المقدام وقد تقدم .

(٦) حديث أسامة بن زيد وأبى هريرة « أقرب الناس من الله يوم القيامة من طال جوعه وعطشه .. الحديث » بطوله أخرجه الخطيب فى الزهد من حديث سعيد بن زيد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبل على أسامة بن زيد فذكره مع تقديم وتأخير ، ومن طريقه رواه ابن الجوزى فى الموضوعات وفيه حباب بن عبد الله بن جبلة أحد الكذابين وفيه من لايعرف وهو منقطع أيضاً ورواه الحارث بن أبى أسامة من هذا الوجه (٧) حديث الحسن عن أبى هريرة « البسوا الصوف وشمروا وكلوا فى أنصاف البطون تدخلوا فى ملكوت السماء » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس بسند ضعيف . (٨) حديث طاوس مرسلا « أجيعوا أكبادكم ... الحديث » لم أجده أيضاً .

الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع والعطش (١) » وفى الخبر « إن الأكل على الشبع يورث البرص (٢) » وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « المؤمن يأكل فى معى واحد والمنافق يأكل فى سبعة أمعاء (٣) » أى يأكل سبعة أضعاف ما يأكل المؤمن أو تكون شهوته سبعة أضعاف شهوته وذكر المعى كناية عن الشهوة لأن الشهوة هى التى تقبل الطعام وتأخذه كما يأخذ المعى . وليس المعنى زيادة عدد معى المنافق على معى المؤمن . وروى الحسن عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول « أديموا قرع باب الجنة يفتح لكم ، فقلت : كيف نديم قرع باب الجنة ؟ قال « بالجوع والظمأ (٤) » وروى « أن أبا جحيفة تجشأ فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له « أقصر من جشائك فإن أطول الناس جوعا يوم القيامة أكثرهم شبعا فى الدنيا (٥) » وكانت عائشة رضى الله عنها تقول : إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم تمتلئ قط شبعا وربما بكيت رحمة مما أرى به من الجوع فأمسح بطنه بيدى وأقول : نفسى لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقويك ويمنعك من الجوع ؟ فيقول « يا عائشة إخوانى من أولى العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا مضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم فأجدنى أستحى إن ترفهت فى معيشتى أن يقصر بى غدا دونهم فالصبر أياما يسيرة أحب إلى من أن ينقص حظى غدا فى الآخرة وما من شىء أحب إلى من اللحوق بأصحابى وإخوانى ، قالت عائشة : فوالله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله إليه (٦) » وعن أنس قال : جاءت فاطمة رضوان الله عليها بكسرة خبز إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ما هذه الكسرة » قالت : قرص خبزته ولم تطب نفسى حتى أتيتك منه بهذه الكسرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام (٧) » وقال أبو هريرة : ما أشبع النبى صلى الله عليه وسلم أهله ثلاثة أيام تباعا من خبز الحنطة حتى فارق الدنيا (٨) وقال صلى الله عليه وآله وسلم « إن أهل الجوع فى الدنيا هم أهل الشبع فى الآخرة وإن أبغض الناس إلى الله المتخمون الملأى وما ترك عبد أكلة يشتهيها إلا كانت له درجة فى الجنة (٩) » .

وأما الآثار : فقد قال عمر رضى الله عنه : إياكم والبطنة فإنها ثقل فى الحياة نتن فى الممات . وقال شقيق البلخى العبادة حرفة حانوتها الخلوة وآلتها المجاعة . وقال لقمان لابنه : يابنى إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة . وكان الفضيل بن عياض يقول لنفسه : أى شىء تخافين ؟ أتخافين أن تجوعى ؟ لاتخافى ذلك ؛ أنت أهون على الله من ذلك إنما يجوع محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه . وكان كهمس يقول إلهى

---

(١) حديث « إن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم ... الحديث » تقدم فى الصيام دون الزيادة التى فى آخره وذكر المصنف هنا أنه مرسل والمرسل رواه ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان من حديث على بن الحسين دون الزيادة أيضاً .

(٢) حديث « إن الأكل على الشبع يورث البرص » لم أجد له أصلا (٣) حديث المؤمن يأكل فى معى واحد والكافر يأكل فى سبعة أمعاء » متفق عليه من حديث عمر وحديث أبى هريرة . (٤) حديث الحسن عن عائشة « أديموا قرع باب الجنة ... الحديث » لم أجده أيضاً (٥) حديث : إن أبا جحيفة تجشأ فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « أقصر من جشائك فإن أطول الناس جوعا يوم القيامة أكثرهم شبعا فى الدنيا » أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث أبى جحيفة وأصله عند الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث ابن عمر : تجشأ رجل . الحديث . لم يذكر أبا جحيفة .

(٦) حديث عائشة : أنه صلى الله عليه وسلم لم يمتلئ شبعا قط وربما بكيت رحمة له لما أرى به من الجوع الحديث . أخرجه أبو موسى المدينى مطولا فى كتاب استحلاء الموت وأورد منه عياض فى الشفاء (٧) حديث أنس : جاءت فاطمة بكسرة خبز لرسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث أخرجه الحارث بن أبى أسامة فى مسنده بسند ضعيف (٨) حديث أبى هريرة : ما شبع النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعا من خبز الحنطة حتى فارق الدنيا . أخرجه مسلم وقد تقدم (٩) حديث « إن أهل الجوع فى الدنيا هم أهل الشبع فى الآخرة » أخرجه الطبرانى وأبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عباس باسناد ضعيف .

اجعتني وأعريتني وفى ظلم الليالى بلا مصباح أجلستني فبأى وسيلة بلغتني مابلغتني ؟ وكان فتح الموصلى إذا اشتد مرضه وجوعه يقول : إلهى ابتليتني بالمرض والجوع وكذلك تفعل بأوليائك فبأى عمل أؤدى شكر ما أنعمت به على ؟ وقال مالك بن دينار : قلت لمحمد بن واسع يا أبا عبد الله طوبى لمن كانت له غلية تقوته وتغنيه عن الناس فقال لى يا أبا يحيى طوبى لمن أمسى وأصبح جائعا وهو عن الله راض . وكان الفضيل بن عياض يقول : إلهى أجعتني وأجعت عيالى وتركتني فى ظلم الليالى بلا مصباح وإنما تفعل ذلك بأوليائك فبأى منزلة نلت هذا منك ؟ وقال يحيى بن معاذ : جوع الراغبين منبهة وجوع التائبين تجربة وجوع المجتهدين كرامة وجوع الصابرين سياسة وجوع الزاهدين حكمة . وفى التوراة اتق الله وإذا شبعت فاذكر الجياع : وقال أبو سليمان : لأن أترك لقمة من عشائى أحب الى من قيام ليلة إلى الصبح ، وقال أيضاً : الجوع عند الله فى خزائنه لا يعطيه إلا من أحبه . وكان سهل بن عبد الله التسترى يطوى نيفا وعشرين يوماً لا يأكل ، وكان يكفيه لطعامه فى السنة درهم ، وكان يعظم الجوع ويبالغ فيه حتى قال : لا يوافى القيامة عمل بر أفضل من ترك فضول الطعام اقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم فى أكله . وقال : لم ير الأكياس شيئا أنفع من الجوع للدين والدنيا . وقال : لاأعلم شيئا أضر على طلاب الآخرة من الأكل . وقال : وضعت الحكمة والعلم فى الجوع ووضعت المعصية والجهل فى الشبع . وقال : ماعبد الله بشىء أفضل من مخالفة الهوى فى ترك الحلال . وقد جاء فى الحديث « ثلث للطعام فمن زاد عليه فإنما يأكل من حسناته (١) » وسئل عن الزيادة فقال : لا يجد الزيادة حتى يكون الترك أحب إليه من الأكل ، ويكون إذا جاع ليلة سأل الله أن يجعلها ليلتين ، فإذا كان ذلك وجد الزيادة . وقال صار الأبدال أبدالا إلا بإخماص البطون والسهر والصمت والخلوة . وقال : رأس كل بر نزل من السماء إلى الأرض الجوع ، ورأس كل فجور بينهما الشبع . وقال : من جوع نفسه انقطعت عنه الوساوس . وقال : إقبال الله عز وجل على العبد بالجوع والسقم والبلاء إلا من شاء الله . وقال : اعلموا أن هذا زمان لاينال أحد فيه النجاة إلا بذبح نفسه وقتلها بالجوع والسهر والجهد . وقال : مامن على وجه الارض أحد شرب من هذا الماء حتى روى فسلم من المعصية ـ وإن شكر الله تعالى ـ فكيف الشبع من الطعام ؟ وسئل حكيم بأى قيد أقيد نفسى ؟ قال : قيدها بالجوع والعطش ، وذللها بإخمال الذكر وترك العز ، وصغرها بوضعها تحت أرجل أبناء الآخرة ، واكسرها بترك زى القراء عن ظاهرها ، وانج من آفاتها بدوام سوء الظن بها ، واصحبها بخلاف هواها . وكان عبد الواحد بن زيد يقسم بالله تعالى إن الله تعالى ماصافى أحدا إلا بالجوع ولا مشوا على الماء إلا به ، ولا طويت لهم الأرض إلا بالجوع ، ولا تولاهم الله تعالى إلا بالجوع ، وقال أبو طالب المكى : مثل البطن مثل المزهر وهو العود المجوف ذو الأوتار ـ إنما حسن صوته لخفته ورقته لأنه اجوف غير ممتلئ ، وكذلك الجوف إذا خلا كان أعذب للتلاوة وأدوم للقيام وأقل للمنام . وقال أبوبكر بن عبدالله المزنى : ثلاثة يحبهم الله تعالى ؛ رجل قليل النوم قليل الأكل قليل الراحة . وروى أن عيسى عليه السلام مكث يناجى ربه ستين صباحا لم يأكل فخطر بباله الخبز فانقطع عن المناجاة فإذا رغيف موضوع بين يديه ، فجلس يبكى على فقد المناجاة وإذا شيخ قد أظله فقال له عيسى : بارك الله فيك ياولى الله ادع الله تعالى فإنى كنت فى حالة فخطر ببالى الخبز فانقطعت عنى ، فقال الشيخ : اللهم إن كنت تعلم أن الخبز خطر ببالى منذ عرفتك فلا تغفرلى ، بل كان

(١) حديث « ثلث الطعام » تقدم .

إذا حضر لي شيء أكلته من غير فكر وخاطر . وروى أن موسى عليه السلام لما قربه الله عز وجل نجيا كان قد ترك الأكل أربعين يوما ـ ثلاثين ثم عشرا ـ على ما ورد به القرآن ؛ لأنه أمسك بغير تبييت يوما فزيد عشرة لأجل ذلك .

بيان فوائد الجوع وآفات الشبع

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش فإن الأجر في ذلك » ولعلك تقول : هذا الفضل العظيم للجوع من أين هو؟ وما سببه ؟ وليس فيه إلا إيلام المعدة ومقاساة الأذى ! فإن كان كذلك فينبغي أن يعظم الأجر في كل مايتأذى به الإنسان من ضربه لنفسه وقطعه للحمه وتناوله الأشياء المكروهة وما يجرى مجراه ؟ فاعلم أن هذا يضاهي قول من شرب دواء فانتفع به وظن أن منفعته لكراهة الدواء ومرارته ، فأخذ يتناول كل مايكرهه من المذاق وهو غلط ، بل نفعه في خاصية في الدواء وليس لكونه مرا ، وإنما يقف على تلك الخاصية الأطباء ، فكذلك لا يقف على علة نفع الجوع إلا سماسرة العلماء ومن جوع نفسه مصدقا لما جاء في الشرع من مدح الجوع انتفع به وإن لم يعرف علة المنفعة ، كما أنّ من شرب الدواء انتفع به وإن لم يعلم وجه كونه نافعاً .

ولكنا نشرح لك ذلك إن أردت أن ترتقي من درجة الإيمان إلى درجة العلم قال الله تعالى ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ فنقول : في الجوع عشر فوائد .

الفائدة الأولى : صفاء القلب وإيقاد القريحة وإنفاذ البصيرة ، فإنّ الشبع يورث البلادة ويعمى القلب ويكثر البخار في الدماغ شبه السكر حتى يحتوي على معادن الفكر فيثقل القلب بسببه عن الجريان في الأفكار وعن سرعة الإدراك ، بل الصبي إذا أكثر الأكل بطل حفظه وفسد ذهنه وصار بطيء الفهم والإدراك . وقال أبو سليمان الداراني : عليك بالجوع فإنه مذلة للنفس ورقة للقلب وهو يورث العلم السماوي . وقال صلى الله عليه وسلم « احيوا قلوبكم بقلة الضحك وقلة الشبع وطهروها بالجوع تصفو وترق [١] » ويقال : مثل الجوع مثل الرعد ، ومثل القناعة مثل السحاب ، والحكمة كالمطر . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « من أجاع بطنه عظمت فكرته وفطن قلبه [٢] » وقال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم « من شبع ونام قسا قلبه » ثم قال « لكل شيء زكاة وزكاة البدن الجوع [٣] » وقال الشبلي : ما جعت لله يوما إلا رأيت في قلبي بابا مفتوحا من الحكمة والعبرة ما رأيته قط . وليس يخفى أن غاية المقصود من العبادات الفكر الموصل إلى المعرفة والاستبصار بحقائق الحق ، والشبع يمنع منه والجوع يفتح بابه ، والمعرفة باب من أبواب الجنة فبالحرى أن تكون ملازمة الجوع قرعا لباب الجنة . ولهذا قال لقمان لابنه : يابني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة . وقال أبو يزيد البسطامي : الجوع سحاب فإذا جاع العبد أمطر القلب الحكمة . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « نور الحكمة الجوع ، والتباعد من الله عز وجل الشبع ، والقربة إلى الله عز وجل حب المساكين والدنو منهم . لاتشبعوا

---

(١) حديث « أحيوا قلوبكم بقلة الضحك وطهروها بالجوع تصفو وترق » لم أجد له أصلا (٢) حديث « من أجاع بطنه عظمت فكرته وفطن قلبه » كذلك لم أجد له أصلا (٣) حديث « من شبع ونام قسا قلبه » ثم قال « ان لكل شيء زكاة وان زكاة الجسد الجوع » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة « لكل شيء زكاة وزكاة الجسد الصوم » وإسناده ضعيف

فتطفئوا نور الحكمة من قلوبكم ومن بات فى خفة من الطعام بات الحور حوله حتى يصبح [١] » .

الفائدة الثانية : رقة القلب وصفاؤه الذى به يتهيأ لإدراك لذة المثابرة والتأثر بالذكر ، فكم من ذكر يجرى على اللسان مع حضور القلب ولكن القلب لايلتذ به ولا يتأثر حتى كأن بينه وبينه حجابا من قسوة القلب ، وقد يرق فى بعض الأحوال فيعظم تأثره بالذكر وتلذذه بالمناجاة ، وخلو المعدة هو السبب الأظهر فيه ، وقال أبو سليمان الدارانى : أحلى ماتكون إلى العبادة إذا التصق ظهرى ببطنى . وقال الجنيد : يجعل أحدهم بينه وبين صدره مخلاة من الطعام ويريد أن يجد حلاوة المناجاة . وقال أبو سليمان : إذا جاع القلب وعطش صفا ورق ، وإذا شبع عمى وغلظ ، فإذا تأثر القلب بلذة المناجاة أمر وراء تيسير الفكر واقتناص المعرفة فهى فائدة ثانية .

الفائدة الثالثة . الانكسار والذل وزوال البطر والفرح والأشر الذى هو مبدأ الطغيان والغفلة عن الله تعالى ، فلا تنكسر النفس ولا تذل بشىء كما تذل بالجوع فعنده تسكن لربها وتخشع له وتقف على عجزها وذلها إذا ضعفت منتها وضاقت حيلتها بلقيمة طعام فاتتها ، وأظلمت عليها الدنيا لشربة ماء تأخرت عنها وما لم يشاهد الإنسان ذل نفسه وعجزه لايرى عزة مولاه ولا قهره ، وإنما سعادته فى أن يكون دائما مشاهدا نفسه بعين الذل والعجز ومولاه بعين العز والقدرة والقهر ، فليكن دائما جائعا مضطرا إلى مولاه مشاهدا للاضطرار بالذوق ، ولأجل ذلك لما عرضت الدنيا وخزائنها على النبى صلى الله عليه وسلم قال « لابل أجوع يوما وأشبع يوما فإذا جعت صبرت وتضرعت وإذا شبعت شكرت [٢] » أو كما قال . فالبطن والفرج باب من أبواب النار وأصله الشبع . والذل والانكسار باب من أبواب الجنة وأصله الجوع . ومن أغلق بابا من أبواب النار فقد فتح بابا من أبواب الجنة بالضرورة لأنهما متقابلان كالمشرق والمغرب ، فالقرب من أحدهما بعد من الآخر .

الفائدة الرابعة : أن لاينسى بلاء الله وعذابه ؛ ولا ينسى أهل البلاء فإن الشبعان ينسى الجائع وينسى الجوع ، والعبد الفطن لايشاهد بلاء من غيره إلا ويتذكر بلاء الآخرة ، فيذكر من عطشه عطش الخلق فى عرصات القيامة ، ومن جوعه جوع أهل النار ، حتى إنهم ليجوعون فيطعمون الضريع والزقوم ويسقون الغساق والمهل ، فلا ينبغى أن يغيب عن العبد عذاب الآخرة وآلامها ، فإنه هو الذى يهيج الخوف ، فمن لم يكن فى ذلة ولا علة ولا قلة ولا بلاء نسى عذاب الآخرة ولم يتمثل فى نفسه ولم يغلب على قلبه ، فينبغى أن يكون العبد فى مقاساة بلاء أو مشاهدة بلاء ، وأولى مايقاسيه من البلاء الجوع فإن فيه فوائد جمة سوى تذكر عذاب الآخرة . وهذا أحد الأسباب الذى اقتضى اختصاص البلاء بالأنبياء والأولياء والأمثل فالأمثل . ولذلك قيل ليوسف عليه السلام : لم تجوع وفى يديك خزائن الأرض ؟ فقال : أخاف أن أشبع فأنسى الجائع . فذكر الجائعين والمحتاجين إحدى فوائد الجوع فإن ذلك يدعو إلى الرحمة والإطعام والشفقة على خلق الله عز وجل . والشبعان فى غفلة عن ألم الجائع .

الفائدة الخامسة ـ وهى من أكبر الفوائد ـ : كسر شهوات المعاصى كلها والاستيلاء على النفس الأمارة بالسوء ، فإن منشأ المعاصى كلها الشهوات والقوى ، ومادة القوى والشهوات لامحالة الأطعمة ، فتقليلها يضعف كل شهوة وقوة . وإنما السعادة كلها فى أن يملك الرجل نفسه ، والشقاوة فى أن تملكه نفسه ، وكما أنك لاتملك الدابة الجموح إلا بضعف الجوع فإذا شبعت قويت وشردت وجمحت ، ، فكذلك النفس . كما قيل لبعضهم : مابالك مع كبرك لاتتعهد بدنك

(١) حديث « نور الحكمة الجوع والتباعد من الله عز وجل الشبع ... الحديث » ذكره أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة وكتب عليه أنه مسند وهى علامة مارواه باسناده (٢) حديث « أجوع يوما وأشبع يوما ... الحديث » تقدم وهو عند الترمذى .

وقد انهدّ ؟ فقال : لأنه سريع المرح فاحش الأشر فأخاف أن يجمح بى فيورطنى ، فلأن أحمله على الشدائد أحب إلى من أن يحملنى على الفواحش . وقال ذو النون : ماشبعت قط إلا عصيت أوهممت بمعصية : وقالت عائشة رضى الله عنها : أول بدعة حدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم : الشبع .

إن القوم لما شبعت بطونهم جمحت بهم نفوسهم إلى هذه الدنيا وهذه ليست فائدة واحدة بل هى خزائن الفوائد . ولذلك قيل : الجوع خزانة من خزائن الله تعالى وأقل مايندفع بالجوع : شهوة الفرج وشهوة الكلام ، فإن الجائع لايتحرك عليه شهوة فضول الكلام فيتخلص به من آفات اللسان كالغيبة والفحش والكذب والنميمة وغيرها، فيمنعه الجوع من كل ذلك وإذا شبع افتقر إلى فاكهة فيتفكه لامحالة بأعراض الناس ، ولا يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم .

وأما شهوة الفرج : فلا تخفى غائلتها ، والجوع يكفى شرها . وإذا شبع الرجل لم يملك فرجه ، وإن منعته التقوى فلا يملك عينه ، فالعين تزنى كما أن الفرج يزنى ، فإن ملك عينه بغض الطرف فلا يملك فكره ، فيخطر له من الأفكار الرديئة وحديث النفس بأسباب الشهوة ما يتشوش به مناجاته ، وربما عرض له ذلك فى أثناء الصلاة .

وإنما ذكرنا آفة اللسان والفرج مثالا ، وإلا فجميع معاصى الأعضاء السبعة سببها القوة الحاصلة بالشبع . قال حكيم : كل مريد صبر على السياسة فيصبر على الخبز البحت سنة لايخلط به شيئا من الشهوات ويأكل فى نصف بطنه رفع الله عنه مؤنة النساء .

الفائدة السادسة : دفع النوم ودوام السهر ، فإن من شبع شرب كثيرا ، ومن كثر شربه كثر نومه ولأجل ذلك كان بعض الشيوخ يقول عند حضور الطعام : معاشر المريدين لاتأكلوا كثيرا فتشربوا كثيرا فترقدوا كثيرا فتخسروا كثيرا . وأجمع رأى سبعين صديقا على أن كثرة النوم من كثرة الشرب . وفى كثرة النوم ضياع العمر وفوت التهجد وبلادة الطبع وقساوة القلب ، والعمر أنفس الجواهر وهو رأس مال العبد فيه يتجر ، والنوم موت فتكثيره ينقص العمر ، ثم فضيلة التهجد لاتخفى وفى النوم فواتها . ومهما غلب النوم فإن تهجد لم يجد حلاوة العبادة ، ثم المتعزب إذا نام على الشبع احتلم ويمنعه ذلك أيضا من التهجد ، ويحوجه إلى الغسل إما بالماء البارد فيتأذى به أو يحتاج إلى الحمام وربما لايقدر عليه بالليل ، فيفوته الوتر إن كان قد أخره إلى التهجد ، ثم يحتاج إلى مؤنة الحمام وربما تقع عينه على عورة فى دخول الحمام ، فإن فيه أخطارا ذكرناها فى كتاب الطهارة وكل ذلك أثر الشبع . وقد قال أبو سليمان الدارانى : الاحتلام عقوبة . وإنما قال ذلك لأنه يمنع من عبادات كثيرة لتعذر الغسل فى كل حال . فالنوم منبع الآفات ، والشبع مجلبة له ؛ والجوع مقطعة له .

الفائدة السابعة : تيسير المواظبة على العبادة فإن الأكل يمنع من كثرة العبادات لأنه يحتاج إلى زمان يشتغل فيه بالأكل ، وربما يحتاج إلى زمان فى شراء الطعام وطبخه ، ثم يحتاج إلى غسل اليد والخلال ، ثم يكثر تردداه إلى بيت الماء لكثرة شربه . والأوقات المصروفة إلى هذا لو صرفها إلى الذكر والمناجاة وسائر العبادات لكثر ربحه . قال السرى رأيت مع على الجرجانى سويقا يستف منه فقلت : ماحملك على هذا ؟ قال : إنى حسبت مابين المضغ إلى الاستفاف سبعين تسبيحة فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة فانظر كيف أشفق على وقته ولم يضيعه فى المضغ . وكل نفس من العمر جوهرة نفيسة لاقيمة لها فينبغى أن يستوفى منه خزانة باقية فى الآخرة لا آخر لها وذلك بصرفه إلى ذكر الله وطاعته .

ومن جملة مايتعذر بكثرة الأكل الدوام على الطهارة وملازمة المسجد ، فإنه يحتاج إلى الخروج لكثرة شرب الماء

وإراقته . ومن جملته الصوم فإنه يتيسر لمن تعود الجوع ، فالصوم ودوام الاعتكاف ودوام الطهارة وصرف أوقات شغله بالأكل وأسبابه إلى العبادة أرباح كثيرة ، وإنما يستحقرها الغافلون الذين لم يعرفوا قدر الدين لكن رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ .

وقد أشار أبو سليمان الدارانى إلى ست آفات من الشبع فقال : من شبع دخل عليه ست آفات : فقد حلاوة المناجاة وتعذر حفظ الحكمة ، وحرمان الشفقة على الخلق لأنه إذا شبع ظن أن الخلق كلهم شباع ، وثقل العبادة ، وزيادة الشهوات ، وأن سائر المؤمنين يدورون حول المساجد ، والشباع يدورون حول المزابل .

الفائدة الثامنة : يستفيد من قلة الأكل صحة البدن ودفع الأمراض ، فإن سببها كثرة الأكل وحصول فضلة الأخلاط فى المعدة والعروق . ثم المرض يمنع من العبادات ويشوش القلب ويمنع من الذكر والفكر وينغص العيش ويحوج إلى الفصد والحجامة والدواء والطبيب ، وكل ذلك يحتاج إلى مؤن ونفقات لا يخلو الإنسان منها بعد التعب عن أنواع من المعاصى واقتحام الشهوات ، وفى الجوع ما يمنع ذلك كله .

حكى أن الرشيد جمع أربعة أطباء : هندى ، ورومى ، وعراقى ، وسوادى . وقال ليصف كل واحد منكم الدواء الذى لا داء فيه . فقال الهندى : الدواء الذى لا داء فيه عندى هو الإهليلج الأسود . وقال العراقى : هو حب الرشاد الأبيض وقال الرومى . هو عندى الماء الحار . وقال السوادى وكان أعلمهم — الإهليلج يعفص المعدة وهذا داء ، وحب الرشاد يزلق المعدة وهذا داء ، والماء الحار يرخى المعدة وهذا داء . قالوا . فما عندك ؟ فقال الدواء الذى لا داء معه عندى أن لا تأكل الطعام حتى تشتهيه ؛ وأن ترفع يدك عنه وأنت تشتهيه . فقالوا : صدقت وذكر لبعض الفلاسفة من أطباء أهل الكتاب قول النبى صلى الله عليه وسلم « ثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس [1] فتعجب منه وقال ما سمعت كلاما فى قلة الطعام أحكم من هذا وإنه لكلام حكيم . وقال صلى الله عليه وسلم « البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء وعودوا كل جسم ما اعتاد [2] » وأظن تعجب الطبيب جرى من هذا الخبر لا من ذاك . وقال ابن سالم : من أكل خبز الحنطة بحتا بأدب لم يعتل إلا علة الموت . قيل . وما الأدب ؟ قال : تأكل بعد الجوع وترفع قبل الشبع . وقال بعض أفاضل الأطباء فى ذم الاستكثار : إن أنفع ما أدخل الرجل بطنه الرمان وأضر ما أدخل معدته المالح ؛ ولأن يقلل من المالح خير له من أن يستكثر من الرمان . وفى الحديث صوموا تصحوا [3] » ففى الصوم والجوع وتقليل الطعام صحة الأجسام وصحة القلوب من سقم الطغيان والبطر وغيرهما .

الفائدة التاسعة : خفة المؤونة فإن من تعود قلة الأكل كفاه من المال قدر يسير ، والذى تعود الشبع صار بطنه غريما ملازما له آخذا بمخنقه فى كل يوم ، فيقول ماذا تأكل اليوم فيحتاج إلى أن يدخل المداخل ، فيكتسب من الحرام فيعصى أو من الحلال فيذل . وربما يحتاج إلى أن يمد أعين الطمع إلى الناس وهو غاية الذل والقماءة والمؤمن خفيف المؤنة . وقال بعض الحكماء : إنى لأقضى عامة حوائجى بالترك فيكون ذلك أروح لقلبى . وقال آخر : إذا أردت أن أستقرض من غيرى لشهوة أو زيادة استقرضت من نفسى فتركت الشهوة فهى خير غريم لى . وكان إبراهيم ابن أدهم رحمه الله يسأل أصحابه عن سعر المأكولات فيقول فيقول إنها غالية فيقول : أرخصوها بالترك . وقال سهل رحمه الله : الأكول مذموم فى ثلاثة أحوال ، إن كان من أهل العبادة فيكسل ، وإن كان مكتسبا فلا يسلم من الآفات

---

(١) حديث « ثلث للطعام » تقدم أيضاً (٢) حديث « البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء وعودوا كل بدن بما اعتاده » لم أجد له أصلا .

(٣) حديث « صوموا تصحوا » أخرجه الطبرانى فى الأوسط وأبو نعيم فى الطب النبوى من حديث أبى هريرة بسند ضعيف

وإن كان ممن يدخل عليه شيء فلا ينصف الله تعالى من نفسه .

وبالجملة سبب هلاك الناس حرصهم على الدنيا ، وسبب حرصهم على الدنيا البطن والفرج ، وسبب شهوة الفرج ، شهوة البطن . وفى تقليل الأكل ما يحسم هذه الأحوال كلها وهى أبواب النار وفى حسمها فتح أبواب الجنة كما قال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « أديموا قرع باب الجنة بالجوع » فمن قنع برغيف فى كل يوم قنع فى سائر الشهوات أيضاً وصار حرّا واستغنى عن الناس واستراح من التعب ، وتخلى لعبادة الله عزوجل وتجارة الآخرة ، فيكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإنما لا تلهيهم لاستغنائهم عنها بالقناعة ، وأما المحتاج فتلهيه لامحالة .

الفائدة العاشرة : أن يتمكن من الإيثار والتصدق بما فضل من الأطعمة على اليتامى والمساكين ، فيكون يوم القيامة فى ظل صدقته[٢] كما ورد به الخبر : فما يأكله كان خزانته الكنيف وما يتصدق به كان خزانته فضل الله تعالى ، فليس للعبد من ماله إلا ماتصدق فأبقى أو أكل فأفنى أو لبس فأبلى ، فالتصدق بفضلات الطعام أولى من التخمة والشبع .وكان الحسن رحمة الله عليه إذا تلا قوله تعالى ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ﴾ قال عرضها على السموات السبع الطباق والطرائق التى زينها بالنجوم وحملة العرش العظيم فقال لها سبحانه وتعالى : هل تحملين الأمانة بما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جوزيت وإن أسأت عوقبت ، فقالت : لا ، ثم عرضها كذلك على الأرض فأبت ، ثم عرضها على الجبال الشوامخ الصلاب الصعاب فقال لها . هل تحملين الأمانة بما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟فذكر الجزاء والعقوبة فقالت : لا ، ثم عرضها على الإنسان فحملها إنه كان ظلوما لنفسه جهولا بأمر ربه . فقد رأيناهم والله اشتروا الأمانة بأموالهم فأصابوا آلافا فماذا صنعوا فيها ؟ وسعوا بها دورهم وضيقوا بها قبورهم ، وأسمنوا براذينهم وأهزلوا دينهم ، وأتعبوا أنفسهم بالغدو والرواح إلى باب السلطان يتعرضون للبلاء وهم من الله فى عافية ، يقول أحدهم تبيعنى أرض كذا وكذا وأزيدك كذا وكذا ، يتكئ على شماله ويأكل من غير ماله، حديثه سخرة وماله حرام حتى إذا أخذته الكظة ونزلت به البطنة قال : يا غلام ائتنى بشيء أهضم به طعامى ، يالكع أطعامك تهضم ؟ إنما تهضم دينك ، أين الفقير أين الأرملة أين المسكين أين اليتيم الذى أمرك الله تعالى بهم ؟ فهذه إشارة إلى هذه الفائدة وهو صرف فاضل الطعام إلى الفقير ليدخر به الأجر فذلك خير له من أن يأكله حتى يتضاعف الوزر عليه .ونظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رجل سمين البطن فأومأ إلى بطنه بأصبعه وقال « لو كان هذا فى غير هذا لكان خيراً لك[١] » أى لو قدمته لآخرتك وآثرت به غيرك . وعن الحسن قال : والله لقد أدركت أقواما كان الرجل منهم يمسى وعنده من الطعام ما يكفيه ولو شاء لأكله فيقول : والله لا أجعل هذا كله لبطنى حتى أجعل بعضه لله .

فهذه عشرة فوائد للجوع يتشعب من كل فائدة فوائد لا ينحصر عددها ولا تتناهى فوائدها ، فالجوع خزانة عظيمة لفوائد الآخرة . ولأجل هذا قال بعض السلف : الجوع مفتاح الآخرة وباب الزهد ، والشبع مفتاح الدنيا وباب الرغبة . بل ذلك صريح فى الأخبار التى رويناها بالوقوف على تفصيل هذه الفوائد تدرك معانى تلك الأخبار إدراك علم وبصيرة . فإذا لم تعرف هذا وصدقت بفضل الجوع كانت لك رتبة المقلدين فى الإيمان

(١) حديث « كل امرئ فى ظل صدقته » أخرجه الحاكم من حديث عقبة بن عامر وقد تقدم .

(٢) حديث : انظر إلى رجل سمين البطن فأومأ إلى بطنه بأصبعه وقال « لو كان هذا فى غير هذا لكان خيرا لك » أخرجه أحمد والحاكم فى المستدرك والبيهقى فى الشعب من حديث جعدة الجشمى وإسناده جيد .

والله أعلم بالصواب .

بيان طريق الرياضة فى كسر شهوة البطن

اعلم أن على المريد فى بطنه ومأكوله أربع وظائف : الأول أن لا يأكل إلا حلالا فإن العبادة مع أكل الحرام كالبناء على أمواج البحار . وقد ذكرنا ما يجب مراعاته من درجات الورع فى كتاب الحلال والحرام ، وتبقى ثلاث وظائف خاصة بالأكل وهو تقدير قدر الطعام فى القلة والكثرة وتقدير وقته فى الإبطاء والسرعة وتعيين الجنس المأكول فى تناول المشتهيات وتركها .

أما الوظيفة الأولى : فى تقليل الطعام ، فسبيل الرياضة فيه التدريج ، فمن اعتاد الأكل الكثير وانتقل دفعة واحدة إلى القليل لم يحتمله مزاجه وضعف وعظمت مشقته ، فينبغى أن يتدرج إليه قليلا قليلا وذلك بأن ينقص قليلا قليلا من طعامه المعتاد . فإن كان يأكل رغيفين مثلا وأراد أن يرد نفسه إلى رغيف واحد فينقص كل يوم ربع سبع رغيف ، وهو أن ينقص جزءا من ثمانية وعشرين جزءا ، أو جزءا من ثلاثين جزءا ، فيرجع إلى رغيف فى شهر ، ولا يستضر به ولا يظهر أثره ، فإن شاء فعل فى ذلك بالوزن وإن شاء بالمشاهدة ، فيترك كل يوم مقدار لقمة وينقصه عما أكله بالأمس . ثم هذا فيه أربع درجات .

أقصاها : أن يرد نفسه إلى قدر القوام الذى لا يبقى دونه وهو عادة الصديقين : وهو اختيار سهل التسترى رحمة الله عليه إذ قال : إن الله استعبد الخلق بثلاث ، بالحياة ، والعقل ، والقوة . فإن خاف العبد على اثنين منها وهى الحياة والعقل ، أكل وأفطر إن كان صائما . وتكلف الطلب إن كان فقيراً . وإن لم يخف عليهما بل على القوة قال ، فينبغى أن لا يبالى . ولو ضعف حتى صلى قاعدا ورأى أن صلاته قاعدا مع ضعف الجوع أفضل من صلاته قائما مع كثرة الأكل . وسئل سهل عن بدايته وما كان يقتات به فقال . كان قوتى فى كل سنة ثلاثة دراهم ، كنت آخذ بدرهم دبسا ، وبدرهم دقيق الأرز ، وبدرهم سمنا ، وأخلط الجميع وأسوى منه ثلثمائة وستين أكرة ، آخذ فى كل ليلة أكرة أفطر عليها ، فقيل له : فالساعة كيف تأكل ؟ قال : بغير حد ولا توقيت : ويحكى عن الرهابين أنهم قد يردون أنفسهم إلى مقدار درهم من الطعام :

الدرجة الثانية : أن يرد نفسه بالرياضة فى اليوم والليلة إلى نصف مد ، وهو رغيف وشىء مما يكون الأربعة منه منا ويشبه أن يكون هذا مقدار ثلث البطن فى حق الأكثرين ـ كما ذكره النبى صلى الله عليه وسلم ـ وهو فوق اللقيمات لأن هذه الصيغة فى الجمع للقلة فهو لما دون العشرة ، وقد كان ذلك عادة عمر رضى الله عنه إذ كان يأكل سبع لقم أو تسع لقم .

الدرجة الثالثة : أن يردها إلى مقدار المد ، وهو رغيفان ونصف ، وهذا يزيد على ثلث البطن فى حق الأكثرين ، ويكاد ينتهى إلى ثلثى البطن ، ويبقى ثلث للشراب ولا يبقى شىء للذكر . وفى بعض الألفاظ « ثلث للذكر » بدل قوله « للنفس »

الدرجة الرابعة : أن يزيد على المد إلى المن ، ويشبه أن يكون ما وراء المن إسرافا مخالفا لقوله تعالى ﴿ ولا تسرفوا ﴾ أعنى فى حق الأكثرين ، فإن مقدار الحاجة إلى الطعام يختلف بالسن ، والشخص ، والعمل الذى يشتغل به . وههنا طريق خامس لا تقدير فيه ولكنه موضع غلط ، وهو أن يأكل إذا صدق جوعه ويقبض يده وهو على شهوة صادقة بعد ، ولكن الأغلب أن من لم يقدر لنفسه رغيفا أو رغيفين فلا يتبين له حد الجوع الصادق ، ويشتبه عليه ذلك بالشهوة الكاذبة .

وقد ذكر للجوع الصادق علامات ؛ إحداها : أن لاتطلب النفس الأدم بل تأكل الخبز وحده بشهوة — أى خبز كان — فمهما طلبت نفسه خبزا بعينه أو طلبت أدما فليس ذلك بالجوع الصادق . وقد قيل : من علامته أن يبصق فلا يقع الذباب عليه ؛ أى لم يبق فيه دهنية ولادسومة فيدل ذلك على خلو المعدة ، ومعرفة ذلك غامض . فالصواب للمريد أن يقدر مع نفسه القدر الذى لايضعفه عن العبادة التى هو بصددها فإذا انتهى إليه وقف وإن بقيت شهوته .

وعلى الجملة : فتقدير الطعام لايمكن لأنه يختلف بالأحوال والأشخاص . نعم قد كان قوت جماعة من الصحابة صاعا من حنطة فى كل جمعة ، فإذا أكلوا التمر اقتاتوا منه صاعا ونصفا ، وصاع الحنطة أربعة أمداد ، فيكون كل يوم قريبا من نصف مد ـ وهو ماذكرناه أنه قدر ثلث البطن ـ واحتيج فى التمر إلى زيادة لسقوط النوى منه . وقد كان أبو ذر رضى الله عنه يقول : طعامى فى كل جمعة صاع من شعير على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لا أزيد عليه شيئا حتى ألقاه فإنى سمعته يقول « أقربكم منى مجلسا يوم القيامة وأحبكم إلى من مات على ماهو عليه اليوم[(١)] » وكان يقول ـ فى إنكاره على بعض الصحابة : قد غيرتم ، ينخل لكم الشعير ولم يكن ينخل ، وخبزتم المرقق وجمعتم بين إدامين واختلف عليكم بألوان الطعام ، وغدا أحدكم فى ثوب وراح فى آخر ، ولم يكونوا هكذا على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وكان قوت أهل الصفة مدا من تمر بين اثنين فى كل يوم [(٢)] والمد رطل وثلث ويسقط منه النوى . وكان الحسن رحمة الله عليه يقول المؤمن مثل العنيزة يكفيه الكف من الحشف والقبضة من السويق والجرعة من الماء ، والمنافق مثل السبع الضارى بلعا بلعا وسرطا سرطا لايطوى بطنه لجاره ولايؤثر أخاه بفضله ، وجهوا هذه الفضول أمامكم . وقال سهل لو كانت الدنيا دما عبيطا لكان قوت المؤمن منها حلالا لأن أكل المؤمن عند الضرورة بقدر القوام فقط .

الوظيفة الثانية : فى وقت الأكل ومقدار تأخيره وفيه أيضاً أربع درجات :

الدرجة العليا : أن يطوى ثلاثة أيام فما فوقها ، وفى المريدين من رد الرياضة إلى الطى لاإلى المقدار ، حتى انتهى بعضهم إلى ثلاثين يوما وأربعين يوما ، وانتهى إليه جماعة من العلماء يكثر عددهم منهم : محمد بن عمرو القرنى ، وعبد الرحمن بن إبراهيم ، ورحيم ، وإبراهيم التيمى ، وحجاج بن فرافصة ، وحفص العابد المصيصى ، والمسلم بن سعيد ، وزهير ، وسليمان الخواص ، وسهل بن عبدالله التسترى ، وإبراهيم بن أحمد الخواص ، وقد كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يطوى ستة أيام ، وكان عبدالله بن الزبير يطوى سبعة أيام ، وكان أبو الجوزاء صاحب ابن عباس يطوى سبعا . وروى أن الثورى وإبراهيم بن أدهم كانا يطويان ثلاثا ثلاثا ، كل ذلك كانوا يستعينون بالجوع على طريق الآخرة قال بعض العلماء من طوى لله أربعين يوما ظهرت له قدرة من الملكوت أى كوشف ببعض الأسرار الإلهية . وقد حكى أن بعض أهل هذه الطائفة مر براهب فذاكره بحاله وطمع فى إسلامه وترك ماهو عليه من الغرور ، فكلمه فى ذلك كلاما كثيرا إلى أن قال له الراهب : إن المسيح كان يطوى أربعين يوما وإن ذلك معجزة لاتكون إلا لنبى أو صديق ، فقال له الصوفى : فإن طويت خمسين يوما تترك ماأنت عليه وتدخل فى دين الإسلام وتعلم أنه حق وأنك على باطل ؟ قال ؛ نعم ، فجلس لا يبرح إلا حيث يراه حتى طوى خمسين يوما ، ثم قال ؛ وأزيدك أيضا فطوى إلى تمام الستين ، فتعجب الراهب منه وقال ؛ ماكنت أظن أن أحداً يجاوز المسيح ؟ فكان ذلك سبب إسلامه .

---

(١) حديث أبى ذر « أقربكم منى مجلسا يوم القيامة وأحبكم الى من مات على ماهو عليه اليوم » أخرجه أحمد فى كتاب الزهد ومن طريقه أبو نعيم فى الحلية دون قوله « وأحبكم الى » وهو منقطع (٢) حديث : كان قوت أهل الصفة مدا من تمر بين اثنين فى كل يوم » أخرجه الحاكم وصحح إسناده من حديث طلحة البصرى .

وهذه درجة عظيمة قل من يبلغها إلا مكاشف محمول شغل بمشاهدة ماقطعه عن طبعه وعادته واستوفى نفسه فى لذته وأنساه جوعته وحاجته .

الدرجة الثانية : أن يطوى يومين إلى ثلاثة وليس ذلك خارجا عن العادة بل هو قريب يمكن الوصول إليه بالجد والمجاهدة .

الدرجة الثالثة : وهى أدناها أن يقتصر فى اليوم والليلة على أكلة واحدة وهذا هو الأقل وماجاوز ذلك إسراف ومداومة للشبع حتى لايكون له حالة جوع ، وذلك فعل المترفين وهو بعيد من السنة ، فقد روى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا تغدى لم يتعش وإذا تعشى لم يتغد [1] وكان السلف يأكلون فى كل يوم أكلة ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم لعائشة « إياك والسرف ، فإن أكلتين فى يوم من السرف ، وأكلة واحدة فى كل يومين إقتار ، وأكلة فى كل يوم قوام بين ذلك [2] » وهو المحمود فى كتاب الله عز وجل .

ومن اقتصر فى اليوم على أكلة واحدة فيستحب له أن يأكلها سحراً قبل طلوع الفجر فيكون أكله بعد التهجد وقبل الصبح ، فيحصل له جوع النهار للصيام وجوع الليل للقيام ، وخلو القلب لفراغ المعدة ورقة الفكر ، واجتماع الهم وسكون النفس إلى المعلوم ، فلا تنازعه قبل وقته . وفى حديث عاصم بن كليب عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : ماقام رسول الله صلى الله عليه وسلم قيامكم هذا قط ، وإن كان ليقوم حتى تورم قدماه ، وما واصل وصالكم هذا قط غير أنه قد أخر الفطر إلى السحر [3] وفى حديث عائشة رضى الله عنها قالت : كان النبى صلى الله عليه وسلم يواصل إلى السحر [4] فإن كان يلتفت قلب الصائم بعد المغرب إلى الطعام وكان ذلك يشغله عن حضور القلب فى التهجد فالأولى أن يقسم طعامه نصفين ، فإن كان رغيفين مثلا أكل رغيفاً عند الفطر ورغيفاً عند السحر ، لتسكن نفسه ويخف بدنه عند التهجد ولا يشتد بالنهار جوعه لأجل التسحر ، فيستعين بالرغيف الأول على التهجد وبالثانى على الصوم . ومن كان يصوم يوما ويفطر يوما فلا بأس أن يأكل كل يوم فطره وقت الظهر ، ويوم صومه وقت السحر . فهذه الطرق فى مواقيت الأكل وتباعده وتقاربه .

الوظيفة الثالثة : فى نوع الطعام وترك الإدام ، وأعلى الطعام مخ البر فإن نخل فهو غاية الترفه ، وأوسطه شعير منخول ، وأدناه شعير لم ينخل . وأعلى الأدم اللحم والحلاوة ، وأدناه الملح والخل ، وأوسطه المزورات بالأدهان من غير لحم . وعادة سالكى طريق الآخرة الامتناع من الإدام على الدوام بل الامتناع عن الشهوات ، فإن كل لذيذ يشتهيه الأنسان وأكله اقتضى ذلك بطرا فى نفسه وقسوة فى قلبه وأنساه بلذات الدنيا حتى يألفها ويكره الموت ولقاء الله تعالى ، وتصير الدنيا جنة فى حقه ويكون الموت سجناً له . وإذا منع نفسه عن شهواتها وضيق عليها وحرمها لذاتها صارت الدنيا سجناً عليه ومضيقاً له فاشتهت نفسه الإفلات منها ، فيكون الموت إطلاقها . وإليه الإشارة بقول يحيى ابن معاذ حيث قال : معاشر الصديقين جوعوا أنفسكم لوليمة الفردوس فإن شهوة الطعام على قدر تجويع النفس . فكل ماذكرناه من آفات الشبع فإنه يجرى فى كل الشهوات وتناول اللذات فلا نطول بإعادته ، فلذلك يعظم الثواب

---

(١) حديث أبى سعيد الخدرى : كان إذا تغدى لم يتعش وإذا تعشى لم يتغد » لم أجد له أصلا (٢) حديث : قال لعائشة « إياك والإسراف فإن أكلتين فى يوم من السرف » أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث عائشة وقال فى إسناده ضعف

(٣) حديث عاصم بن كليب عن أبيه عن أبى هريرة : ماقام رسول الله صلى الله عليه وسلم قيامكم هذا قط وإن كان ليقوم حتى تزلع قدماه . رواه النسائى مختصرا : كان يصلى حتى تزلع قدماه . وإسناده جيد . (٤) حديث : كان يواصل الى السحر . لم أجده من فعله وإنما هو من قوله « فأيكم أراد أن يواصل فليواصل حتى السحر » رواه البخارى من حديث أبى سعيد : وأما هو فكان يواصل وهو من خصائصه .

فى ترك الشهوات من المباحات ويعظم الخطر فى تناولها ، حتى قال صلى الله عليه وسلم « شرار أمتى الذين يأكلون مخ الحنطة (١) » وهذا ليس بتحريم بل هو مباح على معنى أن من أكله مرة أو مرتين لم يعص ، ومن دام عليه أيضاً فلا يعصى بتناوله ، ولكن تتربى نفسه بالنعيم فتأنس بالدنيا وتألف اللذات وتسعى فى طلبها فيجرها ذلك إلى المعاصى فهم شرار الأمة ، لأن مخ الحنطة يقودهم إلى اقتحام أمور ، تلك الأمور معاص . وقال صلى الله عليه وسلم « شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم ونبتت عليه أجسامهم (٢) » وإنما همتهم ألوان الطعام وأنواع اللباس ويتشدقون فى الكلام . وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام اذكر أنك ساكن القبر فإن ذلك يمنعك من كثير الشهوات . وقد اشتد خوف السلف من تناول لذيذ الأطعمة وتمرين النفس عليها ورأوا أن ذلك علامة الشقاوة ، ورأوا منع الله تعالى منه غاية السعادة ، حتى روى أن وهب بن منبه قال : التقى ملكان فى السماء الرابعة فقال أحدهما للآخر : من أين ؟ قال : أمرت بسوق حوت من البحر اشتهاه فلان اليهودى لعنه الله ، وقال الآخر : أمرت بإهراق زيت اشتهاه فلان العابد . فهذا تنبيه على أن تيسير أسباب الشهوات ليس من علامات الخير . ولهذا امتنع عمر رضى الله عنه عن شربة ماء بارد بعسل وقال : اعزلوا عنى حسابها . فلا عبادة لله تعالى أعظم من مخالفة النفس فى الشهوات وترك اللذات ـ كما أوردناه فى كتاب رياضة النفس ـ وقد روى نافع أن ابن عمر رضى الله عنهما كان مريضاً فاشتهى سمكة طرية فالتمست له بالمدينة فلم توجد ، ثم وجدت بعد كذا وكذا ، فاشتريت له بدرهم ونصف فشويت وحملت إليه على رغيف فقام سائل على الباب فقال للغلام : لفها برغيفها وادفعها إليه ، فقال له الغلام : أصلحك الله قد اشتهيتها منذ كذا وكذا فلم نجدها فلما وجدتها اشتريتها بدرهم ونصف ، فنحن نعطيه ثمنها ، فقال : لفها وادفعها إليه ، ثم قال الغلام للسائل : هل لك أن تأخذ درهما وتتركها ؟ قال : نعم فأعطاه درهما وأخذها وأتى بها فوضعها بين يديه وقال: قد أعطيته درهما وأخذتها منه ، فقال : لفها وادفعها إليه ولا تأخذ منه الدرهم ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أيما امرئ اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر بها على نفسه غفر الله له (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا سددت كلب الجوع برغيف وكوز من الماء القراح فعلى الدنيا وأهلها الدمار (٤) » أشار إلى أن المقصود رد ألم الجوع والعطش ودفع ضررهما دون التنعم بلذات الدنيا ، وبلغ عمر رضى الله عنه أن يزيد بن أبى سفيان يأكل أنواع الطعام فقال عمر لمولى له : إذا علمت أنه قد حضر عشاؤه فأعلمنى ، فأعلمه فدخل عليه فقرب عشاؤه فأتوه بثريد لحم فأكل معه عمر ، ثم قرب الشواء وبسط يزيد يده وكف عمر يده وقال : الله الله يا يزيد بن أبى سفيان أطعام بعد طعام ؟ والذى نفس عمر بيده لئن خالفتم عن سنتهم ليخالفن بكم عن طريقهم . وعن يسار بن عمير قال : مانخلت لعمر دقيقا قط إلا وأناله عاص . وروى أن عتبة الغلام كان يعجن دقيقه ويجففه فى الشمس ، ثم يأكله ويقول كسرة وملح حتى يتهيأ فى الآخرة الشواء والطعام الطيب . وكان يأخذ الكوز فيغرف به من حب كان فى الشمس نهاره

---

(١) حديث « شرار أمتى الذين يأكلون مخ الحنطة » لم أجد له أصلا (٢) حديث « شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم .. الحديث » أخرجه ابن عدى فى الكامل ومن طريقه البيهقى فى شعب الإيمان من حديث فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى من حديث فاطمة بنت الحسين مرسلا ، قال الدارقطنى فى العلل : أنه أشبه بالصواب ، ورواه أبو نعيم فى الحلية من حديث عائشة باسناد لابأس به (٣) حديث نافع : أن ابن عمر كان مريضاً فاشتهى سمكة ... الحديث . وفيه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أيما امرئ اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر بها على نفسه غفر الله له » أخرجه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب الثواب باسناد ضعيف جدا ورواه ابن الجوزى فى الموضوعات .

(٤) حديث « إذا سددت كلب الجوع برغيف وكوز من الماء القراح فعلى الدنيا وأهلها الدمار » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة باسناد ضعيف .

فتقول مولاة له : ياعتبة لو أعطيتنى دقيقك لخبزته لك وبردت لك الماء ؟ فيقول لها : ياأم فلان قد شردت عنى كلب الجوع .

قال شقيق بن إبراهيم : لقيت إبراهيم بن أدهم بمكة فى سوق الليل ـ عند مولد النبى صلى الله عليه وسلم ـ يبكى وهو جالس بناحية من الطريق فعدلت إليه وقعدت عنده وقلت : إيش هذا البكاء ياأبا إسحق ؟ فقال : خير ، فعاودته مرة واثنتين وثلاثا ، فقال : ياشقيق استر على فقلت ياأخى قل ماشئت، فقال لى : اشتهت نفسى منذ ثلاثين سنة سكباجا فمنعتها جهدى ، حتى إذا كان البارحة كنت جالساً وقد غلبنى النعاس إذ أنا بفتى شاب بيده قدح أخضر يعلو منه بخار ورائحة سكباج ، قال : فاجتمعت بهمتى عنه فقربه وقال : يا إبراهيم كل ، فقلت : ما آكل قد تركته لله عز وجل ، فقال لى : قد أطعمك الله كل ، فما كان لى جواب إلا أنى بكيت ، فقال لى : كل رحمك الله ، فقلت : قد أمرنا أن لانطرح فى وعائنا إلا من حيث نعلم ، فقال : كل عافاك الله فإنما أعطيته ، فقيل لى ياخضر اذهب بهذا وأطعمه نفس إبراهيم بن أدهم فقد رحمها الله من طول صبرها على مايحملها من منعها . اعلم يا إبراهيم أنى سمعت الملائكة يقولون : من أعطى فلم يأخذ طلب فلم يعط ، فقلت : إن كان كذلك فها أنابين يديك لأجل العقد مع الله تعالى ، ثم التفت فإذا أنا بفتى آخر ناوله شيئاً وقال : ياخضر لقمه أنت ، فلم يزل يلقمنى حتى نعست فانتبهت وحلاوته فى فمى ، قال شقيق : فقلت أرنى كفك ، فأخذت بكفه فقبلتها وقلت : يامن يطعم الجياع الشهوات إذا صححوا المنع ، يامن يقدح فى الضمير اليقين ، يامن يشفى قلوبهم من محبته ، أترى لشقيق عندك حالا ؟ ثم رفعت يد إبراهيم إلى السماء وقلت : بقدر هذا الكف عندك وبقدر صاحبه وبالجود الذى وجد منك جد على عبدك الفقير إلى فضلك وإحسانك ورحمتك وإن لم يستحق ذلك ؛ قال : فقام إبراهيم ومشى حتى أدركنا البيت .

وروى عن مالك بن دينار أنه بقى أربعين سنة يشتهى لبنا فلم يأكله . وأهدى إليه يوما رطب فقال لأصحابه : كلوا فما ذقته منذ أربعين سنة . وقال أحمد بن أبى الحوارى . اشتهى أبو سليمان الدارانى رغيفا حارا بملح فجئت به إليه فعض منه عضة ثم طرحه وأقبل يبكى وقال : عجلت إلى شهوتى بعد إطالة جهدى واشقوتى قد عزمت على التوبة فأقلنى ! قال أحمد . فما رأيته أكل الملح حتى لقى الله تعالى . وقال مالك بن ضيغم مررت بالبصرة فى السوق فنظرت إلى البقل فقالت لى نفسى : لو أطعمتنى الليلة من هذا فأقسمت أن لاأطعمها إياه أربعين ليلة ومكث مالك بن دينار بالبصرة خمسين سنة ماأكل رطبة لأهل البصرة ولا بسرة قط وقال . ياأهل البصرة عشت فيكم خمسين سنة ما أكلت لكم رطبة ولابسرة فما زاد فيكم مانقص منى ولانقص منى مازاد فيكم . وقال . طلقت الدنيا ، منذ خمسين سنة ، اشتهت نفسى لبنا منذ أربعين سنة فوالله لاأطعمها حتى ألحق بالله تعالى . وقال حماد بن أبى حنيفة . أتيت داود الطائى والباب مغلق عليه فسمعته يقول . نفسى اشتهيت جزراً فأطعمتك جزراً ، ثم اشتهيت تمراً فآليت أن لاتأكليه أبدا ، فسلمت ودخلت فإذا هو وحده . ومر أبو حازم يوما فى السوق فرأى الفاكهة فاشتهاها ، فقال لابنه. اشتر لنا من هذه الفاكهة المقطوعة الممنوعة لعلنا نذهب إلى الفاكهة التى لامقطوعة ولا ممنوعة ، فلما اشتراها وأتى بها إليه قال لنفسه : قد خدعتينى حتى نظرت واشتهيت وغلبتينى حتى اشتريت والله لاذقتيه فبعث بها إلى يتامى من الفقراء وعن موسى الأشج أنه قال . نفسى تشتهى ملحا جريشا منذ عشرين سنة . وعن أحمد بن خليفة قال : نفسى تشتهى منذ عشرين سنة ماطلبت منى إلا الماء حتى تروى فما أرويتها . وروى أن عتبة الغلام اشتهى لحما سبع سنين فلما كان بعد ذلك قال استحييت من نفسي أن أدافعها منذ سبع سنين ـ سنة بعد سنة ـ فاشتريت قطعة لحم على خبز وشويتها

وتركتها على رغيف فلقيت صبيا فقلت ، ألست أنت ابن فلان وقد مات أبوك ؟ قال . بلى ، فناولته إياها قالوا . وأقبل يبكى ويقرأ ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا ﴾ ثم لم يذقه بعد ذلك . ومكث يشتهى تمرا سنين ، فلما كان ذات يوم اشترى تمرا بقيراط ورفعه إلى الليل ليفطر عليه قال . فهبت ريح شديدة حتى أظلمت الدنيا ففزع الناس ، فأقبل عتبة على نفسه يقول : هذا لجراءتى عليك وشرائى التمر بالقيراط ، ثم قال لنفسه : ما أظن أخذ الناس إلا بذنبك ؟ على أن لاتذوقيه . واشترى داود الطائى بنصف فلس بقلا وبفلس خلا ، وأقبل ليلته كلها يقول لنفسه . ويلك ياداود ما أطول حسابك يوم القيامة ، ثم لم يأكل بعده إلا قفارا ، وقال عتبة الغلام يوما لعبد الواحد بن زيد . إن فلانا يصف من نفسه منزلة ما أعرفها من نفسى فقال : لأنك تأكل مع خبزك تمراوهو لايزيد على الخبز شيئا قال : فإن أنا تركت أكل التمر عرفت تلك المنزلة ؟ قال . نعم ؛ وغيرها فأخذ يبكى فقال له بعض أصحابه لاأبكى الله عينك أعلى التمر تبكى ؟ فقال عبد الواحد دعه ؛ فإن نفسه قد عرفت صدق عزمه فى الترك، وهو إذا ترك شيئا لم يعاوده . وقال جعفر بن نصر . أمرنى الجنيد أن أشترى له التين الوزيرى ، فلما اشتريته أخذ واحدة عند الفطور فوضعها فى فمه ثم ألقاها وجعل يبكى ، ثم قال . احمله فقلت له فى ذلك فقال . هتف بى هاتف أما تستحى ؟ تركته من أجلى ثم تعود إليه ! وقال صالح المرى . قلت لعطاء السلمى إنى متكلف لك شيئا فلا ترد على كرامتى ، فقال . افعل ماتريد ، قال . فبعثت إليه مع ابنى شربة من سويق قد لتته بسمن وعسل ، فقلت : لاتبرح حتى يشربها ، فلما كان من الغد جعلت له نحوها فردها ولم يشربها ، فعاتبته ولمته على ذلك وقلت . سبحان الله رددت على كرامتى ! فلما رأى وجدى لذلك قال . لايسوءك هذا ، إنى قد شربتها أول مرة وقد راودت نفسى فى المرة الثانية على شربها فلم أقدر على ذلك ، كلما أردت ذلك ذكرت قوله تعالى ﴿ يتجرعه ولايكاد يسيغه ﴾ الآية قال صالح . فبكيت وقلت فى نفسى . أنا فى واد وأنت فى واد آخر . وقال السرى السقطى . نفسى منذ ثلاثين سنة تطالبنى أن أغمس جزرة فى دبس فما أطعمتها . وقال أبو بكر الجلاء . أعرف رجلا تقول له نفسه أنا أصبر لك على طى عشرة أيام وأطعمنى بعد ذلك شهوة أشتهيها ، فيقول لها : لاأريد أن تطوى عشرة أيام ولكن اتركى هذه الشهوة . وروى أن عابدا دعا بعض إخوانه فقرب إليه رغفانا فجعل أخوه يقلب الأرغفة ليختار أجودها فقال له العابد . مه أى شىء تصنع ! أماعلمت أن فى الرغيف الذى رغبت عنه كذا وكذا حكمة وعمل فيه كذا وكذاصانعا ، حتى استدار من السحاب الذى يحمل الماء والماء الذى يسقى الأرض والرياح والأرض والبهائم وبنى آدم حتى صار إليك ، ثم أنت بعد هذا تقلبه ولاترضى به .

وفى الخبر « لايستدير الرغيف ويوضع بين يديك حتى يعمل فيه ثلثمائة وستون صانعا أولهم ميكائيل عليه السلام الذى يكيل الماء من خزائن الرحمة ، ثم الملائكة التى تزجى السحاب والشمس والقمر والأفلاك وملائكة الهواء ودواب الأرض ، وآخرهم الخباز ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ [1] » وقال بعضهم : أتيت قاسما الجرعى فسألته عن الزهد أى شىء هو ؟ فقال : أى شىء سمعت فيه ؟ فعددت أقوالا فسكت فقلت : وأى شىء تقول أنت ؟ فقال : اعلم أن البطن دنيا العبد فبقدر ما يملك من بطنه يملك من الزهد ، وبقدر ما يملكه بطنه تملكه الدنيا وكان بشر بن الحرث قد اعتل مرة ، فأتى عبد الرحمن الطبيب يسأله عن شىء يوافقه من المأكولات ، فقال : تسألنى فإذا وصفت لك لم تقبل منى ، قال : صف لى حتى أسمع ، قال : تشرب سكنجبينا وتمص سفرجلا وتأكل

(١) حديث « لايستدير الرغيف ويوضع بين يديك حتى يعمل فيه ثلثمائة وستون صانعا أولهم ميكائيل .. الحديث » لم أجد له أصلا

بعد ذلك اسفيذباجا ، فقال له بشر : هل تعلم شيئاً أقل من السكنجبين يقوم مقامه ، قال : لا ، قال : أنا أعرف ، قال : ماهو ؟ قال : الهندبا بالخل ، ثم قال : أتعرف شيئا أقل من السفرجل يقوم مقامه ؟ قال : لا ، قال أنا أعرف قال : ماهو ؟ قال : الخرنوب الشامى ، قال : فتعرف شيئا أقل من الاسفيذباج يقوم مقامه ؟ قال : لا ، قال : أنا أعرف ؛ ماء الحمص بسمن البقر فى معناه ، فقال له عبد الرحمن : أنت أعلم منى بالطب ؛ فلم تسألنى ؟

فقد عرفت بهذا أن هؤلاء امتنعوا من الشهوات ومن الشبع من الأقوات ، وكان امتناعهم للفوائد التى ذكرناها ، وفى بعض الأوقات لأنهم كانوا لايصفو لهم الحلال فلم يرخصوا لأنفسهم إلا فى قدر الضرورة ، والشهوات ليست من الضرورات حتى قال أبو سليمان : الملح شهوة لأنه زيادة على الخبز وماوراء الخبز شهوة . وهذا هو النهاية . فمن لم يقدر على ذلك فينبغى أن لايغفل عن نفسه ولا ينهمك فى الشهوات ، فكفى بالمرء إسرافا أن يأكل كل ما يشتهيه ، ويفعل كل مايهواه فينبغى أن لايواظب على أكل اللحم . وقال على كرم الله وجهه من ترك اللحم أربعين يوما ساء خلقه ومن داوم عليه أربعين يوما قسا قلبه . وقيل إن للمداومة على اللحم ضراوة كضراوة الخمر . ومهما كان جائعا وتاقت نفسه إلى الجماع فلا ينبغى أن يأكل ويجامع ، فيعطى نفسه شهوتين فتقوى عليه ، وربما طلبت النفس الأكل لينشط فى الجماع . ويستحب أن لاينام على الشبع فيجمع بين غفلتين فيعتاد الفتور ويقسو قلبه لذلك ، ولكن ليصل أو ليجلس فيذكر الله تعالى فإنه أقرب إلى الشكر . وفى الحديث « أذيبوا طعامكم بالذكر والصلاة ولا تناموا عليه فتقسو قلوبكم [1] » وأقل ذلك أن يصلى أربع ركعات أو يسبح مائة تسبيحة أو يقرأ جزءا من القرآن عقيب أكله . فقد كان سفيان الثورى إذا شبع ليلة أحياها ، وإذا شبع فى يوم واصله بالصلاة والذكر ، وكان يقول : أشبع الزنجى وكده ومرة يقول : أشبع الحمار وكده . ومهما اشتهى شيئا من الطعام وطيبات الفواكه فينبغى أن يترك الخبز ويأكلها بدلا منه لتكون قوتا ، ولا تكون تفكها لئلا يجمع للنفس بين عادة وشهوة . نظر سهل إلى ابن سالم وفى يده خبز وتمر فقال له : ابدأ بالتمر فإن قامت كفايتك به وإلا أخذت من الخبز بعده بقدر حاجتك . ومهما وجد طعاما لطيفا وغليظا فليقدم اللطيف فإنه لايشتهى الغليظ بعده ، ولو قدم الغليظ لأكل اللطيف أيضا للطافته . وكان بعضهم يقول لأصحابه : لاتأكلوا الشهوات فإن أكلتموها فلا تطلبوها فإن طلبتموها فلاتحبوها ، وطلب بعض أنواع الخبز شهوة . قال عبدالله ابن عمر رحمة الله عليهما : ماتأتينا من العراق فاكهة أحب إلينا من الخبز فرأى ذلك الخبز فاكهة .

وعلى الجملة لاسبيل إلى إهمال النفس فى الشهوات المباحات واتباعها بكل حال فبقدر ما يستوفى العبد من شهوته يخشى أن يقال له يوم القيامة ﴿ أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ﴾ وبقدر مايجاهد نفسه ويترك شهوته يتمتع فى الدار الآخر بشهواته . قال بعض أهل البصرة : نازعتنى نفسى خبز أرز وسمكا فمنعتها ، فقويت مطالبتها واشتدت مجاهدتى لها عشرين سنة ، فلما مات قال بعضهم : رأيته فى المنام فقلت ماذا فعل الله بك ؟ قال : لا أحسن أن أصف ما لقانى به ربى من النعم والكرامات ، وكان أول شىء استقبلنى به خبز أرز وسمكا . وقال : كل اليوم شهوتك هنيئا بغير حساب . وقد قال تعالى ﴿ كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية ﴾ وكانوا قد أسلفوا ترك الشهوات . ولذلك قال أبو سليمان : ترك شهوة من الشهوات أنفع للقلب من صيام سنة وقيامها . وفقنا الله لما يرضيه .

---

(١) حديث « أذيبوا طعامكم بالصلاة والذكر ولاتناموا عليه فتقسو قلوبكم » أخرجه الطبرانى وابن السنى فى اليوم والليلة من حديث عائشة بسند ضعيف .

بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته واختلاف أحوال الناس فيه

اعلم أنّ المطلوب الأقصى فى جميع الأمور والأخلاق : الوسط ، إذ خير الأمور أوساطها وكلا طرفى قصد الأمور ذميم . وما أوردناه فى فضائل الجوع ربما يومئ إلى أنّ الإفراط فيه مطلوب وهيهات ، ولكن من أسرار حكمة الشريعة أن كل مايطلب الطبع فيه الطرف الأقصى وكان فيه فساد جاء الشرع بالمبالغة فى المنع منه ، على وجه يومئ عند الجاهل إلى أنّ المطلوب مضادة ما يقتضيه الطبع بغاية الإمكان . والعالم يدرك أنّ المقصود الوسط ، لأنّ الطبع إذا طلب غاية الشبع فالشرع ينبغى أن يمدح غاية الجوع ، حتى يكون الطبع باعثاً والشرع مانعا فيتقاومان ويحصل الاعتدال ، فإنّ من يقدر على قمع الطبع بالكلية بعيد فيعلم أنه لاينتهى إلى الغاية ؛ فإنه إن أسرف مسرف فى مضادة الطبع كان فى الشرع أيضاً ما يدل على إساءته ، كما أنّ الشرع بالغ فى الثناء على قيام الليل وصيام النهار ، ثم لما علم النبى صلى الله عليه وسلم من حال بعضهم أنه يصوم الدهر كله ويقوم الليل كله نهى عنه [١] فإذا عرفت هذا فاعلم أنّ الأفضل بالإضافة إلى الطبع المعتدل أن يأكل بحيث لايحس بثقل المعدة ولا يحس بألم الجوع ، بل ينسى بطنه فلا يؤثر فيه الجوع أصلا ، فإن مقصود الأكل بقاء الحياة وقوة العبادة ، وثقل المعدة يمنع من العبادة وألم الجوع أيضا يشغل القلب ويمنع منها . فالمقصود أن يأكل أكلا لا يبقى للمأكول فيه أثر ليكون متشبها بالملائكة فإنهم مقدّسون عن ثقل الطعام وألم الجوع . وغاية الإنسان الاقتداء بهم . وإذا لم يكن للإنسان خلاص من الشبع والجوع فأبعد الأحوال عن الطرفين الوسط وهو الاعتدال

ومثال طلب الآدمى البعد عن هذه الأطراف المتقابلة بالرجوع إلى الوسط مثال نملة ألقيت فى وسط حلقة محمية على النار مطروحة على الأرض ، فإنّ النملة تهرب من حرارة الحلقة وهى محيطة بها لاتقدر على الخروج منها . فلا تزال تهرب حتى تستقر على المركز الذى هو الوسط ، فلو ماتت ماتت على الوسط لأنّ الوسط هو أبعد المواضع عن الحرارة التى فى الحلقة المحيطة : فكذلك الشهوات محيطة بالإنسان إحاطه تلك الحلقة بالنملة ، والملائكة خارجون عن تلك الحلقة ، ولا مطمع للإنسان فى الخروج وهو يريد أن يتشبه بالملائكة فى الخلاص ، فأشبه أحواله بهم البعد ، وأبعد المواضع عن الأطراف الوسط ، فصار الوسط مطلوبا فى جميع هذه الأحوال المتقابلة . وعنه عبر بقوله صلى الله عليه وسلم « خير الأمور أوساطها » [٢] ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ ومهما لم يحس الإنسان بجوع ولا شبع تيسرت له العبادة والفكر وخف فى نفسه وقوى على العمل مع خفته ، ولكن هذا بعد اعتدال الطبع .

أما فى بداية الأمر إذا كانت النفس جموحا متشوقة إلى الشهوات مائلة إلى الإفراط فالاعتدال لا ينفعها بل لابد من المبالغة فى إيلامها بالجوع ، كما يبالغ فى إيلام الدابة التى ليست مروضة بالجوع والضرب وغيره إلى أن تعتدل ، فإذا ارتاضت واستوت ورجعت إلى الاعتدال ترك تعذيبها وإيلامها . ولأجل هذا السر يأمر الشيخ مريده بما لايتعاطاه هو فى نفسه فيأمره بالجوع وهو لايجوع ، ويمنعه الفواكه والشهوات ، وقد لايمتنع هو منها ، لأنه قد فرغ من تأديب نفسه فاستغنى عن التعذيب . ولما كان أغلب أحوال النفس الشره والشهوة والجماح والامتناع عن العبادة ، كان الأصلح لها الجوع الذى تحس بألمه فى أكثر الأحوال لتنكسر نفسه . والمقصود أن تنكسر حتى

(١) حديث : النهى عن صوم الدهر كله وقيام الليل كله . تقدم (٢) حديث « خير الأمور أوساطها » أخرجه البيهقى فى الشعب مرسلا وقد تقدم .

تعتدل فترد بعد ذلك الغذاء أيضا إلى الاعتدال . وإنما يمتنع من ملازمة الجوع من سالكي طريق الآخرة : إما صدّيق وإما مغرور أحمق .

أما الصدّيق المستقيم : فلاستقامة نفسه على الصراط المستقيم واستغنائه عن أن يساق بسياط الجوع إلى الحق . وأما المغرور : فلظنه بنفسه أنه الصدّيق المستغنى عن تأديب نفسه الظان بها خيرا . وهذا غرور عظيم وهو الأغلب . فإن النفس قلما تتأدب تأدبا كاملا ، وكثيرا ما تغتر فتنظر إلى الصدّيق ومسامحته نفسه فى ذلك فيسامح نفسه ، كالمريض ينظر إلى من قد صح من مرضه فيتناول ما يتناوله ويظن بنفسه الصحة فيهلك . والذى يدل على أن تقدير الطعام بمقدار يسير ـ فى وقت مخصوص ونوع مخصوص ـ ليس مقصوداً فى نفسه ـ وإنما هو مجاهدة نفس متنائية عن الحق غير بالغة رتبة الكمال ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له تقدير وتوقيت لطعامه .

قالت عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول لا يفطر ويفطر حتى نقول لا يصوم [(١)] وكان يدخل على أهله فيقول « هل عندكم من شىء » فإن قالوا نعم أكل وإن قالوا لا قال « إنى إذن صائم [(٢)] » وكان يقدّم إليه الشىء فيقول « أما إنى قد أردت الصوم » ثم يأكل [(٣)] . وخرج صلى الله عليه وسلم يوما وقال « إنى صائم » فقالت له عائشة رضى الله عنها : قد أهدى إلينا حيس فقال « كنت أردت الصوم ولكن قربيه [(٤)] » .

ولذلك حكى عن سهل أنه قيل له : كيف كنت فى بدايتك ؟ فأخبر بضروب من الرياضات ، منها : أنه كان يقتات ورق النبق مدة . ومنها : أنه أكل دقاق التين مدّة ثلاث سنين ، ثم ذكر أنه اقتات بثلاثة دراهم فى ثلاث سنين فقيل له : فكيف أنت فى وقتك هذا ؟ فقال : آكل بلا حدّ ولا توقيت . وليس المراد بقوله بلا حدّ ولا توقيت : أنى آكل كثيرا ، بل أنى لا أقدر بمقدار واحد ما آكله . وقد كان معروف الكرخى يهدى إليه طيبات الطعام فيأكل ، فقيل له : إن أخاك بشرا لا يأكل مثل هذا ؟ فقال : إن أخى بشرا قبضه الورع وأنا بسطتنى المعرفة ، ثم قال : إنما أنا ضيف فى دار مولاى فإذا أطعمنى أكلت وإذا جوعنى صبرت ، مالى والاعتراض والتمييز ؟ ودفع إبراهيم بن أدهم إلى بعض إخوانه دراهم وقال : خذ لنا بهذه الدراهم زبدا وعسلا وخبزا حواريا فقيل : يا أبا إسحق بهذا كله ؟ قال ويحك إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال وإذا عدمنا صبرنا صبر الرجال . وأصلح ذات يوم طعاما كثيرا ودعا إليه نفرا يسيرا فيهم الأوزاعى والثورى فقال له الثورى : يا أبا إسحق أما تخاف أن يكون هذا إسرافا ؟ فقال : ليس فى الطعام إسراف إنما الاسراف فى اللباس والأثاث .

فالذى أخذ العلم من السماع والنقل تقليدا يرى هذا من إبراهيم بن أدهم ويسمع عن مالك بن دينار أنه قال ما دخل بيتى الملح منذ عشرين سنة . وعن سرى السقطى أنه منذ أربعين سنة يشتهى أن يغمس جزرة فى دبس فما فعل . فيراه متناقضا فيتحير أو يقطع بأن أحدهما مخطئ . والبصير بأسرار القول يعلم أن كل ذلك حق ولكن بالإضافة إلى

---

(١) حديث عائشة : كان يصوم حتى نقول لا يفطر ويفطر حتى نقول لا يصوم . متفق عليه (٢) حديث : كان يدخل على أهله فيقول « هل عندكم من شىء » فإن قالوا نعم أكل وإن قالوا لا قال « إنى صائم » أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه والنسائى من حديث عائشة وهو عند مسلم بنحوه كما سيأتى (٣) حديث : كان يقدم إليه الشىء فيقول « أما إنى كنت أريد الصوم » أخرجه البيهقى من حديث عائشة بلفظ « وإن كنت قد فرضت الصوم » وقال إسناده صحيح وعند مسلم « قد كنت أصبحت صائما »

(٤) حديث : خرج وقال « إنى صائم » فقالت عائشة يا رسول الله قد أهدى إلينا حيس فقال « كنت أردت الصوم ولكن قربيه » أخرجه مسلم بلفظ « قد كنت أصبحت صائما » وفى رواية له « أدنيه فقد أصبحت صائما » فأكل وفى لفظ للبيهقى « إنى كنت أريد الصوم ولكن قربيه » .

اختلاف الأحوال ثم هذه الأحوال المختلفة يسمعها فطن محتاط أو غبي مغرور . فيقول المحتاط : ما أنا من جملة العارفين حتى أسامح نفسي فليس نفسي أطوع من نفس سري السقطي ومالك بن دينار ، وهؤلاء من الممتنعين عن الشهوات فيقتدي بهم . والمغرور يقول : ما نفسي بأعصى على من نفس معروف الكرخي وإبراهيم بن أدهم فاقتدي بهم وأرفع التقدير في مأكولي ، فأنا أيضا ضيف في دار مولاي فمالي وللاعتراض ؟ ثم إنه لو قصر أحد في حقه وتوقيره أو في ماله وجاهه بطريقة واحدة قامت القيامة عليه واشتغل بالاعتراض ، وهذا مجال رحب للشيطان مع الحمق ، بل رفع التقدير في الطعام والصيام وأكل الشهوات لا يسلم إلا لمن ينظر من مشكاة الولاية والنبوة، فيكون بينه وبين الله علامة في استرساله وانقباضه ، ولا يكون ذلك إلا بعد خروج النفس عن طاعة الهوى والعادة بالكلية، حتى يكون أكله إذا أكل على نية كما يكون إمساكه بنية ، فيكون عاملا لله في أكله وإفطاره ، فينبغي أن يتعلم الحزم من عمر رضي الله عنه فإنه كان يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب العسل ويأكله [1] ثم لم يقس نفسه عليه، بل لما عرضت عليه شربة باردة ممزوجة بعسل جعل يدير الإناء في يده ويقول : أشربها وتذهب حلاوتها وتبقى تبعتها . اعزلوا عني حسابها، وتركها.

وهذه الأسرار لا يجوز لشيخ إن يكاشف بها مريده بل يقتصر على مدح الجوع فقط ، ولا يدعوه إلى الاعتدال فإنه يقصر لا محالة عما يدعوه إليه . فينبغي أن يدعوه إلى غاية الجوع حتى يتيسر له الاعتدال. ولا يذكر له أن العارف الكامل يستغني عن الرياضة ، فإن الشيطان يجد متعلقاً من قلبه فيلقي إليه كل ساعة : إنك عارف كامل، وما الذي فاتك من المعرفة والكمال . بل كان من عادة إبراهيم الخواص أن يخوض مع المريد في كل رياضة كان يأمره بها ، كيلا يخطر بباله أن الشيخ يأمره بما لم يفعل فينفره ذلك من رياضته . والقوي إذا اشتغل بالرياضة وإصلاح الغير لزمه النزول إلى حد الضعفاء تشبهاً بهم وتلطفاً في سياقتهم إلى السعادة . وهذا ابتلاء عظيم للأنبياء والأولياء وإذا كان الاعتدال خفيا في حق كل شخص فالحزم والاحتياط ينبغي أن لا يترك في كل حال . ولذلك أدب عمر رضي الله عنه ولده عبدالله إذ دخل عليه فوجده يأكل لحما مأدوما بسمن ، فعلاه بالدرة وقال : لاأم لك كل يوما خبزا ولحما ، ويوما خبزا ولبنا ، ويوما خبزا وسمنا ، ويوما خبزا وزيتا ، ويوما خبزا وملحا ، ويوما خبزا قفارا . وهذا هو الاعتدال ، فأما المواظبة على اللحم والشهوات فإفراط وإسراف ، ومهاجرة اللحم بالكلية إقتار . وهذا قوام بين ذلك والله تعالى أعلم .

بيان آفة الرياء المتطرق إلى من ترك أكل الشهوات وقلل الطعام

اعلم أنه يدخل على تارك الشهوات آفتان عظيمتان هما أعظم من أكل الشهوات ؛ إحداهما : أن لاتقدر النفس على ترك بعض الشهوات فتشتهيها ، ولكن لايريد أن يعرف بأنه يشتهيها فيخفي الشهوة ويأكل في الخلوة مالا يأكل مع الجماعة . وهذا هو الشرك الخفي ، سئل بعض العلماء عن بعض الزهاد فسكت عنه فقيل له : هل تعلم به بأسا ؟ قال يأكل في الخلوة مالا يأكل مع الجماعة . وهذه آفة عظيمة ، بل حق العبد إذا ابتلي بالشهوات وحبها أن يظهرها فإن هذا صدق الحال ، وهو بدل عن فوات المجاهدات بالأعمال ، فإن إخفاء النقص وإظهار ضده من الكمال هو نقصانان متضاعفان ، والكذب مع الإخفاء كذبان ، فيكون مستحقاً لمقتين ولا يرضى منه إلا بتوبتين صادقتين .

(١) حديث : كان يحب العسل ويأكله . متفق عليه من حديث عائشة : كان يحب الحلواء والعسل ... الحديث . وفيه قصة شربه العسل عند بعض نسائه .

ولذلك شدد أمر المنافقين فقال تعالى ﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ﴾ لأن الكافر كفر وأظهر وهذا كفر وستر ، فكان ستره لكفره كفراً آخر لأنه استخف بنظر الله سبحانه وتعالى إلى قلبه وعظم نظر المخلوقين فمحا الكفر عن ظاهره . والعارفون يبتلون بالشهوات بل بالمعاصى ولا يبتلون بالرياء والغش والإخفاء . بل كمال العارف أن يترك الشهوات لله تعالى ويظهر من نفسه الشهوة إسقاطاً لمنزلته من قلوب الخلق . وكان بعضهم يشترى الشهوات ويعلقها فى البيت وهو فيها من الزاهدين ، وإنما يقصد به تلبيس حاله ليصرف عن نفسه قلوب الغافلين حتى لايشوشون عليه حاله .

فنهاية الزهد : الزهد فى الزهد بإظهار ضدّه وهذا عمل الصديقين . فإنه جمع بين صدقين كما أن الأول جمع بين كذبين . وهذا قد حمل على النفس ثقلين وجرّعها كأس الصبر مرتين مرة بشربه ومرة برميه ؛ فلاجرم أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا . وهذا يضاهى طريق من يعطى جهراً فيأخذ ويرد سرا ليكسر نفسه بالذل جهراً وبالفقر سرا . فمن فاته هذا فلا ينبغى أن يفوته إظهار شهوته ونقصانه والصدق فيه . ولا ينبغى أن يغره قول الشيطان : إنك إذا أظهرت اقتدى بك غيرك فاستره إصلاحا لغيرك ، فإنه لو قصد إصلاح غيره لكان إصلاح نفسه أهم عليه من غيره ، فهذا إنما يقصد الرياء المجرد ويروجه الشيطان عليه فى معرض إصلاح غيره ، فلذلك ثقل عليه ظهور ذلك منه واعلم أن من اطلع عليه ليس يقتدى به فى الفعل أو لاينزجر باعتقاده أنه تارك للشهوات .

الآفة الثانية : أن يقدر على ترك الشهوات لكنه يفرح أن يعرف به فيشتهر بالتعفف عن الشهوات ، فقد خالف شهوة ضعيفة وهى شهوة الأكل وأطاع شهوة هى شر منها وهى شهوة الجاه ، وتلك هى الشهوة الخفية فمهما أحس بذلك من نفسه فكسر هذه الشهوة آكد من كسر شهوة الطعام فليأكل فهو أولى له . قال أبو سليمان : إذا قدمت إليك شهوة وقد كنت تاركا لها فأصب منها شيئا يسيرا ولا تعط نفسك مناها ، فتكون قد أسقطت عن نفسك الشهوة وتكون قد نغصت عليها إذ لم تعطها شهوتها . وقال محمد بن جعفر الصادق : إذا قدمت إلى شهوة نظرت إلى نفسى فإن هى أظهرت شهوتها أطعمتها منها وكان ذلك أفضل من منعها ، وإن أخفت شهوتها وأظهرت العزوب عنها عاقبتها بالترك ولم أنلها منها شيئا ، وهذا طريق فى عقوبة النفس على هذه الشهوة الخفية .

وبالجملة من ترك شهوة الطعام ووقع فى شهوة الرياء كان كمن هرب من عقرب وفزع إلى حية ؛ لأن شهوة الرياء أضر كثيرا من شهوة الطعام والله ولى التوفيق .

القول فى شهوة الفرج

اعلم أن شهوة الوقاع سلطت على الإنسان لفائدتين ؛ إحداهما : أن يدرك لذته فيقيس به لذات الآخرة . فإن لذة الوقاع لو دامت لكانت أقوى لذات الأجساد ، كما أن النار وآلامها أعظم آلام الجسد . والترغيب والترهيب يسوق الناس إلى سعادتهم وليس ذلك إلا بألم محسوس ولذة محسوسة مدركة ، فإن مالا يدرك بالذوق لا يعظم إليه الشوق .

الفائدة الثانية : بقاء النسل ودوام الوجود فهذه فائدتها . ولكن فيها من الآفات مايهلك الدين والدنيا إن لم تضبط ولم تقهر ولم ترد إلى حد الاعتدال . وقد قيل فى تأويل قوله تعالى ﴿ ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به ﴾ معناه شدة الغلمة ، وعن ابن عباس : فى قوله تعالى ﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾ قال : هو قيام الذكر . وقد أسنده بعض الرواة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أنه قال فى تفسيره : الذكر إذا دخل . وقد قيل : إذا

قام ذكر الرجل ذهب ثلثا عقله [١] . وكان صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه « اللهم إنى أعوذ بك من شر سمعى وبصرى وقلبي وهنى ومنى [٢] » وقال عليه السلام « النساء حبائل الشيطان ولولا هذه الشهوة لما كان للنساء سلطنة على الرجال [٣] » .

روى أن موسى عليه السلام كان جالساً فى بعض مجالسه إذا أقبل إليه إبليس وعليه برنس يتلون فيه ألوانا ؛ فلما دنا منه خلع البرنس فوضعه ، ثم أتاه فقال : السلام عليك ياموسى ، فقال له موسى من أنت ؟ فقال : أنا إبليس ، فقال : لاحياك الله ماجاء بك ؟ قال : جئت لأسلم عليك لمنزلتك من الله ومكانتك منه ، قال : فما الذى رأيت عليك ؟ قال : برنس أختطف به قلوب بنى آدم قال : فما الذى إذا صنعه الإنسان استحوذت عليه قال : إذا أعجبته نفسه واستكثر عمله ونسى ذنوبه ، وأحذرك ثلاثا : لاتخل بامرأة لاتحل لك فإنه ماخلا رجل بامرأة لاتحل له إلا كنت صاحبه دون أصحابى حتى أفتنه بها وأفتنها به ، ولا تعاهد الله عهدا إلا وفيت به ، ولا تخرجن صدقة إلا أمضيتها فإنه ماأخرج رجل صدقة فلم يمضها إلا كنت صاحبه دون أصحابى حتى أحول بينه وبين الوفاء بها . ثم ولى وهو يقول : علم موسى مايحذر به بنى آدم . وعن سعيد بن المسيب قال : مابعث الله نبيا فيما خلا إلا لم ييأس إبليس أن يهلكه بالنساء ولا شىء أخوف عندى منهن ، وما بالمدينة بيت أدخله إلا بيتى وبيت ابنتى أغتسل فيه يوم الجمعة ثم أروح . وقال بعضهم : إن الشيطان يقول للمرأة أنت نصف جندى وأنت سهمى الذى أرمى به فلا أخطىء ، وأنت موضع سرى وأنت رسولى فى حاجتى . فنصف جنده الشهوة ونصف جنده الغضب .

وأعظم الشهوات شهوة النساء . وهذه الشهوة أيضا لها إفراط وتفريط واعتدال ، فالإفراط : مايقهر العقل حتى يصرف همة الرجال إلى الاستمتاع بالنساء والجوارى ، فيحرم عن سلوك طريق الآخرة أو يقهر الدين حتى يجر إلى اقتحام الفواحش . وقد ينتهى إفراطها بطائفة إلى أمرين شنيعين :

أحدهما : أن يتناولوا مايقوى شهواتهم على الاستكثار من الوقاع ـ كما قد يتناول بعض الناس أودية تقوى المعدة لتعظم شهوة الطعام ـ وما مثال ذلك إلا كمن ابتلى بسباع ضارية وحيات عادية فتنام عنه فى بعض الأوقات فيحتال لإثارتها وتهييجها ثم يشتغل بإصلاحها وعلاجها ، فإن شهوة الطعام والوقاع على التحقيق آلام يريد الإنسان الخلاص منها فيدرك لذة بسبب الخلاص .

* فإن قلت . فقد روى فى غريب الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « شكوت إلى جبرائيل ضعف الوقاع فأمرنى بأكل الهريسة [٤] » ؟ فاعلم أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان تحته تسع نسوة ووجب عليه تحصينهن بالامتاع ، وحرم على غيره نكاحهن وإن طلقهن ، فكان طلبه القوة لهذا لا للتمتع .

والأمر الثانى . أنه قد تنتهى هذه الشهوة ببعض الضلال إلى العشق وهو غاية الجهل بما وضع له الوقاع ، وهو مجاوزة فى البهيمية لحد البهائم لأن المتعشق ليس يقنع بإراقة شهوة الوقاع وهى أقبح الشهوات وأجدرها أن يستحى منه حتى اعتقد أن الشهوة لاتنقضى إلا من محل واحد ، والبهيمة تقضى الشهوة أين اتفق فتكتفى به ؟ وهذا لايكتفى

---

(١) حديث ابن عباس موقوفا مسندا فى قوله تعالى (ومن شر غاسق إذا وقب) قال هو قيام الذكر وقال الذى أسنده : الذكر إذا دخل . هذا حديث لاأصل له (٢) حديث « اللهم انى أعوذ بك من شر سمعى وبصرى وقلبي وهنى ومنيى » تقدم فى الدعوات (٣) حديث « النساء حبائل الشيطان » أخرجه الأصفهانى فى الترغيب والترهيب من حديث خالد بن زيد الجهنى باسناد فيه جهالة . (٤) حديث « شكوت الى جبريل ضعف الوقاع فأمرنى بأكل الهريسة » أخرجه العقيلى فى الضعفاء والطبرانى فى الأوسط من حديث حذيفة وقد تقدم وهو موضوع .

إلا بشخص واحد معين حتى يزداد به ذلا إلى ذل وعبودية إلى عبودية ، وحتى يستسخر العقل لخدمة الشهوة وقد خلق ليكون مطاعا لاليكون خادما للشهوة ومحتالا لأجلها وما العشق إلا سعة إفراط الشهوة وهو مرض قلب فارغ لاهم له . وإنما يجب الاحتراز من أوائله بترك معاودة النظر والفكر ، وإلافإذا استحكم عسر دفعه . فكذلك عشق المال والجاه والعقار والأولاد حتى حب اللعب بالطيور والنرد والشطرنج ، فإن هذه الأمور قد تستولى على طائفة بحيث تنغص عليهم الدين والدنيا ولايصبرون عنها ألبتة .

ومثال من يكسر سورة العشق فى أول انبعاثه مثال من يصرف عنان الدابة عند توجهها إلى باب لتدخله ، وما أهون منعها بصرف عنانها . ومثال من يعالجها بعد استحكامها مثال من يترك الدابة حتى تدخل وتجاوز الباب ثم يأخذ بذنبها ويجرها إلى ورائها . وما أعظم التفاوت بين الأمرين فى اليسر والعسر ، فليكن الاحتياط فى بدايات الأمور فأما فى أواخرها فلا تقبل العلاج إلا بجهد جهيد يكاد يؤدى إلى نزع الروح .

فإذن إفراط الشهوة أن يغلب العقل إلى هذا الحد وهو مذموم جدا . وتفريطها : بالعنة أو بالضعف عن إمتاع المنكوحة ، وهو أيضا مذموم . وإنما المحمود أن تكون معتدلة ومطيعة للعقل والشرع فى انقباضها وانبساطها . ومهما أفرطت فكسرها بالجوع والنكاح قال صلى الله عليه وسلم « معاشر الشباب عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم فالصوم له وجاء (١) » .

بيان ما على المريد فى ترك التزويج وفعله

اعلم أن المريد فى ابتداء أمره ينبغى أن لايشغل نفسه بالتزويج فإن ذلك شغل شاغل يمنعه من السلوك ويستجره إلى الأنس بالزوجة . ومن أنس بغير الله تعالى شغل عن الله ولا يغرنه كثرة نكاح رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه كان لايشغل قلبه جميع مافى الدنيا عن الله تعالى (٢) فلا تقاس الملائكة بالحدادين . ولذلك قال أبو سليمان الدارانى : من تزوج فقد ركن إلى الدنيا ؟ وقال : مارأيت مريدا تزوج فثبت على حاله الأول : وقيل له مرة : ما أحوجك إلى امرأة تأنس بها ؟ فقال : لا آنسنى الله بها ، أى أن الأنس بها يمنع الأنس بالله تعالى ،وقال أيضا: كل ماشغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشئوم . فكيف يقاس غير رسول الله صلى الله عليه وسلم به؟ وقد كان استغراقه بحب الله تعالى بحيث كان يجد احتراقه فيه إلى حد كان يخشى منه فى بعض الأحوال أن يسرى ذلك إلى قالبه فيهدمه . ولذلك كان يضرب بيده على فخذ عائشة أحيانا ويقول « كلمينى ياعائشة » لتشغله بكلامها عن عظيم ماهو فيه لقصور طاقة قالبه عنه (٣) فقد كان طبعه الأنس بالله عز وجل ، وكان أنسه بالخلق عارضا رفقا ببدنه ، ثم إنه كان لايطيق الصبر مع الخلق إذا جالسهم فإذا ضاق صدره قال « أرحنا بها يابلال (٤) » حتى يعود إلى ماهو قرة عينه (٥) فالضعيف إذا لاحظ أحواله فى مثل هذه الأمور فهو مغرور لأن الأفهام تقصر عن الوقوف على أسرار أفعاله صلى الله عليه وسلم . فشرط المريد العزبة فى الابتداء إلى أن يقوى فى المعرفة ، هذا إذا لم تغلبه الشهوة فإن غلبته الشهوة فليكسرها بالجوع الطويل والصوم الدائم ، فإن لم تنقمع الشهوة بذلك وكان بحيث لايقدر على حفظ العين مثلا وإن قدر على حفظ الفرج فالنكاح له أولى لتسكن الشهوة ، وإلا فهما لم يحفظ عينه لم يحفظ عليه فكره

---

(١) حديث « معاشر الشباب من استطاع منكم النكاح فليتزوج ... الحديث » تقدم فى النكاح (٢) حديث : كان لايشغل قلبه عن الله تعالى جميع مافى الدنيا . تقدم (٣) حديث : كان يضرب يده على فخذ عائشة أحيانا ويقول « كلمينى ياعائشة » لم أجد له أصلا (٤) حديث « أرحنا بها يابلال » تقدم فى الصلاة (٥) حديث : ان الصلاة كانت قرة عينه . تقدم أيضا

ويتفرق عليه همه ، وربما وقع فى بلية لايطيقها . وزنا العين من كبائر الصغائر وهو يؤدى إلى القرب على الكبيرة الفاحشة وهى زنا الفرج . ومن لم يقدر على غض بصره لم يقدر على حفظ فرجه . قال عيسى عليه السلام : إياكم والنظرة فإنها تزرع فى القلب شهوة وكفى بها فتنة . وقال سعيد بن جبير : إنما جاءت الفتنة لداود عليه السلام من قبل النظرة . ولذلك قال لابنه عليه السلام : يابنى امش خلف الأسد والأسود ولاتمش خلف المرأة وقيل ليحيى عليه السلام : مابدء الزنا ؟ قال : النظر والتمنى . وقال الفضيل : يقول إبليس هو قوسى القديمة وسهمى الذى لاأخطئ به يعنى النظر . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس فمن تركها خوفا من الله تعالى أعطاه الله تعالى إيمانا يجد حلاوته فى قلبه [(١)] » وقال صلى الله عليه وسلم « ماتركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء [(٢)] » وقال صلى الله عليه وسلم « اتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت من قبل النساء [(٣)] » وقال تعالى ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ﴾ الآية وقال عليه السلام « لكل ابن آدم حظ من الزنا فالعينان تزنيان وزناهما النظر ، واليدان تزنيان وزناهما البطش ، والرجلان تزنيان وزناهما المشى ، والفم يزنى وزناه القبلة ، والقلب يهم أو يتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه [(٤)] » وقالت أم سلمة : استأذن ابن أم مكتوم الأعمى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا وميمونة جالستان ، فقال عليه السلام « احتجبا » فقلنا : أوليس بأعمى لايبصر ؟ فقال « وأنتما لاتبصرانه ؟ [(٥)] » وهذا يدل على أنه لايجوز للنساء مجالسة العميان كما جرت به العادة فى المآتم والولائم ، فيحرم على الأعمى الخلوة بالنساء ، ويحرم على المرأة مجالسة الأعمى وتحديق النظر إليه لغير حاجة ، وإنما جوز للنساء محادثة الرجال والنظر إليهم لأجل عموم الحاجة ، وإن قدر على حفظ عينه عن النساء ولم يقدر على حفظها عن الصبيان فالنكاح أولى به ، فإن الشر فى الصبيان أكثر ، فإنه لو مال قلبه إلى امرأة أمكنه الوصول إلى استباحتها بالنكاح . والنظر إلى وجه الصبى بالشهوة حرام ، بل كل من يتأثر قلبه بجمال صورة الأمرد بحيث يدرك التفرقة بينه وبين الملتحى لم يحل له النظر إليه .

فإن قلت : كل ذى حس يدرك التفرقة بين الجميل والقبيح لامحالة ولم تزل وجوه الصبيان مكشوفة ؟ فأقول لست أعنى تفرقة العين فقط ، بل ينبغى أن يكون إدراكه التفرقة كإدراكه التفرقة بين شجرة خضراء وأخرى يابسة ، وبين ماء صاف وماء كدر ، وبين شجرة عليها أزهارها وأنوارها وشجرة تساقطت أوراقها ، فإنه يميل إلى إحداهما بعينه وطبعه ولكن ميلا خاليا عن الشهوة ، ولأجل ذلك لايشتهى ملامسة الأزهار والأنوار وتقبيلها ، ولاتقبيل الماء الصافى ، وكذلك الشيبة الحسنة قد تميل العين إليها وتدرك التفرقة بينها وبين الوجه القبيح ولكنها تفرقة لاشهوة فيها . ويعرف ذلك بميل النفس إلى القرب والملامسة . فمهما وجد ذلك الميل فى قلبه وأدرك تفرقة بين الوجه الجميل وبين النبات الحسن والأثواب المنقشة والسقوف المذهبة فنظره نظر شهوة فهو حرام ، وهذا مما يتهاون به الناس ويجرهم ذلك إلى المعاطب وهم لايشعرون .

قال بعض التابعين ما أنا بأخوف من السبع الضارى على الشاب الناسك من غلام أمرد يجلس إليه . وقال

---

(١) حديث « النظرة سهم مسموم من سهام ابليس . الحديث » تقدم أيضاً (٢) حديث « ماتركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء » متفق عليه من حديث أسامة بن زيد (٣) حديث « اتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء فإن أول فتنة بنى اسرائيل كانت فى النساء » أخرجه مسلم من حديث أبى سعيد الخدرى

(٤) حديث « لكل ابن آدم حظه من الزنا فالعينان تزنيان... الحديث » أخرجه مسلم والبيهقى واللفظ له من حديث أبى هريرة واتفق عليه الشيخان من حديث ابن عباس نحوه (٥) حديث أم سلمة : استأذن ابن أم مكتوم الأعمى وأنا وميمونة جالستان فقال « احتجبا » الحديث أخرجه أبو داود والنسائى والترمذى وقال حسن صحيح .

سفيان : لو أنّ رجلا عبث بغلام بين أصبعين من أصابع رجله يريد الشهوة لكان لواطا . وعن بعض السلف قال: سيكون فى هذه الأمة ثلاثة أصناف لوطيون : صنف ينظرون ، وصنف يصافحون ، وصنف يعملون .

فإذن آفة النظر إلى الأحداث عظيمة . فمهما عجز المريد عن غض بصره وضبط فكره فالصواب له أن يكسر شهوته بالنكاح : فرب نفس لايسكن توقانها بالجوع .

وقال بعضهم : غلبت على شهوتى فى بدء إرادتى بما لم أطق فأكثرت الضجيج إلى الله تعالى فرأيت شخصا فى المنام فقال : مالك ؟ فشكوت إليه فقال : تقدم إلى ، فتقدمت إليه فوضع يده على صدرى فوجدت بردها فى فؤادى وجميع جسدى ، فأصبحت وقد زال مابى فبقيت معافى سنة ، ثم عاودنى ذلك فأكثرت الاستغاثة فأتانى شخص فى المنام فقال لى : أتحب أن يذهب ماتجده وأضرب عنقك ؟ قلت : نعم ، فقال : مدّ رقبتك ، فمددتها فجرّد سيفاً من نور فضرب به عنقى فأصبحت وقد زال مابى فبقيت معافى سنة ، ثم عاودنى ذلك أو أشدّ منه فرأيت كأن شخصاً فيما بين جنبى وصدرى يخاطبنى ويقول : ويحك كم تسأل الله تعالى رفع مالايحب رفعه ؟ قال : فتزوجت فانقطع ذلك عنى وولد لى .

ومهما احتاج المريد إلى النكاح فلا ينبغى أن يترك شرط الإرادة فى ابتداء النكاح ودوامه ، أما فى ابتدائه فبالنية الحسنة ، وفى دوامه بحسن الخلق وسداد السيرة والقيام بالحقوق الواجبة - كما فصلنا جميع ذلك فى كتاب آداب النكاح فلا نطول بإعادته - وعلامة صدق إرادته أن ينكح فقيرة متدينة ولايطلب الغنية . قال بعضهم : من تزوج غنية كان له منها خمس خصال ، مغالاة الصداق ، وتسويف الزفاف ، وفوت الخدمة ، وكثرة النفقة . وإذا أراد طلاقها لم يقدر خوفا على ذهاب مالها . والفقيرة بخلاف ذلك . وقال بعضهم : ينبغى أن تكون المرأة دون الرجل بأربع وإلا استحقرته : بالسنّ ، والطول ، والمال ، والحسب ، وأن تكون فوقه بأربع : بالجمال ، والأدب ، والورع والخلق وعلامة صدق الإرادة فى دوام النكاح الخلق .

تزوج بعض المريدين بامرأة فلم يزل يخدمها حتى استحيت المرأة وشكت ذلك إلى أبيها وقالت : قد تحيرت فى هذا الرجل أنا فى منزله منذ سنين ما ذهبت إلى الخلاء قط إلا وحمل الماء قبلى إليه ؟ وتزوج بعضهم امرأة ذات جمال فلما قرب زفافها أصابها الجدرى فاشتد حزن أهلها لذلك خوفا من أن يستقبحها ، فأراهم الرجل أنه قد أصابه رمد ، ثم أراهم أن بصره قد ذهب حتى زفت إليه فزال عنهم الحزن ، فبقيت عنده عشرين سنة ثم توفيت ففتح عينيه حين ذلك ، فقيل له فى ذلك فقال تعمدته لأجل أهلها حتى لايحزنوا ، فقيل له : قد سبقت إخوانك بهذا الخلق . وتزوج بعض الصوفية امرأة سيئة الخلق فكان يصبر عليها فقيل له : لم لاتطلقها ؟ فقال : أخشى أن يتزوجها من لايصبر عليها فيتأذى بها ، فإن تزوج المريد فهكذا ينبغى أن يكون ، وإن قدر على الترك فهو أولى له ، إذا لم يمكنه الجمع بين فضل النكاح وسلوك الطريق وعلم أن ذلك يشغله عن حاله ، كما روى أن محمد بن سليمان الهاشمى كان يملك من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم فى كل يوم ، فكتب إلى أهل البصرة وعلمائها فى امرأة يتزوجها فأجمعوا كلهم على رابعة العدوية رحمها الله تعالى . فكتب إليها : بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد ، فإن الله تعالى قد ملكنى من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم فى كل يوم ، وليس تمضى الأيام والليالى حتى أتمها مائة ألف وأنا أصير لك مثلها ومثلها فأجيبينى . فكتبت إليه : بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد ، فإن الزهد فى الدنيا راحة القلب والبدن والرغبة فيها تورث الهم والحزن ، فإذا أتاك كتابى هذا فهيئ زادك وقدم لمعادك وكن وصى نفسك ولا تجعل الرجال أوصياءك فيقتسموا

ترائك ؛ فصم الدهر وليكن فطرك الموت . وأما أنا فلو أن الله تعالى خولنى أمثال الذى خولك وأضعافه ما سرنى أن أشتغل عن الله طرفة عين .

وهذه إشارة إلى أن كل مايشغل عن الله تعالى فهو نقصان ، فلينظر المريد إلى حاله وقلبه فإن وجده فى العزوبة فهو الأقرب ، وإن عجز عن ذلك فالنكاح أولى به . ودواء هذه العلة ثلاثة أمور : الجوع ، وغض البصر ، والاشتغال بشغل يستولى على القلب . فإن لم تنفع هذه الثلاثة فالنكاح هو الذى يستأصل مادتها فقط . ولهذا كان السلف يبادرون إلى النكاح وإلى تزويج البنات ، قال سعيد بن المسيب : ما أيس إبليس من أحد إلا وأتاه من قبل النساء ، وقال سعيد أيضا ـ وهو ابن أربع وثمانين سنة ، وقد ذهبت إحدى عينيه وهو يعشو بالأخرى ـ ماشىء أخوف عندى من النساء ، وعن عبد الله بن أبى وداعة قال : كنت أجالس سعيد بن المسيب فتفقدنى أياماً فلما أتيته قال أين كنت ؟ قلت : توفيت أهلى فاشتغلت بها ، فقال : هلا أخبرتنا فشهدناها ؟ قال : ثم أردت أن أقوم فقال : هل استحدثت امرأة ؟ فقلت : يرحمك الله تعالى ومن يزوجنى وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة ؟ فقال : أنا ، فقلت : وتفعل ؟ قال : نعم ، ثم حمد الله تعالى وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم وزوجنى على درهمين ـ أو قال ثلاثة ـ قال : فقمت وما أدرى ما أصنع من الفرح ؟ فصرت إلى منزلى وجعلت أفكر ممن آخذ وممن أستدين فصليت المغرب وانصرفت إلى منزلى فأسرجت ، وكنت صائماً فقدمت عشائى لأفطر ـ وكان خبزا وزيتا ـ وإذا بابى يقرع فقلت : من هذا ؟ قال : سعيد ، قال : فأفكرت فى كل إنسان اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب ـ وذلك أنه لم ير أربعين سنة إلا بين داره والمسجد ـ قال : فخرجت إليه فإذا به سعيد بن المسيب فظننت أنه قد بدا له ، فقلت : يا أبا محمد لو أرسلت إلى لأتيتك ؟ فقال : لا ، أنت أحق أن تؤتى ، قلت : فما تأمر ؟ قال : إنك كنت رجلا عزباً فتزوجت فكرهت أن أبيتك الليلة وحدك ، وهذه امرأتك ، وإذا هى قائمة خلفه فى طوله ثم أخذ بيدها فدفعها فى الباب ورده فسقطت المرأة من الحياء ، فاستوثقت من الباب ثم تقدمت إلى القصعة التى فيها الخبز والزيت فوضعتها فى ظل السراج لكيلا تراه ؛ ثم صعدت السطح فرميت الجيران فجاءونى وقالوا : ما شأنك ؟ قلت : ويحكم زوجنى سعيد بن المسيب ابنته اليوم وقد جاء بها الليلة على غفلة فقالوا : أو سعيد زوجك ؟ قلت: نعم ؛ قالوا وهى فى الدار ؟ قلت : نعم ، فنزلوا إليها وبلغ ذلك أمى فجاءت وقالت : وجهى من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها إلى ثلاثة أيام ، قال : فأقمت ثلاثاً ثم دخلت بها ؛ فاذا هى من أجمل النساء وأحفظ الناس لكتاب الله تعالى وأعلمهم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعرفهم بحق الزوج ؟ قال : فمكثت شهراً لا يأتينى سعيد ولا آتيه ؛ فلما كان بعد الشهر أتيته وهو فى حلقته فسلمت عليه فرد على السلام ولم يكلمنى حتى تفرق الناس من المجلس ، فقال: ما حال ذلك الإنسان ؟ فقلت : بخير يا أبا محمد على ما يحب الصديق ويكره العدو ، قال : إن رابك منه أمر فدونك والعصا فانصرفت إلى منزلى فوجه إلى بعشرين ألف درهم . قال عبد الله بن سليمان : وكانت بنت سعيد بن المسيب هذه قد خطبها منه عبد الملك بن مروان لابنه الوليد حين ولاه العهد فأبى سعيد أن يزوجه ، فلم يزل عبد الملك يحتال على سعيد حتى ضربه مائة سوط فى يوم بارد وصب عليه جرة ماء وألبسه جبة صوف . فاستعجال سعيد فى الزفاف تلك الليلة يعرفك غائلة الشهوة ووجوب المبادرة فى الدين إلى تطفئة نارها بالنكاح رضى الله تعالى عنه ورحمه .

بيان فضيلة من يخالف شهوة الفرج والعين

اعلم أن هذه الشهوة هى أغلب الشهوات على الإنسان وأعصاها عند الهيجان على العقل ، إلا أن مقتضاها قبيح

يستحيا منه ويخشى من اقتحامه ، وامتناع أكثر الناس عن مقتضاها إما لعجز أو لخوف أو لحياء أو لمحافظة على جسمه ، وليس فى شىء من ذلك ثواب فإنه إيثار حظ من حظوظ النفس على حظ آخر . نعم من العصمة أن لايقدر ففى هذه العوائق فائدة وهى دفع الإثم ، فإن من ترك الزنا اندفع عنه إثمه بأى سبب كان تركه ؟ وإنما الفضل والثواب الجزيل فى تركه خوفا من الله تعالى مع القدرة وارتفاع الموانع وتيسر الأسباب ، لاسيا عند صدق الشهوة وهذه درجة الصديقين . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « من عشق فعف فكتم فمات فهو شهيد [١] » وقال عليه السلام « سبعة يظلهم الله يوم القيامة فى ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ـ وعد منهم : رجل دعته امرأة ذات جمال وحسب إلى نفسها فقال إنى أخاف الله رب العالمين [٢] » وقصة يوسف عليه السلام وامتناعه من زليخا مع القدرة ومع رغبتها معروفة ، وقد أثنى الله تعالى عليه بذلك فى كتابه العزيز ، وهو إمام لكل من وفق لمجاهدة الشيطان فى هـــذه الشهوة العظيمة .

وروى أن سليمان بن يسار كان من أحسن الناس وجها فدخلت عليه امرأة فسألته نفسه فامتنع عليها وخرج هاربا من منزله وتركها فيه . قال سليمان : فرأيت تلك الليلة فى المنام يوسف عليه السلام وكأنى أقول له أنت يوسف ؟ قال : نعم أنا يوسف الذى هممت وأنت سليمان الذى لم تهم أشار إلى قوله تعالى ﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ وعنه أيضا ماهو أعجب من هذا . وذلك أنه خرج من المدينة حاجا ومعه رفيق له حتى نزلا بالأبواء فقام رفيقه وأخذ السفرة وانطلق إلى السوق ليبتاع شيئاً ، وجلس سليمان فى الخيمة وكان من أجمل الناس وجها وأورعهم ، فبصرت به أعرابية من قلة الجبل وانحدرت إليه حتى وقفت بين يديه ـ وعليها البرقع والقفازان ـ فأسفرت عن وجه لها كأنه فلقة قمر وقالت أهنئنى ؛ فظن أنها تريد طعاما فقام إلى فضلة السفرة ليعطيها فقالت : لست أريد هذا إنما أريد مايكون من الرجل إلى أهله ؟ فقال : جهزك إلى إبليس ؟ ثم وضع رأسه بين ركبتيه وأخذ فى النحيب فلم يزل يبكى فلما رأت منه ذلك سدلت البرقع على وجهها وانصرفت راجعة حتى بلغت أهلها . وجاء رفيقه فرآه وقد انتفخت عيناه من البكاء وانقطع حلقه فقال ما يبكيك ؟ قال : خير ذكرت صبيتى . قال : لا والله إلا أن لك قصة إنما عهدك بصبيتك منذ ثلاث أو نحوها ، فلم يزل به حتى أخبره خبر الأعرابية ، فوضع رفيقه السفرة وجعل يبكى بكاء شديدا فقال سليمان : وأنت مايبكيك ؟ قال : أنا أحق بالبكاء منك لأنى أخشى أن لو كنت مكانك لما صبرت عنها ، فلم يزالا يبكيان ، فلما انتهى سليمان إلى مكة فسعى وطاف ثم أتى الحجر ، فاحتبى بثوبه فأخذته عينه فنام وإذا رجل وسيم طوال له شـــارة حسنة ورائحة طيبة فقـال له سليمان : رحمك الله من أنت ؟ قال له : أنا يوسف ، قال : يوسف الصديق ؟ قال : نعم ، قال : إن فى شأنك وشأن امرأة العزيز لعجبا ! فقال له يوسف : شأنك وشأن صاحبة الأبواء أعجب .

وروى عن عبدالله بن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « انطلق ثلاثة نفر مما كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوا فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار ، فقالوا إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم فقال رجل منهم : اللهم إنك تعلم أنه كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلا ولا مالا ، فنأى بى طلب الشجر يوما فلم أرح عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما

(١) حديث « من عشق فعف فكتم فمات فهو شهيد » أخرجه الحاكم فى التاريخ من حديث ابن عباس وقال أنكر على سويد بن سعيد ، ثم قال : يقال ان يحيى لما ذكر له هذا الحديث قال لو كان لى فرس ورمح غزوت سويدا ورواه الخرائطى من غير طريق سويد بسند فيه نظر (٢) حديث « سبعة يظلهم الله فى ظله ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم

فوجدتهما نائمين فكرهت أن أغبق قبلهما أهلا ومالا ، فلبثت والقدح فى يدى أنتظر استيقاظهما حتى طلع الفجر والصبية يتضاغون حول قدمى فاستيقظا فشربا غبوقهما ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا مانحن فيه من هذه الصخرة ، فانفرجت شيئا لايستطيعون الخروج منه . وقال الآخر : اللهم إنك تعلم أنه كان لى ابنة عم من أحب الناس إلى فراودتها عن نفسها فامتنعت منى ، حتى ألمت بها سنة من السنين ، فجاءتنى فأعطيتها مائة وعشرين دينارا على أن تخلى بينى وبين نفسها ففعلت ، حتى إذا قدرت عليها قالت : اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه ، فتحرجت من الوقوع عليها فانصرفت عنها وهى من أحب الناس إلى وتركت الذهب الذى أعطيتها ، اللهم إن كنت فعلته ابتغاء وجهك ففرج عنا مانحن فيه ، فانفرجت الصخرة عنهم غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها . وقال الثالث : اللهم إنى استأجرت أجراء وأعطيتهم أجورهم غير رجل واحد فإنه ترك الأجر الذى له وذهب فنميت له أجره حتى كثرت منه الأموال ، فجاءنى بعد حين فقال : ياعبد الله أعطنى أجرى ، فقلت كل ماترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق ؛ فقال ياعبدالله أتهزأ بى ؟ فقلت : لا أستهزىء بك فخذه ، فاستاقه وأخذه كله ولم يترك منه شيئا ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون (١) » .

فهذا فضل من تمكن من قضاء هذه الشهوة فعف وقريب منه من تمكن من قضاء شهوة العين ، فإن العين مبدأ الزنا فحفظها مهم ، وهو عسر من حيث إنه قد يستهان به ولا يعظم الخوف منه والآفات كلها منه تنشأ . والنظرة الأولى إذا لم تقصد لايؤاخذ بها والمعاودة يؤاخذ بها قال صلى الله عليه وسلم « لك الأولى وعليك الثانية (١) » أى النظرة . وقال العلاء بن زياد . لاتتبع بصرك رداء المرأة فإن النظر يزرع فى القلب شهوة ، وقلما يخلو الإنسان فى ترداده عن وقوع البصر على النساء والصبيان . فمهما تخايل إليه الحسن تقاضى الطبع المعاودة وعنده ينبغى أن يقرر فى نفسه أن هذه المعاودة عين الجهل ، فإنه إن حقق النظر فاستحسن ثارت الشهوة وعجز عن الوصول فلا يحصل له إلا التحسر ، وإن استقبح لم يلتذ وتألم لأنه قصد الالتذاذ فقد فعل ما آلمه ، فلا يخلو فى كلتا حالتيه عن معصية وعن تألم وعن تحسر . ومهما حفظ العين بهذا الطريق اندفع عن قلبه كثير من الآفات ، فإن أخطأت عينه وحفظ الفرج مع التمكن فذلك يستدعى غاية القوة ونهاية التوفيق . فقد روى عن أبى بكر بن عبدالله المزنى : أن قصابا أولع بجارية لبعض جيرانه فأرسلها أهلها فى حاجة لهم إلى قرية أخرى فتبعها وراودها عن نفسها فقالت له : لاتفعل لأنا أشد حبا لك منك لى ولكنى أخاف الله ، قال : فأنت تخافينه وأنا لا أخافه ! فرجع تائباً فأصابه العطش حتى كاد يهلك فإذا برسول لبعض أنبياء بنى إسرائيل فسأله فقال : مالك ؟ قال : العطش ، قال : تعال حتى ندعو الله بأن تظلنا سحابة حتى ندخل القرية ، قال : مالى من عمل صالح فأدعوا ، فادع أنت ، قال : أنا أدعو وأمن أنت على دعائى فدعا الرسول وأمن هو فأظلتهما سحابة حتى انتهيا إلى القرية ، فأخذ القصاب إلى مكانه فمالت السحابة معه فقال له الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم : زعمت أن ليس لك عمل صالح وأنا الذى دعوت وأنت الذى أمنت فأظلتنا سحابة ثم تبعتك ، لتخبرنى بأمرك ، فأخبره فقال الرسول : إن التائب عند الله تعالى بمكان ليس أحد من الناس بمكانه . وعن أحمد بن سعيد العابد عن أبيه قال : كان عندنا بالكوفة شاب متعبد لازم المسجد الجامع لايكاد يفارقه ، وكان حسن الوجه حسن القامة حسن السمت ، فنظرت إليه امرأة ذات جمال وعقل فشغفت به وطال عليها ذلك ، فلما كان ذات يوم وقفت له على الطريق وهو يريد المسجد فقالت له : يافتى اسمع منى كلمات أكلمك بها ثم اعمل ما شئت ،

---

(١) حديث ابن عمر « انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت الى غار ... فذكر الحديث بطوله رواه البخارى
(٢) حديث « لك الأولى وليست لك الثانية » أى النظرة أخرجه أبو داود والترمذى من حديث بريدة قاله لعلى قال الترمذى حديث غريب

فمضى ولم يكلمها ، ثم وقفت له بعد ذلك على طريقه وهو يريد منزله فقالت له : يافتى اسمع منى كلمات أكلمك بها ، فأطرق مليا وقال لها : هذا موقف تهمة وأنا أكره أن أكون للتهمة موضعا ، فقالت له : والله ماوقفت موقفى هذا جهالة منى بأمرك ولكن معاذ الله أن يتشوف العباد إلى مثل هذا منى ، والذى حملنى على أن لقيتك فى مثل هذا الأمر بنفسى لمعرفتى أن القليل من هذا عند الناس كثير ، وأنتم معاشر العباد على مثال القوارير أدنى شىء يعيبها ، وجملة ماأقول لك إن جوارحى كلها مشغولة بك فالله الله فى أمرى وأمرك ، قال : فمضى الشاب إلى منزله وأراد أن يصلى فلم يعقل كيف يصلى ! فأخذ قرطاسا وكتب كتابا ثم خرج من منزله وإذا بالمرأة واقفة فى موضعها فألقى الكتاب إليها ورجع إلى منزله ، وكان فيه : بسم الله الرحمن الرحيم اعلمى أيتها المرأة أن الله عزوجل إذا عصاه العبد حلم فإذا عاد إلى المعصية مرة أخرى ستره ، فإذا لبس لها ملابسها غضب الله تعالى لنفسه غضبة تضيق منها السموات والأرض والجبال والشجر والدواب فمن ذا يطيق غضبه ، فإن كان ماذكرت باطلا فإنى أذكرك يوما تكون السماء فيه كالمهل وتصير الجبال كالعهن وتجثوا الأمم لصولة الجبار العظيم ، وإنى والله قد ضعفت عن إصلاح نفسى فكيف بإصلاح غيرى ؟ وإن كان ماذكرت حقا فإنى أدلك على طبيب هدى يداوى الكلوم الممرضة والأوجاع المرمضة ذلك الله رب العالمين فاقصديه بصدق المسألة فإنى مشغول عنك بقوله تعالى ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ماللظالمين من حميم ولا شفيع يطاع . يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾ فأين المهرب من هذه الآية ؟ ثم جاءت بعد ذلك بأيام فوقفت له على الطريق فلما رآها من بعيد أراد الرجوع إلى منزله كيلا يراها فقالت : يافتى لاترجع فلا كان الملتقى بعد هذا اليوم أبدا إلا غدا بين يدى الله تعالى ، ثم بكت بكاء شديدا وقالت : أسأل الله الذى بيده مفاتيح قلبك أن يسهل ما قد عسر من أمرك ، ثم إنها تبعته وقالت : امنن على بموعظة أحملها عنك وأوصنى بوصية أعمل عليها ، فقال لها : أوصيك بحفظ نفسك من نفسك وأذكرك قوله تعالى ﴿ وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار ﴾ قال : فأطرقت وبكت بكاء شديدا أشد من بكائها الأول ، ثم إنها أفاقت ولزمت بيتها وأخذت فى العبادة فلم تزل على ذلك حتى ماتت كمدا ، فكان الفتى يذكرها بعد موتها ثم يبكى ، فيقال له : مم بكاؤك وأنت قد أيأستها من نفسك ؟ فيقول : إنى قد ذبحت طمعها فى أول أمرها وجعلت قطيعتها ذخيرة لى عند الله تعالى فأنا أستحى منه أن أسترد ذخيرة ادخرتها عنده تعالى .

تم كتاب كسر الشهوتين بحمدالله تعالى وكرمه . يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب آفات اللسان ، والحمد لله أولا وآخرا وظاهرا وباطنا وصلاته على سيدنا محمد خير خلقه وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء وسلم تسليما كثيرا .

كتاب آفات اللسان

وهو الكتاب الرابع من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أحسن خلق الإنسان وعدله ، وألهمه نور الإيمان فزينه به وجمله ، وعلمه البيان فقدمه به وفضله ، وأفاض على قلبه خزائن العلوم فأكمله ، ثم أرسل عليه سترا من رحمته وأسبله ، ثم أمده بلسان يترجم به عما حواه القلب وعقله ، ويكشف عنه ستره الذى أرسله ، وأطلق بالحق مقوله ، وأفصح بالشكر عما أولاه وخوله ،

من علم حصله ونطق سهله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله الذى أكرمه وبجله ، ونبيه الذى أرسله بكتاب أنزله ، وأسنى فضله وبين سبله ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن قبله ما كبر الله عبد وهلله.

أما بعد : فإن اللسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبة ، فإنه صغير جرمه ، عظيم طاعته وجرمه ، إذا لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان وهما غاية الطاعة والعصيان ، ثم إنه مامن موجود أو معدوم خالق أو مخلوق متخيل أو معلوم مظنون أو موهوم إلا واللسان يتناوله ويتعرض له بإثبات أو نفى ، فإن كل مايتناوله العلم يعرب عنه اللسان إما بحق أو باطل ولا شىء إلا والعلم متناول له وهذه خاصية لاتوجد فى سائر الأعضاء ، فإن العين لا تصل إلى غير الألوان والصور ، والآذان لاتصل إلى غير الأصوات ، واليد لاتصل إلى غير الأجسام ، وكذا سائر الأعضاء . واللسان رحب الميدان ليس له مرد ولا لمجالة منتهى وحد ، له فى الخير مجال رحب وله فى الشر ذيل سحب ، فمن أطلق عذبة اللسان وأهمله مرخى العنان سلك به الشيطان فى كل ميدان وساقه إلى شفا جرف هار إلى أن يضطره إلى البوار ، ولا يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع ، فلا يطلقه إلا فيما ينفعه فى الدنيا والآخرة ويكفه عن كل مايخشى غائلته فى عاجله وآجله وعلم مايحمد فيه إطلاق اللسان أو يذم غامض عزيز والعمل بمقتضاه على من عرفه ثقيل عسير ، وأعصى الأعضاء على الإنسان اللسان فإنه لاتعب فى إطلاقه ولا مؤنة فى تحريكه وقد تساهل الخلق فى الاحتراز عن آفاته وغوائله والحذر من مصائده وحبائله ، وإنه أعظم آلة الشيطان فى استغواء الإنسان . ونحن بتوفيق الله وحسن تدبيره نفصل مجامع آفات اللسان ونذكرها واحدة واحدة بحدودها وأسبابها وغوائلها ، ونعرف طريق الاحتراز عنها ، ونورد ماورد من الأخبار والآثار فى ذمها . فنذكر أولا فضل الصمت ونردفه بذكر آفة الكلام فيما لايعنى ، ثم آفة فضول الكلام ، ثم آفة الخوض فى الباطل ، ثم آفة المراء والجدال ؛ ثم آفة الخصومة ، ثم آفة التقعر فى الكلام بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه وغير ذلك مما جرت به عادة المتفاصحين المدعين للخطابة ، ثم آفة الفحش والسب وبذاءة اللسان ، ثم آفة اللعن إما لحيوان أو جماد أو إنسان ، ثم آفة الغناء بالشعر - وقد ذكرنا فى كتاب السماع مايحرم من الغناء وما يحل فلا نعيده - ثم آفة المزاح ، ثم آفة السخرية والاستهزاء ، ثم آفة إفشاء السر ، ثم آفة الوعد الكاذب ، ثم آفة الكذب فى القول واليمين ، ثم بيان التعاريض فى الكذب ، ثم آفة الغيبة ، ثم آفة النميمة ، ثم آفة ذى اللسانين الذى يتردد بين المتعاديين فيكلم كل واحد بكلام يوافقه ، ثم آفة المدح ، ثم آفة الغفلة عن دقائق الخطأ فى فحوى الكلام لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته ويرتبط بأصول الدين ، ثم آفة سؤال العوام عن صفات الله عز وجل وعن الحروف أهى قديمة أو محدثة ؟ وهى آخر الآفات وما يتعلق بذلك وجملتها عشرون آفة ونسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه .

بيان عظيم خطر اللسان وفضيلة الصمت

اعلم أن خطر اللسان عظيم ولا نجاة من خطره إلا بالصمت ، فلذلك مدح الشرع الصمت وحث عليه فقال صلى الله عليه وسلم « من صمت نجا [1] » وقال عليه السلام « الصمت حكم وقليل فاعله [2] » أى حكمة وحزم . وروى

(١) حديث « من صمت نجا » أخرجه الترمذى من حديث عبد الله بن عمرو بسند فيه ضعف وقال غريب وهو عند الطبرانى بسند جيد (٢) حديث « الصمت حكمة وقليل فاعله » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف والبيهقى فى الشعب من حديث أنس بلفظ « حكم » بدل « حكمة » وقال غلط فيه عثمان بن سعد والصحيح رواية ثابت قال

عبد الله بن سفيان عن أبيه قال : قلت يارسول الله أخبرني عن الإسلام بأمر لاأسأل عنه أحداً بعدك قال « قل آمنت بالله ثم استقم » قال : قلت فما أتقى ؟ فأومأ بيده إلى لسانه [1] وقال عقبة بن عامر . قلت يارسول الله ما النجاة ؟ قال « أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك [2] » وقال سهل بن سعد الساعدى . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من يتكفل لى بما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة [3] » وقال صلى الله عليه وسلم « من وقى شر قبقبه وذبذبه ولقلقه فقد وقى الشر كله [4] » القبقب : هو البطن والذبذب : الفرج ، واللقلق : اللسان . فهذه الشهوات الثلاث بها يهلك أكثر الخلق ، ولذلك اشتغلنا بذكر آفات اللسان لما فرغنا من ذكر آفة الشهوتين البطن والفرج ، وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر مايدخل الناس الجنة فقال « تقوى الله وحسن الخلق » وسئل عن أكثر مايدخل النار فقال « الأجوفان : الفم والفرج [5] » فيحتمل أن يكون المراد بالفم آفات اللسان لأنه محله ، ويحتمل أن يكون المراد به البطن لأنه منفذه ؛ فقد قال معاذ بن جبل : قلت يارسول الله أنؤاخذ بما نقول ؟ فقال « ثكلتك أمك يا ابن جبل وهل يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ؟ [6] » وقال عبد الله الثقفى : قلت يارسول الله حدثنى بأمر أعتصم به فقال « قل ربى الله ثم استقم » قلت يارسول الله ما أخوف ما تخاف على ؟ فأخذ بلسانه وقال « هذا [7] » وروى أن معاذا قال : يارسول الله أى الأعمال أفضل ؟ فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لسانه ثم وضع عليه أصبعه [8] وقال أنس بن مالك : قال صلى الله عليه وسلم « لايستقيم إيمان العبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ، ولا يدخل الجنة رجل لا يأمن جاره بوائقه [9] » وقال صلى الله عليه وسلم « من سره أن يسلم فليلزم الصمت [10] » وعن سعيد بن جبير مرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكر اللسان أى تقول اتق الله فينا فإنك إن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا [11] » وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى أبابكر الصديق رضى الله عنه وهو يمد لسانه بيده فقال له : ما تصنع ياخليفة رسول الله ؟ قال : هذا أوردنى الموارد إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ليس شىء من الجسد إلا يشكو إلى الله اللسان على حدته [12] » وعن ابن مسعود

= والصحيح عن أنس أن لقمان قال ورواه كذلك هو وابن حبان فى كتاب روضة العقلاء بسند صحيح الى أنس (١) حديث سفيان الثقفى : أخبرنى عن الإسلام بأمر لاأسأل عنه أحدا بعدك ... الحديث » أخرجه الترمذى وصححه والنسائى وابن ماجه وهو عند مسلم دون آخر الحديث الذى فيه ذكر اللسان (٢) حديث عقبة بن عامر : قلت يارسول الله ما النجاة ؟ قال « أملك عليك لسانك ... الحديث » أخرجه الترمذى وقال حسن (٣) حديث سهل بن سعد « من يتوكل لى بما بين لحييه ورجليه أتوكل له بالجنة » رواه البخارى (٤) حديث « من وقى شر قبقبه وذبذبه ولقلقه ... الحديث » أخرجه أبو منصور الديلمى من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ « فقد وجبت له الجنة » (٥) حديث : سئل عن أكثر مايدخل الجنة . . الحديث : أخرجه الترمذى وصححه وابن ماجه من حديث أبى هريرة (٦) حديث معاذ : قلت يارسول الله أنؤاخذ بما نقول ؟ فقال « ثكلتك أمك وهل يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم » أخرجه الترمذى وصححه وابن ماجه والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين

(٧) حديث عبد الله الثقفى : قلت يارسول الله حدثنى بأمر أعتصم به ... الحديث . رواه النسائى قال ابن عساكر وهو خطأ والصواب سفيان بن عبد الله الثقفى كما رواه الترمذى وصححه ابن ماجه وقد تقدم قبل هذا بخمسة أحاديث .

(٨) حديث : إن معاذا قال : يارسول الله أى الأعمال أفضل ؟ فأخرج لسانه ثم وضع يده عليه . أخرجه الطبرانى وابن أبى الدنيا فى الصمت قال « أصبعه » مكان « يده » (٩) حديث أنس « لايستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولايستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت والخرائطى فى مكارم الأخلاق بسند فيه ضعف (١٠) حديث « من سره أن يسلم فليلزم الصمت » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت وأبو الشيخ فى فضائل الأعمال والبيهقى فى الشعب من حديث أنس باسناد ضعيف (١١) حديث « إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكر اللسان .. الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد الخدرى رفعه ووقع فى الإحياء عن سعيد بن جبير مرفوعا وإنما هو عن سعيد بن جبير عن أبى سعيد رفعه ورواه الترمذى موقوفا على عمار بن زيد وقال هذا أصح (١٢) حديث : إن عمر اطلع على أبى بكر وهو يمد لسانه فقال : ماتصنع ياخليفة رسول الله =

أنه كان على الصفا يلبي ويقول : يالسان قل خيرا تغنم واسكت عن شر تسلم من قبل أن تندم ، فقيل له يا أبا عبد الرحمن أهذا شيء تقوله أو شيء سمعته ؟ فقال : لا بل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن أكثر خطايا ابن آدم فى لسانه (١) » وقال ابن عمر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كف لسانه ستر الله عورته ومن ملك غضبه وقاه الله عذابه ومن اعتذر إلى الله قبل الله عذره (٢) » وروى أن معاذ بن جبل قال . يارسول الله أوصنى قال « اعبدالله كأنك تراه وعد نفسك فى الموتى وإن شئت أنبأتك بما هو أملك لك من هذا كله ، وأشار بيده إلى لسانه (٣) وعن صفوان بن سليم قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن . الصمت وحسن الخلق (٤) » .

وقال أبو هريرة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت (٥) » وقال الحسن : ذكر لنا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « رحم الله عبداً تكلم فغنم أوسكت فسلم (٦) » وقيل لعيسى عليه السلام : دلنا على عمل ندخل به الجنة قال : لا تنطقوا أبدا ، قالوا : لانستطيع ذلك ، فقال : فلا تنطقوا إلا بخير . وقال سليمان بن داود عليهما السلام : إن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب . وعن البراء بن عازب قال : جاء أعرابى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : دلنى على عمل يدخلنى الجنة ، قال « أطعم الجائع واسق الظمآن وأمر بالمعروف وانه عن المنكر فإن لم تطق فكف لسانك إلا من خير (٧) » وقال صلى الله عليه وسلم « اخزن لسانك إلا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان (٨) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله عند لسان كل قائل فليتق الله امرؤ علم مايقول » وقال عليه السلام « إذا رأيتم المؤمن صموتا وقوراً فادنوا منه فإنه يلقن الحكمة (٩) » وقال ابن مسعود ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الناس ثلاثة : غانم وسالم وشاحب . فالغانم الذى يذكر الله تعالى ، والسالم الساكت ، والشاحب الذى يخوض فى الباطل (١٠) » وقال عليه السلام « إن لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه ثم أمضاه بلسانه ، وإن لسان المنافق أمام قلبه ، فإذا هم بشيء أمضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه (١١) » وقال عيسى عليه السلام : العبادة عشرة أجزاء : تسعة منها فى الصمت

= قال : ان هذا أوردنى الموارد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ليس شيء من الجسد الا يشكو الى الله عز وجل اللسان على حدته » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت وأبو يعلى فى مسنده والدارقطنى فى العلل والبيهقى فى الشعب من رواية أسلم مولى عمر، وقال الدارقطنى ان المرفوع وهم على الدراوردى قال وروى هذا الحديث عن قيس بن أبى حازم عن أبى بكر ولا علة له .

(١) حديث ابن مسعود : أنه كان على الصفا يلبى ويقول : يالسان قل خيرا تغنم .وفيه مرفوعا « ان أكثر خطايا بنى آدم فى لسانه » أخرجه الطبرانى وابن أبى الدنيا فى الصمت والبيهقى فى الشعب بسند حسن (٢) حديث ابن عمر « من كف لسانه ستر الله عورته الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت بسند حسن (٣) حديث : ان معاذا قال أوصنى قال « اعبد الله كأنك تراه ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت والطبرانى ورجاله ثقات وفيه انقطاع (٤) حديث صفوان بن سليم مرفوعا « ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن : الصمت وحسن الخلق » أخرجه ابن أبى الدنيا هكذا مرسلا ورجاله ثقات ورواه أبو الشيخ فى طبقات المحدثين من حديث أبى ذر وأبى الدرداء أيضاً مرفوعا .

(٥) حديث أبى هريرة « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت » متفق عليه . (٦) حديث الحسن : ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « رحم الله عبدا تكلم فغنم أوسكت فسلم » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت والبيهقى فى الشعب من حديث أنس بسند فيه ضعف فإنه من رواية إسماعيل بن عياش عن الحجازيين (٧) حديث البراء : جاء أعرابى فقال دلنى على عمل يدخلنى الجنة قال « أطعم الجائع .. الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا باسناد جيد (٨) حديث « اخزن لسانك الا من خير ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى الصغير من حديث أبى سعيد وله فى المعجم الكبير ولابن حبان فى صحيحه نحوه من حديث أبى ذر (٩) حديث « اذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا فادنوا منه فإنه يلقن الحكمة » أخرجه ابن ماجه من حديث أبى خلاد بلفظ « اذا رأيتم الرجل قد أعطى زهدا فى الدنيا وقلة منطق فاقتربوا منه فإنه يلقى الحكمة » وقد تقدم. (١٠) حديث ابن مسعود « الناس ثلاثة غانم وسالم وشاحب .. الحديث » أخرجه الطبرانى وأبو يعلى من حديث أبى سعيد الخدرى بلفظ « المجالس » وضعفه ابن عدى ولم أجده « ثلاثة » من حديث ابن مسعود (١١) حديث « ان لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم =

وجزء فى الفرار من الناس . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « من كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه ، ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به (١) » .

الآثار : كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يضع حصاة فى فيه يمنع بها نفسه عن الكلام ، وكان يشير إلى لسانه ويقول : هذا الذى أوردنى الموارد . وقال عبد الله بن مسعود : والله الذى لا إله إلا هو ماشىء أحوج إلى طول سجن من لسان . وقال طاوس : لسانى سبع إن أرسلته أكلنى . وقال وهب بن منبه : فى حكمة آل داود ؛ حق على العاقل أن يكون عارفاً بزمانه حافظاً للسانه مقبلا على شأنه . وقال الحسن : ماعقل دينه من لم يحفظ لسانه . وقال الأوزاعى : كتب إلينا عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ أما بعد : فإن من أكثر ذكر الموت رضى من الدنيا باليسير ، ومن عدّ كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه . وقال بعضهم : الصمت يجمع للرجل فضيلتين ؛ السلامة فى دينه والفهم عن صاحبه . وقال محمد بن واسع لمالك بن دينار : يا أبا يحيى حفظ اللسان أشد على الناس من حفظ الدينار والدرهم . وقال يونس بن عبيد : مامن الناس أحد يكون منه لسانه على بال إلا رأيت صلاح ذلك فى سائر عمله . وقال الحسن تكلم قوم عند معاوية رحمه الله والأحنف بن قيس ساكت فقال له : مالك يا أبا بحر لاتتكلم ؟ فقال له : أخشى الله إن كذبت وأخشاك إن صدقت . وقال أبو بكر بن عياش : اجتمع أربعة ملوك ؛ ملك الهند وملك الصين وكسرى وقيصر ، فقال أحدهم : أنا أندم على ماقلت ولا أندم على مالم أقل ، وقال الآخر : إنى إذا تكلمت بكلمة ملكتنى ولم أملكها وإذا لم أتكلم بها ملكتها ولم تملكنى ، وقال الثالث : عجبت للمتكلم إن رجعت عليه كلمته ضرته وإن لم ترجع لم تنفعه . وقال الرابع : أنا على رد مالم أقل أقدر منى على رد ماقلت . وقيل : أقام المنصور بن المعتز لم يتكلم بكلمة بعد العشاء الآخرة أربعين سنة . وقيل : ماتكلم الربيع بن خيثم بكلام الدنيا عشرين سنة وكان إذا أصبح وضع دواة وقرطاسا وقلما فكل ماتكلم به كتبه ثم يحاسب نفسه عند المساء .

فإن قلت : فهذا الفضل الكبير للصمت ماسببه ؟ فاعلم أن سببه كثرة آفات اللسان من الخطأ والكذب والغيبة والنميمة والرياء والنفاق والفحش والمراء وتزكية النفس والخوض فى الباطل والخصومة والفضول والتحريف والزيادة والنقصان وإيذاء الخلق وهتك العورات . فهذه آفات كثيرة وهى سباقة إلى اللسان لاتثقل عليه ولها حلاوة فى القلب وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان ، والخائض فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان فيطلقه بما يحب ويكفه عما لا يحب فإن ذلك من غوامض العلم ـ كما سيأتى تفصيله ـ ففى الخوض خطر وفى الصمت سلامة فلذلك عظمت فضيلته ، هذا مع مافيه من جمع الهم ودوام الوقار والفراغ للفكر والذكر والعبادة والسلامة من تبعات القول فى الدنيا ومن حسابه فى الآخرة . فقد قال الله تعالى : ﴿ مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ .

ويدلك على فضل لزوم الصمت أمر ، وهو أن الكلام أربعة أقسام : قسم هو ضرر محض ، وقسم هو نفع محض ، وقسم فيه ضرر ومنفعة ، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة .

أما الذى هو ضرر محض فلا بد من السكوت عنه ، وكذلك مافيه ضرر ومنفعة لاتفى بالضرر

وأما مالا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول والاشتغال به تضييع زمان وهو عين الخسران ، فلا يبقى إلا القسم الرابع ، فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام وبقى ربع ، وهذا الربع فيه خطر إذ يمتزج بما فيه إثم من دقائق الرياء والتصنع والغيبة وتزكية النفس وفضول الكلام امتزاجا يخفى دركه فيكون الإنسان به مخاطرا . ومن عرف دقائق

= بصوء تدبره بقلبه ... الحديث » لم أجده مرفوعا وإنما رواه الخرائطى فى مكارم الأخلاق من رواية الحسن البصرى قال « كانوا يقولون » (١) حديث « من كثر كلامه كثر سقطه .. الحديث » أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عمر بسند ضعيف وقد رواه أبو حاتم بن حبان فى روضة العقلاء والبيهقى فى الشعب موقوفا على عمر بن الخطاب .

آفات اللسان ـ على ماسنذكره ـ علم قطعا أن ماذكره صلى الله عليه وسلم هو فصل الخطاب حيث قال « من صمت نجا [١] » ، فلقد أوتى والله جواهر الحكم قطعا وجوامع الكلم [٢] ولا يعرف ماتحت آحاد كلماته من بحار المعانى إلا خواص العلماء، وفيما سنذكره من الآفات وعسر الاحتراز عنها مايعرفك حقيقة ذلك إن شاء الله تعالى . ونحن الآن نعدّ آفات اللسان ونبتدئ بأخفها ونترقى إلى الأغلظ قليلا ، ونؤخر الكلام فى الغيبة والنميمة والكذب فإن النظر فيها أطول وهى عشرون آفة فاعلم ذلك ترشد بعون الله تعالى .

الآفة الأولى . الكلام فيما لا يعنيك

اعلم أن أحسن أحوالك أن تحفظ ألفاظك من جميع الآفات التى ذكرناها من الغيبة والنميمة والكذب والمراء والجدال وغيرها ، وتتكلم فيما هو مباح لا ضرر عليك فيه ولا على مسلم أصلا إلا أنك تتكلم بما أنت مستغن عنه ولا حاجة بك إليه ، فإنك مضيع به زمانك ومحاسب على عمل لسانك وتستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير ، لأنك لو صرفت زمان الكلام إلى الفكر ربما كان ينفتح لك من نفحات رحمة الله عند الفكر ما يعظم جدواه ، ولو هللت الله سبحانه وذكرته وسبحته لكان خيرا لك فكم من كلمة يبنى بها قصرا فى الجنة ؟ ومن قدر على أن يأخذ كنزا من الكنوز فأخذ مكانه مدرة لا ينتفع بها كان خاسرا خسرانا مبينا . وهذا مثال من ترك ذكر الله تعالى واشتغل بمباح لا يعنيه فإنه وإن لم يأثم فقد خسر حيث فاته الربح العظيم بذكر الله تعالى ، فإن المؤمن لايكون صمته إلا فكرا ونظره إلا عبرة ونطقه إلا ذكرا [٣] هكذا قال النبى صلى الله عليه وسلم . بل رأس مال العبد أوقاته ومهما صرفها إلى مالا يعنيه ولم يدخر بها ثوابا فى الآخرة فقد ضيع رأس ماله . ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه [٤] » بل ورد ما هو أشدّ من هذا قال أنس : استشهد غلام منايوم أحد فوجدنا على بطنه حجرا مربوطا من الجوع فمسحت أمه عن وجهه التراب وقالت هنيئا لك الجنة يا بنى ، فقال صلى الله عليه وسلم « وما يدريك لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ويمنع ما لا يضره ؟ [٥] » وفى حديث آخر : أنّ النبى صلى الله عليه وسلم فقد كعباً فسأل عنه فقالوا مريض فخرج يمشى حتى أتاه فلما دخل عليه قال « أبشر يا كعب » فقالت أمه هنيئا لك الجنة ياكعب فقال صلى الله عليه وسلم « من هذه المتألية على الله » ؟ قال : هى أمى يارسول الله قال « وما يدريك ياأم كعب لعل كعبا قال ما لا يعنيه أو منع ما لا يغنيه [٦] » ومعناه أنه إنما تتهيأ الجنة لمن لا يحاسب ومن تكلم فيما لا يعنيه حوسب عليه ، وإن كان كلامه غير مباح فلا تتهيأ الجنة مع المناقشة فى الحساب فإنه نوع من العذاب .

---

(١) حديث « من صمت نجا » تقدم (٢) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم أوتى جوامع الكلم أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة وقد تقدم .

الآفة الأولى الكلام فيما لايعنيك

(٣) حديث « المؤمن لايكون صمته الا فكرا ونظره الا عبرة ونطقه الا ذكرا » لم أجد له أصلا وروى محمد بن زكريا العلائى أحد الضعفاء عن ابن عائشة عن أبيه قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ان الله أمرنى أن يكون نطقى ذكرا وصمتى فكرا ونظرى عبرة » (٤) حديث « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » أخرجه الترمذى وقال غريب وابن ماجه من حديث أبى هريرة (٥) حديث : استشهد منا غلام يوم أحد فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع . . الحديث وفيه « لعله كان يتكلم بما لايعنيه ويمنع مالايضره » أخرجه الترمذى من حديث أنس مختصرا وقال غريب ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت بلفظ المصنف بسند ضعيف (٦) حديث : أن النبى صلى الله عليه وسلم فقد كعبا فسأل عنه فقالوا مريض . . . الحديث وفيه « لعل كعبا قال مالايعنيه أو منع مالا يغنيه » أخرجه ابن أبى الدنيا من حديث كعب بن عجرة بإسناد جيد إلا أن الظاهر انقطاعه بين الصحابى وبين الراوى عنه .

وعن محمد بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنّ أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة » فدخل عبد الله بن سلام فقام إليه ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه بذلك وقالوا : أخبرنا بأوثق عمل فى نفسك ترجو به فقال : إنى لضعيف وإن أوثق ما أرجو به الله سلامة الصدر وترك ما لا يعنينى[1] ، وقال أبو ذر : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ثقيل فى الميزان » قلت : بلى يا رسول الله قال « هو الصمت وحسن الخلق وترك ما لا يعنيك[2] » وقال مجاهد . سمعت ابن عباس يقول خمس لهن أحب إلى من الدهم الموقوفة : لا تتكلم فيما لا يعنيك فإنه فضل ولا آمن عليك الوزر ، ولا تتكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعا فإنه رب متكلم فى أمر يعنيه قد وضعه فى غير موضعه فعنت ، ولا تمار حليما ولا سفيها فإنّ الحليم يقليك والسفيه يؤذيك ، واذكر أخاك إذا غاب عنك بما تحب أن يذكرك به ، وأعفه مما تحب أن يعفيك منه ، وعامل أخاك بما تحب أن يعاملك به ، واعمل عمل رجل يعلم أنه مجازى بالإحسان مأخوذ بالاجترام . وقيل للقمان الحكيم : ما حكمتك ؟ قال : لا أسأل عما كفيت ولا أتكلف ما لا يعنينى . وقال مورق العجلى : أمر أنا فى طلبه منذ عشرين سنة لم أقدر عليه ولست بتارك طلبه قالوا : وما هو ؟ قال : السكوت عما لا يعنينى . وقال عمر رضى الله عنه لا تتعرض لما لا يعنيك واعتزل عدوك واحذر صديقك من القوم إلا الأمين ، ولا أمين إلا من خشى الله تعالى ، ولا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ولا تطلعه على سرك ، واستشر فى أمرك الذين يخشون الله تعالى .

وحد الكلام فيما لا يعنيك أن تتكلم بكلام لو سكت عنه لم تأثم ولم تستضر به فى حال ولا مال ، مثاله أن تجلس مع قوم فتذكر لهم أسفارك وما رأيت فيها من جبال وأنهار ، وما وقع لك من الوقائع ، وما استحسنته من الأطعمة والثياب ، وما تعجبت منه من مشايخ البلاد ووقائعهم . فهذه أمور لو سكت عنها لم تأثم ولم تستضر . وإذا بالغت فى الجهاد حتى لم يمتزج بحكايتك زيادة ولا نقصان ، ولا تزكية نفس من حيث التفاخر بمشاهدة الأحوال العظيمة ، ولا اغتياب لشخص ولا مذمة لشىء مما خلقه الله تعالى فأنت مع ذلك كله مضيع زمانك — وأنى تسلم من الآفات التى ذكرناها - ومن جملتها أن تسأل غيرك عما لا يعنيك فأنت بالسؤال مضيع وقتك وقد ألجأت صاحبك أيضاً بالجواب إلى التضييع ، هذا إذا كان الشىء مما يتطرق إلى السؤال عنه آفة ، وأكثر الأسئلة فيها آفات . فإنك تسأل غيرك عن عبادته مثلا فتقول له : هل أنت صائم ؟ فإن قال نعم ، كان مظهراً لعبادته فيدخل عليه الرياء ، وإن لم يدخل سقطت عبادته من ديوان السر ، وعبادة السر تفضل عبادة الجهر بدرجات ، وإن قال : لا ، كان كاذبا ، وإن سكت كان مستحقراً لك وتأذيت به ، وإن احتال لمدافعة الجواب افتقر إلى جهد وتعب فيه . فقد عرضته بالسؤال إما للرياء أو للكذب أو للاستحقار أو للتعب فى حيلة الدفع ، وكذلك سؤالك عن سائر عباداته ، وكذلك سؤالك عن المعاصى وعن كل ما يخفيه ويستحى منه . وسؤالك عما حدّث به غيرك فتقول له : ماذا تقول ؟ وفيم أنت ؟ وكذلك ترى إنسانا فى الطريق فتقول : من أين ؟ فربما يمنعه مانع من ذكره ، فإن ذكره تأذى به واستحيا ، وإن لم يصدق وقع فى الكذب وكنت السبب فيه .. وكذلك تسأل عن مسألة لا حاجة بك إليها والمسئول ربما لم تسمح نفسه بأن يقول لا أدرى ، فيجيب عن غير بصيرة .

---

(١) حديث محمد بن كعب « ان أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة » فدخل عبد الله بن سلام الحديث . وفيه : ان أوثق ما أرجوه سلامة الصدر وترك مالا يعنينى . أخرجه ابن أبى الدنيا هكذا مرسلا وفيه أبو نجيح اختلف فيه .

(٢) حديث أبى ذر « ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ... الحديث » وفيه « هو الصمت وحسن الخلق وترك مالا يعنيك » أخرجه ابن أبى الدنيا بسند منقطع .

ولست أعنى بالتكلم فيما لا يعنى هذه الأجناس ، فإنّ هذا يتطرق إليه إثم أو ضرر . وإنما مثال ما لا يعنى ما روى أنّ لقمان الحكيم دخل على داود عليه السلام وهو يسرد درعا ولم يكن رآها قبل ذلك اليوم، فجعل يتعجب مما رأى فأراد أن يسأله عن ذلك فمنعته حكمته فأمسك نفسه ولم يسأله ، فلما فرغ قام داود ولبسه ثم قال: نعم الدرع للحرب ، فقال لقمان : الصمت حكم وقليل فاعله ، أى حصل العلم به من غير سؤال فاستغنى عن السؤال . وقيل إنه كان يتردد إليه سنة وهو يريد أن يعلم ذلك من غير سؤال . فهذا وأمثاله من الأسئلة إذا لم يكن فيه ضرر وهتك ستر وتوريط فى رياء وكذب هو مما لا يعنى وتركه من حسن الإسلام فهذا حدّه .

وأما سببه الباعث عليه فالحرص على معرفة ما لا حاجة به إليه أو المباسطة بالكلام على سبيل التودد أو تزجية الأوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها .

وعلاج ذلك كله أن يعلم أن الموت بين يديه وأنه مسئول عن كل كلمة ، وأن أنفاسه رأس ماله . وأن لسانه شبكة يقدر أن يقتنص بها الحور العين فإهماله ذلك وتضييعه خسران مبين . هذا علاجه من حيث العلم . وأما من حيث العمل فالعزلة أو أن يضع حصاة فى فيه وأن يلزم نفسه السكوت بها عن بعض ما يعنيه حتى يعتاد اللسان ترك ما لا يعنيه ، وضبط اللسان فى هذا على غير المعتزل شديد جدًا .

الآفة الثانية : فضول الكلام

وهو أيضا مذموم ، وهذا يتناول الخوض فيما لا يعنى والزيادة فيما يعنى على قدر الحاجة ، فإنّ من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر ، ويمكنه أن يجسمه ويقرره ويكرره . ومهما تأدّى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين فالثانية فضول ـ أى فضل عن الحاجة ـ وهو أيضاً مذموم ـ لما سبق ـ وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر . قال عطاء بن أبى رباح : إنّ من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام وكانوا يعدّون فضول الكلام ما عدا كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر ، أو أن تنطق بحاجتك فى معيشتك التى لابد لك منها ، أتنكرون أنّ عليكم حافظين كراماً كاتبين عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، أما يستحى أحدكم إذا نشرت صحيفته التى أملاها صدر نهاره كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه . وعن بعض الصحابة قال : إنّ الرجل ليكلمنى بالكلام لجوابه أشهى إلى من الماء البارد إلى الظمآن فأترك جوابه خيفة أن يكون فضولا . وقال مطرف : ليعظم جلال الله فى قلوبكم فلا تذكروه عند مثل قول أحدكم للكلب والحمار : اللهم اخزه وما أشبه ذلك

واعلم أنّ فضول الكلام لا ينحصر بل المهم محصور فى كتاب الله تعالى قال الله عزوجل ﴿ لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله[1] » فانظر كيف قلب الناس الأمر فى ذلك فأمسكوا فضل المال وأطلقوا فضل اللسان وعن مطرف بن عبد الله عن أبيه قال : قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رهط من بنى عامر

الآفة الثانيـــة فضول الكلام

(١) حديث « طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله » أخرجه البغوى وابن قانع فى معجمى الصحابة والبيهقى من حديث ركب المصرى وقال ابن عبد البر انه حديث حسن وقال البغوى : لا أدرى سمع من النبى صلى الله عليه وسلم أم لا وقال ابن منده مجهول لا نعرف له صحبة ورواه البزار من حديث أنس بسند ضعيف .

فقالوا : أنت والدنا وأنت سيدنا وأنت أفضلنا علينا فضلا ، وأنت أطولنا علينا طولا ، وأنت الجفنة الغراء وأنت وأنت فقال « قولوا قولكم ولا يستهوينكم الشيطان [١] » إشارة إلى أن اللسان إذا أطلق بالثناء ولو بالصدق فيخشى أن يستهويه الشيطان إلى الزيادة المستغنى عنها . وقال ابن مسعود : أنذركم فضول كلامكم ؛ حسب امرئ من الكلام مابلغ به حاجته . وقال مجاهد : إن الكلام ليكتب حتى إن الرجل ليسكت ابنه فيقول ، أبتاع لك كذا وكذا ؟ فيكتب كذابا . وقال الحسن : يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكل بها ملكان كريمان يكتبان أعمالك فاعمل ما شئت وأكثر أو أقل . وروى أن سليمان عليه السلام بعث بعض عفاريته وبعث نفراً ينظرون ما يقول ويخبرونه ، فأخبروه بأنه مر فى السوق فرفع رأسه إلى السماء ثم نظر إلى الناس وهز رأسه فسأله سليمان عن ذلك فقال : عجبت من الملائكة على رءوس الناس ماأسرع مايكتبون ! ومن الذين أسفل منهم ماأسرع مايملون ! وقال إبراهيم التيمى : إذا أراد المؤمن أن يتكلم نظر فإن كان له تكلم وإلا أمسك ، والفاجر إنما لسانه رسلا رسلا . وقال الحسن : من كثر كلامه كثر كذبه ، ومن كثر ماله كثرت ذنوبه ، ومن ساء خلقه عذب نفسه ، وقال عمرو بن دينار : تكلم رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فأكثر فقال له صلى الله عليه وسلم « كم دون لسانك من حجاب » ؟ فقال : شفتاى وأسنانى ، قال « أفما كان لك ما يرد كلامك؟ [٢] » ، وفى رواية : أنه قال ذلك فى رجل أثنى عليه فاستهتر فى الكلام ثم قال : ماأوتى رجل شرا من فضل فى لسانه وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه : إنه ليمنعنى من كثير من الكلام خوف المباهاة . وقال بعض الحكماء : إذا كان الرجل فى مجلس فأعجبه الحديث فليسكت وإن كان ساكتا فأعجبه السكوت فليتكلم . وقال يزيد بن أبى حبيب : من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع فإن وجد من يكفيه فإن فى الاستماع سلامة ، وفى الكلام تزيين وزيادة ونقصان . وقال ابن عمر : إن أحق ماطهر الرجل لسانه . ورأى أبو الدرداء امرأة سليطة فقال : لو كانت هذه خرساء كان خيراً لها . وقال إبراهيم : يهلك الناس خلتان : فضول المال وفضول الكلام . فهذه مذمة فضول الكلام وكثرته وسببه الباعث عليه . وعلاجه ماسبق فى الكلام فيما لايعنى .

الآفة الثالثة : الخوض فى الباطل

وهو الكلام فى المعاصى كحكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات الفساق وتنعم الأغنياء وتجبر الملوك ومراسمهم المذمومة وأحوالهم المكروهة ، فإن كل ذلك مما لايحل الخوض فيه وهو حرام . وأما الكلام فيما لايعنى أو أكثر مما يعنى فهو ترك الأولى ولا تحريم فيه . نعم من يكثر الكلام فيما لا يعنى لا يؤمن عليه الخوض فى الباطل . وأكثر الناس يتجالسون للتفرج بالحديث ولا يعدو كلامهم التفكه بأعراض الناس أو الخوض فى الباطل . وأنواع الباطل لايمكن حصرها لكثرتها وتفننها فلذلك لامخلص منها إلا بالاقتصار على مايعنى من مهمات الدين والدنيا . وفى هذا الجنس تقع كلمات يهلك بها صاحبها وهو يستحقرها ، فقد قال بلال بن الحارث : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله مايظن أن تبلغ به مابلغت فيكتب

---

(١) حديث مطرف بن عبد الله عن أبيه : قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رهط من عامر فقالوا أنت والدنا وأنت سيدنا ... الحديث أخرجه أبو داود والنسائى فى اليوم والليلة بلفظ آخر ورواه ابن أبى الدنيا بلفظ المصنف .

(٢) حديث عمرو بن دينار : تكلم رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فأكثر فقال « كم دون لسانك من حجاب .. الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا هكذا مرسلا ورجاله ثقات .

الله بها رضوانه إلى يوم القيامة ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله مايظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة (١) » وكان علقمة يقول : كم من كلام منعنيه حديث بلال بن الحارث . وقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا (٢) » وقال أبو هريرة إن الرجل ليتكلم بالكلمة مايلقى لها بالا يرفعه الله بها فى أعلى الجنة . وقال صلى الله عليه وسلم « أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضا فى الباطل (٣) » وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وكنا نخوض مع الخائضين ﴾ وبقوله تعالى ﴿ فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذاً مثلهم ﴾ وقال سلمان : أكثر الناس ذنوبا يوم القيامة أكثرهم كلاما فى معصية الله . وقال ابن سيرين : كان رجل من الأنصار يمر بمجلس لهم فيقول لهم توضئوا فإن بعض ماتقولون شر من الحدث . فهذا هو الخوض فى الباطل وهو وراء ماسيأتى من الغيبة والنميمة والفحش وغيرها ، بل هو الخوض فى ذكر محظورات سبق وجودها أو تدبر للتوصل إليها من غير حاجة دينية إلى ذكرها . ويدخل فيه أيضا الخوض فى حكاية البدع والمذاهب الفاسدة وحكاية ماجرى من قتال الصحابة على وجه يوهم الطعن فى بعضهم . وكل ذلك باطل والخوض فيه خوض فى الباطل نسأل الله حسن العون بلطفه وكرمه .

الآفة الرابعة . المراء والجدال

وذلك منهى عنه قال صلى الله تعالى عليه وسلم « لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعدا فتخلفه (٤) » وقال عليه السلام « ذروا المراء فإنه لاتفهم حكمته ولا تؤمن فتنته (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « من ترك المراء وهو محق بنى له بيت فى أعلى الجنة ومن ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت فى ربض الجنة (٦) » وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن أول ماعهد إلى ربى ونهانى عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال (٧) » وقال أيضا « ماضل قوم بعد أن هداهم الله تعالى إلا أوتوا الجدل (٨) » وقال أيضا « لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يدع المراء وإن كان محقا (٩) » وقال أيضا « ست من كن فيه بلغ حقيقة

الآفة الثالثة : الخوض فى الباطل

(١) حديث بلال بن الحارث « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ... الحديث » أخرجه ابن ماجه والترمذى وقال حسن صحيح (٢) حديث « إن الرجل ليتكلم الكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا » أخرجه ابن أبى الدنيا من حديث أبى هريرة بسند حسن وللشيخين والترمذى « إن الرجل ليتكلم بالكلمة لايرى بها بأسا يهوى بها سبعين خريفا فى النار » لفظ الترمذى » وقال حسن غريب (٣) حديث « أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضا فى الباطل » أخرجه ابن أبى الدنيا من حديث قتادة مرسلا ورجاله ثقات ورواه هو والطبرانى موقوفا على ابن مسعود بسند صحيح .

الآفة الرابعة : المراء والمجادلة

(٤) حديث « لاتمار أخاك ولاتمازحه ولاتعده موعدا فتخلفه » أخرجه الترمذى من حديث ابن عباس وقد تقدم .
(٥) حديث « ذروا المراء فإنه لاتفهم حكمته ولاتؤمن فتنته » أخرجه الطبرانى من حديث أبى الدرداء وأبى أمامة وأنس بن مالك وواثلة بن الأسقع بإسناد ضعيف دون قوله « لاتفهم حكمته » ورواه بهذه الزيادة ابن أبى الدنيا موقوفا على ابن مسعود .
(٦) حديث « من ترك المراء وهو محق بنى له بيت فى أعلى الجنة ... الحديث » تقدم فى العلم (٧) حديث أم سلمة « إن أول ماعهد إلى ربى ونهانى عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت والطبرانى والبيهقى بسند ضعيف وقد رواه ابن أبى الدنيا فى المراسيل من حديث عروة بن رويم (٨) حديث « ماضل قوم إلا أوتوا الجدل » أخرجه الترمذى من حديث أبى أمامة وصححه وزاد « بعد هدى كانوا عليه » وتقدم فى العلم وهو عند ابن أبى الدنيا دون هذه الزيادة كما ذكره المصنف (٩) حديث « لايستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يذر المراء وإن كان محقا » أخرجه ابن أبى الدنيا من حديث أبى هريرة بسند ضعيف وهو عند أحمد بلفظ « لايؤمن العبد حتى يترك الكذب فى المزاحة والمراء وإن كان صادقا » .

الإيمان : الصيام فى الصيف ، وضرب أعداء الله بالسيف ، وتعجيل الصلاة فى اليوم الدجن ، والصبر على المصيبات ، وإسباغ الوضوء على المكاره ، وترك المراء وهو صادق [1] ، وقال الزبير لابنه : لا تجادل الناس بالقرآن فإنك لاتستطيعهم ولكن عليك بالسنة . وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه : من جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التنقل . وقال مسلم بن يسار : إياكم والمراء فإنه ساعة جهل العالم وعندها يبتغى الشيطان زلته وقيل : ماضل قوم بعد إذ هداهم الله إلا بالجدل . وقال مالك بن أنس رحمة الله عليه : ليس هذا الجدال من الدين فى شىء . وقال أيضا : المراء يقسى القلوب ويورث الضغائن وقال لقمان لابنه : يابنى لاتجادل العلماء فيمقتوك وقال بلال بن سعد : إذا رأيت الرجل لجوجا ممارياً معجباً برأيه فقد تمت خسارته . وقال سفيان : لو خالفت أخى فى رمانة فقال حلوة وقلت حامضة لسعى بى إلى السلطان . وقال أيضا : صاف من شئت ثم أغضبه بالمراء فليرمينك بداهية تمنعك العيش . وقال ابن أبى ليلى : لاأمارى صاحبى فإما أن أكذبه وإما أن أغضبه . وقال أبو الدرداء : كفى بك إثماً أن لاتزال ممارياً . وقال صلى الله عليه وسلم « تكفير كل لحاء ركعتان [2] » وقال عمر رضى الله عنه : لا تتعلم العلم لثلاث ولا تتركه لثلاث . لاتتعلمه لتمارى به ، ولا لتباهى به ، ولا لترائى به . ولا تتركه حياء من طلبه ، ولازهادة فيه ، ولا رضا بالجهل منه . وقال عيسى عليه السلام من كثر كذبه ذهب جماله ومن لاحى الرجال سقطت مروءته ومن كثر همه سقم جسمه ومن ساء خلقه عذب نفسه . وقيل لميمون بن مهران : مالك لاتترك أخاك عن قلى ؟ قال : لأنى لاأشاريه ولا أماريه . وماورد فى ذم المراء والجدال أكثر من أن يحصى .

وحد المراء هو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه ؛ إما فى اللفظ وإما فى المعنى وإما فى قصد المتكلم . وترك المراء بترك الإنكار والاعتراض . فكل كلام سمعته فإن كان حقا فصدق به ، وإن كان باطلا أو كذبا ولم يكن متعلقاً بأمور الدين فاسكت عنه .

والطعن فى كلام الغير تارة يكون فى لفظه بإظهار خلل فيه من جهة النحو أو من جهة اللغة أو من جهة العربية أو من جهة النظم والترتيب بسوء تقديم أو تأخير . وذلك يكون تارة من قصور المعرفة وتارة يكون بطغيان اللسان . وكيفما كان فلا وجه لإظهار خلله .

وأما فى المعنى : فبأن يقول ليس كما تقول ؛ وقد أخطأت فيه من وجه كذا وكذا .

وأما فى قصده فمثل أن يقول هذا الكلام حق ولكن ليس قصدك منه الحق وإنما أنت فيه صاحب غرض ، وما يجرى مجراه ، وهذا الجنس إن جرى فى مسألة علمية ربما خص باسم الجدل وهو أيضاً مذموم بل الواجب السكوت أو السؤال فى معرض الاستفادة لا على وجه العناد والنكارة ، أو التلطف فى التعريف لا فى معرض الطعن .

وأما المجادلة فعبارة عن قصد إفحام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح فى كلامه ونسبته إلى القصور والجهل فيه ، وآية ذلك أن يكون تنبيهه للحق من جهة أخرى مكروها عند المجادل ، يحب أن يكون هو المظهر له خطأ ليبين به فضل نفسه ونقص صاحبه ، ولا نجاة من هذا إلا بالسكوت عن كل مالا يأثم به لو سكت عنه .

وأما الباعث على هذا فهو الترفع بإظهار العلم والفضل ، والتهجم على الغير بإظهار نقصه . وهما شهوتان باطنتان

---

(١) حديث « ست من كن فيه بلغ حقيقة الإيمان ... الحديث » وفيه « وترك المراء وهو صادق » أخرجه أبو منصور الديلمى من حديث أبى مالك الأشعرى بسند ضعيف بلفظ « خصال من الخير ... الحديث »

(٢) حديث « تكفير كل لحاء ركعتان » أخرجه الطبرانى من حديث أبى أمامة بسند ضعيف .

للنفس قويتان لها . أما إظهار الفضل : فهو من قبل تزكية النفس وهى من مقتضى مافى العبد من طغيان دعوى العلو والكبرياء وهى من صفات الربوبية . وأما تنقيص الآخر فهو من مقتضى طبع السبعية فإنه يقتضى أن يمزق غيره ويقصمه ويصدمه ويؤذيه ؛ وهاتان صفتان مذمومتان مهلكتان ، وإنما قوتهما المراء والجدال . فالمواظب على المراء والجدال مقو لهذه الصفات المهلكة ، وهذا مجاوز حد الكراهة بل هو معصية مهما حصل فيه إيذاء الغير . ولا تنفك المماراة عن الإيذاء وتهييج الغضب وحمل المعترض عليه على أن يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل ، ويقدح فى قائله بكل مايتصور له ؛ فيثور الشجار بين المتمارين كما يثور الهراش بين الكلبين يقصد كل واحد منهما أن يعض صاحبه بما هو أعظم نكاية وأقوى فى إفحامه وإلجامه .

وأما علاجه : فهو بأن يكسر الكبر الباعث له على إظهار فضله ، والسبعية الباعث له على تنقيص غيره ـ كما سيأتى ذلك فى كتاب ذم الكبر والعجب وكتاب ذم الغضب ـ فإن علاج كل علة بإماطة سببها . وسبب المراء والجدال ماذكرناه ، ثم المواظبة عليه تجعله عادة وطبعا حتى يتمكن من النفس ويعسر الصبر عنه .

روى أن أبا حنيفة رحمة الله عليه قال لداود الطائى : لم آثرت الانزواء ؟ قال : لأجاهد نفسى بترك الجدال ، فقال احضر المجالس واستمع مايقال ولا تتكلم ، قال : ففعلت ذلك فما رأيت مجاهدة أشد على منها . وهو كما قال لأن من سمع الخطأ من غيره وهو قادر على كشفه يعسر عليه الصبر عند ذلك جدا . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «من ترك المراء وهو محق بنى الله له بيتاً فى أعلى الجنة » لشدة ذلك على النفس وأكثر مايغلب ذلك فى المذاهب والعقائد ، فإن المراء طبع ؛ فإذا ظن أن له عليه ثوابا اشتد عليه حرصه وتعاون الطبع والشرع عليه ، وذلك خطأ محض . بل ينبغى للإنسان أن يكف لسانه عن أهل القبلة ، وإذا رأى مبتدعا تلطف فى نصحه فى خلوة لا بطريق الجدال ، فإن الجدال يخيل إليه أنها حيلة منه فى التلبيس وأن ذلك صنعة يقدر المجادلون من أهل مذهبه على أمثالها لو أرادوا ، فتستمر البدعة فى قلبه بالجدل وتتأكد فإذا عرف أن النصح لاينفع اشتغل بنفسه وتركه ، وقال صلى الله عليه وسلم « رحم الله من كف لسانه عن أهل القبلة إلا بأحسن مايقدر عليه »(١) وقال هشام بن عروة : كان عليه السلام يردد قوله هذا سبع مرات : وكل من اعتاد المجادلة مدة وأثنى الناس عليه ووجد لنفسه بسببه عزا وقبولا قويت فيه هذه المهلكات ولا يستطيع عنها نزوعا إذا اجتمع عليه سلطان الغضب والكبر والرياء وحب الجاه والتعزز بالفضل . وآحاد هذه الصفات يشق مجاهدتها فكيف بمجموعها ؟

الآفة الخامسة : الخصومة

وهى أيضاً مذمومة وهى وراء الجدال والمراء ؛ فالمراء طعن فى كلام الغير بإظهار خلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير . وإظهار مزية الكياسة والجدال عبارة عن أمر يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها . والخصومة لجاج فى الكلام ليستوفى به مال أو حق مقصود ، وذلك تارة يكون ابتداء وتارة يكون اعتراضا . والمراء لايكون إلا باعتراض على كلام سبق . فقد قالت عائشة رضى الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن أبغض

(١) حديث « رحم الله من كف لسانه عن أهل القبلة إلا بأحسن مايقدر عليه » أخرجه ابن أبى الدنيا بإسناد ضعيف من حديث هشام بن عروة عن النبى صلى الله عليه وسلم مرسلا ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية هشام عن عائشة بلفظ « رحم الله امرأ كف لسانه عن أعراض المسلمين » وهو منقطع وضعيف جدا .

الرجال إلى الله الألد الخصم [١] » وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من جادل فى خصومة بغير علم لم يزل فى سخط الله حتى ينزع [٢] » وقال بعضهم : إياك والخصومة فإنها تمحق الدين . ويقال : ماخاصم ورع قط فى الدين . وقال ابن قتيبة : مر بى بشر بن عبد الله بن أبى بكرة فقال : مايجلسك ههنا ؟ قلت : خصومة بينى وبين ابن عم لى ، فقال : إن لأبيك عندى يدا وإنى أريد أن أجزيك بها ، وإنى والله مارأيت شيئاً أذهب للدين ولا أنقص للمروءة ولا أضيع للذة ولا أشغل للقلب من الخصومة ؟ قال : فقمت لأنصرف فقال لى خصمى : مالك ؟ قلت : لأخاصمك ، قال : إنك عرفت أن الحق لى ، قلت : لا ولكن أكرم نفسى عن هذا قال : فإنى لا أطلب منك شيئا هو لك .

فإن قلت . فإذا كان للإنسان حق فلا بد له من الخصومة فى طلبه أو فى حفظه مهما ظلمه ظالم فكيف يكون حكمه وكيف تذم خصومته ؟ فاعلم أن هذا الذم يتناول الذى يخاصم بالباطل والذى يخاصم بغير علم ؛ مثل وكيل القاضى فإنه قبل أن يتعرف أن الحق فى أى جانب هو يتوكل فى الخصومة من أى جانب كان ؟ فيخاصم بغير علم ويتناول الذى يطلب حقه ، ولكنه لايقتصر على قدر الحاجة بل يظهر اللدد فى الخصومة على قصد التسلط أو على قصد الإيذاء ويتناول الذى يمزج بالخصومة كلمات مؤذية ليس يحتاج إليها فى نصرة الحجة وإظهار الحق ، ويتناول الذى يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره مع أنه قد يستحقر ذلك القدر من المال ، وفى الناس من يصرح به ويقول : إنما قصدى عناده وكسر عرضه ، وإنى إن أخذت منه هذا المال ربما رميت به فى بئر ولا أبالى ، وهذا مقصوده اللدد والخصومة واللجاج وهو مذموم جدا . فأما المظلوم الذى ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد وإسراف وزيادة لجاج على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد وإيذاء ففعله ليس بحرام ، ولكن الأولى تركه ماوجد إليه سبيلا ، فإن ضبط اللسان فى الخصومة على حد الاعتدال متعذر ، والخصومة توغر الصدر وتهيج الغضب ، وإذا هاج الغضب نسى المتنازع فيه وبقى الحقد بين المتخاصمين ، حتى يفرح كل واحد بمساءة صاحبه ويحزن بمسرته ويطلق اللسان فى عرضه ، فمن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المحذورات ، وأقل مافيه تشويش خاطره حتى إنه فى صلاته يشتغل بمحاجة خصمه فلا يبقى الأمر على حد الواجب ، فالخصومة مبدأ كل شر ، وكذا المراء والجدال ، فينبغى أن لايفتح بابه إلا لضرورة ، وعند الضرورة ينبغى أن يحفظ اللسان والقلب عن تبعات الخصومة وذلك متعذر جدا ، فمن اقتصر على الواجب فى خصومته سلم من الإثم ولا تذم خصومته ، إلا أنه إن كان مستغنيا عن الخصومة فيما خاصم فيه لأن عنده مايكفيه فيكون تاركا للأولى ولا يكون آثما ، نعم أقل مايفوته فى الخصومة والمراء والجدال طيب الكلام وماورد فيه من الثواب ، إذ أقل درجات طيب الكلام إظهار الموافقة ، ولا خشونة فى الكلام أعظم من الطعن والاعتراض الذى حاصله إما تجهيل وإما تكذيب ، فإن من جادل غيره أو ماراه أو خاصمه فقد جهله أو كذبه فيفوت به طيب الكلام . وقد قال صلى الله عليه وسلم « يمكنكم من الجنة طيب الكلام وإطعام الطعام [٣] »

الآفة الخامسة الخصومة

(١) حديث عائشة « إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم » أخرجه البخارى وقد تقدم . (٢) حديث أبى هريرة « من جادل فى خصومة بغير علم لم يزل فى سخط الله حتى ينزع » أخرجه ابن أبى الدنيا والأصفهانى فى الترغيب الترهيب وفيه رجاء أبو يحيى ضعفه الجمهور .

(٣) حديث « يمكنكم من الجنة طيب الكلام وإطعام الطعام » أخرجه الطبرانى من حديث جابر وفيه من لاأعرفه وله من حديث هانئ أبى شريح باسناد جيد « يوجب الجنة إطعام الطعام وحسن الكلام » .

وقد قال الله تعالى ﴿ وقولوا للناس حسنا ﴾ وقال ابن عباس رضى الله عنهما : من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه السلام وإن كان مجوسيا إن الله تعالى يقول ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ﴾ وقال ابن عباس أيضاً : لو قال لى فرعون خيرا لرددت عليه . وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن فى الجنة لغرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام وألان الكلام [1] » وروى أن عيسى عليه السلام مر به خنزير فقال . مر بسلام ، فقيل . ياروح الله اتقول هذا لخنزير ؟ فقال . أكره أن أعود لسانى الشر . وقال نبينا عليه السلام « الكلمة الطيبة صدقة [2] » وقال « اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة [3] » وقال عمر رضى الله عنه البر شىء هين وجه طليق وكلام لين . وقال بعض الحكماء : الكلام اللين يغسل الضغائن المستكنة فى الجوارح . وقال بعض الحكماء : كل كلام لا يسخط ربك إلا أنك ترضى به جليسك فلا تكن به عليه بخيلا ، فإنه لعله يعوضك منه ثواب المحسنين . وهذا كله فى فضل الكلام الطيب وتضاده الخصومة والمراء والجدال واللجاج ، فإنه الكلام المستكره الموحش المؤذى للقلب المنغص للعيش المهيج للغضب الموغر للصدر . نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه

الآفة السادسة

التقعر فى الكلام بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه بالتشبيبات والمقدمات وما جرى به عادة المتفاصحين المدعين للخطابة . وكل ذلك من التصنع المذموم ومن التكلف الممقوت الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا وأتقياء أمتى برءاء من التكلف » وقال صلى الله عليه وسلم « إن أبغضكم إلى وأبعدكم منى مجلسا الثرثارون المتفيهقون المتشدقون فى الكلام [4] » وقالت فاطمة رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم يأكلون ألوان الطعام ويلبسون ألوان الثياب ويتشدقون فى الكلام [5] » وقال صلى الله عليه وسلم « ألا هلك المتنطعون - ثلاث مرات - [6] » والتنطع هو التعمق والاستقصاء . وقال عمر رضى الله عنه : شقاشق الكلام من شقاشق الشيطان . وجاء عمر بن سعد بن أبى وقاص إلى أبيه سعد يسأله حاجة ، فتكلم بين يدى حاجته بكلام فقال له سعد : ما كنت من حاجتك بأبعد منك اليوم ! إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يأتى على الناس زمان يتخللون الكلام بألسنتهم كما تتخلل البقرة الكلأ بلسانها [7] » وكأنه أنكر عليه ماقدمه على الكلام من التشبب والمقدمة المصنوعة المتكلفة . وهذا أيضا من آفات اللسان ، ويدخل فيه كل سجع متكلف ، وكذلك التفاصح الخارج عن حد العادة ، وكذلك التكلف بالسجع فى المحاورات ، إذ قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بغرة فى الجنين فقال بعض قوم الجانى : كيف ندى من لاشرب ولا أكل ولاصاح ولا استهل

---

(١) حديث أنس « إن فى الجنة لغرفا يرى ظاهرها من باطنها ... الحديث » أخرجه الترمذى وقد تقدم (٢) حديث « الكلمة الطيبة صدقة » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة (٣) حديث « اتقوا النار ولو بشق تمرة ... الحديث » متفق عليه من حديث عدى بن حاتم وقد تقدم .

الآفة السادسة : التقعر فى الكلام والتشدق

(٤) حديث « ان أبغضكم الى الله وأبعدكم منى مجلسا الثرثارون المتفيهقون المتشدقون » أخرجه أحمد من حديث أبى ثعلبة وهو عند الترمذى من حديث جابر وحسنه بلفظ « ان أبغضكم الى » (٥) حديث فاطمة : شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم . الحديث وفيه « ويتشدقون » أخرجه ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب (٦) حديث « ألا هلك المتنطعون » من حديث ابن مسعود (٧) حديث سعد « يأتى على الناس زمان يتخللون الكلام بألسنتهم كما تتخلل البقرة الكلأ بلسانها » رواه أحمد .

ومثل ذلك بطل ؟ فقال « أسجعاً كسجع الأعراب[1] » وأنكر ذلك لأن أثر التكلف والتصنع بين عليه ، بل ينبغى أن يقتصر فى كل شىء على مقصوده : ومقصود الكلام التفهيم للغرض وما وراء ذلك تصنع مذموم . ولا يدخل فى هذه تحسين ألفاظ الخطابة والتذكير من غير إفراط وإغراب ، فإن المقصود منها تحريك القلوب وتشويقها وقبضها وبسطها ، فلرشاقة اللفظ تأثير فيه فهو لائق به . فاما المحاورات التى تجرى لقضاء الحاجات فلا يليق بها السجع والتشدق والاشتغال به من التكلف المذموم ، ولا باعث عليه إلا الرياء وإظهار الفصاحة والتميز بالبراعة وكل ذلك مذموم يكرهه الشرع ويزجر عنه

الآفة السابعة : الفحش والسب وبذاءة اللسان

وهو مذموم ومنهى عنه ومصدره الخبث واللؤم قال صلى الله عليه وسلم « إياكم والفحش فإن الله تعالى لا يحب الفحش ولا التفحش[2] » ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن تسب قتلى بدر من المشركين فقال « لا تسبوا هؤلاء فإنه لا يخلص إليهم شىء مما تقولون وتؤذون الأحياء ألا إن البذاء لؤم[3] » وقال صلى الله عليه وسلم ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذى[4] » وقال صلى الله عليه وسلم « الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها[5] » وقال صلى الله عليه وسلم « أربعة يؤذون أهل النار فى النار على ما بهم من الأذى يسعون بين الحميم والجحيم يدعون بالويل والثبور : رجل يسيل فوه قيحاً ودماً فيقال له ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى ؟ فيقول إن الأبعد كان ينظر إلى كل كلمة قذعة خبيثة فيستلذها كما يستلذ الرفث[6] » وقال صلى الله عليه وسلم لعائشة ياعائشة « لو كان الفحش رجلا لكان رجل سوء[7] » وقال صلى الله عليه وسلم « البذاء والبيان شعبتان من شعب النفاق[8] » فيحتمل أن يراد بالبيان كشف ما لا يجوز كشفه ، ويحتمل أيضاً المبالغة فى الإيضاح حتى ينتهى إلى حد التكلف ، ويحتمل أيضاً البيان فى أمور الدين وفى صفات الله تعالى ، فإن إلقاء ذلك مجملا إلى أسماع العوام أولى من المبالغة فى بيانه ؛ إذ قد يثور من غاية البيان فيه شكوك ووساوس فإذا أجملت بادرت القلوب إلى القبول ولم تضطرب ، ولكن ذكره مقرونا بالبذاء يشبه أن يكون المراد به المجاهرة بما يستحى الإنسان من بيانه ، فإن الأولى فى مثله الإغماض والتغافل دون الكشف والبيان ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله لا يحب الفاحش

---

(١) حديث : كيف ندى من لا شرب ولا أكل .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث المغيرة بن شعبة وأبى هريرة وأصلها عند البخارى أيضا .

الآفة السابعة : الفحش والسب وبذاءة اللسان

(٢) حديث « إياكم والفحش ... الحديث » أخرجه النسائى فى الكبرى فى التفسير والحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمرو ورواه ابن حبان من حديث أبى هريرة (٣) حديث : النهى عن سب قتلى بدر من المشركين الحديث أخرجه ابن أبى الدنيا من حديث محمد بن على الباقر مرسلا ورجاله ثقات وللنسائى من حديث ابن عباس باسناد صحيح : ان رجلا وقع فى أب للعباس كان فى الجاهلية فلطمه .. الحديث » وفيه « لا تسبوا أمواتنا فتؤذوا أحياءنا » (٤) حديث « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذى » أخرجه الترمذى باسناد صحيح من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب وصححه وروى موقوفا قال الدارقطنى فى العلل والموقوف أصح (٥) حديث « الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها » أخرجه ابن أبى الدنيا وأبو نعيم فى الحلية من حديث عبد الله بن عمرو (٦) حديث « أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى .. الحديث » وفيه « ان الأبعد كان ينظر الى كل كلمة خبيثة فيستلذها كما يستلذ الرفث » أخرجه ابن أبى الدنيا من حديث شفى بن ماتع واختلف فى صحبته فذكره أبو نعيم فى الصحابة وذكره البخارى وابن حبان فى التابعين (٧) حديث « ياعائشة لو كان الفحش رجلا لكان رجل سوء » أخرجه ابن أبى الدنيا من رواية ابن لهيعة عن أبى النضر عن أبى سلمة عنها (٨) حديث « البذاء والبيان شعبتان من النفاق » أخرجه الترمذى وحسنه الحاكم وصححه على شرطهما من حديث أبى أمامة وقد تقدم .

المتفحش الصياح فى الأسواق [١] » وقال جابر بن سمرة : كنت جالساً عند النبي صلى الله عليه وسلم وأبى أمامى فقال صلى الله عليه وسلم « إن الفحش والتفاحش ليسا من الإسلام فى شيء وإن أحسن الناس إسلاما أحاسنهم أخلاقا [٢] » وقال إبراهيم بن ميسرة يقال يؤتى بالفاحش المتفحش يوم القيامة فى صورة كلب أو فى جوف كلب . وقال الأحنف بن قيس : ألا أخبركم بأدوإ الداء : اللسان البذى والخلق الدنى ،

فهذه مذمة الفحش فأما حده وحقيقته فهو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة ، وأكثر ذلك يجرى فى ألفاظ الوقاع وما يتعلق به ، فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه ، وأهل الصلاح يتحاشون عنها بل يكنون عنها . ويدلون عليها بالرموز فيذكرون مايقاربها ويتعلق بها ، وقال ابن عباس : إن الله حيي كريم يعفو ويكنو ، كنى باللمس عن الجماع فالمسيس واللمس والدخول والصحبة كنايات عن الوقاع وليست بفاحشة . وهناك عبارات فاحشة يستقبح ذكرها ويستعمل أكثرها فى الشتم والتعيير ، وهذه العبارات متفاوتة فى الفحش وبعضها أفحش من بعض . وربما اختلف ذلك بعادة البلاد وأوائلها مكروهة وأواخرها محظورة وبينهما درجات يتردد فيها ، وليس يختص هذا بالوقاع ، بل بالكناية بقضاء الحاجة عن البول والغائط أولى من لفظ التغوط والخراء وغيرهما ، فإن هذا أيضا مما يخفى وكل مايخفى يستحيا منه فلا ينبغى أن يذكر ألفاظه الصريحة فإنه فحش ، وكذلك يستحسن فى العادة الكناية عن النساء فلا يقال : قالت زوجتك كذا بل يقال قيل فى الحجرة ، أو من وراء الستر ، أو قالت أم الأولاد . فالتلطف فى هذه الألفاظ محمود والتصريح فيها يفضى إلى الفحش ، وكذلك من به عيوب يستحيا منها فلاينبغى أن يعبر عنها بصريح لفظها كالبرص والقرع والبواسير . بل يقال العارض الذى يشكوه وما يجرى مجراه ، فالتصريح بذلك داخل فى الفحش وجميع ذلك من آفات اللسان .

قال العلاء بن هرون : كان عمر بن عبد العزيز يتحفظ فى منطقه : فخرج تحت إبطه خراج فأتيناه نسأله لنرى مايقول ؟ فقلنا : من أين خرج ؟ فقال : من باطن اليد . والباعث على الفحش إما قصد الإيذاء وإما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق وأهل الخبث واللؤم ومن عادتهم السب . وقال أعرابى لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أوصنى فقال « عليك بتقوى الله وإن امرؤ عيرك بشيء يعلمه فيك فلا تعيره بشيء فيه يكن وباله عليه وأجره لك ولا تسبن شيئا » قال : فما سببت شيئا بعده [٣] وقال عياض بن حمار : قلت يارسول الله إن الرجل من قومى يسبنى وهو دونى هل على من بأس أن أنتصر منه ؟ فقال « المتسابان شيطانان يتعاويان ويتهارجان [٤] » وقال صلى الله عليه وسلم « سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر [٥] » وقال صلى الله عليه وسلم « المستبان ماقالا فعلى البادئ منهما حتى يعتدى المظلوم [٦] » وقال صلى الله عليه وسلم « ملعون من سب والديه [٧] » وفى رواية « من أكبر الكبائر أن يسب الرجل

---

(١) حديث « إن الله لايحب الفاحش ولا المتفحش الصياح فى الأسواق » أخرجه ابن أبى الدنيا من حديث جابر بسند ضعيف وله وللطبرانى من حديث أسامة بن زيد « إن الله لايحب الفاحش المتفحش » وإسناده جيد (٢) حديث جابر بن سمرة « إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام فى شيء ... الحديث » أخرجه أحمد وابن أبى الدنيا بإسناد صحيح .

(٣) حديث : قال أعرابى أوصنى فقال « عليك بتقوى الله وإن امرؤ عيرك بشيء يعلمه فيك فلا تعيره بشيء تعلمه فيه . الحديث » أخرجه أحمد والطبرانى بإسناد جيد من حديث أبى جرى الهجيمى قيل اسمه جابر بن سليم وقيل سليم بن جابر (٤) حديث عياض ابن حمار : قلت يارسول الله الرجل من قومى يسبنى وهو دونى هل على من بأس أن أنتصر منه ؟ فقال « المستبان شيطانان يتكاذبان ويتهاتران » أخرجه أبو داود والطيالسى وأصله عند أحمد (٥) حديث « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » متفق عليه من حديث ابن مسعود (٦) حديث « المستبان ماقالا فعلى البادئ حتى يعتدى المظلوم » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة وقال « مالم يعتد » (٧) حديث « ملعون من سب والديه » وفى رواية « من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه ... الحديث » أخرجه أحمد وأبو يعلى والطبرانى من حديث ابن عباس باللفظ الأول بإسناد جيد واتفق الشيخان على اللفظ الثانى من حديث عبد الله بن عمرو

والديه ، قالوا يارسول الله كيف يسب الرجل والديه ؟ قال « يسب أبا الرجل فيسب الآخر أباه » .

الآفة الثامنة : اللعن

إما لحيوان أو جماد أو إنسان وكل ذلك مذموم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المؤمن ليس بلعان [١] » ، وقال صلى الله عليه وسلم « لا تلاعنوا بلعنة الله ولا بغضبه ولا بجهنم [٢] » ، وقال حذيفة : ماتلاعن قوم قط إلا حق عليهم القول . وقال عمران بن حصين : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره إذ امرأة من الأنصار على ناقة لها فضجرت منها فلعنتها فقال صلى الله عليه وسلم « خذوا ماعليها وأعروها فإنها ملعونة [٣] » ، قال : فكأنى أنظر إلى تلك الناقة تمشى بين الناس لايتعرض لها أحد . وقال أبو الدرداء : مالعن أحد الأرض إلا قالت : لعن الله أعصانا لله : وقالت عائشة رضى الله عنها : سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر وهو يلعن بعض رقيقه فالتفت إليه وقال « يا أبا بكر أصديقين ولعانين كلا ورب الكعبة - مرتين أو ثلاثا - [٤] » ، فأعتق أبو بكر يومئذ رقيقه وأتى النبى صلى الله عليه وسلم وقال : لاأعود . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن اللعانين لايكونون شفعاء ولاشهداء يوم القيامة [٥] » ، وقال أنس : كان رجل يسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعير فلعن بعيره فقال صلى الله عليه وسلم « ياعبدالله لاتسر معنا على بعير ملعون [٦] » ، وقال ذلك إنكارا عليه . واللعن عبارة عن الطرد والإبعاد من الله تعالى ، وذلك غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده من الله عز وجل وهو الكفر والظلم ، بأن يقول لعنة الله على الظالمين وعلى الكافرين ، وينبغى أن يتبع فيه لفظ الشرع فإن فى اللعنة خطرا لأنه حكم على الله عزوجل بأنه قد أبعد الملعون وذلك غيب لايطلع عليه غير الله تعالى ، ويطلع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أطلعه الله عليه .

والصفات المقتضية للعن ثلاثة : الكفر ، والبدعة ، والفسق . وللعن فى كل واحدة ثلاث مراتب .

الأولى : اللعن بالوصف الأعم كقولك لعنة الله الكافرين والمبتدعين والفسقة .

الثانية : اللعن بأوصاف أخص منه كقولك لعنة الله على اليهود والنصارى والمجوس وعلى القدرية والخوارج والروافض ، أوعلى الزناة والظلمة وآكلى الربا ، وكل ذلك جائز . ولكن فى لعن أوصاف المبتدعة خطر لأن معرفة البدعة غامضة ولم يرد فيه لفظ مأثور ، فينبغى أن يمنع منه العوام لأن ذلك يستدعى المعارضة بمثله ويثير نزاعا بين الناس وفسادا .

الثالثة : اللعن للشخص المعين وهذا فيه خطر كقولك : زيد لعنه الله ، وهو كافر أوفاسق أومبتدع ، والتفصيل

الآفة الثامنة : اللعن

(١) حديث « المؤمن ليس بلعان » تقدم حديث ابن مسعود « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ... الحديث » قبل هذا بأحد عشر حديثا وللترمذى وحسنه من حديث ابن عمر « لايكون المؤمن لعانا » (٢) حديث « لاتلاعنوا بلعنة الله .. الحديث » أخرجه الترمذى وأبو داود من حديث سمرة بن جندب قال الترمذى : حسن صحيح (٣) حديث عمران بن حصين : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره إذا امرأة من الأنصار على ناقة لها فضجرت منها فلعنتها ... الحديث » رواه مسلم .

(٤) حديث عائشة : سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضى الله عنه وهو يلعن رقيقه فالتفت إليه فقال « ياأبا بكر لعانين وصديقين ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت وشيخه بشار بن موسى الخفاف ضعفه الجمهور وكان أحمد حسن الرأى فيه . (٥) حديث « إن اللعانين لايكونون شفعاء ولاشهداء يوم القيامة » أخرجه مسلم من حديث أبى الدرداء

(٦) حديث أنس : كان رجل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعير فلعن بعيره فقال ياعبد الله لاتسر معنا على بعير ملعون » أخرجه ابن أبى الدنيا بإسناد جيد

فيه أن كل شخص ثبتت لعنته شرعا فتجوز لعنته كقولك . فرعون لعنه الله ، وأبو جهل لعنه الله ، لأنه قد ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر وعرف ذلك شرعا . وأما شخص بعينه فى زماننا كقولك زيد لعنه الله ، وهو يهودى مثلا فهذا فيه خطر فإنه ربما يسلم فيموت مقربا عند الله فكيف يحكم بكونه ملعونا ؟ .

فإن قلت : يلعن لكونه كافرا فى الحال كما يقال للمسلم : رحمه الله ، لكونه مسلما فى الحال ، وإن كان يتصور أن يرتد ؟ فاعلم أن معنى قولنا رحمه الله : أى ثبته الله على الإسلام الذى هو سبب الرحمة وعلى الطاعة ، ولا يمكن أن يقال ثبت الله الكافر على ما هو سبب اللعنة فإن هذا سؤال للكفر وهو فى نفسه كفر ، بل الجائز أن يقال : لعنه الله إن مات على الكفر ، ولا لعنه الله إن مات على الاسلام . وذلك غيب لا يدرى ، والمطلق متردد بين الجهتين ففيه خطر ، وليس فى ترك اللعن خطر . وإذا عرفت هذا فى الكافر فهو فى زيد الفاسق أو زيد المبتدع أولى ، فلعن الأعيان فيه خطر لأن الأعيان تتقلب فى الأحوال إلا من أعلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه يجوز أن يعلم من يموت على الكفر ، ولذلك عين قوما باللعن فكان يقول فى دعائه على قريش « اللهم عليك بأبى جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة [1] » وذكر جماعة قتلوا على الكفر حتى إنّ من لم يعلم عاقبته كان يلعنه فنهى عنه إذ روى : أنه كان يلعن الذى قتلوا أصحاب بئر معونة فى قنوته شهراً فنزل قوله تعالى « ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون [2] » يعنى أنهم ربما يسلمون فمن أين تعلم أنهم ملعونون ؟ وكذلك من بان لنا موته على الكفر جاز لعنه وجاز ذمه إن لم يكن فيه أذى على مسلم ، فإن كان لم يجز كما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أبابكر رضى الله عنه عن قبر مربه وهو يريد الطائف فقال . هذا قبر رجل كان عاتيا على الله ورسوله وهو سعيد بن العاص ، فغضب ابنه عمرو بن سعيد وقال : يارسول الله هذا قبر رجل كان أطعم للطعام وأضرب للهام من أبى قحافة فقال أبوبكر . يكلمنى هذا يارسول الله بمثل هذا الكلام ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « اكفف عن أبى بكر » فانصرف ثم أقبل على أبى بكر فقال « يا أبابكر إذا ذكرتم الكفار فعموا فإنكم إذا خصصتم غضب الأبناء للآباء » فكف الناس عن ذلك [3] وشرب نعيمان الخمر فحد مرات فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض الصحابة . لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به فقال صلى الله عليه وسلم « لا تكن عونا للشيطان على أخيك [4] » وفى رواية « لا تقل هذا فإنه يحب الله ورسوله » فنهاه عن ذلك ، وهذا يدل على أن

---

(١) حديث « اللهم عليك بأبى جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة » وذكر جماعة متفق عليه من حديث ابن مسعود .

(٢) حديث : أنه كان يلعن الذين قتلوا أصحاب بئر معونة فى قنوته شهرا فنزل قوله تعالى (ليس لك من الأمر شىء) أخرجه الشيخان من حديث أنس : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الذين قتلوا أصحاب بئر معونة ثلاثين صباحا ... الحديث . وفى رواية لهما : قنت شهرا يدعو على رعل وذكوان ... الحديث . ولهما من حديث أبى هريرة : وكان يقول حين يفرغ من صلاة الفجر من القراءة ويكبر ويرفع رأسه ... الحديث « اللهم العن لحيان ورعلا ... الحديث » وفيه « ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما أنزل الله ليس لك من الأمر شىء » لفظ مسلم .

(٣) حديث : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أبا بكر عن قبر مر به وهو يريد الطائف فقال : هذا قبر رجل كان عاتيا على الله وعلى رسوله وهو سعيد بن العاص فغضب ابنه ... الحديث » أخرجه أبو داود فى المراسيل من رواية على بن ربيعة قال : لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة توجه من فوره ذلك إلى الطائف ومعه أبو بكر ومعه ابنا سعيد بن العاص فقال أبو بكر : لمن هذا القبر ؟ قالوا قبر سعيد بن العاص فقال أبوبكر : لعن الله صاحب هذا القبر فإنه كان يحاد الله ورسوله ... الحديث . وفيه « فإذا سببتم المشركين فسبوهم جميعا » (٤) حديث : شرب نعيمان الخمر فحد مرات فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض الصحابة : لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تكن عونا للشيطان على أخيك » وفى رواية : « لا تقل هذا فإنه يحب الله ورسوله » أخرجه ابن عبد البر فى الاستيعاب من طريق الزبير بن بكار من رواية محمد بن عمرو بن حزم مرسلا ومحمد هذا ولد فى حياته صلى الله عليه وسلم وسماه محمدا وكناه عبد الملك وللبخارى من حديث عمر : أن رجلا على عهد =

لعن فاسق بعينه غير جائز . وعلى الجملة فنى لعن الأشخاص خطر فليجتنب ولاخطر فى السكوت عن لعن إبليس مثلا فضلا عن غيره .

فإن قيل . هل يجوز لعن يزيد لأنه قاتل الحسين أو آمر به ؟ قلنا . هذا لم يثبت أصلا فلايجوز أن يقال إنه قتله أو أمر به مالم يثبت ، فضلا عن اللعنة ، لأنه لاتجوز نسبة مسلم إلى كبيرة من غير تحقيق . نعم يجوز أن يقال قتل ابن ملجم عليا وقتل أبو لؤلؤة عمر رضى الله عنهما فإن ذلك ثبت متواترا . فلا يجوز أن يرمى مسلم بفسق أوكفر من غير تحقيق قال صلى الله عليه وسلم « لايرمى رجل رجلا بالكفر ولايرميه بالفسق إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك [1] » وقال صلى الله عليه وسلم « ماشهد رجل على رجل بالكفر إلا باء به أحدهما ، إن كان كافرا فهو كما قال . وإن لم يكن كافراً فقد كفر بتكفيره إياه [2] » وهذا معناه أن يكفره وهو يعلم أنه مسلم فإن ظن أنه كافر ببدعة أو غيرها كان مخطئا لا كافرا . وقال معاذ : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنهاك أن تشتم مسلماً أو تعصى إماما عادلا ، والتعرض للأموات أشد [3] » قال مسروق دخلت على عائشة رضى الله عنها فقالت . مافعل فلان لعنه الله ؟ قلت توفى قالت : رحمه الله ، قلت : وكيف هذا ؟ قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاتسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ماقدموا [4] » وقال عليه السلام « لاتسبوا الأموات فتؤذوا به الأحياء [5] » وقال عليه السلام « أيها الناس احفظونى فى أصحابى وإخوانى وأصهارى ولاتسبوهم ، أيها الناس إذا مات الميت فاذكروا منه خيرا [6] » .

فإن قيل ؛ فهل يجوز أن يقال . قاتل الحسين لعنه الله ؟ أو الآمر بقتله لعنه الله ؟ قلنا . الصواب أن يقال . قاتل الحسين إن مات قبل التوبة لعنه الله ، لأنه يحتمل أن يموت بعد التوبة ، فإن وحشيا قاتل حمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم قتله وهو كافر ، ثم تاب عن الكفر والقتل جميعا ولايجوز أن يلعن ، والقتل كبيرة ولاتنتهى إلى رتبة الكفر ، فإذا لم يقيد بالتوبة وأطلق كان فيه خطر وليس فى السكوت خطر فهو أولى .

وإنما أوردنا هذا لتهاون الناس باللعنة وإطلاق اللسان بها . والمؤمن ليس بلعان فلا ينبغى أن يطلق اللسان باللعنة إلا على من مات على الكفر ، أو على الأجناس المعروفين بأوصافهم دون الأشخاص المعينين . فالاشتغال

= رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اسمه عبد الله وكان يلقب حمارا وكان يضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان قد جلده فى الشراب ، فأتى به يوما فأمر به فجلد فقال رجل من القوم : اللهم العنه ما أكثر مايؤتى به ! فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لاتلعنوه فوالله ماعلمت إلا أنه يحب الله ورسوله » من حديث أبى هريرة فى رجل شرب ولم يسم وفيه « لاتعينوا عليه الشيطان » وفى رواية « لاتكونوا عون الشيطان على أخيكم » (١) حديث « لايرمى رجل رجلا بالكفر ولايرميه بالفسق إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك » متفق عليه والسياق للبخارى من حديث أبى ذر مع تقديم ذكر الفسق (٢) حديث « ماشهد رجل على رجل بالكفر إلا أتى أحدهما إن كان كافرا فهو كما قال ، وإن لم يكن كافرا فقد كفر بتكفيره إياه » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى سعيد بسند ضعيف .

(٣) حديث معاذ « أنهاك أن تشتم مسلما أو تعصى إماما عادلا » أخرجه أبو نعيم فى الحلية فى أثناء حديث له طويل (٤) حديث عائشة « لاتسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ماقدموا » أخرجه البخارى وذكر المصنف فى أوله قصة لعائشة وهو عند ابن المبارك فى الزهد والرقائق مع القصة (٥) حديث « لاتسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء » أخرجه الترمذى من حديث المغيرة بن شعبة ورجاله ثقات إلا أن بعضهم أدخل بين المغيرة وبين زياد بن علاقة رجل لم يسم (٦) حديث « أيها الناس احفظونى فى أصحابى وإخوانى وأصهارى ولاتسبوهم ، أيها الناس إذا مات الميت فاذكروا منه خيرا » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث عياض الأنصارى « احفظونى فى أصحابى وأصهارى » وإسناده ضعيف وللشيخين من حديث أبى سعيد وأبى هريرة « لاتسبوا أصحابى » ولأبى داود والترمذى وقال غريب من حديث ابن عمر « اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساويهم » وللنسائى من حديث عائشة « لاتذكروا موتاكم إلا بخير » وإسناده جيد .

بذكر الله أولى فإن لم يكن فى السكوت سلامة .

قال مكى بن إبراهيم . كنا عند ابن عون فذكروا بلال بن أبى بردة فجعلوا يلعنونه ويقعون فيه وابن عون ساكت فقالوا . ياابن عون إنما نذكره لما ارتكب منك ، فقال : إنما هما كلمتان تخرجان من صحيفتى يوم القيامة : لاإله إلا الله ولعن الله فلانا ، فلأن يخرج من صحيفتى لاإله إلا الله ، أحب إلى من أن يخرج منها لعن الله فلانا . وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أوصنى فقال « أوصيك أن لاتكون لعانا [١] » وقال ابن عمر : إن أبغض الناس إلى الله كل طعان لعان . وقال بعضهم لعن المؤمن يعدل قتله ، وقال حماد بن زيد بعد أن روى هذا لو قلت إنه مرفوع لم أبال ؟ وعن أبى قتادة قال : كان يقال « من لعن مؤمنا فهو مثل أن يقتله [٢] » وقد نقل ذلك حديثا مرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويقرب من اللعن الدعاء على الإنسان بالشر حتى الدعاء على الظالم كقول الإنسان مثلا : لاصحح الله جسمه ولا سلمه الله ومايجرى مجراه ، فإن ذلك مذموم . وفى الخبر « إن المظلوم ليدعو على الظالم حتى يكافئه ثم يبقى للظالم عنده فضلة يوم القيامة [٣] » .

الآفة التاسعة : الغناء والشعر

وقد ذكرنا فى كتاب السماع مايحرم من الغناء ومايحل فلا نعيده ، وأما الشعر فكلام حسنه حسن وقبيحه قبيح إلا أن التجرد له مذموم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير له من أن يمتلئ شعرا [٤] » وعن مسروق أنه سئل عن بيت من الشعر فكرهه فقيل له فى ذلك فقال : أنا أكره أن يوجد فى صحيفتى شعر . وسئل بعضهم عن شيء من الشعر فقال : أجعل مكان هذا ذكرا فان ذكر الله خير من الشعر وعلى الجملة فإنشاد الشعر ونظمه ليس بحرام إذا لم يكن فيه كلام مستكره قال صلى الله عليه وسلم « إن من الشعر لحكمة [٥] » نعم مقصود الشعر المدح والذم والتشبيب ، وقد يدخله الكذب ، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت الأنصارى بهجاء الكفار والتوسع فى المدح [٦] فإنه وإن كان كذبا فإنه لايلتحق فى التحريم بالكذب كقول الشاعر :

ولو لم يكن فى كفه غير روحه ... لجاد بها فليتق الله سائله

فإن هذا عبارة عن الوصف بنهاية السخاء ، فإن لم يكن صاحبه سخيا كان كاذبا ، وإن كان سخيا فالمبالغة من صنعة الشعر فلا يقصد منه أن يعتقد صورته . وقد أنشدت أبيات بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم لو تتبعت لوجد فيها مثل ذلك فلم يمنع منه . قالت عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصف نعله وكنت جالسة

---

(١) حديث قال رجل : أوصنى قال « أوصيك أن لاتكون لعانا » أخرجه أحمد والطبرانى وابن أبى عاصم فى الآحاد والثانى من حديث جرموز الهجيمى وفيه رجل لم يسم أسقط ذكره ابن أبى عاصم (٢) حديث « لعن المؤمن كقتله » متفق عليه من حديث ثابت بن الضحاك (٣) حديث « إن المظلوم ليدعو على الظالم حتى يكافئه ثم يبقى للظالم عنده فضلة يوم القيامة » لم أقف له على أصل والترمذى من حديث عائشة بسند ضعيف « من دعا على من ظلمه فقد انتصر » .

الآفة التاسعة : الغناء والشعر

(٤) حديث « لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير من أن يمتلئ شعرا » أخرجه مسلم من حديث سعد بن أبى وقاص واتفق عليه الشيخان من حديث أبى هريرة نحوه والبخارى من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبى سعيد (٥) حديث « إن من الشعر لحكمة » تقدم فى العلم وفى آداب السماع (٦) حديث أمره حسانا أن يهجو المشركين . متفق عليه من حديث البراء أنه صلى الله عليه وسلم قال لحسان « اهجهم وجبريل معك » .

أغزل ، فنظرت إليه فجعل جبينه يعرق وجعل عرقه يتولد نورا قالت : فبهت فنظر إلى فقال « مالك بهت ؟ » فقلت : يارسول الله نظرت إليك فجعل جبينك يعرق وجعل عرقك يتولد نورا ولو رآك أبو كبير الهذلى لعلم أنك أحق بشعره قال « وما يقول ياعائشة أبو كبير الهذلى » قلت : يقول هذين البيتين :

ومبرأ من كل غبر حيضة ... وفساد مرضعة وداء مغيل

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه ... برقت كبرق العارض المتهلل

قال فوضع صلى الله عليه وسلم ماكان بيده وقام إلى وقبل مابين عينى وقال « جزاك الله خيرا ياعائشة ماسررت منى كسرورى منك (١) » ولما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم يوم حنين أمر للعباس بن مرداس بأربع قلائص فاندفع يشكو فى شعر له وفى آخره :

وماكان بدر ولا حابس ... يسودان مرداس فى مجمع

وماكنت دون امرئ منهما ... ومن تضع اليوم لايرفع

فقال صلى الله عليه وسلم « اقطعوا عنى لسانه » فذهب به أبو بكر الصديق رضى الله عنه حتى اختار مائة من الإبل ثم رجع وهو من أرضى الناس ، فقال له صلى الله عليه وسلم « أتقول فى الشعر ؟ » فجعل يعتذر إليه ويقول : بأبى أنت وأمى إنى لأجد للشعر دبيبا على لسانى كدبيب النمل ثم يقرصنى كما يقرص النمل فلا أجد بداً من قول الشعر ، فتبسم صلى الله عليه وسلم وقال « لاتدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين (٢) » .

الآفة العاشرة : المزاح

وأصله مذموم منهى عنه إلا قدراً يسيرا يستثنى منه قال صلى الله عليه وسلم « لاتمار أخاك ولاتمازحه (٣) » فإن قلت : المماراة فيها إيذاء لأن فيها تكذيباً للأخ والصديق أو تجهيلا له وأما المزاح فطايبة وفيه انبساط وطيب

---

(١) حديث عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصف نعله وكنت أغزل قالت : فنظرت إليه فجعل جبينه يعرق وجعل عرقه يتولد نورا .. الحديث . وفيه إنشاد عائشة لشعر أبى كبير الهذلى :

ومبرأ من كل غبر حيضة ... وفساد مرضعة وداء مغيل

فإذا نظرت إلى أسرة وجهه ... برقت كبرق العارض المتهلل

إلى آخر الحديث رواه البيهقى فى دلائل النبوة .

(٢) حديث : لما قسم الغنائم أمر للعباس بن مرداس بأربع قلائص وفى آخره شعره :

وما كان بدر ولا حابس ... يفوقان مرداس فى مجمع

وما كنت دون امرئ منهما ... ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال صلى الله عليه وسلم « اقطعوا عنى لسانه الحديث » أخرجه مسلم من حديث رافع بن خديج أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن بن بدر والأقرع بن حابس كل إنسان منهم مئة من الإبل وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك ، فقال عباس بن مرداس :

أتجعل نهبى ونهب العبيـد بين عيينة والأقرع

وما كان بدر ولا حابس ... يفوقان مرداس فى مجمع

وما كنت دون امرئ منهما ... ومن تضع اليوم لايرفع

قال فأتم له رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة وزاد فى رواية أعطى علقمة بن علاثة مائة وأما زيادة « اقطعوا عنى لسانه » فليست فى شيء من الكتب المشهورة .

الآفة العاشرة : المزاح

(٣) حديث « لاتمار أخاك ولاتمازحه » أخرجه الترمذى وقد تقدم

قلب فلم ينهى عنه ؟ فاعلم أنّ المنهى عنه الإفراط فيه أو المداومة عليه . أما المداومة فلأنه اشتغال باللعب والهزل فيه واللعب مباح ولكن المواظبة عليه مذمومة ، وأما الإفراط فيه فإنه يورث كثرة الضحك وكثرة الضحك تميت القلب وتورث الضغينة فى بعض الأحوال ، وتسقط المهابة والوقار . فما يخلو عن هذه الأمور فلا يذم كما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إنى لأمزح ولا أقول إلا حقا (١) » إلا أن مثله يقدر على أن يمزح ولا يقول إلا حقا ، وأما غيره إذا فتح باب المزاح كان غرضه أن يضحك الناس كيفما كان . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنّ الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى فى النار أبعد من الثريا (٢) » وقال عمر رضى الله عنه : من كثر ضحكه قلت هيبته ، ومن مزح استخف به ، ومن أكثر من شىء عرف به ، ومن كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه . ولأنّ الضحك يدل على الغفلة عن الآخرة قال صلى الله عليه وسلم « لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا ولضحكتم قليلا (٣) » وقال رجل لأخيه : ياأخى هل أتاك أنك وارد النار ؟ قال : نعم ، قال : فهل أتاك أنك خارج منها ؟ قال : لا ، قال : ففيم الضحك؟ قيل فما رؤى ضاحكا حتى مات . وقال يوسف بن أسباط : أقام الحسن ثلاثين سنة لم يضحك . وقيل أقام عطاء السلمى أربعين سنة لم يضحك ونظر وهيب بن الورد إلى قوم يضحكون فى عيد فطر فقال : إن كان هؤلاء قد غفر لهم فما هذا فعل الشاكرين ؟ وإن كان لم يغفر لهم فما هــــذا فعل الخائفين ؟ وكان عبد الله بن أبى يعلى يقول : اتضحك ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصار ؟ وقال ابن عباس : من أذنب ذنبا وهو يضحك دخل النار وهو يبكى . وقال محمد بن واسع : إذا رأيت فى الجنة رجلا يبكى ألست تعجب من بكائه ؟ قيل : بلى ، قال : فالذى يضحك فى الدنيا ولا يدرى إلى ماذا يصير هو أعجب منه ؟ فهذه آفة الضحك والمذموم منه أن يستغرق ضحكا ، والمحمود منه التبسم الذى ينكشف فيه السنّ ولا يسمع له صوت . وكذلك كان ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) قال القاسم مولى معاوية : أقبل أعرابى إلى النبى صلى الله عليه وسلم على قلوص له صعب فسلم فجعل كلما دنا من النبى صلى الله عليه وسلم ليسأله يفرّ به فجعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحكون منه ، ففعل ذلك مراراً ثم وقصه فقتله فقيل : يارسول الله إن الأعرابى قد صرعه قلوصه وقد هلك ، فقال « نعم ، وأفواهكم ملأى من دمه (٥) » وأما أداء المزاح إلى سقوط الوقار فقد قال عمر رضى الله عنه : من مزح استخف به . وقال محمد بن المنكدر : قالت لى أمى يابنى لاتمازح الصبيان فتهون عندهم وقال سعيد بن العاص لابنه : يابنى لاتمازح الشريف فيحقد عليك ولا الدنىء فيجترئ عليك . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : اتقوا الله وإياكم والمزاح فإنه يورث الضغينة ويجرّ إلى القبيح ، تحدثوا بالقرآن وتجالسوا به فإن ثقل عليكم فحديث حسن من حديث الرجال . وقال عمر رضى الله عنه : أتدرون لم سمى المزاح مزاحا ؟ قالوا لا ، قال : لأنه أزاح صاحبه عن الحق . وقيل : لكل شىء بذور وبذور العداوة المزاح . ويقال : المزاح مسلبة للنهى مقطعة للأصدقاء .

« فإن قلت : قد نقل المزاح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فكيف ينهى عنه ؟ فأقول : إن قدرت

---

(١) حديث « إنى أمزح ولا أقول إلا حقا » تقدم (٢) حديث « إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها فى النار أبعد من الثريا » تقدم (٣) حديث « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » متفق عليه من حديث أنس وعائشة (٤) حديث : كان ضحكه التبسم . تقدم (٥) حديث القاسم مولى معاوية : أقبل أعرابى إلى النبى صلى الله عليه وسلم على قلوص صعب له فسلم فجعل كلما دنا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ليسأله يفر به وجعل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يضحكون منه ففعل ذلك ثلاث مرات ثم وقصه فقتله ، فقيل يارسول الله ان الأعرابى قد صرعه قلوصه فهلك قال « نعم وأفواهكم ملأى من دمه » أخرجه ابن المبارك فى الزهد والرقائق وهو مرسل .

على ماقدر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهو أن تمزح ولاتقول إلا حقا ولاتؤذى قلبا ولاتفرط فيه وتقتصر عليه أحيانا على الندور فلا حرج عليك فيه ، ولكن من الغلط العظيم أن يتخذ الإنسان المزاح حرفة يواظب عليه ويفرط فيه ثم يتمسك بفعل الرسول صلى الله عليه وسلم وهوكمن يدور نهاره مع الزنوج ينظر إليهم وإلى رقصهم ويتمسك بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لعائشة فى النظر إلى رقص الزنوج فى يوم عيد ، وهو خطأ إذ من الصغائر مايصير كبيرة بالإصرار ، ومن المباحات مايصير صغيرة بالإصرار ، فلا ينبغى أن يغفل عن هذا [١] نعم روى أبو هريرة أنهم قالوا يارسول الله إنك تداعبنا فقال « إنى وإن داعبتكم لاأقول إلاحقا [٢] » وقال عطاء : إن رجلا سأل ابن عباس أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح ؟ فقال : نعم ، قال : فما كان مزاحه ؟ قال: كان مزاحه أنه صلى الله عليه وسلم كسا ذات يوم امرأة من نسائه ثوبا واسعا فقال لها « البسيه واحمدى وجرى منه ذيلا كذيل العروس [٣] » وقال أنس : إن النبى صلى الله عليه وسلم كان من أفكه الناس مع نسائه [٤] وروى أنه كان كثير التبسم [٥] وعن الحسن قال : أتت عجوز إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال لها صلى الله عليه وسلم « لايدخل الجنة عجوز » فبكت فقال « إنك لست بعجوز يومئذ ، قال الله تعالى ﴿إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكارا﴾ [٦] » وقال زيد بن أسلم : إن امرأة يقال لها أم أيمن جاءت إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : إن زوجى يدعوك ، قال « ومن هو أهو الذى بعينه بياض ؟ » قالت : والله ما بعينه بياض ! فقال « بلى إن بعينه بياضا » فقالت : لا والله ، فقال صلى الله عليه وسلم « ما من أحد إلا وبعينه بياض » وأراد به البياض المحيط بالحدقة [٧] وجاءت امرأة أخرى فقالت: يا رسول الله احملنى على بعير فقال « بل نحملك على ابن البعير » فقالت ماأصنع به إنه لايحملنى فقال صلى الله عليه وسلم « ما من بعير إلا وهو ابن بعير [٨] » فكان يمزح به وقال أنس : كان لأبى طلحة ابن يقال له أبو عمير وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيهم ويقول « يا أبا عمير مافعل النغير [٩] » لنغير كان يلعب به وهو فرخ العصفور. وقالت عائشة رضى الله عنها : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر فقال « تعالى حتى أسابقك » فشددت درعى على بطنى ثم خططنا خطا فقمنا عليه واستبقنا فسبقنى وقال « هذه مكان ذى المجاز [١٠] » وذلك أنه جاء يوما ونحن بذى المجاز وأنا جارية قد بعثنى أبى بشىء فقال « اعطينيه » فأبيت وسعيت وسعى فى أثرى فلم يدركنى وقالت أيضاً : سابقنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبقته ، فلما حملت اللحم سابقنى فسبقنى وقال « هذه بتلك [١١] » وقالت أيضاً رضى الله عنها . كان عندى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسودة بنت زمعة فصنعت حريرة وجئت به فقلت لسودة : كلى ، فقالت لا أحبه ، فقلت : والله لتأكلن أو لألطخن به وجهك ، فقالت : ما أنا بذائقته ، فأخذت

---

(١) حديث : إذنه لعائشة فى النظر إلى رقص الزنوج فى يوم عيد تقدم . (٢) حديث أبى هريرة : قالوا إنك تداعبنا قال « إنى وإن داعبتكم فلا أقول إلا حقا » أخرجه الترمذى وحسنه . (٣) حديث عطاء : إن رجلاسأل ابن عباس أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح ؟ فقال ابن عباس : نعم ... الحديث فذكر منه قوله لامرأة من نسائه « البسيه واحمدى وجرى منه ذيلا كذيل العروس » لم أقف عليه (٤) حديث أنس: كان من أفكه الناس . تقدم (٥) حديث « أنه كان كثير التبسم » تقدم (٦) حديث الحسن « لايدخل الجنة عجوز » أخرجه الترمذى فى الشمائل هكذا مرسلا وأسنده ابن الجوزى فى الوفاء من حديث أنس بسند ضعيف . (٧) حديث زيد بن أسلم :فى قوله لامرأة يقال لها أم أيمن قالت إن زوجى يدعوك « أهو الذى بعينه بياض... الحديث » أخرجه الزبير بن بكار فى كتاب الفكاهة والمزاح ورواه ابن أبى الدنيا من حديث عبيدة بن سهم الفهرى مع اختلاف

(٨) حديث : قوله لامرأة استحملته « نحملك على ابن البعير ... الحديث » أخرجه أبو داود والترمذى وصححه من حديث أنس بلفظ « أنا حاملك على ولد الناقة » (٩) حديث أنس « أبا عمير مافعل النغير ؟ » متفق عليه وتقدم فى أخلاق النبوة

(١٠) حديث عائشة : فى مسابقته صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر فسبقها وقال « هذه مكان ذى المجاز » لم أجد له أصلا ولم تكن عائشة معه فى غزوة بدر (١١) حديث عائشة : سابقنى فسبقته . أخرجه النسائى وابن ماجه وقد تقدم فى النكاح

بيدى من الصحفة شيئاً منه فلطخت به وجهها ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس بيني وبينها، فخفض لها رسول الله ركبتيه لتستقيد مني فتناولت من الصحفة شيئاً فمسحت به وجهي وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك[1] وروى أن الضحاك بن سفيان الكلابي كان رجلا دميما قبيحا ، فلما بايعه النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن عندى امرأتين أحسن من هذه الحميراء - وذلك قبل أن تنزل آية الحجاب - أفلا أنزل لك عن إحداهما فتتزوجها وعائشة جالسة تسمع ، فقالت : أهي أحسن أم أنت ؟ فقال : بل أنا أحسن منها وأكرم ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم من سؤالها إياه لأنه كان دميما[2] . وروى علقمة عن أبي سلمة أنه كان صلى الله عليه وسلم يدلع لسانه للحسن ابن على عليهما السلام فيرى الصبي لسانه فيهش له فقال له عيينة بن بدر الفزارى : والله ليكونن لى الإبن قد تزوج وبقل وجهه وما قبلته قط ! فقال صلى الله عليه وسلم « إنّ من لا يرحم لا يرحم »[3] فأكثر هذه المطايبات منقولة مع النساء والصبيان وكان ذلك منه صلى الله عليه وسلم معالجة لضعف قلوبهم من غير ميل إلى هزل وقال صلى الله عليه وسلم مرة لصهيب وبه رمد وهو يأكل تمرا « أتأكل التمر وأنت رمد ؟ فقال : إنما آكل بالشق الآخر يارسول الله فتبسم صلى الله عليه وسلم »[4] ، قال بعض الرواة حتى نظرت إلى نواجذه . وروى أن خوات ابن جبير الأنصارى كان جالسا إلى نسوة من بنى كعب بطريق مكة فطلع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا أبا عبد الله ما لك مع النسوة ؟ » فقال يفتلن ضفيرا لجمل لى شرود ، قال : فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته ثم عاد فقال « يا أبا عبد الله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد ؟ »قال : فسكت واستحييت وكنت بعد ذلك أتفرر منه كلما رأيته حياء منه ، حتى قدمت المدينة وبعد ماقدمت المدينة قال : فرآنى فى المسجد يوما أصلى فجلس إلى فطولت فقال « لا تطول فإنى أنتظرك » فلما سلمت قال يا أبا عبدالله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد؟» قال : فسكت واستحييت ، فقام وكنت بعد ذلك أتفرر منه حتى لحقنى يوما وهو على حمار وقد جعل رجليه فى شق واحد فقال « أبا عبد الله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد ؟ » فقلت والذى بعثك بالحق ماشرد منذ أسلمت فقال « الله أكبر الله أكبر اللهم اهد أبا عبد الله » قال : فحسن إسلامه وهداه الله[5] وكان نعيمان الأنصارى رجلا مزاحا فكان يشرب الخمر فى المدينة فيؤتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيضربه بنعله ويأمر أصحابه فيضربونه بنعالهم ، فلما كثر ذلك منه

---

(١) حديث عائشة : فى لطخ وجه سودة بحريرة ولطخ سودة وجه عائشة فجعل صلى الله عليه وسلم يضحك . أخرجه الزبير بن بكار فى كتاب الفكاهة وأبو يعلى بإسناد جيد (٢) حديث : ان الضحاك بن سفيان الكلابى قال عندى امرأتان أحسن من هذه الحميراء أفلا أنزل لك عن إحداهما فتزوجها وعائشة جالسة - قبل أن يضرب الحجاب - فقالت أهى أحسن أم أنت ؟ فقال بل أنا أحسن منها وأكرم فضحك النبي صلى الله عليه وسلم لأنه كان دميما . أخرجه الزبير بن بكار فى الفكاهة من رواية عبد الله بن حسن مرسلا أو معضلا وللدارقطنى نحو هذه القصة مع عيينة بن حصن الفزارى بعد نزول الحجاب من حديث أبى هريرة .

(٣) حديث أبي سلمة عن أبى هريرة : أنه صلى الله عليه وسلم كان يدلع لسانه للحسن بن على فيرى الصبي فيهش إليه ، فقال عيينة بن بدر الفزارى : والله ليكونن لى الابن رجلا قد خرج وجهه وما قبلته قط ! فقال « ان من لا يرحم لا يرحم » أخرجه أبو يعلى من هذا الوجه دون مافى آخره من قول عيينة بن حصن بن بدر ونسب إلى جده . وحكى الخطيب فى المبهمات قولين فى قائل ذلك أحدهما : أنه عيينة بن حصن ، والثانى : أنه الاقرع بن حابس . وعند مسلم من رواية الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة أن الأقرع بن حابس أبصر النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الحسن فقال ان لى عشرة من الولد ماقبلت واحدا منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من لا يرحم لا يرحم » (٤) حديث : قال لصهيب وبه رمد « أتأكل التمر وأنت رمد ؟ » فقال : انما آكل على الشق الآخر ، فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم . أخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث صهيب ورجاله ثقات

(٥) حديث : ان خوات بن جبير كان جالسا الى نسوة من بنى كعب بطريق مكة فطلع عليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال « يا أبا عبد الله مالك مع النسوة ؟ » فقال يفتلن ضفيرا لجمل لى شرود ... الحديث ، أخرجه الطبرانى فى الكبير من رواية زيد بن أسلم عن خوات بن جبير مع اختلاف ورجاله ثقات ، وأدخل بعضهم بين زيد وبين خوات : ربيعة بن عمرو

قال له رجل من الصحابة : لعنك الله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا تفعل فإنه يحب الله ورسوله » وكان لا يدخل المدينة رسل ولا طرفة إلا اشترى منها ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فيقول : يارسول الله هذا قد اشتريته لك وأهديته لك فإذا جاء صاحبها يتقاضاه بالثمن جاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: يارسول الله أعطه ثمن متاعه ، فيقول له صلى الله عليه وسلم « أو لم تهده لنا » فيقول : يارسول الله إنه لم يكن عندي ثمنه وأحببت أن تأكل منه ، فيضحك النبي صلى الله عليه وسلم ويأمر لصاحبه بثمنه [١] فهذه مطايبات يباح مثلها على الندور لا على الدوام والمواظبة عليها هزل مذموم وسبب للضحك المميت للقلب .

الآفة الحادية عشر : السخرية والاستهزاء

وهذا محرم مهما كان مؤذيا كما قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ﴾ ومعنى السخرية الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه : وقد يكون ذلك بالمحاكاة فى الفعل والقول ، وقد يكون بالإشارة والإيماء ، وإذا كان بحضرة المستهزأ به لم يسم ذلك غيبة وفيه معنى الغيبة . قالت عائشة رضى الله عنها : حاكيت إنسانا فقال لى النبي صلى الله عليه وسلم « والله ما أحب أنى حاكيت إنسانا ولى كذا وكذا [٢] » وقال ابن عباس فى قوله تعالى ﴿ يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ إن الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمن ، والكبيرة القهقهة بذلك . وهذا إشارة إلى أن الضحك على الناس من جملة الذنوب والكبائر . وعن عبدالله بن زمعة أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب فوعظهم فى ضحكهم من الضرطة فقال « علام يضحك أحدكم مما يفعل [٣] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال هلم هلم فيجيء بكربه وغمه فإذا أتاه أغلق دونه ، ثم يفتح له باب آخر فيقال هلم هلم فيجيء بكربه وغمه فإذا أتاه أغلق دونه فما يزال كذلك حتى إن الرجل ليفتح له الباب فيقال له هلم هلم فلا يأتيه [٤] » وقال معاذ بن جبل : قال النبي صلى الله عليه وسلم « من عير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله [٥] » وكل هذا يرجع إلى استحقار الغير والضحك عليه استهانة به واستصغاراً له . وعليه نبه قوله تعالى ﴿ عسى أن يكونوا خيرا منهم ﴾ أى لا تستحقره استصغارا فلعله خير منك .

وهذا إنما يحرم فى حق من يتأذى به ، فأما من جعل نفسه مسخرة وربما فرح من أن يسخر به كانت السخرية فى حقه من جملة المزاح ـ وقد سبق مايذم منه وما يمدح ـ وإنما المحرم استصغار يتأذى به المستهزأ به لما

---

(١) حديث : كان نعيمان رجلا مزاحا وكان يشرب الخمر فيؤتى به الى النبي صلى الله عليه وسلم فيضربه ... الحديث . وفيه : أنه كان يشترى الشيء ويهديه الى النبي صلى الله عليه وسلم ثم يجيء بصاحبه فيقول أعطه ثمن متاعه .. الحديث . أخرجه الزبير بن بكار فى الفكاهة ومن طريقه ابن عبد البر من رواية محمد بن حزم مرسلا وقد تقدم أوله .

الآفة الحادية عشرة : السخرية والاستهزاء

(٢) حديث عائشة : حكيت انسانا فقال لى النبي صلى الله عليه وسلم « مايسرنى أنى حاكيت انسانا ولى كذا وكذا » أخرجه أبو داود والترمذى وصححه (٣) حديث عبد الله بن زمعة : وعظهم فى الضحك من الضرطة وقال « علام يضحك أحدكم مما يفعل » متفق . (٤) حديث « ان المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال هلم فيجيء بكربه وغمه فإذا جاء أغلق دونه ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت من حديث الحسن مرسلا ورويناه فى تماليات النجيب من رواية أبى هدبة أحد الهالكين عن أنس (٥) حديث معاذ بن جبل « من عير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله » أخرجه الترمذى دون قوله « قد تاب منه » وقال حسن غريب وليس اسناده بمتصل قال أحمد بن منيع قالوا « من ذنب قد تاب منه » .

فيه من التحقير والتهاون . وذلك تارة بأن يضحك على كلامه إذا تخبط فيه ولم ينتظم، أو على أفعاله إذا كانت مشوشة كالضحك على خطه وعلى صنعته ، أو على صورته وخلقته إذا كان قصيرا أو ناقصا لعيب من العيوب . فالضحك من جميع ذلك داخل في السخرية المنهى عنها .

الآفة الثانية عشر : إفشاء السر

وهو منهى عنه لما فيه من الإيذاء والتهاون بحق المعارف والأصدقاء . قال النبي صلى الله عليه وسلم « إذا حدث الرجل الحديث ثم التفت فهى أمانة (١) » وقال مطلقا « الحديث بينكم أمانة (٢) » وقال الحسن : إن من الخيانة أن تحدث بسر أخيك . ويروى أن معاوية رضى الله عنه أسر إلى الوليد بن عتبة حديثه فقال لأبيه : ياأبت إن أمير المؤمنين أسر إلى حديثا وما أراه يطوى عنك مابسطه إلى غيرك ؟ قال : فلا تحدثنى به فإن من كتم سره كان الخيار إليه ، ومن أفشاه كان الخيار عليه قال : فقلت يا أبت وإن هذا ليدخل بين الرجل وبين ابنه ؟ فقال : لاوالله يابنى ولكن أحب أن لاتذلل لسانك بأحاديث السر ، قال : فأتيت معاوية فأخبرته فقال : ياوليد أعتقك أبوك من رق الخطأ فإفشاء السر خيانة .

وهو حرام إذا كان فيه إضرار . ولؤم إن لم يكن فيه إضرار . وقد ذكرنا مايتعلق بكتمان السر فى كتاب آداب الصحبة فأغنى عن الإعادة .

الآفة الثالثة عشر : الوعد الكاذب

فإن اللسان سباق إلى الوعد ، ثم النفس ربما لاتسمح بالوفاء فيصير الوعد خلفا وذلك من أمارات النفاق قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم العدة عطية (٣) وقال صلى الله عليه وسلم الوأي مثل الدين أو أفضل (٤) » والوأى : الوعد . وقد أثنى الله تعالى على نبيه اسمعيل عليه السلام فى كتابه العزيز فقال ﴿ إنه كان صادق الوعد ﴾ قيل إنه وعد إنسانا فى موضع فلم يرجع إليه ذلك الإنسان بل نسى ، فبقى اسمعيل اثنين وعشرين يوما فى انتظاره . ولما حضرت عبد الله بن عمر الوفاة قال : إنه كان خطب إلى ابنتى رجل من قريش وقد كان إليه منى شبه الوعد ، فوالله لا ألقى الله بثلث النفاق ! أشهدكم أنى قد زوجته ابنتى . وعن عبد الله بن أبى الخنساء قال : بايعت النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث وبقيت له بقية فواعدته أن آتيه بها فى مكانه ذلك فنسيت يومى والغد فأتيته اليوم الثالث وهو فى مكانه ، فقال « يافتى لقد شققت على أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك (٥) » وقيل

الآفة الثانية عشرة : إفشاء السر

(١) حديث « اذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهى أمانة » أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه من حديث جابر .
(٢) حديث « الحديث بينكم أمانة » أخرجه ابن أبى الدنيا من حديث ابن شهاب مرسلا .

الآفة الثالثة عشرة : الوعد الكاذب

(٣) حديث « العدة عطية » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث قباث بن أشيم بسند ضعيف وأبو نعيم فى الحلية من حديث ابن مسعود ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت والخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث الحسن مرسلا (٤) حديث « الوأى مثل الدين أو أفضل » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت من رواية ابن لهيعة مرسلا وقال الوأى يعنى الوعد، ورواه أبومنصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث على بسند ضعيف (٥) حديث عبد الله بن أبى الخنساء : بايعت النبى صلى الله عليه وسلم فوعدته أن آتيه بها فى مكانه ذلك فنسيت يومى والغد فأتيته اليوم الثالث وهو فى مكانه فقال « يابنى قد شققت على أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك » رواه أبو داود واختلف فى اسناده وقال ابن مهدى ما أظن ابراهيم بن طهمان الا أخطأ فيه .

لإبراهيم : الرجل يواعد الرجل الميعاد فلا يجيء ، قال : ينتظره إلى أن يدخل وقت الصلاة التى تجيء . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا وعد وعدا قال « عسى [(١)] » وكان ابن مسعود لا يعد وعدا إلا ويقول إن شاء الله وهو الأولى .

ثم إذا فهم مع ذلك الجزم فى الوعد فلا بد من الوفاء إلا أن يتعذر ، فإن كان عند الوعد عازما على أن لا يفى فهذا هو النفاق . وقال أبو هريرة : قال النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « ثلاث من كن فيه فهو منافق ، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان [(٢)] » وقال عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أربع من كن فيه كان منافقا ومن كانت فيه خلة منهن كان فيه خلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر [(٣)] » وهذا ينزل على عزم الخلف أو ترك الوفاء من غير عذر ، فأما من عزم على الوفاء فعن له عذر منعه من الوفاء لم يكن منافقا وإن جرى عليه ما هو صورة النفاق ، ولكن ينبغى أن يحترز من صورة النفاق أيضا كما يحترز من حقيقته ، ولا ينبغى أن يجعل نفسه معذورا من غير ضرورة حاجزة فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان وعد أبا الهيثم بن التيهان خادما ؛ فأتى بثلاثة من السبى فأعطى اثنين وبقى واحدا ، فأتت فاطمة رضى الله عنها تطلب منه خادما وتقول : ألا ترى أثر الرحى بيدى ؟ فذكر موعده لأبى الهيثم فجعل يقول « كيف بموعدى لأبى الهيثم ؟ [(٤)] » فآثره به على فاطمة ـ لما كان قد سبق من موعده له ـ مع أنها كانت تدير الرحى بيدها الضعيفة . ولقد كان صلى الله عليه وسلم جالسا يقسم غنائم هوازن بحنين فوقف عليه رجل من الناس فقال : إن لى عندك موعدا يا رسول الله قال « صدقت ، فاحتكم ما شئت » فقال : أحتكم ثمانين ضائنة وراعيها ، قال « هى لك » وقال « احتكمت يسيرا [(٥)] » ولصاحبة موسى عليه السلام التى دلته على عظام يوسف كانت أحزم منك وأجزل حكما منك حين حكمها موسى عليه السلام فقالت حكمى أن تردنى شابة وأدخل معك الجنة ، قيل فكان الناس يضعفون ما احتكم به حتى جعلا مثلا فقيل : أشح من صاحب الثمانين والراعى . وقد قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « ليس الخلف أن يعد الرجل الرجل وفى نيته أن يفى [(٦)] » وفى لفظ آخر « إذا وعد الرجل أخاه وفى نيته أن يفى فلم يجد فلا إثم عليه » .

الآفة الرابعة عشرة : الكذب فى القول واليمين

وهو من قبائح الذنوب وفواحش العيوب . قال اسمعيل بن واسط : سمعت أبا بكر الصديق رضى الله عنه يخطب بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامى هذا عام أول ـ ثم بكى ـ

---

(١) حديث : كان إذا وعد وعدا قال « عسى » لم أجد له أصلا (٢) حديث أبى هريرة « ثلاث من كن فيه فهو منافق ... الحديث وفيه « إذا وعد أخلف » متفق عليه وقد تقدم .

(٣) حديث عبد الله بن عمرو « أربع من كن فيه كان منافقا .. الحديث » متفق عليه (٤) حديث : كان وعد أبا الهيثم بن التيهان خادما ؛ فأتى بثلاثة من السبى فأعطى اثنين وبقى واحدا ، فجاءت فاطمة تطلب منه .. الحديث . وفيه فجعل يقول « كيف بموعدى لأبى الهيثم » فآثره به على فاطمة تقدم ذكر قصة أبى الهيثم فى آداب الأكل وهى عند الترمذى من حديث أبى هريرة وليس فيها ذكر لفاطمة (٥) حديث : أنه كان جالسا يقسم غنائم هوازن بحنين فوقف عليه رجل فقال : إن لى عندك موعدا ، قال : « صدقت فاحتكم ما شئت ... الحديث » وفيه « لصاحبة موسى التى دلته على عظام يوسف كانت أحزم منك .. الحديث » أخرجه ابن حبان والحاكم فى المستدرك من حديث أبى موسى مع اختلاف قال الحاكم صحيح الإسناد وفيه نظر . (٦) حديث « ليس الخلف أن يعد الرجل الرجل ومن نيته أن يفى » وفى لفظ آخر « إذا وعد الرجل أخاه وفى نيته أن يفى فلم يجد فلا إثم عليه » أخرجه أبو داود والترمذى وضعفه من حديث زيد بن أرقم باللفظ الثانى إلا أنهما قالا « فلم يف »

وقال « إياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما فى النار (١) » وقال أبو أمامة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الكذب باب من أبواب النفاق (٢) » وقال الحسن : كان يقال إن من النفاق اختلاف السر والعلانية ، والقول والعمل ، والمدخل والمخرج ، وإن الأصل الذى بنى عليه النفاق الكذب . وقال عليه السلام « كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثا هو لك به مصدق وأنت له به كاذب (٣) » وقال ابن مسعود : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم « لايزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عندالله كذابا (٤) » ومر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم برجلين يتبايعان شاة ويتحالفان ، يقول أحدهما : والله لاأنقصك من كذا وكذا ، ويقول الآخر : والله لاأزيدك على كذا وكذا ، بالشاة وقد اشتراها أحدهما فقال « أوجب أحدهما بالإثم والكفارة (٥) » وقال عليه السلام « الكذب ينقص الرزق (٦) » وقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « إن التجار هم الفجار » فقيل يارسول الله أليس قد أحل الله البيع ؟ قال « نعم ولكنهم يحلفون فيأثمون ويحدثون فيكذبون (٧) » وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « ثلاثة نفر لا يكلمهم الله يوم القيامة ولاينظر إليهم : المنان بعطيته والمنفق سلعته بالحلف الفاجر والمسبل إزاره (٨) » وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « ما حلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة إلا كانت نكتة فى قلبه إلى يوم القيامة (٩) » وقال أبو ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاثة يحبهم الله : رجل كان فى فئة فنصب نحره حتى يقتل أو يفتح الله عليه وعلى أصحابه ، ورجل كان له جار سوء يؤذيه فصبر على أذاه حتى يفرق بينهما موت أو ظعن ، ورجل كان معه قوم فى سفر أو سرية فأطالوا السرى حتى أعجبهم أن يمسوا الأرض فنزلوا . فتنحى يصلى حتى يوقظ أصحابه للرحيل . وثلاثة يشنؤهم الله : التاجر أو البياع الحلاف ، والفقير المختال والبخيل المنان (١٠) » وقال صلى الله عليه وسلم « ويل للذى يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له (١١) »

الآفة الرابعة عشرة : الكذب فى القول واليمين

(١) حديث أبى بكر الصديق : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامى هذا عام أول ــ ثم بكى ــ وقال « إياكم والكذب الحديث » أخرجه ابن ماجه والنسائى فى اليوم والليلة وجعله المصنف من رواية إسماعيل بن أوسط عن أبى بكر وإنما هو أوسط ابن إسماعيل بن أوسط وإسناده حسن (٢) حديث أبى أمامة « إن الكذب باب من أبواب النفاق » أخرجه ابن عدى فى الكامل بسند ضعيف وفيه عمر بن موسى الوجيهى ضعيف جدا ويغنى عنه قوله صلى الله عليه وسلم « ثلاث من كن فيه فهو منافق » وحديث « أربع من كن فيه كان منافقا » قال فى كل منهما « وإذا حدث كذب » وهما فى الصحيحين وقد تقدما فى الآفة التى قبلها .

(٣) حديث « كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثا هو لك به مصدق وأنت له به كاذب » أخرجه البخارى فى كتاب الأدب المفرد وأبو داود من حديث سفيان بن أسيد وضعفه ابن عدى ورواه أحمد والطبرانى من حديث النواس بن سمعان بإسناد جيد .

(٤) حديث ابن مسعود « لايزال العبد يكذب حتى يكتب عند الله كذابا » متفق عليه (٥) حديث . مر برجلين يتبايعان شاة ويتحالفان ... الحديث ، وفيه فقال « أوجب أحدهما بالإثم والكفارة » أخرجه أبو الفتح الأزدى فى كتاب الأسماء المفردة من حديث ناسخ الحضرمى وهكذا رويناها فى أمالى ابن سمعون وناسخ ذكره البخارى هكذا فى التاريخ ، وقال أبو حاتم هو عبد الله ابن ناسخ (٦) حديث « الكذب ينقص الرزق » أخرجه أبو الشيخ فى طبقات الأصبهانيين من حديث أبى هريرة ورويناه كذلك فى مشيخة القاضى أبى بكر وإسناده ضعيف (٧) حديث « إن التجار هم الفجار ... الحديث » وفيه « ويحدثون فيكذبون » أخرجه أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد والبيهقى من حديث عبد الرحمن بن شبل (٨) حديث « ثلاثة لايكلمهم الله يوم القيامة ولاينظر إليهم : المنان بعطيته والمنفق سلعته بالحلف الكاذب والمسبل إزاره » أخرجه مسلم من حديث أبى ذر (٩) حديث « ما حلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة إلا كانت نكتة فى قلبه إلى يوم القيامة » أخرجه الترمذى والحاكم وصحح إسناده من حديث عبد الله بن أنيس (١٠) حديث أبى ذر « ثلاثة يحبهم الله ... الحديث » وفيه « وثلاثة يشنؤهم الله التاجر أو البائع الحلاف » أخرجه أحمد واللفظ له وفيه ابن الأحمس ولايعرف حاله ورواه هو والنسائى بلفظ آخر بإسناد جيد وللنسائى من حديث أبى هريرة « أربعة يبغضهم الله البياع الحلاف .. الحديث » وإسناده جيد (١١) حديث « ويل للذى يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له » أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه والنسائى فى الكبرى من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده

وقال صلى الله عليه وسلم « رأيت كأن رجلا جاءنى فقال لى قم فقمت معه ، فإذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس ، بيد القائم كلوب من حديد يلقمه فى شدق الجالس فيجذبه حتى يبلغ كاهله ، ثم يجذبه فيلقمه الجانب الآخر فيمده فإذا مده رجع الآخر كما كان ، فقلت للذى أقامنى ماهذا ؟ فقال : هذا رجل كذاب يعذب فى قبره إلى يوم القيامة (١) » وعن عبدالله بن جراد قال : سألت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقلت يارسول الله هل يزنى المؤمن ؟ قال « قد يكون ذلك » قال : يانبى الله هل يكذب المؤمن ؟ قال « لا » ثم اتبعها صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بقول الله تعالى ﴿ إنما يفترى الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله ﴾ (٢) وقال أبو سعيد الخدرى : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يدعو فيقول فى دعائه « اللهم طهر قلبى من النفاق وفرجى من الزنا ولسانى من الكذب (٣) » وقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « ثلاثة لايكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر (٤) » وقال عبد الله بن عامر : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيتنا وأنا صبى صغير فذهبت لألعب فقالت أمى . ياعبدالله تعال حتى أعطيك فقال صلى الله عليه وسلم « وما أردت أن تعطيه » قالت تمراً ، فقال « أما إنك لولم تفعلى لكتبت عليك كذبة (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « لو أفاء الله على نعما عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لاتجدونى بخيلا ولا كذابا ولا جبانا (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم وكان متكئا « ألاأنبئكم بأكبر الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين » ثم قعد وقال « إلاوقول الزور (٧) » وقال ابن عمر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليكذب الكذبة ليتباعد الملك عنه مسيرة ميل من نتن ماجاء به (٨) » وقال أنس . قال النبى صلى الله عليه وسلم « تقبلوا إلى بست اتقبل لكم بالجنة » فقالوا وما هن ؟ قال « إذا حدث أحدكم فلا يكذب وإذا وعد فلا يخلف وإذا ائتمن فلا يخن وغضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم وكفوا أيديكم (٩) » وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « إن للشيطان كحلا ولعوقا ونشوقا : أما لعوقه فالكذب ، وأما نشوقه فالغضب . وأما كحله فالنوم (١٠) » وخطب عمر رضى الله عنه يوما فقال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كقيامى هذا فيكم فقال « احسنوا إلى أصحابى

---

(١) حديث « رأيت كأن رجلا جاءنى فقال لى قم فقمت معه فإذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس بيد القائم كلوب من حديد يلقمه فى شدق الجالس ... الحديث » أخرجه البخارى من حديث سمرة بن جندب فى حديث طويل (٢) حديث عبدالله ابن جراد : أنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم هل يزنى المؤمن ؟ قال « قد يكون من ذلك » قال : هل يكذب؟ قال « لا » ... الحديث أخرجه ابن عبد البر فى التمهيد بسند ضعيف ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت مقتصرا على الكذب وجعل السائل أبا الدرداء .

(٣) حديث أبى سعيد « اللهم طهر قلبى من النفاق وفرجى من الزنا ولسانى من الكذب » هكذا وقع فى نسخ الإحياء عن أبى سعيد وإنما هو عن أم معبد وكذا رواه الخطيب فى التاريخ دون قوله « وفرجى من الزنا » وزاد « وعملى من الرياء وعينى من الخيانة وإسناده ضعيف (٤) حديث « ثلاثة لايكلمهم الله ولاينظر إليهم ... الحديث » وفيه « والإمام الكذاب » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة (٥) حديث عبد الله بن عامر : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيتنا وأنا صبى صغير فذهبت لألعب فقالت أمى : ياعبد الله تعال أعطك فقال « وما أردت أن تعطيه ؟ قالت تمرا فقال « إن لم تفعلى كتبت عليك كذبة » رواه أبو داود وفيه من لم يسم وقال الحاكم إن عبد الله بن عامر ولد فى حياته صلى الله عليه وسلم ولم يسمع منه . قلت : وله شاهد من حديث أبى هريرة وابن مسعود ورجالها ثقات إلا أن الزهرى لم يسمع من أبى هريرة (٦) حديث « لوأفاء الله على نعما عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لاتجدونى بخيلا ولا كذابا ولاجبانا » رواه مسلم وتقدم فى أخلاق النبوة (٧) حديث « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ... الحديث » وفيه ألا « وقول الزور » متفق عليه من حديث أبى بكرة (٨) حديث ابن عمر « إن العبد ليكذب الكذبة فيتباعد الملك عنه مسيرة ميل من نتن ما جاء به » أخرجه الترمذى وقال حسن غريب .

(٩) حديث أنس « تقبلوا إلى بست أتقبل لكم بالجنة إذا حدث أحدكم فلا يكذب ... الحديث » أخرجه الحاكم فى المستدرك والخرائطى فى مكارم الأخلاق وفيه سعد بن سنان ضعفه أحمد والنسائى ووثقه ابن معين ورواه الحاكم بنحوه من حديث عبادة بن الصامت وقال صحيح الإسناد .

(١٠) حديث « إن للشيطان كحلا ولعوقا ... الحديث » أخرجه الطبرانى وأبو نعيم من حديث أنس بسند ضعيف وقد تقدم

ثم الذين يلونهم ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل على اليمين ولم يستحلف ويشهد ولم يستشهد [١] » وقال النبي صلى الله عليه وسلم « من حدث عنى بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين [٢] » وقال صلى الله عليه وسلم « من حلف على يمين بإثم ليقتطع بها مال امرئ مسلم بغير حق لقى الله عز وجل وهو عليه غضبان [٣] » وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه رد شهادة رجل فى كذبة كذبها [٤] » وقال صلى الله عليه وسلم « كل خصلة يطبع أو يطوى عليها المسلم إلا الخيانة والكذب [٥] » وقالت عائشة رضى الله عنها : ما كان من خلق أشد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما ينجلى من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث توبة لله عز وجل منها [٦] . وقال موسى عليه السلام : يارب أى عبادك خير لك عملا ؟ قال من لا يكذب لسانه ولا يفجر قلبه ولا يزنى فرجه . وقال لقمان لابنه : يابنى إياك والكذب فإنه شهى كلحم العصفور عما قليل يقلاه صاحبه . وقال عليه السلام فى مدح الصدق « أربع إذا كن فيك لا يضرك مافاتك من الدنيا : صدق الحديث وحفظ الأمانة وحسن خلق وعفة طعمة [٧] » وقال أبو بكر رضى الله عنه فى خطبة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل مقامى هذا عام أول - ثم بكى - وقال « عليكم بالصدق فإنه مع البر وهما فى الجنة [٨] » وقال معاذ : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث وأداء الأمانة والوفاء بالعهد وبذل السلام وخفض الجناح [٩] » .

وأما الآثار : فقد قال على رضى الله عنه : أعظم الخطايا عند الله اللسان الكذوب وشر الندامة ندامة يوم القيامة وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه : ما كذبت كذبة منذ شددت على إزارى . وقال عمر رضى الله عنه : أحبكم إلينا مالم نركم أحسنكم اسما فإذا رأيناكم فأحبكم إلينا أحسنكم خلقاً فإذا اختبرناكم فأحبكم إلينا أصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة . وعن ميمون بن أبى شبيب قال جلست أكتب كتابا فأتيت على حرف إن أنا كتبته زينت الكتاب وكنت قد كذبت فعزمت على تركه فنوديت من جانب البيت ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾ وقال الشعبى : ماأدرى أيهما أبعد غور فى النار الكذاب أو البخيل ؟ وقال ابن السماك : ما أرانى أوجر على ترك الكذب لأنى إنما أدعه أنفه . وقيل لخالد بن صبيح : أيسمى الرجل كذابا بكذبة واحدة ؟ قال : نعم وقال مالك بن دينار : قرأت فى بعض الكتب مامن خطيب إلا وتعرض خطبته على عمله فإن كان صادقا صدق وإن

---

(١) حديث : خطب عمر بالجابية ... الحديث . وفيه « ثم يفشو الكذب » أخرجه الترمذى وصححه والنسائى فى الكبرى من رواية ابن عمر عن عمر (٢) حديث « من حدث بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين » أخرجه مسلم فى مقدمة صحيحه من حديث سمرة بن جندب (٣) حديث « من حلف على يمين مأثم ليقتطع بها مال امرئ مسلم ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن مسعود (٤) حديث : أنه رد شهادة رجل فى كذبة كذبها . أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت من رواية موسى بن شيبة مرسلا وموسى روى معمر عنه مناكير قاله أحمد بن حنبل (٥) حديث على « كل خصلة يطبع أو يطوى عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب » أخرجه ابن أبى شيبة فى المصنف من حديث أبى أمامة ورواه ابن عدى فى مقدمة الكامل من حديث سعد بن أبى وقاص وابن عمر أيضاً وأبى أمامة أيضاً ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت من حديث سعد مرفوعا وموقوفا والموقوف أشبه بالصواب قاله الدارقطنى فى العلل (٦) حديث : ما كان من خلق الله شىء أشد عند أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب ولقد كان يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما ينجلى من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث لله منها توبة . أخرجه أحمد من حديث عائشة ورجاله ثقات إلا أنه قال عن ابن أبى مليكة أو غيره وقد رواه أبو الشيخ فى الطبقات فقال ابن أبى مليكة ولم يشك وهو صحيح (٧) حديث « أربع إذا كن فيك فلا يضرك مافاتك من الدنيا : صدق الحديث ... الحديث » أخرجه الحاكم والخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث عبد الله بن عمرو وفيه ابن لهيعة (٨) حديث أبى بكر « عليكم بالصدق فإنه مع البر وهما فى الجنة » أخرجه ابن ماجه والنسائى فى اليوم والليلة وقد تقدم بعضه فى أول هذا النوع (٩) حديث معاذ « أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث » أخرجه أبو نعيم فى الحلية وقد تقدم .

كان كاذباً قرضت شفتاه بمقاريض من نار كلما قرضتا نبتتا . وقال مالك بن دينار : الصدق والكذب يعتركان فى القلب حتى يخرج أحدهما صاحبه وكلم عمر بن عبد العزيز الوليد بن عبدالملك فى شىء فقال له : كذبت ، فقال عمر: والله ماكذبت منذ علمت أن الكذب يشين صاحبه .

بيان مارخص فيه من الكذب

أعلم أن الكذب ليس حراما لعينه بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره ، فإن أقل درجاته أن يعتقد المخبر الشىء على خلاف ماهو عليه فيكون جاهلا وقد يتعلق به ضرر غيره ، ورب جهل فيه منفعة ومصلحة ، فالكذب محصل لذلك الجهل فيكون مأذونا فيه ، وربما كان واجبا .

قال ميمون بن مهران : الكذب فى بعض المواطن خير من الصدق ، أرأيت لو أن رجلا سعى خلف إنسان بالسيف ليقتله فدخل داراً فانتهى إليك فقال : أرأيت فلانا ؟ ماكنت قائلا ؟ ألست تقول : لم أره ؟ وما تصدق به . وهذا الكذب واجب .

فنقول : الكلام وسيلة إلى المقاصد فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعا فالكذب فيه حرام ، وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك القصد مباحا ، وواجب إن كان المقصود واجبا ، كما أن عصمة دم المسلم واجبة . فهما كان فى الصدق سفك دم أمرئ مسلم قداختنى من ظالم فالكذب فيه واجب . ومهما كان لايتم مقصود الحرب أو إصلاح ذات البين أو استمالة قلب المجنى عليه إلا بكذب فالكذب مباح ، إلا أنه ينبغى أن يحترز منه ماأمكن ، لأنه إذا فتح باب الكذب على نفسه فيخشى أن يتداعى إلى مايستغنى عنه وإلى مالا يقتصر على حدّ الضرورة ، فيكون الكذب حراما فى الأصل إلا لضرورة .

والذى يدل على الاستثناء ماروى عن أم كلثوم قالت : ماسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرخص فى شىء من الكذب إلا فى ثلاث : الرجل يقول القول يريد به الإصلاح ، والرجل يقول القول فى الحرب ، والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها [1] وقالت أيضاً : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيراً أو نمى خيراً [2] » وقالت أسماء بنت يزيد : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب بين مسلمين ليصلح بينهما [3] » وروى عن أبى كاهل قال : وقع بين اثنين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كلام حتى تصارما فلقيت أحدهما فقلت : مالك ولفلان فقد سمعته يحسن عليك الثناء ؟ ثم لقيت الآخر فقلت له مثل ذلك حتى اصطلحا ، ثم قلت : أهلكت نفسى وأصلحت بين هذين ! فأخبرت النبى صلى الله عليه وسلم فقال « ياأباكاهل أصلح بين الناس [4] » اى ولو بالكذب . وقال عطاء بن يسار : قال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم أكذب على أهلى ؟ قال « لاخير فى الكذب » قال : أعدها وأقول لها ، قال « لاجناح عليك [5] »

---

(١) حديث أم كلثوم : ماسمعته يرخص فى شىء من الكذب إلا فى ثلاث . أخرجه مسلم وقد تقدم (٢) حديث أم كلثوم أيضاً « ليس بكذاب من أصلح بين الناس ... الحديث » متفق عليه وقد تقدم ، والذى قبله عند مسلم بعض هذا (٣) حديث أسماء بنت يزيد « كل الكذب يكتب على ابن آدم الا رجل كذب بين رجلين يصلح بينهما » أخرجه أحمد بزيادة فيه وهو عند الترمذى مختصرا وحسنه . (٤) حديث أبى كاهل : وقع بين رجلين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كلام ... الحديث . وفيه « ياأبا كاهل أصلح بين الناس » رواه الطبرانى ولم يصح (٥) حديث عطاء بن يسار : قال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم أكذب على أهلى ؟ قال « لاخير فى الكذب » قال : أعدها وأقول لها ، قال « لاجناح عليك » أخرجه ابن عبدالبر فى التمهيد من رواية صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار مرسلا وهو فى الموطأ عن صفوان بن سليم معضلا من غير ذكر عطاء بن يسار

وروى أن ابن أبي عذرة الدؤلي وكان في خلافة عمر رضي الله عنه كان يخلع النساء اللاتي يتزوج بهن فطارت له في الناس من ذلك أحدوثة يكرهها ، فلما علم بذلك أخذ بيد عبد الله بن الأرقم حتى أتى به إلى منزله ، ثم قال لامرأته : أنشدك بالله هل تبغضيني ؟ قالت : لاتنشدني ، قال : فإني أنشدك الله ، قالت : نعم ، فقال لابن الأرقم : أتسمع؟ ثم انطلقا حتى أتيا عمر رضي الله عنه فقال : إنكم لتحدثون إلى أظلم النساء وأخلعهن فاسأل ابن الأرقم ، فسأله فأخبره ، فأرسل إلى امرأة ابن أبي عذرة فجاءت هي وعمتها فقال : أنت التي تحدثين لزوجك أنك تبغضينه ؟ فقالت: إني أول من تاب وراجع أمر الله تعالى إنه ناشدني فتحرجت أن أكذب ، أفأكذب ياأمير المؤمنين ؟ قال : نعم فاكذبي فإن كانت إحداكن لاتحب أحدنا فلا تحدثه بذلك ، فإن أقل البيوت الذي يبنى على الحب ولكن الناس يتعاشرون بالإسلام والأحساب .

وعن النواس بن سمعان الكلابي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مالي أراكم تتهافتون في الكذب تهافت الفراش في النار ؟ كل الكذب يكتب على ابن آدم لامحالة إلا أن يكذب الرجل في الحرب ، فإن الحرب خدعة ، أو يكون بين الرجلين شحناء فيصلح بينهما ، أو يحدث امرأته يرضيها(١) » وقال ثوبان الكذب كله إثم إلا مانفع به مسلما أو دفع عنه ضررا . وقال علي رضي الله عنه : إذا حدثتكم عن النبي صلى الله عليه وسلم فلأن أخر من السماء أحب إلي من أن أكذب عليه ، وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فالحرب خدعة .

فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء ، وفي معناها ماعداها إذا ارتبط به مقصود صحيح له أو لغيره . أما ماله : فمثل أن يأخذه ظالم ويسأله عن ماله فله أن ينكره ، أو يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة بينه وبين الله تعالى ارتكبها فله أن ينكر ذلك ، فيقول : مازنيت وماسرقت . وقال صلى الله عليه وسلم « من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليستتر بستر الله (٢) » وذلك أن إظهار الفاحشة فاحشة أخرى ، فللرجل أن يحفظ دمه وماله الذي يؤخذ ظلما وعرضه بلسانه وإن كان كاذبا .

وأما عرض غيره : فبأن يسأله عن سر أخيه فله أن ينكره ، وأن يصلح بين اثنين ، وأن يصلح بين الضرات من نسائه بأن يظهر لكل واحدة أنها أحب إليه ، وإن كانت امرأته لاتطاوعه إلا بوعد لايقدر عليه فيعدها في الحال تطييباً لقلبها ، أو يعتذر إلى إنسان وكان لايطيب قلبه إلا بإنكار ذنب وزيادة تودد فلا بأس به . ولكن الحد فيه أن الكذب محذور ولو صدق في هذه المواضع تولد منه محذور . فينبغي أن يقابل أحدهما بالآخر ويزن بالميزان القسط ، فإذا علم أن المحذور الذي يحصل بالصدق أشد وقعاً في الشرع من الكذب فله الكذب ، وإن كان ذلك المقصود أهون من مقصود الصدق فيجب الصدق ، وقد يتقابل الأمران بحيث يتردد فيهما ، وعند ذلك الميل إلى الصدق أولى لأن الكذب يباح لضرورة أو حاجة مهمة . فإن شك في كون الحاجة مهمة فالأصل التحريم فيرجع إليه ، ولأجل غموض إدراك مراتب المقاصد ينبغي أن يحترز الإنسان من الكذب ماأمكنه ، وكذلك مهما كانت الحاجة له فيستحب له أن يترك أغراضه ويهجر الكذب ، فأما إذا تعلق بغرض غيره فلا تجوز المسامحة لحق الغير والإضرار به ؛ وأكثر كذب الناس إنما هو لحظوظ أنفسهم ، ثم هو لزيادات المال والجاه ولأمور ليس فواتها

---

(١) حديث النواس بن سمعان « مالي أراكم تتهافتون في الكذب تهافت الفراش في النار ؟ كل الكذب مكتوب ... الحديث» أخرجه أبو بكر بن بلال في مكارم الأخلاق بلفظ « تتبايعون » الى قوله « في النار » دون مابعده فرواه الطبراني وفيهما شهر بن حوشب (٢) حديث « من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليستتر بستر الله » الحاكم من حديث عمر بلفظ « اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله عنها فمن ألم بشيء منها فليستتر بستر الله » وإسناده حسن .

محذورا ، حتى إن المرأة لتحكى عن زوجها ما تفخر به وتكذب لأجل مراغمة الضرات ، وذلك حرام . وقالت أسماء سمعت امرأة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : إن لى ضرة وإنى أتكثر من زوجى بما لم يفعل أضارها بذلك فهل على شيء فيه ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبى زور [1] » وقال صلى الله عليه وسلم « من تطعم بما لا يطعم أو قال لى وليس له أو أعطيت ولم يعط فهو كلابس ثوبى زور يوم القيامة [2] » ويدخل فى هذا فتوى العالم بما لا يتحققه ، وروايته الحديث الذى لا يتثبته إذ غرضه أن يظهر فضل نفسه ، فهو لذلك يستنكف من أن يقول : لا أدرى ، وهذا حرام . ومما يلتحق بالنساء الصبيان ، فإن الصبى إذا كان لا يرغب فى المكتب إلا بوعد أو وعيد أو تخويف كاذب كان ذلك مباحا . نعم روينا فى الأخبار أن ذلك يكتب كذبا ، ولكن الكذب المباح أيضا قد يكتب ويحاسب عليه ويطالب بتصحيح قصده فيه ثم يعفى عنه ، لأنه إنما أبيح بقصد الإصلاح ويتطرق إليه غرور كبير ، فإنه قد يكون الباعث له حظه وغرضه الذى هو مستغن عنه وإنما يتعلل ظاهراً بالإصلاح فلهذا يكتب . وكل من أتى بكذبة فقد وقع فى خطر الاجتهاد ليعلم أن المقصود الذى كذب لأجله هل هو أهم فى الشرع من الصدق أم لا ؟ وذلك غامض جدا والحزم تركه إلا أن يصير واجبا بحيث لا يجوز تركه كما لو أدى إلى سفك دم أو ارتكاب معصية كيف كان .

وقد ظن ظانون أنه يجوز وضع الأحاديث فى فضائل الأعمال وفى التشديد فى المعاصى ، وزعموا أن القصد منه صحيح وهو خطأ محض ، إذ قال صلى الله عليه وسلم « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار [3] » وهذا لا يرتكب إلا لضرورة ولا ضرورة إذ فى الصدق مندوحة عن الكذب ففيما ورد من الآيات والأخبار كفاية عن غيرها . وقول القائل : إن ذلك قد تكرر على الأسماع وسقط وقعه ، وما هو جديد فوقعه أعظم ، فهذا هوس إذ ليس هذا من الأغراض التى تقاوم محذور الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى الله تعالى ويؤدى فتح بابه إلى أمور تشوش الشريعة فلا يقاوم خير هذا شره أصلا . والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر التى لا يقاومها شيء . نسأل الله العفو عنا وعن جميع المسلمين .

بيان الحذر من الكذب بالمعاريض

قد نقل عن السلف أن فى المعاريض مندوحة عن الكذب قال عمر رضى الله عنه : أما فى المعاريض ما يكفى الرجل عن الكذب ؟ وروى ذلك عن ابن عباس وغيره . وإنما أرادوا بذلك إذا اضطر الإنسان إلى الكذب فأما إذا لم تكن حاجة وضرورة فلا يجوز التعريض ولا التصريح جميعا ، ولكن التعريض أهون . ومثال التعريض ما روى أن مطرفاً دخل على زياد فاستبطأه فتعلل بمرض وقال : ما رفعت جنبى مذ فارقت الأمير إلا ما رفعنى الله . وقال إبراهيم : إذا بلغ الرجل عنك شيء فكرهت أن تكذب فقل : إن الله تعالى ليعلم ما قلت من ذلك من شيء . فيكون قوله « ما » حرف نفى عند المستمع ، وعنده الإبهام . وكان معاذ بن جبل عاملا لعمر رضى الله عنه فلما رجع قالت له امرأته : ما جئت به مما يأتى به العمال إلى أهلهم ؟ وما كان قد أتاها بشيء . فقال : كان عندى ضاغط ، قالت : كنت أميناً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعند أبى بكر رضى الله عنه ، فبعث عمر

---

(١) حديث أسماء : قالت امرأة : ان لى ضرة وانى أتكثر من زوجى بما لم يفعل.. الحديث ، متفق عليه وهى أسماء بنت أبى بكر الصديق (٢) حديث « من تطعم بما لا يطعم وقال لى وليس له وأعطيت ولم يعط كان كلابس ثوبى زور يوم القيامة » لم أجده بهذا اللفظ (٣) حديث « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » متفق عليه من طرق وقد تقدم فى العلم

معك ضاغطا ؟ وقامت بذلك بين نسائها واشتكت عمر ، فلما بلغه ذلك دعا معاذا وقال : بعثت معك ضاغطا ؟ قال : لم أجد ما أعتذر به إليها إلا ذلك ، فضحك عمر رضى الله عنه وأعطاه شيئا فقال . أرضها به - ومعنى قوله ضاغطا يعنى رقيبا وأراد به الله تعالى - وكان النخعى لا يقول لابنته : أشترى لك سكراً بل يقول: أرأيت لو اشتريت لك سكرا ؟ فإنه ربما لا يتفق له ذلك . وكان إبراهيم إذا طلبه من يكره أن يخرج إليه وهو فى الدار قال للجارية : قولى له أطلبه فى المسجد ولا تقولى له ليس ههنا كيلا يكون كذبا . وكان الشعبى إذا طلب فى المنزل هو يكرهه خط دائرة وقال للجارية : ضعى الأصبع فيها وقولى ليس ههنا . وهذا كله فى موضع الحاجة فأما فى غير موضع الحاجة فلا ، لأن هذا تفهيم للكذب وإن لم يكن اللفظ كذبا فهو مكروه على الجملة كما روى عبدالله بن عتبة قال : دخلت مع أبى على عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه فخرجت وعلى ثوب ، فجعل الناس يقولون هذا كساكه أمير المؤمنين ؟ فكنت أقول جزى الله أمير المؤمنين خيرا ، فقال لى أبى يا بنى اتق الكذب وما أشبهه ، فنهاه عن ذلك لأن فيه تقريرا لهم عن ظن كاذب لأجل غرض المفاخرة وهذا غرض باطل لا فائدة فيه .

نعم المعاريض تباح لغرض خفيف كتطييب قلب الغير بالمزاح كقوله صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة عجوز [١] » وقوله للأخرى « الذى فى عين زوجك بياض » وللأخرى « نحملك على ولد البعير » وما أشبهه . وأما الكذب الصريح كما فعله نعمان الأنصارى مع عثمان فى قصة الضرير إذ قال له إنه نعيمان ، وكما يعتاده الناس من ملاعبة الحمق بتغريرهم بأن امرأة قد رغبت فى تزويجك ؛ فإن كان فيه ضرر يؤدى إلى إيذاء قلب فهو حرام ، وإن لم يكن إلا لمطايبته فلا يوصف صاحبها بالفسق ولكن ينقص ذلك من درجة إيمانه . قال صلى الله عليه وسلم « لا يكمل للمرء الإيمان حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وحتى يجتنب الكذب فى مزاحه [٢] » وأما قوله عليه السلام « إن الرجل ليتكلم بالكلمة ليضحك بها الناس يهوى بها فى النار أبعد من الثريا [٣] » أراد به ما فيه غيبة مسلم أو إيذاء قلب دون محض المزاح .

ومن الكذب الذى لا يوجب الفسق ما جرت به العادة فى المبالغة كقوله طلبتك كذا وكذا مرة وقلت لك كذا مائة مرة ، فإنه لا يريد به تفهيم المرات بعددها بل تفهيم المبالغة ، فإن لم يكن طلبه إلا مرة واحدة كان كاذبا ، وإن كان طلبه مرات لا يعتاد مثلها فى الكثرة لا يأثم وإن لم تبلغ مائة ، وبينهما درجات يتعرض مطلق اللسان بالمبالغة فيها لخطر الكذب . ومما يعتاد الكذب فيه ويتساهل به أن يقال : كل الطعام ، فيقول : لا أشتهيه ؛ وذلك منهى عنه وهو حرام ، وإن لم يكن فيه غرض صحيح قال مجاهد : قالت أسماء بنت عميس ، كنت صاحبة عائشة فى الليلة التى هيأتها وأدخلتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعى نسوة قالت : فوالله ما وجدنا عنده قرى إلا قدحا من لبن ، فشرب ثم ناوله عائشة ، قالت : فاستحيت الجارية فقلت : لا تردى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم خذى منه ، قالت : فأخذت منه على حياء فشربت منه ثم قال « ناولى صواحبك » فقلن : لا نشتهيه ، فقال « لا تجمعن جوعا وكذبا » قالت : فقلت يا رسول الله إن قالت إحدانا لشىء تشتهيه لا أشتهيه أيعد ذلك كذبا ؟ قال

---

(١) حديث « لا يدخل الجنة عجوز » وحديث « فى عين زوجك بياض » وحديث « نحملك على ولد البعير » تقدمت الثلاثة فى الآفة العاشرة (٢) حديث « لا يستكمل المؤمن إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وحتى يجتنب الكذب فى مزاحه » ذكره ابن عبد البر فى الاستيعاب من حديث أبى مليكة الذمارى وقال فيه نظر وللشيخين من حديث أنس « لا يؤمن أحد منكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » وللدارقطنى فى المؤتلف والمختلف من حديث أبى هريرة « لا يؤمن عبد الإيمان كله حتى يترك الكذب فى مزاحه » قال أحمد بن حنبل منكر . (٣) حديث « إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها الناس يهوى بها أبعد من الثريا » تقدم فى الآفة الثالثة .

« إن الكذب ليكتب كذبا ، حتى تكتب الكذبية كذبية (١) » وقد كان أهل الورع يحترزون عن التسامح بمثل هذا الكذب .

قال الليث بن سعد : كانت عينا سعد بن المسيب ترمص حتى يبلغ الرمص خارج عينيه ، فيقال له : لو مسحت عينيك ؟ فيقول : وأين قول الطبيب : لا تمس عينيك فأقول : لا أفعل ؟ وهذه مراقبة أهل الورع . ومن تركه انسل لسانه فى الكذب عند حد اختياره فيكذب ولا يشعر . وعن خوات التيمى قال : جاءت أخت الربيع بن خثيم عائدة لابن له فانكبت عليه ، فقالت : كيف أنت يابنى ؟ فجلس الربيع وقال : أرضعتيه ؟ قالت : لا ، قال : ماعليك لو قلت ، ياابن أخى فصدقت ؟ ومن العادة أن يقول : يعلم الله ، فيما لا يعلمه . قال عيسى عليه السلام: إن من عظم الذنوب عند الله أن يقول العبد إن الله يعلم ، لما لا يعلم . وربما يكذب فى حكاية المنام ، والإثم فيه عظيم إذ قال عليه السلام « إن من أعظم الفرية أن يدعى الرجل إلى غير أبيه أو يرى عينيه فى المنام مالم يرَ أو يقول على مالم أقل (٢) » وقال عليه السلام « من كذب فى حلم كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين وليس بعاقد بينهما أبدا (٣) »

الآفة الخامسة عشرة : الغيبة

والنظر فيها طويل فلنذكر أولا مذمة الغيبة وما ورد فيها من شواهد الشرع ، وقد نص الله سبحانه على ذمها فى كتابه وشبه صاحبها بآكل لحم الميتة ، فقال تعالى ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ﴾ وقال عليه السلام « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه (٤) » والغيبة تتناول العرض وقد جمع الله بينه وبين المال والدم ، وقال أبو برزة : قال عليه السلام « لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تفاحشوا ولا تدابروا ولا يغتب بعضكم بعضا وكونوا عباد الله إخوانا (٥) » وعن جابر وأبى سعيد قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إياكم والغيبة فإن الغيبة أشد من الزنا ، فإن الرجل يزنى ويتوب فيتوب الله سبحانه عليه وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه (٦) » وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مررت ليلة أسرى بى على أقوام يخمشون وجوههم بأظافيرهم فقلت يا جبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء الذين يغتابون الناس ويقعون فى أعراضهم (٧) » وقال سليم بن جابر : أتيت النبى عليه الصلاة والسلام فقلت علمنى خيراً أنتفع به ، فقال « لا تحقرن

---

(١) حديث مجاهد عن أسماء بنت عميس : كنت صاحبة عائشة التى هيأتها وأدخلتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم . الحديث وفيه « قال لا تجمعن جوعا وكذبا » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت والطبرانى فى الكبير وله نحوه من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد وهو الصواب ، فإن أسماء بنت عميس كانت إذ ذاك بالحبشة ، لكن فى طبقات الأصبهانيين لأبى الشيخ من رواية عطاء بن أبى رباح عن أسماء بنت عميس : زففنا إلى النبى صلى الله عليه وسلم بعض نسائه .. الحديث . فإذا كانت غير عائشة ممن تزوجها بعد خيبر فلا مانع من ذلك (٢) حديث « ان من أعظم الفرى أن يدعى الرجل إلى غير أبيه أو يرى عينيه فى المنام مالم تريا أو يقول على ما لم أقل » أخرجه البخارى من حديث واثلة بن الأسقع وله من حديث ابن عمر « من أفرى الفرى أن يرى عينيه ما لم تريا » (٣) حديث « من كذب فى حلمه كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرة » أخرجه البخارى من حديث ابن عباس

الآفة الخامسة عشرة : الغيبة

(٤) حديث « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة (٥) « لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا يغتب بعضكم بعضاً وكونوا عباد الله إخوانا » متفق عليه من حديث أبى هريرة دون قوله « ولا يغتب بعضكم بعضاً » وقد تقدم فى آداب الصحبة (٦) حديث جابر وأبى سعيد « إياكم والغيبة فإن الغيبة أشد من الزنا ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت وابن حبان فى الضعفاء وابن مردويه فى التفسير . (٧) حديث أنس « مررت ليلة أسرى بى على قوم يخمشون وجوههم بأظفارهم ... الحديث » أخرجه أبو داود مسندا ومرسلا والمسند أصح .

من المعروف شيئا ولو أن تصب من دلوك فى إناء المستقى ، وأن تلقى أخاك ببشر حسن وإن أدبر فلا تغتابه[١] » وقال البراء : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسمع العواتق فى بيوتهن فقال « يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه فى جوف بيته[٢] » وقيل أوحى الله إلى موسى عليه السلام : من مات تائبا من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة ، ومن مات مصرا عليها فهو أول من يدخل النار . وقال أنس : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بصوم يوم فقال « لا يفطرن أحد حتى آذن له » فصام الناس حتى إذا أمسوا جعل الرجل يجيء فيقول : يارسول الله ظللت صائما فائذن لى لأفطر فيأذن له ، والرجل والرجل حتى جاء رجل فقال : يارسول الله فتاتان من أهلك ظلتا صائمتين وإنهما يستحيان أن يأتياك فائذن لهما أن يفطرا ! فأعرض عنه صلى الله عليه وسلم ، ثم عاوده فأعرض عنه ، ثم عاوده فقال « إنهما لم يصوما وكيف يصوم من ظل نهاره يأكل لحم الناس ؟ اذهب فرهما إن كانتا صائمتين أن تستقيئا ، فرجع إليهما فأخبرهما فاستقاءتا ، فقاءت كل واحدة منهما علقة من دم ، فرجع إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال « والذى نفسى بيده لو بقيتا فى بطونهما لأكلتهما النار[٣] » وفى رواية : أنه لما أعرض عنه جاء بعد ذلك وقال يارسول الله والله إنهما قد ماتتا أو كادتا أن تموتا ، فقال صلى الله عليه وسلم « ائتونى بهما » فجاءتا فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدح فقال لاحداهما « قيئى » فقاءت من قيح ودم وصديد حتى ملأت القدح ، وقال للأخرى « قيئى » فقاءت كذلك ، فقال « إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما ، جلست إحداهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس[٤] » وقال أنس : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الربا وعظم شأنه فقال « إن الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله فى الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل وأربى الربا عرض المسلم[٥] » وقال جابر كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسير فأتى على قبرين يعذب صاحباهما فقال « إنهما يعذبان وما يعذبان فى كبير ، أما أحدهما فكان يغتاب الناس ، وأما الآخر فكان لا يستنزه من بوله » فدعا بجريدة رطبة أو جريدتين فكسرهما ثم أمر بكل كسرة فغرست على قبر وقال « أما إنه سيهون من عذابهما ما كانتا رطبتين ـ أو مالم ييبسا ـ[٦] » . ولما رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ماعزاً فى الزنا قال رجل لصاحبه هذا أقعص كما يقعص الكلب ، فمر صلى الله عليه وسلم وهما معه بجيفة فقال « انهشا منها » فقالا : يارسول الله ننهش

---

(١) حديث سليم بن جابر : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت علمنى خيرا ينفعنى الله به . . . الحديث . أخرجه أحمد فى المسند وابن أبى الدنيا فى الصمت واللفظ له ولم يقل فيه أحمد « وإذا أدبر فلا يغتابه » وفى إسنادها ضعف (٢) حديث البراء « يامعشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تغتابوا المسلمين .. الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا هكذا ورواه أبو داود من حديث أبى برزة بإسناد جيد (٣) حديث أنس : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بصوم وقال « لا يفطرن أحد حتى آذن له فصام الناس ... الحديث « فى ذكر المرأتين اللتين اغتابتا فى صيامهما فقاءت كل واحدة منهما علقة من دم » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت وابن مردويه فى التفسير من رواية يزيد الرقاشى عنه ويزيد ضعيف (٤) حديث المرأتين المذكورتين وقال فيه « إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه رجل لم يسم ورواه أبو يعلى فى مسنده فأسقط منه ذكر الرجل المتهم (٥) حديث أنس : خطبنا فذكر الربا وعظم شأنه ... الحديث . وفيه « وأربى الربا عرض الرجل المسلم » أخرجه ابن أبى الدنيا بسند ضعيف .

(٦) حديث جابر : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسير فأتى على قبرين يعذب صاحباهما فقال « أما إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير ، أما أحدهما فكان يغتاب الناس . . . الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت وأبو العباس الدغولى فى كتاب الآداب بإسناد جيد وهو فى الصحيحين من حديث ابن عباس إلا أنه ذكر فيه النميمة بدل الغيبة . وللطيالسى فيه « أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس » ولأحمد والطبرانى من حديث أبى بكرة نحوه بإسناد جيد .

جيفة ؟ فقال « ما أصبتما من أخيكما أنتن من هذه [1] وكان الصحابة رضى الله عنهم يتلاقون بالبشر ولا يغتابون عند الغيبة ويرون ذلك أفضل الأعمال ويرون خلافه عادة المنافقين . وقال أبو هريرة : من أكل لحم أخيه فى الدنيا قرب إليه لحمه فى الآخرة وقيل له كله ميتا كما أكلته حيا ، فيأكله فينضج ويكلح [2] وروى مرفوعا كذلك . وروى أن رجلين كانا قاعدين عند باب من أبواب المسجد فمر بهما رجل كان مخنثا فترك ذلك . فقالا : لقد بقى فيه منه شىء وأقيمت الصلاة فدخلا فصليا مع الناس ، فحاك فى أنفسهما ماقالا فأتيا عطاء فسألاه فأمرهما أن يعيدا الوضوء والصلاة وأمرهما أن يقضيا الصيام إن كانا صائمين . وعن مجاهد أنه قال فى ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ الهمزة : الطعان فى الناس ، واللمزة : الذى يأكل لحوم الناس . وقال قتادة : ذكر لنا أن عذاب القبر ثلاثة أثلاث: ثلث من الغيبة ، وثلث من النميمة ، وثلث من البول . وقال الحسن : والله للغيبة أسرع فى دين الرجل المؤمن من الأكلة فى الجسد . وقال بعضهم : أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة فى الصوم ولا فى الصلاة ولكن فى الكف عن أعراض الناس . وقال ابن عباس : إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوبك . وقال أبو هريرة يبصر أحدكم القذى فى عين أخيه ولا يبصر الجذع فى عين نفسه . وكان الحسن يقول : ابن آدم إنك لن تصيب حقيقة الإيمان حتى لا تعيب الناس بعيب هو فيك ، وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب فتصلحه من ، فإذا فعلت ذلك كان شغلك فى خاصة نفسك ، وأحب العباد إلى الله من كان هكذا . وقال مالك بن دينار : مر عيسى عليه السلام ومعه الحواريون بجيفة كلب فقال الحواريون : ما أنتن ريح هذا الكلب ! فقال عليه الصلاة والسلام : ما أشد بياض أسنانه ! كأنه رضى الله عنهما رجلا يغتاب آخر فقال له : إياك والغيبة فإنها إدام كلاب الناس . وقال عمر رضى الله عنه : عليكم بذكر الله تعالى فإنه شفاء وإياكم وذكر الناس فإنه داء . نسأل الله حسن التوفيق لطاعته .

بيان معنى الغيبة وحدودها

أعلم أن حد الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه ، سواء ذكرته بنقص فى بدنه أو نسبه أو فى خلقه أو فى فعله أو فى قوله أو فى دينه أو فى دنياه ، حتى فى ثوبه وداره ودابته .

أما البدن : فكذكرك العمش والحول والقرع والقصر والطول والسواد والصفرة ، وجميع ما يتصور أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان . وأما النسب : فبأن تقول أبوه نبطى أو هندى أو فاسق أو خسيس أو إسكاف أو زبال ، أو شىء مما يكرهه كيفما كان . وأما الخلق : فبأن تقول هو سيىء الخلق بخيل متكبر مراء شديد الغضب جبان عاجز ضعيف القلب متهور وما يجرى مجراه . وأما فى أفعاله المتعلقة بالدين : فكقولك هو سارق أو كذاب أو شارب خمر أو خائن أو ظالم أو متهاون بالصلاة أو الزكاة أو لا يحسن الركوع أو السجود أو لا يحترز من النجاسات أو ليس بارا بوالديه أو لا يضع الزكاة موضعها أو لا يحسن قسمها أو لا يحرس صومه عن الرفث والغيبة والتعرض لأعراض الناس . وأما فعله المتعلق بالدنيا : فكقولك إنه قليل الأدب متهاون بالناس ، أو لا يرى لأحد

---

(١) حديث : قوله للرجل الذى قال لصاحبه فى حق المرجوم هذا أقعص كما يقعص الكلب فمر بجيفة فقال « انهشا منها .. الحديث » أخرجه أبو داود والنسائى من حديث أبى هريرة نحوه باسناد جيد (٢) حديث أبى هريرة « من أكل لحم أخيه فى الدنيا قرب إليه لحمه فى الآخرة فيقال له كله ميتا كما أكلته حيا ... الحديث » أخرجه ابن مردويه فى التفسير مرفوعا وموقوفا وفيه محمد بن إسحاق رواه بالعنعنة .

على نفسه حقاً أو يرى لنفسه الحق على الناس ، أو أنه كثير الكلام كثير الأكل نئوم ينام فى غيروقت النوم ويجلس فى غير موضعه . وأما فى ثوبه فكقولك إنه واسع الكم طويل الذيل وسخ الثياب .

وقال قوم : لاغيبة فى الدين لأنه ذم ماذمه الله تعالى فذكره بالمعاصى وذمه بها يجوز ، بدليل ماروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرت له امرأة وكثرة صلاحها وصومها ولكنها تؤذى جيرانها بلسانها فقال « هى فى النار (١) » وذكرت عنده امرأة أخرى بأنها بخيلة فقال « فما خيرها إذن (٢) » فهذا فاسد لأنهم كانوا يذكرون ذلك لحاجتهم إلى تعرف الأحكام بالسؤال ، ولم يكن غرضهم التنقيص ولا يحتاج إليه فى غير مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم . والدليل عليه إجماع الأمة على أن من ذكر غيره بما يكرهه فهو مغتاب لأنه داخل فيما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حد الغيبة .

وكل هذا وإن كان صادقا فيه فهو به مغتاب عاص لربه وآكل لحم أخيه ، بدليل ماروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « هل تدرون ما الغيبة ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم قال « ذكرك أخاك بما يكرهه » قيل : أرأيت إن كان فى أخى ماأقوله ؟ قال « إن كان فيه ماتقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته (٣) » وقال معاذ بن جبل : ذكر رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : ما أعجزه ! فقال صلى الله عليه وسلم « اغتبتم أخاكم » قالوا يارسول الله قلنا ما فيه ، قال « إن قلتم ماليس فيه فقد بهتموه (٤) » وعن حذيفة عن عائشة رضى الله عنها أنها ذكرت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة فقالت : إنها قصيرة فقال صلى الله عليه وسلم « اغتبتيها (٥) » وقال الحسن ذكر الغير ثلاثة الغيبة والبهتان والإفك ، وكل فى كتاب الله عزوجل ؛ فالغيبة أن تقول مافيه ، والبهتان أن تقول ماليس فيه ، والإفك أن تقول ما بلغك وذكر ابن سيرين رجلا فقال : ذاك الرجل الأسود ، ثم قال أستغفر الله إنى أرانى قد اغتبته . وذكر ابن سيرين إبراهيم النخعى فوضع يده على عينه ولم يقل الأعور . وقالت عائشة لايغتابن أحدكم أحدا فإنى قلت لامرأة مرة وأنا عند النبى صلى الله عليه وسلم إن هذه لطويلة الذيل فقال لى « الفظى الفظى » فلفظت مضغة لحم (٦) » .

بيان أن الغيبة لا تقتصر على اللسان

اعلم أن الذكر باللسان إنما حرم لأن فيه تفهيم الغير نقصان أخيك وتعريفه بما يكرهه ، فالتعريض به كالتصريح والفعل فيه كالقول ، والإشارة والإيماء والغمز والهمز والكتابة والحركة وكل مايفهم المقصود فهو داخل فى الغيبة وهو حرام . فمن ذلك قول عائشة رضى الله عنها : دخلت علينا امرأة فلما ولت أومات بيدى أنها قصيرة فقال عليه

---

(١) حديث : ذكر له امرأة وكثرة صومها وصلاتها لكن تؤذى جيرانها فقال « هى فى النار » أخرجه ابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة (٢) حديث : ذكر امرأة أخرى بأنها بخيلة قال « فما خيرها إذن » أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث أبى جعفر محمد بن على مرسلا ورويناه فى أمالى ابن شمعون هكذا (٣) حديث « هل تدرون ماالغيبة ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم ، قال « ذكرك أخاك بما يكره ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة (٤) حديث معاذ : ذكر رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ما أعجزه ... الحديث . أخرجه الطبرانى بسند ضعيف (٥) حديث عائشة : أنها ذكرت امرأة فقالت إنها قصيرة فقال « اغتبتيها » رواه أحمد وأصله عند أبى داود والترمذى وصححه بلفظ آخر ووقع عند المصنف عن حذيفة عن عائشة وكذا هو فى الصمت لابن أبى الدنيا والصواب عن أبى حذيفة كما عند أحمد وأبى داود والترمذى واسم أبى حذيفة سلمة بن صهيب (٦) حديث عائشة : قلت لامرأة وأن هذه طويلة الذيل فقال صلى الله عليه وسلم « الفظى » فلفظت بضعة من لحم . أخرجه ابن أبى الدنيا وابن مردويه فى التفسير وفى اسناده امرأة لاأعرفها .

السلام « اغتبتيها [1] » ومن ذلك المحاكاة يمشى متعارجا أو كما يمشى فهو غيبة بل هو أشد من الغيبة لأنه أعظم فى التصوير والتفهيم ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة حاكت امرأة قال « مايسرنى أنى حاكيت إنسانا ولى كذا وكذا [2] » . وكذلك الغيبة بالكتابة فإن القلم أحد اللسانين . وذكر المصنف شخصا معينا وتهجين كلامه فى الكتاب غيبة إلا أن يقترن به شىء من الأعذار المحوجة إلى ذكره ـ كما سيأتى بيانه ـ وأماقوله : قال قوم كذا : فليس ذلك غيبة ، وإنما الغيبة التعرض لشخص معين إما حى وإما ميت . ومن الغيبة أن تقول : بعض من مر بنا اليوم ، أوبعض من رأيناه ؛ إذاكان المخاطب يفهم منه شخصاً معيناً ؛ لأن المحذور تفهيمه دون مابه التفهيم فأما إذا لم يفهم عينه جاز . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كره من إنسان شيئا قال « ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا [3] » فكان لايعين . وقولك : بعض من قدم من السفر ، أو بعض من يدعى العلم ، إن كان معه قرينة تفهم عين الشخص فهى غيبة .

وأخبث أنواع الغيبة غيبة القراء المرائين فإنهم يفهمون المقصود على صيغة أهل الصلاح ليظهروا من أنفسهم التعفف عن الغيبة ويفهمون المقصود ، ولا يدرون بجهلهم أنهم جمعوا بين فاحشتين الغيبة والرياء ، وذلك مثل أن يذكر عنده إنسان فيقول : الحمد لله الذى لم يبتلنا بالدخول على السلطان والتبذل فى طلب الحطام ، أويقول : نعوذ بالله من قلة الحياء نسأل الله أن يعصمنا منها ، وإنما قصده أن يفهم عيب الغير فيذكره بصيغة الدعاء ، وكذلك قد يقدم مدح من يريد غيبته فيقول : ماأحسن أحوال فلان : ماكان يقصر فى العبادات ولكن قد اعتراه فتور وابتلى بما يبتلى به كلنا وهو قلة الصبر . فيذكر نفسه ومقصوده أن يذم غيره فى ضمن ذلك ويمدح نفسه بالتشبه بالصالحين بأن يذم نفسه ، فيكون مغتابا ومرائياً ومزكياً نفسه ، فيجمع بين ثلاث فواحش وهو بجهله يظن أنه من الصالحين المتعففين عن الغيبة . ولذلك يلعب الشيطان بأهل الجهل إذا اشتغلوا بالعبادة من غير علم فإنه يتبعهم ويحبط بمكايده عملهم ويضحك عليهم ويسخر منهم . ومن ذلك أن يذكر عيب إنسان فلا يتنبه له بعض الحاضرين فيقول : سبحان الله ماأعجب هذا ! حتى يصغى إليه ويعلم مايقول ، فيذكر الله تعالى ويستعمل الاسم آلة فى تحقيق خبثه ، وهو يمتن على الله عز وجل بذكره جهلا منه وغرورا . وكذلك يقول : ساءنى ماجرى على صديقنا من الاستخفاف به نسأل الله أن يروح نفسه ، فيكون كاذبا فى دعوى الاغتمام وفى إظهار الدعاء له ، بل لو قصد الدعاء لأخفاه فى خلوته عقيب صلاته ، ولو كان يغتم به لاغتم أيضا بإظهار ما يكرهه . وكذلك يقول : ذلك المسكين قد بلى بآفة عظيمة تاب الله علينا وعليه ، فهو فى كل ذلك يظهر الدعاء والله مطلع على خبث ضميره وخفى قصده ، وهو لجهله لايدرى أنه قد تعرض لمقت أعظم مما تعرض له الجهال إذا جاهروا .

ومن ذلك الإصغاء إلى الغيبة على سبيل التعجب فإنه إنما تظهر التعجب ليزيد نشاط المغتاب فى الغيبة فيندفع فيها وكأنه يستخرج الغيبة منه بهذا الطريق فيقول : عجب ماعلمت أنه كذلك ! ماعرفته إلى الآن إلابالخير : وكنت أحسب فيه غير هذا ، عافانا الله من بلائه ، فإن كل ذلك تصديق للمغتاب والتصديق بالغيبة غيبة بل الساكت شريك

---

(١) حديث عائشة : دخلت علينا امرأة فأومأت بيدى أى قصيرة فقال النبى صلى الله عليه وسلم « قد اغتبتيها » أخرجه ابن أبى الدنيا وابن مردويه من رواية حسان بن مخارق عنها وحسان وثقه ابن حبان وباقيهم ثقات (٢) حديث « مايسرني أنى حكيت ولى كذا وكذا » تقدم فى الآفة الحادية عشرة (٣) حديث كان إذا كره من إنسان شيئا قال « مابال أقوام يفعلون كذا وكذا ... الحديث » أخرجه أبو داود من حديث عائشة دون قوله « وكان لا يعين » ورجاله رجال الصحيح .

المغتاب . قال صلى الله عليه وسلم « المستمع أحد المغتابين [١] » وقد روى عن أبى بكر وعمر رضى الله عنهما أن أحدهما قال لصاحبه : إن فلانا لنئوم ثم إنهما طلبا أدما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأكلا به الخبز فقال صلى الله عليه وسلم « قد ائتدمتما ! » فقالا : مانعلمه ؟ قال « بلى إنكما أكلتما من لحم أخيكما [٢] » فانظر كيف جمعهما وكان القائل أحدهما والآخر مستمعا . وقال للرجلين اللذين قال أحدهما . أقعص الرجل كما يقعص الكلب « انهشا من هذه الجيفة [٣] » فجمع بينهما فالمستمع لايخرج من إثم الغيبة إلا أن ينكر بلسانه أوبقلبه إن خاف ، وإن قدر على القيام أوقطع الكلام بكلام آخر فلم يفعل لزمه ، وإن قال بلسانه اسكت ، وهو مشته لذلك بقلبه فذلك نفاق ، ولايخرجه من الإثم مالم يكرهه بقلبه ، ولايكفى فى ذلك أن يشير باليد أى اسكت ، أويشير بحاجبه وجبينه ، فإن ذلك استحقار للمذكور بل ينبغى أن يعظم ذلك فيذب عنه صريحا وقال صلى الله عليه وسلم من أذل عنده مؤمن فلم ينصره وهو يقدر على نصره أذله الله يوم القيامة على رءوس الخلائق [٤] » وقال أبو الدرداء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من رد عن عرض أخيه بالغيب كان حقاً على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة [٥] » وقال أيضاً « من ذب عن عرض أخيه بالغيب كان حقاً على الله أن يعتقه من النار [٦] » وقد ورد فى نصرة المسلم فى الغيبة وفى فضل ذلك أخبار كثيرة أوردناها فى كتاب آداب الصحبة وحقوق المسلمين فلا نطول بإعادتها .

بيان الأسباب الباعثة على الغيبة

اعلم أن البواعث على الغيبة كثيرة ولكن يجمعها أحد عشر سببا : ثمانية منها تطرد فى حق العامة ، وثلاثة تختص بأهل الدين والخاصة .

أما الثمانية : فالأول أن يشفى الغيظ وذلك إذا جرى سبب غضب به عليه ، فإنه إذا هاج غضبه يشتفى بذكر مساوية فيسبق اللسان إليه بالطبع إن لم يكن ثم دين وازع ، وقد يمتنع تشفى الغيظ عند الغضب فيحتقن الغضب فى الباطن فيصير حقداً ثابتاً فيكون سببا دائما لذكر المساوى ، فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة .

الثانى : موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام ، فإنهم إذا كانوا يتفكهون بذكر الأعراض فيرى أنه لو أنكر عليهم أو قطع المجلس استثقلوه ونفروا عنه فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة ويظن أنه مجاملة فى الصحبة ، وقد يغضب رفقاؤه فيحتاج إلى أن يغضب لغضبهم إظهارا للمساهمة فى السراء والضراء فيخوض معهم فى ذكر العيوب والمساوى .

الثالث : أن يستشعر من إنسان أنه سيقصده ويطول لسانه عليه أو يقبح حاله عند محتشم ، أويشهد عليه بشهادة

---

(١) حديث « المستمع أحد المغتابين » أخرجه الطبرانى من حديث ابن عمر : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة وعن الاستماع إلى الغيبة . وهو ضعيف ر (٢) حديث : أن أبا بكر وعمر قال أحدهما لصاحبه إن فلانا لنئوم ثم طلبا أدما من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « قد ائتدمتما ؟ » فقالا : مانعلم ؟ فقال بلى ماأكلتما من لحم صاحبكما » أخرجه أبو العباس الدغولى فى الآداب من رواية عبد الرحمن بن أبى ليلى مرسلا نحوه (٣) حديث « انهشا من هذه الميتة » قاله للرجلين اللذين قال أحدهما: اقعص كما يقعص الكلب . تقدم قبل هذا باثنى عشر حديثا (٤) حديث « من أذل عنده مؤمن وهو قادر على أن ينصره فلم ينصره أذله الله يوم القيامة على رءوس الخلائق » أخرجه الطبرانى من حديث سهل بن حنيف وفيه ابن لهيعة (٥) حديث أبى الدرداء « من رد عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت وفيه شهر بن حوشب وهو عند الطبرانى من وجه آخر بلفظ « رد الله عن وجهه النار يوم القيامة » وفى رواية له « كان له حجابا من النار » وكلاهما ضعيف (٦) حديث « من ذب عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يعتقه من النار » أخرجه أحمد والطبرانى من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد .

فيبادره قبل أن يقبح هو حاله ويطعن فيه ليسقط أثر شهادته ، أو يبتدئ بذكر ما فيه صادقا ليكذب عليه بعده فيروج كذبه بالصدق الأول ويستشهد ويقول : ما من عادتي الكذب ، فإني أخبرتكم بكذا وكذا من أحواله فكان كما قلت .

الرابع : أن ينسب إلى شيء فيريد أن يتبرأ منه فيذكر الذي فعله ، وكان من حقه أن يبرئ نفسه ولا يذكر الذي فعل فلا ينسب غيره إليه ، أو يذكر غيره بأنه كان مشاركا له في الفعل ليمهد بذلك عذر نفسه في فعله .

الخامس : إرادة التصنع والمباهاة ، وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره فيقول فلان جاهل وفهمه ركيك وكلامه ضعيف : وغرضه أن يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه ويريهم أنه أعلم منه ، أو يحذر أن يعظم مثل تعظيمه فيقدح فيه لذلك .

السادس : الحسد وهو أنه ربما يحسد من يثني الناس عليه ويحبونه ويكرمونه ، فيريد زوال تلك النعمة عنه فلا يجد سبيلا إليه إلا بالقدح فيه ، فيريد أن يسقط ماء وجهه عند الناس حتى يكفوا عن كرامته والثناء عليه لأنه يثقل عليه أن يسمع كلام الناس وثناءهم عليه وإكرامهم له ، وهذا هو عين الحسد وهو غير الغضب والحقد ، فإن ذلك يستدعي جناية من المغضوب عليه ، والحسد قد يكون مع الصديق المحسن والرفيق الموافق .

السابع : اللعب والهزل والمطايبة وتزجية الوقت بالضحك ، فيذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة ومنشؤه التكبر والعجب .

الثامن : السخرية والاستهزاء استحقاراً له فإن ذلك قد يجري في الحضور ويجري أيضا في الغيبة ومنشؤه التكبر واستصغار المستهزأ به .

وأما الأسباب الثلاثة التي هي في الخاصة فهي أغمضها وأدقها ، لأنها شرور خبأها الشيطان في معرض الخيرات وفيها خير ولكن شاب الشيطان بها الشر .

الأول : أن تنبعث من الدين داعية التعجب في إنكار المنكر والخطأ في الدين ، فيقول ما أعجب ما رأيت من فلان ! فإنه قد يكون به صادقا ويكون تعجبه من المنكر ، ولكن كان حقه أن يتعجب ولا يذكر اسمه فيسهل الشيطان عليه ذكر اسمه في إظهار تعجبه ، فصار به مغتابا وآثما من حيث لا يدري . ومن ذلك قول الرجل: تعجبت من فلان كيف يحب جاريته وهي قبيحة ؟ وكيف يجلس بين يدي فلان وهو جاهل ؟ .

الثاني : الرحمة وهو أن يغتم بسبب ما يبتلى به فيقول : مسكين فلان قد غمني أمره وما ابتلي به ، فيكون صادقا في دعوى الاغتمام ويلهيه الغم عن الحذر من ذكر اسمه فيذكره فيصير به مغتابا فيكون غمه ورحمته خيرا ، وكذا تعجبه ولكن ساقه الشيطان إلى شر من حيث لا يدري ، والترحم والاغتمام ممكن دون ذكر اسمه فيهيجه الشيطان على ذكر اسمه ليبطل به ثواب اغتمامه وترحمه .

الثالث : الغضب لله تعالى فإنه قد يغضب على منكر قارفه إنسان إذا رآه أو سمعه فيظهر غضبه ويذكر اسمه ، وكان الواجب أن يظهر غضبه عليه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يظهره على غيره ، أو يستر اسمه ولا يذكره بالسوء ، فهذه الثلاثة مما يغمض دركها على العلماء فضلا عن العوام ، فإنهم يظنون أن التعجب والرحمة والغضب إذا كان لله تعالى كان عذرا في ذكر الاسم وهو خطأ ، بل المرخص في الغيبة حاجات مخصوصة لا مندوحة فيها عن ذكر الاسم ـ كما سيأتي ذكره ـ روي عن عامر بن واثلة : أن رجلا مر على قوم في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فسلم عليهم فردوا عليه السلام ، فلما جاوزهم قال رجل منهم : إنى لأبغض هذا فى الله تعالى فقال أهل المجلس : لبئس ما قلت والله لننبئنه ، ثم قالوا : يافلان لرجل منهم ـ قم فأدركه وأخبره بما قال فأدركه رسولهم فأخبره فأتى الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكى له ماقال وسأله أن يدعوه له ، فدعاه وسأله فقال : قد قلت ذلك فقال صلى الله عليه وسلم « لم تبغضه ؟ » فقال : أنا جاره وأنا به خابر ، والله مارأيته يصلى صلاة قط إلا هذه المكتوبة ، قال : فاسأله يارسول الله هل رآنى أخرتها عن وقتها أو أسأت الوضوء لها أو الركوع أو السجود فيها؟ فسأله فقال ؟لا، فقال : والله مارأيته يصوم شهرا قط إلا هذا الشهر الذى يصومه البر والفاجر ، قال : فاسأله يارسول الله هل رآنى قط أفطرت فيه أو نقصت من حقه شيئاً ؟ فسأله عنه فقال : لا ، فقال : والله مارأيته يعطى سائلا ولا مسكينا قط ولا رأيته ينفق شيئاً من ماله فى سبيل الله إلا هذه الزكاة التى يؤديها البر والفاجر ، قال : فاسأله يارسول الله هل رآنى نقصت منها أو ماكست فيها طالبها الذى يسألها ؟ فسأله فقال : لا ، فقال صلى الله عليه وسلم للرجل « قم فلعله خير منك [١] » .

بيان العلاج الذى يمنع اللسان عن الغيبة

اعلم أن مساوى الأخلاق كلها إنما تعالج بمعجون العلم والعمل ، وإنما علاج كل علة بمضادة سببها ، فلنفحص عن سببها . وعلاج كف اللسان عن الغيبة على وجهين : أحدهما على الجملة ، والآخر على التفصيل :

أما على الجملة : فهو أن يعلم تعرضه لسخط الله تعالى بغيبته بهذه الأخبار التى رويناها وأن يعلم أنها محبطة لحسناته يوم القيامة ، فإنها تنقل حسناته يوم القيامة إلى من اغتابه بدلا عما استباحه من عرضه ، فإن لم تكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه ، وهو مع ذلك متعرض لمقت الله عز وجل ومشبه عنده بآكل الميتة ، بل العبد يدخل النار بأن تترجح كفة سيئاته على كفة حسناته وربما تنقل إليه سيئة واحدة ممن اغتابه فيحصل بها الرجحان ويدخل بها النار ، وإنما أقل الدرجات أن تنقص من ثواب أعماله وذلك بعد المخاصمة والمطالبة والسؤال والجواب والحساب . قال صلى الله عليه وسلم « ما النار فى اليبس بأسرع من الغيبة فى حسنات العبد [٢] » وروى أن رجلا قال للحسن : بلغنى أنك تغتابنى ، فقال : مابلغ من قدرك عندى أنى أحكمك فى حسناتى . فمهما آمن العبد بما ورد من الأخبار فى الغيبة لم يطلق لسانه بها خوفا من ذلك ، وينفعه أيضاً أن يتدبر فى نفسه فإن وجد فيها عيبا اشتغل بعيب نفسه وذكر قوله صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس [٣] » ومهما وجد عيبا فينبغى أن يستحى من أن يترك ذم نفسه ويذم غيره ، بل ينبغى أن يتحقق أن عجز غيره عن نفسه فى التنزه عن ذلك العيب كعجزه ، وهذا إن كان ذلك عيبا يتعلق بفعله واختياره ، وإن كان أمرا خلقيا فالذم له ذم للخالق فإن من ذم صنعة فقد ذم صانعها . قال رجل لحكيم : ياقبيح الوجه ، قال : ما كان خلق وجهى إلى فأحسنه . وإذا لم يجد العبد عيبا فى نفسه فليشكر الله تعالى ولا يلوثن نفسه بأعظم العيوب ، فإن ثلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب ، بل لو أنصف لعلم أن ظنه بنفسه أنه برىء من كل عيب جهل بنفسه وهو من أعظم العيوب ، وينفعه أن يعلم أن تألم غيره بغيبته كتألمه بغيبة غيره له ، فإذا كان لايرضى لنفسه أن يغتاب فينبغى أن لايرضى لغيره مالايرضاه لنفسه . فهذه معالجات جملية.

---

(١) حديث عامر بن واثلة : أن رجلا مر على قوم فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم عليهم فردوا عليه السلام فلما جاوزهم قال رجل منهم : إنى لأبغض هذا فى الله ... الحديث بطوله . وفيه فقال « قم فلعله خير منك » أخرجه أحمد باسناد صحيح

(٢) حديث « ما النار فى اليبس بأسرع من الغيبة فى حسنات العبد » لم أجد له أصلا (٣) حديث « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس » أخرجه البزار من حديث أنس بسند ضعيف .

أما التفصيل فهو أن ينظر فى السبب الباعث له على الغيبة فإن علاج العلة بقطع سببها وقد قدمنا الأسباب .

أما الغضب فيعالجه بما سيأتى فى كتاب آفات الغضب وهو أن يقول : إنى إذا أمضيت غضبى عليه فلعل الله تعالى يمضى غضبه على بسبب الغيبة إذ نهانى عنها فاجترأت على نهيه واستخففت بزجره وقد قال صلى الله عليه وسلم « إنّ لجهنم بابا لايدخل منه إلا من شفى غيظه بمعصية الله تعالى [1] » وقال صلى الله عليه وسلم « من اتقى ربه كل لسانه ولم يشف غيظه [2] » وقال صلى الله عليه وسلم « من كظم غيظا وهو يقدر على أن يمضيه دعاه الله تعالى يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يخيره فى أى الحور شاء [3] » وفى بعض الكتب المنزلة على بعض النبيين : يا ابن آدم اذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أمحقك فيمن أمحق .

وأما الموافقة فبأن تعلم أن الله تعالى يغضب عليك إذا طلبت سخطه فى رضا المخلوقين ، فكيف ترضى لنفسك أن توقر غيرك وتحقر مولاك فتترك رضاه لرضاهم إلا أن يكون غضبك لله تعالى ؟ وذلك لا يوجب أن تذكر المغضوب عليه بسوء بل ينبغى أن تغضب لله أيضاً على رفقائك إذا ذكروه بالسوء ، فإنهم عصوا ربك بأفحش الذنوب وهى الغيبة .

وأما تنزيه النفس بنسبة الغير إلى الخيانة حيث يستغنى عن ذكر الغير ، فتعالجه بأن تعرف أن التعرض لمقت الخالق أشد من التعرض لمقت المخلوقين وأنت بالغيبة متعرض لسخط الله يقينا ولا تدرى أنك تتخلص من سخط الناس أم لا ! فتخلص نفسك فى الدنيا بالتوهم وتهلك فى الآخرة وتخسر حسناتك بالحقيقة ويحصل لك ذم الله تعالى نقدا وتنتظر دفع ذم الخلق نسيئة وهذا غاية الجهل والخذلان .

وأما عذرك كقولك إن أكلت الحرام ففلان يأكله وإن قبلت مال السلطان ففلان يقبله فهذا جهل لأنك تعتذر بالاقتداء بمن لا يجوز الاقتداء به فإن من خالف أمر الله تعالى لايقتدى به كائنا من كان ولو دخل غيرك النار وأنت تقدر على أن لا تدخلها لم توافقه ولو وافقته لسفه عقلك . ففيما ذكرته غيبة وزيادة معصية أضفتها إلى ما اعتذرت عنه وسجلت مع الجمع بين المعصيتين على جهلك وغباوتك وكنت كالشاة تنظر إلى المعزى تردى نفسها من قلة الجبل فهى أيضاً تردى نفسها ، ولو كان لها لسان ناطق بالعذر وصرحت بالعذر وقالت : العنز أكيس منى وقد أهلكت نفسها فكذلك أنا أفعل ، لكنت تضحك من جهلها وحالك مثل حالها ثم لا تعجب ولا تضحك من نفسك .

وأما قصدك المباهاة وتزكية النفس بزيادة الفضل بأن تقدح فى غيرك فينبغى أن تعلم أنك بما ذكرته به أبطلت فضلك عند الله وأنت من اعتقاد الناس فضلك على خطر ، وربما نقص اعتقادهم فيك إذا عرفوك بثلب الناس فتكون قد بعت ما عند الخالق يقينا بما عند المخلوقين وهما ، ولو حصل لك من المخلوقين اعتقاد الفضل لكانوا لا يغنون عنك من الله شيئاً .

وأما الغيبة لأجل الحسد فهو جمع بين عذابين لأنك حسدته على نعمة الدنيا وكنت فى الدنيا معذبا بالحسد ، فما قنعت بذلك حتى أضفت إليه عذاب الآخرة ، فكنت خاسرا نفسك فى الدنيا فصرت أيضاً خاسرا فى الآخرة

---

(١) حديث « إن لجهنم بابا لايدخله الا من شفى غيظه بمعصية الله » أخرجه البزار وابن أبي الدنيا وابن عدى والبيهقى والنسائى من حديث ابن عباس بسند ضعيف (٢) حديث « من اتقى ربه كل لسانه ولم يشف غيظه » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف ورويناه فى الأربعين البلدانية للسلفى (٣) حديث « من كظم غيظا وهو قادر على أن ينفذه ... الحديث » أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث معاذ بن أنس .

لتجمع بين النكالين ، فقد قصدت محسودك فأصبت نفسك وأهديت إليه حسناتك . فإذا أنت صديقه وعدو نفسك إذ لاتضره غيبتك وتضرك ، وتنفعه إذ تنقل إليه حسناتك أو تنقل إليك سيئاته ولا تنفعك وقد جمعت إلى خبث الحسد جهل الحماقة . وربما يكون حسدك وقدحك سبب انتشار فضل محسودك كما قيل :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

وأما الاستهزاء فمقصودك منه إخزاء غيرك عند الناس بإخزاء نفسك عند الله تعالى وعند الملائكة والنبيين عليهم الصلاة والسلام ، فلو تفكرت فى حيرتك وجنايتك وخجلتك وخزيك يوم القيامة يوم تحمل سيئات من استهزأت به وتساق إلى النار لأدهشك ذلك عن إخزاء صاحبك ! ولو عرفت حالك لكنت أولى أن تضحك منك ، فإنك سخرت به عند نفر قليل وعرّضت نفسك لأن يأخذ يوم القيامة بيدك على ملأ من الناس ويسوقك تحت سيئاته كما يساق الحمار إلى النار ، مستهزئا بك وفرحا بخزيك ومسرورا بنصرة الله تعالى إياه عليك وتسلطه على الانتقام منك .

وأما الرحمة له على إثمه فهو حسن ، ولكن حسدك إبليس فأضلك ، واستنطقك بما ينقل من حسناتك إليه ماهو أكثر من رحمتك ، فيكون جبرا لإثم المرحوم فيخرج عن كونه مرحوما ، وتنقلب أنت مستحقا لأن تكون مرحوما ، إذ حبط أجرك ونقصت من حسناتك ، وكذلك الغضب لله تعالى لايوجد الغيبة ، وإنما الشيطان حبب إليك الغيبة ليحبط أجر غضبك وتصير معرضا لمقت الله عز وجل بالغيبة .

وأما التعجب إذا أخرجك إلى الغيبة فتعجب من نفسك أنت ؟ كيف أهلكت نفسك ودينك بدين غيرك أو بدنياه وأنت مع ذلك لاتأمن عقوبة الدنيا ! وهو أن يهتك الله سترك كما هتكت بالتعجب ستر أخيك . فإذن علاج جميع ذلك المعرفة فقط والتحقق بهذه الأمور التى هى من أبواب الإيمان ، فمن قوى إيمانه بجميع ذلك انكف لسانه عن الغيبة لا محالة .

بيان تحريم الغيبة بالقلب

اعلم أن سوء الظن حرام مثل سوء القول ، فكما يحرم عليك أن تحدث غيرك بلسانك بمساوى الغير فليس لك أن تحدث نفسك وتسىء الظن بأخيك ، ولست أعنى به إلا عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء . فأما الخواطر وحديث النفس فهو معفو عنه بل الشك أيضا معفو عنه ، ولكن المنهى عنه أن يظن ، والظن عبارة عما تركن إليه النفس ويميل إليه القلب . فقد قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ﴾ وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب ، فليس لك أن تعتقد فى غيرك سوءا إلا إذا انكشف لك بعيان لايقبل التأويل ، فعند ذلك لايمكنك إلا أن تعتقد ماعلمته وشاهدته ، وما لم تشاهده بعينك ولم تسمعه بأذنك ثم وقع فى قلبك فإنما الشيطان يلقيه إليك ، فينبغى أن تكذبه فإنه أفسق الفساق . وقد قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة ﴾ فلا يجوز تصديق إبليس ، وإن كان ثم مخيلة تدل على فساد واحتمل خلافه لم يجز أن تصدق به ، لأن الفاسق يتصور أن يصدق فى خبره ولكن لا يجوز لك أن تصدق به ، حتى إن من استنكه فوجد منه رائحة الخمر لا يجوز أن يحد ، إذ يقال يمكن أن يكون قد تمضمض بالخمر ومجها وماشربها ، أو حمل عليه قهرا ، فكل ذلك لامحالة دلالة محتملة فلا يجوز تصديقها بالقلب

وإساءة الظن بالمسلم بها ، وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم « إن الله حرم من المسلم دمه وماله وأن يظن به ظن السوء [١] » فلا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال وهو نفس مشاهدته أو بينة عادلة ، فإذا لم يكن كذلك وخطر لك وسواس سوء الظن فينبغى أن تدفعه عن نفسك وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان ، وأن مارأيته منه يحتمل الخير والشر .

فإن قلت : فبماذا يعرف عقد الظن والشكوك تختلج والنفس تحدث ؟ فنقول : أمارة عقد سوء الظن أن يتغير القلب معه عما كان فينفر عنه نفورا ما ، ويستثقله ويفتر عن مراعاته وتفقده وإكرامه والاغتمام بسببه ؛ فهذه أمارات عقد الظن وتحقيقه .

وقد قال صلى الله عليه وسلم « ثلاث فى المؤمن وله منهن مخرج فمخرجه من سوء الظن أن لا يحققه [٢] » أى لايحققه فى نفسه بعقد ولا فعل لا فى القلب ولا فى الجوارح . أما فى القلب : فبتغيره إلى النفرة والكراهة . وأما فى الجوارح : فبالعمل بموجبه . والشيطان قد يقرر على القلب بأدنى مخيلة مساءة الناس ، ويلقى إليه أن هذا من فطنتك وسرعة فهمك وذكائك وأن المؤمن ينظر بنور الله تعالى ، وهو على التحقيق ناظر بغرور الشيطان وظلمته .

وأما إذا أخبرك به عدل فمال ظنك إلى تصديقه كنت معذورا ، لأنك لو كذبته لكنت جانيا على هذا العدل إذ ظننت به الكذب ، وذلك أيضا من سوء الظن ، فلا ينبغى أن تحسن الظن بواحد وتسىء بالآخر . نعم ينبغى أن تبحث هل بينهما عداوة ومحاسدة وتعنت فتتطرق التهمة بسببه ؟ فقد رد الشرع شهادة الأب العدل للولد للتهمة ورد شهادة العدو [٣] فلك عند ذلك أن تتوقف ، وإن كان عدلا فلا تصدقه ولا تكذبه ، ولكن تقول فى نفسك : المذكور حاله كان عندى فى ستر الله تعالى ، وكان أمره محجوبا عنى وقد بقى كما كان لم ينكشف لى شىء من أمره ، وقد يكون الرجل ظاهره العدالة ولا محاسدة بينه وبين المذكور ، ولكن قد يكون من عادته التعرض للناس وذكر مساويهم ، فهذا قد يظن أنه عدل وليس بعدل ، فإن المغتاب فاسق ، وإن كان ذلك من عادته ردت شهادته إلا أن الناس لكثرة الاعتياد تساهلوا فى أمر الغيبة ولم يكترثوا بتناول أعراض الخلق .

ومهما خطر لك خاطر بسوء على مسلم فينبغى أن تزيد فى مراعاته وتدعو له بالخير ، فإن ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك فلا يلقى إليك الخاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة . ومهما عرفت هفوة مسلم بحجة فانصحه فى السر ولا يخدعنك الشيطان فيدعوك إلى اغتيابه ، وإذا وعظته فلا تعظه وأنت مسرور باطلاعك على نقصه لينظر إليك بعين التعظيم وتنظر إليه بعين الاستحقار وتترفع عليه ، بإيذاء الوعظ . وليكن قصدك تخليصه من الإثم وأنت حزين ، كما تحزن على نفسك إذا دخل عليك نقصان فى دينك : وينبغى أن يكون تركه لذلك من غير نصحك أحب إليك من تركه بالنصيحة . فإذا أنت فعلت ذلك كنت قد جمعت بين أجر الوعظ وأجر الغم بمصيبته وأجر الإعانة له على دينه .

---

(١) حديث « إن الله حرم من المسلم دمه وماله وأن يظن به ظن السوء » أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس بسند ضعيف ولابن ماجه نحوه من حديث ابن عمر . (٢) حديث « ثلاث فى المؤمن وله منهن مخرج » أخرجه الطبرانى من حديث حارثة بن النعمان بسند ضعيف (٣) حديث : رد الشرع شهادة الوالد العدل وشهادة العدو » أخرجه الترمذى من حديث عائشة وضعفه « لاتجوز شهادة خائن ولا خائنة ولامجلود حدا ولا ذى غمر لأخيه » وفيه « ولاظنين فى ولاء ولاقرابة » ولأبى داود وابن ماجه باسناد جيد من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رد شهادة الخائن والخائنة وذى الغمر على أخيه .

ومن ثمرات سوء الظن التجسس ، فإن القلب لا يقنع بالظن ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس وهو أيضا منهى عنه ، قال الله تعالى ﴿ولا تجسسوا﴾ فالغيبة وسوء الظن والتجسس منهى عنه فى آية واحدة . ومعنى التجسس أن لا يترك عباد الله تحت ستر الله ، فيتوصل إلى الإطلاع وهتك الستر حتى ينكشف له مالو كان مستورا عنه كان أسلم لقلبه ودينه . وقد ذكرنا فى كتاب الأمر بالمعروف حكم التجسس وحقيقته .

بيان الأعذار المرخصة فى الغيبة

اعلم أن المرخص فى ذكر مساوى الغير هو غرض صحيح فى الشرع لا يمكن التوصل إليه إلا به فيدفع ذلك إثم الغيبة وهى ستة أمور :

الأول : التظلم فإن من ذكر قاضيا بالظلم والخيانة وأخذ الرشوة كان مغتابا عاصيا إن لم يكن مظلوما . أما المظلوم من جهة القاضى فله أن يتظلم إلى السلطان وينسبه إلى الظلم إذ لا يمكنه استيفاء حقه إلا به قال صلى الله عليه وسلم « إن لصاحب الحق مقالا [1] » وقال عليه السلام « مطل الغنى ظلم [2] » وقال عليه السلام « لى الواجد يحل عقوبته وعرضه [3] » .

الثانى : الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصى إلى منهج الصلاح ، كما روى أن عمر رضى الله عنه مر على عثمان ـ وقيل على طلحة ـ رضى الله عنه فسلم عليه فلم يرد السلام ، فذهب إلى أبى بكر رضى الله عنه فذكر له ذلك ، فجاء أبو بكر إليه ليصلح ذلك ولم يكن ذلك غيبة عندهم . وكذلك لما بلغ عمر رضى الله عنه أن أبا جندل قد عاقر الخمر بالشام كتب إليه ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب﴾ الآية فتاب ، ولم ير ذلك عمر ممن أبلغه غيبة ، إذ كان قصده أن ينكر عليه ذلك فينفعه نصحه مالا ينفعه نصح غيره ، وإنما إباحة هذا بالقصد الصحيح فإن لم يكن ذلك هو المقصود كان حراما .

الثالث : الاستفتاء كما يقول للمفتى : ظلمنى أبى أو زوجتى أو أخى فكيف طريقى فى الخلاص ؟ والأسلم التعريض بأن يقول : ما قولك فى رجل ظلمه أبوه أو أخوه أو زوجته ؟ ولكن التعيين مباح بهذا القدر لما روى عن هند بنت عتبة أنها قالت للنبى صلى الله عليه وسلم : « إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطينى ما يكفينى أنا وولدى أفآخذ من غير علمه فقال « خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف [4] » فذكرت الشح والظلم لها ولولدها ولم يزجرها صلى الله عليه وسلم إذ كان قصدها الاستفتاء .

الرابع : تحذير المسلم من الشر ، فإذا رأيت فقيها يتردد إلى مبتدع أو فاسق وخفت أن تتعدى إليه بدعته وفسقه فلك أن تكشف له بدعته وفسقه ، مهما كان الباعث لك الخوف عليه من سراية البدعة والفسق لا غيره ، وذلك موضع الغرور إذ قد يكون الحسد هو الباعث ويلبس الشيطان ذلك بإظهار الشفقة على الخلق ، وكذلك من اشترى مملوكا وقد عرفت المملوك بالسرقة أو بالفسق أو بعيب آخر فلك أن تذكر ذلك ، فإن سكوتك ضرر المشترى وفى ذكرك ضرر العبد ، والمشترى أولى بمراعاة جانبه . وكذلك المزكى إذا سئل عن الشاهد فله الطعن فيه إن علم مطعنا ، وكذلك المستشار فى التزويج وإيداع الأمانة له أن يذكر ما يعرفه على قصد النصح للمستشير لا على قصد

---

(١) حديث « لصاحب الحق مقال » متفق عليه من حديث أبى هريرة . (٢) حديث « مطل الغنى ظلم » متفق عليه من حديثه
(٣) حديث « لى الواجد يحل عرضه وعقوبته » أخرجه أبو داود والنسائى وابن ماجه من حديث الشريد باسناد صحيح
(٤) حديث : ان هندا قالت ان أبا سفيان رجل شحيح . متفق عليه من حديث عائشة .

الوقيعة : فإن علم أنه يترك التزويج بمجرد قوله : لا تصلح لك ، فهو الواجب وفيه الكفاية وإن علم أنه لاينزجر إلا بالتصريح بعيبه فله أن يصرح به ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أترعوون عن ذكر الفاجر اهتكوه حتى يعرفه الناس اذكروه بما فيه حتى يحذره الناس »(١) ، وكانوا يقولون ثلاثة لاغيبة لهم : الإمام الجائر والمبتدع والمجاهر بفسقه .

الخامس : أن يكون الإنسان معروفا بلقب يعرب عن عيبه كالأعرج والأعمش ، فلا إثم على من يقول روى أبو الزناد عن الأعرج ، وسلمان عن الأعمش ، ومايجرى مجراه فقد فعل العلماء ذلك لضرورة التعريف ، ولأن ذلك قد صار بحيث لايكرهه صاحبه لو علمه بعد أن قد صار مشهورا به . نعم إن وجد عنه معدلا وأمكنه التعريف بعبارة أخرى فهو أولى ، ولذلك يقال للأعمى : البصير ، عدولا عن اسم النقص .

السادس : أن يكون مجاهرا بالفسق كالمخنث وصاحب الماخور والمجاهر بشرب الخمر ومصادرة الناس ، وكان ممن يتظاهر به بحيث لايستنكف . من أن يذكر له ولايكره أن يذكر به ، فإذا ذكرت فيه مايتظاهر به فلا إثم عليك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ألقى جلباب الحياء عن وجهه فلا غيبة له »(٢) ، وقال عمر رضي الله عنه . ليس لفاجر حرمة وأراد به المجاهر بفسقه دون المستتر إذا المستتر لابد من مراعاة حرمته . وقال الصلت بن طريف : قلت للحسن : الرجل الفاسق المعلن بفجوره ذكرى له بمافيه غيبة له ؟ قال : لا ولا كرامة . وقال الحسن . ثلاثة لاغيبة لهم ؛ صاحب الهوى والفاسق المعلن بفسقه والإمام الجائر فهؤلاء الثلاثة يجمعهم انهم يتظاهرون به وربما يتفاخرون به ، فكيف يكرهون ذلك وهم يقصدون إظهاره ؟ نعم لو ذكره بغيرما يتظاهر به اثم . وقال عوف : دخلت على ابن سيرين فتناولت عنده الحجاج فقال : إن الله حكم عدل ، ينتقم للحجاج ممن اغتابه كما ينتقم من الحجاج لمن ظلمه ، وإنك إذا لقيت الله تعالى غدا كان أصغر ذنب أصبته أشد عليك من أعظم ذنب أصابه الحجاج .

بيان كفارة الغيبة

اعلم أن الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ويتأسف على مافعله ليخرج به من حق الله سبحانه ، ثم يستحل المغتاب ليحله فيخرج من مظلمته ! وينبغى أن يستحله وهو حزين متأسف نادم على فعله ؟ إذ المرائى قد يستحل ليظهر من نفسه الورع وفى الباطن لايكون نادما ، فيكون قد قارف معصية أخرى وقال الحسن . يكفيه الاستغفار دون الاستحلال . وربما استدل فى ذلك بما روى أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كفارة من اغتبته أن تستغفر له »(٣) ، وقال مجاهد كفارة أكلك لحم أخيك : أن تثنى عليه وتدعو له بخير . وسئل عطاء بن أبى رباح عن التوبة من الغيبة قال : أن تمشى إلى صاحبك فتقول له ؛ كذبت فيما قلت وظلمتك وأسأت فإن شئت أخذت بحقك وإن شئت عفوت ، وهذا هو الأصح : وقول القائل : العرض لاعوض له فلا يجب الاستحلال منه بخلاف المال كلام ضعيف ، إذ قد وجب فى العرض حد القذف وتثبت المطالبة به . بل فى الحديث الصحيح ماروى أنه صلى الله عليه وسلم قال « من كانت لأخيه عنده مظلمة فى عرض أومال فليستحللها منه من قبل أن يأتى يوم ليس هناك دينار

---

(١) حديث « أترعوون عن ذكر الفاجر اهتكوه حتى يعرفه الناس اذكروه بما فيه يحذره الناس » أخرجه الطبرانى وابن حبان فى الضعفاء وابن عدى من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده دون قوله « حتى يعرفه الناس » ورواه بهذه الزيادة ابن أبى الدنيا فى الصمت . (٢) حديث « من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له » أخرجه ابن عدى وأبو الشيخ فى كتاب ثواب الأعمال من حديث أنس بسند ضعيف وقد تقدم (٣) حديث « كفارة من اغتبته أن تستغفر له » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت والحارث بن أبى أسامة فى مسنده من حديث أنس بسند ضعيف

ولادرهم ، إنما يؤخذ من حسناته فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزيدت على سيئاته [١] ، وقالت عائشة رضى الله عنها لامرأة قالت لأخرى إنها طويلة الذيل : قد اغتبتيها فاستحليها . فإذن لابد من الاستحلال إن قدر عليه ، فإن كان غائبا أو ميتا فينبغى أن يكثر له الاستغفار والدعاء ويكثر من الحسنات .

فإن قلت : فالتحليل هل يجب ؟ . فأقول : لا ، لأنه تبرع والتبرع فضل ، وليس بواجب ولكنه مستحسن وسبيل المعتذر أن يبالغ فى الثناء عليه والتودد إليه ويلازم ذلك حتى يطيب قلبه ، فإن لم يطب قلبه كان اعتذاره وتودده حسنة محسوبة له يقابل بها سيئة الغيبة فى القيامة .

وكان بعض السلف لايحلل . قال سعيد بن المسيب . لاأحلل من ظلمنى . وقال ابن سيرين : إنى لم أحرمها عليه فأحللها له إن الله حرم الغيبة عليه وما كنت لأحلل ماحرم الله أبدا .

فإن قلت : فما معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم ينبغى أن يستحلها وتحليل ماحرمه الله تعالى غير ممكن ؟ فنقول : المراد به العفو عن المظلمة لا أن ينقلب الحرام حلالا ، وما قاله ابن سيرين حسن فى التحليل قبل الغيبة فإنه لايجوز له أن يحلل لغيره الغيبة .

فإن قلت : فما معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم « أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضم كان إذا خرج من بيته قال اللهم إنى قد تصدقت بعرضى على الناس [٢] ، فكيف يتصدق بالعرض ومن تصدق به فهل يباح تناوله فإن كان لاتنفذ صدقته فما معنى الحث عليه ؟ فنقول : معناه إنى لاأطلب مظلمة فى القيامة منه ولاأخاصمه ، وإلافلاتصير الغيبة حلالا به ولا تسقط المظلمة عنه ، لأنه عفو قبل الوجوب إلا أنه وعد ، وله العزم على الوفاء بأن لا يخاصم ، فإن رجع وخاصم كان القياس كسائر الحقوق أن له ذلك : بل صرح الفقهاء أن من أباح القذف لم يسقط حقه من حد القاذف ، ومظلمة الآخرة مثل مظلمة الدنيا ، وعلى الجملة فالعفو أفضل .

قال الحسن إذا جثت الأمم بين يدى الله عز وجل يوم القيامة نودوا ليقم من كان له أجر على الله فلا يقوم إلا العافون عن الناس فى الدنيا . وقد قال الله تعالى ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ فقال النبى صلى الله عليه وسلم « ياجبريل ماهذا العفو ؟ » ، فقال : إن الله تعالى يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطى من حرمك [٣] . وروى عن الحسن أن رجلا قال له : إن فلانا قد اغتابك فبعث إليه رطبا على طبق وقال : قد بلغنى أنك أهديت إلى من حسناتك فأردت أن أكافئك عليها فاعذرنى فإنى لاأقدر أن أكافئك على التمام .

الآفة السادسة عشرة : النميمة

قال الله تعالى ﴿ هماز مشاء بنميم ﴾ ثم قال ﴿ عتل بعد ذلك زنيم ﴾ قال عبدالله بن المبارك : الزنيم ولد الزنا الذى لايكتم الحديث ، وأشار به إلى أن كل من لم يكتم الحديث ومشى بالنميمة دل على أنه ولد زنا استنباطا من قوله عز وجل ﴿ عتل بعد ذلك زنيم ﴾ والزنيم هو الدعى وقال تعالى ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ قيل الهمزة : النمام ،

---

(١) حديث « من كانت له عند أخيه مظلمه من عرض أول مال فليتحلله ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٢) حديث « أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضم كان إذا خرج من بيته قال اللهم إنى تصدقت بعرضى على الناس » أخرجه البزار وابن السنى فى اليوم والليلة والعقيلى فى الضعفاء من حديث أنس بسند ضعيف وذكره ابن عبد البر من حديث ثابت مرسلا عند ذكر أبى ضمضم فى الصحابة قلت وإنما هو رجل ممن كان قبلنا كما عند البزار والعقيلى .

(٣) حديث . نزول (خذ العفو) الآية فقال ياجبريل « ما هذا » فقال ان الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطى من حرمك : تقدم فى رياضة النفس .

وقال تعالى ﴿ حمالة الحطب ﴾ قيل إنها كانت نمامة حمالة للحديث وقال تعالى ﴿ فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا ﴾ قيل كانت امرأة لوط تخبر بالضيفان وامرأة نوح تخبر أنه مجنون وقد قال صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة نمام [1] » وفى حديث آخر « لايدخل الجنة قتات » والقتات هو النمام وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أحبكم إلى الله أحاسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون ، وإن أبغضكم إلى الله المشاءون بالنميمة ، المفرقون بين الإخوان ، الملتمسون للبرءاء العثرات [2] » وقال صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بشراركم » قالوا : بلى ، قال « المشاءون بالنميمة المفسدون بين الأحبة الباغون للبرءاء العيب [3] » وقال أبو ذر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حق شانه الله بها فى النار يوم القيامة [4] » وقال أبو الدرداء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أيما رجل أشاع على رجل كلمة وهو منها برىء ليشينه بها فى الدنيا كان حقا على الله أن يذيبه بها يوم القيامة فى النار [5] » وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من شهد على مسلم بشهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار [6] » ويقال : إن ثلث عذاب القبر من النميمة . وعن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم « إن الله لما خلق الجنة قال لها تكلمى فقالت سعد من دخلنى فقال الجبار جل جلاله وعزتى وجلالى لايسكن فيك ثمانية نفر من الناس ، لايسكنك مدمن خمر ولا مصر على الزنا ولا قتات وهو النمام ولا ديوث ولا شرطى ولا مخنث ولاقاطع رحم ولا الذى يقول على عهد الله إن لم أفعل كذا وكذا ثم لم يف به [7] » وروى كعب الأحبار أن بنى إسرائيل أصابهم قحط فاستسقى موسى عليه السلام مرات فما سقوا فأوحى الله تعالى إليه : إنى لاأستجيب لك ولمن معك وفيكم نمام قد أصر على النميمة . فقال موسى : يارب من هو ؟ دلنى عليه حتى أخرجه من بيننا . قال : ياموسى أنهاكم عن النميمة وأكون نماما ، فتابوا جميعا فسقوا . ويقال اتبع رجل حكيما سبعمائة فرسخ فى سبع كلمات فلما قدم عليه قال : إنى جئتك للذى آتاك الله تعالى من العلم أخبرنى عن السماء وما أثقل منها ؟ وعن الأرض وما أوسع منها ؟ وعن الصخر وما أقسى منه ؟ وعن النار وما أحر منها ؟ وعن الزمهرير وما أبرد منه ؟ وعن البحر وما أغنى منه ؟ وعن اليتيم وما أذل منه ؟ فقال له الحكيم : البهتان على البرىء أثقل من السموات ، والحق أوسع من الأرض ، والقلب القانع أغنى من البحر ، والحرص والحسد أحر من النار ، والحاجة

الآفة السادسة عشرة : النميمة

(١) حديث « لايدخل الجنة نمام » وفى حديث آخر « قتات » متفق عليه من حديث حذيفة وقد تقدم (٢) حديث أبى هريرة « وأحبكم الى الله أحسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا » أخرجه الطبرانى فى الأوسط والصغير وتقدم فى آداب الصحبة (٣) حديث « ألا أخبركم بشراركم » قالوا بلى ، قال « المشاءون بالنميمة ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث أبى مالك الأشعرى وقد تقدم

(٤) حديث أبى ذر « من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حق شانه الله بها فى النار يوم القيامة » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت والطبرانى فى مكارم الأخلاق وفيه عبدالله بن ميمون فإن يكن القداح فهو متروك الحديث (٥) حديث أبى الدرداء « أيما رجل أشاع على رجل كلمة هو منها برىء ليشينه بها فى الدنيا كان حقا على الله أن يذيبه بها يوم القيامة فى النار .. » أخرجه ابن أبى الدنيا موقوفا على أبى الدرداء . ورواه الطبرانى بلفظ آخر مرفوعا من حديثه وقد تقدم

(٦) حديث أبى هريرة « من شهد على مسلم شهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار » أخرجه أحمد وابن أبى الدنيا وفى رواية أحمد رجل لم يسم أسقطه ابن أبى الدنيا فى الإسناد . (٧) حديث ابن عمر « إن الله لما خلق الجنة قال لها تكلمى قالت : سعد من دخلنى . قال الجبار : وعزتى وجلالى لايسكن فيك ثمانية » فذكر منها « ولا قتات » وهو النمام ، لم أجده هكذا بتمامه ولأحمد « لايدخل الجنة عاق لوالديه ولا ديوث » وللنسائى من حديث عبد الله بن عمرو « لايدخل الجنة منان ولاعاق ولا مدمن خمر » وللشيخين من حديث حذيفة « لايدخل الجنة قتات » ولهما من حديث جبير بن مطعم « لايدخل الجنة قاطع » وذكر صاحب الفردوس من حديث ابن عباس « لما خلق الله الجنة قال لها : تكلمى تزينى فتزينت ، فقالت : طوبى لمن دخلنى ورضى عنه الملك ، فقال الله عز وجل : لاسكنك مخنث ولانائحة » .

إلى القريب إذا لم تنجح أبرد من الزمهرير ، وقلب الكافر أقسى من الحجر ، والنمام إذا بان أمره أذل من اليتيم .

بيان حد النميمة وما يجب فى ردها

اعلم أن اسم النميمة إنما يطلق فى الأكثر على من ينم قول الغير إلى المقول فيه ، كما تقول فلان كان يتكلم فيك بكذا وكذا ، وليست النميمة مختصة به . بل حدها كشف مايكره كشفه ، سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه ، أو كرهه ثالث ، وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالإيماء ، وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال ، وسواء كان ذلك عيباً ونقصا فى المنقول عنه أو لم يكن بل حقيقة النميمة إفشاء السر وهتك الستر عما يكره كشفه ، بل كل ما رآه الانسان من أحوال الناس مما يكره فينبغى أن يسكت عنه إلا ما فى حكايته فائدة لمسلم أو دفع لمعصية ، كما إذا رأى من يتناول مال غيره فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود له ، فأما إذا رآه يخفى مالا لنفسه فذكره فهو نميمة وإفشاء للسر ، فإن كان ما ينم به نقصاً وعيباً فى المحكى عنه كان قد جمع بين الغيبة والنميمة . فالباعث على النميمة إما إرادة السوء للمحكى عنـــه أو إظهار الحب للمحكى له ، أو التفرج بالحديث والخوض فى الفضول والباطل .

وكل من حملت إليه النميمة وقيل له إن فلانا قال فيك كذا وكذا أوفعل فى حقك كذا أو هو يدبر فى إفساد أمرك أو فى ممالأة عدوك أو تقبيح حالك أو مايجرى مجراه فعليه ستة أمور ، الأول : أن لايصدقه لأن النمام فاسق وهو مردود الشهادة قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة ﴾ الثانى : أن ينهاه عن ذلك وينصح له ويقبح عليه فعله قال الله تعالى ﴿ وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ﴾ الثالث : أن يبغضه فى الله تعالى فإنه بغيض عند الله تعالى ويجب بغض من يبغضه الله تعالى . الرابع : أن لا تظن بأخيك الغائب السوء لقول الله تعالى ﴿ اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ﴾ الخامس : أن لايحملك ما حكى لك على التجسس والبحث لتحقق ، إتباعا لقول الله تعالى ﴿ ولا تجسسوا ﴾ السادس : أن لا ترضى لنفسك مانهيت النمام عنه ولا تحكى نميمته فتقول فلان قد حكى لى كذا وكذا ، فتكون به نماما ومغتابا وقد تكون قد أتيت ماعنه نهيت . وقد روى عن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أنه دخل عليه رجل فذكر له عن رجل شيئا فقال له عمر : إن شئت نظرنا فى أمرك فإن كنت كاذبا فأنت من أهل هذه الآية ﴿ إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا ﴾ وإن كنت صادقا فأنت من أهل هذه الآية ﴿ هماز مشاء بنميم ﴾ وإن شئت عفونا عنك ؟ فقال : العفو يا أمير المؤمنين لاأعود إليه أبدا . وذكر أن حكيما من الحكماء زاره بعض إخوانه فأخبره بخبر عن بعض أصدقائه فقال له الحكيم : قد أبطأت فى الزيارة وأتيت بثلاث جنايات ، بغضت أخى إلى ، وشغلت قلبى الفارغ ، واتهمت نفسك الأمينة . وروى أن سليمان بن عبد الملك كان جالسا وعنده الزهرى فجاءه رجل فقال له سليمان : بلغنى أنك وقعت فى وقلت كذا وكذا ، فقال الرجل : ما فعلت ولا قلت ؟ فقال سليمان : إن الذى أخبرنى صادق ، فقال له الزهرى : لا يكون النمام صادقا ، فقال سليمان : صدقت ، ثم قال للرجل : اذهب بسلام.

وقال الحسن من نم إليك نم عليك . وهذا إشارة إلى أن النمام ينبغى أن يبغض ولا يوثق بقوله ولا بصداقته. وكيف لا يبغض وهو لا ينفك عن الكذب والغيبة والغدر والخيانة والغل والحسد والنفاق والإفساد بين الناس والخديعة وهو ممن يسعون فى قطع ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض ؟ وقال تعالى ﴿ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق ﴾ والنمام منهم . وقال صلى الله عليه وسلم « إن من شرار الناس

من اتقاه الناس لشره [1] » والنمام منهم . وقال « لا يدخل الجنة قاطع » قيل وما القاطع ؟ قال « قاطع بين الناس [2] » وهو النمام وقيل قاطع الرحم .

وروى عن على رضى الله عنه أن رجلا سعى إليه برجل فقال له : يا هذا نحن نسأل عما قلت فإن كنت صادقا مقتناك وإن كنت كاذبا عاقبناك وإن شئت أن نقيلك أقلناك ، فقال : أقلنى يا أمير المؤمنين . وقيل لمحمد بن كعب القرظى أى خصال المؤمن أوضع له ؟ فقال : كثرة الكلام وإفشاء السر وقبول قول كل أحد . وقال رجل لعبدالله ابن عامر — وكان أميرا — بلغنى أن فلانا أعلم الأمير أنى ذكرته بسوء ، قال : قد كان ذلك، قال: فأخبرنى بما قال لك حتى أظهر كذبه عندك ؟ قال : ما أحب أن أشتم نفسى بلسانى وحسبى أنى لم أصدقه فيما قال ولا أقطع عنك الوصال .

وذكرت السعاية عند بعض الصالحين فقال : ما ظنكم بقوم يحمد الصدق من كل طائفة من الناس إلا منهم ؟ وقال مصعب بن الزبير : نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية لأن السعاية دلالة والقبول إجازة، وليس من دل على شيء فأخبر به كمن قبله وأجازه ، فاتقوا الساعى فلو كان صادقا فى قوله لكان لئيما فى صدقه حيث لم يحفظ الحرمة ولم يستر العورة . والسعاية هى النميمة إلا إنها إذا كانت إلى من يخاف جانبه سميت سعاية وقد قال صلى الله عليه وسلم « الساعى بالناس إلى الناس لغير رشدة [3] » يعنى ليس بولد حلال . ودخل رجل على سليمان بن عبد الملك فاستأذنه فى الكلام وقال : إنى مكلمك يا أمير المؤمنين بكلام فاحتمله إن كرهته فإن وراءه ما تحب إن قبلته ، فقال : قل ، فقال : ياأمير المؤمنين إنه قد اكتنفك رجال ابتاعوا دنياك بدينهم ورضاك بسخط ربهم ، خافوك فى الله ولم يخافوا الله فيك ، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه ولا تصخ إليهم فيما استحفظك الله إياه فإنهم لن يألوا فى الأمة خسفا وفى الأمانة تضييعا والأعراض قطعاً وانتهاكا ، أعلى قربهم البغى والنميمة ، وأجل وسائلهم الغيبة والوقيعة وأنت مسئول عما أجرموا وليسوا المسئولين عما أجرمت ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك فإن أعظم الناس غبناً من باع آخرته بدنيا غيره . وسعى رجل بزياد الأعجم إلى سليمان بن عبد الملك فجمع بينهما للموافقة فأقبل زياد على الرجل وقال :

فأنت امرؤ إما ائتمنتك خاليا ... فخنت وإما قلت قولا بلا علم
فأنت من الأمر الذى كان بيننا ... بمنزلة بين الخيانة والإثم

وقال رجل لعمرو بن عبيد : إن الأسوارى مايزال يذكرك فى قصصه بشر ، فقال له عمرو : ياهذا مارعيت حق مجالسة الرجل حيث نقلت إلينا حديثه ، ولا أديت حقى حين أعلمتنى عن أخى ما أكره ولكن أعلمه أن الموت يعمنا والقبر يضمنا والقيامة تجمعنا والله تعالى يحكم بيننا وهو خير الحاكمين . ورفع بعض السعاة إلى الصاحب بن عباد رقعة نبه فيها على مال يتيم يحمله على أخذه لكثرته ، فوقع على ظهرها : السعاية قبيحة وإن كانت صحيحة ، فإن كنت أجريتها مجرى النصح فخسرانك فيها أفضل من الربح ، ومعاذ الله أن نقبل مهتوكا فى مستور ، ولولا أنك فى خفارة شيبتك لقابلناك بما يقتضيه فعلك فى مثلك ، فتوق ياملعون العيب فإن الله أعلم بالغيب ، الميت رحمه الله ، واليتيم جبره الله ، والمال ثمره الله ، والساعى لعنه الله . وقال لقمان لابنه : يابنى أوصيك بخلال إن تمسكت بهن لم تزل

---

(١) حديث « لن من شر الناس من اتقاه الناس لشره » متفق عليه من حديث عائشة نحوه (٢) حديث « لايدخل الجنة قاطع » متفق عليه من حديث جبير بن مطعم (٣) حديث « الساعى بالناس الى الناس لغير رشدة » أخرجه الحاكم من حديث أبى موسى « من سعى بالناس فهو لغير رشدة » أو فيه شىء منها وقال : له أسانيد هذا أمثلها ،قلت فيه سهل بن عطية قال فيه ابن طاهر فى التذكرة منكر الرواية ، قال والحديث لاأصل له وقد ذكر ابن حبان فى الثقات سهل بن عطية ورواه الطبرانى بلفظ « لايسعى على الناس الا ولد بغى والا من فيه عرق منه » وزاد بين سهل وبين بلال بن أبى بردة : أبا الوليد القرشى .

سيدا ابسط خلقك للقريب والبعيد ، وأمسك جهلك عن الكريم واللئيم ، واحفظ إخوانك وصل أقاربك وآمنهم من قبول قول ساع أوسماع باغ يريد فسادك ويروم خداعك ، وليكن إخوانك من إذا فارقتهم وفارقوك لم تعبهم ولم يعيبوك . وقال بعضهم : النميمة مبنية على الكذب والحسد والنفاق وهى أثافى الذل . وقال بعضهم : لو صح ما نقله النمام إليك لكان هو المجترئ بالشتم عليك ، والمنقول عنه أولى بحلمك لأنه لم يقابلك بشتمك .

وعلى الجملة فشر النمام عظيم ينبغى أن يتوقى . قال حماد بن سلمة : باع رجل عبدا وقال للمشترى : ما فيه عيب إلا النميمة ، قال : رضيت ، فاشتراه ، فمكث الغلام أياما ثم قال لزوجة مولاه : إن سيدى لا يحبك وهو يريد إن يتسرى عليك ، فخذى الموسى واحلقى من شعر قفاه عند نومه شعرات حتى أسحره عليها فيحبك ، ثم قال للزوج : إن امرأتك اتخذت خليلا وتريد أن تقتلك ، فتناوم لها حتى تعرف ذلك ، فتناوم لها فجاءت المرأة بالموسى فظن أنها تريد قتله فقام إليها فقتلها ، فجاء أهل المرأة فقتلوا الزوج ، ووقع القتال بين القبيلتين . فنسأل الله حسن التوفيق .

الآفة السابعة عشرة

كلام ذى اللسانين الذى يتردد بين المتعاديين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه ، وقلما يخلو عنه من يشاهد متعاديين وذلك عين النفاق . قال عمار بن ياسر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان له وجهان فى الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة (١) » وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين الذى يأتى هؤلاء بحديث وهؤلاء بحديث (٢) » وفى لفظ آخر « الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » وقال أبو هريرة : لا ينبغى لذى الوجهين أن يكون أمينا عند الله . وقال مالك بن دينار : قرأت فى التوراة بطلت الأمانة والرجل مع صاحبه بشفتين مختلفتين يهلك الله تعالى يوم القيامة كل شفتين مختلفتين . وقال صلى الله عليه وآله وسلم « أبغض خليقة الله إلى الله يوم القيامة الكذابون والمستكبرون والذين يكثرون البغضاء لإخوانهم فى صدورهم فإذا لقوهم تملقوا لهم والذين إذا دعوا إلى الله ورسوله كانوا بطاء وإذا دعوا إلى الشيطان وأمره كانوا سراعا (٣) » وقال ابن مسعود : لا يكونن أحدكم إمعة ، قالوا : وما الإمعة ؟ قال الذى يجرى مع كل ريح . واتفقوا على أن ملاقاة الاثنين بوجهين نفاق ، وللنفاق علامات كثيرة وهذه من جملتها .

وقد روى أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مات فلم يصل عليه حذيفة فقال له عمر : يموت رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تصل عليه ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إنه منهم ، فقال : نشدتك الله أنا منهم أم لا ؟ قال : اللهم لا ولا أؤمن منها أحداً بعدك .

فإن قلت : بماذا يصير الرجل ذا لسانين وما حد ذلك ؟ فأقول : إذا دخل على متعاديين وجامل كل واحد منهما وكان صادقا فيه لم يكن منافقا ولا ذا لسانين ، فإن الواحد قد يصادق متعاديين ولكن صداقة ضعيفة لا تنتهى إلى حد الأخوة ، إذ لو تحققت الصداقة لاقتضت معاداة الأعداء - كما ذكرنا فى كتاب آداب الصحبة والأخوة - نعم لو نقل

الآفة السابعة عشرة . كلام ذى اللسانين

(١) حديث عمار بن ياسر « من كان له وجهان فى الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة » أخرجه البخارى فى كتاب الأدب المفرد وأبو داود بسند حسن . (٢) حديث أبى هريرة « تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين ... الحديث » متفق عليه بلفظ « تجد من شر الناس » لفظ البخارى وهو عند ابن أبى الدنيا بلفظ المصنف (٣) حديث « أبغض خليقة الله إلى الله يوم القيامة الكذابون والمستكبرون والذين يكثرون البغضاء لإخوانهم فى صدورهم ، فإذا لقوهم تملقوا لهم ... الحديث » لم أقف له على أصل

كلام كل واحد منهما إلى الآخر فهو ذو لسانين وهو شر من النميمة ، إذ يصير نماما بأن ينقل من أحد الجانبين فقط فإذا نقل من الجانبين فهو شر من النمام ، وإن لم ينقل كلاما ولكن حسن لكل واحد منهما ما هو عليه من المعاداة مع صاحبه فهذا ذو لسانين ، وكذلك إذا وعد كل واحد منهما بأن ينصره ، وكذلك إذا أثنى على واحد منهما في معاداته وكذلك إذا أثنى على أحدهما وكان إذا خرج من عنده يذمه فهو ذو لسانين . بل ينبغي أن يسكت أو يثني على المحق من المتعاديين . ويثني عليه في غيبته وفي حضوره وبين يدي عدوّه .

قيل لابن عمر رضي الله عنهما : إنا ندخل على أمرائنا فنقول القول فإذا خرجنا قلنا غيره فقال : كنا نعدّ هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] وهذا نفاق مهما كان مستغنيا عن الدخول على الأمير وعن الثناء عليه ، فلو استغنى عن الدخول ولكن إذا دخل يخاف إن لم يثن فهو نفاق ، لأنه الذي أحوج نفسه إلى ذلك ، فإن كان مستغنيا عن الدخول لو قنع بالقليل وترك المال والجاه فدخل لضرورة الجاه والغنى وأثنى فهو منافق . وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم « حب المال والجاه ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل [2] » لأنه يحوج إلى الأمراء وإلى مراعاتهم ومراءاتهم . فأما إذا ابتلي به لضرورة وخاف إن لم يثن فهو معذور ، فإن اتقاء الشر جائز . قال أبو الدرداء رضي الله عنه : إنا لنكشر في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم وقالت عائشة رضي الله عنها : استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ائذنوا له فبئس رجل العشيرة هو » ثم لما دخل ألان له القول ، فلما خرج قلت : يارسول الله قلت فيه ما قلت ثم ألنت له القول ، فقال « ياعائشة إن شر الناس الذي يكرم اتقاء شره [3] » ولكن هذا ورد في الإقبال وفي الكشر والتبسم : فأما الثناء فهو كذب صراح ولا يجوز إلا لضرورة أو إكراه يباح الكذب بمثله ـ كما ذكرناه في آفة الكذب ـ بل لا يجوز الثناء ولا التصديق ولا تحريك الرأس في معرض التقرير على كل كلام باطل ، فإن فعل ذلك فهو منافق ، بل ينبغي أن ينكر ، فإن لم يقدر فيسكت بلسانه وينكر بقلبه .

الآفة الثامنة عشرة : المدح

وهو منهي عنه في بعض المواضع . أما الذم فهو الغيبة والوقيعة وقد ذكرنا حكمها . والمدح يدخله ست آفات : أربع في المادح ، واثنتان في الممدوح

فأما المادح ، فالأولى : أنه قد يفرط فينتهي به إلى الكذب . قال خالد بن معدان : من مدح إماما أو أحدا بما ليس فيه على رءوس الأشهاد بعثه الله يوم القيامة يتعثر بلسانه .

والثانية : أنه قد يدخله الرياء فإنه بالمدح مظهر للحب ، وقد لا يكون مضمرا له ولا معتقدا لجميع ما يقوله فيصير به مرائيا منافقا .

الثالثة : أنه قد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه ، وروي أن رجلا مدح رجلا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال له عليه السلام « ويحك قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح » ثم قال « إن كان أحدكم لابدّ مادحا

---

(١) حديث . قيل لابن عمر إنا ندخل على أمرائنا . فنقول القول فإذا خرجنا قلنا غيره قال : كنا نعد ذلك نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . أخرجه الطبراني من طرق (٢) حديث « حب الجاه والمال ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بسند ضعيف إلا أنه قال « حب الغناء » وقال « العشب » مكان « البقل » (٣) حديث عائشة : استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ائذنوا له فبئس رجل العشيرة ... الحديث » وفيه « ان شر الناس الذي يكرم اتقاء لشره » متفق عليه وقد تقدم في الآفة التي قبلها .

أخاه فليقل أحسب فلانا ولا أزكى على الله أحدا حسيبه الله إن كان يرى أنه كذلك [١] ، وهذه الآفة تتطرق إلى المدح بالأوصاف المطلقة التي تعرف بالأدلة كقوله إنه متق وورع وزاهد وخير وما يجرى مجراه ، فأما إذا قال رأيته يصلى بالليل ويتصدق ويحج فهذه أمور مستيقنة . ومن ذلك قوله إنه عدل رضا فإنّ ذلك خفى فلا ينبغى أن يجزم القول فيه إلا بعد خبرة باطنه . سمع عمر رضى الله عنه رجلا يثنى على رجل فقال : أسافرت معه ؟ قال : لا ، قال : أخالطته فى المبايعة والمعاملة ؟ قال : لا . قال : فأنت جاره صباحه ومساءه ؟ قال : لا . فقال : والله الذى لا إله إلا هو لأراك تعرفه .

الرابعة : أنه قد يفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق وذلك غير جائز قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى يغضب إذا مدح الفاسق [٢] » وقال الحسن : من دعا لظالم بطول البقاء فقد أحب أن يعصى الله تعالى فى أرضه ، والظالم الفاسق ينبغى أن يذم ليغتم ولا يمدح ليفرح .

وأما الممدوح فيضره من وجهين ؛ أحدهما : أنه يحدث فيه كبرا وإعجابا وهما مهلكان . قال الحسن رضى الله عنه كان عمر رضى الله عنه جالسا ومعه الدرّة والناس حوله إذ أقبل الجارود بن المنذر ، فقال رجل : هذا سيد ربيعة ، فسمعها عمر ومن حوله وسمعها الجارود ، فلما دنا منه خفقه بالدرة فقال : مالى ولك يا أمير المؤمنين ؟ قال : مالى ولك أما سمعتها ؟ قال : سمعتها فمه ، قال : خشيت أن يخالط قلبك منها شىء فأحببت أن أطأطئ منك .

الثانى : هو أنه إذا أثنى عليه بالخير فرح به وفتر ورضى عن نفسه ومن أعجب بنفسه قل تشمره وإنما يتشمر للعمل من يرى نفسه مقصرا . فأما إذا انطلقت الألسن بالثناء عليه ظن أنه قد أدرك ولهذا قال عليه السلام « قطعت عنق صاحبك لو سمعها ماأفلح » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا مدحت أخاك فى وجهه فكأنما أمررت على حلقه موسى وميضا [٣] » وقال أيضا لمن مدح رجلا « عقرت الرجل عقرك الله [٤] » وقال مطرف : ماسمعت قط ثناء ولا مدحة إلا تصاغرت إلى نفسى . وقال زياد بن أبى مسلم : ليس أحد يسمع ثناء عليه أو مدحة إلا تراءى له الشيطان ، ولكن المؤمن يراجع ، فقال ابن المبارك : لقد صدق كلاهما أما ماذكره زياد فذلك قلب العوام ، وأما ماذكره مطرف فذلك قلب الخواص . وقال صلى الله عليه وسلم « لو مشى رجل إلى رجل بسكين مرهف كان خيرا له من أن يثنى عليه فى وجهه [٥] » وقال عمر رضى الله عنه : المدح هو الذبح . وذلك لأن المذبوح هو الذى يفتر عن العمل والمدح يوجب الفتور ، أو لأن المدح يورث العجب والكبر وهما مهلكان كالذبح ؛ لذلك شبهه به . فإن سلم المدح من هذه الآفات فى حق المادح والممدوح لم يكن به بأس بل ربما كان مندوبا إليه . ولذلك أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصحابة فقال « لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان العالم لرجح [٦] » وقال فى عمر « لولم أبعث لبعثت

الآفة الثامنة عشرة : المدح

(١) حديث : أن رجلا مدح رجلا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ويحك قطعت عنق صاحبك » متفق عليه من حديث أبى بكرة بنحوه وهو فى الصمت لابن أبى الدنيا بلفظ المصنف (٢) حديث « ان الله يغضب اذا مدح الفاسق » أخرجه ابن أبي الدنيا فى الصمت والبيهقى فى الشعب من حديث أنس وفيه أبو خلف خادم أنس ضعيف ، ورواه أبو يعلى الموصلى وابن عدى بلفظ « اذا مدح الفاسق غضب الرب واهتز العرش » قال الذهبي فى الميزان : منكر ، وقد تقدم فى آداب الكسب .

(٣) حديث « اذا مدحت أخاك فى وجهه فكأنما أمررت على حلقه موسى وميضا » أخرجه ابن المبارك فى الزهد والرقائق من رواية يحيى بن جابر مرسلا (٤) حديث « عقرت الرجل عقرك الله » قاله لمن مدح رجلا ، لم أجد له أصلا (٥) حديث « لو مشى رجل الى رجل بسكين مرهف كان خيرا له من أن يثنى عليه فى وجهه » لم أجده أيضا (٦) حديث « لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالمين لرجح » تقدم فى العلم .

يا عمر[١] » وأى ثناء يزيد على هذا ؟ ولكنه صلى الله عليه وسلم قال عن صدق وبصيرة . وكانوا رضى الله عنهم أجل رتبة من أن يورثهم ذلك كبرا وعجبا وفتورا . بل مدح الرجل نفسه قبيح لما فيه من الكبر والتفاخر إذ قال صلى الله عليه وسلم « أنا سيد ولد آدم ولا فخر [٢] » أى لست أقول هذا تفاخرا كما يقصد الناس بالثناء على أنفسهم . وذلك لأن افتخاره صلى الله عليه وسلم كان بالله وبالقرب من الله لا بولد آدم وتقدمه عليهم ؛ كما أن المقبول عند الملك قبولا عظيما إنما يفتخر بقبوله إياه وبه يفرح لا بتقدمه على بعض رعاياه . وبتفصيل هذه الآفات تقدر على الجمع بين ذم المدح وبين الحث عليه قال صلى الله عليه وسلم « وجبت [٣] » لما أثنوا على بعض الموتى . وقال مجاهد : إن لبنى آدم جلساء من الملائكة فإذا ذكر الرجل المسلم أخاه المسلم بخير قالت الملائكة : ولك بمثله ، وإذا ذكره بسوء قالت الملائكة : يا ابن آدم المستور عورتك أربع على نفسك واحمد الله الذى ستر عورتك . فهذه آفات المدح .

بيان ما على الممدوح

اعلم أن على الممدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعجب وآفة الفتور ، ولا ينجو منه إلا بأن يعرف نفسه ويتأمل ما فى خطر الخاتمة ودقائق الرياء وآفات الأعمال ، فإنه يعرف من نفسه ما لا يعرفه المادح ولو انكشف له جميع أسراره وما يجرى على خواطره لكف المادح عن مدحه وعليه أن يظهر كراهة المدح بإذلال المادح . قال صلى الله عليه وسلم « احثوا التراب فى وجوه المادحين [٤] » وقال سفيان بن عيينة : لا يضر المدح من عرف نفسه . وأثنى على رجل من الصالحين فقال : اللهم إنّ هؤلاء لا يعرفونى وأنت تعرفنى . وقال آخر لما اثنى عليه : اللهم إنّ عبدك هذا تقرّب إلى بمقتك وأنا أشهدك على مقته . وقال على رضى الله عنه لما أثنى عليه : اللهم اغفر لى ما لا يعلمون ولا تؤاخذنى بما يقولون واجعلنى خيرا مما يظنون . وأثنى رجل على عمر رضى الله عنه فقال : أتهلكنى وتهلك نفسك ؟ وأثنى رجل على على كرم الله وجهه فى وجهه - وكان قد بلغه أنه يقع فيه — فقال : أنا دون ما قلت وفوق ما فى نفسك .

الآفة التاسعة عشر .

الغفلة عن دقائق الخطأ فى فحوى الكلام لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته ، ويرتبط بأمور الدين فلا يقدر على تقويم اللفظ فى أمور الدين إلا العلماء الفصحاء ، فمن قصر فى علم أو فصاحة لم يخل كلامه عن الزلل لكن الله تعالى يعفو عنه لجهله . مثاله : ما قال حذيفة : قال النبى صلى الله عليه وسلم « لا يقل أحدكم ماشاء الله وشئت ولكن ليقل ما شاء الله ثم شئت [٥] » وذلك لأنّ فى العطف المطلق تشريكا وتسوية وهو على خلاف الاحترام . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلمه فى بعض الأمر فقال ماشاء الله وشئت ، فقال

---

(١) حديث « لولم أبعث لبعثت يا عمر » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة وهو منكر والمعروف من حديث عقبة بن عامر « لو كان بعدى نبى لكان عمر بن الخطاب » رواه الترمذى وحسنه .

(٢) حديث « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أبى سعيد الخدرى والحاكم من حديث جابر وقال صحيح الإسناد وله من حديث عبادة بن الصامت « أنا سيد الناس يوم القيامة ولا فخر » ولمسلم من حديث أبى هريرة « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة » (٣) حديث « وجبت » قاله لما أثنوا على بعض الموتى متفق عليه من حديث أنس

(٤) حديث « أحثوا فى وجوه المداحين التراب » أخرجه مسلم من حديث المقداد .

الآفة التاسعة عشرة : فى الغفلة عن دقائق الخطأ

(٥) حديث حذيفة « لا يقل أحدكم ماشاء الله وشئت ... الحديث » أخرجه أبو داود والنسائى فى الكبرى بسند صحيح .

صلى الله عليه وسلم ، أجعلتنى لله عديلا بل ما شاء الله وحده (١) » . وخطب رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى فقال ، قل : ومن يعص الله ورسوله فقد غوى (٢) » فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : ومن يعصهما ، لأنه تسوية وجمع . وكان إبراهيم يكره أن يقول الرجل : أعوذ بالله وبك ، ويجوز أن يقول : أعوذ بالله ثم بك . وأن يقول : لولا الله ثم فلان ؟ ولا يقول: لولا الله وفلان ؟ وكره بعضهم أن يقال : اللهم أعتقنا من النار ، وكان يقول : العتق يكون بعد الورود . وكانوا يستجيرون من النار ويتعوذون من النار . وقال رجل : اللهم اجعلنى ممن تصيبه شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم فقال حذيفة : إن الله يغنى المؤمنين عن شفاعة محمد وتكون شفاعته للمذنبين من المسلمين . وقال إبراهيم : إذا قال الرجل للرجل يا حمار يا خنزير ! قيل له يوم القيامة ، حماراً رأيتنى خلقته خنزيرا رأيتنى خلقته ؛ وعن ابن عباس رضى الله عنهما : إن أحدكم ليشرك حتى يشرك بكلبه ، فيقول : لولاه لسرقنا الليلة . وقال عمر رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت (٣) » قال عمر رضى الله عنه : فوالله ما حلفت بها منذ سمعتها : وقال صلى الله عليه وسلم « لا تسموا العنب كرما إنما الكرم الرجل المسلم (٤) » وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يقولن أحدكم عبدى ولا أمتى كلكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله وليقل غلامى وجاريتى وفتاى وفتاتى ، ولا يقول المملوك ربى ولا ربتى وليقل سيدى وسيدتى فكلكم عبيد الله والرب الله سبحانه وتعالى » وقال صلى الله عليه وسلم « لا تقولوا للفاسق سيدنا فإنه إن يكن سيدكم فقد أسخطتم ربكم (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « من قال أنا برىء من الإسلام فإن كان صادقا فهو كما قال وإن كان كاذبا فلن يرجع إلى الإسلام سالما (٦) » فهذا وأمثاله مما يدخل فى الكلام ولا يمكن حصره .

ومن تأمل جميع ما أوردنا من آفات اللسان علم أنه إذا أطلق لسانه لم يسلم وعند ذلك يعرف سر قوله صلى الله عليه وسلم ، من صمت نجا (٧) » لأن هذه الآفات كلها مهالك ومعاطب وهى على طريق المتكلم فإن سكت سلم من الكل ، وإن نطق وتكلم خاطر بنفسه إلا أن يوافقه لسان فصيح وعلم غزير وورع حافظ ومراقبة لازمة ، ويقلل من الكلام فعساه يسلم عند ذلك ، وهو مع جميع ذلك لا ينفك عن الخطر ، فإن كنت لا تقدر على أن تكون ممن تكلم فغنم فكن ممن سكت فسلم فالسلامة إحدى الغنيمتين .

الآفة العشرون

سؤال العوام عن صفات الله تعالى وعن كلامه ، وعن الحروف وأنها قديمة أو محدثة ؟ ومن حقهم الاشتغال بالعمل بما فى القرآن إلا أن ذلك ثقيل على النفوس والفضول خفيف على القلب . والعامى يفرح بالخوض فى العلم ، إذ الشيطان يخيل إليه أنك من العلماء وأهل الفضل ، ولا يزال يحبب إليه ذلك حتى يتكلم فى العلم بما هو كفر وهو

---

(١) حديث ابن عباس : جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فكلمه فى بعض الأمر فقال :ما شاء الله وشئت فقال « أجعلتنى لله عدلا قل ماشاء الله وحده » أخرجه النسائى فى الكبرى باسناد حسن وابن ماجه (٢) حديث : خطب رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث عدى بن حاتم

(٣) حديث عمر : ان الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم . متفق عليه (٤) حديث « لاتسموا العنب الكرم إنما الكرم الرجل المسلم » متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(٥) حديث « لاتقولوا المنافق سيدنا .. الحديث » أخرجه أبو داود من حديث بريدة بسند صحيح (٦) حديث « من قال أنا برىء من الإسلام فإن كان صادقا فهو كما قال ... الحديث » أخرجه النسائي وابن ماجه من حديث بريدة باسناد صحيح .

(٧) حديث « من صمت نجا » أخرجه الترمذى وقد تقدم فى أول آفات اللسان .

لا يدرى . وكل كبيرة يرتكبها العامى فهى أسلم له من أن يتكلم فى العلم لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته. وإنما شأن العوام الاشتغال بالعبادات والإيمان بما ورد به القرآن ، والتسليم لما جاء به الرسل من غير بحث ، وسؤالهم عن غير ما يتعلق بالعبادات سوء أدب منهم يستحقون به المقت من الله عز وجل ويتعرضون لخطر الكفر، وهو كسؤال ساسة الدواب عن أسرار الملوك وهو موجب للعقوبة . وكل من سأل عن علم غامض ولم يبلغ فهمه تلك الدرجة فهو مذموم ، فإنه بالإضافة إليه عامى . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « ذرونى ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم (١) » وقال أنس : سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فأكثروا عليه وأغضبوه فصعد المنبر وقال « سلونى لا تسألونى عن شىء إلا أنبأتكم به » فقام إليه رجل فقال : يارسول الله من أبى ؟ فقال « أبوك حذافة » فقام إليه شابان أخوان فقالا : يارسول الله من أبونا ؟ فقال : أبوكما الذى تدعيان إليه ، ثم قام إليه رجل آخر فقال : يارسول الله أفى الجنة أنا أم فى النار ؟ فقال « لا بل فى النار » فلما رأى الناس غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسكوا فقام إليه عمر رضى الله عنه فقال : رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ، فقال « اجلس ياعمر رحمك الله إنك ماعلمت لموفق (٢) » .

وفى الحديث : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القيل والقال وإضاعة المال وكثرة السؤال (٣) وقال صلى الله عليه وسلم « يوشك الناس يتساءلون بينهم حتى يقولوا قد خلق الله الخلق فمن خلق الله ؟ فإذا قالوا ذلك فقولوا ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد ﴾ حتى تختموا السورة ثم ليتفل أحدكم عن يساره ثلاثا وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم (٤) » .

وقال جابر : ما نزلت آية المتلاعنين إلا لكثرة السؤال (٥) . وفى قصة موسى والخضر عليهما السلام تنبيه على المنع من السؤال قبل أوان استحقاقه إذ قال ﴿ فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا ﴾ فلما سأل عن السفينة أنكر عليه حتى اعتذر وقال ﴿ لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا ﴾ فلم يصبر حتى سأل ثلاثاً قال ﴿ هذا فراق بينى وبينك ﴾ وفارقه .

فسؤال العوام عن غوامض الدين من أعظم الآفات وهو من المثيرات للفتن ، فيجب قمعهم ومنعهم من ذلك . وخوضهم فى حروف القرآن يضاهى حال من كتب الملك إليه كتابا ورسم له فيه أمورا فلم يشتغل بشىء منها ، وضيع زمانه فى أن قرطاس الكتاب عتيق أم حديث ؟ فاستحق بذلك العقوبة لا محالة . فكذلك تضييع العامى حدود القرآن واشتغاله بحروفه أهى قديمة أم حديثة ؟ وكذلك سائر صفات الله سبحانه وتعالى . والله تعالى أعلم .

الآفة العشرون : سؤال العوام عن صفات الله تعالى

(١) حديث « ذرونى ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة .
(٢) حديث : سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما حتى أكثروا عليه وأغضبوه فصعد المنبر فقال « سلونى فلا تسألونى عن شىء إلا أنبأتكم به ... الحديث » متفق عليه مقتصرا على سؤال عبد الله بن حذافة وقول عمر . ولمسلم من حديث أبى موسى : فقام آخر فقال من أبى ؟ فقال أبوك سالم مولى شيبة . (٣) حديث : النهى عن قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال : متفق عليه من حديث المغيرة بن شعبة .

(٤) حديث « يوشك الناس يتساءلون بينهم حتى يقولوا قد خلق الله الخلق ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم (٥) حديث جابر : مانزلت آية التلاعن إلا لكثرة السؤال ، رواه البزار بإسناد جيد .

كتاب ذم الغضب والحقد والحسد

وهو الكتاب الخامس من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى لايتكل على عفوه ورحمته إلا الراجون ، ولا يحذر سوء غضبه وسطوته إلا الخائفون ، الذى استدرج عباده من حيث لايعلمون ، وسلط عليهم الشهوات وأمرهم بترك ما يشتهون ، وابتلاهم بالغضب وكلفهم كظم الغيظ فيما يغضبون ، ثم حفهم بالمكاره واللذات وأملى لهم لينظر كيف يعملون ، وامتحن بهم حبهم ليعلم صدقهم فيما يدعون ، وعرفهم أنه لايخفى عليه شيء مما يسرون وما يعلنون ، وحذرهم أن يأخذهم بغتة وهم لايشعرون فقال ﴿ ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ﴾ والصلاة والسلام على محمد رسوله الذى يسير تحت لوائه النبيون ، وعلى آله وأصحابه الأئمة المهديين ، والسادة المرضيين ، صلاة يوازى عددها عدد ما كان من خلق الله وما سيكون ، ويحظى ببركتها الأولون والآخرون ، وسلم تسليما كثيراً .

أما بعد فإن الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة ، وإنها لمستكنة فى طى الفؤاد . استكنان الجمر تحت الرماد ، ويستخرجها الكبر الدفين فى قلب كل جبار عنيد ، كاستخراج الحجر النار من الحديد ، وقد انكشف للناظرين بنور اليقين ، أن الإنسان ينزع منه عرق إلى الشيطان اللعين ، فمن استفزته نار الغضب فقد قويت فيه قرابة الشيطان حيث قال ﴿ خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾ فإن شأن الطين السكون والوقار ، وشأن النار التلظى والاستعار ، والحركة والاضطراب ، ومن نتائج الغضب الحقد والحسد ، وبهما هلك من هلك وفسد من فسد ، ومفيضهما مضغة إذا صلحت صلح معها سائر الجسد ، وإذا كان الحقد والحسد والغضب ، مما يسوق العبد إلى مواطن العطب ، فما أحوجه إلى معرفة معاطبه ومساويه ! ليحذر ذلك ويتقيه ، ويميطه عن القلب إن كان وينفيه ، ويعالجه إن رسخ فى قلبه ويداويه ، فإن من لا يعرف الشر يقع فيه ، ومن عرفه فالمعرفة لا تكفيه ، مالم يعرف الطريق الذى به يدفع الشر ويقصيه .

ونحن نذكر ذم الغضب وآفات الحقد والحسد فى هذا الكتاب ، ويجمعها بيان ذم الغضب ، ثم بيان حقيقة الغضب ثم بيان أن الغضب هل يمكن إزالة أصله بالرياضة أم لا ؟ ثم بيان الأسباب المهيجة للغضب ، ثم بيان علاج الغضب بعد هيجانه ، ثم بيان فضيلة كظم الغيظ ، ثم بيان فضيلة الحلم ، ثم بيان القدر الذى يجوز الانتصار والتشفى به من الكلام ، ثم القول فى معنى الحقد ونتائجه وفضيلة العفو والرفق ، ثم القول فى ذم الحسد وفى حقيقته وأسبابه ومعالجته وغاية الواجب فى إزالته ، ثم بيان السبب فى كثرة الحسد بين الأمثال والأقران والإخوة وبنى العم والأقارب وتأكده وقلته فى غيرهم وضعفه ، ثم بيان الدواء الذى به ينفى مرض الحسد عن القلب ، ثم بيان القدر الواجب فى نفى الحسد عن القلب وبالله التوفيق .

بيان ذم الغضب

قال الله تعالى ﴿ إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى

المؤمنين ﴾ الآية . ذم الكفار بما تظاهروا به من الحمية الصادرة عن الغضب بالباطل ، ومدح المؤمنين بما أنزل الله عليهم من السكينة وروى أبو هريرة أن رجلا قال : يارسول الله مرنى بعمل وأقلل ، قال . « لاتغضب » ثم أعاد عليه فقال « لاتغضب[1] » وقال ابن عمر : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : قل لى قولا وأقلله لعلى أعقله ، فقال « لاتغضب » فأعدت عليه مرتين كل ذلك يرجع إلى « لا تغضب[2] » وعن عبد الله بن عمرو : أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ماذا ينقذنى من غضب الله ؟ قال « لاتغضب[3] » وقال ابن مسعود قال النبى صلى الله عليه وسلم « ماتعدون الصرعة فيكم ؟ » قلنا : الذى لاتصرعه الرجال ، قال « ليس ذلك ولكن الذى يملك نفسه عند الغضب[4] » وقال أبو هريرة : قال النبى صلى الله عليه وسلم « ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب[5] » وقال ابن عمر : قال النبى صلى الله عليه وسلم « من كف غضبه ستر الله عورته[6] » وقال سليمان ابن داود عليهما السلام : يا بنى إياك وكثرة الغضب فإن كثرة الغضب تستخف فؤاد الرجل الحليم . وعن عكرمة فى قوله تعالى ﴿ وسيداً وحصورا ﴾ قال : السيد الذى لا يغلبه الغضب وقال أبو الدرداء : قلت يا رسول الله دلنى على عمل يدخلنى الجنة ، قال : « لاتغضب[7] » وقال يحيى لعيسى عليهما السلام : لاتغضب ، قال : لا أستطيع أن لاأغضب إنما أنا بشر ، قال : لا تقتن مالا ، قال : هذا عسى . وقال صلى الله عليه وسلم « الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل[8] » وقال صلى الله عليه وسلم « ماغضب أحد إلا أشفى على جهنم[9] » وقال له رجل : أى شىء أشد على قال « غضب الله » قال : فما يبعدنى عن غضب الله ؟ قال « لا تغضب[10] » .

الآثار : قال الحسن : يا ابن آدم كلما غضبت وثبت ويوشك أن تثب وثبة فتقع فى النار . وعن ذى القرنين أنه لقى ملكا من الملائكة فقال : علمنى علما ازداد به إيمانا ويقينا ، قال : لاتغضب فإن الشيطان أقدر مايكون على ابن آدم حين يغضب ، فرد الغضب بالكظم ، وسكنه بالتؤدة . وإياك والعجلة فإنك إذا عجلت أخطأت حظك ، وكن سهلا لينا للقريب والبعيد ولا تكن جباراً عنيداً . وعن وهب بن منبه : أن راهباً كان فى صومعته فأراد الشيطان أن يضله فلم يستطع ، فجاءه حتى ناداه فقال له : افتح ، فلم يجبه فقال : افتح فإنى إن ذهبت ندمت ، فلم يلتفت إليه فقال إنى أنا المسيح ، قال الراهب : وإن كنت المسيح فما أصنع بك ! أليس قد أمرتنا بالعبادة والاجتهاد ووعدتنا القيامة فلو جئتنا اليوم بغيره لم نقبله منك ؟ فقال : إنى الشيطان وقد أردت أن أضلك فلم أستطع ؟ فجئتك لتسألنى

كتاب الغضب والحقد والحسد

(١) حديث أبى هريرة : أن رجلا قال يارسول الله مرنى بعمل وأقلل قال « لاتغضب » ثم أعاد عليه فقال « لاتغضب » رواه البخارى (٢) حديث ابن عمر : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم قل لى قولا وأقلل... الحديث . أخرج نحوه أبو يعلى باسناد حسن (٣) حديث عبد الله بن عمرو : سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبعدنى من غضب الله ؟ قال « لاتغضب » أخرجه الطبرانى فى مكارم الأخلاق وابن عبد البر فى التمهيد باسناد حسن ، وهو عند أحمد : وأن عبد الله بن عمرو هو السائل .
(٤) حديث ابن مسعود « ماتعدون الصرعة ... الحديث » رواه مسلم (٥) حديث أبى هريرة « ليس الشديد بالصرعة ... الحديث » متفق عليه (٦) حديث ابن عمر « من كف غضبه ستر الله عورته » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب العفو وذم الغضب وفى الصمت ، وتقدم فى آفات اللسان (٧) حديث أبى الدرداء : دلنى على عمل يدخلنى الجنة ؟ قال « لاتغضب » أخرجه ابن أبى الدنيا والطبرانى فى الكبير والأوسط باسناد حسن (٨) حديث « الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل » أخرجه الطبرانى فى الكبير والبيهقى فى الشعب من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده بسند ضعيف (٩) حديث « ماغضب أحد إلا أشفى على جهنم » أخرجه البزار وابن عدى من حديث ابن عباس « للنار باب لايدخله إلا من شفى غيظه بمعصية الله » وإسناده ضعيف وتقدم فى آفات اللسان . (١٠) حديث : قال رجل أى شىء أشد على ؟ قال « غضب الله » قال : فما يبعدنى من غضب الله ؟ قال « لاتغضب » أخرجه أحمد من حديث عبد الله بن عمرو بالشطر الأخير منه وقد تقدم قبله بست أحاديث .

عما شئت فأخبرك ، فقال : ما أريد أن أسألك عن شيء ، قال : فولى مدبرا ، فقال الراهب : ألا تسمع ، قال : بلى ، قال : أخبرنى أى أخلاق بنى آدم أعون لك عليهم ؟ فقال : الحدّة إن الرجل إذا كان حديدا قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة . وقال خيثمة : الشيطان يقول كيف يغلبنى ابن آدم وإذا رضى جئت حتى أكون فى قلبه ؟ وإذا غضب طرت حتى أكون فى رأسه ؟ وقال جعفر بن محمد : الغضب مفتاح كل شر . وقال بعض الأنصار : رأس الحمق الحدّة وقائده الغضب ، ومن رضى بالجهل استغنى عن الحلم ، والحلم زين ومنفعة ، والجهل شين ومضرة ، والسكوت عن جواب الأحمق جوابه . وقال مجاهد : قال إبليس ما أعجزنى بنو آدم فلن يعجزونى فى ثلاث : إذا سكر أحدهم أخذنا بخزامته فقدناه حيث شئنا وعمل لنا بما أحببنا ، وإذا غضب قال بما لا يعلم وعمل بما يندم ، ونبخله بما فى يديه ونمنيه بما لايقدر عليه . وقيل لحكيم . ما أملك فلانا لنفسه ! قال : إذاً لا تذله الشهوة ولا يصرعه الهوى ولا يغلبه الغضب . وقال بعضهم : إياك والغضب فإنه يصيرك إلى ذلة الاعتذار . وقيل : اتقوا الغضب فإنه يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل . وقال عبدالله بن مسعود : انظروا إلى حلم الرجل عند غضبه ، وأمانته عند طمعه وما علمك بحلمه إذا لم يغضب ، وما علمك بأمانته إذا لم يطمع ؟ وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله أن لاتعاقب عند غضبك وإذا غضبت على رجل فاحبسه ، فإذا سكن غضبك فأخرجه فعاقبه على قدر ذنبه ، ولاتجاوز به خمسة عشر سوطا . وقال على بن زيد : أغلظ رجل من قريش لعمر بن عبدالعزيز القول فأطرق عمر زمانا طويلا ثم قال : أردت أن يستفزنى الشيطان بعز السلطان فأنال منك اليوم ما تناله منى غدا ؟ وقال بعضهم لابنه : يابنى لا يثبت العقل عند الغضب كما لا تثبت روح الحى فى التنانير المسجورة ، فأقل الناس غضبا أعقلهم ، فإن كان للدنيا كان دهاء ومكرا ، وإن كان للآخرة كان حلما وعلما ، فقد قيل : الغضب عدو العقل والغضب غول العقل . وكان عمر رضى الله عنه إذا خطب قال فى خطبته : أفلح منكم من حفظ من الطمع والهوى والغضب . وقال بعضهم : من أطاع شهوته وغضبه قاداه إلى النار . وقال الحسن : من علامات المسلم قوة فى دين وحزم فى لين وإيمان فى يقين وعلم فى حلم وكيس فى رفق وإعطاء فى حق وقصد فى غنى وتجمل فى فاقة وإحسان فى قدرة وتحمل فى رفاقة وصبر فى شدّة ، لايغلبه الغضب ولا تجمح به الحمية ولا تغلبه شهوة ولا تفضحه بطنه ولا يستخفه حرصه ولا تقصر به نيته ، فينصر المظلوم ويرحم الضعيف ولايبخل ولايبذر ولايسرف ولايقتر ، يغفر إذا ظلم ويعفو عن الجاهل . نفسه منه فى عناء والناس منه فى رخاء . وقيل لعبدالله بن المبارك أجمل لنا حسن الخلق فى كلمة . فقال اترك الغضب . وقال نبى من الأنبياء لمن تبعه : من يتكفل لى أن لا يغضب فيكون معى فى درجتى ويكون بعدى خليفتى ؟ فقال شاب من القوم : أنا ، ثم أعاد عليه فقال الشاب : أنا أوفى به ، فلما مات كان فى منزلته بعده وهو ذوالكفل ، سمى به لأنه تكفل بالغضب ووفى به . وقال وهب بن منبه : للكفر أربعة أركان : الغضب ، والشهوة ، والخرق ، والطمع .

بيان حقيقة الغضب

اعلم أن الله تعالى لما خلق الحيوان معرّضا للفساد والموتان ، بأسباب فى داخل بدنه وأسباب خارجة عنه ؛ أنعم عليه بما يحميه عن الفساد ويدفع عنه الهلاك إلى أجل معلوم سماه فى كتابه .

أما السبب الداخلى : فهو أنه ركبه من الحرارة والرطوبة ، وجعل بين الحرارة والرطوبة عداوة ومضادة ، فلا تزال الحرارة تحلل الرطوبة وتجففها وتبخرها حتى تصير أجزاؤها بخارا يتصاعد منها ، فلو لم يصل بالرطوبة مدد من الغذاء يجبر ما انحل وتبخر من أجزائها لفسد الحيوان ، فخلق الله الغذاء الموافق لبدن الحيوان وخلق فى

الحيوان شهوة تبعثه على تناول الغذاء ؛ كالموكل به فى جبر ما انكسر وسد ما انثلم ليكون ذلك حافظا له من الهلاك بهذا السبب .

وأما الأسباب الخارجة التى يتعرض لها الإنسان : فكالسيف والسنان وسائر المهلكات التى يقصد بها ، فافتقر إلى قوة وحمية تثور من باطنه فتدفع المهلكات عنه ، فخلق الله طبيعة الغضب من النار وغرزها فى الإنسان وعجنها بطينته . فمهما صدّ عن غرض من أغراضه ومقصود من مقاصده اشتعلت نار الغضب وثارت ثورانا يغلى به دم القلب وينتشر فى العروق ويرتفع إلى أعالى البدن ، كما ترتفع النار وكما يرتفع الماء الذى يغلى فى القدر ، فلذلك ينصب إلى الوجه فيحمر الوجه والعين ، والبشرة لصفائها تحكى لون ماوراءها من حمرة الدم كما تحكى الزجاجة لون مافيها . وإنما ينبسط الدم إذا غضب على من دونه واستشعر القدرة عليه ، فإن صدر الغضب على من فوقه وكان معه يأس من الانتقام تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد إلى جوف القلب وصار حزنا ، ولذلك يصفرّ اللون ، وإن كان الغضب على نظير يشك فيه تردد الدم بين انقباض وانبساط فيحمرّ ويصفرّ ويضطرب .

وبالجملة فقوة الغضب محلها القلب ومعناها غليان دم القلب بطلب الانتقام وإنما تتوجه هذه القوة عند ثورانها إلى دفع المؤذيات قبل وقوعها وإلى التشفى والانتقام بعد وقوعها . والانتقام قوت هذه القوة وشهوتها وفيه لذتها ، ولا تسكن إلا به . ثم إن الناس فى هذه القوة على درجات ثلاث فى أول الفطرة من التفريط والإفراط والاعتدال .

أما التفريط : فبفقد هذه القوة أو ضعفها وذلك مذموم ، وهو الذى يقال فيه إنه لا حمية له . ولذلك قال الشافعى رحمه الله من استغضب فلم يغضب فهو حمار . فمن فقد قوة الغضب والحمية أصلا فهو ناقص جدا ، وقد وصف الله سبحانه أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بالشدة والحمية فقال ﴿ أشدّاء على الكفار رحماء بينهم ﴾ وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾ الآية. وإنما الغلظة والشدة من آثار قوة الحمية وهو الغضب .

وأما الإفراط : فهو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن سياسة العقل والدين وطاعته ، ولا يبقى للمرء معها بصيرة ونظر وفكرة ولا اختيار ، بل يصير فى صورة المضطر . وسبب غلبته أمور غريزية وأمور اعتيادية : فرب إنسان هو بالفطرة مستعد لسرعة الغضب حتى كأن صورته فى الفطرة صورة غضبان ، ويعين على ذلك حرارة مزاج القلب لأن الغضب من النار (١) كما قال صلى الله عليه وسلم . وإنما برودة المزاج تطفئه وتكسر سورته . وأما الأسباب الاعتيادية : فهو أن يخالط قوما يتبجحون بتشفى الغيظ وطاعة الغضب ويسمون ذلك شجاعة ورجولية ، فيقول الواحد منهم : أنا الذى لا أصبر على المكر والمحال ولا أحتمل من أحد أمرا ! ومعناه لا عقل فى ولا حلم . ثم يذكره فى معرض الفخر بجهله . فمن سمعه رسخ فى نفسه حسن الغضب وحب التشبه بالقوم فيقوى به الغضب . ومهما اشتدت نار الغضب وقوى اضطرامها أعمت صاحبها وأصمته عن كل موعظة ، فإذا وعظ لم يسمع بل زاده ذلك غضبا ، وإذا استضاء بنور عقله وراجع نفسه لم يقدر إذ ينطفئ نور العقل وينمحى فى الحال بدخان الغضب ، فإن معدن الفكر الدماغ ، ويتصاعد عند شدة الغضب من غليان دم القلب دخان مظلم إلى الدماغ يستولى على معادن الفكر ، وربما يتعدّى إلى معادن الحس فتظلم عينه حتى لا يرى بعينه ، وتسود عليه الدنيا بأسرها ، ويكون دماغه على مثال كهف اضطرمت فيه نار . فاسودّ جوّه وحمى مستقره وامتلأ بالدخان جوانبه وكان فيه سراج ضعيف فانمحى أو انطفأ نوره فلا تثبت فيه قدم ولا يسمع فيه كلام ولا ترى فيه صورة ، ولا يقدر على إطفائه لا من داخل ولا من خارج ، بل ينبغى

---

(١) حديث « الغضب من النار » أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد بسند ضعيف « الغضب جمرة فى قلب ابن آدم » ولأبى داود من حديث عطية السعدى « إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار »

أن يصير إلى أن يحترق جميع مايقبل الاحتراق : فكذلك يفعل الغضب بالقلب والدماغ . وربما تقوى نار الغضب فتفنى الرطوبة التي بها حياة القلب ، فيموت صاحبه غيظا كما تقوى النار في الكهف فينشق وتنهد أعاليه على أسفله ، وذلك لإبطال النار مافي جوانبه من القوة الممسكة الجامعة لأجزائه ، فهكذا حال القلب عند الغضب . وبالحقيقة فالسفينة في ملتطم الأمواج عند اضطراب الرياح في لجة البحر أحسن حالا وأرجى سلامة من النفس المضطربة غيظا؛ إذ في السفينة من يحتال لتسكينها وتدبيرها وينظر لها ويسوسها ، وأما القلب فهو صاحب السفينة وقد سقطت حيلته إذ أعماه الغضب وأصمه . ومن آثار هذا الغضب في الظاهر تغير اللون وشدة الرعدة في الأطراف وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام واضطراب الحركة والكلام ، حتى يظهر الزبد على الأشداق وتحمر الأحداق وتنقلب المناخر وتستحيل الخلقة ، ولو رأى الغضبان في حالة غضبه قبح صورته لسكن غضبه حياء من قبح صورته واستحالة خلقته ، وقبح باطنه أعظم من قبح ظاهره فإن الظاهر عنوان الباطن ، وإنما قبحت صورة الباطن أولا ثم انتشر قبحها إلى الظاهر ثانيا ، فتغير الظاهر ثمرة تغير الباطن فقس الثمرة بالمثمرة فهذا أثره في الجسد :

وأما أثره في اللسان فانطلاقه بالشتم والفحش من الكلام الذي يستحي منه ذو العقل ويستحي منه قائله عند فتور الغضب ، وذلك مع تخبط النظم واضطراب اللفظ .

أما أثره على الأعضاء فالضرب والتهجم والتمزيق والقتل والجرح عند التمكن من غير مبالاة ، فإن هرب منه المغضوب عليه أو فاته بسبب وعجز عن التشفي رجع الغضب على صاحبه فمزق ثوب نفسه ويلطم نفسه ، وقد يضرب بيده على الأرض ويعدو عدو الواله السكران والمدهوش المتحير ، وربما يسقط سريعا لايطيق العدو والنهوض بسبب شدة الغضب ويعتريه مثل الغشية ، وربما يضرب الجمادات والحيوانات فيضرب القصعة مثلا على الأرض وقد يكسر المائدة إذا غضب عليها . ويتعاطى أفعال المجانين فيشتم البهيمة والجمادات ويخاطبها ويقول : إلى متى منك هذا يا كيت وكيت ؟ كأنه يخاطب عاقلا ، حتى ربما رفسته دابة فيرفس الدابة ويقابلها بذلك .

وأما أثره في القلب مع المغضوب عليه فالحقد والحسد وإضمار السوء والشماتة بالمساءات والحزن بالسرور والعزم على إفشاء السر وهتك الستر والاستهزاء وغير ذلك من القبائح ، فهذه ثمرة الغضب المفرط .

وأما ثمرة الحمية الضعيفة فقلة الأنفة مما يؤنف منه من التعرض للحرم والزوجة والأمة واحتمال الذل من الأخساء وصغر النفس والقماءة وهو أيضاً مذموم ، إذ من ثمراته عدم الغيرة على الحرام وهو خنوثة قال صلى الله عليه وسلم « إن سعدا لغيور وأنا أغير من سعد وإن الله أغير مني [1] » وإنما خلقت الغيرة لحفظ الأنساب . ولو تسامح الناس بذلك لاختلطت الأنساب . ولذلك قيل كل أمة وضعت الغيرة في رجالها وضعت الصيانة في نسائها . ومن ضعف الغضب الخور والسكوت عند مشاهدة المنكرات وقد قال صلى الله عليه وسلم « خير أمتي أحداؤها [2] » يعني في الدين وقال تعالى ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾ بل من فقد الغضب عجز عن رياضة نفسه ، إذ لاتتم الرياضة إلا بتسليط الغضب على الشهوة ، حتى يغضب على نفسه عند الميل إلى الشهوات الخسيسة . ففقد الغضب مذموم ، وإنما المحمود غضب ينتظر إشارة العقل والدين ، فينبعث حيث تجب الحمية وينطفئ حيث يحسن الحلم ، وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التي كلف الله بها عباده وهو الوسط الذي وصفه رسول الله صلى الله عليه

---

(١) حديث « ان سعدا لغيور ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وهو متفق عليه من حديث المغيرة بنحوه وتقدم في النكاح . (٢) حديث « خير أمتي أحداؤها » أخرجه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث علي بسند ضعيف وزاد « الذين إذا غضبوا رجعوا »

وسلم حيث قال « خير الأمور أوساطها »[1] ، فمن مال غضبه إلى الفتور حتى أحس من نفسه بضعف الغيرة وخسة النفس فى احتمال الذل والضيم فى غير محله فينبغى أن يعالج نفسه حتى يقوى غضبه . ومن مال غضبه إلى الإفراط حتى جره إلى التهور واقتحام الفواحش فينبغى أن يعالج نفسه لينقص من سورة الغضب ويقف على الوسط الحق بين الطرفين ، فهو الصراط المستقيم وهو أرق من الشعرة وأحد من السيف ؛ فإن عجز عنه فليطلب القرب منه قال تعالى ﴿ وان تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ﴾ فليس كل من عجز عن الإتيان بالخير كله ينبغى أن يأتى بالشر كله ؛ ولكن بعض الشر اهون من بعض وبعض الخير أرفع من بعض. فهذه حقيقة الغضب ودرجاته نسأله الله حسن التوفيق لما يرضيه إنه على مايشاء قدير .

بيان الغضب هل يمكن إزالة أصله بالرياضة : أم لا ؟

أعلم أنه ظن ظانون أنه يتصور محو الغضب بالكلية ، وزعموا أن الرياضة إليه تتوجه وإياه تقصد ، وظن اخرون أنه أصل لايقبل العلاج . وهذا رأى من يظن أن الخلق كالخلق وكلاهما لايقبل التغيير ، وكلا الرأيين ضعيف . بل الحق فيه مانذكره وهو أنه مابقى الإنسان يحب شيئا ويكره شيئا فلا يخلو من الغيظ والغضب ، وما دام يوافقه شيء ويخالفه آخر فلا بد من أن يحب مايوافقه ويكره مايخالفه ، والغضب يتبع ذلك فإنه مهما أخذ منه محبوبه غضب لامحالة ، وإذا قصد بمكروه غضب لامحالة

إلا أن مايحبه الإنسان ينقسم إلى ثلاثة أقسام ، الأول : ماهو ضرورة فى حق الكافة كالقوت والمسكن والملبس وصحة البدن ، فمن قصد بدنه بالضرب والجرح فلا بد وأن يغضب ، وكذلك إذا أخذ منه ثوبه الذى يستر عورته ، وكذلك إذا أخرج من داره التى هى مسكنه أو أريق ماؤه الذى لعطشه ، فهذه ضرورات لايخلو الإنسان من كراهة زوالها ومن غيظ على من يتعرض لها .

القسم الثانى : ماليس ضروريا لأحد من الخلق كالجاه والمال الكثير والغلمان والدواب ، فإن هذه الأمور صارت محبوبة بالعادة والجهل بمقاصد الأمور ، حتى صار الذهب والفضة محبوبين فى أنفسهما فيكنزان ، ويغضب على من يسرقهما وإن كان مستغنيا عنهما فى القوت ، فهذا الجنس مما يتصور أن ينفك الإنسان عن أصل الغيظ عليه ، فإذا كانت له دار زائدة على مسكنه فهدمه ظالم فيجوز أن لايغضب ، إذ يجوز أن يكون بصيرا بأمر الدنيا فيزهد فى الزيادة على الحاجة فلا يغضب بأخذها ، فإنه لايحب وجودها ولو أحب وجودها لغضب على الضرورة بأخذها وأكثر غضب الناس على ماهو غير ضرورى كالجاه والصيت والتصدر فى المجالس والمباهاة فى العلم ، فمن غلب هذا الحب عليه فلامحالة يغضب إذا زاحمه مزاحم على التصدر فى المحافل ، ومن لايحب ذلك فلا يبالى ولو جلس فى صف النعال ، فلا يغضب إذا جلس غيره فوقه . وهذه العادات الرديئة هى التى أكثرت محاب الإنسان ومكارهه فأكثرت غضبه ، وكلما كانت الارادات والشهوات أكثر كان صاحبها أحط رتبة وأنقص ، لأن الحاجة صفة نقص فهما كثرت كثر النقص ، والجاهل أبدا جهده فى أن يزيد فى حاجاته وفى شهواته ، وهو لايدرى أنه مستكثر من أسباب الغم والحزن ، حتى ينتى بعض الجهال بالعادات الرديئة ومخالطة قرناء السوء إلى أن يغضب لو قيل له: إنك لاتحسن اللعب بالطيور واللعب بالشطرنج ولا تقدر على شرب الخمر الكثير وتناول الطعام الكثير ، ومايجرى مجراه من الرذائل ، فالغضب على هذا الجنس ليس بضرورى لأن حبه ليس بضرورى .

(١) حديث « خير الأمور أوسطها » أخرجه البيهقى فى الشعب مرسلا وقد تقدم .

القسم الثالث : مايكون ضروريا فى حق بعض الناس دون البعض ، كالكتاب مثلا فى حق العالم لأنه مضطر إليه فيحبه فيغضب على من يحرقه ويغرقه ، وكذلك أدوات الصناعات فى حق المكتسب الذى لا يمكنه التوصل إلى القوت إلا بها ، فإنما هو وسيلة إلى الضرورى ، والمحبوب يصير ضروريا ومحبوبا ، وهذا يختلف بالأشخاص وإنما الحب الضرورى ماأشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله « من أصبح آمناً فى سربه معافى فى بدنه وله قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها »(١) ، ومن كان بصيراً بحقائق الأمور وسلم له هذه الثلاثة يتصور أن لايغضب فى غيرها فهذه ثلاثة أقسام فلنذكر غاية الرياضة فى كل واحد منها .

أما القسم الأول : فليست الرياضة فيه لينعدم غيظ القلب ولكن لكى يقدر على أن لايطيع الغضب ولا يستعمله فى الظاهر إلا على حد يستحبه الشرع ويستحسنه العقل ، وذلك ممكن بالمجاهدة وتكلف الحلم والاحتمال مدة ، حتى يصير الحلم والاحتمال خلقا راسخا فأما قمع أصل الغيظ من القلب فذلك ليس مقتضى الطبع وهو غير ممكن نعم يمكن كسر سورته وتضعيفه حتى لايشتد هيجان الغيظ فى الباطن ، وينتهى ضعفه إلى أن لايظهر أثره فى الوجه ، ولكن ذلك شديد جدا وهذا حكم القسم الثالث أيضا لأن ماصار ضروريا فى حق شخص فلا يمنعه من الغيظ استغناء غيره عنه . فالرياضة فيه تمنع العمل به وتضعف هيجانه فى الباطن حتى لايشتد التألم بالصبر عليه .

وأما القسم الثانى : فيمكن التوصل بالرياضة إلى الانفكاك عن الغضب عليه إذ يمكن إخراج حبه من القلب ، وذلك بأن يعلم الإنسان أن وطنه القبر ومستقره الآخرة وأن الدنيا معبر يعبر عليها ويتزود منها قدر الضرورة ، وما وراء ذلك عليه وبال فى وطنه ومستقره فيزهد فى الدنيا ويمحو حبها عن قلبه ، ولو كان للإنسان كلب لايحبه لايغضب إذا ضربه غيره ، فالغضب تبع للحب . فالرياضة فى هذا تنتهى إلى قمع أصل الغضب وهو نادر جدًا ، وقد تنتهى إلى المنع من استعمال الغضب والعمل بموجبه وهو أهون .

فإن قلت : الضرورى من القسم الأول التألم بفوات المحتاج إليه دون الغضب ، فمن له شاة مثلا وهى قوته فماتت لا يغضب على أحد وإن كان يحصل فيه كراهة ، وليس من ضرورة كل كراهة غضب ، فإن الإنسان يتألم بالفصد والحجامة ولا يغضب على الفصاد والحجام فمن غلب عليه التوحيد حتى يرى الأشياء كلها بيد الله ومنه فلا يغضب على أحد من خلقه ؛ إذ يراهم مسخرين فى قبضة قدرته كالقلم فى يد الكاتب ، ومن وقع ملك بضرب رقبته لم يغضب على القلم ، فلا يغضب على من يذبح شاته التى هى قوته كما لا يغضب على موتها ، إذ يرى الذبح والموت من الله عز وجل فيندفع الغضب بغلبة التوحيد . ويندفع أيضا بحسن الظن بالله ، وهو أن يرى أن الكل من الله تعالى وأن الله لايقدر له إلا مافيه الخيرة ، وربما تكون الخيرة فى مرضه وجوعه وجرحه وقتله ، فلا يغضب كما لا يغضب على الفصاد والحجام لأنه يرى أن الخيرة فيه ، فيقول هذا على هذا الوجه غير محال ، ولكن غلبة التوحيد إلى هذا الحد إنما تكون كالبرق الخاطف ، تغلب فى أحوال مختلفة ولا تدوم ، ويرجع القلب إلى الالتفات إلى الوسائط رجوعا طبيعياً لايندفع عنه ، ولو تصور ذلك على الدوام لبشر لتصور لرسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه كان يغضب حتى تحمر وجنتاه(٢) حتى قال « اللهم أنا بشر أغضب كما يغضب البشر فأيما مسلم سببته

---

(١) حديث « من أصبح آمنا فى سربه معافى فى بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث عبيد الله بن محصن دون قوله « بحذافيرها » قال الترمذى حسن غريب .

(٢) حديث : كان صلى الله عليه وسلم يغضب حتى تحمر وجنتاه . أخرجه مسلم من حديث جابر : كان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه . وللحاكم : كان إذا ذكر الساعة احمرت وجنتاه واشتد غضبه . وقد تقدم فى أخلاق النبوة .

أو لعنته أو ضربته فاجعلها منى صلاة عليه وزكاة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة [١] » وقال عبدالله بن عمرو بن العاص : يارسول الله أكتب عنك كل ماقلت فى الغضب والرضا فقال « اكتب فوالذى بعثنى بالحق نبيا ما يخرج منه إلا حق » وأشار إلى لسانه [٢] فلم يقل إنى لا أغضب ، ولكن قال إن الغضب لايخرجنى عن الحق ، أى لا أعمل بموجب الغضب . وغضبت عائشة رضى الله تعالى عنها مرة فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « مالك ؟ جاءك شيطانك » فقالت : ومالك شيطان ؟ قال « بلى ولكنى دعوت الله فأعاننى عليه فأسلم فلا يأمرنى إلا بالخير [٣] » ولم يقل : لا شيطان لى ، وأراد شيطان الغضب لكن قال : لا يحملنى على الشر . وقال على رضى الله تعالى عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لايغضب للدنيا فإذا أغضبه الحق لم يعرفه أحد ولم يقم لغضبه شىء حتى ينتصر له [٤] فكان يغضب على الحق ، وإن كان غضبه لله فهو التفات إلى الوسائط على الجملة ، بل كل من يغضب على من يأخذ ضرورة قوته وحاجته التى لابد له فى دينه منها فإنما غضب لله ، فلا يمكن الانفكاك عنه . نعم قد يفقد أصل الغضب فيما هو ضرورى إذا كان القلب مشغولا بضرورى أهم منه ، فلا يكون فى القلب متسع للغضب لاشتغاله بغيره ، فإن استغراق القلب ببعض المهات يمنع الإحساس بما عداه .

وهذا كما أن سلمان لما شتم قال : إن خفت موازينى فأنا شر مما تقول وإن ثقلت موازينى لم يضرنى ما تقول . فقد كان همه مصروفا إلى الآخرة فلم يتأثر قلبه بالشتم . وكذلك شتم الربيع بن خثيم فقال : ياهذا قد سمع الله كلامك وإن دون الجنة عقبة إن قطعتها لم يضرنى ماتقول ، وإن لم أقطعها فأنا شر مما تقول وسب رجل أبابكر رضى الله عنه فقال : ماستر الله عنك أكثر ؛ فكأنه كان مشغولا بالنظر فى تقصير نفسه عن أن يتقى الله حق تقاته ويعرفه حق معرفته ، فلم يغضبه نسبة غيره إياه إلى نقصان ، إذكان ينظر إلى نفسه بعين النقصان ، وذلك لجلالة قدره . وقالت امرأة لمالك بن دينار : يامرائى ، فقال : ماعرفنى غيرك ! فكأنه كان مشغولا بأن ينفى عن نفسه آفة الرياء ، ومنكراً على نفسه مايلقيه الشيطان إليه فلم يغضب لما نسب إليه . وسب رجل الشعبى فقال : إن كنت صادقا فغفر الله لى ، وإن كنت كاذبا فغفر الله لك .

فهذه الأقاويل دالة فى الظاهر على أنهم لم يغضبوا لاشتغال قلوبهم بمهات دينهم ، ويحتمل أن يكون ذلك قد أثر فى قلوبهم ولكنهم لم يشتغلوا به واشتغلوا بما كان هو الأغلب على قلوبهم ، فإذاً اشتغال القلب ببعض المهات لايبعد أن يمنع هيجان الغضب عند فوات بعض المحاب ؛ فإذاً يتصور فقد الغيظ إما باشتغال القلب بمهم ، أو بغلبة نظر التوحيد ، أو بسبب ثالث : وهو أن يعلم أن الله يحب منه أن لايغتاظ فيطفىء شدة حبه لله غيظه ، وذلك غير محال فى أحوال نادرة . وقد عرفت بهذا أن الطريق للخلاص من نار الغضب محو حب الدنيا عن القلب وذلك بمعرفة آفات الدنيا وغوائلها ـ كما سيأتى فى كتاب ذم الدنيا ـ ومن أخرج حب المزايا عن القلب تخلص من أكثر

---

(١) حديث « اللهم أنا بشر أغضب كما يغضب البشر ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة دون قوله « أغضب كما يغضب البشر » وقال « جلدته » بدل « ضربته » وفى رواية « اللهم إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر » وأصله متفق عليه وتقدم ولمسلم من حديث أنس « إنما أنا بشر أرضى كما يرضى البشر وأغضب كما يغضب البشر » ولأبى يعلى من حديث أبى سعيد أو ضربته (٢) حديث عبد الله بن عمرو : يارسول الله أكتب عنك كل ماقلت فى الغضب والرضا ؟ قال « اكتب فوالذى بعثنى بالحق مايخرج منه إلا حق » وأشار إلى لسانه . أخرجه أبو داود بنحوه (٣) حديث : غضبت عائشة فقال النبى صلى الله عليه وسلم « مالك جاءك شيطانك ؟ ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث عائشة (٤) حديث على : كان لايغضب للدنيا ... الحديث أخرجه الترمذى فى الشمائل وقد تقدم .

أسباب الغضب ، وما لا يمكن محوه يمكن كسره وتضعيفه فيضعف الغضب بسببه ويهون دفعه . نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه إنه على كل شيء قدير والحمد لله وحده .

بيان الاسباب المهيجة للغضب

قد عرفت أن علاج كل علة حسم مادتها وإزالة أسبابها فلا بد من معرفة أسباب الغضب . وقد قال يحيى لعيسى عليهما السلام : أى شيء أشد ؟ قال : غضب الله ، قال فما يقرب من غضب الله ، قال أن تغضب ، قال : فما يبدى الغضب ومايتبته ؟ قال عيسى : الكبر والفخر والتعزز والحمية .

والأسباب المهيجة للغضب هى : الزهو والعجب والمزاح والهزل والهزء والتعيير والمماراة والمضادة والغدر وشدة الحرص على فضول المال والجاه ، وهى بأجمعها أخلاق رديئة مذمومة شرعا ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الأسباب فلا بد من إزالة هذه الأسباب بأضدادها .

فينبغى أن تميت الزهو بالتواضع . وتميت العجب بمعرفتك بنفسك - كما سيأتى بيانه فى كتاب الكبر والعجب - وتزيل الفخر بأنك من جنس عبدك إذ الناس يجمعهم فى الانتساب أب واحد ؛ وإنما اختلفوا فى الفضل أشتاتا فبنو آدم جنس واحد وإنما الفخر بالفضائل ؛ والفخر والعجب والكبر أكبر الرذائل وهى أصلها ورأسها ، فإذا لم تخل عنها فلا فضل لك على غيرك ، فلم تفتخر وأنت من جنس عبدك من حيث البنية والنسب والأعضاء الظاهرة والباطنة ؟ وأما المزاح فتزيله بالتشاغل بالمهمات الدينية التى تستوعب العمر وتفضل عنه إذا عرفت ذلك . وأما الهزل فتزيله بالجد فى طلب الفضائل والأخلاق الحسنة والعلوم الدينية التى تبلغك إلى سعادة الآخرة . وأما الهزء فتزيله بالتكرم عن إيذاء الناس وبصيانة النفس عن أن يستهزأ بك . وأما التعيير فالحذر عن القول القبيح وصيانة النفس عن مر الجواب . وأما شدة الحرص على مزايا العيش فتزال بالقناعة بقدر الضرورة طلبا لعز الإستغناء وترفعاً عن ذل الحاجة .

وكل خلق من هذه الأخلاق وصفة من هذه الصفات يفتقر فى علاجه إلى رياضة وتحمل مشقة ، وحاصل رياضتها يرجع إلى معرفة غوائلها لترغب النفس عنها وتنفر عن قبحها ، ثم المواظبة على مباشرة أضدادها مدة مديدة حتى تصير بالعادة مألوفة هينة على النفس ، فإذا انمحت عن النفس فقد زكت وتطهرت عن هذه الرذائل وتخلصت أيضاً عن الغضب الذى يتولد منها . ومن أشد البواعث على الغضب عند أكثر الجهال تسميتهم الغضب شجاعة ورجولية وعزة نفس وكبر همة ، وتلقيبه بالألقاب المحمودة غباوة وجهلا حتى تميل النفس إليه وتستحسنه . وقد يتأكد ذلك بحكاية شدة الغضب عن الأكابر فى معرض المدح بالشجاعة ، والنفوس مائلة إلى التشبه بالأكابر فيهيج الغضب إلى القلب بسببه ، وتسمية هذا عزة نفس وشجاعة جهل بل هو مرض قلب ونقصان عقل وهو لضعف النفس ونقصانها ، وآية أنه لضعف النفس أن المريض أسرع غضباً من الصحيح ، والمرأة أسرع غضباً من الرجل ، والصبى أسرع غضبا من الرجل الكبير ، والشيخ الضعيف أسرع غضبا من الكهل ، وذو الخلق السيء والرذائل القبيحة أسرع غضبا من صاحب الفضائل . فالرذل يغضب لشهوته إذا فاتته اللقمة ، ولبخله إذا فاتته الحبة ، حتى أنه يغضب على أهله وولده وأصحابه . بل القوى من يملك نفسه عند الغضب كما قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب [1] » بل ينبغى أن يعالج هذا الجاهل بأن تتلى عليه

(١) حديث « ليس الشديد بالصرعة » تقدم قبله .

حكايات أهل الحلم والعفو وما استحسن منهم من كظم الغيظ ، فإن ذلك منقول عن الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء وأكابر الملوك الفضلاء ، وضد ذلك منقول عن الأكراد والأتراك والجهلة والأغبياء الذين لاعقول لهم ولا فضل فيهم .

بيان علاج الغضب بعد هيجانه

ماذكرناه هو حسم لمواد الغضب وقطع لأسبابه حتى لايهيج ، فإذا جرى سبب هيجه فعنده يجب التثبت حتى لايضطر صاحبه إلى العمل به على الوجه المذموم ، وإنما يعالج الغضب عند هيجانه بمعجون العلم والعمل .

أما العلم فهو ستة أمور ؛ الأول: أن يتفكر فى الأخبار التى سنوردها فى فضل كظم الغيظ والعفو والحلم والاحتمال فيرغب فى ثوابه ، فتمنعه شدة الحرص على ثواب الكظم عن التشفى والانتقام وينطفئ عنه غيظه ، قال مالك بن أوس ابن الحدثان : غضب عمر على رجل وأمر بضربه فقلت ياأمير المؤمنين ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ فكان عمر يقول ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ فكان يتأمل فى الآية وكان وقافا عند كتاب الله مهما تلى عليه كثير التدبر فيه فتدبر فيه وخلى الرجل . وأمر عمر بن عبد العزيز بضرب رجل ثم قرأ قوله تعالى ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ فقال لغلامه خل عنه .

الثانى : أن يخوف نفسه بعقاب الله وهو أن يقول : قدرة الله على أعظم من قدرتى على هذا الإنسان ، فلو أمضيت غضبى عليه لم آمن أن يمضى الله غضبه على يوم القيامة أحوج ماأكون إلى العفو . فقد قال تعالى فى بعض الكتب القديمة : ياابن آدم اذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أمحقك فيمن أمحق . وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وصيفا إلى حاجة فأبطأ عليه فلما جاء قال « لولا القصاص لأوجعتك »[1] ، أى القصاص فى القيامة . وقيل ماكان فى بنى إسرائيل ملك إلا ومعه حكيم إذا غضب أعطاه صحيفة فيها : ارحم المسكين واخش الموت واذكر الآخرة ، فكان يقرؤها حتى يسكن غضبه .

الثالث : أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام وتشمر العدو لمقابلته والسعى فى هدم أغراضه والشماتة بمصائبه وهو لايخلو عن المصائب فيخوف نفسه بعواقب الغضب فى الدنيا إن كان لايخاف من الآخرة . وهذا يرجع إلى تسليط شهوة على غضب وليس هذا من أعمال الآخرة ولا ثواب عليه ، لأنه متردد على حظوظه العاجلة يقدم بعضها على بعض ، إلا أن يكون محذوره أن تتشوش عليه فى الدنيا فراغته للعلم والعمل ومايعينه على الآخرة فيكون مثابا عليه .

الرابع : أن يتفكر فى قبح صورته عند الغضب بأن يتذكر صورة غيره فى حالة الغضب ، ويتفكر فى قبح الغضب فى نفسه ومشابهة صاحبه للكلب الضارى والسبع العادى ، ومشابهة الحليم الهادى التارك للغضب للأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء ، ويخير نفسه بين أن يتشبه بالكلاب والسباع وأراذل الناس وبين أن يتشبه بالعلماء والأنبياء فى عادتهم لتميل نفسه إلى حب الاقتداء بهؤلاء إن كان قد بقى معه مسكة من عقل .

الخامس : أن يتفكر فى السبب الذى يدعوه إلى الانتقام ويمنعه من كظم الغيظ ، ولا بد وأن يكون له سبب مثل قول الشيطان له : إن هذا يحمل منك على العجز وصغر النفس والذلة والمهانة وتصير حقيراً فى أعين الناس ! فيقول لنفسه : ماأعجبك ! تأنفين من الاحتمال الآن ولا تأنفين من خزى يوم القيامة والافتضاح إذا أخذ هذا بيدك وانتقم

---

(١) حديث « لولا القصاص لأوجعتك » أخرجه أبو يعلى من حديث أم سلمة بسند ضعيف .

منك ؟ وتحذرين من أن تصغرى فى أعين الناس ولا تحذرين من أن تصغرى عند الله والملائكة والنبيين ؟ فمهما كظم الغيظ فينبغى أن يكظمه لله ، وذلك يعظمه عند الله ، فما له وللناس ؟ وذل من ظلمه يوم القيامة أشد من ذله لو انتقم الآن ، أفلا يحب أن يكون هو القائم إذا نودى يوم القيامة : ليقم من أجره على الله ، فلا يقوم إلا من عفا ؟ فهذا وأمثاله من معارف الإيمان ينبغى أن يكرره على قلبه .

السادس : أن يعلم أن غضبه من تعجبه من جريان الشيء على وفق مراد الله لا على وفق مراده ، فكيف يقول مرادى أولى من مراد الله ؟ ويوشك أن يكون غضب الله عليه أعظم من غضبه .

وأما العمل فان تقول بلسانك أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . هكذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقال عند الغيظ (١) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غضبت عائشة أخذ بأنفها وقال « ياعويش قولى اللهم رب النبي محمد اغفر لى ذنبي وأذهب غيظ قلبي وأجرنى من مضلات الفتن (٢) » فيستحب أن تقول ذلك ، فإن لم يزل بذلك فاجلس إن كنت قائما واضجع إن كنت جالسا واقرب من الأرض التى منها خلقت لتعرف بذلك ذل نفسك ، واطلب بالجلوس والاضجاع السكون فإن سبب الغضب الحرارة .وسبب الحرارة الحركة . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الغضب جمرة توقد فى القلب (٣) » ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه ، فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئاً فإن كان قائما فليجلس وإن كان جالساً فلينم ، فإن لم يزل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل ، فإن النار لا يطفئها إلا الماء : فقد قال صلى الله عليه وسلم « إذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء فإنما الغضب من النار (٤) » وفى رواية « إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ » وقال ابن عباس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وإذا غضبت فاسكت (٥) » وقال أبو هريرة: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غضب وهو قائم جلس وإذا غضب وهو جالس اضطجع فيذهب غضبه (٦) وقال أبو سعيد الخدرى : قال النبي صلى الله عليه وسلم «ألا إن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم (٧) ألا ترون إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه فمن وجد من ذلك شيئاً فليلصق خده بالأرض » وكأن هذا إشارة إلى السجود وتمكين أعز الأعضاء من أذل المواضع وهو التراب لتستشعر به النفس الذل وتزايل به العزة والزهو الذى هو سبب الغضب .

وروى أن عمر غضب يوما فدعا بماء فاستنشق وقال : إن الغضب من الشيطان وهذا يذهب الغضب . وقال عروة

---

(١) حديث : الأمر بالتعوذ بالله من الشيطان الرجيم عند الغيظ . متفق عليه من حديث سليمان بن صرد قال : كنت جالساً مع النبي صلى الله عليه وسلم ورجلان يستبان فأحدهما أحمر وجهه وانتفخت أوداجه .. . الحديث . وفيه « لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لذهب عنه ما يجد » فقالوا له : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال « تعوذ بالله من الشيطان الرجيم ... الحديث »

(٢) حديث : كان إذا غضبت عائشة أخذ بأنفها وقال « ياعويش قولى اللهم رب النبي محمد اغفر لى ذنبي وأذهب غيظ قلبي ... الحديث » أخرجه ابن السنى فى اليوم والليلة من حديثها وتقدم فى الأذكار والدعوات (٣) حديث « إن الغضب جمرة توقد فى القلب ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد دون قوله « توقد » وقد تقدم ورواه بهذا اللفظ البيهقى فى الشعب .

(٤) حديث « إذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء البارد ... الحديث » أخرجه أبو داود من حديث عطية السعدى دون قوله « بالماء البارد » وهو بلفظ الرواية الثانية التى ذكرها المصنف وقد تقدم (٥) حديث ابن عباس : إذا غضبت فاسكت . أخرجه أحمد وابن أبى الدنيا والطبرانى واللفظ لهما والبيهقى فى شعب الإيمان وفيه ليث بن أبى سليم (٦) حديث أبى هريرة: كان إذا غضب وهو قائم جلس وإذا غضب وهو جالس اضطجع فيذهب غضبه . أخرجه ابن أبى الدنيا وفيه من لم يسم ولأحمد باسناد جيد فى أثناء حديث فيه وكان أبو ذر قائما فجلس ثم اضطجع فقيل له : لم جلست ثم اضطجعت ؟ فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا « إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع » والمرفوع عند أبى داود وفيه عنده انقطاع سقط منه أبو الأسود (٧) حديث أبى سعيد « ألا إن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم ... الحديث » أخرجه الترمذى وقال حسن .

ابن محمد : لما استعملت على اليمن قال لى أبى : أوليت ؟ قلت : نعم ، قال : فإذا غضبت فانظر إلى السماء فوقك وإلى الأرض تحتك ثم عظم خالقهما . وروى أن أبا ذرّ قال لرجل : يا ابن الحمراء - فى خصومة بينهما - فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا أبا ذرّ بلغنى أنك اليوم عيرت أخاك بأمه » فقال : نعم ، فانطلق أبو ذرّ ليرضى صاحبه فسبقه الرجل فسلم عليه فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا أبا ذرّ ارفع رأسك فانظر ثم اعلم أنك لست بأفضل من أحمر فيها ولا أسود إلا أن تفضله بعمل ، ثم قال ، إذا غضبت فإن كنت قائماً فاقعد وإن كنت قاعداً فاتكئ وإن كنت متكئاً فاضطجع [1] » وقال المعتمر بن سليمان : كان رجل ممن كان قبلكم يغضب فيشتد غضبه فكتب صحائف وأعطى كل صحيفة رجلا وقال للأول : إذا غضبت فأعطنى هذه ، وقال للثانى : إذا سكن بعض غضبى فأعطنى هذه ، وقال للثالث : إذا ذهب غضبى فأعطنى هذه ، فاشتد غضبه يوما فأعطى الصحيفة الأولى فإذا فيها ما أنت وهذا الغضب إنك لست بإله إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضا ، فسكن بعض غضبه ، فأعطى الثانية فإذا فيها : ارحم من فى الأرض يرحمك من فى السماء ، فأعطى الثالثة فإذا فيها : خذ الناس بحق الله فإنه لا يصلحهم إلا ذلك . أى لا تعطل الحدود . وغضب المهدى على رجل فقال شبيب : لا تغضب لله بأشد من غضبه لنفسه ، فقال : خلوا سبيله .

فضيلة كظم الغيظ

قال الله تعالى ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ وذكر ذلك فى معرض المدح . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كف غضبه كف الله عنه عذابه ومن اعتذر إلى ربه قبل الله عذره ومن خزن لسانه ستر الله عورته [2] » وقال صلى الله عليه وسلم « أشدكم من غلب نفسه عند الغضب وأحلمكم من عفا عند القدرة [3] » وقال صلى الله عليه وسلم « من كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه لأمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا » وفى رواية « ملأ الله قلبه أمنا وإيمانا [4] » وقال ابن عمر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما جرع عبد جرعة أعظم أجراً من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله تعالى [5] » وقال ابن عباس رضى الله عنهما : قال صلى الله عليه وسلم « إن لجهنم بابا

---

(١) حديث أبى ذر : أنه قال لرجل : ياابن الحمراء فى خصومة بينهما فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم ... الحديث . وفيه فقال : ياأبا ذر ارفع رأسك فانظر ... الحديث : وفيه ثم قال « إذا غضبت » إلى آخره . أخرجه ابن أبى الدنيا فى العفو وذم الغضب باسناد صحيح وفى الصحيحين من حديثه قال : كان بينى وبين رجل من إخوانى كلام وكانت أمه أعجمية فعيرته بأمه فشكانى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال « ياأبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية » ولأحمد أنه صلى الله عليه وسلم قال له « انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى » ورجاله ثقات .

فضيلة كظم الغيظ

(٢) حديث « من كف غضبه كف الله عنه عذابه ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى شعب الإيمان واللفظ له من حديث أنس باسناد ضعيف ولابن أبى الدنيا من حديث ابن عمر « من ملك غضبه وقاه الله عذابه ... الحديث » وقد تقدم فى آفات اللسان (٣) حديث « أشدكم من ملك نفسه عند الغضب وأحلمكم من عفا عند القدرة » أخرجه ابن أبى الدنيا من حديث على بسند ضعيف والبيهقى فى الشعب بالشطر الأول من رواية عبد الرحمن بن عجلان مرسلا باسناد جيد ، وللبزار والطبرانى فى مكارم الأخلاق واللفظ له من حديث « أشدكم أملككم لنفسه عند الغضب » وفيه عمران القطان مختلف فيه . (٤) حديث « من كظم غيظا ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا » وفى رواية « أمنا وإيمانا » أخرجه ابن أبى الدنيا بالرواية الأولى من حديث ابن عمر وفيه سكين بن أبى سراج تكلم فيه ابن حبان وأبو داود بالرواية الثانية من حديث رجل من أبناء أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم عن أبيه ، ورواها ابن أبى الدنيا من حديث أبى هريرة وفيه من لم يسم (٥) حديث ابن عمر « ماجرع رجل جرعة أعظم أجراً من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله » أخرجه ابن ماجه .

لايدخله إلا من شفى غيظه بمعصية الله تعالى [١] ، وقال صلى الله عليه وسلم « ما من جرعة أحب إلى الله تعالى من جرعة غيظ كظمها عبد وما كظمها عبد إلا ملأ الله قلبه إيمانا [٢] » وقال صلى الله عليه وسلم « من كظم غيظا وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رءوس الخلائق ويخيره من أى الحور شاء [٣] »

الآثار : قال عمر رضى الله عنه : من اتقى الله لم يشف غيظه ومن خاف الله لم يفعل ما يشاء ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون . وقال لقمان لابنه : يابنى لا تذهب ماء وجهك بالمسألة ولا تشف غيظك بفضيحتك واعرف قدرك تنفعك معيشتك . وقال ايوب : حلم ساعة يدفع شرا كثيرا . واجتمع سفيان الثورى وأبو خزيمة اليربوعى والفضيل بن عياض فتذاكروا الزهد ، فأجمعوا على أن أفضل الأعمال الحلم عند الغضب والصبر عند الجزع . وقال رجل لعمر رضى الله عنه : والله ما تقضى بالعدل ولا تعطى الجزل ، فغضب عمر حتى عرف ذلك فى وجهه. فقال له رجل . يا أمير المؤمنين ألا تسمع إلى الله تعالى يقول ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ فهذا من الجاهلين ، فقال عمر : صدقت ، فكأنما كانت نارا فأطفئت . وقال محمد بن كعب : ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله ، إذا رضى لم يدخله رضاه فى الباطل وإذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق وإذا قدر لم يتناول ما ليس له . وجاء رجل إلى سلمان فقال : ياعبد الله أوصنى ، قال : لاتغضب ، قال لا أقدر ، قال : فإن غضبت فأمسك لسانك ويدك .

بيان فضيلة الحلم

اعلم أن الحلم أفضل من كظم الغيظ ؛ لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم أى تكلف الحلم ، ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلا من هاج غيظه ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة ، ولكن إذا تعود ذلك مدة صار ذلك اعتيادا فلا يهيج الغيظ ، وإن هاج فلا يكون فى كظمه تعب ، وهو الحلم الطبيعى ، وهو دلالة كمال العقل واستيلائه وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل ، ولكن ابتداؤه التحلم وكظم الغيظ تكلفا . قال صلى الله عليه وسلم « إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ومن يتخير الخير يعطه ومن يتوق الشر يوقه [٤] » وأشار بهذا إلى أن اكتساب الحلم طريقه التحلم أولا وتكلفه كما أن اكتساب العلم طريقه التعلم . وقال أبو هريرة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السكينة والحلم ، لينوا لمن تعلمون ولمن تتعلمون منه ، ولاتكونوا من جبابرة العلماء فيغلب جهلكم حلمكم [٥] » وأشار بهذا إلى أن التكبر والتجبر هو الذى يهيج الغضب ويمنع من الحلم واللين . وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم اللهم أغننى بالعلم وزينى بالحلم وأكرمنى بالتقوى وجملنى بالعافية [٦] ، وقال أبو هريرة : قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « ابتغوا

---

(١) حديث ابن عباس « لن لجهنم بابا لايدخل منه الا من شفى غيظه بمعصية الله » تقدم فى آفات اللسان (٢) حديث « مامن جرعة أحب الى الله تعالى من جرعة غيظ كظمها عبد وما كظمها عبد الا ملأ الله قلبه ايمانا » أخرجه ابن أبى الدنيا من حديث ابن عباس وفيه ضعف ويتلفق من حديث ابن عمر وحديث الصحابى الذى لم يسم وقد تقدما (٣) حديث « من كظم غيظا وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رءوس الخلائق حتى يخيره من أى الحور شاء » تقدم فى آفات اللسان .

فضيـــلة الحلم

(٤) حديث « إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ... الحديث » أخرجه الطبرانى والدارقطنى فى العلل من حديث أبى الدرداء بسند ضعيف (٥) حديث أبى هريرة « اطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السكينة والحلم ... الحديث » أخرجه ابن السنى فى رياضة المتعلمين بسند ضعيف (٦) حديث : كان من دعائه « اللهم أغننى بالعلم وزينى بالحلم وأكرمنى بالتقوى وجملنى بالعافية » لم أجد له أصلا

الرفعة عندالله . قالوا : وماهى يارسول‌الله ؟ قال « تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتحلم عمن‌جهل عليك [١] » وقال صلى الله عليه وسلم « خمس من سنن المرسلين : الحياء والحلم والحجامة والسواك والتعطر [٢] » وقال على كرم الله وجهه : قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم وإنه ليكتب جبارا عنيدا ولا يملك إلا أهل بيته [٣] » وقال أبو هريرة : إن رجلا قال يارسول الله إن لى قرابة أصلهم ويقطعونى وأحسن إليهم ويسيئون إلى ويجهلون على واحلم عنهم ، قال « إن كان كما تقول فكأنما تسفهم الملّ ولا يزال معك من الله ظهير مادمت على ذلك [٤] » الملّ : يعنى به الرمل . وقال‌رجل من المسلمين : اللهم‌ليس عندى‌صدقة اتصدّق بها فأيمارجل أصاب‌من عرضى‌شيئاً فهوعليه صدقة فأوحى الله تعالى إلى النبي صلى‌الله عليه‌وسلم إنى قد غفرت له[٥] وقال صلى الله عليه وسلم « أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضم » قالوا : وما أبوضمضم ؟ قال « رجل ممن كان قبلكم كان إذا أصبح يقول : اللهم إنى تصدّقت اليوم بعرضى على من ظلمنى [٦] »

وقيل فى قوله تعالى ﴿ ربانيين ﴾ أى حلماء علماء . وعن الحسن فى قوله تعالى ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ قال حلماء إن‌جهل عليهم‌لم يجهلوا . وقال‌عطاء بن أبى رباح ﴿ يمشون‌على الأرض‌هونا ﴾ أى‌حلماء . وقال ابن أبى حبيب فى‌قوله عزوجل ﴿ وكهلا ﴾ قاله : الكهل منتهى‌الحلم . وقال‌مجاهد ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ أى إذا أوذوا صفحوا .

وروى ان ابن‌مسعود مر بلغو معرضا فقال رسول‌الله صلى‌الله عليه‌وسلم « أصبح ابن مسعود وأمسى كريما [٧] » ثم تلاإبراهيم بن ميسرة وهو الراوى قوله تعالى ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم « اللهم لايدركنى ولا أدركه زمان لايتبعون فيه العليم ولا يستحيون فيه من الحليم ، قلوبهم قلوب العجم وألسنتهم ألسنة العرب [٨] » وقال صلى الله عليه وسلم « ليلينى منكم ذوو الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم ، وإياكم وهيشات الأسواق [٩] » وروى أنه وفد على النبي صلى الله عليه وسلم الأشج فأناخ راحلته ثم عقلها وطرح عنه ثوبين كانا عليه وأخرج من العيبة ثوبين حسنين فلبسهما ، وذلك بعين‌رسول الله

---

(١) حديث « ابتغوا الرفعة عند الله » قالوا : وماهى ؟ قال « تصل من قطعك . . الحديث » أخرجه‌الحاكم والبيهقى وقدتقدم

(٢) حديث « خمس من سنن المرسلين : الحياء والحلم والحجامة والسواك والتعطر » أخرجه أبو بكر بن أبى عاصم فى المثانى والآحاد والترمذى الحكيم فى نوادر الأصول من رواية مليح بن عبد الله الخطمى عن أبيه عن جده ، وللترمذى وحسنه من حديث أبى أيوب « أربع » فأسقط « الحلم والحجامة » وزاد « النكاح » (٣) حديث على « ان الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف (٤) حديث أبى هريرة : أن رجلا قال يارسول‌الله ان لى قرابة أصلهم ويقطعونى وأحسن اليهم ويسيئون الى ويجهلون على وأحلم عنهم ... الحديث . رواه مسلم (٥) حديث قال رجل من المسلمين اللهم ليس عندى صدقة أتصدق بها فأيما رجل أصاب من عرضى شيئا فهو صدقة عليه ... الحديث . أخرجه أبو نعيم فى الصحابه والبيهقى فى الشعب من رواية عبد المجيد بن أبى عبس بن جبر عن أبيه عن جده باسناد لين ، زاد البيهقى عن علية بن زيد وعلية هو الذى قال ذلك كما فى أثناء الحديث وذكر ابن عبد البر فى الاستيعاب أنه رواه ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن أبى صالح عن أبى هريرة : أن رجلا من المسلمين ولم يسمه وقال أظنه أبا ضمضم قلت وليس بأبى ضمضم انما هو علبة بن زيد وأبو ضمضم ليس له صحبة وإنما هو متقدم (٦) حديث « أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضم ... الحديث » تقدم فى آفات اللسان

(٧) حديث أن ابن مسعود مر بلغو معرضا فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أصبح ابن مسعود وأمسى كريما » أخرجه‌ابن المبارك فى‌البر والصلة (٨) حديث « اللهم لايدركنى ولا أدركه زمان لايتبعون فيه العليم ولايستحيون فيه من الحليم ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف (٩) حديث « ليلينى منكم أولو الأحلام والنهى ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود دون قوله « ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم » فهى عند أبى داود والترمذى وحسنه وهى عند مسلم فى حديث آخر لابن مسعود .

صلى الله عليه وسلم يرى مايصنع ، ثم أقبل يمشى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام « إن فيك ياأشج خلقين يحبهما الله ورسوله » قال : ماهما بأبى أنت وأمى يارسول الله ؟ قال « الحلم والأناة » فقال : خلتان تخلقتهما أو خلقان جبلت عليهما ؟ فقال « بل خلقان جبلك الله عليهما » فقال : الحمد لله الذى جبلنى على خلقين يحبهما الله ورسوله [1] وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب الحليم الحيى الغنى المتعفف أباالعيال التقى ويبغض الفاحش البذى السائل الملحف الغبى [2] » وقال ابن عباس : قال النبى صلى الله عليه وسلم « ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلاتعتدوا بشىء من عمله : تقوى تحجزه عن معاصى الله عزوجل . وحلم يكف به السفيه ، وخلق يعيش به فى الناس [3] » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة نادى مناد : أين أهل الفضل ؟ فيقوم ناس وهم يسير فينطلقون سراعا إلى الجنة فتتلقاهم الملائكة فتقولون لهم إنا نراكم سراعا إلى الجنة فيقولون نحن أهل الفضل ، فيقولون لهم ما كان فضلكم ؟ فيقولون كنا إذا ظلمنا صبرنا وإذا أسىء إلينا عفونا وإذ جهل علينا حلمنا . فيقال لهم ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين [4] » .

الآثار : قال عمر رضى الله عنه : تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم . وقال على رضى الله عنه : ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ، ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك ، وأن لاتباهى الناس بعبادة الله ، وإذا أحسنت حمدت الله تعالى ، وإذا أسأت استغفرت الله تعالى . وقال الحسن : اطلبوا العلم وزينوه بالوقار والحلم . وقال أكثم بن صيفى : دعامة العقل الحلم وجماع الأمر الصبر . وقال أبوالدرداء : أدركت الناس ورقا لاشوك فيه فأصبحوا شوكا لاورق فيه ، إن عرفتهم نقدوك وإن تركتهم لم يتركوك ، قالوا : كيف نصنع ؟ قال : تقرضهم عن عرضك ليوم فقرك . وقال على رضى الله عنه : إن أول ماعوض الحليم من حلمه أن الناس كلهم أعوانه على الجاهل . وقال معاوية رحمه الله تعالى : لايبلغ العبد مبلغ الرأى حتى يغلب حلمه جهله وصبره شهوته ، ولا يبلغ ذلك إلا بقوة العلم ، وقال معاوية لعمرو بن الأهتم : أى الرجال أشجع ؟ قال : من رد جهله بحلمه قال : أى الرجال أسخى ؟ قال : من بذل دنياه لصلاح دينه . وقال أنس بن مالك فى قوله تعالى ﴿ فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ﴾ إلى قوله ﴿ عظيم ﴾ هو الرجل يشتمه أخوه فيقول : إن كنت كاذبا فغفر الله لك وإن كنت صادقا فغفر الله لى . وقال بعضهم : شتمت فلانا من أهل البصرة فحلم على فاستعبدنى بها زمانا . وقال معاوية لعرابة بن أوس : بم سدت قومك ياعرابة ؟ قال : ياأمير المؤمنين كنت أحلم عن جاهلهم وأعطى سائلهم وأسعى فى حوائجهم . فمن فعل فعلى فهو مثلى ومن جاوزنى فهو أفضل منى ومن قصر عنى فأنا خير منه . وسب رجل ابن عباس رضى الله عنهما فلما فرغ قال : ياعكرمة هل للرجل حاجة فنقضيها ؟ فنكس الرجل رأسه واستحى . وقال رجل لعمر بن عبدالعزيز : أشهد أنك من الفاسقين ، فقال: ليس تقبل شهادتك . وعن على بن الحسين بن على رضى الله عنهم أنه سبه رجل فرمى إليه بخميصة كانت عليه وأمر له بألف درهم ، فقال بعضهم : جمع له خمس خصال محمودة : الحلم وإسقاط الأذى وتخليص الرجل مما يبعد من الله عز وجل وحمله على الندم والتوبة ورجوعه إلى مدح بعد الذم اشترى جميع ذلك بشىء من الدنيا يسير وقال رجل لجعفر بن محمد

---

(١) حديث « ياأشج إن فيك خصلتين يحبهما الله : الحلم والأناة ... الحديث » متفق عليه (٢) حديث : إن الله يحب الحيى الحليم الغنى المتعفف ... الحديث » أخرجه الطبراني من حديث سعد « إن الله يحب العبد التقى الغنى الخفى (٣) حديث ابن عباس « ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تعتدوا بشىء من عمله » أخرجه أبو نعيم فى كتاب الإيجاز بإسناد ضعيف والطبرانى من حديث أم سلمة بإسناد لين وقد تقدم فى آداب الصحبة (٤) حديث « إذا جمع الخلائق نادى مناد أين أهل الفضل ؟ فيقوم ناس ... الحديث » وفيه « إذا جهل علينا حلمنا » أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال البيهقى فى إسناده ضعف .

إنه قد وقع بينى وبين قوم منازعة فى أمر وإنى أريد أن أتركه فأخشى أن يقال لى : إن تركك له ذل ، فقال جعفر : إنما الذليل الظالم . وقال الخليل بن أحمد : كان يقال من أساء فأحسن إليه فقد جعل له حاجز من قلبه يردعه عن مثل إساءته وقال الأحنف بن قيس : لست بحليم ولكننى أتحلم . وقال وهب بن منبه : من يرحم يرحم ومن يصمت يسلم ، ومن يجهل يغلب ، ومن يعجل يخطئ ، ومن يحرص على الشر لا يسلم ، ومن لا يدع المراء يشتم ، ومن لا يكره الشر يأثم ، ومن يكره الشر يعصم ، ومن يتبع وصية الله يحفظ ، ومن يحذر الله يأمن ، ومن يتول الله يمنع ومن لا يسأل الله يفتقر ، ومن يأمن مكر الله يخذل ، ومن يستعن بالله يظفر . وقال رجل لمالك بن دينار : بلغنى أنك ذكرتنى بسوء ، قال ، أنت إذن أكرم على من نفسى إنى إذا فعلت ذلك أهديت لك حسناتى . وقال بعض العلماء الحلم أرفع من العقل لأن الله تعالى تسمى به . وقال رجل لبعض الحكماء : والله لأسبنك سبا يدخل معك فى قبرك ، فقال : معك يدخل لا معى . ومر المسيح ابن مريم عليه الصلاة والسلام بقوم من اليهود فقالوا له شرا فقال لهم خيراً فقيل له : إنهم يقولون شرا وأنت تقول خيراً ؟ فقال : كل ينفق مما عنده . وقال لقمان : ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة ؛ لا يعرف الحليم إلا عند الغضب ، ولا الشجاع إلا عند الحرب ، ولا الأخ إلا عند الحاجة إليه . ودخل على بعض الحكماء صديق له فقدم إليه طعاما فخرجت امرأة الحكيم - وكانت سيئة الخلق - فرفعت المائدة وأقبلت على شتم الحكيم ، فخرج الصديق مغضبا فتبعه الحكيم وقال له تذكر يوم كنا فى منزلك نطعم فسقطت دجاجة على المائدة فأفسدت ما عليها فلم يغضب أحد منا ؟ قال : نعم ، قال فاحسب أن هذه مثل تلك الدجاجة ؛ فسرى عن الرجل غضبه وانصرف وقال : صدق الحكيم ، الحلم شفاء من كل ألم . وضرب رجل قدم حكيم فأوجعه فلم يغضب فقيل له فى ذلك فقال : أقمته مقام حجر تعثرت به فذبحت الغضب . وقال محمود الوراق :

سألزم نفسى الصفح عن كل مذنب ... وإن كثرت منه على الجرائم
وما الناس إلا واحد من ثلاثة ... شريف ومشروف ومثلى مقاوم
فأما الذى فوقى فاعرف قدره ... وأتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذى دونى فإن قال صنت عن ... إجابته عرضى وإن لام لائم
وأما الذى مثلى فإن زل أوهفا ... تفضلت إن الفضل بالحلم حاكم

بيان القدر الذى يجوز الانتصار والتشفى به من الكلام

اعلم أن كل ظلم صدر من شخص فلا يجوز مقابلته بمثله ، فلا تجوز مقابلة الغيبة بالغيبة ولا مقابلة التجسس بالتجسس ولا السب بالسب ، وكذلك سائر المعاصى . وإنما القصاص والغرامة على قدر ما ورد الشرع به وقد فصلناه فى الفقه . وأما السب فلا يقابل بمثله إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن امرؤ عيرك بما فيك فلا تعيره بما فيه [1] » وقال « المستبان ما قالا فهو على البادئ مالم يعتد المظلوم » وقال « المستبان شيطانان يتهاتران [2] » وشتم رجل أبا بكر الصديق رضى الله عنه وهو ساكت فلما ابتدأ ينتصر منه قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر : إنك كنت ساكتا لما شتمنى فلما تكلمت قمت قال ، لأن الملك كان يجيب عنك فلما تكلمت ذهب الملك وجاء الشيطان فلم أكن لأجلس فى مجلس فيه الشيطان [3] » وقال قوم : تجوز المقابلة بما لا كذب فيه ، وإنما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث « إن امرؤ عيرك بما فيك فلا تعيره بما فيه » أخرجه أحمد من حديث جابر بن سليم . وقد تقدم (٢) حديث المستبان شيطانان يتهاتران » تقدم (٣) حديث : شتم رجل أبابكر رضى الله عنه وهو ساكت فلما ابتدأ ينتصر منه قام صلى الله عليه وسلم . الحديث ، أخرجه أبو داود من حديث أبى هريرة متصلا ومرسلا قال البخارى المرسل أصح .

عن مقابلة التعيير بمثله نهى تنزيه ، والأفضل تركه ولكنه لايعصى به . والذى يرخص فيه أن تقول : من أنت ؟ وهل أنت إلا من بنى فلان ؟ كما قال سعد لابن مسعود : وهل أنت إلا من بنى هذيل ؟ وقال ابن مسعود : وهل أنت إلا من بنى أمية ؟ ومثل قوله : ياأحمق ، قال مطرف : كل الناس أحمق فيما بينه وبين ربه إلا أن بعض الناس أقل حماقة من بعض . وقال ابن عمر فى حديث طويل : حتى ترى الناس كلهم حمقى فى ذات الله تعالى (١) وكذلك قوله ياجاهل ، إذ مامن أحد إلا وفيه جهل ؛ فقد آذاه بما ليس بكذب . وكذلك قوله ياسيىء الخلق ، ياصفيق الوجه ياثالبا للإعراض ، وكان ذلك فيه . وكذلك قوله : لوكان فيك حياء لما تكلمت ، وما أحقرك فى عينى بما فعلت، وأخزاك الله وانتقم منك .

فأما النميمة والغيبة والكذب وسب الوالدين فحرام بالاتفاق ، لما روى أنه كان بين خالدبن الوليد وسعدكلام ، فذكر رجل خالدا عند سعد ، فقال سعد : مه إن مابيننا لم يبلغ ديننا . يعنى أن يأثم بعضنا فى بعض ، فلم يسمع السوء فكيف يجوز له أن يقوله ؟

والدليل على جواز ماليس بكذب ولا حرام كالنسبة إلى الزنا والفحش والسب : ماروت عائشة رضى الله عنها أن أزواج النبى صلى الله عليه وسلم أرسلن إليه فاطمة ، فجاءت فقالت : يارسول الله أرسلنى إليك أزواجك يسألنك العدل فى ابنة أبى قحافة ، والنبى صلى الله عليه وسلم نائم ، فقال « يابنية أتحبين ماأحب ؟ قالت : نعم ، قال « فأحبى هذه » فرجعت إليهن فأخبرتهن بذلك فقلن : ماأغنيت عنا شيئا : فأرسلن زينب بنت جحش ، قالت : وهى التى كانت تساميني فى الحب فجاءت فقالت : بنت أبى بكر وبنت أبى بكر ، فما زالت تذكرنى وأنا ساكتة أنتظر أن يأذن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجواب فأذن لى ، فسببتها حتى جف لسانى فقال النبى صلى الله عليه وسلم « كلا إنها ابنة أبى بكر (٢) » يعنى أنك لاتقاومينها فى الكلام قط وقولها : سببتها ، ليس المراد به الفحش بل هو الجواب عن كلامها بالحق ومقابلتها بالصدق . وقال النبى صلى الله عليه وسلم « المستبان ماقالا فعلى البادئ منهما حتى يعتدى المظلوم (٣) » فأثبت للمظلوم انتصار إلى أن يعتدى . فهذا القدر هو الذى أباحه هؤلاء وهو رخصة فى الإيذاء جزاء على إيذائه السابق . ولا تبعد الرخصة فى هذا القدر ولكن الأفضل تركه فإنه يجره إلى ماوراءه ولا يمكنه الاقتصار على قدر الحق فيه ، والسكوت عن أصل الجواب لعله أيسر من الشروع فى الجواب والوقوف على حد الشرع فيه ، ولكن من الناس من لايقدر على ضبط نفسه فى فورة الغضب ولكن يعود سريعاً ، ومنهم من يكف نفسه فى الابتداء ولكن يحقد على الدوام . والناس فى الغضب أربعة : فبعضهم كالحلفاء سريع الوقود سريع الخمود ، وبعضهم كالغضا بطىء الوقود بطىء الخمود وبعضهم بطىء الوقود سريع الخمود وهو الأحمد مالم ينته إلى فتور الحمية والغيرة ، وبعضهم سريع الوقود بطىء الخمود وهذا هو شرهم . وفى الخبر « المؤمن سريع الغضب سريع الرضى فهذه بتلك (٤) » وقال الشافعى رحمه الله : من استغضب فلم يغضب فهو حمار ومن استرضى فلم يرض فهو شيطان . وقد قال أبو سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا إن بنى آدم خلقوا على طبقات شتى فمنهم بطىء الغضب سريع الفىء ، ومنهم سريع الغضب سريع الفىء ؛ فتلك بتلك ، ومنهم سريع الغضب بطىء الفىء ، ألا وإن خيرهم البطىء الغضب السريع الفىء وشرهم السريع الغضب البطىء الفىء (٥) » ولما كان الغضب يهيج ويؤثر فى كل إنسان وجب على السلطان أن لايعاقب

---

(١) حديث ابن عمر فى حديث طويل « حتى ترى الناس كأنهم حمقى فى ذات الله عزوجل » تقدم فى العلم (٢) حديث عائشة إن أزواج النبى صلى الله عليه وسلم أرسلن فاطمة فقالت : يارسول الله أرسلنى أزواجك يسألنك العدل فى ابنة أبى قحافة . . الحديث . رواه مسلم (٣) حديث « المستبان ماقالا فعلى البادى ... الحديث » رواه مسلم وقد تقدم (٤) حديث « المؤمن سريع الغضب سريع الرضى » تقدم (٥) حديث أبى سعيد الخدرى « ألا إن بنى آدم خلقوا على طبقات ... الحديث » تقدم

أحدا فى حال غضبه ، لأنه ربما يتعدى الواجب ، ولأنه ربما يكون متغيظا عليه فيكون متشفيا لغيظه ومريحا نفسه من ألم الغيظ ، فيكون صاحب حظ نفسه ، فينبغى أن يكون انتقامه وانتصاره لله تعالى لا لنفسه . ورأى عمر رضى الله عنه سكران فأراد أن يأخذه ويعزره فشتمه السكران فرجع عمر ، فقيل له : ياأمير المؤمنين لما شتمك تركته ؟ قال : لأنه أغضبنى ولو عزرته لكان ذلك لغضبى لنفسى ، ولم أحب أن أضرب مسلما حمية لنفسى . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله لرجل أغضبه : لولا أنك أغضبتنى لعاقبتك .

القول فى معنى الحقد ونتائجه وفضيلة العفو والرفق

اعلم أن الغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التشفى فى الحال رجع إلى الباطن واحتقن فيه فصار حقدا ، ومعنى الحقد أن يلزم قلبه استثقاله والبغضة له والنفار عنه وأن يدوم ذلك ويبقى ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « المؤمن ليس بحقود [1] » فالحقد ثمرة الغضب .

والحقد يثمر ثمانية أمور (الأول) الحسد : وهو أن يحملك الحقد على أن تتمنى زوال النعمة عنه فتغتم بنعمة إن أصابها وتسر بمصيبة إن نزلت به ، وهذا من فعل المنافقين . وسيأتى ذمه إن شاء الله تعالى . (الثانى) أن تزيد على إضمار الحسد فى الباطن ، فتشمت بما أصابه من البلاء . (الثالث) أن تهجره وتصارمه وتنقطع عنه وإن طلبك وأقبل عليك . (الرابع) وهو دونه أن تعرض عنه استصغاراً له . (الخامس) أن تتكلم فيه بما لا يحل من كذب وغيبة وإفشاء سر وهتك ستر وغيره . (السادس) أن تحاكيه استهزاء به وسخرية منه . (السابع) إيذاؤه بالضرب وما يؤلم بدنه . (الثامن) أن تمنعه حقه من قضاء دين أو صلة رحم أو رد مظلمة . وكل ذلك حرام .

وأقل درجات الحقد أن تحترز من الآفات الثمانية المذكورة ولا تخرج بسبب الحقد إلى ما تعصى الله به ، ولكن تستثقله فى الباطن ولا تنهى قلبك عن بغضه ، حتى تمتنع عما كنت تطوع به من البشاشة والرفق والعناية والقيام بحاجاته والمجالسة معه على ذكر الله تعالى والمعاونة على المنفعة له ، أو بترك الدعاء له والثناء عليه أو التحريض على بره ومواساته . فهذا كله مما ينقص درجتك فى الدين ويحول بينك وبين فضل عظيم وثواب جزيل وإن كان لا يعرضك لعقاب الله .

ولما حلف أبو بكر رضى الله عنه أن لا ينفق على مسطح ـ وكان قريبه ـ لكونه تكلم فى واقعة الإفك نزل قوله تعالى ﴿ ولا يأتل أولو الفضل منكم ﴾ إلى قوله ﴿ ألا تحبون أن يغفر الله لكم ﴾ فقال أبو بكر : نعم نحب ذلك ، وعاد إلى الإنفاق عليه [2] .

والأولى أن يبقى على ما كان عليه ، فإن أمكنه أن يزيد فى الإحسان مجاهدة للنفس وإرغاما للشيطان فذلك مقام الصديقين وهو من فضائل أعمال المقربين . فللمحقود ثلاثة أحوال عند القدرة . (أحدها) أن يستوفى حقه الذى يستحقه من غير زيادة أو نقصان وهو العدل . (الثانى) أن يحسن إليه بالعفو والصلة وذلك هو الفضل . (الثالث) أن يظلمه بما لا يستحقه وذلك هو الجور ، وهو اختيار الأراذل ، والثانى : هو اختيار الصديقين ، والأول : هو منتهى درجات الصالحين . ولنذكر الآن فضيلة العفو والإحسان .

فضيلة العفو

(۱) حديث « المؤمن ليس بحقود » تقدم فى العلم (۲) حديث : لما حلف أبو بكر أن لا ينفق على مسطح نزل قوله تعالى (ولا يأتل أولوا الفضل منكم) الآية متفق عليه من حديث عائشة .

فضيلة العفو والإحسان

اعلم أن معنى العفو أن يستحق حقا فيسقطه ويبرى عنه من قصاص أو غرامة ، وهو غير الحلم وكظم الغيظ ؛ فلذلك أفردناه . قال الله تعالى ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ وقال الله تعالى ﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى ﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث والذى نفسى بيده لو كنت حلافا لحلفت عليهن : مانقص مال من صدقة فتصدقوا ، ولا عفا رجل عن مظلمة يبتغى بها وجه الله إلا زاده الله بها عزاً يوم القيامة ، ولا فتح رجل على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر [(١)] » وقال صلى الله عليه وسلم التواضع لايزيدالعبد إلا رفعة فتواضعوا يرفعكم الله ، والعفو لايزيد العبد إلا عزا فاعفوا يعزكم الله ، والصدقة لاتزيد المال إلا كثرة فتصدقوا يرحمكم الله [(٢)] » وقالت عائشة رضى الله عنها : مارأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصرا من مظلمة ظلمها قط مالم ينتهك من محارم الله ، فإذا انتهك من محارم الله شيء كان أشدهم فى ذلك غضبا ، وماخير بين أمرين إلا اختار أيسرهما مالم يكن إثما [(٣)] » وقال عقبة « لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فابتدرته فأخذت بيده أو بدرنى فأخذ بيدى فقال « ياعقبة ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة : تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك [(٤)] » وقال صلى الله عليه وسلم « قال موسى عليه السلام يارب أى عبادك أعز عليك ؟ قال الذى إذا قدر عفا [(٥)] » وكذلك سئل أبو الدرداء عن أعز الناس قال الذى يعفو إذا قدر فاعفوا يعزكم الله وجاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم يشكو مظلمة فأمره النبى صلى الله عليه وسلم أن يجلس وأراد أن يأخذ له بمظلمته ، فقال له صلى الله عليه وسلم « إن المظلومين هم المفلحون يوم القيامة [(٦)] » فأبى أن يأخذها حين سمع الحديث : وقالت عائشة رضى الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من دعا على من ظلمه فقد انتصر » وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا بعث الله الخلائق يوم القيامة نادى مناد من تحت العرش ثلاثة أصوات : يامعشر الموحدين إن الله قد عفا عنكم فليعف بعضكم عن بعض [(٧)] » وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة طاف بالبيت وصلى ركعتين ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتى الباب فقال « ماتقولون وما تظنون ؟ » فقالوا : نقول أخ وابن عم حليم رحيم ـ قالوا ذلك ثلاثا ـ فقال صلى الله عليه وسلم « أقول كما قال يوسف ﴿ لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم

---

(١) حديث « ثلاث والذى نفسى بيده ان كنت حالفا لحلفت عليهن : مانقصت صدقة من مال ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبى كبشة الأنمارى ولمسلم وأبى داود نحوه من حديث أبى هريرة (٢) حديث « التواضع لايزيد العبد الا رفعة فتواضعوا يرفعكم الله » أخرجه الأصفهانى فى الترغيب والترهيب وأبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس بسند ضعيف

(٣) حديث عائشة : مارأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصراً من مظلمة ظلمها قط ... الحديث » أخرجه الترمذى فى الشمائل وهو عند مسلم بلفظ آخر وقد تقدم (٤) حديث عقبة بن عامر « ياعقبة ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة تصل من قطعك ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا والطبرانى فى مكارم الأخلاق والبيهقى فى الشعب باسناد ضعيف وقد تقدم

(٥) حديث : قال موسى يارب أى عبادك أعز عليك ؟ قال الذى اذا قدر عفا : أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث أبى هريرة وفيه ابن لهيعة (٦) حديث « ان المظلومين هم المفلحون يوم القيامة » وفى أوله قصة رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب العفو من رواية أبى صالح الحنفى مرسلا (٧) حديث أنس : اذا بعث الله عزوجل الخلائق يوم القيامة نادى مناد من تحت العرش ثلاثة أصوات : يامعشر الموحدين ان الله قد عفا عنكم فليعف بعضكم عن بعض : أخرجه أبو سعيد أحمد بن ابراهيم المقرى فى كتاب التبصرة والتذكرة بلفظ « ينادى مناد من بطنان العرش يوم القيامة : ياأمة محمد ان الله تعالى يقول ماكان لى قبلكم فقد وهبته لكم وبقيت التبعات فتواهبوها وادخلوا الجنة برحمتى » واسناده ضعيف ورواه الطبرانى فى الأوسط بلفظ « نادى مناد ياأهل الجمع تتاركوا المظالم بينكم وثوابكم على » وله من حديث أم هانىء « ينادى مناد : ياأهل التوحيد ليعف بعضكم عن بعض وعلى الثواب »

الراحمين ﴾ [١] » قال فخرجوا كأنما نشروا من القبور فدخلوا فى الإسلام . وعن سهيل بن عمرو قال : لمـا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وضع يديه على باب الكعبة والناس حوله فقال « لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده » ثم قال « يامعشر قريش ماتقولون وما تظنون ؟ » قال : قلت يارسول الله نقول خيرا ونظن خيرا أخ كريم وابن عم رحيم وقد قدرت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أقول كما قال أخى يوسف ﴿ لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ﴾ [٢] » وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا وقف العباد نادى مناد ليقم من أجره على الله فليدخل الجنة ، قيل ومن ذا الذى له على الله أجر ؟ قال « العافون عن الناس ، فيقوم كذا وكذا ألفا فيدخلونها بغير حساب [٣] » وقال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لاينبغى لوالى أمر أن يؤتى بحد إلا أقامه والله عفو يحب العفو ثم قرأ ﴿ وليعفوا وليصفحوا ﴾ الآية [٤] » وقال جابر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث من جاء بهن مع إيمان دخل من أى أبواب الجنة شاء وزوج من الحور العين حيث شاء : من ادى دينا خفيا وقرأ فى دبر كل صلاة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ عشر مرات وعفا عن قاتله ، قال أبو بكر : أو إحداهن يارسول الله قال « أو إحداهن [٥] » .

الآثار : قال إبراهيم التيمى : إن الرجل ليظلمنى فأرحمه . وهذا إحسان وراء العفو لأنه يشتغل قلبه بتعرضه لمعصية الله تعالى بالظلم وأنه يطالب يوم القيامة فلا يكون له جواب . وقال بعضهم : إذا أراد الله أن يتحف عبدا قيض له من يظلمه . ودخل رجل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فجعل يشكو إليه رجلا ظلمه ويقع فيه فقال له عمر : إنك إن تلق الله ومظلمتك كما هى ، خير لك من أن تلقاه وقد اقتصصتها . وقال يزيد بن ميسرة : إن ظللت تدعو على من ظلمك فإن الله تعالى يقول إن آخر يدعو عليك بأنك ظلمته فإن شئت استجبنا لك واجبنا عليك وإن شئت أخرتكما إلى يوم القيامة فيسعكما عفوى وقال مسلم بن يسار لرجل دعا على ظالمه : كل الظالم إلى ظلمه فإنه أسرع إليه من دعائك عليه إلا أن يتداركه بعمل وقمن أن لايفعل . وعن ابن عمر عن أبى بكر أنه قال : بلغنا أن الله تعالى يأمر مناديا يوم القيامة فينادى من كان له عند الله شىء فليقم فيقوم أهل العفو ، فيكافئهم الله بما كان من عفوهم عن الناس . وعن هشام بن محمد قال أتى النعمان بن المنذر برجلين قد أذنب أحدهما ذنباً عظيما فعفا عنه والآخر أذنب ذنباً خفيفاً فعاقبه وقال :

تعفو الملوك عن العظـيم من الذنوب بفضلها
ولقد تعاقب فى اليسير وليس ذاك لجهلها
إلا ليعرف حلمها ويخاف شدة دخلها

وعن مبارك بن فضالة قال : وفد سوار بن عبدالله فى وفد من أهل البصرة إلى أبى جعفر ، قال : فكنت عنده إذا أتى برجل فأمر بقتله فقلت يقتل رجل من المسلمين وأنا حاضر ، فقلت ياأمير المؤمنين الا أحدثك حديثا سمعته

(١) حديث أبى هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة طاف بالبيت وصلى ركعتين ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتى الباب فقال « ماتقولون ... الحديث » رواه ابن الجوزى فى الوفاء من طريق ابن أبى الدنيا وفيه ضعف (٢) حديث سهيل بن عمرو: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وضع يده على باب الكعبة الحديث بنحوه : لم أجده (٣) حديث أنس « اذا وقف العباد نادى مناد ليقم من أجره على الله فليدخل الجنة » قيل من ذا الذى أجره على الله ؟ قال « العافون عن الناس... الحديث » أخرجه الطبرانى فى مكارم الأخلاق وفيه الفضل بن يسار ولايتابع على حديثه (٤) حديث ابن مسعود « لاينبغى لوالى أمر أن يؤتى بحد الا أقامه والله عفو يحب العفو . الحديث » أخرجه أحمد والحاكم وصححه وتقدم فى آداب الصحبة (٥) حديث جابر: ثلاث من جاء بهن مع ايمان دخل الجنة من أى أبواب الجنة شاء ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى الأوسط فى الدعاء بسند ضعيف .

من الحسن ؟ قال : وما هو ؟ قلت سمعته يقول : إذا كان يوم القيامة جمع الله عز وجل الناس فى صعيد واحد حيث يسمعهم الداعى وينفذهم البصر ، فيقوم مناد فينادى من له عند الله يد فليقم ، فلا يقوم إلا من عفا ، فقال : والله لقد سمعته من الحسن ؟ فقلت والله لسمعته منه ، فقال : خلينا عنه . وقال معاوية : عليكم بالحلم والاحتمال حتى تمكنكم الفرصة ، فإذا أمكنتكم فعليكم بالصفح والإفضال . وروى أن راهباً دخل على هشام بن عبد الملك فقال للراهب : أرأيت ذا القرنين أكان نبياً ؟ فقال . لا ، ولكنه إنما أعطى ما أعطى بأربع خصال كن فيه : كان إذا قدر عفا ، وإذا وعد وفى ، وإذا حدث صدق ، ولا يجمع شغل اليوم لغد . وقال بعضهم : ليس الحليم من ظلم فحلم . حتى إذا قدر انتقم ، ولكن الحليم من ظلم فحلم حتى إذا قدر عفا . وقال زياد : القدرة تذهب الحفيظة يعنى الحقد والغضب وأتى هشام برجل بلغه عنه أمر فلما أقيم بين يديه جعل يتكلم بحجته فقال له هشام : وتتكلم أيضا ؟ فقال الرجل : يا أمير المؤمنين قال الله عز وجل ﴿ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها ﴾ أفنجادل الله تعالى ولا نتكلم بين يديك كلاما ؟ قال هشام : بلى ويحك تكلم . وروى أن سارقا دخل خباء عمار بن ياسر بصفين فقيل له اقطعه فإنه من أعدائنا ، فقال بل أستر عليه لعل الله يستر على يوم القيامة . وجلس ابن مسعود فى السوق يبتاع طعاما فابتاع ثم طلب الدراهم وكانت فى عمامته فوجدها قد حلت فقال لقد جلست وإنها لمعى ، فجعلوا يدعون على من أخذها ويقولون : اللهم اقطع يد السارق الذى أخذها اللهم افعل به كذا ، فقال عبد الله : اللهم إن كان حمله على أخذها حاجة فبارك له فيها وإن كان حملته جراءة على الذنب فاجعله آخر ذنوبه . وقال الفضيل : ما رأيت أزهد من رجل من أهل خراسان جلس إلى فى المسجد الحرام ثم قام ليطوف فسرقت دنانير كانت معه فجعل يبكى فقلت أعلى الدنانير تبكى ؟ فقال : لا ، ولكن مثلتنى وإياه بين يدى الله عز وجل فأشرف عقلى على إدحاض حجته فبكائى رحمة له ؟ وقال مالك بن دينار : أتينا منزل الحكم بن أيوب ليلا وهو على البصرة أمير . وجاء الحسن وهو خائف فدخلنا معه عليه فما كنا مع الحسن إلا بمنزلة الفراريج ، فذكر الحسن قصة يوسف عليه السلام وما صنع به إخوته من بيعهم إياه وطرحهم له فى الجب فقال : باعوا أخاهم وأحزنوا أباهم ، وذكر ما لقى من كيد النساء ومن الحبس ثم قال : أيها الأمير ماذا صنع الله به ؟ أداله منهم ورفع ذكره وأعلى كلمته وجعله على خزائن الأرض ، فماذا صنع حين أكمل له أمره وجمع له أهله ؟ ﴿ قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين ﴾ يعرض للحكم بالعفو عن أصحابه . قال الحكم فأنا أقول لا تثريب عليكم اليوم ولو لم أجد إلا ثوبى هذا لواريتكم تحته . وكتب ابن المقفع إلى صديق له يسأله العفو عن بعض إخوانه : فلان هارب من زلته إلى عفوك لائذ منك بك . واعلم أنه لن يزداد الذنب عظما إلا ازداد العفو فضلا . وأتى عبد الملك بن مروان بأسارى ابن الأشعث فقال لرجاء بن حيوة . ماترى ؟ قال إن الله تعالى قد أعطاك ماتحب من الظفر فأعط الله ما يحب من العفو فعفا عنهم . وروى أن زيادا أخذ رجلا من الخوارج فأفلت منه فأخذ أخا له فقال له . إن جئت بأخيك وإلا ضربت عنقك ، فقال . أرأيت إن جئتك بكتاب من أمير المؤمنين تخلى سبيلى ؟ قال نعم قال فأنا آتيك بكتاب من العزيز الحكيم وأقيم عليه شاهدين إبراهيم وموسى ثم تلا ﴿ أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وإبراهيم الذى وفى ألا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ فقال زياد . خلوا سبيله ، هذا رجل قد لقن حجته ، وقيل مكتوب فى الإنجيل . من استغفر لمن ظلمه فقد هزم الشيطان .

فضيلة الرفق

اعلم أن الرفق محمود ويضاده العنف والحدة . والعنف نتيجة الغضب والفظاظة . والرفق واللين نتيجة حسن

الخلق والسلامة ، وقد يكون سبب الحدة الغضب ، وقد يكون سببها شدة الحرص واستيلاءه بحيث يدهش عن التفكر ويمنع من التثبت فالرفق فى الأمور ثمرة لا يثمرها إلا حسن الخلق ، ولا يحسن الخلق إلا بضبط قوة الغضب وقوة الشهوة وحفظهما على حد الاعتدال . ولأجل هذا أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرفق وبالغ فيه فقال « ياعائشة إنه من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة ، ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من خير الدنيا والآخرة [١] » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق [٢] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله ليعطى على الرفق مالا يعطى على الخرق وإذا أحب الله عبداً أعطاه الرفق وما من أهل بيت يحرمون الرفق إلا حرموا محبة الله تعالى [٣] » وقالت عائشة رضى الله عنها قال النبى صلى الله عليه وسلم « إن الله رفيق يحب الرفق ويعطى عليه مالا يعطى على العنف [٤] » وقال صلى الله عليه وسلم « ياعائشة ارفقى فإن الله إذا أراد بأهل بيت كرامة دلهم على باب الرفق [٥] » وقال صلى الله عليه وسلم « من يحرم الرفق يحرم الخير كله [٦] » وقال صلى الله عليه وسلم « أيما وال ولى فرفق ولان رفق الله تعالى به يوم القيامة [٧] » وقال صلى الله عليه وسلم « تدرون من يحرم على النار يوم القيامة كل هين لين سهل قريب [٨] » وقال صلى الله عليه وسلم « الرفق يمن والخرق شؤم [٩] » وقال صلى الله عليه وسلم « التأنى من الله والعجلة من الشيطان [١٠] » وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه رجل فقال يارسول الله « إن الله قد بارك لجميع المسلمين فيك فاخصصنى منك بخير فقال « الحمد لله » مرتين أو ثلاثا ثم أقبل عليه فقال « هل أنت مستوص » مرتين أو ثلاثا قال نعم . قال « إن أردت أمرا فتدبر عاقبته فإن كان رشداً فأمضه وإن كان سوى ذلك فانته [١١] » وعن عائشة رضى الله عنها . أنها كانت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر على بعير صعب فجعلت تصرفه يمينا وشمالا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا عائشة عليك بالرفق فانه لايدخل فى شىء إلا زانه ولا ينزع من شىء إلا شانه [١٢] »

الآثار . بلغ عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن جماعة من رعيته اشتكوا من عماله فأمرهم أن يوافوه ، فلما أتوه

فضيلة الرفق

(١) حديث « ياعائشة انه من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة ... الحديث » رواه أحمد والعقيلى فى الضعفاء فى ترجمة عبد الرحمن بن أبى بكر المليكى وضعفه عن القاسم عن عائشة . وفى الصحيحين من حديثها « ياعائشة ان الله يحب الرفق فى الأمر كله » (٢) حديث « اذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق » أخرجه أحمد بسند جيد والبيهقى فى الشعب بسند ضعيف من حديث عائشة (٣) حديث « ان الله ليعطى على الرفق مالا يعطى على الخرق .. الحديث » أخرجه الطبرانى فى الكبير من حديث جرير باسناد ضعيف (٤) حديث « ان الله رفيق يحب الرفق ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث عائشة

(٥) حديث « ياعائشة ارفقى ان الله اذا أراد بأهل بيت كرامة دلهم على باب الرفق » أخرجه أحمد من حديث عائشة وفيه انقطاع ولأبى داود « ياعائشة ارفقى » (٦) حديث « من يحرم الرفق يحرم الخير كله » أخرجه مسلم من حديث جرير دون قوله « كله » فهى عند أبى داود (٧) حديث « أيما وال ولى فلان ورفق رفق الله به يوم القيامة » أخرجه مسلم من حديث عائشة وفى حديث فيه « ومن ولى من أمر أمتى شيئاً فرفق بهم فارفق به » (٨) حديث « تدرون على من تحرم النار على كل هين لين سهل قريب » أخرجه الترمذى من حديث ابن مسعود وتقدم فى آداب الصحبة (٩) حديث « الرفق يمن والخرق شؤم » أخرجه الطبراني فى الأوسط من حديث ابن مسعود والبيهقى فى الشعب من حديث عائشة وكلاهما ضعيف (١٠) حديث « التأنى من الله والعجلة من الشيطان » أخرجه أبو يعلى من حديث أنس ورواه الترمذى وحسنه من حديث سهل بن سعد بلفظ « الأناة من الله » وقد تقدم (١١) حديث : أتاه رجل فقال يارسول الله ان الله قد بارك لجميع المسلمين فيك ... الحديث » وفيه « فإذا أردت أمرا فتدبر عاقبته فإن كان رشدا فأمضه . . الحديث » أخرجه ابن المبارك فى الزهد والرقائق من حديث أبى جعفر هو المسمى عبد الله بن مسور الهاشمى ضعيف جدا ولأبى نعيم فى كتاب الإيجاز من رواية اسماعيل الأنصارى عن أبيه عن جده « اذا هممت بأمر فاجلس فتدبر عاقبته » واسناده ضعيف .

(١٢) حديث عائشة « عليك بالرفق فإنه لايدخل فى شىء الا زانه .. الحديث » رواه مسلم

فام لحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس أيتها الرعية إن لنا عليكم حقا النصيحة بالغيب والمعاونة على الخير، أيتها الرعاة إن للرعية عليكم حقا فاعلموا أنه لاشيء أحب إلى الله ولا أعز من حلم إمام ورفقه ، ليس جهل أبغض إلى الله ولا أغم من جهل إمام وخرجه ، واعلموا أنه من يأخذ بالعافية فيمن بين ظهريه يرزق العافية ممن هو دونه .

وقال وهب بن منبه : الرفق ثنى الحلم .

وفى الخبر موقوفا ومرفوعا « العلم خليل المؤمن والحلم وزيره والعقل دليله والعمل قيمه والرفق والده واللين أخوه والصبر أمير جنوده (١) . وقال بعضهم : ماأحسن الإيمان يزينه العلم وماأحسن العلم يزينه العمل وما أحسن العمل يزينه الرفق وما أضيف شيء إلى شيء مثل حلم إلى علم . وقال عمرو بن العاص لابنه عبد الله . ماالرفق ؟ قال : تكون ذا أناة فتلاين الولاة . قال فما الخرق ؟ قال : معاداة إمامك ومناوأة من يقدر على ضررك . وقال سفيان لأصحابه : تدرون ماالرفق ؟ قالوا : قل يا أبا محمد ، قال : أن تضع الأمور من مواضعها : الشدة فى موضعها واللين فى موضعه والسيف فى موضعه والسوط فى موضعه ؛ وهذه إشارة إلى أنه لابد من مزج الغلظة باللين والفظاظة بالرفق كما قيل .

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف فى موضع الندى

فالمحمود وسط بين العنف واللين كما فى سائر الأخلاق ، ولكن لما كانت الطباع إلى العنف والحدة أميل كانت الحاجة إلى ترغيبهم فى جانب الرفق أكثر ، فلذلك كثر ثناء الشرع على جانب الرفق دون العنف ، وإن كان العنف فى محله حسنا كما أن الرفق فى محله حسن ، فإذا كان الواجب هو العنف فقد وافق الحق الهوى وهو ألذ من الزبد بالشهد وهكذا . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : روى أن عمرو بن العاص كتب إلى معاوية يعاتبه فى التأنى فكتب إليه معاوية . أما بعد ، فإن الفهم فى الخير زيادة رشد ، وإن الرشيد من رشد عن العجلة ، وإن الخائب من خاب عن الأناة ، وإن المتثبت مصيب أو كاد أن يكون مصيبا ، وإن العجل مخطىء أو كاد أن يكون مخطئا ، وأن من لاينفعه الرفق يضره الخرق ومن لاينفعه التجارب لايدرك المعالى . وعن أبى عون الانصارى قال : ماتكلم الناس بكلمة صعبة إلا وإلى جانبها كلمة ألين منها تجرى مجراها . وقال أبو حمزة الكوفى : لاتتخذ من الخدم إلا مالا بد منه فإن مع كل إنسان شيطانا . واعلم أنهم لايعطونك بالشدة شيئا إلا أعطوك باللين ماهو أفضل منه . وقال الحسن :المؤمن وقاف متأن وليس كحاطب ليل . فهذا ثناء أهل العلم على الرفق وذلك لأنه محمود ومفيد فى أكثر الأحوال وأغلب الأمور ، والحاجة إلى العنف قد تقع ولكن على الندور ، وإنما الكامل من يميز مواقع الرفق عن مواقع العنف فيعطى كل أمر حقه فإن كان قاصر البصيرة أو اشكل عليه حكم واقعة من الوقائع فليكن ميله إلى الرفق فإن النجح معه فى الأكثر :

القول فى ذم الحسد وفى حقيقته وأسبابه ومعالجته وغاية الواجب فى إزالته

بيان ذم الحسد

اعلم أن الحسد أيضاً من نتائج الحقد ، والحقد من نتائج الغضب فهو فرع فرعه والغضب أصل أصله ثم إن للحسد من الفروع الذميمة مالا يكاد يحصى . وقد ورد فى ذم الحسد خاصة اخبار كثيرة : قال رسول الله صلى الله

---

(١) حديث « العلم خليل المؤمن والحلم وزيره والعقل دليله والعمل قائده والرفق والده » أخرجه أبو الشيخ فى كتاب الثواب وفضائل الأعمال من حديث أنس بسند ضعيف ورواه القضاعى فى مسند الشهاب من حديث أبى الدرداء وأبى هريرة وكلاهما ضعيف .

عليه وسلم « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب [١] » وقال صلى الله عليه وسلم فى النهى عن الحسد وأسبابه وثمراته « لاتحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا [٢] » وقال أنس : كنا يوما جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة » قال : فطلع رجل من الأنصار ينفض لحيته من وضوئه قد علق نعليه فى يده الشمال فسلم ، فلما كان الغد قال صلى الله عليه وسلم مثل ذلك فطلع ذلك الرجل ، وقاله فى اليوم الثالث فطلع ذلك الرجل ، فلما قام النبى صلى الله عليه وسلم تبعه عبدالله بن عمرو بن العاص فقال له . إنى لاحيت أبى فأقسمت أن لاأدخل عليه ثلاثا فإن رأيت أن تؤوينى إليك حتى تمضى الثلاث فعلت ، فقال « نعم » فبات عنده ثلاث ليال فلم يره يقوم من الليل شيئا غير أنه إذا انقلب على فراشه ذكر الله تعالى ، ولم يقم لصلاة الفجر ، قال : غير أنى ماسمعته يقول إلا خيرا فلما مضت الثلاث وكدت أن أحتقر عمله قلت : ياعبد الله لم يكن بينى وبين والدى غضب ولا هجرة ، ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كذا وكذا فأردت أن أعرف عملك فلم أرك تعمل عملا كثيرا فما الذى بلغ بك ذلك ؟ فقال : ماهو إلا مارأيت ، فلما وليت دعانى فقال : ماهو إلا مارأيت غير أنى لاأجد على أحد من المسلمين فى نفسى غشا ولا حسدا على خير أعطاه الله إياه ، قال عبد الله : فقلت له هى التى بلغت بك وهى التى لانطيق [٣] . وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاث لاينجو منهن أحد : الظن والطيرة والحسد ، وسأحدثكم بالمخرج من ذلك : إذا ظننت فلاتحقق، وإذا تطيرت فامض ، وإذا حسدت فلا تبغ [٤] » وفى رواية « ثلاثة لاينجو منهن أحد وقل من ينجو منهن » فأثبت فى هذه الرواية إمكان النجاة . وقال صلى الله عليه وسلم « دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء ، والبغضة هى الحالقة لاأقول حالقة الشعر ولكن حالقة الدين ، والذى نفس محمد بيده لاتدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا ألا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم أفشوا السلام بينكم [٥] » وقال صلى الله عليه وسلم « كاد الفقر أن يكون كفرا وكاد الحسد أن يغلب القدر [٦] » وقال صلى الله عليه وسلم « إنه سيصيب أمتى داء الأمم » قالوا . وما داء الأمم ؟ قال « الأشر والبطر والتكاثر والتنافس فى الدنيا والتباعد والتحاسد حتى يكون البغى ثم الهرج [٧] » وقال صلى الله عليه وسلم « لاتظهر الشماتة لاخيك فيعافيه الله ويبتليك [٨] » وروى أن موسى عليه السلام لما تعجل إلى ربه تعالى

القول فى ذم الحسد

(١) حديث « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » أخرجه أبو داود من حديث أبى هريرة وابن ماجه من حديث أنس وقد تقدم (٢) حديث « لاتقاطعوا ولاتدابروا ولاتباغضوا ... الحديث » متفق عليه وقد تقدم . (٣) حديث أنس: كنا يوما جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة .. الحديث بطوله » وفيه : أن ذلك الرجل قال لاأجد على أحد من المسلمين فى نفسى غشا ولاحسدا على خير أعطاه الله رواه أحمد باسناد صحيح على شرط الشيخين ورواه البزار وسمى الرجل فى رواية له سعدا وفيها ابن لهيعة (٤) حديث « ثلاث لاينجو منهن أحد : الظن والطعن والحسد الحديث » وفى رواية « وقل من ينجو منهن أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب ذم الحسد من حديث أبى هريرة وفيه يعقوب بن محمد الزهرى وموسى بن يعقوب الزمعى ضعفهما الجمهور والرواية الثانية رواها ابن أبى الدنيا أيضاً من رواية عبدالرحمن بن معاوية وهو مرسل ضعيف وللطبرانى من حديث حارثة بن النعمان نحوه وتقدم فى آفات اللسان (٥) حديث « دب إليكم داء الأمم : الحسد والبغضاء ... الحديث أخرجه الترمذى من حديث مولى الزبير عن الزبير (٦) حديث « كاد الفقر أن يكون كفرا وكاد الحسد أن يغلب القدر » أخرجه أبو مسلم الكجى والبيهقى فى الشعب من رواية يزيد الرقاشى عن أنس ويزيد ضعيف ورواه الطبرانى فى الأوسط من وجه آخر بلفظ « كادت الحاجة أن تكون كفرا » وفيه ضعف أيضاً (٧) حديث « إنه سيصيب أمتى داء الأمم قبلكم » قالوا وماداء الأمم ؟ قال « الأشر والبطر ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى ذم الحسد والطبرانى فى الأوسط من حديث أبى هريرة باسناد جيد (٨) حديث « لاتظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك » أخرجه الترمذى من حديث واثلة بن الأسقع وقال حسن غريب وفى رواية ابن أبى الدنيا فيرحمه الله .

رأى فى ظل العرش رجلا فغبطه بمكانه فقال : إن هـذا لـكريم على ربه ، فسأل ربه تعالى أن يخبره باسمه فلم يخبره وقال أحدثك من عمله بثلاث : كان لايحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ، وكان لايعق والديه، ولايمشى بالنميمة. وقال زكريا عليه السلام : قال الله تعالى : الحاسد عدوّ لنعمتى متسخط لقضائى غير راض بقسمتى التى قسمت بين عبادى. وقال صلى الله عليه وسلم « أخوف ماأخاف على أمتى أن يكثر فيهم المـال فيتحاسدون ويقتتلون [١] » وقال صلى الله عليه وسلم « استعينوا على قضاء الحوائج بالـكتمان فإن كل ذى نعمة محسود [٢] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن لنعم الله أعداء » فقيل ومن هم ؟ فقال « الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله [٣] » وقال صلى الله عليه وسلم « ستة يدخلون النار قبل الحساب بسنة » قيل يارسول الله من هم ؟ قال « الأمراء بالجور والعرب بالعصبية والدهاقين بالتـكبر والتجار بالخيانة ، وأهل الرستاق بالجهالة والعلماء بالحسد [٤] ».

الآثار ، قال بعض السلف : أول خطيئة هى الحسد حسد إبليس آدم عليه السلام على رتبته فأبى أن يسجد له فحمله على الحسد والمعصية . وحكى أن عون بن عبدالله دخل على الفضل بن المهلب وكان يومئذ على واسط فقال : إنى أريد أن أعظك بشىء فقال : وما هو ؟ قال : إياك والكبر فإنه أول ذنب عصى الله به ، ثم قرأ ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس ﴾ الآية ، وإياك والحرص فإنه أخرج آدم من الجنة أمكنه الله سبحانه من جنة عرضها السموات والأرض يأكل منها إلا شجرة واحدة نهاه الله عنها فأكل منها فأخرجه الله تعالى منها ، ثم قرأ ﴿ اهبطوا منها ﴾ إلى آخر الآية وإياك والحسد فإنما قتل ابن آدم أخاه حين حسده ثم قرأ ﴿ واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق ﴾ ، الآيات وإذا ذكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمسك ، وإذا ذكر القدر فاسكت ، وإذا ذكرت النجوم فاسكت . وقال بكر بن عبد الله : كان رجل يغشى بعض الملوك فيقوم بحذاء الملك فيقول: أحسن إلى المحسن بإحسانه فإن المسىء سيكفيكه إساءته ، لحسده رجل على ذلك المقام والـكلام فسعى به إلى الملك فقال: إن هذا الذى يقوم بحذائك ويقول مايقول زعم أن الملك أبخر ، فقال له الملك : وكيف يصح ذلك عندى؟ قال: تدعوه إليك فإنه إذا دنا منك وضع يده على أنفه لئلا يشم ريح البخر ، فقال له : انصرف حتى أنظر ، فخرج من عند الملك فدعا الرجل إلى منزله فأطعمه طعاما فيه ثوم فخرج الرجل من عنده وقام بحذاء الملك على عادته فقال : أحسن إلى المحسن بإحسانه فإن المسىء سيكفيكه إساءته ، فقال له الملك : أدن منى فدنا منه فوضع يده على فيه مخافة أن يشم الملك منه رائحة الثوم ، فقال الملك فى نفسه : ما أرى فلانا إلا قد صدق ؟ قال : وكان الملك لايكتب بخطه إلا بجائزة أوصلة فكتب له كتابا بخطه إلى عامل من عماله : إذا أتاك حامل كتابى هذا فاذبحه واسلخه واحش جلده تبنا وابعث به إلى فأخذ الكتاب وخرج فلقيه الرجل الذى سعى به فقال : ماهذا الكتاب قال خط الملك لى بصلة ، فقال : هبه لى !

---

(١) حديث « أخوف ما أخاف على أمتى أن يكثر لهم المال فيتحاسدون ويقتتلون » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب ذم الحسد من حديث أبى عامر الأشعرى وفيه ثابت بن أبى ثابت جهله أبو حاتم وفى الصحيحين من حديث أبى سعيد « إن مما أخاف عليكم من بعدى مايفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها » ولهما من حديث عمرو بن عوف البدرى « والله ما الفقر أخشى عليكم ولـكنى أخشى أن تبسط عليكم الدنيا . . الحديث » ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو « إذا فتحت عليكم فارس والروم . الحديث » وفيه « يتنافسون ثم يتحاسدون ثم يتدابرون الحديث . ولأحمد والبزار من حديث عمر « لاتفتح الدنيا على أحد إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة »

(٢) حديث « استعينوا على قضاء الحوائج بالـكتمان فإن كل ذى نعمة محسود » أخرجه ابن أبى الدنيا والطبرانى من حديث معاذ بسند ضعيف (٣) حديث « إن لنعم الله أعداء « قيل ومن أولئك ؟ قال « الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث ابن عباس « إن لأهل النعم حساد فاحذروهم » (٤) حديث « ستة يدخلون النار قبل الحساب بسنة » قيل يارسول الله ومن هم؟ قال « الأمراء بالجور . . . الحديث » وفيه « والعلماء بالحسد » أخرجه أبو منصور الديلمى من حديث ابن عمر وأنس بسندين ضعيفين .

فقال : هو لك ، فأخذه ومضى به إلى العامل : فقال العامل : فى كتابك أن أذبحك وأسلخك ،قال: إن الكتاب ليس هو لى فالله الله فى أمرى حتى تراجع الملك ؛ فقال : ليس لكتاب الملك مراجعة ، فذبحه وسلخه وحشا جلده تبنا وبعث به ثم عاد الرجل إلى الملك كعادته وقال مثل قوله ؛ فعجب الملك وقال : مافعل الكتاب ؟ فقال : لقينى فلان فاستوهبه منى فوهبته له ، قال له الملك : إنه ذكر لى أنك تزعم أنى أبخر ، قال : ماقلت ذلك ؟قال : فلم وضعت يدك على فيك ؟ قال : لأنه أطعمنى طعاما فيه ثوم فكرهت أن تشمه ، قال : صدقت ارجع إلى مكانك فقد كفى المسىء إساءته . وقال ابن سيرين رحمه الله : ما حسدت أحدا على شىء من أمر الدنيا لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على الدنيا وهى حقيرة فى الجنة ؟ وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير إلى النار؟ وقال رجل للحسن : هل يحسد المؤمن ؟ قال : ما أنساك بنى يعقوب ؟ نعم ، ولكن غمه فى صدرك فإنه لا يضرك مالم تعد به يدا ولا لسانا . وقال أبو الدرداء : ما أكثر عبد ذكر الموت إلا قل فرحه وقل حسده . وقال معاوية: كل الناس أقدر على رضاه إلا حاسد نعمة فإنه لا يرضيه إلا زوالها ولذلك قيل :

كل العداوات قد ترجى إماتتها إلا عداوة من عاداك من حسد

وقال بعض الحكماء : الحسد جرح لا يبرأ وحسب الحسود مايلقى . وقال أعرابى : مارأيت ظالما أشبه بمظلوم من حاسد ، إنه يرى النعمة عليك نقمة عليه . وقال الحسن : يا ابن آدم لم تحسد أخاك؟ فإن كان الذى أعطاه لكرامته عليه فلم تحسد من أكرمه الله ؟ وإن كان غير ذلك فلم تحسد من مصيره إلى النار ؟ وقال بعضهم : الحاسد لا ينال من المجالس إلا مذمة وذلا ، ولا ينال من الملائكة إلا لعنة وبغضا ، ولا ينال من الخلق إلا جزعا وغما ، ولا ينال عند النزع إلا شدة وهولا ، ولا ينال عند الموقف إلا فضيحة ونكالا .

بيان حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبه

اعلم أنه لا حسد إلا على نعمة ، فإذا أنعم الله على أخيك بنعمة فلك فيها حالتان :

إحداهما : أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها ، وهذه الحالة تسمى حسدا . فالحسد حده كراهة النعمة وحب زوالها عن المنعم عليه .

الحالة الثانية : أن لا تحب زوالها ولا تكره وجودها ودوامها ولكن تشتهى لنفسك مثلها . وهذه تسمى غبطة ، وقد تختص باسم المنافسة .

وقد تسمى المنافسة حسدا والحسد منافسة ويوضع أحد اللفظين موضع الآخر ، ولا حجر فى الأسامى بعد فهم المعانى . وقد قال صلى الله عليه وسلم « إنّ المؤمن يغبط والمنافق يحسد [1] » .

فأما الأول فهو حرام بكل حال ، إلا نعمة أصابها فاجر أو كافر وهو يستعين بها على تهييج الفتنة وإفساد ذات البين وإيذاء الخلق ، فلا يضرك كراهتك لها ومحبتك لزوالها ، فإنك لا تحب زوالها من حيث هى نعمة بل من حيث هى آلة الفساد ، ولو أمنت فساده لم يغمك بنعمته ، ويدل على تحريم الحسد الأخبار التى نقلناها وأن هذه الكراهة تسخط لقضاء الله فى تفضيل بعض عباده على بعض ، وذلك لا عذر فيه ولا رخصة ، وأى معصية تزيد على كراهتك

بيان حقيقة الحسد وحكمه

(١) حديث « المؤمن يغبط والمنافق يحسد » لم أجد له أصلا مرفوعا ، وإنما هو من قول الفضيل بن عياض ، كذلك رواه ابن أبي الدنيا فى ذم الحسد .

لراحة مسلم من غير أن يكون لك منه مضرة ؟ وإلى هذا أشار القرآن بقوله ﴿ إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ﴾ وهذا الفرح شماتة والحسد والشماتة يتلازمان . وقال تعالى ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم ﴾ فأخبر تعالى أن حبهم زوال نعمة الإيمان حسد . وقال عز وجل ﴿ ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ﴾ وذكر الله تعالى حسد إخوة يوسف عليه السلام وعبر عما في قلوبهم بقوله تعالى ﴿ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم ﴾ فلما كرهوا حب أبيهم له وساءهم ذلك وأحبوا زواله عنه غيبوه عنه وقال تعالى ﴿ ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ﴾ أي لا تضيق صدورهم به ولا يغتمون فأثنى عليهم بعدم الحسد . وقال تعالى في معرض الإنكار ﴿ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ﴾ وقال تعالى ﴿ كان الناس أمة واحدة ﴾ إلى قوله ﴿ إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم ﴾ قيل في التفسير : حسدا . وقال تعالى ﴿ وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ﴾ فأنزل الله العلم ليجمعهم ويؤلف بينهم على طاعته ، وأمرهم أن يتألفوا بالعلم فتحاسدوا واختلفوا إذ أراد كل واحد منهم أن ينفرد بالرياسة وقبول القول فرد بعضهم على بعض . قال ابن عباس : كانت اليهود قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم إذا قاتلوا قوما قالوا نسألك بالنبي الذي وعدتنا أن ترسله وبالكتاب الذي تنزله إلا ما نصرتنا (١) . فكانوا ينصرون . فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم من ولد إسمعيل عليه السلام عرفوه وكفروا به بعد معرفتهم إياه فقال تعالى ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ إلى قوله ﴿ أن يكفروا بما أنزل الله بغيا ﴾ أي حسدا . وقالت صفية بنت حيي للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم : جاء أبي وعمي من عندك يوما ، فقال أبي لعمي : ما تقول فيه ؟ قال : أقول إنه النبي الذي بشر به موسى ، قال : فما ترى ؟ قال : أرى معاداته أيام الحياة (٢) فهذا حكم الحسد في التحريم .

وأما المنافسة : فليست بحرام بل هي إما واجبة وإما مندوبة وإما مباحة ، وقد يستعمل لفظ الحسد بدل المنافسة والمنافسة بدل الحسد ، قال قثم بن العباس : لما أراد هو والفضل أن يأتيا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيسألاه أن يؤمرهما على الصدقة ـ قالا لعلي حين قال لهما : لا تذهبا إليه فإنه لا يؤمركما عليها ـ فقالا له : ما هذا منك إلا نفاسة والله لقد زوجك ابنته فما نفسنا ذلك عليك (٣) أي هذا منك حسد وما حسدناك على تزويجه إياك فاطمة .

والمنافسة في اللغة مشتقة من النفاسة . والذي يدل على إباحة المنافسة قوله تعالى ﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ وقال تعالى ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم ﴾ وإنما المسابقة عند خوف الفوت وهو كالعبدين يتسابقان إلى خدمة مولاهما ؛ إذ يجزع كل واحد أن يسبقه صاحبه فيحظى عند مولاه بمنزلة لا يحظى هو بها ،

---

(١) حديث ابن عباس : قوله كانت اليهود قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم إذا قاتلوا قوما قالوا : نسألك بالنبي الذي وعدتنا أن ترسله .. الحديث : في نزول قوله تعالى ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ﴾ أخرجه ابن اسحاق في السيرة فيما بلغه عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : أن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكره نحوه وهو منقطع . (٢) حديث : قالت صفية بنت حيي للنبي صلى الله عليه وسلم جاء أبي وعمي من عندك يوما فقال أبي لعمي : ماتقول فيه ؟ قال أقول إنه النبي الذي بشر به موسى .. الحديث . أخرجه ابن اسحاق في السيرة قال حدثني أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال حدثت عن صفية فذكره نحوه وهو منقطع أيضاً .

(٣) حديث قال قثم بن العباس : لما أراد هو والفضل أن يأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فيسألانه أن يؤمرهما على الصدقة قالا لعلي ... الحديث » هكذا وقع للمصنف أنه قثم والفضل وإنما هو الفضل والمطلب ابن ربيعة كما رواه مسلم من حديث المطلب بن ربيعة ابن الحارث قال : اجتمع ربيعة بن الحارث والعباس بن عبد المطلب فقالا والله لو بعثنا هذين الغلامين قال لي وللفضل بن عباس ائتيا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلماه ؛ فذكر الحديث .

فكيف وقد صرح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك فقال « لاحسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله تعالى علما فهو يعمل به ويعلمه الناس [1] » ثم فسر ذلك فى حديث أبى كبشة الأنمارى فقال « مثل هذه الأمة مثل أربعة : رجل آتاه الله مالا وعلما فهو يعمل بعلمه فى ماله ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا فيقول رب لو أن لى مالا مثل مال فلان لكنت أعمل فيه بمثل عمله فهما فى الأجر سواء ـ وهذا منه حب لأن يكون له مثل ماله فيعمل مايعمل من غير حب زوال النعمة عنه قال ـ ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو ينفقه فى معاصى الله ، ورجل لم يؤته علما ولم يؤته مالا فيقول لوأن لى مثل مال فلان لكنت أنفقه فى مثل ماأنفقه فيه من المعاصى فهما فى الوزر سواء [2] » فذمه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من جهة تمنية للمعصية لامن جهة حبه أن يكون له من النعمة مثل ماله . فإذاً لا حرج على من يغبط غيره فى نعمة ويشتهى لنفسه مثلها مهما لم يحب زوالها عنه ولم يكره دوامها له . نعم إن كانت تلك النعمة نعمة دينية واجبة كالإيمان والصلاة والزكاة فهذه المنافسة واجبة ، وهو أن يحب أن يكون مثله لأنه إذا لم يكن يحب ذلك فيكون راضياً بالمعصية وذلك حرام ، وإن كانت النعمة من الفضائل كإنفاق الأموال فى المكارم والصدقات فالمنافسة فيها مندوب إليها ، وإن كانت نعمة يتنعم بها على وجه مباح فالمنافسة فيها مباحة ، وكل ذلك يرجع إلى إرادة مساواته واللحوق به فى النعمة وليس فيها كراهة النعمة ، وكان تحت هذه النعمة أمران ، أحدهما : راحة المنعم عليه ، والآخر . ظهور نقصان غيره وتخلفه عنه وهو يكره أحد الوجهين وهو تخلف نفسه ويحب مساواته له .

ولا حرج على من يكره تخلف نفسه ونقصانها فى المباحات ، نعم ذلك ينقص من الفضائل ويناقض الزهد والتوكل والرضا ويحجب عن المقامات الرفيعة ولكنه لا يوجب العصيان . وههنا دقيقة غامضة : وهو أنه إذا أيس من أن ينال مثل تلك النعمة وهو يكره تخلفه ونقصانه فلا محالة يحب زوال النقصان ، وإنما يزول نقصانه إما بأن ينال مثل ذلك أو بأن تزول نعمة المحسود ، فإذا انسدّ أحد الطريقين فيكاد القلب لاينفك عن شهوة الطريق الآخر ، حتى إذا زالت النعمة عن المحسود كان ذلك أشفى عنده من دوامها إذ بزوالها يزول تخلفه وتقدم غيره ، وهذا يكاد لاينفك القلب عنه فإن كان بحيث لو ألقى الأمر إليه ورد إلى اختياره لسعى فى إزالة النعمة عنه فهو حسود حسدا مذموما ، وإن كان تدعه التقوى عن إزالة ذلك ، فيعفى عما يجده فى طبعه من الارتياح إلى زوال النعمة عن محسوده مهما كان كارها لذلك من نفسه بعقله ودينه ، ولعله المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم « ثلاث لاينفك المؤمن عنهن : الحسد والظن والطيرة [3] » ثم قال وله منهن مخرج : « إذا حسدت فلا تبغ » أى إن وجدت فى قلبك شيئا فلا تعمل به . وبعيد أن يكون الانسان مريدا للحاق بأخيه فى النعمة فيعجز عنها ثم ينفك عن ميل إلى زوال النعمة ؛ إذ يجد لامحالة ترجيحا له على دوامها . فهذا الحد من المنافسة يزاحم الحسد الحرام فينبغى أن يحتاط فيه فإنه موضع الخطر ، وما من إنسان إلا وهو يرى فوق نفسه جماعة من معارفه وأقرانه يحب مساواتهم ، ويكاد ينجر ذلك إلى الحسد المحظور إن لم يكن قوى الايمان رزين التقوى . ومهما كان محركه خوف التفاوت وظهور نقصانه عن غيره جره ذلك إلى الحسد المذموم وإلى ميل الطبع إلى زوال النعمة عن أخيه ، حتى ينزل هو إلى مساواته إذ لم يقدر هو أن يرتقى إلى مساواته بإدراك النعمة ، وذلك لا رخصة فيه أصلا بل هو حرام سواء كان فى مقاصد الدين أو مقاصد

---

(١) حديث « لاحسد إلا فى اثنتين ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن عمرو وقد تقدم فى العلم (٢) حديث أبى كبشة : مثل هذه الأمة مثل اربعة : رجل آتاه الله مالا ... الحديث » رواه ابن ماجه والترمذى وقال حسن صحيح .

(٣) حديث « ثلاث لاينفك المؤمن عنهن : الحسد والظن والطيرة ... الحديث » تقدم غير مرة .

الدنيا ، ولكن يعفى عنه فى ذلك مالم يعمل به إن شاء الله تعالى ، وتكون كراهته لذلك من نفسه كفارة له . فهذه هى حقيقة الحسد وأحكامه .

وأما مراتبه فأربع (الأولى) أن يحب زوال النعمة عنه وإن كان ذلك لاينتقل إليه وهذا غاية الخبث . (الثانية) أن يحب زوال النعمة إليه لرغبته فى تلك النعمة ، مثل رغبته فى دار حسنة أو امرأة جميلة أو ولاية نافذة أو سعة نالها غيره وهو يحب أن تكون له ، ومطلوبه تلك النعمة لا زوالها عنه ، ومكروهه فقد النعمة لا تنعم غيره بها (الثالثة) أن لايشتهى عينها لنفسه بل يشتهى مثلها ، فان عجز عن مثلها أحب زوالها كيلا يظهر التفاوت بينهما . (الرابعة) أن يشتهى لنفسه مثلها فإن لم تحصل فلا يحب زوالها عنه .

وهذا الأخير هو المعفو عنه إن كان فى الدنيا ، والمندوب إليه إن كان فى الدين ، والثالثة فيها مذموم وغير مذموم ، والثانية أخف من الثالثة ، والأولى مذموم محض . وتسمية الرتبة حسدا فيه تجوز وتوسع ولكنه مذموم لقوله تعالى ﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ﴾ فتمنيه لمثل ذلك غير مذموم ، وأما تمنيه عين ذلك فهو مذموم .

بيان أسباب الحسد والمنافسة

أما المنافسة فسببها حب ما فيه المنافسة ، فإن كان ذلك أمرا دينياً فسببه حب الله تعالى وحب طاعته ، وإن كان دنيوياً فسببه حب مباحات الدنيا والتنعم فيها . وإنما نظرنا الآن فى الحسد المذموم ومداخله كثيرة جداً ، ولكن يحصر جملتها سبعة أبواب : العداوة ، والكبر ، والتعجب ، والخوف من فوت المقاصد المحبوبة ، وحب الرياسة ، وخبث النفس وبخلها . فإنه مما يكره النعمة على غيره إما لأنه عدوه فلا يريد له الخير ، وهذا لا يختص بالأمثال بل يحسد الخسيس الملك بمعنى أنه يحب زوال نعمته لكونه مبغضاً له بسبب إساءته إليه ، أو إلى من يحبه . وإما أن يكون من حيث يعلم أنه يستكبر بالنعمة عليه وهو لا يطيق احتمال كبره وتفاخره لعزة نفسه ، وهو المراد بالتعزز . وإما أن يكون فى طبعه أن يتكبر على المحسود ويمتنع ذلك عليه لنعمته وهو المراد بالتكبر . وإما أن تكون النعمة عظيمة والمنصب عظيم فيتعجب من فوز مثله بمثل تلك النعمة وهو المراد بالتعجب . وإما أن يخاف من فوات مقاصده بسبب نعمته بأن يتوصل بها إلى مزاحمته فى أغراضه . وإما أن يكون يحب الرياسة التى تنبنى على الاختصاص بنعمة لا يساوى فيها . وإما أن لايكون بسبب من هذه الأسباب بل لخبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى . ولابد من شرح هذه الأسباب .

السبب الأول : العداوة والبغضاء ، وهذا أشد أسباب الحسد ، فإن من آذاه شخص بسبب من الأسباب وخالفه فى غرض بوجه من الوجوه أبغضه قلبه وغضب عليه ورسخ فى نفسه الحقد . والحقد يقتضى التشفى والانتقام ، فإن عجز المبغض عن أن يتشفى بنفسه أحب أن يتشفى منه الزمان ، وربما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى فمهما أصابت عدوه بلية فرح بها وظنها مكافأة له من جهة الله على بغضه وأنها لأجله ، ومهما أصابته نعمة ساءه ذلك لأنه ضد مراده ، وربما يخطر له أنه لامنزلة له عند الله حيث لم ينتقم له من عدوه الذى آذاه بل أنعم عليه . وبالجملة فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما ، وإنما غاية التقى أن لايبغى وأن يكره ذلك من نفسه ، فأما أن يبغض إنسانا ثم يستوى عنده مسرته ومساءته ، فهذا غير ممكن ، وهذا مما وصف الله تعالى الكفار به أعنى الحسد بالعداوة إذ قال الله تعالى ﴿ وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن

الله عليم بذات الصدور . إن تمسسكم حسنة تسؤهم ﴾ الآية . وكذلك قال ﴿ ودوا ماعنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وماتخفى صدورهم أكبر ﴾ والحسد بسبب البغض ربما يفضى إلى التنازع والتقاتل واستغراق العمر فى إزالة النعمة بالحيل والسعاية وهتك الستر ومايجرى مجراه .

السبب الثانى : التعزز ؛ وهو أن يثقل عليه أن يترفع عليه غيره . فإذا أصاب بعض أمثاله ولاية أو علما أو مالا خاف أن يتكبر عليه وهو لا يطيق تكبره ولا تسمح نفسه باحتمال صلفه وتفاخره عليه ، وليس من غرضه أن يتكبر بل غرضه أن يدفع كبره ، فإنه قد رضى بمساواته مثلا ، ولكن لايرضى بالترفع عليه .

السبب الثالث : الكبر ؛ وهو أن يكون فى طبعه أن يتكبر عليه ويستصغره ويستخدمه ويتوقع منه الانقياد له والمتابعة فى أغراضه ، فإذا نال نعمة خاف أن لايحتمل تكبره ويترفع عن متابعته ، أوربما يتشوف إلى مساواته أوإلى أن يرتفع عليه فيعود متكبرا بعد أن كان متكبراً عليه . ومن التكبر والتعزز كان حسد أكثر الكفار لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قالوا : كيف يتقدم علينا غلام يتيم وكيف نطأطئ رءوسنا ؟ فقالوا ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [1] أى كان لايثقل علينا أن نتواضع له ونتبعه إذا كان عظيما وقال تعالى يصف قول قريش ﴿ أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ﴾ كالاستحقار لهم والأنفة منهم .

السبب الرابع : التعجب ، كما أخبر الله تعالى عن الأمم السالفة إذ قالوا ﴿ ماأنتم إلابشر مثلنا ﴾ ﴿ وقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا ﴾ ﴿ ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون ﴾ فتعجبوا من أن يفوز برتبة الرسالة والوحى والقرب من الله تعالى بشرمثلهم فحسدوهم ، وأحبوا زوال النبوة عنهم جزعا أن يفضل عليهم من هو مثلهم فى الخلقة ، لاعن قصد تكبر وطلب رياسة وتقدم عداوة أوسبب آخر من سائر الأسباب ، وقالوامتعجبين ﴿ أبعث الله بشرا رسولا ﴾ وقالوا ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة ﴾ وقال تعالى ﴿ أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم ﴾ الآية .

السبب الخامس : الخوف من فوت المقاصد ، وذلك يختص بمتزاحمين على مقصود واحد ، فإن كان واحد يحسد صاحبه فى كل نعمة تكون عونا له فى الانفراد بمقصوده ، ومن هذا الجنس تحاسد الضرات فى التزاحم على مقاصد الزوجية ، وتحاسد الإخوة فى التزاحم على نيل المنزلة فى قلب الأبوين للتوصل به إلى مقاصد الكرامة والمال ، وكذلك تحاسد التلميذين لأستاذ واحد على نيل المرتبة من قلب الأستاذ ، وتحاسد ندماء الملك وخواصه فى نيل المنزلة من قلبه للتوصل به إلى المال والجاه ، وكذلك تحاسد الواعظين المتزاحمين على أهل بلدة واحدة إذا كان غرضهما نيل المال بالقبول عندهم ، وكذلك تحاسد العالمين المتزاحمين على طائفة من المتفقهه محصورين ، إذ يطلب كل واحد منزلة فى قلوبهم للتوصل بهم إلى أغراض له

السبب السادس : حب الرياسة وطلب الجاه لنفسه من غير توصل إلى مقصود . وذلك كالرجل الذى يريد أن يكون عديم النظير فى فن من الفنون إذا غلب عليه حب الثناء واستفزه الفرح بما يمدح به من أنه واحد الدهر

بيان أسباب الحسد والمنافسة

(١) حديث : سبب نزول قوله تعالى (لولانزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) ذكره ابن اسحاق فى السيرة ، وأن قائل ذلك الوليد بن المغيرة قال : أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفى سيد ثقيف فنحن عظماء القريتين ، فأنزل الله فيما بلغنى هذه الآية . ورواه أبو محمد بن أبى حاتم وابن مردويه فى تفسيريهما من حديث ابن عباس إلا أنهما قالا مسعود بن عمرو ، وفى رواية لابن مردويه حبيب بن عمير الثقفى وهو ضعيف .

وفريد العصر فى فنه وأنه لانظير له ، فإنه لو سمع بنظيرله فى أقصى العالم لساءه ذلك وأحب موته أوزوال النعمة عنه التى بها يشاركه المنزلة من شجاعة أو علم أو عبادة أو صناعة أو جمال أو ثروة أو غير ذلك مما يتفرد هو به ويفرح بسبب تفرده ، وليس السبب فى هذا عداوة ولا تعزز ولا تكبر على المحسود ولا خوف من فوات مقصود سوى محض الرياسة بدعوى الانفراد . وهذا وراء مابين آحاد العلماء من طلب الجاه والمنزلة فى قلوب الناس للتوصل إلى مقاصد سوى الرياسة . وقد كان علماء اليهود ينكرون معرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولايؤمنون به خيفة من أن تبطل رياستهم واستتباعهم مهما نسخ علمهم .

السبب السابع : خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى ، فإنك تجد من لايشتغل برياسة وتكبر ولا طلب مال إذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله تعالى فيما أنعم الله به عليه يشق ذلك عليه ، وإذا وصف له اضطراب أمور الناس وإدبارهم وفوات مقاصدهم وتنغص عيشهم فرح به ، فهو أبداً يحب الإدبار لغيره ويبخل بنعمة الله على عباده كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزانته . ويقال البخيل من يبخل بمال نفسه والشحيح هو الذى يبخل بمال غيره ، فهذا يبخل بنعمة الله تعالى على عباده الذين ليس بينه وبينهم عداوة ولا رابطة ، هذا ليس له سبب ظاهر إلا خبث فى النفس ورذالة فى الطبع عليه وقعت الجبلة ، ومعالجته شديدة لأن الحسد الثابت بسائر الأسباب أسبابه عارضة يتصور زوالها فيطمع فى إزالتها ، وهذا خبث فى الجبلة لاعن سبب عارض فتعسر إزالته إذ يستحيل فى العادة إزالته . فهذه هى أسباب الحسد وقد يجتمع بعض هذه الأسباب أو أكثرها أوجميعها فى شخص واحد فيعظم فيه الحسد بذلك ، ويقوى قوة لايقدر معها على الإخفاء والمجاملة ، بل ينهتك حجاب المجاملة وتظهر العداوة بالمكاشفة . وأكثر المحاسدات تجتمع فيها جملة من هذه الأسباب ، وقلما يتجرد سبب واحد منها .

بيان السبب فى كثرة الحسد بين الأمثال والأقران والإخوة وبنى العم والأقارب وتأكده وقلته فى غيرهم وضعفه

إعلم أن الحسد إنما يكثر بين قوم تكثر بينهم الأسباب التى ذكرناها ، وإنما يقوى بين قوم تجتمع جملة من هذه الأسباب فيهم وتتظاهر ، إذ الشخص الواحد يجوز أن يحسد لأنه قد يمتنع عن قبول التكبر ولأنه يتكبر ولأنه عدو ولغير ذلك من الأسباب . وهذه الأسباب إنما تكثر بين أقوام تجمعهم روابط يجتمعون بسببها فى مجالس المخاطبات ويتواردون على الأغراض ، فإذا خالف واحد منهم صاحبه فى غرض من الأغراض نفر طبعه عنه وأبغضه وثبت الحقد فى قلبه ، فعند ذلك يريد أن يستحقره ويتكبر عليه ويكافئه على مخالفته لغرضه ، ويكره تمكنه من النعمة التى توصله إلى أغراضه وتترادف جملة من هذه الأسباب ، إذ لارابطة بين شخصين فى بلدتين متنائيتين فلا يكون بينهما محاسدة ، وكذلك فى محلتين ، نعم إذا تجاورا فى مسكن أو سوق أومدرسة أو مسجد تواردا على مقاصد تتناقض فيها أغراضهما ، فيثور من التناقض التنافر والتباغض ، ومنه تثور بقية أسباب الحسد ، ولذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد ، والعابد يحسد العابد دون العالم ، والتاجر يحسد التاجر ، بل الإسكاف يحسد الإسكاف ولايحسد البزاز إلا بسبب آخر سوى الاجتماع فى الحرفة ، ويحسد الرجل أخاه وابن عمه أكثر مما يحسد الأجانب والمرأة تحسد ضرتها وسرية زوجها أكثر مما تحسد أم الزوج وابنته . لأن مقصد البزاز غير مقصد الإسكاف فلايتزاحمون على المقاصد ، إذ مقصد البزاز الثروة ولا يحصلها إلا بكثرة الزبون ، وإنما ينازعه فيه بزاز آخر ؛ إذ حريف البزاز لايطلبه

الإسكاف بل البزاز . ثم مزاحمة البزاز المجاور له أكثر من مزاحمة البعيد عنه إلى طرف السوق ، فلا جرم يكون حسده للجار أكثر . وكذلك الشجاع يحسد الشجاع ولا يحسد العالم لأن مقصده أن يذكر بالشجاعة ويشتهر بها وينفرد بهذه الخصلة ، ولا يزاحمه العالم على هذا الغرض وكذلك يحسد العالم العالم ولا يحسد الشجاع . ثم حسد الواعظ للواعظ أكثر من حسده للفقيه والطبيب ، لأن التزاحم بينهما على مقصود واحد أخص . فأصل هذه المحاسدات العداوة ، وأصل العداوة التزاحم بينهما على غرض واحد ، والغرض الواحد لا يجمع متباعدين بل متناسبين ، فلذلك يكثر الحسد بينهما . نعم من اشتد حرصه على الجاه وأحب الصيت فى جميع أطراف العالم بما هو فيه فإنه يحسد كل من هو فى العالم وإن بعد ممن يساهمه فى الخصلة التى يتفاخر بها ، ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا ، فإنّ الدنيا هى التى تضيق على المتزاحمين ; أما الآخرة فلا ضيق فيها ، وإنما مثال الآخرة نعمة العلم فلا جرم من يحب معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وملائكته وأنبيائه وملكوت سمواته وأرضه لم يحسد غيره إذا عرف ذلك أيضاً ، لأن المعرفة لا تضيق على العارفين . بل المعلوم الواحد يعلمه ألف ألف عالم ويفرح بمعرفته ويلتذ به ، ولا تنقص لذة واحد بسبب غيره ، بل يحصل بكثرة العارفين زيادة الأنس وثمرة الاستفادة والإفادة . فلذلك لا يكون بين علماء الدين محاسدة لأن مقصدهم معرفة الله تعالى وهو بحر واسع لا ضيق فيه ، وغرضهم المنزلة عند الله ولا ضيق أيضا ، فيما عند الله تعالى لأن أجل ما عند الله سبحانه من النعيم لذة لقائه وليس فيها ممانعة ومزاحمة ، ولا يضيق بعض الناظرين على بعض بل يزيد الأنس بكثرتهم . نعم إذا قصد العلماء بالعلم المال والجاه تحاسدوا لأن المال أعيان وأجسام إذا وقعت فى يد واحد خلت عنها يد الآخر ، ومعنى الجاه ملك القلوب ومهما امتلأ قلب شخص بتعظيم عالم انصرف عن تعظيم الآخر أو نقص عنه لا محالة : فيكون ذلك سببا للمحاسدة ، وإذا امتلأ قلب بالفرح بمعرفة الله تعالى لم يمنع ذلك أن يمتلىء قلب غيره بها وأن يفرح بذلك . والفرق بين العلم والمال أن المال لا يحل فى يد مالم يرتحل عن اليد الأخرى والعلم فى قلب العالم مستقر ويحل فى قلب غيره بتعليمه من غير أن يرتحل من قلبه ، والمال أجسام وأعيان ولها نهاية فلو ملك الإنسان جميع مافى الأرض لم يبق بعده مال يتملكه غيره ، والعلم لا نهاية له ولا يتصور استيعابه ، فمن عود نفسه الفكر فى جلال الله وعظمته وملكوت أرضه وسمائه صار ذلك ألذ عنده من كل نعيم ، ولم يكن ممنوعا منه ولا مزاحما فيه ، فلا يكون فى قلبه حسد لأحد من الخلق لأن غيره أيضا لو عرف مثل معرفته لم ينقص من لذته بل زادت لذته بمؤانسته ، فتكون لذة هؤلاء فى مطالعة عجائب الملكوت على الدوام أعظم من لذة من ينظر إلى أشجار الجنة وبساتينها بالعين الظاهرة ، فإن نعيم العارف وجنته معرفته التى هى صفة ذاته ، يأمن زوالها وهو أبدا يجنى ثمارها : فهو بروحه وقلبه مغتذ بفاكهة علمه وهى فاكهة غير مقطوعة ولا ممنوعة بل قطوفها دانية ، فهو وإن غمض العين الظاهرة فروحه أبدا ترتع فى جنة عالية ورياض زاهرة ، فإن فرض كثرة فى العارفين لم يكونوا متحاسدين بل كانوا كما قال فيهم رب العالمين ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين ﴾ فهذا حالهم وهم بعد فى الدنيا ، فماذا يظن بهم عند انكشاف الغطاء ومشاهدة المحبوب فى العقبى ؟ فإذن لا يتصور أن يكون فى الجنة محاسدة ولا أن يكون بين أهل الدنيا فى الجنة محاسدة ، لأن الجنة لا مضايقة فيها ولا مزاحمة ، ولا تنال إلا بمعرفة الله تعالى التى لا مزاحمة فيها فى الدنيا أيضاً ، فأهل الجنة بالضرورة برءاء من الحسد فى الدنيا والآخرة جميعا ، بل الحسد من صفات المبعدين عن سعة عليين إلى مضيق سجين ، ولذلك وسم به الشيطان اللعين ، وذكر من صفاته أنه حسد آدم عليه السلام على ما خص به من الاجتباء ، ولما دعى إلى السجود استكبر وأبى وتمرد وعصى . فقد عرفت أنه لا حسد إلا للتوارد على مقصود

يضيق عن الوفاء بالكل . ولهذا لا ترى الناس يتحاسدون على النظر إلى زينة السماء ويتحاسدون على رؤية البساتين التى هى جزء يسير من جملة الأرض ، وكل الأرض لا وزن لها بالإضافة إلى السماء ، ولكن السماء لسعة الأقطار وافية بجميع الأبصار فلم يكن فيها تزاحم ولا تحاسد أصلا . فعليك إن كنت بصيراً وعلى نفسك مشفقا أن تطلب نعمة لا زحمة فيها ولذة لا كدر لها ؟ ولا يوجد ذلك فى الدنيا إلا فى معرفة الله عز وجل ومعرفة صفاته وأفعاله وعجائب ملكوت السموات والأرض . ولا ينال ذلك فى الآخرة إلا بهذه المعرفة أيضاً . فإن كنت لا تشتاق إلى معرفة الله تعالى ولم تجد لذتها وفتر عنها رأيك وضعفت فيها رغبتك فأنت فى ذلك معذور ؛ إذ العنين لا يشتاق إلى لذة الوقاع ، والصبى لا يشتاق إلى لذة الملك ، فإن هذه لذات يختص بادراكها الرجال دون الصبيان والمخنثين فكذلك لذة المعرفة يختص بادراكها الرجال ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ ولا يشتاق إلى هذه اللذة غيرهم ، لأن الشوق بعد الذوق ، ومن لم يذق لم يعرف ، ومن لم يعرف لم يشتق ، ومن لم يشتق لم يطلب ، ومن لم يطلب لم يدرك ، ومن لم يدرك بقى مع المحرومين فى أسفل السافلين ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين ﴾ .

بيان الدواء الذى ينفى مرض الحسد عن القلب

اعلم أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب ، ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل . والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف تحقيقا أن الحسد ضرر عليك فى الدنيا والدين ، وأنه لا ضرر فيه على المحسود فى الدنيا والدين بل ينتفع به فيهما . ومهما عرفت هذا عن بصيرة ولم تكن عدوّ نفسك وصديق عدوك فارقت الحسد لا محالة. أما كونه ضررا عليك فى الدين فهو أنك بالحسد سخطت قضاء الله تعالى ، وكرهت نعمته التى قسمها بين عباده ، وعدله الذى أقامه فى ملكه بخفى حكمته ، فاستنكرت ذلك واستبشعته . وهذه جناية على حدقة التوحيد وقذى فى عين الإيمان ، وناهيك بهما جناية على الدين . وقد انضاف إلى ذلك أنك غششت رجلا من المؤمنين وتركت نصيحته ، وفارقت أولياء الله وأنبياءه فى حبهم الخير لعباده تعالى ، وشاركت إبليس وسائر الكفار فى محبتهم للمؤمنين البلايا وزوال النعم . وهذه خبائث فى القلب تأكل حسنات القلب كما تأكل النار الحطب ، وتمحوها كما يمحو الليل النهار . وأما كونه ضررا عليك فى الدنيا فهو أنك تتألم بحسدك فى الدنيا أو تتعذب به ، ولا تزال فى كمد وغم إذ أعداؤك لا يخليهم الله تعالى عن نعم يفيضها عليهم ، فلا تزال تتعذب بكل نعمة تراها وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم ، فتبقى مغموما محروما متشعب القلب ضيق الصدر قد نزل بك ما يشتهيه الأعداء لك وتشتهيه لأعدائك ، فقد كنت تريد المحنة لعدوك فتنجزت فى الحال محنتك وغمك نقدا ، ومع هذا فلا تزول النعمة عن المحسود بحسدك . ولو لم تكن تؤمن بالبعث والحساب لكان مقتضى الفطنة إن كنت عاقلا أن تحذر من الحسد لما فيه من ألم القلب ومساءته مع عدم النفع ، فكيف وأنت عالم بما فى الحسد من العذاب الشديد فى الآخرة ؟ فما أعجب من العاقل كيف يتعرض لسخط الله تعالى من غير نفع يناله بل مع ضرر يحتمله وألم يقاسيه فيهلك دينه ودنياه من غير جدوى ولا فائدة؟ وأما أنه لا ضرر على المحسود فى دينه ودنياه فواضح لأن النعمة لا تزول عنه بحسدك ، بل ما قدره الله تعالى من إقبال ونعمة فلا بد أن يدوم إلى أجل غير معلوم قدره الله سبحانه . فلا حيلة فى دفعه ، بل كل شىء عنده بمقدار ، ولكل أجل كتاب . ولذلك شكا نبى من الأنبياء من امرأة ظالمة مستولية على الخلق فأوحى الله إليه : فرّ من قدامها حتى تنقضى أيامها أى ما قدرناه فى الأزل لا سبيل إلى تغييره فاصبر حتى تنقضى المدة التى سبق القضاء بدوام إقبالها فيها. ومهما

لم تزل النعمة بالحسد لم يكن على المحسود ضرر فى الدنيا ولا يكون عليه إثم فى الآخرة ، ولعلك تقول ليت النعمة كانت تزول عن المحسود بحسدى . وهذا غاية الجهل فإنه بلاء تشتهيه أولا لنفسك ، فإنك أيضا لا تخلو عن عدو يحسدك ، فلو كانت النعمة تزول بالحسد لم يبق لله تعالى عليك نعمة ولا على أحد من الخلق ولا نعمة الإيمان أيضا، لأن الكفار يحسدون المؤمنين على الإيمان . قال الله تعالى ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم ﴾ إذ ما يريد الحسود لا يكون . نعم هو يضل بإرادته الضلال لغيره فإن أراد الكفر كفر . فمن اشتهى أن تزول النعمة عن المحسود بالحسد فكأنما يريد أن يسلب نعمة الإيمان بحسد الكفار وكذا سائر النعم . وإن اشتهيت أن تزول النعمة عن الخلق بحسدك ولا تزول عنك بحسد غيرك فهذا غاية الجهل والغباوة، فإن كل واحد من حمق الحساد أيضا يشتهى أن يخص بهذه الخاصية ولست بأولى من غيرك ، فنعمة الله تعالى عليك فى إن لم تزل النعمة بالحسد مما يجب عليك شكرها وأنت بجهلك تكرهها.

وأما أن المحسود ينتفع به فى الدين والدنيا فواضح . أما منفعته فى الدين : فهو أنه مظلوم من جهتك لاسيما إذا أخرجك الحسد إلى القول والفعل بالغيبة والقدح فيه وهتك ستره وذكر مساويه ، فهذه هدايا تهديها إليه؛ أعنى أنك بذلك تهدى إليه حسناتك حتى تلقاه يوم القيامة مفلسا محروما عن النعمة كما حرمت فى الدنيا عن النعمة ، فكأنك أردت زوال النعمة عنه فلم تزل . نعم كان لله عليه نعمة إذ وفقك للحسنات فنقلتها إليه فأضفت إليه نعمة إلى نعمة وأضفت إلى نفسك شقاوة إلى شقاوة .

وأما منفعته فى الدنيا فهو أن أهم أغراض الخلق مساءة الأعداء وغمهم وشقاوتهم وكونهم معذبين مغمومين ، ولا عذاب أشد مما أنت فيه من ألم الحسد ، وغاية أمانى أعدائك أن يكونوا فى نعمة وأن تكون فى غم وحسرة بسببهم وقد فعلت بنفسك ماهو مرادهم ، ولذلك لايشتهى عدوك موتك بل يشتهى أن تطول حياتك ولكن فى عذاب الحسد لتنظر إلى نعمة الله عليه فيتقطع قلبك حسدا . ولذلك قيل :

لامات أعداؤك بل خلدوا حتى يروا فيك الذى يكمد
لازلت محسودا على نعمة فإنما الكامل من يحسد

ففرح عدوك بغمك وحسدك أعظم من فرحه بنعمته ، ولو علم خلاصك من ألم الحسد وعذابه لكان ذلك أعظم مصيبة وبلية عنده ، فما أنت فيما تلازمه من غم الحسد إلا كما يشتهيه عدوك ، فإذا تأملت هذا عرفت أنك عدو نفسك وصديق عدوك إذ تعاطيت ماتضررت به فى الدنيا والآخرة وانتفع به عدوك فى الدنيا والآخرة . وصرت مذموما عند الخالق والخلائق شقيا فى الحال والمآل ، ونعمة المحسود دائمة شئت أم أبيت باقية ، ثم لم تقتصر على تحصيل مراد عدوك حتى وصلت إلى إدخال أعظم سرور على إبليس الذى هو أعدى أعدائك ، لأنه لما رآك محروما من نعمة العلم والورع والجاه والمال الذى اختص به عدوك عنك خاف أن تحب ذلك له فتشاركه فى الثواب بسبب المحبة، لأن من أحب الخير للمسلمين كان شريكا فى الخير ، ومن فاته اللحاق بدرجة الأكابر فى الدنيا لم يفته ثواب الحب لهم مهما أحب ذلك ، فخاف إبليس أن تحب ما أنعم الله به على عبده من صلاح دينه ودنياه فتفوز بثواب الحب فبغضه إليك حتى لا تلحقه بحبك كما لم تلحقه بعملك .

وقد قال أعرابى للنبى صلى الله عليه وسلم : يارسول الله الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم فقال النبى صلى الله

عليه وسلم « المرء مع من أحب (١) » وقام أعرابى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب فقال : يارسول الله متى الساعة ؟ فقال « ماأعددت لها ؟ » قال : ماأعددت لها من كثير صلاة ولا صيام إلا إنى أحب الله ورسوله ، فقال صلى الله عليه وسلم « أنت مع من أحببت (٢) » قال أنس : فما فرح المسلمون بعد إسلامهم كفرحهم يومئذ . إشارة إلى أن أكبر بغيتهم كانت حب الله ورسوله . قال أنس . فنحن نحب رسول الله وأبا بكر وعمر ولا نعمل مثل عملهم ونرجو أن نكون معهم . وقال أبو موسى : قلت يارسول الله الرجل يحب المصلين ولا يصلى ويحب الصوام ولا يصوم ، حتى عدّ أشياء . فقال النبى صلى الله عليه وسلم « هو مع من أحب (٣) » وقال رجل لعمر بن عبد العزيز : إنه كان يقال إن استطعت أن تكون عالما فكن عالما ، فإن لم تستطع أن تكون عالما فكن متعلما ، فإن لم تستطع أن تكون متعلما فأحبهم ، فإن لم تستطع فلا تبغضهم ، فقال : سبحان الله لقد جعل الله لنا مخرجا

فانظر الآن كيف حسدك إبليس ففوت عليك ثواب الحب ، ثم لم يقنع به حتى بغض إليك أخاك وحملك على الكراهة حتى أثمت ، وكيف لاوعساك تحاسد رجلا من أهل العلم وتحب أن يخطئ فى دين الله تعالى وينكشف خطؤه ليفتضح ؟ وتحب أن يخرس لسانه حتى لايتكلم أو يمرض حتى لايعلم ولا يتعلم وأى إثم يزيد على ذلك ؟ فليتك إذ فاتك اللحاق به ثم اغتممت بسببه سلمت من الإثم وعذاب الآخرة وقد جاء فى الحديث « أهل الجنة ثلاثة : المحسن والمحب له والكاف عنه (٤) » أى من يكف عنه الأذى والحسد والبغض والكراهة فانظر كيف أبعدك إبليس عن جميع المداخل الثلاثة حتى لاتكون من أهل واحد منها ألبتة ، فقد نفذ فيك حسد إبليس ومانفذ حسدك فى عدوك بل على نفسك ، بل لو كوشفت بحالك فى يقظة أو منام لرأيت نفسك أيها الحاسد فى صورة من يرمى سهما إلى عدوه ليصيب مقتله فلا يصيبه بل يرجع إلى حدقته اليمنى فيقلعها ، فيزيد غضبه فيعود ثانية فيرمى أشد من الأولى فيرجع إلى عينه الأخرى فيعميها ، فيزداد غيظة فيعود على رأسه فيشجه ، وعدوه سالم فى كل حال وهو إليه راجع مرة بعد أخرى ، وأعداؤه حوله يفرحون به ويضحكون عليه . وهذا حال الحسود وسخرية الشيطان منه ، بل حالك فى الحسد أقبح من هذا لأن الرمية العائدة لم تفوت إلا العينين ولو بقيتا لفاتتا بالموت لامحالة . والحسد يعود بالإثم والإثم لايفوت بالموت ، ولعله يسوقه إلى غضب الله وإلى النار ، فلأن تذهب عينه فى الدنيا خير له من أن تبقى له عين يدخل بها النار فيقلعها لهيب النار . فانظر كيف انتقم الله من الحاسد إذ أراد زوال النعمة عن المحسود فلم يزلها عنه ثم أزالها عن الحاسد ؛ إذ السلامة من الإثم نعمة والسلامة من الغم والكمد نعمة قد زالتا عنه تصديقا لقوله تعالى ﴿ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ﴾ وربما يبتلى بعين مايشتهيه لعدوه ، وقلما يشمت شامت بمساءة إلا ويبتلى بمثلها ، حتى قالت عائشة رضى الله عنها : ماتمنيت لعثمان شيئا إلا نزل بى ، حتى لو تمنيت له القتل لقتلت . فهذا إثم الحسد نفسه فكيف ما يجر إليه الحسد من الاختلاف وجحود الحق وإطلاق اللسان واليد بالفواحش فى التشفى من الأعداء ؟ وهو الداء الذى فيه هلك الأمم السالفة .

فهذه هى الأدوية العلمية فهما تفكر الإنسان فيها بذهن صاف وقلب حاضر انطفأت نار الحسد من قلبه ، وعلم

---

(١) حديث : الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم ، فقال « هو مع من أحب » متفق عليه من حديث ابن مسعود .

(٢) حديث : سؤال الأعرابى متى الساعة ؟ فقال « ماأعددت لها ... الحديث » متفق عليه من حديث أنس (٣) حديث أبى موسى : قلت يارسول الله الرجل يحب المصلين ولايصلى ... الحديث » وفيه « هو مع من أحب » متفق عليه من حديث بلفظ آخر مختصرا : الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم ، قال « المرء مع من أحب » (٤) حديث « أهل الجنة ثلاثة : المحسن والمحب له والكاف عنه » لم أجد له أصلا .

أنه مهلك نفسه ومفرح عدوه ومسخط ربه ومنغص عيشه .

وأما العمل النافع فيه فهو أن يحكم الحسد فكل ما يتقاضاه الحسد من قول وفعل فينبغى أن يكلف نفسه نقيضه ، فإن حمله الحسد على القدح فى محسوده كلف لسانه المدح له والثناء عليه ، وإن حمله على التكبر عليه ألزم نفسه التواضع له والاعتذار إليه ، وإن بعثه على كف الإنعام عليه ألزم نفسه الزيادة فى الإنعام عليه ، فمهما فعل ذلك عن تكلف وعرفه المحسود طاب قلبه وأحبه ، ومهما ظهر حبه عاد الحاسد فأحبه ، وتولد من ذلك الموافقة التى تقطع مادة الحسد ، لأن التواضع والثناء والمدح وإظهار السرور بالنعمة يستجلب قلب المنعم عليه ويسترقه ويستعطفه ويحمله على مقابلة ذلك بالإحسان، ثم ذلك الإحسان يعود إلى الأول فيطيب قلبه ويصير ما تكلفه أولا : طبعا آخرا ولا يصدنه عن ذلك قول الشيطان له : لو تواضعت وأثنيت عليه حملك العدو على العجز أو على النفاق أو الخوف وأن ذلك مذلة ومهانة ، وذلك من خداع الشيطان ومكايده بل المجاملة ـ تكلفاً كانت أو طبعاً ـ تكسر سورة العداوة من الجانبين وتقل مرغوبها وتعود القلوب التآلف والتحاب ، وبذلك تستريح القلوب من ألم الحسد وغم التباغض.

فهذه هى أدوية الحسد وهى نافعة جدا إلا أنها مرة على القلوب جدا ولكن النفع فى الدواء المر . فمن لم يصبر على مرارة الدواء لم ينل حلاوة الشفاء ؛ وإنما تهون مرارة هذا الدواء ، أعنى التواضع للأعداء والتقرب إليهم ، بالمدح والثناء بقوة العلم بالمعانى التى ذكرناها وقوة الرغبة فى ثواب الرضا بقضاء الله تعالى وحب ما أحبه . وعزة النفس وترفعها عن أن يكون فى العالم شىء على خلاف مرادها جهل ، وعند ذلك يريد مالا يكون ، إذ لا مطمع فى أن يكون ما يريد وفوات المراد ذل وخسة ، ولا طريق إلى الخلاص من هذا الذل إلا بأحد أمرين : إما بأن يكون ما تريد أو بأن تريد ما يكون ، والأول ليس إليك ولا مدخل للتكلف والمجاهدة فيه .وأما الثانى: فللمجاهدة فيه مدخل ، وتحصيله بالرياضة ممكن ، فيجب تحصيله على كل عاقل هذا هو الدواء الكلى .

فأما الدواء المفصل : فهو تتبع أسباب الحسد من الكبر وغيره وعزة النفس وشدة الحرص على مالا يغنى ـ وسيأتى تفصيل مداواة هذه الأسباب فى مواضعها إن شاء الله تعالى ـ فإنها مواد هذا المرض ولا ينقمع المرض إلا بقمع المادة ، فإن لم تقمع المادة لم يحصل بما ذكرناه إلا تسكين وتطفئة ، ولا يزال يعود مرة بعد أخرى ويطول الجهد فى تسكينه مع بقاء مواده ، فإنه مادام محباً للجاه فلا بد وأن يحسد من استأثر بالجاه والمنزلة فى قلوب الناس دونه ، ويغمه ذلك لا محالة ، وإنما غايته أن يهون الغم على نفسه ولا يظهر بلسانه ويده ، فأما الخلو عنه رأساً فلا يمكنه والله الموفق .

بيان القدر الواجب فى نفى الحسد عن القلب

اعلم أن المؤذى ممقوت بالطبع ، ومن آذاك فلا يمكنك أن لا تبغضه غالباً ، فإذا تيسرت له نعمة فلا يمكنك أن لا تكرهها له حتى يستوى عندك حسن حال عدوك وسوء حاله ، بل لا تزال تدرك فى النفس بينهما تفرقة ، ولا يزال الشيطان ينازعك إلى الحسد له ، ولكن إن قوى ذلك فيك حتى بعثك على إظهار الحسد بقول أو فعل بحيث يعرف ذلك من ظاهرك بأفعالك الاختيارية فأنت حسود عاص بحسدك ، وإن كففت ظاهرك بالكلية إلا أنك بباطنك تحب زوال النعمة وليس فى نفسك كراهة لهذه الحالة فأنت أيضاً حسود عاص ، لأن الحسد صفة القلب لا صفة الفعل ، قال الله تعالى ﴿ ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ﴾ وقال عز وجل ﴿ ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ﴾ وقال ﴿ إن تمسسكم حسنة تسؤهم ﴾ أما الفعل فهو غيبة وكذب وهو عمل صادر عن

الحسد وليس هو عين الحسد ، بل محل الحسد القلب دون الجوارح . نعم هذا الحسد ليس مظلمة يجب الاستحلال منها بل هو معصيه بينك وبين الله تعالى ، وإنمـــا يجب الاستحلال من الأسباب الظاهرة على الجوارح ، فأما إذا كففت ظاهرك وألزمت مع ذلك قلبك كراهة ما يترشح منه بالطبع من حب زوال النعمة حتى كأنك تمقت نفسك على مافى طبعها فتكون تلك الكراهة من جهة العقل فى مقابلة الميل من جهة الطبع ، فقد أديت الواجب عليك ،ولا يدخل تحت اختيارك فى أغلب الأحوال أكثر من هذا، فأما تغيير الطبع ليستوى عنده المؤذى والمحسن ويكون فرحه أوغمه بما تيسر لهما من نعمة أو تنصب عليهما من بلية سواء ، فهذا مما لايطاوع الطبع عليه مادام ملتفتا إلى حظوظ الدنيا ، إلا أن يصير مستغرقا بحب الله تعالى مثل السكران الواله ، فقد ينتهى أمره إلى أن لايلتفت قلبه إلى تفاصيل أحوال العباد ، بل ينظر إلى الكل بعين واحدة وهى عين الرحمة ، ويرى الكل عباد الله وأفعالهم أفعالاً لله ،ويراهم مسخرين وذلك إن كان فهو كالبرق الخاطف لا يدوم ، ثم يرجع القلب بعد ذلك إلى طبعه ويعود العدو إلى منازعته ـ أعنى الشيطان ـ فإنه ينازع بالوسوسة . فمهما قابل ذلك بكراهته والزم قلبه هذه الحالة فقد أدى ما كلفه. وقد ذهب ذاهبون إلى أنه لا يأثم إذا لم يظهر الحسد على جوارحه لما روى عن الحسن أنه سئل عن الحسد فقال : غمه فإنه لايضرك مالم تبده . وروى عنه موقوفا ومرفوعا إلى النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ثلاثه لايخلو منهن المؤمن وله منهن مخرج » فمخرجه من الحسد أن لايبغى ، والأولى أن يحمل هذا على ماذكرناه من أن يكون فيه كراهة من جهة الدين والعقل فى مقابلة حب الطبع لزوال نعمة العدو ، وتلك الكراهة تمنعه من البغى والإيذاء ، فإن جميع ما ورد من الأخبار فى ذم الحسد يدل ظاهره على ان كل حاسد آثم ، ثم الحسد عبارة عن صفة القلب لا عن الأفعال . فكل من يحب إساءة مسلم فهو حاسد . فإذن كونه آثما بمجرد حسد القلب من غير فعل هو فى محل الاجتهاد ، والأظهر ماذكرناه من حيث ظواهر الآيات والأخبار ومن حيث المعنى ، إذ يبعد أن يعفى عن العبد فى إرادته إساءة مسلم واشتماله بالقلب على ذلك من غير كراهة .

وقد عرفت من هذا ان لك فى أعدائك ثلاثة أحوال ، أحدها : أن تحب مساءتهم بطبعك ، وتكره حبك لذلك وميل قلبك إليه بعقلك وتمقت نفسك عليه وتود لو كانت لك حيلة فى إزالة ذلك الميل منك ، وهذا معفوعنه قطعا لأنه لايدخل تحت الاختيار أكثر منه .

الثانى : أن تحب ذلك وتظهر الفرح بمساءته إما بلسانك أو بجوارحك ، فهذا هو الحسد المحظور قطعا .

الثالث : وهو بين الطرفين أن تحسد بالقلب من غير مقت لنفسك على حسدك ، ومن غير إنكار منك على قلبك ولكن تحفظ جوارحك عن طاعة الحسد فى مقتضاه ، وهذا فى محل الخلاف . والظاهر أنه لايخلو عن إثم بقدر قوة ذلك الحب وضعفه . والله تعالى أعلم والحمد لله رب العالمين وحسبنا الله ونعم الوكيل .

كتاب ذم الدنيا

وهو الكتاب السادس من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى عرف أولياءه غوائل الدنيا وآفاتها . وكشف لهم عن عيوبها وعوراتها حتى نظروا فى شواهدها وآياتها ، ووزنوا بحسناتها سيئاتها فعلموا أنه يزيد منكرها على معروفها ولايفى مرجوها بمخوفها ولا يسلم طلوعها من كسوفها ، ولكنها فى صورة امرأة مليحة تستميل الناس بجمالها ، ولها أسرار سوء قبائح تهلك الراغبين فى وصالها ، ثم هى فرارة عن طلابها شحيحة بإقبالها ، وإذا أقبلت لم يؤمن شرها ووبالها ، إن أحسنت ساعة أساءت سنة. وإن أساءت مرة جعلتها سنة ، فدوائر إقبالها على التقارب دائرة ، وتجارة بنيها خاسرة بائرة ، وآفاتها على التوالى لصدور طلابها راشقة ، ومجارى أحوالها بذل طالبيها ناطقة . فكل مغرور بها إلى الذل مصيره . وكل متكبر بها إلى التحسر مسيره . شأنها الهرب من طالبها والطلب لهاربها ، ومن خدمها فاتته ، ومن أعرض عنها واتته لايخلو صفوها عن شوائب الكدورات ولا ينفك سرورها عن المنغصات ، سلامتها تعقب السقم ، وشبابها يسوق إلى الهرم ، ونعيمها لايثمر إلا الحسرة والندم فهى خداعة مكارة ، طيارة فرارة ، لاتزال تتزين لطلابها حتى إذا صاروا من أحبابها ، كشرت لهم عن أنيابها ، وشوشت عليهم مناظم أسبابها ؛ وكشفت لهم عن مكنون عجائبها ، فأذاقتهم قواتل سمامها ؛ ورشقتهم بصوائب سهامها . بينما أصحابها منها فى سرور وإنعام إذ ولت عنها كأنها أضغاث أحلام . ثم عكرت عليهم بدواهيها فطحنتهم طحن الحصيد ووارتهم فى أكفانهم تحت الصعيد ، إن ملكت واحداً منهم جميع ما طلعت عليه الشمس جعلته حصيداً كأن لم يغن بالأمس . تمنى أصحابها سرورا وتعدهم غرورا حتى يأملون كثيراً ويبنون قصورا . فتصبح قصورهم قبورا وجمعهم بورا . وسعيهم هباء منثورا ودعاؤهم ثبورا ، هذه صفتها وكان أمر الله قدرا مقدوراً . والصلاة والسلام على محمد عبده ورسوله المرسل إلى العالمين بشيرا ونذيرا وسراجا منيرا . وعلى من كان من أهله وأصحابه له فى الدين ظهيرا وعلى الظالمين نصيراً وسلم تسليما كثيراً .

أما بعد : فان الدنيا عدوة لله وعدوة لأولياء الله وعدوة لأعداء الله . أما عداوتها لله فانها قطعت الطريق على عباد الله . ولذلك لم ينظر الله إليها منذ خلقها . وأما عداوتها لأولياء الله عز وجل : فانها تزينت لهم بزينتها وعمتهم بزهرتها ونضارتها حتى تجرعوا مرارة الصبر فى مقاطعتها . وأما عداوتها لأعداء الله : فانها استدرجتهم بمكرها وكيدها فاقتنصتهم بشبكتها حتى وثقوا بها . وعولوا عليها فخذلتهم أحوج ما كانوا إليها . فاجتنوا منها حسرة تتقطع دونها الأكباد . ثم حرمتهم السعادة أبد الآباد . فهم على فراقها يتحسرون ومن مكايدها يستغيثون ولا يغاثون . بل يقال لهم ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون . أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ﴾ .

وإذا عظمت غوائل الدنيا وشرورها فلابد أولا من معرفة حقيقة الدنيا وما هى ؟ وما الحكمة فى خلقها مع عداوتها ؟ وما مدخل غرورها وشرورها ؟ فإن من لايعرف الشر لايتقيه ويوشك أن يقع فيه . ونحن نذكر ذم

الدنيا وأمثلتها ، وحقيقتها وتفصيل معانيها ، وأصناف الأشغال المتعلقة بها ، ووجه الحاجة إلى أصولها ، وسبب انصراف الخلق عن الله بسبب التشاغل بفضولها إن شاء الله تعالى . وهو المعين على ما يرتضيه .

بيان ذم الدنيا

الآيات الواردة فى ذم الدنيا وأمثلتها كثيرة . وأكثر القران مشتمل على ذم الدنيا وصرف الخلق عنها ودعوتهم إلى الآخرة . بل هو مقصود الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولم يبعثوا إلا لذلك ، فلا حاجة إلى الاستشهاد بآيات القرآن لظهورها ، وإنما نورد بعض الأخبار الواردة فيها . فقد روى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرّ على شاة ميتة فقال « أترون هذه الشاة هينة على أهلها ؟ » قالوا : من هوانها ألقوها . قال « والذى نفسى بيده للدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ماسقى كافرا منها شربة ماء [1] » وقال صلى الله عليه وسلم « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر [2] » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدنيا ملعونة ملعون مافيها إلا ما كان لله منها [3] » وقال أبو موسى الأشعرى : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا مايبقى على مايفنى [4] » وقال صلى الله عليه تعالى وآله وسلم « حب الدنيا رأس كل خطيئة [5] » وقال زيد بن أرقم : كنا مع أبى بكر الصديق رضى الله عنه فدعا بشراب فأتى بماء وعسل ، فلما أدناه من فيه بكى حتى أبكى أصحابه وسكتوا وما سكت : ثم عاد وبكى حتى ظنوا أنهم لا يقدرون على مسألته قال : ثم مسح عينيه فقالوا : ياخليفة رسول الله ماأبكاك ؟ قال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرأيته يدفع عن نفسه شيئا ولم أر معه أحدا ؛ فقلت يارسول الله ماالذى تدفع عن نفسك ؟ قال « هذه الدنيا مثلت لى فقلت لها : إليك عنى ثم رجعت فقالت : إنك إن أفلت منى لم يفلت منى من بعدك [6] » وقال صلى الله عليه وسلم « ياعجبا كل العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور [7] » وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على مزبلة فقال « هلموا إلى الدنيا وأخذ خرقا قد بليت على تلك المزبلة وعظاماً قد نخرت فقال : هذه الدنيا [8] » وهذه إشارة إلى أن زينة الدنيا ستخلق مثل تلك الخرق وأن الأجسام التى ترى بها ستصير عظاما بالية . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون إن بنى إسرائيل لما

كتاب ذم الدنيا

(١) حديث : مر على شاة ميتة فقال « أترون هذه الشاة هينة على صاحبها ... الحديث » أخرجه ابن ماجه والحاكم وصحح إسناده من حديث سهل بن سعد وآخره عند الترمذى وقال حسن صحيح ، ورواه الترمذى وابن ماجه من حديث المستورد بن شداد دون هذه القطعة الأخيرة ، ولمسلم نحوه من حديث جابر (٢) حديث « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة (٣) حديث « الدنيا ملعونة ملعون مافيها » أخرجه الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبى هريرة وزاد « إلا ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلم » (٤) حديث أبى موسى الأشعرى « من أحب دنياه أضر بآخرته ...الحديث » أخرجه أحمد والبزار والطبرانى وابن حبان والحاكم وصححه (٥) حديث « حب الدنيا رأس كل خطيئة » أخرجه ابن أبى الدنيا فى ذم الدنيا والبيهقى فى شعب الإيمان من طريقه من رواية الحسن مرسلا .

(٦) حديث زيد بن أرقم : كنا مع أبى بكر فدعا بشراب فأتى بماء وعسل فلما أدناه من فيه بكى ... الحديث . وفيه : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيته يدفع عن نفسه شيئا ... الحديث . أخرجه البزار بسند ضعيف بنحوه والحاكم وصحح إسناده وابن أبى الدنيا والبيهقى من طريقه بلفظه (٧) حديث « ياعجبا كل العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور » أخرجه ابن أبى الدنيا من حديث أبى جرير مرسلا (٨) حديث : إنه وقف على مزبلة فقال « هلموا الى الدنيا ...الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى ذم الدنيا والبيهقى فى شعب الإيمان من طريقه من رواية ابن ميمون اللخمى مرسلا ، وفيه بقية بن الوليد وقد عنعنه وهو مدلس .

بسطت لهم الدنيا ومهدت تاهوا فى الحلية والنساء والطيب والثياب [١] ، وقال عيسى عليه السلام : لاتتخذوا الدنيا ربا فتتخذكم عبيدا اكنزوا كنزكم عند من لا يضيعه فإن صاحب كنز الدنيا يخاف عليه الآفة وصاحب كنز الله لايخاف عليه الآفة . وقال عليه أفضل الصلاة والسلام : يامعشر الحواريين إنى قد كببت لكم الدنيا على وجهها فلا تنعشوها بعدى فإن من خبث الدنيا أن عصى الله فيها وإن من خبث الدنيا أن الآخرة لاتدرك إلا بتركها ، ألا فاعبروا الدنيا ولا تعمروها واعلموا أن أصل كل خطيئة حب الدنيا ، ورب شهوة ساعة أورثت أهلها حزناطويلا . وقال أيضاً : بطحت لكم الدنيا وجلستم على ظهرها فلا ينازعنكم فيها الملوك والنساء ، فأما الملوك فلا تنازعوهم الدنيا فإنهم لن يعرضوا لكم ماتركتموهم ودنياهم ، وأما النساء فاتقوهن بالصوم والصلاة . وقال أيضا : الدنيا طالبة ومطلوبة فطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتى يستكمل فيها رزقه ، وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يجىء الموت فيأخذ بعنقه . وقال موسى ابن يسار : قال النبى صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل لم يخلق خلقاً أبغض إليه من الدنيا وأنه منذ خلقها لم ينظر إليها [٢] » وروى أن سليمان بن داود عليهما السلام مر فى موكبه والطير تظله والجن والإنس عن يمينه وشماله قال : فمر بعابد من بنى إسرائيل فقال والله يا ابن داود لقد آتاك الله ملكا عظيما ، قال : فسمع سليمان وقال : لتسبيحة فى صحيفة مؤمن خير مما أعطى ابن داود ، فإن ما أعطى ابن داود يذهب والتسبيحة تبقى . وقال صلى الله عليه وسلم « ألهاكم التكاثر يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدّقت فأبقيت ؟ [٣] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الدنيا دار من لادار له ومال من لامال له ، ولها يجمع من لاعقل له ، وعليها يعادى من لاعلم له ، وعليها يحسد من لافقه له ، ولها يسعى من لايقين له [٤] » وقال صلى الله عليه وسلم « من أصبح والدنيا أكبر همه فليس من الله فى شىء وألزم الله قلبه أربع خصال : هما لاينقطع عنه أبدا ، وشغلا لايتفرغ منه أبداً ، وفقرا لايبلغ غناه أبداً ، وأملا لايبلغ منتهاه أبدا [٥] » وقال أبو هريرة : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « ياأباهريرة ألا أريك الدنيا جميعها بما فيها » فقلت : بل يارسول الله ، فأخذ بيده وأتى بى واديا من أودية المدينة فإذا مزبلة فيها رءوس أناس وعذرات وخرق وعظام ، ثم قال « ياأبا هريرة هذه الرءوس كانت تحرص كحرصكم وتأمل كأملكم ثم هى اليوم عظام بلا جلد ثم هى صائرة رمادا ، وهذه العذرات هى ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها ثم قذفوها فى بطونهم فأصبحت والناس يتحامونها ، وهذه الخرق البالية كانت رياشهم ولباسهم فأصبحت والرياح تصفقها ، وهذه العظام عظام دوابهم التى كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد ؛ فمن كان باكيا على الدنيا فليبك » قال: فما برحنا حتى اشتد بكاؤنا [٦] ويروى أن الله عز وجل لما أهبط آدم إلى الأرض قال له : ابن للخراب ولد للفناء.

---

(١) حديث « ان الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ... الحديث » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أبي سعيد دون قوله « ان بنى اسرائيل ... الخ » والشطر الأول متفق عليه ورواه ابن أبى الدنيا من حديث الحسن مرسلا بالزيادة التى فى آخره (٢) حديث موسى بن يسار « ان الله جل ثناؤه لم يخلق خلقا أبغض اليه من الدنيا وأنه منذ خلقها لم ينظر اليها » أخرجه ابن أبي الدنيا من هذا الوجه بلاغا وللبيهقى فى الشعب من طريقه وهو مرسل (٣) حديث « ألهاكم التكاثر يقول ابن آدم مالى مالى ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن الشخير .

(٤) حديث « الدنيا دار من لادار له ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث عائشة مقتصرا على هذا وعلى قوله « ولها يجمع من لاعقل له » دون بقيته وزاد ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب من طريقه « ومال من لامال له » وإسناده جيد (٥) حديث « من أصبح والدنيا أكبر همه فليس من الله فى شىء وألزم الله قلبه أربع خصال ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى ذر دون قوله « وألزم الله قلبه ... الخ » وكذلك رواه ابن أبي الدنيا من حديث أنس بإسناد ضعيف والحاكم من حديث حذيفة وروى هذه الزيادة منفردة صاحب الفردوس من حديث ابن عمر وكلاهما ضعيف (٦) حديث أبى هريرة « ألا أريك الدنيا جميعها بما فيها » قلت : بلى يارسول الله فأخذ بيدى وأتى بى واديا من أودية المدينة فإذا مزبلة ... الحديث لم أجد له أصلا

وقال داود بن هلال مكتوب فى صحف إبراهيم عليه السلام : يادنيا ما أهونك على الأبرار الذين تصنعت وتزينت لهم ، إنى قذفت فى قلوبهم بغضك والصدود عنك وماخلقت خلقا أهون على منك ، كل شأنك صغير وإلى الفناء يصير قضيت عليك يوم خلقتك أن لاتدومى لأحد ولا يدوم لك أحد ، وإن بخل بك صاحبك وشح عليك ، طوبى للأبرار الذين أطلعونى من قلوبهم على الرضا ومن ضميرهم على الصدق والاستقامة ، طوبى لهم مالهم عندى من الجزاء إذا وفدوا إلى من قبورهم إلا النور يسعى أمامهم والملائكة حافون بهم حتى أبلغهم مايرجون من رحمتى . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدنيا موقوفة بين السماء والأرض ، منذ خلقها الله تعالى لم ينظر إليها ، وتقول يوم القيامة يارب اجعلنى لأدنى أوليائك اليوم نصيبا فيقول اسكتى يالاشىء إنى لم أرضك لهم فى الدنيا أرضاك لهم اليوم (١) » وروى فى أخبار آدم عليه السلام أنه لما أكل من الشجرة تحركت معدته لخروج الثفل ، ولم يكن ذلك مجعولا فى شىء من أطعمة الجنة إلا فى هذه الشجرة فلذلك نهيا عن أكلها ، قال فجعل يدور فى الجنة ، فأمر الله تعالى ملكا يخاطبه فقال له: قل له أى شىء تريد ؟ قال آدم : أريد أن أضع مافى بطنى من الأذى ، فقيل للملك : قل له فى أى مكان تريد أن تضعه أعلى الفرش أم على السرر أم على الأنهار أم تحت ظلال الأشجار هل ترى ههنا مكانا يصلح لذلك ؟ اهبط إلى الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم « ليجيئن أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة فيؤمر بهم إلى النار » قالوا يارسول الله مصلين ؟ قال « نعم كانوا يصلون ويصومون ويأخذون هنة من الليل فإذا عرض لهم شىء من الدنيا وثبوا عليه (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم فى بعض خطبه « المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لايدرى ما الله صانع فيه وبين أجل قد بقى لايدرى ماالله قاض فيه ؟ فليتزود العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن حياته لموته ومن شبابه لهرمه فإن الدنيا خلقت لكم وأنتم خلقتم للآخرة ، والذى نفسى بيده مابعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار (٣) » وقال عيسى عليه السلام : لايستقيم حب الدنيا والآخرة فى مؤمن كما لايستقيم الماء والنار فى إناء واحد . وروى أن جبريل عليه السلام قال لنوح عليه السلام : ياأطول الأنبياء عمرا كيف وجدت الدنيا ؟ فقال : كدار لها بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر . قيل لعيسى عليه السلام : لو اتخذت بيتا يكنك : قال : يكفينا خلقان من كان قبلنا . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم «احذروا الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت (٤) » وعن الحسن : قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم على أصحابه فقال « هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى ويجعله بصيراً : ألا إنه من رغب فى الدنيا وطال أمله فيها أعمى الله قلبه على قدر ذلك ، ومن زهد فى الدنيا وقصر فيها أمله أعطاه الله علما بغير تعلم ، وهدى بغير هداية : ألا أنه سيكون بعدكم قوم لايستقيم لهم الملك إلا بالقتل والتجبر ، ولا الغنى إلا بالفخر والبخل ، ولا المحبة إلا باتباع الهوى ؛ إلا فمن أدرك ذلك الزمان منكم فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى ، وصبر على البغضاء وهو يقدر على المحبة ، وصبر على الذل وهو يقدر على العز لايريد بذلك إلا وجه الله تعالى أعطاه الله ثواب خمسين صديقا (٥) » وروى أن عيسى عليه السلام اشتد عليه المطر والرعد

---

(١) حديث « الدنيا موقوفة بين السماء والأرض منذ خلقها الله لاينظر إليها ... الحديث » تقدم بعضه من رواية موسى بن يسار مرسلا ولم أجد باقيه . (٢) حديث « ليجيئن أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة فيؤمر بهم إلى النار ... الحديث » أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث سالم مولى أبى حذيفة بسند ضعيف وأبو منصور الديلمى من حديث أنس وهو ضعيف أيضاً

(٣) حديث المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى ... الحديث » أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث الحسن عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وفيه انقطاع (٤) حديث « احذروا الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت » أخرجه ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب من طريقه من رواية أبى الدرداء الرهاوى مرسلا ، وقال البيهقى ان بعضهم قال عن أبى الدرداء عن رجل من الصحابة قال الذهبى لايدرى من أبو الدرداء قال وهكذا منكر لاأصل له (٥) حديث الحسن « هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب من طريقه هكذا مرسلا وفيه إبراهيم بن الأشعث تكلم فيه أبو حاتم .

والبرق يوما لجعل يطلب شيئاً يلجأ إليه فوقعت عينه على خيمه من بعيد فأتاها فإذا فيها امرأة لحاد عنها ، فإذا هو بكهف فى جبل فأتاه فإذا فيه أسد فوضع يده عليه وقال : إلهى جعلت لكل شىء مأوى ولم تجعل لى مأوى ، فأوحى الله تعالى إليه : مأواك فى مستقر رحمتى لأزوجنك يوم القيامة مائة حوراء خلقتها بيدى ولأطعمن فى عرسك أربعة آلاف عام يوم منها كعمر الدنيا ، ولآمرن مناديا ينادى أين الزهاد فى الدنيا زوروا عرس الزاهد فى الدنيا عيسى ابن مريم . وقال عيسى ابن مريم عليه السلام : ويل لصاحب الدنيا كيف يموت ويتركها وما فيها، وتغره ويأمنها ، ويثق بها وتخذله ، وويل للمغترين كيف أرتهم مايكرهون وفارقهم ما يحبون وجاءهم ما يوعدون ؟ وويل لمن الدنيا همه والخطايا عمله كيف يفتضح غدا بذنبه ؟ وقيل أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : ياموسى مالك ولدار الظالمين إنها ليست لك بدار أخرج منها همك وفارقها بعقلك ، فبئست الدار هى إلا لعامل يعمل فيها فنعمت الدار هى ، ياموسى إنى مرصد للظالم حتى آخذ منه للمظلوم . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا عبيدة بن الجراح لجاء بمال من البحرين ؛ فسمعت الأنصار بقدوم أبى عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف فتعرضوا له ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآهم ثم قال « أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشىء » قالوا : أجل يارسول الله ، قال « فأبشروا وأملوا مايسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكنى أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم [1] » وقال أبو سعيد الخدرى : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « إن أكثر ما أخاف عليكم مايخرج الله لكم من بركات الأرض » فقيل مابركات الأرض ؟ قال « زهرة الدنيا [2] » . وقال صلى الله عليه وآله وسلم « لاتشغلوا قلوبكم بذكر الدنيا [3] » فنهى عن ذكرها فضلا عن إصابة عينها . وقال عمار بن سعيد : مر عيسى عليه السلام بقرية فإذا أهلها موتى فى الأفنية والطرق ، فقال : يامعشر الحواريين إن هؤلاء ماتوا عن سخطة ولو ماتوا عن غير ذلك لتدافنوا ، فقالوا : ياروح الله وددنا أن لو علمنا خبرهم . فسأل الله تعالى فأوحى إليه إذا كان الليل فنادهم يجيبوك . فلما كان الليل أشرف على نشز ثم نادى : ياأهل القرية فأجابه مجيب لبيك ياروح الله ! فقال : ماحالكم وما قصتكم ؟ قال : بتنا فى عافية وأصبحنا فى الهاوية ، قال : وكيف ذاك ؟ قال . بحبنا الدنيا وطاعتنا أهل المعاصى ، قال : وكيف كان حبكم للدنيا ؟ قال : حب الصبى لأمه إذا أقبلت فرحنا بها وإذا أدبرت حزناً وبكينا عليها ، قال : فما بال أصحابك لم يجيبونى ؟ قال لأنهم ملجمون بلجم من نار بأيدى ملائكة غلاظ شداد ، قال : فكيف أجبتنى أنت من بينهم ؟ قال : لأنى كنت فيهم ولم أكن منهم ، فلما نزل بهم العذاب أصابنى معهم ، فأنا معلق على شفير جهنم لاأدرى أأنجوا منها أم أكبكب فيها ؟ فقال المسيح للحواريين : لأكل خبز الشعير بالملح الجريش ولبس المسوح والنوم على المزابل كثير مع عافية الدنيا والآخرة . وقال أنس : كانت ناقة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم العضباء لاتسبق لجاء أعرابى بناقة له فسبقها ، فشق ذلك على المسلمين فقال صلى الله تعالى عليه وسلم « إنه حق على الله أن لايرفع شيئا من الدنيا إلا وضعه [4] » وقال عيسى عليه السلام : من الذى يبنى على موج البحر دارا ؟ تلكم الدنيا فلا

---

(١) حديث : بعث أبا عبيدة بن الجراح لجاء بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبى عبيدة . متفق عليه من حديث عمرو ابن عوف البدرى (٢) حديث أبى سعيد « إن أكثر ما أخاف عليكم مايخرج الله لكم من بركات الأرض .. الحديث » متفق عليه (٣) حديث « لاتشغلوا قلوبكم بذكر الدنيا » أخرجه البيهقى فى الشعب من طريق ابن أبى الدنيا من رواية محمد بن النضر الحارثى مرسلا (٤) حديث أنس : كانت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم العضباء لاتسبق .. الحديث . وفيه « حق على الله أن لايرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه » أخرجه البخارى .

تتخذوها قرارا . وقيل لعيسى عليه السلام : علمنا علما واحدا يحبنا الله عليه ، قال : ابغضوا الدنيا يحبكم الله تعالى . وقال أبو الدرداء ؛ قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولهانت عليكم الدنيا ولآثرتم الآخرة [١] » ثم قال أبو الدرداء - من قبل نفسه - لو تعلمون ماأعلم لخرجتم إلى الصعدات تجأرون وتبكون على أنفسكم ، ولتركتم أموالكم لاحارس لها ولاراجع إليها إلا مالابد لكم منه ، ولكن يغيب عن قلوبكم ذكر الآخرة ، وحضرها الأمل فصارت الدنيا أملك بأعمالكم ، وصرتم كالذين لايعلمون فبعضكم شر من البهائم التى لاتدع هواها مخافة مما فى عاقبته ، مالكم لاتحابون ولا تناصحون وأنتم إخوان على دين الله مافرق بين أهوائكم إلا خبث سرائركم ، ولواجتمعتم على البر لتحاببتم ، مالكم تناصحون فى أمر الدنيا ولا تناصحون فى أمر الآخرة ؟ ولا يملك أحدكم النصيحة لمن يحبه ويعينه على أمر آخرته ، ما هذا إلا من قلة الإيمان فى قلوبكم ، لو كنتم توقنون بخير الآخرة وشرها كما توقنون بالدنيا لآثرتم طلب الآخرة لأنها أملك لأموركم . فإن قلتم : حب العاجلة غالب ؟ فإنا نراكم تدعون العاجلة من الدنيا للآجل منها ، تكدون أنفسكم بالمشقة والاحتراف فى طلب أمر لعلكم لاتدركونه ، فبئس القوم أنتم ماحققتم إيمانكم بما يعرف به الإيمان البالغ فيكم ! فإن كنتم فى شك مما جاء به محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فائتونا لنبين لكم ولنريكم من النور ماتطمئن إليه قلوبكم ! والله ماأنتم بالمنقوصة عقولكم فنعذركم إنكم تستبينون صواب الرأى فى دنياكم وتأخذون بالحزم فى أموركم ، مالكم تفرحون باليسير من الدنيا تصيبونه وتحزنون على اليسير منها يفوتكم ، حتى يتبين ذلك فى وجوهكم ويظهر على ألسنتكم ، وتسمونها المصائب وتقيمون فيها المآتم ، وعامتكم قد تركوا كثيرا من دينهم ثم لايتبين ذلك فى وجوهكم ولا يتغير حالكم ، إنى لأرى الله قد تبرأ منكم يلقى بعضكم بعضا بالسرور ، وكلكم يكره أن يستقبل صاحبه بما يكره مخافة أن يستقبله صاحبه بمثله فاصطحبتم على الغل ونبتت مراعيكم على الدمن وتصافيتم على رفض الأجل ، ولوددت أن الله تعالى أراحنى منكم وألحقنى بمن أحب رؤيته ولو كان حيا لم يصابركم ، فإن كان فيكم خير فقد أسمعتكم وإن تطلبوا ما عند الله تجدوه يسيرا ، وبالله أستعين على نفسى وعليكم . وقال عيسى عليه السلام : يامعشر الحواريين ارضوا بدنىء الدنيا مع سلامة الدين كما رضى أهل الدنيا بدنىء الدين مع سلامة الدنيا . وفى معناه قيل :

أرى رجالا بأدنى الدين قد قنعوا ... وما أراهم رضوا فى العيش بالدون

فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما ... استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقال عيسى عليه السلام : ياطالب الدنيا لتبر تركك الدنيا أبر . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « لتأتينكم بعدى دنيا تأكل إيمانكم كما تأكل النار الحطب [٢] » وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : ياموسى لا تركنن إلى حب الدنيا فلن تأتينى بكبيرة هى أشد منها . ومر موسى عليه السلام برجل وهو يبكى ورجع وهو يبكى ، فقال موسى : يارب عبدك يبكى من مخافتك فقال : ياابن عمران لو سال دماغه مع دموع عينيه ورفع يديه حتى يسقطا لم أغفر له وهو يحب الدنيا .

الآثار : قال على رضى الله عنه : من جمع فيه ست خصال لم يدع للجنة مطلبا ولا عن النار مهربا ؛ أولها : من

---

(١) حديث أبى الدرداء « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً ولهانت عليكم الدنيا ولآثرتم الآخرة » أخرجه الطبرانى دون قوله « ولهانت ... الخ » وزاد « ولخرجتم إلى الصعدات ... الحديث . وزاد الترمذى وابن ماجه من حديث أبى ذر « وما تلذذتم بالنساء على الفرش » وأول الحديث متفق عليه من حديث أنس وفى أفراد البخارى من حديث عائشة

(٢) حديث « لتأتينكم بعدى دنيا تأكل إيمانكم كما تأكل النار الحطب » لم أجد له أصلا .

عرف الله وأطاعه ، وعرف الشيطان فعصاه ، وعرف الحق فاتبعه ، وعرف الباطل فاتقاه ، وعرف الدنيا فرفضها ، وعرف الآخرة فطلبها . وقال الحسن : رحم الله أقواما كانت الدنيا عندهم وديعة فأدّوها إلى من ائتمنهم عليها ، ثم راحوا خفافا . وقال أيضا رحمه الله : من نافسك فى دينك فنافسه ومن نافسك فى دنياك فألقها فى نحره . وقال لقمان عليه السلام لابنه : يابنى إن الدنيا بحر عميق وقد غرق فيه ناس كثير فلتكن سفينتك فيه تقوى الله عز وجل ، وحشوها الإيمان بالله تعالى ، وشراعها التوكل على الله عز وجل ، لعلك تنجو وما أراك ناجيا . وقال الفضيل : طالت فكرتى فى هذه الآية ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا وإنا لجاعلون ماعليها صعيدا جرزاً ﴾ وقال بعض الحكماء : إنك لن تصبح فى شىء من الدنيا إلاوقد كان له أهل قبلك وسيكون له أهل بعدك ، وليس لك من الدنيا إلا عشاء ليلة وغداء يوم ، فلا تهلك فى أكله ، وصم عن الدنيا وأفطر على الآخرة ، وإن رأس مال الدنيا الهوى وربحها النار . وقيل لبعض الرهبان : كيف ترى الدهر ؟ قال : يخلق الأبدان ويجدد الآمال ويقرب المنية ويبعد الأمنية . قيل : فما حال أهله ؟ قال : من ظفر به تعب ومن فاته نصب . وفى ذلك قيل:

ومن يحمد الدنيا لعيش يسره فسوف لعمرى عن قليل يلومها
إذا أدبرت كانت على المرء حسرة وإن أقبلت كانت كثيراً همومها

وقال بعض الحكماء : كانت الدنيا ولم أكن فيها ، وتذهب الدنيا ولاأكون فيها ، فلا أسكن إليها فإن عيشها نكد وصفوها كدر وأهلها منها على وجل ، إمابنعمة زائلة أوبلية نازلة أومنية قاضية . وقال بعضهم من عيب الدنيا أنها لاتعطى أحدا مايستحق ، لكنها إما أن تزيد وإما أن تنقص . وقال سفيان : أما ترى النعم كأنها مغضوب عليها قد وضعت فى غير أهلها . وقال أبو سليمان الدارانى : من طلب الدنيا على المحبة لها لم يعط منها شيئاً إلا أراد أكثر . ومن طلب الآخرة على المحبة لها لم يعط منهاشيئاً إلا أراد أكثر . وليس لهذا غاية . وقال رجل لأبى حازم : أشكو إليك حب الدنيا وليست لى بدار ، فقال : انظر ما آتاكه الله عز وجل منها فلا تأخذه إلا من حله ولاتضعه إلافى حقه . ولايضرك حب الدنيا . وإنما قال هذا لأنه لو آخذ نفسه بذلك لأتعبه حتى يتبرم بالدنيا ويطلب الخروج منها وقال يحيى بن معاذ : الدنيا حانوت الشيطان ، فلاتسرق من حانوته شيئاً فيجىء فى طلبه فيأخذك . وقال الفضيل : لوكانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة منخزف يبقى ؛ لكان ينبغى لنا أن نختار خزفا يبقى على ذهب يفنى . فكيف وقد اخترنا خزفا يفنى على ذهب يبقى ؟ وقال أبوحازم : إياكم والدنيا فإنه بلغنى أنه يوقف العبد يوم القيامة إذا كان معظماً الدنيا فيقال : هذا عظم ماحقره الله . وقال ابن مسعود : ماأصبح أحد من الناس إلاوهو ضيف وماله عارية فالضيف مرتحل والعارية مردودة . وفى ذلك قيل :

وما المال والأهلون إلا ودائع ولابد يوما أن ترد الودائع

وزار رابعة أصحابها ، فذكروا الدنيا فأقبلوا على ذمها ، فقالت : اسكتوا عن ذكرها فلولا موقعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها . ألا من أحب شيئاً أكثر من ذكره . وقيل لإبراهيم بن ادهم : كيف أنت ؟ فقال :

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا مانرقع
فطوبى لعبد آثر الله ربه وجاد بدنياه لما يتوقع

وقيل أيضاً فى ذلك :

أرى طالب الدنيا وإن طال عمره ونال من الدنيا سرورا وأنعما

كبان بنى بنيانه فأقامه فلما استوى ما قد بناه تهدما

وقيل أيضاً فى ذلك :

هب الدنيا تساق إليك عفوا أليس مصير ذاك إلى انتقال
وما دنياك إلا مثل فىء أظلك ثم آذن بالزوال

وقال لقمان لابنه : يابنى بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً ، ولاتبع آخرتك بدنياك تخسرهما جميعا . وقال مطرف ابن الشخير : لاتنظر إلى خفض عيش الملوك ولين رياشهم ، ولكن انظر إلى سرعة ظعنهم وسوء منقلبهم . وقال ابن عباس : إن الله تعالى جعل الدنيا ثلاثة أجزاء : جزء للمؤمن ، وجزء للمنافق ، وجزء للكافر . فالمؤمن يتزود ، والمنافق يتزين ، والكافر يتمتع . وقال بعضهم : الدنيا جيفة ، فمن أراد منها شيئاً فليصبر على معاشرة الكلاب . وفى ذلك قيل :

يا خاطب الدنيا إلى نفسها تنح عن خطبتها تسلم
إن التى تخطب غدارة قريبة العرس من المأتم

وقال أبو الدرداء : من هوان الدنيا على الله أنه لايعصى إلا فيها ولاينال ماعنده إلا بتركها . وفى ذلك قيل :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو فى ثياب صديق

وقيل أيضاً :

ياراقد الليل مسروراً بأوله إن الحوادث قد يطرقن أسحارا
أفنى القرون التى كانت منعمة كر الجديدين إقبالا وإدبارا
كم قد أبادت صروف الدهر من ملك قد كان فى الدهر نفاعا وضرارا
يامن يعانق دنيا لابقاء لها يمسى ويصبح فى دنياه سفارا
هلا تركت من الدنيا معانقة حتى تعانق فى الفردوس أبكارا
إن كنت تبغى جنان الخلد تسكنها فينبغى لك أن لا تأمن النارا

وقال أبو أمامة الباهلى رضى الله عنه : لما بعث محمد صلى الله عليه وسلم أتت إبليس جنوده فقالوا : قد بعث نبى وأخرجت أمة ، قال : يحبون الدنيا ؟ قالوا نعم ، قال : لئن كانوا يحبون الدنيا ما أبالى أن لايعبدوا الأوثان ، وإنما أغدو عليهم وأروح بثلاث : أخذ المال من غير حقه ، وإنفاقه فى غير حقه ، وإمساكه عن حقه ، والشر كله من هذا نبع . وقال رجل لعلى كرم الله وجهه : يا أمير المؤمنين صف لنا الدنيا ، قال : وما أصف لك من دار من صح فيها سقم ، ومن أمن فيها ندم ، ومن افتقر فيها حزن ، ومن استغنى فيها افتتن ، فى حلالها الحساب ، وفى حرامها العقاب ، ومتشابهها العتاب . وقيل له ذلك مرة أخرى فقال : أطول أم أقصر ؟ فقيل : قصر فقال : حلالها حساب ، وحرامها عذاب . وقال مالك بن دينار : اتقوا السحارة فإنها تسحر قلوب العلماء يعنى الدنيا . وقال أبو سليمان الدارانى : إذا كانت الآخرة فى القلب جاءت الدنيا تزاحمها ، فإذا كانت الدنيا فى القلب لم تزاحمها الآخرة ، لأن الآخرة كريمة والدنيا لئيمة . وهذا تشديد عظيم ونرجو أن يكون ماذكره سيار بن الحكم أصح ، إذ قال : الدنيا والآخرة يجتمعان فى القلب فأيهما غلب كان الآخر تبعا له . وقال مالك بن دينار : بقدر ماتحزن للدنيا يخرج هم الآخرة من قلبك ، وبقدر ماتحزن للآخرة يخرج هم الدنيا من قلبك . وهذا اقتباس مماقاله على كرم الله وجهه حيث قال : الدنيا

والآخرة ضرتان ، فبقدر ماترضى إحداهما تسخط الأخرى . وقال الحسن : والله لقد أدركت أقواما كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذى تمشون عليه ، مايبالون أشرقت الدنيا أم غربت ، ذهبت إلى ذا أو ذهبت إلى ذا ؟ وقال رجل للحسن : ماتقول فى رجل آتاه الله مالا فهو يتصدق منه ويصل منه ، أيحسن له أن يتعيش فيه ؟ - يعنى يتنعم - فقال : لا ، لوكانت له الدنيا كلها ما كان له منها إلا الكفاف ويقدم ذلك ليوم فقره . وقال الفضيل : لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت على حلالا لا أحاسب عليها فى الآخرة لكنت أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه وقيل : لما قدم عمر رضى الله عنه الشام فاستقبله أبو عبيدة بن الجراح على الناقة مخطومة بحبل ، فسلم وسأله ، ثم أتى منزله فلم ير فيه إلا سيفه وترسه ورحله فقال له عمر رضى الله عنه : لو اتخذت متاعا ؟ فقال : ياأمير المؤمنين إن هذا يبلغنا المقيل . وقال سفيان : خذ من الدنيا لبدنك وخذ من الآخرة لقلبك . وقال الحسن : والله لقد عبدت بنو إسرائيل الأصنام بعد عبادتهم الرحمن بحبهم الدنيا . وقال وهب : قرأت فى بعض الكتب ، الدنيا غنيمة الأكياس وغفلة الجهال لم يعرفوها حتى خرجوا منها ، فسألوا الرجعة فلم يرجعوا . وقال لقمان لابنه : يابنى إنك استدبرت الدنيا من يوم نزلتها واستقبلت الآخرة ، فأنت إلى دار تقرب منها أقرب من دار تباعد عنها . وقال سعيد بن مسعود : إذا رأيت العبد تزداد دنياه وتنقص آخرته وهو به راض فذلك المغبون الذى يلعب بوجهه وهو لايشعر . وقال عمرو بن العاص على المنبر : والله مارأيت قوما قط أرغب فيما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزهد فيه منكم ، والله مامر برسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث إلا والذى عليه أكثر من الذى له (١) وقال الحسن بعد أن تلا قوله تعالى ﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ﴾ من قال ذا ؟ قاله من خلقها ومن هو أعلم بها ، إياكم وما شغل من الدنيا فإن الدنيا كثيرة الأشغال ، لايفتح رجل على نفسه باب شغل إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب . وقال أيضا : مسكين ابن أدم رضى بدار حلالها حساب وحرامها عذاب ، إن أخذه من حله حوسب به ، وإن أخذه من حرام عذب به ، ابن آدم يستقل ماله ولايستقل عمله ، يفرح بمصيبته فى دينه ويجزع من مصيبته فى دنياه . وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز : سلام عليك ، أما بعد : فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قد مات . فأجابه عمر : سلام عليك ، كأنك بالدنيا ولم تكن وكأنك بالآخرة لم تزل . وقال الفضيل بن عياض الدخول فى الدنيا هين ولكن الخروج منها شديد وقال بعضهم . عجبا لمن يعرف أن الموت حق كيف يفرح ؟ وعجبا لمن يعرف أن النار حق كيف يضحك ؟ وعجبا لمن رأى تقلب الدنيا بأهلها كيف يطمئن إليها ؟ وعجبا لمن يعلم أن القدر حق كيف ينصب ! ؟ وقدم على معاوية رضى الله عنه رجل من نجران عمره مائتا سنة فسأله عن الدنيا كيف وجدها ؟ فقال : سنيات بلاء وسنيات رخاء ، يوم فيوم وليلة فليلة يولد ولد ويهلك هالك ، فلولا المولود لباد الخلق ولولا الهالك ضاقت الدنيا بمن فيها . فقال له : سل ماشئت ، قال : عمر مضى فترده أو أجل حضر فتدفعه ، قال : لاأملك ذلك ، قال : لاحاجة لى إليك . وقال داود الطائى رحمه الله : ياابن آدم فرحت ببلوغ أملك ، وإنما بلغته بانقضاء أجلك ، ثم سوفت بعملك كان منفعته لغيرك . وقال بشر : من سأل الله الدنيا فإنما يسأله طول الوقوف بين يديه . وقال أبو حازم : مافى الدنيا شىء يسرك إلا وقد ألصق الله إليه شيئا يسوءك . وقال الحسن : لاتخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بحسرات ثلاث : أنه لم يشبع مما جمع ، ولم يدرك ماأمل ، ولم يحسن الزاد لما يقدم عليه . وقيل لبعض العباد : قد نلت الغنى ، فقال : إنما نال الغنى من عتق من رق الدنيا . وقال أبو سليمان . لايصبر

---

(١) حديث عمرو بن العاص : والله ما رأيت قوما قط أرغب فيما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزهد فيه منكم ... الحديث • أخرجه الحاكم وصححه ورواه أحمد وابن حبان بنحوه •

عن شهوات الدنيا إلا من كان فى قلبه ما يشغله بالآخرة . وقال مالك بن دينار : اصطلحنا على حب الدنيا فلا يأمر بعضنا بعضا ولا ينهى بعضنا بعضا ، ولا يدعنا الله على هذا ، فليت شعرى أى عذاب الله ينزل علينا ؟ وقال أبو حازم: يسير الدنيا يشغل عن كثير الآخرة ، وقال الحسن . أهينوا الدنيا فو الله ماهى لأحد بأهنأ منها لمن أهانها . وقال أيضا: إذا أراد الله بعبد خيرا أعطاه من الدنيا عطية ثم يمسك ، فإذا نفد أعاد عليه ، وإذا هان عليه عبد بسط له الدنيا بسطا . وكان بعضهم يقول فى دعائه : يامسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنك أمسك الدنيا عنى . وقال محمد بن المنكدر : أرأيت لو أن رجلا صام الدهر لا يفطر ، وقام الليل لا ينام ، وتصدق بماله ، وجاهد فى سبيل الله ، واجتنب محارم الله ، غير أنه يؤتى به يوم القيامة فيقال : إن هذا عظم فى عينه ما صغره الله ، وصغر فى عينه ما عظمه الله كيف ترى يكون حاله ؟ فمن منا ليس هكذا الدنيا عظيمة عنده مع ما اقترفنا من الذنوب والخطايا ؟ وقال أبو حازم : اشتدت مؤنة الدنيا والآخرة ، فأما مؤنة الآخرة فإنك لا تجد عليها أعوانا ، وأما مؤنة الدنيا فإنك لا تضرب بيدك إلى شىء منها إلا وجدت فاجرا قد سبقك إليه . وقال أبو هريرة : الدنيا موقوفة بين السماء والأرض كالشن البالى تنادى ربها منذ خلقها إلى يوم يفنيها . يارب يارب لم تبغضنى ؟ فيقول لها : اسكتى يالاشىء . وقال عبد الله بن المبارك : حب الدنيا والذنوب فى القلب قد احتوشته ، فمتى يصل الخير إليه ؟ وقال وهب بن منبه: من فرح قلبه بشىء من الدنيا فقد أخطأ الحكمة ، ومن جعل شهوته تحت قدميه فرق الشيطان من ظله ، ومن غلب علمه هواه فهو الغالب . وقيل لبشر : مات فلان فقال : جمع الدنيا وذهب إلى الآخرة ، ضيع نفسه قيل له : إنه كان يفعل ويفعل - وذكروا أبوابا من البر - فقال : وما ينفع هذا وهو يجمع الدنيا ؟ وقال بعضهم : الدنيا تبغض إلينا نفسها ونحن نحبها فكيف لو تحببت إلينا ؟ وقيل لحكيم : الدنيا لمن هى قال : لمن تركها ؟ فقيل الآخرة لمن هى ؟ قال : لمن طلبها وقال حكيم : الدنيا دار خراب وأخرب منها قلب من يعمرها ، والجنة دار عمران وأعمر منها قلب من يطلبها . وقال الجنيد : كان الشافعى رحمه الله من المريدين الناطقين بلسان الحق فى الدنيا ، وعظ أخا له فى الله وخوفه بالله فقال : ياأخى إن الدنيا دحض مزلة ودار مذلة ، عمرانها إلى الخراب صائر ، وساكنها إلى القبور زائر ، شملها على الفرقة موقوف ، وغناها إلى الفقر مصروف ، الإكثار فيها إعسار ، والإعسار فيها يسار ، فافزع إلى الله وارض برزق الله لا تتسلف من دار بقائك إلى دار فنائك ، فإن عيشتك فىء زائل وجدار مائل ، أكثر من عملك وأقصر من أملك وقال إبراهيم بن أدهم لرجل: أدرهم فى المنام أحب إليك أم دينار فى اليقظة . فقال دينار فى اليقظة فقال : كذبت ، لأن الذى تحبه فى الدنيا كأنك تحبه فى المنام ، والذى لا تحبه فى الآخرة كأنك لا تحبه فى اليقظة . وعن إسمعيل بن عياش قال : كان أصحابنا يسمون الدنيا خنزيرة فيقولون إليك عنا يا خنزيرة ، فلو وجدوا لها اسما أقبح من هذا لسموها به . وقال كعب : لتحببن إليكم الدنيا حتى تعبدوها وأهلها . وقال يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله: العقلاء ثلاثة ، من ترك الدنيا قبل أن تتركه ، وبنى قبره قبل أن يدخله ، وأرضى خالقه قبل أن يلقاه . وقال أيضاً : الدنيا بلغ شؤمها أن تمنيك لما يلهيك عن طاعة الله ، فكيف الوقوع فيها . وقال بكر بن عبد الله : من أراد أن يستغنى عن الدنيا بالدنيا كان كمطفىء النار بالتبن . وقال بندار : إذا رأيت أبناء الدنيا يتكلمون فى الزهد فاعلم أنهم فى سخرة الشيطان . وقال أيضاً : من أقبل على الدنيا أحرقته نيرانها - يعنى الحرص - حتى يصير رمادا ، ومن أقبل على الآخرة صفته بنيرانها فصار سبيكة ذهب ينتفع به ، ومن أقبل على الله عز وجل أحرقته نيران التوحيد فصار جوهراً لا حد لقيمته . وقال على كرم الله وجهه : إنما الدنيا ستة أشياء ، مطعوم ومشروب وملبوس ومركوب

ومنكوح ومشموم ، فأشرف المطعومات العسل وهو مذقة ذباب ، وأشرف المشروبات الماء ويستوى فيه البر والفاجر ، وأشرف الملبوسات الحرير وهو نسج دودة ، وأشرف المركوبات الفرس وعليه يقتل الرجال، وأشرف المنكوحات المرأة وهى مبال فى مبال ، وإن المرأة لتزين أحسن شىء منها ويراد أقبح شىء منها، وأشرف المشمومات المسك وهو دم

بيان المواعظ فى ذم الدنيا وصفتها

قال بعضهم : يا أيها الناس اعملوا على مهل ، وكونوا من الله على وجل ، ولا تغتروا بالأمل ونسيان الأجل ، ولا تركنوا إلى الدنيا فإنها غدارة خداعة ، قد تزخرف لكم بغرورها وفتنتكم بأمانيها ، وتزينت لخطابها فأصبحت كالعروس المجلية ، العيون إليها ناظرة والقلوب عليها عاكفة والنفوس لها عاشقة ، فكم من عاشق لها قتلت ، ومطمئن إليها خذلت ، فانظروا إليها بعين الحقيقة فإنها دار كثير بوائقها وذمها خالقها ، جديدها يبلى ، وملكها يفنى ، وعزيزها يذل ، وكثيرها يقل ، ودها يموت ، وخيرها يفوت ، فاستيقظوا رحمكم الله من غفلتكم ، وانتبهوا من رقدتكم قبل أن يقال فلان عليل أو مدنف ثقيل ، فهل على الدواء من دليل ، وهل إلى الطبيب من سبيل ؟ فتدعى لك الأطباء ولا يرجى لك الشفاء ثم يقال فلان أوصى ولماله أحصى ، ثم يقال قد ثقل لسانه فما يكلم إخوانه ولا يعرف جيرانه ، وعرق عند ذلك جبينك ، وتتابع أنينك ، وثبت يقينك ، وطمحت جفونك ، وصدقت ظنونك ، وتلجلج لسانك ، وبكى إخوانك ، وقيل لك هذا ابنك فلان ، وهذا أخوك فلان ومنعت من الكلام فلا تنطق ، وختم على لسانك فلا ينطلق ، ثم حل بك القضاء وانتزعت نفسك من الأعضاء ، ثم عرج بها إلى السماء ، فاجتمع عند ذلك إخوانك وأحضرت أكفانك ، فغسلوك وكفنوك ، فانقطع عوادك واستراح حسادك، وانصرف أهلك إلى مالك ، وبقيت مرتهنا بأعمالك . وقال بعضهم لبعض الملوك : إن أحق الناس بذم الدنيا وقلاها من بسط له فيها وأعطى حاجته منها ، لأنه يتوقع آفة تعدو على ماله فتجتاحه أو على جمعه فتفرقه ، أو تأتى سلطانه فتهدمه من القواعد ، أو تدب إلى جسمه فتسقمه ، أو تفجعه بشىء هو ضنين به بين أحبابه ، فالدنيا أحق بالذم ، هى الآخذة ما تعطى ، الراجعة فيما تهب ، بينا هى تضحك صاحبها إذ أضحكت منه غيره ، وبينا تبكى له إذ أبكت عليه ، وبينا هى تبسط كفها بالإعطاء إذ بسطتها بالاسترداد ، فتعقد التاج على رأس صاحبها اليوم وتعفره بالتراب غدا ، سواء عليها ذهاب ما ذهب وبقاء ما بقى ، تجد فى الباقى من الذاهب خلفا ، وترضى بكل من كل بدلا . وكتب الحسن البصرى إلى عمر بن عبد العزيز : أما بعد ، فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة ، وإنما أنزل آدم عليه السلام من الجنة إلى عقوبة ، فاحذرها يا أمير المؤمنين فإن الزاد منها تركها . والغنى منها فقرها . لها فى كل حين قتيل . تذل من أعزها . وتفقر من جمعها . هى كالسم يأكله من لا يعرفه وفيه حتفه . فكن فيها كالمداوى جراحه يحتمى قليلا مخافة ما يكره طويلا . ويصبر على شدة الدواء مخافة طول الداء . فاحذر هذه الدار الغدارة الختالة الخداعة التى قد تزينت بخدعها وفتنت بغرورها وحلت بآمالها وسوفت بخطابها . فأصبحت كالعروس المجلية . العيون إليها ناظرة والقلوب عليها والهة والنفوس لها عاشقة وهى لأزواجها كلهم قالية . فلا الباقى بالماضى معتبر ولا الآخر بالأول مزدجر . ولا العارف بالله عز وجل حين أخبره عنها مدكر . فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغتر وطغى ونسى المعاد ، فشغل فيها لبه حتى زلت به قدمه ، فعظمت ندامته وكثرت حسرته ، واجتمعت عليه سكرات الموت وتألمه وحسرات الفوت بغصته . وراغب فيها لم يدرك منها ما طلب ولم يروح نفسه من التعب ، فخرج بغير زاد وقدم

على غير مهاد ، فاحذرها يا أمير المؤمنين وكن أسر ما تكون فيها أحذر ماتكون لها ؛ فإنّ صاحب الدنيا كلما اطمأنّ منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه ، السارّ فى أهلها غار ، والنافع فيها غدّار ضار ، وقد وصل الرخاء منها بالبلاء وجعل البقاء فيها إلى فناء ، فسرورها مشوب بالأحزان لا يرجع منها ماولى وأدبر ، ولا يدرى ما هو آت فينتظر . أمانيها كاذبة وآمالها باطلة وصفوها كدر ، وعيشها نكد ،وابن آدم فيها على خطر، إن عقل ونظر فهو من النعماء على خطر ومن البلاء على الحذر ، فلو كان الخالق لم يخبر عنها خبرا ولم يضرب لها مثلا لكانت الدنيا قد أيقظت النائم ونبهت الغافل ، فكيف وقد جاء من الله عز وجل عنها زاجر وفيها واعظ؟ فما لها عند الله جل ثناؤه قدر وما نظر إليها منذ خلقها ، ولقد عرضت على نبيك صلى الله عليه وسلم بمفاتيحها وخزائنها لا ينقصه ذلك عند الله جناح بعوضة فأبى أن يقبلها [1] ، إذ كره أن يخالف على الله أمره أو يحب ما أبغضه خالقه أو يرفع ما وضع مليكه ، فزواها عن الصالحين اختبارا وبسطها لأعدائه اغترارا ، فيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أكرم بها ؛ ونسى ماصنع الله عز وجل بمحمد صلى الله عليه وسلم حين شدّ الحجر على بطنه [2] ولقد جاءت الرواية عنه عن ربه عز وجل أنه قال لموسى عليه السلام : إذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته ، وإذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحباً بشعار الصالحين ، وإن شئت اقتديت بصاحب الروح والكلمة عيسى ابن مريم عليه السلام فإنه كان يقول : إدامى الجوع ، وشعارى الخوف ، ولباسى الصوف ، وصلائى فى الشتاء فى مشارق الشمس ، وسراجى القمر ، ودابتى رجلاى ، وطعامى وفاكهتى ما أنبتت الأرض ، أبيت وليس لى شىء ، وأصبح وليس لى شىء ، وليس على الأرض أحد أغنى منى . وقال وهب بن منبه : لما بعث الله عز وجل موسى وهرون عليهما السلام إلى فرعون قال : لا يروعنكما لباسه الذى لبس من الدنيا ، فإن ناصيته بيدى ليس ينطق ولا يطرف ولا يتنفس إلا بإذنى ، ولا يعجبنكما ما تمتع به منها فإنما هى زهرة الحياة الدنيا وزينة المترفين ، فلو شئت أن أزينكما بزينة من الدنيا يعرف فرعون حين يراها أن قدرته تعجز عما أوتيتما لفعلت ، ولكنى أرغب بكما عن ذلك فأزوى ذلك عنكما ، وكذلك أفعل بأوليائى إنى لأذودهم عن نعيمها كما يذود الراعى الشفيق غنمه عن مراتع الهلكة ، وإنى لأجنبهم ملاذها كما يجنب الراعى الشفيق إبله عن منازل الغرة ، وما ذاك لهوانهم على ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتى سالما موفرا ، إنما يتزين لى أوليائى بالذل والخوف والخضوع والتقوى تنبت فى قلوبهم وتظهر على أجسادهم ، فهى ثيابهم التى يلبسون ودثارهم الذى يظهرون ، وضميرهم الذى يستشعرون ونجاتهم التى بها يفوزون ، ورجاؤهم الذى إياه يأملون ، ومجدهم الذى به يفخرون ، وسيماهم التى بها يعرفون ، فإذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك ، وذلل لهم قلبك ولسانك ، واعلم أنه من أخاف لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة ، ثم أنا الثائر له يوم القيامة .

وخطب على كرم الله وجهه يوما خطبة فقال فيها : اعلموا أنكم ميتون ومبعوثون من بعد الموت وموقوفون على أعمالكم ومجزيون بها ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا فإنها بالبلاء محفوفة وبالفناء معروفة وبالغدر موصوفة ، وكل ما فيها إلى زوال وهى بين أهلها دول وسجال ، لا تدوم أحوالها ولا يسلم من شرها نزالها ، بينا أهلها منها فى رخاء

---

(١) حديث الحسن وكتب به إلى عمر بن عبد العزيز : عرضت أى الدنيا على نبيك صلى الله عليه وسلم بمفاتيحها وخزائنها ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا هكذا مرسلا ورواه أحمد والطبرانى متصلا من حديث أبى مويهبة فى أثناء حديث فيه « إنى قد أعطيت خزائن الدنيا والخلد ثم الجنة ... الحديث » وسنده صحيح وللترمذى من حديث أبى أمامة « عرض على ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهبا ... الحديث » (٢) حديث الحسن مرسلا فى شده الحجر على بطنه . أخرجه ابن أبى الدنيا أيضاً هكذا وللبخارى من حديث أنس : رفعنا عن بطوننا عن حجر حجر فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم حجرين . وقال حديث غريب .

وسرور إذا هم منها فى بلاء وغرور . أحوال مختلفة وتارات منصرفة . العيش فيها مذموم والرخاء فيها لا يدوم وإنما أهلها فيها أغراض مستهدفة . ترميهم بسهامها وتقصيهم بحمامها . وكل حتفه فيها مقدور وحظه فيها موفور. واعلموا عباد الله أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى ممن كان أطول منكم أعمارا وأشد منكم بطشا وأعمر ديارا وأبعد آثارا . فأصبحت أصواتهم هامدة خامدة من بعد طول تقلبها وأجسادهم بالية وديارهم على عروشها خاوية وآثارهم عافية . واستبدلوا بالقصور المشيدة والسرر والنمارق الممهدة . الصخور والأحجار المسندة فى القبور اللاطئة الملحدة . فحلها مقترب وساكنها مغترب بين أهل عمارة موحشين وأهل محلة متشاغلين . لا يستأنسون بالعمران ولا يتواصلون تواصل الجيران والإخوان على ما بينهم من قرب المكان والجوار ودنو الدار . وكيف يكون بينهم تواصل وقد طحنهم بكلكله البلا وأكلتهم الجنادل والثرى ؟ وأصبحوا بعد الحياة أمواتاً وبعد نضارة العيش رفاتا فجع بهم الأحباب وسكنوا تحت التراب ظعنوا فليس لهم إياب . هيهات هيهات ﴿ كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾ فكأن قد صرتم إلى ما صاروا إليه من البلاء والوحدة فى دار المثوى وارتهنتم فى ذلك المضجع وضمكم ذلك المستودع . فكيف بكم لو عاينتم الأمور وبعثرت القبور وحصل ما فى الصدور وأوقفتم للتحصيل بين يدى الملك الجليل فطارت القلوب لإشفاقها من سالف الذنوب وهتكت عنكم الحجب والأستار وظهرت منكم العيوب والأسرار ؟ هنالك تجزى كل نفس بما كسبت إن الله عزوجل يقول ﴿ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ وقال تعالى ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ﴾ الآية جعلنا الله وإياكم عاملين بكتابة متبعين لأوليائه حتى يحلنا وإياكم دار المقامة من فضله إنه حميد مجيد .

وقال بعض الحكماء : الأيام سهام والناس أغراض ، والدهر يرميك كل يوم بسهامه ويخترمك بلياليه وأيامه حتى يستغرق جميع أجزائك ، فكيف بقاء سلامتك مع وقوع الأيام بك وسرعة الليالى فى بدنك ؟ لو كشف لك عما أحدثت الأيام فيك من النقص لاستوحشت من كل يوم يأتى عليك واستثقلت ممر الساعة بك ولكن تدبير الله فوق تدبير الاعتبار ، وبالسلو عن غوائل الدنيا وجد طعم لذاتها ، وإنها لأمر من العلقم إذا عجنها الحكيم ، وقد أعيت الواصف لعيوبها بظاهر أفعالها ، وما تأتى به من العجائب أكثر مما يحيط به الواعظ ، اللهم أرشدنا إلى الصواب وقال بعض الحكماء وقد استوصف الدنيا وقدر بقائها فقال . الدنيا وقتك الذى يرجع إليك فيه طرفك ، لأن ما مضى عنك فقد فاتك إدراكه ، وما لم يأت فلا علم لك به ، والدهر يوم مقبل تنعاه ليلته وتطويه ساعاته ، وأحداثه تتوالى على الإنسان بالتغيير والنقصان ، والدهر موكل بتشتيت الجماعات وانخرام الشمل وتنقل الدول ، والأمل طويل والعمر قصير وإلى الله تصير الأمور .

وخطب عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه فقال : يا أيها الناس إنكم خلقتم لأمر إن كنتم تصدقون به فإنكم حمقى ، وإن كنتم تكذبون به فإنكم هلكى ، إنما خلقتم للأبد ولكنكم من دار إلى دار تنقلون ، عباد الله إنكم فى دار لكم فيها من طعامكم غصص ، ومن شرابكم شرق ، لا تصفو لكم نعمة تسرون بها إلا بفراق أخرى تكرهون فراقها ، فاعملوا لما أنتم صائرون إليه وخالدون فيه . ثم غلبه البكاء ونزل .

قال على كرم الله وجهه فى خطبته : أوصيكم بتقوى الله والترك للدنيا التاركة لكم وإن كنتم لا تحبون تركها ، المبلية أجسامكم وأنتم تريدون تجديدها ، فإنما مثلكم ومثلها كمثل قوم فى سفر سلكوا طريقاً وكأنهم قطعوه ، وأفضوا إلى علم فكأنهم بلغوه ، وكم عسى أن يجرى المجرى حتى ينتهى إلى الغاية ؟ وكم عسى أن يبقى من له يوم فى

الدنيا وطالب حثيث يطلبه حتى يفارقها ؟ فلا تجزعوا لبؤسها وضرائها فإنه إلى انقطاع ، ولا تفرحوا بمتاعها ونعمائها فإنه إلى زوال ، عجبت لطالب الدنيا والموت يطلبه ، وغافل وليس بمغفول عنه ،

وقال محمد بن الحسين : لما علم أهل الفضل والعلم والمعرفة والأدب أن الله عز وجل قد أهان الدنيا ، وأنه لم يرضها لأوليائه ، وأنها عنده حقيرة قليلة ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم زهد فيها وحذر أصحابه من فتنتها ، أكلوا منها قصداً وقدموا فضلا ، وأخذوا منها مايكفي وتركوا مايلهي ، لبسوا من الثياب ماستر العورة ، وأكلوا من الطعام أدناه ماسد الجوعة ، ونظروا إلى الدنيا بعين أنها فانية ؛ وإلى الآخرة أنها باقية ، فتزودوا من الدنيا كزاد الراكب فخربوا الدنيا وعمروا بها الآخرة ، ونظروا إلى الآخرة بقلوبهم فعلموا أنهم سينظرون إليها بأعينهم فارتحلوا إليها بقلوبهم لما علموا أنهم سيرتحلون إليها بأبدانهم ، تعبوا قليلا وتنعموا طويلا ، كل ذلك بتوفيق مولاهم الكريم ، أحب ماأحب لهم وكرهوا ما كره لهم .

بيان صفة الدنيا بالأمثلة

اعلم أن الدنيا سريعة الفناء قريبة الانقضاء ، تعد بالبقاء ثم تخلف فى الوفاء ، تنظر إليها فتراها ساكنة مستقرة ، وهى سائرة سيرا عنيفا ومرتحلة ارتحالا سريعا ، ولكن الناظر إليها قد لايحس بحركتها فيطمئن إليها ، وإنما يحس عند انقضائها ، ومثالها الظل فإنه متحرك ساكن متحرك فى الحقيقة ساكن الظاهر ، لاتدرك حركته بالبصر الظاهر ، بل بالبصيرة الباطنة ، ولما ذكرت الدنيا عند الحسن البصرى رحمه الله أنشد وقال :

أحلام نوم أو كظل زائل ‌ ‌ إن اللبيب بمثلها لا يخدع

وكان الحسن بن على بن أبى طالب كرم الله وجهه يتمثل كثيرا ويقول :

يا أهل لذات دنيا لا بقاء لها ‌ ‌ إن اغتراراً بظل زائل حمق

وقيل إن هذا من قوله . ويقال : إن أعرابياً نزل بقوم فقدموا إليه طعاما فأكل ، ثم قام إلى ظل خيمة لهم فنام هناك فاقتلعوا الخيمة فأصابته الشمس فانتبه ، فقام وهو يقول :

ألا إنما الدنيا كظل ثنية ‌ ‌ ولا بد يوماً أن ظلك زائل

وكذلك قيل :

وإن امرأ دنياه أكبر همه ‌ ‌ لمستمسك منها بحبل غرور

مثال آخر للدنيا من حيث التغرير بخيالاتها ثم الإفلاس منها بعد إفلاتها . تشبه خيالات المنام وأضغاث الأحلام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدنيا حلم وأهلها عليها مجازون ومعاقبون [1] » وقال يونس بن عبيد . ماشبهت نفسى فى الدنيا إلا كرجل نام فرأى فى منامه مايكره وما يحب فبينماهو كذلك إذ انتبه ، فكذلك الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، فإذا ليس بأيديهم شىء مما ركنوا إليه وفرحوا به . وقيل لبعض الحكماء . أى شىء أشبه بالدنيا ؟ قال أحلام النائم .

مثال آخر للدنيا فى عداوتها لأهلها وإهلاكها لبنيها . اعلم أن طبع الدنيا التلطف فى الاستدراج أولا والتوصل إلى الإهلاك آخرا ، وهى كامرأة تتزين للخطاب حتى إذا نكحتهم ذبحتهم . وقد روى أن عيسى عليه السلام كوشف بالدنيا فرآها فى صورة عجوز هتماء عليها من كل زينة ، فقال لها . كم تزوجت ؟ قالت . لا أحصيهم ، قال

(١) حديث « الدنيا حلم وأهلها عليها مجازون ومعاقبون » لم أجد له أصلا .

فكلهم مات عنك أم كلهم طلقك ؟ قالت : بل كلهم قتلت ، فقال عيسى عليه السلام : بؤساً لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين ! كيف تهلكينهم واحدا بعد واحد ولا يكونون منك على حذر ! ؟ .

مثال آخر للدنيا فى مخالفة ظاهرها لباطنها : اعلم أن الدنيا مزينة الظواهر قبيحة السرائر وهى شبه عجوز متزينة تخدع الناس بظاهرها ، فإذا وقفوا على باطنها وكشفوا القناع عن وجهها تمثل لهم قبائحها فندموا على اتباعها وخجلوا من ضعف عقولهم فى الاغترار بظاهرها . وقال العلاء بن زياد : رأيت فى المنام عجوزا كبيرة متعصبة الجلد عليها من كل زينة الدنيا والناس عكوف عليها معجبون ينظرون إليها ، فجئت ونظرت وتعجبت من نظرهم إليها وإقبالهم عليها فقلت لها : ويلك من أنت ؟ قالت : أو ما تعرفنى ؟ قلت : لا أدرى ! من أنت ؟ قالت : أنا الدنيا ، قلت : أعوذ بالله من شرك ! قالت : إن أحببت أن تعاذ من شرى فابغض الدرهم . قال أبو بكر بن عياش : رأيت الدنيا فى النوم عجوزا مشوهة شمطاء تصفق بيديها وخلفها خلق يتبعونها ويصفقون ويرقصون ، فلما كانت بحذائى أقبلت على فقالت : لو ظفرت بك لصنعت بك مثل ما صنعت بهؤلاء . ثم بكى أبو بكر وقال : رأيت هذا قبل أن أقدم إلى بغداد وقال الفضيل بن عياض : قال ابن عباس يؤتى بالدنيا يوم القيامة فى صورة عجوز شمطاء زرقاء ، أنيابها بادية ومشوه خلقها ، فتشرف على الخلائق فيقال لهم أتعرفون هذه ؟ فيقولون : نعوذ بالله من معرفة هذه ! فيقال : هذه الدنيا التى تناحرتم عليها ، بها تقاطعتم الأرحام ، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم ، ثم يقذف بها فى جهنم فتنادى : أى رب أين أتباعى وأشياعى ؟ فيقول الله عز وجل ؟ ألحقوا بها أتباعها وأشياعها . وقال الفضيل : بلغنى أن رجلا عرج بروحه فإذا امرأة على قارعة الطريق عليها من كل زينة من الحلى والثياب ، وإذا لا يمر بها أحد إلا جرحته ، فإذا هى أدبرت كانت أحسن شىء رآه الناس ، وإذا هى أقبلت كانت أقبح شىء رآه الناس ، عجوز شمطاء زرقاء عمشاء قال : فقلت : أعوذ بالله منك ! قالت : لا والله . لا يعيذك الله منى حتى تبغض الدرهم ! قال : فقلت من أنت ؟ قالت : أنا الدنيا .

مثال آخر للدنيا وعبور الإنسان بها : اعلم أن الأحوال ثلاثة : حالة لم تكن فيها شيئا وهى ماقبل وجودك إلى الأزل ، وحالة لا تكون فيها مشاهدا للدنيا وهى مابعد موتك إلى الأبد ، وحالة متوسطة بين الأبد والأزل وهى أيام حياتك فى الدنيا ؛ فانظر إلى مقدار طولها وانسبه إلى طرفى الأزل والأبد حتى تعلم إنه أقل من منزل قصير فى سفر بعيد . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « مالى وللدنيا ! وإنما مثلى ومثل الدنيا كمثل راكب سار فى يوم صائف فرفعت شجرة فقال تحت ظلها ساعة ثم راح وتركها (٢) » ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن إليها ولم يبال كيف انقضت أيامه فى ضر وضيق أو فى سعة ورفاهية ، بل لا يبنى لبنة على لبنة . توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما وضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة (١) ورأى بعض الصحابة يبنى بيتاً من جص فقال « أرى الأمر أعجل من هذا وأنكر ذلك (٢) » وإلى هذا أشار عيسى عليه السلام حيث قال : الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها . وهو مثال واضح فإن الحياة الدنيا معبر إلى الآخرة ، والمهد هو الميل الأول على رأس القنطرة ، واللحد هو الميل الآخر ،

---

(١) حديث « مالى وللدنيا إنما مثلى ومثل الدنيا كمثل راكب ... الحديث » أخرجه الترمذى وابن ماجه والحاكم من حديث ابن مسعود بنحوه ورواه أحمد والحاكم وصححه من حديث ابن عباس .

(٢) حديث : ماوضع لبنة على لبنة ... الحديث . أخرجه ابن حبان فى الثقات والطبرانى فى الأوسط من حديث عائشة بسند ضعيف « من سأل عنى أو سره أن ينظر الى فلينظر الى أشعث شاحب مشمر لم يضع لبنة على لبنة .. الحديث » (٢) حديث: رأى بعض أصحابه يبنى بيتا من جص فقال « أرى الأمر أعجل من هذا » أخرجه أبو داود والترمذى من حديث عبد الله بن عمرو وقال حسن صحيح .

وبينهما مسافة محدودة ، فمن الناس من قطع نصف القنطرة ، ومنهم من قطع ثلثها ، ومنهم من قطع ثلثيها ، ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها. وكيفما كان فلابد له من العبور ، والبناء على القنطرة وتزيينها بأصناف الزينة وأنت عابر عليها غاية الجهل والخذلان .

مثال آخر للدنيا فى لين موردها وخشونة مصدرها : اعلم أن أوائل الدنيا تبدو هينة لينة يظن الخائض فيها أن حلاوة خفضها كحلاوة الخوض فيها وهيهات ! فإن الخوض فى الدنيا سهل والخروج منها مع السلامة شديد ، وقد كتب على رضى الله عنه إلى سلمان الفارسى بمثالها فقال : مثل الدنيا مثل الحية لين مسها ويقتل سمها ، فأعرض عما يعجبك منها لقلة مايصحبك منها ، وضع عنك همومها بما أيقنت من فراقها ، وكن أسر ماتكون فيها أحذر ماتكون لها ، فإن صاحبها كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصه عنه مكروه والسلام .

مثال آخر للدنيا فى تعذر الخلاص من تبعتها بعد الخوض فيها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما مثل صاحب الدنيا كالماشى فى الماء هل يستطيع الذى يمشى فى الماء أن لاتبتل قدماه [1] » وهذا يعرفك جهالة قوم ظنوا أنهم يخوضون فى نعيم الدنيا بأبدانهم وقلوبهم منها مطهرة ، وعلائقها عن بواطنهم منقطعة ، وذلك مكيدة من الشيطان بل لو أخرجوا مما هم فيه لكانوا من أعظم المتفجعين بفراقها ، فكما أن المشى على الماء يقتضى بللا لامحالة يلتصق بالقدم فكذلك ملابسة الدنيا تقتضى علاقة وظلمة فى القلب ، بل علاقة الدنيا مع القلب تمنع حلاوة العبادة. قال عيسى عليه السلام : بحق أقول لكم ، كما ينظر المريض إلى الطعام فلا يلتذ به من شدة الوجع كذلك صاحب الدنيا لا يلتذ بالعبادة ولا يجد حلاوتها مع مايجد من حب الدنيا ، وبحق أقول لكم ، إن الدابة إذا لم تركب وتمتهن تصعب ويتغير خلقها كذلك القلوب إذا لم ترق بذكر الموت ونصب العبادة تقسو وتغلظ ، وبحق أقول لكم ، إن الزق مالم ينخرق أو يقحل يوشك أن يكون وعاء للعسل كذلك القلوب مالم تخرقها الشهوات أو يدنسها الطمع أو يقسيها النعيم فسوف تكون أوعية للحكمة . وقال النبى صلى الله عليه وسلم « إنما بقى من الدنيا بلاء وفتنة وإنما مثل عمل أحدكم كمثل الوعاء إذا طاب أعلاه طاب أسفله وإذا خبث أعلاه خبث أسفله [2] » .

مثال آخر لما بقى من الدنيا وقلته بالإضافة لما سبق : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مثل هذه الدنيا مثل ثوب شق من أوله إلى آخره فبقى متعلقا بخيط فى آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع [3] »

مثال آخر لتأدية علائق الدنيا بعضها إلى بعض حتى الهلاك : قال عيسى عليه السلام : مثل طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر كلما ازداد شربا ازداد عطشا حتى يقتله .

مثال آخر لمخالفة آخر الدنيا أولها ولنضارة أوائلها وخبث عواقبها ، اعلم أن شهوات الدنيا فى القلب لذيذة كشهوات الأطعمة فى المعدة ، وسيجد العبد عند الموت لشهوات الدنيا فى قلبه من الكراهة والنتن والقبح مايجده للأطعمة اللذيذة إذا بلغت فى المعدة غايتها ، وكما أن الطعام كلما كان ألذ طعما وأكثر دسما وأظهر حلاوة كان رجيعه أقذر وأشد نتنا ، فكذلك كل شهوة فى القلب هى أشهى وألذ وأقوى ، فنتنها وكراهتها والتأذى بها عند الموت أشد

---

(١) حديث « إنما مثل صاحب الدنيا كمثل الماشى فى الماء ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب من رواية الحسن قال : بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فذكره . ووصله البيهقى فى الشعب وفى الزهد من رواية الحسن عن أنس
(٢) حديث « إنما بقى من الدنيا بلاء وفتنة ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث معاوية فرقه فى موضعين ورجاله ثقات
(٣) حديث « مثل هذه الدنيا كمثل ثوب شق من أوله إلى آخره » أخرجه أبو الشيخ ابن حبان فى الثواب وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى شعب الإيمان من حديث أنس بسند ضعيف ؛

بل هى فى الدنيا مشاهدة ، فإن من نهبت داره وأخذ أهله وماله وولده ، فتكون مصيبته وألمه وتفجعه فى كل مافقد بقدر لذته به وحبه له وحرصه عليه ، فكل ما كان عند الوجود أشهى عنده وألذ فهو عند الفقد أدهى وأمر ، ولا معنى للموت إلا فقد ما فى الدنيا . وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للضحاك بن سفيان الكلابى «ألست تؤتى بطعامك وقد ملح وقزح ثم تشرب عليه اللبن والماء ؟ » قال : بلى ! قال « فإلام يصير » قال : إلى ماقد علمت يارسول الله ، قال : « فإن الله عز وجل ضرب مثل الدنيا بما يصير إليه طعام ابن آدم[1] » وقال أبى بن كعب : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الدنيا ضربت مثلا لابن آدم فانظر إلى ما يخرج من ابن آدم وإن قزحه وملحه إلام يصير[2] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله ضرب الدنيا لمطعم ابن آدم مثلا وضرب مطعم ابن آدم الدنيا مثلا وإن قزحه وملحه[3] » وقال الحسن : قد رأيتهم يطيبونه بالأفاويه والطيب ثم يرمون به حيث رأيتم وقد قال الله عز وجل ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه﴾ قال ابن عباس إلى رجيعه وقال رجل لابن عمر إنى أريد أن أسألك وأستحي قال فلا تستحي واسأل قال إذا قضى أحدنا حاجته فقام ينظر إلى ذلك منه قال نعم إن الملك يقول له انظر إلى مابخلت به أنظر إلى ماذا صار . وكان بشر بن كعب يقول انطلقوا حتى أريكم الدنيا فيذهب بهم إلى مزبلة فيقول انظروا إلى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم .

مثال آخر فى نسبة الدنيا إلى الآخرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما الدنيا فى الآخرة إلا كمثل مايجعل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر أحدكم بم يرجع إليه[4] » .

مثال آخر للدنيا وأهلها فى اشتغالهم بنعيم الدنيا وغفلتهم عن الآخرة وخسرانهم العظيم بسببها : اعلم أن أهل الدنيا مثلهم فى غفلتهم مثل قوم ركبوا سفينة فانتهت بهم إلى جزيرة فأمرهم الملاح بالخروج إلى قضاء الحاجة وحذرهم المقام وخوفهم مرور السفينة واستعجالها ، فتفرقوا فى نواحى الجزيرة فقضى بعضهم حاجته وبادر إلى السفينة فصادف المكان خاليا فأخذ أوسع الأماكن وألينها وأوفقها لمراده ، وبعضهم توقف فى الجزيرة ينظر إلى أنوارها وأزهارها العجيبة وغياضها الملتفة ونغمات طيورها الطيبة وألحانها الموزونة الغريبة وصار يلحظ من تربتها أحجارها وجواهرها ومعادنها المختلفة الألوان والأشكال الحسنة المنظر العجيبة النقوش السالبة أعين الناظرين بحسن زبرجدها وعجائب صورها ، ثم تنبه لخطر فوات السفينة فرجع إليها فلم يصادف إلا مكانا ضيقا حرجا فاستقر فيه : وبعضهم أكب على تلك الأصداف والأحجار وأعجبه حسنها ولم تسمح نفسه بإهمالها فاستصحب منها جملة ، فلم يجد فى السفينة إلا مكانا ضيقا وزاده ما حمله من الحجارة ضيقا وصار ثقيلا عليه ووبالا ، فندم على أخذه ولم يقدر على رميه ولم يجد مكانا لوضعه ، فحمله فى السفينة على عنقه وهو متأسف على أخذه وليس ينفعه التأسف . وبعضهم تولج الغياض ونسى المركب وبعد فى متفرجه ومتنزهه منه حتى لم يبلغه نداء الملاح لاشتغاله بأكل تلك الثمار واستشمام تلك الأنوار والتفرج بين تلك الأشجار ، وهو مع ذلك خائف على نفسه من السباع وغير خال من السقطات

---

(١) حديث : أنه قال للضحاك بن سفيان الكلابى ألست تؤتى بطعامك وقد ملح وقزح ... الحديث . وفيه « فإن الله ضرب مثل الدنيا لما يصير إليه طعام ابن آدم » أخرجه أحمد والطبرانى من حديثه بنحوه وفيه على بن زيد بن جدعان مختلف فيه (٢) حديث أبى بن كعب : إن الدنيا ضربت مثلا لابن آدم ... الحديث . أخرجه الطبرانى وابن حبان بلفظ : إن مطعم ابن آدم قد ضرب للدنيا مثلا ورواه عبد الله بن أحمد فى زياداته بلفظ « جعل » (٣) حديث « إن الله ضرب الدنيا لمطعم ابن آدم مثلا وضرب مطعم ابن آدم الدنيا مثلا ... الحديث » الشطر الأول منه غريب والشطر الأخير هو الذى تقدم من حديث الضحاك بن سفيان « إن الله ضرب مايخرج من بنى آدم مثلا للدنيا » (٤) حديث « ما الدنيا فى الآخرة إلا كمثل مايجعل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر بم يرجع إليه » أخرجه مسلم من حديث المستورد بن شداد .

والنكبات ، ولا منفك عن شوك ينشب بثيابه وغصن يجرح بدنه وشوكة تدخل فى رجله وصوت هائل يفزع منه وعوسج يخرق ثيابه ويهتك عورته ويمنعه عن الانصراف لو أراده ، فلما بلغه نداء أهل السفينة انصرف مثقلا بما معه ولم يجد فى المركب موضعا فبقى فى الشط حتى مات جوعا . وبعضهم لم يبلغه النداء وسارت السفينة فمنهم من افترسته السباع ، ومنهم من تاه فهام على وجهه حتى هلك ، ومنهم من مات فى الأوحال ،ومنهم من نهشته الحيات، فتفرقوا كالجيف المنتنة .

وأما من وصل إلى المركب بثقل ما أخذه من الأزهار والأحجار ، فقد استرقته وشغله الحزن بحفظها والخوف من فوتها وقد ضيقت عليه مكانه ، فلم يلبث أن ذبلت تلك الأزهار وكدت تلك الألوان والأحجار فظهر نتن رائحتها فصارت مع كونها مضيقة عليه مؤذية له بنتنها ووحشتها . فلم يجد حيلة إلا أن ألقاها فى البحر هربا منها ، وقد أثر فيه ما أكل منها فلم ينته إلى الوطن إلا بعد أن ظهرت عليه الأسقام بتلك الروائح فبلغ سقيما مدبرا . ومن رجع قريبا مافاته إلا سعة المحل فتأذى بضيق المكان مدة ، ولكن لما وصل إلى الوطن استراح ، ومن رجع أولا وجد المكان الأوسع ووصل إلى الوطن سالما . فهذا مثال أهل الدنيا فى اشتغالهم بحظوظهم العاجلة ونسيانهم موردهم ومصدرهم وغفلتهم عن عاقبة أمورهم . وما أقبح من يزعم أنه بصير عاقل أن تغره أحجار الأرض وهى الذهب والفضه وهشيم النبت وهى زينة الدنيا ، وشىء من ذلك لايصحبه عند الموت بل يصير كلا ووبالا عليه وهو فى الحال شاغل له بالحزن والخوف عليه . وهذه حال الخلق كلهم إلا من عصمه الله عزوجل .

مثال آخر لاغترار الخلق بالدنيا وضعف إيمانهم : قال الحسن رحمه الله بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه « إنما مثلى ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء ، حتى إذا لم يدروا ، ماسلكوا منها أكثر أو ما بقى ؟ أنفدوا الزاد وحسروا الظهر وبقوا بين ظهرانى المفازة ولا زاد ولا حمولة فأيقنوا بالهلكة ، فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم رجل فى حلة تقطر رأسه ، فقالوا : هذا قريب عهد بريف وماجاءكم هذا إلا من قريب ، فلما انتهى إليهم قال : ياهؤلاء . فقالوا : ياهذا ! فقال علام أنتم ؟ فقالوا : على ماترى ، فقال : أرأيتم إن هديتكم إلى ماء رواء ورياض خضر ماتعملون ؟ قالوا : لانعصيك شيئا ، قال : عهودكم ومواثيقكم بالله ، فأعطوه عهودهم ومواثيقهم بالله لا يعصونه شيئا قال : فأوردهم ماء رواء ورياضا خضرا فمكث فيهم ماشاء الله ثم قال : يا هؤلاء ! قالوا : ياهذا ! قال : الرحيل ! قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى ماء ليس كمائكم وإلى رياض ليست كرياضكم ، فقال أكثرهم : والله ماوجدنا هذا حتى ظننا أنا لن نجده ومانصنع بعيش خير من هذا ؟ وقالت طائفة ـ وهم أقلهم ـ ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم ومواثيقكم بالله أن لاتعصوه شيئا وقد صدقكم فى أول حديثه فوالله ليصدقنكم فى آخره ؟ فراح فيمن اتبعه وتخلف بقيتهم فبدرهم عدو فأصبحوا بين أسير وقتيل (١) » .

ومثال آخر لتنعم الناس بالدنيا ثم تفجعهم على فراقها : اعلم أن مثل الناس فيما أعطوا من الدنيا مثل رجل هيأ دارا وزينها وهو يدعو إلى داره على الترتيب قوما ، واحداً بعد واحد ، فدخل واحد داره فقدم إليه طبق ذهب عليه بخور ورياحين ليشمه ويتركه لمن يلحقه ، لا ليتملكه ويأخذه ، فجهل رسمه وظن أنه قد وهب ذلك فتعلق به قلبه لما ظن أنه له ، فلما استرجع منه ضجر وتفجع ، ومن كان عالما برسمه انتفع به وشكره ورده بطيب قلب

(١) حديث الحسن : "بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه « إنما مثلى ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا هكذا بطوله لأحمد والبزار والطبرانى من حديث ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه فيما يرى النائم ملكان الحديث وفيه « فقال أى أحد الملكين ان مثل هذا ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى مفازة » فذكر نحوه أخصر منه وإسناده حسن .

وانشراح صدر ، وكذلك من عرف سنة الله فى الدنيا علم أنها دار ضيافة سبلت على المجتازين لا على المقيمين ليتزودوا منها وينتفعوا بما فيها كما ينتفع المسافرون بالعوارى ، ولا يصرفون إليها كل قلوبهم حتى تعظم مصيبتهم عند فراقها . فهذه أمثلة الدنيا وآفاتها وغوائلها نسأل الله تعالى اللطيف الخبير حسن العون بكرمه وحلمه .

بيان حقيقة الدنيا وماهيتها فى حق العبد

اعلم أن معرفة ذم الدنيا لا تكفيك مالم تعرف الدنيا المذمومة ماهى ؟ وماالذى ينبغى أن يجتنب منها وماالذى لا يجتنب ؟ فلا بد وأن نبين الدنيا المذمومة المأمور باجتنابها لكونها عدوة قاطعة لطريق الله ماهى ؟ فنقول : دنياك وآخرتك عبارة عن حالتين من أحوال قلبك ، فالقريب الدانى منها يسمى دنيا وهو كل ما قبل الموت ، والمتراخى المتأخر يسمى آخرة وهومابعد الموت ، فكل مالكفيه حظ ونصيب وغرض وشهوة ولذة عاجل الحال قبل الوفاة فهى الدنيا فى حقك إلا أن جميع مالك إليه ميل وفيه نصيب وحظ فليس بمذموم بل هو ثلاثة أقسام . القسم الأول : مايصحبك فى الآخرة وتبقى معك ثمرته بعد الموت وهو شيئان : العلم والعمل فقط ؛ وأعنى بالعلم : العلم بالله وصفاته وأفعاله وملائكته وكتبه ورسله وملكوت أرضه وسمائه والعلم بشريعة نبيه وأعنى بالعمل . العبادة الخالصة لوجه الله تعالى ، وقد يأنس العالم بالعلم حتى يصير ذلك ألذ الأشياء عنده فيهجر النوم والمطعم والمنكح فى لذته لأنه أشهى عنده من جميع ذلك فقد صار حظاً عاجلا فى الدنيا . ولكنا إذا ذكرنا الدنيا المذمومة لم نعد هذا من الدنيا أصلا بل قلنا إنه من الآخرة ، وكذلك العابد قد يأنس بعبادته فيستلذها بحيث لو منع عنها لكان ذلك أعظم العقوبات عليه ، حتى قال بعضهم : ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بينى وبين قيام الليل ، وكان آخر يقول : اللهم ارزقنى قوة الصلاة والركوع والسجود فى القبر . فهذا قد صارت الصلاة عنده من حظوظه العاجلة وكل حظ عاجل فاسم الدنيا ينطلق عليه من حيث الاشتقاق من الدنو ، ولكنا لسنا نعنى بالدنيا المذمومة ذلك ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « حبب إلى من دنياكم ثلاث : النساء والطيب وقرة عينى فى الصلاة[1] » ، فجعل الصلاة من جملة ملاذ الدنيا . وكذلك كل مايدخل فى الحس والمشاهدة فهو من عالم الشهادة وهو من الدنيا ، والتلذذ بتحريك الجوارح بالركوع والسجود إنما يكون فى الدنيا فلذلك أضافها إلى الدنيا إلا أنا لسنا فى هذا الكتاب نتعرض إلا للدنيا المذمومة ، فنقول هذه ليست من الدنيا .

القسم الثانى : وهو المقابل له على الطرف الأقصى كل ما فيه حظ عاجل ولا ثمرة له فى الآخرة أصلا ، كالتلذذ بالمعاصى كلها والتنعم بالمباحات الزائدة على قدر الحاجات ، والضرورات الداخلة فى جملة الرفاهية والرعونات ، كالتنعم بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث والغلمان والجوارى والخيول والمواشى والقصور والدور ورفيع الثياب ولذائذ الأطعمة ، فحظ العبد من هذا كله هى الدنيا المذمومة وفيما يعد فضولا أوفى محل الحاجة نظر طويل ، إذ روى عن عمر رضى الله عنه أنه استعمل أبا الدرداء على حمص فاتخذ كنيفا أنفق عليه درهمين ، فكتب إليه عمر : من عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عويمر ، قد كان لك فى بناء فارس والروم ماتكتفى به عن عمران الدنيا حين أراد الله خرابها ، فإذا أتاك كتابى هذا فقد سيرتك إلى دمشق أنت وأهلك . فلم يزل بها حتى مات . فهذا رآه فضولا من الدنيا فتأمل فيه .

---

(١) حديث « حبب إلى من دنياكم ثلاث : الطيب والنساء وقرة عينى فى الصلاة » أخرجه النسائى والحاكم من حديث أنس دون قوله « ثلاث » وتقدم فى النكاح .

القسم الثالث : وهو متوسط بين الطرفين كل حظ فى العاجل معين على أعمال الآخرة كقدر القوت من الطعام والقميص الواحد الخشن ، وكل ما لا بد منه ليتأتى للإنسان البقاء والصحة التى بها يتوصل إلى العلم والعمل . وهذا ليس من الدنيا كالقسم الأول ، لأنه معين على القسم الأول ووسيلة إليه . فمهما تناوله العبد على قصد الاستعانة به على العلم والعمل لم يكن به متناولا للدنيا ولم يصر به من أبناء الدنيا ؛ وإن كان باعثه الحظ العاجل دون الاستعانة على التقوى التحق بالقسم الثانى وصار من جملة الدنيا . ولا يبقى مع العبد عند الموت إلا ثلاث صفات : صفاء القلب ؛ أعنى طهارته عن الأدناس ، وأنسه بذكر الله تعالى ، وحبه لله عز وجل . وصفاء القلب وطهارته لا يحصلان إلا بالكف عن شهوات الدنيا والأنس لا يحصل إلا بكثرة ذكر الله تعالى والمواظبة عليه والحب لا يحصل إلا بالمعرفة . ولا تحصل معرفة الله إلا بدوام الفكر وهذه الصفات الثلاث هى المنجيات المسعدات بعد الموت .

أما طهارة القلب عن شهوات الدنيا فهى من المنجيات إذ تكون جنة بين العبد وبين عذاب الله كما ورد فى الأخبار « إن أعمال العبد تناضل عنه فإذا جاء العذاب من قبل رجليه جاء قيام الليل يدفع عنه وإذا جاء من جهة يديه جاءت الصدقة تدفع عنه [1] » الحديث .

وأما الأنس والحب فهما من المسعدات وهما موصلان العبد إلى لذة اللقاء والمشاهدة ، وهذه السعادة تتعجل عقيب الموت إلى أن يدخل أوان الرؤية فى الجنة ، فيصير القبر روضة من رياض الجنة ، وكيف لا يكون القبر عليه روضة من رياض الجنة ولم يكن له إلا محبوب واحد ؟ وكانت العوائق تعوقه عن دوام الأنس بدوام ذكره ومطالعة جماله ، فارتفعت العوائق وأفلت من السجن وخلى بينه وبين محبوبه فقدم عليه مسرورا سليما من الموانع آمنا من العوائق ؟ وكيف لا يكون محب الدنيا عند الموت معذبا ولم يكن له محبوب إلا الدنيا وقد غصب منه وحيل بينه وبينه وسدت عليه طرق الحيلة فى الرجوع إليه ؟ ولذلك قيل :

ماحال من كان له واحد غيب عنه ذلك الواحد

وليس الموت عدما إنما هو فراق لمحاب الدنيا وقدوم على الله تعالى . فإذا سالك طريق الآخرة هو المواظب على أسباب هذه الصفات الثلاث وهى الذكر والفكر والعمل الذى يفطمه عن شهوات الدنيا ويبغض إليه ملاذها ويقطعه عنها ، وكل ذلك لا يمكن إلا بصحة البدن ، وصحة البدن لاتنال إلا بقوت وملبس ومسكن ، ويحتاج كل واحد إلى أسباب . فالقدر الذى لابد منه من هذه الثلاثة إذا أخذه العبد من الدنيا للآخرة لم يكن من أبناء الدنيا وكانت الدنيا فى حقه مزرعة للآخرة ، وإن أخذ ذلك لحظ النفس وعلى قصد التنعم صار من أبناء الدنيا والراغبين فى حظوظها ، إلا أن الرغبة فى حظوظ الدنيا تنقسم إلى مايعرض صاحبه لعذاب الآخرة ويسمى ذلك حراما ، وإلى مايحول بينه وبين الدرجات العلا ويعرضه لطول الحساب ويسمى ذلك حلالا . والبصير يعلم أن طول الموقف فى عرصات القيامة لأجل المحاسبة أيضا عذاب فمن نوقش الحساب عذب [2] إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حلالها حساب وحرامها عذاب [3] » وقد قال أيضا « حلالها عذاب » إلا إنه عذاب أخف من عذاب الحرام ،

---

(١) حديث : مناضلة أعمال العبد عنه فإذا جاء العذاب من قبل رجليه جاء قيام الليل فدفع عنه ... الحديث » أخرجه الطبرانى من حديث عبد الرحمن بن سمرة بطوله وفيه خالد بن عبد الرحمن المخزومى ضعفه البخارى وأبو حاتم ولأحمد من حديث أسماء بنت أبى بكر « إذا دخل الإنسان قبره فإن كان مؤمنا أحزبه عمله الصلاة والصيام ... الحديث » وإسناده صحيح (٢) حديث « من نوقش الحساب عذب » متفق عليه من حديث عائشة (٣) حديث « حلالها حساب وحرامها عذاب » أخرجه ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب من طريقه موقوفا على على بن أبى طالب بإسناد منقطع بلفظ « وحرامها النار » ولم أجده مرفوعا .

بل لو لم يكن الحساب لكان مايفوت من الدرجات العلا فى الجنة ومايرد على القلب من التحسر على تفوتها لحظوظ حقيرة خسيسة لابقاء لها هو أيضاً عذاب ، وقس به حالك فى الدنيا إذا نظرت إلى أقرانك وقد سبقوك بسعادات دنيوية كيف يتقطع قلبك عليها حسرات مع علمك بأنها سعادات منصرمة لابقاء لها ؟ منغصة بكدورات لاصفاء لها فما حالك فى فوات سعادة لايحيط الوصف بعظمتها وتنقطع الدهور دون غايتها ؟ فكل من تنعم فى الدنيا ولو بسماع صوت من طائر أو بالنظر إلى خضرة أو شربة ماء بارد فإنه ينقص من حظه فى الآخرة أضعافه ، وهو المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم لعمر رضى الله عنه « هذا من النعيم الذى تسئل عنه [1] » أشار به إلى الماء البارد . والتعرض لجواب ، السوال فيه ذل وخوف وخطر ومشقة وانتظار ، وكل ذلك من نقصان الحظ ، ولذلك قال عمر رضى الله عنه : اعزلوا عنى حسابها، حين كان به عطش فعرض عليه ماء بارد بعسل فأداره فى كفه ثم امتنع عن شربه فالدنيا قليلها وكثيرها حرامها وحلالها ملعونة إلا ماأعان على تقوى الله ، فإن ذلك القدر ليس من الدنيا وكل من كانت معرفته أقوى وأتقن كان حذره من نعيم الدنيا أشد ، حتى إن عيسى عليه السلام وضع رأسه على حجر لما نام ثم رماه ، إذ تمثل له إبليس وقال : رغبت فى الدنيا ! وحتى إن سليمان عليه السلام فى ملكه كان يطعم الناس لذائذ الأطعمة وهو يأكل خبز الشعير ، فجعل الملك على نفسه بهذا الطريق امتهانا وشدة ، فإن الصبر عن لذائذ الأطعمة مع القدرة عليها ووجودها أشد ولهذا روى أن الله تعالى زوى الدنيا عن نبينا صلى الله عليه وسلم فكان يطوى أياما [2] وكان يشد الحجر على بطنه من الجوع [3] ، ولهذا سلط الله البلاء والمحن على الأنبياء والأولياء ثم الأمثل فالأمثل ، كل ذلك نظراً لهم وامتنانا عليهم ليتوفر من الآخرة حظهم كما يمنع الوالد الشفيق ولده لذة الفواكه ، ويلزم ألم الفصد والحجامة شفقة عليه وحباله لابخلا عليه . وقد عرفت بهذا أن كل ماليس لله فهو من الدنيا وما هو لله فذلك ليس من الدنيا .

فإن قلت : فما الذى هو لله ؟ فأقول : الأشياء ثلاثة أقسام : منها مالا يتصور أن يكون لله وهو الذى يعبر عنه بالمعاصى والمحظورات وأنواع التنعمات فى المباحات ، وهى الدنيا المحضة المذمومة ، فهى الدنيا صورة ومعنى ومنها ماصورته لله ويمكن أن يجعل لغير الله وهو ثلاثة : الفكر والذكر والكف عن الشهوات فإن هذه الثلاثة إذا جرت سرا ولم يكن عليها باعث سوى أمر الله واليوم الآخر فهى لله وليست من الدنيا ، وإن كان الغرض من الفكر طلب العلم للتشرف به وطلب القبول بين الخلق بإظهار المعرفة أو كان الغرض من ترك الشهوة حفظ المال أو الحمية لصحة البدن والاشتهار بالزهد ، فقد صار هذا من الدنيا بالمعنى وإن كان يظن بصورته أنه لله تعالى . ومنها ماصورته لحظ النفس ويمكن أن يكون معناه لله ، وذلك كالأكل والنكاح وكل مايرتبط به بقاؤه وبقاء ولده ، فإن كان القصد حظ النفس فهو من الدنيا وإن كان القصد الاستعانة به على التقوى فهو لله بمعناه وإن كانت صورته صورة الدنيا . قال صلى الله عليه وسلم « من طلب الدنيا حلالا مكاثرا مفاخرا لقى الله وهو عليه غضبان ومن طلبها استعفافا عن المسألة وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر [4] » فانظر كيف اختلف ذلك بالقصد ، فإذاً الدنيا حظ نفسك العاجل الذى لاحاجة إليه لأمر الآخرة ويعبر عنه بالهوى ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ ونهى النفس عن

---

(١) حديث هذا من النعيم الذى تسئل عنه تقدم فى الأطعمة (٢) حديث : زوى الله الدنيا عن نبينا صلى الله عليه وسلم فكان يطوى أياما أخرجه محمد بن خفيف فى شرف الفقراء من حديث عمر بن الخطاب قال : قلت يارسول الله عجبا لمن بسط الله لهم الدنيا وزواها عنك ... الحديث . وهو من طريق إسحاق معنعنا وللترمذى وابن ماجه من حديث ابن عباس : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يبيت الليالى المتتابعة طاويا وأهله ... الحديث . قال الترمذى حسن صحيح (٣) حديث : كان يشد الحجر على بطنه من الجوع . تقدم . (٤) حديث « من طلب الدنيا حلالا مكاثرا مفاخرا لقى الله وهو عليه غضبان ... الحديث » أخرجه أبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة بسند ضعيف

الهوى فإن الجنة هى المأوى ﴾ ومجامع الهوى خمسة أمور : وهى ماجمعه الله تعالى فى قوله ﴿ إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد ﴾ والأعيان التى تحصل منها هذه الخمسة سبعة : يجمعها قوله تعالى ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا ﴾ فقد عرفت أن كل ماهو لله فليس من الدنيا ، وقدر ضرورة القوت ومالابد منه من مسكن وملبس هو لله إن قصد به وجه الله ، والاستكثار منه تنعم وهو لغير الله . وبين التنعم والضرورة درجة يعبر عنها بالحاجة . ولها طرفان وواسطة : طرف يقرب من حد الضرورة فلا يضر فإن الاقتصار على حد الضرورة غير ممكن ، وطرف يزاحم جانب التنعم ويقرب منه وينبغى أن يحذر منه ، وبينهما وسائط متشابهة ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه .

والحزم فى الحذر والتقوى والتقرب من حد الضرورة ماأمكن اقتداء بالأنبياء والأولياء عليهم السلام ؛ إذ كانوا يردون أنفسهم إلى حد الضرورة حتى إن أويسا القرنى كان يظن أهله أنه مجنون لشدة تضييقه على نفسه ، فبنوا له بيتا على باب دارهم فكان يأتى عليهم السنة والسنتان والثلاث لايرون له وجها ، وكان يخرج أول الأذان ويأتى إلى منزله بعد العشاء الآخرة ، وكان طعامه أن يلتقط النوى ، وكلما أصاب حشفة خبأها لإفطاره وإن لم يصب ما يقوته من الحشف باع النوى واشترى بثمنه مايقوته ، وكان لباسه مما يلتقط من المزابل من قطع الأكسية فيغسلها فى الفرات ويلفق بعضها إلى بعض ثم يلبسها ، فكان ذلك لباسه وكان ربما مر الصبيان فيرمونه ويظنون أنه مجنون ، فيقول لهم ياإخوتاه إن كنتم ولا بد أن ترمونى فارمونى بأحجار صغار فإنى أخاف أن تدموا عقبى ، فيحضر وقت الصلاة ولا أصيب الماء ، فهكذا كانت سيرته . ولقد عظم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره فقال « إنى لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن إشارة إليه رحمه الله (١) » ولما ولى الخلافة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال : أيها الناس من كان منكم من العراق فليقم ، قال : فقاموا . فقال : اجلسوا إلا من كان من أهل الكوفة ، فجلسوا ، فقال: اجلسوا إلا من كان من مراد ، فجلسوا فقال : اجلسوا إلا من كان من قرن ، فجلسوا كلهم إلا رجلا واحدا فقال له عمر: أقرنى أنت ؟ فقال : نعم فقال : أتعرف أويس بن عامر القرنى ؟ فوصفه له ، فقال : نعم وما ذاك تسأل عنه ياأمير المؤمنين ! والله مافينا أحمق منه ولا أجن منه ولا أوحش منه ولا أدنى منه ، فبكى عمر رضى الله تعالى عنه ثم قال : ماقلت ماقلت إلا لأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « يدخل فى شفاعته مثل ربيعة ومضر (٢) » فقال هرم بن حيان : لما سمعت هذا القول من عمر بن الخطاب قدمت الكوفة فلم يكن لى هم إلا أن أطلب أويسا القرنى وأسأل عنه ، حتى سقطت عليه جالسا على شاطئ الفرات نصف النهار يتوضأ ويغسل ثوبه ، قال : فعرفته بالنعت الذى نعت لى ، فإذا رجل لحيم شديد الأدمة محلوق الرأس كث اللحية متغير جدا كريه الوجه متهيب المنظر قال : فسلمت عليه فرد على السلام ونظر إلى ، فقلت : حياك الله من رجل ومددت يدى لأصافحه فأبى أن يصافحنى ، فقلت : رحمك الله يا أويس وغفر لك كيف أنت رحمك الله ؟ ثم خنقتنى العبرة من حبى إياه ورقتى عليه إذ رأيت من حاله ما رأيت حتى بكيت وبكى ، فقال : وأنت فحياك الله ياهرم بن حيان كيف أنت ياأخى ومن دلك على ؟ قال : قلت الله فقال :

---

(١) حديث « إنى لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن » أشار به إلى أويس القرنى تقدم فى قواعد العقائد لم أجد له أصلا .
(٢) حديث عمر « يدخل الجنة فى شفاعته مثل ربيعة ومضر » يريد أويسا ورويناه فى جزء ابن السماك من حديث أبى أمامة « يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتى أكثر من ربيعة ومضر » وإسناده حسن ، وليس فيه ذكر لأويس بل فى آخره : فكان المشيخة يرون أن ذلك الرجل عثمان بن عفان .

لاإله إلا الله سبحان الله ﴿ إن كان وعد ربنا لمفعولا ﴾ قال : فعجبت حين عرفنى ولا والله مارأيته قبل ذلك ولا رآنى ! فقلت : من أين عرفت اسمى واسم أبى وما رأيتك قبل اليوم ؟ ﴿ قال نبأنى العليم الخبير ﴾ وعرفت روحى روحك حين كلمت نفسى نفسك ، إن الأرواح لها أنفس كأنفس الأجساد وإن المؤمنين ليعرف بعضهم بعضا ويتحابون بروح الله وإن لم يلتقوا ، يتعارفون ويتكلمون وإن نأت بهم الدار وتفرقت بهم المنازل ، قال : قلت حدثنى رحمك الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بحديث أسمعه منك قال إنى لم أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تكن لى معه صحبة بأبى وأمى رسول الله ، ولكن رأيت رجالا قد صحبوه ويلغنى من حديثه كما بلغك ولست أحب أن أفتح على نفسى هذا الباب أن أكون محدثا أو مفتيا أو قاضيا فى نفسى شغل عن الناس ياهرم بن حيان ! فقلت : يا أخى اقرأ على آية من القرآن أسمعها منك وادع لى بدعوات وأوصنى بوصية أحفظها عنك فإنى أحبك فى الله حبا شديدا ، قال : فقام وأخذ بيدى على شاطىء الفرات ثم قال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، ثم بكى . ثم قال : قال ربى والحق قول ربى وأصدق الحديث حديثه وأصدق الكلام كلامه ، ثم قرأ ﴿ وما خلقنا السموات والأرض ومابينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لايعلمون ﴾ حتى انتهى إلى قوله ﴿ إنه هو العزيز الرحيم ﴾ فشهق شهقة ظننت أنه قد غشى عليه ثم قال : يا ابن حيان مات أبوك حيان ويوشك أن تموت فإما إلى جنة وإما إلى نار ، ومات أبوك آدم وماتت أمك حواء ومات نوح ومات إبراهيم خليل الرحمن ومات موسى نجى الرحمن ومات داود خليفة الرحمن ومات محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم وهو رسول رب العالمين ، ومات أبو بكر خليفة المسلمين ومات عمر بن الخطاب أخى وصفيى ، ثم قال : ياعمراه ياعمراه ، قال : فقلت رحمك الله إن عمر لم يمت ، قال : فقد نعاه إلى ربى ونعى إلى نفسى ! ثم قال : أنا وأنت فى الموتى كأنه قد كان ، ثم صلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم دعا بدعوات خفيات ، ثم قال . هذه وصيتى إياك ياهرم بن حيان كتاب الله ونهج الصالحين المؤمنين فقد نعيت إلى نفسى ونفسك ، عليك بذكر الموت لا يفارق قلبك طرفة عين ما بقيت ، وأنذر قومك إذا رجعت إليهم وانصح للأمة جميعا ، وإياك أن تفارق الجماعة قيد شبر فتفارق دينك وأنت لاتعلم فتدخل النار يوم القيامة ، ادع لى ولنفسك ، ثم قال : اللهم إن هذا يزعم أنه يحبنى فيك وزارنى من أجلك فعرفنى وجهه فى الجنة وأدخله على فى دارك دار السلام واحفظه مادام فى الدنيا حيثما كان وضم عليه ضيعته وأرضه من الدنيا باليسير وما أعطيته من الدنيا فيسره له تيسيرا واجعله لما أعطيته من نعمائك من الشاكرين وأجزه عنى خير الجزاء ثم قال : أستودعك الله ياهرم بن حيان والسلام عليك ورحمة الله وبركاته لاأراك بعد اليوم رحمك الله تطلبنى فإنى أكره الشهرة والوحدة أحب إلى إنى كثير الهم شديد الغم مع هؤلاء الناس مادمت حيا فلاتسأل عنى ولاتطلبنى ، واعلم أنك منى على بال وإن لم أرك ولم ترنى فاذكرنى وادع لى فإنى سأذكرك وأدعولك إن شاء الله ، انطلق أنت ههنا حتى أنطلق أنا ههنا . فحرصت أن أمشى معه ساعة فأبى على وفارقته فبكى وأبكانى وجعلت أنظر فى قفاه حتى دخل بعض السكك ، ثم سألت عنه بعد ذلك فما وجدت أحداً يخبرنى عنه بشىء رحمه الله وغفر له .

فهكذا كانت سيرة أبناء الآخرة المعرضين عن الدنيا .

وقد عرفت مما سبق فى بيان الدنيا ومن سيرة الأنبياء والأولياء أن حد الدنيا كل ما أظلته الخضراء وأقلته الغبراء إلا ما كان لله عز وجل من ذلك وضد الدنيا الآخرة وهو كل ما أريد به الله تعالى مما يؤخذ بقدر الضرورة من الدنيا لأجل قوة طاعة الله وذلك ليس من الدنيا . ويتبين هذا بمثال وهو أن الحاج إذ حلف أنه فى طريق الحج

لايشتغل بغير الحج بل يتجرد له ، ثم اشتغل بحفظ الزاد وعلف الجمل وخرز الراوية وكل مالا بد للحج منه لم يحنث فى يمينه ولم يكن مشغولا بغير الحج فكذلك البدن مركب النفس تقطع به مسافة العمر ، فتعهد البدن بما تبقى به قوته على سلوك الطريق بالعلم والعمل هو من الآخرة لا من الدنيا . نعم إذا قصد تلذذ البدن وتنعمه بشيء من هذه الأسباب كان منحرفا عن الآخرة ويخشى على قلبه القسوة قال الطنافسى : كنت على باب بنى شيبة فى المسجد الحرام سبعة أيام طاويا فسمعت فى الليلة الثامنة مناديا وأنا بين اليقظة والنوم ألا من أخذ من الدنيا أكثر مما يحتاج إليه أعمى الله عين قلبه . فهذا بيان حقيقة الدنيا فى حقك . فاعلم ذلك ترشد إن شاء الله تعالى .

بيان حقيقة الدنيا فى نفسها وأشغالها التى استغرقت همم الخلق حتى أنستهم أنفسهم وخالقهم ومصدرهم ومورده

اعلم أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة وللإنسان فيها حظ وله فى إصلاحها شغل . فهذه ثلاثة أمور قد يظن أن الدنيا عبارة عن آحادها وليس كذلك ، أما الأعيان الموجودة التى الدنيا عبارة عنها فهى الأرض وما عليها قال الله تعالى ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ﴾ فالأرض فراش للآدميين ومهاد ومسكن ومستقر ، وما عليها لهم ملبس ومطعم ومشرب ومنكح .

ويجمع ما على الأرض ثلاثة أقسام : المعادن والنبات والحيوان . أما النبات : فيطلبه الآدمى للاقتيات والتداوى وأما المعادن : فيطلبها للآلات والأوانى ، كالنحاس والرصاص ، وللنقد ، كالذهب والفضة ، ولغير ذلك من المقاصد وأما الحيوان فينقسم إلى الإنسان والبهائم . أما البهائم : فيطلب منها لحومها للمآكل وظهورها للمركب والزينة . وأما الإنسان : فقد يطلب الآدمى : أن يملك أبدان الناس ليستخدمهم ويستسخرهم كالغلمان ؛ أو ليتمتع بهم كالجوارى والنسوان ؛ ويطلب قلوب الناس ليملكها بأن يغرس فيها التعظيم والإكرام وهو الذى يعبر عنه بالجاه ؛ إذ معنى الجاه ملك قلوب الآدميين . فهذه هى الأعيان التى يعبر عنها بالدنيا وقد جمعها الله تعالى فى قوله ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين ﴾ وهذا من الإنس ﴿ والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ﴾ وهذا من الجواهر والمعادن ؛ وفيه تنبيه على غيرها من اللآلئ واليواقيت وغيرها ﴿ والخيل المسومة والأنعام ﴾ وهى البهائم والحيوانات ﴿ والحرث ﴾ وهو النبات والزرع .

فهذه هى أعيان الدنيا ، إلا أن لها مع العبد علاقتين : علاقة مع القلب وهو حبه لها وحظه منها وانصراف همه إليها ، حتى يصير قلبه كالعبد أو المحب المستهتر بالدنيا . ويدخل فى هذه العلاقة جميع صفات القلب المعلقة بالدنيا كالكبر والغل والحسد والرياء والسمعة وسوء الظن والمداهنة وحب الثناء وحب التكاثر والتفاخر ، وهذه هى الدنيا الباطنة . وأما الظاهرة فهى الأعيان التى ذكرناها .

العلاقة الثانية مع البدن ؛ وهو اشتغاله بإصلاح هذه الأعيان لتصلح لحظوظه وحظوظ غيره ، وهى جملة الصناعات والحرف التى الخلق مشغولون بها ، والخلق إنما نسوا أنفسهم ومآبهم ومنقلبهم بالدنيا لهاتين العلاقتين : علاقة القلب بالحب ، وعلاقة البدن بالشغل . ولو عرف نفسه وعرف ربه وعرف حكمة الدنيا وسرها علم أن هذه الأعيان التى سميناها دنيا لم تخلق إلا لعلف الدابة التى يسير بها إلى الله تعالى ، وأعنى بالدابة البدن ، فإنه لا يبقى إلا بمطعم ومشرب وملبس ومسكن كما لا يبقى الجمل فى طريق الحج إلا بعلف وماء وجلال .

ومثال العبد فى الدنيافى نسيانه نفسه ومقصده : مثال الحاج الذى يقف فى منازل الطريق ولا يزال يعلف الناقة ويتعهدها وينظفها ويكسوها ألوان الثياب ، ويحمل إليها أنواع الحشيش ويبرد لها الماء بالثلج ، حتى تفوته القافلة وهو غافل عن الحج وعن مرور القافلة وعن بقائه فى البادية فريسة للسباع هو وناقته . والحاج البصير لا يهمه من أمر الجمل إلا القدر الذى يقوى به على المشى ، فيتعهده وقلبه إلى الكعبة والحج . وإنما يلتفت إلى الناقة بقدر الضرورة . فكذلك البصير فى السفر إلى الآخرة لا يشغل بتعهد البدن إلا بالضرورة كما لا يدخل بيت الماء إلا لضرورة ، ولا فرق بين إدخال الطعام فى البطن وبين إخراجه من البطن فى أن كل واحد منهما ضرورة البدن، ومن همته ما يدخل بطنه فقيمته ما يخرج منها . وأكثر ما شغل عن الله تعالى هو البطن ، فإن القوت ضرورى وأمر المسكن والملبس أهون ، ولو عرفوا سبب الحاجة إلى هذه الأمور واقتصروا عليه لم تستغرقهم أشغال الدنيا وإنما استغرقتهم لجهلهم بالدنيا وحكمتها وحظوظهم منها ولكنهم جهلوا وغفلوا وتتابعت أشغال الدنيا عليهم واتصل بعضها ببعض وتداعت إلى غير نهاية محدودة ، فتاهوا فى كثرة الأشغال ونسوا مقاصدها .

ونحن نذكر تفاصيل أشغال الدنيا ، وكيفية حدوث الحاجة إليها ، وكيفية غلط الناس فى مقاصدها حتى تتضح لك أشغال الدنيا ، كيف صرفت الخلق عن الله تعالى وكيف أنستهم عاقبة أمورهم ؟ فنقول : الأشغال الدنيوية هى الحرف والصناعات والأعمال التى ترى الخلق منكبين عليها . وسبب كثرة الأشغال هو أن الإنسان مضطر إلى ثلاث : القوت ، والمسكن ، والملبس . فالقوت : للغذاء والبقاء . والملبس : لدفع الحر والبرد . والمسكن : لدفع الحر والبرد ، ولدفع أسباب الهلاك عن الأهل والمال . ولم يخلق الله القوت والمسكن والملبس مصلحا بحيث يستغنى عن صنعة الإنسان فيه .

نعم خلق ذلك للبهائم ، فإن النبات يغذى الحيوان من غير طبخ . والحر والبرد لا يؤثر فى بدنه فيستغنى عن البناء ويقنع بالصحراء ، ولباسها شعورها وجلودها ، فتستغنى عن اللباس .

والإنسان ليس كذلك فحدثت الحاجة لذلك إلى خمس صناعات هى أصول الصناعات ، وأوائل الأشغال الدنيوية، وهى الفلاحة ، والرعاية ، والاقتناص ، والحياكة ، والبناء . أما البناء فللمسكن . والحياكة وما يكتنفها من أمر الغزل والخياطة فللملبس . والفلاحة للمطعم . والرعاية للمواشى والخيل أيضا للمطعم والمركب . والاقتناص نعنى به تحصيل ما خلقه الله من صيد أو معدن أو حشيش أو حطب ، فالفلاح يحصل النباتات والراعى يحفظ الحيوانات ويستنتجها . والمقتنص يحصل ما نبت ونتج بنفسه من غير صنع آدمى ، وكذلك يأخذ من معادن الأرض ما خلق فيها من غير صنعة آدمى ، ونعنى بالاقتناص ذلك ويدخل تحته صناعات وأشغال عدة . ثم هذه الصناعات تفتقر إلى أدوات وآلات كالحياكة والفلاحة والبناء والاقتناص ، والآلات إنما تؤخذ إما من النبات وهو الأخشاب ، أو من المعادن كالحديد والرصاص وغيرهما ، أو من جلود الحيوانات . فحدثت الحاجة إلى ثلاث أنواع أخر من الصناعات : النجارة ، والحدادة ، والخرز . وهؤلاء هم عمال الآلات ، ونعنى بالنجارة ؛ كل عامل فى الخشب كيفما كان . وبالحداد ؛ كل عامل فى الحديد وجواهر المعادن حتى النحاس والإبرى وغيرهما . وغرضنا ذكر الأجناس فأما آحاد الحرف فكثيرة . وأما الخراز ؛ فنعنى به كل عامل فى جلود الحيوانات وأجزائها . فهذه أمهات الصناعات .

ثم إن الإنسان خلق بحيث لا يعيش وحده بل يضطر إلى الاجتماع مع غيره من أبناء جنسه وذلك لسببين ؛ أحدهما : حاجته إلى النسل لبقاء جنس الإنسان ، ولا يكون ذلك إلا باجتماع الذكر والأنثى وعشرتهما . والثانى :

التعاون على تهيئة أسباب المطعم والملبس ولتربية الولد ، فإن الاجتماع يفضى إلى الولد لامحالة ، والواحد لايشتغل بحفظ الولد وتهيئة أسباب القوت . ثم ليس يكفيه الاجتماع مع الأهل والولد فى المنزل بل لا يمكنه أن يعيش كذلك مالم تجتمع طائفة كثيرة ليتكفل كل واحد بصناعة . فإن الشخص الواحد كيف يتولى الفلاحة وحده وهو يحتاج إلى آلاتها ، وتحتاج الآلة إلى حداد ونجار ، ويحتاج الطعام إلى طحان وخباز ؟ وكذلك كيف ينفرد بتحصيل الملبس وهو يفتقر إلى حراسة القطن وآلات الحياكة والخياطة وآلات كثيرة ؟ فلذلك امتنع عيش الإنسان وحده وحدثت الحاجة إلى الاجتماع . ثم لو اجتمعوا فى صحراء مكشوفة لتأذوا بالحر والبرد والمطر واللصوص فافتقروا إلى أبنية محكمة ومنازل ينفرد كل أهل بيت به وبما معه من الآلات والأثاث والمنازل تدفع الحر والبرد والمطر وتدفع أذى الجيران من اللصوصية وغيرها ، لكن المنازل قد تقصدها جماعة من اللصوص خارج المنازل ، فافتقر أهل المنازل إلى التناصر والتعاون والتحصن بسور يحيط بجميع المنازل ، فحدثت البلاد لهذه الضرورة .

ثم مهما اجتمع الناس فى المنازل والبلاد وتعاملوا تولدت بينهم خصومات ، إذ تحدث رياسة وولاية الزوج على الزوجة ، وولاية للأبوين على الولد لأنه ضعيف يحتاج إلى قوام به . ومهما حصلت الولاية على عاقل أفضى إلى الخصومة بخلاف الولاية على البهائم ، إذ ليس لها قوة المخاصمة وإن ظلمت . فأما المرأة فتخاصم الزوج ، والولد يخاصم الأبوين . هذا فى المنزل .

وأما أهل البلد أيضا فيتعاملون فى الحاجات ويتنازعون فيها ، ولو تركوا كذلك لتقاتلوا وهلكوا ، وكذلك الرعاة وأرباب الفلاحة يتواردون على المراعى والأراضى والمياه وهى لاتفى بأغراضهم فيتنازعون لامحالة . ثم قد يعجز بعضهم عن الفلاحة والصناعة بعمى أو مرض أو هرم وتعرض عوارض مختلفة ولو ترك ضائعا لهلك ، ولو وكل تفقده إلى الجميع لتخاذلوا ولو خص واحد من غير سبب يخصه لكان لا يذعن له ،

فحدث بالضرورة من هذه العوارض الحاصلة بالاجتماع صناعات أخرى . فمنها صناعة المساحة التى بها تعرف مقادير الأرض لتمكن القسمة بينهم بالعدل . ومنها صناعة الجندية لحراسة البلد بالسيف ودفع اللصوص عنهم . ومنها صناعة الحكم والتوصل لفصل الخصومة ، ومنها الحاجة إلى الفقه وهو معرفة القانون الذى ينبغى أن يضبط به الخلق ، ويلزموا الوقوف على حدوده حتى لا يكثر النزاع وهو معرفة حدود الله تعالى فى المعاملات وشروطها . فهذه أمور سياسية لابد منها ولا يشتغل بها إلا مخصوصون بصفات مخصوصة من العلم والتمييز والهداية ، وإذا اشتغلوا بها لم يتفرغوا لصناعة أخرى ويحتاجون إلى المعاش ، ويحتاج أهل البلد إليهم إذ لو اشتغل أهل البلد بالحرب مع الأعداء مثلا تعطلت الصناعات ، ولو اشتغل أهل الحرب والسلاح بالصناعات لطلب القوت تعطلت البلاد عن الحراس واستضر الناس ، فمست الحاجة إلى أن يصرف إلى معايشهم وأرزاقهم الأموال الضائعة التى لامالك لها إن كانت ، أو تصرف الغنائم إليهم إن كانت العداوة مع الكفار ، فإن كانوا أهل ديانة وورع قنعوا بالقليل من أموال المصالح وإن أرادوا التوسع فتمس الحاجة لامحالة إلى أن يمدهم أهل البلد بأموالهم ليمدوهم بالحراسة ، فتحدث الحاجة إلى الخراج . ثم يتولد بسبب الحاجة إلى الخراج الحاجة لصناعات أخر ؛ إذ يحتاج إلى من يوظف الخراج بالعدل على الفلاحين وأرباب الأموال وهم العمال . وإلى من يستوفى منهم بالرفق وهم الجباة والمستخرجون ، وإلى من يجمع عنده ليحفظه إلى وقت التفرقة وهم الخزان ، وإلى من يفرق عليهم بالعدل وهو الفارض للعساكر . وهذه الأعمال لو تولاها عدد لاتجمعهم رابطة انخرم النظام فتحدث منه الحاجة إلى ملك يدبرهم وأمير مطاع يعين لكل عمل شخصا ، ويختار لكل واحد مايليق به ويراعى النصفة فى أخذ الخراج وإعطائه ، واستعمال الجند فى الحرب وتوزيع أسلحتهم وتعين جهات الحرب ونصب الأمير والقائد على كل

طائفة منهم إلى غير ذلك من صناعات الملك ، فيحدث من ذلك بعد الجند الذين هم أهل السلاح وبعد الملك الذى يراقبهم بالعين الكالئة ويدبرهم الحاجة إلى الكتاب والخزان والحساب والجباة والعمال . ثم هؤلاء أيضا يحتاجون إلى معيشة ولا يمكنهم الاشتغال بالحرف فتحدث الحاجة إلى مال الفرع مع مال الأصل وهو المسمى فرع الخراج . وعند هذا يكون الناس فى الصناعات ثلاث طوائف ؛ الفلاحون والرعاة والمحترفون : والثانية : الجندية الحماة بالسيوف . والثالثة : المترددون بين الطائفتين فى الأخذ والعطاء وهم العمال والجباة وأمثالهم . فانظر كيف ابتدأ الأمر من حاجة القوت والملبس والمسكن وإلى ماذا انتهى . وهكذا أمور الدنيا لا يفتح منها باب إلا وينفتح بسببه أبواب أخر . وهكذا تتناهى إلى غير حد محصور كأنها هاوية لا نهاية لعمقها ، من وقع فى مهواة منها سقط منها إلى أخرى ، وهكذا على التوالى . فهذه هى الحرف والصناعات إلا أنها لا تتم إلا بالأموال والآلات . والمال عبارة عن أعيان الأرض وما عليها مما ينتفع به ، وأعلاها الأغذية ، ثم الأمكنة التى يأوى الإنسان إليها وهى الدور ، ثم الأمكنه التى يسعى فيها للتعيش كالحوانيت والأسواق والمزارع ، ثم الكسوة ثم أثاث البيت وآلاته ، ثم آلات الآلات ، وقد يكون فى الآلات ما هو حيوان كالكلب آلة الصيد ، والبقر آلة الحراثة ، والفرس آلة الركوب فى الحرب . ثم يحدث من ذلك حاجة البيع فإن الفلاح ربما يسكن قرية ليس فيها آلة الفلاحة ، والحداد والنجار يسكنان قرية لا يمكن فيها الزراعة . فبالضرورة يحتاج الفلاح إليهما ويحتاجان إلى الفلاح ، فيحتاج أحدهما أن يبذل ما عنده للآخر حتى يأخذ منه غرضه وذلك بطريق المعاوضة ، إلا أن النجار مثلا إذا طلب من الفلاح الغذاء بآلته ربما لا يحتاج الفلاح فى ذلك الوقت إلى آلته فلا يبيعه ، والفلاح إذا طلب الآلة من النجار بالطعام ربما كان عنده طعام فى ذلك الوقت فلا يحتاج إليه فتتعوق الأغراض ، فاضطروا إلى حانوت يجمع آلة كل صناعة ليترصد بها صاحبها أرباب الحاجات ؛ وإلى أبيات يجمع إليها ما يحمل الفلاحون فيشتريه منهم صاحب الأبيات ليترصد به أرباب الحاجات ، فظهرت لذلك الأسواق والمخازن فيحمل الفلاح الحبوب فإذا لم يصادف محتاجا باعها بثمن رخيص من الباعة فيخزنونها فى انتظار أرباب الحاجات طمعاً فى الربح ، وكذلك فى جميع الأمتعة والأموال . ثم يحدث لا محالة بين البلاد والقرى تردد فيتردد الناس يشترون من القرى الأطعمة ومن البلاد الآلات ، وينقلون ذلك ويتعيشون به لتنتظم أمور الناس فى البلاد بسببهم ؛ إذ كل بلد ربما لا توجد فيه كل آلة ، وكل قرية لا يوجد فيها كل طعام ، فالبعض يحتاج إلى البعض فيحوج إلى النقل ، فيحدث التجار المتكفلون بالنقل وباعثهم عليه حرص جمع المال لا محالة ، فيتعبون طول الليل والنهار فى الأسفار لغرض غيرهم ، ونصيبهم منها جمع المال الذى يأكله لا محالة غيرهم ؛ إما قاطع طريق وإما سلطان ظالم ، ولكن جعل الله تعالى فى غفلتهم وجهلهم نظاما للبلاد ومصلحة للعباد . بل جميع أمور الدنيا انتظمت بالغفلة وخسة الهمة . ولو عقل الناس وارتفعت هممهم لزهدوا فى الدنيا ، ولو فعلوا ذلك لبطلت المعايش ، ولو بطلت لهلكوا ولهلك الزهاد أيضا .

ثم هذه الأموال التى تنقل لا يقدر الإنسان على حملها فتحتاج إلى دواب تحملها ، وصاحب المال قد لا تكون له دابة فتحدث معاملة بينه وبين مالك الدابة تسمى الإجارة ، ويصير الكراء نوعا من الاكتساب أيضاً ، ثم يحدث بسبب البياعات الحاجة إلى النقدين فإن من يريد أن يشترى طعاما بثوب فمن أين يدرى المقدار الذى يساويه من الطعام كم هو ؟ والمعاملة تجرى فى أجناس مختلفة كما يباع ثوب بطعام وحيوان بثوب وهذه أمور لا تتناسب ، فلابد من حاكم عدل يتوسط بين المتبايعين يعدل أحدهما بالآخر فيطلب ذلك العدل من أعيان الأموال ، ثم يحتاج إلى

مال يطول بقاؤه لأن الحاجة إليه تدوم . وأبقى الأموال المعادن فاتخذت النقود من الذهب والفضة والنحاس ، ثم مست الحاجة إلى الضرب والنقش والتقدير فمست الحاجة إلى دار الضرب والصيارفة . وهكذا تتداعى الأشغال والأعمال بعضها إلى بعض حتى انتهت إلى ماتراه . فهذه أشغال الخلق وهى معاشهم . وشىء من هذه الحرف لا يمكن مباشرته إلا بنوع تعلم وتعب فى الابتداء .

وفى الناس من يغفل عن ذلك فى الصبا فلا يشتغل به أو يمنعه عنه مانع فيبقى عاجزا عن الاكتساب لعجزه عن الحرف فيحتاج إلى أن يأكل مما يسعى فيه غيره ، فيحدث منه حرفتان خسيستان : اللصوصية والكداية ؛ إذ يجمعها أنهما يأكلان من سعى غيرهما ثم الناس يحترزون من اللصوص والمكدين ويحفظون عنهم أموالهم فافتقروا إلى صرف عقولهم فى استنباط الحيل والتدابير .

أما اللصوص : فمنهم من يطلب أعوانا ويكون فى يديه شوكة وقوة فيجتمعون ويتكاثرون ويقطعون الطريق كالأعراب والأكراد . وأما الضعفاء منهم فيفزعون إلى الحيل إما بالنقب أو التسلق عند انتهاز فرصة الغفلة ، وإما بأن يكون طرارا أو سلالا ، إلى غير ذلك من أنواع التلصص الحادثة بحسب ما تنتجه الأفكار المصروفة إلى استنباطها .

وأما المكدى فإنه إذا طلب ماسعى فيه غيره وقيل له اتعب واعمل كما عمل غيرك فمالك والبطالة فلا يعطى شيئا ، فافتقروا إلى حيلة فى استخراج الأموال وتمهيد العذر لأنفسهم فى البطالة ، فاحتالوا للتعلل بالعجز إما بالحقيقة كجماعة يعمون أولادهم وأنفسهم بالحيلة ليعذروا بالعمى فيعطون ، وإما بالتعامى والتفالج والتجانن والتمارض ، وإظهار ذلك بأنواع من الحيل مع بيان أن تلك محنة أصابت من غير استحقاق ، ليكون ذلك سبب الرحمة ، وجماعة يلتمسون أقوالا وأفعالا يتعجب الناس منها حتى تنبسط قلوبهم عند مشاهدتها ، فيسخوا برفع اليد عن قليل من المال فى حال التعجب ، ثم قد يندم بعد زوال التعجب ولا ينفع الندم . وذلك قد يكون بالتمسخر والمحاكاة والشعبذة والأفعال المضحكة ، وقد يكون بالأشعار الغريبة والكلام المنثور المسجع مع حسن الصوت . والشعر الموزون أشد تأثيرا فى النفس لاسيما إذا كان فيه تعصب يتعلق بالمذاهب كأشعار مناقب الصحابة وفضائل أهل البيت ، أو الذى يحرك داعية العشق من أهل المجانة كصنعة الطبالين فى الأسواق ، وصنعة ما يشبه العوض وليس بعوض كبيع التعويذات ، والحشيش الذى يخيل بائعه أنها أدوية فيخدع بذلك الصبيان والجهال ، وكأصحاب القرعة والفأل من المنجمين . ويدخل فى هذا الجنس الوعاظ والمكدون على رءوس المنابر إذا لم يكن وراءهم طائل علمى وكان غرضهم استمالة قلوب العوام وأخذ أموالهم بأنواع الكدية ، وأنواعها تزيد على ألف نوع وألفين . وكل ذلك استنبط بدقيق الفكرة لأجل المعيشة . فهذه هى أشغال الخلق وأعمالهم التى أكبوا عليها ، وجرهم إلى ذلك كله الحاجة إلى القوت والكسوة ولكنهم نسوا فى أثناء ذلك أنفسهم ومقصودهم ومنقلبهم ومآبهم فتاهوا وضلوا ، وسبق إلى عقولهم الضعيفة بعد أن كدرتها زحمة الاشتغالات بالدنيا خيالات فاسدة ، فانقسمت مذاهبهم واختلفت آراؤهم على عدة أوجه :

فطائفة غلبهم الجهل والغفلة فلم تنفتح أعينهم للنظر إلى عاقبة أمورهم فقالوا : المقصود أن نعيش أياما فى الدنيا فنجتهد حتى نكسب القوت ثم نأكل حتى نقوى على الكسب ، ثم نكسب حتى نأكل ، فيأكلون ليكسبوا ثم يكسبون ليأكلوا ، وهذا مذهب الفلاحين والمحترفين ومن ليس له تنعم فى الدنيا ولا قدم فى الدين ؛ فإنه يتعب نهارا

ليأكل ليلا ويأكل ليلا ليتعب نهارا ، وذلك كسير السوانى فهو سفر لا ينقطع إلا بالموت .

وطائفة أخرى زعموا أنهم تفطنوا الأمر وهو أنه ليس المقصود أن يشقى الإنسان بالعمل ولا يتنعم فى الدنيا بل السعادة فى أن يقضى وطره من شهوة الدنيا وهى شهوة البطن والفرج ، فهؤلاء نسوا أنفسهم وصرفوا همهم إلى اتباع النسوان وجمع لذائذ الأطعمة يأكلون كما تأكل الأنعام ويظنون أنهم إذا نالوا ذلك فقد أدركوا غاية السعادة فشغلهم ذلك عن الله تعالى وعن اليوم الآخر .

وطائفة ظنوا أنّ السعادة فى كثرة المال والاستغناء بكثرة الكنوز ، فأسهروا ليلهم وأتعبوا نهارهم فى الجمع ، فهم يتعبون فى الأسفار طول الليل والنهار ويترددون فى الأعمال الشاقة ويكتسبون ، ويجمعون ولا يأكلون إلا قدر الضرورة شحا وبخلا عليها أن تنقص ، وهذه لذتهم وفى ذلك دأبهم وحركتهم إلى أن يدركهم الموت ؛ فيبقى تحت الأرض أو يظفر به من يأكله فى الشهوات واللذات ؛ فيكون للجامع تعبه ووباله وللآكل لذته . ثم الذين يجمعون ينظرون إلى أمثال ذلك ولا يعتبرون .

وطائفة ظنوا أن السعادة فى حسن الاسم وانطلاق الألسنة بالثناء والمدح بالتجمل والمروءة ؛ فهؤلاء يتعبون فى كسب المعاش ويضيقون على أنفسهم فى المطعم والمشرب ويصرفون جميع مالهم إلى الملابس الحسنة والدواب النفيسة ، ويزخرفون أبواب الدور وما يقع عليها أبصار الناس حتى يقال إنه غنى وإنه ذو ثروة ويظنون أن ذلك هو السعادة ، فهمتهم فى نهارهم وليلهم فى تعهد موقع نظر الناس .

وطائفة أخرى ظنوا أن السعادة فى الجاه والكرامة بين الناس وانقياد الخلق بالتواضع والتوقير ، فصرفوا همهم إلى استجرار الناس إلى الطاعة لطلب الولايات وتقلد الأعمال السلطانية لينفذ أمرهم بها على طائفة من الناس ، ويرون أنهم إذا اتسعت ولايتهم وانقادت لهم رعاياهم فقد سعدوا سعادة عظيمة ، وأن ذلك غاية المطلب . وهذا أغلب الشهوات على قلوب الغافلين من الناس ، فهؤلاء شغلهم حب تواضع الناس لهم عن التواضع لله وعن عبادته وعن التفكر فى آخرتهم ومعادهم .

ووراء هؤلاء طوائف يطول حصرها تزيد على نيف وسبعين فرقة ، كلهم قد ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل ، وإنما جرهم إلى جميع ذلك حاجة المطعم والملبس والمسكن ونسوا ما تراد له هذه الأمور الثلاثة والقدر الذى يكفى منها . وانجرت بهم أوائل أسبابها إلى أواخرها ، وتداعى بهم ذلك إلى مهاو لم يمكنهم الرقى منها ، فمن عرف وجه الحاجة إلى هذه الأسباب والأشغال وعرف غاية المقصود منها فلا يخوض فى شغل وحرفة وعمل إلا وهو عالم بمقصوده وعالم بحظه ونصيبه منه ، وأن غاية مقصوده تعهد بدنه بالقوت والكسوة حتى لا يهلك ، وذلك إن سلك فيه سبيل التقليل اندفعت الأشغال عنه وفرغ القلب وغلب عليه ذكر الآخرة وانصرفت الهمة إلى الاستعداد له ، وإن تعدى به قدر الضرورة كثرت الأشغال وتداعى البعض إلى البعض وتسلسل إلى غير نهاية ، فتتشعب به الهموم ومن تشعبت به الهموم فى أودية الدنيا فلا يبالى الله فى أى واد أهلكه منها . فهذا شأن المنهمكين فى أشغال الدنيا . وتنبه لذلك طائفة فأعرضوا عن الدنيا فحسدهم الشيطان ولم يتركهم ، وأضلهم فى الإعراض أيضاً حتى انقسموا إلى طوائف :

فظنت طائفة أن الدنيا دار بلاء ومحنة والآخرة دار سعادة لكل من وصل إليها سواء تعبد فى الدنيا أو لم يتعبد ، فرأوا أن الصواب فى أن يقتلوا أنفسهم للخلاص من محنة الدنيا ، وإليه ذهب طوائف من العباد من أهل الهند فهم يتهجمون على النار ويقتلون أنفسهم بالإحراق ، ويظنون أن ذلك خلاص لهم من محن الدنيا .

وظنت طائفة أخرى أن القتل لايخلص بل لابد أولا من إماتة الصفات البشرية وقطعها عن النفس بالكلية ، وأن السعادة فى قطع الشهوة والغضب ، ثم أقبلوا على المجاهدة وشددوا على أنفسهم ، حتى هلك بعضهم بشدة الرياضة وبعضهم فسد عقله وجن . وبعضهم مرض وانسد عليه الطريق فى العبادة . وبعضهم عجز عن قمع الصفات بالكلية فظن أن ما كلفه الشرع محال وأن الشرع تلبيس لا أصل له فوقع فى الإلحاد . وظهر لبعضهم أن هذا التعب كله لله وأن الله تعالى مستغن عن عبادة العباد لاينقصه عصيان عاص ولا تزيده عبادة متعبد ، فعادوا إلى الشهوات وسلكوا مسلك الإباحة وطووا بساط الشرع والأحكام ، وزعموا أن ذلك من صفاء توحيدهم حيث اعتقدوا أن الله مستغن عن عبادة العباد .

وظن طائفة أن المقصود من العبادات المجاهدة حتى يصل العبد بها إلى معرفة الله تعالى ، فإذا حصلت المعرفة فقد وصل وبعد الوصول يستغنى عن الوسيلة والحيلة ، فتركوا السعى والعبادة وزعموا أنه ارتفع محلهم فى معرفة الله سبحانه عن أن يمتهنوا بالتكاليف ، وإنما التكليف على عوام الخلق .

ووراء هذا مذاهب باطلة وضلالات هائلة يطول إحصاؤها إلى ما يبلغ نيفاً وسبعين فرقة ، وإنما الناجى منها فرقة واحدة ؛ وهى السالكة ما كان عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه ، وهو أن لايترك الدنيا بالكلية ولايقمع الشهوات بالكلية . أما الدنيا فيأخذ منها قدر الزاد . وأما الشهوات فيقمع منها مايخرج عن طاعة الشرع والعقل . ولا يتبع كل شهوة ولا يترك كل شهوة ، بل يتبع العدل ولا يترك كل شىء من الدنيا ، ولايطلب كل شىء من الدنيا بل يعلم مقصود كل ما خلق من الدنيا ويحفظه على حد مقصوده ، فيأخذ من القوت مايقوى به البدن على العبادة ومن المسكن مايحفظ عن اللصوص والحر والبرد ، ومن الكسوة كذلك ، حتى إذا فرغ القلب من شغل البدن أقبل على الله تعالى بكنه همته واشتغل بالذكر والفكر طول العمر ، وبقى ملازما لسياسة الشهوات ومراقباً لها حتى لايجاوز حدود الورع والتقوى ، ولا يعلم تفصيل ذلك إلا بالاقتداء بالفرقة الناجية وهم الصحابة فإنه عليه السلام لما قال « الناجى منها واحدة » قالوا : يارسول الله ومن هم ؟ قال « أهل السنة والجماعة » فقيل : ومن أهل السنة والجماعة ؟ قال « ما أنا عليه وأصحابى [1] » وقد كانوا على النهج القصد وعلى السبيل الواضح الذى فصلناه من قبل ، فإنهم ما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا بل للدين ، وما كانوا يترهبون ويهجرون الدنيا بالكلية ، وما كان لهم فى الأمور تفريط ولا إفراط ، بل كان أمرهم بين ذلك قواما ، وذلك هو العدل والوسط بين الطرفين وهو أحب الأمور إلى الله تعالى ـ كما سبق ذكره فى مواضع ـ والله أعلم .

تم كتاب ذم الدنيا والحمد لله أولا وآخرا وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

---

(١) حديث : افتراق الأمة وفيه « الناجى منهم واحدة » قالوا : ومن هم ؟ قال « أهل السنة والجماعة ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث عبد الله بن عمرو وحسنه « تفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة كلهم فى النار إلا ملة واحدة » فقالوا : من هى يارسول الله ؟ قال « ما أنا عليه وأصحابى » ولأبى داود من حديث معاوية وابن ماجه من حديث أنس وعوف بن مالك وهى الجماعة وأسانيدها جياد .

كتاب ذم البخل وذم حب المـال

وهو الكتاب السابع من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مستوجب الحمد برزقه المبسوط ، وكاشف الضر بعد القنوط ، الذى خلق الخلق ، ووسع الرزق ، وأفاض على العالمين أصناف الأموال ، وابتلاهم فيها بتقلب الأحوال ، ورددهم فيها بين العسر واليسر ، والغنى والفقر ، والطمع واليأس ، والثروة والإفلاس ، والعجز والاستطاعة ، والحرص والقناعة ، والبخل والجود ، والفرح بالموجود ، والأسف على المفقود ، والإيثار والإنفاق ، والتوسع والإملاق ، والتبذير والتقتير ، والرضا بالقليل واستحقار الكثير ، كل ذلك ليبلوهم أيهم أحسن عملا ، وينظر أيهم آثر الدنيا على الآخرة بدلا ، وابتغى عن الآخرة عدولا وحولا ، واتخذ الدنيا ذخيرة وخولا ، والصلاة على محمد الذى نسخ بملته مللا ، وطوى بشريعته أديانا ونحلا ، وعلى آله وأصحابه الذين سلكوا سبيل ربهم ذللا ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد : فإن فتن الدنيا كثيرة الشعب والأطراف واسعة الأرجاء والأكناف ، ولكن الأموال أعظم فتنها وأطم محنها ، وأعظم فتنة فيها أنه لاغنى لأحدعنها ، ثم إذا وجدت فلاسلامة منها ، فإن فقد المـال حصل منه الفقر الذى يكاد أن يكون كفرا ، وإن وجد حصل منه الطغيان الذى لاتكون عاقبة أمره إلا خسرا . وبالجملة فهى لاتخلو من الفوائد والآفات ، وفوائدها من المنجيات ، وآفاتها من المهلكات ، وتمييز خيرها عن شرها من المعوصات التى لايقوى عليها إلا ذوو البصائر فى الدين من العلماء الراسخين دون المترسمين المغترين . وشرح ذلك مهم على الانفراد ، فإن ماذكرناه فى كتاب ذم الدنيا لم يكن نظراً فى المـال خاصة بل فى الدنيا عامة ، إذ الدنيا تتناول كل حظ عاجل ، والمـال بعض أجزاء الدنيا ، والجاه بعضها ، واتباع شهوة البطن والفرج بعضها ، وتشفى الغيظ بحكم الغضب والحسد بعضها ، والكبر وطلب العلو بعضها . ولهـا أبعاض كثيرة . ويجمعها كل ما كان للإنسان فيه حظ عاجل . ونظرنا الآن فى هذا الكتاب فى المـال وحده ، إذ فيه آفات وغوائل . وللإنسان من فقده صفة الفقر ، ومن وجوده وصف الغنى . وهما حالتان يحصل بهما الاختبار والامتحان .

ثم للفاقد حالتان : القناعة والحرص ، وإحداهما مذمومة والأخرى محمودة . وللحريص حالتان : طمع فيما فى أيدى الناس ، وتشمر للحرف والصناعات مع اليأس عن الخلق ، والطمع شر الحالتين .

وللواجد حالتان : إمساك بحكم البخل والشح ، وإنفاق . وإحداهما مذمومة والأخرى محمودة . وللمنفق حالتان: تبذير واقتصاد ، والمحمود هو الاقتصاد .

وهذه أمور متشابهة وكشف الغطاء عن الغموض فيها مهم . ونحن نشرح ذلك فى أربعة عشر فصلا إن شاء الله تعالى وهو : بيان ذم المـال ، ثم مدحه ثم تفصيل فوائد المـال وآفاته ثم ذم الحرص والطمع ثم علاج الحرص والطمع . ثم فضيلة السخاء . ثم حكايات الأسخياء ، ثم ذم البخل ، ثم حكايات البخلاء . ثم الإيثار وفضله . ثم حد السخاء والبخل . ثم علاج البخل . ثم مجموع الوظائف فى المـال . ثم ذم الغنى ومدح الفقر ؛ إن شاء الله تعالى .

بيان ذم المال وكراهة حبه

قال الله تعالى ﴿ ياأيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾ وقال تعالى ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم ﴾ فمن اختار ماله وولده على ما عند الله فقد خسر وغبن خسرانا عظيما وقال عزوجل ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ﴾ الآية . وقال تعالى ﴿ إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ﴾ فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وقال تعالى ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حب المال والشرف ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « ما ذئبان ضاريان أرسلا فى زريبة غنم بأكثر إفساداً فيها من حب الشرف والمال والجاه فى دين الرجل المسلم (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « هلك المكثرون إلا من قال به فى عباد الله هكذا وهكذا وقليل ماهم (٣) » وقيل : يارسول الله أى أمتك شر ؟ قال « الأغنياء (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « سيأتى بعدكم قوم يأكلون أطايب الدنيا وألوانها ويركبون فره الخيل وألوانها وينكحون أجمل النساء وألوانها ويلبسون أجمل الثياب وألوانها ، لهم بطون من القليل لاتشبع وأنفس بالكثير لاتقنع ، عاكفون على الدنيا يغدون ويروحون إليها ، اتخذوها آلهة من دون إلههم وربا دون ربهم ، إلى أمرها ينتهون ولهواهم يتبعون ، فعزيمة من محمد بن عبد الله لمن أدركه ذلك الزمان من عقب عقبكم وخلف خلفكم أن لايسلم عليهم ولايعود مرضاهم ولايتبع جنائزهم ولايوقر كبيرهم ، فمن فعل ذلك فقد أعان على هدم الإسلام (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « دعوا الدنيا لأهلها ، من أخذ من الدنيا فوق مايكفيه أخذ حتفه وهو لايشعر (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت ؟ (٧) » وقال رجل : يارسول الله مالى لاأحب الموت ! فقال « هل معك من مال ؟ » قال : نعم يارسول الله ؛ قال « قدم مالك فإن قلب المؤمن مع ماله ، إن قدمه

كتاب ذم البخل وحب المال

(١) حديث « حب المال والشرف ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل » لم أجده بهذا اللفظ وذكره بعد هذا بلفظ « الجاه » بدل « الشرف » (٢) حديث « ماذئبان ضاريان أرسلا فى زريبة غنم بأكثر إفسادا لها من حب المال والجاه فى دين الرجل المسلم » أخرجه الترمذى والنسائى فى الكبرى من حديث كعب بن مالك وقالا « جائعان » مكان « ضاريان » ولم يقولا « فى زريبة » وقالا « الشرف » بدل « الجاه » قال الترمذى حسن صحيح وللطبرانى فى الأوسط من حديث أبى سعيد « ماذئبان ضاريان فى زريبة غنم ... الحديث » وللبزار من حديث أبى هريرة « ضاريان جائعات » وإسناد الطبرانى فيهما ضعيف (٣) حديث « هلك الأكثرون إلا من قال به فى عباد الله هكذا وهكذا ... الحديث » أخرجه الطبرانى من حديث عبد الرحمن ابن أبزى بلفظ « المكثرون » ولم يقل « فى عباد الله » ورواه أحمد من حديث أبى سعيد بلفظ « المكثرون » وهو متفق عليه من حديث أبى ذر بلفظ « هم الأخسرون » فقال أبو ذر : من هم ؟ فقال « هم الأكثرون أموالا إلا من قال هكذا ... الحديث » (٤) حديث قيل يارسول الله أى أمتك شر ؟ قال « الأغنياء » غريب لم أجده بهذا اللفظ وللطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب من حديث عبد الله بن جعفر « شرار أمتى الذين ولدوا فى النعيم وغذوا به يأكلون من الطعام ألوانا » وفيه أصرم بن حوشب ضعيف ورواه هناد بن السرى فى الزهد له من رواية عروة بن رويم مرسلا وللبزار من حديث أبى هريرة بسند ضعيف « إن من شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم وتنبت عليه أجسامهم » (٥) حديث « سيأتى بعدكم قوم يأكلون أطايب الدنيا وألوانها وينكحون أجمل النساء وألوانها ... الحديث » بطوله أخرجه الطبرانى فى الكبير والأوسط من حديث أبى أمامة « سيكون رجال من أمتى يأكلون ألوان الطعام ويشربون ألوان الشراب ويلبسون ألوان الثياب يتشدقون فى الكلام أولئك شرار أمتى » وسنده ضعيف ولم أجد لباقيه أصلا (٦) حديث « دعوا الدنيا لأهلها من أخذ من الدنيا فوق مايكفيه أخذ حتفه وهو لايشعر » أخرجه البزار من حديث أنس وفيه هانئ بن المتوكل ضعفه ابن حبان (٧) حديث « يقول العبد مالى مالى .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن الشخير وأبى هريرة وقد تقدم

أحب أن يلحقه وإن خلفه أحب أن يتخلف معه [١] » وقال صلى الله عليه وسلم « أخلاء ابن آدم ثلاثة . واحد يتبعه إلى قبض روحه ، والثانى إلى قبره ، والثالث إلى محشره . فالذى يتبعه إلى قبض روحه فهو ماله ، والذى يتبعه إلى قبره فهو أهله ، والذى يتبعه إلى محشره فهو عمله [٢] » .

وقال الحواريون لعيسى عليه السلام : مالك تمشى على الماء ولا نقدر على ذلك ؟ فقال لهم : ما منزلة الدينار والدرهم عندكم ؟ قالوا : حسنة ، قال : لكنهما والمدر عندى سواء . وكتب سلمان الفارسى إلى أبى الدرداء رضى الله عنهما : يا أخى إياك أن تجمع من الدنيا مالا تؤدى شكره ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يجاء بصاحب الدنيا الذى أطاع الله فيها وماله بين يديه كلما تكفأ به الصراط قال له ماله امض فقد أديت حق الله فى ، ثم يجاء بصاحب الدنيا الذى لم يطع الله فيها وماله بين كتفيه كلما تكفأ به الصراط قال له ماله ويلك ألا أديت حق الله فى فما يزال كذلك حتى يدعو بالويل والثبور [٣] » .

وكل ما أوردناه فى كتاب الزهد والفقر فى ذم الغنى ومدح الفقر يرجع جميعه إلى ذم المال ، فلا نطول بتكريره ، وكذا كل ما ذكرناه فى ذم الدنيا فيتناول ذم المال بحكم العموم ، لأن المال أعظم أركان الدنيا . وإنما نذكر الآن ما ورد فى المال خاصة .

قال صلى الله عليه وسلم « إذا مات العبد قالت الملائكة ما قدم وقال الناس ما خلف [٤] » وقال صلى الله عليه وسلم « لاتتخذوا الضيعة فتحبوا الدنيا [٥] » .

الآثار : روى أن رجلا نال من أبى الدرداء وأراه سوءا فقال : اللهم من فعل بى سوءا فأصح جسمه وأطل عمره وأكثر ماله . فانظر كيف رأى كثرة المال غاية البلاء مع صحة الجسم وطول العمر ؟ لأنه لابد وأن يفضى إلى الطغيان ووضع على كرم الله وجهه درهما على كفه ثم قال : أما إنك مالم تخرج عنى لاتنفعنى . وروى أن عمر رضى الله عنه أرسل إلى زينب بنت جحش بعطائها فقالت : ماهذا ؟ قالوا : أرسل إليك عمر بن الخطاب ، قالت : غفر الله له ، ثم سلت سترا كان لها فقطعته وجعلته صررا وقسمته فى أهل بيتها ورحمها وأيتامها ، ثم رفعت يديها وقالت اللهم لايدركنى عطاء عمر بعد عامى هذا . فكانت أول نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوقا به . وقال الحسن : والله ما أعز الدرهم أحد إلا أذله الله . وقيل : إن أول ماضرب الدينار والدرهم رفعهما إبليس ثم وضعهما على جبهته ثم قبلهما وقال . من أحبكما فهو عبدى حقا . وقال سميط بن عجلان : إن الدراهم والدنانير أزمة المنافقين يقادون بها إلى النار . وقال يحيى بن معاذ : الدرهم عقرب فإن لم تحسن رقيته فلا تأخذه ، فإنه إن لدغك قتلك سمه ، قيل : وما رقيته ؟ قال : أخذه من حله ووضعه فى حقه . وقال العلاء بن زياد : تمثلت لى الدنيا وعليها من كل زينة فقلت : أعوذ

(١) حديث : قال رجل يارسول الله مالى لا أحب الموت ... الحديث . لم أقف عليه (٢) حديث « أخلاء ابن آدم ثلاثة واحد يتبعه إلى قبض روحه ، والثانى إلى قبره ... الحديث » أخرجه أحمد والطبرانى فى الكبير والأوسط من حديث النعمان بن بشير بإسناد جيد نحوه ، ورواه أبو داود الطيالسى وأبو الشيخ فى كتاب الثواب والطبرانى فى الأوسط من حديث أنس بسند جيد أيضاً وفى الكبير من حديث سمرة بن جندب وللشيخين من حديث أنس « يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى واحد ... الحديث »

(٣) حديث : كتب سلمان إلى أبى الدرداء وفيه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يجاء بصاحب الدنيا الذى أطاع الله فيها وماله بين يديه ... الحديث » قلت : ليس هو من حديث سلمان إنما هو من حديث أبى الدرداء انه كتب الى سلمان ؟ كذا رواه البيهقى فى الشعب وقال بدل « الدنيا » « المال » وهو منقطع (٤) حديث « إذا مات العبد قالت الملائكة ما قدم ... الحديث » أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة يبلغ به وقد تقدم فى آداب الصحبة .

(٥) حديث « لاتتخذوا الضيعة فتحبوا الدنيا » أخرجه الترمذى والحاكم وصحح إسناده من حديث ابن مسعود بلفظ « فترغبوا

بالله من شرك فقالت : إن سرك أن يعيذك الله منى فابغض الدرهم والدينار . وذلك لأن الدرهم والدينار هما الدنيا كلها إذ يتوصل بهما إلى جميع أصنافها ، فمن صبر عنهما صبر عن الدنيا وفى ذلك قيل :

إنى وجدت فلا تظنوا غيره أن التورع عند هذا الدرهم
فإذا قدرت عليه ثم تركته فاعلم بأن تقاك تقوى المسلم

وفى ذلك قيل أيضاً :

لا يغرنك من المر * قميص رقعه * أو إزار فوق عظم السـ * ـاق منه رفعه
أو جبين لاح فيه * أثر قد خلعه * أره الدرهم تعرف * حبه أو ورعه

ويروى عن مسلمة بن عبد الملك أنه دخل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله عند موته فقال : يا أمير المؤمنين صنعت صنيعاً لم يصنعه أحد قبلك ، تركت ولدك ليس لهم درهم ولا دينار - وكان له ثلاثة عشر من الولد - فقال عمر : أقعدونى ! فأقعدوه فقال : أما قولك لم أدع لهم ديناراً ولا درهماً فإنى لم أمنعهم حقاً لهم ولم أعطهم حقاً لغيرهم ! وإنما ولدى أحد رجلين : إما مطيع لله فالله كافيه والله يتولى الصالحين ، وإما عاص لله فلا أبالى على ماوقع . وروى أن محمد بن كعب القرظى أصاب مالا كثيرا فقيل له : لو ادخرته لولدك من بعدك ؟ قال : لا ولكنى ادخره لنفسى عند ربى وأدخر ربى لولدى . ويروى أن رجلا قال لأبى عبد ربه : يا أخى لاتذهب بشر وتترك أولادك بخير ! فأخرج أبو عبد ربه من ماله مائة ألف درهم . وقال يحيى بن معاذ : مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلهما للعبد فى ماله عند موته ، قيل : وماهما ؟ قال : يؤخذ منه كله ويسئل عنه كله .

بيان مدح المال والجمع بينه وبين الذم

اعلم أن الله تعالى قد سمى المال خيرا فى مواضع من كتابه العزيز فقال جل وعز ﴿ إن ترك خيرا ﴾ الآية وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم المال الصالح للرجل الصالح (١) » وكل ماجاء فى ثواب الصدقة والحج فهو ثناء على المال إذلا يمكن الوصول إليهما إلا به وقال تعالى ﴿ ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ﴾ وقال تعالى ممتنا على عباده ﴿ ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « كاد الفقر أن يكون كفرا (٢) » وهو ثناء على المال . ولا تقف على وجه الجمع بعد الذم والمدح إلا بأن تعرف حكمة المال ومقصوده وآفاته وغوائله ؛ حتى ينكشف لك أنه خير من وجه وشر من وجه ، وأنه محمود من حيث هو خير ومذموم من حيث هو شر ، فإنه ليس بخير محض ولا شر محض ، بل هو سبب للأمرين جميعا وما هذا وصفه فيمدح لامحالة تارة ويذم أخرى ، ولكن البصير المميز يدرك أن المحمود منه غير المذموم ، وبيانه بالاستمداد مما ذكرناه فى كتاب الشكر من بيان الخيرات وتفصيل درجات النعم ، والقدر المقنع فيه هو أن مقصد الأكياس وأرباب البصائر سعادة الآخرة التى هى النعيم الدائم والملك والمقيم . والقصد إلى هذا دأب الكرام والأكياس ، إذ قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : من أكرم الناس وأكيسهم ؟ فقال « أكثرهم للموت ذكرا وأشدهم له استعدادا (٣) »

---

(١) حديث « نعم المال الصالح للرجل الصالح » أخرجه أحمد والطبرانى فى الكبير والأوسط من حديث عمرو بن العاص بسند صحيح بلفظ « نعما » وقالا « المرء » . (٢) حديث « كاد الفقر أن يكون كفرا » أخرجه أبو مسلم الليثى فى سننه والبيهقى فى شعب الإيمان من حديث أنس وتقدم فى كتاب ذم الغضب (٣) حديث : من أكرم الناس وأكيسهم ؟ قال « أكثرهم للموت ذكرا ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر بلفظ : أى المؤمنين أكيس ؟ ورواه ابن أبى الدنيا فى الموت بلفظ المصنف وإسناده جيد .

وهذه السعادة لاتنال إلا بثلاث وسائل فى الدنيا وهى الفضائل النفسية ، كالعلم وحسن الخلق ، والفضائل البدنية : كالصحة والسلامة ، والفضائل الخارجة عن البدن : كالمال وسائر الأسباب . وأعلاها النفسية ، ثم البدنية ، ثم الخارجة .

فالخارجة أخسها والمال من جملة الخارجات ، وأدناها الدراهم والدنانير ، فإنهما خادمان ولا خادم لهما ، ومرادان لغيرهما . ولا يرادان لذاتهما ؛ إذ النفس هى الجوهر النفيس المطلوب سعادتها ، وأنها تخدم العلم والمعرفة ومكارم الأخلاق لتحصلها صفة فى ذاتها ، والبدن يخدم النفس بواسطة الحواس والأعضاء ، والمطاعم والملابس تخدم البدن . وقد سبق أن المقصود من المطاعم إبقاء البدن . ومن المناكح إبقاء النسل ، ومن البدن تكميل النفس وتزكيتها وتزيينها بالعلم والخلق . ومن عرف هذا الترتيب فقد عرف قدر المال ووجه شرفه ، وأنه من حيث هو ضرورة المطاعم والملابس التى هى ضرورة بقاء البدن الذى هو ضرورة كمال النفس الذى هو خير . ومن عرف فائدة الشىء وغايته ومقصده واستعمله لتلك الغاية ملتفتاً إليها غير ناس لها فقد أحسن وانتفع ، وكان ما حصل له الغرض محموداً فى حقه ، فإذا المال آلة ووسيلة إلى مقصود صحيح ، ويصلح أن يتخذ آلة ووسيلة إلى مقاصد فاسدة وهى المقاصد الصادة عن سعادة الآخرة وتسد سبيل العلم والعمل . فهو إذاً محمود مذموم ، محمود بالإضافة إلى المقصد المحمود ، ومذموم بالإضافة إلى المقصد المذموم . فمن أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه فقد أخذ حتفه وهو لا يشعر [1] كما ورد به الخبر .

ولما كانت الطباع مائلة إلى اتباع الشهوات القاطعة لسبيل الله وكان المال مسهلا لها وآلة إليها ، عظم الخطر فيما يزيد على قدر الكفاية فاستعاذ الأنبياء من شره حتى قال نبينا عليه الصلاة والسلام « اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا [2] » فلم يطلب من الدنيا إلا ما يتمحض خيره وقال « اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكيناً واحشرنى فى زمرة المساكين [3] » واستعاذ إبراهيم صلى الله عليه وسلم فقال ﴿ واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام ﴾ وعنى بها هذين الحجرين الذهب والفضة ، إذ رتبة النبوة أجل من أن يخشى عليها أن تعتقد الإلهية فى شىء من هذه الحجارة ، إذ قد كفى قبل النبوة مع الصغر ، وإنما معنى عبادتهما حبهما والاغترار بهما والركون إليهما قال نبينا صلى الله عليه وسلم « تعس عبد الدينار وتعس عبد الدرهم تعس ولا انتعش وإذا شيك فلا انتقش [4] » فبين أن محبهما عابد لهما ومن عبد حجرا فهو عابد صنم . بل كل من كان عبدا لغير الله فهو عابد صنم ، أى قطعه ذلك عن الله تعالى وعن أداء حقه فهو كعابد صنم ، وهو شرك إلا أن الشرك شركان : شرك خفى لا يوجب الخلود فى النار وقلما ينفك عنه المؤمنون فإنه أخفى من دبيب النمل ، وشرك جلى يوجب الخلود فى النار نعوذ بالله من الجميع .

بيان تفصيل آفات المال وفوائده

اعلم أن المال مثل حية فيها سم وترياق ، ففوائده ترياقه ، وغوائله سمومه . فمن عرف غوائله وفوائده أمكنه أن يحترز من شره ويستدر من خيره .

---

(١) حديث « من أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه فقد أخذ حتفه وهو لا يشعر » تقدم قبله بتسعة أحاديث وهو بقية « احذروا الدنيا » (٢) حديث « اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا » متفق عليه من حديث أبى هريرة . (٣) حديث « اللهم أحيني مسكينا وأمتنى مسكينا » أخرجه الترمذى من حديث أنس وابن ماجه والحاكم وصحح إسناده من حديث أبى سعيد وقد تقدم

(٤) حديث : تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم ... الحديث . أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة ولم يقل « وانتقش » وإنما علق آخره بلفظ « تعس وانتكس » ووصل ذلك ابن ماجه والحاكم

أما الفوائد : فهى تنقسم إلى دنيوية ودينية : أما الدنيوية فلا حاجة إلى ذكرها فإن معرفتها مشهورة مشتركة بين أصناف الخلق ، ولولا ذلك لم يتهالكوا على طلبها . وأما الدينية فتنحصر جميعها فى ثلاثة أنواع .

(النوع الأول) أن ينفقه على نفسه إما فى عبادة أو فى الاستعانة على عبادة . أما فى العبادة : فهو كالاستعانة به على الحج والجهاد فإنه لا يتوصل إليهما إلا بالمال ، وهما من أمهات القربات والفقير محروم من فضلهما . وأما فيما يقويه على العبادة : فذلك هو المطعم والملبس والمسكن والمنكح وضرورات المعيشة فإن هذه الحاجات إذا لم تتيسر كان القلب مصروفا إلى تدبيرها فلا يتفرغ للدين ، ومالا يتوصل إلى العبادة إلا به فهو عبادة ، فأخذ الكفاية من الدنيا لأجل الاستعانة على الدين من الفوائد الدينية . ولا يدخل فى هذا التنعم والزيادة على الحاجة فإن ذلك من حظوظ الدنيا فقط .

(النوع الثانى) ما يصرفه إلى الناس ، وهو أربعة أقسام : الصدقة ، والمروءة ، ووقاية العرض ، وأجرة الاستخدام .

أما الصدقة فلا يخفى ثوابها وإنها لتطفىء غضب الرب تعالى ، وقد ذكرنا فضلها فيما تقدم .

وأما المروءة فنعنى بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف فى ضيافة وهدية وإعانة وما يجرى مجراها ، فإن هذه لا تسمى صدقة ، بل الصدقة مايسلم إلى المحتاج إلا أن هذا من الفوائد الدينية إذ به يكتسب العبد الإخوان والأصدقاء وبه يكتسب صفة السخاء ويلتحق بزمرة الأسخياء . فلا يوصف بالجود إلا من يصطنع المعروف ويسلك سبيل المروءة والفتوة ، وهذا أيضاً مما يعظم الثواب فيه فقد وردت أخبار كثيرة فى الهدايا والضيافات وإطعام الطعام من غير اشتراط الفقر والفاقة فى مصارفها .

وأما وقاية العرض فنعنى به بذل المال لدفع هجو الشعراء وثلب السفهاء وقطع ألسنتهم ودفع شرهم ، وهو أيضا مع تنجز فائدته فى العاجلة من الحظوظ الدينية . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما وقى به المرء عرضه كتب له به صدقة (١) » وكيف لا وفيه منع المغتاب عن معصية الغيبة واحتراز عما يثور من كلامه من العداوة التى تحمل فى المكافأة والانتقام على مجاوزة حدود الشريعة .

وأما الاستخدام فهو أن الأعمال التى يحتاج إليها الإنسان لتهيئة أسبابه كثيرة ، ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته وتعذر عليه سلوك سبيل الآخرة بالفكر والذكر الذى هو أعلى مقامات السالكين ، ومن لا مال له فيفتقر إلى أن يتولى بنفسه خدمة نفسه من شراء الطعام وطحنه وكنس البيت حتى نسخ الكتاب الذى يحتاج إليه ، وكل مايتصور أن يقوم به غيرك ويحصل به غرضك فأنت متعوب إذا اشتغلت به ، إذ عليك من العلم والعمل والذكر والفكر مالا يتصور أن يقوم به غيرك فتضييع الوقت فى غيره خسران .

(النوع الثالث) مالا يصرفه إلى إنسان معين ولكن يحصل به خير عام كبناء المساجد والقناطر والرباطات ودور المرضى ونصب الجباب فى الطريق ، وغير ذلك من الأوقاف المرصدة للخيرات ، وهى من الخيرات المؤبدة الدارة بعد الموت المستجلبة بركة أدعية الصالحين إلى أوقات متمادية ، وناهيك بها خيرا . فهذه جملة فوائد المال فى الدين سوى مايتعلق بالحظوظ العاجلة من الخلاص من ذل السؤال وحقارة الفقر ، والوصول إلى العز والمجد بين الخلق ، وكثرة الإخوان والأعوان والأصدقاء ، والوقار والكرامة فى القلوب ، فكل ذلك مما يقتضيه المال من الحظوظ الدنيوية .

---

(١) حديث « ماوقى المرء عرضه به فهو صدقة » رواه أبو يعلى من حديث جابر وقد تقدم .

وأما الآفات فدينية ودنيوية أما الدينية فثلاث .

(الأولى) أن تجر إلى المعاصى فإن الشهوات متفاضلة والعجز قد يحول بين المرء والمعصية ، ومن العصمة أن لايجد . ومهما كان الإنسان آيساً عن نوع من المعصية لم تتحرك داعيته ، فإذا استشعر القدرة عليها انبعثت داعيته والمال نوع من القدرة يحرك داعية المعاصى وارتكاب الفجور ، فإن اقتحم مااشتهاه هلك وإن صبر وقع فى شدة ؛ إذ الصبر مع القدرة أشد ، وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء .

(الثانية) أنه يجر إلى التنعم فى المباحات ، وهذا أول الدرجات ، فمتى يقدر صاحب المال على أن يتناول خبز الشعير ويلبس الثوب الخشن ويترك لذائذ الأطعمة كما كان يقدر عليه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام فى ملكه فأحسن أحواله أن لايتنعم بالدنيا ويمرن عليها نفسه ، فيصير التنعم مألوفا عنده ومحبوبا لايصبر عنه ، ويجره البعض منه إلى البعض ، فإذا اشتد أنسه به ربما لايقدر على التوصل إليه بالكسب الحلال فيقتحم الشبهات ويخوض فى المراءاة والمداهنة والكذب والنفاق وسائر الأخلاق الرديئة ، لينتظم له أمر دنياه ويتيسرله تنعمه،فإن من كثر ماله كثرت حاجته إلى الناس ، ومن احتاج إلى الناس فلابد وأن ينافقهم ويعصى الله فى طلب رضاهم،فإن سلم الإنسان من الآفة الأولى وهى مباشرة الحظوظ فلا يسلم عن هـــذه أصلا . ومن الحاجة إلى الخلق تثور العداوة والصداقة ، وينشأ عنه الحسد والحقد والرياء والكبر والكذب والنميمة والغيبة وسائر المعاصى التى تخص القلب واللسان ، ولايخلو عن التعدى أيضاً إلى سائر الجوارح . وكل ذلك يلزم من شؤم المال والحاجة إلى حفظه وإصلاحه .

(الثالثة) وهى التى لاينفك عنها أحد وهو أنه يلهيه إصلاح ماله عن ذكر الله تعالى ، وكل ماشغل العبد عن الله فهو خسران ، ولذلك قال عيسى عليه الصلاة والسلام : فى المال ثلاث آفات ، أن يأخذه من غيرحله ،فقيل : إن أخذه من حله ؟ فقال : يضعه فى غير حقه ، فقيل : إن وضعه فى حقه ؟ فقال : يشغله إصلاحه عن الله تعالى . وهذا هو الداء العضال . فإن أصل العبادات ومخها وسرها ذكر الله والتفكرفى جلاله ، وذلك يستدعى قلبا فارغا وصاحب الضيعة يمسى ويصبح متفكرا فى خصومة الفلاح ومحاسبته ، وفى خصومة الشركاء ومنازعتهم فى الماء والحدود ، وخصومة أعوان السلطان فى الخراج ، وخصومة الأجراء على التقصير فى العمارة ، وخصومة الفلاحين فى خيانتهم وسرقتهم . وصاحب التجارة يكون متفكرا فى خيانة شريكه وانفراده بالربح وتقصيره فى العمل وتضييعه للمال . وكذلك صاحب المواشى . وهكذا سائرأصناف الأموال . وأبعدهاعن كثرةالشغل:النقدالمكنوز تحت الأرض ، ولا يزال الفكر مترددا فيما يصرف إليه وفى كيفية حفظه وفى الخوف مما يعثر عليه وفىدفع أطماع الناس عنه . وأودية أفكار الدنيا لانهاية لها ، والذى معه قوت يومه فى سلامة من جميع ذلك . فهذه جملة الآفات الدنيوية سوى ما يقاسيه أرباب الأموال فى الدنيا من الخوف والحزن والغم والهم والتعب فى دفع الحساد وتجشم المصاعب فى حفظ المال وكسبه ، فإذن ترياق المال أخذ القوت منه وصرف الباقى إلى الخيرات وماعداذلك سموم وآفات . نسأل الله تعالى السلامة وحسن العون بلطفه وكرمه إنه على ذلك قدير .

بيان ذم الحرص والطمع ، ومدح القناعة واليأس مما فى أيدى الناس

اعلم أن الفقر محمود ـ كما أوردناه فى كتاب الفقر ـ ولكن ينبغى أن يكون الفقير قانعا منقطع الطمع عن الخلق غير ملتفت إلى مافى أيديهم ولا حريصا على اكتساب المال كيف كان ، ولا يمكنه ذلك إلابأن يقنع بقدر الضرورة

من المطعم والملبس والمسكن ، ويقتصر على أقله قدرا وأخسه نوعا ، ويرد أمله إلى يومه أو إلى شهره ، ولا يشغل قلبه بما بعد شهر . فإن تشوق إلى الكثير أو طول أمله فاته عز القناعة وتدنس لا محالة بالطمع وذل الحرص ، وجرّه الحرص والطمع إلى مساوئ الأخلاق وارتكاب المنكرات الخارقة للمروءات ، وقد جبل الآدمى على الحرص والطمع وقلة القناعة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لا بتغى لهما ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب [١] » وعن أبى واقد الليثى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوحى إليه أتيناه يعلمنا مما أوحى إليه ، فجئته ذات يوم فقال « إن الله عز وجل يقول : إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، ولو كان لابن آدم واد من ذهب لأحب أن يكون له ثان ولو كان له الثانى لأحب أن يكون لهما ثالث ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب [٢] » وقال أبو موسى الأشعرى : نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت وحفظ منها : إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم ولو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى واديا ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب [٣] . وقال صلى الله عليه وسلم « منهومان لا يشبعان منهوم العلم ومنهوم المال [٤] » وقال صلى الله عليه وسلم « يهرم ابن ادم ويشب معه اثنتان : الأمل وحب المال » أو كما قال [٥] .

ولما كانت هذه جبلة للآدمى مضلة وغريزة مهلكة اثنى الله تعالى ورسوله على القناعة فقال صلى الله عليه وسلم طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به [٦] » وقال صلى الله عليه وسلم « ما من أحد فقير ولا غنى إلا ود يوم القيامة أنه كان أوتى قوتا فى الدنيا [٧] » وقال صلى الله عليه وسلم « ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس [٨] » ونهى عن شدة الحرص والمبالغة فى الطلب فقال « أيها الناس أجملوا فى الطلب فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له ولن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له من الدنيا وهى راغمة [٩] » وروى أن موسى عليه السلام سأل ربه تعالى فقال : أى عبادك أغنى ؟ قال : أقنعهم بما أعطيته ، قال : فأيهم أعدل ؟ قال : من أنصف من نفسه . وقال ابن مسعود : قال رسول الله ﷺ « إن روح القدس نفث فى روعى إن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب » [١٠] وقال أبو هريرة : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أبا هريرة إذا اشتد بك الجوع فعليك برغيف وكوز من ماء وعلى الدنيا الدمار » وقال أبو هريرة رضى الله عنه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كن ورعا ، تكن أعبد الناس وكن قنعا تكن أشكر الناس ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنا [١١] » .

---

(١) حديث « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثا ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن عباس وأنس
(٢) حديث أبى واقد الليثى « إن الله عز وجل يقول : إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة : ... الحديث » أخرجه أحمد والبيهقى فى الشعب بسند صحيح (٣) حديث أبى موسى : نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت وحفظ منها : إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم لو أن لابن آدم واديين من مال ... الحديث » أخرجه مسلم مع اختلاف دون قوله « إن الله يؤيد هذا الدين » ورواه بهذه الزيادة الطبرانى وفيه على بن زيد متكلم فيه (٤) حديث « منهومان لا يشبعان ... الحديث » أخرجه الطبرانى من حديث ابن مسعود بسند ضعيف (٥) حديث يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان ... الحديث » متفق عليه من حديث أنس
(٦) حديث طوبى لمن هدى للاسلام وكان عيشه كفافا وقنع به » أخرجه الترمذى وصححه والنسائى فى الكبرى من حديث فضالة ابن عبيد ولمسلم من حديث عبد الله بن عمر « وقد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه » (٧) حديث « ما من أحد غنى ولا فقير إلا ود يوم القيامة أنه كان أوتى فى الدنيا قوتا » أخرجه ابن ماجه من رواية نفيع بن الحارث عن أنس ونفيع ضعيف
(٨) حديث « ليس الغنى عن كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس » متفق عليه من حديث أبى هريرة (٩) حديث « ألا أيها الناس أجملوا فى الطلب فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له » أخرجه الحاكم من حديث جابر بنحوه وصحح إسناده ، وقد تقدم فى آداب الكسب والمعاش . (١٠) حديث ابن مسعود « إن روح القدس نفث فى روعى أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى القناعة والحاكم مع اختلاف وقد تقدم فيه (١١) حديث أبى هريرة « كن ورعا تكن أعبد الناس ... الحديث » أخرجه ابن ماجه وقد تقدم .

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطمع فيما رواه أبو أيوب الأنصارى : أنّ اعرابيا اتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله عظنى وأوجز فقال « إذا صليت فصل صلاة مودع ولاتحدثن بحديث تعتذر منه غدا ، وأجمع اليأس مما فى أيدي الناس [١] » وقال عوف بن مالك الأشجعى : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أو ثمانية أو سبعة ـ فقال « ألا تبايعون رسول الله » قلنا : أوليس قد بايعناك يارسول الله ؟ ثم قال « ألا تبايعون رسول الله » فبسطنا أيدينا فبايعناه فقال قائل منا : قد بايعناك فعلى ماذا نبايعك ؟ قال « أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وتصلوا الخمس ، وأن تسمعوا وتطيعوا » وأسر كلمة خفية « ولا تسألوا الناس شيئا [٢] » قال : فلقد كان بعض أولئك النفر يسقط سوطه فلا يسأل أحداً أن يناوله إياه .

الآثار : قال عمر رضى الله عنه : إنّ الطمع فقر وإنّ اليأس غنى وإنه من ييأس عما فى أيدى الناس استغنى عنهم وقيل لبعض الحكماء : ما الغنى ؟ قال : قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك ، وفى ذلك قيل :

العيش ساعات تمــرّ وخطوب أيام تكرّ

اقنــع بعيشك ترضه واترك هواك تعيش حرّ

فلرب حتف ســاقه ذهب وياقـــوت ودرّ

وكان محمد بن واسع يبل الخبز اليابس بالماء ويأكل ويقول : من قنع بهذا لم يحتج إلى أحد . وقال سفيان : خير دنياكم مالم تبتلوا به وخير ماابتليتم به ماخرج من أيديكم وقال ابن مسعود : مامن يوم إلا وملك ينادى : ياابن آدم قليل يكفيك خير من كثير يطغيك . وقال سميط بن عجلان : إنما بطنك ياابن آدم شبر فى شبر فلم يدخلك النار ؟ وقيل لحكيم : ما مالك ؟ قال : التجمل فى الظاهر والقصد فى الباطن واليأس مما فى أيدى الناس . ويروى أن الله عزوجل قال : ياابن آدم لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها إلا القوت ، وإذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فأنا إليك محسن . وقال ابن مسعود : إذا طلب أحدكم الحاجة فليطلبها طلبا يسيرا ولا يأتى الرجل فيقول : إنك وإنك فيقطع ظهره ، فإنما يأتيه ماقسم له من الرزق أو مارزق . وكتب بعض بنى أمية إلى إبى حازم ـ يعزم عليه إلا رفع إليه حوائجه ـ فكتب إليه : قد رفعت حوائجى إلى مولاى فما أعطانى منها قبلت وما أمسك عنى قنعت . وقيل لبعض الحكماء : أى شيء أسر للعاقل وإيما شيء أعون على دفع الحزن ؟ فقال : أسرها إليه ماقدم من صالح العمل ، وأعونها له على دفع الحزن الرضا بمحتوم القضاء وقال بعض الحكماء : وجدت أطول الناس غما الحسود ، وأهنأهم عيشا القنوع ، وأصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع ، وأخفضهم عيشا أرفضهم للدنيا ، وأعظمهم ندامة العالم المفرط . وفى ذلك قيل :

أرفه ببـال فتى أمسى على ثقـة أنّ الذى قسم الأرزاق يرزقه

فالعرض منه مصون لا يدنسه والوجه منه جديد ليس يخلقـه

إنّ القنـاعة من يحلـل بساحتها لم يـلق فى دهره شيئا يؤرّقه

---

(١) حديث أبي أيوب « إذا صليت فصل صلاة مودع ولاتحدثن بحديث تعتذر منه وأجمع اليأس مما فى أيدى الناس » أخرجه ابن ماجه وتقدم فى الصلاة والحاكم نحوه من حديث سعد بن أبي وقاص وقال صحيح الإسناد (٢) حديث عوف بن مالك : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ سبعة أو ثمانية أو تسعة ـ فقال « ألا تبايعون ... الحديث » وفيه « ولا تسألوا الناس » أخرجه مسلم من حديثه ولم يقل : فقال قائل ولا قال : تسمعوا . وقال : سوط أحدهم . وهى عند أبي داود وابن ماجه كما ذكرها المصنف .

وقد قيل أيضا :

حتى متى أنا فى حل وترحال   وطول سعى وإدبار وإقبال
ونازح الدار لاأنفك مغتربا   عن الأحبة لايدرون ماحالى
بمشرق الأرض طورا ثم مغربها   لايخطر الموت من حرصى على بالى
ولو قنعت أتانى الرزق فى دعه   إنّ القنوع الغنى لا كثرة المال

وقال عمر رضى الله عنه : ألا أخبركم بما أستحل من مال الله تعالى : حلتان لشتائى وقيظى ، وما يسعنى من الظهر لحجى وعمرتى ، وقوتى بعد ذلك كقوت رجل من قريش لست بأرفعهم ولا بأوضعهم ، فوالله ما أدرى أيحل ذلك أم لا ؟ كأنه شك فى أنّ هذا القدر هل هو زيادة على الكفاية التى تجب القناعة بها ؟ وعاتب أعرابى أخاه على الحرص فقال يا أخى أنت طالب ومطلوب ، يطلبك من لا تفوته وتطلب أنت ما قد كفيته ، وكأنّ ماغاب عنك قد كشف لك ، وما أنت فيه قد نقلت عنه ، كأنك يا أخى لم تر حريصا محروما وزاهدا مرزوقا . وفى ذلك قيل :

أراك يزيدك الإثراء حرصا   على الدنيا كأنك لا تموت
فهل لك غاية إن صرت يوما   إليها قلت حسبى قد رضيت

وقال الشعبى : حكى أنّ رجلا صاد قنبرة فقالت : ما تريد أن تصنع بى ؟ قال : أذبحك وآكلك ، قالت : والله ما أشفى من قرم ولا أشبع من جوع ولكن أعلمك ثلاث خصال هى خير لك من أكلى : أما واحدة : فأعلمك وأنا فى يدك ، وأما الثانية : فإذا صرت على الشجرة ، وأما الثالثة : فإذا صرت على الجبل ، قال : هات الأولى ، قالت : لاتلهفن على ما فاتك ، فخلاها فلما صارت على الشجرة قال : هات الثانية : قالت : لاتصدقن بما لا يكون أنه يكون ، ثم طارت فصارت على الجبل فقالت : ياشقى لو ذبحتنى لأخرجت من حوصلتى درتين زنة كل درة عشرون مثقالا ، قال : فعض على شفته وتلهف وقال : هات الثالثة ، قالت : أنت قد نسيت اثنتين فكيف أخبرك بالثالثة ؟ ألم أقل لك : لاتلهفن على مافاتك ولا تصدقن بما لا يكون أن يكون ، أنا لحمى ودمى وريشى لايكون عشرين مثقالا فكيف يكون فى حوصلتى درتان كل واحدة عشرون مثقالا ؟ ثم طارت فذهبت . وهذا مثال لفرط طمع الآدمى فإنه يعميه عن درك الحق حتى يقدر مالا يكون أنه يكون . وقال ابن السماك : إن الرجاء حبل فى قلبك وقيد فى رجلك فأخرج الرجاء من قلبك يخرج القيد من رجلك . وقال أبو محمد اليزيدى : دخلت على الرشيد فوجدته ينظر فى ورقة مكتوب فيها بالذهب ، فلما رآنى تبسم ، فقلت : فائدة أصلح الله أمير المؤمنين ؟ قال : نعم وجدت هذين البيتين فى بعض خزائن بنى أمية فاستحسنتهما وقد أضفت إليهما ثالثا . وأنشدنى :

إذا سدّ باب عنك من دون حاجة   فدعه لأخرى ينفتح لك بابها
فإن قراب البطن يكفيك ملؤه   ويكفيك سوءات الأمور اجتنابها
ولاتك مبذالا لعرضك واجتنب   ركوب المعاصى يجتنبك عقابها

وقال عبد الله بن سلام لكعب : ما يذهب العلوم من قلوب العلماء إذ وعوها وعقلوها ؟ قال : الطمع وشره النفس وطلب الحوائج . وقال رجل للفضيل : فسر لى قول كعب ، قال : يطمع الرجل فى الشىء يطلبه فيذهب عليه دينه ، وأما الشره فشره النفس فى هذا حتى لا تحب أن يفوتها شىء ، ويكون لك إلى هذا حاجة وإلى هذا حاجة فإذا قضاها لك خزم أنفك وقادك حيث شاء واستمكن منك وخضعت له . فمن حبك للدنيا سلمت عليه

إذا مررت به وعدته إذا مرض ؛ لم تسلم عليه لله عز وجل ولم تعده لله ، فلو لم يكن لك إليه حاجة كان خيراً لك . ثم قال : هذا خير لك من مائة حديث عن فلان عن فلان . قال بعض الحكماء : من عجيب أمر الإنسان انه لو نودى بدوام البقاء فى أيام الدنيا لم يكن فى قوى خلقته من الحرص على الجمع أكثر مما قد استعمله مع قصر مدة التمتع وتوقع الزوال . وقال عبد الواحد بن زيد : مررت براهب فقلت له : من أين تأكل ؟ قال : من بيدر اللطيف الخبير ، الذى خلق الرحا يأتيها بالطحين - وأومأ بيده إلى رحا أضراسه - فسبحان القدير الخبير .

بيان علاج الحرص والطمع ، والدواء الذى يكتسب به صفة القناعة

اعلم أن هذا الدواء مركب من ثلاثة أركان : الصبر والعلم والعمل ، ومجموع ذلك خمسة أمور :

الأول : وهو العمل ؛ الاقتصاد فى المعيشة والرفق فى الإنفاق ، فمن أراد عز القناعة فينبغى أن يسد عن نفسه أبواب الخروج ما أمكنه ويرد نفسه إلا مالا بد له منه ، فمن كثر خرجه واتسع إنفاقه لم تمكنه القناعة ، بل إن كان وحده فينبغى أن يقنع بثوب واحد خشن ، ويقنع بأى طعام كان ؛ ويقلل من الإدام ما أمكنه ، ويوطن نفسه عليه وإن كان له عيال فيرد كل واحد إلى هذا القدر ؛ فإن هذا القدر يتيسر بأدنى جهد . ويمكن معه الإجمال فى الطلب والاقتصاد فى المعيشة وهو الأصل فى القناعة ؛ ونعنى به الرفق فى الإنفاق وترك الخرق فيه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب الرفق فى الأمر كله » (١) وقال صلى الله عليه وسلم « ماعال من اقتصد (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاث منجيات ؛ خشية الله فى السر والعلانية ، والقصد فى الغنى والفقر ، والعدل فى الرضا والغضب (٣) » وروى أن رجلا أبصر أبا الدرداء يلتقط حبا من الأرض وهو يقول : إن من فقهك رفقك فى معيشتك . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : قال النبى صلى الله عليه وسلم « الاقتصاد وحسن السمت والهدى الصالح جزء من بضع وعشرين جزءا من النبوة (٤) » .

وفى الخبر « التدبير نصف المعيشة (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « من اقتصد أغناه الله ومن بذر أفقره الله ومن ذكر الله عز وجل أحبه الله (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا أردت أمراً فعليك بالتؤدة حتى يجعل الله لك فرجا ومخرجا (٧) » والتؤدة فى الإنفاق من أهم الأمور .

الثانى : أنه إذا تيسر له فى الحال ما يكفيه فلا ينبغى أن يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل ، ويعينه على ذلك قصر الأمل ، والتحقق بأن الرزق الذى قدر له لابد وأن يأتيه وإن لم يشتد حرصه ، فإن شدة الحرص ليست هى السبب لوصول الأرزاق ، بل ينبغى أن يكون واثقاً بوعد الله تعالى إذ قال عز وجل ﴿ ومامن دابة فى الأرض

---

(١) حديث « ان الله يحب الرفق فى الأمر كله » متفق عليه من حديث عائشة وقد تقدم (٢) حديث « ماعال من اقتصد » أخرجه أحمد والطبرانى من حديث ابن مسعود ورواه من حديث ابن عباس بلفظ « مقتصد » (٣) حديث « ثلاث منجيات : خشية الله فى السر والعلانية والقصد فى الغنى والفقر والعدل فى الرضا والغضب » أخرجه البزار والطبرانى وأبو نعيم والبيهقى فى الشعب من حديث أنس بسند ضعيف (٤) حديث ابن عباس « الاقتصاد وحسن السمت والهدى الصالح جزء من بضع وعشرين جزءا من النبوة » أخرجه أبو داود من حديث ابن عباس مع تقديم وتأخير وقال « السمت الصالح » وقال « من خمسة وعشرين » ورواه الترمذى وحسنه من حديث عبد الله بن سرجس وقال « التؤدة » بدل « الهدى الصالح » وقال « من أربعة » (٥) حديث « التدبير نصف المعيشة » رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس وفيه خلاد بن عيسى جهله العقيلى ووثقه ابن معين . (٦) حديث « من اقتصد أغناه الله ... الحديث » أخرجه البزار من حديث طلحة بن عبيد الله دون قوله « ومن ذكر الله أحبه الله » وشيخه فيه عمران بن هارون البصرى قال الذهبى : شيخ لايعرف حاله أتى بخبر منكر أى هذا الحديث ، ولأحمد وأبى يعلى فى حديث لأبى سعيد « ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله » (٧) حديث « اذا أردت أمرا فعليك بالتؤدة حتى يجعل الله فيه فرجا ومخرجا » رواه ابن المبارك فى البر والصلة وقد تقدم

إلا على الله رزقها ﴾ وذلك لأن الشيطان يعده الفقر ويأمره بالفحشاء ويقول : إن لم تحرص على الجمع والادخار فربما تمرض وربما تعجز وتحتاج إلى احتمال الذل فى السؤال ، فلا يزال طول العمر يتعبه فى الطلب خوفا من الفقر ، ويضحك عليه فى احتماله التعب نقدا مع الغفلة عن الله لتوهم تعب فى ثانى الحال وربما لا يكون . وفى مثله قيل :

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله مخافه فقر فالذى فعل : الفقر

وقد دخلا ابنا خالد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهما « لاتيأسا من الرزق ماتهزهزت رءوسكما فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشر ثم يرزقه الله تعالى (١) » ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بابن مسعود وهو حزين فقال له « لا تكثر همك ما قدر يكن وما ترزق يأتك (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « ألا أيها الناس أجملوا فى الطلب فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له ولن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له من الدنيا وهى راغمة (٣) » ولا ينفك الإنسان عن الحرص إلا بحسن ثقته بتدبير الله تعالى فى تقدير أرزاق العباد ، وأن ذلك يحصل لا محالة مع الإجمال فى الطلب ، بل ينبغى أن يعلم أن رزق الله للعبد من حيث لا يحتسب أكثر قال الله تعالى ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ فإذا انسد عليه باب كان ينتظر الرزق منه فلا ينبغى أن يضطرب قلبه لأجله ، وقال صلى الله عليه وسلم « أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب (٤) » وقال سفيان : اتق الله فما رأيت تقيا محتاجا . أى لا يترك التقى فاقدا لضرورته ، بل يلقى الله فى قلوب المسلمين أن يوصلوا إليه رزقه . وقال المفضل الضبى : قلت لأعرابى من أين معاشك ؟ قال نذر الحاج ، قلت : فإذا صدروا ، فبكى وقال : لولم نعش إلا من حيث ندرى لم نعش ، وقال أبو حازم رضى الله عنه : وجدت الدنيا شيئين : شيئا منهما هو لى ، فلن أعجله قبل وقته ولو طلبته بقوة السماوات والأرض . وشيئا منهما هو لغيرى فلذلك لم أناله فيما مضى فلا أرجوه فيما بقى ، يمنع الذى لغيرى منى كما يمنع الذى لى من غيرى ، ففى أى هذين أفنى عمرى ؟ فهذا دواء من جهة المعرفة لابد منه لدفع تخويف الشيطان . وإنذاره بالفقر .

الثالث : أن يعرف ما فى القناعة من عز الاستغناء وما فى الحرص والطمع من الذل ، فإذا تحقق عنده ذلك انبعثت رغبته إلى القناعة لأنه فى الحرص لا يخلو من تعب ، وفى الطمع لا يخلو من ذل . وليس فى القناعة إلا ألم الصبر عن الشهوات والفضول . وهذا ألم لا يطلع عليه أحد إلا الله وفيه ثواب الآخرة . وذلك مما يضاف إليه نظر الناس وفيه الوبال والمأثم . ثم يفوته عز النفس والقدرة على متابعة الحق فإن من كثر طمعه وحرصه كثرت حاجته إلى الناس فلا يمكنه دعوتهم إلى الحق ويلزمه المداهنة ، وذلك يهلك دينه ومن لا يؤثر عز النفس على شهوة البطن فهو ركيك العقل ناقص الإيمان ، قال صلى الله عليه وسلم « عز المؤمن استغناؤه عن الناس (٥) » ففى القناعة الحرية

---

(١) حديث « لاتيأسا من الرزق ماتهزهزت رءوسكما ... الحديث » رواه ابن ماجه من حديث : حبة وسواء ابنى خالد ، وقد تقدم . (٢) حديث « لاتكثر همك ماقدر يكن وما ترزق يأتك » قاله لابن مسعود أخرجه أبو نعيم من حديث خالد بن رافع وقد اختلف فى صحبته ورواه الأصفهانى فى الترغيب والترهيب من رواية مالك بن عمرو المغافرى مرسلا

(٣) حديث « ألا أيها الناس أجملوا فى الطلب ... الحديث » تقدم قبل هذا بثلاثة عشر حديثا .

(٤) حديث « أبى الله أن يرزق عبده المؤمن الا من حيث لايحتسب » أخرجه ابن حبان فى الضعفاء من حديث على بإسناد رواه ، ورواه ابن الجوزى فى الموضوعات . (٥) حديث « عز المؤمن استغناؤه عن الناس » أخرجه الطبرانى فى الأوسط والحاكم وصحح إسناده ، وأبو الشيخ فى كتاب الثواب ، وأبو نعيم فى الحلية من حديث سهل بن سعد : أن جبريل قاله للنبى صلى الله عليه وسلم فى أثناء حديث ، وفيه زفر بن سليمان عن محمد بن عيينة وكلاهما مختلف فيه وجعله القضاعى فى مسند الشهاب من قول النبى صلى الله عليه وسلم

والعز . ولذلك قيل : استغن عمن شئت تكن نظيره واحتج إلى من شئت تكن أسيره وأحسن إلى من شئت تكن أميره .

الرابع : أن يكثر تأمله فى تنعم اليهود والنصارى وأراذل الناس والحمقى من الأكراد والأعراب الأجلاف ومن لا دين لهم ولا عقل. ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء والأولياء وإلى سمت الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة والتابعين ويستمع أحاديثهم ويطالع أحوالهم . ويخير عقله بين أن يكون على مشابهة أراذل الناس أو على الاقتداء بمن هو أعز أصناف الخلق عند الله ، حتى يهون عليه بذلك الصبر على الضنك والقناعة باليسير ، فإنه إن تنعم فى البطن فالحمار أكثر أكلا منه وإن تنعم فى الوقاع فالخنزير أعلى رتبة منه ، وإن تزين فى الملبس والحلى ففى اليهود من هو أعلى زينة منه ، وإن قنع بالقليل ورضى به لم يساهمه فى رتبته إلا الأنبياء والأولياء .

الخامس : أن يفهم مافى جمع المال من الخطر - كما ذكرنا فى آفات المال - وما فيه من خوف السرقة والنهب والضياع ؛ ومافى خلو اليد من الأمن والفراغ ، ويتأمل ماذكرناه فى آفات المال مع مايفوته من المدافعة عن باب الجنة إلى خمسمائة عام ، فإنه إذا لم يقنع بما يكفيه ألحق بزمرة الأغنياء وأخرج من جريدة الفقراء . ويتم ذلك بأن ينظر أبدا إلى من دونه فى الدنيا لا إلى من فوقه ، فإن الشيطان أبدا يصرف نظره فى الدنيا إلى من فوقه فيقول : لم تفتر عن الطلب وأرباب الأموال يتنعمون فى المطاعم والملابس ؟ ويصرف نظره فى الدين إلى من دونه فيقول : ولم تضيق على نفسك وتخاف الله وفلان أعلم منك وهو لايخاف الله ؟ والناس كلهم مشغولون بالتنعم فلم تريد أن تتميز عنهم ؟ قال أبو ذر : أوصانى خليلى صلوات الله عليه أن أنظر إلى من هو دونى لا إلى من هو فوقى [1] أى فى الدنيا . وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا نظر أحدكم إلى من فضله الله عليه فى المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فضل عليه [2] » فبهذه الأمور يقدر على اكتساب خلق القناعة . وعماد الأمر الصبر وقصر الأمل ، وأن يعلم أن غاية صبره فى الدنيا أيام قلائل للتمتع دهرا طويلا ، فيكون كالمريض الذى يصبر على مرارة الدواء لشدة طمعه فى انتظار الشفاء .

بيان فضيلة السخاء

اعلم أن المال إن كان مفقوداً فينبغى أن يكون حال العبد القناعة وقلة الحرص ، وإن كان موجودا فينبغى أن يكون حاله الإيثار والسخاء واصطناع المعروف والتباعد عن الشح والبخل ، فإن السخاء من أخلاق الأنبياء عليهم السلام وهو أصل من أصول النجاة . وعنه عبر النبى صلى الله عليه وسلم حيث قال « السخاء شجرة من شجر الجنة أغصانها متدلية إلى الأرض فمن أخذ بغصن منها قاده ذلك الغصن إلى الجنة [3] » وقال جابر . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال جبريل عليه السلام . قال الله تعالى إن هـذا دين ارتضيته لنفسى ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما استطعتما [4] » وفى رواية « فأكرموه بهما ما صحبتموه » وعن عائشة الصديقية رضى

(١) حديث أبى ذر : أوصانى خليلى صلى الله عليه وسلم أن أنظر الى من هو دونى ولا أنظر لمن هو فوق » أخرجه أحمد وابن حبان فى أثناء حديث وقد تقدم (٢) حديث أبى هريرة « اذا نظر أحدكم الى من فضله الله عليه فى المال والخلق فلينظر الى من هو أسفل منه ممن فضل عليه » متفق عليه وقد تقدم . (٣) حديث « السخاء شجرة فى الجنة... الحديث » أخرجه ابن حبان فى الضعفاء من حديث عائشة وابن عدى والدارقطنى فى المستجاد من حديث أبى هريرة وسيأتى بعده وأبو نعيم من حديث جابر وكلاهما ضعيف ورواه ابن الجوزى فى الموضوعات من حديثهم ومن حديث الحسين وأبى سعيد (٤) حديث جابر مرفوعا حكاية عن جبريل عن الله تعالى « ان هذا دين رضيته لنفسى ولن يصلحه الا السخاء وحسن الخلق » أخرجه الدارقطنى فى المستجاد وقد تقدم

الله عنها قالت . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما جبل الله تعالى وليا له إلا على حسن الخلق والسخاء[١]» وعن جابر قال . قيل يارسول الله أى الأعمال أفضل ؟ قال « الصبر والسماحة[٢] » وقال عبد الله بن عمرو . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خلقان يحبهما الله عز وجل وخلقان يبغضهما الله عز وجل ، فأما اللذان يحبهما الله تعالى فحسن الخلق والسخاء ، وأما اللذان يبغضهما الله فسوء الخلق والبخل ، وإذا أراد الله بعبد خيرا استعمله فى قضاء حوائج الناس[٣] » وروى المقدام بن شريح عن أبيه عن جده قال قلت يارسول الله دلنى على عمل يدخلنى الجنة قال « إن موجبات المغفرة بذل الطعام وإفشاء السلام وحسن الكلام[٤] » وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « السخاء شجرة فى الجنة فمن كان سخيا أخذ بغصن منها فلم يتركه ذلك الغصن حتى يدخله الجنة[٥] » وقال أبو سعيد الخدرى . قال النبى صلى الله عليه وسلم «يقول الله تعالى أطلبوا الفضل من الرحماء من عبادى تعيشوا فى أكنافهم فإنى جعلت فيهم رحمتى ، ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم فإنى جعلت فيهم سخطى[٦] » وعن ابن عباس قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تجافوا عن ذنب السخى فإن الله آخذ بيده كلما عثر[٧] » وقال ابن مسعود قال صلى الله عليه وسلم « الرزق إلى مطعم الطعام أسرع من السكين إلى ذروة البعير وإن الله تعالى ليباهى بمطعم الطعام الملائكة عليهم السلام[٨] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله جواد يحب الجود ويحب مكارم الأخلاق ويكره سفسافها[٩] » وقال أنس . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسأل على الإسلام شيئا إلا

---

(١) حديث عائشة «ماجبل الله وليا له الا على السخاء وحسن الخلق» أخرجه الدارقطنى فى المستجاد دون قوله « وحسن الخلق» بسند ضعيف ومن طريقه ابن الجوزى فى الموضوعات وذكره بهذه الزيادة ابن عدى من رواية بقية عن يوسف بن أبى السفر عن الأوزاعى عن الزهرى عن عروة عن عائشة ، ويوسف ضعيف جدا (٢) حديث جابر : أى الإيمان أفضل ؟ قال «الصبر والسماحة» أخرجه أبو يعلى وابن حبان فى الضعفاء بلفظ : سئل عن الإيمان. وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر ضعفه الجمهور ورواه أحمد من حديث عائشة وعمرو بن عنبسة بلفظ : ما الإيمان؟ قال « الصبر والسماحة » وفيه شهر بن حوشب ورواه البيهقى فى الزهد بلفظ: أى الأعمال أفضل قال « الصبر والسماحة وحسن الخلق » واسناده صحيح (٣) حديث عبدالله بن عمرو «خلقان يحبهما الله وخلقان يبغضهما الله ، فأما اللذان يحبهما الله فحسن الخلق والسخاء ... الحديث » أخرجه أبو منصور الديلمى دون قوله فى آخره « وإذا أراد الله بعبد خيرا » وقال فيه « الشجاعة » بدل « حسن الخلق » وفيه محمد بن يونس الكديمى كذبه أبو داود وموسى بن هرون وغيرهما ووثقه الخطيب ، وروى الأصفهانى جميع الحديث موقوفا على عبد الله بن عمرو ، وروى الديلمى أيضاً من حديث أنس « إذا أراد الله بعبده خيرا صير حوائج الناس إليه » وفيه يحيى بن شبيب ضعفه ابن حبان (٤) حديث المقدام بن شريح عن أبيه عن جده « ان من موجبات المغفرة بذل الطعام وافشاء السلام وحسن الكلام » أخرجه الطبرانى بلفظ « بذل السلام وحسن الكلام » وفى رواية له « يوجب الجنة إطعام الطعام وافشاء السلام » وفى رواية له « عليك بحسن الكلام وبذل الطعام » (٥) حديث أبى هريرة « السخاء شجرة فى الجنة ... الحديث » وفيه « والشح شجرة فى النار... الحديث» أخرجه الدارقطنى فى المستجاد وفيه عبدالعزيز ابن عمران الزهرى ضعيف جدا (٦) حديث أبى سعيد « يقول الله تعالى اطلبوا الفضل من الرحماء من عبادى تعيشوا فى أكنافهم ... الحديث » أخرجه ابن حبان فى الضعفاء والخرائطى فى مكارم الأخلاق والطبرانى فى الأوسط وفيه محمد بن مروان السدى الصغير ضعيف ، ورواه العقيلى فى الضعفاء فجعله عبد الرحمن السدى وقال إنه مجهول ، وتابع محمد بن مروان السدى عليه عبد الملك ابن الخطاب وقد غمزه ابن القطان ، وتابعه عليه عبد الغفار بن الحسن بن دينار قال فيه أبو حاتم لابأس بحديثه وتكلم فيه الجوزجانى والأزدى ، ورواه الحاكم من حديث على وقال إنه صحيح الإسناد وليس كما قال .

(٧) حديث ابن عباس « تجافوا عن ذنب السخى فإن الله آخذ بيده كلما عثر » أخرجه الطبرانى فى الأوسط والخرائطى فى مكارم الأخلاق . وقال الخرائطى « أقيلوا السخى زلته » وفيه ليث بن أبى سليم مختلف فيه ورواه الطبرانى فيه وأبو نعيم من حديث ابن مسعود نحوه بإسناد ضعيف ورواه ابن الجوزى فى الموضوعات من طريق الدارقطنى (٨) حديث ابن مسعود « الرزق إلى مطعم الطعام أسرع من السكين إلى ذروة البعير ... الحديث » لم أجده من حديث ابن مسعود ورواه ابن ماجه من حديث أنس ومن حديث ابن عباس بلفظ « الخير أسرع إلى البيت الذى يغشى » وفى حديث ابن عباس « يؤكل فيه من الشفرة إلى سنام البعير » ولأبى الشيخ فى كتاب الثواب من حديث جابر « الرزق إلى أهل البيت الذى فيه السخاء ... الحديث» وكلها ضعيفة (٩) حديث « إن الله جواد يحب الجود ويحب معالى الأمور ويكره سفسافها » أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث طلحة بن عبيد الله ابن كريز وهذا مرسل وللطبرانى فى الكبير والأوسط والحاكم والبيهقى من حديث سهل بن سعد « ان الله كريم يحب الكرم ويحب معالى الأمور » وفى الكبير والبيهقى « معالى الأخلاق ... الحديث » واسناده صحيح وتقدم آخر الحديث فى أخلاق النبوة

أعطاه ، وأتاه رجل فسأله فأمر له بشاء كثير بين جبلين من شاء الصدقة ، فرجع إلى قومه فقال : ياقوم أسلموا ؛ فإن محمدا يعطى عطاء من لايخاف الفاقة [١] ، وقال ابن عمر : قال صلى الله عليه وآله وسلم « إن لله عبادا يخصهم بالنعم لمنافع العباد ، فمن بخل بتلك المنافع على العباد نقلها الله تعالى عنه وحولها إلى غيره [٢] ، وعن الهلالى قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأسرى من بنى العنبر فأمر بقتلهم وأفرد منهم رجلا ، فقال على بن أبى طالب كرّم الله وجهه : يارسول الله الرب واحد والدين واحد والذنب واحد فمابال هذا من بينهم ؟ فقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « نزل على جبريل فقال « اقتل هؤلاء واترك هذا فإن الله تعالى شكر له سخاء فيه [٣] ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم « إن لكل شىء ثمرة وثمرة المعروف تعجيل السراح [٤] ، وعن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء [٥] ، وقال صلى الله عليه وسلم « من عظمت نعمة الله عنده عظمت مؤنة الناس عليه [٦] ، فمن لم يحتمل تلك المؤنة عرض تلك النعمة للزوال . وقال عيسى عليه السلام : استكثروا من شىء لاتأكله النار ، وقيل : وما هو ؟ قال : المعروف . وقالت عائشة رضى الله عنها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الجنة دار الأسخياء [٧] ، وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن السخى قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار ، وإنّ البخيل بعيد من الله من الناس بعيد من الجنة قريب من النار ، وجاهل سخى أحب إلى الله من عالم بخيل ، وأدوأ الداء البخل [٨] ، وقال صلى الله عليه وسلم « اصنع المعروف إلى من هو أهله وإلى من ليس بأهله ، فإن أصبت أهله فقد أصبت أهله ، وإن لم تصب أهله فأنت من أهله [٩] ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « إنّ بدلاء أمتى لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام ولكن دخلوها بسخاء الأنفس وسلامة الصدور والنصح للمسلمين [١٠] ، وقال أبو سعيد الخدرى : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن

---

(١) حديث أنس : لم يسأل على الإسلام شيئا إلا أعطاه فأتاه رجل فسأله ، فأمر له بشاء كثير بين جبلين ... الحديث . أخرجه مسلم وتقدم فى أخلاق النبوة

(٢) حديث ابن عمر « إن لله عبادا يخصهم بالنعم لمنافع العباد ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى الكبير والأوسط وأبو نعيم وفيه محمد بن حسان السمتى وفيه لين ووثقه ابن معين يرويه عن أبى عثمان عبد الله بن زيد الحمصى ضعفه الأزدى (٣) حديث الهلالى : أتى النبي صلى الله عليه وسلم بأسرى من بنى العنبر فأمر بقتلهم وأفرد منهم رجلا ... الحديث » وفيه « فإن الله شكر له سخاء فيه » لم أجد له أصلا (٤) حديث « إن لكل شىء ثمرة وثمرة المعروف تعجيل السراح » لم أقف له على أصل (٥) حديث نافع عن ابن عمر « طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء » أخرجه ابن عدى والدارقطنى فى غرائب مالك وأبو على الصدفى فى عواليه رجاله ثقات أئمة قال ابن القطان ولنهم لمشاهير ثقات إلا مقدام بن داود فإن أهل مصر تكلموا فيه .

(٥) حديث « من عظمت نعمة الله عليه عظمت مؤنة الناس عليه » رواه ابن عدى وابن حبان فى الضعفاء من حديث معاذ بلفظ « ماعظمت نعمة الله على عبد إلا ذكره » وفيه أحمد بن مهران قال أبو حاتم مجهول والحديث باطل ورواه الخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث عمر بإسناد منقطع ، وفيه حليس بن محمد أحد المتروكين ، ورواه العقيلى من حديث ابن عباس قال ابن عدى يروى من وجوه كلها غير محفوظة (٧) حديث عائشة « الجنة دار الأسخياء » أخرجه ابن عدى والدارقطنى فى المستجاد والخرائطى قال الدارقطنى لايصح ومن طريقه رواه ابن الجوزى فى الموضوعات . وقال الذهبى حديث منكر ما آفته سوى جحدر قلت رواه الدارقطنى فيه من طريق آخر وفيه محمد بن الوليد الموقرى وهو ضعيف جدا (٨) حديث أبى هريرة « إن السخى قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة .. الحديث » أخرجه الترمذى وقال غريب ولم يذكر فيه « وأدوأ الداء البخل » ورواه بهذه الزيادة الدارقطنى فيه (٩) حديث « اصنع المعروف إلى أهله وإلى من ليس من أهله » أخرجه الدارقطنى فى المستجاد من رواية جعفر بن محمد عن أبيه عن جده مرسلا وتقدم فى آداب المعيشة (١٠) حديث « إن بدلاء أمتى لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام ولكن دخلوها بسماحة الأنفس ... الحديث » أخرجه الدارقطنى فى المستجاد وأبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق من حديث أنس ، وفيه محمد بن عبد العزيز المبارك الدينورى أورد ابن عدى له مناكير ، وفى الميزان انه ضعيف منكر الحديث ، ورواه الخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث أبى سعيد نحوه وفيه صالح المرى متكلم فيه .

الله عز وجل جعل للمعروف وجوها من خلقه حبب إليهم المعروف وحبب إليهم فعاله ووجه طلاب المعروف إليهم ويسر عليهم إعطاءه كما يسر الغيث إلى البلدة الجدبة فيحييها ويحيي به أهلها [١] » وقال صلى الله عليه وسلم « كل معروف صدقة وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة وما وقى به الرجل عرضه فهو له صدقة وما أنفق الرجل من نفقة فعلى الله خلفها [٢] » وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « كل معروف صدقة والدال على الخير كفاعله والله يحب إغاثة اللهفان [٣] » وقال صلى الله عليه وسلم « كل معروف فعلته إلى غني أو فقير صدقة [٤] » وروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام لاتقتل السامري فإنه سخي وقال جابر : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثاً عليهم قيس بن سعد بن عبادة فجهدوا فنحر لهم قيس تسع ركائب فحدثوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال صلى الله عليه وسلم « إن الجود لمن شيمة أهل ذلك البيت [٥] » . الآثار : قال علي كرم الله وجهه : إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق منها فإنها لاتفنى ، وإذا أدبرت عنك فأنفق منها فإنها لاتبقى وأنشد :

لاتبخلن بدنيا وهي مقبلة فليس ينقصها التبذير والسرف
وإن تولت فأحرى أن تجود بها فالحمد منها إذا ما أدبرت خلف

وسأل معاوية الحسن بن علي رضي الله عنهم عن المروءة والنجدة والكرم فقال : أما المروءة فحفظ الرجل دينه وحذره نفسه وحسن قيامه بضيفه وحسن المنازعة والإقدام في الكراهية . وأما النجدة فالذب عن الجار والصبر في المواطن وأما الكرم فالتبرع بالمعروف قبل السؤال والإطعام في المحل والرأفة بالسائل مع بذل النائل . ورفع رجل إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما رقعة فقال حاجتك مقضية فقيل له ياابن رسول الله لو نظرت في رقعته ثم رددت الجواب على قدر ذلك فقال يسألني الله عز وجل عن ذل مقامه بين يدي حتى أقرأ رقعته . وقال ابن السماك عجبت لمن يشتري المماليك بماله ولا يشتري الأحرار بمعروفه . وسئل بعض الأعراب من سيدكم فقال من احتمل شتمنا وأعطى سائلنا وأغضى عن جاهلنا وقال علي بن الحسين رضي الله عنهما من وصف ببذل ماله لطلابه لم يكن سخيا وإنما السخي من يبتدئ بحقوق الله تعالى في أهل طاعته ولا تنازعه نفسه إلى حب الشكر له إذا كان يقينه بثواب الله تعالى تاما . وقيل للحسن البصري ما السخاء ؟ فقال أن تجود بمالك في الله عز وجل . قيل فما الحزم ؟ قال أن تمنع مالك فيه قيل فما الإسراف ؟ قال الإنفاق لحب الرياسة . وقال جعفر الصادق رحمة الله عليه لا مال أعون من العقل ولا مصيبة أعظم من الجهل ولا مظاهرة كالمشاورة ألا وإن الله عز وجل يقول : إني جواد كريم لايجاورني لئيم واللؤم من الكفر وأهل الكفر في النار والجود والكرم من الإيمان وأهل الإيمان في الجنة . وقال حذيفة

---

(١) حديث أبي سعيد « ان الله جعل للمعروف وجوها من خلقه حبب اليهم المعروف ... الحديث » أخرجه الدارقطني في المستجاد من رواية أبي هرون العبدي عنه وأبي هرون ضعيف ورواه الحاكم من حديث علي وصححه (٢) حديث « كل معروف صدقة وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة ... الحديث » أخرجه ابن عدي والدارقطني في المستجاد والخرائطي والبيهقي في الشعب من حديث جابر وفيه عبد الحميد بن الحسن الهلالي وثقه ابن معين وضعفه الجمهور ، والجملة الأولى منه عند البخاري من حديث جابر وعند مسلم من حديث حذيفة (٣) حديث « كل معروف صدقة والدال على الخير كفاعله والله يحب اغاثة اللهفان » أخرجه الدارقطني في المستجاد من رواية الحجاج بن أرطاة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده والحجاج ضعيف وقد جاء مفرقا فالجملة الأولى تقدمت قبله والجملة الثانية تقدمت في العلم من حديث أنس وغيره والجملة الثالثة رواها أبو يعلى من حديث أنس أيضا وفيها زياد النميري ضعيف . (٤) حديث « كل معروف فعلته الى غني أو فقير صدقة » أخرجه الدارقطني فيه من حديث أبي سعيد وجابر والطبراني والخرائطي كلاهما في مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود وابن منيع من حديث ابن عمر باسنادين ضعيفين (٥) حديث جابر : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثاً عليهم قيس بن سعد بن عبادة فجهدوا فنحر لهم ... الحديث . وفيه « فقال ان الجود لمن شيمة أهل ذلك البيت » أخرجه الدارقطني فيه من رواية أبي حمزة الحميري عن جابر ولا يعرف اسمه ولا حاله .

رضى الله عنه رب فاجر فى دينه أخرق فى معيشته يدخل الجنة بسماحته . وروى أنّ الأحنف بن قيس رأى رجلا فى يده درهم فقال لمن هذا الدرهم فقال لى فقال أما إنه ليس لك حتى يخرج من يدك وفى معناه قيل :

أنت للمال إذا امسكته فإذا أنفقته فالمال لك

وسمى واصل بن عطاء : الغزال ، لأنه كان يجلس إلى الغزالين ؛ فإذا رأى امرأة ضعيفة أعطاها شيئا . وقال الأصمعى كتب الحسن بن على إلى الحسين بن على رضوان الله عليهم يعتب عليه فى إعطاء الشعراء فكتب إليه خير المال ماوقى به العرض . وقيل لسفيان بن عيينة ما السخاء ؟ قال السخاء البر بالإخوان والجود بالمال . قال وورث أبى خمسين ألف درهم فبعث بها صررا إلى إخوانه . وقال قد كنت أسأل الله تعالى لأخوانى الجنة فى صلاتى أفأبخل عليهم بالمال ؟ وقال الحسن بذل المجهود فى بذل الموجود منتهى الجود . وقيل لبعض الحكماء من أحب الناس إليك ؟ قال : من كثرت أياديه عندى ، قيل : فإن لم يكن ، قال من كثرت أيادى عنده . وقال عبد العزيز بن مروان إذا الرجل أمكننى من نفسه حتى أضع معروفى عنده فيده عندى مثل يدى عنده . وقال المهدى لشبيب بن شبة كيف رأيت الناس فى دارى ؟ فقال ياأمير المؤمنين إنّ الرجل منهم ليدخل راجيا ويخرج راضيا وتمثل متمثل عند عبدالله بن جعفر فقال :

إن الصنيعة لاتكون صنيعة حتى يصاب بها طريق المصنع
فإذا اصطنعت صنيعة فاعمد بها لله أو لذوى القرابة أو دع

فقال عبد الله بن جعفر إن هذين البيتين ليبخلان الناس ، ولكن أمطر المعروف مطرا ، فإن أصاب الكرام كانوا له أهلا وإن أصاب اللئام كنت له أهلا .

حكايات الأسخياء

عن محمد بن المنكدر عن أم درّة ـ وكانت تخدم عائشة رضى الله عنها ـ قالت إن معاوية بعث إليها بمال فى غرارتين ثمانين ومائة ألف درهم ، فدعت بطبق فجعلت تقسمه بين الناس ، فلما أمست قالت ياجارية هلم فطورى فجاءتها بخبز وزيت فقالت لها أم درة . ما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشترى لنا بدرهم لحما نفطر عليه ؟ فقالت لوكنت ذكرتينى لفعلت .

وعن أبان بن عثمان قال أراد رجل أن يضار عبيد الله بن عباس فأتى وجوه قريش فقال يقول لكم عبيد الله تغدوا عندى اليوم ، فأتوه حتى ملؤا عليه الدار ، فقال ماهذا ؟ فأخبر الخبر ، فأمر عبيد الله بشراء فاكهة ، وأمر قوما فطبخوا وخبزوا ، وقدمت الفاكهة إليهم فلم يفرغوا منها حتى وضعت الموائد فأكلوا حتى صدروا ، فقال عبيد الله لوكلائه أو موجود لنا هذا كل يوم ؟ قالوا نعم ، قال فليتغد عندنا هؤلاء فى كل يوم .

وقال مصعب بن الزبير حج معاوية فلما انصرف مر بالمدينة ، فقال الحسين بن على لأخيه الحسن لاتلقه ولا تسلم عليه ، فلما خرج معاوية ، قال الحسن إن علينا ديناً فلا بدّ لنا من إتيانه فركب فى أثره ولحقه فسلم عليه وأخبره بدينه ، فمروا عليه ببختى عليه ثمانون ألف دينار وقد أعيا وتخلف عن الإبل وقوم يسوقونه ، فقال معاوية ماهذا ؟ فذكر له ، فقال اصرفوه بما عليه إلى أبى محمد .

وعن واقد بن محمد الواقدى قال حدثنى أبى أنه رفع رقعة إلى المأمون يذكر فيها كثرة الدين وقلة صبره عليه ، فوقع المأمون على ظهر رقعته إنك رجل اجتمع فيك خصلتان ، السخاء والحياء ، فأما السخاء فهو الذى أطلق

مافى يديك ، وأما الحياء فهو الذى يمنعك عن تبليغنا ماأنت عليه ، وقد أمرت لك بمائة ألف درهم فإن كنت قد أصبت فازدد فى بسط يدك ، وإن لم أكن قد أصبت فجنايتك على نفسك . وأنت حدثتنى وكنت على قضاء الرشيد ؛ عن محمد بن إسحق عن الزهرى عن أنس : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للزبير بن العوام « يازبير اعلم أنّ مفاتيح أرزاق العباد بإزاء العرش يبعث الله عز وجل إلى كل عبد بقدر نفقته ، فمن كثّر كثّر له ، ومن قلل قلل له وأنت أعلم [1] » قال الواقدى : فوالله لمذاكرة المأمون إياى بالحديث أحب إلى من الجائزة وهى مائة ألف درهم .

وسأل رجل الحسن بن على رضى الله عنهما حاجة فقال له : ياهذا حق سؤالك إياى يعظم لدى ومعرفتى بما يجب لك تكبر على ، ويدى تعجز عن نيلك بما أنت أهله ، والكثير فى ذات الله تعالى قليل ، وما فى ملكى وفاء لشكرك ، فإن قبلت الميسور ورفعت عنى مؤنة الاحتيال والاهتمام لما أتكلفه من واجب حقك فعلت ، فقال : ياابن رسول الله أقبل وأشكر العطية ، وأعذر على المنع ، فدعا الحسن بوكيله وجعل يحاسبه على نفقاته حتى استقصاها فقال : هات الفضل من الثلثمائة ألف درهم ، فأحضر خمسين ألفا قال : فما فعلت بالخمسمائة دينار ؟ قال : هى عندى ، قال أحضرها ، فأحضرها فدفع الدنانير والدراهم إلى الرجل وقال : هات من يحملها لك ، فأتاه بحمالين فدفع إليه الحسن رداءه لكراء الحمالين ، فقال له مواليه : والله ماعندنا درهم ! فقال : أرجو أن يكون لى عند الله أجر عظيم .

واجتمع قراء البصرة إلى ابن عباس وهو عامل بالبصرة فقالوا : لنا جار صوام قوام يتمنى كل واحد منا أن يكون مثله ، وقد زوج بنته من ابن أخيه وهو فقير وليس عنده مايجهزها به ، فقام عبد الله بن عباس فأخذ بأيديهم وأدخلها داره وفتح صندوقا فأخرج منه ست بدر فقال : احملوا ، فحملوا فقال : ابن عباس ماأنصفناه أعطيناه مايشغله عن قيامه وصيامه ، ارجعوا بنا نكن أعوانه على تجهيزها فليس للدنيا من القدر مايشغل مؤمناً عن عبادة ربه ، وما بنا من الكبر مالانخدم أولياء الله تعالى ففعل وفعلوا .

وحكى أنه لما أجدب الناس بمصر وعبد الحميد بن سعد أميرهم فقال : والله لأعلمنّ الشيطان أنى عدوه ؛ فعال محاويجهم إلى أن رخصت الأسعار ، ثم عزل عنهم فرحل وللتجار عليه ألف ألف درهم ، فرهنهم بها حلى نسائه وقيمتها خمسمائة ألف ألف ، فلما تعذر عليه ارتجاعها كتب إليهم ببيعها ودفع الفاضل منها عن حقوقهم إلى من لم تنله صلاته .

وكان أبو طاهر بن كثير شيعيا فقال له رجل . بحق على بن أبى طالب لما وهبت لى نخلتك بموضع كذا وكذا ، فقال : قد فعلت ، وحقه لأعطينك مايليها ، وكان ذلك أضعاف ماطلب الرجل .

وكان أبو مرثد أحد الكرماء فمدحه بعض الشعراء فقال للشاعر : والله ماعندى ماأعطيك ولكن قدمنى إلى القاضى وادع على بعشرة آلاف درهم حتى أقر لك بها ثم احبسنى ، فإن أهلى لايتركونى محبوسا ، ففعل ذلك فلم يمس حتى دفع إليه عشرة آلاف درهم وأخرج أبو مرثد من الحبس .

وكان معن بن زائدة عاملا على العراقين بالبصرة فحضر بابه شاعر فأقام مدة وأراد الدخول على معن فلم يتهيأ له فقال يوما لبعض خدام معن : إذا دخل الأمير البستان فعرفنى ، فلما دخل الأمير البستان أعلمه ، فكتب الشاعر بيتاً على خشبة وألقاها فى الماء الذى يدخل البستان وكان معن على رأس الماء فلما بصر بالخشبة أخذها وقرأها فإذا مكتوب عليها .

---

(١) حديث أنس « يازبير اعلم أن مفاتيح أرزاق العباد بإزاء العرش ... الحديث » وفى أوله قصة مع المأمون أخرجه الدارقطنى فيه وفى اسناده الواقدى عن محمد بن اسحاق عن الزهرى بالعنعنة ولايصح .

أيا جود معن ناج معنا بحاجتى فما لى إلى معن سواك شفيع

فقال : من صاحب هذه ؟ فدعى بالرجل ، فقال له : كيف قلت ؟ فقال له ، فأمر له بعشر بدر،فأخذهاووضع الأمير الخشبة تحت بساطه ، فلما كان اليوم الثانى أخرجها من تحت البساط وقرأها ودعا بالرجل فدفع إليه مائة ألف درهم ، فلما أخذها الرجل تفكر وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه فخرج ، فلما كان فى اليوم الثالث قرأ ما فيها ودعا بالرجل فطلب فلم يوجد فقال معن : حق على أن أعطيه حتى لايبقى فى بيت مالى ولا دينار .

وقال أبو الحسن المدائنى : خرج الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر حجاجا ففاتهم أثقالهم فجاعوا وعطشوا ، فمروا بعجوز فى خباء لها فقالوا : هل من شراب ؟ فقالت نعم ، فأناخوا إليها وليس لها إلا شويهة فى كسر الخيمة فقالت : احلبوها وامتذقوا لبنها . ففعلوا ذلك ثم قالوا لها : هل من طعام ؟ قالت : لا ، إلا هذه الشاة فليذبحها أحدكم حتى أهيء لكم ما تأكلون ، فقام إليها أحدهم وذبحها وكشطها ثم هيأت لهم طعاما فأكلوا وأقاموا حتى أبردوا فلما ارتحلوا قالوا لها : نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه ، فإذا رجعنا سالمين فألمى بنا فإنا صانعون بك خيرا ثم ارتحلوا وأقبل زوجها فأخبرته بخبر القوم والشاة فغضب الرجل وقال : ويلك تذبحين شاتى لقوم لا تعرفينهم ، ثم تقولين نفر من قريش ؟ قال : ثم بعد مدة ألجأتهما الحاجة إلى دخول المدينة ، فدخلاها وجعلا ينقلان البعر إليها ويبيعانه ويتعيشان بثمنه ، فمرت العجوز ببعض سكك المدينة ، فإذا الحسن بن على جالس على باب داره فعرف العجوز وهى له منكرة ، فبعث غلامه فدعا بالعجوز وقال لها : يا أمة الله أتعرفينى ؟ قالت :لا قال : أنا ضيفك يوم كذا ويوم كذا ، فقالت العجوز : بأبى أنت وأمى أنت هو؟قال:نعم.ثم أمرالحسن فاشتروالها من شياه الصدقة ألف شاة ، وأمر لها معها بألف دينار ، وبعث بها مع غلامه إلى الحسين فقال لها الحسين : بكم وصلك أخى ؟ قالت : بألف شاة وألف دينار ، فأمر لها الحسين أيضا بمثل ذلك ثم بعث بها مع غلامه إلى عبد الله بن جعفر ، فقال لها بكم وصلك الحسن والحسين ؟ قالت : بألفى شاة وألفى دينار ، فأمر لها عبد الله بألفى شاة وألفى دينار ، وقال لها : لو بدأت بى لأتعبتهما ، فرجعت العجوز إلى زوجها بأربعة آلاف شاة وأربعة آلاف دينار .

وخرج عبد الله بن عامر بن كريز من المسجد يريد منزله وهو وحده ، فقام إليه غلام من ثقيف فمشى إلى جانبه فقال له عبد الله : ألك حاجة يا غلام ؟ قال : صلاحك وفلاحك رأيتك تمشى وحدك فقلت أقيك بنفسى وأعوذ بالله إن طار بجنابك مكروه ، فأخذ عبد الله بيده ومشى معه إلى منزله ، ثم دعا بألف دينار فدفعها إلىالغلام وقال : استنفق هذه فنعم ما أدبك أهلك .

وحكى أن قوما من العرب جاءوا إلى قبر بعض أسخيائهم للزيارة ، فنزلوا عند قبره وباتوا عنده وقدكانوا جاءوا من سفر بعيد ؛ فرأى رجل منهم فى النوم صاحب القبر وهو يقول له : هل لك أن تبادل بعيرك بنجيبى ؟ وكان السخى الميت قد خلف نجيباً معروفا به ، ولهذا الرجل بعير سمين ، فقال له فى النوم : نعم ، فباعه فى النوم بعيره بنجيبه ، فلما وقع بينهما العقد عمد هذا الرجل إلى بعيره فنحره فى النوم ، فانتبه الرجل من نومه فإذا الدم يثج من نحر بعيره ، فقام الرجل فنحره وقسم لحمه فطبخوه وقضوا حاجتهم منه ثم رحلوا وساروا ، فلما كان اليوم الثانى وهم فى الطريق استقبلهم ركب ، فقال رجل منهم : من فلان بن فلان منكم ؟ ـ باسم ذلك الرجل ـ فقال : أنا ، فقال له هل بعت من فلان بن فلان شيئا ؟ وذكر الميت صاحب القبر ، قال : نعم بعت بعيرى بنجيبه فى

النوم ، فقال : خذ هذا نجيبه ، ثم قال : هو أبي وقد رأيته فى النوم وهو يقول : إن كنت ابنى فادفع نجيبي إلى فلان بن فلان وسماه .

وقدم رجل من قريش من السفر فمر برجل من الأعراب على قارعة الطريق قد أقعده الدهر وأضر به المرض ، فقال : ياهذا أعنا على الدهر فقال الرجل لغلامه : مابقى معك من النفقة فادفعه إليه ، فصب الغلام فى حجر الأعرابى أربعة آلاف درهم ، فذهب لينهض فلم يقدر من الضعف ، فبكى فقال له الرجل مايبكيك لعلك استقللت ماأعطيناك ؟ قال : لا ، ولكن ذكرت ماتأكل الأرض من كرمك فأبكانى .

واشترى عبد الله بن عامر من خالد بن عقبة بن أبى معيط داره التى فى السوق بتسعين ألف درهم ، فلما كان الليل سمع بكاء أهل خالد فقال لأهله : ماهؤلاء ؟ قالوا يبكون لدارهم ، فقال ياغلام ائتهم فأعلمهم أن المال والدار لهم جميعا .

وقيل بعث هرون الرشيد إلى مالك بن أنس رحمه الله بخمسمائة دينار ؛ فبلغ ذلك الليث بن سعد فأنفذ إليه ألف دينار ، فغضب هرون وقال أعطيته خمسمائة وتعطيه ألفا وأنت من رعيتى ؟ فقال ياأمير المؤمنين إن لى من غلتى كل يوم ألف دينار ؛ فاستحييت أن أعطى مثله أقل من دخل يوم . وحكى أنه لم تجب عليه الزكاة مع أن دخله كل يوم ألف دينار . وحكى أن امرأة سألت الليث بن سعد رحمة الله عليه شيئا من عسل ، فأمر لها بزق من عسل ، فقيل له إنها كانت تقنع بدون هذا ؟ فقال . إنها سألت على قدر حاجتها ونحن نعطيها على قدر النعمة علينا . وكان الليث ابن سعد لايتكلم كل يوم حتى يتصدق على ثلثمائة وستين مسكينا .

وقال الأعمش : اشتكت شاة عندى فكان خيثمة بن عبد الرحمن يعودها بالغداة والعشى ويسألنى هل استوفت علفها ؟ وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها ؟ وكان تحتى لبد أجلس عليه فإذا خرج قال : خذ ماتحت اللبد ، حتى وصل إلى فى علة الشاة أكثر من ثلثمائة دينار من بره حتى تمنيت أن الشاة لم تبرأ .

وقال عبد الملك بن مروان لأسماء بن خارجة : بلغنى عنك خصال فحدثنى بها ، فقال : هى من غيرى أحسن منها منى ، فقال : عزمت عليك إلا حدثتنى بها ؟ فقال : ياأمير المؤمنين مامددت رجلى بين يدى جليس لى قط ، ولا صنعت طعاما قط فدعوت عليه قوما إلا كانوا أمن على منى عليهم ، ولانصب لى رجل وجهه قط يسألنى شيئا فاستكثرت شيئا أعطيته إياه .

ودخل سعيد بن خالد على سليمان بن عبد الملك وكان سعيد رجلا جوادا فإذا لم يجد شيئا كتب لمن سأله صكا على نفسه حتى يخرج عطاؤه ، فلما نظر إليه سليمان تمثل بهذا البيت فقال :

إنى سمعت مع الصباح مناديا   يامن يعين على الفتى المعوان

ثم قال : ما حاجتك ؟ قال : دينى ، قال : وكم هو ؟ قال : ثلاثون ألف دينار ، قال : لك دينك ومثله .

وقيل مرض قيس بن سعد بن عبادة فاستبطأ إخوانه فقيل له : إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين ، فقال: أخزى الله مالا يمنع الإخوان من الزيارة ، ثم أمر مناديا فنادى من كان عليه لقيس بن سعد حق فهو منه برىء ، قال : فانكسرت درجته بالعشى لكثرة من زاره وعاده .

وعن أبى إسحق قال : صليت العصر فى مسجد الأشعث بالكوفة أطلب غريما لى ، فلما صليت وضع بين يدى حلة ونعلان ، فقلت : لست من أهل هذا المسجد ، فقالوا : إن الأشعث بن قيس الكندى قدم البارحة من مكة فأمر لكل من صلى فى المسجد بحلة ونعلين .

وقال الشيخ أبو سعد الحركوشي النيسابوري رحمه الله : سمعت محمد بن محمد الحافظ يقول ، سمعت الشافعي المجاور بمكة يقول : كان بمصر رجل عرف بأن يجمع للفقراء شيئا ، فولد لبعضهم مولود قال : فجئت إليه وقلت له : ولد لي مولود وليس معي شيء فقام معي ودخل على جماعة فلم يفتح بشيء ، فجاء إلى قبر رجل وجلس عنده وقال : رحمك الله كنت تفعل وتصنع وإني درت اليوم على جماعة فكلفتهم دفع شيء لمولود فلم يتفق لي شيء ، قال : ثم قام وأخرج دينارا وقسمه نصفين وناولني نصفه ، وقال : هذا دين عليك إلى أن يفتح الله عليك بشيء ، قال : فأخذته وانصرفت فأصلحت ما اتفق لي به قال : فرأى ذلك المحتسب تلك الليلة ذلك الشخص في منامه فقال : سمعت جميع ما قلت وليس لنا إذن في الجواب ، ولكن احضر منزلي وقل لأولادي يحفروا مكان الكانون ويخرجوا قرابة فيها خمسمائة دينار فاحملها إلى هذا الرجل فلما كان من الغد تقدم إلى منزل الميت وقص عليهم القصة فقالوا له : اجلس وحفروا الموضع وأخرجوا الدنانير وجاءوا بها فوضعوها بين يديه ، فقال : هذا مالكم وليس لرؤياي حكم ، فقالوا : هو يتسخى ميتا ولا نتسخى نحن أحياء ؟ فلما ألحوا عليه حمل الدنانير إلى الرجل صاحب المولود وذكر له القصة ، قال : فأخذ منها دينارا فكسره نصفين فأعطاه النصف الذي أقرضه وحمل النصف الآخر ، وقال : يكفيني هذا وتصدق به على الفقراء ، فقال أبو سعيد : فلا أدري أي هؤلاء أسخى ؟

وروى أن الشافعي رحمه الله لما مرض مرض موته بمصر قال : مروا فلانا يغسلني ، فلما توفي بلغه خبر وفاته فحضر وقال : ائتوني بتذكرته ، فأتي بها فنظر فيها فإذا على الشافعي سبعون ألف درهم دين ، فكتبها على نفسه وقضاها عنه ، وقال هذا غسلي إياه ؛ أي أراد به هذا . وقال أبو سعيد الواعظ الحركوشي لما قدمت مصر طلبت منزل ذلك الرجل فدلوني عليه ، فرأيت جماعة من أحفاده وزرتهم فرأيت فيهم سيما الخير وآثار الفضل فقلت بلغ أثره في الخير إليهم وظهرت بركته فيهم مستدلا بقوله تعالى ﴿ وكان أبوهما صالحا ﴾ وقال الشافعي رحمه الله لا أزال أحب حماد بن أبي سليمان لشيء بلغني عنه أنه كان ذات يوم راكبا حماره فحركه فانقطع زره ، فمر على خياط فأراد أن ينزل إليه ليسوى زره فقال الخياط والله لا نزلت فقام الخياط إليه فسوى زره فأخرج إليه صرة فيها عشرة دنانير فسلمها إلى الخياط واعتذر إليه من قلتها ، وأنشد الشافعي رحمه الله لنفسه :

يالهف قلبي على مال أجود به ... على المقلين من أهل المروءات
إن اعتذاري إلى من جاء يسألني ... ماليس عندي لمن إحدى المصيبات

وعن الربيع بن سليمان قال أخذ رجل بركاب الشافعي رحمه الله فقال ياربيع أعطه أربعة دنانير واعتذر إليه عني وقال الربيع سمعت الحميدي يقول قدم الشافعي من صنعاء إلى مكة بعشرة آلاف دينار فضرب خباءه في موضع خارج عن مكة ونثرها على ثوب ، ثم أقبل على كل من دخل عليه يقبض له قبضة ويعطيه حتى صلى الظهر ونفض الثوب وليس عليه شيء . وعن أبي ثور قال أراد الشافعي الخروج إلى مكة ومعه مال ، وكان قلما يمسك شيئا من سماحته ، فقلت له ينبغي أن تشتري بهذا المال ضيعة تكون لك ولولدك ، قال فخرج ثم قدم علينا فسألته عن ذلك المال ، فقال ماوجدت بمكة ضيعة يمكنني أن أشتريها لمعرفتي بأصلها وقد وقف أكثرها ، ولكني بنيت بمنى مضربا يكون لأصحابنا إذا حجوا أن ينزلوا فيه . وأنشد الشافعي رحمه الله لنفسه يقول .

أرى نفسي تتوق إلى أمور ... يقصر دون مبلغهن مالي
فنفسي لا تطاوعني ببخل ... ومالي لا يبلغني فعالي

وقال محمد بن عباد المهلبي . دخل أبي على المأمون فوصله بمائه ألف درهم فلما قام من عنده تصدق بها فأخبر بذلك المأمون ، فلما عاد إليه عاتبه المأمون فى ذلك فقال : يا أمير المؤمنين منع الموجود سوء ظن بالمعبود ، فوصله بمائة ألف أخرى .

وقام رجل إلى سعيد بن العاص فسأله فأمر له بمائة ألف درهم فبكى ، فقال له سعيد : ما يبكيك ؟ قال . ابكى على الأرض أن تأكل مثلك ، فأمر له بمائة ألف أخرى .

ودخل أبو تمام على إبراهيم بن شكلة بأبيات امتدحه بها فوجده عليلا فقبل منه المدحة وأمر حاجبه بنيله ما يصلحه ، وقال . عسى أن أقوم من مرضى فأكافئه ، فأقام شهرين فوحشه طول المقام فكتب إليه يقول :

إن حراماً قبول مدحتنا وترك ما نرتجى من الصفد
كما الدراهم والدنانير فى البيع حرام إلا يدا بيد

فلما وصل البيتان إلى إبراهيم قال لحاجبه . كم أقام بالباب ؟ قال . شهرين ، قال . أعطه ثلاثين ألفا وجئنى بدواة ، فكتب إليه :

أعجلتنا فأتاك عاجل برنا قلا ولو أمهلتنا لم نقلل
فخذ القليل وكن كأنك لم تقل ونقول نحن كأننا لم نفعل

وروى أنه كان لعثمان على طلحة رضى الله عنهما خمسون ألف درهم ، فخرج عثمان يوما إلى المسجد فقال له طلحة . قد تهيأ مالك فاقبضه ، فقال . هو لك ياأبا محمدمعونةلك على مروءتك . وقالت سعدى بنت عوف . دخلت على طلحة فرأيت منه ثقلا فقلت له مالك ؟ فقال اجتمع عندى مال وقد غمنى ، فقلت وما يغمك ادع قومك ؟ فقال ياغلام على بقومى ، فقسمه فيهم فسألت الخادم كم كان ؟ قال : أربعمائة ألف . وجاء أعرابى إلى طلحة فسأله وتقرب إليه برحم فقال : إن هذهالرحم ماسألنى بها أحد قبلك ، إن لى أرضا قد أعطانى بها عثمان ثلثمائه ألف فإن شئت فاقبضها ، وإن شئت بعتها من عثمان ودفعت إليك الثمن ، فقال : الثمن ، فباعها من عثمان ودفع إليهالثمن .

وقيل بكى على كرم الله وجهه يوما فقيل : مايبكيك ؟ فقال : لم يأتنى ضيف منذ سبعة أيام ، أخاف أن يكون الله قد أهاننى .

وأتى رجل صديقا له فدق عليه الباب فقال ، ماجاء بك ؟ قال على أربعمائة درهم دين ، فوزن أربعمائة درهم وأخرجها إليه وعاد يبكى ، فقالت امرأته لم أعطيته إذ شق عليك ؟ فقال إنما أبكى لأنى لم أتفقد حاله حتى احتاج إلى مفاتحتى . فرحم الله من هذه صفاتهم وغفر لهم أجمعين .

بيان ذم البخل

قال الله تعالى ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ وقال تعالى ﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون مابخلوا به يوم القيامة ﴾ وقال تعالى ﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم [1] » وقال صلى الله عليه وسلم « إياكم والشح

(١) حديث « اياكم والشح ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث جابر بلفظ « واتقوا الشح فإن الشح .. الحديث » ولأبي داود والنسائى فى الكبرى وابن حبان والحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمرو « اياكم والشح فإنما هلك من كان قبلكم بالشح =

فإنه دعا من كان قبلكم فسفكوا دماءهم ودعاهم فاستحلوا محارمهم ودعاهم فقطعوا أرحامهم (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة بخيل ولا خب ولا خائن ولا سيئ الملكة (٢) ، وفى رواية ، ولا جبار ، وفى رواية ، ولا منان ، وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاث مهلكات : شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله يبغض ثلاثة : الشيخ الزانى ، والبخيل المنان ، والمعيل المختال (٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم « مثل المنفق والبخيل كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من لدن ثديهما إلى تراقيهما ، فأما المنفق فلا ينفق شيئا إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفى بنانه ، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئا إلا قلصت ولزمت كل حلقة مكانها حتى أخذت بتراقيه فهو يوسعها ولاتتسع (٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم « خصلتان لا تجتمعان فى مؤمن : البخل وسوء الخلق (٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، اللهم إنى أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن أرد إلى ارذل العمر (٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، وإياكم والفحش إن الله لايحب الفاحش ولا المتفحش ، وإياكم والشح فإنما أهلك من كان قبلكم الشح أمرهم بالكذب فكذبوا وأمرهم بالظلم فظلموا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا (٨) » وقال صلى الله عليه وسلم « شر مافى الرجل شح هالع وجبن خالع (٩) وقتل شهيد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكته باكية فقالت : واشهيداه ! فقال صلى الله عليه وسلم « وما يدريك أنه شهيد فلعله كان يتكلم فيما لا يعنيه أو يبخل بما لاينقصه (١٠) ، وقال جبير بن مطعم : بينا نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه الناس مقفلة من خيبر إذ علقت برسول الله صلى الله عليه وسلم الأعراب يسألونه ، حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت رداءه ، فوقف صلى الله عليه وسلم فقال « أعطونى ردائى فوالذى نفسى بيده لو كان لى عدد هذه العضاة نعما لقسمته بينكم ثم لا تجدونى بخيلا ولا كذابا ولاجبانا (١١) ، وقال عمر رضى الله عنه : قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسما فقلت غير هؤلاء كان أحق به

= أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالفجور ففجروا » (١) حديث « إياكم والشح فإنه دعا من كان قبلكم فسفكوا دماءهم ودعاهم فاستحلوا محارمهم ودعاهم فقطعوا أرحامهم » أخرجه الحاكم من حديث أبى هريرة بلفظ « حرماتهم » مكان « أرحامهم » وقال صحيح على شرط مسلم (٢) حديث « لايدخل الجنة بخيل ولاخب ولاخائن ولاسيئ الملكة » وفى رواية « ولامنان » أخرجه أحمد والترمذى وحسنه من حديث أبى بكر واللفظ لأحمد دون قوله « ولا منان » فهى عند الترمذى وله ولابن ماجه « لايدخل الجنة سيئ الملكة » (٣) حديث « ثلاث مهلكات ... الحديث » تقدم فى العلم (٤) حديث « ان الله يبغض ثلاثا : الشيخ الزانى والبخيل المنان والفقير المختال » أخرجه الترمذى والنسائى من حديث أبى ذر دون قوله « البخيل المنان » وقال فيه « الغنى الظلوم » وقد تقدم وللطبرانى فى الأوسط من حديث على « ان الله ليبغض الغنى الظلوم والشيخ الجهول والعائل المختال » وسنده ضعيف (٥) حديث « مثل المنفق والبخيل كمثل رجلين عليهما جبة من حديد ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة (٦) حديث « خصلتان لاتجتمعان فى مؤمن : البخل وسوء الخلق » أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد وقال غريب (٧) حديث « اللهم انى أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن .. الحديث » أخرجه البخارى من حديث سعد وتقدم فى الأذكار (٨) حديث « إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ... الحديث » أخرجه الحاكم من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله « أمرهم بالكذب فكذبوا وأمرهم بالظلم فظلموا » قال عوضا عنهما « وبالبخل فبخلوا وبالفجور ففجروا » وكذا رواه أبو داود على ذكر الشح وقد تقدم قبله بسبعة أحاديث ولمسلم من حديث جابر « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح » فذكره بلفظ آخر ولم يذكر الفحش .

(٩) حديث « شر مافى الرجل شح هالع وجبن خالع » أخرجه أبو داود من حديث جابر بسند جيد (١٠) حديث « وما يدريك أنه شهيد فلعله كان يتكلم فيما لايعنيه أو يبخل بما لاينقصه » أخرجه أبو يعلى من حديث أبى هريرة بسند ضعيف وللبيهقى فى الشعب من حديث أنس أن أمه قالت ليهنك الشهادة وهو عند الترمذى : الا أن رجلا قال له أبشر بالجنة (١١) حديث جبير بن مطعم : بينما نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه الناس مقفلة من حنين علقت الأعراب به ... الحديث » أخرجه البخارى وتقدم فى أخلاق النبوة .

منهم ؟ فقال « إنهم يخيرونى بين أن يسألونى بالفحش أو يبخلونى ولست بباخل [١] » وقال أبو سعيد الخدرى : دخل رجلان على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألاه ثمن بعير فأعطاهما دينارين ؛ فخرجا من عنده فلقيهما عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأثنيا وقالا معروفا وشكرا ماصنع بهما ، فدخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما قالا . فقال صلى الله عليه وسلم ، لكن فلان أعطيته مابين عشرة إلى مائة ولم يقل ذلك إن أحدكم ليسألنى فينطلق فى مسألته متأبطها وهى نار ؛ فقال عمر فلم تعطهم ما هو نار ؟ فقال « يأبون إلا أن يسألونى ويأبى الله لى البخل [٢] » وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الجود من جود الله تعالى فجودوا يجد الله لكم ألا إن الله عز وجل خلق الجود فجعله فى صورة رجل وجعل رأسه راسخاً فى أصل شجرة طوبى ، وشدّ أغصانها بأغصان سدرة المنتهى ، ودلى بعض أغصانها إلى الدنيا ، فمن تعلق بغصن منها أدخله الجنة ، ألا إنّ السخاء من الإيمان ، والإيمان فى الجنة . وخلق البخل من مقته وجعل رأسه راسخاً فى أصل شجرة الزقوم ودلى بعض أغصانها إلى الدنيا فمن تعلق بغصن منها أدخله النار ، ألا إنّ البخل من الكفر والكفر فى النار [٣] » وقال صلى الله عليه وسلم « السخاء شجرة تنبت فى الجنة فلا يلج الجنة إلا سخى ، والبخل شجرة تنبت فى النار فلا يلج النار إلا بخيل [٤] » وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لوفد بنى لحيان « من سيدكم يابنى لحيان ؟ » قالوا : سيدنا جد بن قيس إلا أنه رجل فيه بخل ، فقال صلى الله عليه وسلم « وأى داء أدوأ من البخل ولكن سيدكم عمرو بن الجموح [٥] » وفى رواية أنهم قالوا : سيدنا جدّ بن قيس ، فقال « بم تسودونه ؟ » قالوا : إنه أكثر مالا وأنا على ذلك لنرى منه البخل ، فقال عليه السلام « وأى داء أدوأ من البخل ليس ذلك سيدكم » قالوا : فمن سيدنا يارسول الله ؟ قالوا « سيدكم بشر بن البراء » وقال على رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يبغض البخيل فى حياته السخى عند موته [٦] » وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « السخى الجهول أحب إلى الله من العابد البخيل [٧] » وقال أيضا : قال صلى الله عليه وسلم « الشح والإيمان لايجتمعان فى قلب عبد [٨] » وقال أيضاً « خصلتان لايجتمعان فى مؤمن البخل وسوء الخلق [٩] » وقال صلى الله عليه وسلم « لاينبغى لمؤمن أن يكون بخيلا ولا جبانا [١٠] » وقال صلى الله عليه وسلم « يقول قائلكم الشحيح

---

(١) حديث عمر : قسم النبى صلى الله عليه وسلم قسما ... الحديث » وفيه « ولست بباخل » أخرجه مسلم

(٢) حديث أبى سعيد : فى الرجلين اللذين أعطاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم دينارين فلقيهما عمر فأثنيا وقالا معروفا ... الحديث . وفيه « ويأبى الله لى البخل » رواه أحمد وأبو يعلى والبزار نحوه ولم يقل أحمد : انهما سألاه عن بعير ، ورواه البزار من رواية أبى سعيد عن عمر ورجال أسانيدهم ثقات (٣) حديث ابن عباس « الجود من جود الله فجودوا يجد الله لكم ... الحديث » بطوله ذكره صاحب الفردوس ولم يخرجه ولده فى مسنده ولم أقف له على اسناد (٤) حديث « السخاء شجرة تنبت فى الجنة فلا يلج فى الجنة إلا سخى .. الحديث » تقدم دون قوله « فلا يلج فى الجنة » إلى آخره وذكره بهذه الزيادة صاحب الفردوس من حديث على ولم يخرجه ولده فى مسنده .

(٥) حديث أبى هريرة « من سيدكم يابنى لحيان ؟ » قالوا : سيدنا جد بن قيس ... الحديث » أخرجه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم بلفظ « يابنى سلمة » « وقال سيدكم بشر بن البراء » وأما الرواية التى قال فيها « سيدكم عمرو بن الجموح » فرواها الطبرانى فى الصغير من حديث كعب بن مالك بإسناد حسن (٦) حديث على « إن الله ليبغض البخيل فى حياته السخى عند موته » ذكره صاحب الفردوس ولم يخرجه ولده فى مسنده ولم أجد له اسنادا (٧) حديث أبى هريرة « السخى الجهول أحب إلى الله من العابد البخيل » أخرجه الترمذى بلفظ « ولجاهل سخى » وهو بقية حديث « إن السخى قريب من الله » وقد تقدم (٨) حديث أبى هريرة « لايجتمع الشح والإيمان فى قلب عبد » أخرجه النسائى وفى اسناده اختلاف (٩) حديث « خصلتان لاتجتمعان فى مؤمن ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد وقد تقدم (١٠) حديث « لاينبغى لمؤمن أن يكون جبانا ولابخيلا » لم أره بهذا اللفظ .

أعـذر من الظالم وأى ظلم أظـلم عند الله من الشـح ، حلف الله تعالى بعزته وعظمته وجلاله لايدخل الجنة شحيح ولا بخيل (١) » .

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم : كان يطوف بالبيت فإذا رجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول : بحرمة هـذا البيت إلا غفرت لى ذنبي فقال صلى الله عليه وسـلم « وما ذنبك صفه لى ؟ » فقال : هو أعظم من أن أصفه لك ! فقال « ويحك ذنبك أعظم أم الأرضون ؟ » فقال : بل ذنبي أعظم يارسول الله ، قال « فذنبك أعظم أم الجبال ؟ » قال . بل ذنبي أعظم يارسول الله ، قال « فذنبـك أعظم أم البحار ؟ » قال : بل ذنبي أعظم يارسول الله ، قال « فذنبك أعظم أم السموات ؟ » قال : بل ذنبي أعظم يارسول الله ، قال « فذنبك أعظم أم العرش ؟ » قال : بل ذنبي أعظم يارسول الله ، قال « فذنبك أعظم أم الله ؟ » قال : بل الله أعظم وأعلى ، قال « ويحك فصف لى ذنبك » قال . يارسول الله إنى رجل ذو ثروة من المال وإن السائل ليأتيني يسألنى فكأنما يستقبلنى بشعلة من نار ، فقال صلى الله عليه وسلم « إليك عنى لا تحرقنى بنارك فوالذى بعثنى بالهداية والكرامة لو قمت بين الركن والمقام ثم صلت ألفى ألف عام ثم بكيت حتى تجرى من دموعـك الأنهار وتسق بها الأشجار ثم مت وأنت لئيم لأكبك الله فى النار ، ويحك ! أما علمت أن البخل كفر وأن الكفر فى النار ، ويحك ! أما علمت أن الله تعالى يقول ﴿ ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه . . . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ (٢) » .

الآثار ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : لمـا خلق الله جنة عدن قال لها تزينى فتزينت، ثم قال لها: أظهرى أنهارك فأظهرت عين السلسبيل وعين الـكافور وعين التسنيم فتفجر منها فى الجنان أنهار الخمر وأنهار العسل واللبن ثم قال لها أظهرى سررك وحجالك وكراسيك وحليك وحللك وحور عينك فأظهرت فنظر إليها فقال تـكلمى فقالت طوبى لمن دخلنى فقال الله تعالى وعزتى لا أسكنك بخيلا . وقالت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز : أف للبخيل لو كان البخل قميصاً ما لبسته ولو كان طريقا ما سلـكته . وقال طلحة بن عبيد الله رضى الله عنـه : إنا لنجد بأموالنا ما يجد البخلاء لـكننا نتصبر . وقال محمد بن المنـكدر : كان يقال إذا أراد الله بقوم شرآ أمر الله عليهم شرارهم وجعل أرزاقهم بأيدى بخلائهم . وقال على كرم الله وجهه فى خطبته : إنه سيأتى على الناس زمان عضوض يعض الموسر على ما فى يده ولم يؤمر بذلك قال الله تعالى ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾ وقال عبد الله بن عمرو: الشح أشد من البخل لأن الشحيح هو الذى يشح على ما فى يد غيره حتى يأخذه ويشح بما فى يده فيحبسه ، والبخيل هو الذى يبخل بما فى يده . وقال الشعبي لا أدرى أيهما أبعد غورا فى نار جهنم البخل أو الـكذب ؟ وقيل ورد على أنوشروان حكيم الهند وفيلسوف الروم فقال للهندى : تـكلم ، فقال : خير الناس من ألفى سخيا وعند الغضب وقورا وفى القول متأنيا وفى الرفعة متواضعا وعلى كل ذى رحم مشفقا . وقام الرومى فقال : من كان بخيلا ورث عدوه ماله ومن قل شكره لم ينل النجح وأهل الـكذب مذمومون وأهل النميمة يموتون فقراء ومن لم يرحم سلط عليه من لا يرحمه . وقال الضحاك فى قوله تعالى ﴿ إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا ﴾ قال : البخل ، أمسك الله تعالى أيديهم عن النفقة فى سبيل الله فهم لا يبصرون الهدى . وقال كعب : ما من صباح إلا وقد وكل به ملـكان يناديان اللهم عجل لممسك تلفا

(١) حديث « يقول قاتلـكم الشحيح أعذر من الظالم وأى ظلم أظلم من الشح ... الحديث » وفيه « لايدخل الجنة شحيح ولا بخيل » لم أجده بتمامه وللترمذى من حديث أبى بكر « لايدخل الجنة بخيل » وقد تقدم (٢) حديث : كان يطوف بالبيت فإذا رجل متعلق بأستار الـكعبة وهو يقول بحرمة هذا البيت الا غفرت لى ... الحديث» فى ذم البخل وفيه قال « إليك عنى لاتحرقنى بنارك ... الحديث » بطوله وهو باطل لا أصل له .

وعجل لمنفق خلفا . وقال الأصمعى سمعت أعرابيا وقد وصف رجلا فقال لقد صغر فلان فى عينى لعظم الدنيا فى عينه ، وكأنما يرى السائل ملك الموت إذا أتاه . وقال أبو حنيفة رحمه الله لا أرى أن أعدل بخيلا لأن البخل يحمله على الاستقصاء فيأخذ فوق حقه خيفة من أن يغبن ، فمن كان هكذا لا يكون مأمون الأمانة . وقال على كرّم الله وجهه والله ما استقصى كريم قط حقه . قال الله تعالى ﴿ عرّف بعضه وأعرض عن بعض ﴾ وقال الجاحظ ما بقى من اللذات إلا ثلاث ذم البخلاء ، وأكل القديد ، وحك الجرب . وقال بشر بن الحارث البخيل لا غيبة له قال النبى صلى الله عليه وسلم « إنك إذا لبخيل » ومدحت امرأة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا صوّامة قوّامة إلا أنّ فيها بخلا قال « فما خيرها إذاً (١) » وقال بشر النظر إلى البخيل يقسى القلب ولقاء البخلاء كرب على قلوب المؤمنين . وقال يحيى بن معاذ ما فى القلب للأسخياء إلا حب ولو كانوا فجارا ، وللبخلاء إلا بغض ولو كانوا أبرارا . وقال ابن المعتز : أبخل الناس بماله أجودهم بعرضه ولقى يحيى بن زكريا عليهما السلام . إبليس فى صورته فقال له : يا إبليس أخبرنى بأحب الناس إليك وأبغض الناس إليك قال : أحب الناس إلى المؤمن البخيل ، وأبغض الناس إلى الفاسق السخى ، قال له : لم ؟ قال : لأن البخيل قد كفانى بخله والفاسق السخى أتخوف أن يطلع الله عليه فى سخائه فيقبله ، ثم ولى وهو يقول لولا أنك يحيى لما أخبرتك .

حكايات البخلاء

قيل كان بالبصرة رجل موسر بخيل ، فدعاه بعض جيرانه وقدّم إليه طباهجة ببيض فأكل منه فأكثر وجعل يشرب الماء فانتفخ بطنه ونزل به الكرب والموت ، فجعل يتلوى فلما جهده الأمر وصف حاله للطبيب فقال : لابأس عليك ؛ تقيأ ما أكلت ، فقال : هاه ! أتقيأ طباهجة ببيض ! ؟ الموت ولا ذلك . وقيل : أقبل أعرابى يطلب رجلا ، وبين يديه تين فغطى التين بكسائه ، فجلس الأعرابى فقال له الرجل : هل تحسن من القرآن شيئا ؟ قال : نعم ، فقرأ ﴿ . . . والزيتون وطورسينين ﴾ فقال : وأين التين ؟ قال : هو تحت كسائك . ودعا بعضهم أخاً له ولم يطعمه شيئاً ، فحبسه إلى العصر حتى اشتد جوعه وأخذه مثل الجنون ، فأخذ صاحب البيت العود وقال له : بحياتى أى صوت تشتهى أن أسمعك ؟ قال : صوت المقلى . ويحكى أن محمد بن يحيى بن خالد بن برمك كان بخيلا قبيح البخل ، فسئل نسيب له كان يعرفه عنه فقال له قائل : صف لى مائدته فقال : هى فتر فى فتر ، وصحافه منقورة من حب الخشخاش ، قيل فمن يحضرها ؟ قال : الكرام الكاتبون ! قال : فما يأكل معه أحد ؟ قال : بلى الذباب ، فقال : سوأتك بدت وأنت خاص به وثوبك مخرق ، قال أنا والله ما أقدر على إبرة أخيطه بها ، ولو ملك محمد بيتاً من بغداد إلى النوبة مملوءا إبرا ، ثم جاءه جبريل وميكائيل ومعهما يعقوب النبى عليه السلام يطلبون منه إبرة ويسألونه إعارتهم إياها ليخيط بها قميص يوسف الذى قدّ من دبر مافعل ويقال كان مروان بن أبى حفصة لايأكل اللحم بخلا حتى يقرم إليه فإذا قرم إليه أرسل غلامه فاشترى له رأساً فأكله فقيل له . نراك لاتأكل إلا الرءوس فى الصيف والشتاء فلم تختار ذلك ؟ قال نعم الرأس أعرف سعره فآمن خيانة الغلام ولايستطيع أن يغبننى فيه ، وليس بلحم يطبخه الغلام فيقدر أن يأكل منه ، إن مس عينا أو أذنا أو خدا وقفت على ذلك ، وآكل منه ألوانا ، عينه لونا ، وأذنه لونا ، ولسانه لونا ، وغلصمته لونا ، ودماغه لونا ، وأكفى مؤونة

(١) حديث : مدحت امرأة عند النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : صوامة قوامة إلا أن فيها بخلا ... الحديث » تقدم فى آفات اللسان .

طبخه ؛ فقد اجتمعت لى فيه مرافق . وخرج يوماً يريد الخليفة المهدى فقالت له امرأة من أهله : مالى عليك إن رجعت بالجائزة ؟ فقال : إن أعطيت مائة ألف أعطيتك درهما ! فأعطى ستين ألفا فأعطاها أربعة دوانق . واشترى مرة لحما بدرهم فدعاه صديق له فرد اللحم إلى القصاب بنقصان دانق ! وقال : أكره الإسراف . وكان للأعمش جار وكان لا يزال يعرض عليه المنزل ويقول : لو دخلت فأكلت كسرة وملحا ! فيأبى عليه الأعمش ، فعرض عليه ذات يوم فوافق جوع الأعمش فقال : سر بنا ، فدخل منزله فقرب إليه كسرة وملحا ، فجاء سائل فقال له رب المنزل : بورك فيك ، فأعاد عليه المسألة فقال له بورك فيك ، فلما سأل الثالثة قال له اذهب والله وإلا خرجت إليك بالعصا ! قال فناداه الأعمش وقال اذهب ويحك ! فلا والله مارأيت أحداً أصدق مواعيد منه ! هو منذ مدة يدعونى على كسرة وملح فوالله ما زادنى عليهما !

بيان الإيثار وفضله

اعلم أن السخاء والبخل كل منهما ينقسم إلى درجات . فأرفع درجة السخاء الإيثار ، وهو أن يجود بالمال مع الحاجة . وإنما السخاء عبارة عن بذل مالايحتاج إليه لمحتاج أو لغير محتاج ، والبذل مع الحاجة أشد . وكما أن السخاوة قد تنتهى إلى أن يسخو الإنسان على غيره مع الحاجة فالبخل قد ينتهى إلى أن يبخل على نفسه مع الحاجة ، فكم من بخيل يمسك المال ويمرض فلايتداوى ، ويشتهى الشهوة فلايمنعه منها إلا البخل بالثمن ؛ ولو وجدها مجانا لأكلها . فهذا بخيل على نفسه مع الحاجة ؛ وذلك يؤثر على نفسه غيره مع أنه محتاج إليه . فانظر ما بين الرجلين ؟ فإن الأخلاق عطايا يضعها الله حيث يشاء وليس بعد الإيثار درجة فى السخاء وقد أثنى الله على الصحابة رضى الله عنهم به فقال ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ وقال النبى صلى الله عليه وسلم « أيما امرئ اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه غفر له [1] » وقالت عائشة رضى الله عنها ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا ، ولو شئنا لشبعنا ولكنا كنا نؤثر على أنفسنا [2] ونزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عند أهله شيئا ، فدخل عليه رجل من الأنصار فذهب بالضيف إلى أهله ، ثم وضع بين يديه الطعام وأمر امرأته بإطفاء السراج ، وجعل يمد يده إلى الطعام كأنه يأكل ولا يأكل ، حتى أكل الضيف ، فلما أصبح قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد عجب الله من صنيعكم الليلة إلى ضيفكم » ونزلت ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ [3] فالسخاء خلق من أخلاق الله تعالى ؛ والإيثار أعلى درجات السخاء . وكان ذلك من أدب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سماه الله تعالى عظيما فقال تعالى ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ وقال سهل بن عبد الله التسترى قال موسى عليه السلام ، يارب أرنى بعض درجات محمد صلى الله عليه وسلم وأمته ! فقال ياموسى إنك لن تطيق ذلك ، ولكن أريك منزلة من منازله جليلة عظيمة فضلته بها عليك وعلى جميع خلقى ، قال فكشف له عن ملكوت السموات فنظر إلى منزلة كادت تتلف نفسه من أنوارها وقربها

---

(١) حديث « أيما رجل اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه غفر له » أخرجه ابن حبان فى الضعفاء وأبو الشيخ فى الثواب من حديث ابن عمر بسند ضعيف وقد تقدم . (٢) حديث عائشة : ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام متواليات ولوشئنا لشبعنا ولكنا كنا نؤثر على أنفسنا . أخرجه البيهقى فى الشعب بلفظ : ولكنه كان يؤثر على نفسه . وأول الحديث عند مسلم بلفظ : ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعا من خبز بر حتى مضى لسبيله . وللشيخين : ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة ثلاثة ليال تباعا حتى قبض . زاد مسلم : من طعام (٣) حديث : نزل به ضيف فلم يجد عند أهله شيئا فدخل عليه رجل من الأنصار فذهب به إلى أهله ... الحديث . فى نزول قوله تعالى (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) متفق عليه من حديث أبى هريرة

من الله تعالى ، فقال : يارب بماذا بلغت به إلى هذه الكرامة ؟ قال : بخلق اختصصته به من بينهم وهو الإيثار ، ياموسى لا يأتيني أحد منهم قد عمل به وقتاً من عمره إلا استحييت من محاسبته ، وبوأته من جنتي حيث يشاء : وقيل خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له فنزل على نخيل قوم وفيه غلام أسود يعمل فيه ؛ إذ أتى الغلام بقوته ، فدخل الحائط كلب ودنا من الغلام فرمى إليه الغلام بقرص فأكله ، ثم رمى إليه الثاني والثالث فأكله ، وعبد الله ينظر إليه فقال ياغلام كم قوتك كل يوم ؟ قال ما رأيت ! قال فلم آثرت به هذا الكلب ؟ قال ما هي بارض كلاب ، إنه جاء من مسافة بعيدة جائعا فكرهت أن أشبع وهو جائع قال ! قال فما أنت صانع اليوم ؟ قال: أطوى يومى هذا فقال عبد الله بن جعفر ألام على السخاء ! إن هذا الغلام لأسخى مني ، فاشترى الحائط والغلام وما فيه من الآلات فأعتق الغلام ووهبه منه . وقال عمر رضى الله عنه : أهدى إلى رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة فقال : إن أخى كان أحوج منى إليه فبعث به إليه ، فلم يزل واحد يبعث به إلى آخر حتى تداوله سبعة أبيات ورجع إلى الأول . وبات على كرم الله وجهه على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوحى الله تعالى إلى جبريل وميكائيل عليهما السلام : إنى آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة ؟ فاختارا كلاهما الحياة وأحباها ؛ فأوحى الله عز وجل إليهما أفلا كنتما مثل على بن أبى طالب آخيت بينه وبين نبيى محمد صلى الله عليه وسلم فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة ؟ اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه فكان جبريل عند رأسه وميكائيل عند رجليه وجبريل عليه السلام يقول : بخ بخ من مثلك يابن أبى طالب والله تعالى يباهى بك الملائكة ! فأنزل الله تعالى ﴿ ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد ﴾ [1] وعن أبى الحسن الأنطاكى : أنه اجتمع عنده نيف وثلاثون نفسا - وكانوا فى قرية بقرب الرى - ولهم أرغفة معدودة لم تشبع جميعهم ، فكسروا الرغفان وأطفئوا السراج وجلسوا للطعام ، فلما رفع فإذا الطعام بحاله ولم يأكل أحد منه شيئا إيثارا لصاحبه على نفسه . وروى أن شعبة جاءه سائل وليس عنده شىء ؛ فنزع خشبة من سقف بيته فأعطاه ثم اعتذر إليه . وقال حذيفة العدوى : انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لى ومعى شىء من ماء وأنا أقول : إن كان به رمق سقيته ومسحت به وجهه ، فإذا أنا به فقلت : أسقيك ؟ فأشار إلى أن نعم ، فإذا رجل يقول : آه ... فأشار ابن عمى إلى أن انطلق به إليه ، فجئته فإذا هو هشام بن العاص فقلت : أسقيك ؟ فسمع به آخر فقال . آه ... فأشار هشام انطلق به إليه ، فجئته فإذا هو قد مات فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى ابن عمى فإذا هو قد مات رحمة الله عليهم أجمعين . وقال عباس بن دهقان : ماخرج أحد من الدنيا كما دخلها إلا بشر بن الحرث فإنه أتاه رجل فى مرضه فشكا إليه الحاجة فنزع قميصه وأعطاه إياه ، واستعار ثوبا فمات فيه . وعن بعض الصوفية قال : كنا بطرسوس فاجتمعنا جماعة وخرجنا إلى باب الجهاد ، فتبعنا كلب من البلد ، فلما بلغنا ظاهر الباب إذا نحن بدابة ميتة فصعدنا إلى موضع عال وقعدنا . فلما نظر الكلب إلى الميتة رجع إلى البلد ثم عاد بعد ساعة ومعه مقدار عشرين كلبا ، فجاء إلى تلك الميتة وقعد ناحية ووقعت الكلاب فى الميتة ، فما زالت تأكلها وذلك الكلب قاعد ينظر إليها حتى أكلت الميتة وبقى العظم ورجعت الكلاب إلى البلد ، فقام ذلك الكلب

---

(١) حديث : بات على على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوحى الله إلى جبريل وميكائيل انى آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر ... الحديث . فى نزول قوله تعالى ﴿ ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴾ أخرجه أحمد مختصرا من حديث ابن عباس : شرى على نفسه فلبس ثوب النبى صلى الله عليه وسلم ثم نام مكانه ... الحديث . وليس فيه ذكر جبريل وميكائيل ولم أقف لهذه الزيادة على أصل ، وفيه أبو بلج مختلف فيه والحديث منكر .

وجاء إلى تلك العظام فأكل مما بقى عليها قليلا ثم انصرف .

وقد ذكرنا جملة من أخبار الإيثار وأحوال الأولياء فى كتاب الفقر والزهد فلا حاجة إلى الإعادة ههنا وبالله التوفيق وعليه التوكل فيما يرضيه عز وجل .

بيان حدّ السخاء والبخل وحقيقتهما

لعلك تقول : قد عرف بشواهد الشرع أن البخل من المهلكات ، ولكن ما حدّ البخل وبماذا يصير الإنسان بخيلا ؟ وما من إنسان إلا وهو يرى نفسه سخيا وربما يراه غيره بخيلا ، وقد يصدر فعل من إنسان فيختلف فيه الناس فيقول قوم : هذا بخل ويقول آخرون ليس هذا من البخل . وما من إنسان إلا ويجد من نفسه حبا للمال ولأجله يحفظ المال ويمسكه ، فإن كان يصير بإمساك المال بخيلا فإذاً لا ينفك أحد عن البخل . وإذا كان الإمساك مطلقا لا يوجب البخل ، ولا معنى للبخل إلا الإمساك فما البخل الذى يوجب الهلاك ؟ وما حدّ السخاء الذى يستحق به العبد صفة السخاوة وثوابها ؟ فنقول : قد قال قائلون حدّ البخل منع الواجب ، فكل من أدى ما يجب عليه فليس ببخيل ، وهذا غير كاف ؛ فإن من يرد اللحم مثلا إلى القصاب والخبز للخباز بنقصان حبة أو نصف حبة فإنه يعدّ بخيلا بالاتفاق . وكذلك من يسلم إلى عياله القدر الذى يفرضه القاضى ثم يضايقهم فى لقمة ازدادوها عليه أو تمرة أكلوها من ماله يعد بخيلا . ومن كان بين يديه رغيف فحضر من يظن أنه يأكل معه فأخفاه عنه عدّ بخيلا . وقال قائلون البخيل هو الذى يستصعب العطية ، وهو أيضا قاصر ، فإنه إن أريد به أنه يستصعب كل عطية فكم من بخيل لا يستصعب العطية القليلة كالحبة وما يقرب منها ، ويستصعب ما فوق ذلك ؟ وإن أريد به أنه يستصعب بعض العطايا فما من جواد إلا وقد يستصعب بعض العطايا ؟ وهو ما يستغرق جميع ماله أو المال العظيم . فهذا لا يوجب الحكم بالبخل . وكذلك تكلموا فى الجود ، فقيل الجود عطاء بلا منّ وإسعاف من غير روية . وقيل : الجود عطاء من غير مسألة على رؤية التقليل . وقيل : الجود السرور بالسائل والفرح بالعطاء لما أمكن . وقيل : الجود عطاء على رؤية أن المال لله تعالى والعبد لله عز وجل فيعطى عبدالله مال الله على غير رؤية الفقر . وقيل : من أعطى البعض وأبقى البعض فهو صاحب سخاء ، ومن بذل الأكثر وأبقى لنفسه شيئا فهو صاحب جود ، ومن قاسى الضر وآثر غيره بالبلغة فهو صاحب إيثار ، ومن لم يبذل شيئا فهو صاحب بخل .

وجملة هذه الكلمات غير محيطة بحقيقة الجود والبخل ، بل نقول : المال خلق لحكمة ومقصود وهو صلاحه لحاجات الخلق ، ويمكن إمساكه عن الصرف إلى ما خلق للصرف إليه ، ويمكن بذله بالصرف إلى ما لا يحسن الصرف إليه ، ويمكن التصرف فيه بالعدل ، وهو أن يحفظ حيث يجب الحفظ ، ويبذل حيث يجب البذل . فالإمساك حيث يجب البذل بخل ، والبذل حيث يجب الإمساك تبذير . وبينهما وسط وهو المحمود وينبغى أن يكون السخاء والجود عبارة عنه ؛ إذ لم يؤمر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بالسخاء ، وقد قيل له ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾ وقال تعالى ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾ فالجود وسط بين الإسراف والإقتار وبين البسط والقبض ، وهو أن يقدر بذله وإمساكه بقدر الواجب ، ولا يكفى أن يفعل ذلك بجوارحه مالم يكن قلبه طيباً به غير منازع له فيه . فإن بذل فى محل وجوب البذل ونفسه تنازعه وهو يصابرها فهو متسخ وليس بسخى ، بل ينبغى أن لا يكون لقلبه علاقة مع المال إلا من حيث يراد المال له وهو صرفه إلى ما يجب صرفه إليه .

فإن قلت : فقد صار هذا موقوفا على معرفة الواجب فما الذى يجب بذله ؟ .

فأقول : إن الواجب قسمان : واجب بالشرع ، وواجب بالمروءة والعادة . والسخى هو الذى لايمنع واجب الشرع ولا واجب المروءة ، فإن منع واحداً منهما فهو بخيل ، ولكن الذى يمنع واجب الشرع أبخل كالذى يمنع أداء الزكاة ويمنع عياله وأهله النفقة ، أو يؤديها ولكنه يشق عليه ، فإنه بخيل بالطبع ، وإنما يتسخى بالتكلف ، أو الذى يتيمم الخبيث من ماله ولا يطيب قلبه أن يعطى من أطيب ماله ، أو من وسطه ، فهذا كله بخل .

وأما واجب المروءة فهو ترك المضايقة والاستقصاء فى المحقرات ، فإن ذلك مستقبح ، واستقباح ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص . فمن كثر ماله استقبح منه مالا يستقبح من الفقير من المضايقة ، ويستقبح من الرجل المضايقة مع أهله وأقاربه ومماليكه مالا يستقبح مع الأجانب ، ويستقبح من الجار مالا يستقبح مع البعيد ، ويستقبح فى الضيافة من المضايقة ما لا يستقبح فى المعاملة ، فيختلف ذلك بما فيه من المضايقة فى ضيافة أو معاملة وبما به المضايقة من طعام أو ثوب ، إذ يستقبح فى الأطعمة ما لا يستقبح فى غيرها ، ويستقبح فى شراء الكفن مثلا أو شراء الأضحية أو شراء خبز الصدقة مالا يستقبح فى غيره من المضايقة . وكذلك بمن معه المضايقة من صديق أو أخ أو قريب أو زوجة أو ولد أو أجنبى . وبمن منه المضايقة من صبى أو امرأة أو شيخ أو شاب أو عالم أو جاهل أو موسر أو فقير . فالبخيل هو الذى يمنع حيث ينبغى أن لا يمنع إما بحكم الشرع وإما بحكم المروءة ، وذلك لا يمكن التنصيص على مقداره . ولعل حد البخل هو إمساك المال عن غرض ، ذلك الغرض هو أهم من حفظ المال ، فإن صيانة الدين أهم من حفظ المال ، فمانع الزكاة والنفقة بخيل . وصيانة المروءة أهم من حفظ المال ، والمضايق فى الدقائق مع من لا تحسن المضايقة معه هاتك ستر المروءة لحب المال فهو بخيل . ثم تبقى درجة أخرى ، وهو أن يكون الرجل ممن يؤدى الواجب ويحفظ المروءة ولكن معه مال كثير قد جمعه ليس يصرفه إلى الصدقات وإلى المحتاجين ، فقد تقابل غرض حفظ المال ليكون له عدة على نوائب الزمان وغرض الثواب ليكون رافعا لدرجاته فى الآخرة ، وإمساك المال عن هذا الغرض بخل عند الأكياس وليس ببخل عند عوام الخلق ، وذلك لأن نظر العوام مقصور على حظوظ الدنيا فيرون إمساكه لدفع نوائب الزمان مهما ، وربما يظهر عند العوام أيضا سمة البخل عليه إن كان فى جواره محتاج فمنعه وقال : قد أديت الزكاة الواجبة وليس على غيرها . ويختلف استقباح ذلك باختلاف مقدار ماله ، وباختلاف شدة حاجة المحتاج وصلاح دينه واستحقاقه . فمن أدى واجب الشرع وواجب المروءة اللائقة به فقد تبرأ من البخل . نعم لايتصف بصفة الجود والسخاء مالم يبذل زيادة على ذلك لطلب الفضيلة ونيل الدرجات ، فإذا اتسعت نفسه لبذل المال حيث لا يوجبه الشرع ولا تتوجه إليه الملامة فى العادة فهو جواد بقدر ماتتسع له نفسه من قليل أو كثير . ودرجات ذلك لاتحصر وبعض الناس أجود من بعض ، فاصطناع المعروف وراء ماتوجبه العادة والمروءة هو الجود ، ولكن بشرط أن يكون عن طيب نفس ولا يكون طمع ورجاء خدمة أو مكافأة أو شكر أو ثناء فإن من طمع فى الشكر والثناء فهو بياع وليس بجواد ، فإنه يشترى المدح بماله والمدح لذيذ وهو مقصود فى نفسه ، والجود هو بذل الشىء من غير عوض . هذا هو الحقيقة ولايتصور ذلك إلا من الله تعالى ، أما الآدمى فاسم الجود عليه مجاز إذ لايبذل الشىء إلا لغرض ، ولكنه إذا لم يكن غرضه إلا

الثواب فى الآخرة أو اكتساب فضيلة الجود وتطهير النفس عن رذالة البخل فيسمى جوادا ، فإن كان الباعث عليه الخوف من الهجاء مثلا أو من ملامة الخلق أو مايتوقعه من نفع يناله من المنعم عليه فكل ذلك ليس من الجود ، لأنه مضطر إليه بهذه البواعث ، وهى أعواض معجلة له عليه فهو معتاض لاجواد ، كما روى عن بعض المتعبدات أنها وقفت على حبان بن هلال وهو جالس مع أصحابه فقالت : هل فيكم من أسأله عن مسألة ؟ فقالوا لها : سلى عما شئت ـ وأشاروا إلى حبان بن هلال ـ فقالت : ماالسخاء عندكم ؟ قالوا : العطاء والبذل والإيثار ، قالت : هذا السخاء فى الدنيا فما السخاء فى الدين ؟ قالوا : أن نعبد الله سبحانه سخية بها أنفسنا غير مكرهة ، قالت : فتريدون على ذلك أجرا ؟ قالوا . نعم ، قالت ولم ؟ قالوا لأن الله تعالى وعدنا بالحسنة عشر أمثالها ، قالت سبحان الله ! فإذا أعطيتم واحدة وأخذتم عشرة فبأى شىء تسخيتم عليه ؟ قالوا لها فما السخاء عندك يرحمك الله ؟ قالت السخاء عندى أن تعبدوا الله متنعمين متلذذين بطاعته غير كارهين لاتريدون على ذلك أجرا حتى يكون مولاكم يفعل بكم ما يشاء ! ألا تستحيون من الله أن يطلع على قلوبكم فيعلم منها أنكم تريدون شيئا بشىء ؟ إن هذا فى الدنيا لقبيح ! وقالت بعض المتعبدات أتحسبون أن السخاء فى الدرهم والدينار فقط ؟ قيل ففيم ؟ قالت السخاء عندى فى المهج . وقال المحاسبى السخاء فى الدين أن تسخو بنفسك تتلفها لله عز وجل ويسخو قلبك ببذل مهجتك وإهراق دمك لله تعالى بسماحة من غير إكراه ، ولا تريد بذلك ثوابا عاجلا ولا آجلا ، وإن كنت غير مستغن عن الثواب ولكن يغلب على ظنك حسن كمال السخاء بترك الاختيار على الله ، حتى يكون مولاك هو الذى يفعل لك مالاتحسن أن تختار لنفسك .

بيان علاج البخل

اعلم أن البخل سببه حب المال . ولحب المال سببان أحدهما حب الشهوات التى لا وصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل ، فإن الإنسان لو علم أنه يموت بعد يوم ربما أنه كان لايبخل بماله ، إذ القدر الذى يحتاج إليه فى يوم أو فى شهر أو فى سنة قريب ، وإن كان قصير الأمل ولكن كان له أولاد أقام الولد مقام طول الأمل ، فإنه يقدر بقاءهم كبقاء نفسه فيمسك لأجلهم . ولذلك قال عليه السلام « الولد مبخلة مجبنة مجهلة [1] » ، فإذا انضاف إلى ذلك خوف الفقر وقلة الثقة بمجىء الرزق قوى البخل لا محالة .

السبب الثانى : أن يحب عين المال ، فمن الناس من معه مايكفيه لبقية عمره إذا اقتصر على ماجرت به عادته بنفقته وتفضل آلاف وهو شيخ بلا ولد ومعه أموال كثيرة ولاتسمح نفسه بإخراج الزكاة ولا بمداواة نفسه عند المرض بل صار محبا للدنانير عاشقا لها يلتذ بوجودها فى يده وبقدرته عليها ، فيكنزها تحت الأرض وهو يعلم أنه يموت فتضيع أو يأخذها أعداؤه ، ومع هذا فلا تسمح نفسه بأن يأكل أو يتصدق منها بحبة واحدة ، وهذا مرض للقلب عظيم عسير العلاج لا سيما فى كبر السن ، وهو مرض مزمن لا يرجى علاجه . ومثال صاحبه : مثال رجل عشق شخصا فأحب رسوله لنفسه ثم نسى محبوبه واشتغل برسوله ، فإن الدنانير رسول يبلغ إلى الحاجات فصارت محبوبة لذلك ، لأن الموصل إلى اللذيذ لذيذ ، ثم قد تنسى الحاجات ويصير الذهب عنده كأنه محبوب فى نفسه وهو غاية الضلال ، بل من رأى بينه وبين الحجر فرقا فهو جاهل إلا من حيث قضاء حاجته به ، فالفاضل عن قدر حاجته والحجر بمثابة واحدة . فهذه أسباب حب المال . وإنما علاج كل علة بمضادة سببها ، فتعالج حب الشهوات بالقناعة

(١) حديث « الولد مبخلة » زاد فى رواية « محزنة » ابن ماجه من حديث يعلى بن مرة دون قوله « محزنة » رواه بهذه الزيادة أبو يعلى والبزار من حديث أبى سعيد والحاكم من حديث الأسود بن خلف وإسناده صحيح .

باليسير وبالصبر ، وتعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت والنظر فى موت الأقران وطول تعبهم فى جمع المال وضياعه بعدهم ، وتعالج التفات القلب إلى الولد بأن خالقه خلق معه رزقه ، وكم من ولد ولم يرث من أبيه مالا وحاله أحسن ممن ورث ؟ وبأن يعلم أنه يجمع المال لولده يريد أن يترك ولده بخير وينقلب هو إلى شر ، وأن ولده إن كان تقيا صالحا فالله كافيه ، وإن كان فاسقا فيستعين بماله على المعصية وترجع مظلمته إليه . ويعالج أيضاً قلبه بكثرة التأمل فى الأخبار الواردة فى ذم البخل ومدح السخاء وما توعد الله به على البخل من العقاب العظيم . ومن الأدوية النافعة : كثرة التأمل فى أحوال البخلاء ونفرة الطبع عنهم واستقباحهم له ، فإنه ما من بخيل إلا ويستقبح البخل من غيره ، ويستثقل كل بخيل من أصحابه ، فيعلم أنه مستثقل ومستقذر فى قلوب الناس مثل سائر البخلاء فى قلبه . ويعالج أيضا قلبه بأن يتفكر فى مقاصد المال ، وأنه لماذا خلق؟ ولا يحفظ من المال إلا بقدر حاجته إليه والباقى يدخره لنفسه فى الآخرة بأن يحصل له ثواب بذله . فهذه الأدوية من جهة المعرفة والعلم ، فإذا عرف بنور البصيرة أن البذل خير له من الإمساك فى الدنيا والآخرة هاجت رغبته فى البذل إن كان عاقلا ، فإن تحركت الشهوة فينبغى أن يجيب الخاطر الأول ولا يتوقف ، فإن الشيطان يعده الفقر ويخوفه ويصده عنه .

حكى أن أبا الحسن البوشنجى كان ذات يوم فى الخلاء فدعا تلميذا له وقال : أنزع عنى القميص وادفعه إلى فلان ، فقال : هلا صبرت حتى تخرج ؟ قال : لم آمن على نفسى أن تتغير ، وكان قد خطر لى بذله ! ولا تزول صفة البخل إلا بالبذل تكلفا كما لا يزول العشق إلا بمفارقة المعشوق بالسفر عن مستقره ؛ حتى إذا سافر وفارق تكلفاً وصبر عنه مدة تسلى عنه قلبه ، فكذلك الذى يريد علاج البخل ينبغى أن يفارق المال تكلفا بأن يبذله ، بل لو رماه فى الماء كان أولى به من إمساكه إياه مع الحب له . ومن لطائف الحيل فيه أن يخدع نفسه بحسن الاسم والاشتهار بالسخاء ، فيبذل على قصد الرياء حتى تسمح نفسه بالبذل طمعاً فى حشمة الجود ، فيكون قد أزال عن نفسه خبث البخل واكتسب بها خبث الرياء ، ولكن ينعطف بعد ذلك على الرياء ويزيله بعلاجه ، ويكون طلب الاسم كالتسلية للنفس عند فطامها عن المال ، كما يسلى الصبى عند الفطام عن الثدى باللعب بالعصافير وغيرها لا ليخلى واللعب ، ولكن لينفك عن الثدى إليه ، ثم ينقل عنه إلى غيره ، فكذلك هذه الصفات الخبيثه ينبغى أن يسلط بعضها على بعض كما تسلط الشهوة على الغضب وتكسر سورته بها ، ويسلط الغضب على الشهوة وتكسر رعونتها به ، إلا أن هذا مفيد فى حق من كان البخل أغلب عليه من حب الجاه والرياء ، فيبذل الأقوى بالأضعف ، فإن كان الجاه محبوبا عنده كالمال فلا فائدة فيه فإنه يقلع من علة ويزيد فى أخرى مثلها ، إلا أن علامة ذلك أن لا يثقل عليه البذل لأجل الرياء ، فلذلك يتبين أن الرياء أغلب عليه ، فإن كان البذل يشق عليه مع الرياء فينبغى أن يبذل فإن ذلك يدل على أن مرض البخل أغلب على قلبه .

ومثال دفع هذه الصفات بعضها ببعض ما يقال إن الميت تستحيل جميع أجزائه دودا ثم يأكل بعض الديدان البعض ، حتى يقل عددها ثم يأكل بعضها بعضا حتى ترجع إلى اثنتين قويتين عظيمتين ، ثم لا تزالان تتقاتلان إلى أن تغلب إحداهما الأخرى فتأكلها وتسمن بها ، ثم لا تزال تبقى جائعة وحدها إلى أن تموت ، فكذلك هذه الصفات الخبيثه يمكن أن يسلط بعضها على بعض حتى يقمعها ، ويجعل الأضعف قوتا للأقوى إلى أن لا يبقى إلا واحدة ، ثم تقع العناية بمحوها وإذابتها بالمجاهدة وهو منع القوت عنها . ومنع القوت عن الصفات أن لا يعمل بمقتضاها ، فإنها تقتضى لا محالة أعمالا ، وإذا خولفت خمدت الصفات وماتت . مثل البخل فإنه يقتضى إمساك

المال فإذا منع مقتضاه وبذل المال مع الجهد مرة بعد أخرى ماتت صفة البخل وصار البذل طبعا وسقط التعب فيه ، فإن علاج البخل بعلم وعمل ، فالعلم يرجع إلى معرفة آفة البخل وفائدة الجود ، والعمل يرجع إلى الجود والبذل على سبيل التكلف ، ولكن قد يقوى البخل بحيث يعمى ويصم فيمنع تحقق المعرفة فيه ، وإذا لم تتحقق المعرفة لم تتحرك الرغبة فلم يتيسر العمل فتبقى العلة مزمنة ، كالمرض الذى يمنع معرفة الدواء وإمكان استعماله فإنه لا حيلة فيه إلا الصبر إلى الموت .

وكان من عادة بعض شيوخ الصوفية فى معالجة علة البخل فى المريدين أن يمنعهم من الاختصاص بزواياهم . وكان إذا توهم فى مريد فرحه بزاويته وما فيها ، نقله إلى زاوية غيرها ، ونقل زاوية غيره إليه وأخرجه عن جميع ما ملكه ، وإذا رآه يلتفت إلى ثوب جديد يلبسه أو سجادة يفرح بها يأمره بتسليمها إلى غيره ويلبسه ثوبا خلقا لا يميل إليه قلبه .

فبهذا يتجافى القلب عن متاع الدنيا . فمن لم يسلك هذا السبيل أنس بالدنيا وأحبها ، فإن كان له ألف متاع كان له ألف محبوب ، ولذلك إذا سرق كل واحد منه ألمت به مصيبة بقدر حبه له ، فإذا مات نزل به ألف مصيبة دفعة واحدة لأنه كان يحب الكل وقد سلب عنه ، بل هو فى حياته على خطر المصيبة بالفقد والهلاك .

حمل إلى بعض الملوك قدح من فيروزج مرصع بالجواهر لم ير له نظير ، ففرح الملك بذلك فرحا شديدا فقال لبعض الحكماء عنده : كيف ترى هذا ؟ قال : اراه مصيبة أو فقرا ، قال : كيف ؟ قال : إن كسر كان مصيبة لا جبر لها وإن سرق صرت فقيرا إليه ولم تجد مثله ، وقد كنت قبل أن يحمل إليك فى أمن من المصيبة والفقر، ثم اتفق يوما أن كسر أو سرق وعظمت مصيبة الملك عليه فقال : صدق الحكيم ليته لم يحمل إلينا ! وهذا شأن جميع أسباب الدنيا فإن الدنيا عدوة لأعداء الله تسوقهم إلى النار ، وعدوة أولياء الله إذ تغمهم بالصبر عنها ، وعدوة الله إذ تقطع طريقه على عباده ، وعدوة نفسها فإنها تأكل نفسها ، فإن المال لا يحفظ إلا بالخزائن والحراس . والخزائن والحراس لا يمكن تحصيلها إلا بالمال وهو بذل الدراهم والدنانير ، فالمال يأكل نفسه ويضاد ذاته حتى يفنى ، ومن عرف آفة المال لم يأنس به ولم يفرح ولم يأخذ منه إلا بقدر حاجته ، ومن قنع بقدر الحاجة فلا يبخل لأن ما أمسكه لحاجته فليس ببخل ، ولا يحتاج إليه ، فلا يتعب نفسه بحفظه فيبذله ، بل هو كالماء على شط الدجلة إذ لا يبخل به أحد لقناعة الناس منه بمقدار الحاجة .

بيان مجموع الوظائف التي على العبد فى ماله

اعلم أن المال كما وصفناه خير من وجه وشر من وجه . ومثاله مثال حية يأخذها الراقى ويستخرج منها الترياق ، ويأخذها الغافل فيقتله سمها من حيث لا يدرى ولا يخلو أحد عن سم المال إلا بالمحافظة على خمس وظائف

الأولى : أن يعرف مقصود المال وأنه لماذا خلق وأنه لم يحتج إليه حتى يكتسب ولا يحفظ إلا قدر الحاجة ، ولا يعطيه من همته فوق ما يستحقه .

الثانية : أن يراعى جهة دخل المال فيجتنب الحرام المحض ، وما الغالب عليه الحرام كمال السلطان ، ويجتنب الجهات المكروهة القادحة فى المروءة كالهدايا التى فيها شوائب الرشوة ، وكالسؤال الذى فيه الذلة وهتك المروءة وما يجرى مجراه .

الثالثة : فى المقدار الذى يكتسبه فلا يستكثر منه ولا يستقل ، بل القدر الواجب ومعياره الحاجة . والحاجة

ملبس ومسكن ومطعم . ولكل واحد ثلاث درجات : أدنى ، وأوسط ، وأعلى . وما دام مائلا إلى جانب القلة ومتقربا من حد الضرورة كان محقا ويجيء من جملة المحقين ، وإن جاوز ذلك وقع فى هاوية لا آخر لعمقها . وقد ذكرنا تفصيل هذه الدرجات فى كتاب الزهد .

الرابعة : أن يراعى جهة المخرج ويقتصد فى الإنفاق غير مبذر ولا مقتر كما ذكرناه ، فيضع ما اكتسبه من حله فى حقه ولا يضعه فى غير حقه ، فإن الإثم فى الأخذ من غير حقه والوضع فى غير حقه سواء .

الخامسة : أن يصلح نيته فى الأخذ والترك والإنفاق والإمساك ، فيأخذ ما يأخذ ليستعين به على العبادة ، ويترك ما يترك زهدا فيه واستحقاراً له إذا فعل ذلك لم يضره وجود المال ، ولذلك قال على رضى الله عنه : لو أنّ رجلا أخذ جميع ما فى الأرض وأراد به وجه الله تعالى فهو زاهد ، ولو أنه ترك الجميع ولم يرد به وجه الله تعالى فليس بزاهد . فلتكن جميع حركاتك وسكناتك لله مقصورة على عبادة أو ما يعين على العبادة ، فإن أبعد الحركات عن العبادة الأكل وقضاء الحاجة وهما معينان على العبادة ، فإذا كان ذلك قصدك بهما صار ذلك عبادة فى حقك . وكذلك ينبغى إن تكون نيتك فى كل ما يحفظك من قميص وإزار وفراش وآنية ، لأن كل ذلك مما يحتاج إليه فى الدين ، وما فضل من الحاجة ينبغى أن يقصد به أن ينتفع به عبد من عباد الله ولا يمنعه منه عند حاجته ، فمن فعل ذلك فهو الذى أخذ من حية المال جوهرها وترياقها واتقى سمها فلا تضره كثرة المال ، ولكن لا يتأتى ذلك إلا لمن رسخ فى الدين قدمه وعظم فيه علمه . والعامى إذا تشبه بالعالم فى الاستكثار من المال وزعم أنه يشبه أغنياء الصحابة شابه الصبى الذى يرى المعزم الحاذق يأخذ الحية ويتصرف فيها فيخرج ترياقها فيقتدى به ، ويظن أنه أخذها مستحسنا صورتها وشكلها ومستلينا جلدها ، فيأخذها اقتداء به فتقتله فى الحال ، إلا أنّ قتيل الحية يدرى أنه قتيل ، وقتيل المال قد لا يعرف . وقد شبهت الدنيا بالحية فقيل :

هى دنيا كحية تنفث السم   وإن كانت المجسة لانت

وكما يستحيل أن يتشبه الأعمى بالبصير فى تخطى قلل الجبال وأطراف البحر والطرق المشوكة فمحال أن يتشبه العامى بالعالم الكامل فى تناول المال .

بيان ذم الغنى ومدح الفقر

اعلم أن الناس قد اختلفوا فى تفضيل الغنى الشاكر على الفقير الصابر ـ وقد أوردنا ذلك فى كتاب الفقر والزهد وكشفنا عن تحقيق الحق فيه ـ ولكنا فى هذا الكتاب ندل على أن الفقر أفضل وأعلى من الغنى على الجملة من غير التفات إلى تفصيل الأحوال ، ونقتصر فيه على حكاية فصل ذكره الحارث المحاسبى رضى الله عنه فى بعض كتبه فى الرد على بعض العلماء من الأغنياء ، حيث احتج بأغنياء الصحابة وبكثرة مال عبد الرحمن بن عوف وشبه نفسه بهم والمحاسبى رحمه الله حبر الأمة فى علم المعاملة وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الأعمال وأغوار العبادات ، وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه . وقد قال بعد كلام له فى الرد على علماء السوء : بلغنا أنّ عيسى ابن مريم عليه السلام قال : ياعلماء السوء تصومون وتصلون وتصدقون ولا تفعلون ما تؤمرون ، وتدرسون ما لا تعملون فياسوء ما تحكمون ، تتوبون بالقول والأمانى وتعملون بالهوى ، وما يغنى عنكم أن تنقوا جلودكم وقلوبكم دنسة ، بحق أقول لكم لا تكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب وتبقى فيه النخالة ؛ كذلك أنتم

تخرجون الحكم من أفواهكم ويبقى الغل فى صدوركم ؛ ياعبيد الدنيا كيف يدرك الآخرة من لاتنقضى من الدنيا شهوته ولاتنقطع منها رغبته ؟ بحق أقول لكم إن قلوبكم تبكى من أعمالكم ، جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم والعمل تحت أقدامكم ؛ بحق أقول لكم أفسدتم آخرتكم فصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة ؛ فأى الناس أخسر منكم لو تعلمون ؟ ويلكم حتام تصفون الطريق للمدلجين وتقيمون فى محل المتحيرين ! كأنكم تدعون أهل الدنيا ليتركوها لكم ، مهلا مهلا ! ويلكم ماذا يغنى عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحش مظلم ؟ كذلك لايغنى عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة متعطلة ! ياعبيد الدنيا لا كعبيد أتقياء ولا كأحرار كرام ؛ توشك الدنيا أن تقلعكم عن أصولكم فتلقيكم على وجوهكم ثم تكبكم على مناخركم ، ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم ثم تدفعكم من خلفكم حتى تسلمكم إلى الملك الديان عراة فرادى ، فيوقفكم على سوآتكم ثم يجزيكم بسوء أعمالكم . ثم قال الحارث رحمه الله إخوانى فهؤلاء علماء السوء شياطين الإنس وفتنة على الناس ، رغبوا فى عرض الدنيا ورفعتها وآثروها على الآخرة ، وأذلوا الدين للدنيا فهم فى العاجل عار وشين ، وفى الآخرة هم الخاسرون أو يعفو الكريم بفضله .

وبعد : فإنى رأيت الهالك المؤثر للدنيا سروره ممزوج بالتنغيص ، فيتفجر عنه أنواع الهموم وفنون المعاصى وإلى البوار والتلف مصيره ، فرح الهالك برجائه فلم تبق له دنياه ولم يسلم له دينه ﴿ خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴾ فيالها من مصيبة ماأفظعها ورزية ماأجلها ، ألا فراقبوا الله إخوانى ولا يغرنكم الشيطان وأولياؤه من الآنسين بالحجج الداحضة عند الله ، فإنهم يتكالبون على الدنيا ثم يطلبون لأنفسهم المعاذير والحجج ، ويزعمون أنّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت لهم أموال فيتزين المغرورون بذكر الصحابة ليعذرهم الناس على جمع المال ، ولقد دهاهم الشيطان وما يشعرون . ويحك أيها المفتون إنّ احتجاجك بمال عبد الرحمن بن عوف مكيدة من الشيطان ينطق بها على لسانك فتهلك ! لأنك متى زعمت أنّ أخيار الصحابة أرادوا المال للتكاثر والشرف والزينة فقد اغتبت السادة ونسبتهم إلى أمر عظيم ، ومتى زعمت أنّ جمع المال الحلال أعلى وأفضل من تركه فقد إزدريت محمداً والمرسلين ؟ ونسبتهم إلى قلة الرغبة والزهد فى هذا الخير الذى رغبت فيه أنت وأصحابك من جمع المال ، ونسبتهم إلى الجهل إذ لم يجمعوا المال كما جمعت ، ومتى زعمت أنّ جمع المال الحلال أعلى من تركه ، فقد زعمت أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينصح للأمة إذ نهاهم عن جمع المال (١) وقد علم أنّ جمع المال خير للأمة ؟ فقد غشهم بزعمك حين نهاهم عن جمع المال ، كذبت ورب السماء على رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فلقد كان للأمة ناصحا وعليهم مشفقا وبهم رءوفا . ومتى زعمت أنّ جمع المال أفضل فقد زعمت أنّ الله عز وجل لم ينظر لعباده حين نهاهم عن جمع المال وقد علم أنّ جمع المال خير لهم ؟ أو زعمت أنّ الله تعالى لم يعلم أن الفضل فى الجمع فلذلك نهاهم عنه ، وأنت عليم بما فى المال من الخير والفضل لذلك رغبت فى الاستكثار كأنك أعلم بموضع الخير والفضل من ربك تعالى الله عن جهلك أيها المفتون ؟ تدبر بعقلك مادهاك به الشيطان حين زين لك الاحتجاج بمال الصحابة ! ويحك ماينفعك الاحتجاج بمال عبد الرحمن بن عوف وقد ود عبد الرحمن بن عوف فى القيامة أنه لم يؤت من الدنيا إلا قوتا ؟

---

(١) حديث : النهى عن جمع المال . أخرجه ابن عدى من حديث ابن مسعود « ما أوحى الله إلىّ أن أجمع المال وأكون من التاجرين ... الحديث » ولأبى نعيم والخطيب فى التاريخ والبيهقى فى الزهد من حديث الحارث بن سويد فى أثناء الحديث « لاتجمعوا مالا تأكلون » وكلاهما ضعيف .

وقد بلغنى أنه لما توفى عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه قال أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا نخاف على عبد الرحمن فيما ترك ! فقال كعب : سبحان الله ! وماتخافون على عبد الرحمن كسب طيباً وأنفق طيبا وترك طيبا ! فبلغ ذلك ابا ذر فخرج مغضبا يريد كعبا فمر بعظم لحى بعير فأخذه بيده ثم انطلق يريد كعبا ، فقيل لكعب . إن ابا ذر يطلبك ، فخرج هارباً حتى دخل على عثمان يستغيث به وأخبره الخبر ، واقبل أبو ذر يقص الأثر فى طلب كعب حتى انتهى إلى دار عثمان ، فلما دخل قام كعب فجلس خلف عثمان هاربا من أبى ذر ، فقال له أبو ذر : هيه يا ابن اليهودية ! تزعم أن لا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف ، ولقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما نحو أحد وأنا معه فقال « ياأبا ذر » فقلت « لبيك يارسول الله فقال « الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا عن يمينه وشماله وقدامه وخلفه وقليل ماهم » ثم قال « يا أبا ذر » قلت : نعم يارسول الله بأبى أنت وأمى ، قال « ما يسرنى أن لى مثل أحد أنفقه فى سبيل الله أموت يوم أموت وأترك منه قيراطين » قلت أو قنطارين يا رسول الله ؟ قال « بل قيراطان » ثم قال « يا أبا ذر أنت تريد الأكثر وأنا أريد الأقل (١) » فرسول الله يريد هذا وأنت تقول يا ابن اليهودية لا بأس بما ترك عبدالرحمن بن عوف ؟كذبت وكذب من قال ! فلم يرد عليه خوفا حتى خرج .

وبلغنا أن عبد الرحمن بن عوف قدمت عليه عير من اليمن فضجت المدينة ضجة واحدة فقالت عائشة رضى الله عنها : ماهذا ؟ قيل عير قدمت لعبد الرحمن ، قالت : صدق الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فبلغ ذلك عبدالرحمن فسألها فقالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنى رأيت الجنة فرأيت فقراء المهاجرين والمسلمين يدخلون سعيا ، ولم أر أحدا من الأغنياء يدخلها معهم إلا عبد الرحمن بن عوف يدخلها معهم حبوا (٢) » فقال عبد الرحمن : إن العير وما عليها فى سبيل الله ، وإن ارقاءها أحرارا لعلى ادخلها معهم سعيا .

وبلغنا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعبد الرحمن بن عوف « أما إنك أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتى وما كدت أن تدخلها إلا حبوا (٣) » .

ويحك أيها المفتون ، فما احتجاجك بالمال وهذا عبد الرحمن فى فضله وتقواه وصنائعه المعروف وبذله الأموال فى سبيل الله مع صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبشراه بالجنة (٤) أيضا يوقف فى عرصات القيامة وأهوالها بسبب مال كسبه من حلال للتعفف ولصنائع المعروف ، وأنفق منه قصدا ، وأعطى فى سبيل الله سمحا ،

---

(١) حديث أبى ذر « الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة الا من قال هكذا وهكذا ... الحديث » متفق عليه وقد تقدم دون هذه الزيادة التى فى أوله من قول كعب حين مات عبد الرحمن بن عوف : كسب طيباً وترك طيبا . وانكار أبى ذر عليه ؟ فلم أقف على هذه الزيادة الا فى قول الحارث بن أسد المحاسبى بلغنى كما ذكره المصنف ، وقد رواها أحمد وأبو يعلى أخصر من هذا ولفظ كعب : اذا كان قضى عنه حق الله فلا بأس به ، فرفع أبو ذر عصاه فضرب كعباً وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما أحب لو كان هذا الجبل لى ذهبا ... الحديث . وفيه ابن لهيعة (٢) حديث عائشة « رأيت الجنة فرأيت فقراء المهاجرين والمسلمين يدخلون سعيا ... الحديث » فى أن عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبوا رواه أحمد مختصرا فى كون عبدالرحمن يدخل حبوا دون ذكر فقراء المهاجرين والمسلمين ، وفيه عمارة بن زاذان مختلف فيه (٣) حديث : أنه قال « أما إنك أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتى وما كدت تدخلها الا حبوا » أخرجه البزار من حديث أنس بسند ضعيف والحاكم من حديث عبدالرحمن ابن عوف « يا ابن عوف انك من الأغنياء ولن تدخل الجنة إلا زحفا » وقال صحيح الإسناد قلت : بل ضعيف فيه خالد بن أبى مالك ضعفه الجمهور (٤) حديث : بشر النبى صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن بن عوف بالجنة . أخرجه الترمذى والنسائى فى الكبرى من حديثه « أبو بكر فى الجنة ... الحديث » وفيه « وعبد الرحمن بن عوف فى الجنة » وهو عند الأربعة من حديث سعيد بن زيد قال البخارى والترمذى وهذا أصح .

منع من السعى إلى الجنة مع الفقراء المهاجرين وصار يحبو فى آثارهم حبوا ؟ فما ظنك بأمثالنا الغرقى فى فتن الدنيا ؟ وبعد : فالعجب كل العجب لك يامفتون تتمرغ فى تخاليط الشبهات والسحت ، وتتكالب على أوساخ الناس ، وتتقلب فى الشهوات والزينة والمباهاة ، وتتقلب فى فتن الدنيا ثم تحتج بعبد الرحمن وتزعم أنك إن جمعت المال فقد جمعه الصحابة كأنك أشبهت السلف وفعلهم ؟ ويحك إن هذا من قياس إبليس ومن فتياه لأوليائه ! وسأصف لك أحوالك وأحوال السلف لتعرف فضائحك وفضل الصحابة . ولعمرى لقد كان لبعض الصحابة أموال أرادوها للتعفف والبذل فى سبيل الله ، فكسبوا حلالا وأكلوا طيبا وأنفقوا قصدا ، وقدموا فضلا ، ولم يمنعوا منها حقا ، ولم يبخلوا بها ، لكنهم جادوا لله بأكثرها ، وجاد بعضهم بجميعها ، وفى الشدة آثروا الله على أنفسهم كثيرا ، فبالله أكذلك أنت ؟ والله إنك لبعيد الشبه بالقوم .

وبعد : فإن أخيار الصحابة كانوا للمسكنة محبين ، ومن خوف الفقر آمنين ، وبالله فى أرزاقهم واثقين ، وبمقادير الله مسرورين ، وفى البلاء راضين ، وفى الرخاء شاكرين ، وفى الضراء صابرين ، وفى السراء حامدين ، وكانوا لله متواضعين ، وعن حب العلو والتكاثر ورعين . لم ينالوا من الدنيا إلا المباح لهم بالبلغه منها وزجوا الدنيا وصبروا على مكارهها وتجرعوا مرارتها وزهدوا فى نعيمها وزهرتها . فبالله أكذلك أنت ؟

ولقد بلغنا أنهم كانوا إذا أقبلت الدنيا عليهم حزنوا وقالوا : ذنب عجلت عقوبته من الله ، وإذا رأوا الفقر مقبلا قالوا : مرحباً بشعار الصالحين . وبلغنا أن بعضهم كان إذا أصبح وعند عياله شىء أصبح كئيبا حزينا ، وإذا لم يكن عندهم شىء أصبح فرحا مسرورا ، فقيل له : إن الناس إذا لم يكن عندهم شىء حزنوا ، وإذا كان عندهم شىء فرحوا ، وأنت لست كذلك ! قال : إنى إذا أصبحت وليس عند عيالى شىء فرحت إذ كان لى برسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة ، وإذا كان عند عيالى شىء اغتممت إذ لم يكن لى بآل محمد أسوة . وبلغنا أنهم كانوا إذا سلك بهم سبيل الرخاء حزنوا وأشفقوا وقالوا : مالنا وللدنيا وما يراد بها فكأنهم على جناح خوف ، وإذا سلك بهم سبيل البلاء فرحوا واستبشروا وقالوا : الآن تعاهدنا ربنا . فهذه أحوال السلف ونعتهم وفيهم من الفضل أكثر مما وصفنا . فبالله أكذلك أنت ؟ إنك لبعيد الشبه بالقوم .

وسأصف لك أحوالك أيها المفتون ضدا لأحوالهم ، وذلك أنك تطغى عند الغنى ، وتبطر عند الرخاء ، وتمرح عند السراء ، وتغفل عن شكر ذى النعماء ، وتقنط عند الضراء ، وتسخط عند البلاء ، ولا ترضى بالقضاء . نعم وتبغض الفقر وتأنف من المسكنة ؛ وذلك فخر المرسلين وأنت تأنف من فخرهم . وأنت تدخر المال وتجمعه خوفا من الفقر وذلك من سوء الظن بالله عز وجل وقلة اليقين بضمانه ، وكفى به إثما ، وعساك تجمع المال لنعيم الدنيا وزهرتها وشهواتها ولذاتها . ولقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم فربت عليهم أجسامهم »(1) ، وبلغنا أن بعض أهل العلم قال : ليجىء يوم القيامة قوم يطلبون حسنات لهم فيقال لهم ﴿ أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ﴾ وأنت فى غفلة قد حرمت نعيم الآخرة بسبب نعيم الدنيا فيالها حسرة ومصيبة ! نعم وعساك تجمع المال للتكاثر والعلو والفخر والزينة فى الدنيا ، وقد بلغنا أنه من طلب الدنيا للتكاثر أو للتفاخر لقى الله وهو عليه غضبان ، وأنت غير مكترث بما حل بك من غضب ربك حين أردت التكاثر والعلو

(1) حديث « شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم ... الحديث » تقدم ذكره فى أوائل كتاب ذم البخل عند الحديث الرابع منه « من أسف على دنيا فاتته اقترب من النار مسيرة سنة » .

نعم وعساك المكث فى الدنيا أحب إليك من النقلة إلى جوار الله ، فأنت تكره لقاء الله والله للقائك أكره، وأنت فى غفلة وعساك تأسف على مافاتك من عرض الدنيا ؛ وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من أسف على دنيا فاتته اقترب من النار مسيرة شهر . وقيل سنة . » وأنت تأسف على مافاتك غير مكترث بقربك من عذاب الله . نعم ولعلك تخرج من دينك أحيانا لتوفير دنياك وتفرح بإقبال الدنيا عليك وترتاح لذلك سرورا بها ، وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من أحب الدنيا وسر بها ذهب خوف الآخرة من قلبه [1] » وبلغنا أن بعض أهل العلم قال إنك تحاسب على التحزن على مافاتك من الدنيا ، وتحاسب بفرحك فى الدنيا إذا قدرت عليها وأنت فرح بدنياك وقد سلبت الخوف من الله تعالى ، وعساك تعنى بأمور دنياك أضعاف ماتعنى بأمور آخرتك ، وعساك ترى مصيبتك فى معاصيك أهون من مصيبتك فى انتقاص دنياك ، ونعم وخوفك من ذهاب مالك أكثر من خوفك من الذنوب ، وعساك تبذل للناس ماجمعت من الأوساخ كلها للعلو والرفعة فى الدنيا ، وعساك ترضى المخلوقين مساخطا لله تعالى كيما تكرم وتعظم . ويحك ! فكأن احتقار الله تعالى لك فى القيامة أهون عليك من احتقار الناس إياك ، وعساك تخفى من المخلوقين مساويك ولا تكترث باطلاع الله عليك فيها فكأن الفضيحة عند الله أهون عليك من الفضيحة عند الناس ، فكأن العبيد أعلى عندك قدرا من الله ، تعالى الله عن جهلك ! فكيف تنطق عند ذوى الألباب وهذه المثالب فيك ؟ أف لك ! متلوثا بالأقذار وتحتج بمال الأبرار ؟ هيهات هيهات ماأبعدك عن السلف الأخيار ، والله لقد بلغنى أنهم كانوا فيما أحل لهم أزهد منكم فيما حرم عليكم ، إن الذى لا بأس به عندكم كان من الموبقات عندهم ، وكانوا للزلة الصغيرة أشد استعظاما منكم لكبائر المعاصى ، فليت أطيب مالك وأحله مثل شبهات أموالهم ؟ وليتك أشفقت من سيئاتك كما أشفقوا على حسناتهم أن لا تقبل؟ ليت صومك على مثال إفطارهم ؟ وليت اجتهادك فى العبادة مثل فتورهم ونومهم ؟ وليت جميع حسناتك مثل واحدة من سيئاتهم . وقد بلغنى عن بعض الصحابة أنه قال : غنيمة الصديقين مافاتهم من الدنيا ونهمتهم مازوى عنهم منها ، فمن لم يكن كذلك فليس معهم فى الدنيا ولا معهم فى الآخرة ، فسبحان الله ! كم بين الفريقين من التفاوت ؟ فريق خيار الصحابة فى العلو عند الله وفريق أمثالكم فى السفالة ، أو يعفو الله الكريم بفضله .

وبعد : فإنك إن زعمت أنك متأس بالصحابة بجمع المال للتعفف والبذل فى سبيل الله فتدبر أمرك ، ويحك هل تجد من الحلال فى دهرك كما وجدوا فى دهرهم ؟ أو تحسب أنك محتاط فى طلب الحلال كما احتاطوا ، لقد بلغنى أن بعض الصحابة قال : كنا ندع سبعين بابا من الحلال مخافة أن نقع فى باب من الحرام ، أفتطمع من نفسك فى مثل هذا الاحتياط ؟ لا ورب الكعبة ما أحسبك كذلك ! ويحك ! كن على يقين أن جمع المال لأعمال البر مكر من الشيطان ليوقعك بسبب البر فى اكتساب الشبهات الممزوجة بالسحت والحرام ، وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من اجترأ على الشبهات أوشك أن يقع فى الحرام [2] » أيها المغرور ، أما علمت أن خوفك من اقتحام الشبهات أعلى وأفضل وأعظم لقدرك عند الله من اكتساب الشبهات ، وبذلها فى سبيل الله وسبيل البر ؟ بلغنا ذلك عن بعض أهل العلم قال : لأن تدع درهما واحدا مخافة أن لا يكون حلالا خير لك من أن تتصدق بألف دينار من شبهة لا تدرى

---

(١) حديث « من أحب الدنيا وسر بها ذهب خوف الآخرة من قلبه » لم أجده إلا بلاغا للحارث بن أسد المحاسبى كما ذكره المصنف عنه (٢) حديث « من اجترأ على الشبهات أوشك أن يقع فى الحرام » متفق عليه من حديث النعمان بن بشير نحوه وقد تقدم فى كتاب الحلال والحرام أول الحديث .

أيحل لك أم لا ؟ فإن زعمت أنك أتقى وأورع من أن تتلبس بالشبهات وإنما تجمع المال بزعمك من الحلال للبذل فى سبيل الله ! ويحك ! إن كنت كما زعمت بالغا فى الورع فلا تتعرض للحساب ، فإن خيار الصحابة خافوا المسألة ، وبلغنا أن بعض الصحابة قال : ما سرنى أن أكتسب كل يوم ألف دينار من حلال وأنفقها فى طاعة الله ولم يشغلنى الكسب عن صلاة الجمعة ، قالوا : ولم ذاك رحمك الله ؟ قال : لأنى غنى عن مقام يوم القيامة فيقول عبدى من أين اكتسبت وفى أى شيء أنفقت ؟ فهؤلاء المتقون كانوا فى جدة الإسلام والحلال موجود لديهم ، تركوا المال وجلا من الحساب مخافة أن لايقوم خير المال بشره ، وأنت بغاية الأمن والحلال فى دهرك مفقود . تتكالب على الأوساخ ثم تزعم أنك تجمع المال من الحلال ، ويحك ! أين الحلال فتجمعه

وبعد : فلو كان الحلال موجودا لديك أما تخاف أن يتغير عند الغنى قلبك ، وقد بلغنا أن بعض الصحابة كان يرث المال الحلال فيتركه مخافة أن يفسد قلبه ؟ أفتطمع أن يكون قلبك أتقى من قلوب الصحابة فلا يزول عن شيء من الخلق فى أمرك وأحوالك ؟ لئن ظننت ذلك لقد أحسنت الظن بنفسك الأمارة بالسوء ، ويحك ! إنى لك ناصح أرى لك أن تقنع بالبلغة ولا تجمع المال لأعمال البر ولا تتعرض للحساب ، فإنه بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من نوقش الحساب عذب [1] » وقال عليه السلام « يؤتى برجل يوم القيامة وقد جمع مالا من حرام وأنفقه فى حرام فيقال اذهبوا به إلى النار ، ويؤتى برجل قد جمع مالا من حلال وأنفقه فى حرام فيقال اذهبوا به إلى النار ، ويؤتى برجل قد جمع مالا من حرام وأنفقه فى حلال فيقال اذهبوا به إلى النار ، ويؤتى برجل قد جمع مالا من حلال وأنفقه فى حلال فيقال له : قف لعلك قصرت فى طلب هذا بشيء مما فرضت عليك من صلاة لم تصلها لوقتها ، وفرطت فى شيء من ركوعها وسجودها ووضوئها فيقول : لا يارب كسبت من حلال وأنفقت فى حلال ولم أضيع شيئا فرضت على ، فيقال : لعلك اختلت فى هذا المال فى شيء من مركب أو ثوب باهيت به فيقول : لا يارب لم أختل ولم أباه فى شيء ، فيقال : لعلك منعت حق أحد أمرتك أن تعطيه من ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، فيقول : لا يارب كسبت من حلال وأنفقت فى حلال ولم أضيع شيئا مما فرضت على ولم أختل ولم أباه ولم أضيع حق أحد أمرتنى أن أعطيه ، قال : فيجيء أولئك فيخاصمونه فيقولون : يارب أعطيته وأغنيته وجعلته بين أظهرنا وأمرته أن يعطينا ، فإن كان أعطاهم وما ضيع من ذلك شيئا من الفرائض ولم يختل فى شيء فيقال : قف ، الآن هات شكر كل نعمة أنعمتها عليك من أكلة أو شربة أو لذة فلا يزال يسئل [2] » ويحك فمن ذا الذى يتعرض لهذه المسألة التى كانت لهذا الرجل الذى تقلب فى الحلال وقام بالحقوق كلها وأدى الفرائض بحدودها ، حوسب هذه المحاسبة فكيف ترى يكون حال أمثالنا الغرقى فى فتن الدنيا وتخاليطها وشبانها وشهواتها وزينتها ؟ ويحك ، لأجل هذه المسائل يخاف المتقون أن يتلبسوا بالدنيا فرضوا بالكفاف منها وعملوا بأنواع البر من كسب المال ، فلك ويحك بهؤلاء الأخيار أسوة ، فإن أبيت ذلك وزعمت أنك بالغ من الورع والتقوى ، ولم تجمع المال إلا من حلال ـ بزعمك ـ للتعفف والبذل فى سبيل الله ، ولم تنفق شيئا من الحلال إلا بحق ، ولم يتغير بسبب المال قلبك عما يحب الله ، ولم تسخط الله فى شيء من سرائرك وعلانيتك ويحك فإن كنت كذلك ، ولست كذلك ، فقد ينبغى لك أن ترضى بالبلغة وتعتزل ذوى الأموال إذا وقفوا للسؤال وتسق مع الرعيل الأول فى

---

(١) حديث « من نوقش الحساب عذب » متفق عليه من حديث عائشة وقد تقدم (٢) حديث « يؤتى بالرجل يوم القيامة وقد جمع مالا من حرام وأنفقه فى حرام فيقال اذهبوا به إلى النار ... الحديث » بطوله لم أقف له على أصل

زمرة المصطفى ، لا حبس عليك للمسألة والحساب ، فإما سلامة وإما عطب. فإنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يدخل صعاليك المهاجرين قبل أغنيائهم الجنة بخمسمائة عام [١] » وقال عليه السلام « يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم فيأكلون ويتمتعون والآخرون جثاة على ركبهم فيقول قبلكم طلبتي أنتم حكام الناس وملوكهم فأروني ماذا صنعتم فيما أعطيتكم [٢] »

وبلغنا أن بعض أهل العلم قال . ما سرني أن لي حمر النعم ولا أكون في الرعيل الأول مع محمد عليه السلام وحزبه . ياقوم فاستبقوا السباق مع المخفين في زمرة المرسلين عليهم السلام ، وكونوا وجلين من التخلف والانقطاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجل المتقين . لقد بلغني أن بعض الصحابة وهو أبو بكر رضي الله عنه عطش فاستسقى فأتي بشربة من ماء وعسل فلما ذاقه خنقته العبرة ثم بكى وأبكى ، ثم مسح الدموع عن وجهه وذهب ليتكلم فعاد في البكاء ، فلما أكثر البكاء قيل له: أكل هذا من أجل هذه الشربة؟ قال : نعم ، بينا أنا ذات يوم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وما معه أحد في البيت غيري ، فجعل يدفع عن نفسه وهو يقول « إليك عني ! » فقلت له . فداك أبي وأمي ما أرى بين يديك أحدا فمن تخاطب ؟ فقال « هذه الدنيا تطاولت إلى بعنقها ورأسها فقالت لي . يا محمد خذني ، فقلت . إليك عني ، فقالت . إن تنج مني يا محمد فإنه لا ينجو مني من بعدك ، فأخاف أن تكون هذه قد لحقتني تقطعني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] ياقوم فهؤلاء الأخيار بكوا وجلا أن تقطعهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شربة من حلال ! ويحك أنت في أنواع من النعم والشهوات من مكاسب السحت والشبهات لا تخشى الانقطاع ؟ أف لك ما أعظم جهلك ! ويحك فإن تخلفت في القيامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد المصطفى لتنظرن إلى أهوال جزعت منها الملائكة والأنبياء ، ولئن قصرت عن السباق فليطولن عليك اللحاق ، ولئن أردت الكثرة لتصيرن إلى حساب عسير ، ولئن لم تقنع بالقليل لتصيرن إلى وقوف طويل وصراخ وعويل ؛ ولئن رضيت بأحوال المتخلفين لتقطعن عن أصحاب اليمين وعن رسول رب العالمين ولتبطئن عن نعيم المتنعمين ، ولئن خالفت أحوال المتقين لتكونن من المحتبسين في أهوال يوم الدين . فتدبر ويحك ما سمعت وبعد . فإن زعمت أنك في مثال خيار السلف ، قانع بالقليل ، زاهد في الحلال ، بذول لمالك ، مؤثر على نفسك ، لا تخشى الفقر ولا تدخر شيئا لغدك ، مبغض للتكاثر والغنى ، راض بالفقر والبلاء ، فرح بالقلة والمسكنة ، مسرور بالذل والضعة ، كاره للعلو والرفعة قوي في أمرك لا يتغير عن الرشد قلبك ، قد حاسبت نفسك في الله ، وحكمت أمورك كلها على ماوافق رضوان الله ولن توقف في المسألة ، ولن يحاسب مثلك من المتقين . وإنما تجمع المال الحلال للبذل في سبيل الله ، ويحك أيها المغرور فتدبر الأمر وأمعن النظر ! أما علمت أن ترك الاشتغال بالمال وفراغ القلب للذكر والتذكر والتذكار والفكر والاعتبار . أسلم للدين وأيسر للحساب وأخف للمسألة وآمن من روعات القيامة وأجزل للثواب وأعلى لقدرك عند الله أضعافا . بلغنا عن بعض الصحابة أنه قال . لو أن رجلا في حجره دنانير يعطيها والآخر يذكر الله لكان

---

(١) حديث « يدخل صعاليك المهاجرين قبل أغنيائهم الجنة بخمسمائة عام » أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أبي سعيد بلفظ « فقراء » مكان « صعاليك » ولهما وللنسائي في الكبرى من حديث أبي هريرة « يدخل الفقراء الجنة ... الحديث » ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو « إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء إلى الجنة بأربعين خريفا » .

(٢) حديث « يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم فيتمتعون ويأكلون . . . الحديث . لم أر له أصلا (٣) حديث : إن بعض الصحابة عطش فاستسقى فأتي بشربة ماء وعسل ... الحديث . في دفع النبي صلى الله عليه وسلم الدنيا عن نفسه وقوله « إليك عني ... الحديث » أخرجه البزار والحاكم من حديث زيد بن أرقم قال : كنا عند أبي بكر فدعا بشراب فأتي بماء وعسل ... الحديث . قال الحاكم صحيح الإسناد ، قلت بل ضعيف وقد تقدم قبل هذا الكتاب .

الذاكر أفضل . وسئل بعض أهل العلم عن الرجل يجمع المال لأعمال البر قال تركه ابر به . وبلغنا أن بعض خيار التابعين سئل عن رجلين ، أحدهما . طلب الدنيا حلالا فأصابها ، فوصل بها رحمه وقدم لنفسه . وأما الآخر . فإنه جانبها فلم يطلبها ولم يتناولها ، فأيهما أفضل ؟ قال . بعيد والله ما بينهما الذى جانبها أفضل كما بين مشارق الأرض ومغاربها . ويحك فهذا الفضل لك بترك الدنيا على من طلبها ، ولك فى العاجل إن تركت الاستغال بالمال ، وإن ذلك أروح لبدنك وأقل لتعبك وأنعم لعيشك وأرضى لبالك وأقل لهمومك . فما عذرك فى جمع المال وأنت بترك المال أفضل ممن طلب المال لأعمال البر ؟ نعم وشغلك بذكر الله أفضل من بذل المال فى سبيل الله فاجتمع لك راحة العاجل مع السلامة والفضل فى الآجل .

وبعد : فلو كان فى جمع المال فضل عظيم لوجب عليك فى مكارم الأخلاق أن تتأسى بنبيك إذ هداك الله به ، وترضى مااختاره لنفسه من مجانبة الدنيا . ويحك ! تدبر ماسمعت وكن على يقين أن السعادة والفوز فى مجانبة الدنيا ، فسر مع لواء المصطفى سابقا إلى جنة المأوى . فإنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « سادات المؤمنين فى الجنة من إذا تغدى لم يجد عشاء ، وإذا استقرض لم يجد قرضا ، وليس له فضل كسوة إلا مايواريه ، ولم يقدر على أن يكتسب مايغنيه ، يمسى مع ذلك ويصبح راضيا عن ربه ﴿ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ﴾ »(١) ، ألا ياأخى متى جمعت هذا المال بعد هذا البيان فإنك مبطل فيما ادعيت أنك للبر والفضل تجمعه ، لا ! ولكنك خوفا من الفقر تجمعه ، وللنعم والزينة والتكاثر والفخر والعلو والرياء والسمعة والتعظيم والتكرمة تجمعه ، ثم تزعم انك لأعمال البر تجمع المال : ويحك راقب الله واستحى من دعواك أيها المغرور . ويحك إن كنت مفتونا بحب المال والدنيا فكن مقرا أن الفضل والخير فى الرضا بالبلغة ومجانبة الفضول ، نعم وكن عند جمع المال مزريا على نفسك معترفا بإساءتك وجلا من الحساب ، فذلك أنجى لك وأقرب إلى الفضل من طلب الحجج لجمع المال . إخوانى اعلموا أن دهر الصحابة كان الحلال فيه موجودا وكانوا مع ذلك من أورع الناس وأزهدهم فى المباح لهم ، ونحن فى دهر الحلال فيه مفقودا ، وكيف لنا من الحلال مبلغ القوت وستر العورة . فأما جمع المال فى دهرنا فأعاذنا الله وإياكم منه .

وبعد : فأين لنا بمثل تقوى الصحابة وورعهم ومثل زهدهم واحتياطهم ؟ وأين لنا مثل ضمائرهم وحسن نياتهم ؟ دهينا ورب السماء بادواء النفوس واهوائها ، وعن قريب يكون الورود ؛ فياسعادة المخفين يوم النشور وحزن طويل لأهل التكاثر والتخاليط ، وقد نصحت لكم إن قبلتم والقابلون لهذا قليل . وفقنا الله وإياكم فكل خير برحمته آمين . هذا آخر كلامه وفيه كفاية فى إظهار فضل الفقر على الغنى ولا مزيد عليه . ويشهد لذلك جميع الأخبار التى أوردناها فى كتاب ذم الدنيا ، وفى كتاب الفقر والزهد .

ويشهد له أيضاً ماروى عن أبى أمامة الباهلى : أن ثعلبة بن حاطب قال : يارسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا ، قال « ياثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لاتطيقه » قال : يارسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا ، قال « ياثعلبة أمالك فى أسوة أماترضى أن تكون مثل نبى الله تعالى ؟ أما والذى نفسى بيده لو شئت أن تسير معى الجبال ذهبا وفضة لسارت » قال : والذى بعثك بالحق نبيا لئن دعوت الله أن يرزقنى مالا لأعطين كل ذى حق حقه ، ولأفعلن ولأفعلن ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم ارزق ثعلبة مالا » فاتخذ غنما فنمت كما ينمو الدود ، فضاقت

---

(١) حديث « سادات المؤمنين فى الجنة من اذا تغدى لم يجد عشاء ... الحديث » عزاه صاحب مسند الفردوس للطبراني من رواية أبى حازم عن أبى هريرة مختصرا بلفظ « سادة الفقراء فى الجنة ... الحديث » ولم أره فى معاجم الطبراني .

عليه المدينة فتنحى عنها فنزل واديا من أوديتها ، حتى جعل يصلى الظهر والعصر فى الجماعة ويدع ماسواهما، ثم نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الجماعة إلا الجمعة ، وهى تنمو كما ينمو الدود حتى ترك الجمعة ، وطفق يلقى الركبان يوم الجمعة فيسألهم عن الأخبار فى المدينة ، وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فقال « مافعل ثعلبة بن حاطب ؟ » فقيل : يارسول الله اتخذ غنما فضاقت عليه المدينة ؛ وأخبر بأمره كله ، فقال « ياويح ثعلبة ياويح ثعلبة ياويح ثعلبة » قال وأنزل الله تعالى ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ﴾ وأنزل الله تعالى فرائض الصدقة ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من جهينة ورجلا من بنى سليم على الصدقة ، وكتب لهما كتابا بأخذ الصدقة وأمرهما أن يخرجا فيأخذا من المسلمين : وقال « مرا بثعلبة بن حاطب وبفلان - رجل من بنى سليم - وخذا صدقاتهما : فخرجا حتى أتيا ثعلبة ، فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ماهذه إلا جزية ماهذه إلا جزية ماهذه إلا أخت الجزية ! انطلقا حتى تفرغا ثم تعودا إلى فانطلقا نحو السليمى فسمع بهما فقام إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ، ثم استقبلهما بها ؛ فلما رأوها قالوا : لايجب عليك ذلك ومانريد نأخذ هذا منك ، قال بلى خذوها ، فلما فرغا من صدقاتهما رجعا حتى مرا بثعلبة فسألاه الصدقة فقال : أرونى كتابكما ، فنظر فيه فقال : هذه أخت الجزية ! انطلقا حتى أرى رأيى فانطلقا حتى أتيا النبى صلى الله عليه وسلم فلما رآهما قال « ياويح ثعلبة » قبل أن يكلماه ودعا للسليمى فأخبراه بالذى صنع ثعلبة وبالذى صنع السليمى فأنزل الله تعالى فى ثعلبة ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ، فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ، فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ماوعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾ وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة ، فسمع ما أنزل الله فيه ، فخرج حتى أتى ثعلبة فقال : لا أم لك ياثعلبة ! قد أنزل الله فيك كذا ، فخرج ثعلبة حتى أتى النبى صلى الله عليه وسلم فسأله أن يقبل منه صدقته فقال « إن الله منعنى أن أقبل منك صدقتك » فجعل يحثو التراب على رأسه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذا عملك أمرتك فلم تطعنى » فلما أبى أن يقبل منه شيئا رجع إلى منزله ، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بها إلى أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه فأبى أن يقبلها منه ، وجاء بها إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأبى أن يقبلها منه ، وتوفى ثعلبة بعد فى خلافة عثمان (١) فهذا طغيان المال وشؤمه وقد عرفته من هذا الحديث ، ولأجل بركة الفقر وشؤم الغنى آثر رسول الله صلى الله عليه وسلم الفقر لنفسه ولأهل بيته ، حتى روى عن عمران بن حصين رضى الله عنه أنه قال : كانت لى من رسول الله منزلة وجاه فقال « ياعمران إن لك عندنا منزلة وجاها فهل لك فى عيادة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ » فقلت : نعم بأبى أنت وأمى يارسول الله ، فقام وقمت معه حتى وقفت بباب منزل فاطمة فقرع الباب وقال « السلام عليكم أأدخل ؟ » فقالت : ادخل يارسول الله قال أنا ومن معى ؟ » قالت ومن معك يارسول الله ؟ فقال عمران بن حصين » فقالت : والذى بعثك بالحق نبيا ما على إلا عباءة ! فقال « اصنعى بها هكذا وهكذا » وأشار بيده ، فقالت : هذا جسدى فقد واريته ، فكيف برأسى ؟ فألقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال « شدّى بها على رأسك » ثم أذنت له فدخل ، فقال « السلام عليك يابنتاه كيف أصبحت ؟ » قالت : أصبحت والله وجعة وزادنى وجعا على مابى أنى لست أقدر على طعام آكله ، فقد أجهدنى الجوع ، فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « لاتجزعى يابنتاه فوالله ماذقت طعاما منذ ثلاثة ، وإنى لأكرم على الله منك ولو سألت ربى لأطعمنى ، ولكنى آثرت الآخرة على الدنيا

---

(١) حديث أبى أمامة : أن ثعلبة بن حاطب قال يارسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا قال « ياثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لاتطيقه ... الحديث بطوله » أخرجه الطبرانى بسند ضعيف .

ثم ضرب بيده على منكبها وقال لها « أبشرى فوالله إنك لسيدة نساء أهل الجنة » فقالت : فأين آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران ؟ فقال « آسية سيدة نساء عالمها ، ومريم سيدة نساء عالمها ، وخديجة سيدة نساء عالمها ، وأنت سيدة نساء عالمك ، إنكن فى بيوت من قصب لا أذى فيها ولا صخب » ثم قال لها « اقنعى بابن عمك فوالله لقد زوجتك سيدا فى الدنيا سيدا فى الآخرة »[1] فانظر الآن إلى حال فاطمة رضى الله عنها وهى بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف آثرت الفقر وتركت المال . ؟ ومن راقب أحوال الأنبياء والأولياء وأقوالهم وما ورد من أخبارهم وآثارهم ، لم يشك فى أن فقد المال أفضل من وجوده وإن صرف إلى الخيرات ؛ إذ أقل ما فيه من أداء الحقوق والتوقى من الشبهات والصرف إلى الخيرات اشتغال الهم بإصلاحه وانصرافه عن ذكر الله ، إذ لا ذكر إلا مع الفراغ ، ولا فراغ مع شغل المال .

وقد روى عن جرير عن ليث قال : صحب رجل عيسى ابن مريم عليه السلام فقال : أكون معك وأصحابك ، فانطلقا فانتهيا إلى شط نهر فجلسا يتغديان ومعهما ثلاثة أرغفة ، فأكلا رغيفين وبقى رغيف ثالث ، فقام عيسى عليه السلام إلى النهر فشرب ثم رجع فلم يجد الرغيف ، فقال للرجل : من أخذ الرغيف ؟ فقال : لا أدرى ، قال : فانطلق ومعه صاحبه فرأى ظبية ومعها خشفان لها ، قال : فدعا أحدهما فأتاه ، فذبحه فاشتوى منه فأكل هو وذلك الرجل ، ثم قال للخشف : قم بإذن الله فقام فذهب ، فقال للرجل : أسألك بالذى أراك هذه الآية من أخذ الرغيف ؟ فقال : لا أدرى ، ثم انتهيا إلى وادى ماء ، فأخذ عيسى بيد الرجل فمشيا على الماء ، فلما جاوزا قال له أسألك بالذى أراك هذه الآية من أخذ الرغيف ؟ فقال لا أدرى ، فانتهيا إلى مفازة فجلسا ، فأخذ عيسى عليه السلام يجمع ترابا وكثيبا ثم قال كن ذهبا بإذن الله تعالى ، فصار ذهبا ، فقسمه ثلاثة أثلاث ثم قال ثلث لى وثلث لك وثلث لمن أخذ الرغيف ، فقال أنا الذى أخذت الرغيف ، فقال كله لك ، وفارقه عيسى عليه السلام ، فانتهى إليه رجلان فى المفازة ومعه المال فأرادا أن يأخذاه منه ويقتلاه ، فقال هو بيننا أثلاثا ، فابعثوا أحدكم إلى القرية حتى يشترى لنا طعاما نأكله ، قال فبعثوا أحدهم فقال الذى بعث لأى شىء أقاسم هؤلاء هذا المال ؟ لكنى أضع فى هذا الطعام سما فأقتلهما وآخذ المال وحدى ، قال ففعل ، وقال ذانك الرجلان لأى شئ نجعل لهذا ثلث المال ؟ ولكن إذا رجع قتلناه واقتسمنا المال بيننا ، قال فلما رجع إليهما قتلاه وأكلا الطعام فماتا ، فبقى ذلك المال فى المفازة وأولئك الثلاثة عنده قتلى ، فمر بهم عيسى عليه السلام على تلك الحالة فقال لأصحابه هذه الدنيا فاحذروها .

وحكى أن ذا القرنين أتى على أمة من الأمم ليس بأيديهم شىء مما يستمتع به الناس من دنياهم قد احتفروا قبورا ، فإذا أصبحوا تعهدوا تلك القبور وكنسوها وصلوا عندها ورعوا البقل كما ترعى البهائم ، وقد قيض لهم فى ذلك معايش من نبات الأرض ، وأرسل ذو القرنين إلى ملكهم فقال له أجب ذو القرنين ، فقال مالى إليه حاجة ، فإن كان له حاجة فليأتنى ! فقال ذو القرنين صدق فأقبل إليه ذو القرنين وقال له أرسلت إليك لتأتينى فأبيت ، فها أنا قد جئت ، فقال لو كان لى إليك حاجة لأتيتك ، فقال له ذو القرنين مالى أراكم على حالة لم أر أحدا من الأمم عليها ؟ قال وما ذاك ؟ قال ليس لكم دنيا ولا شىء أفلا اتخذتم الذهب والفضة فاستمتعتم بهما ؟ قالوا إنما كرهناهما

(١) حديث عمران بن حصين : كانت لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاه فقال « فهل لك فى عيادة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث بطوله وفيه « لقد زوجتك سيدا فى الدنيا وسيدا فى الآخرة » لم أجده من حديث عمران ، ولأحمد والطبرانى من حديث معقل بن يسار : وضأت النبى صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال « هل لك فى فاطمة تعودها ..: الحديث » وفيه « أما ترضين أن زوجتك أقدم أمتى سلما وأكثرهم علما وأعظمهم حلما وإسناده صحيح .

لأن أحدا لم يعط منهما شيئا إلا تاقت نفسه ودعته إلى ماهو أفضل منه . فقال مابالكم قد احتفرتم قبورا فإذا أصبحتم تعاهدتموها فكنستموها وصليتم عندها ؟ قالوا أردنا إذا نظرنا إليها وأملنا الدنيا منعتنا قبورنامن الأمل . قال وأراكم لاطعام لكم إلا البقل من الأرض ، أفلا اتخذتم البهائم من الأنعام فاحتلبتموها وركبتموها فاستمتعتم بها ؟ قالوا كرهنا أن نجعل بطوننا قبورا لها ورأينا فى نبات الأرض بلاغا وإنما يكفى ابن أدنى العيش من الطعام وإنما ماجاوز الحنك من الطعام لم نجد له طعما كائنا ما كان من الطعام ؟ ثم بسط ملك تلك الأرض يده خلف ذى القرنين فتناول جمجمة ؛ فقال : ياذا القرنين أتدرى من هذا ؟ قال : لا ؛ ومن هو ؟ قال : ملك من ملوك الأرض أعطاه الله سلطانا على أهل الأرض فغشم وظلم وعتا ؛ فلما رأى الله سبحانه ذلك منه جسمه بالموت فصار كالحجر الملقى ؛ وقد أحصى الله عليه عمله حتى يجزيه به فى آخرته . ثم تناول جمجمة أخرى بالية فقال : ياذا القرنين هل تدرى من هذا ؟ قال : لاأدرى ومن هو ؟ قال : هـــذا ملك ملكه الله بعده ؛ قد كان يرى مايصنع الذى قبله بالناس من الغشم والظلم والتجبر ؛ فتواضع وخشع لله عز وجل وأمر بالعدل فى أهل مملكته ؛ فصار كما ترى قد أحصى الله عليه عمله ، حتى يجزيه به فى آخرته . ثم أهوى إلى جمجمة ذى القرنين فقال . وهذه الجمجمة قد كانت كهذين فانظر ياذا القرنين ماأنت صانع ؟ فقال له ذو القرنين : هل لك فى صحبتى فاتخذك أخا ووزيرا وشريكا فيما آتانى الله من هذا المال ؟ قال : ماأصلح أنا وأنت فى مكان ولا أن نكون جميعا ، قال ذو القرنين : ولم ؟ قال : من أجل أن الناس كلهم لك عدوّ ولى صديق ، قال : ولم ؟ قال : يعادونك لما فى يديك من الملك والمال والدنيا ! ولا أجد أحداً يعادينى لرفضى لذلك ولما عندى من الحاجة وقلة الشىء ، قال : فانصرف عنه ذو القرنين متعجبا منه ومتعظا به ، فهذه الحكايات تدلك على آفات الغنى مع ماقدمناه من قبل وبالله التوفيق .

تم كتاب ذم المال والبخل بحمد الله تعالى وعونه ، ويليه كتاب ذم الجاه والرياء

كتاب ذم الجاه والرياء

وهو الكتاب الثامن من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله علام الغيوب ، المطلع على سرائر القلوب ، المتجاوز عن كبائر الذنوب ، العالم بما تجنه الضمائر من خفايا الغيوب ، البصير بسرائر النيات وخفايا الطويات ، الذى لايقبل من الأعمال إلا ما كمل ووفى ، وخلص عن شوائب الرياء والشرك وصفا ، فإنه المنفرد بالملكوت ، فهو أغنى الأغنياء عن الشرك . والصلاة والسلام على محمد وآله وأصحابه المبرئين من الخيانة والإفك ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد : فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنّ أخوف ماأخاف على أمتى الرياء والشهوة الخفية التى هى أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء (١) » ولذلك عجز عن الوقوف على غوائلها سماسرة

كتاب ذم الجاه والرياء

(١) حديث « إن أخوف ما أخاف على أمتى الرياء والشهوة الخفية » أخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث شداد بن أوس وقالا « الشرك » بدل « الرياء » وفسراه بالرياء قال الحاكم صحيح الإسناد ، قلت بل ضعيفه وهو عند ابن المبارك فى الزهد ومن طريقه عند البيهقى فى الشعب بلفظ المصنف .

العلماء فضلا عن عامة العباد والأتقياء ، وهو من أواخر غوائل النفس وبواطن مكايدها . وإنما يبتلى به العلماء والعباد والمشمرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة ، فإنهم مهما قهروا أنفسهم وجاهدوها وفطموها عن الشهوات وصانوها عن الشبهات وحملوها بالقهر على أصناف العبادات عجزت نفوسهم عن الطمع فى المعاصى الظاهرة الواقعة على الجوارح ، فطلبت الاستراحة إلى التظاهر بالخير وإظهار العمل والعلم ؛ فوجدت مخلصا من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق ونظرهم إليه بعين الوقار والتعظيم ، فسارعت إلى إظهار الطاعة وتوصلت إلى اطلاع الخلق ولم تقنع باطلاع الخالق ، وفرحت بحمد الناس ولم تقنع بحمد الله وحده ، وعلمت أنهم إذا عرفوا تركه الشهوات وتوقيه الشبهات وتحمله مشاق العبادات أطلقوا ألسنتهم بالمدح والثناء وبالغوا فى التقريظ والإطراء ونظروا إليه بعين التوقير والاحترام وتبركوا بمشاهدته ولقائه ورغبوا فى بركة دعائه ، وحرصوا على اتباع رأيه وفاتحوه بالخدمة والسلام ، وأكرموه فى المحافل غاية الإكرام ، وسامحوه فى البيع والمعاملات ، وقدموه فى المجالس وآثروه بالمطاعم والملابس ، وتصاغروا له متواضعين وانقادوا له فى أغراضه موقرين ، فأصابت النفس فى ذلك لذة هى أعظم اللذات وشهوة هى أغلب الشهوات ، فاستحقرت فيه ترك المعاصى والهفوات واستلانت خشونة المواظبة على العبادات لإدراكها فى الباطن لذة اللذات وشهوة الشهوات ، فهو يظن أن حياته بالله وبعبادته المرضية ، وإنما حياته بهذه الشهوة الخفية التى تعمى عن دركها العقول النافذة القوية ، ويرى أنه مخلص فى طاعة الله ومجتنب لمحارم الله ، والنفس قد أبطنت هذه الشهوة تزيينا للعباد وتصنعا للخلق وفرحا بما نالت من المنزلة والوقار ، وأحبطت بذلك ثواب الطاعات وأجور الأعمال ، وقد أثبتت اسمه فى جريدة المنافقين وهو يظن أنه عند الله من المقربين . وهذه مكيدة للنفس لايسلم منها إلا الصديقون ، ومهواة لا يرقى منها إلا المقربون ، ولذلك قيل : آخر مايخرج من رءوس الصديقين حب الرياسة .

وإذا كان الرياء هو الداء الدفين الذى هو أعظم شبكة للشياطين ، وجب شرح القول فى سببه وحقيقته ودرجاته وأقسامه وطرق معالجته والحذر منه ، ويتضح الغرض منه فى ترتيب الكتاب على شطرين ؛ الشطر الأول : فى حب الجاه والشهرة، وفيه بيان ذم الشهرة وبيان فضيلة الخمول ، وبيان ذم الجاه ، وبيان معنى الجاه وحقيقته ، وبيان السبب فى كونه محبوبا أشد من حب المال ، وبيان أن الجاه كمال وهمى وليس بكمال حقيقى ، وبيان مايحمد من حب الجاه ومايذم ، وبيان السبب فى حب المدح والثناء وكراهية الذم . وبيان العلاج فى حب الجاه وبيان علاج حب المدح ، وبيان علاج كراهة الذم ، وبيان اختلاف أحوال الناس فى المدح والذم . فهى اثنا عشر فصلا منها تنشأ معانى الرياء ، فلا بدّ من تقديمها والله الموفق للصواب بلطفه ومنه وكرمه .

بيان ذم الشهرة وانتشار الصيت

اعلم أصلحك الله أن أصل الجاه هو انتشار الصيت والاشتهار وهو مذموم ، بل المحمود الخمول إلا من شهره الله تعالى لنشر دينه من غير تكلف طلب الشهرة منه . قال أنس رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حسب امرئ من الشر أن يشير الناس إليه بالأصابع فى دينه ودنياه إلا من عصمه الله [1] » وقال جابر بن عبد الله : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بحسب المرء من الشر إلا من عصمه الله من السوء أن يشير الناس إليه

(١) حديث أنس « حسب امرئ من الشر إلا من عصمه أن يشير الناس اليه بالأصابع فى دينه ودنياه » أخرجه البيهقى فى الشعب بسند ضعيف .

بالأصابع فى دينه ودنياه . إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم [١] » ولكن ذكر الحسن رحمه الله الحديث تأويلا ، ولا بأس به ، إذ روى هذا الحديث فقيل له : يا أبا سعيد إن الناس إذا رأوك أشاروا إليك بالأصابع ، فقال : إنه لم يعن هذا وإنما عنى به المبتدع فى دينه والفاسق فى دنياه وقال على كرم الله وجهه : تبذل ولا تشتهر ولا ترفع شخصك لتذكر ، وتعلم واكتم ، واصمت تسلم ، تسر الأبرار وتغيظ الفجار . وقال إبراهيم ابن أدهم رحمه الله : ماصدق الله من أحب الشهرة . وقال أيوب السختياني : والله ماصدق الله عبد إلا سره أن لايشعر بمكانه . وعن خالد بن معدان . أنه كان إذا كثرت حلقته قام مخافة الشهرة . وعن أبى العالية . أنه كان إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة قام . ورأى طلحة قوما يمشون معه نحواً من عشرة ، فقال : ذباب طمع وفراش نار . وقال سليم بن حنظلة : بينا نحن حول أبى بن كعب نمشى خلفه إذ رآه عمر فعلاه بالدرة . فقال انظر ياأمير المؤمنين ماتصنع ؟ فقال : إن هذه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع وعن الحسن قال : خرج ابن مسعود يوما من منزله فاتبعه ناس فالتفت إليهم فقال : علام تتبعونى فوالله لو تعلمون ما أغلق عليه بابى ما اتبعنى منكم رجلان ؟ وقال الحسن : إن خفق النعال حول الرجال قلما تلبث عليه قلوب الحمق . وخرج الحسن ذات يوم فاتبعه قوم فقال : هل لكم من حاجة ؟ وإلا فما عسى أن يبقى هذا من قلب المؤمن . وروى أن رجلا صحب ابن محيريز فى سفر فلما فارقه قال : أوصنى ، فقال : إن استطعت أن تعرف ولا تعرف وتمشى ولا يمشى إليك وتسأل ولا تسئل فافعل . وخرج أيوب فى سفر فشيعه ناس كثيرون فقال : لولا أنى أعلم أن الله يعلم من قلبى أنى لهذا كاره لخشيت المقت من الله عز وجل . وقال معمر : عاتبت أيوب على طول قميصه فقال . إن الشهرة فيما مضى كانت فى طوله وهى اليوم فى تشميره . وقال بعضهم : كنت مع أبى قلابة إذ دخل عليه رجل عليه أكسية فقال : إياكم وهذا الحمار الناهق ! يشير به إلى طلب الشهرة . وقال الثورى : كانوا يكرهون الشهرة من الثياب الجيدة والثياب الرديئة إذ الابصار تمتد اليهما جميعا . وقال رجل لبشر بن الحارث . أوصنى ، فقال أخمل ذكرك وطيب مطعمك . وكان حوشب يبكى ويقول : بلغ اسمى مسجد الجامع . وقال بشر : ما أعرف رجلا أحب أن يعرف إلا ذهب دينه وافتضح . وقال أيضاً : لايجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس . رحمة الله عليه وعليهم أجمعين ،

بيان فضيلة الخمول

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رب أشعث أغبر ذى طمرين لايؤبه له لو أقسم على الله لأبره [٢] منهم البراء بن مالك » وقال ابن مسعود : قال النبى صلى الله عليه وسلم « رب ذى طمرين لايؤبه له لو أقسم على الله لأبره لو قال اللهم إنى أسألك الجنة لأعطاه الجنة ولم يعطه من الدنيا شيئا [٣] » وقال صلى الله عليه وسلم « ألا

---

(١) حديث جابر « بحسب امرئ من الشر ... الحديث » مثله وزاد فى آخره « ان الله لاينظر الى صوركم ... الحديث » وهو غير معروف من حديث جابر معروف من حديث أبى هريرة رواه الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب بسند ضعيف مقتصرين على أوله ورواه مسلم مقتصرا على الزيادة التى فى آخره ، وروى الطبرانى والبيهقى فى الشعب أوله من حديث عمران بن حصين بلفظ « كفى بالمرء إثما » ورواه ابن يونس فى تاريخ الغرباء من حديث ابن عمر بلفظ « هلاك بالرجل » وفسر دينه بالبدعة ودنياه بالفسق واسناده ضعيف

(٢) حديث « رب أشعث أغبر ذى طمرين لايؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة « رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره » وللحاكم « رب أشعث أغبر ذى طمرين تنبو عنه أعين الناس لو أقسم على الله لأبره » وقال صحيح الإسناد ولأبى نعيم فى الحلية من حديث أنس ضعيف « رب ذى طمرين لايؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك » وهو عند الحاكم نحوه بهذه الزيادة وقال صحيح الإسناد قلت بل ضعيفه (٣) حديث ابن مسعود « رب ذى طمرين لايؤبه له لو أقسم على الله لأبره لو قال اللهم انى أسألك الجنة لأعطاه الجنة ولم يعطه من الدنيا شيئا » أخرجه ابن أبى الدنيا ومن طريقه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس بسند ضعيف .

أدلكم على أهل الجنة : كل ضعيف مستضعف لو أقسم على الله لأبرّه وأهل النار كل متكبر مستكبر جواظ (١) » وقال أبو هريرة : قال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « إن أهل الجنة كل أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم وإذا خطبوا النساء لم ينكحوا وإذا قالوا لم ينصت لقولهم حوائج أحدهم تتخلل فى صدره لو قسم نوره يوم القيامة على الناس لوسعهم » وقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « إن من أمتى من لو أتى أحدكم يسأله دينارا لم يعطه إياه ولو سأله درهما لم يعطه إياه ولو سأله فلسا لم يعطه إياه ، ولو سأل الله الجنة لأعطاه إياها ، ولو سأله الدنيا لم يعطه إياها ، وما منعها إياه إلا لهوانها عليه ، رب ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره (٢) » وروى أن عمر رضى الله عنه دخل المسجد فرأى معاذ بن جبل يبكى عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما يبكيك فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إنّ اليسير من الرياء شرك وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء الذين إن غابوا لم يفتقدوا وإن حضروا لم يعرفوا قلوبهم مصابيح الهدى ينجون من كل غبراء مظلمة (٣) »

وقال محمد بن سويد : قحط أهل المدينة وكان بها رجل صالح لا يؤبه له ملازم لمسجد النبى صلى الله عليه وسلم ، فبينما هم فى دعائهم إذ جاءهم رجل عليه طمران خلقان فصلى ركعتين أوجز فيهما ثم بسط يديه فقال : يارب أقسمت عليك إلا أمطرت علينا الساعة ! فلم يرد يديه ولم يقطع دعاءه حتى تغشت السماء بالغمام ، وأمطروا حتى صاح أهل المدينة من مخافة الغرق ، فقال : يارب إن كنت تعلم أنهم قد اكتفوا فارفع عنهم ، وسكن ، وتبع الرجل صاحبه الذى استسقى حتى عرف منزله ، ثم بكر عليه فخرج إليه فقال إنى أتيتك فى حاجة ! فقال ماهى ؟ قال تخصنى بدعوة ، قال : سبحان الله ! أنت أنت وتسألنى أن أخصك بدعوة ؟ ثم قال ما الذى بلغك ما رأيت ؟ قال : أطعت الله فيما أمرنى ونهانى فسألت الله فأعطانى . وقال ابن مسعود : كونوا ينابيع العلم مصابيح الهدى ، أحلاس البيوت سرج الليل جدد القلوب خلقان الثياب ، تعرفون فى أهل السماء وتخفون فى أهل الأرض . وقال أبو أمامة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى . إن أغبط أوليائى عبد مؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من صلاة أحسن عبادة ربه وأطاعه فى السر كان غامضا فى الناس لا يشار إليه بالأصابع ثم صبر على ذلك » قال : ثم نقر رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فقال « عجلت منيته وقل تراثه وقلت بواكيه (٤) » وقال عبدالله بن عمر رضى الله تعالى عنهما . أحب عباد الله إلى الله الغرباء ، قيل : ومن الغرباء ، قال : الفارون بدينهم يجتمعون يوم القيامة إلى المسيح عليه السلام . وقال الفضيل بن عياض : بلغنى أن الله تعالى يقول فى بعض ما يمن به على عبده : ألم أنعم عليك ! ألم أسترك ! ألم أخمل ذكرك ! وكان الخليل بن أحمد يقول : اللهم اجعلنى عندك من أرفع خلقك ، واجعلنى عند نفسى من أوضع خلقك ، واجعلنى عند الناس من أوسط خلقك . وقال الثورى : وجدت قلبى يصلح بمكة والمدينة مع قوم غرباء أصحاب قوت وعناء . وقال إبراهيم بن أدهم : ما قرت عينى يوما فى الدنيا قط إلا مرة ، بت ليلة فى بعض مساجد قرى الشام وكان بى البطن ، فجرنى المؤذن برجلى حتى أخرجنى من المسجد . وقال الفضيل : إن قدرت على أن لا تعرف فافعل ،

---

(١) حديث « ألا أدلكم على أهل الجنة : كل ضعيف مستضعف ... الحديث » متفق عليه من حديث حارثة بن وهب

(٢) حديث « إن من أمتى من لو أتى أحدكم فسأله دينارا لم يعطه إياه ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث ثوبان بإسناد صحيح دون قوله « ولو سأله الدنيا لم يعطه اياها وما منعها إياه الا لهوانها عليه » .

(٣) حديث معاذ بن جبل « إن اليسير من الرياء شرك وان الله يحب الأتقياء الأخفياء .. الحديث » أخرجه الطبرانى والحاكم واللفظ له وقال صحيح الإسناد ، قلت بل ضعيف فيه عيسى بن عبد الرحمن وهو الزرقى متروك (٤) حديث أبى أمامة « ان أغبط أوليائى عندى مؤمن خفيف الحاذ ... الحديث » أخرجه الترمذى وابن ماجه بإسنادين ضعيفين .

وما عليك أن لاتعرف وما عليك أن لايثنى عليك وما عليك أن تكون مذموما عند الناس إذا كنت محمودا عندالله تعالى ؟ فهذه الآثار والأخبار تعرفك مذمة الشهرة وفضيلة الخمول . وإنما المطلوب بالشهرة وانتشار الصيت هو الجاه والمنزلة فى القلوب ، وحب الجاه هو منشأ كل فساد .

فإن قلت : فأى شهرة تزيد على شهرة الأنبياء والخلفاء الراشدين وأئمة العلماء ! فكيف فاتهم فضيلة الخمول ؟ فاعلم أن المذموم طلب الشهرة ، فأما وجودها من جهة الله سبحانه من غير تكلف من العبد فليس بمذموم . نعم فيه فتنة على الضعفاء دون الأقوياء ، وهم كالغريق الضعيف إذا كان معه جماعة من الغرقى فالأولى به أن لايعرفه أحد منهم فإنهم يتعلقون به فيضعف عنهم فيهلك معهم ، وأما القوى فالأولى أن يعرفه الغرقى ليتعلقوا به فينجيهم ويثاب على ذلك .

بيان ذم الجاه ومعناه

قال الله تعالى ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ﴾ جمع بين إرادة الفساد والعلو ، وبين أن الدار الآخرة للخالى عن الإرادتين جميعا . وقال عز وجل ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لايبخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ماصنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾ وهذا أيضا متناول بعمومه لحب الجاه فإنه أعظم لذة من لذات الحياة الدنيا وأكثر زينة من زينتها . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حب المال والجاه ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل [1] » وقال صلى الله عليه وسلم « ماذئبان ضاريان أرسلا فى زريبة غنم بأسرع إفسادا من حب الشرف والمال فى دين الرجل المسلم [2] » وقال صلى الله عليه وسلم لعلى كرم الله وجهه « إنما هلاك الناس باتباع الهوى وحب الثناء [3] » نسأل الله العفو والعافية بمنه وكرمه .

بيان معنى الجاه وحقيقته

اعلم أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا . ومعنى المال ملك الأعيان المنتفع بها ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها . وكما أن الغنى هو الذى يملك الدراهم والدنانير ، أى يقدر عليهما ليتوصل بهما إلى الأغراض والمقاصد وقضاء الشهوات وسائر حظوظ النفس ، فكذلك ذو الجاه هو الذى يملك قلوب الناس ، أى يقدر على أن يتصرف فيها ليستعمل بواسطتها أربابها فى أغراضه ومآربه . وكما أنه يكتسب الأموال بأنواع من الحرف والصناعات فكذلك يكتسب قلوب الخلق بأنواع من المعاملات ، ولا تصير القلوب مسخرة إلا بالمعارف والاعتقادات ، فكل من اعتقد القلب فيه وصفا من أوصاف الكمال انقاد له وتسخر له بحسب قوة اعتقاد القلب وبحسب درجة ذلك الكمال عنده ، وليس يشترط أن يكون الوصف كمالا فى نفسه بل يكفى أن يكون كمالا عنده وفى اعتقاده ، وقد يعتقد ماليس كمالا كمالا ، ويذعن قلبه للموصوف به انقيادا ضروريا بحسب اعتقاده ، فإن انقياد القلب حال للقلب . وأحوال القلوب تابعة لاعتقادات القلوب وعلومها وتخيلاتها ، وكما أن محب المال يطلب ملك الأرقاء والعبيد

---

(١) حديث « المال والجاه ينبتان النفاق ... الحديث » تقدم فى أول هذا الباب ولم أجده (٢) حديث « ماذئبان ضاريان أرسلا فى زريبة غنم ... الحديث » تقدم أيضا هناك (٣) حديث « إنما هلاك الناس باتباع الهوى وحب الثناء » لم أره بهذا اللفظ وقد تقدم فى العلم من حديث أنس « ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع ... الحديث » ولأبى منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عباس بسند ضعيف « حب الثناء من الناس يعمى ويصم »

فطالب الجاه يطلب أن يسترق الأحرار ويستعبدهم ويملك رقابهم بملك قلوبهم ، بل الرق الذى يطلبه صاحب الجاه أعظم ، لأن المالك يملك العبد قهرا والعبد متأب بطبعه ، ولو خلى ورأيه انسل عن الطاعة وصاحب الجاه يطلب الطاعة طوعا ويبغى أن تكون له الأحرار عبيدا بالطبع والطوع ، مع الفرح بالعبودية والطاعة له ، فما يطلبه فوق ما يطلبه مالك الرق بكثير . فإذاً معنى الجاه : قيام المنزلة فى قلوب الناس ، أى اعتقاد القلوب لنعت من نعوت الكمال فيه ، فبقدر مايعتقدون من كماله تذعن له قلوبهم ، وبقدر إذعان القلوب تكون قدرته على القلوب وبقدر قدرته على القلوب يكون فرحه وحبه للجاه . فهذا هو معنى الجاه وحقيقته وله ثمرات كالمدح والإطراء، فإن المعتقد للكمال لا يسكت عن ذكر ما يعتقده ، فيثنى عليه ، وكالخدمة والإعانة فإنه لا يبخل ببذل نفسه فى طاعته بقدر اعتقاده فيكون سخرة له مثل العبد فى أغراضه ، وكالإيثار وترك المنازعة والتعظيم والتوقير بالمفاتحة بالسلام وتسليم الصدر فى المحافل والتقديم فى جميع المقاصد ، فهذه آثار تصدر عن قيام الجاه فى القلب ومعنى قيام الجاه فى القلب اشتمال القلوب على اعتقاد صفات الكمال فى الشخص إما بعلم أو عبادة أو حسن خلق أو نسب أو ولاية أو جمال فى صورة أو قوة فى بدن أو شىء مما يعتقده الناس كمالا ، فإن هذه الأوصاف كلها تعظم محله فى القلوب فتكون سببا لقيام الجاه والله تعالى أعلم .

بيان سبب كون الجاه محبوبا بالطبع حتى لا يخلو عنه قلب إلا بشديد المجاهدة

اعلم أن السبب الذى يقتضى كون الذهب والفضة وسائر أنواع الأموال محبوبا هو بعينه يقتضى كون الجاه محبوبا ، بل يقتضى أن يكون أحب من المال ، كما يقتضى أن يكون الذهب أحب من الفضة مهما تساويا فى المقدار ، وهو أنك تعلم أن الدراهم والدنانير لا غرض فى أعيانهما إذ لا تصلح لمطعم ولا مشرب ولا منكح ولا ملبس ، وإنما هى والحصباء بمثابة واحدة ، ولكنهما محبوبان لأنهما وسيلة إلى جميع المحاب وذريعة إلى قضاء الشهوات ، فكذلك الجاه لأن معنى الجاه ملك القلوب ، وكما أن ملك الذهب والفضة يفيد قدرة يتوصل الإنسان بها إلى سائر أغراضه ، فكذلك ملك القلوب من الأحرار والقدرة على استسخارها يفيد قدرة على التوصل إلى جميع الأغراض ، فالاشتراك فى السبب اقتضى الاشتراك فى المحبة ، وترجيح الجاه على المال اقتضى أن يكون الجاه أحب من المال ، ولملك الجاه ترجيح على ملك المال من ثلاثة أوجه .

الأول : أن التوصل بالجاه إلى المال أيسر من التوصيل بالمال إلى الجاه ، فالعالم أو الزاهد الذى تقرر له جاه فى القلوب لو قصد اكتساب المال تيسر له ، فإن أموال أرباب القلوب مسخرة للقلوب ومبذولة لمن اعتقد فيه الكمال ، وأما الرجل الخسيس الذى لا يتصف بصفة كمال إذا وجد كنزا ولم يكن له جاه يحفظ ماله وأراد أن يتوصل بالمال إلى الجاه لم يتيسر له ، فإذاً الجاه آلة ووسيلة إلى المال ، فمن ملك الجاه فقد ملك المال ، ومن ملك المال لم يملك الجاه بكل حال ، فلذلك صار الجاه أحب .

الثانى : هو أن المال معرض للبلوى والتلف بأن يسرق ويغصب ويطمع فيه الملوك والظلمة ، ويحتاج فيه إلى الحفظة والحراس والخزائن ، ويتطرق إليه أخطار كثيرة ، وأما القلوب إذا ملكت فلا تتعرض لهذه الآفات فهى على التحقيق خزائن عتيدة ، لا يقدر عليها السراق ولا تتناولها أيدى النهاب والغصاب ، وأثبت الأموال العقار ولا يؤمن فيه الغصب والظلم ولا يستغنى عن المراقبة والحفظ ، وأما خزائن القلوب فهى محفوظة محروسة بأنفسها ، والجاه فى أمن وأمان من الغصب والسرقة فيها . نعم إنما تغصب القلوب بالتصريف وتقبيح الحال وتغيير الاعتقاد فيما صدق به من أوصاف الكمال ، وذلك مما يهون دفعه ولا يتيسر على محاوله فعله .

الثالث : أن ملك القلوب يسرى وينمى ويتزايد من غير حاجة إلى تعب ومقاساة ، فإن القلوب إذا أذعنت لشخص واعتقدت كماله بعلم أو عمل أو غيره أفصحت الألسنة لا محالة بما فيها ، فيصف ما يعتقده لغيره ويقتنص ذلك القلب أيضاً له ، ولهذا المعنى يحب الطبع الصيت وانتشار الذكر . لأن ذلك إذا استطار فى الأقطار اقتنص القلوب ودعاها إلى الإذعان والتعظيم ، فلا يزال يسرى من واحد إلى واحد ويتزايد وليس له مردّ معين ، وأما المال فمن ملك منه شيئا فهو مالكه ولا يقدر على استنمائه إلا بتعب ومقاساة ، والجاه أبداً فى النماء بنفسه ولا مرد لموقعه والمال واقف ، ولهذا إذا عظم الجاه وانتشر الصيت وانطلقت الألسنة بالثناء استحقرت الأموال فى مقابلته ، فهذه مجامع ترجيحات الجاه على المال . وإذا فصلت كثرت وجوه الترجيح .

فإن قلت فالإشكال قائم فى المال والجاه جميعا فلا ينبغى أن يحب الإنسان المال والجاه . نعم القدر الذى يتوصل به إلى جلب الملاذ ودفع المضار معلوم، كالمحتاج إلى الملبس والمسكن والمطعم أو كالمبتلى بمرض أو بعقوبة إذا كان لا يتوصل إلى دفع العقوبة عن نفسه إلا بمال أو جاه ، فحبه المال والجاه معلوم ، إذ كل مالا يتوصل إلى المحبوب إلا به فهو محبوب ، وفى الطباع أمر عجيب وراء هذا وهو حب جمع الأموال وكنز الكنوز وادخار الذخائر واستكثار الخزائن وراء جميع الحاجات ، حتى لو كان للعبد واديان من ذهب لا بتغى لهما ثالثا ، وكذلك يحب الإنسان اتساع الجاه وانتشار الصيت إلى أقاصى البلاد التى يعلم قطعا أنه لا يطؤها ولا يشاهد أصحابها ، ليعظموه أو ليبروه بمال أو ليعينوه على غرض من أغراضه ؛ ومع اليأس من ذلك فإنه يلتذ به غاية الالتذاذ وحب ذلك ثابت فى الطبع ، ويكاد يظن أن ذلك جهل فإنه حب لما لا فائدة فيه لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ؟ فنقول : نعم هذا الحب لا تنفك عنه القلوب . وله سببان ؟ أحدهما : جلى تدركه الكافة . والآخر : خفى وهو أعظم السببين ولكنه أدقهما وأخفاهما وأبعدهما عن أفهام الأذكياء فضلا عن الأغبياء ، وذلك لاستمداده من عرق خفى فى النفس وطبيعة مستكنة فى الطبع لا يكاد يقف عليها إلا الغواصون .

فأما السبب الأول : فهو دفع ألم الخوف ، لأن الشفيق بسوء الظن مولع ، والإنسان وإن كان مكفيا فى الحال فإنه طويل الأمل ويخطر بباله أنّ المال الذى فيه كفايته ربما يتلف فيحتاج إلى غيره ، فإذا خطر ذلك بباله هاج الخوف من قلبه ولا يدفع ألم الخوف إلا الأمن الحاصل بوجود مال آخر يفزع إليه إن أصابت هذا المال جائحة، فهو أبدا لشفقته على نفسه وحبه للحياة يقدر طول الحياة ؛ ويقدر هجوم الحاجات ؛ ويقدر إمكان تطرق الآفات إلى الأموال ، ويستشعر الخوف من ذلك فيطلب ما يدفع خوفه وهو كثرة المال ، حتى إن أصيب بطائفة من ماله استغنى بالآخر ، وهذا خوف لا يوقف له على مقدار مخصوص من المال ، فلذلك لم يكن لمثله موقف إلى أن يملك جميع مافى الدنيا ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « منهومان لا يشبعان منهوم العلم ومنهوم المال [1] » ، ومثل هذه العلة تطرد فى حبه قيام المنزلة والجاه فى قلوب الأباعد عن وطنه وبلده ، فإنه لا يخلو عن تقدير سبب يزعجه عن الوطن أو يزعج أولئك عن أوطانهم إلى وطنه ، ويحتاج إلى الاستعانة بهم ؛ ومهما كان ذلك ممكنا ولم يكن احتياجه إليهم مستحيلا إحالة ظاهرة كان للنفس فرح ولذة بقيام الجاه فى قلوبهم لما فيه من الأمن من هذا الخوف .

---

(١) حديث « منهومان لا يشبعان ... الحديث » أخرجه الطبرانى من حديث ابن مسعود بسند ضعيف والبزار والطبرانى فى الأوسط من حديث ابن عباس بسند لين وقد تقدم

وأما السبب الثانى وهو الأقوى : لأن الروح أمر ربانى ، به وصفه الله تعالى إذ قال سبحانه ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ﴾ أو معنى كونه ربانيا أنه من أسرار علوم المكاشفة ولارخصة فى إظهاره إذا لم يظهره رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] ولكنك قبل معرفة ذلك تعلم أن للقلب ميلا إلى صفات بهيمية كالأكل والوقاع ، وإلى صفات سبعية كالقتل والضرب والإيذاء ؛ وإلى صفات شيطانية كالمكر والخديعة والإغواء ، وإلى صفات ربوبية كالكبر والعز والتجبر وطلب الاستعلاء ، وذلك لأنه مركب من أصول مختلفة يطول شرحها وتفصيلها ، فهو لما فيه من الأمر الربانى يحب الربوبية بالطبع ، ومعنى الربوبية التوحد بالكمال والتفرد بالوجود على سبيل الاستقلال . فصار الكمال من صفات الإلهية فصار محبوبا بالطبع للإنسان ، والكمال بالتفرد بالوجود فإن المشاركة فى الوجود نقص لامحالة ، فكمال الشمس فى أنها موجودة وحدها ، فلو كان معها شمس أخرى لكان ذلك نقصا فى حقها ، إذ لم تكن منفردة بكمال معنى الشمسية ، والمنفرد بالوجود هو الله تعالى إذ ليس معه موجود سواه ، فإن ماسواه أثر من آثار قدرته لاقوام له بذاته ، بل هو قائم به ، فلم يكن موجوداً معه لأن المعية توجب المساواة فى الرتبة ، والمساواة فى الرتبة نقصان فى الكمال ، بل الكامل من لا نظير له فى رتبته . وكما أن إشراق نور الشمس فى أقطار الآفاق ليس نقصانا فى الشمس بل هو من جملة كمالها ، وإنما نقصان الشمس بوجود شمس أخرى تساويها فى الرتبة مع الاستغناء عنها ، فكذلك وجود كل مافى العالم يرجع إلى إشراق أنوار القدرة فيكون تابعا ولا يكون متبعا فإذن معنى الربوبية التفرد بالوجود وهو الكمال . وكل إنسان فإنه بطبعه محب لأن يكون هو المنفرد بالكمال ، ولذلك قال بعض مشايخ الصوفية : مامن إنسان إلا وفى باطنه ماصرح به فرعون من قوله ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ ولكنه ليس يجد له مجالا وهو كما قال ، فإن العبودية قهر على النفس . والربوبية محبوبة بالطبع وذلك للنسبة الربانية التى أومأ اليها قوله تعالى ﴿ قل الروح من أمر ربى ﴾ ولكن لما عجزت النفس عن درك منتهى الكمال لم تسقط شهوتها للكمال ، فهى محبة للكمال ومشتهية له وملتذة به لذاته لا لمعنى آخر وراء الكمال ، وكل موجود فهو محب لذاته ولكمال ذاته ؛ ومبغض للهلاك الذى هو عدم ذاته أو عدم صفات الكمال من ذاته . وإنما الكمال بعد أن يسلم التفرد بالوجود فى الاستيلاء على كل الموجودات ؛ فإن أكمل الكمال أن يكون وجود غيرك منك فان لم يكن منك فان تكون مستوليا عليه ، فصار الاستيلاء على الكل محبوبا بالطبع ، لأنه نوع كمال . وكل موجود يعرف ذاته فانه يحب ذاته ويحب كمال ذاته ويلتذ به ، إلا أن الاستيلاء على الشىء بالقدرة على التأثير فيه ، وعلى تغييره بحسب الإرادة وكونه مسخراً لك تردده كيف تشاء ، فأحب الإنسان أن يكون له استيلاء على كل الأشياء الموجودة معه . إلا أن الموجودات منقسمة إلى مالا يقبل التغيير فى نفسه كذات الله تعالى وصفاته . وإلى مايقبل التغيير ولكن لايستولى عليه قدرة الخلق ، كالأملاك والكواكب وملكوت السموات ونفوس الملائكة والجن والشياطين ؛ وكالجبال والبحار . وإلى مايقبل التغيير بقدرة العبد كالأرض وأجزائها وما عليها من المعادن والنبات والحيوان ومن جملتها قلوب الناس ، فانها قابلة للتأثير والتغيير مثل أجسادهم وأجساد الحيوانات .

فإذا انقسمت الموجودات إلى مايقدر الإنسان على التصرف فيه كالأرضيات ، وإلى ما لا يقدر عليه كذات الله تعالى والملائكة والسموات ، أحب الإنسان أن يستولى على السموات بالعلم والإحاطة والاطلاع على أسرارها فإن ذلك نوع استيلاء ؛ إذ المعلوم المحاط به كالداخل تحت العلم ، والعالم كالمستولى عليه ، فلذلك أحب أن يعرف

(١) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم لم يظهر سر الروح أخرجه البخارى من حديث ابن مسعود وقد تقدم .

الله تعالى والملائكة والأفلاك والكواكب ، وجميع عجائب السموات ،وجميع عجائب البحار والجبال وغيرها لأن ذلك نوع استيلاء عليها ، والاستيلاء نوع كمال . وهذا يضاهى اشتياق من عجز عن صنعة عجيبة إلى معرفة طريق الصنعة فيها ، كمن يعجز عن وضع الشطرنج ، فأنه قد يشتهى أن يعرف اللعب به وأنه كيف وضع ؟ وكمن يرى صنعة عجيبة فى الهندسة أو الشعبذة أو جر الثقيل أو غيره وهو مستشعر فى نفسه بعض العجز والقصور عنه ولكنه يشتاق إلى معرفة كيفيته فهو متألم ببعض العجز متلذذ بكمال العلم إن علمه .

وأما القسم الثانى : وهو الأرضيات التى يقدر الإنسان عليها ، فانه يحب بالطبع أن يستولى عليها بالقدرة على التصرف فيها كيف يريد وهى قسمان : أجساد وأرواح

(أما الأجساد) فهى الدراهم والدنانير والأمتعة فيجب أن يكون قادرا عليها يفعل فيها ماشاء من الرفع والوضع والتسليم والمنع، فان ذلك قدرة والقدرة كمال ، والكمال من صفات الربوبية ، والربوبية محبوبة بالطبع ، فلذلك أحب الأموال وإن كان لايحتاج إليها فى ملبسه ومطعمه وفى شهوات نفسه ، وبذلك طلب استرقاق العبيد واستعباد الأشخاص الأحرار ولو بالقهر والغلبة حتى يتصرف فى أجسادهم وأشخاصهم بالاستسخار ، وإن لم يملك قلوبهم ، فإنها ربما لم تعتقد كماله حتى يصير محبوبا لها ويقوم القهر منزلته فيها ، فان الحشمة القهرية أيضاً لذيذة لما فيها من القدرة .

(القسم الثانى) نفوس الآدميين وقلوبهم وهى أنفس ما على وجه الأرض ، فهو يحب أن يكون له استيلاء وقدرة عليها لتكون مسخرة له متصرفة تحت إشارته وإرادته لما فيه من كمال الاستيلاء والتشبه بصفات الربوبية ، والقلوب إنما تتسخر بالحب ولا تحب إلا باعتقاد الكمال ، فان كل كمال محبوب لأن الكمال من الصفات الإلهية والصفات الإلهية كلها محبوبة بالطبع للمعنى الربانى من جملة معانى الإنسان ، وهو الذى لايبليه الموت فيعدمه ولا يتسلط عليه التراب فيأكله ، فإنه محل الإيمان والمعرفة وهو الواصل إلى لقاء الله تعالى والساعى إليه فإذن معنى الجاه تسخير القلوب ، ومن تسخرت له القلوب كانت له قدرة واستيلاء عليها ، والقدرة والاستيلاء كمال وهو من أوصاف الربوبية . فإذن محبوب القلب بطبعه الكمال بالعلم والقدرة ، والمال والجاه من أسباب القدرة ، ولا نهاية للمعلومات ولا نهاية للمقدورات ، وما دام يبقى معلوم ، أو مقدور فالشوق لايسكن والنقصان لايزول . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « منهومان لايشبعان » فإذن مطلوب القلوب الكمال ، والكمال بالعلم والقدرة وتفاوت الدرجات فيه غير محصور ، فسرور كل إنسان ولذته بقدر مايدركه من الكمال ، فهذا هو السبب فى كون العلم والمال والجاه محبوبا ، وهو أمر وراء كونه محبوبا لأجل التوصل إلى قضاء الشهوات فان هذه العلة قد تبقى مع سقوط الشهوات ، بل يحب الإنسان من العلوم مالا يصلح للتوصل به الى الأغراض ، بل ربما يفوت عليه جملة من الأغراض والشهوات ، ولكن الطبع يتقاضى طلب العلم فى جميع العجائب والمشكلات ، لأن فى العلم استيلاء على المعلوم وهو نوع من الكمال الذى هو من صفات الربوبية فكان محبوبا بالطبع ، إلا أن فى حب كمال العلم والقدرة أغاليط لابد من بيانها إن شاء الله تعالى .

بيان الكمال الحقيقي والكمال الوهمى الذى لاحقيقة له

قد عرفت أنه لا كمال بعد فوات التفرد بالوجود إلا فى العلم والقدرة ، ولكن الكمال الحقيقى فيه متلبس بالكمال الوهمى ، وبيانه أن كمال العلم لله تعالى وذلك من ثلاثة أوجه : (أحدها)من حيث كثرة المعلومات وسعتها ، فإنه محيط

بجميع المعلومات ، فلذلك كلما كانت علوم العبد أكثر كان أقرب إلى الله تعالى (الثانى) من حيث تعلق العلم بالمعلوم على ماهو به ، وكون المعلوم مكشوفا به كشفا تاما ، فإن المعلومات مكشوفة لله تعالى بأتم أنواع الكشف على ماهى عليه ، فلذلك مهما كان علم العبد أوضح وأيقن وأصدق وأوفق للمعلوم فى تفاصيل صفات العلوم كان أقرب إلى الله تعالى (الثالث) من حيث بقاء العلم أبد الآباد بحيث لا يتغير ولا يزول ، فإن علم الله تعالى باق لا يتصور أن يتغير ، فكذلك مهما كان علم العبد بمعلومات لا يقبل التغير والانقلاب كان أقرب إلى الله تعالى .

والمعلومات قسمان : متغيرات وأزليات .

أما المتغيرات : فمثالها العلم بكون زيد فى الدار ، فإنه علم له معلوم ، ولكنه يتصور أن يخرج زيد من الدار ويبقى اعتقاد كونه فى الدار كما كان فينقلب جهلا ، فيكون نقصانا لا كمالا ، فكلما اعتقدت اعتقادا موافقا وتصور أن ينقلب المعتقد فيه عما اعتقدته كنت بصدد أن ينقلب كمالك نقصا ، ويعود علمك جهلا . ويلتحق بهذا المثال جميع متغيرات العالم ، كعلمك مثلا بارتفاع جبل ومساحة أرض ، وبعد البلاد وتباعد ما بينها من الأميال والفراسخ ، وسائر ما يذكر فى المسالك والممالك ، وكذلك العلم باللغات التى هى اصطلاحات تتغير بتغير الأعصار والأمم والعادات فهذه علوم معلوماتها مثل الزئبق تتغير من حال إلى حال ، فليس فيه كمال إلا فى الحال ولا يبقى كمالا فى القلب .

القسم الثانى : هو المعلومات الأزلية وهو جواز الجائزات ووجوب الواجبات واستحالة المستحيلات ، فإن هذه معلومات أزلية أبدية ، إذ لا يستحيل الواجب قط جائزاً ولا الجائز محالا ولا المحال واجباً . فكل هذه الأقسام داخلة فى معرفة الله وما يجب له ، وما يستحيل فى صفاته ، ويجوز فى أفعاله ، فالعلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وحكمته فى ملكوت السموات والأرض وترتيب الدنيا والآخرة وما يتعلق به هو الكمال الحقيقى الذى يقرب من يتصف به من الله تعالى ، ويبقى كمالا للنفس بعد الموت ، وتكون هذه المعرفة نور للعارفين بعد الموت ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا ﴾ أى تكون هذه المعرفة رأس مال يوصل إلى كشف ما لم ينكشف فى الدنيا ، كما أن من معه سراج خفى فانه يجوز أن يصير ذلك سببا لزيادة النور بسراج آخر يقتبس منه ، فيكمل النور الخفى على سبيل الاستتمام ، ومن ليس معه أصل السراج فلا مطمع له فى ذلك ، فمن ليس معه أصل معرفة الله تعالى لم يكن له مطمع فى هذا النور ، فيبقى كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها بل (كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض) فإذن لا سعادة إلا فى معرفة الله تعالى وأما ما عدا ذلك من المعارف فمنها ما لا فائدة له أصلا كمعرفة الشعر وأنساب العرب وغيرهما ، ومنها ما له منفعة فى الاعانة على معرفة الله تعالى كمعرفة لغة العرب والتفسير والفقه والأخبار . فان معرفة لغة العرب تعين على معرفة تفسير القرآن ، ومعرفة التفسير تعين على معرفة ما فى القرآن من كيفية العبادات والأعمال التى تفيد تزكية النفس ، ومعرفة طريق تزكية النفس تفيد استعداد النفس لقبول الهدايا إلى معرفة الله سبحانه وتعالى كما قال تعالى (قد أفلح من زكاها) وقال عز وجل (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) فتكون جملة هذه المعارف كالوسائل إلى تحقيق معرفة الله تعالى ، وإنما الكمال فى معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله ، وينطوى فيه جميع المعارف المحيطة بالموجودات إذ الموجودات كلها من أفعاله ، فمن عرفها من حيث هى فعل الله تعالى . ومن حيث ارتباطها بالقدرة والإرادة والحكمة ، فهى من تكملة معرفة الله تعالى ، وهذا حكم كمال العلم ذكرناه وإن لم يكن لائقا بأحكام الجاه والرياء ولكن أوردناه لاستيفاء أقسام الكمال .

وأما القدرة فليس فيها كمال حقيقى للعبد ، بل للعبد علم حقيقى وليس له قدرة حقيقية ، وإنما القدرة الحقيقية لله وما يحدث من الأشياء عقيب إرادة العبد وقدرته وحركته فهى حادثة بإحداث الله - كما قررناه فى كتاب الصبر والشكر ، وكتاب التوكل وفى مواضع شتى من ربع المنجيات — فكمال العلم يبقى معه بعد الموت ويوصله إلى الله تعالى فأما كمال القدرة فلا . نعم له كمال من جهة القدرة بالإضافة إلى الحال وهى وسيلة له إلى كمال العلم كسلامة أطرافه وقوة يده للبطش ورجله للمشى وحواسه للإدراك ، فإن هذه القوة آلة للوصول بها إلى حقيقة كمال العلم ، وقد يحتاج فى استيفاء هذه القوى إلى القدرة بالمال والجاه للتوصل به إلى المطعم والمشرب والملبس والمسكن ، وذلك إلى قدر معلوم ، فان لم يستعمله للوصول به إلى معرفة جلال الله فلا خير فيه ألبتة إلا من حيث اللذة الحالية التى تنقضى على القرب ، ومن ظن ذلك كمالا فقد جهل ، فالخلق أكثرهم هالكون فى غمرة هذا الجهل ، فإنهم يظنون أن القدرة على الأجساد بقهر الحشمة ، وعلى أعيان الأموال بسعة الغنى ، وعلى تعظيم القلوب بسعة الجاه ؛ كمال ، فلما اعتقدوا ذلك أحبوه ولما أحبوه طلبوه ولما طلبوه شغلوا به وتهالكوا عليه فنسوا الكمال الحقيقى الذى يوجب القرب من الله تعالى ومن ملائكته وهو العلم والحرية (أما العلم) فما ذكرناه من معرفة الله تعالى (وأما الحرية) فالخلاص من أسر الشهوات وغموم الدنيا والاستيلاء عليها بالقهر تشبها بالملائكة الذين لاتستفزهم الشهوة ولا يستهويهم الغضب ، فإن دفع آثار الشهوة والغضب عن النفس من الكمال الذى هو من صفات الملائكة . ومن صفات الكمال لله تعالى استحالة التغير والتأثر عليه فمن كان عن التغير والتأثر بالعوارض أبعد كان إلى الله تعالى أقرب وبالملائكة أشبه ، ومنزلته عند الله أعظم . وهذا كمال ثالث سوى كمال العلم والقدرة ، وإنما لم نورده فى أقسام الكمال لأن حقيقته ترجع إلى عدم ونقصان ، فإن التغير نقصان إذ هو عبارة عن عدم صفة كائنة وهلاكها ، والهلاك نقص فى الذات وفى صفات الكمال .

فإذن الكمالات ثلاثة — إن عددنا (عدم التغير بالشهوات وعدم الانقياد لها) كمالا ككمال العلم وكمال الحرية ؛ وأعنى به عدم العبودية للشهوات وإرادة الأسباب الدنيوية — وكمال القدرة للعبد طريق إلى اكتساب كمال العلم ، وكمال الحرية ولا طريق له إلى اكتساب كمال القدرة الباقية بعد موته ، إذ قدرته على أعيان الأموال وعلى استسخار القلوب والأبدان تنقطع بالموت ، ومعرفته وحريته لاينعدمان بالموت بل يبقيان كمالا فيه ووسيلة إلى القرب من الله تعالى . فانظر كيف انقلب الجاهلون وانكبوا على وجوههم انكباب العميان فأقبلوا على طلب كمال القدرة بالجاه والمال ، وهو الكمال الذى لايسلم وإن سلم فلا بقاء له ، وأعرضوا عن كمال الحرية والعلم الذى إذا حصل كان أبديا لاانقطاع له ، وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا جرم لايخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ، وهم الذين لم يفهموا قوله تعالى (المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) فالعلم والحرية هى الباقيات الصالحات التى تبقى كمالا فى النفس ، والمال والجاه هو الذى ينقضى على القرب وهو كما مثله الله تعالى حيث قال (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض) الآية وقال تعالى (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء) إلى قوله (فأصبح هشيما تذروه الرياح) وكل ماتذروه رياح الموت فهو زهرة الحياة الدنيا ، وكل مالا يقطعه الموت فهو الباقيات الصالحات . فقد عرفت بهذا أن كمال القدرة بالمال والجاه كمال ظنى لا أصل له ، وأن من قصر الوقت على طلبه وظنه مقصودا فهو جاهل ، وإليه أشار أبو الطيب بقوله :

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله مخافة فقر فالذى فعل : الفقر

إلا قدر البلغة منهما إلى الكمال الحقيقى اللهم اجعلنا ممن وفقته للخير وهديته بلطفك .

بيان ما يحمد من حب الجاه وما يذم

مهما عرفت أنّ معنى الجاه ملك القلوب والقدرة عليها فحكمه حكم ملك الأموال فإنه عرض من أعراض الحياة الدنيا ، وينقطع بالموت كالمال ، والدنيا مزرعة الآخرة ، فكل ماخلق فى الدنيا فيمكن أن يتزود منه للآخرة ، وكما أنه لابد من أدنى مال لضرورة المطعم والمشرب والملبس ، فلا بدّ من أدنى جاه لضرورة المعيشة مع الخلق ، والإنسان كما لايستغنى عن طعام يتناوله فيجوز أن يحب الطعام أو المال الذى يبتاع به الطعام ، فكذلك لايخلو عن الحاجة إلى خادم يخدمه ، ورفيق يعينه ، وأستاذ يرشده ، وسلطان يحرسه ويدفع عنه ظلم الأشرار ، فحبه لأن يكون له فى قلب خادمه من المحل مايدعوه إلى الخدمة ليس بمذموم ، وحبه لأن يكون له فى قلب رفيقه من المحل مايحسن به مرافقته ومعاونته ليس بمذموم ، وحبه لأن يكون له فى قلب أستاذه من المحل مايحسن به إرشاده وتعليمه والعناية به ليس بمذموم ، وحبه لأن يكون له من المحل فى قلب سلطانه مايحثه ذلك على دفع الشر عنه ليس بمذموم ، فإن الجاه وسيلة إلى الأعراض كالمال ، فلا فرق بينهما إلا أنّ التحقيق فى هذا يفضى إلى أن لايكون المال والجاه بأعيانهما محبوبين له ، بل ينزل ذلك منزلة حب الإنسان أن يكون له فى داره بيت ماء لأنه مضطر إليه لقضاء حاجته ، ويود أن لو استغنى عن قضاء الحاجة حتى يستغنى عن بيت الماء ، فهذا على التحقيق ليس محبا لبيت الماء فكل مايراد للتوصل به إلى محبوب فالمحبوب هو المقصود المتوصل إليه . وتدرك التفرقة بمثال آخر وهو أنّ الرجل قد يحب زوجته من حيث إنه يدفع بها فضلة الشهوة ، كما يدفع بيت الماء فضلة الطعام ، ولو كفى مؤنة الشهوة لكان يهجر زوجته ، كما أنه لو كفى قضاء الحاجة لكان لايدخل بيت الماء ولا يدور به ، وقد يحب الإنسان زوجته لذاتها حب العشاق ولو كفى الشهوة لبقى مستصحبا لنكاحها ؛ فهذا هو الحب دون الأول ، وكذلك الجاه والمال . وقد يحب كل واحد منهما على هذين الوجهين ، فحبهما لأجل التوصل بهما إلى مهمات البدن غير مذموم ، وحبهما لأعيانهما فيما يجاوز ضرورة البدن وحاجته مذموم ، ولكنه لايوصف صاحبه بالفسق والعصيان مالم يحمل الحب على مباشرة معصية . وما يتوصل به إلى اكتساب بكذب وخداع وارتكاب محظور ومالم يتوصل إلى اكتسابه بعبادة ، فإنّ التوصل إلى الجاه والمال بالعبادة جناية على الدين وهو حرام ، وإليه يرجع معنى الرياء المحظور كما سيأتى .

فإن قلت : طلبه المنزلة والجاه فى قلب أستاذه وخادمه ورفيقه وسلطانه ومن يرتبط به أمره مباح على الإطلاق كيفما كان ؛ أو يباح إلى حد مخصوص على وجه مخصوص ؟ فأقول : يطلب ذلك على ثلاثة أوجه ، وجهان مباحان ، ووجه محظور .

أما الوجه المحظور : فهو أن يطلب قيام المنزلة فى قلوبهم باعتقادهم فيه صفة وهو منفك عنها ، مثل العلم والورع والنسب ، فيظهر لهم أنه علوى أو عالم أو ورع وهو لايكون كذلك . فهذا حرام لأنه كذب وتلبيس إما بالقول أو بالمعاملة .

أما أحد المباحين : فهو أن يطلب المنزلة بصفة هو متصف بها كقول يوسف صلى الله عليه وسلم فيما أخبر عنه الرب تعالى ﴿ اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم ﴾ فإنه طلب المنزلة فى قلبه بكونه حفيظا عليما ، وكان

محتاجا إليه وكان صادقا فيه (والثانى) أن يطلب إخفاء عيب من عيوبه ومعصية من معاصيه ، حتى لا يعلم فلا تزول منزلته به ، فهذا أيضا مباح لأن حفظ الستر على القبائح جائز ، ولا يجوز هتك الستر وإظهار القبيح . وهذا ليس فيه تلبيس ، بل هو سد لطريق العلم بما لا فائدة فى العلم به ، كالذى يخفى عن السلطان أنه يشرب الخمر ولا يلقى إليه أنه ورع ، فإن قوله : إنى ورع ، تلبيس ، وعدم إقراره بالشرب لا يوجب اعتقاد الورع بل يمنع العلم بالشرب .

ومن جملة المحظورات تحسين الصلاة بين يديه ليحسن فيه اعتقاده ، فإن ذلك رياء ، وهو ملبس إذ يخيل إليه أنه من المخلصين الخاشعين لله وهو مراء بما يفعله ، فكيف يكون مخلصا ؟ فطلب الجاه بهذا الطريق حرام وكذا بكل معصية ، وذلك يجرى مجرى اكتساب المال الحرام من غير فرق ، وكما لا يجوز له أن يتملك مال غيره بتلبيس فى عوض أو غيره فلا يجوز له أن يتملك قلبه بتزوير وخداع ، فإن ملك القلوب أعظم من ملك الأموال .

بيان السبب فى حب المدح والثناء وارتياح النفس به وميل الطبع إليه وبغضها للذم ونفرتها منه

اعلم أن لحب المدح والتذاذ القلب به أربعة أسباب :

السبب الأول ، وهو الأقوى : شعور النفس بالكمال فإنا بينا أن الكمال محبوب ، وكل محبوب فإدراكه لذيذ . فمهما شعرت النفس بكمالها ارتاحت واعتزت وتلذذت ، والمدح يشعر نفس الممدوح بكمالها ، فإن الوصف الذى به مدح لايخلو إما أن يكون جليا ظاهرا أو يكون مشكوكا فيه ، فإن كان جليا ظاهرا محسوسا كانت اللذة به أقل ، ولكنه لايخلو عن لذة كثنائه عليه بأنه طويل القامة أبيض اللون فإن هذا نوع كمال ولكن النفس تغفل عنه فتخلو عن لذته ، فإذا استشعرته لم يخل حدوث الشعور عن حدوث لذة ، وإن كان ذلك الوصف مما يتطرق إليه الشك فاللذة فيه أعظم كالثناء عليه بكمال العلم أوكمال الورع أو بالحسن المطلق ، فإن الإنسان ربما يكون شاكا فى كمال حسنه وفى كمال علمه وكمال ورعه ويكون مشتاقا إلى زوال هذا الشك بأن يصير مستيقنا لكونه عديم النظير فى هذه الأمور إذ تطمئن نفسه إليه ، فإذا ذكره غيره أورث ذلك طمأنينة وثقة باستشعار ذلك الكمال فتعظم لذاته ، وإنما تعظم اللذة بهذه العلة مهما صدر الثناء من بصير بهذه الصفات خبير بها لايجازف فى القول إلا عن تحقيق وذلك كفرح التلميذ بثناء أستاذه عليه بالكياسة والذكاء وغزارة الفضل فإنه فى غاية اللذة ، وإن صدر ممن يجازف فى الكلام أو لايكون بصيرا بذلك الوصف ضعفت اللذة ، وبهذه العلة يبغض الذم أيضا ويكرهه لأنه يشعره بنقصان نفسه والنقصان ضد الكمال المحبوب فهو ممقوت الشعور به مؤلم ، ولذلك يعظم الألم إذا صدر الذم من بصير موثوق به كما ذكرناه فى المدح .

السبب الثانى : أن المدح يدل على أن قلب المادح مملوك للمدوح وأنه مريد له ومعتقد فيه ومسخر تحت مشيئته وملك القلوب محبوب والشعور بحصوله لذيذ ، وبهذه العلة تعظم اللذة مهما صدر الثناء ممن تتسع قدرته وينتفع باقتناص قلبه كالملوك والأكابر ، ويضعف مهما كان المادح ممن لايؤبه له ولايقدر على شىء ، فإن القدرة عليه بملك قلبه قدرة على أمر حقير فلا يدل المدح إلا على قدرة قاصرة ، وبهذه العلة أيضا يكره الذم ويتألم به القلب ، وإذا كان من الأكابر كانت نكايته أعظم لأن الفائت به أعظم .

السبب الثالث : أن ثناء المثنى ومدح المادح سبب لاصطياد قلب كل من يسمعه ، لاسيما إذ كان ذلك ممن يلتفت إلى قوله ويعتد بثنائه ، وهذا مختص بثناء يقع على الملأ فلا جرم كلما كان الجمع أكثر والمثنى أجدر بأن يلتفت إلى

قوله كان المدح ألذ والذم أشد على النفس .

السبب الرابع : أن المدح يدل على حشمة الممدوح ، واضطرار المادح إلى إطلاق اللسان بالثناء على الممدوح إما عن طوع وإما عن قهر ، فإن الحشمة أيضاً لذيذة لما فيها من القهر والقدرة ، وهذه اللذة تحصل وإن كان المادح لا يعتقد فى الباطن مامدح به ، ولكن كونه مضطرا إلى ذكره نوع قهر واستيلاء عليه ، فلا جرم تكون لذته بقدر تمنع المادح وقوته ، فتكون لذة ثناء القوى الممتنع عن التواضع بالثناء أشد .

فهذه الأسباب الأربعة قد تجتمع فى مدح مادح واحد فيعظم بها الالتذاذ ، وقد تفترق فتنقص اللذة بها . أما العلة الاولى وهى استشعار الكمال فتندفع بأن يعلم الممدوح أنه غير صادق فى قوله ، كما إذا مدح بأنه نسيب أو سخى أو عالم بعلم أو متورع عن المحظورات وهو يعلم من نفسه ضد ذلك ، فتزول اللذة التى سببها استشعار الكمال وتبقى لذة الاستيلاء على قلبه وعلى لسانه وبقية اللذات ، فإن كان يعلم أن المادح ليس يعتقد مايقوله ويعلم خلوه عن هذه الصفة بطلت اللذة الثانية وهو استيلاؤه على قلبه ، وتبقى لذة الاستيلاء والحشمة على اضطرار لسانه إلى النطق بالثناء فإن لم يكن ذلك عن خوف بل كان بطريق اللعب بطلت اللذات كلها فلم يكن فيه أصلا لذة لفوات الأسباب الثلاثة فهذا مايكشف الغطاء عن علة التذاذ النفس بالمدح وتألمها بسبب الذم . وإنما ذكرنا ذلك ليعرف طريق العلاج لحب الجاه وحب المحمدة وخوف المذمة ، فإن مالا يعرف سببه لايمكن معالجته ، إذ العلاج عبارة عن حل أسباب المرض . والله الموفق بكرمه ولطفه وصلى الله على كل عبد مصطفى .

بيان علاج حب الجاه

اعلم أن من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصور الهم على مراعاة الخلق مشغوفا بالتودد إليهم والمراءات لأجلهم ، ولايزال فى أقواله وأفعاله ملتفتا إلى مايعظم منزلته عندهم وذلك بذر النفاق وأصل الفساد ، ويجر ذلك لامحالة إلى التساهل فى العبادات والمراءاة بها وإلى اقتحام المحظورات للتوصل إلى اقتناص القلوب ، ولذلك شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم حب الشرف والمال وإفسادهما للدين بذئبين ضاريين وقال عليه السلام « إنه ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل » إذا النفاق هو مخالفة الظاهر للباطن بالقول أو الفعل ، وكل من طلب المنزلة فى قلوب الناس فيضطر إلى النفاق معهم وإلى التظاهر بخصال حميدة هو خال عنها ، وذلك هو عين النفاق .

فحب الجاه إذن من المهلكات ، فيجب علاجه وإزالته عن القلب فإنه طبع جبل عليه القلب كما جبل على حب المال ؛ وعلاجه مركب من علم وعمل .

أما العلم : فهو أن يعلم السبب الذى لأجله أحب الجاه وهو كمال القدرة على أشخاص الناس وعلى قلوبهم ، وقد بينا أن ذلك إن صفا وسلم فآخره الموت ، فليس هو من الباقيات الصالحات ، بل لو سجد لك كل من على بسيط الأرض من المشرق إلى المغرب فإلى خمسين سنة لايبقى الساجد ولا المسجود له ، ويكون حالك كحال من مات قبلك من ذوى الجاه مع المتواضعين له . فهذا لاينبغى أن يترك به الدين الذى هو الحياة الأبدية التى لاانقطاع لها ، ومن فهم الكمال الحقيقى والكمال الوهمى ـ كما سبق ـ صغر الجاه فى عينه ، إلا أن ذلك إنما يصغر فى عين من ينظر إلى الآخرة كأنه يشاهدها ويستحقر العاجلة ويكون الموت كالحاصل عنده ، ويكون حاله كحال الحسن البصرى حين كتب إلى عمر بن عبد العزيز (أما بعد : فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قد مات) فانظر كيف مد نظره نحو المستقبل وقدره كائنا . وكذلك حال عمر بن عبد العزيز حين كتب فى جوابه (أما بعد : فكأنك بالدنيا لم تكن

وكأنك بالآخرة لم تزل) فهؤلاء كان التفاتهم إلى العاقبة ، فكان عملهم لها بالتقوى إذ علموا أنّ العاقبة للمتقين ، فاستحقروا الجاه والمال فى الدنيا . وأبصار أكثر الخلق ضعيفة مقصورة على العاجلة لا يمتد نورها إلى مشاهدة العواقب ، ولذلك قال تعالى ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ﴾ وقال عزوجل ﴿ كلا بل تحبون العاجلة ، وتذرون الآخرة ﴾ فمن هذا حده فينبغى أن يعالج قلبه من حب الجاه بالعلم بالآفات العاجلة ، وهو أن يتفكر فى الأخطار التى يستهدف لها أرباب الجاه فى الدنيا ، فإن كل ذى جاه محسود ومقصود بالإيذاء وخائف على الدوام على جاهه ومحترز من أن تتغير منزلته فى القلوب ، والقلوب أشد تغيرا من القدر فى غليانها وهى مترددة بين الإقبال والإعراض ، فكل ما يبنى على قلوب الخلق يضاهى ما يبنى على أمواج البحر فإنه لا ثبات له ، والاشتغال بمراعاة القلوب وحفظ الجاه ودفع كيد الحساد ومنع أذى الأعداء كل ذلك غموم عاجلة ومكدرة للذة الجاه ، فلا يفى فى الدنيا مرجوها بمخوفها فضلا عما يفوت فى الآخرة ، فبهذا ينبغى أن تعالج البصيرة الضعيفة . وأما من نفذت بصيرته وقوى إيمانه فلا يلتفت إلى الدنيا ، فهذا هو العلاج من حيث العلم .

وأما من حيث العمل : فإسقاط الجاه عن قلوب الخلق بمباشرة أفعال يلام عليها حتى يسقط من أعين الخلق وتفارقه لذة القبول ويأنس بالخمول ويرد الخلق ويقنع بالقبول من الخالق . وهذا هو مذهب الملامتية ؛ إذ اقتحموا الفواحش فى صورتها ليسقطوا أنفسهم من أعين الناس فيسلموا من آفة الجاه ، وهذا غير جائز لمن يقتدى به فإنه يوهن الدين فى قلوب المسلمين ، وأما الذى لا يقتدى به فلا يجوز له أن يقدم على محظور لأجل ذلك ، بل له أن يفعل من المباحات ما يسقط قدره عند الناس ؛ كما روى أن بعض الملوك قصد بعض الزهاد ، فلما علم بقربه منه استدعى طعاما وبقلا وأخذ يأكل بشره ويعظم اللقمة ، فلما نظر إليه الملك سقط من عينه وانصرف ، فقال الزاهد: الحمد لله الذى صرفك عنى . ومنهم من شرب شرابا حلالا فى قدح لونه لون الخمر حتى يظن به أنه يشرب الخمر فيسقط من أعين الناس . وهذا فى جوازه نظر من حيث الفقه إلا أنّ أرباب الأحوال ربما يعالجون أنفسهم بما لا يفتى به الفقيه مهما رأوا إصلاح قلوبهم فيه ثم يتداركون ما فرط منهم فيه من صورة التقصير ، كما فعل بعضهم ، فإنه عرف بالزهد وأقبل الناس عليه ، فدخل حماما ولبس ثياب غيره وخرج فوقف فى الطريق حتى عرفوه فأخذوه وضربوه واستردوا منه الثياب وقالوا : إنه طرار وهجروه وأقوى الطرق فى قطع الجاه الاعتزال عن الناس والهجرة إلى موضع الخمول ، فإنّ المعتزل فى بيته فى البلد الذى هو به مشهور لا يخلو عن حب المنزلة التى ترسخ له فى القلوب بسبب عزلته ، فإنه ربما يظن أنه ليس محبا لذلك الجاه وهو مغرور ، وإنما سكنت نفسه لأنها قد ظفرت بمقصودها ولو تغير الناس عما اعتقدوه فيه فذموه أو نسبوه إلى أمر غير لائق به جزعت نفسه وتألمت ، وربما توصلت إلى الاعتذار عن ذلك وإماطة ذلك الغبار عن قلوبهم ، وربما يحتاج فى إزالة ذلك عن قلوبهم إلى كذب وتلبيس ولا يبالى به ، وبه ويتبين بعد أنه محب للجاه والمنزلة . ومن أحب الجاه والمنزلة فهو كمن أحب المال بل هو شر منه فإنّ فتنة الجاه أعظم ، ولا يمكنه أن لا يحب المنزلة فى قلوب الناس مادام يطمع فى الناس ، فإذا أحرز قوته من كسبه أو من جهة أخرى وقطع طمعه عن الناس رأسا أصبح الناس كلهم عنده كالأرذال ، فلا يبالى أكان له منزلة فى قلوبهم أم لم يكن ، كما لا يبالى بما فى قلوب الذين هم منه فى أقصى المشرق لأنه لا يراهم ولا يطمع فيهم ، ولا يقطع الطمع عن الناس إلا بالقناعة ، فمن قنع استغنى عن الناس وإذا استغنى لم يشتغل قلبه بالناس ولم يكن لقيام منزلته فى القلوب عنده وزن ، ولا يتم ترك الجاه إلا بالقناعة وقطع الطمع . ويستعين على جميع ذلك بالأخبار الواردة فى ذم

الجاه ومدح الخمول والذل مثل قولهم : المؤمن لايخلو من ذلة أوقلة أو علة . وينظر فى أحوال السلف وإيثارهم للذل على العز ورغبتهم فى ثواب الآخرة رضى الله عنهم أجمعين .

بيان وجه العلاج لحب المدح وكراهة الذم

اعلم أن أكبر الناس إنما هلكوا بخوف مذمة الناس وحب مدحهم ، فصار حركاتهم كلها موقوفة على مايوافق رضا الناس رجاء للمدح وخوفا من الذم ، وذلك من المهلكات فيجب معالجته وطريقة ملاحظة الأسباب التى لأجلها يحب المدح ويكره الذم .

أما السبب الأول : فهو استشعار الكمال بسبب قول المادح فطريقك فيه أن ترجع إلى عقلك وتقول لنفسك : هذه الصفة التى يمدحك بها أنت متصف بها أم لا ؟ فإن كنت متصفا بها فهى إما صفة تستحق بها المدح كالعلم والورع ، وإما صفة لاتستحق المدح كالثروة والجاه والأعراض الدنيوية فان كانت من الأعراض الدنيوية فالفرح بها كالفرح بنبات الأرض الذى يصير على القرب هشيما تذروه الرياح ، وهذا من قلة العقل ، بل العاقل يقول كما قال المتنبى :

أشد الغم عندى فى سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا

فلا ينبغى أن يفرح الإنسان بعروض الدنيا ، وإن فرح فلا ينبغى أن يفرح بمدح المادح بها بوجودها والمدح ليس هو سبب وجودها . وإن كانت الصفة مما يستحق الفرح بها كالعلم والورع فينبغى أن لايفرح بها لأن الخاتمة غير معلومة ، وهذا إنما يقتضى الفرح لأنه يقرب عند الله زلفى ، وخطر الخاتمة باق ففى الخوف من سوء الخاتمة شغل عن الفرح بكل مافى الدنيا ، بل الدنيا دار أحزان وغموم لادار فرح وسرور ثم إن كنت تفرح بها على رجاء حسن الخاتمة فينبغى أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوى لا بمدح المادح ، فان اللذة فى استشعار الكمال والكمال موجود من فضل الله لا من المدح والمدح تابع له فلا ينبغى أن تفرح بالمدح ، والمدح لايزيدك فضلا وإن كانت الصفة التى مدحت بها أنت خال عنها ففرحك بالمدح غاية الجنون ، ومثالك مثال من يهزأ به إنسان ويقول سبحان الله ما أكثر العطر الذى فى أحشائه وما أطيب الروائح التى تفوح منه ؟ إذا قضى حاجته ، وهو يعلم ماتشتمل عليه أمعاؤه من الاقذار والأنتان ، ثم يفرح بذلك فكذلك إذا أثنوا عليك بالصلاح والورع ففرحت به والله مطلع على خبائث باطنك وغوائل سريرتك وأقذار صفاتك ـ كان ذلك من غاية الجهل : فاذاً المادح إن صدق فليكن فرحك بصفتك التى هى من فضل الله عليك ، وإن كذب فينبغى أن يغمك ذلك ولاتفرح به .

وأما السبب الثانى : وهو دلالة المدح على تسخير قلب المادح وكونه سببا لتسخير قلب آخر ، فهذا يرجع إلى حب الجاه والمنزلة فى القلوب ـ وقد سبق وجه معالجته ، وذلك بقطع الطمع عن الناس وطلب المنزلة عند الله ، وبأن تعلم أن طلبك المنزلة فى قلوب الناس وفرحك به يسقط منزلتك عند الله ! فكيف تفرح به ؟

وأما السبب الثالث : وهو الحشمة التى اضطرت المادح إلى المدح ، فهو أيضا يرجع إلى قدرة عارضة لاثبات لها ولاتستحق الفرح ، بل ينبغى أن يغمك مدح المادح وتكرهه وتغضب به ـ كما نقل ذلك عن السلف ـ لأن آفة المدح على الممدوح عظيمة ـ كما ذكرناه فى كتاب آفات اللسان ـ قال بعض السلف : من فرح بمدح فقد مكن الشيطان من أن يدخل فى بطنه . وقال بعضهم : إذا قيل لك : نعم الرجل أنت ، فكان أحب إليك من أن يقال لك : بئس الرجل أنت ، فأنت والله بئس الرجل . وروى فى بعض الاخبار ـ فان صح فهو قاصم للظهور ـ

أنّ رجلا أثنى على رجل خيرا عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال « لوكان صاحبك حاضرا فرضى الذى قلت فمات على ذلك دخل النار [١] » وقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم مرّة للمادح « ويحك قصمت ظهره لوسمعك ماأفلح إلى يوم القيامة [٢] » وقال عليه السلام « ألا لا تمادحوا وإذا رأيتم المادحين فاحثوا فى وجوههم التراب [٣] » فلهذا كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين على وجل عظيم من المدح وفتنته وما يدخل على القلب من السرور العظيم به ، حتى إن بعض الخلفاء الراشدين سأل رجلا عن شىء فقال : أنت ياأمير المؤمنين خير منى وأعلم ، فغضب وقال : إنى لم آمرك بأن تزكينى وقيل لبعض الصحابة : لايزال الناس بخير ماأبقاك الله ، فغضب وقال : إنى لأحسبك عراقيا . وقال بعضهم ـ لما مدح ـ اللهم إن عبدك تقرب إلى بمقتك فأشهدك على مقته . وإنما كرهوا المدح خيفة أن يفرحوا بمدح الخلق وهم ممقوتون عند الخالق ، فكان اشتغال قلوبهم بحالهم عند الله تعالى يبغض إليهم مدح الخلق ، لأن الممدوح هو المقرب عندالله والمذموم بالحقيقة هو المبعد من الله الملقى فى النار مع الأشرار فهذا الممدوح إن كان عند الله من أهل النار فما أعظم جهله إذا فرح بمدح غيره ، وإن كان من أهل الجنة فلا ينبغى أن يفرح إلا بفضل الله تعالى وثنائه عليه إذ ليس أمره بيد الخلق . ومهما علم أن الأرزاق والآجال بيدالله تعالى قل التفاته إلى مدح الخلق وذمهم وسقط من قلبه حب المدح واشتغل بما يهمه من أمر دينه . والله الموفق للصواب برحمته .

بيان علاج كراهة الذم

قد سبق أن العلة فى كراهة الذم هو ضدّ العلة فى حب المدح ، فعلاجه أيضا يفهم منه . والقول الوجيز فيه أن من ذمك لايخلو من ثلاثة أحوال .

إما أن يكون قد صدق فيما قال وقصد به النصح والشفقة ؛ وإما أن يكون صادقا ولكن قصده الإيذاء والتعنت وإما أن يكون كاذبا .

فإن كان صادقا وقصده النصح فلا ينبغى أن تذمه وتغضب عليه وتحقد بسببه ، بل ينبغى أن تتقلد منته فإن من أهدى إليك عيوبك فقد أرشدك إلى المهلك حتى تتقيه ، فينبغى أن تفرح به وتشتغل بإزالة الصفة المذمومة عن نفسك إن قدرت عليها ، فأما اغتمامك بسببه وكراهتك له وذمك إياه فإنه غاية الجهل ، وإن كان قصده التعنت فأنت قد انتفعت بقوله إذ أرشدك إلى عيبك إن كنت جاهلا به ، وأذكرك عيبك إن كنت غافلا عنه ، أو قبحه فى عينك لينبعث حرصك على إزالته إن كنت قد استحسنته . وكل ذلك أسباب سعادتك وقد استفدته منه فاشتغل بطلب السعادة فقد أتيح لك أسبابها بسبب ماسمعته من المذمة . فهما قصدت الدخول على ملك وثوبك ملوث بالعذرة وأنت لاتدرى ، ولو دخلت عليه كذلك لخفت أن يحز رقبتك لتلويثك مجلسه بالعذرة فقال قائل : أيها الملوث بالعذرة طهر نفسك ، فينبغى أن تفرح به لأن تنبيهك بقوله غنيمة ، وجميع مساوى الأخلاق مهلكة فى الآخرة والإنسان إنما يعرفها من قول أعدائه فينبغى أن يغتنمه . وأما قصد العدوّ التعنت فجناية منه على دين نفسه وهو نعمة منه عليك فلم تغضب عليه بقول انتفعت به أنت وتضرر هو به ؟

---

(١) حديث : أن رجلا أثنى على رجل خيرا فقال « لوكان صاحبك حاضرا فرضى الذى قلت ومات على ذلك دخل النار » لم أجد له أصلا (٢) حديث « ويحك قطعت ظهره ... الحديث » قاله للمادح تقدم (٣) حديث « ألا لاتمادحوا وإذا رأيتم المادحين فاحثوا فى وجوههم التراب » تقدم دون قوله « ألا لاتمادحوا » .

الحالة الثالثة : أن يفترى عليك بما أنت برىء منه عند الله تعالى فينبغى أن لاتكره ذلك ولا تشتغل بذمه ، بل تتفكر فى ثلاثة أمور (أحدها) أنك إن خلوت من ذلك العيب فلاتخلو عن أمثاله وأشباهه ، وما ستره الله من عيوبك أكثر ، فاشكر الله تعالى إذ لم يطلعه على عيوبك ودفعه عنك بذكر ماأنت برىء عنه . (والثانى) أن ذلك كفارات لبقية مساويك وذنوبك فكأنه رماك بعيب أنت برىء منه وطهرك من ذنوب أنت ملوث بها وكل من اغتابك فقد أهدى إليك حسناته وكل من مدحك فقد قطع ظهرك . فما بالك تفرح بقطع الظهر وتحزن لهدايا الحسنات التى تقربك إلى الله تعالى وأنت تزعم أنك تحب القرب من الله . (وأما الثالث) فهو أن المسكين قد جنى على دينه حتى سقط من عين الله وأهلك نفسه بافترائه وتعرض لعقابه الأليم ، فلا ينبغى أن تغضب عليه مع غضب الله عليه فتشمت به الشيطان وتقول : اللهم أهلكه ، بل ينبغى أن تقول : اللهم أصلحه اللهم تب عليه اللهم ارحمه ، كما قال صلى الله عليه وسلم « اللهم اغفر لقومى اللهم اهد قومى فإنهم لايعلمون [1] » لما أن كسروا ثنيته وشجوا وجهه وقتلوا عمه حمزة يوم أحد . ودعا إبراهيم بن أدهم لمن شج رأسه بالمغفرة فقيل له فى ذلك فقال : علمت أنى مأجور بسببه وما نالنى منه إلا خير فلا أرضى أن يكون هو معاقباً بسببى . ومما يهون عليك كراهة المذمة قطع الطمع فإن من استغنيت عنه مهما ذمك لم يعظم أثر ذلك فى قلبه ، وأصل الدين القناعة وبها ينقطع الطمع عن المال والجاه ، وما دام الطمع قائما كان حب الجاه والمدح فى قلب من طمعت فيه غالبا ، وكانت همتك إلى تحصيل المنزلة فى قلبه مصروفة ، ولا ينال ذلك إلا بهدم الدين ، فلا ينبغى أن يطمع طالب المال والجاه ومحب المدح ومبغض الذم فى سلامة دينه فإن ذلك بعيد جدا .

بيان اختلاف أحوال الناس فى المدح والذم

اعلم أن للناس أربعة أحوال بالإضافة إلى الذام والمادح :

الحالة الأولى : أن يفرح بالمدح ويشكر المادح ويغضب من الذم ويحقد على الذام ويكافئه أو يحب مكافأته ، وهذا حال أكثر الخلق وهو غاية درجات المعصية فى هذا الباب .

الحالة الثانية : أن يمتعض فى الباطن على الذام ولكن يمسك لسانه وجوارحه عن مكافأته ويفرح باطنه ، ويرتاح للمادح ولكن يحفظ ظاهره عن إظهار السرور ، وهذا من النقصان إلا أنه بالإضافة إلى ماقبله كمال .

الحالة الثالثة : وهى أول درجات الكمال أن يستوى عنده ذامه ومادحه فلا تغمه المذمة ولا تسره استثقالا . وهذا قد يظنه بعض العباد بنفسه ويكون مغرورا إن لم يمتحن نفسه بعلاماته . وعلاماته أن لايجد فى نفسه استثقالا للذام عند تطويله الجلوس عنده أكثر مما يجده فى المادح ، وأن لايجد فى نفسه زيادة هزة ونشاط فى قضاء حوائج المادح فوق مايجده فى قضاء حاجة الذام ، وأن لايكون انقطاع الذام عن مجلسه أهون عليه من انقطاع المادح ، وأن لايكون موت المادح المطرى له أشد نكاية فى قلبه من موت الذام ، وأن لايكون غمه بمصيبة المادح وما يناله من أعدائه أكثر مما يكون بمصيبة الذام ، وأن لاتكون زلة المادح أخف على قلبه وفى عينه من زلة الذام . فمهما خف الذام على قلبه كما خف المادح واستويا من كل وجه فقد نال هذه الرتبة وما أبعد ذلك وما أشده على القلوب ! وأكثر العباد فرحهم بمدح الناس لهم مستبطن فى قلوبهم وهم لايشعرون حيث لايمتحنون

---

(١) حديث « اللهم اغفر لقومى فإنهم لايعلمون » قاله لما ضربه قومه . أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة وقد تقدم والحديث فى الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قاله حكاية عن نبى من الأنبياء حين ضربه قومه .

أنفسهم بهذه العلامات ، وربما شعر العابد بميل قلبه إلى المادح دون الذام ، والشيطان يحسن له ذلك ويقول : الذام قد عصى الله بمذمتك ، والمادح قد أطاع الله بمدحك ، فكيف تسوى بينهما ؟ وإنما استثقالك للذام من الدين المحض . وهذا محض التلبيس ، فإن العابد لو تفكر علم أن فى الناس من ارتكب كبائر المعاصى أكثر مما ارتكب الذام فى مذمته ، ثم إنه لا يستثقلهم ولا ينفر عنهم ، ويعلم أن المادح الذى مدح لا يخلو عن مذمة غيره . ولا يجد فى نفسه نفرة عنه بمذمة غيره كما يجد لمذمة نفسه ، والمذمة من حيث إنها معصية لاتختلف بأن يكون هو المذموم أو غيره . فإذا العابد المغرور لنفسه يغضب ولهواه يمتعض ، ثم إن الشيطان يخيل إليه أنه من الدين حتى يعتقد على الله بهواه فيزيده ذلك بعدا من الله ، ومن لم يطلع على مكايد الشيطان وآفات النفوس فأكثر عباداته تعب ضائع يفوت عليه الدنيا ويخسره فى الآخرة ، وفيهم قال الله تعالى ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ .

الحالة الرابعة : وهى الصدق فى العبادة ؛ أن يكره المدح ويمقت المادح ، إذا يعلم أنه فتنة عليه قاصمة للظهر مضرة له فى الدين ، ويحب الذام إذ يعلم أنه مهد إليه عيبه ومرشد له إلى مهمه ومهد إليه حسناته ، فقد قال صلى الله عليه وسلم « رأس التواضع أن تكره أن تذكر بالبر والتقوى »[1] ، وقد روى فى بعض الأخبار ما هو قاصم لظهور أمثالنا إن صح ، إذ روى أنه صلى الله عليه وسلم قال « ويل للصائم وويل للقائم وويل لصاحب الصوف إلا من ... » فقيل يارسول الله إلا من ؟ فقال « إلا من تنزهت نفسه عن الدنيا وأبغض المدحة واستحب المذمة »[2] ، وهذا شديد جدا ، وغاية أمثالنا الطمع فى الحالة الثانية ، وهو أن يضمر الفرح والكراهة على الذام والمادح ، ولا يظهر ذلك بالقول والعمل ، فأما الحالة الثالثة وهى التسوية بين المادح والذام فلسنا نطمع فيها . ثم إن طالبنا أنفسنا بعلامة الحالة الثانية فإنها لاتفى بها ، لأنها لابد وأن تتسارع إلى إكرام المادح وقضاء حاجاته ، وتتثاقل على إكرام الذام والثناء عليه وقضاء حوائجه ، ولا نقدر على أن نسوى بينهما فى الفعل الظاهر كما لا نقدر عليه فى سريرة القلب ، ومن قدر على التسوية بين المادح والذام فى ظاهر الفعل فهو جدير بأن يتخذ قدوة فى هذا الزمان إن وجد فإنه الكبريت الأحمر يتحدث الناس به ولا يرى ، فكيف بما بعده من المرتبتين ؟ وكل واحدة من هذه الرتب أيضا فيها درجات . أما الدرجات فى المدح فهو أن من الناس من يتمنى المدحة والثناء وانتشار الصيت ، فيتوصل إلى نيل ذلك بكل ما يمكن حتى يرائى بالعبادات ، ولا يبالى بمقارفة المحظورات لاستمالة قلوب الناس واستنطاق ألسنتهم بالمدح وهذا من الهالكين . ومنهم من يريد ذلك ويطلبه بالمباحات ولا يطلبه بالعبادات ، ولا يباشر المحظورات ، وهذا على شرف جرف هار ، فإن حدود الكلام الذى يستميل به القلوب وحدود الأعمال لا يمكنه أن يضبطها فيوشك أن يقع فيما لا يحل لنيل الحمد ، فهو قريب من الهالكين جدا . ومنهم من لا يريد المدحة ولا يسعى لطلبها ، ولكن إذا مدح سبق السرور إلى قلبه فإذا لم يقابل ذلك بالمجاهدة ولم يتكلف الكراهية فهو قريب من أن يستجره فرط السرور إلى الرتبة التى قبلها وإن جاهد نفسه فى ذلك وكلف قلبه الكراهية وبغض السرور إليه بالتفكر فى آفات المدح ، فهو فى خطر المجاهدة فتارة تكون اليد له وتارة تكون عليه . ومنهم من إذا سمع المدح لم يسر به ولم يغتم به ولم يؤثر فيه وهذا على خير ، وإن كان قد بقى عليه بقية من الإخلاص . ومنهم من يكره المدح إذا سمعه ولكن

(١) حديث « رأس التواضع أن يكره أن يذكر بالبر والتقوى » لم أجد له أصلا (٢) حديث « ويل للصائم وويل للقائم وويل لصاحب الصوف ... الحديث » لم أجده هكذا وذكر صاحب الفردوس من حديث أنس « ويل لمن لبس الصوف فخالف فعله قوله » ولم يخرجه ولده فى مسنده .

لا ينتهى به إلى أن يغضب على المادح وينكر عليه ، وأقصى درجاته أن يكره ويغضب ويظهر الغضب وهو صادق فيه ، لا أن يظهر الغضب وقلبه محب له فإن ذلك عين النفاق ، لأنه يريد أن يظهر من نفسه الإخلاص والصدق وهو مفلس عنه ؛ وكذلك بالضد من هذا تتفاوت الأحوال فى حق الذام ، وأول درجاته إظهار الغضب وآخرها إظهار الفرح ، ولا يكون الفرح وإظهاره إلا ممن فى قلبه حنق وحقد على نفسه لتمردها عليه وكثرة عيوبها ومواعيدها الكاذبة وتلبيساتها الخبيثة فيبغضها بغض العدو ، والإنسان يفرح بمن يذم عدوه ، وهذا شخص عدوه نفسه فيفرح إذا سمع ذمها ويشكر الذام على ذلك ويعتقد فطنته وذكاءه لما وقف على عيوبها ، فيكون ذلك كالتشفى له من نفسه ويكون غنيمة عنده إذ صار بالمذمة أوضع فى أعين الناس حتى لا يبتلى بفتنة الناس ، وإذا سيقت إليه حسنات لم ينصب فيها فعساه يكون خيراً لعيوبه التى هو عاجز عن إماطتها ، ولو جاهد المريد نفسه طول عمره فى هذه الخصلة الواحدة وهو أن يستوى عنده ذامة ومادحه لكان له شغل شاغل فيه لا يتفرغ معه لغيره وبينه وبين السعادة عقبات كثيرة هذه إحداها ، ولا يقطع شيئا منها إلا بالمجاهدة الشديدة فى العمر الطويل

الشطر الثانى من الكتاب : فى طلب الجاه والمنزلة بالعبادات

وهو الرياء : وفيه بيان ذم الرياء ، وبيان حقيقة الرياء وما يرائى ، وبيان درجات الرياء ؛ وبيان الرياء الخفى ؛ وبيان ما يحبط العمل من الرياء وما لا يحبط ؛ وبيان دواء الرياء وعلاجه ؛ وبيان الرخصة فى إظهار الطاعات وبيان الرخصة فى كتمان الذنوب ؛ وبيان ترك الطاعات خوفا من الرياء والآفات ، وبيان ما يصح من نشاط العبد للعبادات بسبب رؤية الخلق ؛ وبيان ما يجب على المريد أن يلزمه قلبه قبل الطاعة وبعدها . وهى عشرة فصول وبالله التوفيق .

بيان ذم الرياء

اعلم أن الرياء حرام والمرائى عند الله ممقوت ، وقد شهدت لذلك الآيات والأخبار والآثار .

أما الآيات : فقوله تعالى ﴿ فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ﴾ وقوله عز وجل ﴿ والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور ﴾ قال مجاهد هم أهل الرياء . وقال تعالى ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولا شكورا ﴾ فمدح المخلصين بنفى كل إرادة سوى وجه الله ، والرياء ضده وقال تعالى ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا [1] ﴾ نزل بعد ذلك فيمن يطلب الأجر والحمد بعباداته وأعماله .

وأما الأخبار : فقد قال صلى الله عليه وسلم حين سأله رجل فقال : يارسول الله فيم النجاة ؟ فقال « أن لا يعمل العبد بطاعة الله يريد بها الناس » وقال أبو هريرة فى حديث الثلاثة ــ المقتول فى سبيل الله والمتصدق بماله والقارئ لكتاب الله ، كما أوردناه فى كتاب الاخلاص ــ : وإن الله عز وجل يقول لكل واحد منهم : كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد ، كذبت بل أردت أن يقال فلان شجاع ، كذبت بل أردت أن يقال فلان قارئ . فأخبر صلى الله عليه

(١) حديث : نزول قوله تعالى ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾ الآية فيمن يطلب الآخرة بعباداته وأعماله . أخرجه الحاكم من حديث طاوس : قال رجل انى أقف الموقف أبتغى وجه الله وأحب أن يرى موطنى فلم يرد عليه حتى نزلت هذه الآية . هكذا فى نسختى من المستدرك ولعله سقط منه ابن عباس أو أبو هريرة ، وللبزار من حديث معاذ بسند ضعيف « من صام رياء فقد أشرك ... الحديث » وفيه : أنه صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية

وسلم أنهم لم يثابوا وأن رياءهم هو الذى أحبط أعمالهم [١] وقال ابن عمر رضى الله عنهما : قال النبي صلى الله عليه وسلم « من راءى راءى الله به ومن سمع سمع الله به [٢] » وفى حديث آخر طويل « إن الله تعالى يقول لملائكته إن هذا لم يردنى بعمله فاجعلوه فى سجين [٣] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر » قالوا وما الشرك الأصغر يارسول الله ؟ « قال الرياء ، يقول الله عز وجل يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء [٤] » وقال صلى الله عليه وسلم « استعيذوا بالله عز وجل من جب الحزن، قيل وما هو يارسول الله ؟ قال « واد فى جهنم أعد للقراء المرائين [٥] » وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله عزوجل : من عمل لى عملا أشرك فيه غيرى فهو له كله وأنا منه برىء وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك [٦] » وقال عيسى المسيح صلى الله عليه وسلم : إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ويمسح شفتيه لئلا يرى الناس أنه صائم ، وإذا أعطى بيمينه فليخف عن شماله ، وإذا صلى فليرخ ستر بابه فإن الله يقسم الثناء كما يقسم الرزق . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « لايقبل الله عز وجل عملا فيه مثقال ذرة من رياء [٧] » وقال عمر لمعاذ بن جبل حين رآه يبكى : مايبكيك ؟ قال : حديث سمعته من صاحب هذا القبر يعنى النبى صلى الله عليه وسلم يقول « إن أدنى الرياء شرك [٨] » وقال صلى الله عليه وسلم « أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهرة الخفية [٩] » وهى أيضا ترجع إلى خطايا الرياء ودقائقه وقال صلى الله عليه وسلم « إن فى ظل العرش يوم لاظل إلا ظله رجلا تصدق بيمينه فكاد يخفيها عن شماله [١٠] » ولذلك ورد « أن فضل عمل السر على عمل الجهر بسبعين ضعفا [١١] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن المرائى ينادى عليه يوم القيامة يافاجر ياغادر يامرائى ضل عملك وحبط أجرك اذهب فخذ أجرك ممن كنت تعمل له [١٢] » وقال شداد بن أوس : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يبكى فقلت مايبكيك يارسول الله ؟

---

(١) حديث : أبى هريرة فى الثلاثة : المقتول فى سبيل الله والمتصدق بماله والقارىء لكتابه فإن الله تعالى يقول لكل واحد منهم كذبت . رواه مسلم وسيأتى فى كتاب الإخلاص (٢) حديث ابن عمر « من راءى راءى الله به ومن سمع سمع الله به » متفق عليه من حديث جندب بن عبد الله ، وأما حديث ابن عمر فرواه الطبرانى فى الكبير والبيهقى فى الشعب من رواية شيخ يكنى أبا يزيد عنه بلفظ « من سمع الناس سمع الله به سامع خلقه وحقره وصغره » وفى الزهد لابن المبارك ومسند أحمد بن منيع لنه من حديث عبد الله بن عمرو (٣) حديث « إن الله يقول للملائكة إن هذا لم يردني بعمله فاجعلوه فى سجين » أخرجه ابن المبارك فى الزهد ومن طريقه ابن أبى الدنيا فى الإخلاص وأبو الشيخ فى كتاب العظمة من رواية حمزة بن حبيب مرسلا ورواه ابن الجوزى فى الموضوعات (٤) حديث « إن أخوف ماأخاف عليكم الشرك الأصغر ... الحديث » أخرجه أحمد والبيهقى فى الشعب من حديث محمود بن لبيد وله رواية ورجاله ثقات ورواه الطبرانى من رواية محمود بن لبيد عن رافع بن خديج (٥) حديث « استعيذوا بالله من جب الحزن » قيل وما هو ؟ قال « واد فى جهنم أعد للقراء المرائين » أخرجه الترمذى وقال غريب وابن ماجه من حديث أبى هريرة وضعفه ابن عدى (٦) حديث « يقول الله من عمل لى عملا أشرك فيه غيرى فهو له كله ... الحديث » أخرجه مالك واللفظ له من حديث أبى هريرة دون قوله « وأنا منه برىء » ومسلم مع تقديم وتأخير دونها أيضا وهى عند ابن ماجه بسند صحيح .

(٧) حديث « لايقبل الله عملا فيه مقدار ذرة من رياء » لم أجده هكذا (٨) حديث معاذ « إن أدنى الرياء شرك » أخرجه الطبرانى هكذا والحاكم بلفظ « إن اليسير من الرياء شرك » وقد تقدم (٩) حديث « أخوف ما أخاف عليكم الرياء ... الحديث » تقدم فى أول هذا الكتاب (١٠) حديث « إن فى ظل العرش يوم لاظل إلا ظله رجلا تصدق بيمينه فكاد أن يخفيها عن شماله » متفق عليه من حديث أبي هريرة بنحوه فى حديث « سبعة يظلهم الله فى ظله » (١١) حديث : تفضيل عمل السر على عمل الجهر بسبعين ، ضعفه البيهقى فى الشعب من حديث أبى الدرداء « إن الرجل ليعمل العمل فيكتب له عمل صالح معمول به فى السر يضعف أجره سبعين ضعفا » قال البيهقى هذا من أفراد بقية عن شيوخه المجهولين ، وروى ابن أبي الدنيا فى كتاب الإخلاص من حديث عائشة بسند ضعيف « يفضل الذكر الخفى الذى لاتسمعه الحفظة على الذكر الذى تسمعه الحفظة سبعين درجة »

(١٢) حديث « إن المرائى ينادى يوم القيامة يافاجر ياغادر يامرائى ضل عملك وحبط أجرك .... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا من رواية جبلة اليحصبى عن صحابى لم يسم وزاد « ياكافر ياخاسر » ولم يقل « يامرائى » وإسناده ضعيف .

قال « إنى تخوفت على أمتى الشرك أما إنهم لا يعبدون صنما ولا شمسا ولا قمراً ولا حجراً ولكنهم يراءون بأعمالهم [١] » وقال صلى الله عليه وسلم « لما خلق الله الأرض مادت بأهلها فخلق الجبال فصيرها أوتاداً للأرض ، فقالت الملائكة : ماخلق ربنا خلقا هو أشد من الجبال ، فخلق الله الحديد فقطع الجبال ، ثم خلق النار فأذابت الحديد ، ثم أمر الله الماء بإطفاء النار ، وأمر الريح فكدرت الماء ، فاختلفت الملائكة فقالت : نسأل الله تعالى ، قالوا : يارب ما أشد ماخلقت من خلقك ؟ قال الله تعالى لم أخلق خلقاهو أشد على من قلب ابن آدم حين يتصدق بصدقة بيمينه فيخفيها عن شماله فهذا أشد خلقا خلقه [٢] » وروى عبد الله بن المبارك بإسناده عن رجل أنه قال لمعاذ بن جبل : حدثنى حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فبكى معاذ حتى ظننت أنه لا يسكت ثم سكت ثم قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم قال لى « يامعاذ » قلت لبيك بأبى أنت وأمى يارسول الله قال « إنى محدثك حديثا إن أنت حفظته نفعك وإن أنت ضيعته ولم تحفظه انقطعت حجتك عند الله يوم القيامة ، يامعاذ إن الله تعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والأرض ، ثم خلق السموات فجعل لكل سماء من السبعة ملكا بوابا عليها قد جللها عظما فتصعد الحفظة بعمل العبد من حين أصبح إلى حين أمسى ، له نور كنور الشمس ، حتى إذا صعدت به إلى السماء الدنيا زكته فكثرته فيقول الملك للحفظة : اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه ، أنا صاحب الغيبة أمرنى ربى أن لا أدع عمل من اغتاب الناس يجاوزنى إلى غيرى ، قال » ثم تأتى الحفظة بعمل صالح من أعمال العبد فتمر به فتزكيه وتكثره حتى تبلغ به إلى السماء الثانية فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إنه أراد بعمله هذا عرض الدنيا أمرنى ربى أن لا أدع عمله يجاوزنى إلى غيرى إنه كان يفتخر به على الناس فى مجالسهم ، قال « وتصعد الحفظة بعمل يبتهج نورا من صدقة وصيام وصلاة قد أعجب الحفظة فيجاوزون به إلى السماء الثالثة فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بها العمل وجه صاحبه ، أنا ملك الكبر أمرنى ربى أن لا أدع عمله يجاوزنى إلى غيرى إنه كان يتكبر على الناس فى مجالسهم ، قال « وتصعد الحفظة بعمل العبد يزهر كما يزهر الكوكب الدرى له دوى من تسبيح وصلاة وحج وعمرة حتى يجاوزوا به السماء الرابعة فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه اضربوا به ظهره وبطنه ، أنا صاحب العجب أمرنى ربى أن لا أدع عمله يجاوزنى إلى غيرى إنه كان إذا عمل عملا أدخل العجب فى عمله ، قال « وتصعد الحفظة بعمل العبد حتى يجاوزوا به السماء الخامسة كأنه العروس المزفوفة إلى أهلها فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه واحملوه على عاتقه أنا ملك الحسد إنه كان يحسد الناس من يتعلم ويعمل بمثل عمله وكل من كان يأخذ فضلا من العبادة يحسدهم ويقع فيهم أمرنى ربى أن لا أدع عمله يجاوزنى إلى غيرى ، قال « وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وحج وعمرة وصيام فيجاوزون بها إلى السماء السادسة فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إنه كان لا يرحم إنسانا قط من عباد الله أصابه بلاء أو ضر أضر به بل كان يشمت به ، أنا ملك الرحمة أمرنى ربى أن لا أدع عمله يجاوزنى إلى غيرى ، قال « وتصعد الحفظة بعمل العبد إلى السماء السابعة من صوم وصلاة ونفقة وزكاة واجتهاد وورع له دوى كدوى الرعد وضوء كضوء الشمس معه ثلاثة آلاف ملك فيجاوزون به إلى السماء السابعة فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل

---

(١) حديث شداد بن أوس « إنى تخوفت على أمتى الشرك ... الحديث » أخرجه ابن ماجه والحاكم نحوه وقد تقدم قريبا

(٢) حديث « لما خلق الله الأرض مادت بأهلها . الحديث » وفيه « لم أخلق خلقاً هو أشد من ابن آدم يتصدق بيمينه فيخفيها عن شماله » أخرجه الترمذى من حديث أنس مع اختلاف وقال غريب .

وجه صاحبه ، اضربوا به جوارحه اقفلوا به على قلبه إنى أحجب عن ربى كل عمل لم يرد به وجه ربى إنه أراد بعمله غير الله تعالى ، إنه أراد رفعة عند الفقهاء وذكرا عند العلماء وصيتا فى المدائن ، أمرنى ربى أن لاأدع عمله يجاوزنى إلى غيرى ، وكل عمل لم يكن لله خالصا فهو رياء ولايقبل الله عمل المرائى ، قال « وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وصيام وحج وعمرة وخلق حسن وصمت وذكر لله تعالى وتشيعه ملائكة السموات حتى يقطعوا به الحجب كلها إلى الله عزوجل فيقفون بين يديه ويشهدون له بالعمل الصالح المخلص لله ، قال « فيقول الله لهم أنتم الحفظة على عمل عبدى وأنا الرقيب على نفسه إنه لم يردنى بهذا العمل وأراد به غيرى فعليه لعنتى ، فتقول الملائكة كلهم : عليه لعنتك ولعنتنا ، وتقول السماوات كلها : عليه لعنة الله ولعنتنا وتلعنه السماوات السبع والأرض ومن فيهن ، قال معاذ : قلت يارسول الله أنت رسول الله وأنا معاذ قال « اقتدبى وإن كان فى عملك نقص ، يامعاذ حافظ على لسانك من الوقيعة فى إخوانك من حملة القرآن واحمل ذنوبك عليك ولاتحملها عليهم ولاتزك نفسك بذمهم ولاترفع نفسك عليهم ولاتدخل عمل الدنيا فى عمل الآخرة ولاتتكبر فى مجلسك لكى يحذر الناس من سوء خلقك ، ولاتناج رجلا وعندك آخر ، ولا تتعظم على الناس فينقطع عنك خير الدنيا ، ولاتمزق الناس فتمزقك كلاب النار يوم القيامة فى النار قال الله تعالى ﴿ والناشطات نشطا ﴾ أتدرى من هن يامعاذ ؟ قلت : ماهن بأبى أنت وأمى يارسول الله؟ قال « كلاب فى النار تنشط اللحم والعظم ، قلت : بأبى أنت وأمى يارسول الله فمن يطيق هذه الخصال ومن ينجو منها ؟ قال « يامعاذ إنه ليسير على من يسره الله عليه [1] » قال فما رأيت أكثر تلاوة للقرآن من معاذ للحذر مما فى هذا الحديث .

وأما الآثار : فيروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى رجلا يطأطىء رقبته فقال : ياصاحب الرقبة ارفع رقبتك ليس الخشوع فى الرقاب إنما الخشوع فى القلوب ورأى أبو أمامة الباهلى رجلا فى المسجد يبكى فى سجوده فقال : أنت أنت لوكان هذا فى بيتك . وقال على كرم الله وجهه : للمرائى ثلاث علامات ، يكسل إذا كان وحده وينشط إذا كان فى الناس ويزيد فى العمل إذا أثنى عليه وينقص إذا ذم . وقال رجل لعبادة بن الصامت : أقاتل بسيفى فى سبيل الله أريد به وجه الله تعالى ومحمدة الناس ، قال : لاشىء لك ، فسأله ثلاث مرات كل ذلك يقول : لاشىء لك ، ثم قال فى الثالثة : إن الله يقول أنا أغنى الأغنياء عن الشرك ... الحديث . وسأل رجل سعيد بن المسيب فقال : إن أحدنا يصطنع المعروف يحب أن يحمد ويؤجر ، فقال له : اتحب أن تمقت ؟ قال : لا ، قال : فإذا عملت لله عملا فأخلصه . وقال الضحاك . لايقولن أحدكم هذا لوجه الله ولوجهك ولايقولن هذا لله وللرحم ، فإن الله تعالى لاشريك له . وضرب عمر رجلا بالدرة ثم قال له : اقتص منى ! فقال : لابل أدعها لله ولك . فقال له عمر : ماصنعت شيئا إما أن تدعها لى فأعرف ذلك أو تدعها لله وحده ، فقال : ودعتها لله وحده ، فقال : فنعم إذن . وقال الحسن : لقد صحبت أقواما إن كان أحدهم لتعرض له الحكمة لو نطق بها لنفعته ونفعت أصحابه وما يمنعه منها إلا مخافة الشهرة وإن كان أحدهم ليمر فيرى الأذى فى الطريق فما يمنعه أن ينحيه إلا مخافة الشهرة ويقال : إن المرائى ينادى يوم القيامة بأربعة أسماء : يامرائى ياغادر ياخاسر يافاجر اذهب فخذ أجرك ممن عملت له فلا أجر لك عندنا . وقال الفضيل بن عياض : كانوا يراءون بما يعملون وصاروا اليوم يراءون

---

(١) حديث معاذ الطويل « إن الله تعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والأرض فجعل لكل سماء من السبعة ملكا بوابا عليها ... الحديث بطوله فى صعود الحفظة بعمل العبد ورد الملائكة له من كل سماء ورد الله تعالى له بعد ذلك عزاه المصنف إلى رواية عبد الله بن المبارك بإسناده عن رجل عن معاذ وهو كما قال رواه فى الزهد وفى إسناده كما ذكر من لم يسم ، ورواه ابن الجوزى فى الموضوعات .

بما لا يعملون . وقال عكرمة : إن الله يعطى العبد على نيته مالا يعطيه على عمله لأنّ النية لارياء فيها . وقال الحسن رضى الله عنه : المرائى يريد أن يغلب قدر الله تعالى وهو رجل سوء يريد أن يقول الناس هو رجل صالح ، وكيف يقولون وقد حل من ربه محل الأردياء ؟ فلا بدّ لقلوب المؤمنين أن تعرفه . وقال قتادة : إذا راءى العبد يقول الله تعالى انظروا إلى عبدى يستهزئ بى . وقال مالك بن دينار القرّاء : ثلاثة قرّاء الرحمن وقرّاء الدنيا وقرّاء الملوك ، وأن محمد بن واسع من قرّاء الرحمن . وقال الفضل : من أراد أن ينظر إلى مراء فلينظر إلى . وقال محمد بن المبارك الصورى : أظهر السمت بالليل فإنه أشرف من سمتك بالنهار لأنّ السمت بالنهار للمخلوقين وسمت الليل لرب العالمين. وقال أبو سليمان : التوقى عن العمل أشد من العمل . وقال ابن المبارك : إن كان الرجل ليطوف بالبيت وهو بخراسان ، فقيل له وكيف ذاك ؟ قال يحب أن لايذكر أنه مجاور بمكة . وقال إبراهيم بن أدهم : ماصدق الله من أراد أن يشتهر .

بيان حقيقة الرياء وما يراءى به

اعلم أن الرياء مشتق من الرؤية ، والسمعة مشتقة من السماع ، وإنما الرياء أصله طلب المنزلة فى قلوب الناس بإيرائهم خصال الخير إلا أنّ الجاه والمنزلة تطلب فى القلب بأعمال سوى العبادات وتطلب بالعبادات . واسم الرياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة فى القلوب بالعبادة وإظهارها فحد الرياء هو إرادة العباد بطاعة الله ، فالمرائى هو العابد والمراءى هو الناس المطلوب رؤيتهم بطلب المنزلة فى قلوبهم ، والمراءى به هو الخصال التى قصد المرائى إظهارها ، والرياء هو قصده إظهار ذلك ، والمراءى به كثير وتجمعه خمسة أقسام وهى مجامع ما يتزين به العبد للناس وهو : البدن ، والزى والقول ، والعمل ، والأتباع والأشياء الخارجة . وكذلك أهل الدنيا يراءون بهذه الأسباب الخمسة إلا أنّ طلب الجاه وقصد الرياء بأعمال ليست من جملة الطاعات أهون من الرياء بالطاعات .

(القسم الأول) الرياء فى الدين بالبدن : وذلك بإظهار النحول والصفار ليوهم بذلك شدّة الاجتهاد وعظم الحزن على أمر الدين وغلبة خوف الآخرة ، وليدل بالنحول على قلة الأكل وبالصفار على سهر الليل وكثرة الاجتهاد وعظم الحزن على الدين ، وكذلك يرائى بتشعيث الشعر ليدل به على استغراق الهم بالدين وعدم التفرغ لتسريح الشعر . وهذه الأسباب مهما ظهرت استدل الناس بها على هذه الأمور فارتاحت النفس لمعرفتهم ، فلذلك تدعوه النفس إلى إظهارها لنيل تلك الراحة . ويقرب من هذا خفض الصوت وإغارة العينين وذبول الشفتين ، ليستدل بذلك على أنه مواظب على الصوم ، وأنّ وقار الشرع هو الذى خفض من صوته أوضعف الجوع هو الذى ضعف من قوته . وعن هذا قال المسيح عليه السلام : إذا صام أحدكم فليدهن رأسه ويرجل شعره ويكحل عينيه. وكذلك روى عن أبى هريرة وذلك كله لما يخاف عليه من نزغ الشيطان بالرياء ؛ ولذلك قال ابن مسعود أصبحوا صياما مدهنين . فهذه مراءاة أهل الدين بالبدن .

فأما أهل الدنيا فيراءون بإظهار السمن وصفاء اللون واعتدال القامة وحسن الوجه ونظافة البدن وقوة الأعضاء وتناسبها .

(الثانى) الرياء بالهيئة والزى : أما الهيئة فبتشعيث شعر الرأس وحلق الشارب وإطراق الرأس فى المشى والهدوء فى الحركة وإبقاء أثر السجود على الوجه وغلظ الثياب ولبس الصوف وتشميرها إلى قريب من الساق وتقصير الأكمام وترك تنظيف الثوب وتركه مخرقا ، كل ذلك يرائى به ليظهر من نفسه أنه متبع للسنة فيه ومقتد فيه بعباد الله

الصالحين ، ومن ذلك لبس المرقعة والصلاة على السجادة ولبس الثياب الزرق تشبها بالصوفية مع الإفلاس من حقائق التصوف فى الباطن . ومنه التقنع بالإزار فوق العمامة وإسبال الرداء على العينين ليرى به أنه قد انتهى تقشفه إلى الحذر من غبار الطريق ، ولتنصرف إليه الأعين بسبب تميزه بتلك العلامة . ومنه الدراعة والطيلسان يلبسه من هو خال عن العلم ليوهم أنه من أهل العلم .

والمراءون بالزى على طبقات : فنهم من يطلب المنزلة عند أهل الصلاح بإظهار الزهد فيلبس الثياب المخرقة الوسخة القصيرة الغليظة ليرائى بغلظها ووسخها وقصرها وتخرقها أنه غير مكترث بالدنيا ، ولو كلف أن يلبس ثوبا وسطا نظيفاً مما كان السلف يلبسه لكان عنده بمنزلة الذبح ، وذلك لخوفه أن يقول الناس قد بدا له من الزهد ورجع عن تلك الطريقة ورغب فى الدنيا . وطبقة أخرى يطلبون القبول عند أهل الصلاح وعند أهل الدنيا من الملوك والوزراء والتجار ، ولو لبسوا الثياب الفاخرة ردهم القراء ولو لبسوا الثياب المخرقة البذله أزدرتهم أعين الملوك والأغنياء ، فهم يريدون الجمع بين قبول أهل الدين والدنيا ، فلذلك يطلبون الأصواف الدقيقة والأكسية الرقيقة والمرقعات المصبوغة والفوط الرفيعة فيلبسونها ، ولعل قيمة ثوب أحد الأغنياء ولونه وهيأته لون ثياب الصلحاء فيلتمسون القبول عند الفريقين ، وهؤلاء إن كلفوا لبس ثوب خشن أو وسخ لكان عندهم كالذبح خوفا من السقوط من أعين الملوك والأغنياء ، ولو كلفوا لبس الدبيقى والكتان الدقيق الأبيض والمقصب المعلم ـ وإن كانت قيمته دون قيمة ثيابهم ـ لعظم ذلك عليهم خوفا من أن يقول أهل الصلاح قد رغبوا فى زى أهل الدنيا . وكل طبقة منهم رأى منزلته فى زى مخصوص فيثقل عليه الانتقال إلى مادونه أو إلى مافوقه وإن كان مباحا خيفة من المذمة .

وأما أهل الدنيا فمراءاتهم بالثياب النفيسة والمراكب الرفيعة وأنواع التوسع والتجمل فى الملبس والمسكن وأثاث البيت وفره الخيول وبالثياب المصبغة والطيالسة النفيسة ، وذلك ظاهر بين الناس فإنهم يلبسون فى بيوتهم الثياب الخشنة ويشتد عليهم لو برزوا للناس على تلك الهيئة مالم يبالغوا فى الزينة .

(الثالث) الرياء بالقول : ورياء أهل الدين بالوعظ والتذكير والنطق بالحكمة وحفظ الأخبار والآثار ، لأجل الاستعمال فى المحاورة وإظهاراً لغزارة العلم ودلالة على شدة العناية بأحوال السلف الصالحين ، وتحريك الشفتين بالذكر فى محضر الناس والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بمشهد الخلق ، وإظهار الغضب للمنكرات وإظهار الأسف على مقارفة الناس المعاصى وتضعيف الصوت فى الكلام وترقيق الصوت بقراءة القرآن ، ليدل بذلك على الخوف والحزن ، وادعاء حفظ الحديث ولقاء الشيوخ والدق على من يروى الحديث ببيان خلل فى لفظه ليعرف أنه بصير بالأحاديث والمبادرة إلى أن الحديث صحيح أو غير صحيح لإظهار الفضل فيه ، والمجادلة على قصد إفحام الخصم ليظهر للناس قوته علم الدين . والرياء بالقول كثير وأنواعه لاتنحصر .

وأما أهل الدنيا فمراءاتهم بالقول بحفظ الأشعار والأمثال والتفاصح فى العبارات وحفظ النحو الغريب للأغراب على أهل الفضل وإظهار التودد إلى الناس لاستمالة القلوب .

(الرابع) الرياء بالعمل : كمراءاة المصلى بطول القيام ومد الظهر وطول السجود والركوع وإطراق الرأس وترك الالتفات وإظهار الهدوء والسكون وتسوية القدمين واليدين ، وكذلك بالصوم والغزو والحج وبالصدقة وبإطعام الطعام ، وبالإخبات فى المشى عند اللقاء كإرخاء الجفون وتنكيس الرأس والوقار فى الكلام ، حتى إن المرائى قد يسرع فى المشى إلى حاجته فإذا اطلع عليه أحد من أهل الدين رجع إلى الوقار وإطراق الرأس خوفا من

أن ينسبه إلى العجلة وقلة الوقار ، فإن غاب الرجل عاد إلى عجلته ، فإذا رآه عاد إلى خشوعه ولم يحضره ذكر الله حتى يكون يجدد الخشوع له ، بل هو لاطلاع إنسان عليه يخشى أن لا يعتقد فيه أنه من العباد والصلحاء ، ومنهم من إذا سمع هذا استحيا من أن تخالف مشيته في الخلوة مشيته بمرأى من الناس ، فيكلف نفسه المشية الحسنة في الخلوة حتى إذا رآه الناس لم يفتقر إلى التغيير ويظن أنه يتخلص به عن الرياء وقد تضاعف به رياؤه ، فإنه صار في خلوته أيضاً مرائياً ، فإنه إنما يحسن مشيته في الخلوة ليكون كذلك في الملأ لا لخوف من الله وحياء منه .

وأما أهل الدنيا فمراءاتهم بالتبختر والاختيال وتحريك اليدين وتقريب الخطا والأخذ بأطراف الذيل وإدارة العطفين ليدلوا بذلك على الجاه والحشمة .

(الخامس) المراءاة بالأصحاب والزائرين والمخالطين : كالذي يتكلف أن يستزير عالماً من العلماء ليقال إن فلاناً قد زار فلاناً ، أو عابداً من العباد ليقال إن أهل الدين يتبركون بزيارته ويترددون إليه ، أو ملكاً من الملوك أو عاملاً من عمال السلطان ليقال إنهم يتبركون به لعظم رتبته في الدين . وكالذي يكثر ذكر الشيوخ ليرى أنه لقي شيوخاً كثيرة واستفاد منهم فيباهي بشيوخه ومباهاته ومراءاته تترشح منه عند مخاصمته ، فيقول لغيره : من لقيت من الشيوخ وأنا قد لقيت فلاناً وفلاناً ودرت البلاد وخدمت الشيوخ ؟ وما يجري مجراه . فهذه مجامع ما يرائي به المراءون وكلهم يطلبون بذلك الجاه والمنزلة في قلوب العباد . ومنهم من يقنع بحسن الاعتقادات فيه فكم من راهب انزوى إلى ديره سنين كثيرة ؟ وكم من عابد اعتزل إلى قلة جبل مدة مديدة ، وإنما خبأته من حيث علمه بقيام جاهه في قلوب الخلق ولو عرف أنهم نسبوه إلى جريمة في ديره أو صومعته لتشوش قلبه ولم يقنع بعلم الله ببراءة ساحته ، بل يشتد لذلك غمه ويسعى بكل حيلة في إزالة ذلك من قلوبهم ، مع أنه قد قطع طمعه من أموالهم ولكنه يحب مجرد الجاه - فإنه لذيذ كما ذكرناه في أسبابه - فإنه نوع قدرة وكمال في الحال وإن كان سريع الزوال لا يغتر به إلا الجهال ولكن أكثر الناس جهال ، ومن المرائين من لا يقنع بقيام منزلته بل يلتمس من ذلك إطلاق اللسان بالثناء والحمد . ومنهم من يريد انتشار الصيت في البلاد لتكثر الرحلة إليه . ومنهم من يريد الاشتهار عند الملوك لتقبل شفاعته وتنجز الحوائج على يده فيقوم له بذلك جاه عند العامة ، ومنهم من يقصد التوصل بذلك إلى جمع حطام وكسب مال ولو من الأوقاف وأموال اليتامى وغير ذلك من الحرام ، وهؤلاء شر طبقات المرائين الذين يراءون بالأسباب التي ذكرناها . فهذه حقيقة الرياء وما به يقع الرياء .

فإن قلت : فالرياء حرام أو مكروه أو مباح أو فيه تفصيل ؟ فأقول فيه تفصيل فإن الرياء هو طلب الجاه ، وهو إما أن يكون بالعبادات أو بغير العبادات ، فإن كان بغير العبادات فهو كطلب المال فلا يحرم من حيث إنه طلب منزلة في قلوب العباد ، ولكن كما يمكن كسب المال بتلبيسات وأسباب محظورات فكذلك الجاه ، وكما أن كسب قليل من المال هو ما يحتاج إليه الإنسان محمود فكسب قليل من الجاه وهو ما يسلم به عن الآفات أيضاً محمود ، وهو الذي طلبه يوسف عليه السلام حيث قال ﴿ إني حفيظ عليم ﴾ وكما أن المال فيه سم ناقع ودرياق نافع فكذلك الجاه ، وكما أن كثير المال يلهي ويطغي وينسي ذكر الله والدار الآخرة فكذلك كثير الجاه بل أشد ، وفتنة الجاه أعظم من فتنة المال ، وكما أنا نقول تملك المال الكثير حرام فلا نقول أيضاً تملك القلوب الكثيرة حرام إلا إذا حملته كثرة المال وكثرة الجاه على مباشرة ما لا يجوز . نعم انصراف الهم إلى سعة الجاه مبدأ الشرور كانصراف الهم إلى كثرة المال ، ولا يقدر محب الجاه والمال على ترك معاصي القلب واللسان وغيرها ، وأما سعة

الجاه من غير حرص منك على طلبه ومن غير اغتمام بزواله إن زال فلا ضرر فيه ، فلا جاه أوسع من جاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاه الخلفاء الراشدين ومن بعدهم من علماء الدين ، ولكن انصراف الهم إلى طلب الجاه نقصان فى الدين ولا يوصف بالتحريم ، فعلى هذا نقول : تحسين الثوب الذى يلبسه الإنسان عند الخروج إلى الناس مراءاة وهو ليس بحرام لأنه ليس رياء بالعبادة بل بالدنيا ، وقس على هذا كل تجمل للناس وتزين لهم . والدليل عليه ماروى عن عائشة رضى الله عنها : أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يخرج يوما إلى الصحابة فكان ينظر فى جب الماء ويسوى عمامته وشعره فقالت : أو تفعل ذلك يارسول الله ؟ قال « نعم إنّ الله تعالى يحب من العبد أن يتزين لإخوانه إذا خرج إليهم (١) » نعم هذا كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم عبادة لأنه كان مأمورا بدعوة الخلق وترغيبهم فى الاتباع واستمالة قلوبهم ، ولو سقط من أعينهم لم يرغبوا فى اتباعه ، فكان يجب عليه أن يظهر لهم محاسن أحواله لئلا تزدريه أعينهم ، فإنّ أعين عوام الخلق تمتد إلى الظواهر دون السرائر ، فكان ذلك قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن لو قصد قاصد به أن يحسن نفسه فى أعينهم حذرا من ذمهم ولومهم واستروحا إلى توقيرهم واحترامهم كان قد قصد أمرا مباحا ، إذ للإنسان أن يحترز من ألم المذمة ويطلب راحة الأنس بالإخوان . ومهما استثقلوه واستقذروه لم يأنس بهم .

فإذن المراءاة بما ليس من العبادات قد تكون مباحة ، وقد تكون طاعة ، وقد تكون مذمومة ، وذلك بحسب الغرض المطلوب بها . ولذلك نقول : الرجل إذا أنفق ماله على جماعة من الأغنياء لا فى معرض العبادة والصدقة ولكن ليعتقد الناس أنه سخى فهذا مراءاة وليس بحرام وكذلك أمثاله .

أما العبادت كالصدقة والصلاة والصيام والغزو والحج فللمرائى فيه حالتان إحداهما : أن لايكون له قصد إلا الرياء المحض دون الأجر ، وهذا يبطل عبادته لأنّ الأعمال بالنيات ، وهذا ليس بقصد العبادة ، لايقتصر ، على إحباط عبادته حتى نقول صار كما كان قبل العبادة بل يعصى بذلك ويأثم كما دلت عليه الأخبار والآيات .

والمعنى فيه أمران (أحدهما) يتعلق بالعباد وهو التلبيس والمكر لأنه خيل إليهم أنه مخلص مطيع لله وأنه من اهل الدين وليس كذلك ، والتلبيس فى أمر الدنيا حرام أيضاً ، حتى لو قضى دين جماعة وخيل للناس أنه متبرع عليهم ليعتقدوا سخاوته أثم به لما فيه من التلبيس وتملك القلوب بالخداع والمكر . (والثانى) يتعلق بالله وهو أنه مهما قصد بعبادة الله تعالى خلق الله فهو مستهزئ بالله . ولذلك قال قتادة : إذاراءى العبد قال الله لملائكته انظروا إليه كيف يستهزئ بى .

ومثاله أن يتمثل بين يدى ملك من الملوك طول النهار كما جرت عادة الخدم وإنما وقوفه لملاحظة جارية من من جوارى الملك أو غلام من غلمانه ، فإن هذا استهزاء بالملك إذ لم يقصد التقريب إلى الملك بخدمته بل قصد بذلك عبدا من عبيده ، فأى استحقار يزيد على أن يقصد العبد بطاعة الله تعالى مراءاة عبد ضعيف لايملك له ضرا ولانفعا ؟ وهل ذلك إلا لأنه يظن أن ذلك العبد أقدر على تحصيل أغراضه من الله ؟ وأنه أولى بالتقريب إليه من الله إذ آثره على ملك الملوك فجعله مقصود عبادته ؟ وأى استهزاء يزيد على رفع العبد فوق المولى ؟ فهذا من كبائر المهلكات ولهذا

(١) حديث عائشة : أراد أن يخرج على أصحابه وكان ينظر فى جب الماء ويسوى عمامته وشعره ... الحديث أخرجه ابن عدى فى الكامل وقد تقدم فى الطهارة .

سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك الأصغر [1] .

نعم بعض درجات الرياء أشد من بعض ـ كما سيأتى بيانه فى درجات الرياء إن شاء الله تعالى ـ ولايخلو شىءمنه عن إثم غليظ أو خفيف بحسب ما به المراءاة ولولم يكن فى الرياء إلا أنه يسجد ويركع لغير الله لكان فيه كفاية ، فإنه وإن لم يقصد التقرب إلى الله فقد قصد غير الله ، ولعمرى لو عظم غير الله بالسجود لكفر كفرا جليا، إلا أن الرياء هو الكفر الخفى لأن المرائى عظم فى قلبه الناس ، فاقتضت تلك العظمة أن يسجد ويركع فكان الناس هم المعظمون بالسجود من وجه ، ومهما زال قصد تعظيم الله بالسجود وبقى تعظيم الخلق كان ذلك قريبا من الشرك، إلا أنه قصد تعظيم نفسه فى قلب من عظم عنده بإظهاره من نفسه صورة التعظيم لله ، فعن هذا كان شركا خفيا لا شركا جليا ، وذلك غاية الجهل ولايقدم عليه إلا من خدعه الشيطان وأوهم عنده أن العباد يملكون من ضره ونفعه ورزقه وأجله ومصالح حاله ومآله أكثر مما يملكه الله تعالى ، فلذلك عدل بوجهه عن الله إليهم وأقبل بقلبه عليهم ليستميل بذلك قلوبهم ، ولو وكله الله تعالى إليهم فى الدنيا والآخرة لكان ذلك أقل مكافأة له على صنيعه ، فإن العباد كلهم عاجزون عن أنفسهم لايملكون لأنفسهم نفعاً ولاضرا فكيف يملكون لغيرهم هذا فى الدنيا ؟ فكيف فى يوم لايجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً بل تقول الأنبياء فيه نفسى نفسى ؟ فكيف يستبدل الجاهل عن ثواب الآخرة ونيل القرب عند الله مايرتقبه بطمعه الكاذب فى الدنيا من الناس ؟ فلا ينبغى أن نشك فى أن المرائى بطاعة الله فى سخط الله من حيث النقل والقياس جميعا هذا إذا لم يقصد الأجر فأما إذا قصد الأجر والحمد جميعا فى صدقته أو صلاته فهو الشرك الذى يناقض الإخلاص . وقد ذكرنا حكمه فى كتاب الإخلاص ، ويدل على مانقلناه من الآثار قول سعيد بن المسيب وعبادة بن الصامت : إنه لا أجر له فيه أصلا .

بيان درجات الرياء

اعلم أن بعض أبواب الرياء أشد وأغلظ من بعض ، واختلافه باختلاف أركانه وتفاوت الدرجات فيه . وأركانه ثلاثة : المراءى به والمراءى لأجله ونفس قصد الرياء .

الركن الأول : نفس قصد الرياء وذلك لايخلو إما أن يكون مجرداً دون إرادة عبادة الله تعالى والثواب ، وإما أن يكون مع إرادة الثواب ، فإن كان كذلك فلا يخلو إما أن تكون إرادة الثواب أقوى وأغلب أو أضعف أو مساوية لإرادة العبادة فتكون الدرجات أربعاً :

(الأولى) وهى أغلظها أن لايكون مراده الثواب أصلا ، كالذى يصلى بين أظهر الناس ولو انفرد لكان لايصلى ، بل ربما يصلى من غير طهارة مع الناس ، فهذا جرد قصده إلى الرياء فهو الممقوت عند الله تعالى . وكذلك من يخرج الصدقة خوفا من مذمة الناس وهو لايقصد الثواب ولا خلا بنفسه لما أداها فهذه الدرجة العليا من الرياء .

(الثانية) أن يكون له قصد الثواب أيضا ولكن قصدا ضعيفاً ، بحيث لو كان فى الخلوة لكان لايفعله ، ولا يحمله ذلك القصد على العمل ، ولو لم يكن قصد الثواب لكان الرياء يحمله على العمل ، فهذا قريب مما قبله

---

(١) حديث : سمى الرياء الشرك الأصغر . أخرجه أحمد من حديث محمود بن لبيد وقد تقدم ورواه الطبرانى من رواية محمود بن لبيد عن رافع بن خديج لجعله فى مسند رافع وتقدم قريبا والحاكم وصحح إسناده من حديث شداد بن أوس : كنا نعد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الرياء الشرك الأصغر .

وما فيه من شائبة قصد ثواب لايستقل بحمله على العمل لاينفى عنه المقت والإثم .

(الثالثة) أن يكون له قصد الثواب وقصد الرياء متساويين ، بحيث لو كان كل واحد منهما خاليا عن الآخر لم يبعثه على العمل فلما اجتمعا انبعثت الرغبة ، أو كان كل واحد منهما لو انفرد لاستقل بحمله على العمل ؛ فهذا قد أفسد مثل ما أصلح فنرجو أن يسلم رأسا برأس لا له ولا عليه ، أو يكون له من الثواب مثل ما عليه من العقاب وظواهر الأخبار تدل على أنه لايسلم ، وقد تكلمنا عليه فى كتاب الإخلاص .

(الرابعة) أن يكون إطلاع الناس مرجحا ومقويا لنشاطه ولو لم يكن لكان لايترك العبادة ولو كان قصد الرياء وحده لما أقدم عليه فالذى نظنه والعلم عند الله أنه لايحبط أصل الثواب ولكنه ينقص منه أو يعاقب على مقدار قصد الرياء ويثاب على مقدار قصد الثواب وأما قوله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى أنا أغنى الأغنياء عن الشرك » فهو محمول على ما إذا تساوى القصدان أو كان قصد الرياء أرجح .

الركن الثانى : المراءى به وهو الطاعات وذلك ينقسم إلى الرياء بأصول العبادات وإلى الرياء بأوصافها .

القسم الأول وهو الأغلظ : الرياء بالأصول وهو على ثلاث درجات .

(الأولى) الرياء بأصل الإيمان وهذا أغلظ أبواب الرياء وصاحبه مخلد فى النار ، وهو الذى يظهر كلمتى الشهادة وباطنه مشحون بالتكذيب ولكنه يرائى بظاهر الإسلام ، وهو الذى ذكره الله تعالى فى كتابه فى مواضع شتى كقوله عز وجل ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ أى فى دلالتهم بقولهم على ضمائرهم وقال تعالى ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على مافى قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ﴾ الآية وقال تعالى ﴿ وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾ وقال تعالى ﴿ يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا مذبذبين بين ذلك ﴾ والآيات فيهم كثيرة . وكان النفاق يكثر فى ابتداء الإسلام ممن يدخل فى ظاهر الإسلام ابتداء لغرض ، وذلك مما يقل فى زماننا ، ولكن يكثر نفاق من ينسل عن الدين باطنا فيجحد الجنة والنار والدار الآخرة ميلا إلى قول الملحدة ، أو يعتقد طى بساط الشرع والأحكام ميلا إلى أهل الإباحة ، أو يعتقد كفراً أو بدعة وهو يظهر خلافه ، فهؤلاء من المنافقين والمرائين المخلدين فى النار ، وليس وراء هذا الرياء رياء ، وحال هؤلاء أشد حالا من الكفار المجاهرين ، فإنهم جمعوا بين كفر الباطن ونفاق الظاهر .

(الثانية) الرياء بأصول العبادات مع التصديق بأصل الدين ، وهذا أيضا عظيم عند الله ولكنه دون الأول بكثير . ومثاله : أن يكون مال الرجل فى يد غيره فيأمره بإخراج الزكاة خوفا من ذمه ، والله يعلم منه أنه لو كان فى يده لما أخرجها ، أو يدخل وقت الصلاة وهو فى جمع وعادته ترك الصلاة فى الخلوة ، وكذلك يصوم رمضان وهو يشتهى خلوة من الخلق ليفطر ، وكذلك يحضر الجمعة ولولا خوف المذمة لكان لايحضرها ، أو يصل رحمه أو يبر والديه لاعن رغبة ولكن خوفا من الناس ، أو يغزو أو يحج كذلك . فهذا مراء معه أصل الإيمان بالله يعتقد أنه لامعبود سواه ، ولو كلف أن يعبد غير الله أو يسجد لغيره لم يفعل ، ولكنه يترك العبادات للكسل وينشط عند إطلاع الناس فتكون منزلته عند الخلق أحب إليه من منزلته عند الخالق ، وخوفه من مذمة الناس أعظم من خوفه من عقاب الله ، ورغبته فى محمدتهم أشد من رغبته فى ثواب الله ، وهذا غاية الجهل وما أجدر صاحبه بالمقت وإن كان غير منسل عن أصل الإيمان من حيث الاعتقاد .

(الثالثة) أن لايرائى بالإيمان ولا بالفرائض ، ولكنه يرائى بالنوافل والسنن التى لو تركها لايعصى ، ولكنه يكسل عنها فى الخلوة لفتور رغبته فى ثوابها ولإيثار لذة الكسل على مايرجى من الثواب ، ثم يبعثه الرياء على فعلها ، وذلك كحضور الجماعة فى الصلاة وعيادة المريض واتباع الجنازة وغسل الميت ، وكالتهجد بالليل وصيام يوم عرفة وعاشوراء ويوم الاثنين والخميس . فقد يفعل المرائى جملة ذلك خوفا من المذمة أو طلبا للمحمدة ، ويعلم الله تعالى منه أنه لو خلا بنفسه لما زاد على أداء الفرائض . فهذا أيضا عظيم ولكنه دون ماقبله ، فإن الذى قبله آثر حمد الخلق على حمد الخالق . وهذا أيضاقدفعل ذلك واتقى ذمّ الخلق دون ذم الخالق ، فكان ذم الخلق أعظم عنده من عقاب الله ، وأما هذا فلم يفعل ذلك لأنه لم يخف عقابا على ترك النافلة لو تركها ، وكأنه على شطر من الأول وعقابه نصف عقابه . فهذا هو الرياء بأصول العبادات .

القسم الثانى : الرياء بأوصاف العبادات لابأصولها ، وهو أيضاً على ثلاثة درجات .

(الأولى) أن يرائى بفعل مافى تركه نقصان العبادة ، كالذى غرضه أن يخفف الركوع والسجود ولا يطول القراءة ، فإذا رآه الناس أحسن الركوع والسجود وترك الالتفات وتمم القعود بين السجدتين ، وقد قال ابن مسعود من فعل ذلك فهو استهانة يستهين بها ربه عز وجل ؛ أى أنه ليس يبالى باطلاع الله عليه فى الخلوة ، فإذا اطلع عليه آدمى أحسن الصلاة ، ومن جلس بين يدى إنسان متربعا أو متكئا فدخل غلامه فاستوى وأحسن الجلسة كان ذلك منه تقديما للغلام على السيد واستهانة بالسيد لامحالة . وهذا حال المرائى بتحسين الصلاة فى الملا دون الخلوة . وكذلك الذى يعتاد إخراج الزكاة من الدنانير الرديئة أو من الحب الردىء فإذا اطلع عليه غيره أخرجها من الجيد خوفا من مذمته ، وكذلك الصائم يصون صومه عن الغيبة والرفث لأجل الخلق لا إكمالا لعبادة الصوم خوفا من المذمة ، فهذا أيضا من الرياء المحظور لأن فيه تقديما للمخلوقين على الخالق ، ولكنه دون الرياء بأصول التطوعات .

فإن قال المرائى : إنما فعلت ذلك صيانة لألسنتهم عن الغيبة ، فإنهم إذا رأوا تخفيف الركوع والسجود وكثرة الالتفات أطلقوا اللسان بالذم والغيبة ، وإنما قصدت صيانتهم عن هذه المعصية ؟ فيقال له : هذه مكيدة للشيطان عندك وتلبيس ، وليس الأمر كذلك ، فإن ضررك من نقصان صلاتك وهى خدمة منك لمولاك أعظم من ضررك بغيبة غيرك ، فلو كان باعثك الدين لكان شفقتك على نفسك أكثر ، وماأنت فى هذا إلا كمن يهدى وصيفة إلى ملك لينال منه فضلا وولاية يتقلدها ، فيهديها إليه وهى عوراء قبيحة مقطوعة الأطراف ولا يبالى به إذا كان الملك وحده ، وإذا كان عنده بعض غلمانه امتنع خوفا من مذمة غلمانه ؛ وذلك محال بل من يراعى جانب غلام الملك ينبغى أن تكون مراقبته للملك أكثر .

نعم للمرائى فيه حالتان : إحداهما أن يطلب بذلك المنزلة والمحمدة عند الناس وذلك حرام قطعا . والثانية : أن يقول ليس يحضرنى الإخلاص فى تحسين الركوع والسجود ، ولو خففت كانت صلاتى عندهم ناقصة وآذانى الناس بذمهم وغيبتهم ، فأستفيد بتحسين الهيئة دفع مذمتهم ولا أرجو عليه ثوابا ، فهو خير من أن أترك تحسين الصلاة فيفوت الثواب وتحصل المذمة فهذا فيه أدنى نظر . والصحيح أن الواجب عليه أن يحسن ويخلص ، فإن لم تحضره النية فينبغى أن يستمر على عادته فى الخلوة فليس له أن يدفع الذم بالمراءاة بطاعة الله فإن ذلك استهزاء كما سبق .

(الدرجة الثانية) أن يرائى بفعل مالا نقصان فى تركه ولكن فعله فى حكم التكملة والتتمة لعبادته ، كالتطويل فى الركوع والسجود ومد القيام وتحسين الهيئة ورفع اليدين والمبادرة إلى التكبيرة الأولى وتحسين الاعتدال

والزيادة فى القراءة على السور المعتادة ، وكذلك كثرة الخلوة فى صوم رمضان وطول الصمت ، وكاختيار الأجود على الجيد فى الزكاة وإعتاق الرقبة الغالية فى الكفارة . وكل ذلك مما لو خلا بنفسه لكان لا يقدم عليه .

(الثالثة) أن يرائى بزيادات خارجة عن نفس النوافل أيضا كحضوره الجماعة قبل القوم وقصده للصف الأول وتوجهه إلى يمين الإمام وما يجرى مجراه . وكل ذلك مما يعلم الله منه أنه لو خلا بنفسه لكان لا يبالى أين وقف ومتى يحرم بالصلاة ؟ فهذه درجات الرياء بالإضافة إلى مايرائى به وبعضه أشد من بعض . والكل مذموم .

الركن الثالث : المرائى لأجله ، فإن للمرائى مقصودا لامحالة ، وإنما يرائى لإدراك مال أو جاه أو غرض من الأغراض لا محالة ، وله أيضاً ثلاث درجات :

(الأولى) وهى أشدها وأعظمها أن يكون مقصوده التمكن من معصية ، كالذى يرائى بعبادته ويظهر التقوى والورع بكثرة النوافل والامتناع عن أكل الشبهات وغرضه أن يعرف بالأمانة فيولى القضاء أو الأوقاف أو الوصايا أو مال الأيتام فيأخذها أو يسلم إليه تفرقة الزكاة أو الصدقات ليستأثر بما قدر عليه منها ، أو يودع الودائع فيأخذها ويجحدها ، أوتسلم إليه الأموال التى تنفق فى طريق الحج فيختزل بعضها أو كلها ، أو يتوصل بها إلى استتباع الحجيج ويتوصل بقوتهم إلى مقاصدة الفاسدة فى المعاصى . وقد يظهر بعضهم زى التصوف وهيئة الخشوع وكلام الحكمة على سبيل الوعظ والتذكير وإنما قصده التحبب إلى امرأة أو غلام لأجل الفجور ، وقد يحضرون مجالس العلم والتذكير وحلق القرآن يظهرون الرغبة فى سماع العلم والقرآن وغرضهم ملاحظة النساء والصبيان ، أو يخرج إلى الحج ومقصوده الظفر بمن فى الرفقة من امرأة أو غلام . وهؤلاء أبغض المرائين إلى الله تعالى لأنهم جعلوا طاعة ربهم سلما إلى معصيته واتخذوها آلة ومتجرا وبضاعة لهم فى فسقهم ، ويقرب من هؤلاء وإن كان دونهم من هو مقترف جريمة اتهم بها وهو مصر عليها ويريد أن ينفى التهمة عن نفسه فيظهر التقوى لنفى التهمة كالذى جحد وديعة واتهمه الناس بها فيتصدق بالمال ليقال إنه يتصدق بمال نفسه فكيف يستحل مال غيره وكذلك من ينسب إلى فجور بامرأة أو غلام فيدفع التهمه عن نفسه بالخشوع وإظهار التقوى .

(الثانية) أن يكون غرضه نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا من مال أو نكاح امرأة جميلة أو شريفة ، كالذى يظهر الحزن والبكاء ويشتغل بالوعظ والتذكير لتبذل له الأموال ويرغب فى نكاحه النساء ، فيقصد إما امرأة بعينها لينكحها أو امرأة شريفة على الجملة ، وكالذى يرغب أن يتزوج بنت عالم عابد فيظهر له العلم والعبادة ليرغب فى تزويجه ابنته . فهذا رياء محظور لأنه طلب بطاعة الله متاع الحياة الدنيا ولكنه دون الأول ، فإن المطلوب بهذا مباح فى نفسه .

(الثالثة) أن لا يقصد نيل حظ وإدراك مال أو نكاح ، ولكن يظهر عبادته خوفا من أن ينظر إليه بعين النقص ولا يعد من الخاصة والزهاد ويعتقد أنه من جملة العامة كالذى يمشى مستعجلا فيطلع عليه الناس فيحسن المشى ويترك العجلة كيلا يقال إنه من أهل اللهو والسهو لا من أهل الوقار ، وكذلك إن سبق إلى الضحك أو بدا منه المزاح فيخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار فيتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء وإظهار الحزن ، ويقول ما أعظم غفلة الآدمى عن نفسه ، والله يعلم منه أنه لو كان فى خلوة لما كان يثقل عليه ذلك ، وإنما يخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار لا بعين التوقير ، وكالذى يرى جماعة يصلون التراويح أو يتهجدون أو يصومون الخميس والاثنين أو يتصدقون فيوافقهم خيفة أن ينسب إلى الكسل ويلحق بالعوام ، ولو خلا بنفسه لكان

لايفعل شيئاً من ذلك ، وكالذى يعطش يوم عرفة أو عاشوراء أو فى الأشهر الحرم فلا يشرب خوفا من أن يعلم الناس أنه غير صائم ، فإذا ظنوا به الصوم امتنع عن الأكل لأجله ، أو يدعى إلى طعام فيمتنع ليظن أنه صائم وقد لايصرح بأنى صائم ولكن يقول : لى عذر ، وهو جمع بين خبيثين ، فإنه يرى أنه صائم ثم يرى أنه مخلص ليس بمراء ، وأنه يحترز من أن يذكر عبادته للناس فيكون مرائيا فيريد أن يقال إنه ساتر لعبادته ، ثم إن اضطر إلى شرب لم يصبر عن أن يذكر لنفسه فيه عذرا تصريحا أو تعريضا بأن يتعلل بمرض يقتضى فرط العطش ويمنع من الصوم ، أو يقول أفطرت تطييبا لقلب فلان ، ثم قد لا يذكر ذلك متصلا بشربه كى لايظن به أن يعتذر رياء ، ولكنه يصبر ثم يذكر عذره فى معرض حكاية عرضا ؛ مثل أن يقول : إن فلانا محب للإخوان شديد الرغبة فى أن يأكل الإنسان من طعامه وقد ألح على اليوم ولم أجد بدا من تطييب قلبه . ومثل أن يقول : إن أمى ضعيفة القلب مشفقة على تظن أنى لو صمت يوما مرضت فلا تدعنى أصوم ، فهذا وما يجرى مجراه من آفات الرياء فلا يسبق إلى اللسان إلا لرسوخ عرق الرياء فى الباطن . أما المخلص فإنه لا يبالى كيف نظر الخلق إليه ؟ فإن لم يكن له رغبة فى الصوم وقد علم الله ذلك منه فلا يريد أن يعتقد غيره مايخالف علم الله فيكون ملبسا ، وإن كان له رغبة فى الصوم لله قنع بعلم الله تعالى ولم يشرك فيه غيره ، وقد يخطر له أنّ فى إظهاره اقتداء غيره به وتحريك رغبة الناس فيه وفيه مكيدة وغرور ـ وسيأتى شرح ذلك وشروطه ـ .

فهذه درجات الرياء ومراتب أصناف المرائين وجميعهم تحت مقت الله وغضبه ، وهو من أشد المهلكات وإن من شدته أن فيه شوائب هى أخفى من دبيب النمل كما ورد به الخبر ، يزل فيه فحول العلماء فضلا عن العباد الجهلاء بآفات النفوس وغوائل القلوب والله أعلم .

بيان الرياء الخفى الذى هو أخفى من دبيب النمل

اعلم أنّ الرياء جلى وخفى ، فالجلى هو الذى يبعث على العمل ويحمل عليه ولو قصد الثواب وهو أجلاه ، وأخفى منه قليلا هو مالايحمل على العمل بمجرده ، إلا أنه يخفف العمل الذى يريد به وجه الله ، كالذى يعتاد التهجد كل ليلة ويثقل عليه فإذا نزل عنده ضيف تنشط له وخف عليه وعلم أنه لولا رجاء الثواب لكان لايصلى لمجرد رياء الضيفان وأخفى من ذلك مالا يؤثر فى العمل ولا بالتسهيل والتخفيف أيضا ولكنه مع ذلك مستبطن فى القلب ، ومهما لم يؤثر فى الدعاء إلى العمل لم يمكن أن يعرف إلا بالعلامات ، وأجلى علاماته أن يسر باطلاع الناس على طاعته فرب عبد يخلص فى عمله ولا يعتقد الرياء بل يكرهه ويرده ويتمم العمل كذلك ، ولكن إذا اطلع عليه الناس سره ذلك وارتاح له وروّح ذلك عن قلبه شدة العبادة ، وهذا السرور يدل على رياء خفى منه يرشح السرور ، ولولا التفات القلب إلى الناس لما ظهر سروره عند اطلاع الناس ، فلقد كان الرياء مستكنا فى القلب استكنان النار فى الحجر فأظهر عنه اطلاع الخلق أثر الفرح والسرور ، ثم إذا استشعر لذة السرور بالاطلاع ولم يقابل ذلك بكراهية فيصير ذلك قوتا وغذاء للعرق الخفى من الرياء حتى يتحرك على نفسه حركة خفية ، فيتقاضى تقاضيا خفيا أن يتكلف سببا يطلع عليه بالتعريض وإلقاء الكلام عرضا وإن كان لايدعو إلى التصريح ، وقد يخفى فلا يدعو إلى الإظهار بالنطق تعريضا وتصريحا ولكن بالشمائل ، كإظهار النحول والصفار وخفض الصوت ويبس الشفتين وجفاف الريق وآثار الدموع وغلبة النعاس الدال على طول التهجد ، وأخفى من ذلك أن يختفى بحيث لايريد الاطلاع ولا يسر بظهور طاعته ، ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أو يبدءوه بالسلام وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير وأن يثنوا عليه

وأن ينشطوا في قضاء حوائجه وأن يسامحوه في البيع والشراء وأن يوسعوا له في المكان ، فإن قصر فيه مقصر ثقل ذلك على قلبه ووجد لذلك استبعادا في نفسه كأنه يتقاضى الاحترام مع الطاعة التي أخفاها مع أنه لم يطلع عليه ، ولو لم يكن قد سبق منه تلك الطاعة لما كان يستبعد تقصير الناس في حقه ، ومهما لم يكن وجود العبادة كعدمها في كل ما يتعلق بالخلق لم يكن قد قنع بعلم الله ولم يكن خاليا عن شوب خفي من الرياء أخفى من دبيب النمل(١) وكل ذلك يوشك أن يحبط الأجر ولا يسلم منه إلا الصديقون .

وقد روى عن علي كرم الله وجهه أنه قال : إن الله عز وجل يقول للقراء يوم القيامة ، ألم يكن يرخص عليكم السعر ألم تكونوا تبتدءون بالسلام ألم تكونوا تقضى لكم الحوائج . وفي الحديث « لا أجر لكم قد استوفيتم أجوركم » وقال عبد الله بن المبارك . روى عن وهب بن منبه أنه قال إن رجلا من السواح قال لأصحابه إنا إنما فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان فنخاف أن نكون قد دخل علينا في أمرنا هذا من الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال في أموالهم ، إن أحدنا إذا لقي أحب أن يعظم لمكان دينه وإن سأل حاجة أحب أن تقضى له لمكان دينه وإن اشترى شيئا أحب أن يرخص عليه لمكان دينه ، فبلغ ذلك ملكهم فركب في موكب من الناس فإذا السهل والجبل قد امتلأ بالناس ، فقال السائح ما هذا ؟ قيل هذا الملك قد أظلك ، فقال للغلام ائتني بطعام فأتاه ببقل وزيت وقلوب الشجر ، فجعل يحشو شدقه ويأكل أكلا عنيفا فقال الملك أين صاحبكم؟ فقالوا هذا ، قال كيف أنت ؟ قال كالناس ، وفي حديث آخر : بخير ، فقال الملك ما عند هذا من خير ! فانصرف عنه ، فقال السائح الحمد لله الذي صرفك عني وأنت لي ذام . فلم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفي يجتهدون لذلك في مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة يحرصون على إخفائها أعظم مما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم ، كل ذلك رجاء أن تخلص أعمالهم الصالحة فيجازيهم الله في القيامة بإخلاصهم على ملأ من الخلق ، إذ علموا أن الله لا يقبل في القيامة إلا الخالص وعلموا شدة حاجتهم وفاقتهم في القيامة وانه يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ولا يجزى والد عن ولده ، ويشتغل الصديقون بأنفسهم فيقول كل واحد . نفسي نفسي ! فضلا عن غيرهم فكانوا كزوار بيت الله إذا توجهوا إلى مكة فإنهم يستصحبون مع أنفسهم الذهب المغربي الخالص لعلمهم أن أرباب البوادي لا يروج عندهم الزائف والبهرج ، والحاجة تشتد في البادية ولا وطن يفزع إليه ولا حميم يتمسك به فلا ينجي إلا الخالص من النقد ، فكذا يشاهد أرباب القلوب يوم القيامة والزاد الذي يتزودونه له من التقوى . فإذن شوائب الرياء الخفي كثيرة لا تنحصر ، ومهما أدرك من نفسه تفرقة بين أن يطلع على عبادته إنسان أو بهيمة ففيه شعبة من الرياء فإنه لما قطع طمعه عن البهائم لم يبال حضره البهائم أو الصبيان الرضع أم غابوا ، اطلعوا على حركته أم لم يطلعوا ، فلو كان مخلصا قانعا بعلم الله لاستحقر عقلاء العباد كما استحقر صبيانهم ومجانينهم ، وعلم أن العقلاء لا يقدرون له على رزق ولا أجل ولا زيادة ثواب ونقصان عقاب كما لا يقدر عليه البهائم والصبيان والمجانين ، فإذا لم يجد ذلك ففيه شوب خفي ، ولكن ليس كل شوب محبطاً للأجر مفسدا للعمل بل فيه تفصيل .

فإن قلت : فما نرى أحداً ينفك عن السرور إذا عرفت طاعاته ، فالسرور مذموم كله أو بعضه محمود وبعضه مذموم ؟ فنقول . أولا ، كل سرور فليس بمذموم بل السرور منقسم إلى محمود وإلى مذموم .

فأما المحمود فأربعة أقسام (الأول) أن يكون قصده إخفاء الطاعة والإخلاص لله ، ولكن لما اطلع عليه

(١) حديث « في الرياء شوائب أخفى من دبيب النمل » أخرجه أحمد والطبراني من حديث أبي موسى الأشعري « اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل » ورواه ابن حبان في الضعفاء من حديث أبي بكر الصديق وضعفه هو والدارقطني .

الخلق علم أن الله أطلعهم وأظهر الجميل من أحواله ، فيستدل به على حسن صنع الله به ونظره إليه وإلطافه به ، فإنه يستر الطاعة والمعصية ثم الله يستر عليه المعصية ويظهر الطاعة ، ولا لطف أعظم من ستر القبيح وإظهار الجميل ، فيكون فرحه بجميل نظر الله له لا بحمد الناس وقيام المنزلة فى قلوبهم وقد قال تعالى ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ فكأنه ظهر له أنه عند الله مقبول ففرح به ..

(الثانى) أن يستدل بإظهار الله الجميل وستره القبيح عليه فى الدنيا أنه كذلك يفعل فى الآخرة إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماستر الله على عبد ذنبا فى الدنيا إلا ستره عليه فى الآخرة [1] فيكون الأول فرحا بالقبول فى الحال من غير ملاحظة المستقبل ، وهذا التفات إلى المستقبل .

(الثالث) أن يظن رغبة المطلعين على الاقتداء به فى الطاعة فيتضاعف بذلك أجره ، فيكون له أجر العلانية بما أظهر آخرا وأجر السر بما قصده أولا ، ومن اقتدى به فى طاعة فله مثل أجر أعمال المقتدين به من غير أن ينقص من أجورهم شىء ، وتوقع ذلك جدير بأن يكون سبب السرور ، فإن ظهور مخايل الربح لذيذ وموجب للسرور لامحالة .

(الرابع) أن يحمده المطلعون على طاعته فيفرح بطاعتهم لله فى مدحهم وبحبهم للمطيع وبميل قلوبهم إلى الطاعة ، إذا من أهل الإيمان من يرى أهل الطاعة فيمقته ويحسده أو يذمه ويهزأ به أو ينسبه إلى الرياء ولا يحمده عليه ، فهذا فرح بحسن إيمان عباد الله . وعلامة الإخلاص فى هذا النوع أن يكون فرحه بحمده غيره مثل فرحه بحمدهم إياه .

وأما المذموم وهو الخامس : فهو أن يكون فرحه لقيام منزلته فى قلوب الناس حتى يمدحوه ويعظموه ويقوموا بقضاء حوائجه ويقابلوه بالإكرام فى مصادره وموارده فهذا مكروه والله تعالى أعلم .

بيان مايحبط العمل من الرياء الخفى والجلى وما لايحبط

فنقول فيه : إذا عقد العبد العبادة على الإخلاص ثم ورد عليه وارد الرياء فلا يخلو إما أن يرد عليه بعد فراغه من العمل أو قبل الفراغ ، فإن ورد بعد الفراغ سرور مجرد بالظهور من غير إظهار فهذا لايفسد العمل ، إذ العمل قد تم على نعت الإخلاص سالما عن الرياء فما يطرأ بعده فيرجو أن لاينعطف عليه أثر ، لاسيما إذا لم يتكلف هو إظهاره والتحدث به ولم يتمن إظهاره وذكره ولكن اتفق ظهوره وبإظهار الله ، ولم يكن منه إلا مادخل من السرور والارتياح على قلبه . نعم لو تم العمل على الإخلاص من غير عقد رياء ولكن ظهرت له بعده رغبة فى الإظهار فتحدث به وأظهره فهذا مخوف .

وفى الآثار والأخبار مايدل على أنه يحبط فقد روى عن ابن مسعود أنه سمع رجلا يقول قرأت البارحة البقرة فقال ذلك حظه منها . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لرجل قال له : صمت الدهر يارسول الله . فقال له « ماصمت ولا أفطرت [2] » فقال بعضهم إنما قال ذلك لأنه أظهره وقيل هو إشارة إلى كراهة صوم الدهر . وكيفما كان فيحتمل أن يكون ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن ابن مسعود استدلالا على أن قلبه عند العبادة لم يخل عن عقد الرياء وقصده له لما أن ظهر منه التحدث به ، إذ يبعد أن يكون مايطرأ بعد العمل مبطلا لثواب العمل بل الأقيس أن يقال إنه مثاب على عمله الذى مضى ومعاقب على مراءاته بطاعة الله بعد الفراغ منها ،

(١) حديث « ماستر الله على عبد ذنبا فى الدنيا إلا ستره عليه فى الآخرة » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة (٢) حديث قال لرجل قال : صمت الدهر « ماصمت ولا أفطرت » أخرجه مسلم من حديث أبى قتادة : قال عمر يارسول الله كيف بمن يصوم الدهر ؟ قال « لاصام ولا أفطر » وللطبرانى من حديث أسماء بنت يزيد فى أثناء حديث ، فيه : فقال رجل إنى صائم ، قال بعض القوم إنه لايفطر إنه يصوم كل يوم قال النبى صلى الله عليه وسلم « لاصام ولا أفطر من صام الأبد » ولم أجده بلفظ الخطاب .

بخلاف ما لو تغير عقده إلى الرياء قبل الفراغ من الصلاة فإن ذلك قد يبطل الصلاة ويحبط العمل . وأما إذا ورد وارد الرياء قبل الفراغ من الصلاة مثلا وكان قد عقد على الإخلاص ولكن ورد فى أثنائها وارد الرياء ، فلا يخلو إما أن يكون بمجرد سرور لايؤثر فى العمل وإما أن يكون رياء باعثا على العمل ، فإن كان باعثا على العمل وختم العبادة به حبط أجره . ومثاله : أن يكون فى تطوع فتجددت له نظارة ، أو حضر ملك من الملوك وهو يشتهى أن ينظر إليه ، أو يذكر شيئا نسيه من ماله وهو يريد أن يطلبه ، ولولا الناس لقطع الصلاة فاستتمها خوفا من مذمة الناس ، فقد حبط أجره وعليه الإعادة إن كان فى فريضة وقد قال صلى الله عليه وسلم « العمل كالوعاء إذا طاب آخره طاب أوله »[١] أى النظر إلى خاتمته . وروى « أنه من راءى بعمل ساعة حبط عمله الذى كان قبله »[٢]وهذا منزل على الصلاة فى هذه الصورة لاعلى الصدقة ولا على القراءة فإن كل جزء من ذلك مفرد ، فما يطرأ يفسد الباقى دون الماضى ، والصوم والحج من قبيل الصلاة . وأما إذا كان وارد الرياء بحيث لايمنعه من قصد الإتمام لأجل الثواب ، كما لو حضر جماعة فى أثناء الصلاة ففرح بحضورهم وعقد الرياء وقصد تحسين الصلاة لأجل نظرهم وكان لولا حضورهم لكان يتمها أيضا ، فهذا رياء قد أثر فى العمل وانتهض باعثا على الحركات ، فإن غلب حتى انمحق معه الإحساس بقصد العبادة والثواب وصار قصد العبادة مغمورا ، فهذا أيضا ينبغى أن يفسد العبادة مهما مضى ركن من أركانها على هذا الوجه ، لأنا نكتفى بالنية السابقة عند الإحرام بشرط أن لايطرأ عليها مايغلبها ويغمرها ، ويحتمل أن يقال لايفسد العبادة نظرا إلى حالة العقد وإلى بقاء قصد أصل الثواب وإن ضعف بهجوم قصد هو أغلب منه .

ولقد ذهب الحارث المحاسبى رحمه الله تعالى إلى الإحباط فى أمر هو أهون من هذا وقال : إذا لم يرد إلا مجرد السرور باطلاع الناس ـ يعنى سرورا هو كحب المنزلة والجاه ـ قال ؛ قد اختلف الناس فى هذا ؛ فصارت فرقة إلى أنه محبط لأنه نقض العزم الأول وركن إلى حمد المخلوقين ولم يختم عمله بالإخلاص وإنما يتم العمل بخاتمته ، ثم قال ولا أقطع عليه بالحبط وإن لم يتزيد فى العمل ولا آمن عليه وقد كنت أقف فيه لاختلاف الناس ، والأغلب على قلبى أنه يحبط إذا ختم عمله بالرياء ثم قال : فإن قيل قد قال الحسن رحمه الله تعالى ؛ إنهما حالتان ، فإذا كانت الأولى لم تضره الثانية . وقد روى أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يارسول الله أسر العمل لا أحب أن يطلع عليه فيطلع عليه فيسرنى قال « لك أجران أجر السر وأجر العلانية »[٣] ، ثم تكلم على الخبر والأثر فقال : أما الحسن فإنه أراد بقوله : لايضره ، أى لايدع العمل ولا تضره الخطرة وهو يريد الله ، ولم يقل إذا عقد الرياء بعد عقد الإخلاص لم يضره ، وأما الحديث فتكلم عليه بكلام طويل يرجع حاصله إلى ثلاثة أوجه (أحدها) أنه يحتمل أنه أراد ظهور عمله بعد الفراغ وليس فى الحديث أنه قبل الفراغ . (الثانى) أنه أراد أن يسر به للاقتداء به أو لسرور آخر محمود مما ذكرناه قبل لا سرورا بسبب حب المحمدة والمنزلة ، بدليل أنه جعل له به أجرا ، ولا ذاهب من الأمة إلى أن للسرور بالمحمدة أجرا وغايته أن يعفى عنه ، فكيف يكون للمخلص أجر وللمرائى أجران؟ (والثالث) أنه قال: أكثر من يروى الحديث يرويه غير متصل إلى أبى هريرة بل أكثرهم يوقفه على أبى صالح ، ومنهم من يرفعه ، فالحكم

(١) حديث « العمل كالوعاء إذا طاب آخره طاب أوله » أخرجه ابن ماجه من حديث معاوية بن أبى سفيان بلفظ « إذا طاب أسفله طاب أعلاه » وقد تقدم (٢) حديث « من راءى بعمله ساعة حبط عمله الذى كان قبله » لم أجده بهذا اللفظ وللشيخين من حديث جندب « من سمع سمع الله به ومن راءى راءى الله به » ورواه مسلم من حديث ابن عباس (٣) حديث : أن رجلا قال أسر العمل لا أحب أن يطلع عليه فيطلع عليه فيسرنى فقال « لك أجران ... الحديث » أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان من رواية ذكوان عن ابن مسعود ورواه الترمذى وابن حبان من رواية ذكوان عن أبى هريرة : الرجل يعمل العمل فيسره فإذا اطلع عليه أعجبه قال « له أجر السر والعلانية » قال الترمذى غريب وقال إنه روى عن أبى صالح وهو ذكر أنه مرسل .

بالعمومات الواردة فى الرياء أولى . هذا ماذكره ولم يقطع به بل أظهر ميلا إلى الإحباط .

والأقيس عندنا : أن هذا القدر إذا لم يظهر أثره فى العمل بل بقى العمل صادرا عن باعث الدين وإنما انضاف إليه السرور بالاطلاع فلا يفسد العمل لأنه لم ينعدم به أصل نيته وبقيت تلك النية باعثة على العمل وحاملة على الإتمام .

وأما الأخبار التى وردت فى الرياء فهى محمولة على ما إذا لم يرد به إلا الخالق ، وأما ماورد فى الشركة فهو محمول على ما إذا كان قصد الرياء مساويا لقصد الثواب أو أغلب منه ، أما إذا كان ضعيفا بالإضافة إليه فلا يحبط بالكلية ثواب الصدقة وسائر الأعمال ، ولاينبغى أن يفسد الصلاة ، ولا يبعد أن يقال إن الذى أوجب عليه صلاة خالصة لوجه الله ـ والخالص مالا يشوبه شيء ـ فلا يكون مؤديا للواجب مع هذا الشوب والعلم عند الله فيه . وقد ذكرنا فى كتاب الإخلاص كلاما أوفى مما أوردناه الآن فليرجع إليه ، فهذا حكم الرياء الطارئ بعد عقد العبادة إما قبل الفراغ أو بعد الفراغ .

القسم الثالث : الذى يقارن حال العقد بأن يبتدئ الصلاة على قصد الرياء ، فإن استمر عليه سلم فلا خلاف فى أنه يقضى ولايعتد بصلاته ، وإن ندم عليه فى أثناء ذلك واستغفر ورجع قبل التمام ففيما يلزمه ثلاثة أوجه (قالت فرقة) لم تنعقد صلاته مع قصد الرياء فليستأنف (وقالت فرقة) تلزمه إعادة الأفعال كالركوع والسجود وتفسد أفعاله دون تحريمة الصلاة لأن التحريم عقد ، والرياء خاطر فى قلبه لايخرج التحريم عن كونه عقدا (وقالت فرقة) لايلزم إعادة شيء بل يستغفر الله بقلبه ويتم العبادة على الإخلاص والنظر إلى خاتمة العبادة كما لو ابتدأ بالإخلاص وختم بالرياء لكان يفسد عمله .

وشبهوا ذلك بثوب أبيض لطخ بنجاسة عارضة فإذا أزيل العارض عاد إلى الأصل ، فقالوا إن الصلاة والركوع والسجود لاتكون إلا لله ولو سجد لغير الله لكان كافرا ، ولكن اقترن به عارض الرياء ثم زال بالندم والتوبة وصار إلى حالة لايبالى بحمد الناس وذمهم فتصح صلاته . ومذهب الفريقين الآخرين خارج عن قياس الفقه جدا خصوصا من قال يلزمه إعادة الركوع والسجود دون الافتتاح ، لأن الركوع والسجود إن لم يصح صارت أفعالا زائدة فى الصلاة فتفسد الصلاة . وكذلك قول من يقول لو ختم بالإخلاص صح نظرا إلى الآخر فهو أيضا ضعيف ، لأن الرياء يقدح فى النية وأولى الأوقات بمراعاة أحكام النية حال الافتتاح ، فالذى يستقيم على قياس الفقه هو أن يقال إن كان باعثه مجرد الرياء فى ابتداء العقد دون طلب الثواب وامتثال الأمر لم ينعقد افتتاحه ولم يصح مابعده ، وذلك فيمن إذا خلا بنفسه لم يصل ولما رأى الناس تحرم بالصلاة وكان بحيث لو كان ثوبه نجسا أيضا كان يصلى لأجل الناس ، فهذه صلاة لانية فيها إذ النية عبارة عن إجابة باعث الدين ، وههنا لاباعث ولا إجابة . فأما إذا كان بحيث لولا الناس أيضا لكان يصلى إلا أنه ظهر له الرغبة فى المحمدة أيضاً فاجتمع الباعثان ، فهذا إما أن يكون فى صدقة وقراءة وماليس فيه تحليل وتحريم أو فى عقد صلاة وحج ، فإن كان فى صدقة فقد عصى بإجابة باعث الرياء وأطاع بإجابة باعث الثواب ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ فله ثواب بقدر قصده الصحيح وعقاب بقدر قصده الفاسد ولايحبط أحدهما الآخر . وإن كان فى صلاة تقبل الفساد بتطرق خلل إلى النية فلا يخلو إما أن تكون فرضا أو نفلا ، فإن كانت نفلا فحكمها أيضا حكم الصدقة فقد عصى من وجه وأطاع من وجه ، إذ اجتمع فى قلبه الباعثان ، ولايمكن أن يقال صلاته فاسدة والاقتداء به باطل حتى إن من صلى

التراويح وتبين من قرائن حاله أن يصده الرياء بإظهار حسن القراءة ، ولولا اجتماع الناس خلفه وخلا فى بيت وحده لما صلى لايصح الاقتداء به فإن المصير إلى هذا بعيد جدا ، بل يظن بالمسلم أنه يقصد الثواب أيضا بتطوعه فتصح باعتبار ذلك القصد صلاته ويصح الاقتداء به ، وإن اقترن به قصد آخر وهو به عاص ، فأما إذا كان فى فرض واجتمع الباعثان وكان كل واحد لايستقل وإنما يحصل الانبعاث بمجموعهما فهذا لا يسقط الواجب عنه ، لأن الإيجاب لم ينتهض باعثا فى حقه بمجرده واستقلاله ، وإن كان كل باعث مستقلا حتى لولم يكن باعث الرياء لأدى الفرائض ، ولولم يكن باعث الفرض لأنشأ صلاة تطوعا لأجل الرياء فهذا محل النظر ، وهو محتمل جدا ، فيحتمل أن يقال إن الواجب صلاة خالصة لوجه الله ولم يؤد الواجب الخالص ، ويحتمل أن يقال الواجب امتثال الأمر بباعث مستقل بنفسه وقد وجد ، فاقتران غيره به لايمنع سقوط الفرض عنه ، كما لو صلى فى دار مغصوبة فإنه وإن كان عاصيا بإيقاع الصلاة فى الدار المغصوبة فإنه مطيع بأصل الصلاة ومسقط للفرض عن نفسه ، وتعارض الاحتمال فى تعارض البواعث فى أصل الصلاة ، أما إذا كان الرياء فى المبادرة مثلا دون أصل الصلاة مثل من بادر إلى الصلاة فى أول الوقت لحضور جماعة ولو خلا لأخر إلى وسط الوقت ، ولولا الفرض لكان لايبتدئ صلاة لأجل الرياء فهذا مما يقطع بصحة صلاته وسقوط الفرض به ، لأن باعث أصل الصلاة من حيث إنها صلاة لم يعارضه غيره بل من حيث تعيين الوقت ، فهذا أبعد من القدح فى النية ، هذا فى رياء يكون باعثا على العمل وحاملا عليه ، وأما مجرد السرور باطلاع الناس عليه إذا لم يبلغ أثره إلى حيث يؤثر فى العمل فبعيد أن يفسد الصلاة . فهذا ما نراه لائقا بقانون الفقه ، والمسألة غامضة من حيث أن الفقهاء لم يتعرضوا لها فى فن الفقه ، والذين خاضوا فيها وتصرفوا لم يلاحظوا قوانين الفقه ومقتضى فتاوى الفقهاء فى صحة الصلاة وفسادها ، بل حملهم الحرص على تصفية القلوب وطلب الإخلاص على إفساد العبادات بأن الخواطر وما ذكرناه هو الأقصد فيما نراه والعلم عند الله عز وجل فيه وهو عالم الغيب والشهادة وهو الرحمن الرحيم .

بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه

قد عرفت بما سبق أن الرياء محبط للأعمال وسبب للمقت عند الله تعالى وأنه من كبائر المهلكات ، وما هذا وصفه لجدير بالتشمير عن ساق الجد فى إزالته ولو بالمجاهدة وتحمل المشاق ، فلا شفاء إلا فى شرب الأدوية المرة البشعة ، وهذه مجاهدة يضطر إليها العباد كلهم ، إذ الصبي يخلق ضعيف العقل والتمييز ممتد العين إلى الخلق كثير الطمع فيهم ؛ فيرى الناس يتصنع بعضهم لبعض فيغلب عليه حب التصنع بالضرورة ويرسخ ذلك فى نفسه ، وإنما يشعر بكونه مهلكا بعد كمال عقله وقد انغرس الرياء فى قلبه وترسخ فيه فلا يقدر على قمعه إلا بمجاهدة شديده ومكابدة لقوة الشهوات . فلا ينفك أحد عن الحاجة إلى هذه المجاهدة ، ولكنها تشق أولا وتخف آخراً وفى علاجه مقامان (أحدهما) قلع عروقه وأصوله التى منها انشعابه (والثانى) دفع مايخطر منه فى الحال .

(المقام الأول) فى قلع عروقه واستئصال أصوله : وأصله حب المنزلة والجاه . وإذا فصل رجع إلى ثلاثة أصول وهى لذة المحمدة ، والفرار من ألم الذم ، والطمع فيما فى أيدى الناس . ويشهد للرياء بهذه الأسباب وأنها الباعثة للمرائى ماروى أبو موسى أن أعرابيا سأل النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله الرجل يقاتل [1] حمية — ومعناه أنه يأنف أن يقهر أو يذم بأنه مقهور مغلوب — وقال : والرجل يقاتل ليرى مكانه وهذا هو طلب لذة الجاه والقدر

---

(١) حديث أبى موسى : أن أعرابيا قال يارسول الله الرجل يقاتل حمية ... الحديث » • متفق عليه

فى القلوب ـ والرجل يقاتل للذكر ـ وهذا هو الحمد باللسان ـ فقال صلى الله عليه وسلم « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » وقال ابن مسعود : إذا التقى الصفان نزلت الملائكة فكتبوا الناس على مراتبهم ؛ فلان يقاتل للذكر وفلان يقاتل للملك ، والقتال للملك إشارة إلى الطمع فى الدنيا . وقال عمر رضى الله عنه : يقولون فلان شهيد ولعله يكون قد ملأ دفتى راحلته ورقا . وقال صلى الله عليه وسلم « من غزا لايبغى إلا عقالا فله مانوى [1] » فهذا إشارة إلى الطمع . وقد لايشتهى الحمد ولا يطمع فيه ولكن يحذر من ألم الذم كالبخيل بين الأسخياء وهم يتصدقون بالمال الكثير فإنه يتصدق بالقليل كى لايبخل ، وهو ليس يطمع فى الحمد وقد سبقه غيره ، وكالجبان بين الشجعان لايفر من الزحف خوفا من الذم وهو لايطمع فى الحمد وقد هجم غيره على صف القتال . ولكن إذا أيس من الحمد كره الذم ، وكالرجل بين قوم يصلون جميع الليل فيصلى ركعات معدودة حتى لايذم بالكسل وهو لايطمع فى الحمد . وقد يقدر الإنسان على الصبر عن لذة الحمد ولا يقدر على الصبر على ألم الذم ، ولذلك قد يترك السؤال عن علم هو محتاج إليه خيفة من أن يذم بالجهل ، ويفتى بغير علم ويدعى العلم بالحديث وهو به جاهل ، كل ذلك حذرا من الذم . فهذه الأمور الثلاثة هى التى تحرك المرائى إلى الرياء ، وعلاجه ماذكرناه فى الشطر الأول من الكتاب على الجملة .

ولكنا نذكر الآن مايخص الرياء وليس يخفى أن الإنسان إنما يقصد الشىء ويرغب فيه لظنه أنه خير له ونافع ولذيذ ، إما فى الحال وإما فى المآل ، فإن علم إنه لذيذ فى الحال ولكنه ضار فى المآل سهل عليه قطع الرغبة عنه ، كمن يعلم أن العسل لذيذ ولكن إذا بان له أن فيه سما أعرض عنه ؛ فكذلك طريق قطع هذه الرغبة أن يعلم مافيه من المضرة . ومهما عرف العبد مضرة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه وما يحرم عنه فى الحال من التوفيق وفى الآخرة من المنزلة عند الله وما يتعرض له من العقاب العظيم والمقت الشديد والخزى الظاهر . حيث ينادى على رءوس الخلائق : يافاجر ياغادر يامرائى ، أما استحييت إذ اشتريت بطاعة الله عرض الدنيا ، وراقبت قلوب العباد واستهزأت بطاعة الله ، وتحببت إلى العباد بالتبغض إلى الله ، وتزينت لهم بالشين عند الله ، وتقربت إليهم بالبعد من الله ، وتحمدت إليهم بالتذمم عند الله ، وطلبت رضاهم بالتعرض لسخط الله ، أما كان أحد أهون عليك من الله ! فمهما تفكر العبد فى هذا الخزى وقابل مايحصل له من العباد والتزين لهم فى الدنيا بما يفوته فى الآخرة وبما يحبط من ثواب الأعمال ، مع أن العمل الواحد ربما كان يترجح به ميزان حسناته لو خلص ، فاذا فسد بالرياء حول إلى كفة السيئات فترجح به ويهوى إلى النار ، فلو لم يكن فى الرياء إلا إحباط عبادة واحدة لكان ذلك كافيا فى معرفة ضرره وإن كان مع ذلك سائر حسناته راجحة فقد كان ينال بهذه الحسنة علو الرتبة عند الله فى زمرة النبيين والصديقين ، وقد حط عنهم بسبب الرياء ، ورد إلى صف النعال من مراتب الأولياء ، هذا مع مايتعرض له فى الدنيا من تشتت الهم بسبب ملاحظة قلوب الخلق ، فان رضا الناس غاية لاتدرك ، فكل مايرضى به فريق يسخط به فريق ورضا بعضهم فى سخط بعضهم ، ومن طلب رضاهم فى سخط الله سخط الله عليه وأسخطهم أيضا عليه ؛ ثم أى غرض له فى مدحهم وإيثار ذم الله لأجل حمدهم ؟ ولا يزيده حمدهم رزقا ولا أجلا ولا ينفعه يوم فقره وفاقته وهو يوم القيامة . وأما الطمع فيما فى أيديهم فبأن يعلم أن الله تعالى هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء ، وأن الخلق مضطرون فيه ولا رازق إلا الله ، ومن طمع فى الخلق لم يخل من الذل والخيبة ، وإن وصل إلى المراد لم يخل عن المنة والمهانة ، فكيف يترك ما عند الله برجاء

---

(١) حديث « من غزا لايبغى الا عقالا فله مانوى » أخرجه النسائى وقد تقدم .

كاذب ووهم فاسد قد يصيب وقد يخطئ ، وإذا أصاب فلاتفى لذته بألم منته ومذلته ؟ وأما ذمهم فلم يحذر منه ولا يزيده ذمهم شيئا مالم يكتبه عليه الله ، ولا يعجل أجله ولا يؤخر رزقه ، ولا يجعله من أهل النار إن كان من أهل الجنة ، ولا يبغضه إلى الله إن كان محمودا عند الله ، ولا يزيده مقتا إن كان ممقوتا عند الله ، فالعباد كلهم عجزة لايملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتا ولا حياة ولانشورا . فإذا قرر فى قلبه آفة هذه الأسباب وضررها فترت رغبته وأقبل على الله قلبه ، فان العاقل لايرغب فيما يكثر ضرره ويقل نفعه ، ويكفيه أن الناس لو علموا مافى باطنه من قصد الرياء وإظهار الإخلاص لمقتوه ، وسيكشف الله عن سره حتى يبغضه إلى الناس ويعرفهم أنه مراء وممقوت عندالله ، ولو أخلص لله لكشف الله لهم إخلاصه وحببه إليهم وسخرهم له وأطلق ألسنتهم بالمدح والثناء عليه ، مع أنه لاكمال فى مدحهم ولا نقصان فى ذمهم كما قال شاعر بنى تميم : إن مدحى زين وإن ذمى شين ! فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « كذبت ؛ ذاك الله الذى لاإله إلا هو[1] » إذ لازين إلا فى مدحه ولا شين إلا فى ذمه ، فأى خير لك فى مدح الناس . وأنت عند الله مذموم ومن أهل النار ؟ وأى شر لك من ذم الناس وأنت عند الله محمود فى زمرة المقربين ؟ فمن أحضر فى قلبه الآخرة ونعيمها المؤبد والمنازل الرفيعة عند الله استحقر ما يتعلق بالخلق أيام الحياة مع ما فيه من الكدورات والمنغصات ، واجتمع همه وانصرف إلى الله قلبه وتخلص من مذلة الرياء ومقاساة قلوب الخلق ، وانعطف من إخلاصه أنوار على قلبه ينشرح بها صـــدره وينفتح بها له من لطائف المكاشفات مايزيد به أنسه بالله ووحشته من الخلق واستحقاره للدنيا واستعظامه للآخرة ، وسقط محل الخلق من قلبه وانحل عنه داعية الرياء وتذلل له منهج الإخلاص . فهذا وما قدمنا فى الشطر الأول هى الأدوية العلمية القالعة مغارس الرياء .

وأما الدواء العملى : فهو أن يعود نفسه إخفاء العبادات وإغلاق الأبواب دونها ، كما تغلق الأبواب دون الفواحش ، حتى يقنع قلبه بعلم الله أو إطلاعه على عباداته ولا تنازعه النفس إلى طلب علم غير الله به . وقد روى أن بعض أصحاب أبى حفص الحداد ذم الدنيا وأهلها فقال : أظهرت ما كان سبيلك أن تخفيه لاتجالسنا بعد هذا . فلم يرخص فى إظهار هذا القدر لأن فى ضمن ذم الدنيا دعوى الزهد فيها ، فلادواء الرياء مثل الإخفاء ، وذلك يشق فى بداية المجاهدة ، وإذا صبر عليه مدة بالتكلف سقط عنه ثقله وهان عليه ذلك بتواصل ألطاف الله وما يمد به عباده من حسن التوفيق والتأييد والتسديد و ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ فمن العبد المجاهدة ومن الله الهداية ، ومن العبد قرع الباب ومن الله فتح الباب ﴿ والله لا يضيع أجر المحسنين ؛ وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾ .

(المقام الثانى) فى دفع العارض منه فى أثناء العبادة وذلك لا بد من تعلمه أيضا ، فإن من جاهد نفسه وقلع مغارس الرياء من قلبه بالقناعة وقطع الطمع وإسقاط نفسه من أعين المخلوقين واستحقار مدح المخلوقين وذمهم فالشيطان لا يتركه فى أثناء العبادات ، بل يعارضه بخطرات الرياء ، ولا تنقطع عنه نزغاته وهوى النفس وميلها لاينمحى بالكلية ، فلابد وأن يتشمر لدفع مايعرض من خاطر الرياء . وخواطر الرياء ثلاثة ـ قد تخطر دفعة واحدة كالخاطر الواحد وقد تترادف على التدريج ـ فالأول : العلم باطلاع الخلق ورجاء اطلاعهم . ثم يتلوه هيجان الرغبة

---

(١) حديث : قال شاعر من بنى تميم إن مدحى زين وإن ذمى شين : فقال « كذبت ذاك الله » أخرجه أحمد من حديث الأقرع بن حابس وهو قائل « ذاك » دون قوله « كذبت » ورجاله ثقات إلا أنى لا أعرف لأبى سلمة بن عبد الرحمن سماعا من الأقرع ورواه الترمذى من حديث البراء وحسنه بلفظ فقال رجل « لن حمدى » .

من النفس فى حمدهم وحصول المنزلة عندهم . ثم يتلوه هيجان الرغبة فى قبول النفس له والركون إليه وعقد الضمير على تحقيقه . فالأول : معرفة . والثانى : حالة تسمى الشهوة والرغبة . والثالث : فعل يسمى العزم وتصميم العقد . وإنما كمال القوة فى دفع الخاطر الأول ورده قبل أن يتلوه الثانى ، فإذا خطر له معرفة اطلاع الخلق أو رجاء اطلاعهم دفع ذلك بأن قال : مالك وللخلق علموا أو لم يعلموا والله عالم بحالك فأى فائدة فى علم غيره ؟ فإن هاجت الرغبة إلى لذة الحمد يذكر ما رسخ فى قلبه من قبل من آفة الرياء وتعرضه للمقت عند الله فى القيامة وخيبته فى أحوج أوقاته إلى أعماله ، فكما أن معرفة اطلاع الناس تثير شهوة ورغبة فى الرياء فمعرفة آفة الرياء تثير كراهة له تقابل تلك الشهوة ، إذ يتفكر فى تعرضه لمقت الله وعقابه الأليم ، والشهوة تدعوه إلى القبول ، والكراهة تدعوه إلى الإباء، والنفس تطاوع لا محالة أقواهما وأغلبهما .

فإذن لا بد فى رد الرياء من ثلاثة أمور : المعرفة ، والكراهة والإباء . وقد يشرع العبد فى العبادة على عزم الإخلاص ، ثم يرد خاطر الرياء فيقبله ولا تحضره المعرفة ولا الكراهة التى كان الضمير منطويا عليها ، وإنما سبب ذلك امتلاء القلب بخوف الذم وحب الحمد واستيلاء الحرص عليه بحيث لا يبقى فى القلب متسع لغيره ، فيعزب عن القلب المعرفة السابقة بآفات الرياء وشؤم عاقبته إذ لم يبق موضع فى القلب خال عن شهوة الحمد أو خوف الذم ، وهو كالذى يحدث نفسه بالحلم وذم الغضب ، ويعزم على التحلم عند جريان سبب الغضب ثم يجرى من الأسباب مايشتد به غضبه فينسى سابقة عزمه ويمتلئ قلبه غيظا يمنع من تذكر آفة الغضب ويشغل قلبه عنه ، فكذلك حلاوة الشهوة تملأ القلب وتدفع نور المعرفة مثل مرارة الغضب . وإليه أشار جابر بقوله : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة على أن لا نفر ولم نبايعه على الموت فأنسيناها يوم حنين [1] حتى نودى : يا أصحاب الشجرة فرجعوا . وذلك لأن القلوب امتلأت بالخوف فنسيت العهد السابق حتى ذكروا ، وأكثر الشهوات التى تهجم فجأة هكذا تكون ، إذ ينسى معرفة مضرته الداخلة فى عقد الإيمان . ومهما نسى المعرفة لم تظهر الكراهة فإن الكراهة ثمرة المعرفة . وقد يتذكر الإنسان فيعلم أن الخاطر الذى خطر له هو خاطر الرياء الذى يعرضه لسخط الله ، ولكن يستمر عليه لشدة شهوته ، فيغلب هواه عقله ولا يقدر على ترك لذة الحال ، فيسوف بالتوبة أو يتشاغل عن التفكر فى ذلك لشدة الشهوة ، فكم من عالم يحضره كلام لا يدعوه إلى فعله إلا رياء الخلق وهو يعلم ذلك ، ولكنه يستمر عليه فتكون الحجة عليه أوكد ؟ إذ قبل داعى الرياء مع علمه بغائلته وكونه مذموما عند الله ، ولا تنفعه معرفته إذا خلت المعرفة عن الكراهة . وقد تحضر المعرفة والكراهة ولكن مع ذلك يقبل داعى الرياء لكون الكراهة ضعيفة بالإضافة إلى قوة الشهوة ، وهذا أيضا لا ينتفع بكراهته إذ الغرض من الكراهة أن تصرف عن الفعل .

فإذن لا فائدة إلا فى اجتماع الثلاث : وهى المعرفة ، والكراهة ، والإباء . فالإباء ثمرة الكراهة ، والكراهة ثمرة المعرفة ، وقوة المعرفة بحسب قوة الإيمان ونور العلم ، وضعف المعرفة بحسب الغفلة وحب الدنيا ونسيان الآخرة وقلة التفكر فيما عند الله وقلة التأمل فى آفات الحياة الدنيا وعظيم نعيم الآخرة ، وبعض ذلك ينتج بعضا ويثمره ، وأصل ذلك كله حب الدنيا وغلبة الشهوات فهو رأس كل خطيئة ومنبع كل ذنب ، لأن حلاوة حب الجاه والمنزلة ونعيم الدنيا هى التى تغضب القلب وتسلبه وتحول بينه وبين التفكر فى العاقبة والاستضاءة بنور الكتاب والسنة وأنوار العلوم ،

(١) حديث جابر : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة على أن لانفر ... الحديث . أخرجه مسلم مختصرا دون ذكر « يوم حنين » فرواه مسلم من حديث العباس .

فإن قلت : فمن صادف من نفسه كراهة الرياء وحملته الكراهة على الإباء ولكنه مع ذلك غير خال عن ميل الطبع إليه وحبه له ومنازعته إياه إلا أنه كاره لحبه ولميله إليه وغير محبب إليه ، فهل يكون فى زمرة المرائين ؟ فاعلم أن الله لم يكلف العباد إلا ماتطيق وليس فى طاقة العبد منع الشيطان عن نزغاته ولا قمع الطبع حتى لا يميل إلى الشهوات ولا ينزع إليها ، وإنما غايته أن يقابل شهوته بكراهة استثارها من معرفة العواقب وعلم الدين وأصول الإيمان بالله واليوم الآخر ، فإذا فعل ذلك فهو الغاية فى أداء ماكلف به . ويدل على ذلك من الأخبار ماروى أن أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم شكوا إليه وقالوا : تعرض لقلوبنا أشياء لأن نخر من السماء فتخطفنا الطير أو تهوى بنا الريح فى مكان سحيق أحب إلينا من أن نتكلم بها ، فقال عليه السلام «أوقد وجدتموه» قالوا : نعم قال « ذلك صريح الإيمان »(١) ، ولم يجدوا إلا الوسواس والكراهة له ، ولايمكن أن يقال أراد بصريح الإيمان الوسوسة ، فلم يبق إلا حمله على الكراهة المساوقة للوسوسة ، والرياء وإن كان عظيما فهو دون الوسوسة فى حق الله تعالى ، فإذا اندفع ضرر الأعظم بالكراهة فبأن يندفع بها ضرر الأصغر أولى ، وكذلك يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث ابن عباس أنه قال « الحمد لله الذى رد كيد الشيطان إلى الوسوسة »(٢) ، وقال أبو حازم : ما كان من نفسك وكرهته نفسك لنفسك فلا يضرك ماهو من عدوك ، وما كان من نفسك فرضيته نفسك لنفسك فعاتبها عليه . فإذن وسوسة الشيطان ومنازعة النفس لاتضرك مهما رددت مرادهما بالإباء والكراهة ، والخواطر التى هى العلوم والتذكرات والتخيلات للأسباب المهيجة للرياء هى من الشيطان ، والرغبة والميل بعد تلك الخواطر من النفس ، والكراهة من الإيمان ومن آثار العقل ، إلا أن للشيطان ههنا مكيدة وهى أنه إذا عجز عن حمله على قبول الرياء خيل إليه أن صلاح قلبه فى الاشتغال بمجادلة الشيطان ومطاولته فى الرد والجدال حتى يسلبه ثواب الإخلاص وحضور القلب ، لأن الاشتغال بمجادلة الشيطان ومدافعته انصراف عن سر المناجاة مع الله فيوجب ذلك نقصانا فى منزلته عند الله .

والمتخلصون عن الرياء فى دفع خواطر الرياء على أربع مراتب (الأولى) أن يرده على الشيطان فيكذبه ، ولا يقتصر عليه بل يشتغل بمجادلته ويطيل الجدال معه لظنه أن ذلك أسلم لقلبه ، وهو على التحقيق نقصان ، لأنه اشتغل عن مناجاة الله وعن الخير الذى هو بصدده وانصرف إلى قتال قطاع الطريق ، والتعريج على قتال قطاع الطريق نقصان فى السلوك . (الثانية) أن يعرف أن الجدال والقتال نقصان فى السلوك فيقتصر على تكذيبه ودفعه ولا يشتغل بمجادلته (الثالثة) أن لا يشتغل بتكذيبه أيضا لأن ذلك وقفة وإن قلت ، بل يكون قد قرر فى عقد ضميره كراهة الرياء وكذب الشيطان فيستمر على ما كان عليه مستصحبا للكراهة غير مشتغل بالتكذيب ولا بالمخاصمة . (الرابعة) أن يكون قد علم أن الشيطان سيحسده عند جريان أسباب الرياء ، فيكون قد عزم على أنه مهما نزغ الشيطان زاد فيما هو فيه من الإخلاص والاشتغال بالله وإخفاء الصدقة والعبادة غيظا للشيطان ، وذلك هو الذى يغيظ الشيطان ويقمعه ويوجب يأسه وقنوطه حتى لايرجع . يروى عن الفضيل بن غزوان أنه قيل له : إن فلانا يذكرك ، فقال ، والله لأغيظن من أمره ، قيل : ومن أمره ؟ قال : الشيطان ، اللهم اغفر له . أى لأغيظنه بأن

(١) حديث : شكوى الصحابة مايعرض فى قلوبهم وقوله « ذلك صريح الإيمان » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود مختصرا : سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن الوسوسة فقال « ذلك محض الإيمان » والنسائى فى اليوم والليلة وابن حبان فى صحيحه ورواه النسائى فيه من حديث عائشة . (٢) حديث ابن عباس « الحمد لله الذى رد كيد الشيطان إلى الوسوسة » أخرجه أبو داود والنسائى فى اليوم والليلة بلفظ « كيده » .

أطع الله فيه . ومهما عرف الشيطان من عبد هذه العادة كف عنه خيفة من أن يزيد فى حسناته . وقال إبراهيم التيمى : إن الشيطان ليدعو العبد إلى الباب من الإثم ، فلا يطعه وليحدث عند ذلك خيرا ، فإذا رآه كذلك تركه. وقال أيضا : إذا رآك الشيطان مترددا طمع فيك ، وإذا رآك مداوما ملك وقلاك

وضرب الحارث المحاسبي رحمه الله لهذه الأربعة مثالا أحسن فيه فقال : مثالهم كأربعة قصدوا مجلسا من العلم والحديث لينالوا به فائدة وفضلا وهداية ورشدا ، فحسدهم على ذلك ضال مبتدع وخاف أن يعرفوا الحق ، فتقدم إلى واحد فمنعه وصرفه عن ذلك ودعاه إلى مجلس ضلال فأبى ، فلما عرف إباءه شغله بالمجادلة فاشتغل معه ليرد ضلاله وهو يظن أن ذلك مصلحة له ، وهو غرض الضال ليفوت عليه بقدر تأخره . فلما مر الثانى عليه نهاه واستوقفه ، فوقف فدفع فى نحر الضال ولم يشتغل بالقتال واستعجل ، ففرح منه الضال بقدر توقفه للدفع فيه . ومر به الثالث فلم يلتفت إليه ولم يشتغل بدفعه ولا بقتاله ، بل استمر على ما كان ، فخاب منه رجاؤه بالكلية . فمر الرابع فلم يتوقف له ، وأراد أن يغيظه فزاد فى عجلته وترك التأنى فى المشى ، فيوشك إن عادوا ومروا عليه مرة أخرى أن يعاود الجميع إلا هذا الأخير فإنه لا يعاوده خيفة من أن يزداد فائدة باستعجاله .

فإن قلت : فإذا كان الشيطان لا تؤمن نزغاته فهل يجب الترصد له قبل حضوره للحذر منه انتظاراً لوروده ، أم يجب التوكل على الله ليكون هو الدافع له ، أو يجب الاشتغال بالعبادة والغفلة عنه ؟ قلنا : اختلف الناس فيه على ثلاثة أوجه :فذهبت فرقة من أهل البصرة إلى أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر من الشيطان لأنهم انقطعوا إلى الله واشتغلوا بحبه فاعتزلهم الشيطان وأيس منهم وخنس عنهم ـ كما أيس من ضعفاء العباد فى الدعوة إلى الخمر والزنا ـ فصارت ملاذ الدنيا عندهم ـ وإن كانت مباحة ـ كالخمر والخنزير ، فارتحلوا من حبها بالكلية فلم يبق للشيطان إليهم سبيل فلا حاجة بهم إلى الحذر . وذهبت فرقة من أهل الشام إلى أن الترصد للحذر منه إنما يحتاج إليه من قل يقينه ونقص توكله ، فمن أيقن بأن لا شريك لله فى تدبيره فلا يحذر غيره ويعلم أن الشيطان ذليل مخلوق ليس له أمر ولا يكون إلا ما أراده الله فهو الضار والنافع ، والعارف يستحي منه أن يحذر غيره ، فاليقين بالوحدانية يغنيه عن الحذر . وقالت فرقة من أهل العلم :لا بد من الحذر من الشيطان وما ذكره البصريون من أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر وخلت قلوبهم عن حب الدنيا بالكلية فهو وسيلة الشيطان يكاد يكون غرورا ، إذ الأنبياء عليهم السلام لم يتخلصوا من وسواس الشيطان ونزغاته فكيف يتخلص غيرهم ؟ وليس كل وسواس الشيطان من الشهوات وحب الدنيا ، بل فى صفات الله تعالى وأسمائه ، وفى تحسين البدع والضلال وغير ذلك ، ولا ينجو أحد من الخطر فيه ولذلك قال تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم « إنه ليغان على قلبى [1] » مع أن شيطانه قد أسلم ولا يأمره إلا بخير [2] فمن ظن أن اشتغاله بحب الله أكثر من اشتغال رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم السلام فهو مغرور ، ولم يؤمنهم ذلك من كيد الشيطان ولذلك لم يسلم منه آدم وحواء فى الجنة التى هى دار الأمن والسرور بعد أن قال الله لهما ﴿ إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ﴾ ومع أنه لم ينه إلا عن شجرة واحدة وأطلق له وراء ذلك ما أراد فإذا لم يأمن نبي من الأنبياء وهو فى الجنة دار الأمن والسعادة من كيد الشيطان فكيف يجوز لغيره أن يأمن فى دار

(١) حديث « إنه ليغان على قلبى » تقدم (٢) حديث : إن شيطانه أسلم فلا يأمر إلا بخير . تقدم أيضا .

والدنيا وهى منبع المحن والفتن معدن الملاذ والشهوات المنهى عنها ؟ وقال موسى عليه السلام فيما أخبر عنه تعالى ﴿ هذا من عمل الشيطان ﴾ ولذلك حذر الله منه جميع الخلق فقال الله تعالى ﴿ يا بنى آدم لايفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ﴾ وقال عز وجل ﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم ﴾ والقرآن من أوله الى آخره تحذير من الشيطان فكيف يدع الأمن منه ؟ وأخذ الحذر من حيث أمر الله به لاينافى الاشتغال بحب الله ، فإن من الحب له امتثال أمره وقد أمر بالحذر من العدو كما أمر بالحذر من الكفار فقال تعالى ﴿ وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ﴾ وقال تعالى ﴿ وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾ فإذا لزمك بأمر الله الحذر من العدو الكافر وأنت تراه فبأن يلزمك الحذر من عدو يراك ولا تراه أولى . ولذلك قال ابن محيريز : صيد تراه ولا يراك يوشك أن تظفر به ، وصيد يراك ولاتراه يوشك أن يظفر بك . فأشار إلى الشيطان ، فكيف وليس فى الغفلة عن عداوة الكافر إلا قتل هو شهادة وفى إهمال الحذر من الشيطان التعرض للنار والعقاب الأليم ؟ فليس من الاشتغال بالله الإعراض عما حذر الله . وبه يبطل مذهب الفرقة الثانية فى ظنهم أن ذلك قادح فى التوكل ، فإن أخذ الترس والسلاح وجمع الجنود وحفر الخندق لم يقدح فى توكل رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يقدح فى التوكل الخوف مما خوف الله به والحذر مما أمر بالحذر منه ؟ وقد ذكرنا فى كتاب التوكل مايبين غلط من زعم أن معنى التوكل النزوع عن الأسباب بالكلية وقوله تعالى ﴿ وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾ لايناقض امتثال التوكل ، مهما اعتقد القلب أن الضار والنافع والمحيي والمميت هو الله تعالى ، فكذلك يحذر الشيطان ويعتقد أن الهادى والمضل هو الله ، ويرى الأسباب وسائط مسخرة ـ كما ذكرناه فى التوكل .

وهذا مااختاره الحارث المحاسبي رحمه الله وهو الصحيح الذى يشهد له نور العلم ، وما قبله يشبه أن يكون من كلام العباد الذين لم يغزر علمهم ، ويظنون أن مايهجم عليهم من الأحوال فى بعض الأوقات من الاستغراق بالله يستمر على الدوام وهو بعيد .

ثم اختلفت هذه الفرقة على ثلاثة أوجه فى كيفية الحذر فقال قوم : إذا حذرنا الله تعالى العدو فلا ينبغى أن يكون شىء أغلب فى قلوبنا عن ذكره والحذر منه والترصد له ، فإنا إن غفلنا عنه لحظة فيوشك أن يهلكنا . وقال قوم : إن ذلك يؤدى إلى خلو القلب عن ذكر الله واشتغال الهم كله بالشيطان وذلك مراد الشيطان منا ، بل نشتغل بالعبادة وبذكر الله تعالى ولا ننسى الشيطان وعداوته والحاجة إلى الحذر منه فنجمع بين الأمرين ، فإنا إن نسينا ربما عرض من حيث لانحتسب ، وإن تجردنا لذكره كنا قد أهملنا ذكر الله ، فالجمع أولى . وقال العلماء المحققون : غلط الفريقان ؛ أما الأول فقد تجرد لذكر الشيطان ونسى ذكر الله فلا يخفى غلطه ، وإنما أمرنا بالحذر من الشيطان كيلا يصدنا عن الذكر فكيف نجعل ذكره أغلب الأشياء على قلوبنا وهو منتهى ضرر العدو ؟ ثم يؤدى ذلك إلى خلو القلب عن نور ذكر الله تعالى ، فإذا قصد الشيطان مثل هذا القلب وليس فيه نور ذكر الله تعالى وقوة الاشتغال به فيوشك أن يظفر به ولا يقوى على دفعه ، فلم يأمرنا بانتظار الشيطان ولا بإدمان ذكره . وأما الفرقة الثانية فقد شاركت الأولى إذ جمعت فى القلب بين ذكر الله والشيطان ، وبقدر مايشتغل القلب بذكر الشيطان ينقص من ذكر الله ، وقد أمر الله الخلق بذكره ونسيان ماعداه ـ إبليس وغيره ـ فالحق أن يلزم العبد قلبه الحذر من الشيطان ويقرر على نفسه عداوته ، فإذا اعتقد ذلك وصدق به وسكن الحذر فيه فيشتغل بذكر الله ويكب عليه بكل الهمة ولا يخطر بباله أمر الشيطان ، فإنه إذا اشتغل بذلك بعد معرفة عداوته ثم خطر الشيطان له تنبه له ،

وعند التنبه يشتغل بدفعه والاشتغال بذكر الله لايمنع من التيقظ عند نزغة الشيطان بل الرجل ينام وهو خائف من أن يفوته مهم عند طلوع الصبح ، فيلزم نفسه الحذر وينام على أن يتنبه فى ذلك الوقت فيتنبه فى الليل مرات قبل أوانه لما أسكن فى قلبه من الحذر ، مع أنه بالنوم غافل عنه ، فاشتغاله بذكر الله كيف يمنع تنبهه ؟ ومثل هذا القلب هو الذى يقوى على دفع العدو إذا كان اشتغاله بمجرد ذكر الله تعالى قد أمات منه الهوى وأحيا فيه نور العقل والعلم وأماط عنه ظلمة الشهوات ، فأهل البصيرة أشعروا قلوبهم عداوة الشيطان وترصده وألزموها الحذر ، ثم لم يشتغلوا بذكره بل بذكر الله ، ودفعوا بالذكر شر العدو ، واستضاءوا بنور الذكر حتى صرفوا خواطر العدو . فمثال القلب مثال بئر أريد تطهيرها من الماء القذر ليتفجر منها الماء الصافى . فالمشتغل بذكر الشيطان قد ترك فيها الماء القذر ، والذى جمع بين ذكر الشيطان وذكر الله قد نزح الماء القذر من جانب ولكنه تركه جاريا إليها من جانب آخر فيطول تعبه ولا تجف البئر من الماء القذر ، والبصير هو الذى جعل لمجرى الماء القذر سدا وملأها بالماء الصافى فاذا جاء الماء القذر دفعه بالسكر والسد من غير كلفة ومؤنة وزيادة تعب .

بيان الرخصة فى قصد إظهار الطاعات

إعلم أن فى الأسرار للأعمال فائدة الإخلاص والنجاة من الرياء ، وفى الإظهار فائدة الإقتداء وترغيب الناس فى الخير ولكن فيه آفة الرياء . قال الحسن : قد علم المسلمون أن السر أحرز العملين ، ولكن فى الإظهار أيضا فائدة ولذلك أثنى الله تعالى على السر والعلانية فقال ﴿ إن تبدوا الصدقات فنعما هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ﴾ .

والإظهار قسمان (أحدهما) فى نفس العمل (والآخر) التحدث بما عمل

القسم الأول : إظهار نفس العمل كالصدقة فى الملأ لترغيب الناس فيها كما روى عن الأنصارى الذى جاء بالصرة فتتابع الناس بالعطية لما رأوه فقال النبى صلى الله عليه وسلم « من سن سنة حسنة فعمل بها كان له أجرها وأجر من اتبعه [1] » وتجرى سائر الأعمال هذا المجرى من الصلاة والصيام والحج والغزو وغيرها ولكن الاقتداء فى الصدقة على الطباع أغلب . نعم الغازى إذا هم بالخروج فاستعد وشد الرحل قبل القوم تحريضا لهم على الحركة فذلك أفضل له لأن الغزو فى أصله من أعمال العلانية لايمكن إسراره ، فالمبادرة إليه ليست من الإعلان بل هو تحريض مجرد ، وكذلك الرجل قد يرفع صوته فى الصلاة بالليل لينبه جيرانه وأهله فيقتدى به . فكل عمل لايمكن إسراره كالحج والجهاد والجمعة فالأفضل المبادرة إليه وإظهار الرغبة فيه للتحريض بشرط أن لايكون فيه شوائب الرياء ، وأما مايمكن إسراره كالصدقة والصلاة فإن كان إظهار الصدقة يؤذى المتصدق عليه ويرغب الناس فى الصدقة فالسر أفضل لأن الإيذاء حرام . فإن لم يكن فيه إيذاء فقد اختلف الناس فى الأفضل فقال قوم : السر أفضل من العلانية وإن كان فى العلانية قدوة ، وقال قوم : السر أفضل من علانية لاقدوة فيها ، أما العلانية للقدوة فأفضل من السر . ويدل على ذلك أن الله عز وجل أمر الأنبياء بإظهار العمل للاقتداء وخصهم بمنصب النبوة ، ولا يجوز أن يظن بهم أنهم حرموا أفضل العملين . ويدل عليه قوله عليه السلام « فله أجرها وأجر من عمل بها » وقد روى فى الحديث

---

(١) حديث « من سن سنة حسنة فعمل بها كان له أجرها وأجر من اتبعه » وفى أوله قصة مسلم من حديث جرير بن عبدالله البجلى .

« إن عمل السر يضاعف على عمل العلانية سبعين ضعفاً ويضاعف عمل العلانية إذا استن بعامله على عمل السر سبعين ضعفا[1] » وهذا لاوجه للخلاف فيه فإنه مهما انفك القلب عن شوائب الرياء وتم الإخلاص على وجه واحد فى الحالتين فما يقتدى به أفضل لامحالة ، وإنما يخاف من ظهور الرياء ، ومهماحصلت شائبة الرياء لم ينفعه اقتداء غيره وهلك به ، فلا خلاف فى أن السر أفضل منه .

ولكن على من يظهر العمل وظيفتان (إحداهما) أن يظهره حيث يعلم أنه يقتدى به أو يظن ذلك ظنا ، ورب رجل يقتدى به أهله دون جيرانه، وربما يقتدى به جيرانه دون أهل السوق ، وربما يقتدى به أهل محلته ، وإنما العالم المعروف هو الذى يقتدى به الناس كافة . فغير العالم إذا أظهر بعض الطاعات ربما نسب إلى الرياء والنفاق وذموه ولم يقتدوا به فليس له الإظهار من غير فائدة ، وإنما يصح الإظهار بنية القدوة ممن هو فى محل القدوة على من هو فى محل الاقتداء به (والثانية) أن يراقب قلبه فإنه ربما يكون فيه حب الرياء الخفى فيدعوه الإظهار بعذر الاقتداء ، وإنما شهوته التجمل بالعمل وبكونه يقتدى به ، وهذا حال كل من يظهر أعماله إلا الأقوياء المخلصين وقليل ماهم . فلا ينبغى أن يخدع الضعيف نفسه بذلك فيهلك وهو لايشعر ، فإن الضعيف مثاله مثال الغريق الذى يحسن سباحة ضعيفة فنظر إلى جماعة من الغرقى فرحمهم فأقبل عليهم حتى تشبثوا به فهلكوا وهلك ، والغرق بالماء فى الدنيا ألمه ساعة وليت كان الهلاك بالرياء مثله ، لابل عذابه دائم مدة مديدة ، وهذه مزلة أقدام العباد والعلماء فإنهم يتشبهون بالأقوياء فى الإظهار ولا تقوى قلوبهم على الإخلاص فتحبط أجورهم بالرياء ، والتفطن لذلك غامض ، ومحك ذلك أن يعرض على نفسه أنه لو قيل له أخف العمل حتى يقتدى الناس بعابد آخر من أقرانك ويكون لك فى السر مثل أجر الإعلان ، فإن مال قلبه إلى أن يكون هو المقتدى به وهو المظهر للعمل فباعثه الرياء دون طلب الأجر واقتداء الناس به ورغبتهم فى الخير ، فإنهم قد رغبوا فى الخير بالنظر إلى غيره وأجره قد توفر عليه مع إسراره ، فما بال قلبه يميل إلى الإظهار لولا ملاحظته لأعين الخلق ومراءاتهم ؟ فليحذر العبد خدع النفس فإن النفس خدوع والشيطان مترصد وحب الجاه على القلب غالب ، وقلما تسلم الأعمال الظاهرة عن الآفات فلا ينبغى أن يعدل بالسلامة شيئا والسلامة فى الإخفاء ، وفى الإظهار من الأخطار مالا يقوى عليه أمثالنا ، فالحذر من الإظهار أولى بنا وبجميع الضعفاء .

القسم الثانى : أن يتحدث بما فعله بعد الفراغ ، وحكمه حكم إظهار العمل نفسه والخطر فى هذا أشد لأن مؤنة النطق خفيفة على اللسان ، وقد تجرى فى الحكاية زيادة ومبالغة وللنفس لذة فى إظهار الدعاوى عظيمة ، إلا أنه لو تطرق إليه الرياء لم يؤثر فى إفساد العبادة الماضية بعد الفراغ منها ، فهو من هذا الوجه أهون ، والحكم فيه أن من قوى قلبه وتم إخلاصه وصغر الناس فى عينه واستوى عنده مدحهم وذمهم ، وذكر ذلك عند من يرجو الاقتداء به والرغبة فى الخير بسببه فهو جائز ، بل هو مندوب إليه إن صفت النية وسلمت عن جميع الآفات ، لأنه ترغيب فى الخير ، والترغيب فى الخير خير ، وقد نقل مثل ذلك عن جماعة من السلف الأقوياء . قال سعد بن معاذ :

---

(١) حديث « إن عمل السر يضاعف على عمل العلانية بسبعين ضعفا ويضاعف عمل العلانية إذا استن به على عمل السر سبعين ضعفا » أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث أبى الدرداء مقتصرا على الشطر الأول بنحوه وقال هذا من أفراد بقية عن شيوخه المجهولين ، وقد تقدم قبل هذا بنحو ورقتين وله من حديث ابن عمر « عمل السر أفضل من عمل العلانية والعلانية أفضل لمن أراد الاقتداء » وقال تفرد به بقية عن عبد الملك بن مهران وله من حديث عائشة « يفضل - أو يضاعف - الذكر الخفى الذى لايسمعه الحفظة على الذى تسمعه بسبعين ضعفا » وقال تفرد به معاوية بن يحيى الصدفى وهو ضعيف .

ماصليت صلاة منذ أسلمت لحدثتها نفسى بغيرها ، ولا تبعت جنازة لحدثت نفسى بغير ماهى قائلة وما هو مقول لها ، وما سمعت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقول قولا قط إلا علمت أنه حق . وقال عمر رضى الله عنه : ما أبالى أصبحت على عسر أو يسر لأنى لأدرى أيهما خير لى ؟ وقال ابن مسعود : ماأصبحت على حال فتمنيت أن أكون على غيرها . وقال عثمان رضى الله عنه : ماتغنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكرى بيمينى منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] وقال شداد بن أوس . ماتكلمت بكلمة منذ أسلمت حتى أزمها وأخطمها ، غير هذه ! وكان قد قال لغلامه : ائتنا بالسفرة لنبعث بها حتى ندرك الغداء . وقال أبو سفيان لأهله حين حضره الموت : لاتبكوا على فإنى ماأحدثت ذنبا منذ أسلمت . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : ماقضى الله فى بقضاء قط فسرنى أن يكون قضى لى بغيره ، وما أصبح لى هوى إلا فى مواقع قدر الله .

فهذا كله إظهار لأحوال شريفة ، وفيها غاية المراءاة إذا صدرت عن يرائى بها ، وفيها غاية الترغيب إذا صدرت عمن يقتدى به . فذلك على قصد الاقتداء جائز للأقوياء بالشروط التى ذكرناها فلا ينبغى أن يسد باب إظهار الأعمال والطباع مجبولة على حب التشبه والاقتداء ، بل إظهار المرائى للعبادة إذ لم يعلم الناس أنه رياء فيه خير كثير للناس ولكنه شر للمرائى . فكم من مخلص كان سبب إخلاصه الاقتداء بمن هو مراء عند الله ؟ وقد روى أنه كان يجتاز الإنسان فى سكك البصرة عند الصبح فيسمع أصوات المصلين بالقرآن من البيوت ، فصنف بعضهم كتابا فى دقائق الرياء فتركوا ذلك وترك الناس الرغبة فيه ، فكانوا يقولون ليت ذلك الكتاب لم يصنف ! فإظهار المرائى فيه خير كثير لغيره إذا لم يعرف رياؤه . وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لاخلاق لهم [2] كما ورد فى الأخبار وبعض المرائين ممن يقتدى به منهم والله تعالى أعلم .

بيان الرخصة فى كتمان الذنوب وكراهة إطلاع الناس عليها وكراهة ذمهم له

اعلم أن الأصل فى الإخلاص استواء السريرة والعلانية كما قال عمر رضى الله عنه لرجل : عليك بعمل العلانية ، قال : ياأمير المؤمنين وما عمل العلانية ؟ قال . ما إذا اطلع عليك لم تستحى منه . وقال أبو مسلم الخولانى : ما عملت عملا أبالى أن يطلع الناس عليه إلا إتيانى أهلى والبول والغائط ، إلا أن هذه درجة عظيمة لا ينالها كل واحد . ولا يخلو الإنسان عن ذنوب بقلبه أو بجوارحه وهو يخفيها ويكره اطلاع الناس عليها لا سيما ما تختلج به الخواطر فى الشهوات والأمانى ، والله مطلع على جميع ذلك فإرادة العبد لإخفائها عن العبيد ربما يظن أنه رياء محظور وليس كذلك بل المحظور أنه يستر ذلك ليرى الناس أنه ورع خائف من الله تعالى مع أنه ليس كذلك فهذا هو ستر المرائى .

وأما الصادق الذى لا يرائى فله ستر المعاصى ويصح قصده فيه ، ويصح اغتمامه باطلاع الناس عليه فى ثمانية أوجه :

(الأول) أن يفرح بستر الله عليه ، وإذا افتضح اغتم بهتك الله ستره وخاف أن يهتك ستره فى القيامة ، إذ ورد فى الخبر « أن من ستر الله عليه فى الدنيا ذنباً ستره الله عليه فى الآخرة [3] » وهذا غم ينشأ من قوة الإيمان .

---

(١) حديث عثمان قوله : ماتغنيت ولا تمنيت ولامسست ذكرى بيمينى منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث » أخرجه أبو يعلى الموصلى فى معجمه بإسناد ضعيف من رواية أنس عنه فى أثناء حديث وان عثمان قال : يارسول الله ، فذكره بلفظ منذ بايعتك ، قال « هو ذاك ياعثمان » (٢) حديث « أن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لاخلاق لهم » هما حديثان فالأول متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم فى العلم والثانى رواه النسائى من حديث أنس بسند صحيح وتقدم أيضاً .

(٣) حديث « أن من ستر عليه فى الدنيا يستر عليه فى الآخرة » تقدم قبل هذا بورقة .

(الثانى) أنه قد علم أن الله تعالى يكره ظهور المعاصى ويحب سترها كما قال صلى الله عليه وسلم «من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليستتر بستر الله[1]» فهو وإن عصى الله بالذنب فلم يخل قلبه عن محبة ما أحبه الله . وهذا ينشأ من قوة الإيمان بكراهة الله لظهور المعاصى ، وأثر الصدق فيه أن يكره ظهور الذنب من غيره أيضا ويغتم بسببه .

(الثالث) أن يكره ذم الناس له به من حيث إن ذلك يغمه ويشغل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى ، فإن الطبع يتأذى بالذم وينازع العقل ويشغل عن الطاعة ، وبهذه العلة أيضا ينبغى أن يكره الحمد الذى يشغله عن ذكر الله تعالى ويستغرق قلبه ويصرفه عن الذكر. وهذا أيضا من قوة الإيمان إذ صدق الرغبة فى فراغ القلب لأجل الطاعة من الإيمان .

(الرابع) أن يكون ستره ورغبته فيه لكراهته لذم الناس من حيث يتأذى طبعه ، فإن الذم مؤلم للقلب كما أن الضرب مؤلم للبدن ، وخوف تألم القلب بالذم ليس بحرام ولا الإنسان به عاص وإنما يعصى إذا جزعت نفسه من ذم الناس ودعته إلى ما لا يجوز حذرا من ذمهم ، وليس يجب على الإنسان أن لا يغتم بذم الخلق ولا يتألم به . نعم كمال الصدق فى أن تزول عنه رؤيته للخلق فيستوى عنده ذامه ومادحه لعلمه أن الضار والنافع هو الله وأن العباد كلهم عاجزون ؛ وذلك قليل جدا ، وأكثر الطباع تتألم بالذم لما فيه من الشعور بالنقصان ، ورب تألم بالذم محمود إذا كان الذام من أهل البصيرة فى الدين فإنهم شهداء الله، وذمهم يدل على ذم الله تعالى وعلى نقصان فى الدين فكيف لا يغتم به ؟ نعم الغم المذموم هو أن يغتم لفوات الحمد بالورع ، كأنه يحب أن يحمد بالورع ، ولا يجوز أن يحب أن يحمد بطاعة الله ، فيكون قد طلب بطاعة الله ثوابا من غيره ، فإن وجد ذلك فى نفسه وجب عليه أن يقابله بالكراهة والرد .

وأما كراهة الذم بالمعصية من حيث الطبع فليس بمذموم فله الستر حذراً من ذلك ، ويتصور أن يكون العبد بحيث لا يحب الحمد ولكن يكره الذم . وإنما مراده أن يتركه الناس حمدا وذما ، فكم من صابر عن لذة الحمد لا يصبر على ألم الذم ؟ إذ الحمد يطلب اللذة ، وعدم اللذة لا يؤلم ، وأما الذم فإنه مؤلم ؛ فحب الحمد على الطاعة طلب ثواب على الطاعة فى الحال ، وأما كراهة الذم على المعصية فلا محذور فيه إلا أمر واحد وهو أن يشغله غمه باطلاع الناس على ذنبه عن اطلاع الله فإن ذلك غاية النقصان فى الدين ، بل ينبغى أن يكون غمه باطلاع الله وذمه له أكثر .

(الخامس) أن يكره الذم من حيث إن الذام قد عصى الله تعالى به وهذا من الإيمان ، وعلامته أن يكره ذمه لغيره أيضا فهذا التوجع لا يفرق بينه وبين غيره بخلاف التوجع من جهة الطبع .

(السادس) أن يستر ذلك كيلا يقصد بشر إذا عرف ذنبه وهذا وراء ألم الذم ، فإن الذم مؤلم من حيث يشعر القلب بنقصانه وخسته وإن كان ممن يؤمن شره ، وقد يخاف شر من يطلع على ذنبه بسبب من الأسباب ، فله أن يستر ذلك حذرا منه .

(السابع) مجرد الحياء فإنه نوع ألم وراء ألم الذم والقصد بالشر ، وهو خلق كريم يحدث فى أول الصبا مهما أشرق عليه نور العقل فيستحيى من القبائح إذا شوهدت وهو منه وصف محمود إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الحياء خير كله[2]» ، وقال صلى الله عليه وسلم «الحياء شعبة من الإيمان[3]» ، وقال صلى الله عليه وسلم «الحياء لا يأتى إلا بخير[4]» ، وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله يحب الحيى الحليم[5]» ، فالذى يفسق ولا يبالى أن يظهر فسقه

---

(١) حديث «من ارتكب من هذه القاذورات شيئا فليستتر بستر الله» أخرجه الحاكم فى المستدرك وقد تقدم .

(٢) حديث «الحياء خير كله» أخرجه مسلم من حديث عمران بن حصين وقد تقدم (٣) حديث «الحياء شعبة من الإيمان» متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم (٤) حديث «الحياء لا يأتى إلا بخير» متفق عليه من حديث عمران بن حصين وقد تقدم (٥) حديث «إن الله يحب الحيى الحليم» أخرجه الطبرانى من حديث فاطمة ، وللبزار من حديث أبى هريرة «إن الله يحب الغنى الحليم المتعفف» وفيه ليث بن أبى سليم مختلف فيه .

للناس جمع إلى الفسق والتهتك والوقاحة وفقد الحياء ، فهو أشد حالا ممن يستتر ويستحيي ، إلا أن الحياء ممتزج بالرياء ومشتبه به اشتباها عظيما قل من يتفطن له ، ويدعى كل مراء أنه مستحي وأن سبب تحسينه العبادات هو الحياء من الناس ، وذلك كذب ، بل الحياء خلق ينبعث من الطبع الكريم وتهيج عقبه داعية الرياء وداعية الإخلاص ، ويتصور أن يخلص معه ويتصور أن يرائى معه .

وبيانه أن الرجل يطلب من صديق له قرضا ونفسه لاتسخو بإقراضه إلا أنه يستحيي من رده ، وعلم أنه لو راسله على لسان غيره لكان لايستحيي ولا يقرض رياء ولا لطلب الثواب ، فله عند ذلك أحوال : أحدها : أن يشافه بالرد الصريح ولا يبالى فينسب إلى قلة الحياء ، وهذا فعل من لاحياء له . فإن المستحيي إما أن يتعلل أو يقرض .

فإن أعطى فيتصور له ثلاثة أحوال :

أحدها . أن يمزج الرياء بالحياء بأن يهيج الحياء فيقبح عنده الرد ، فيهيج خاطر الرياء ويقول : ينبغى أن تعطى حتى يثنى عليك ويحمدك وينشر اسمك بالسخاء ، أو ينبغى أن تعطى حتى لايذمك ولا ينسبك إلى البخل . فإذا أعطى فقد أعطى بالرياء وكان المحرك للرياء هو هيجان الحياء .

الثانى : أن يتعذر عليه الرد بالحياء ويبقى فى نفسه البخل فيتعذر الإعطاء ، فيهيج داعى الإخلاص ويقول له : إن الصدقة بواحدة والقرض بثمان عشرة ففيه أجر عظيم وإدخال سرور على قلب صديق وذلك محمود عند الله تعالى ، فتسخو النفس بالإعطاء لذلك ، فهذا مخلص هيج الحياء إخلاصه .

الثالث : أن لايكون له رغبة فى الثواب ولا خوف من مذمته ولا حب لمحمدته ، لأنه لو طلبه مراسلة لكان لايعطيه فأعطاه بمحض الحياء ، وهو مايجده فى قلبه من ألم الحياء ولولا الحياء لرده ، ولو جاءه من لايستحيى منه من الأجانب أو الأراذل لكان يرده وإن كثر الحمد والثواب فيه ، فهذا مجرد الحياء ولا يكون هذا إلا فى القبائح كالبخل ومقارفة الذنوب . والمرائى يستحيى من المباحات أيضا ، حتى إنه يرى مستعجلا فى المشى فيعود إلى الهدوء ، أو ضاحكا فيرجع إلى الانقباض ، ويزعم أن ذلك حياء وهو عين الرياء . وقد قيل إن بعض الحياء ضعف وهو صحيح ، والمراد به الحياء مما ليس بقبيح كالحياء من وعظ الناس وإمامة الناس فى الصلاة ، وهو فى الصبيان والنساء محمود وفى العقلاء غير محمود . وقد تشاهد معصية من شيخ فتستحيي من شيبته أن تنكر عليه لأن من إجلال الله إجلال ذى الشيبة المسلم ، وهذا الحياء حسن وأحسن منه أن يستحيي من الله فلا تضيع الأمر بالمعروف ، فالقوى يؤثر الحياء من الله على الحياء من الناس والضعيف قد لايقدر عليه فهذه هى الأسباب التى يجوز لأجلها ستر القبائح والذنوب .

(الثامن) أن يخاف من ظهور ذنبه أن يستجرئ عليه غيره ويقتدى به ، وهذه العلة الواحدة فقط هى الجارية فى إظهار الطاعة وهو القدوة ، ويختص ذلك بالأئمة أو بمن يقتدى به ، وبهذه العلة ينبغى أيضا أن يخفى العاصى أيضا معصيته من أهله وولده لأنهم يتعلمون منه .

ففى ستر الذنوب : هذه الأعذار الثمانية ، وليس فى إظهار الطاعة عذر إلا هذا العذر الواحد ، ومهما قصد بستر المعصية أن يخيل إلى الناس أنه ورع كان مرائيا كما إذا قصد ذلك بإظهار الطاعة .

فإن قلت : فهل يجوز للعبد أن يحب حمد الناس له بالصلاح وحبهم إياه بسببه وقد قال رجل للنبى صلى الله عليه

وسلم : دلنى على مايحبنى الله عليه ويحبنى الناس قال « ازهد فى الدنيا يحبك الله وانبذ إليهم هذا الحطام يحبوك [1] » ؟ فنقول : حبك لحب الناس لك قد يكون مباحا وقد يكون محمودا وقد يكون مذموما . فالمحمود أن تحب ذلك لتعرف به حب الله لك ، فإنه تعالى إذا أحب عبدا حببه فى قلوب عباده . والمذموم أن تحب حبهم وحمدهم على حجك وغزوك وصلاتك وعلى طاعة بعينها ، فإن ذلك طلب عوض على طاعة الله عاجل سوى ثواب الله . والمباح أن تحب أن يحبوك لصفات محمودة سوى الطاعات المحمودة المعينة ؛ فحبك ذلك كحبك المال لأن ملك القلوب وسيلة إلى الأغراض كملك الأموال فلا فرق بينهما .

بيان ترك الطاعات خوفا من الرياء ودخول الآفات

اعلم أن من الناس من يترك العمل خوفا من أن يكون مرائيا به وذلك غلط وموافقة للشيطان ، بل الحق فيما يترك من الأعمال وما لا يترك لخوف الآفات مانذكره ، وهو أن الطاعات تنقسم إلى : مالا لذة فى عينه ؛ كالصلاة والصوم والحج والغزو فإنها مقاساة ومجاهدات ، إنما تصير لذيذة من حيث إنها توصل إلى حمد الناس ، وحمد الناس لذيذ ، وذلك عند اطلاع الناس عليه . وإلى : ماهو لذيذ ؛ وهو أكثر مالا يقتصر على البدن ، بل يتعلق بالخلق كالخلافة والقضاء والولايات والحسبة وإمامة الصلاة والتذكير والتدريس وإنفاق المال على الخلق ، وغير ذلك مما تعظم الآفة فيه لتعلقه بالخلق ولما فيه من اللذة .

القسم الأول : الطاعات اللازمة للبدن - التى لاتتعلق بالغير ولا لذة فى عينها - كالصوم والصلاة والحج ، فخطرات الرياء فيها ثلاث (إحداها) ما يدخل قبل العمل فيبعث على الابتداء لرؤية الناس وليس معه باعث الدين ، فهذا مما ينبغى أن يترك لأنه معصية لاطاعة فيه ، فإنه تدرع بصورة الطاعة إلى طلب المنزلة ، فإن قدر الإنسان على أن يدفع عن نفسه باعث الرياء ويقول لها : ألا تستحيين من مولاك لاتسخين بالعمل لأجله وتسخين بالعمل لأجل عباده ؟ حتى يندفع باعث الرياء وتسخو النفس بالعمل لله عقوبة للنفس على خاطر الرياء وكفارة له فليشتغل بالعمل . (الثانية) أن ينبعث لأجل الله ولكن يعترض الرياء مع عقد العبادة وأولها ، فلا ينبغى أن يترك العمل لأنه وجد باعثا دينيا ، فليشرع فى العمل وليجاهد نفسه فى دفع الرياء وتحسين الإخلاص بالمعالجات التى ذكرناها من إلزام النفس كراهة الرياء والإباء عن القبول (الثالثة) أن يعقد على الإخلاص ثم يطرأ الرياء ودواعيه ، فينبغى أن يجاهد فى الدفع ولا يترك العمل لكى يرجع إلى عقد الإخلاص ويرد نفسه إليه قهرا حتى يتمم العمل ، لأن الشيطان يدعوك أولا إلى ترك العمل ، فإذا لم تجب واشتغلت فيدعوك إلى الرياء ، فإذا لم تجب ودفعت بقى يقول لك : هذا العمل ليس بخالص وأنت مراء وتعبك ضائع فأى فائدة لك فى عمل لا إخلاص ؟ حتى يحملك بذلك على ترك العمل ، فإذا تركته فقد حصلت غرضه . ومثال من يترك العمل لخوفه أن يكون مرائيا كمن سلم إليه مولاه حنطة فيها زوان وقال : خلصها من الزوان ونقها منه تنقية بالغة ، فيترك أصل العمل ويقول : أخاف إن اشتغلت به لم تخلص خلاصا صافيا نقيا . فترك العمل من أجله هو ترك الإخلاص مع أصل العمل ، فلا معنى له . ومن هذا القبيل أن يترك العمل خوفا على الناس أن يقولوا إنه مراء فيعصون الله به . فهذا من مكايد الشيطان لأنه أولا أساء الظن بالمسلمين ، وما كان من حقه أن يظن بهم ذلك ، ثم إن كان فلا يضره قولهم ويفوته ثواب

(1) حديث : قال رجل دلنى على مايحبنى الله عليه ويحبنى الناس قال « ازهد فى الدنيا يحبك الله ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث سهل بن سعد بلفظ « وازهد فيما فى أيدى الناس » وقد تقدم

العبادة ، وترك العمل خوفا من قولهم إنه مراء هو عين الرياء ، فلولا حبه لمحمدتهم وخوفه من ذمهم فماله ولقولهم قالوا إنه مراء أو قالوا إنه مخلص ؟ وأى فرق بين أن يترك العمل خوفا من أن يقال إنه مراء ، وبين أن يحسن العمل خوفا من أن يقال إنه غافل مقصر ؟ بل ترك العمل أشد من ذلك . فهذه كلها مكايد الشيطان على العباد الجهال ، ثم كيف يطمع فى أن يتخلص من الشيطان بأن يترك العمل والشيطان لايخليه بل يقول له : الآن يقول الناس إنك تركت العمل ليقال إنه مخلص لايشتهى الشهرة . فيضطرك بذلك إلى أن تهرب ، فإن هربت ودخلت سربا تحت الأرض ألقى فى قلبك حلاوة معرفة الناس لتزهدك وهربك منهم وتعظيمهم لك بقلوبهم على ذلك فكيف تتخلص منه ؟ بل لانجاة منه إلا بأن تلزم قلبك معرفة آفة الرياء وهو أنه ضرر فى الآخرة ولا نفع فيه فى الدنيا ليلزم الكراهة والإباء قلبك ، وتستمر مع ذلك على العمل ولاتبالى ، وإن نزغ العدو نازغ الطبع فإن ذلك لاينقطع ، وترك العمل لأجل ذلك يجر إلى البطالة وترك الخيرات . فما دمت تجد باعثا دينيا على العمل فلا تترك العمل وجاهد خاطر الرياء ، وألزم قلبك الحياء من الله إذا دعتك نفسك إلى أن تستبدل بحمده حمد المخلوقين ، وهو مطالع على قلبك ولو اطلع الخلق على قلبك وأنك تريد حمدهم لمقتوك ، بل إن قدرت على أن تزيد فى العمل حياء من ربك وعقوبة لنفسك فافعل . فإن قال لك الشيطان : أنت مراء ، فاعلم كذبه وخدعه بما تصادف فى قلبك من كراهة الرياء وإبائه وخوفك منه وحيائك من الله تعالى ، وإن لم تجد فى قلبك له كراهية ومنه خوفا ولم يبق باعث دينى بل تجرد باعث الرياء فاترك العمل عند ذلك وهو بعيد ، فمن شرع فى العمل لله فلا بد أن يبقى معه أصل قصد الثواب .

فإن قلت : فقد نقل عن أقوام ترك العمل مخافة الشهرة . روى أن إبراهيم النخعى دخل عليه إنسان وهو يقرأ فأطبق المصحف وترك القراءة وقال : لايرى هذا أنا نقرأ كل ساعة . وقال إبراهيم التيمى : إذا أعجبك الكلام فاسكت وإذا أعجبك السكوت فتكلم . وقال الحسن : إن كان أحدهم ليمر بالأذى مايمنعه من دفعه إلا كراهة الشهرة ، وكان أحدهم يأتيه البكاء فيصرفه إلى الضحك مخافة الشهرة . وقد ورد فى ذلك آثار كثيرة ؟ قلنا : هذا يعارضه ماورد من إظهار الطاعات ممن لايحصى ، وإظهار الحسن البصرى هذا الكلام فى معرض الوعظ أقرب إلى خوف الشهرة من البكاء وإماطة الأذى عن الطريق ثم لم يتركه .

وبالجملة ترك النوافل جائز والكلام فى الأفضل . والأفضل إنما يقدر عليه الأقوياء دون الضعفاء ، فالأفضل أن يتمم العمل ويجتهد فى الإخلاص ولايتركه ، وأرباب الأعمال قد يعالجون أنفسهم بخلاف الأفضل لشدة الخوف ، فالاقتداء ينبغى أن يكون بالأقوياء . وأما إطباق إبراهيم النخعى المصحف فيمكن أن يكون لعلمه بأنه سيحتاج إلى ترك القراءة عند دخوله واستئنافه بعد خروجه للاشتغال بمكالمته ، فرأى أن لايراه فى القراءة أبعد عن الرياء وهو عازم على الترك للاشتغال به حتى يعود إليه بعد ذلك . وأما ترك دفع الأذى فذلك ممن يخاف على نفسه آفة الشهرة وإقبال الناس عليه وشغلهم إياه عن عبادات هى أكبر من رفع خشبة من الطريق ، فيكون ترك ذلك للمحافظة على عبادات هى أكبر منها لا بمجرد خوف الرياء . وأما قول التيمى : إذا أعجبك الكلام فاسكت يجوز أن يكون قد أراد به مباحات الكلام كالفصاحة فى الحكايات وغيرها فإن ذلك يورث العجب ، وكذلك العجب بالسكوت المباح محذور فهو عدول عن مباح إلى مباح حذرا من العجب . فأما الكلام الحق المندوب إليه فلم ينص عليه ، على أن الآفة مما تعظم فى الكلام فهو واقع فى القسم الثانى ، وإنما كلامنا فى العبادات الخاصة ببدن

العبد مما لايتعلق بالناس ولاتعظم فيه الآفات ، ثم كلام الحسن فى تركهم البكاء وإماطة الأذى لخوف الشهرة ربما كان حكاية أحوال الضعفاء الذين لايعرفون الأفضل ولايدركون هذه الدقائق ، وإنما ذكره تخويفا للناس من آفة الشهرة وزجرا من طلبها .

القسم الثانى : مايتعلق بالخلق وتعظم فيه الآفات والأخطار ، وأعظمها الخلافة ثم القضاء ثم التذكير والتدريس والفتوى ثم إنفاق المال .

أما الخلافة والإمارة : فهى من أفضل العبادات إذا كان ذلك مع العدل والإخلاص ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « ليوم من إمام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين عاما [١] » فأعظم بعبادة يوازى يوم منها عبادة ستين سنة ، وقال صلى الله عليه وسلم « أول من يدخل الجنة ثلاثة : الإمام المقسط [٢] » أحدهم . وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاثة لاترد دعوتهم الإمام العادل [٣] » أحدهم . وقال صلى الله عليه وسلم « أقرب الناس منى مجلسا يوم القيامة إمام عادل [٤] » رواه أبو سعيد الخدرى . فالإمارة والخلافة من أعظم العبادات ، ولم يزل المتقون يتركونها ويحترزون منها ويهربون من تقلدها وذلك لما فيه من عظم الخطر ، إذ تتحرك بها الصفات الباطنة ويغلب على النفس حب الجاه ولذة الاستيلاء ونفاذ الأمر وهو أعظم ملاذ الدنيا : فإذا صارت الولاية محبوبة كان الوالى ساعيا فى حظ نفسه ، ويوشك أن يتبع هواه فيمتنع من كل مايقدح فى جاهه وولايته وإن كان حقا ، ويقدم على مايزيد فى مكانته وإن كان باطلا ، وعند ذلك يهلك ويكون يوم من سلطان جائر شرا من فسق ستين سنة بمفهوم الحديث الذى ذكرناه . ولهذا الخطر العظيم كان عمر رضى الله عنه يقول : من يأخذها بما فيها ، وكيف لاوقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « مامن والى عشرة إلا جاء يوم القيامة مغلولة يده إلى عنقه أطلقه عدله أو أوبقه جوره [٥] » رواه معقل بن يسار ، وولاه عمر ولاية فقال : ياأمير المؤمنين أشر على ، قال : اجلس واكتم على . وروى الحسن « أن رجلا ولاه النبى صلى الله عليه وسلم فقال للنبى : خر لى قال « اجلس [٦] » وكذلك حديث عبد الرحمن بن سمرة إذ قال له النبى صلى الله عليه وسلم « ياعبد الرحمن لاتسأل الإمارة فإنك إن أوتيتها من غير مسألة أعنت عليها وإن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها [٧] » وقال أبو بكر رضى الله عنه لرافع بن عمر : لاتأمر

---

(١) حديث « ليوم من إمام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين عاما ... الحديث » أخرجه الطبرانى والبيهقى من حديث ابن عباس وقد تقدم (٢) حديث « أول من يدخل الجنة ثلاثة : الإمام المقسط ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث عياض بن حماد « أهل الجنة ثلاث : ذو سلطان مقسط ... الحديث » ولم أر فيه ذكر الأولية (٣) حديث أبى هريرة « ثلاثة لاترد دعوتهم الإمام العادل » تقدم (٤) حديث أبى سعيد الخدرى « أقرب الناس منى مجلسا يوم القيامة إمام عادل » أخرجه الأصبهانى فى الترغيب والترهيب من رواية عطية العوفى وهو ضعيف عنه وفيه أيضا إسحق بن إبراهيم الديباجى ضعيف أيضاً

(٥) حديث « مامن والى عشرة إلا جاء يوم القيامة يده مغلولة إلى عنقه لايفكها إلا عدله » أخرجه أحمد من حديث عبادة بن الصامت ورواه أحمد والبزار من رواية رجل لم يسم عن سعد بن عبادة وفيهما يزيد بن أبى زياد متكلم فيه ورواه أحمد والبزار وأبو يعلى والطبرانى فى الأوسط من حديث أبى هريرة ورواه البزار والطبرانى من حديث أبى هريرة ورواه البزار والطبرانى من حديث بريدة والطبرانى فى الأوسط من حديث ابن عباس وثوبان وله من حديث أبى الدرداء « مامن والى ثلاثة إلا لقى الله مغلولة يمينه ... الحديث » وقد عزى المصنف هذا الحديث لرواية معقل بن يسار والمعروف من حديث معقل بن يسار « مامن عبد يسترعيه الله رعية لم يحطها بنصيحة إلا لم يرح رائحة الجنة » متفق عليه (٦) حديث الحسن : أن رجلا ولاه النبى صلى الله عليه وسلم فقال للنبى صلى الله عليه وسلم : خر لى قال « اجلس » أخرجه الطبرانى موصولا من حديث عصمة هو ابن مالك وفيه الفضل بن المختار وأحاديثه منكرة يحدث بالأباطيل قاله أبو حاتم ورواه أيضاً من حديث ابن عمر بلفظ « الزم بيتك » وفيه الفراب بن أبى الفراب ضعفه ابن معين وابن عدى وقال أبو حاتم صدوق .

(٧) حديث عبد الرحمن بن سمرة « لاتسل الإمارة ... الحديث » متفق عليه .

على اثنين ، ثم ولى هو الخلافة فقام بها فقال له رافع : ألم تقل لى لاتأمر على اثنين وأنت قد وليت أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : بلى وأنا أقول لك ذلك فمن لم يعدل فيها فعليه بهلة الله ، يعنى لعنة الله . ولعل القليل البصيرة يرى ماورد من فضل الإمارة مع ماورد من النهى عنها متناقضا وليس كذلك ، بل الحق فيه أن الخواص الأقوياء فى الدين لاينبغى أن يمتنعوا من تقلد الولايات ، وأن الضعفاء لاينبغى أن يدوروا بها فيهلكوا ، وأعنى بالقوى الذى لاتميله الدنيا ولا يستفزه الطمع ولاتأخذه فى الله لومة لائم ، وهم الذين سقط الخلق عن أعينهم وزهدوا فى الدنيا وتبرموا بها وبمخالطة الخلق وقهروا أنفسهم وملكوها وقمعوا الشيطان فأيس منهم ، فهؤلاء لايحركهم إلا الحق ولايسكنهم إلا الحق ولو زهقت فيهم أرواحهم ، فهم أهل نيل الفضل فى الإمارة والخلافة ومن علم أنه ليس بهذه الصفة فيحرم عليه الخوض فى الولايات ، ومن جرب نفسه فرآها صابرة على الحق كافة عن الشهوات فى غير الولايات ، ولكن خاف عليها أن تتغير إذا ذاقت لذة الولاية وأن تستحلى الجاه وتستلذ نفاذ الأمر فتكره العزل ، فيداهن خيفة من العزل ؛ فهذا قد اختلف العلماء فى أنه هل يلزمه الهرب من تقلد الولاية ؟ فقال قائلون : لايجب لأن هذا خوف أمر فى المستقبل وهو فى الحال لم يعهد نفسه إلا قوية فى ملازمة الحق وترك لذات النفس ، والصحيح أن عليه الاحتراز لأن النفس خداعة مدعية للحق واعدة بالخير ، فلو وعدت بالخير جزما لكان يخاف عليها أن تتغير عند الولاية فكيف إذا أظهرت التردد . ؟ والامتناع عن قبول الولاية أهون من العزل بعد الشروع ، فالعزل مؤلم وهو كما قيل العزل طلاق الرجال ، فإذا شرع لاتسمح نفسه بالعزل وتميل نفسه إلى المداهنة وإهمال الحق وتهوى به فى قعر جهنم ، ولايستطيع النزوع منه إلى الموت إلا أن يعزل قهرا ، وكان فيه عذاب عاجل على كل محب للولاية . ومهما مالت النفس إلى طلب الولاية وحملت على السؤال والطلب فهو أمارة الشر ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إنا لانولى أمرنا من سألنا (١) » فإذا فهمت اختلاف حكم القوى والضعيف علمت أن نهى أبى بكر رافعا عن الولاية ثم تقلده لها ليس بمتناقض .

وأما القضاء : فهو وإن كان دون الخلافة والإمارة فهو فى معناهما ، فإن كل ذى ولاية أمير ـ أى له أمر نافذ ـ والإمارة محبوبة بالطبع ، والثواب فى القضاء عظيم مع اتباع الحق ، والعقاب فيه أيضا عظيم مع العدول عن الحق وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « القضاة ثلاثة : قاضيان فى النار وقاض فى الجنة (٢) » وقال عليه السلام « من استقضى فقد ذبح بغير سكين (٣) » فحكمه حكم الإمارة ينبغى أن يتركه الضعفاء وكل من للدنيا ولذاتها وزن فى عينه ، وليتقلده الأقوياء الذين لاتأخذهم فى الله لومة لائم . ومهما كان السلاطين ظلمة ولم يقدر القاضى على القضاء إلا بمداهنتهم وإهمال بعض الحقوق لأجلهم ولأجل المتعلقين بهم ، إذ يعلم أنه لو حكم عليهم بالحق لعزلوه أولم يطيعوه ، فليس له أن يتقلد القضاء ، وإن تقلد فعليه أن يطالبهم بالحقوق ولايكون خوف العزل عذرا مرخصا له فى الإهمال أصلا ، بل إذا عزل سقطت العهدة عنه ، فينبغى أن يفرح بالعزل إن كان يقضى لله ، فإن لم تسمح نفسه بذلك فهو إذن يقضى لاتباع الهوى والشيطان ، فكيف يرتقب عليه ثوابا ؟ وهو مع الظلمة فى الدرك الأسفل من النار .

وأما الوعظ والفتوى والتدريس ورواية الحديث وجمع الأسانيد العالية ـ وكل ما يتسع بسببه الجاه ويعظم به

---

(١) حديث « انا لانولى أمرنا من سألنا » متفق عليه من حديث أبى موسى (٢) حديث « القضاة ثلاثة ... الحديث» أخرجه أصحاب السنن من حديث بريدة وتقدم فى العلم واسناده صحيح (٣) حديث «من استقضى فقد ذبح بغير سكين» أخرجه أصحاب السنن من حديث أبى هريرة بلفظ « من جعل قاضيا » وفى رواية « من ولى القضاء » واسناده صحيح .

القدر : فآفته أيضا عظيمة مثل آفة الولايات ، وقد كان الخائفون من السلف يتدافعون الفتوى ماوجدوا إليه سبيلا ، وكانوا يقولون : حدثنا ، باب من أبواب الدنيا ، ومن قال : حدثنا ، فقد قال أوسعوا لى . ودفن بشر كذا وكذا قمطرا من الحديث وقال : يمنعنى من الحديث أنى أشتهى أن أحدث ، ولو اشتهيت أن لا أحدث لحدثت . والواعظ يجد فى وعظه وتأثر قلوب الناس به وتلاحق بكائهم وزعقاتهم وإقبالهم عليه لذة لاتوازيها لذة ، فإذا غلب ذلك على قلبه مال طبعه إلى كل كلام مزخرف يروج عند العوام وإن كان باطلا ، ويفر عن كل كلام يستثقله العوام وإن كان حقا ، ويصير مصروف الهمة بالكلية إلى مايحرك قلوب العوام ويعظم منزلته فى قلوبهم ، فلا يسمع حديثا وحكاية إلاويكون فرحه به من حيث إنه يصلح لأن يذكره على رأس المنبر ، وكان ينبغى أن يكون فرحه به من حيث إنه عرف طريق السعادة وطريق سلوك سبيل الدين ليعمل به أولا ، ثم يقول : إذا أنعم الله على بهذه النعمة ونفعنى بهذه الحكمة فأقصها ليشاركنى فى نفعها إخوانى المسلمون . فهذا أيضا مما يعظم فيه الخوف والفتنة فحكمه حكم الولايات ، فمن لاباعث له إلا طلب الجاه والمنزلة والأكل بالدين والتفاخر والتكاثر فينبغى أن يتركه ويخالف الهوى فيه ، إلى أن ترتاض نفسه وتقوى فى الدين همته ويأمن على نفسه الفتنة ، فعند ذلك يعود إليه .

فإن قلت : مهما حكم بذلك على أهل العلم تعطلت العلوم واندرست وعم الجهل كافة الخلق ؟ فنقول قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طلب الإمارة وتوعد عليها [١] حتى قال « إنكم تحرصون على الإمارة وإنها حسرة وندامة يوم القيامة إلا من أخذها بحقها [٢] » وقال « نعمت المرضعة وبئست الفاطمة [٣] » ومعلوم أن السلطنة والإمارة لو تعطلت لبطل الدين والدنيا جميعا وثار القتال بين الخلق وزال الأمن وخربت البلاد وتعطلت المعايش فلم نهى عنها مع ذلك ؟ وضرب عمر رضى الله عنه أبى بن كعب — رأى قوما يتبعونه — وهو فى ذلك يقول : أبى سيد المسلمين ، وكان يقرأ عليه القرآن ، فمنع من أن يتبعوه وقال : ذلك فتنة على المتبوع ومذلة على التابع ، وعمر كان بنفسه يخطب ويعظ ولا يمتنع منه واستأذن رجل عمر أن يعظ الناس إذا فرغ من صلاة الصبح فمنعه فقال : أتمنعنى من نصح الناس ؟ فقال : أخشى أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا ، إذ رأى فيه مخايل الرغبة فى جاه الوعظ وقبول الخلق . والقضاء والخلافة مما يحتاج الناس إليه فى دينهم كالوعظ والتدريس والفتوى ، وفى كل واحد منهما فتنة ولذة فلا فرق بينهما ، فأما قول القائل : نهيك عن ذلك يؤدى إلى اندراس العلم فهو غلط ، إذ نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القضاء [٤] لم يؤد إلى تعطيل القضاء بل الرياسة وحبها يضطر الخلق إلى طلبها ، وكذلك حب الرياسة لايترك العلوم تندرس ، بل لو حبس الخلق وقيدوا بالسلاسل والأغلال من طلب العلوم التى فيها القبول والرياسة لأفلتوا من الحبس وقطعوا السلاسل وطلبوها . وقد وعد الله أن يؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم فلا تشغل قلبك بأمر الناس فإن الله لايضيعهم وانظر لنفسك ، ثم إنى أقول مع هذا إذا كان فى البلد جماعة يقومون بالوعظ مثلا فليس فى النهى عنه إلا امتناع بعضهم ، وإلا فليعلم أن كلهم لايمتنعون ولا يتركون لذة الرياسة فإن لم يكن فى البلد إلا واحد وكان وعظه نافعا للناس من حيث حسن كلامه وحسن سمته فى الظاهر وتخييله إلى العوام أنه إنما

---

(١) حديث : النهى عن طلب الإمارة هو حديث عبد الرحمن بن سمرة « لاتسل الإمارة » وقد تقدم قبله بثلاثة أحاديث .

(٢) حديث « انكم تحرصون على الإمارة وانها حسرة يوم القيامة وندامة الا من أخذها بحقها » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة دون قوله « الا من أخذها بحقها » وزاد فى آخره « فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة » ودون قوله « حسرة » وهى فى صحيح ابن حبان (٣) حديث « نعمت المرضعة وبئست الفاطمة » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة وهو بقية الحديث الذى قبله ورواه ابن حبان بلفظ « فبئست المرضعة وبئست الفاطمة » (٤) حديث : النهى عن القضاء ... أخرجه مسلم من حديث أبى ذر « لاتؤمرن على اثنين ولاتلين مال يتيم » .

يريد الله بوعظه وأنه تارك للدنيا ومعرض عنها فلا نمنعه منه ونقول له اشتغل وجاهد نفسك ، فإن قال : لست أقدر على نفسى فنقول : اشتغل وجاهد ، لأنا نعلم أنه لو ترك ذلك لهلك الناس كلهم إذ لاقائم به غيره ، ولو واظب وغرضه الجاه فهو الهالك وحده ، وسلامة دين الجميع أحب عندنا من سلامة دينه وحده ، فنجعله فداء للقوم ونقول لعل هذا هو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم [1] » ثم الواعظ هو الذى يرغب فى الآخرة ويزهد فى الدنيا بكلامه وبظاهر سيرته . فأما ما أحدثه الوعاظ فى هذه الأعصار من الكلمات المزخرفة والألفاظ المسجعة المقرونة بالأشعار مما ليس فيه تعظيم لأمر الدين وتخويف المسلمين ، بل فيه الترجية والتجرئة على المعاصى بطيارات النكت ، فيجب إخلاء البلاد منهم ، فإنهم نواب الدجال وخلفاء الشيطان ، وإنما كلامنا فى واعظ حسن الوعظ جميل الظاهر يبطن فى نفسه حب القبول ولا يقصد غيره ، وفيما أوردناه فى كتاب العلم من الوعيد الوارد فى حق علماء السوء ما يبين لزوم الحذر من فتن العلم وغوائله . ولهذا قال المسيح عليه السلام يا علماء السوء تصومون وتصلون وتتصدقون ولا تفعلون ما تأمرون ، وتدرسون مالا تعملون ، فياسوء ما تحكمون تتوبون بالقول والأمانى وتعملون بالهوى ، وما يغنى عنكم أن تنقوا جلودكم وقلوبكم دنسة ، بحق أقول لكم : لا تكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب ويبقى فيه النخالة ، كذلك أنتم تخرجون الحكم من أفواهكم ويبقى الغل فى صدوركم ، يا عبيد الدنيا كيف يدرك الآخرة من لا تنقضى من الدنيا شهوته ولا تنقطع منها رغبته ؟ بحق أقول لكم : إن قلوبكم تبكى من أعمالكم ، جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم والعمل تحت أقدامكم ، بحق أقول لكم : أفسدتم آخرتكم بصلاح دنياكم ، فصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة ، فأى ناس أخس منكم لو تعلمون ، ويلكم حتى متى تصفون الطريق للمدلجين ، وتقيمون فى محلة المتحيرين ! كأنكم تدعون أهل الدنيا ليتركوها لكم مهلا مهلا ! ويلكم ماذا يغنى عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحش مظلم ! كذلك لا يغنى عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة معطلة ! يا عبيد الدنيا ، لا كعبيد أتقياء ولا كأحرار كرام ، توشك الدنيا أن تقلعكم عن أصولكم فتلقيكم على وجوهكم ، ثم تكبكم على مناخركم ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم ، ثم يدفعكم العلم من خلفكم ، ثم يسلمكم إلى الملك الديان حفاة عراة فرادى فيوقفكم على سوآتكم ، ثم يجزيكم بسوء أعمالكم . وقد روى الحارث المحاسبى هذا الحديث فى بعض كتبه ثم قال : هؤلاء علماء السوء شياطين الإنس وفتنة على الناس رغبوا فى عرض الدنيا ورفعتها وآثروها على الآخرة وأذلوا الدين للدنيا ، فهم فى العاجل عار وشين وفى الآخرة هم الخاسرون .

فإن قلت : فهذه الآفات ظاهرة ولكن ورد فى العلم والوعظ رغائب كثيرة حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لأن يهدى الله بك رجلا خير لك من الدنيا وما فيها [2] » وقال صلى الله عليه وسلم « أيما داع دعا إلى هدى واتبع عليه كان له أجره وأجر من اتبعه [3] » إلى غير ذلك من فضائل العلم ، فينبغى أن يقال للعالم اشتغل بالعلم واترك مراءاة الخلق كما يقال لمن خالجه الرياء فى الصلاة لا تترك العمل ولكن أتمم العمل وجاهد نفسك ؟ فاعلم أن فضل العلم كبير وخطره عظيم كفضل الخلافة والإمارة ، ولا نقول لأحد من عباد الله اترك العلم إذ ليس فى نفس العلم آفة وإنما الآفة فى إظهاره بالتصدى للوعظ والتدريس ورواية الحديث ، ولا نقول له أيضا اتركه مادام يجد

---

(١) حديث « إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم » أخرجه النسائى وقد تقدم قريبا (٢) حديث « لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا ومافيها » متفق عليه من حديث سهل بن سعد بلفظ « خير لك من حمر النعم » وقد تقدم فى العلم

(٣) حديث « أيما داع دعا إلى هدى واتبع عليه كان له أجره وأجر من اتبعه » أخرجه ابن ماجه من حديث أنس بزيادة فى أوله ولمسلم من حديث أبى هريرة « من دعا الى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ... الحديث » ،

فى نفسه باعثا دينيا ممزوجا بباعث الرياء ، أما إذا لم يحركه إلا الرياء فترك الإظهار أنفع له وأسلم . وكذلك نوافل الصلوات إذا تجردفيها باعث الرياءوجب تركها ، أما إذا خطر له وساوس الرياء فى أثناء الصلاة وهو لها كاره فلا يترك الصلاة ، لأن آفة الرياء فى العبادات ضعيفة ، وإنما تعظم فى الولايات وفى التصدى للمناصب الكبيرة فى العلم .

وبالجملة فالمراتب ثلاث (الأولى) الولايات ؛ والآفات فيها عظيمة وقد تركها جماعة من السلف خوفا من الآفة (الثانية) الصوم والصلاة والحج والغزو ؛ وقد تعرض لها أقوياء السلف وضعفاؤهم ولم يؤثر عنهم الترك لخوف الآفة . وذلك لضعف الآفات الداخلة فيها والقدرة على نفيها مع إتمام العمل لله بأدنىقوة (الثالثة) وهى متوسطة بين الرتبتين ؛ وهو التصدى لمنصب الوعظ والفتوىوالروايةوالتدريس ، والآفات فيها أقل مما فى الولايات وأكثر مما فى الصلاة ، فالصلاة ينبغى أن لايتركهاالضعيفوالقوىولكنيدفع خاطرالرياء ، والولايات ينبغى أن يتركها الضعفاء رأسا دون الأقوياء ، ومناصب العلم بينهما،ومن جرب آفات منصب العلمعلم أنه بالولاة أشبه ، وأنالحذر منه فى حق الضعيف أسلم والله أعلم .

وهنا رتبة رابعة وهى : جمع المال وأخذه للتفرقة على المستحقين ، فإن فى الانفاق وإظهار السخاء استجلابا للثناء ، وفى إدخال السرور على قلوب الناس لذة للنفس ، والآفات فيها أيضا كثيرة .

ولذلك سئل الحسن عن رجل طلب القوت ثم أمسك ، وآخر طلب فوق قوته ثم تصدق به فقال : القاعد أفضل لما يعرفون من قلة السلامة فى الدنيا ، وأن من الزهد تركها قربة إلى الله تعالى . وقال أبو الدرداء:مايسرنى أنى أقمت على درج مسجد دمشق أصيب كل يوم خمسين دينارا أتصدق بها ، أما إنى لاأحرم البيع والشراء ولكنى أريد أن أكون من الذين لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .

وقد اختلف العلماء فقال قوم : إذا طلب الدنيا من الحلال وسلم منها وتصدق بها فهو أفضل من أن يشتغل بالعبادات والنوافل ، وقال قوم : الجلوس فى دوام ذكر الله أفضل ، والأخذ والإعطاء يشغل عن الله وقد قال المسيح عليه السلام : يا طالب الدنيا ليبر بها ، تركك لها أبر ؛ وقال . أقل مافيه أن يشغله إصلاحه عن ذكر الله وذكر الله أكبر وأفضل . وهذا فيمن سلم من الآفات ، فأما منيتعرض لآفةالرياء فتركه لها أبر والاشتغال بالذكر لاخلاف فى أنه أفضل .

وبالجملة : مايتعلق بالخلق وللنفس فيه لذة فهومثار الآفات ، والأحب أن يعمل ويدفع الآفات ، فإن عجزفلينظر وليجتهد وليستفت قلبه ، وليزن مافيه من الخير بما فيه من الشر ، وليفعل مايدل عليه نور العلم دون مايميل إليه الطبع .

وبالجملة مايجده أخف على قلبه فهو فى الأكثر أضر عليه ، لأنالنفس لاتشير إلا بالشر وقلما تستلذ الخيروتميل إليه ، وإن كان لا يبعد ذلك أيضا فى بعض الأحوال ، وهذه أمور لايمكن الحكم على تفاصيلها بنفى وإثباتفهو موكول إلى اجتهاد القلب لينظر فيهلدينه ويدع مايريبه إلى مالا يريبه ، ثمقديقع مما ذكرناه غرور للجاهلفيمسك المال ولا ينفقه خيفة من الآفة وهو عين البخل . ولا خلاف فى أنتفرقة المال فى المباحات فضلا عن الصدقات أفضل من إمساكه ، وإنما الخلاف فيمن يحتاج إلى الكسب : أن الأفضل الكسب والإنفاق ، أو التجرد للذكر؟ وذلك لما فى الكسب من الآفات ، فأما المال الحاصل من الحلال فتفرقته أفضل من إمساكه بكل حال .

فإن قلت فبأى علامة تعرف العالم والواعظ أنه صادق مخلص فى وعظه غير مريد رياء الناس ؟ فاعلم أن لذلك علامات (إحداها) أنه لو ظهر من هو أحسن منه وعظا أو أغزر منه علما والناس له أشدّ قبولا فرح به ولم يحسده نعم لا بأس بالغبطة وهو أن يتمنى لنفسه مثل علمه (والأخرى) أن الأكابر إذا حضروا مجلسه لم يتغير كلامه بل بقى كما كان عليه ، فينظر إلى الخلق بعين واحدة (والأخرى) أن لا يحب اتباع الناس له فى الطريق والمشى خلفه فى الأسواق . ولذلك علامات كثيرة يطول إحصاؤها .

وقد روى عن سعيد بن أبى مروان قال : كنت جالسا إلى جنب الحسن إذ دخل علينا الحجاج من بعض أبواب المسجد ومعه الحرس وهو على برذون أصفر ، فدخل المسجد على برذونه ، فجعل يلتفت فى المسجد فلم ير حلقة أحفل من حلقة الحسن فتوجه نحوها حتى بلغ قريبا منها ، ثم ثنى وركه فنزل ومشى نحو الحسن ، فلما رآه الحسن متوجها إليه تجافى له عن ناحية مجلسه ، قال سعيد : وتجافيت له أيضا عن ناحية مجلسى حتى صار بينى وبين الحسن فرجة ومجلس للحجاج ، فجاء الحجاج حتى جلس بينى وبينه والحسن يتكلم بكلام له - يتكلم به فى كل يوم - فما قطع الحسن كلامه قال سعيد : فقلت فى نفسى ؛ لأبلون الحسن اليوم ولأنظرن هل يحمل الحسن جلوس الحجاج إليه أن يزيد فى كلامه يتقرب إليه ، أو يحمل الحسن هيبة الحجاج أن ينقص من كلامه ؟ فتكلم الحسن كلاما واحدا نحوا مما كان يتكلم به فى كل يوم حتى انتهى إلى آخر كلامه ، فلما فرغ الحسن من كلامه وهو غير مكترث به ، رفع الحجاج يده فضرب بها على منكب الحسن ثم قال : صدق الشيخ وبر فعليكم بهذه المجالس وأشباهها فاتخذوها حلقا وعادة فإنه بلغنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أن مجالس الذكر رياض الجنة [1] » ولولا ماحملناه من أمر الناس ماغلبتمونا على هذه المجالس لمعرفتنا بفضلها ، قال : ثم افتر الحجاج فتكلم حتى عجب الحسن ومن حضر من بلاغته ، فلما فرغ طفق فقام ، فجاء رجل من أهل الشام إلى مجلس الحسن - حين قام الحجاج - فقال : عباد الله المسلمين ألا تعجبون أنى رجل شيخ كبير ، وأنى أغزو فأكلف فرسا وبغلا ، وأكلف فسطاطا ، وأن لى ثلثمائة درهم من العطاء وأنّ لى سبع بنات من العيال ؟ فشكا من حاله حتى رق الحسن له ولأصحابه ، والحسن مكب ، فلما فرغ الرجل من كلامه رفع الحسن رأسه فقال : مالهم قاتلهم الله اتخذوا عباد الله خولا ومال الله دولا وقتلوا الناس على الدينار والدرهم ، فإذا غزا عدو الله غزا فى الفساطيط الهبابة وعلى البغال السباقة ، وإذا أغزى أخاه أغزاه طاويا راجلا ؟ فما فتر الحسن حتى ذكرهم بأقبح العيب وأشده ، فقام رجل من أهل الشام كان جالسا إلى الحسن فسعى به إلى الحجاج وحكى له كلامه ، فلم يلبث الحسن أن أتته رسل الحجاج فقالوا : أجب الأمير ، فقام الحسن وأشفقنا عليه من شدة كلامه الذى تكلم به ، فلم يلبث الحسن أن رجع إلى مجلسه وهو يبتسم ، وقلما رأيته فاغرا فاه يضحك إنما كان يتبسم ، فأقبل حتى قعد فى مجلسه فعظم الأمانة وقال : إنما تجالسون بالأمانة كأنكم تظنون أن الخيانة ليست إلا فى الدينار والدرهم ، إن الخيانة أشدّ الخيانة أن يجالسنا الرجل فنطمئن إلى جانبه ثم ينطلق فيسعى بنا إلى شرارة من نار ! إنى أتيت هذا الرجل فقال : أقصر عليك من لسانك وقولك : إذا غزا عدو الله غزا كذا وكذا ، وإذا أغزى أخاه : أغزاه كذا ! لا أبالك ! تحرض علينا الناس ؟ أما إنا على ذلك لانتهم نصيحتك فأقصر عليك من لسانك ، قال : فدفعه الله عنى . وركب الحسن حمارا يريد المنزل فبينما هو يسير إذا التفت فرأى قوما يتبعونه فوقف فقال : هل لكم من حاجة أو تسألون عن شىء وإلا فارجعوا فما يبقى هذا من قلب العبد ؟ فبهذه

---

(١) حديث : أن مجالس الذكر رياض الجنة . تقدم فى الأذكار والدعوات .

العلامات وأمثالها تتبين سريرة الباطن . ومهما رأيت العلماء يتغايرون ويتحاسدون ولا يتوانسون ولا يتعاونون فاعلم أنهم قد اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فهم الخاسرون . اللهم ارحمنا بلطفك ياأرحم الراحمين .

بيان مايصح من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق وما لايصح

اعلم أن الرجل قد يبيت مع القوم فى موضع فيقومون للتهجد ، أو يقوم بعضهم فيصلون الليل كله أو بعضه ، وهو ممن يقوم فى بيته ساعة قريبة ، فإذا رآهم انبعث نشاطه للموافقة حتى يزيد على ماكان يعتاده ، أو يصلى مع أنه كان لايعتاد الصلاة بالليل أصلا ، وكذلك قد يقع فى موضع يصوم فيه أهل الموضع فينبعث له نشاط فى الصوم ولولاهم لما انبعث هذا النشاط ، فهذا ربما يظن أنه رياء وأن الواجب ترك الموافقة ، وليس كذلك على الإطلاق بل له تفصيل ، لأن كل مؤمن راغب فى عبادة الله تعالى وفى قيام الليل وصيام النهار ، ولكن قد تعوقه العوائق ويمنعه الاشتغال ويغلبه التمكن من الشهوات أو تستهويه الغفلة ، فربما تكون مشاهدة الغير سبب زوال الغفلة ، أو تندفع العوائق والأشغال فى بعض المواضع فينبعث له النشاط ، فقد يكون الرجل فى منزله فتقطعه الأسباب عن التهجد مثل تمكنه من النوم على فراش وثير ، أو تمكنه من التمتع بزوجته ، أو المحادثة مع أهله وأقاربه ، أو الاشتغال بأولاده أو مطالعة حساب له مع معامليه ، فإذا وقع فى منزل غريب اندفعت عنه هذه الشواغل التى تفتر رغبته عن الخير وحصلت له أسباب باعثة على الخير ، كمشاهدته إياهم وقد أقبلوا على الله وأعرضوا عن الدنيا ، فإنه ينظر إليهم فينافسهم ويشق عليه أن يسبقوه بطاعة الله فتتحرك داعيته للدين لا للرياء ، أو ربما يفارقه النوم لاستنكاره الموضع أو سبب آخر فيغتنم زوال النوم ، وفى منزله ربما يغلبه النوم وربما ينضاف إليه أنه فى منزله على الدوام ، والنفس لاتسمح بالتهجد دائما وتسمح بالتهجد وقتا قليلا فيكون ذلك سبب هذا النشاط مع اندفاع سائر العوائق ، وقد يعسر عليه الصوم فى منزله ومعه أطايب الأطعمة ويشق عليه الصبر عنها ، فإذا أعوزته تلك الأطعمة لم يشق عليه فتنبعث داعية الدين للصوم ، فإن الشهوات الحاضرة عوائق ودوافع تغلب باعث الدين ، فإذا سلم منها قوى الباعث . فهذا وأمثاله من الأسباب يتصور وقوعه ويكون السبب فيه مشاهدة الناس وكونه معهم ، والشيطان مع ذلك ربما يصد عن العمل ويقول : لاتعمل فإنك تكون مرائيا إذا كنت لاتعمل فى بيتك ولا تزد على صلاتك المعتادة ، وقد تكون رغبته فى الزيادة لأجل رؤيتهم وخوفا من ذمهم ونسبتهم إياه إلى الكسل ، لاسيما إذا كانوا يظنون به أنه يقوم الليل ، فإن نفسه لاتسمح بأن يسقط من أعينهم ويريد أن يحفظ منزلته ، وعند ذلك قد يقول الشيطان : صل فإنك مخلص ولست تصلى لأجلهم بل لله وإنما كنت لا تصلى كل ليلة لكثرة العوائق وإنما داعيتك لزوال العوائق لا لاطلاعهم . وهذا أمر مشتبه إلا على ذوى البصائر ، فإذا عرف أن المحرك هو الرياء فلا ينبغى أن يزيد على ماكان يعتاده ولا ركعة واحدة ، لأنه يعصى الله بطلب محمدة الناس بطاعة الله ، وإن كان انبعاثه لدفع العوائق وتحرك الغبطة والمنافسة بسبب عبادتهم فليوافق . وعلامة ذلك أن يعرض على نفسه أنه لو رأى هؤلاء يصلون من حيث لا يرونه بل من وراء حجاب وهو فى ذلك الموضع بعينه هل كانت نفسه تسخو بالصلاة وهم لايرونه ؟ فإن سخت نفسه فليصل فإن باعثه الحق ، وإن كان ذلك يثقل على نفسه لوغاب عن أعينهم فليترك ، فإن باعثه الرياء . وكذلك قد يحضر الإنسان يوم الجمعة فى الجامع من نشاط الصلاة مالا يحضره كل يوم ، ويمكن أن يكون ذلك لحب حمدهم ، ويمكن أن يكون نشاطه بسبب نشاطهم وزوال غفلته بسبب إقبالهم على الله تعالى ، وقد يتحرك بذلك باعث الدين ويقارنه نزوع النفس إلى حب الحمد ، فمهما علم أن الغالب على قلبه إرادة الدين فلا

ينبغى أن يترك العمل بما يجده من حب الحمد ، بل ينبغى أن يرد ذلك على نفسه بالكراهية ويشتغل بالعبادة . وكذلك قد يبكى جماعة فينظر إليهم فيحضره البكاء خوفا من الله تعالى لا من الرياء ، ولو سمع ذلك الكلام وحده لما بكى ، ولكن بكاء الناس يؤثر فى ترقيق القلب ، وقد لا يحضره البكاء فيتباكى ـ تارة رياء وتارة مع الصدق ـ إذ يخشى على قلبه قساوة القلب حين يبكون ولا تدمع عينه فيتباكى تكلفا ، وذلك محمود . وعلامة الصدق فيه أن يعرض على نفسه أنه لو سمع بكاءهم من حيث لا يرونه هل كان يخاف على نفسه القساوة فيتباكى أم لا ؟ فإن لم يجد ذلك عند تقدير الاختفاء عن أعينهم فإنما خوفه من أن يقال إنه قاسى القلب فينبغى أن يترك التباكى . قال لقمان عليه السلام لابنه : لا ترى الناس أنك تخشى ليكرموك وقلبك فاجر . وكذلك الصيحة والتنفس والأنين عند القرآن أو الذكر أو بعض مجارى الأحوال ، تارة تكون من الصدق والحزن والخوف والندم والتأسف وتارة تكون لمشاهدته حزن غيره وقساوة قلبه ، فيتكلف التنفس والأنين ويتحازن وذلك محمود ، وقد تقترن به الرغبة فيه لدلالته على أنه كثير الحزن ليعرف بذلك ، فإن تجردت هذه الداعية فهى الرياء ، وإن اقترنت بداعية الحزن فإن أباها ولم يقبلها وكرهها سلم بكاؤه وتباكيه ، وإن قبل ذلك وركن إليه بقلبه حبط أجره وضاع سعيه وتعرض لسخط الله تعالى به ، وقد يكون أصل الأنين عن الحزن ، ولكن يمده ويزيد فى رفع الصوت فتلك الزيادة رياء ، وهو محظور لأنها فى حكم الابتداء لمجرد الرياء ، فقد يهيج من الخوف مالا يملك العبد معه نفسه ، ولكن يسبقه خاطر الرياء فيقبله ، فيدعو إلى زيادة تحزين للصوت أو رفع له أو حفظ الدمعة على الوجه حتى تبصر بعد أن استرسلت لخشية الله ، ولكن يحفظ أثرها على الوجه لأجل الرياء . وكذلك قد يسمع الذكر فتضعف قواه من الخوف فيسقط ، ثم يستحى أن يقال له إنه سقط من غير زوال عقل وحالة شديدة ، فيزعق ويتواجد تكلفا ليرى أنه سقط لكونه مغشيا عليه وقد كان ابتداء السقطة عن صدق ، وقد يزول عقله فيسقط ولكن يفيق سريعا فتجزع نفسه أن يقال حالته غير ثابتة ، وإنما هى كبرق خاطف ، فيستديم الزعقه والرقص ليرى دوام حاله ، وكذلك قد يفيق بعد الضعف ولكن يزول ضعفه سريعا فيجزع أن يقال لم تكن غشيته صحيحة ولو كان لدام ضعفه ، فيستديم إظهار الضعف والأنين فيتكئ على غيره يرى أنه يضعف عن القيام ويتمايل فى المشى ويقرب الخطا ليظهر أنه ضعيف عن سرعة المشى . فهذه كلها مكايد الشيطان ونزغات النفس . فإذا خطرت فعلاجها أن يتذكر أن الناس لو عرفوا نفاقه فى الباطن واطلعوا على ضميره لمقتوه ، وإن الله مطلع على ضميره وهو له أشد مقتا ، كما روى عن ذى النون رحمه الله أنه قام وزعق ، فقام معه شيخ آخر رأى فيه أثر التكلف فقال ياشيخ ! الذى يراك حين تقوم ؟ فجلس الشيخ . وكل ذلك من أعمال المنافقين .

وقد جاء فى الخبر « تعوذوا بالله من خشوع النفاق [1] » وإنما خشوع النفاق أن تخشع الجوارح والقلب غير خاشع ، ومن ذلك الاستغفار والاستعاذة بالله من عذابه وغضبه ، فإن ذلك قد يكون لخاطر خوف وتذكر ذنب وتندم عليه وقد يكون للمراءاة . فهذه خواطر ترد على القلب متضادة مترادفة متقاربة ، وهى مع تقاربها متشابهة ، فراقب قلبك فى كل ما يخطر لك وانظر ما هو ومن أين هو ؟ فإن كان لله فامضه واحذر مع ذلك أن يكون قد خفى عليك شىء من الرياء الذى هو كدبيب النمل ، وكن على وجل من عبادتك أهى مقبولة أم لا ؟ لخوفك على الإخلاص فيها ، واحذر أن يتجدد لك خاطر الركون إلى حمدهم بعد الشروع بالإخلاص فإن ذلك مما يكثر جدا ،

---

(1) حديث « تعوذوا بالله من خشوع النفاق » أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث أبى بكر الصديق وفيه الحارث بن عبيد الأيادى ضعفه أحمد وابن معين .

فإذا خطر لك فتفكر فى اطلاع الله عليك ومقته لك . وتذكر ماقاله أحد الثلاثة الذين حاجوا أيوب عليه السلام إذ قال : ياأيوب أما علمت أن العبد تضل عنه علانيته التى كان يخادع بها عن نفسه ويجزى بسريرته . وقول بعضهم : أعوذ بك أن يرى الناس أنى أخشاك وأنت لى ماقت . وكان من دعاء على بن الحسين رضى الله عنهما : اللهم إنى أعوذ بك أن تحسن فى لامعة العيون علانيتى وتقبح لك فيما أخلو سريرتى ؛ محافظا على رياء الناس من نفسى مضيعاً لما أنت مطلع عليه منى ، أبدى للناس أحسن أمرى وأفضى إليك بأسوأ عملى ، تقرباً إلى الناس بحسناتى وفرارامنهم إليك بسيآتى ، فيحل بى مقتك ويجب على غضبك ، أعذنى من ذلك يارب العالمين . وقد قال أحد الثلاثة نفر لأيوب عليه السلام : ياأيوب ألم تعلم أن الذين حفظوا علانيتهم وأضاعوا سرائرهم عند طلب الحاجات إلى الرحمن تسود وجوههم فهذه جمل آفات الرياء . فليراقب العبد قلبه ليقف عليها فى الخبر « إن للرياء سبعين بابا (١) » وقد عرفت أن بعضه أغمض من بعض ، حتى إن بعضه مثل دبيب النمل ، وبعضه أخفى من دبيب النمل ، وكيف يدرك ماهو أخفى من دبيب النمل إلا بشدة التفقد والمراقبة ؟ وليته أدرك بعد بذل المجهود فكيف يطمع فى إدراكه من غير تفقد للقلب وامتحان للنفس وتفتيش عن خدعها ؟ نسأل الله تعالى العافية بمنه وكرمه وإحسانه .

بيان ماينبغى للمريد أن يلزم نفسه قبل العمل وبعده وفيه

اعلم أن أولى مايلزم المريد قلبه فى سائر أوقاته القناعة بعلم الله فى جميع طاعاته ، ولا يقنع بعلم الله إلا من لايخاف إلا الله ولا يرجو إلا الله ، فأما من خاف غيره وارتجاه اشتهى اطلاعه على محاسن أحواله ، فإن كان فى هذه الرتبة فليلزم قلبه كراهة ذلك من جهة العقل والإيمان لما فيه من خطر التعرض للمقت ، وليراقب نفسه عند الطاعات العظيمة الشاقة التى لايقدر عليها غيره ، فإن النفس عند ذلك تكاد تغلى حرصا على الإفشاء وتقول : مثل هذا العمل العظيم أو الخوف العظيم أو البكاء العظيم لو عرفه الخلق منك لسجدوا لك ! فما فى الخلق من يقدر على مثله فكيف ترضى بإخفائه فيجهل الناس محلك وينكرون قدرك ويحرمون الاقتداء بك ؟ فى مثل هذا الأمر ينبغى أن يثبت قدمه ، ويتذكر فى مقابلة عظم عمله : عظم ملك الآخرة ونعيم الجنة ودوامه أبد الآباد وعظم غضب الله ومقته على من طلب بطاعته ثوابا من عباده ، ويعلم أن إظهاره لغيره محبب إليه وسقوط عند الله وإحباط للعمل العظيم فيقول : وكيف أتبع مثل هذا العمل بحمد الخلق وهم عاجزون لايقدرون لى على رزق ولا أجل ؟ فيلزم ذلك قلبه ولا ينبغى أن ييأس عنه فيقول : إنما يقدر على الإخلاص الأقوياء فأما المخلطون فليس ذلك من شأنهم ، فيترك المجاهدة فى الإخلاص ، لأن المخلط إلى ذلك أحوج من المتقى ، لأن المتقى إن فسدت نوافله بقيت فرائضه كاملة تامة ، والمخلط لاتخلو فرائضه عن النقصان والحاجة إلى الجبران بالنوافل فإن لم تسلم صار مأخوذا بالفرائض وهلك به ، فالمخلط إلى الإخلاص أحوج . وقد روى تميم الدارى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « يحاسب العبد يوم القيامة فإن نقص فرضه قيل انظروا هل له من تطوع ؟ فإن كان له تطوع أكمل به فرضه وإن لم يكن له تطوع أخذ

---

(١) حديث « الرياء سبعون بابا » هكذا ذكر المصنف هذا الحديث هنا وكأنه تصحف عليه أو على من نقله من كلامه أنه « الرياء » بالمثناة وإنما هو « الربا » بالموحدة والمرسوم كتابته بالواو ، والحديث رواه ابن ماجه من حديث أبى هريرة بلفظ « الربا سبعون حوبا أيسرها أن ينكح الرجل أمه » وفى إسناده أبو معشر واسمه نجيح مختلف فيه وروى ابن ماجه أيضاً من حديث ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « الربا ثلاث وسبعون بابا » وإسناده صحيح هكذا ذكر ابن ماجه الحديثين فى أبواب التجارات وقد روى البزار حديث ابن مسعود بلفظ « الربا بضع وسبعون بابا والشرك مثل ذلك » وهذه الزيادة قد يستدل بها على أنه « الرياء » بالمثناة لاقترانه مع الشرك والله أعلم .

بطرفيه فألقى فى النار (١) ، فيأتى الخلط يوم القيامة وفرضه ناقص وعليه ذنوب كثيرة فاجتهاده فى جبر الفرائض وتكفير السيئات ولا يمكن ذلك إلا بخلوص النوافل ، وأما المتقى فجهده فى زيادة الدرجات فإن حبط تطوعه بقى من حسناته مايترجح على السيئات فيدخل الجنة .

فإذن ينبغى أن يلزم قلبه خوف اطلاع غير الله عليه لتصح نوافله ، ثم يلزم قلبه ذلك بعد الفراغ حتى لايظهره ولا يتحدث به ، وإذا فعل جميع ذلك فينبغى أن يكون وجلا من عمله خائفا أنه ربما داخله من الرياء الخفى مالم يقف عليه ، فيكون شاكا فى قبوله ورده مجوزا أن يكون الله قد أحصى عليه من نيته الخفية مامقته بها ورد عمله بسببها ، ويكون هذا الشك والخوف فى دوام عمله وبعده إلا فى ابتداء العقد ، بل ينبغى أن يكون متيقنا فى الابتداء أنه مخلص مايريد بعمله إلا الله حتى يصح عمله ، فإذا شرع ومضت لحظة يمكن فيها الغفلة والنسيان كان الخوف من الغفلة عن شائبة خفية أحبطت عمله من رياء أو عجب أولى به ؛ ولكن يكون رجاؤه أغلب من خوفه لأنه استيقن أنه دخل بالإخلاص وشك فى أنه هل أفسده برياء ؟ فيكون رجاء القبول أغلب ، وبذلك تعظم لذته فى المناجاة والطاعات . فالإخلاص : يقين ، والرياء : شك . وخوفه لذلك الشك جدير بأن يكفر خاطر الرياء إن كان قد سبق وهو غافل عنه . والذى يتقرب إلى الله بالسعى فى حوائج الناس وإفادة العلم ينبغى أن يلزم نفسه رجاء الثواب على دخول السرور على قلب من قضى حاجته فقط ، ورجاء الثواب على عمل المتعلم بعلمه فقط ، دون شكر ومكافأة وحمد وثناء من المتعلم والمنعم عليه ، فإن ذلك يحبط الأجر . فمهما توقع من المتعلم مساعدة فى شغل وخدمة ، أو مرافقه فى المشى فى الطريق ليستكثر باستتباعه ، أو ترددا منه فى حاجة فقد أخذ أجره فلا ثواب له غيره . نعم إن لم يتوقع هو ولم يقصد إلا الثواب على عمله بعلمه ليكون له مثل أجره ، ولكن خدمه التلميذ بنفسه فقبل خدمته ، فنرجو أن لايحبط ذلك أجره إذا كان لاينتظره ولا يريده منه ، ولا يستبعده منه لو قطعه . ومع هذا فقد كان العلماء يحذرون هذا ، حتى إن بعضهم وقع فى بئر فجاء قوم فأدلوا حبلا ليرفعوه فحلف عليهم أن لايقف معهم من قرأ عليه آية من القرآن أو سمع منه حديثا ، خيفة أن يحبط أجره . وقال شقيق البلخى : أهديت لسفيان الثورى ثوبا فرده على ، فقلت له : يا أبا عبد الله لست أنا ممن يسمع الحديث حتى ترده على قال : علمت ذلك ولكن أخوك يسمع منى الحديث فأخاف أن يلين قلبى لأخيك أكثر مما يلين لغيره . وجاء رجل إلى سفيان ببدرة أو بدرتين وكان أبوه صديقا لسفيان وكان سفيان يأتيه كثيرا ، فقال له : ياأبا عبدالله فى نفسك من أبى شىء ؟ فقال : يرحم الله أباك ـ كان وكان وأثنى عليه ـ فقال : ياأبا عبد الله قد عرفت كيف صار هــذا المال إلى ، فأحب أن تأخذ هذه تستعين بها على عيالك (قال) فقبل سفيان ذلك (قال) فلما خرج قال لولده : يامبارك الحقه فرده على ، فرجع فقال : أحب أن تأخذ مالك ، فلم يزل به حتى رده عليه . وكأنه كانت أخوته مع أبيه فى الله تعالى فكره أن يأخذ ذلك . قال ولده : فلما خرج لم أملك نفسى أن جئت إليه فقلت : ويلك أى شىء قلبك هذا ! حجارة ؟ عد أنه ليس لك عيال ! أما ترحمنى ؟ أما ترحم إخوتك ؟ أما ترحم عيالنا ؟ فأكثرت عليه فقال لى : يامبارك تأكلها أنت هنيئا مريئا وأسأل عنها أنا .

فإذن يجب على العالم أن يلزم قلبه طلب الثواب من الله فى اهتداء الناس به فقط ، ويجب على المتعلم أن يلزم قلبه حمد الله وطلب ثوابه ونيل المنزلة عنده ، لاعند المعلم وعند الخلق . وربما يظن أن له أن يرائى بطاعته لينال عند المعلم رتبته ، فيتعلم منه ، وهو خطأ لأن إرادته بطاعته غير الله خسران فى الحال ، والعلم ربما يفيد وربما

---

(١) حديث تميم الدارى : فى إكمال فريضة الصلاة بالتطوع أخرجه أبو داود وابن ماجه وتقدم فى الصلاة .

لايفيد ؟ فكيف يخسر فى الحال عملا نقدا على توهم علم ! وذلك غير جائز ، بل ينبغى أن يتعلم لله ويعبد لله ويخدم المعلم لله ، لاليكون له فى قلبه منزلة ، إن كان يريد أن يكون تعلمه طاعة ، فإن العباد أمروا أن لايعبدوا إلا الله ولا يريدوا بطاعتهم غيره . وكذلك من يخدم أبويه لاينبغى أن يخدمهما لطلب المنزلة عندهما إلا من حيث إن رضا الله عنه فى رضا الوالدين ، ولا يجوز له أن يرائى بطاعته لينال بها منزلة عند الوالدين ، فإن ذلك معصية فى الحال وسيكشف الله عن ريائه وتسقط منزلته من قلوب الوالدين أيضاً . وأما الزاهد المعتزل عن الناس فينبغى له أن يلزم قلبه ذكر الله والقناعة بعلمه ، ولايخطر بقلبه معرفة الناس زهده واستعظامهم محله ، فإن ذلك يغرس الرياء فى صدره حتى تتيسر عليه العبادات فى خلوته به ، وإنما سكوته لمعرفة الناس باعتزاله واستعظامهم لمحله وهو لايدرى أنه المخفف للعمل عليه .

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعلمت المعرفة من راهب يقال له سمعان دخلت عليه فى صومعته فقلت : ياسمعان منذكم أنت فى صومعتك ؟ قال : منذ سبعين سنة ، قلت : فما طعامك ؟ قال : ياحنيفى وما دعاك إلى هذا ؟ قلت : أحببت أن أعلم ، قال : فى كل ليلة حمصة قلت . فما الذى يهيج من قلبك حتى تكفيك هذه الحمصة ؟ قال: ترى الدير الذى بحذائك ؟ قلت : نعم ، قال : إنهم يأتونى فى كل سنة يوما واحدا فيزينون صومعتى ويطوفون حولها ويعظمونى ، فكلما تثاقلت نفسى عن العبادة ذكرتها عز تلك الساعة ، فأنا أحتمل جهد سنة لعز ساعة ! فاحتمل ياحنيفى جهد ساعة لعز الأبد ، فوقر فى قلبى المعرفة ، فقال : حسبك أو أزيدك ؟ قلت : بلى ، قال : انزل عن الصومعة ، فنزلت فأدلى لى ركوة فيها عشرون حمصة فقال لى : ادخل الدير فقد رأوا ما أدليت إليك ، فلما دخلت الدير اجتمع على النصارى فقالوا : ياحنيفى ما الذى أدلى إليك الشيخ؟ قلت : من قوته قالوا : فما تصنع به ونحن أحق به؟ ثم قالوا : ساوم ! قلت : عشرون دينارا فأعطونى عشرين دينارا فرجعت إلى الشيخ فقال : ياحنيفى ماالذى صنعت ؟ قلت : بعته منهم ، قال : بكم ؟ قلت : بعشرين دينارا ، قال : أخطأت ! لوساومتهم بعشرين ألف دينار لأعطوك ، هذا عز من لاتعبده فانظر كيف يكون عز من تعبده ؟ ياحنيفى أقبل على ربك ودع الذهاب والجيئة .

والمقصود أن استشعار النفس عز العظمة فى القلوب يكون باعثا فى الخلوة وقد لايشعر العبد به ، فينبغى أن يلزم نفسه الحذر منه وعلامة سلامته أن يكون الخلق عنده والبهائم بمثابة واحدة ،فلو تغيروا عن اعتقادهم له لم يجزع ولم يضق به ذرعا إلا كراهة ضعيفة ، إن وجدها فى قلبه فيردها فى الحال بعقله وإيمانه ، فإنه لو كان فى عبادة واطلع الناس كلهم عليه لم يزده ذلك خشوعا ولم يداخله سرور بسبب اطلاعهم عليه ، فإن دخل سرور يسير فهو دليل ضعفه ولكن إذا قدر على رده بكراهة العقل والإيمان وبادر إلى ذلك ولم يقبل ذلك السرور بالركون إليه فيرجى له أن لا يخيب سعيه ؛ إلا أن يزيد عند مشاهدتهم فى الخشوع والانقباض كى لا ينبسطوا إليه ، فذلك لابأس به ولكن فيه غرور ، إذ النفس قد تكون شهوتها الخفية إظهار الخشوع وتتعلل بطلب الانقباض فيطالبها فى دعواها قصد الانقباض بموثق من الله غليظ ، وهو أنه لو علم أن انقباضهم عنه إنما حصل بأن يعدو كثيرا أو يضحك كثيرا أو يأكل كثيرا فتسمح نفسه بذلك ؟ فإذا لم تسمح وسمحت بالعبادة فيشبه أن يكون مرادها المنزلة عندهم، ولا ينجو من ذلك إلا من تقرر فى قلبه أنه ليس فى الوجود أحد سوى الله فيعمل عمل من لو كان على وجه الأرض وحده لكان يعمله ، فلا يلتفت قلبه إلى الخلق إلا خطرات ضعيفة لا يشق عليه إزالتها فإذا كان كذلك لم يتغير بمشاهدة الخلق . ومن علامة الصدق فيه أنه لو كان له صاحبان أحدهما غنى والآخر فقير فلا يجد عند إقبال الغنى زيادة هزة

فى نفسه ، لا كرامة إلا إذا كان فى الغنى زيادة علم أو زيادة ورع فيكون مكرما له بذلك الوصف لا بالغنى، فمن كان استرواحه إلى مشاهدة الأغنياء أكثر فهو مراء أو طماع ، وإلا فالنظر إلى الفقراء يزيد فى الرغبة إلى الآخرة ويحبب إلى القلب المسكنة ، والنظر إلى الأغنياء بخلافه ، فكيف استروح بالنظر إلى الغنى أكثر مما يستروح إلى الفقير ؟ وقد حكى أنه لم ير الأغنياء فى مجلس أذل منهم فيه فى مجلس سفيان الثورى ، كان يجلسهم وراء الصف ويقدم الفقراء حتى كانوا يتمنون أنهم فقراء فى مجلسه . نعم لك زيادة إكرام للغنى إذا كان أقرب إليك أو كان بينك وبينه حق وصداقة سابقة ، ولكن يكون بحيث لو وجدت تلك العلاقة فى فقير لكنت لا تقدم الغنى عليه فى إكرام وتوقير ألبته ، فإن الفقير أكرم على الله من الغنى ، فإيثارك لا يكون إلا طمعا فى غناه ورياء له ، ثم إذا سويت بينهما فى المجالسة فيخشى عليك أن تظهر الحكمة والخشوع للغنى أكثر مما تظهره للفقير ، وإنما ذلك رياء خفى أو طمع خفى، كما قال ابن السماك لجارية له مالى إذا أتيت بغداد فتحت لى الحكمة ؟ فقالت : الطمع يشحذ لسانك وقد صدقت ! فإن اللسان ينطق عند الغنى بما لا ينطق به عند الفقير ، وكذلك يحضر من الخشوع عنده ما لا يحضره عند الفقير . ومكايد النفس وخفاياها فى هذا الفن لا تنحصر ولا ينجيك منها إلا أن تخرج ما سوى الله من قلبك ، وتتجرد بالشفقة على نفسك بقية عمرك ولا ترضى لها بالنار بسبب شهوات منغصة فى أيام متقاربة ، وتكون فى الدنيا كملك من ملوك الدنيا قد أمكنته الشهوات وساعدته اللذات ، ولكن فى بدنه سقم وهو يخاف الهلاك على نفسه فى كل ساعة لو اتسع فى الشهوات ، وعلم أنه لو احتمى وجاهد شهوته عاش ودام ملكه ، فلما عرف ذلك جالس الأطباء وحارف الصيادلة وعود نفسه شرب الأدوية المرة وصبر على بشاعتها وهجر جميع اللذات وصبر على مفارقتها ، فبدنه كل يوم يزداد نحولا لقلة أكله ولكن سقمه يزداد كل يوم نقصانا لشدة احتمائه ، فمهما نازعته نفسه إلى شهوة تفكر فى توالى الأوجاع والآلام عليه وأداه ذلك إلى الموت المفرق بينه وبين مملكته الموجب لشماتة الأعداء به ومهما اشتد عليه شرب دواء تفكر فيما يستفيده منه من الشفاء الذى هو سبب التمتع بملكه ونعيمه فى عيش هنىء وبدن صحيح وقلب رخى وأمر نافذ ، فيخف عليه مهاجرة اللذات ومصابرة المكروهات . فكذلك المؤمن المريد لملك الآخرة احتمى عن كل مهلك له فى آخرته وهى لذات الدنيا وزهرتها فاجتزى منها بالقليل ، واختار النحول والذبول والوحشة والحزن والخوف ، وترك المؤانسة بالخلق خوفا من أن يحل عليه غضب من الله فيهلك ، ورجاء أن ينجو من عذابه ، فخف ذلك كله عليه عند شدة يقينه وإيمانه بعاقبة أمره وبما أعد له من النعيم المقيم فى رضوان الله أبد الآباد ، ثم علم أن الله كريم رحيم لم يزل لعباده المريدين لمرضاته عونا وبهم رءوفا وعليهم عطوفا ولو شاء لأغناهم عن التعب ، ولكن أراد أن يبلوهم ويعرف صدق إرادتهم حكمة منه وعدلا ، ثم إذا تحمل التعب فى بدايته أقبل الله عليه بالمعونة والتيسير وحط عنه الأعباء وسهل عليه الصبر ، وحبب إليه الطاعة ورزقه فيها من لذة المناجاة مايلهيه عن سائر اللذات ويقويه على إماتة الشهوات ويتولى سياسته وتقويته وأمده بمعونته ، فإن الكريم لا يضيع سعى الراجى ولا يخيب أمل المحب وهو الذى يقول « من تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا » ويقول تعالى « لقد طال شوق الأبرار إلى لقائى وإنى إلى لقائهم أشد شوقا » فليظهر العبد فى البداية جده وصدقه وإخلاصه فلا يعوزه من الله تعالى على القرب ماهو اللائق بجوده وكرمه ورأفته ورحمته .

تم كتاب ذم الجاه والرياء والحمد لله وحده

كتاب ذم الكبر والعجب

وهو الكتاب التاسع من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الخالق البارئ المصور العزيز الجبار المتكبر العلى الذى لا يضعه عن مجده واضع ، الجبار الذى كل جبار له ذليل خاضع ، وكل متكبر فى جناب عزه مسكين متواضع ، فهو القهار الذى لا يدفعه عن مراده دافع ، الغنى الذى ليس له شريك ولا منازع ، القادر الذى بهر أبصار الخلائق جلاله وبهاؤه ، وقهر العرش المجيد استواؤه واستعلاؤه واستيلاؤه ، وحصر ألسن الأنبياء وصفه وثناؤه ، وارتفع عن حدّ قدرتهم إحصاؤه واستقصاؤه ، فاعترف بالعجز عن وصف كنه جلاله ملائكته وأنبياؤه ، وكسر ظهور الأكاسرة عزه وعلاؤه ، وقصر أيدى القياصرة عظمته وكبرياؤه ، فالعظمة إزاره والكبريا رداؤه ، ومن نازعه فيهما قصمه بداء الموت فأعجزه دواؤه ، جل جلاله وتقدست أسماؤه ، والصلاة على محمد الذى أنزل عليه النور المنتشر ضياؤه ، حتى أشرقت بنوره أكناف العالم وأرجاؤه ، وعلى آله وأصحابه الذين هم أحباء الله وأولياؤه ، وخيرته وأصفياؤه وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد : فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال الله تعالى الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى فيهما قصمته [(١)] » وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاث مهلكات : شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه [(٢)] » فالكبر والعجب داءان مهلكان ، والمتكبر والمعجب سقيمان مريضان ، وهما عند الله ممقوتان بغيضان . وإذا كان القصد فى هذا الربع من كتاب إحياء علوم الدين شرح المهلكات وجب إيضاح الكبر والعجب فإنهما من قبائح المرديات . ونحن نستقصى بيانهما من الكتاب فى شطرين : شطر فى الكبر ، وشطر فى العجب .

الشطر الأول من الكتاب : فى الكبر ؛ وفيه ؛ بيان ذم الكبر ، وبيان ذم الاختيال ، وبيان فضيلة التواضع ، وبيان حقيقة التكبر وآفته ، وبيان من يتكبر عليه ودرجات التكبر ، وبيان ما به التكبر ، وبيان البواعث على التكبر ، وبيان أخلاق المتواضعين وما فيه يظهر الكبر ، وبيان علاج الكبر . وبيان امتحان النفس فى خلق الكبر ، وبيان المحمود من خلق التواضع والمذموم منه .

بيان ذم الكبر

قد ذم الله الكبر فى مواضع من كتابه وذم كل جبار متكبر فقال تعالى ﴿ سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ﴾ وقال عزوجل ﴿ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ وقال تعالى ﴿ واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد ﴾ وقال تعالى ﴿ إنه لا يحب المستكبرين ﴾ وقال تعالى ﴿ لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا ﴾ وقال تعالى ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ وذم الكبر فى القرآن كثير وقد

كتاب ذم الكبر والعجب

(١) حديث « قال الله تعالى الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى فيهما قصمته » أخرجه الحاكم فى المستدرك دون ذكر « العظمة » وقال صحيح على شرط مسلم وتقدم فى العلم ، وسيأتى بعد حديثين بلفظ آخر (٢) حديث « ثلاث مهلكات .. الحديث » أخرجه البزار والطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث أنس بسند ضعيف وتقدم فيه أيضاً .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ، ولايدخل النار من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان [1] » وقال أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى واحدا منهما ألقيته فى جهنم ولاأبالى [2] » وعن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال : التقى عبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر على الصفا فتواقفا ، فمضى ابن عمرو وأقام ابن عمر يبكى ، فقالوا مايبكيك ياأبا عبد الرحمن ؟ فقال : هذا ـ يعنى عبد الله بن عمرو ـ زعم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من كان فى قلبة مثقال حبة من خردل من كبر أكبه الله فى النار على وجهه [3] » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لايزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب فى الجبارين فيصيبه ماأصابهم من العذاب [4] » وقال سليمان بن داود عليهما السلام يوما ـ للطير والإنس والجن والبهائم : اخرجوا ، فخرجوا فى مائتى ألف من الإنس ومائتى ألف من الجن ، فرفع حتى سمع زجل الملائكة بالتسبيح فى السموات ، ثم خفض حتى مست أقدامه البحر ، فسمع صوتا : لوكان فى قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخسفت به أبعد مما رفعته . وقال صلى الله عليه وسلم « يخرج من النار عنق له أذنان تسمعان وعينان تبصران ولسان ينطق يقول : وكلت بثلاثة : بكل جبار عنيد وبكل من دعا مع الله إلها آخر وبالمصورين [5] » وقال صلى الله عليه وسلم « لايدخل الجنة بخيل ولا جبار ولاسيئ الملكة [6] » وقال صلى الله عليه وسلم « تحاجت الجنة والنار فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة : مالى لايدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقاطهم وعجزتهم ؟ فقال الله للجنة : إنما أنت رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادى ، وقال للنار : إنما أنت عذابى أعذب بك من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها [7] » وقال صلى الله عليه وسلم « بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسى الجبار الأعلى ، بئس العبد عبد تجبر واختال ونسى الكبير المتعال ، بئس العبد عبد غفل وسها ونسى المقابر والبلى بئس العبد عبد عتا وبغى ونسى المبدأ والمنتهى [8] » وعن ثابت أنه قال : بلغنا أنه قيل يارسول الله ما أعظم كبر فلان ! فقال « أليس بعده الموت [9] » وقال عبد الله بن عمرو : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنيه وقال : إنى آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين ، أنهاكما عن الشرك والكبر ، وآمركما بلا إله إلا الله . فإن السموات والأرضين ومافيهن لو وضعت فى كفة الميزان ووضعت لا إله إلا الله فى الكفة الأخرى كانت أرجح منهما ، ولو أن السموات والأرضين ومافيهن كانتا حلقة فوضعت لا إله إلا الله عليها لقصمتها ، وآمركما بسبحان الله

---

(١) حديث « لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ولايدخل النار رجل فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود . (٢) حديث أبى هريرة « يقول الله تعالى الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى واحدا منهما ألقيته فى جهنم » أخرجه مسلم وأبو داود وابن ماجه واللفظ له ، وقال أبوداود « قذفته فى النار » وقال مسلم « عذبته » وقال « رداؤه » و « إزاره » بالغيبة وزاد مع أبى هريرة أبا سعيد أيضاً (٣) حديث عبدالله بن عمرو « من كان فى قلبه مثقال حبة من كبر كبه الله فى النار على وجهه » أخرجه أحمد والبيهقى فى شعب الإيمان من طريقه بإسناد صحيح (٤) حديث « لايزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب فى الجبارين ... الحديث » أخرجه الترمذى وحسنه من حديث سلمة بن الأكوع دون قوله « من العذاب »

(٥) حديث « يخرج من النار عنق له أذنان .. الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة وقال حسن صحيح غريب

(٦) حديث « لايدخل الجنة جبار ولا بخيل ولاسيئ الملكة » تقدم فى أسباب الكسب والمعاش والمعروف « خائن » مكان « جبار » (٧) حديث « تحاجت الجنة والنار فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة (٨) حديث « بئس العبد عبد تجبر واعتدى ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أسماء بنت عميس بزيادة فيه مع تقديم وتأخير وقال غريب وليس إسناده بالقوى ورواه الحاكم فى المستدرك وصححه ورواه البيهقى فى الشعب من حديث نعيم بن عمار وضعفه (٩) حديث ثابت : بلغنا أنه قيل يارسول الله ما أعظم كبر فلان ؟ فقال « أليس بعده الموت » أخرجه البيهقى فى الشعب هكذا مرسلا بلفظ « تجبر » .

وبحمده فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء (١) » قال المسيح عليه السلام : طوبى لمن علمه الله كتابه ثم لم يمت جباراً . وقال صلى الله عليه وسلم « أهل النار كل جعظرى جواظ مستكبر جماع مناع ، وأهل الجنة الضعفاء المقلون (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن أحبكم إلينا وأقربكم منا فى الآخرة أحاسنكم أخلاقا ، وإن أبغضكم إلينا وأبعدكم منا الثرثارون المتشدقون المتفيهقون » قالوا : يارسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون ؟ المتكبرون (٣) » وقال صلى الله عليه وآله وسلم « يحشر المتكبرون يوم القيامة فى مثل صور الذر تطؤهم الناس ، ذراً فى مثل صور الرجال يعلوهم كل شيء من الصغار ، ثم يساقون إلى سجن فى جهنم يقال له بولس يعلوهم نار الأنيار يسقون من طين الخبال عصارة أهل النار (٤) » وقال أبو هريرة : قال النبى صلى الله عليه وسلم « يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة فى صور الذر تطؤهم الناس لهوانهم على الله تعالى (٥) » وعن محمد بن واسع قال : دخلت على بلال بن أبى بردة فقلت له يابلال إن أباك حدثنى عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن فى جهنم واديا يقال له هبهب حق على الله أن يسكنه كل جبار ، فإياك يابلال أن تكون ممن يسكنه (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن فى النار قصراً يجعل فيه المتكبرون ويطبق عليهم (٧) » وقال صلى الله عليه وسلم « اللهم إنى أعوذ بك من نفخة الكبرياء (٨) » وقال « من فارق روحه جسده وهو برىء من ثلاث دخل الجنة : الكبر والدين والغلول (٩) » .

الآثار : قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : لايحقرن أحد أحداً من المسلمين ، فإن صغير المسلمين عند الله كبير . وقال وهب : لما خلق الله جنة عدن نظر إليها فقال أنت حرام على كل متكبر . وكان الأحنف بن قيس يجلس مع مصعب بن الزبير على سريره ، فجاء يوما ومصعب ماد رجليه فلم يقبضهما ، وقعد الأحنف فزحمه بعض الزحمة فرأى أثر ذلك فى وجهه فقال : عجبا لابن آدم يتكبر وقد خرج من مجرى البول مرتين . وقال الحسن : العجب من ابن آدم ، يغسل الخرء بيده كل يوم مرة أو مرتين ثم يعارض جبار السموات . وقد قيل فى ﴿ وفى أنفسكم

---

(١) حديث عبد الله بن عمرو « أن نوحا لما حضرته الوفاة دعا ابنيه وقال : إنى آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين ، أنهاكما عن الشرك والكبر ... الحديث » أخرجه أحمد والبخارى فى كتاب الأدب والحاكم بزيادة فى نقله قال صحيح الاسناد .

(٢) حديث « أهل النار كل جعظرى جواظ مستكبر جماع مناع » وهذه الزيادة عندهما من حديث حارثة بن وهب الخزاعى « ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتل جواظ مستكبر » (٣) حديث « إن أحبكم إلينا وأقربكم منا فى الآخرة أحاسنكم أخلاقا ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث أبى ثعلبة الخشنى بلفظ « إلى » و « منى » وفيه انقطاع ومكحول لم يسمع من أبى ثعلبة وقد تقدم فى رياضة النفس أول الحديث (٤) حديث « يحشر المتكبرون يوم القيامة ذرا فى صور الرجال ... الحديث » أخرجه الترمذى من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وقال غريب .

(٥) حديث أبى هريرة « يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة فى صور الذر . الحديث » أخرجه البزار هكذا مختصرا دون قوله « الجبارون » وإسناده حسن (٦) حديث أبى موسى « إن فى جهنم واديا يقال له هبهب حق على الله أن يسكنه كل جبار » أخرجه أبو يعلى والطبرانى والحاكم وقال صحيح الإسناد ، قلت فيه أزهر بن سنان ضعفه ابن معين وابن حبان وأورد له فى الضعفاء هذا الحديث (٧) حديث « إن فى النار قصرا يجعل فيه المتكبرون ويطبق عليهم » أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث أنس وقال « توابيت » مكان « قصرا » وقال « فيقفل » مكان « يطبق » وفيه أبان بن أبى عياش وهو ضعيف .

(٨) حديث « اللهم إنى أعوذ بك من نفخة الكبرياء » لم أره بهذا اللفظ ، وروى أبو داود وابن ماجه من حديث جبير بن مطعم عن النبى صلى الله عليه وسلم فى أثناء حديث « أعوذ بالله من الشيطان من نفخه ونفثه وهمزه » قال : نفثه الشعر ونفخه الكبر وهمزه الموتة ، ولأصحاب السنن من حديث أبى سعيد الخدرى نحوه ، تكلم فيه أبو داود وقال الترمذى هو أشهر حديث فى هذا الباب .

(٩) حديث « من فارق روحه جسده وهو برىء من ثلاثة دخل الجنة : الكبر والدين والغلول » أخرجه الترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث ثوبان وذكر المصنف لهذا الحديث هنا موافق المشهور فى الرواية أنه الكبر (بالموحدة والراء) لكن ذكر ابن الجوزى فى جامع المسانيد عن الدارقطنى قال إنما هو الكنز (بالنون والزاى) وكذلك أيضاً ذكر ابن مردويه الحديث فى تفسير (والذين يكنزون الذهب والفضة)

أفلا تبصرون ﴾ هو سبيل الغائط والبول . وقد قال محمد بن الحسين بن على : مادخل قلب امرئ شىء من الكبر قط إلا نقص من عقله بقدر مادخل من ذلك قل أو كثر . وسئل سليمان عن السيئة التى لاتنفع معها حسنة فقال : الكبر وقال النعمان بن بشير — على المنبر — إن للشيطان مصالى وفخوخا ، وإن من مصالى الشيطان وفخوخه البطر بأنعم الله والفخر بإعطاء الله والكبر على عباد الله واتباع الهوى فى غير ذات الله . نسأل الله تعالى العفو والعافية فى الدنيا والآخرة بمنه وكرمه .

بيان ذم الاختيال وإظهار آثار الكبر فى المشى وجر الثياب

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاينظر الله إلى رجل يجر إزاره بطرا[١] » وقال صلى الله عليه وسلم « بينما رجل يتبختر فى بردته إذ أعجبته نفسه فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة[٢] » وقال صلى الله عليه وسلم « من جر ثوبه خيلاء لاينظر الله إليه يوم القيامة » وقال زيد بن أسلم : دخلت على ابن عمر فمر به عبد الله ابن واقد وعليه ثوب جديد فسمعته يقول : أى بنى ارفع إزارك فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لاينظر الله إلى من جر إزاره خيلاء[٣] » وروى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بصق يوما على كفه ووضع أصبعه عليه وقال « يقول الله تعالى : ابن آدم أتعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه ! حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد جمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقى قلت أتصدق ! وأنى أوان الصدقة[٤] » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا مشت أمتى المطيطاء وخدمتهم فارس والروم سلط الله بعضهم على بعض[٥] » قال ابن الأعرابى : هى مشية فيها اختيال . وقال صلى الله عليه وسلم « من تعظم فى نفسه واختال فى مشيته لقى الله وهو عليه غضبان[٦] » .

الآثار : عن أبى بكر الهذلى قال : بينما نحن مع الحسن إذ مر علينا ابن الأهتم يريد المقصورة وعليه جباب خز ، قد نضد بعضها فوق بعض على ساقه وانفرج عنها قباؤه وهو يمشى يتبختر ، إذ نظر إليه الحسن نظرة فقال : أف ... أف ... شامخ بأنفه ثانى عطفه مصعر خده ينظر فى عطفيه ، أى حميق أنت تنظر فى عطفيك فى نعم غير مشكورة ولا مذكورة غير المأخوذ بأمر الله فيها ولا المؤدى حق الله منها ، والله أن يمشى أحد طبيعته يتخلج تخلج المجنون فى كل عضو من أعضائه لله نعمة ، وللشيطان به لفتة ، فسمع ابن الأهتم فرجع يعتذر إليه فقال : لاتعتذر إلى وتب إلى ربك ، أما سمعت قول الله تعالى ﴿ ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ﴾؟ ومر بالحسن شاب عليه بزة له حسنة فدعاه فقال له : ابن آدم معجب بشبابه محب لشمائله ، كأن القبر قد وارى بدنك وكأنك قد لاقيت عملك ، ويحك ! داو قلبك فإن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم . وروى أن عمر

---

(١) حديث « لاينظر الله الى من جر ازاره بطرا » متفق عليه من حديث أبى هريرة .
(٢) حديث « بينما رجل يتبختر فى برديه قد أعجبته نفسه ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة .
(٣) حديث ابن عمر « لاينظر الله الى من جر ازاره خيلاء » رواه مسلم مقتصرا على المرفوع دون ذكر مرور عبد الله ابن واقد على ابن عمر وهو رواية لمسلم أن المار رجل من بنى ليث غير مسمى (٤) حديث : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بصق يوما على كفه ووضع أصبعه عليها وقال « يقول الله : ابن آدم أتعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه ... الحديث » أخرجه ابن ماجه والحاكم وصحح إسناده من حديث بسر بن جحاش (٥) حديث « اذا مشت أمتى المطيطاء .. الحديث » أخرجه الترمذى وابن حبان فى صحيحه من حديث ابن عمر : المطيطاء (بضم الميم وفتح الطاءين المهملتين بينهما مثناة من تحت) مصغرا ولم يستعمل مكبرا
(٦) حديث « من تعظم فى نفسه واختال فى مشيه لقى الله وهو عليه غضبان » أخرجه أحمد والطبرانى والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عمر .

ابن عبد العزيز حج قبل أن يستخلف ؛ فنظر إليه طاوس وهو يختال فى مشيته فغمز جنبه بأصبعه ثم قال : ليست هذه مشية من فى بطنه خراء ؟ فقال عمر كالمعتذر : ياعم لقد ضرب كل عضو منى على هذه المشية حتى تعلمتها ورأى محمد بن واسع ولده يختال فدعاه وقال : أتدرى من أنت ؟ أما أمك فأشتريها بمائتى درهم وأما أبوك فلا أكثر الله فى المسلمين مثله ! ورأى ابن عمر رجلا يجر إزاره فقال : إنّ للشيطان إخوانا — كررها مرتين أو ثلاثا — ويروى أن مطرف بن عبد الله بن الشخير رأى المهلب وهو يتبختر فى جبة خز ، فقال : ياعبد الله هذه مشية يبغضها الله ورسوله، فقال له المهلب : أماتعرفنى ؟ فقال بلى أعرفك أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وأنت بين ذلك تحمل العذرة ! فمضى المهلب وترك مشيته تلك . وقال مجاهد فى قوله تعالى ﴿ ثم ذهب إلى أهله يتمطى ﴾ أى يتبختر وإذ قد ذكرنا ذم الكبر والاختيال فلنذكر فضيلة التواضع والله تعالى أعلم .

بيان فضيلة التواضع

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مازاد الله عبداً بعفو إلا عزا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله [1] » وقال صلى الله عليه وسلم « ما من أحد إلا ومعه ملكان وعليه حكمة يمسكانه بها فإن هو رفع نفسه جبذاها ثم قالا اللهم ضعه وإن وضع نفسه قالا اللهم ارفعه [2] » وقال صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن تواضع فى غير مسكنة وأنفق مالا جمعه فى غير معصية ورحم أهل الذل والمسكنة وخالط أهل الفقه والحكمة [3] » وعن أبى سلمة المدينى عن أبيه عن جده قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندنا بقباء وكان صائما فأتيناه عند إفطاره بقدح من لبن وجعلنا فيه شيئا من عسل فلما رفعه وذاقه وجد حلاوة العسل فقال « ماهذا ؟ » قلنا يارسول الله جعلنا فيه شيئا من عسل فوضعه وقال « أما إنى لا أحرمه ومن تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن اقتصد أغناه الله ومن بذر أفقره الله ومن أكثر ذكر الله أحبه الله [4] » وروى أنّ النبى صلى الله عليه وسلم كان فى نفر من أصحابه فى بيته يأكلون فقام سائل على الباب وبه زمانة يتكره منها فأذن له فلما دخل أجلسه رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذه ثم قال له « اطعم » فكأن رجلا من قريش اشمأز منه وتكرهه فما مات ذلك الرجل حتى كانت به زمانة مثلها [5] » وقال صلى الله عليه وسلم « خيرنى ربى بين أمرين أن أكون عبداً رسولا أو ملكا نبيا فلم أدر أيهما أختار وكان صفيي من الملائكة جبريل فرفعت رأسى إليه فقال : تواضع لربك فقلت عبداً رسولا [6] » وأوحى الله

---

(١) حديث « مازاد الله عبدا بعفو إلا عزا ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

(٢) حديث « مامن أحد إلا ومعه ملكان وعليه حكمة يمسكانه بها ... الحديث » أخرجه العقيلى فى الضعفاء والبيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة والبيهقى أيضا من حديث ابن عباس وكلاهما ضعيف . (٣) حديث « طوبى لمن تواضع فى غير مسكنة ... الحديث » أخرجه البغوى وابن قانع والطبرانى من حديث ركب المصرى والبزار من حديث أنس وقد تقدم بعضه فى العلم وبعضه فى آفات اللسان (٤) حديث أبى سلمة المدينى عن أبيه عن جده قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندنا بقباء وكان صائما الحديث » وفيه « من تواضع رفعه الله ... الحديث » رواه البزار من رواية طلحة بن طلحة بن عبيد الله عن أبيه عن جده طلحة فذكر نحوه دون قوله ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله » ولم يقل « بقباء » وقال الذهبي فى الميزان إنه خبر منكر وقد تقدم ورواه الطبرانى فى الأوسط من حديث عائشة قالت أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدح فيه لبن وعسل ... الحديث » وفيه « أما إنى لا أزعم أنه حرام ... الحديث » وفيه « من أكثر ذكر الموت أحبه الله » وروى المرفوع منه أحمد وأبو يعلى من حديث أبى سعيد دون قوله « ومن بذر أفقره الله » وذكرا فيه قوله « ومن أكثر ذكر الله أحبه الله » وتقدم فى ذم الدنيا

(٥) حديث السائل الذى كان به زمانة منكرة وأنه صلى الله عليه وسلم أجلسه على فخذه ثم قال « اطعم » الحديث لم أجد له أصلا والموجود حديث أكله مع مجذوم رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث جابر وقال الترمذى غريب

(٦) حديث « خيرنى ربى بين أمرين عبدا رسولا وملكا نبيا ... الحديث » أخرجه أبو يعلى من حديث عائشة والطبرانى من حديث ابن عباس وكلا الحديثين ضعيف

تعالى إلى موسى عليه السلام : إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي ولم يتعاظم على خلقي وألزم قلبه خوفي وقطع نهاره بذكري وكف نفسه عن الشهوات من أجلي وقال صلى الله عليه وسلم « الكرم التقوى والشرف التواضع واليقين الغنى [1] » وقال المسيح عليه السلام : طوبى للمتواضعين في الدنيا هم أصحاب المنابر يوم القيامة طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا هم الذين ينظرون إلى الله تعالى يوم القيامة . وقال بعضهم : بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إذا هدى الله عبداً للإسلام وحسن صورته وجعله في موضع غير شائن له ورزقه مع ذلك تواضعا فذلك من صفوة الله [2] » وقال صلى الله عليه وسلم « أربع لايعطيهم الله إلا من أحب : الصمت وهو أول العبادة والتوكل على الله والتواضع والزهد في الدنيا [3] » وقال ابن عباس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا تواضع العبد رفعه الله إلى السماء السابعة [4] » وقال صلى الله عليه وسلم « التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا يرحمكم الله [5] » ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يطعم فجاء رجل أسود به جدري قد تقشر فجعل لا يجلس إلى أحد إلا قام من جنبه فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنبه [6] » وقال صلى الله عليه وسلم « إنه ليعجبني أن يحمل الرجل الشيء في يده يكون مهنة لأهله يدفع به الكبر عن نفسه [7] » وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه يوما « مالي لا أرى عليكم حلاوة العبادة ، قالوا : وماحلاوة العبادة ؟ قال « التواضع [8] » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا رأيتم المتواضعين من أمتي فتواضعوا لهم وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم فإن ذلك مذلة لهم وصغار [9] » .

الآثار : قال عمر رضي الله عنه : إن العبد إذا تواضع لله رفع الله حكمته وقال انتعش رفعك الله وإذا تكبر وعدا طوره رهصه الله في الأرض وقال اخسأ خسأك الله ، فهو في نفسه كبير وفي أعين الناس حقير حتى إنه لأحقر عندهم من الخنزير . وقال جرير بن عبدالله : انتهيت مرة إلى شجرة تحتها رجل نائم قد استظل بنطع له وقد جاوزت الشمس النطع فسويته عليه ، ثم إن الرجل استيقظ فإذا هو سلمان الفارسي ، فذكرت له ماصنعت فقال لي : ياجرير تواضع لله في الدنيا فإنه من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة ياجرير أتدري ماظلمة النار يوم القيامة ؟ قلت : لا ، قال : إنه ظلم الناس بعضهم في الدنيا . وقالت عائشة رضي الله عنها : إنكم لتغفلون عن أفضل العبادات ، التواضع .

---

(١) حديث « الكرم التقوى ، والشرف التواضع ، واليقين الغنى » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين مرسلا وأسند الحاكم أوله من رواية الحسن عن سمرة وقال صحيح الاسناد . (٢) حديث « إذا هدى الله عبدا للاسلام وحسن صورته ... الحديث » أخرجه الطبراني موقوفا على ابن مسعود نحوه وفيه المسعودي مختلف فيه .

(٣) حديث « أربع لايعطيهن الله الا من يحب : الصمت وهو أول العبادة ، والتوكل على الله والتواضع ، والزهد في الدنيا » أخرجه الطبراني والحاكم من حديث أنس « أربع لايصبن إلا بعجب الصمت وهو أول العبادة والتواضع وذكر الله وقلة الشيء » قال الحاكم صحيح الاسناد قلت فيه العوام بن جويرية قال ابن حبان يروي الموضوعات ثم روى له هذا الحديث

(٤) حديث ابن عباس « اذا تواضع العبد رفع الله رأسه الى السماء السابعة » أخرجه البيهقي في الشعب نحوه وفيه زمعة بن صالح ضعفه الجمهور (٥) حديث « إن التواضع لايزيد العبد الارفعة ... الحديث » أخرجه في الترغيب والترهيب من حديث أنس وفيه بشر بن الحسين وهو ضعيف جدا ورواه ابن عدي من حديث ابن عمر وفيه الحسن بن عبد الرحمن الاحتياطي وخارجة بن مصعب وكلاهما ضعيف (٦) حديث : كان يطعم فجاءه رجل أسود به جدري فجعل لايجلس الى أحد الا قام من جنبه فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم الى جنبه . لم أجده هكذا والمعروف أكله مع مجذوم رواه أبو داود والترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث جابر كما تقدم (٧) حديث « انه ليعجبني أن يحمل الرجل الشيء في يده فيكون مهنة لأهله يدفع به الكبر عن نفسه » غريب

(٨) حديث « مالي لا أرى عليكم حلاوة العبادة » قالوا : وما حلاوة العبادة ؟ قال « التواضع » غريب أيضاً .

(٩) حديث « اذا رأيتم المتواضعين من أمتي فتواضعوا لهم واذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم فإن ذلك لهم مذلة وصغار » غريب أيضاً .

وقال يوسف بن أسباط : يجزى قليل الورع من كثير العمل ويجزى قليل التواضع من كثير الاجتهاد . وقال الفضيل وقد سئل عن التواضع ماهو ؟ فقال : أن تخضع للحق وتنقاد له ولو سمعته من صبى قبلته ولو سمعته من أجهل الناس قبلته . وقال ابن المبارك : رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك فى نعمة الدنيا حتى تعلمه أنه ليس لك بدنياك عليه فضل ، وأن ترفع نفسك عمن هو فوقك فى الدنيا حتى تعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل . وقال قتادة : من أعطى مالا أو جمالا أو ثيابا أو علما ثم لم يتواضع فيه كان عليه وبالا يوم القيامه . وقيل أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام : إذا أنعمت عليك بنعمة فاستقبلها بالاستكانة أتممها عليك . وقال كعب : ما أنعم الله على عبد من نعمة فى الدنيا فشكرها لله وتواضع بها لله إلا أعطاه الله نفعها فى الدنيا ورفع بها درجة فى الآخرة ، وما أنعم الله على عبد من نعمة فى الدنيا فلم يشكرها ولم يتواضع بها لله إلا منعه الله نفعها فى الدنيا وفتح له طبقا من النار يعذبه إن شاء الله أو يتجاوز عنه . وقيل لعبد الملك بن مروان : أى الرجال أفضل ؟ قال : من تواضع عن قدرة وزهد عن رغبة وترك النصرة عن قوة . ودخل ابن السماك على هرون فقال : ياأمير المؤمنين إنّ تواضعك فى شرفك أشرف لك من شرفك ، فقال : ماأحسن ماقلت ! فقال : ياأمير المؤمنين إنّ امرأ آتاه الله جمالا فى خلقته وموضعا فى حسبه وبسط له فى ذات يده فعف فى جماله وواسى من ماله وتوضع فى حسبه كتب فى ديوان الله من خالص أولياء الله ، فدعا هرون بدواة وقرطاس وكتبه بيده . وكان سليمان بن داود عليهما السلام إذا أصبح تصفح وجوه الأغنياء والأشراف حتى يجىء إلى المساكين فيقعد معهم ويقول : مسكين مع مساكين . وقال بعضهم : كما تكره أن يراك الأغنياء فى الثياب الدون فكذلك فاكره أن يراك الفقراء فى الثياب المرتفعة . روى أنه خرج يونس وأيوب والحسن يتذاكرون التواضع فقال لهم الحسن : أتدون ماالتواضع ؟ التواضع أن تخرج من منزلك ولا تلقى مسلما إلا رأيت له عليك فضلا . وقال مجاهد . إنّ الله تعالى لما أغرق قوم نوح عليه السلام شمخت الجبال وتطاولت وتواضع الجودى فرفعه الله فوق الجبال وجعل قرار السفينة عليه . وقال أبو سليمان : إنّ الله عز وجل اطلع على قلوب الآدميين فلم يجد قلبا أشدّ تواضعا من قلب موسى عليه السلام فخصه من بينهم بالكلام . وقال يونس بن عبيد وقد انصرف من عرفات : لم أشك فى الرحمة لولا أنى كنت معهم إنى أخشى أنهم حرموا بسببى . ويقال : أرفع مايكون المؤمن عند الله أوضع ما يكون عند نفسه ، وأوضع ما يكون عند الله أرفع ما يكون عند نفسه . وقال زياد النمرى : الزاهد بغير تواضع كالشجرة التى لاتثمر . وقال مالك بن دينار : لو أن مناديا ينادى بباب المسجد ليخرج شركم رجلا والله ما كان أحد يسبقنى إلى الباب إلا رجلا بفضل قوة أو سعى قال : فلما بلغ ابن المبارك قوله قال : بهذا صار مالك مالكا . وقال الفضيل : من أحب الرياسة لم يفلح أبدا . وقال موسى بن القاسم : كانت عندنا زلزلة وريح حمراء فذهبت إلى محمد بن مقاتل فقلت : يا أبا عبدالله أنت إمامنا فادع الله عز وجل لنا ، فبكى ثم قال : ليتنى لم أكن سبب هلاككم ، قال : فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم فقال : إنّ الله عز وجل رفع عنكم بدعاء محمد بن مقاتل . وجاء رجل إلى الشبلى رحمه الله فقال له : ما أنت ؟ وكان هذا دأبه وعادته ، فقال : أنا النقطة التى تحت الباء فقال له الشبلى : أباد الله شاهدك أو تجعل لنفسك موضعا . وقال الشبلى فى بعض كلامه : ذلى عطل ذل اليهود . ويقال : من يرى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب . وعن أبى الفتح بن شخرف قال : رأيت على أبى طالب رضى الله عنه فى المنام فقلت له يا أبا الحسن عظنى ، فقال لى : ماأحسن التواضع بالأغنياء فى مجالس الفقراء رغبة منهم فى ثواب الله ! وأحسن من تيه الفقراء على الأغنياء ثقة منهم بالله عز وجل ، وقال أبو سليمان : لايتواضع العبد حتى يعرف

نفسه . وقال أبو يزيد : مادام العبد يظن أن فى الخلق من هو شر منه فهو متكبر ، فقيل له : فتى يكون متواضعا ؟ قال : إذا لم ير لنفسه مقاما ولا حالا ، وتواضع كل إنسان على قدر معرفته بربه عز وجل ومعرفته بنفسه . وقال أبو سليمان : لو اجتمع الخلق على أن يضعونى كاتضاعى عند نفسى ما قدروا عليه . وقال عروة بن الورد : التواضع أحد مصايد الشرف وكل نعمة محسود عليها صاحبها إلا التواضع . وقال يحيى بن خالد البرمكى : الشريف إذا تنسك تواضع ، والسفيه إذا تنسك تعاظم . وقال يحيى بن معاذ . التكبر على ذى التكبر عليك بماله تواضع ، ويقال : التواضع فى الخلق كلهم حسن ، وفى الأغنياء أحسن ، والتكبر فى الخلق كلهم قبيح ، وفى الفقراء أقبح . ويقال : لا عز إلا لمن تذلل لله عز وجل ، ولا رفعة إلا لمن تواضع لله عز وجل ، ولا أمن إلا لمن خاف الله عز وجل ، ولا ربح إلا لمن ابتاع نفسه من الله عز وجل . وقال أبو على الجوزجانى . النفس معجونة بالكبر والحرص والحسد ، فمن أراد الله تعالى هلاكه منع منه التواضع والنصيحة والقناعة ، وإذا أراد الله تعالى به خيرا لطف به فى ذلك ، فإذا هاجت فى نفسه نار الكبر أدركها التواضع من نصرة الله تعالى ، وإذا هاجت نار الحسد فى نفسه أدركتها النصيحة مع توفيق الله عز وجل ، وإذا هاجت فى نفسه نار الحرص أدركتها القناعة مع عون الله عز وجل . وعن الجنيد رحمه الله أنه كان يقول يوم الجمعة فى مجلسه لولا أنه روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « يكون فى آخر الزمان زعيم القوم أرذلهم [1] » ما تكلمت عليكم . وقال الجنيد أيضا : التواضع عند أهل التوحيد تكبر ، ولعل مراده أن التواضع يثبت نفسه ثم يضعها والموحد لا يثبت نفسه ولا يراها شيئا حتى يضعها أو يرفعها . وعن عمرو بن شيبة قال : كنت بمكة بين الصفا والمروة فرأيت رجلا راكبا بغلة وبين يديه غلمان وإذا هم يعنفون الناس ، قال : ثم عدت بعد حين فدخلت بغداد فكنت على الجسر ، فإذا أنا برجل حاف حاسر طويل الشعر قال : فجعلت أنظر إليه وأتأمله فقال لى : مالك تنظر إلى ؟ فقلت له : شبهتك برجل رأيته بمكة ، ووصفت له الصفة ، فقال له : أنا ذلك الرجل ، فقلت : مافعل الله بك ؟ فقال إنى ترفعت فى موضع يتواضع فيه الناس فوضعنى الله حيث يترفع الناس . وقال المغيرة كنا نهاب إبراهيم النخعى هيبة الأمير وكان يقول إن زمانا صرت فيه فقيه الكوفة لزمان سوء . وكان عطاء السلمى إذا سمع صوت الرعد قام وقعد وأخذه بطنه كأنه امرأة ماخض ، وقال هذا من أجلى يصيبكم ، لو مات عطاء لاستراح الناس . وكان بشر الحافى يقول سلموا على أبناء الدنيا بترك السلام عليهم . ودعا رجل لعبد الله بن المبارك فقال أعطاك الله ماترجوه ، فقال إن الرجاء يكون بعد المعرفة فأين المعرفة ؟ وتفاخرت قريش عند سلمان الفارسى رضى الله عنه يوما فقال سلمان لكننى خلقت من نطفة قذرة ثم أعود جيفة منتنة ثم آتى الميزان فإن ثقل فأنا كريم وإن خف فأنا لئيم وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه وجدنا الكرم فى التقوى ، والغنى فى اليقين ، والشرف فى التواضع . نسأل الله الكريم حسن التوفيق .

بيان حقيقة الكبر وآفته

اعلم أن الكبر ينقسم إلى باطن وظاهر فالباطن هو خلق فى النفس ، والظاهر هو أعمال تصدر عن الجوارح . واسم الكبر بالخلق الباطن أحق ، وأما الأعمال فإنها ثمرات لذلك الخلق . وخلق الكبر موجب للأعمال ولذلك إذا

---

(١) حديث « يكون فى آخر الزمان زعيم القوم أرذلهم » أخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة « اذا اتخذ الفىء دولا ... الحديث » وفيه « كان زعيم القوم أرذلهم ... الحديث » وقال غريب وله من حديث على بن أبى طالب « اذا فعلت أمتى خمس عشرة خصلة حل بها البلاء » فذكر منها « وكان زعيم القوم أرذلهم » ولأبى نعيم فى الحلية من حديث حذيفة « من اقتراب الساعة اثنان وسبعون خصلة » فذكرها منها وفيهما فرج بن فضالة ضعيف .

ظهر على الجوارح يقال تكبر ، وإذا لم يظهر يقال فى نفسه كبر . فالأصل هو الخلق الذى فى النفس وهو الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق المتكبر عليه فإن الكبر يستدعى متكبرا عليه ومتكبرا به ، وبه ينفصل الكبر عن العجب - كما سيأتى - فإنّ العجب لايستدعى غير المعجب بل لولم يخلق الإنسان إلا وحده تصور أن يكون معجبا ، ولايتصور أن يكون متكبراً إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير فى صفات الكمال ، فعند ذلك يكون متكبرا ، ولا يكفى أن يستعظم نفسه ليكون متكبرا فإنه قد يستعظم نفسه ولكنه يرى غيره أعظم من نفسه أو مثل نفسه فلا يتكبر عليه ، ولا يكفى أن يستحقر غيره فإنه مع ذلك لورأى نفسه أحقر لم يتكبر ولو رأى غيره مثل نفسه لم يتكبر ، بل ينبغى أن يرى لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة ، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره ، فعند هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل فيه خلق الكبر ، لأن هذه الرؤية تنفى الكبر ، بل هذه الرؤية وهذه العقيدة تنفخ فيه ، فيحصل فى قلبه اعتداد وهزة وفرح وركون إلى مااعتقده وعز فى نفسه بسبب ذلك ، فتلك العزة والهزة والركون إلى العقيدة هو خلق الكبر . ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم « أعوذ بك من نفخة الكبرياء [1] » وكذلك قال عمر أخشى أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا ، للذى استأذنه أن يعظ بعد صلاة الصبح . فكأن الإنسان مهما رأى نفسه بهذه العين - وهو الاستعظام - كبر وانتفخ وتعزز . فالكبر عبارة عن الحالة الحاصلة فى النفس من هذه الاعتقادات ، وتسمى أيضا عزة وتعظما ، ولذلك قال ابن عباس فى قوله تعالى ﴿ إن فى صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه ﴾ قال عظمة لم يبلغوها ، ففسر الكبر بتلك العظمة . ثم هذه العزة تقتضى أعمالا فى الظاهر والباطن هى ثمرات ويسمى ذلك تكبرا ، فإنه مهما عظم عنده قدره بالإضافة إلى غيره حقر من دونه وازدراه وأقصاه عن نفسه وأبعده وترفع عن مجالسته ومؤاكلته ، ورأى أن حقه أن يقوم ماثلا بين يديه إن اشتد كبره فإن كان أشد من ذلك استنكف عن استخدامه ولم يجعله أهلا للقيام بين يديه ولا بخدمة عتبته ، فإن كان دون ذلك فأنف من مساواته وتقدم عليه فى مضايق الطرق وارتفع عليه فى المحافل وانتظر أن يبدأه بالسلام واستبعد تقصيره فى قضاء حوائجه وتعجب منه ، وإن حاج أو ناظر أنف أن يرد عليه وإن وعظ استنكف من القبول ، وإن وعظ عنف فى النصح ، وإن رد عليه شىء من قوله غضب وإن علم لم يرفق بالمتعلمين واستذلهم وانتهرهم وامتن عليهم واستخدمهم ، وينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الحمير استجهالا لهم واستحقارا . والأعمال الصادرة عن خلق الكبر كثيرة وهى أكثر من أن تحصى فلا حاجة إلى تعدادها فإنها مشهورة . فهذا هو الكبر وآفته عظيمة وغائلته هائلة ، وفيه يهلك الخواص من الخلق ، وقلما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء فضلا عن عوام الخلق ، وكيف لا تعظم آفته وقد قال صلى الله عليه وسلم « لايدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر [2] » ؟ وإنما صار حجابا دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها ، وتلك الأخلاق هى أبواب الجنة ، والكبر وعزة النفس يغلق تلك الأبواب كلها ، لأنه لا يقدر على أن يحب للمؤمنين مايحب لنفسه وفيه شىء من العز ، ولا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق المتقين وفيه العز ، ولا يقدر على ترك الحقد وفيه العز ، ولا يقدر أن يدوم على الصدق وفيه العز ، ولا يقدر على ترك الغضب وفيه العز ، ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز ، ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز ، ولا يقدر على النصح اللطيف وفيه العز ، ولا يقدر على قبول النصح وفيه العز ، ولا يسلم من الازدراء بالناس ومن اغتيابهم وفيه العز : ولا معنى للتطويل فما من خلق

(١) حديث « أعوذ بك من نفخة الكبرياء » تقدم فيه . (٢) حديث « لايدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر » تقدم فيه .

ذميم إلا وصاحب العز والكبر مضطر إليه ليحفظ عزه ، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفا من أن يفوته عزه ، فمن هذا لم يدخل الجنة من فى قلبه مثقال حبة منه . والأخلاق الذميمة متلازمة والبعض منها داع إلى البعض لا محالة . وشر أنواع الكبر مايمنع من استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له . وفيه وردت الآيات التى فيها ذم الكبر والمتكبرين قال الله تعالى ﴿ والملائكة باسطو أيديهم ﴾ إلى قوله ﴿ وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ ثم قال ﴿ ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴾ ثم أخبر أن أشد أهل النار عذابا أشدهم عتيا على الله تعالى فقال ﴿ ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا ﴾ وقال تعالى ﴿ فالذين لايؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون ﴾ وقال عز وجل ﴿ يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ﴾ وقال تعالى ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ وقال تعالى ﴿ سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ﴾ قيل فى التفسير : سأرفع فهم القرآن عن قلوبهم ، وفى بعض التفاسير سأحجب قلوبهم عن الملكوت . وقال ابن جريج : سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا بها . ولذلك قال المسيح عليه السلام : إنّ الزرع ينبت فى السهل ولا ينبت على الصفا ، كذلك الحكمة تعمل فى قلب المتواضع ولا تعمل فى قلب المتكبر ، ألا ترون أنّ من شمخ برأسه إلى السقف شجه ، ومن طأطأ أظله وأكنه . فهذا مثل ضربه للمتكبرين وأنهم كيف يحرمون الحكمة ، ولذلك ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم جحود الحق فى حد الكبر والكشف عن حقيقته وقال « من سفه الحق وغمص الناس [1] » .

بيان المتكبر عليه ودرجاته وأقسامه وثمرات الكبر فيه

اعلم أنّ المتكبر عليه هو الله تعالى أو رسله أو سائر خلقه ، وقد خلق الإنسان ظلوما جهولا ، فتارة يتكبر على الخلق وتارة يتكبر على الخالق ، فإذن التكبر باعتبار المتكبر عليه ثلاثة أقسام :

الأول : التكبر على الله ؛ وذلك هو أفحش أنواع الكبر ، ولا مثار له إلا الجهل المحض والطغيان مثل ما كان من نمروذ فإنه كان يحدّث نفسه بأن يقاتل رب السماء وكما يحكى عن جماعة من الجهلة . بل ما يحكى عن كل من ادعى الربوبية مثل فرعون وغيره ، فإنه لتكبره قال : أنا ربكم الأعلى ، إذ استنكف أن يكون عبداً لله ، ولذلك قال تعالى ﴿ إنّ الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ وقال تعالى ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ﴾ الآية وقال تعالى ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا ﴾ .

القسم الثانى : التكبر على الرسل من حيث تعزز النفس وترفعها على الانقياد لبشر مثل سائر الناس ؛ وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار فيبقى فى ظلمة الجهل بكبره فيمتنع عن الانقياد وهو ظانّ أنه محق فيه ، وتارة يمتنع مع المعرفة ولكن لاتطاوعه نفسه للانقياد للحق والتواضع للرسل ، كما حكى الله قولهم ﴿ أنؤمن لبشرين مثلنا ﴾ وقولهم ﴿ إن أنتم إلا بشر مثلنا . ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذاً لخاسرون وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا . وقالوا لولا أنزل عليه

(١) حديث الكبر من سفه الحق وغمص الناس » أخرجه من حديث ابن مسعود فى أثناء حديث وقال « بطر الحق وغمط الناس » ورواه الترمذى فقال « من بطر الحق وغمص الناس » وقال حسن صحيح ورواه أحمد من حديث عقبة عامر بلفظ المصنف ورواه البيهقى فى الشعب من حديث أبى ريحانة هكذا .

ملك ﴾ وقال فرعون فيما أخبر الله عنه ﴿ أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ وقال الله تعالى ﴿ واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق ﴾ فتكبر هو على الله وعلى رسله جميعاً . قال وهب : قال له موسى عليه السلام آمن ولك ملكك ، قال : حتى أشاور هامان ، فشاور هامان فقال هامان : بينما أنت رب يعبد إذ صرت عبد تعبد فاستنكف عن عبودية الله وعن اتباع موسى عليه السلام . وقالت قريش فيما أخبر الله تعالى عنهم ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ قال قتادة : عظيم القريتين هو الوليد بن المغيرة وأبو مسعود الثقفي ، طلبوا من هو أعظم رياسة من النبي صلى الله عليه وسلم إذ قالوا غلام يتيم كيف بعثه الله إلينا ؟ فقال تعالى ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ وقال الله تعالى ﴿ ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ﴾ أي استحقارا لهم واستبعادا لتقدمهم . وقالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف نجلس إليك وعندك هؤلاء ؟ وأشاروا إلى فقراء المسلمين فازدروهم بأعينهم لفقرهم ، وتكبروا عن مجالستهم فأنزل الله تعالى ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ إلى قوله ﴿ ماعليك من حسابهم ﴾ وقال تعالى ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا[1] ﴾ ثم أخبر الله تعالى عن تعجبهم حين دخلوا جهنم إذ لم يروا الذين ازدروهم فقالوا ﴿ مالنا لانرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار ﴾ قيل يعنون عمارا وبلالا وصهيبا والمقداد رضي الله عنهم ، ثم كان منهم من منعه الكبر عن الفكر والمعرفة فجهل كونه صلى الله عليه وسلم محقا ، ومنهم من عرف ومنعه الكبر عن الاعتراف قال الله تعالى مخبرا عنهم ﴿ فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به ﴾ وقال ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ﴾ وهذا الكبر قريب من التكبر على الله عز وجل وإن كان دونه ، ولكنه تكبر على قبول أمر الله والتواضع لرسوله .

القسم الثالث : التكبر على العباد ؛ وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره ، فتأبى نفسه عن الانقياد لهم وتدعوه إلى الترفع عليهم فيزدريهم ويستصغرهم ويأنف عن مساواتهم ، وهذا وإن كان دون الأول والثاني فهو أيضا عظيم من وجهين ؛ أحدهما : أن الكبر والعز والعظمة والعلاء لايليق إلا بالملك القادر ، فأما العبد المملوك الضعيف العاجز الذي لايقدر على شيء فمن أين يليق بحاله الكبر ؟ فمهما تكبر العبد فقد نازع الله تعالى في صفة لاتليق إلا بجلاله ، ومثاله : أن يأخذ الغلام قلنسوة الملك فيضعها على رأسه ويجلس على سريره ، فما أعظم استحقاقه للمقت وما أعظم تهدفه للخزي والنكال ! وما أشد استجراءه على مولاه وما أقبح ماتعاطاه ! وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى « العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما قصمته » أي إنه خاص صفتي ولا يليق إلا بي ، والمنازع فيه منازع في صفة من صفاتي ، وإذا كان الكبر على عباده لايليق إلا به فمن تكبر على عباده فقد جنى عليه ، إذ الذي يسترذل خواص غلمان الملك ويستخدمهم ويترفع عليهم ويستأثر بما حق الملك أن يستأثر به منهم فهو منازع له في بعض أمره ، وإن لم يبلغ درجته درجة من أراد الجلوس على سريره والاستبداد بملكه ، فالخلق كلهم عباد الله وله العظمة والكبرياء عليهم ، فمن تكبر على عبد من عباد الله فقد نازع الله في حقه . نعم الفرق بين هذه المنازعة وبين منازعة نمروذ وفرعون ، هو الفرق بين منازعة الملك في استصغار بعض عبيده واستخدامهم وبين منازعته في أصل الملك .

---

(١) حديث قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف نجلس اليك وعندك هؤلاء ... الحديث » في نزول قوله تعالى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم) أخرجه مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص الا أنه قال « فقال المشركون » وقال ابن ماجه « قالت قريش » .

الوجه الثانى : الذى تعظم به رذيلة الكبر أنه يدعو إلى مخالفة الله تعالى فى أوامره ، لأن المتكبر إذا سمع الحق من عبد من عباد الله استنكف عن قبوله وتشمر لجحده ، ولذلك ترى المناظرين فى مسائل الدين يزعمون أنهم يتباحثون عن أسرار الدين ثم إنهم يتجاحدون تجاحد المتكبرين ، ومهما اتضح الحق على لسان واحد منهم أنف الآخر من قبوله ، وتشمر لجحده واحتال لدفعه بما يقدر عليه من التلبيس وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين ، إذ وصفهم الله تعالى فقال (وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) فكل من يناظر للغلبة والإفحام لا ليغتنم الحق إذا ظفر به فقد شاركهم فى هذا الخلق ، وكذلك يحمل ذلك على الأنفة من قبول الوعظ كما قال تعالى (وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم) وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قرأها فقال (إنا لله وإنا إليه راجعون) قام رجل يأمر بالمعروف فقتل ، فقام آخر فقال : يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ،فقتل المتكبر الذى خالفه والذى أمره كبرا . وقال ابن مسعود : كفى بالرجل إثما إذا قيل له اتق الله قال : عليك نفسك ! وقال صلى الله عليه وسلم لرجل «كل بيمينك» قال لاأستطيع ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم «لا استطعت» فما منعه إلا الكبره ، قال . فما رفعها بعد ذلك [1] أى اعتلت يده . فإذن تكبره على الخلق عظيم لأنه سيدعوه إلى التكبر على أمر الله، وإنما ضرب إبليس مثلا لهذا ، وما حكاه من أحواله إلا ليعتبر به ، فإنه قال : أنا خير منه ، وهذا الكبر بالنسب لأنه قال : أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ، فحمله ذلك على أن يمتنع من السجود الذى أمره الله تعالى به ، وكان مبدؤه الكبر على آدم والحسد له فجره ذلك إلى التكبر على أمر الله تعالى ، فكان ذلك سبب هلاكه أبد الآباد ، فهذه آفة من آفات الكبر على العباد عظيمة ، ولذلك شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبر بهاتين الآفتين إذ سأله ثابت بن قيس بن شماس فقال : يارسول الله إنى امرؤ قد حبب إلى من الجمال ماترى أفمن الكبر هو ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « لا ولكن الكبر من بطر الحق وغمص الناس [2] » وفى حديث آخر « من سفه الحق [3] » وقوله « وغمص الناس » أى ازدراهم واستحقرهم وهم عباد الله أمثاله أو خير منه . وهذه الآفة الأولى « وسفه الحق » هو رده وهى الآفة الثانية ، فكل من رأى أنه خير من أخيه واحتقر أخاه وازدراه ونظر إليه بعين الاستصغار ، أو رد الحق وهو يعرفه فقد تكبر فيما بينه وبين الخلق ، ومن أنف من أن يخضع لله تعالى ويتواضع لله بطاعته واتباع رسله فقد تكبر فيما بينه وبين الله تعالى ورسله .

بيان مابه التكبر

اعلم أنه لايتكبر إلا متى استعظم نفسه ، ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال . ومجامع ذلك يرجع إلى كمال دينى أو دنيوى ، فالدينى هو العلم والعمل ، والدنيوى هو النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الأنصار . فهذه سبعة أسباب .

الأول : العلم ؛ وما أسرع الكبر إلى العلماء ! ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « آفة العلم الخيلاء [4] » فلا يلبث

---

(١) حديث : قال لرجل «كل بيمينك » قال : لا أستطيع قال « لااستطعت » الحديث أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع .

(٢) حديث : قول ثابت بن قيس بن شماس إنى امرؤ قد حبب إلى من الجمال ماترى .. الحديث » وفيه « الكبر من بطر الحق وغمص الناس » أخرجه مسلم والترمذى وقد تقدم قبله بحديثين (٣) حديث « الكبر من سفه الحق وغمص الناس » تقدم معه

(٤) حديث « آفة العلم الخيلاء » قلت : : هكذا ذكره المصنف والمعروف « آفة العلم النسيان وآفة الجمال الخيلاء » هكذا رواه القضاعى فى مسند الشهاب من حديث على بسند ضعيف . وروى عنه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس « آفة الجمال الخيلاء » وفيه الحسن بن الحميد الكوفى لايدرى من هو حدث عن أبيه بحديث موضوع قاله صاحب الميزان .

العالم أن يتعزز بعزة العلم يستشعر فى نفسه جمال العلم وكماله ويستعظم نفسه ويستحقر الناس وينظر اليهم نظره إلى البهائم ويستجهلهم ويتوقع أن يبدءوه بالسلام ، فإن بدأه واحد منهم بالسلام أو رد عليه ببشر أو قام له أو أجاب له دعوة رأى ذلك صنيعة عنده ويداً عليه يلزمه شكرها ، واعتقد أنه أكرمهم وفعل بهم مالا يستحقون من مثله ، وأنه ينبغى أن يرقوا له ويخدموه شكراً له على صنيعه ، بل الغالب أنهم يبرونه فلا يبرهم ويزورونه فلا يزورهم ويعودونه فلا يعودهم ويستخدم من خالطه منهم ويستسخره فى حوائجه ، فإن قصر فيه استنكره كأنهم عبيده أو أجراؤه ، وكأن تعليمه العلم صنيعة منه إليهم ومعروف لديهم واستحقاق حق عليهم ، هذا فيما يتعلق بالدنيا . أما فى أمر الآخرة فتكبره عليهم بأن يرى نفسه عند الله تعالى أعلى وأفضل منهم ، فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم ، وهذا بأن يسمى جاهلا أولى من أن يسمى عالما ، بل العلم الحقيقى هو الذى يعرف الإنسان به نفسه وربه وخطر الخاتمة وحجة الله على العلماء وعظم خطر العلم فيه ـ كما سيأتى فى طريق معالجة الكبر بالعلم ـ وهذا العلم يزيد خوفا وتواضعا وتخشعا ، ويقتضى أن يرى كل الناس خيرا منه لعظم حجة الله عليه بالعلم ، وتقصيره فى القيام بشكر نعمة العلم . ولهذا قال أبو الدرداء : من ازداد علما ازداد وجعا وهو كما قال .

فإن قلت : فما بال بعض الناس يزداد بالعلم كبرا وأمنا ؟

فاعلم أن لذلك سببين : (أحدهما) أن يكون اشتغاله بما يسمى علما وليس علما حقيقيا ، وإنما العلم الحقيقى مايعرف به العبد ربه ونفسه ، وخطر أمره فى لقاء الله والحجاب منه ، وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر والأمن . قال الله تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ فأما ما وراء ذلك كعلم الطب والحساب واللغة والشعر والنحو وفصل الخصومات وطرق المجادلات ، فإذا تجرد الإنسان لها حتى امتلأ منها امتلأ بها كبرا ونفاقا ، وهذه بأن تسمى صناعات أولى من أن تسمى علوما ، بل العلم هو معرفة العبودية والربوبية وطريق العبادة ، وهذه تورث التواضع غالبا .

(السبب الثانى) أن يخوض العبد فى العلم وهو خبيث الدخلة ردىء النفس سيئ الأخلاق ، فإنه لم يشتغل أولا بتهذيب نفسه وتزكية قلبه بأنواع المجاهدات ولم يرض نفسه فى عبادة ربه فبقى خبيث الجوهر ، فإذا خاض فى العلم ـ أى علم كان ـ صادف العلم من قلبه منزلا خبيثا فلم يطب ثمره ولم يظهر فى الخير أثره . وقد ضرب وهب لهذا مثلا فقال : العلم كالغيث ينزل من السماء حلوا صافيا فتشربه الأشجار بعروقها فتحوله على قدر طعومها فيزداد المر مرارة والحلو حلاوة ، فكذلك العلم تحفظه الرجال فتحوله على قدر هممها وأهوائها ، فيزيد المتكبر كبرا والمتواضع تواضعا ، وهذا لأن من كانت همته الكبر وهو جاهل فإذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به فازداد كبرا ؛ وإذا كان الرجل خائفا مع جهله فازداد علما علم أن الحجة قد تأكدت عليه فيزداد خوفا وإشفاقا وذلا وتواضعا ، فالعلم من أعظم ما يتكبر به ؛ ولذلك قال تعالى لنبيه عليه السلام ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ وقال عز وجل ﴿ ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ ووصف أولياءه فقال ﴿ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾ وكذلك قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه العباس رضى الله عنه « يكون قوم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقولون : قد قرأنا القرآن فمن أقرأ منا ومن أعلم منا ، ثم التفت إلى أصحابه وقال « أولئك منكم أيها الأمة أولئك هم

وقود النار(١) » ولذلك قال عمر رضى الله عنه لا تكونوا جبابرة العلماء فلا يفى علمكم بجهلكم . ولذلك استأذن تميم الدارى عمر رضى الله عنه فى القصص فأبى أن يأذن له وقال : إنه الذبح ، واستأذنه رجل كان إمام قوم أنه إذا سلم من صلاته ذكرهم فقال : إنى أخاف أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا . وصلى حذيفة بقوم فلما سلم من صلاته قال : لتلتمسن إماما غيرى أو لتصلن وحدانا فإنى رأيت فى نفسى أنه ليس فى القوم أفضل منى . فإذا كان مثل حذيفة لا يسلم فكيف يسلم الضعفاء من متأخرى هذه الأمة ؟ فما أعز على بسيط الأرض عالما يستحق أن يقال له عالم ثم إنه لا يحركه عز العلم وخيلاؤه ، فإن وجد ذلك فهو صديق زمانه ، فلا ينبغى أن يفارق بل يكون النظر إليه عبادة فضلا عن الاستفادة من أنفاسه وأحواله ؛ لو عرفنا ذلك ولو فى أقصى الصين لسعينا إليه رجاء ان تشملنا بركته وتسرى إلينا سيرته وسجيته ، وهيهات ! فأنى يسمح آخر الزمان بمثلهم ؟ فهم أرباب الإقبال وأصحاب الدول قد انقرضوا فى القرن الأول ومن يليهم ، بل يعز فى زماننا عالم يختلج فى نفسه الأسف والحزن على فوات هذه الخصلة ، فذلك أيضا إما معدوم وإما عزيز . ولولا بشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله « سيأتى على الناس زمان من تمسك فيه بعشر ما أنتم عليه نجا (٢) » لكان جديرا بنا أن نقتحم والعياذ بالله تعالى ورطة اليأس والقنوط مع ما نحن عليه من سوء أعمالنا ، ومن لنا أيضا بالتمسك بعشر ما كانوا عليه ، وليتنا تمسكنا بعشر عشره . فنسأل الله تعالى أن يعاملنا بما هو أهله ويستر علينا قبائح أعمالنا كما يقتضيه كرمه وفضله .

الثانى : العمل والعبادة ، وليس يخلو عن رذيلة العز والكبر واستمالة قلوب الناس الزهاد والعباد ويترشح الكبر منهم فى الدين والدنيا .

(أما فى الدنيا) فهو أنهم يرون غيرهم بزيارتهم أولى منهم بزيارة غيرهم ، ويتوقعون قيام الناس بقضاء حوائجهم وتوقيرهم والتوسع لهم فى المجالس وذكرهم بالورع والتقوى وتقديمهم على سائر الناس فى الحظوظ ـ إلى جميع ما ذكرناه فى حق العلماء ـ وكأنهم يرون عبادتهم منة على الخلق .

(وأما فى الدين) فهو أن يرى الناس هالكين ويرى نفسه ناجيا وهو الهالك تحقيقا ـ مهما رأى ذلك ـ قال صلى الله تعالى عليه وسلم « إذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم (٣) » وإنما قال ذلك لأن هذا القول منه يدل على أنه مزدر بخلق الله مغتر بالله آمن من مكره غير خائف من سطوته ، وكيف لا يخاف ؟ ويكفيه شرا احتقاره لغيره . قال صلى الله تعالى عليه وسلم « كفى بالمرء شرا أن يحقر أخاه المسلم (٤) » وكم من الفرق بينه وبين من يحبه لله ويعظمه لعبادته ويستعظمه ويرجو له ما لا يرجوه لنفسه ، فالخلق يدركون النجاة بتعظيمهم إياه لله ، فهم يتقربون إلى الله تعالى بالدنو منه وهو يتمقت إلى الله بالتنزه والتباعد منهم ، كأنه مترفع عن مجالستهم ، فما أجدرهم إذ أحبوه لصلاحه أن ينقلهم الله إلى درجته فى العمل ! وما أجدره إذ ازدراهم بعينه أن ينقله الله إلى حد الإهمال ! كما روى أن رجلا فى بنى إسرائيل كان يقال له : خليع بنى إسرائيل ـ لكثرة فساده ـ مر برجل آخر يقال له عابد بنى إسرائيل ، وكان على رأس العابد غمامة تظله فلما مر الخليع به فقال الخليع فى نفسه : أنا خليع بنى إسرائيل وهذا عابد بنى إسرائيل ،

---

(١) حديث العباس « يكون قوم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقولون قد قرأنا القرآن فمن أقرأ منا ... الحديث » أخرجه ابن المبارك فى الزهد والرقائق (٢) حديث « سيأتى على الناس زمان من تمسك بعشر ما أنتم عليه نجا » أخرجه أحمد من رواية رجل عن أبى ذر .

(٣) حديث « إذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة .

(٤) حديث « كفى بالمرء شرا أن يحقر أخاه المسلم » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة بلفظ « امرؤ من الشر » .

فلو جلست إليه لعل الله يرحمني ! فجلس إليه فقال العابد : أنا عابد بني إسرائيل وهذا خليع بني إسرائيل فكيف يجلس إلى ؟ فأنف منه وقال له : قم عني ! فأوحى الله إلى نبي ذلك الزمان : مرهما فليستأنفا العمل فقد غفرت للخليع وأحبطت عمل العابد . وفي رواية أخرى : فتحولت الغمامة إلى رأس الخليع .

وهذا يعرفك أن الله تعالى إنما يريد من العبيد قلوبهم ، فالجاهل العاصي إذا تواضع هيبة لله وذل خوفا منه فقد أطاع الله بقلبه ، فهو أطوع لله من العالم المتكبر والعابد المعجب . وكذلك روى أن رجلا في بني إسرائيل أتى عابدا من بني إسرائيل فوطئ على رقبته وهو ساجد فقال : ارفع فوالله لايغفر الله لك [1] فأوحى الله إليه أيها المتألي بل أنت لايغفر الله لك وكذلك قال الحسن : وحتى أن صاحب الصوف أشد كبرا من صاحب المطرز الخز ، أي أن صاحب الخز يذل لصاحب الصوف ويرى الفضل وصاحب الصوف يرى الفضل لنفسه وهذه الآفة أيضا قلما ينفك عنها كثير من العباد ، وهو أنه لو استخف به مستخف أو آذاه مؤذ استبعد أن يغفر الله له ، ولا يشك في أنه صار ممقوتا عند الله ، ولو آذى مسلما آخر لم يستنكر ذلك الاستنكار وذلك لعظم قدر نفسه عنده ، وهو جهل وجمع بين الكبر والعجب واغترار بالله وقد ينتهي الحمق والغباوة ببعضهم إلى أن يتحدى ويقول : سترون مايجرى عليه ؟ وإذا أصيب بنكبة زعم أن ذلك من كراماته وأن الله ما أراد به إلا شفاء غليله والانتقام له منه ، مع أنه يرى طبقات من الكفار يسبون الله ورسوله ، وعرف جماعة آذوا الأنبياء صلوات الله عليهم فمنهم من قتلهم ومنهم من ضربهم ، ثم إن الله أمهل أكثرهم ولم يعاقبهم في الدنيا ، بل ربما أسلم بعضهم فلم يصبه مكروه في الدنيا ولا في الآخرة ، ثم الجاهل المغرور يظن أنه أكرم على الله من أنبيائه وأنه قد انتقم له بما لا ينتقم لأنبيائه به . ولعله في مقت الله بإعجابه وكبره وهو غافل عن هلاك نفسه فهذه عقيدة المغترين .

(وأما الأكياس من العباد) فيقولون ما كان يقوله عطاء السلمي حين كان تهب ريح أو تقع صاعقة : مايصيب الناس مايصيبهم إلا بسببي ولو مات عطاء لتخلصوا . وما قاله الآخر بعد انصرافه من عرفات : كنت أرجو الرحمة لجميعهم لولا كوني فيهم فانظر إلى الفرق بين الرجلين هذا يتقي الله ظاهرا وباطنا ؛ وهو وجل على نفسه مزدر لعمله وسعيه ، وذاك ربما يضمر من الرياء والكبر والحسد والغل ماهو ضحكة للشيطان به ، ثم إنه يمتن على الله بعمله . ومن اعتقد جزما أنه فوق أحد من عباد الله فقد أحبط بجهله جميع عمله ، فإن الجهل أفحش المعاصي وأعظم شيء يبعد العبد عن الله ، وحكمه لنفسه بأنه خير من غيره جهل محض وأمن من مكر الله ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ولذلك روى أن رجلا ذكر بخير للنبي صلى الله عليه وسلم فأقبل ذات يوم فقالوا : يارسول الله هذا الذي ذكرناه لك ، فقال « إني أرى في وجهه سفعة من الشيطان » فسلم ووقف على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « أسألك بالله حدثتك نفسك أن ليس في القوم أفضل منك » قال : اللهم نعم [2] فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنور النبوة مااستكن في قلبه سفعة في وجهه . وهذه آفة لاينفك عنها أحد من العباد إلا من عصمه الله .

لكن العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلاث درجات :

(الدرجة الأولى) أن يكون الكبر مستقرا في قلبه يرى نفسه خيرا من غيره ، إلا أنه يجتهد ويتواضع ويفعل

---

(1) حديث « الرجل من بني إسرائيل الذي وطيء على رقبة عابد من بني إسرائيل وهو ساجد فقال : ارفع فوالله لايغفر الله لك الحديث » أخرجه أبو داود والحاكم من حديث أبي هريرة في قصة العابد الذي قال للعاصي « والله لايغفر الله لك أبدا » وهو بغير هذا السياق وإسناده حسن (2) حديث : أن رجلا ذكر بخير للنبي صلى الله عليه وسلم فأقبل ذات يوم فقالوا يارسول الله هذا الذي ذكرناه لك فقال « إني أرى في وجهه سفعة من الشيطان » الحديث أخرجه أحمد والبزار والدارقطني من حديث أنس .

فعل من يرى غيره خيرا من نفسه ، وهذا قد رسخ فى قلبه شجرة الكبر ولكنه قطع أغصانها بالكلية .

(الثانية) أن يظهر ذلك على أفعاله بالترفع فى المجالس والتقدم على الأقران وأظهار الإنكار على من يقصر فى حقه ، وأدنى ذلك فى العالم أن يصعر خده للناس كأنه معرض عنهم ، وفى العابد أن يعبس وجهه ويقطب جبينه كأنه منزه عن الناس مستقذر لهم أو غضبان عليهم وليس يعلم المسكين أن الورع ليس فى الجبهة حتى تقطب ولا فى الوجه حتى يعبس ولا فى الخد حتى يصعر ولا فى الرقبة حتى تطأطأ ولا فى الذيل حتى يضم ؛ إنما الورع فى القلوب ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « التقوى ههنا » وأشار إلى صدره [1] فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم : أكرم الخلق وأتقاهم وكان أوسعهم خلقا وأكثرهم بشرا وتبسما وانبساطا [2] ولذلك قال الحارث بن جزء الزبيدى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم : يعجبنى من القراء كل طليق مضحاك ، فأما الذى تلقاه ببشر ويلقاك بعبوس يمن عليك بعلمه ، فلا أكثر الله فى المسلمين مثله . ولو كان الله سبحانه وتعالى يرضى ذلك لما قال لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ وهؤلاء الذين يظهر أثر الكبر على شمائلهم فأحوالهم أخف حالا ممن هو فى (الرتبة الثالثة) وهو الذى يظهر الكبر على لسانه حتى يدعوه إلى الدعوى والمفاخرة والمباهاة وتزكية النفس وحكايات الأحوال والمقامات والتشمر لغلبة الغير فى العلم والعمل .

أما العابد فإنه يقول فى معرض التفاخر لغيره من العباد . من هو وما عمله ومن اين زهده ؟ فيطول اللسان فيهم بالتنقص ، ثم يثنى على نفسه ويقول : إنى لم افطر منذ كذا وكذا ولا أنام الليل وأختم القرآن فى كل يوم ، وفلان ينام سحرا ولا يكثر القراءة ، وما يجرى مجراه ، وقد يزكى نفسه ضمنا فيقول : قصدنى فلان بسوء فهلك ولده وأخذ ماله أو مرض ، أو مايجرى مجراه ، يدعى الكرامة لنفسه . وأما مباهاته : فهو أنه لو وقع مع قوم يصلون بالليل قام وصلى أكثر مما كان يصلى ، وإن كانوا يصبرون على الجوع فيكلف نفسه الصبر ليغلبهم ويظهر له قوته وعجزهم ، وكذلك يشتد فى العبادة خوفا من أن يقال غيره أعبد منه أو أقوى منه فى دين الله .

وأما العالم فإنه يتفاخر ويقول : أنا متفنن فى العلوم ومطلع على الحقائق ورأيت من الشيوخ فلانا وفلانا ، ومن أنت وما فضلك ومن لقيت ؟ وما الذى سمعت من الحديث ؟ كل ذلك ليصغره ويعظم نفسه . وأما مباهاته : فهو أنه يجتهد فى المناظرة أن يغلب ولا يغلب ويسهر طول الليل والنهار فى تحصيل علوم يتجمل بها فى المحافل ، كالمناظرة والجدل وتحسين العبارة وتسجيع الألفاظ ، وحفظ العلوم الغريبة ليغرب بها على الأقران ويتعظم عليهم ، ويحفظ الأحاديث ألفاظها وأسانيدها حتى يرد على من أخطأ فيها فيظهر فضله ونقصان أقرانه ، ويفرح مهما أخطأ واحد منهم ليرد عليه ويسوء إذا أصاب وأحسن خيفة من أن يرى أنه أعظم منه .

فهذا كله أخلاق الكبر وآثاره التى يثمرها التعزز بالعلم والعمل ، وأين من يخلو عن جميع ذلك أو عن بعضه ؟ فليت شعرى من الذى عرف هذه الأخلاق من نفسه وسمع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لايدخل الجنة من فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر [3] » كيف يستعظم نفسه ويتكبر على غيره ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إنه من أهل النار ؟ وإنما العظيم من خلا عن هذا ، ومن خلا عنه لم يكن فيه تعظم وتكبر ، والعالم هو الذى فهم أن الله تعالى قال له : إن لك عندنا قدرا مالم تر لنفسك قدرا فإن رأيت لها قدرا فلا قدر لك عندنا . ومن لم يعلم

---

(١) حديث « التقوى ههنا » وأشار إلى صدره . أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة وقد تقدم (٢) حديث « كان أكرم الخلق وأتقاهم ... الحديث » تقدم فى كتاب أخلاق النبوة ، (٣) حديث « لايدخل الجنة من فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر » تقدم

هذا من الدين فاسم العالم عليه كذب ، ومن علمه لزمه أن لا يتكبر ولا يرى لنفسه قدرا . فهذا هو التكبر بالعلم والعمل.

الثالث : التكبر بالحسب والنسب ، فالذى له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملا وعلما ، وقد يتكبر بعضهم فيرى أن الناس له أموال وعبيد ويأنف من مخالطتهم ومجالستهم ، وثمرته على اللسان التفاخر به فيقول لغيره : يانبطى وياهندى ويا أرمنى من أنت ومن أبوك ؟ فأنا فلان ابن فلان ، وأين لمثلك أن يكلمنى أو ينظر إلى ؟ ومع مثلى تتكلم ؟ وما يجرى مجراه . وذلك عرق دفين فى النفس لا ينفك عنه نسيب وإن كان صالحا وعاقلا ، إلا أنه قد لا يترشح منه ذلك عند اعتدال الأحوال ، فإن غلبه غضب أطفأ ذلك نور بصيرته وترشح منه كما روى عن أبى ذر أنه قال : قاولت رجلا عند النبى صلى الله عليه وسلم فقلت له : يا ابن السوداء ! فقال النبى صلى الله عليه وسلم « يا أبا ذر طف الصاع طف الصاع ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل [1] » فقال أبو ذر رحمه الله : فاضطجعت وقلت للرجل قم فطأ على خدى . فانظر كيف نبهه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى لنفسه فضلا بكونه ابن بيضاء وأن ذلك خطأ وجهل ؟ وانظر كيف تاب وقلع من نفسه شجرة الكبر بأخمص قدم من تكبر عليه إذ عرف أن العز لا يقمعه إلا الذل ؟ ومن ذلك ما روى أن رجلين تفاخرا عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما للآخر : أنا فلان بن فلان فمن أنت لا أم لك ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم « افتخر رجلان عند موسى عليه السلام فقال أحدهما أنا فلان بن فلان حتى عد تسعة فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام قل للذى افتخر بل التسعة من أهل النار وأنت عاشرهم [2] » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليدعن قوم الفخر بآبائهم وقد صاروا فحما فى جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التى تذدف بآنافها القذر [3] » .

الرابع : التفاخر بالجمال وذلك أكثر ما يجرى بين النساء ويدعو ذلك إلى التنقص والثلب والغيبة وذكر عيوب الناس ومن ذلك ما روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : دخلت امرأة على النبى صلى الله عليه وسلم فقلت بيدى هكذا أى أنها قصيرة فقال النبى صلى الله عليه وسلم « قد اغتبتها [4] » وهذا منشؤه خفاء الكبر لأنها لو كانت أيضا قصيرة لما ذكرتها بالقصر ، فكأنها أعجبت بقامتها واستقصرت المرأة فى جنب نفسها فقالت ما قالت .

الخامس الكبر بالمال ؛ وذلك يجرى بين الملوك فى خزائنهم وبين التجار فى بضائعهم وبين الدهاقين فى أراضيهم وبين المتجملين فى لباسهم وخيولهم ومراكبهم ، فيستحقر الغنى الفقير ويتكبر عليه ويقول له : أنت مكد ومسكين وأنا لو أردت لاشتريت مثلك واستخدمت من هو فوقك ، ومن أنت ؟ وما معك وأثاث بيتى يساوى أكثر من جميع مالك ؟ وأنا أنفق فى اليوم مالا تأكله فى سنة ؟ وكل ذلك لاستعظامه للغنى واستحقاره للفقر ، وكل ذلك جهل منه بفضيلة الفقر وآفة الغنى ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا ﴾ حتى أجابه فقال ﴿ إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا فعسى ربى أن يؤتينى خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا ﴾ وكان ذلك منه تكبرا بالمال والولد ،

---

(١) حديث أبى ذر : قاولت رجلا عند النبى صلى الله عليه وسلم فقلت له يا ابن السوداء ... الحديث » أخرجه ابن المبارك فى البر والصلة مع اختلاف ولأحمد من حديثه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له « انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى » (٢) حديث « أن رجلين تفاخرا عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما للآخر : أنا فلان بن فلان فمن أنت لا أم لك ؟ ... الحديث . أخرجه عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند من حديث أبى بن كعب باسناد صحيح ورواه أحمد موقوفا على معاذ بقصة موسى فقط (٣) حديث « ليدعن قوم الفخر بآبائهم وقد صاروا فحما فى جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان ... الحديث » أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه وابن حبان من حديث أبى هريرة . (٤) حديث عائشة : دخلت امرأة على النبى صلى الله عليه وسلم فقلت بيدى هكذا ، أى أنها قصيرة ... الحديث . تقدم فى آفات اللسان .

ثم بين الله عاقبة أمره بقوله ﴿ ياليتنى لم أشرك بربى أحدا ﴾ ومن ذلك تكبر قارون إذ قال تعالى إخبارا عن تكبره ﴿ فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم ﴾

السادس : الكبر بالقوة وشدة البطش والتكبر به على أهل الضعف .

السابع : التكبر بالأتباع والأنصار والتلامذة والغلمان وبالعشيرة والأقارب والبنين ، ويجرى ذلك بين الملوك فى المكاثرة بالجنود ، وبين العلماء فى المكاثرة بالمستفيدين .

وبالجملة فكل ماهو نعمة وأمكن أن يعتقد كمالا وإن لم يكن فى نفسه كمالا أمكن أن يتكبر به ، حتى إن المخنث ليتكبر على أقرانه بزيادة معرفته وقدرته فى صنعة المخنثين ، لأنه يرى ذلك كمالا فيفتخر به وإن لم يكن فعله إلا نكالا ، وكذلك الفاسق قد يفتخر بكثرة الشرب وكثرة الفجور بالنسوان والغلمان ويتكبر به لظنه أن ذلك كمال وإن كان مخطئا فيه . فهذه مجامع مايتكبر به العباد بعضهم على بعض ، فيتكبر من يدلى بشىء منه على من لايدلى به ، أو على من يدلى بما هو دونه فى اعتقاده . وربما كان مثله أو فوقه عند الله تعالى ، كالعالم الذى يتكبر بعلمه على من هو أعلم منه لظنه أنه هو الأعلم ولحسن اعتقاده فى نفسه . فنسأل الله العون بلطفه ورحمته إنه على كل شىء قدير .

بيان البواعث على التكبر وأسبابه المهيجة له

اعلم أن الكبر خلق باطن ، وأما مايظهر من الأخلاق والأفعال فهى ثمرة ونتيجة ، وينبغى أن تسمى تكبرا ويخص اسم الكبر بالمعنى الباطن الذى هو استعظام النفس ورؤية قدرها فوق قدر الغير ، وهذا الباطن له موجب واحد وهو العجب الذى يتعلق بالمتكبر ـ كما سيأتى معناه ـ فإنه إذا أعجب بنفسه وبعلمه وبعمله أو بشىء من أسبابه استعظم وتكبر .

وأما الكبر الظاهر فأسبابه ثلاثة : سبب فى المتكبر وسبب فى المتكبر عليه وسبب فيما يتعلق بغيرهما .

أما السبب الذى فى المتكبر فهو : العجب ، والذى يتعلق بالمتكبر عليه هو الحقد ، والحسد . والذى يتعلق بغيرهما هو الرياء ، فتصير الأسباب بهذا الاعتبار أربعة : العجب ، والحقد ، والحسد ، والرياء (أما العجب) فقد ذكرنا أنه يورث الكبر الباطن والكبر يثمر التكبر الظاهر فى الأعمال والأقوال والأحوال . (وأما الحقد) فإنه يحمل على التكبر من غير عجب كالذى يتكبر على من يرى أنه مثله أو فوقه ، ولكن قد غضب عليه بسبب سبق منه فأورثه الغضب حقدا ورسخ فى قلبه بغضه ، فهو لذلك لاتطاوعه نفسه أن يتواضع له وإن كان عنده مستحقا للتواضع ، فكم من رذل لاتطاوعه نفسه على التواضع لواحد من الأكابر لحقده عليه أو بغضه له ؟ ويحمله ذلك على رد الحق إذا جاء من جهته وعلى الأنفة من قبول نصحه وعلى أن يجتهد فى التقدم عليه ، وإن علم أنه لايستحق ذلك ، وعلى أن لايستحله وإن ظلمه ، فلا يعتذر إليه وإن جنى عليه ، ولايسأله عما هو جاهل به .

(وأما الحسد) فإنه أيضاً يوجب البغض للمحسود وإن لم يكن من جهته إيذاء وسبب يقتضى الغضب والحقد ، ويدعو الحسد أيضاً إلى جحد الحق حتى يمنع من قبول النصيحة وتعلم العلم ، فكم من جاهل يشتاق إلى العلم وقد بقى فى رذيلة الجهل لاستنكافه أن يستفيد من واحد من أهل بلده أو أقاربه حسدا وبغيا عليه ؟ فهو يعرض عنه ويتكبر عليه مع معرفته بأنه يستحق التواضع بفضل علمه ، ولكن الحسد يبعثه على أن يعامله بأخلاق المتكبرين ، وإن كان فى باطنه ليس يرى نفسه فوقه .

(وأما الرياء) فهو أيضاً يدعو إلى أخلاق المتكبرين ، حتى إن الرجل ليناظر من يعلم أنه أفضل منه وليس بينه

وبينه معرفة ولامحاسدة ولاحقد ، ولكن يمتنع من قبول الحق منه ولا يتواضع له فى الاستفادة خيفة من أن يقول الناس إنه أفضل منه ، فيكون باعثه على التكبر عليه الرياء المجرد ، ولو خلا معه بنفسه لكان لايتكبر عليه . وأما الذى يتكبر بالعجب أو الحسد أوالحقد فإنه يتكبر أيضا عند الخلوة به مهما لم يكن معهما ثالث ، وكذلك قد ينتمى إلى نسب شريف كاذبا وهو يعلم أنه كاذب ثم يتكبر به على من ليس ينتسب إلى ذلك النسب ويترفع عليه فى المجالس ويتقدم عليه فى الطريق ولايرضى بمساواته فى الكرامة والتوقير وهو عالم باطنا بأنه لايستحق ذلك ، ولا كبر فى باطنه لمعرفته بأنه كاذب فى دعوى النسب ، ولكن يحمله الرياء على أفعال المتكبرين ،وكأن اسم المتكبر إنما يطلق فى الأكثر على من يفعل هذه الأفعال عن كبر فى الباطن صادر عن العجب والنظر إلى الغير بعين الاحتقار ، وهو إن سمى متكبرا فلأجل التشبه بأفعال الكبر . نسأل الله حسن التوفيق والله تعالى أعلم .

بيان أخلاق المتواضعين ومجامع مايظهر فيه أثر التواضع والتكبر

اعلم أن التكبر يظهر فى شمائل الرجل ، كصعر فى وجهه ونظره شزرا وإطراقه رأسه وجلوسه متربعا أو متكئا وفى أقواله حتى فى صوته ونغمته وصيغته فى الإيراد ، ويظهر فى مشيته وتبختره وقيامه وجلوسه وحركاته وسكناته ، وفى تعاطيه لأفعاله وفى سائر تقلباته فى أحواله وأقواله وأعماله . فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله ومنهم من يتكبر فى بعض ويتواضع فى بعض .

فمنها التكبر بأن يحب قيام الناس له أو بين يديه . وقد قال على كرم الله وجهه : من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى رجل قاعد وبين يديه قوم قيام . وقال أنس لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك (١) .

ومنها أن لايمشى إلا ومعه غيره يمشى خلفه . قال أبو الدرداء : لايزال العبد يزداد من الله بعدا مامشى خلفه وكان عبد الرحمن بن عوف لايعرف من عبيده ، إذ كان لايتميز عنهم فى صورة ظاهرة . ومشى قوم خلف الحسن البصرى فمنعهم وقال : مايبقى هذا من قلب العبد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض الأوقات يمشى مع بعض الأصحاب فيأمرهم بالتقدم ويمشى فى غمارهم (٢) ، إما لتعليم غيره أولينفى عن نفسه وساوس الشيطان بالكبر والعجب كما أخرج الثوب الجديد فى الصلاة وأبدله بالخليع لأحد هذين المعنيين (٣) .

ومنها أن لايزور غيره وإن كان يحصل من زيارته خير لغيره فى الدين وهو ضد التواضع . روى أن سفيان الثورى قدم الرملة فبعث إليه إبراهيم بن أدهم : أن تعال فحدثنا ، فجاء سفيان فقيل له : يا أبا إسحق تبعث إليه بمثل هذا ؟ فقال أردت أن أنظر كيف تواضعه ؟ .

ومنها أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه إلا أن يجلس بين يديه والتواضع خلافه . قال ابن وهب : جلست إلى عبد العزيز بن أبى رواد فمس فخذى فخذه فنحيت نفسى عنه فأخذ ثيابى فجرنى إلى نفسه وقال لى : لم تفعلون بى

---

(١) حديث أنس : لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له ، الحديث تقدم فى آداب الصحبة وفى أخلاق النبوة (٢) حديث : كان فى بعض الأوقات يمشى مع الأصحاب فيأمرهم بالتقدم أخرجه منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى أمامة بسند ضعيف جدا : أنه خرج يمشى إلى البقيع فتبعه أصحابه فوقف فأمرهم أن يتقدموا ومشى خلفهم فسئل عن ذلك فقال « إنى سمعت خفق نعالكم فأشفقت أن يقع فى نفسى شىء من الكبر » وهو منكر فيه جماعة ضعفاء . (٣) حديث : إخراجه الثوب الجديد فى الصلاة وإبداله بالخليع قلت : المعروف نزع الشراك الجديد ورد الشراك الخلق أو نزع الخميصة ولبس الأنبجانية ، وكلاهما تقدم فى الصلاة

ماتفعلون بالجبابرة وإنى لا أعرف رجلا منكم شرا منى ؟ وقال أنس : كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ينزع يده منها حتى تذهب به حيث تشاء [١] .

ومنها أن يتوقى من مجالسة المرضى والمعلولين ويتحاشى عنهم وهو الكبر : دخل رجل ـ وعليه جدرى قد تقشر ـ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده ناس من أصحابه يأكلون ، فما جلس إلى أحد إلا قام من جنبه ، فأجلسه النبى صلى الله عليه وسلم إلى جنبه [٢] وكان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما لايحبس عن طعامه مجذوما ولا أبرص ولا مبتلى إلا أقعدهم على مائدته .

ومنها أن لايتعاطى بيده شغلا فى بيته ، والتواضع خلافه : روى أن عمر بن عبد العزيز أتاه ليلة ضيف وكان يكتب فكاد السراج يطفأ ، فقال الضيف : أقوم إلى المصباح فأصلحه ؟ فقال : ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه ، قال : أفأنبه الغلام ؟ فقال : هى أول نومة نامها ، فقام وأخذ البطة وملأ المصباح زيتا فقال الضيف : قمت أنت بنفسك ياأمير المؤمنين ؟ فقال : ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر مانقص منى شىء ! وخير الناس من كان عند الله متواضعا .

ومنها أن لايأخذ متاعه ويحمله إلى بيته ، وهو خلاف عادة المتواضعين ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك [٣] وقال على كرم الله وجهه : لاينقص الرجل الكامل من كماله ماحمل من شىء إلى عياله وكان أبو عبيدة ابن الجراح وهو أمير يحمل سطلا له من خشب إلى الحمام . وقال ثابت بن أبى مالك : رأيت أبا هريرة أقبل من السوق يحمل حزمة حطب وهو يومئذ خليفة لمروان ، فقال : أوسع الطريق للأمير ياابن أبى مالك وعن الأصبغ بن نباتة قال : كأنى أنظر إلى عمر رضى الله عنه معلقا لحما فى يده اليسرى وفى يده اليمنى الدرة ، يدور فى الأسواق حتى دخل رحله . وقال بعضهم : رأيت عليا رضى الله عنه قد اشترى لحما بدرهم فحمله فى ملحفته ، فقلت له : أحمل عنك ياأمير المؤمنين فقال : لا ، أبو العيال أحق أن يحمل .

ومنها اللباس إذ يظهر به التكبر والتواضع وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « البذاذة من الإيمان [٤] » فقال هرون : سألت معنا عن البذاذة فقال : هو الدون من اللباس . وقال زيد بن وهب : رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرج إلى السوق وبيده الدرة وعليه إزار فيه أربع عشرة رقعة بعضها من أدم وعوتب على كرم الله وجهه فى إزار مرقوع فقال : يقتدى به المؤمن ويخشع له القلب . وقال عيسى عليه السلام : جودة الثياب خيلاء فى القلب وقال طاوس : إنى لأغسل ثوبى هذين فأنكر قلبى ماداما نقيين . ويروى أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله كان قبل أن يستخلف تشترى له الحلة بألف دينار فيقول : ما أجودها لولا خشونة فيها : فلما استخلف كان يشترى له الثوب بخمسة دراهم فيقول ما أجوده لولا لينه ! فقيل له : أين لباسك ومركبك وعطرك يا أمير المؤمنين ؟ فقال إن لى نفسا ذوّاقة وإنها لم تذق من الدنيا طبقة إلا تاقت إلى الطبقة التى فوقها ، حتى إذا ذاقت الخلافة وهى أرفع الطباق تاقت إلى ما عند الله عز وجل . وقال سعيد بن سويد : صلى بنا عمر بن عبد العزيز الجمعة ثم جلس وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه ، فقال له رجل : يا أمير المؤمنين إن الله قد أعطاك فلو لبست ؟ فنكس

(١) حديث أنس : كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث تقدم فى آداب المعيشة
(٢) حديث : الرجل الذى به جدرى وإجلاسه الى جنبه تقدم قريبا . (٣) حديث حمله متاعه الى بيته . أخرجه أبو يعلى من حديث أبى هريرة فى شرائه السراويل وحمله وتقدم . (٤) حديث « البذاذة من الإيمان » أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث أبى أمامة بن ثعلبة وقد تقدم .

رأسه مليا ثم رفع رأسه فقال : إن أفضل القصد عند الجدة وإن أفضل العفو عند القدرة وقال صلى الله عليه وسلم « من ترك زينة الله ووضع ثيابا حسنة تواضعا لله وابتغاء لمرضاته كان حقا على الله أن يدخر له عبقرى الجنة [١] »

فإن قلت : فقد قال عيسى عليه السلام : جودة الثياب خيلاء القلب . وقد سئل نبينا صلى الله عليه وسلم عن الجمال فى الثياب هل هو من الكبر فقال « لا ولكن من سفه الحق وغمص الناس [٢] » فكيف طريق الجمع بينهما ؟ فاعلم أن الثوب الجديد ليس من ضرورته أن يكون من التكبر فى حق كل أحد فى كل حال ، وهو الذى أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذى عرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم من حال ثابت بن قيس إذ قال : إنى امرؤ حبب إلى من الجمال ماترى [٣] فعرف أن ميله إلى النظافة وجودة الثياب لا ليتكبر على غيره ، فإنه ليس من ضرورته أن يكون من الكبر ، وقد يكون ذلك من الكبر كما أن الرضا بالثوب الدون قد يكون من التواضع . وعلامة المتكبر أن يطلب التجمل إذا رآه الناس ولا يبالى إذا انفرد بنفسه كيف كان . وعلامة طالب الجمال أن يحب الجمال فى كل شىء ولو فى خلوته وحتى فى ستور داره ، فذلك ليس من التكبر . فإذا انقسمت الأحوال نزل قول عيسى عليه السلام على بعض الأحوال على أن قوله : خيلاء القلب ؛ يعنى قد تورث خيلاء فى القلب ، وقول نبينا صلى الله عليه وسلم « إنه ليس من الكبر » يعنى أن الكبر لا يوجبه ، ويجوز أن لا يوجبه الكبر ثم يكون هو مورثا للكبر . وبالجملة فالأحوال تختلف فى مثل هذا والمحبوب الوسط من اللباس الذى لا يوجب شهرة بالجودة ولا بالرداءة . وقد قال صلى الله عليه وسلم « كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا فى غير سرف ولا مخيلة [٤] » . « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده [٥] » وقال بكر بن عبد الله المزنى : البسوا ثياب الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية ، وإنما خاطب بهذا قوما يطلبون التكبر بثياب أهل الصلاح . وقد قال عيسى عليه السلام : مالكم تأتونى وعليكم ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضوارى ؟ البسوا ثياب الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية .

ومنها أن يتواضع بالاحتمال إذا سب وأوذى وأخذ حقه ، فذلك هو الأصل . وقد أوردنا مانقل عن السلف من احتمال الأذى فى كتاب الغضب والحسد . وبالجملة فمجامع حسن الأخلاق والتواضع سيرة النبى صلى الله عليه وسلم فيه فينبغى أن يقتدى به . ومنه ينبغى أن يتعلم . وقد قال أبو سلمة . قلت لأبى سعيد الخدرى ماترى فيما أحدث الناس من الملبس والمشرب والمركب والمطعم ؟ فقال : يا ابن أخى كل لله واشرب لله والبس لله ، وكل شىء من ذلك دخله زهو أو مباهاة أو رياء أو سمعة فهو معصية وسرف ، وعالج فى بيتك من الخدمة ما كان يعالج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته ، كان يعلف الناضح ويعقل البعير ويقم البيت ويحلب الشاة ويخصف النعل ويرقع الثوب ويأكل مع خادمه ويطحن عنه إذا أعيا ، ويشترى الشىء من السوق ولا يمنعه الحياء أن يعلقه بيده أو يجعله فى طرف ثوبه ، وينقلب إلى أهله يصافح الغنى والفقير والكبير والصغير ، ويسلم مبتدئا على كل من استقبله من صغير أو كبير أسود أو أحمر حر أو عبد من أهل الصلاة ، ليست له حلة لمدخله وحلة لمخرجه ، لا يستحى من أن يجيب إذا دعى وإن كان أشعث أغبر ، ولا يحقر ما دعى إليه وإن لم يجد إلا حشف الدقل ، لا يرفع غداء لعشاء ولا عشاء لغداء ، هين المؤنة

---

(١) حديث « من ترك زينة لله ووضع ثيابا حسنة تواضعا لله .... الحديث » أخرجه أبو سعيد الماليني فى مسند الصوفية وأبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عباس « من ترك زينة لله ... الحديث » وفى إسناده نظر (٢) حديث : سئل عن الجمال فى الثياب هل هو من الكبر ؟ فقال « لا » الحديث تقدم غير مرة (٣) حديث : إن ثابت بن قيس قال للنبى صلى الله عليه وسلم : إنى امرؤ حبب إلى الجمال ... الحديث . هو الذى قبله سمى فيه السائل وقد تقدم (٤) حديث « كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا فى غير إسراف ولا مخيلة » أخرجه النسائى وابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (٥) حديث « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » أخرجه الترمذى وحسنه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أيضا وقد جعلهما المصنف حديثا واحدا

لين الخلق كريم الطبيعة جميل المعاشرة طليق الوجه بسام من غير ضحك محزون من غير عبوس شديد فى غير عنف متواضع فى غير مذلة جواد من غير سرف رحيم لكل ذى قربى ومسلم ، رقيق القلب دائم الإطراق لم يبشم قط من شبع ولا يمد يده من طمع ، قال أبو سلمة فدخلت على عائشة رضى الله عنها فحدثتها بما قال أبو سعيد فى زهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : ماأخطأ منه حرفا ولقد قصر إذ ماأخبرك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمتلئ قط شبعا ولم يبث إلى أحد شكوى ، وإن كانت الفاقة لأحب إليه من اليسار والغنى ، وإن كان ليظل جائعا يلتوى ليلته حتى يصبح فما يمنعه ذلك عن صيام يومه ولو شاء أن يسأل ربه فيؤتى بكنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها من مشارق الأرض ومغاربها لفعل ، وربما بكيت رحمة له مما اوتى من الجوع فأمسح بطنه بيدى واقول : نفسى لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقوتك ويمنعك من الجوع ؟ فيقول « ياعائشة إخوانى من أولى العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم وقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم فأجدنى أستحيي إن ترفهت فى معيشتى أن يقصر بى دونهم فأصبر أياما يسيرة أحب إلى من أن ينقص حظى غداً فى الآخرة وما من شىء أحب إلى من اللحوق بإخوانى وأخلائى » قالت عائشة رضى الله عنها : فوالله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله عز وجل [1] .

فما نقل من أحواله صلى الله عليه وسلم يجمع جملة أخلاق المتواضعين ، فمن طلب التواضع فليقتد به ومن رأى نفسه فوق محله صلى الله عليه وسلم ولم يرض لنفسه بما رضى هو به فما أشد جهله ! فلقد كان أعظم خلق الله منصبا فى الدنيا والدين فلا عز ولا رفعة إلا فى الاقتداء به ولذلك قال عمر رضى الله عنه : إنا قوم أعزنا الله بالإسلام فلن نطلب العز فى غيره ، لما عوتب فى بذاذة هيئته عند دخوله الشام . وقال أبو الدرداء : اعلم أن لله عبادا يقال لهم الأبدال خلف من الأنبياء هم أوتاد الأرض ، فلما انقضت النبوة أبدل الله مكانهم قوما من أمة محمد صلى الله عليه وسلم لم يفضلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولا حسن حلية ولكن بصدق الورع وحسن النية وسلامة الصدر لجميع المسلمين والنصيحة لهم ابتغاء مرضاة الله بصبر من غير تجبن وتواضع فى غير مذلة وهم قوم اصطفاهم الله واستخلصهم لنفسه ، وهم أربعون صديقا أو ثلاثون رجلا قلوبهم على مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام لايموت الرجل منهم حتى يكون الله قد أنشأ من يخلفه ، واعلم ياأخى أنهم لايلعنون شيئا ولا يؤذونه ولايحقرونه ولا يتطاولون عليه ولا يحسدون أحدا ولا يحرصون على الدنيا ، هم أطيب الناس خيرا وألينهم عريكة وأسخاهم نفسا ، علامتهم السخاء وسجيتهم البشاشة وصفتهم السلامة ، ليسوا اليوم فى خشية وغداً فى غفلة ولكن مداومين على حالهم الظاهر وهم فيما بينهم وبين ربهم لاتدركهم الرياح العواصف ولا الخيل المجراة ، قلوبهم تصعد ارتياحا إلى الله واشتياقا إليه وقدما فى استباق الخيرات ﴿ أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ قال الراوى : فقلت : ياأبا الدرداء ماسمعت بصفة أشد على من تلك الصفة وكيف لى أن أبلغها ؟ فقال : مابينك وبين أن تكون فى أوسعها إلا أن تكون تبغض الدنيا ، فإنك إذا أبغضت الدنيا أقبلت على حب الآخرة ، وبقدر حبك للآخرة تزهد فى الدنيا وبقدر ذلك تبصر ماينفعك ، وإذا علم الله من عبد حسن الطلب أفرغ عليه السداد واكتنفه بالعصمة ، واعلم ياابن أخى أن ذلك فى كتاب الله تعالى المنزل ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ قال يحيى بن كثير : فنظرنا

(١) حديث أبى سعيد الخدرى وعائشة : قال الخدرى لأبى سلمة عالج فى بيتك من الخدمة ماكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج فى بيته كان يعلف الناضح .. الحديث . وفيه : قال أبو سلمة فدخلت على عائشة فحدثتها بذلك عن أبى سعيد فقالت : ماأخطأ ولقد قصر أو ما أخبرك أنه لم يمتلئ قط شبعا .. الحديث بطوله لم أقف له على إسناد

فى ذلك فما تلذذ المتلذذون بمثل حب الله وطلب مرضاته . اللهم اجعلنا من محبى المحبين لك يارب العالمين فإنه لايصلح لحبك إلا من ارتضيته . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

بيان الطريق فى معالجة الكبر واكتساب التواضع له

اعلم أن الكبر من المهلكات ولا يخلو أحد من الخلق عن شىء منه ، وإزالته فرض عين ولا يزول بمجرد التمنى بل بالمعالجة واستعمال الأدوية القامعة له . وفى معالجته مقامان (أحدهما) استئصال أصله من سنخه وقلع شجرته من مغرسها فى القلب . (الثانى) دفع العارض منه بالأسباب الخاصة التى بها يتكبر الإنسان على غيره .

(المقام الأول) فى استئصال أصله ، وعلاجه علمى وعملى ، ولايتم الشفاء إلا بمجموعهما :

أما العلمى : فهو أن يعرف نفسه ويعرف ربه تعالى ويكفيه ذلك فى إزالة الكبر ، فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة علم أنه أذل من كل ذليل وأقل من كل قليل ، وأنه لا يليق به إلا التواضع والذلة والمهانة ، وإذا عرف ربه علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا بالله ، أما معرفته ربه وعظمته ومجده فالقول فيه يطول وهو منتهى علم المكاشفة ، وأما معرفته نفسه فهو أيضا يطول ولكنا نذكر من ذلك ماينفع فى إثارة التواضع والمذلة ، ويكفيه أن يعرف معنى آية واحدة فى كتاب الله فإن فى القرآن علم الأولين والآخرين لمن فتحت بصيرته وقد قال تعالى ﴿ قتل الإنسان ما أكفره من أى شىء خلقه من نطفة خلقه فقدّره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره ﴾ فقد أشارت الآية إلى أول خلق الإنسان وإلى آخر أمره وإلى وسطه ، فلينظر الإنسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية أما أول الإنسان فهو أنه لم يكن شيئا مذكورا وقد كان فى حيز العدم دهورا بل لم يكن لعدمه أول وأى شىء أخس وأقل من المحو والعدم ؟ وقد كان كذلك فى القدم ، ثم خلقه الله من أرذل الأشياء ، ثم من أقذرها إذ قد خلقه من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقه ، ثم من مضغة ، ثم جعله عظما ، ثم كسا العظم لحما ، فقد كان هذا بداية وجوده حيث كان شيئا مذكورا ، فما صار شيئا مذكورا إلا وهو على أخس الأوصاف والنعوت ! إذ لم يخلق فى ابتدائه كاملا بل خلقه جمادا ميتا لايسمع ولا يبصر ولا يحس ولا يتحرك ولا ينطق ولا يبطش ولا يدرك ولا يعلم ، فبدأ بموته قبل حياته وبضعفه قبل قوته وبجهله قبل علمه وبعماه قبل بصره وبصممه قبل سمعه وببكمه قبل نطقه وبضلالته قبل هداه وبفقره قبل غناه وبعجزه قبل قدرته . فهذا معنى قوله ﴿ من أى شىء خلقه من نطفة خلقه فقدره ﴾ ومعنى قوله ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا إنا خلقنا الإنسان من نطفة امشاج نبتليه ﴾ كذلك خلقه أولا ثم امتن عليه فقال ﴿ ثم السبيل يسره ﴾ وهذا إشارة إلى ما تيسر له فى مدة حياته إلى الموت . وكذلك قال ﴿ من نطفه أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾ ومعناه أنه أحياه بعد أن كان جمادا ميتا ترابا أولا ونطفة ثانيا ، وأسمعه بعد ما كان أصم ، وبصره بعد ما كان فاقدا للبصر ، وقواه بعد الضعف ، وعلمه بعد الجهل ، وخلق له الأعضاء بما فيها من العجائب والآيات بعد الفقد لها ، وأغناه بعد الفقر ، وأشبعه بعد الجوع ، وكساه بعد العرى ، وهداه بعد الضلال . فانظر كيف دبره وصوره وإلى السبيل كيف يسره وإلى طغيان الإنسان ما أكفره وإلى جهل الإنسان كيف أظهره ؟ فقال ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ فانظر إلى نعمة الله عليه كيف نقله من تلك الذلة والقلة والخسة والقذارة إلى هذه الرفعة والكرامة فصار موجودا بعد العدم وحيا بعد الموت وناطقا بعد البكم وبصيرا بعد العمى وقويا بعد الضعف وعالما بعد الجهل ومهديا بعد

الضلال وقادرا بعد العجز وغنيا بعد الفقر ؟ فكان فى ذاته لاشيء وأى شيء أخس من لاشيء ؟ وأى قلة أقل من العدم المحض ؟ ثم صار بالله شيئا . وإنما خلقه من التراب الذليل الذى يوطأ بالأقدام والنطفة القذرة بعد العدم المحض أيضا ليعرفه خسة ذاته فيعرف به نفسه ، وإنما أكمل النعمة عليه ليعرف بها ربه ويعلم بها عظمته وجلاله وأنه لايليق الكبرياء إلا به جل وعلا . ولذلك امتن عليه فقال ﴿ ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين ﴾ وعرف خسته أولا فقال ﴿ ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة ﴾ ثم ذكر منته عليه فقال ﴿ فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾ ليدوم وجوده بالتناسل كما حصل وجوده أولا بالاختراع . فمن كان هذا بدؤه وهذه أحواله فمن أين له البطر والكبرياء والفخر والخيلاء وهو على التحقيق أخس الأخساء وأضعف الضعفاء ؟ ولكن هذه عادة الخسيس إذا رفع من خسته شمخ بأنفه وتعظم ، وذلك لدلالة خسة أوله ولا حول ولا قوة إلا بالله . نعم لو أكمله وفوض إليه أمره وأدام له الوجود باختياره لجاز أن يطغى وينسى المبدأ والمنتهى ، ولكنه سلط عليه فى دوام وجوده الأمراض الهائلة والأسقام العظيمة والآفات المختلفة والطباع المتضادة ، من المرة والبلغم والريح والدم يهدم البعض من أجزائه البعض ، شاء أم أبى رضى أم سخط ، فيجوع كرها ويعطش كرها ويمرض كرها ويموت كرها ، لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا خيرا ولا شرا ، يريد أن يعلم الشيء فيجهله ، ويريد أن يذكر الشيء فينساه ويريد أن ينسى الشيء ويغفل عنه فلا يغفل عنه ، ويريد أن يصرف قلبه إلى مايهمه فيجول فى أودية الوساوس والأفكار بالاضطرار ، فلا يملك قلبه قلبه ولا نفسه نفسه ، ويشتهى الشيء وربما يكون هلاكه فيه ، ويكره الشيء وربما تكون حياته فيه ، يستلذ الأطعمة وتهلكه وترديه ، ويستبشع الأدوية وهى تنفعه وتحييه ، ولا يأمن فى لحظة من ليله أو نهاره أن يسلب سمعه وبصره وتفلج أعضاؤه ويختلس عقله ويختطف روحه ويسلب جميع مايهواه فى دنياه ، فهو مضطر ذليل إن ترك بقى وإن اختطف فنى ، عبد مملوك لايقدر على شيء من نفسه ولا شيء من غيره ، فأى شيء أذل منه لو عرف نفسه ؟ وأنى يليق الكبر به لولا جهله؟ فهذا أوسط أحواله فليتأمله .

وأما آخره ومورده فهو الموت المشار إليه بقوله تعالى ﴿ ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره ﴾ ومعناه أنه يسلب روحه وسمعه وبصره وعلمه وقدرته وحسه وإدراكه وحركته ، فيعود جمادا كما كان أول مرة ، لايبقى إلا شكل أعضائه وصورته لا حس فيه ولا حركة ، ثم يوضع فى التراب فيصير جيفة منتنة قذرة كما كان فى الأول نطفة مذرة ، ثم تبلى أعضاؤه وتتفتت أجزاؤه وتنخر عظامه ويصير رميما رفاتا ، ويأكل الدود أجزاءه فيبتدئ بحدقتيه فيقلعهما وبخديه فيقطعهما ، وبسائر أجزائه فيصير روثا فى أجواف الديدان ويكون جيفة يهرب منه الحيوان ويستقذره كل إنسان ويهرب منه لشدة الإنتان ، وأحسن أحواله أن يعود إلى ما كان فيصير ترابا يعمل منه الكيزان ويعمل منه البنيان ، فيصير مفقودا بعد ما كان موجودا . وصار كأن لم يغن بالأمس حصيدا كما كان فى أول أمره أمدا مديدا ، وليته بقى كذلك فما أحسنه لو ترك ترابا . لابل يحييه بعد طول البلى ليقاسى شديد البلاء ، فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرقة ، ويخرج إلى أهوال القيامة فينظر إلى قيامة قائمة وسماء مشققة ممزقة وأرض مبدلة وجبال مسيرة ونجوم منكدرة وشمس منكسفة وأحوال مظلمة وملائكة غلاظ شداد وجهنم تزفر وجنة ينظر إليها المجرم فيتحسر ، ويرى صحائف منشورة فيقال له ﴿ اقرأ كتابك ﴾ فيقول : وماهو ؟ فيقال: كان قد وكل بك فى حياتك التى كنت تفرح بها وتتكبر بنعيمها وتفتخر بأسبابها ملكان رقيبان يكتبان عليك

ما كنت تنطق به أو تعمله من قليل وكثير ونقير وقطمير وأكل وشرب وقيام وقعود ، قد نسيت ذلك وأحصاه الله عليك فهلم إلى الحساب واستعد للجواب أو تساق إلى دار العذاب ، فينقطع قلبه فزعا من هول هذا الخطاب قبل أن تنتشر الصحيفة ويشاهد مافيها من مخازيه ، فإذا شاهده قال ﴿ ياويلتنا مالهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ فهذا آخر أمره وهو معنى قوله تعالى ﴿ ثم إذا شاء أنشره ﴾ فما لمن هذا حاله والتكبر والتعظم ؟ بل ماله وللفرح فى لحظة واحدة فضلا عن البطر والأشر ؟ فقد ظهر له أول حاله ووسطه ولو ظهر آخره والعياذ بالله تعالى ربما اختار أن يكون كلباً أو خنزيراً ليصير مع البهائم تراباً ولا يكون إنسانا يسمع خطابا أو يلقى عذابا ، وإن كان عند الله مستحقا للنار فالخنزير أشرف منه وأطيب وأرفع إذ أوله التراب وآخره التراب وهو بمعزل عن الحساب والعذاب ، والكلب والخنزير لايهرب منه الخلق . ولو رأى أهل الدنيا العبد المذنب فى النار لصعقوا من وحشة خلقته وقبح صورته ، ولو وجدوا ريحه لماتوا من نتنه ، ولو وقعت قطرة من شرابه الذى يسقى منه فى بحار الدنيا لصارت أنتن من الجيفة ، فمن هذا حاله فى العاقبة - إلا أن يعفو الله عنه وهو على شك من العفو - كيف يفرح ويبطر وكيف يتكبر ويتجبر وكيف يرى نفسه شيئا حتى يعتقد له فضلا ؟ وأى عبد لم يذنب ذنبا استحق به العقوبة إلا أن يعفو الله الكريم بفضله ويجبر الكسر بمنه ، والرجاء منه ذلك لكرمه وحسن الظن به ولاقوة إلا بالله . أرأيت من جنى على بعض الملوك فاستحق بجنايته ضرب ألف سوط فحبس إلى السجن وهو ينتظر أن يخرج إلى العرض وتقام عليه العقوبة على ملأ من الخلق وليس يدرى أيعفى عنه أم لا ؟ كيف يكون ذله فى السجن أفترى أنه يتكبر على من فى السجن ؟ ومامن عبد مذنب إلا والدنيا سجنه وقد استحق العقوبة من الله تعالى ولا يدرى كيف يكون آخر أمره ؟ فيكفيه ذلك حزنا وخوفا وإشفاقا ومهانة وذلا . فهذا هو العلاج العلمى القامع لأصل الكبر .

وأما العلاج العملى فهو التواضع لله بالفعل ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين ، كما وصفناه وحكيناه من أحوال الصالحين ومن أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إنه « كان يأكل على الأرض ويقول إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد[1] » وقيل لسلمان . لم لاتلبس ثوبا جديداً ؟ فقال : إنما أنا عبد فإذا أعتقت يوما لبست جديداً أشار به إلى العتق فى الآخرة . ولا يتم التواضع بعد المعرفة إلا بالعمل ، ولذلك أمر العرب الذين تكبروا على الله ورسوله بالإيمان وبالصلاة جميعا ، وقيل الصلاة عماد الدين ، وفى الصلاة أسرار لأجلها كانت عماداً ، ومن جملتها مافيها من التواضع بالمثول قائما وبالركوع والسجود ، وقد كانت العرب قديما يأنفون من الإنحناء ، فكان يسقط من يد الواحد سوطه فلا ينحنى لأخذه ، وينقطع شراك نعله فلا ينكس رأسه لإصلاحه ، حتى قال حكيم بن حزام : بايعت النبى صلى الله عليه وسلم على أن لاأخر إلا قائما فبايعه النبى صلى الله عليه وسلم عليه ، ثم فقه وكمل إيمانه بعد ذلك[2] فلما كان السجود عندهم هو منتهى الذلة والضعة أمروا به لتنكسر بذلك خيلاؤهم ويزول كبرهم ويستقر التواضع فى قلوبهم ، وبه أمر سائر الخلق ، فإن الركوع والسجود والمثول قائما هو العمل الذى يقتضيه التواضع ، فكذلك من عرف نفسه فلينظر كل مايتقاضاه الكبر من الأفعال فليواظب على نقيضه حتى يصير التواضع له خلقا ، فإن القلوب لاتتخلق بالأخلاق المحمودة إلا بالعلم والعمل جميعا ، وذلك لخفاء العلاقة بين القلوب والجوارح وسر

(١) حديث : كان يأكل على الأرض ويقول « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد » تقدم فى آداب المعيشة .

(٢) حديث حكيم بن حزام : بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا أخر إلا قائما . الحديث رواه أحمد مقتصرا على هذا وفيه إرسال خفى .

الارتباط الذى بين عالم الملك وعالم الملكوت والقلب من عالم الملكوت (المقام الثانى) فيما يعرض من التكبر بالأسباب السبعة المذكورة ، وقد ذكرنا فى كتاب ذم الجاه أن الكمال الحقيقى هو العلم والعمل ، فأما ماعداه مما يفنى بالموت فكمال وهمى فمن هذا يعسر على العالم أن لا يتكبر ، ولكنا نذكر طريق العلاج من العلم والعمل فى جميع الأسباب السبعة .

الأول : النسب فمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداو قلبه بمعرفة أمرين (أحدهما) أن هذا جهل من حيث إنه تعزز بكمال غيره ، ولذلك قيل :

لئن فخرت بآباء ذوى شرف لقد صدقت ولكن بئس ماولدوا

فالمتكبر بالنسب إن كان خسيسا فى صفات ذاته فمن أين يجبر خسته بكمال غيره ؟ بل لو كان الذى ينسب إليه حيا لكان له أن يقول : الفضل لى : ومن أنت وإنما أنت دودة خلقت من بولى ؟ أفترى أن الدودة التى خلقت من بول إنسان أشرف من الدودة التى من بول فرس ؟ هيهات ! بل هما متساويان والشرف للانسان لا للدودة . (الثانى) أن يعرف نسبه الحقيقى ، فيعرف أباه وجده فإن أباه القريب نطفة قذرة وجده البعيد تراب ذليل وقد عرفه الله تعالى نسبه فقال (الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين) فمن أصله التراب المهين الذى يداس بالأقدام ثم خمر طينة حتى صار حمأ مسنونا كيف يتكبر ؟ وأخس الأشياء ما إليه انتسابه إذ يقال يا أذل من التراب ويا أنتن من الحمأة ويا أقذر من المضغة .

فإن كان كونه من أبيه أقرب من كونه من التراب فنقول : افتخر بالقريب دون البعيد ، فالنطفة والمضغة أقرب إليه من الأب فليحقر نفسه بذلك ، ثم إن كان ذلك يوجب رفعة لقربه فالأب الأعلى من التراب فمن أين رفعته ؟ وإذا لم يكن له رفعة فمن أين جاءت الرفعة لولده ؟ فإذن أصله من التراب وفصله من النطفة فلا أصل له ولا فصل . وهذه غاية خسة النسب فالأصل يوطأ بالأقدام والفصل تغسل منه الأبدان . فهذا هو النسب الحقيقى للإنسان ومن عرفه لم يتكبر بالنسب ويكون مثله بعد هذه المعرفة وانكشاف الغطاء له عن حقيقة أصله كرجل لم يزل عند نفسه من بنى هاشم وقد أخبره بذلك والداه فلم يزل فيه نخوة الشرف فبينما هو كذلك إذ أخبره عدول لا يشك فى قولهم أنه ابن هندى حجام يتعاطى القاذورات ، وكشفوا له وجه التلبيس عليه فلم يبق له شك فى صدقهم، أفترى أن ذلك يبقى شيئا من كبره ؟ لا بل يصير عند نفسه أحقر الناس وأذلهم فهو من استشعار الخزى لخسته فى شغل عن أن يتكبر على غيره . فهذا حال البصير إذا تفكر فى أصله وعلم أنه من النطفة والمضغة والتراب، إذ لو كان أبوه ممن يتعاطى نقل التراب أو يتعاطى الدم بالحجامة أو غيرها لكان يعلم به خسة نفسه لمماسة أعضاء أبيه للتراب والدم ، فكيف إذا عرف أنه فى نفسه من التراب والدم والأشياء القذرة التى يتنزه عنها هو فى نفسه ؟

السبب الثانى : التكبر بالجمال ، ودواؤه أن ينظر إلى باطنه نظر العقلاء ولا ينظر إلى باطنه نظر البهائم . ومهما نظر إلى باطنه رأى من القبائح ما يكدر عليه تعززه بالجمال فإنه وكل به الأقذار فى جميع أجزائه : الرجيع فى أمعائه والبول فى مثانته والمخاط فى أنفه والبزاق فى فيه والوسخ فى أذنيه والدم فى عروقه والصديد تحت بشرته والصنان تحت إبطه ، يغسل الغائط بيده كل يوم دفعة أو دفعتين ، ويتردد كل يوم إلى الخلاء مرة أو مرتين ليخرج من باطنه مالو رآه بعينه لاستقذره فضلا عن أن يمسه أو يشمه ، كل ذلك ليعرف قذارته وذله هذا فى حال توسطه .

وفى أول أمره خلق من الأقذار الشنيعة الصور ، من النطفة ودم الحيض ، وأخرج من مجرى الأقذار . إذ خرج من الصلب ثم من الذكر مجرى البول ثم من الرحم مفيض دم الحيض ثم خرج من مجرى القذر قال أنس رحمه الله : كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يخطبنا فيقذر إلينا أنفسنا ويقول : خرج أحدكم من مجرى البول

مرتين : وكذلك قال طاوس لعمر بن عبدالعزيز . ما هذه مشية من فى بطنه خراء ؟ إذ رآه يتبختر ، وكان ذلك قبل خلافته وهذا أوله ووسطه .

ولو ترك نفسه فى حياته يوما لم يتعهدها بالتنظيف والغسل لثارت منه الأنتان والأقذار ، وصار أنتن وأقذر من الدواب المهملة التى لا تتعهد نفسها قط . فإذا نظر أنه خلق من أقذار وأسكن فى أقذار ، وسيموت فيصير جيفة أقذر من سائر الأقذار لم يفتخر بجماله الذى هو كخضراء الدمن وكلون الأزهار فى البوادى ، فبينما هو كذلك إذ صار هشيما تذروه الرياح ، كيف ولو كان جماله باقيا وعن هذه القبائح خاليا لكان يجب أن لا يتكبر به على القبيح ، إذ لم يكن قبح القبيح إليه فينفيه ولا كان جمال الجميل إليه حتى يحمد عليه ؟ كيف ولا بقاء له بل هو فى كل حين يتصور أن يزول بمرض أو جدرى أو قرحة أو سبب من الأسباب؟ فكم من وجوه جميلة قد سمجت بهذه الأسباب ؟ فمعرفة هذه الأمور تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمن أكثر تأملها .

السبب الثالث : التكبر بالقوة والأيدى ، ويمنعه من ذلك أن يعلم ما سلط عليه من العلل والأمراض ، وأنه لو توجع عرق واحد فى يده لصار أعجز من كل عاجز وأذل من كل ذليل ، وأنه لو سلبه الذباب شيئا لم يستنقذه منه وأن بقة لو دخلت فى أنفه أو نملة دخلت فى أذنه لقتلته ، وأن شوكة لو دخلت فى رجله لأعجزته ، وأن حمى يوم تحلل من قوته مالا ينجبر فى مدة . فمن لا يطيق شوكة ولا يقاوم بقة ولا يقدر على أن يدفع عن نفسه ذبابة فلا ينبغى أن يفتخر بقوته ! ثم إن قوى الانسان فلا يكون أقوى من حمار أو بقرة أو فيل أو جمل وأى افتخار فى صفة يسبقك فيها البهائم ؟ .

السبب الرابع والخامس : الغنى وكثرة المال ، وفى معناه كثرة الأتباع والأنصار والتكبر بولاية السلاطين والتمكن من جهتهم ، وكل ذلك تكبر بمعنى خارج عن ذات الإنسان كالجمال والقوة والعلم . وهذا أقبح أنواع الكبر ، فإن المتكبر بماله كأنه متكبر بفرسه وداره ولو مات فرسه وانهدمت داره لعاد ذليلا ، والمتكبر بتمكين السلطان وولايته لا بصفة فى نفسه بنى أمره على قلب هو أشد غليانا من القدر ، فإن تغير عليه كان أذل الخلق ، وكل متكبر بأمر خارج عن ذاته فهو ظاهر الجهل ، كيف والمتكبر بالغنى لو تأمل لرأى فى اليهود من يزيد عليه فى الغنى والثروة والتجمل ؟ فأف لشرف يسبقك به اليهودى ! وأف لشرف يأخذه السارق فى لحظة واحدة فيعود صاحبه ذليلا مفلسا ؟ فهذه أسباب ليست فى ذاته ، وما هو فى ذاته ليس إليه دوام وجوده وهو فى الآخرة وبال ونكال ، فالتفاخر به غاية الجهل ، وكل ما ليس إليك فليس لك ، وشىء من هذه الأمور ليس إليك بل إلى واهبه إن أبقاه لك وإن استرجعه زال عنك ، وما أنت إلا عبد مملوك لا تقدر على شىء . ومن عرف ذلك لابد وأن يزول كبره .

ومثاله : أن يفتخر الغافل بقوته وجماله وماله وحريته واستقلاله وسعة منازله وكثرة خيوله وغلمانه ، إذ شهد عليه شاهدان عدلان عند حاكم منصف بأنه رقيق لفلان وأن أبويه كانا مملوكين له ، فعلم ذلك وحكم به الحاكم ، فجاء مالكه فأخذه وأخذ جميع ما فى يده ، وهو مع ذلك يخشى أن يعاقبه وينكل به لتفريطه فى أمواله وتقصيره فى طلب مالكه ليعرف أن له مالكا ، ثم نظر العبد فرأى نفسه محبوسا فى منزل قد أحدقت به الحيات والعقارب والهوام وهو فى كل حال على وجل من كل واحدة منها ، وقد بقى لا يملك نفسه ولا ماله ولا يعرف طريقا فى الخلاص ألبتة ، أفترى من هذا حاله هل يفخر بقدرته وثروته وقوته وكماله أم يذل نفسه ويخضع ؟ وهذا حال كل عاقل بصير فإنه

يرى نفسه كذلك فلا يملك رقبته وبدنه وأعضاءه وماله ، وهو مع ذلك بين آفات وشهوات وأمراض وأسقام هى كالعقارب والحيات يخاف منها الهلاك . فمن هذا حاله لا يتكبر بقوته وقدرته إذ يعلم أنه لا قدرة له ولا قوة . فهذا طريق علاج التكبر بالأسباب الخارجة وهو أهون من علاج التكبر بالعلم والعمل ، فإنهما كمالان فى النفس جديران بأن يفرح بهما ، ولكن التكبر بهما أيضا نوع من الجهل خفى كما سنذكره .

السبب السادس : الكبر بالعلم ، وهو أعظم الآفات وأغلب الأدواء وأبعدها عن قبول العلاج إلا بشدة شديدة وجهد جهيد ، وذلك لأن قدر العلم عظيم عند الله عظيم عند الناس ، وهو أعظم من قدر المال والجمال وغيرهما ، بل لا قدر لهما أصلا إلا إذا كان معهما علم وعمل . ولذلك قال كعب الأحبار : إنّ للعلم طغيانا كطغيان المال . وكذلك قال عمر رضى الله تعالى عنه : العالم إذا زل زل بزلته عالم فيعجز العالم عن أن لا يستعظم نفسه بالإضافة إلى الجاهل لكثرة ما نطق الشرع بفضائل العلم . ولن يقدر العالم على دفع الكبر إلا بمعرفة أمرين : (أحدهما) أن يعلم أنّ حجة الله على أهل العلم آكد ، وأنه يحتمل من الجاهل ما لا يحتمل عشره من العالم ، فإن من عصى الله تعالى عن معرفة وعلم فجنايته أفحش ، إذ لم يقض حق نعمة الله عليه فى العلم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحا فيطيف به أهل النار فيقولون مالك ؟ فيقول كنت آمر بالخير ولا آتيه وأنهى عن الشر وآتيه [1] » وقد مثل الله سبحانه وتعالى من يعلم ولا يعمل بالحمار والكلب فقال عز وجل ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ﴾ أراد به علماء اليهود . وقال فى بلعم بن باعوراء ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ﴾ حتى بلغ ﴿ فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : أوتى بلعم كتابا فأخلد إلى شهوات الأرض أى سكن حبه إليها فمثله بالكلب ﴿ إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾ أى سواء آتيته الحكمة أو لم أوته لا يدع شهوته ، ويكفى العالم هذا الخطر فأى عالم لم يتبع شهوته وأى عالم لم يأمر بالخير الذى لا يأتيه ؟ فمهما خطر للعالم عظم قدره بالإضافة إلى الجاهل فليتفكر فى الخطر العظيم الذى هو بصدده ، فإن خطره أعظم من خطر غيره كما أنّ قدره أعظم من قدر غيره ، فهذا بذاك . وهو كالملك المخاطر بروحه فى ملكه لكثرة أعدائه فإنه إذا أخذ وقهر اشتهى أن يكون قد كان فقيرا ، فكم من عالم يشتهى فى الآخرة سلامة الجهال ؟ والعياذ بالله منه . فهذا الخطر يمنع من التكبر ، فإنه إن كان من أهل النار فالخنزير أفضل منه ، فكيف يتكبر من هذا حاله ؟ فلا ينبغى أن يكون العالم عند نفسه أكبر من الصحابة رضوان الله عليهم وقد كان بعضهم يقول : يا ليتنى لم تلدنى أمى ! ويأخذ الآخر تبنة من الأرض ويقول : يا ليتنى كنت هذه التبنة ! ويقول الآخر : ليتنى كنت طيرا أوكل ! ويقول الآخر : ليتنى لم أك شيئا مذكورا ! كل ذلك خوفا من خطر العاقبة ، فكانوا يرون أنفسهم أسوأ حالا من الطير ومن التراب . ومهما أطال فكره فى الخطر الذى هو بصدده زال بالكلية كبره ، ورأى نفسه كأنه شر الخلق .

ومثاله مثال عبد أمره سيده بأمور فشرع فيها ، فترك بعضها وأدخل النقصان فى بعضها وشك فى بعضها أنه هل أداها على ما يرتضيه سيده أم لا ؟ فأخبره مخبر أنّ سيده أرسل إليه رسولا يخرجه من كل ما هو فيه عريانا ذليلا ويلقيه على بابه فى الحر والشمس زمانا طويلا ، حتى إذا ضاق عليه الأمر وبلغ به المجهود أمر برفع حسابه

(١) حديث « يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتابه ... الحديث » متفق عليه من حديث أسامة بن زيد بلفظ « يؤتى بالرجل » وتقدم فى العلم .

وفتش عن جميع أعماله قليلها وكثيرها ثم أمر به إلى سجن ضيق وعذاب دائم لايروح عنه ساعة ، وقدعلم أن سيده قد فعل بطوائف من عبيده مثل ذلك وعفا عن بعضهم وهو لايدرى من أى الفريقين يكون ؟ فإذا تفكر فى ذلك انكسرت نفسه وذل وبطل عزه وكبره وظهر حزنه وخوفه ولم يتكبر على أحد من الخلق ، بل تواضع رجاء أن يكون هو من شفعائه عند نزول العذاب ، فكذلك العالم إذا تفكر فيما ضيعه من أوامر ربه بجنايات على جوارحه وبذنوب فى باطنه من الرياء والحقد والحسد والعجب والنفاق وغيره ، وعلم بما هو بصدده من الخطر العظيم فارقه كبره لا محالة .

(الأمر الثانى) أن العالم يعرف أن الكبر لايليق إلا بالله عز وجل وحده ، وأنه إذا تكبر صار ممقوتا عند الله بغيضا ، وقد أحب الله منه أن يتواضع وقال له إن لك عندى قدرا ما لم تر لنفسك قدرا فإن رأيت لنفسك قدرا فلا قدر لك عندى ، فلا بد وأن يكلف نفسه ما يحبه مولاه منه . وهذا يزيل التكبر عن قلبه وإن كان يستيقن أنه لاذنب له مثلا أو تصور ذلك . وبهذا زال التكبر عن الأنبياء عليهم السلام إذ علموا أن من نازع الله تعالى فى رداء الكبرياء قصمه ، وقد أمرهم الله بأن يصغروا أنفسهم حتى يعظم عند الله محلهم ، فهذا أيضا مما يبعثه على التواضع لامحالة .

فإن قلت : فكيف يتواضع للفاسق المتظاهر بالفسق والمبتدع ، وكيف يرى نفسه دونهم وهو عالم عابد ، وكيف يجهل فضل العلم والعبادة عند الله تعالى ، وكيف يغنيه أن يخطر بباله خطر العلم وهو يعلم أن خطر الفاسق والمبتدع أكثر ؟ فاعلم أن ذلك إنما يمكن بالتفكر فى خطر الخاتمة ، بل لو نظر إلى كافر لم يمكنه أن يتكبر عليه ، إذ يتصور أن يسلم الكافر فيختم له بالإيمان ويضل هذا العالم فيختم له بالكفر ، والكبير من هو كبير عند الله فى الآخرة ، والكلب والخنزير أعلى رتبة ممن هو عند الله من أهل النار وهو لايدرى ذلك ، فكم من مسلم نظر إلى عمر رضى الله عنه قبل إسلامه فاستحقره وازدراه لكفره وقد رزقه الله الإسلام وفاق جميع المسلمين ؟ إلا أبا بكر وحده فالعواقب مطوية عن العباد ولا ينظر العاقل إلا إلى العاقبة ، وجميع الفضائل فى الدنيا تراد للعاقبة . فإذن من حق العبد أن لايتكبر على أحد . بل إن نظر إلى جاهل قال : هذا عصى الله بجهل وأنا عصيته بعلم فهو أعذر منى . وإن نظر إلى عالم قال : هذا قد علم مالم أعلم فكيف أكون مثله ؟ وإن نظر إلى كبير هو أكبر منه سناقال : هذا قد أطاع الله قبلى فكيف أكون مثله ؟ وإن نظر إلى صغير قال : إنى عصيت الله قبله فكيف أكون مثله ؟ وإن نظر إلى مبتدع أو كافر قال : مايدرينى لعله يختم له بالإسلام ويختم لى بما هو عليه الآن ، فليس دوام الهداية إلى ، كما لم يكن ابتداؤها إلى ؟ فبملاحظة الخاتمة يقدر على أن ينفى الكبر عن نفسه ، وكل ذلك بأن يعلم أن الكمال فى سعادة الآخرة والقرب من الله ، لافيما يظهر فى الدنيا مما لابقاء له ، ولعمرى هذا الخطر مشترك بين المتكبر والمتكبر عليه ! ولكن حق على كل واحد أن يكون مصروف الهمة إلى نفسه مشغول القلب بخوفه لعاقبته ، لا أن يشتغل بخوف غيره ، فإن الشفيق بسوء الظن مولع ، وشفقة كل إنسان على نفسه . فإذا حبس جماعة فى جناية ووعدوا بأن تضرب رقابهم لم يتفرغوا لتكبر بعضهم على بعض وإن عمهم الخطر ، إذ شغل كل واحد نفسه عن الالتفات إلى هم غيره ، حتى كأن كل واحد هو وحده فى مصيبته وخطره .

فإن قلت : فكيف أبغض المبتدع فى الله وأبغض الفاسق وقد أمرت ببغضهما ، ثم مع ذلك أتواضع لهما والجمع بينهما متناقض ؟ فاعلم أن هذا أمر مشتبه يلتبس على أكثر الخلق ، إذ يمتزج غضبك لله فى إنكار البدعة والفسق

بكبر النفس والإدلال بالعلم والورع ، فكم من عابد جاهل وعالم مغرور إذا رأى فاسقا جلس بجنبه أزعجه من عنده وتنزه عنه بكبر باطن فى نفسه وهو ظان أنه قد غضب لله ؛ كما وقع لعابد بنى إسرائيل مع خليعهم ؟ وذلك لأن الكبر على المطيع ظاهر كونه شرا والحذر منه ممكن ، والكبر على الفاسق والمبتدع يشبه الغضب لله وهو خير فإن الغضبان أيضا يتكبر على من غضب عليه والمتكبر يغضب ، وأحدهما يثمر الآخر ويوجبه ، وهما ممتزجان ملتبسان لا يميز بينهما إلا الموفقون .

والذى يخلصك من هذا أن يكون الحاضر على قلبك عند مشاهدة المبتدع أو الفاسق أو عند أمرهما بالمعروف ونهيهما عن المنكر ثلاثة أمور : (أحدها) التفاتك إلى ماسبق من ذنوبك وخطاياك ليصغر عند ذلك قدرك فى عينك . (والثانى) أن تكون ملاحظتك لما أنت متميز به من العلم واعتقاد الحق والعمل الصالح من حيث إنها نعمة من الله تعالى عليك ، فله المنة فيه لا لك ، فترى ذلك منه حتى لاتعجب بنفسك ، وإذا لم تعجب لم تتكبر . (والثالث) ملاحظة إبهام عاقبتك ، وعاقبته أنه ربما يختم لك بالسوء ويختم له بالحسنى ، حتى يشغلك الخوف عن التكبر عليه .

فإن قلت : فكيف أغضب مع هذه الأحوال ؟ فأقول : تغضب لمولاك وسيدك ، إذ أمرك أن تغضب له لا لنفسك ، وأنت فى غضبك لاترى نفسك ناجيا وصاحبك هالكا ، بل يكون خوفك على نفسك بما علم الله من خفايا ذنوبك أكثر من خوفك عليه مع الجهل بالخاتمة ، وأعرفك ذلك بمثال لتعلم أنه ليس من ضرورة الغضب لله أن تتكبر على المغضوب عليه وترى قدرك فوق قدره فأقول : إذا كان للملك غلام وولد هو قرة عينه ، وقد وكل الغلام بالولد ليراقبه ، وأمره أن يضربه مهما أساء أدبه واشتغل بما لا يليق به ، ويغضب عليه . فإن كان الغلام محبا مطيعا لمولاه فلا يجد بدا أن يغضب مهما رأى ولده قد أساء الأدب ، وإنما يغضب عليه لمولاه ولأنه أمره به ، ولأنه يريد التقرب بامتثال أمره إليه ، ولأنه جرى من ولده مايكره مولاه ، فيضرب ولده ويغضب عليه من غير تكبر عليه ، بل هو متواضع له يرى قدره عند مولاه فوق قدر نفسه ، لأن الولد أعز لا محالة من الغلام . فإذن ليس من ضرورة الغضب التكبر وعدم التواضع ؛ فكذلك يمكنك أن تنظر إلى المبتدع والفاسق وتظن أنه ربما كان قدرهما فى الآخرة عند الله أعظم ، لما سبق لهما من الحسنى فى الأزل ، ولما سبق لك من سوء القضاء فى الأزل وأنت غافل عنه ومع ذلك فتغضب بحكم الأمر محبة لمولاك إذ جرى مايكرهه مع التواضع لمن يجوز أن يكون عنده أقرب منك فى الآخرة . فهكذا يكون بعض العلماء الأكياس فينضم إليه الخوف والتواضع . وأما المغرور فإنه يتكبر ويرجو لنفسه أكثر مما يرجوه لغيره مع جهله بالعاقبة ، وذلك غاية الغرور . فهذا سبيل التواضع لمن عصى الله أو اعتقد البدعة مع الغضب عليه ومجانبته بحكم الأمر .

السبب السابع : التكبر بالورع والعبادة ، وذلك أيضا فتنة عظيمة على العباد ، وسبيله أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد وهو أن يعلم أن من يتقدم عليه بالعلم لا ينبغى أن يتكبر عليه كيفما كان ، لما عرفه من فضيلة العلم ، وقد قال تعالى ﴿ هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى [1] » إلى غير ذلك مما ورد فى فضل العلم .

---

(١) حديث « فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابي » أخرجه الترمذى من حديث أبى أمامة وتقدم فى العلم .

فإن قال العابد : ذلك لعالم عامل بعلمه وهذا عالم فاجر ، فيقال له : أما عرفت أن الحسنات يذهبن السيئات ، وكما أن العلم يمكن أن يكون حجة على العالم فكذلك يمكن أن يكون وسيلة له وكفارة لذنوبه ، وكل واحد منهما ممكن وقد وردت الأخبار بما يشهد لذلك ، وإذا كان هذا الأمر غائبا عنه لم يجز له أن يحتقر عالما بل يجب عليه التواضع له .

فإن قلت : فإن صح هذا فينبغى أن يكون للعالم أن يرى نفسه فوق العابد لقوله عليه السلام « فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى » ؟ فاعلم أن ذلك كان ممكنا لو علم العالم عاقبة أمره ، وخاتمة الأمر مشكوك فيها ، فيحتمل أن يموت بحيث يكون حاله عند الله أشد من حال الجاهل الفاسق لذنب واحد كان يحسبه هينا وهو عند الله عظيم وقد مقته به ، وإذا كان هذا ممكنا كان على نفسه خائفا ، فإذا كان كل واحد من العابد والعالم خائفا على نفسه وقد كلف أمر نفسه لا أمر غيره ، فينبغى أن يكون الغالب عليه فى حق نفسه الخوف وفى حق غيره الرجاء ، وذلك يمنعه من التكبر بكل حال . فهذا العابد مع العالم ، فأما مع غير العالم فهم منقسمون فى حقه إلى مستورين وإلى مكشوفين ، فينبغى أن لا يتكبر على المستور فلعله أقل عنه ذنوبا وأكثر منه عبادة وأشد منه حبا لله . وأما المكشوف حاله إن لم يظهر لك من الذنوب إلا ما تزيد عليه ذنوبك فى طول عمرك . فلا ينبغى أن تتكبر عليه ، ولا يمكن أن تقول هو أكثر منى ذنبا ، لأن عدد ذنوبك فى طول عمرك وذنوب غيرك فى طول العمر لا تقدر على إحصائها حتى تعلم الكثرة نعم يمكن أن تعلم أن ذنوبه أشد كما لو رأيت منه القتل والشرب والرياء ومع ذلك فلا ينبغى أن تتكبر عليه إذ ذنوب القلوب من الكبر والحسد والرياء والغل واعتقاد الباطل والوسوسة فى صفات الله تعالى وتخيل الخطأ فى ذلك كل ذلك شديد عند الله ، فربما جرى عليك فى باطنك من خفايا الذنوب ما صرت به عند الله ممقوتا ، وقد جرى للفاسق الظاهر الفسق من طاعات القلوب من حب الله وإخلاص وخوف وتعظيم ما أنت خال عنه ، وقد كفر الله بذلك عنه سيئاته ، فينكشف الغطاء يوم القيامة فتراه فوق نفسك بدرجات ، فهذا ممكن والإمكان البعيد فيما عليك ينبغى أن يكون قريبا عندك إن كنت مشفقا على نفسك ، فلا تتفكر فيما هو ممكن لغيرك بل فيما هو مخوف فى حقك ، فإنه لا تزر وازرة وزر أخرى ، وعذاب غيرك لا يخفف شيئا من عذابك ، فإذا تفكرت فى هذا الخطر كان عندك شغل شاغل عن التكبر وعن أن ترى نفسك فوق غيرك .

وقد قال وهب بن منبه : ما تم عقل عبد حتى يكون فيه عشر خصال ، فعد تسعة حتى بلغ العاشر فقال : العاشرة وما العاشرة ! بها ساد مجده وبها علا ذكره ؛ أن يرى الناس كلهم خيرا منه . وإنما الناس عنده فرقتان : فرقة هى أفضل منه وأرفع ، وفرقة هى شر منه وأدنى . فهو يتواضع للفرقتين جميعا بقلبه ، إن رأى من هو خير منه سره ذلك وتمنى أن يلحق به ، وإن رأى من هو شر منه قال : لعل هذا ينجو وأهلك أنا فلا تراه إلا خائفا من العاقبة ويقول لعل بر هذا باطن فذلك خير له ، ولا أدرى لعل فيه خلقا كريما بينه وبين الله فيرحمه الله ويتوب عليه ويختم له بأحسن الأعمال ، وبرى ظاهر فذلك شر لى . فلا يأمن فيما أظهره من الطاعة أن يكون دخلها الآفات فأحبطتها ، ثم قال : فحينئذ كمل عقله وساد أهل زمانه . فهذا كلامه . وبالجملة فمن جوز أن يكون عند الله شقيا وقد سبق القضاء فى الأزل بشقوته فماله سبيل إلى أن يتكبر بحال من الأحوال .

نعم إذا غلب عليه الخوف رأى كل أحد خيرا من نفسه وذلك هو الفضيلة ، كما روى أن عابدا آوى إلى جبل فقيل له فى النوم : ائت فلانا الإسكاف فسله أن يدعو لك . فأتاه فسأله عن عمله فأخبره أنه يصوم النهار ، ويكتسب

فيتصدق ببعضه ويطعم عياله ببعضه ، فرجع وهو يقول : إن هـذا لحسن ، ولكن ليس هـذا كالتفرغ لطاعة الله فأتى فى النوم ثانيا فقيل له : ائت فلانا الإسكاف فقـل له : ماهـذا الصفار الذى بوجهك ؟ فأتاه فسأله فقال له : مارأيت أحداً من الناس إلا وقع لى : أنه سينجو وأهلك أنا ، فقال العابد : بهذه .

والذى يدل على فضيلة هذه الخصلة قوله تعالى ﴿ يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ﴾ أى أنهم يؤتون الطاعات وهم على وجل عظيم من قبولها وقال تعالى ﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ﴾ وقال تعالى ﴿ إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين ﴾ وقد وصف الله تعالى الملائكة عليهم السلام مع تقدسهم عن الذنوب ومواظبتهم على العبادات على الدءوب بالإشفاق فقال تعالى مخبرا عنهم ﴿ يسبحون الليل والنهار لايفترون وهم من خشيته مشفقون ﴾ فمتى زال الإشفاق والحذر مما سبق به القضاء فى الأزل — وينكشف عند خاتمة الأجل — غلب الأمن من مكر الله وذلك يوجب الكبر وهو سبب الهلاك . فالكبر دليل الأمن والأمن مهلك . والتواضع دليل الخوف وهو مسعد ؛ فإذن مايفسده العابد بإضمار الكبر واحتقار الخلق والنظر إليهم بعين الاستصغار أكثر مما يصلحه بظاهر الأعمال . فهذه معارف بها يزال داء الكبر عن القلب لاغير ، إلا أن النفس بعد هـذه المعرفة قد تضمر التواضع وتدعى البراءة من الكبر وهى كاذبة ، فإذا وقعت الواقعة عادت إلى طبعها ونسيت وعدها ، فعلى هذا لا ينبغى أن يكتفى فى المداواة بمجرد المعرفة بل ينبغى أن تكمل بالعمل وتجرب بأفعال المتواضعين فى مواقع هيجان الكبر فى النفس .

وبيانه أن يمتحن النفس بخمس امتحانات هى أدلة على استخراج ما فى الباطن وإن كانت الامتحانات كثيرة .

الامتحان الأول : أن يناظر فى مسألة مع واحد من أقرانه ، فان ظهر شىء من الحق على لسان صاحبه فثقل عليه قبوله والانقياد له والاعتراف به والشكر له على تنبيهه وتعريفه وإخراجه الحق ، فذلك يدل على أن فيه كبرا دفينا فليتق الله فيه ويشتغل بعلاجه . أما من حيث العلم فبأن يذكر نفسه خسة نفسه وخطر عاقبته وأن الكبر لايليق إلا بالله تعالى . وأما العمل فبأن يكلف نفسه ماثقل عليه من الاعتراف بالحق وأن يطلق اللسان بالحمد والثناء ، ويقر على نفسه بالعجز ويشكره على الاستفادة ويقول : ما أحسن مافطنت له وقد كنت غافلا عنـه فجزاك الله خيرا كما نبهتنى له ! فالحكمة ضالة المؤمن فإذا وجدها ينبغى أن يشكر من دله عليها . فاذا واظب على ذلك مرات متوالية صار ذلك له طبعاً ، وسقط ثقل الحق عن قلبه وطاب له قبوله . ومهما ثقل عليه الثناء على أقرانه بما فيهم ففيه كبر ، فان كان ذلك لايثقل عليه فى الخلوة ويثقل عليه فى الملأ فليس فيه كبر وإنمـا فيه رياء ، فليعالج الرياء بمـا ذكرناه من قطع الطمع عن الناس ، ويذكر القلب بأن منفعته فى كماله فى ذاته وعند الله لا عند الخلق ، إلى غير ذلك من أدوية الرياء . وإن ثقل عليه فى الخلوة والملأ جميعاً ففيه الكبر والرياء جميعاً ، ولا ينفعه الخلاص من أحدهما مالم يتخلص من الثانى . فليعالج كلا الداءين فإنهما جميعا مهلكان .

الامتحان الثانى : أن يجتمع مع الأقران والأمثال فى المحافل ويقدمهم على نفسه ويمشى خلفهم ويجلس فى الصدور تحتهم ، فان ثقل عليه ذلك فهو متكبر ، فليواظب عليه تكلفا حتى يسقط عنـه ثقله فبذلك يزايله الكبر وههنا للشيطان مكيدة وهو أن يجلس فى صف النعال أو يجعل بينه وبين الأقران بعض الأرذال فيظن أن ذلك تواضع وهو عين الكبر ، فإن ذلك يخف على صدور المتكبرين إذ يوهمون أنهم تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضل ، فيكون قد تكبر وتكبر بإظهار التواضع أيضاً ، بل ينبغى أن يقدم أقرانه ويجلس بينهم بجنبهم ولا ينحط عنهم إلى صف

النعال ، فذلك هو الذى يخرج خبث الكبر من الباطن .

الامتحان الثالث : أن يجيب دعوة الفقير ويمر إلى السوق فى حاجة الرفقاء والأقارب ، فإن ثقل ذلك عليه فهو كبر ، فإن هذه الأفعال من مكارم الأخلاق والثواب عليها جزيل ، فنفور النفس عنها ليس إلا لخبث فى الباطن ، فليشتغل بإزالته بالمواظبة عليه مع تذكر جميع ماذكرناه من المعارف التى تزيل داء الكبر .

الامتحان الرابع : أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق إلى البيت ، فإن أبت نفسه ذلك فهو كبر أو رياء ، فإن كان يثقل ذلك عليه مع خلو الطريق فهو كبر ، وإن كان لايثقل عليه إلا مع مشاهدة الناس فهو رياء ، وكل ذلك من أمراض القلب وعلله المهلكة له إن لم تتدارك ، وقد أهمل الناس طب القلوب واشتغلوا بطب الأجساد مع أن الأجساد قد كتب عليها الموت لامحالة ، والقلوب لاتدرك السعادة إلا بسلامتها إذ قال تعالى ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ ويروى عن عبد الله بن سلام أنه حمل حزمة حطب فقيل له ياأبا يوسف قد كان فى غلمانك وبنيك مايكفيك ! قال : أجل ولكن أردت أن أجرب نفسى هل تنكر ذلك ؟ فلم يقنع منها بما أعطته من العزم على ترك الأنفة حتى جربها أهى صادقة أم كاذبة ؟ وفى الخبر « من حمل الفاكهة أو الشىء فقد برئ من الكبر (١) » .

الامتحان الخامس : أن يلبس ثيابا بذلة ، فإن نفور النفس عن ذلك فى الملا رياء وفى الخلوة كبر . وكان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه له مسح يلبسه بالليل ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برئ من الكبر (٢) » وقال عليه الصلاة والسلام « إنما أنا عبد آكل بالأرض وألبس الصوف وأعقل البعير وألعق أصابعى وأجيب دعوة المملوك ، فمن رغب عن سنتى فليس منى (٣) » . وروى أن أبا موسى الأشعرى قيل له إن أقواما يتخلفون عن الجمعة بسبب ثيابهم ، فلبس عباءة فصلى فيها بالناس . وهذه مواضع يجتمع فيها الرياء والكبر فما يختص بالملا فهو الرياء ، وما يكون فى الخلوة فهو الكبر ؛ فاعرف فإن من لايعرف الشر لايتقيه ، ومن لايدرك المرض لايداويه ،

بيان غاية الرياضة فى خلق التواضع

اعلم أن هذا الخلق كسائر الأخلاق له طرفان وواسطة : فطرفه الذى يميل إلى الزيادة يسمى تكبرا ، وطرفه الذى يميل إلى النقصان يسمى تخاسسا ومذلة ، والوسط يسمى تواضعا . والمحمود أن يتواضع فى غير مذلة ومن غير تخاسس ، فإن كلا طرفى الأمور ذميم وأحب الأمور إلى الله تعالى أوساطها . فمن يتقدم على أمثاله فهو متكبر ومن يتأخر عنهم فهو متواضع : أى وضع شيئا من قدره الذى يستحقه . والعالم إذا دخل عليه إسكاف فتنحى له عن مجلسه وأجلسه فيه ثم تقدم وسوى له نعله وعدا إلى باب الدار خلفه فقد تخاسس وتذلل ، وهذا أيضا غير محمود بل المحمود عند الله العدل ؛ وهو أن يعطى كل ذى حق حقه ، فينبغى أن يتواضع بمثل هذا لأقرانه ومن يقرب من درجته ، فأما تواضعه للسوقى فبالقيام والبشر فى الكلام والرفق فى السؤال وإجابة دعوته والسعى فى حاجته وأمثال ذلك وأن لايرى نفسه خيرا منه بل يكون على نفسه أخوف منه على غيره فلا يحتقره ولا يستصغره وهو لايعرف خاتمة

---

(١) حديث « من حمل الشىء والفاكهة فقد برئ من الكبر » أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث أبى أمامة وضعفه بلفظ « من حمل بضاعته » . (٢) حديث « من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برئ من الكبر » أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة بزيادة فيه وفى إسناده القاسم اليعمرى ضعيف جدا . (٣) حديث « إنما أنا عبد آكل بالأرض وألبس الصوف ... الحديث » تقدم بعضه ولم أجد بقيته .

أمره . فإذن سبيله فى اكتساب التواضع أن يتواضع للأقران ولمن دونهم حتى يخف عليه التواضع المحمود فى محاسن العادات ليزول به الكبر عنه ، فإن خف عليه ذلك فقد حصل له خلق التواضع ، وإن كان يثقل عليه وهو يفعل ذلك فهو متكلف لا متواضع ، بل الخلق ما يصدر عنه الفعل بسهولة من غير ثقل ومن غير روية، فإن خف ذلك وصار بحيث يثقل عليه رعاية قدره حتى أحب التملق والتخاسس فقد خرج إلى طرف النقصان فليرفع نفسه إذ ليس للمؤمن أن تذل نفسه إلى أن يعود إلى الوسط الذى هو الصراط المستقيم ، وذلك غامض فى هذا الخلق وفى سائر الأخلاق . والميل عن الوسط إلى طرف النقصان وهو التملق أهون من الميل إلى طرف الزيادة بالتكبر ، كما أن الميل إلى طرف التبذير فى المال أحمد عند الناس من الميل إلى طرف البخل ، فنهاية التبذير ونهاية البخل مذمومان وأحدهما أفحش ، وكذلك نهاية التكبر ونهاية التنقص والتذلل مذمومان وأحدهما أقبح من الآخر . والمحمود المطلق هو العدل ووضع الأمور مواضعها كما يجب وعلى ما يجب كما يعرف ذلك بالشرع والعادة ولنقتصر على هذا القدر من بيان أخلاق الكبر والتواضع .

الشطر الثانى : من الكتاب فى العجب ، وفيه بيان ذم العجب وآفاته ، وبيان حقيقة العجب والإدلال وحدهما ، وبيان علاج العجب على الجملة ، وبيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه .

بيان ذم العجب وآفاته

اعلم أن العجب مذموم فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . قال الله تعالى ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ﴾ ذكر ذلك فى معرض الإنكار وقال عز وجل (وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا) فرد على الكفار فى إعجابهم بحصونهم وشوكتهم وقال تعالى (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ـ ، وهذا أيضا يرجع إلى العجب بالعمل . وقد يعجب الإنسان بالعمل هو مخطئ فيه كما يعجب بعمل هو مصيب فيه . وقال صلى الله عليه وسلم «ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه[1]» وقال لأبى ثعلبة ـ حيث ذكر آخر هذه الأمه فقال ـ إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك نفسك [2] » . وقال ابن مسعود: الهلاك فى اثنتين القنوط والعجب . وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلا بالسعى والطلب والجد والتشمر ، والقانط لا يسعى ولا يطلب، والمعجب يعتقد أنه قد سعد وقد ظفر بمراده فلا يسعى . فالموجود لا يطلب ، والمحال لا يطلب ، والسعادة موجودة فى اعتقاد المعجب حاصلة له ومستحيلة فى اعتقاد القانط ، فمن ههنا جمع بينهما . وقد قال تعالى : (فلا تزكوا أنفسكم) قال ابن جريج : معناه إذا عملت خيرا فلا تقل عملت . وقال زيد بن أسلم . لاتبروها ، أى لاتعتقدوا أنها بارة وهو معنى العجب . ووقى طلحة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد بنفسه فأكب عليه حتى أصيبت كفه ، فكأنه أعجبه فعله العظيم إذ فداه بروحه حتى جرح ، فتفرس ذلك عمر فيه فقال . مازال يعرف فى طلحة نأو منذ أصيبت أصبعه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم [3] والنأو : هو العجب ـ فى اللغة ـ إلا أنه لم ينقل فيه أنه أظهره واحتقر مسلما ولما كان وقت الشورى قال له ابن عباس أين أنت من طلحة ؟ قال : ذلك رجل فيه نخوة . فإذا كان لايتخلص من العجب أمثالهم فكيف يتخلص الضعفاء إن

---

(١) حديث « ثلاث مهلكات ... الحديث » تقدم غير مرة (٢) حديث أبي ثعلبة « إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك نفسك » أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه وقد تقدم .

(٣) حديث « وقى طلحة رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه وأكب عليه حتى أصيبت كفه » أخرجه البخارى من رواية قيس بن أبي حازم قال : رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبي صلى الله عليه وسلم .

لم يأخذوا حذرهم ؟ وقال مطرف : لأن أبيت نائما وأصبح نادما أحب إلى من أبيت قائما وأصبح معجبا . وقال صلى الله عليه وسلم « لولم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك العجب العجب »[1] فجعل العجب أكبر الذنوب . وكان بشر بن منصور من الذين إذا رءوا ذكر الله تعالى والدار الآخرة لمواظبته على العبادة ، فأطال الصلاة يوما ورجل خلفه ينظر ففطن له بشر ، فلما انصرف عن الصلاة قال له : لا يعجبنك ما رأيت منى ، فإن إبليس لعنه الله قد عبد الله تعالى مع الملائكة مدة طويلة ثم صار إلى ماصار إليه . وقيل لعائشة رضى الله عنها : متى يكون الرجل مسيئا : قالت ؟ إذا ظن أنه محسن ، وقد قال تعالى ﴿ لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ والمن نتيجة استعظام الصدقة ، واستعظام العمل هو العجب . فظهر بهذا أن العجب مذموم جدا .

بيان آفة العجب

اعلم أن آفات العجب كثيرة ، فإن العجب يدعو إلى الكبر لأنه أحد أسبابه - كما ذكرناه - فيتولد من العجب الكبر ، ومن الكبر الآفات الكثيرة التى لا تخفى ، هذا مع العباد وأما مع الله تعالى فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها ، فبعض ذنوبه لا يذكرها ولا يتفقدها لظنه أنه مستغن عن تفقدها فينساها ، وما يتذكره منها فيستصغره ولا يستعظمه فلايجتهد فى تداركه وتلافيه بل يظن أنه يغفر له . وأماالعبادات والأعمال فإنه يستعظمها ويتبجح بها ويمن على الله بفعلها ، وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها ، ثم إذا عجب بها عمى عن آفاتها . ومن لم يتفقد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضائعا ، فإن الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصة نقية عن الشوائب قلما تنفع ، وإنما يتفقد من يغلب عليه الإشفاق والخوف دون العجب ، والمعجب يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه ، ويظن أنه عند الله بمكان وأن له عند الله منة وحقا بأعماله التى هى نعمة وعطية من عطاياه ، ويخرجه العجب إلى أن يثنى على نفسه ويحمدها ويزكيها ، وإن أعجب برأيه وعمله وعقله منع ذلك من الاستفادة ومن الاستشارة والسؤال فيستبد بنفسه ورأيه ويستنكف من سؤال من هو أعلم منه ، وربما يعجب بالرأى الخطأ الذى خطر له فيفرح بكونه من خواطره ، ولا يفرح بخواطر غيره فيصر عليه ولا يسمع نصح ولا وعظ واعظ ، بل ينظر إلى غيره بعين الاستجهال ويصر على خطئه ، فإن كان رأيه فى أمر دنيوى فيحقق فيه ، وإن كان فى أمر دينى لاسيما فيما يتعلق بأصول العقائد فيهلك به ولو اتهم نفسه ولم يثق برأيه واستضاء بنور القرآن واستعان بعلماء الدين وواظب على مدارسة العلم وتابع سؤال أهل البصيرة لكان ذلك يوصله إلى الحق . فهذا وأمثاله من آفات العجب فلذلك كان من المهلكات ، ومن اعظم آفاته أن يفتر فى السعى لظنه أنه قد فاز وأنه قد استغنى وهو الهلاك الصريح الذى لاشبهة فيه . نسأل الله تعالى العظيم حسن التوفيق لطاعته .

بيان حقيقة العجب والإدلال وحدهما

اعلم أن العجب إنما يكون بوصف هو كمال لا محالة ، وللعالم بكمال نفسه فى علم وعمل ومال وغيره حالتان (إحداهما) أن يكون خائفا على زواله ومشفقا على تكدره أوسلبه من أصله فهذا ليس بمعجب (والأخرى) أن لايكون خائفا من زواله لكن يكون فرحا به من حيث إنه نعمة من الله تعالى عليه لامن حيث إضافته إلى نفسه

---

(١) حديث « لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ماهو أكبر من ذلك العجب العجب » أخرجه البزار وابن حبان فى الضعفاء والبيهقى فى الشعب من حديث أنس وفيه سلام بن أبى الصهباء قال البخارى منكر الحديث . وقال أحمد حسن الحديث ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى سعيد بسند ضعيف جدا .

وهذا أيضا ليس بمعجب (وله حالة ثالثة) هى العجب وهى أن يكون غير خائف عليه بل يكون فرحا به مطمئنا إليه ، ويكون فرحه به من حيث إنه كمال ونعمة وخير ورفعة لا من حيث إنه عطية من الله تعالى ونعمة منه ، فيكون فرحه من حيث إنه صفته ومنسوب إليه بأنه له لا من حيث إنه منسوب إلى الله تعالى بأنه منه ، فهما غلب على قلبه أنه نعمة من الله مهما شاء سلبها عنه زال العجب بذلك عن نفسه . فإذن العجب هو استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم ، فإن انضاف إلى ذلك أن غلب على نفسه أن له عند الله حقا وأنه منه بمكان حتى يتوقع بعمله كرامة فى الدنيا ، واستبعد أن يجرى عليه مكروه استبعادا يزيد على استبعاده ما يجرى على الفساق سمى هذا إدلالا بالعمل ، فكأنه يرى لنفسه على الله دالة ، وكذلك قد يعطى غيره شيئا فيستعظمه ويمن عليه فيكون معجبا ، فإن استخدمه أو اقترح عليه الاقتراحات أو استبعد تخلفه عن قضاء حقوقه كان مدلا عليه .

وقال قتادة فى قوله تعالى ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ أى لا تدل بعملك وفى الخبر « إنّ صلاة المدل لا ترفع فوق رأسه ، ولأن تضحك وأنت معترف بذنبك خير من أن تبكى وأنت مدل بعملك [1] » والإدلال وراء العجب ، فلا مدل إلا وهو معجب ورب معجب لا يدل ، إذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة دون توقع جزاء عليه ، والإدلال لا يتم إلا مع توقع جزاء . فإن توقع إجابة دعوته واستنكر ردها بباطنه وتعجب منه كان مدلا بعمله ، لأنه لا يتعجب من رد دعاء الفاسق ويتعجب من رد دعاء نفسه لذلك . فهذا هو العجب والإدلال وهو من مقدمات الكبر وأسبابه ، والله تعالى أعلم .

بيان علاج العجب على الجملة

اعلم أن علاج كل علة هو مقابلة سببها بضده ، وعلة العجب الجهل المحض ، فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل فقط ، فلنفرض العجب بفعل داخل تحت اختيار العبد كالعبادة والصدقة والغزو وسياسة الخلق وإصلاحهم ؛ فإن العجب بهذا أغلب من العجب بالجمال والقوة والنسب وما لا يدخل تحت اختياره ولا يراه من نفسه .

فنقول : الورع والتقوى والعبادة والعمل الذى به يعجب إنما يعجب به من حيث إنه فيه فهو محله ومجراه ، أو من حيث إنه منه وبسببه وبقدرته وقوته ؛ فإن كان يعجب به من حيث إنه فيه وهو محله ومجراه يجرى فيه وعليه من جهة غيره فهذا جهل ، لأن المحل مسخر ومجرى لا مدخل له فى الإيجاد والتحصيل ، فكيف يعجب بما ليس إليه؟ وإن كان يعجب به من حيث إنه هو منه وإليه وباختياره حصل وبقدرته تم ، فينبغى أن يتأمل فى قدرته وإرادته وأعضائه وسائر الأسباب التى بها يتم عمله أنها من أين كانت له ؟ فإن كان جميع ذلك نعمة من الله عليه من غير حق سبق له ومن غير وسيلة يدلى بها فينبغى أن يكون إعجابه بجود الله وكرمه وفضله ، إذ أفاض عليه ما لا يستحق وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة فهما برز الملك لغلمانه ونظر إليهم وخلع من جملتهم على واحد منهم لا لصفة فيه ولا لوسيلة ولا لجماله ولا لخدمة ، فينبغى أن يتعجب المنعم عليه من فضل الملك وحكمه وإيثاره من غير استحقاق وإعجابه بنفسه من أين وما سببه ؟ ولا ينبغى أن يعجب بنفسه . نعم يجوز أن يعجب العبد فيقول : الملك حكم عدل لا يظلم ولا يقدم ولا يؤخر إلا لسبب ، فلولا أنه تفطن فى صفة من الصفات المحمودة الباطنة لما اقتضى الإيثار بالخلعة ولما آثرنى بها ، فيقال : وتلك الصفة أيضا هى من خلعة الملك وعطيته التى خصصك بها من غيرك ، من غير وسيلة ، أو هى عطية غيره ؟ فإن كانت من عطية الملك أيضا لم يكن لك أن تعجب بها ، بل كان كما لو أعطاك فرسا

---

(١) حديث « إن صلاة المدل لا ترفع فوق رأسه ... الحديث » لم أجد له أصلا .

فلم تعجب به ، فأعطاك علاما فصرت تعجب به وتقول : إنما أعطانى غلاما لأنى صاحب فرس فأما غيرى فلا فرس له ، فيقال : وهو الذى أعطاك الفرس فلا فرق بين أن يعطيك الفرس والغلام معا أو يعطيك أحدهما بعد الآخر ! فإذا كان الكل منه فينبغى أن يعجبك جوده وفضله لانفسك . وأما إن كانت تلك الصفة من غيره فلا يبعد أن تعجب بتلك الصفة ، وهذا يتصور فى حق الملوك ولا يتصور فى حق الجبار القاهر ملك الملوك المنفرد باختراع الجميع المنفرد بإيجاد الموصوف والصفة ، فإنك إن أعجبت بعبادتك وقلت : وفقنى للعبادة لحبى له ، فيقال : ومن خلق الحب فى قلبك ؟ فتقول : هو ، فيقال : فالحب والعبادة كلاهما نعمتان من عنده ابتدأك بهما من غير استحقاق من جهتك إذ لاوسيلة لك ولا علاقة ، فيكون الإعجاب بجوده إذ أنعم بوجودك ووجود صفاتك وبوجود أعمالك وأسباب أعمالك ! فإذاً لامعنى لعجب العابد بعبادته وعجب العالم بعلمه وعجب الجميل بجماله وعجب الغنى بغناه ! لأن كل ذلك من فضل الله وإنما هو محل لفيضان فضل الله تعالى وجوده ، والمحل أيضا من فضله وجوده .

فإن قلت : لا يمكننى أن أجهل أعمالى وإنى أنا عملتها فإنى أنتظر عليها ثوابا ، ولولا أنها عملى لما انتظرت ثوابا ، فإن كانت الأعمال مخلوقة لله على سبيل الاختراع فمن أين لى الثواب ؟ وإن كانت الأعمال منى وبقدرته فكيف لا أعجب بها ؟ فاعلم أن جوابك من وجهين (أحدهما) هو صريح الحق (والآخر) فيه مساحة .

أما صريح الحق : فهو أنك وقدرتك وإرادتك وحركتك وجميع ذلك من خلق الله واختراعه ، فما عملت إذ عملت وما صليت إذ صليت ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ فهذا هو الحق الذى انكشف لأرباب القلوب بمشاهدة أوضح من إبصار العين ، بل خلقك وخلق أعضاءك وخلق فيها القوة والقدرة والصحة ، وخلق لك العقل والعلم وخلق لك الإرادة ، ولو أردت أن تنفى شيئا من هذا عن نفسك لم تقدر عليه ، ثم خلق الحركات فى أعضائك مستبدا باختراعها من غير مشاركة من جهتك معه فى الاختراع ، إلا أنه خلقه على ترتيب فلم يخلق الحركة مالم يخلق فى العضو قوة وفى القلب إرادة ، ولم يخلق إرادة مالم يخلق علما بالمراد ، ولم يخلق علما مالم يخلق القلب الذى هو محل العلم ، فتدريجه فى الخلق شيئا بعد شىء هو الذى خيل لك أنك أوجدت عملك وقد غلطت . وإيضاح ذلك وكيفية الثواب على عمل هو من خلق الله سيأتى تقريره فى كتاب الشكر فانه أليق به فارجع إليه .

ونحن الآن نزيل إشكالك بالجواب الثانى الذى فيه مساحة ما ، وهو أن تحسب أن العمل حصل بقدرتك فمن أين قدرتك ؟ ولا يتصور العمل إلا بوجودك ووجود عملك وإرادتك وسائر أسباب عملك وكل ذلك من الله تعالى لا منك ! فإن كان العمل بالقدرة فالقدرة مفتاحه وهذا المفتاح بيد الله ، ومهما لم يعطك المفتاح فلا يمكنك العمل ، فالعبادات خزائن بها يتوصل إلى السعادات ومفاتيحها القدرة والإرادة والعلم وهى بيد الله لا محالة . أرأيت لو رأيت خزائن الدنيا مجموعة فى قلعة حصينة ومفتاحها بيد خازن ، ولو جلست على بابها وحول حيطانها ألف سنة لم يمكنك أن تنظر إلى دينار مما فيها ، ولو أعطاك المفتاح لأخذته من قريب بأن تبسط يدك إليه فتأخذه فقط ، فإذا أعطاك الخازن المفاتيح وسلطك عليها ومكنك منها فمددت يدك وأخذتها كان إعجابك بإعطاء الخازن المفاتيح أو بما إليك من مد اليد وأخذها ؟ فلا تشك فى أنك ترى ذلك نعمة من الخازن لأن المؤنة فى تحريك اليد بأخذ المال قريبة ، وإنما الشأن كله فى تسليم المفاتيح . فكذلك مهما خلقت القدرة وسلطت الإرادة الجازمة وحركت الدواعى والبواعث وصرف عنك الموانع والصوارف ، حتى لم يبق صارف إلا دفع ولا باعث إلا وكل بك فالعمل هين عليك ، وتحريك البواعث وصرف العوائق وتهيئة الأسباب كلها من الله ليس شىء منها إليك ، فمن العجائب أن تعجب بنفسك

ولا تعجب بمن إليه الأمر كله ، ولا تعجب بجوده وفضله وكرمه فى إيثاره إياك على الفساق من عباده إذ سلط دواعى الفساد على الفساق وصرفها عنك ، وسلط أخدان السوء ودعاة الشر عليهم وصرفهم عنك ، ومكنك من أسباب الشهوات واللذات وزواها عنك ، وصرف عنهم بواعث الخير ودواعيه وسلطها عليك ، حتى تيسر لك الخير وتيسر لهم الشر ! فعل ذلك كله بك من غير وسيلة سابقة منك ولا جريمة سابقة من الفاسق العاصى ، بل آثرك وقدمك واصطفاك بفضله وأبعد العاصى وأشقاه بعدله فما أعجب إعجابك بنفسك إذا عرفت ذلك ! فإذن لاتتصرف قدرتك إلى المقدور إلا بتسليط الله عليك داعية لا تجد سبيلا إلى مخالفتها ، فكأنه الذى اضطرك إلى الفعل إن كنت فاعلا تحقيقا فله الشكر والمنة لا لك — وسيأتى فى كتاب التوحيد والتوكل من بيان تسلسل الأسباب والمسببات ماتستبين به أنه لافاعل إلا الله ولا خالق سواه والعجب ممن يتعجب — إذا رزقه الله عقلا وأفقره — ممن أفاض عليه المال من غير علم فيقول : كيف منعنى قوت يومى وأنا العاقل الفاضل وأفاض على هذا نعيم الدنيا وهو الغافل الجاهل ؟ حتى يكاد يرى هذا ظلما ، ولا يدرى المغرور أنه لوجمع له بين العقل والمال جميعا لكان ذلك بالظلم أشبه فى ظاهر الحال ، إذ يقول الجاهل الفقير : يارب لم جمعت له بين العقل والغنى وحرمتنى منهما فهلا جمعتهما لى أو هلا رزقتنى أحدهما ؟ وإلى هذا أشار على رضى الله عنه حيث قيل له : مابال العقلاء فقراء ؟ فقال : إنّ عقل الرجل محسوب عليه من رزقه . والعجب أنّ العاقل الفقير ربما يرى الجاهل الغنى أحسن حالا من نفسه ، ولو قيل له : هل تؤثر جهله وغناه عوضا عن عقلك وفقرك لامتنع عنه ! فإذن ذلك يدل على أنّ نعمة الله عليه أكبر ، فلم يتعجب من ذلك ؟ والمرأة الحسناء الفقيرة ترى الحلى والجواهر على الدميمة القبيحة فتعجب وتقول : كيف يحرم مثل هذا الجمال من الزينة ويخصص مثل ذلك القبح ؟ ولاتدرى المغرورة أنّ الجمال محسوب عليها من رزقها وأنها لوخيرت بين الجمال وبين القبح مع الغنى لآثرت الجمال ؟ فإذن نعمة الله عليها أكبر . وقول الحكيم الفقير العاقل بقلبه : يارب لم حرمتنى الدنيا وأعطيتها الجهال ؟ كقول من أعطاه الملك فرسا فيقول : أيها الملك لم لا تعطينى الغلام وأنا صاحب فرس ؟ فيقول : كنت لاتتعجب من هذا لو لم أعطك الفرس ! فهب أنى ما أعطيتك فرسا أصارت نعمتى عليك وسيلة لك وحجة تطلب بها نعمة أخرى ؟ فهذه أوهام لا تخلو الجهال عنها ، ومنشأ جميع ذلك الجهل ، ويزال ذلك بالعلم المحقق بأنّ العبد وعمله وأوصافه كل ذلك من عند الله تعالى نعمة ابتداه بها قبل الاستحقاق ، وهذا ينفى العجب والإدلال ويورث الخضوع والشكر والخوف من زوال النعمة . ومن عرف هذا لم يتصور أن يعجب بعلمه وعمله إذ يعلم أنّ ذلك من الله تعالى ولذلك قال داود عليه السلام : يارب ما تأتى ليلة إلا وإنسان من آل داود صائم — وفى رواية ما تمر ساعة من ليل أو نهار إلا وعابد من آل داود يعبدك إما يصلى وإما يصوم وإما يذكرك — فأوحى الله تعالى إليه : ياداود ومن أين لهم ذلك ! إنّ ذلك لم يكن إلا بى ولولا عونى إياك ماقويت وسأكلك إلى نفسك ، قال ابن عباس : إنما أصاب داود ما أصاب من الذنب بعجبه بعمله إذ أضافه إلى آل داود مدلا به حتى وكل إلى نفسه ، فأذنب ذنبا أورثه الحزن والندم . وقال داود : يارب إنّ بنى إسرائيل يسألونك بإبراهيم وإسحق ويعقوب ، فقال : إنى ابتليتهم فصبروا ، فقال : يارب وأنا إن ابتليتنى صبرت ، فأدل بالعمل قبل وقته فقال الله تعالى : فإنى لم أخبرهم بأى شىء أبتليهم ولافى أى شهر ولافى أى يوم ، وأنا مخبرك فى سنتك هذه وشهرك هذا أبتليك غدا بامرأة فاحذر نفسك ، فوقع فيما وقع فيه . وكذلك لما اتكل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين على قوتهم وكثرتهم

ونسوا فضل الله تعالى عليهم وقالوا لانغلب اليوم من قلة [1] وكلوا إلى أنفسهم فقال تعالى ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ﴾ . روى ابن عيينه أن أيوب عليه السلام قال : إلهى إنك ابتليتنى بهذا البلاء وما ورد على أمر إلا آثرت هواك على هواى ، فنودى من غمامة بعشرة آلاف صوت . ياأيوب أنى لك ذلك ؛ أى من أين لك ذلك ؟ قال : فأخذ رمادا ووضعه على رأسه وقال : منك يارب منك يارب ، فرجع من نسيانه إلى إضافة ذلك إلى الله تعالى . ولهذا قال الله تعالى ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكا منكم من أحد أبدا ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه وهم خير الناس « مامنكم من أحد ينجيه عمله » قالوا : ولاأنت يارسول الله ؟ قال « ولاأنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته [2] » ولقدكان أصحابه من بعده يتمنون أن يكونوا ترابا وتبنا وطيرا مع صفاء أعمالهم وقلوبهم ، فكيف يكون لذى بصيرة أن يعجب بعمله أويدل به ولايخاف على نفسه ؟ فإذن هذا هو العلاج القامع لمادة العجب من القلب . ومهما غلب ذلك على القلب شغله خوف سلب هذه النعمة عن الإعجاب بها ، بل هو ينظر إلى الكفار والفساق وقد سلبوا نعمة الإيمان والطاعة بغير ذنب أذنبوه من قبل ، فيخاف من ذلك فيقول : إنّ من لايبالى أن يحرم من غير جناية ويعطى من غير وسيلة لايبالى أن يعود ويسترجع ما وهب ، فكم من مؤمن قد ارتدّ ومطيع قد فسق وختم له بسوء ! وهذا لايبقى معه عجب بحال ، والله تعالى أعلم .

بيان أقسام مابه العجب وتفصيل علاجه

اعلم أنّ العجب بالأسباب التى بها يتكبر ـ كما ذكرناه ـ وقد يعجب بما لايتكبر به كعجبه بالرأى الخطأ الذى يزين له بجهله . فما به العجب ثمانية أقسام :

(الأول) أن يعجب ببدنه فى جماله وهيئته وصحته وقوته وتناسب أشكاله وحسن صورته وحسن صوته ، وبالجملة تفصيل خلقته ، فيلتفت إلى جمال نفسه وينسى أنه نعمة من الله تعالى وهو بعرضة الزوال فى كل حال ، وعلاجه ماذكرناه فى الكبر بالجمال وهو التفكر فى أقذار باطنه وفى أوّل امره وفى آخره ، وفى الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة أنها كيف تمزقت فى التراب وأنتنت فى القبور حتى استقذرتها الطباع .

(الثانى) البطش والقوة كما حكى عن قوم عاد حين قالوا فيما أخبر الله عنهم ﴿ من أشد منا قوة ﴾ وكما اتكل عوج على قوته وأعجب بها فاقتلع جبلا ليطبقه على عسكر موسى عليه السلام ، فثقب الله تعالى تلك القطعة من الجبل بنقر هدهد ضعيف المنقار حتى صارت فى عنقه ، وقد يتكل المؤمن أيضا على قوته كما روى عن سليمان عليه السلام أنه قال : لأطوفن الليلة على مائة امرأة ! ولم يقل إن شاء الله تعالى ، فحرم ما أراد من الولد [1] وكذلك قول داود عليه السلام : إن ابتليتنى صبرت ، وكان إعجابا منه بالقوة ، فلما ابتلى بالمرأة لم يصبر . ويورث العجب بالقوة الهجوم فى الحروب وإلقاء النفس فى التهلكة والمبادرة إلى الضرب والقتل لكل من قصده بالسوء ، وعلاجه ماذكرناه ، وهو أن يعلم أنّ حمى يوم تضعف قوته ! وأنه إذا أعجب بها ربما سلبها الله تعالى بأدنى آفة يسلطها عليه .

---

(١) حديث : قولهم يوم حنين لا نغلب اليوم من قلة . أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة من رواية الربيع بن أنس مرسلا : أن رجلا قال يوم حنين لن نغلب اليوم من قلة فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم ﴾ ولابن مردويه فى تفسيره من حديث أنس : لما التقوا يوم حنين أعجبتهم كثرتهم فقالوا : اليوم نقاتل ؛ ففروا . فيه الفرج بن فضالة ضعفه الجمهور (٢) حديث « مامنكم من أحد ينجيه عمله ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٣) حديث : قال سليمان : لأطوفن الليلة بمائة امرأة ... الحديث » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة .

(الثالث) العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الأمور من مصالح الدين والدنيا ، وثمرته الاستبداد بالرأى وترك المشورة واستجهال الناس المخالفين له ولرأيه ، ويخرج إلى قلة الإصغاء إلى أهل العلم إعراضا عنهم بالاستغناء بالرأى والعقل واستحقارا لهم وإهانة ، وعلاجه أن يشكر الله تعالى على مارزق من العقل ، ويتفكر أنه بأدنى مرض يصيب دماغه كيف يوسوس ويجن بحيث يضحك منه ! فلا يأمن أن يسلب عقله إن أعجب به ولم يقم بشكره ، وليستقصر عقله وعلمه ، وليعلم أنه ما أوتى من العلم إلا قليلا وإن اتسع علمه ، وأن ما جهله مما عرفه الناس أكثر مما عرفه ، فكيف بما لم يعرفه الناس من علم الله تعالى ؟ وأن يتهم عقله وينظر إلى الحمقى كيف يعجبون بعقولهم ويضحك الناس منهم ؟ فيحذر أن يكون منهم وهو لايدرى . فإن القاصر العقل قط لايعلم قصور عقله ، فينبغى أن يعرف مقدار عقله من غيره لامن نفسه ، ومن أعدائه لامن أصدقائه ، فإن من يداهنه يثنى عليه فيزيده عجبا وهو لايظن بنفسه إلا الخير ولا يفطن لجهل نفسه فيزداد عجبا .

(الرابع) العجب بالنسب الشريف كعجب الهاشمية ، حتى يظن بعضهم أنه ينجو بشرف نسبه ونجاة آبائه وأنه مغفور له ، ويتخيل بعضهم أن جميع الخلق له موال وعبيد ، وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آباءه فى أفعالهم وأخلاقهم وظن أنه ملحق بهم فقد جهل ، وإن اقتدى بآبائه فما كان من أخلاقهم العجب بل الخوف والازدراء على النفس واستعظام الخلق ومذمة النفس ، ولقد شرفوا بالطاعة والعلم والخصال الحميدة لا بالنسب ، فليتشرف بما شرفوا به ، وقد ساواهم فى النسب وشاركهم فى القبائل من لم يؤمن بالله واليوم الآخر ، وكانوا عند الله شرا من الكلاب وأخس من الخنازير ، ولذلك قال تعالى ﴿ ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ أى لاتفاوت فى أنسابكم لاجتماعكم فى أصل واحد ، ثم ذكر فائدة النسب فقال ﴿ وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ﴾ ثم بين أن الشرف بالتقوى لا بالنسب فقال ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ ولما قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس ؟ من أكيس الناس ؟ لم يقل : من ينتمى إلى نسبى ولكن قال « أكرمهم أكثرهم للموت ذكرا وأشدهم له استعدادا »[1] ، وإنما نزلت هذه الآية حين أذن بلال يوم الفتح على الكعبة : فقال الحرث بن هشام وسهيل بن عمرو وخالد بن أسيد : هذا العبد الأسود يؤذن على الكعبة ؟ فقال تعالى ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ وقال النبى صلى الله عليه وسلم « إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية – أى كبرها – كلكم بنو آدم وآدم من تراب »[2] ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم « يامعشر قريش لاتأتى الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم تقولون يامحمد يامحمد فأقول هكذا – أى أعرض عنكم – »[3] ، فبين أنهم إذا مالوا إلى الدنيا لم ينفعهم نسب قريش . ولما نزل قوله تعالى ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ ناداهم بطنا بعد بطن ، حتى قال « يافاطمة بنت محمد ياصفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اعملا لأنفسكما فإنى لا أغنى عنكما من الله شيئا »[4] ، فمن عرف هذه الأمور وعلم أن شرفه بقدر تقواه وقد كان من عادة آبائه التواضع اقتدى بهم فى التقوى

(١) حديث : لما قيل له : من أكرم الناس من أكيس الناس ؟ قال « أكثرهم للموت ذكرا ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر دون قوله « وأكرم الناس » وهو بهذه الزيادة عند ابن أبى الدنيا فى ذكر الموت آخر الكتاب .

(٢) حديث « إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية ... الحديث » أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه من حديث أبى هريرة ورواه الترمذى أيضاً من حديث ابن عمر وقال غريب .

(٣) حديث « يامعشر قريش لايأتى الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم .. الحديث » أخرجه الطبرانى من حديث عمران بن حصين إلا أنه قال : يامعشر بنى هاشم وسنده ضعيف .

(٤) حديث لما نزل قوله تعالى ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ ناداهم بطنا بعد بطن حتى قال « يافاطمة بنت محمد ياصفية بنت عبد المطلب ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة ورواه مسلم من حديث عائشة .

والتواضع ، وإلا كان طاعنا فى نسب نفسه ـ بلسان حاله ـ مهما انتمى إليهم ولم يشبههم فى التواضع والتقوى والخوف والإشفاق .

فإن قلت : فقد قال صلى الله عليه وسلم بعد قوله لفاطمة وصفية « إنى لا أغنى عنكما من الله شيئا إلا أن لكم رحما سأبلها ببلالها[1] » وقد عليه الصلاة والسلام « أترجو سليم شفاعتى ولا يرجوها بنو عبد المطلب [2] » فذلك يدل على أنه سيخصص قرابته بالشفاعة ؟ فاعلم أن كل مسلم فهو منتظر شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والنسيب أيضا جدير بأن يرجوها لكن بشرط أن يتقى الله أن يغضب عليه ، فإنه إن يغضب عليه فلا يأذن لأحد فى شفاعته ، لأن الذنوب منقسمة إلى ما يوجب المقت فلا يؤذن فى الشفاعة له ، وإلى مايعفى عنه بسبب الشفاعة، كالذنوب عند ملوك الدنيا فإن كل ذى مكانة عند الملك لايقدر على الشفاعة فيما اشتدّ عليه غضب الملك ، فمن الذنوب مالا تنجى منه الشفاعة وعنه العبارة بقوله تعالى ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ وبقوله ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه ﴾ وبقوله ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ وبقوله ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ وإذا انقسمت الذنوب إلا مايشفع فيه وإلى مالا يشفع فيه وجب الخوف والإشفاق لامحالة ، ولو كان ذنب تقبل فيه الشفاعة لما أمر قريشا بالطاعة ولما نهى رسول صلى الله عليه وسلم فاطمة رضى الله عنها عن المعصية ، ولكان يأذن لها فى اتباع الشهوات لتكمل لذاتها فى الدنيا ثم يشفع لها فى الآخرة لتكمل لذاتها فى الآخرة . فالانهماك فى الذنوب وترك التقوى اتكالا على رجاء الشفاعة يضاهى انهماك المريض فى شهواته اعتمادا على طبيب حاذق قريب مشفق من اب أو أخ أو غيره ، وذلك جهل لأن سعى الطبيب وهمته وحذقه تنفع فى إزالة بعض الأمراض لا فى كلها ، فلا يجوز ترك الحمية مطلقا اعتمادا على مجرد الطب ، بل للطبيب أثر على الجملة ولكن فى الأمراض الخفيفة وعند غلبة اعتدال المزاج . فهكذا ينبغى أن تفهم عناية الشفعاء من الأنبياء والصلحاء للأقارب والأجانب ، فإنه كذلك قطعا ، وذلك لا يزيل الخوف والحذر ، وكيف يزيل وخير الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه وقد كانوا يتمنون أن يكونوا بهائم من خوف الآخرة مع كمال تقواهم وحسن أعمالهم وصفاء قلوبهم وما سمعوه من وعد رسول صلى الله عليه وسلم إياهم بالجنة خاصة وسائر المسلمين بالشفاعة عامة ولم يتكلوا عليه ولم يفارق الخوف والخشوع قلوبهم ؟ فكيف يعجب بنفسه ويتكل على الشفاعة من ليس له مثل صحبتهم وسابقتهم ؟

(الخامس) العجب بنسب السلاطين الظلمة وأعوانهم دون نسب الدين والعلم . وهذا غاية الجهل ، وعلاجه أن يتفكر فى مخازيهم وما جرى لهم من الظلم على عباد الله والفساد فى دين الله وأنهم الممقوتون عند الله تعالى ، ولو نظر إلى صورهم فى النار وأنتانهم وأقذارهم لاستنكف منهم ولتبرأ من الانتساب إليهم ، ولأنكر على من نسبه إليهم استقذارا واستحقارا لهم ، ولو انكشف له ذلهم فى القيامة وقد تعلق الخصماء بهم والملائكة آخذون بنواصيهم يجرونهم على وجوههم إلى جهنم فى مظالم العباد لتبرأ إلى الله منهم ، ولكان انتسابه إلى الكلب والخنزير أحب إليه من الانتساب إليهم ، فحق أولاد الظلمة إن عصمهم الله من ظلمهم أن يشكروا الله تعالى على سلامة دينهم ويستغفروا لآبائهم إن كانوا مسلمين ! فأما العجب فجهل محض .

---

(١) حديث : قوله بعد قوله المتقدم لفاطمة وصفية « ألا ان لكما رحما سأبلها ببلالها » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ « غير أن لكم رحما سأبلها ببلالها » (٢) حديث « أترجو سليم شفاعتى ولاترجوها بنو عبدالمطلب » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث عبد الله بن جعفر وفيه أصيرم بن حوشب عن اسحاق بن واصل وكلاهما ضعيف جدا .

(السادس) العجب بكثرة العدد من الأولاد والخدم والغلمان والعشيرة والأقارب والأنصار والأتباع كما قال الكفار ﴿ نحن أكثر أموالا وأولادا ﴾ وكما قال المؤمنون يوم حنين : لانغلب اليوم من قلة ، وعلاجه ماذكرناه فى الكبر وهو أن يتفكر فى ضعفه وضعفهم وأن كلهم عبيد عجزة لايملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا . ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴾ ثم كيف يعجب بهم وأنهم سيفترقون عنه إذا مات فيدفن فى قبره ذليلا مهينا وحده لا يرافقه أهل ولا ولد ولا قريب ولا حميم ولا عشير ، فيسلمونه إلى البلى والحيات والعقارب والديدان ولا يغنون عنه شيئا وفى أحوج أوقاته إليهم ، وكذلك يهربون منه يوم القيامة ﴿ يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ﴾ الآية . فأى خير فيمن يفارقك فى أشد أحوالك ويهرب منك ؟ وكيف تعجب به ولا ينفعك فى القبر والقيامة وعلى الصراط إلا عملك وفضل الله تعالى ؟ فكيف تتكل على من لا ينفعك ، وتنسى نعم من يملك نفعك وضرك وموتك وحياتك .

(السابع) العجب بالمال كما قال تعالى إخبارا عن صاحب الجنتين إذ قال ﴿ أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا ﴾ ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا غنيا جلس بجنبه فقير فانقبض عنه وجمع ثيابه فقال عليه السلام « أخشيت أن يعدو إليك فقره [١] » وذلك للعجب بالغنى ،وعلاجه أن يتفكر فى آفات المال وكثرة حقوقه وعظيم غوائله ، وينظر إلى فضيلة الفقراء وسبقهم إلى الجنة فى القيامة ، وإلى أن المال غاد ورائح ولا أصل له ، وإلى أن فى اليهود من يزيد عليه فى المال وإلى قوله عليه الصلاة والسلام « بينما رجل يتبختر فى حلة له قد أعجبته نفسه إذ أمر الله الأرض فأخذته فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة [٢] » وأشار به إلى عقوبة إعجابه بماله ونفسه . وقال أبو ذر ، كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فقال لى « يا أبا ذر ارفع رأسك » فرفعت رأسى فإذا رجل عليه ثياب جياد ثم قال « ارفع رأسك » فرفعت رأسى فإذا رجل عليه ثياب خلقة فقال لى « يا أبا ذر هذا عند الله خير من قراب الأرض مثل هذا [٣] » وجميع ماذكرناه فى كتاب الزهد وكتاب ذم الدنيا وكتاب ذم المال يبين حقارة الأغنياء وشرف الفقراء عند الله تعالى ، فكيف يتصور من المؤمن أن يعجب بثروته ؟ بل لا يخلو المؤمن عن خوف من تقصيره فى القيام بحقوق المال فى أخذه من حله ووضعه فى حقه ، ومن لا يفعل ذلك فمصيره إلى الخزى والبوار فكيف يعجب بماله ؟

(الثامن) العجب بالرأى الخطأ . قال الله تعالى ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ﴾ وقال تعالى ﴿ وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن ذلك يغلب على آخر هذه الأمة [٤] وبذلك هلكت الأمم السالفة إذ افترقت فرقا فكل معجب برأيه ﴿ وكل حزب بما لديهم فرحون ﴾ وجميع أهل البدع والضلال إنما أصروا عليها لعجبهم بآرائهم والعجب بالبدعة هو استحسان ما يسوق إليه الهوى والشهوة مع ظن كونه حقا ، وعلاج هذا العجب أشد من علاج غيره لأن صاحب الرأى الخطأ جاهل بخطئه ولو عرفه لتركه ، ولا يعالج الداء الذى لا يعرف والجهل داء لا يعرف فتعسر مداواته جدا . لأن العارف يقدر على أن يبين للجاهل جهله ويزيله

---

(١) حديث : رأى النبي صلى الله عليه وسلم رجلا غنيا جلس بجنبه فقير فانقبض منه ... الحديث . رواه أحمد فى الزهد .
(٢) حديث « بينما رجل فى حلة قد أعجبته نفسه ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم .
(٣) حديث أبي ذر : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فقال لى « ياأبا ذر ارفع رأسك » فرفعت رأسى ... الحديث . وفيه « هذا عند الله خير من قراب الأرض مثل هذا » أخرجه ابن حبان فى صحيحه .
(٤) حديث « أنه يغلب على آخر هذه الأمة الإعجاب بالرأى » هو حديث أبى ثعلبة المتقدم « فإذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك » وهو عند أبى داود والترمذى .

عنه ، إلا إذا كان معجبا برأيه وجهله فإنه لا يصغى إلى العارف ويتهمه ، فقد سلط الله عليه بلية تهلكه وهو يظنها نعمة فكيف يمكن علاجه وكيف يطالب الهرب مما هو سبب سعادته فى اعتقاده ؟ وإنما علاجه على الجملة أن يكون متهما لرأيه أبدا لا يغتر به إلا أن يشهد له قاطع من كتاب أو سنة أو دليل عقلى صحيح جامع لشروط الأدلة ولن يعرف الإنسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكامن الغلط فيها إلا بقريحة تامة وعقل ثاقب وجد وتشمر فى الطلب وممارسة للكتاب والسنة ومجالسة لأهل العلم طول العمر ومدارسة للعلوم ، ومع ذلك فلا يؤمن عليه الغلط فى بعض الأمور ، والصواب لمن لم يتفرغ لاستغراق عمره فى العلم أن لا يخوض فى المذاهب ولا يصغى إليها ولا يسمعها ، ولكن يعتقد أن الله تعالى واحد لا شريك له وأنه ﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾ وأن رسوله صادق فيما أخبر به ويتبع سنة السلف ، ويؤمن بجملة ما جاء به الكتاب والسنة من غير بحث وتنقير وسؤال عن تفصيل ، بل يقول آمنا وصدقنا ويشتغل بالتقوى واجتناب المعاصى وأداء الطاعات والشفقة على المسلمين وسائر الأعمال ، فإن خاض فى المذاهب والبدع والتعصب فى العقائد هلك من حيث لا يشعر . هذا حق كل من عزم على أن يشتغل فى عمره بشىء غير العلم ، فأما الذى عزم على التجرد للعلم فأول مهم له معرفة الدليل وشروطه وذلك مما يطول الأمر فيه ، والوصول إلى اليقين والمعرفة فى أكثر المطالب شديد لا يقدر عليه إلا الأقوياء المؤيدون بنور الله تعالى وهو عزيز الوجود جدا فنسأل الله تعالى العصمة من الضلال ونعوذ به من الاغترار بخيالات الجهال .

تم كتاب ذم الكبر والعجب والحمد لله وحده وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتاب ذم الغرور

وهو الكتاب العاشر من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى بيده مقاليد الأمور ، وبقدرته مفاتيح الخيرات والشرور ، مخرج أوليائه من الظلمات إلى النور ، ومورد أعدائه ورطات الغرور ، والصلاة على محمد مخرج الخلائق من الديجور ، وعلى آله وأصحابه الذين لم تغرهم الحياة الدنيا ولم يغرهم بالله الغرور ، صلاة تتوالى على ممر الدهور ومكر الساعات والشهور .

أما بعد : فمفتاح السعادة التيقظ والفطنة ، ومنبع الشقاوة الغرور والغفلة فلا نعمة لله على عباده أعظم من الإيمان والمعرفة ، ولا وسيلة إليه سوى انشراح الصدر بنور البصيرة ، ولا نقمة أعظم من الكفر والمعصية ، ولا داعى إليهما سوى عمى القلب بظلمة الجهالة . فالأكياس وأرباب البصائر قلوبهم ﴿ كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور ﴾ والمغترون قلوبهم ﴿ كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾ فالأكياس هم الذين أراد الله أن يهديهم فشرح صدورهم للإسلام والهدى ، والمغترون هم الذين أراد الله أن يضلهم فجعل صدرهم ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء . والمغرور هو الذى لم تنفتح بصيرته ليكون بهداية نفسه كفيلا وبقى فى العمى فاتخذ الهوى قائدا والشيطان

دليلا ﴿ ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ﴾ وإذا عرف أن الغرور هو أم الشقاوات ومنبع المهلكات فلا بد من شرح مداخله ومجاريه وتفصيل ما يكثر من وقوع الغرور فيه ، ليحذره المريد بعد معرفته فيتقيه ، فالموفق من العباد من عرف مداخل الآفات والفساد فأخذ منها حذره وبنى على الحزم والبصيرة أمره .

ونحن نشرح أجناس مجارى الغرور وأصناف المغترين من القضاة والعلماء والصالحين الذين اغتروا بمبادئ الأمور ، الجميلة ظواهرها القبيحة سرائرها ، ونشير إلى وجه اغترارهم بها وغفلتهم عنها ، فإن ذلك وإن كان أكثر مما يحصى ولكن يمكن التنبيه على أمثلة تغنى عن الاستقصاء ، وفرق المغترين كثيرة ، ولكن يجمعهم أربعة أصناف (الصنف الأول) من العلماء (الصنف الثانى) من العباد (الصنف الثالث) من المتصوفة (الصنف الرابع) من أرباب الأموال . والمغتر من كل صنف فرق كثيرة وجهات غرورهم مختلفة ، فمنهم من رأى المنكر معروفا كالذى يتخذ المسجد ويزخرفها من المال الحرام ، ومنهم من لم يميز بين ما يسعى فيه لنفسه وبين ما يسعى فيه لله تعالى كالواعظ الذى غرضه القبول والجاه ، ومنهم من يترك الأهم ويشتغل بغيره ، ومنهم من يترك الفرض ويشتغل بالنافلة ، ومنهم من يترك اللباب ويشتغل بالقشر ، كالذى يكون همه فى الصلاة مقصورا على تصحيح مخارج الحروف إلى غير ذلك من مداخل لا تتضح إلا بتفصيل الفرق وضرب الأمثلة . ولنبدأ أولا بذكر غرور العلماء . ولكن بعد بيان ذم الغرور وبيان حقيقته وحده .

بيان ذم الغرور وحقيقته وأمثلته

اعلم أن قوله تعالى ﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ وقوله تعالى ﴿ ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى ﴾ الآية . كاف فى ذم الغرور ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حبذا نوم الأكياس وفطرهم كيف يغبنون سهر الحمقى واجتهادهم ولمثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين أفضل من ملء الأرض من المغترين »[1] وقال صلى الله عليه وسلم « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله »[2] ، وكل ما ورد فى فضل العلم وذم الجهل فهو دليل على ذم الغرور ، لأن الغرور عبارة عن بعض أنواع الجهل ، إذ الجهل هو أن يعتقد الشىء ويراه على خلاف ما هو به ، والغرور هو جهل إلا أن كل جهل ليس بغرور ، بل يستدعى الغرور : مغرورا فيه مخصوصا ومغرورا به وهو الذى يغره . فمهما كان المجهول المعتقد شيئا يوافق الهوى وكان السبب الموجب للجهل شبهة ومخيلة فاسدة يظن أنها دليل ولا تكون دليلا سمى الجهل الحاصل به غرورا . فالغرور هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ، ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان فمن اعتقد أنه على خير إما فى العاجل أو فى الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور ، وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم مخطئون فيه ، فأكثر الناس إذن مغرورون وإن اختلفت أصناف غرورهم واختلفت درجاتهم ، حتى كان غرور بعضهم أظهر وأشد من بعض ، وأظهرها وأشدها غرور الكفار وغرور العصاة والفساق فنورد لها أمثلة لحقيقة الغرور .

كتاب ذم الغرور

(١) حديث « حبذا نوم الأكياس وفطرهم ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب اليقين من قول أبى الدرداء بنحوه وفيه انقطاع .وفى بعض الروايات : أبى الورد ، موضع أبى الدرداء ولم أجده مرفوعا (٢) حديث « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ... الحديث » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث شداد بن أوس

(المثال الأول) غرور الكفار ، فمنهم من غرته الحياة الدنيا ومنهم من غره بالله الغرور ، أما الذين غرتهم الحياة الدنيا : فهم الذين قالوا : النقد خير من النسيئة والدنيا نقد والآخرة نسيئة فهى إذن خير فلا بد من إيثارها ، وقالوا : اليقين خير من الشك ولذات الدنيا يقين ولذات الآخرة شك فلا نترك اليقين بالشك . وهذه أقيسة فاسدة تشبه قياس ابليس حيث قال ﴿ أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾ وإلى هؤلاء الإشارة بقوله تعالى ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ﴾ وعلاج هذا الغرور إما بتصديق الإيمان وإما بالبرهان ؛ أما التصديق بمجرد الإيمان فهو أن يصدق الله تعالى فى قوله ﴿ ماعندكم ينفد وما عند الله باق ﴾ وفى قوله عز وجل (وما عند الله خير) وقوله (والآخرة خير وأبقى) وقوله (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) وقوله (فلا تغرنكم الحياة الدنيا) وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك طوائف من الكفار فقلدوه وصدقوه وآمنوا به ولم يطالبوه بالبرهان [1] ، ومنهم من قال : نشدتك الله أبعثك الله رسولا ؟ فكان يقول « نعم » فيصدق [2] وهذا إيمان العامة وهو يخرج من الغرور ، وينزل هذا منزلة تصديق الصبى والده فى أن حضور المكتب خير من حضور الملعب مع أنه لايدرى وجه كونه خيرا . وأما المعرفة بالبيان والبرهان فهو أن يعرف وجه فساد هذا القياس الذى نظمه فى قلبه الشيطان ، فإن كل مغرور فلغروره سبب ، وذلك السبب هو دليل وكل دليل فهو نوع قياس يقع فى النفس ويورث السكون إليه وإن كان صاحبه لايشعر به ولا يقدر على نظمه بألفاظ العلماء . فالقياس الذى نظمه الشيطان فيه أصلان (أحدهما) أن الدنيا نقد والآخرة نسيئة وهذا صحيح (والآخر) قوله : إن النقد خير من النسيئة ، وهذا محل التلبيس فليس الأمر كذلك ، بل إن كان النقد مثل النسيئة فى المقدار والمقصود فهو خير وإن كان أقل منها فالنسيئة خير ، فإن الكافر المغرور يبذل فى تجارته درهما ليأخذ عشرة نسيئة ولا يقول النقد خير من النسيئة فلا أتركه ، وإذا حذره الطبيب الفواكه ولذائذ الأطعمة ترك ذلك فى الحال خوفا من ألم المرض فى المستقبل ؛ فقد ترك النقد ورضى بالنسيئة . والتجار كلهم يركبون البحار ويتعبون فى الأسفار نقدا لأجل الراحة والربح نسيئة ، فإن كان عشرة فى ثانى الحال خيرا من واحد فى الحال فأنسب لذة الدنيا من حيث مدتها إلى مدة الآخرة ، فإن أقصى عمر الإنسان مائة سنة وليس هو عشر عشير من جزء من ألف ألف جزء من الآخرة . فكأنه ترك واحدا ليأخذ ألف ألف بل ليأخذ مالا نهاية له ولا حد وإن نظر من حيث النوع رأى لذات الدنيا مكدرة مشوبة بأنواع المنغصات ولذات الآخرة صافية غير مكدرة ، فإذن قد غلط فى قوله : النقد خير من النسيئة ، فهذا غرور منشؤه قبول لفظ عام مشهور أطلق وأريد به خاص ، فغفل به المغرور عن خصوص معناه . فإن من قال : النقد خير من النسيئة ، أراد به خيرا من نسيئة هى مثله وإن لم يصرح به .

وعند هذا يفزع الشيطان إلى القياس الآخر وهو : أن اليقين خير من الشك إذاً الآخرة شك . وهذا القياس أكثر فساداً من الأول لأن كلا أصليه باطل ، إذ اليقين خير من الشك إذا كان مثله ، وإلا فالتاجر فى تعبه على يقين

---

(١) حديث : تصديق بعض الكفار بما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وإيمانهم من غير مطالبة بالبرهان هو مشهور فى السنن ، من ذلك قصة إسلام الأنصار وبيعتهم وهى عند أحمد من حديث جابر وفيه : حتى بعثنا الله إليه من يثرب فآويناه وصدقناه فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه . الحديث » وهى عند أحمد بإسناد جيد .

(٢) حديث : قول من قال له نشدتك الله أبعثك رسولا ؟ فيقول « نعم » فيصدق . متفق عليه من حديث أنس فى قصة ضمام ابن ثعلبة وقوله للنبى صلى الله عليه وسلم آلله أرسلك للناس كلهم ؟ فقال « اللهم نعم » وفى آخره : فقال الرجل آمنت بما جئت به وللطبرانى من حديث ابن عباس فى ضمام قال : نشدتك به أهو أرسلك بما أتتنا كتبك وأتتنا رسلك أن نشهد أن لا إله إلا الله وأن ندع اللات والعزى ؟ قال « نعم » الحديث .

وفى ربحه على شك ، والمتفقه فى جهاده على يقين وفى إدراكه رتبة العلم على شك والصياد فى تردده فى المقتنص على يقين وفى الظفر بالصيد على شك ، وكذا الحزم دأب العقلاء بالاتفاق وكل ذلك ترك اليقين بالشك ، ولكن التاجر يقول : إن لم أتجر بقيت جائعاً وعظم ضررى ، وإن اتجرت كان تعبى قليلا وربحى كثيرا ؛ وكذلك المريض يشرب الدواء البشع الكريه وهو من الشفاء على شك ومن مرارة الدواء على يقين ، ولكن يقول : ضرر مرارة الدواء قليل بالإضافة إلى ما أخافه من المرض والموت ، فكذلك من شك فى الآخرة فواجب عليه بحكم الحزم أن يقول : أيام الصبر قلائل وهو منتهى العمر بالإضافة إلى مايقال من أمر الآخرة ، فان كان ماقيل فيه كذبا ؛ فما يفوتنى إلا التنعم أيام حياتى وقد كنت فى العدم من الأزل إلى الآن لا أتنعم ، فأحسب أنى بقيت فى العدم . وإن كان ماقيل صدقا ، فأبقى فى النار أبد الآباد وهذا لايطاق . ولهذا قال على كرم الله وجهه لبعض الملحدين : إن كان ماقلته حقا فقد تخلصت وتخلصنا ، وإن كان ماقلناه حقا فقد تخلصنا وهلكت : وما قال هذا عن شك منه فى الآخرة ولكن كلم الملحد على قدر عقله وبين له أنه وإن لم يكن متيقنا فهو مغرور .

وأما الأصل الثانى من كلامه : وهو أن الآخرة شك ، فهو أيضا خطأ بل ذلك يقين عند المؤمنين وليقينه مدركان .

أحدهما : الإيمان والتصديق تقليداً للأنبياء والعلماء ، وذلك أيضا يزيل الغرور وهو مدرك يقين العوام وأكثر الخواص ، ومثالهم مثال مريض لايعرف دواء علته ، وقد اتفق الأطباء وأهل الصناعة من عند آخرهم على أن دواءه النبت الفلانى فإنه يطمئن نفس المريض إلى تصديقهم ولا يطالبهم بتصحيح ذلك بالبراهين الطبية ، بل يثق بقولهم ويعمل به ، ولو بقى سوادى أو معتوه يكذبهم فى ذلك وهو يعلم بالتواتر وقرائن الأحوال أنهم أكثر منه عددا وأغزر منه فضلا وأعلم منه بالطب ، بل لاعلم له بالطب ، فيعلم كذبه بقولهم ولا يعتقد كذبهم بقوله ، ولا يغتر فى علمهم بسببه ، ولو اعتمد قوله وترك قول الأطباء كان معتوها مغرورا ، فكذلك من نظر إلى المقرين بالآخرة والمخبرين عنها والقائلين بأن التقوى هو الدواء النافع فى الوصول إلى سعادتها ، وجدهم خير خلق الله وأعلاهم رتبة فى البصيرة والمعرفة والعقل ، وهم الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء واتبعهم عليه الخلق على أصنافهم ،وشذ منهم آحاد من البطالين غلبت عليهم الشهوة ومالت نفوسهم إلى التمتع ، فعظم عليهم ترك الشهوات وعظم عليهم الاعتراف بأنهم من أهل النار فجحدوا الآخرة وكذبوا الأنبياء ، فكما أن قول الصبى وقول السوادى لايزيل طمأنينة القلب إلى ما اتفق عليه الأطباء فكذلك قول هذا الغبى الذى استرقته الشهوات لايشكك فى صحة أقوال الأنبياء والأولياء والعلماء . وهذا القدر من الإيمان كاف لجملة الخلق وهو يقين جازم يستحث على العمل لامحالة والغرور يزول به .

وأما المدرك الثانى لمعرفة الآخرة فهو الوحى للأنبياء والإلهام للأولياء ، ولا تظنن أن معرفة النبى عليه السلام لأمر الآخرة ولأمور الدين تقليد لجبريل عليه السلام بالسماع منه ، كما أن معرفتك تقليد للنبى صلى الله عليه وسلم حتى تكون معرفتك مثل معرفته ، وإنما يختلف المقلد فقط وهيهات ! فإن التقليد ليس بمعرفة بل هو اعتقاد صحيح والأنبياء عارفون ومعنى معرفتهم أنه كشف لهم حقيقة الأشياء كما هى عليها فشاهدوها بالبصيرة الباطنة كما تشاهد أنت المحسوسات بالبصر الظاهر ، فيخبرون عن مشاهدة لاعن سماع وتقليد . وذلك بأن يكشف لهم عن حقيقة الروح وأنه من أمر الله تعالى وليس المراد بكونه من أمر الله الأمر الذى يقابل النهى ؟ لأن ذلك الأمر كلام والروح ليس بكلام ، وليس المراد بالأمر الشأن حتى يكون المراد به أنه من خلق الله فقط لأن ذلك عام فى جميع المخلوقات

بل العالم عالمان: عالم الأمر وعالم الخلق ، ولله الخلق والأمر ، فالأجسام ذوات الكمية والمقادير من عالم الأمر الخلق إذا الخلق عبارة عن التقدير فى وضع اللسان ، وكل موجود منزه عن الكمية والمقدار فإنه من عالم الأمر وشرح ذلك سر الروح ، ولا رخصة فى ذكره لاستضرار أكثر الخلق بسماعه كسر القدر الذى منع من إفشائه. فمن عرف سر الروح فقد عرف نفسه ، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه ، وإذا عرف نفسه وربه عرف أنه أمر ربانى بطبعه وفطرته ، وأنه فى العالم الجسمانى غريب وأن هبوطه إليه لم يكن بمقتضى طبعه فى ذاته بل بأمر عارض غريب من ذاته وذلك العارض الغريب ورد على آدم صلى الله عليه وسلم وعبر عنه بالمعصية وهى التى حطته عن الجنة التى هى أليق به بمقتضى ذاته فإنها فى جوار الرب تعالى ، وأنه أمر ربانى وحنينه إلى جوار الرب تعالى له طبعى ذاتى ، إلا أن يصرفه عن مقتضى طبعه عوارض العالم الغريب من ذاته فينسى عند ذلك نفسه وربه . ومهما فعل ذلك فقد ظلم نفسه إذ قيل له ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾ أى الخارجون عن مقتضى طبعهم ومظنة استحقاقهم . يقال : فسقت الرطبة عن كامها ؛ إذا خرجت عن معدنها الفطرى . وهذه إشارة إلى أسرار يهتز لاستنشاق روائحها العارفون وتشمئز من سماع ألفاظها القاصرون فإنها تضر بهم كما تضر رياح الورد بالجعل ، وتبهر أعينهم الضعيفة كما تبهر الشمس أبصار الخفافيش . وانفتاح هذا الباب من سر القلب إلى عالم الملكوت يسمى معرفة وولاية ، ويسمى صاحبه وليا وعارفا ، وهى مبادى مقامات الأنبياء . وآخر مقامات الأولياء أول مقامات الأنبياء

ولنرجع إلى الغرض المطلوب فالمقصود أن غرور الشيطان بأن الآخرة شك يدفع إما بيقين تقليدى ، وأما ببصيرة ومشاهدة من جهة الباطن ، والمؤمنين بألسنتهم وبعقائدهم إذا ضيعوا أوامر الله تعالى وهجروا الأعمال الصالحة ولابسوا الشهوات والمعاصى فهم مشاركون للكفار فى هذا الغرور لأنهم آثروا الحياة الدنيا على الآخرة ، نعم أمرهم أخف لأن أصل الإيمان يعصمهم عن عقاب الأبد فيخرجون من النار ولو بعد حين ، ولكنهم أيضا من المغرورين فإنهم اعترفوا بأن الآخرة خير من الدنيا ولكنهم مالوا إلى الدنيا وآثروها ، ومجرد الإيمان لا يكفى للفوز قال تعالى ﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾ وقال تعالى ﴿ إن رحمت الله قريب من المحسنين ﴾ ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه [1]» وقال تعالى ﴿ والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ فوعد المغفرة فى جميع كتاب الله تعالى منوط بالإيمان والعمل الصالح جميعا لا بالإيمان وحده ، فهؤلاء أيضا مغرورون أعنى المطمئنين إلى الدنيا الفرحين بها المترفين بنعيمها المحبين لها . الكارهين للموت خيفة فوات لذات الدنيا دون الكارهين له خيفة لما بعده فهذا مثال الغرور بالدنيا من الكفار والمؤمنين جميعا .

ولنذكر للغرور بالله مثالين من غرور الكافرين والعاصين . فأما غرور الكفار بالله : فمثاله قول بعضهم فى أنفسهم وبألسنتهم : إنه لو كان لله من معاد فنحن أحق به من غيرنا ونحن أوفر حظا فيه وأسعد حالا ، كما أخبر الله تعالى عنه من قول الرجلين المتحاورين إذ قال ﴿ وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا ﴾ وجملة أمرهما كما نقل فى التفسير : أن الكافر منهما بنى قصرا بألف دينار واشترى بستانا بألف دينار وخدما بألف دينار وتزوج امرأة على ألف دينار ، وفى ذلك كله يعظه المؤمن ويقول : اشتريت قصرا يفنى ويخرب ألا اشتريت قصرا فى الجنة لا يفنى ! واشتريت بستانا يخرب ويفنى ألا اشتريت بستانا فى الجنة لا يفنى وخدما لا يفنون ولا يموتون وزوجة من الحور العين لا تموت ! وفى كل ذلك يرد عليه الكافر ويقول : ما هناك شىء وما

---

(١) حديث « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه » متفق عليه من حديث ابن عمر وقد تقدم .

قيل من ذلك فهو أكاذيب ! وإن كان فليكونن لى فى الجنة خير من هذا . وكذلك وصف الله تعالى قول العاص ابن وائل إذ يقول ﴿ لأوتين مالا وولدا ﴾ فقال الله تعالى ردا عليه ﴿ أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا كلا ﴾ وروى عن خباب بن الأرت أنه قال : كان لى على العاص بن وائل دين فجئت أتقاضاه فلم يقض لى فقلت : إنى آخذه فى الآخرة ؛ فقال لى : إذا صرت إلى الآخرة فإن لى هناك مالا وولدا أقضيك منه . فأنزل الله تعالى قوله ﴿ أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا (١) ﴾ وقال الله تعالى ﴿ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى ﴾ وهذا كله من الغرور بالله.

وسببه قياس من أقيسة إبليس نعوذ بالله منه ، وذلك أنهم ينظرون مرة إلى نعم الله عليهم فى الدنيا فيقيسون عليها نعمة الآخرة ، وينظرون مرة إلى تأخير العذاب عنهم فيقيسون عليه عذاب الآخرة كما قال تعالى ﴿ ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول ﴾ فقال تعالى جوابا لقولهم ﴿ حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير ﴾ ومرة ينظرون إلى المؤمنين ؛ وهم فقراء شعث غبر فيزدرون بهم ويستحقرونهم ، فيقولون ﴿ أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ﴾ ويقولون ﴿ لو كان خيرا ماسبقونا إليه ﴾ وترتيب القياس الذى نظمه فى قلوبهم أنهم يقولون : قد أحسن الله إلينا بنعيم الدنيا ، وكل محسن فهو محب ، وكل محب فإنه يحسن أيضا فى المستقبل كما قال الشاعر :

لقد أحسن الله فيما مضى كذلك يحسن فيما بقى

وإنما يقيس المستقبل على الماضى بواسطة الكرامة والحب إذ يقول : لولا أنى كريم عند الله ومحبوب لما أحسن إلى . والتلبيس تحت ظنه أن كل محسن محب ، لابل تحت ظنه أنّ إنعامه عليه فى الدنيا إحسان ، فقد اغتر بالله إذ ظن أنه كريم عنده بدليل لايدل على الكرامة بل عند ذوى البصائر يدل على الهوان . ومثاله : أن يكون للرجل عبدان صغيران يبغض أحدهما ويحب الآخر ، فالذى يحبه يمنعه من اللعب ويلزمه المكتب ويحبسه فيه ليعلمه الأدب ، ويمنعه من الفواكه وملاذ الأطعمة التى تضره ، ويسقيه الأدوية التى تنفعه . والذى يبغضه يهمله ليعيش كيف يريد فيلعب ولايدخل المكتب ويأكل كل مايشتهى ، فيظن هذا العبد المهمل أنه عند سيده محبوب كريم لأنه مكنه من شهواته ولذاته وساعده على جميع أغراضه فلا يمنعه ولم يحجر عليه ، وذلك محض الغرور ، وهكذا نعيم الدنيا ولذتها فإنها مهلكات ومبعدات من الله ، فإن الله يحمى عبده من الدنيا وهو يحبه كما يحمى أحدكم مريضه من الطعام والشراب وهو يحبه (٢) ، هكذا ورد فى الخبر عن سيد البشر .

وكان أرباب البصائر إذا أقبلت عليهم الدنيا حزنوا وقالوا : ذنب عجلت عقوبته ورأوا ذلك علامة المقت والإهمال ، وإذا أقبل عليهم الفقر قالوا : مرحبا بشعار الصالحين . والمغرور إذا أقبلت عليه الدنيا ظن أنها كرامة من الله ، وإذا صرفت عنه ظن أنها هوان ، كما أخبر الله تعالى عنه إذ قال ﴿ فأما الإنسان إذا ماابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن ﴾ فأجاب الله عن ذلك ﴿ كلا ﴾ أى ليس كما قال إنما هو ابتلاء نعوذ بالله من شر البلاء ونسأل الله التثبيت ، فبين أنّ ذلك غرور . قال الحسن كذبهما جميعا بقوله ﴿ كلا ﴾ يقول ليس هذا بإكرامى ولا هذا بهوانى ، ولكنّ الكريم من أكرمته بطاعتى غنيا كان أو فقيرا ، والمهان من أهنته بمعصيتى غنيا كان أو فقيرا .

---

(١) حديث : خباب بن الأرت ، قال كان لى على العاص بن وائل دين فجئت أتقاضاه .. الحديث . فى نزول قوله تعالى ﴿ أفرأيت الذى كفر بآياتنا ﴾ الآية أخرجه البخارى ومسلم (٢) حديث « إن الله يحمى عبده من الدنيا وهو يحبه ... الحديث » أخرجه الترمذى وحسنه والحاكم وصححه من حديث قتادة بن النعمان .

وهذا الغرور علاجه معرفة دلائل الكرامة والهوان إما بالبصيرة أو بالتقليد (أما البصيرة) فبأن يعرف وجه كون الالتفات إلى شهوات الدنيا مبعد عن الله ووجه كون التباعد عنها مقربا إلى الله ويدرك ذلك بالإلهام فى منازل العارفين والأولياء ، وشرحه من جملة علوم المكاشفة ولا يليق بعلم المعاملة (وأما معرفته بطريق التقليد والتصديق) فهو أن يؤمن بكتاب الله تعالى ويصدق رسوله وقد قال تعالى ﴿ أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ﴾ وقال تعالى ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ وقال تعالى ﴿ فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذاهم مبلسون ﴾ وفى تفسير قوله تعالى ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ أنهم كلما أحدثوا ذنبا أحدثنا لهم نعمة ليزيد غرورهم وقال تعالى ﴿ إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ إلى غير ذلك مما ورد فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ، فمن آمن به تخلص من هذا الغرور فإن منشأ هذا الغرور الجهل بالله وبصفاته ، فإن من عرفه لا يأمن مكره ولا يغتر بأمثال هذه الخيالات الفاسدة ، وينظر إلى فرعون وهامان وقارون وإلى ملوك الأرض وما جرى لهم كيف أحسن الله إليهم ابتداء ثم دمرهم تدميرا ! فقال تعالى ﴿ هل تحس منهم من أحد ﴾ الآية وقد حذر الله تعالى من مكره واستدراجه فقال ﴿ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾ وقال تعالى ﴿ ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون ﴾ وقال عزوجل ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ وقال تعالى ﴿ إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا ﴾ فكما لا يجوز للعبد المهمل أن يستدل بإهمال السيد إياه وتمكينه من النعم على حب السيد ، بل ينبغى أن يحذر أن يكون ذلك مكرا منه وكيدا مع أن السيد لم يحذره مكر نفسه ، فبأن يجب ذلك فى حق الله تعالى مع تحذيره استدراجه أولى ، فإذن من أمن مكر الله فهو مغتر ، ومنشأ هذا الغرور أنه استدل بنعم الدنيا على أنه كريم عند ذلك المنعم ، واحتمل أن يكون ذلك دليل الهوان ولكن ذلك الاحتمال لا يوافق الهوى ، فالشيطان بواسطة الهوى يميل بالقلب إلى ما يوافقه وهو التصديق بدلالته على الكرامة وهذا هو حد الغرور .

(المثال الثانى) غرور العصاة من المؤمنين بقولهم : إن الله كريم وإنا نرجو عفوه ، واتكالهم على ذلك وإهمالهم الأعمال وتحسين ذلك بتسمية تمنيهم واغترارهم رجاء ، وظنهم أن الرجاء مقام محمود فى الدين وأن نعمة الله واسعة ورحمته شاملة وكرمه عميم ، وأين معاصى العباد فى بحار رحمته وإنا موحدون ومؤمنون ؟ فنرجوه بوسيلة الإيمان وربما كان مستند رجائهم التمسك بصلاح الآباء وعلو رتبتهم ، كاغترار العلوية بنسبهم ومخالفة سيرة آبائهم فى الخوف والتقوى والورع ، وظنهم أنهم أكرم على الله من آبائهم إذ آباؤهم مع غاية الورع والتقوى كانوا خائفين ، وهم مع غاية الفسق والفجور آمنون . وذلك نهاية الاغترار بالله تعالى . فقياس الشيطان للعلوية . أن من أحب إنسانا أحب أولاده وأن الله قد أحب آباءكم فيحبكم فلا تحتاجون إلى الطاعة ، وينسى المغرور أن نوحا عليه السلام أراد أن يستصحب ولده معه فى السفينة فلم يرد فكان من المغرقين ﴿ فقال رب إن ابنى من أهلى ﴾ فقال تعالى ﴿ يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ﴾ وأن إبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه فلم ينفعه . وأن نبينا صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى استأذن ربه فى أن يزور قبر أمه ويستغفر لها فأذن له فى الزيارة ولم يؤذن له فى الاستغفار ، فجلس يبكى على قبر أمه لرقته لها بسبب القرابة حتى أبكى من حوله (١) فهذا أيضا اغترار بالله تعالى وهذا لأن الله

(١) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم استأذن أن يزور قبر أمه ويستغفر لها فأذن له فى الزيارة ولم يؤذن له الاستغفار . الحديث أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة .

تعالى يحب المطيع ويبغض العاصى ، فكما أنه لايبغض الأب المطيع ببغضه للولد العاصى فكذلك لايحب الولد العاصى بحبه للأب المطيع ، ولو كان الحب يسرى من الأب إلى الولد لأوشك أن يسرى البغض أيضا بل الحق أن لاتزر وازرة وزر أخرى . ومن ظن أنه ينجو بتقوى أبيه كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه ويروى بشرب أبيه ، ويصير عالما بتعلم أبيه ويصل إلى الكعبة ويراها بمشى أبيه . فالتقوى فرض عين فلا يجزى فيه والد عن ولده شيئا وكذا العكس ، وعند الله جزاء التقوى ﴿ يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ﴾ إلا على سبيل الشفاعة لمن لم يشتد غضب الله عليه فيأذن فى الشفاعة له ـ كما سبق فى كتاب الكبر والعجب .

وإن قلت : فأين الغلط فى قول العصاة والفجار إن الله كريم وإنا نرجو رحمته ومغفرته ، وقد قال أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى خيرا ، فما هذا إلا كلام صحيح مقبول الظاهر فى القلوب ؟ فاعلم أن الشيطان لايغوى الإنسان إلا بكلام مقبول الظاهر مردود الباطن ، ولولا حسن ظاهره لما انخدعت به القلوب ، ولكن النبى صلى الله عليه وسلم كشف عن ذلك فقال « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله »[1] ، وهذا هو التمنى على الله تعالى غير الشيطان اسمه فسماه : رجاء ، حتى خدع به الجهال . وقد شرح الله الرجاء فقال ﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ﴾ يعنى أن الرجاء بهم أليق وهذا لأنه ذكر أن ثواب الآخرة أجر وجزاء على الأعمال قال الله تعالى ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ وقال تعالى ﴿ وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ﴾ أفترى أن من استؤجر على إصلاح أوان وشرط له أجرة عليها وكان الشارط كريما يفى بالوعد مهما وعد ولايخلف بل يزيد ، فجاء الأجير وكسر الأوانى وأفسد جميعها ثم جلس ينتظر الأجر ويزعم أن المستأجر كريم ، أفيراه العقلاء فى انتظاره متمنيا مغرورا أو راجيا ؟ وهذا للجهل بالفرق بين الرجاء والغرة . قيل للحسن : قوم يقولون نرجو الله ويضيعون العمل فقال : هيهات هيهات ! تلك أمانيهم يترجحون فيها ، من رجا شيئا طلبه ومن خاف شيئا هرب منه . وقال مسلم بن يسار : لقد سجدت البارحة حتى سقطت ثنيتاى ! فقال له رجل : إنا لنرجو الله ! فقال مسلم : هيهات هيهات ؟ من رجا شيئا طلبه ومن خاف شيئا هرب منه . وكما أن الذى يرجو فى الدنيا ولدا وهو بعد لم ينكح أو نكح ولم يجامع أو جامع ولم ينزل ! فهو معتوه فكذلك من رجا رحمة الله وهو لم يؤمن أو آمن ولم يعمل صالحا أو عمل ولم يترك المعاصى فهو مغرور . فكما أنه إذا نكح ووطىء وأنزل بقى مترددا فى الولد يخاف ويرجو فضل الله فى خلق الولد ودفع الآفات عن الرحم وعن الأم إلى أن يتم فهو كيس ، فكذلك إذا آمن وعمل الصالحات وترك السيئات وبقى مترددا بين الخوف والرجاء يخاف أن لايقبل منه وأن لايدوم عليه وأن يختم له بالسوء ، ويرجو من الله تعالى أن يثبته بالقول الثابت ويحفظ دينه من صواعق سكرات الموت حتى يموت على التوحيد ، ويحرس قلبه عن الميل إلى الشهوات بقية عمره حتى لايميل إلى المعاصى فهو كيس ، ومن عدا هؤلاء فهم المغرورون بالله ﴿ وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ـ ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ وعند ذلك يقولون كما أخبر الله عنهم ﴿ ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون ﴾ أى علمنا أنه كما لايولد إلا بوقاع ونكاح ولاينبت زرع إلا بحراثة وبث بذر ، فكذلك لايحصل فى الآخرة ثواب وأجر إلا بعمل صالح فارجعنا نعمل صالحا فقد علمنا الآن صدقك فى قولك ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ـ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير ﴾ أى ألم نسمعكم سنة الله فى عباده وأنه ﴿ توفى

(١) حديث : الكيس من دان نفسه تقدم قريبا .

كل نفس ما كسبت ﴾ وأن ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ فما الذى غركم بالله بعد أن سمعتم وعقلتم ؟ ﴿ قالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير ﴾ .

فإن قلت : فأين مظنة الرجاء وموضعه المحمود ؟ فاعلم أنه محمود فى موضعين :

أحدهما : فى حق العاصى المنهمك إذا خطرت له التوبة فقال له الشيطان : وأنى تقبل توبتك فيقنطه من رحمة الله تعالى ﴿ فيجب عند هذا أن يقمع القنوط بالرجاء ويتذكر ﴿ إنّ الله يغفر الذنوب جميعا ﴾ وأنّ الله كريم يقبل التوبة عن عباده وأنّ التوبة طاعة تكفر الذنوب قال الله تعالى ﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم وانيبوا إلى ربكم ﴾ أمرهم بالإنابة وقال تعالى ﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾ فإذا توقع المغفرة مع التوبة فهو راج ، وإن توقع المغفرة مع الإصرار فهو مغرور ، كما أن من ضاق عليه وقت الجمعة وهو فى السوق فخطر له أن يسعى إلى الجمعة فقال له الشيطان : إنك لاتدرك الجمعة فأقم على موضعك فكذب الشيطان ومر يعدو وهو يرجو أن يدرك الجمعة فهو راج ، وإن استمر على التجارة وأخذ يرجو تأخير الإمام للصلاة لأجله إلى وسط الوقت أو لأجل غيره أو لسبب من الأسباب التى لايعرفها فهو مغرور .

الثانى : أن تفتر نفسه عن فضائل الأعمال ويقتصر على الفرائض فيرجى نفسه نعيم الله تعالى وما وعد به الصالحين حتى ينبعث من الرجاء نشاط العبادة فيقبل على الفضائل ويتذكر قوله تعالى ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾ إلى قوله ﴿ أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ فالرجاء الأول : يقمع القنوط المانع من التوبة ، والرجاء الثانى : يقمع الفتور المانع من النشاط والتشمر ، فكل توقع حث على توبة أو على تشمر فى العبادة فهو رجاء ، وكل رجاء أوجب فتورا فى العبادة وركونا إلى البطالة فهو غرة ، كما إذا خطر له أن يترك الذنب ويشتغل بالعمل فيقول له الشيطان : مالك ولإيذاء نفسك وتعذيبها ولك رب كريم غفور رحيم ؟ فيفتر بذلك عن التوبة والعبادة فهو غرة ، وعند هذا واجب على العبد أن يستعمل الخوف فيخوف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه ويقول : إنه مع أنه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ، وإنه مع أنه كريم خلد الكفار فى النار أبد الآباد ، مع أنه لم يضره كفرهم ، بل سلط العذاب والمحن والأمراض والعلل والفقر والجوع على جملة من عباده فى الدنيا وهو قادر على إزالتها ، فمن هذه سنته فى عباده وقد خوفنى عقابه فكيف لا أخافه وكيف أغتر به ؟ .

فالخوف والرجاء قائدان وسائقان يبعثان الناس على العمل ، فما لايبعث على العمل فهو تمن وغرور . ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم وسبب إقبالهم على الدنيا وسبب إعراضهم عن الله تعالى وإهمالهم السعى للآخرة ، فذلك غرور فقد أخبر صلى الله عليه وسلم وذكر أن الغرور سيغلب على قلوب آخر هذه الأمة [1] وقد كان ماوعد به صلى الله عليه وسلم فقد كان الناس فى الأعصار الأول يواظبون على العبادات ويؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ، يخافون على أنفسهم وهم طول الليل والنهار فى طاعة الله يبالغون فى التقوى والحذر من الشبهات والشهوات ويبكون على أنفسهم فى الخلوات . وأما الآن فترى الخلق آمنين مسرورين مطمئنين غير خائفين مع إكبابهم على المعاصى وانهماكهم فى الدنيا وإعراضهم عن الله تعالى ، زاعمين أنهم واثقون بكرم الله تعالى وفضله ، راجون

(١) حديث « أن الغرور يغلب على آخر هذه الأمة » تقدم فى آخر ذم الكبر والعجب وهو حديث أبى ثعلبة . فى إعجاب كل ذى رأى برأيه .

لعفوه ومغفرته ، كأنهم يزعمون أنهم عرفوا من فضله وكرمه مالم يعرفه الأنبياء والصحابة والسلف الصالحون . فإن كان هذا الأمر يدرك بالمنى وينال بالهوينى فعلام إذن كان بكاء أولئك وخوفهم وحزنهم ؟ وقد ذكرنا تحقيق هذه الأمور فى كتاب الخوف والرجاء وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه معقل بن يسار « يأتى على الناس زمان يخلق فيه القرآن فى قلوب الرجال كما تخلق الثياب على الأبدان أمرهم كله يكون طمعا لا خوف معه ، إن أحسن أحدهم قال : يتقبل منى ، وإن أساء قال : يغفر لى [1] » فأخبر أنهم يضعون الطمع موضع الخوف لجهلهم بتخويفات القرآن وما فيه . وبمثله أخبر عن النصارى إذ قال تعالى ﴿ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا ﴾ ومعناه أنهم ﴿ ورثوا الكتاب ﴾ أى هم علماء ﴿ ويأخذون عرض هذا الأدنى ﴾ أى شهواتهم من الدنيا حراما كان أو حلالا . وقد قال تعالى ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ـ ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد ﴾ والقرآن من أوله إلى آخره تحذير وتخويف ، لا يتفكر فيه متفكر إلا ويطول حزنه ويعظم خوفه إن كان مؤمنا بما فيه . وترى الناس يهذونه هذا ، يخرجون الحروف من مخارجها ويتناظرون على خفضها ورفعها ونصبها وكأنهم يقرءون شعرا من أشعار العرب لا يهمهم الالتفات إلى معانيه والعمل بما فيه وهل فى العالم غرور يزيد على هذا ؟ فهذه أمثلة الغرور بالله وبيان الفرق بين الرجاء والغرور ، ويقرب منه غرور طوائف لهم طاعات ومعاص إلا أن معاصيهم أكثر ، وهم يتوقعون المغفرة ويظنون أنهم ترجح كفة حسناتهم مع أن ما فى كفة السيئات أكثر ، وهذا غاية الجهل فترى الواحد يتصدق بدراهم معدودة من الحلال والحرام ويكون ما يتناول من أموال المسلمين والشبهات أضعافه ، ولعل ما تصدق به من أموال المسلمين ! وهو يتكل عليه ويظن أن أكل ألف درهم حرام يقاومه التصدق بعشرة من الحرام أو الحلال ، وما هو إلا كمن وضع عشرة دراهم فى كفة ميزان وفى الكفة الأخرى ألفا وأراد أن يرفع الكفة الثقيلة بالكفة الخفيفة وذلك غاية جهله . نعم ومنهم من يظن أن طاعاته أكثر من معاصيه لأنه لا يحاسب نفسه ولا يتفقد معاصيه ، وإذا عمل طاعة حفظها واعتد بها كالذى يستغفر الله بلسانه أو يسبح الله فى اليوم مائة مرة ثم يغتاب المسلمين ويمزق أعراضهم ويتكلم بما لا يرضاه الله طول النهار من غير حصر وعدد ، ويكون نظره إلى عدد سبحته أنه استغفر الله مائة مرة وغفل عن هذيانه طول نهاره الذى لو كتبه لكان مثل تسبيحه مائة مرة أو ألف مرة ، وقد كتبه الكرام الكاتبون وقد أوعده الله بالعقاب على كل كلمة فقال ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ فهذا أبدا يتأمل فى فضائل التسبيحات والتهليلات ولا يلتفت إلى ما ورد من عقوبة المغتابين والكذابين والنمامين والمنافقين ، يظهرون من الكلام ما لا يضمرونه إلى غير ذلك من آفات اللسان . وذلك محض الغرور . ولعمرى لو كان الكرام الكاتبون يطلبون منه أجرة النسخ لما يكتبونه من هذيانه الذى زاد على تسبيحه لكان عند ذلك يكف لسانه حتى عن جملة من مهماته ، وما نطق به فى فتراته كان يعده ويحسبه ويوازنه بتسبيحاته ، حتى لا يفضل عليه أجرة نسخه ! فيا عجبا لمن يحاسب نفسه ويحتاط خوفا على قيراط يفوته فى الأجرة على النسخ ولا يحتاط خوفا من فوت الفردوس الأعلى ونعيمه ! ما هذه إلا مصيبة عظيمة لمن تفكر فيها ! لقد دفعنا إلى أمر إن شككنا فيه كنا من الكفرة الجاحدين وإن صدقنا به كنا من الحمقى المغرورين ! فما هذه أعمال من يصدق بما جاء به القرآن ، وإنا نبرأ إلى الله أن نكون من أهل الكفران فسبحان من صدنا عن التنبه واليقين مع هذا البيان ،

(١) حديث : معقل بن يسار « يأتى على الناس زمان يخلق فيه القرآن فى قلوب الرجال الحديث » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عباس نحوه بسند فيه جهالة ولم أره من حديث معقل .

وما أجدر من يقدر على تسليط مثل هذه الغفلة والغرور على القلوب أن يخشى ويتقى ولايغتر به اتكالا على أباطيل المنى وتعاليل الشيطان والهوى ، والله أعلم .

بيان أصناف المغترين وأقسام فرق كل صنف وهم أربعة أصناف

الصنف الأول : أهل العلم والمغترون منهم فرق :

(ففرقة) أحكموا العلوم الشرعية والعقلية وتعمقوا فيها واشتغلوا بها وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصى وإلزامها الطاعات ، واغتروا بعلمهم وظنوا أنهم عند الله بمكان وأنهم قد بلغوا من العلم مبلغا لايعذب الله مثلهم ، بل يقبل فى الخلق شفاعتهم ، وأنه لايطالبهم بذنوبهم وخطاياهم لكرامتهم على الله وهم مغرورون ، فإنهم لو نظروا بعين البصيرة علموا أن العلم علمان : علم معاملة ، وعلم مكاشفة ؛ وهو العلم بالله وبصفاته ، المسمى بالعادة : علم المعرفة .

فأما العلم بالمعاملة : كمعرفة الحلال والحرام ، ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة وكيفية علاجها والفرار منها ، فهى علوم لا تراد إلا للعمل ولولا الحاجة إلى العمل لم يكن لهذه العلوم قيمة ، وكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل . فمثال هذا : كمريض به علة لا يزيلها إلا دواء مركب من أخلاط كثيرة لا يعرفها إلا حذاق الأطباء ، فيسعى فى طلب الطبيب بعد أن هاجر عن وطنه حتى عثر على طبيب حاذق فعلمه الدواء وفصل له الأخلاط وأنواعها ومقاديرها ومعادنها التى منها تجتلب ، وعلمه كيفية دق كل واحد منها وكيفية خلطه وعجنه ، فتعلم ذلك وكتب منه نسخة حسنة بخط حسن ورجع إلى بيته وهو يكررها ويعلمها المرضى ولم يشتغل بشربها واستعمالها ، أفترى أن ذلك يغنى عنه من مرضه شيئا ؟ هيهات هيهات ! لو كتب منه ألف نسخة وعلمه ألف مريض حتى شفى جميعهم وكرره كل ليلة ألف مرة لم يغنه ذلك من مرضه شيئا ، إلا أن يزن الذهب ويشترى الدواء ويخلطه كما تعلم ويشربه ويصبر على مرارته ، ويكون شربه فى وقته وبعد تقديم الاحتماء وجميع شروطه ، وإذا فعل جميع ذلك فهو على خطر من شفائه فكيف إذا لم يشربه أصلا ؟ فمهما ظن أن ذلك يكفيه ويشفيه فقد ظهر غروره . وهكذا الفقيه الذى أحكم علم الطاعات ولم يعملها وأحكم علم المعاصى ولم يجتنبها وأحكم علم الأخلاق المذمومة وما زكى نفسه منها وأحكم علم الأخلاق المحمودة ولم يتصف بها فهو مغرور ، إذ قال تعالى ﴿قد أفلح من زكاها﴾ ولم يقل قد أفلح من تعلم كيفية تزكيتها وكتب علم ذلك وعلمه الناس ! وعند هذا يقول له الشيطان : لا يغرنك هذا المثال فإن العلم بالدواء لا يزيل المرض ، وإنما مطلبك القرب من الله وثوابه والعلم يجلب الثواب ، ويتلو عليه الأخبار الواردة فى فضل العلم . فإن كان المسكين معتوها مغرورا وافق ذلك مراده وهواه فاطمأن إليه وأهمل العمل ، وإن كان كيسا فيقول للشيطان : أتذكرنى فضائل العالم وتنسينى ما ورد فى العالم الفاجر الذى لا يعمل بعلمه كقوله تعالى ﴿فمثله كمثل الكلب﴾ وكقوله تعالى ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا﴾ فأى خزى أعظم من التمثيل بالكلب والحمار ؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم « من ازداد علما ولم يزدد هدى لم يزدد من الله إلا بعدا [1] » وقال أيضا « يلقى العالم فى النار فتندلق أقتابه فيدور بها فى النار كما يدور الحمار فى الرحى [2] » وكقوله عليه الصلاة والسلام « شر الناس العلماء السوء [3] » وقول أبى الدرداء : ويل للذى لا يعلم مرة ولو شاء الله لعلمه وويل للذى يعلم ولا يعمل سبع مرات ، أى أن العلم حجة عليه إذ يقال له : ماذا عملت فيما علمت وكيف قضيت شكر الله ؟

---

(١) حديث « من ازداد علما ولم يزدد هدى ... الحديث » تقدم فى العلم (٢) حديث « يلقى العالم فى النار فتندلق أقتابه ... الحديث » تقدم غير مرة (٣) حديث « شر الناس علماء السوء » تقدم فى العلم .

وقال صلى الله عليه وسلم « أشدّ الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه [1] ». فهذا وأمثاله مما أوردناه في كتاب العلم في باب علامة علماء الآخرة أكثر من أن يحصى ، إلا أن هذا فيما لا يوافق هوى العالم الفاجر ، وما ورد في فضل العلم يوافقه فيميل الشيطان قلبه إلى ما يهواه وذلك عين الغرور ، فإنه إن نظر بالبصيرة فمثاله ماذكرناه، وإن نظر بعين الإيمان فالذي أخبره بفضيلة العلم هو الذي أخبره بذم العلماء السوء وأن حالهم عند الله أشدّ من حال الجهال . فبعد ذلك اعتقاده أنه على خير مع تأكد حجة الله عليه غاية الغرور .

وأما الذي يدعى علوم المكاشفة : كالعلم بالله وبصفاته وأسمائه وهو مع ذلك يهمل العمل ويضيع أمر الله وحدوده فغروره أشدّ ، ومثاله مثال من أراد خدمة ملك فعرف الملك وعرف أخلاقه وأوصافه ولونه وشكله وطوله وعرضه وعادته ومجلسه ولم يتعرف ما يحبه ويكرهه وما يغضب عليه وما يرضى به ، أو عرف ذلك إلا أنه قصد خدمته وهو ملابس لجميع ما يغضب به عليه ، وعاطل عن جميع مايحبه من زى وهيئة وكلام وحركة وسكون ، فورد على الملك وهو يريد التقرب منه والاختصاص به متلطخاً بجميع ما يكرهه الملك ، عاطلا عن جميع مايحبه ، متوسلا إليه بمعرفته له ولنسبه واسمه وبلده وصورته وشكله وعادته في سياسة غلمانه ومعاملة رعيته . فهذا مغرور جدا إذ لو ترك جميع ما عرفه واشتغل بمعرفته فقط ومعرفة ما يكرهه ويحبه لكان ذلك أقرب إلى نيله المراد من قربه والاختصاص به ، بل تقصيره في التقوى واتباعه للشهوات يدل على أنه لم ينكشف له من معرفة الله إلا الأسامى دون المعانى ، إذ لو عرف الله حق معرفته لخشيه واتقاه . فلا يتصور أن يعرف الأسد عاقل ثم لا يتقيه ولا يخافه ، وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : خفني كما تخاف السبع الضاري . نعم من يعرف من الأسد لونه وشكله واسمه قد لا يخافه وكأنه ماعرف الأسد ، فمن عرف الله تعالى عرف من صفاته أنه يهلك العالمين ولا يبالى ، ويعلم أنه مسخر في قدرة من لو أهلك مثله آلافا مؤلفة وأبد عليهم العذاب أبد الآباد لم يؤثر ذلك فيه أثرا ولم تأخذه عليه رقة ولا اعتراه عليه جزع . ولذلك قال تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ وفاتحة الزبور « رأس الحكمة خشية الله » وقال ابن مسعود : كفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار بالله جهلا . واستفتى الحسن عن مسألة فأجاب فقيل له : إن فقهاءنا لايقولون ذلك ، فقال : وهل رأيت فقيها قط ؟ الفقيه القائم ليلة الصائم نهاره الزاهد في الدنيا . وقال مرة : الفقيه لايدارى ولايمارى ينشر حكمة الله فإن قبلت منه حمد الله وإن ردت عليه حمد الله . فإذن الفقيه من فقه عن الله أمره ونهيه وعلم من صفاته ماأحبه وما كرهه وهو العالم ﴿ ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ﴾ وإذا لم يكن بهذه الصفة فهو من المغرورين .

(وفرقة أخرى) أحكموا العلم والعمل فواظبوا على الطاعات الظاهرة وتركوا المعاصى ، إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا الصفات المذمومة عند الله من الكبر والحسد والرياء وطلب الرياسة والعلاء وإرادة السوء للأقران والنظراء وطلب الشهرة في البلاد والعباد ، وربما لم يعرف بعضهم أن ذلك مذموم فهو مكب عليها غير متحرز عنها ولا يلتفت إلى قوله صلى الله عليه وسلم « أدنى الرياء شرك [2] » وإلى قوله عليه السلام « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر [3] » وإلى قوله عليه الصلاة والسلام « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب [4] » وإلى قوله عليه الصلاة والسلام « حب الشرف والمال ينبتان النفاق كما ينبت الماء البقل [5] » إلى

---

(١) حديث « أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله تعالى بعلمه » تقدم فيه . (٢) حديث « أدنى الرياء شرك » تقدم في ذم الجاه والرياء (٣) حديث لايدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر » تقدم غير مرة (٤) حديث « الحسد يأكل الحسنات ... الحديث » تقدم في العلم وغيره (٥) حديث « حب الشرف والمال ينبتان النفاق في القلب ... الحديث » تقدم

غير ذلك من الأخبار التى أوردناها فى جميع ربع المهلكات فى الأخلاق المذمومة . فهؤلاء زينوا ظواهرهم وأهملوا بواطنهم ونسوا قوله صلى الله تعالى عليه وسلم « إن الله لاينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »(١) ، فتعهدوا الأعمال وما تعهدوا القلوب — والقلب هو الأصل — إذ لاينجو إلا من أتى الله بقلب سليم . ومثال هؤلاء كبئر الحش ظاهرها جص وباطنها نتن ، أو كقبور الموتى ظاهرها مزين وباطنها جيفة ، أو كبيت مظلم باطنه وضع سراج على سطحه فاستنار ظاهره وباطنه مظلم ، أو كرجل قصد الملك ضيافته إلى داره فجصص باب داره وترك المزابل فى صدر داره ، ولا يخفى أن ذلك غرور ، بل أقرب مثالى إليه : رجل زرع زرعا فنبت ونبت معه حشيش يفسده ، فأمر بتنقية الزرع عن الحشيش بقلعه من أصله ، فأخذ يجز رءوسه وأطرافه فلا تزال تقوى أصوله فتنبت ، لأن مغارس المعاصى هى الأخلاق الذميمة فى القلب ، فمن لايطهر القلب منها لاتتم له الطاعات الظاهرة إلا مع الآفات الكثيرة . بل هو كمريض ظهر به الجرب وقد أمر بالطلاء وشرب الدواء ، فالطلاء ليزيل ماعلى ظاهره والدواء ليقطع مادته من باطنه ، فقنع بالطلاء وترك الدواء ، وبقى يتناول مايزيد فى المادة ، فلا يزال يطلى الظاهر والجرب دائم به يتفجر من المادة التى فى الباطن .

(وفرقة أخرى) علموا أنّ هذه الأخلاق الباطنة مذمومة من جهة الشرع ، إلا أنهم لعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بذلك ، وإنما يبتلى به العوام دون من بلغ مبلغهم فى العلم ، فأما هم فأعظم عند الله من أن يبتليهم ، ثم إذا ظهر عليهم مخايل الكبر والرياسة وطلب العلو والشرف قالوا : ماهذا كبر وإنما هو طلب عز الدين وإظهار شرف العلم ونصرة دين الله وإرغام أنف المخالفين من المبتدعين ! وإنى لو لبست الدون من الثياب وجلست فى الدون من المجالس لشمت بى أعداء الدين وفرحوا بذلك ، وكان ذلى ذلا على الإسلام ونسى المغرور أن عدوّه الذى حذره منه مولاه هو الشيطان ، وأنه يفرح بما يفعله ويسخر به ، وينسى أنّ النبى صلى الله عليه وسلم بماذا نصر الدين وبماذا أرغم الكافرين ؟ ونسى ماروى عن الصحابة من التواضع والتبذل والقناعة بالفقر والمسكنة ، حتى عوتب عمر رضى الله عنه فى بذاذة زيه عند قدومه إلى الشام فقال : إناقوم أعزنا الله بالإسلام فلا نطلب العز فى غيره . ثم هذا المغرور يطلب عز الدين بالثياب الرقيقة من القصب والديبق والإبريسم — المحرّم — والخيول والمراكب ويزعم أنه يطلب به عز العلم وشرف الدين ! وكذلك مهما أطلق اللسان بالحسد فى أقرانه أو فيمن رد عليه شيئا من كلامه لم يظنّ بنفسه أنّ ذلك حسد ولكن قال : إنما هذا غضب للحق ورد على المبطل فى عدوانه وظلمه ، ولم يظن بنفسه الحسد ، حتى يعتقد أنه لو طعن فى غيره من أهل العلم أو منع غيره من رياسة وزوحم فيها هل كان غضبه وعداوته مثل غضبه الآن فيكون غضبه لله ؟ أم لايغضب مهما طعن فى عالم آخر ومنع ؟ بل ربما يفرح به فيكون غضبه لنفسه وحسده لأقرانه من خبث باطنه ، وهكذا يرائى بأعماله وعلومه وإذا خطر له خاطر الرياء قال : هيهات ! إنما غرضى من إظهار العلم والعمل اقتداء الخلق بى ليهتدوا إلى دين الله تعالى فيتخلصوا من عقاب الله تعالى ، ولا يتأمل المغرور أنه ليس يفرح باقتداء الخلق بغيره كما يفرح باقتدائه به ، فلو كان غرضه صلاح الخلق لفرح بصلاحهم على يد من كان ـ كمن له عبيد مرضى يريد معالجتهم فإنه لا يفرق بين أن يحصل شفاؤهم على يده أو على يد طبيب آخر وربما يذكر هذا له فلا يخليه الشيطان أيضا ويقول : إنما ذلك لأنهم إذا اهتدوا بى كان الأجر لى والثواب لى فإنما فرحى بثواب الله لا بقبول الخلق قولى ! هذا مايظنه

(١) حديث « إن الله لاينظر إلى صوركم ... الحديث » تقدم

بنفسه والله مطلع من ضميره على أنه لو أخبره نبي بأن ثوابه فى الخمول وإخفاء العلم أكثر من ثوابه فى الإظهار ، وحبس مع ذلك فى سجن وقيد بالسلاسل لاحتال فى هدم السجن وحل السلاسل حتى يرجع إلى موضعه الذى به تظهر رياسته من تدريس أو وعظ أو غيره ، وكذلك يدخل على السلطان ويتودد إليه ويثنى عليه ويتواضع له ، وإذا خطر له أن التواضع للسلاطين الظلمة حرام قال له الشيطان : هيهات ! إنما ذلك عند الطمع فى مالهم فأما أنت فغرضك أن تشفع للمسلمين وتدفع الضرر عنهم وتدفع شر أعدائك عن نفسك ! والله يعلم من باطنه أنه لو ظهر لبعض أقرانه قبول عند ذلك السلطان فصار يشفعه فى كل مسلم حتى دفع الضرر عن جميع المسلمين ثقل ذلك عليه ، ولو قدر على أن يقبح حاله عند السلطان بالطعن فيه والكذب عليه لفعل . وكذلك قد ينتهى غرور بعضهم إلى أن يأخذ من مالهم وإذا خطر له أنه حرام قال له الشيطان : هذا مال لا مالك له وهو لمصالح المسلمين وأنت إمام المسلمين وعالمهم وبك قوام الدين ! أفلا يحل لك أن تأخذ قدر حاجتك ؟ .

فيغتر بهذا التلبيس فى ثلاثة أمور (أحدها) فى أنه مال لا مالك له فإنه يعرف أنه يأخذ الخراج من المسلمين وأهل السواد ، والذين أخذ منهم أحياء وأولادهم وورثتهم أحياء ، وغاية الأمر وقوع الخلط فى أموالهم ، ومن غصب مائة دينار من عشرة أنفس وخالطها فلا خلاف فى أنه مال حرام ، ولا يقال هو مال لا مالك له ، ويجب أن يقسم بين العشرة ويرد إلى كل واحد عشرة ، وإن كان مال كل واحد قد اختلط بالآخر (الثانى والثالث) فى قوله إنك من مصالح المسلمين وبك قوام الدين ؛ ولعل الذين فسد دينهم واستحلوا أموال السلاطين ورغبوا فى طلب الدنيا والاقبال على الرياسة والإعراض عن الآخرة بسببه أكثر من الذين زهدوا فى الدنيا ورفضوها وأقبلوا على الله فهو على التحقيق دجال الدين وقوام مذهب الشياطين لا إمام الدين . إذ الإمام : هو الذى يقتدى به فى الإعراض عن الدنيا والإقبال على الله كالأنبياء عليهم السلام والصحابة وعلماء السلف . والدجال : هو الذى يقتدى به فى الإعراض عن الله والإقبال على الدنيا . فلعل موت هذا انفع للمسلمين من حياته وهو يزعم أنه قوام الدين . ومثله كما قال المسيح عليه السلام للعالم السوء : إنه كصخرة وقعت فى فم الوادى فلا هى تشرب الماء ولا هى تترك الماء يخلص إلى الزرع . وأصناف غرور أهل العلم فى هـــذه الأعصار المتأخرة خارجة عن الحصر وفيما ذكرناه تنبيه بالقليل على الكثير .

(وفرقة أخرى) أحكموا العلم وطهروا الجوارح وزينوها بالطاعات واجتنبوا ظواهر المعاصى ، وتفقدوا أخلاق النفس وصفات القلب من الرياء والحسد والحقد والكبر وطلب العلو ، وجاهدوا أنفسهم فى التبرى منها وقلعوا من القلوب منابتها الجلية القوية ، ولكنهم بعد مغرورون ؛ إذ بقيت فى زوايا القلب من خفايا مكايد الشيطان وخبايا خداع النفس مادق وغمض مدركه فلم يفطنوا لها واهملوها ، وإنما مثاله من يريد تنقية الزرع من الحشيش ، فدار عليه وفتش عن كل حشيش رآه فقلعه ، إلا أنه لم يفتش على مالم يخرج رأسه بعد من تحت الأرض وظن أن الكل قد ظهر وبرز ، وكان قد نبت من أصول الحشيش شعب لطاف فانبسطت تحت التراب فأهملها وهو يظن أنه قد اقتلعها ، فإذا هو بها فى غفلته وقد نبتت وقويت وأفسدت أصول الزرع من حيث لا يدرى . فكذلك العالم قد يفعل جميع ذلك ويذهل عن المراقبة للخفايا والتفقد للدفائن فتراه يسهر ليله ونهاره فى جمع العلوم وترتيبها وتحسين ألفاظها وجمع التصانيف فيها ، وهو يرى أن باعثه الحرص على إظهار دين الله ونشر شريعته . ولعل باعثه الخفى هو طلب الذكر وانتشار الصيت فى الأطراف ، وكثرة الرحلة إليه من الآفاق ، وانطلاق الألسنة عليه

بالثناء ، والمدح بالزهد والورع والعلم ، والتقديم له فى المهمات وإيثاره فى الأغراض ، والاجتماع حوله للاستفادة والتلذذ بحسن الإصغاء عند حسن اللفظ والإيراد ، والتمتع بتحريك الرءوس إلى كلامه والبكاء عليه والتعجب منه ، والفرح بكثرة الأصحاب والأتباع والمستفيدين ، والسرور بالتخصص بهذه الخاصية من بين سائر الأقران والأشكال للجمع بين العلم والورع وظاهر الزهد ، والتمكن به من إطلاق لسان الطعن فى الكافة المقبلين على الدنيا ، لاعن تفجع بمصيبة الدين ولكن عن إدلال بالتميز واعتداد بالتخصيص . ولعل هذا المسكين المغرور حياته فى الباطن بما انتظم له من أمر وإمارة وعز وانقياد وتوقير وحسن ثناء ، فلو تغيرت عليه القلوب واعتقدوا فيه خلاف الزهد بما يظهر من أعماله فعساه يتشوس عليه قلبه وتختلط أوراده ووظائفه . وعساه يعتذر بكل حيلة لنفسه ، وربما يحتاج إلى أن يكذب فى تغطية عيبه . وعساه يؤثر بالكرامة والمراعاة من اعتقد فيه الزهد والورع وإن كان قد اعتقد فيه فوق قدره ، وينبو قلبه عمن عرف حق فضله وورعه وإن كان ذلك على وفق حاله وعساه يؤثر بعض أصحابه على بعض وهو يرى أنه يؤثره لتقدمه فى الفضل والورع ، وإنما ذلك لأنه أطوع له وأتبع لمراده وأكثر ثناء عليه وأشدّ إصغاء إليه وأحرص على خدمته ولعلهم يستفيدون منه ويرغبون فى العلم وهو يظن أن قبولهم له لإخلاصه وصدقه وقيامه بحق علمه فيحمد الله تعالى على ما يسر على لسانه من منافع خلقه ، ويرى أن ذلك مكفر لذنوبه ولم يتفقد مع نفسه تصحيح النية فيه . وعساه لو وعد بمثل ذلك الثواب فى إيثاره الخمول والعزلة وإخفاء العلم لم يرغب فيه لفقده فى العزلة والاختفاء لذة القبول وعزة الرياسة ولعل مثل هذا هو المراد بقول الشيطان : من زعم من بنى آدم أنه بعلمه امتنع منى فبجهله وقع فى حبائلى . وعساه يصنف ويجتهد فيه ظانا أنه يجمع علم الله لينتفع به وإنما يريد به استطارة اسمه بحسن التصنيف ، فلو ادعى مدع تصنيفه ومحا عنه اسمه ونسبه إلى نفسه ثقل عليه ذلك مع علمه بأن ثواب الاستفادة من التصنيف إنما يرجع إلى المصنف والله يعلم بأنه هو المصنف لا من ادعاه ، ولعله فى تصنيفه لا يخلو من الثناء على نفسه إما صريحا بالدعاوى الطويلة العريضة وإما ضمناً بالطعن فى غيره ، ليستبين من طعنه فى غيره ، أنه أفضل ممن طعن فيه وأعظم منه علما ولقد كان فى غنية عن الطعن فيه ، ولعله يحكى من الكلام المزيف ما يريد تزييفه فيعزيه إلى قائله وما يستحسنه فلعله لا يعزيه إليه ليظن أنه من كلامه ، فينقله بعينه كالسارق له أو يغيره أدنى تغيير كالذى يسرق قميصا فيتخذه قباء حتى لا يعرف أنه مسروق ، ولعله يجتهد فى تزيين ألفاظه وتسجيعه وتحسين نظمه كيلا ينسب إلى الركاكة ويرى أن غرضه ترويج الحكمة وتحسينها وتزيينها ليكون أقرب إلى نفع الناس . وعساه غافلا عما روى أن بعض الحكماء وضع ثلثمائة مصحف فى الحكمة فأوحى الله إلى نبى زمانه قل له قد ملأت الأرض نفاقا وإنى لا أقبل من نفاقك شيئا . ولعل جماعة من هذا الصنف من المغترين إذا اجتمعوا ظن كل واحد بنفسه السلامة عن عيوب القلب وخفاياه فلو افترقوا واتبع كل واحد منهم فرقة من أصحابه نظر كل واحد إلى كثرة من يتبعه وأنه أكثر تبعا أو غيره فيفرح إن كان أتباعه أكثر وإن علم أن غيره أحق بكثرة الأتباع منه ، ثم إذا تفرقوا واشتغلوا بالإفادة تغايروا وتحاسدوا ولعل من يختلف إلى واحد منهم إذا انقطع عنه إلى غيره ثقل على قلبه ووجد فى نفسه نفرة منه فبعد ذلك لا يهتز باطنه لإكرامه ولا يتشمر لقضاء حوائجه كما كان يتشمر من قبل ، ولا يحرص على الثناء عليه كما أثنى مع علمه بأنه مشغول بالاستفادة ، ولعل التحيز منه إلى فئة أخرى كان أنفع له فى دينه لآفة من الآفات كانت تلحقه فى هذه الفئة وسلامته عنها فى تلك الفئة ، ومع ذلك لا تزول النفرة عن قلبه ، ولعل واحدا منهم إذا تحركت فيه مبادئ الحسد لم يقدر على إظهاره فيتعلل بالطعن فى دينه وفى ورعه ليحمل غضبه على ذلك ، ويقول إنما غضبت لدين الله لا لنفسى . ومهما

ذكرت عيوبه بين يديه ربما فرح له وإن أثنى عليه ربما ساءه وكرهه ، وربما قطب وجهه إذا ذكرت عيوبه ـ يظهر أنه كاره لغيبة المسلمين ـ وسر قلبه راض به ومريد له ، والله مطلع عليه فى ذلك . فهذا وأمثاله من خفايا القلوب لا يفطن له إلا الأكياس ولا يتنزه عنه إلا الأقوياء ، ولا مطمع فيه لأمثالنا من الضعفاء ، إلا أن أقل الدرجات أن يعرف الإنسان عيوب نفسه ويسوءه ذلك ويكرهه ويحرص على إصلاحه ، فإذا أراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه ، ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مرجو الحال ، وأمره أقرب من المغرور المزكى لنفسه الممتن على الله بعمله وعلمه الظان أنه من خيار خلقه ، فنعوذ بالله من الغفلة والاغترار ومن المعرفة بخفايا العيوب مع الإهمال . هذا غرور الذين حصلوا العلوم المهمة ولكن قصروا فى العمل بالعلم .

ولنذكر الآن غرور الذين قنعوا من العلوم بما لم يهمهم وتركوا المهم وهم به مغترون إما لاستغنائهم عن أصل ذلك العلم وإما لاقتصارهم عليه . فمنهم فرقة اقتصروا على علم الفتاوى فى الحكومات والخصومات وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح العباد ، وخصصوا اسم الفقه بها وسموه الفقه وعلم المذاهب ، وربما ضيعوا مع ذلك الأعمال الظاهرة والباطنة فلم يتفقدوا الجوارح ولم يحرسوا اللسان عن الغيبة ولا البطن عن الحرام ولا الرجل عن المشى إلى السلاطين وكذا سائر الجوارح ، ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر والحسد والرياء وسائر المهلكات . فهؤلاء مغرورون من وجهين (أحدهما) من حيث العمل (والآخر) من حيث العلم .

اما العمل : فقد ذكرنا وجه الغرور فيه وأن مثالهم مثال المريض إذا تعلم نسخة الدواء واشتغل بتكراره وتعليمه ، لا بل مثالهم مثال من به علة البواسير والبرسام وهو مشرف على الهلاك ومحتاج إلى تعلم الدواء واستعماله فاشتغل بتعلم أدواء الاستحاضة وبتكرار ذلك ليلا ونهارا مع علمه بأنه رجل لا يحيض ولا يستحاض ، ولكن يقول : ربما تقع علة الاستحاضة لامرأة وتسألنى عن ذلك ، وذلك غاية الغرور . فكذلك المتفقه المسكين قد يسلط عليه حب الدنيا واتباع الشهوات والحسد والكبر والرياء وسائر المهلكات الباطنة ، وربما يخطفه الموت قبل التوبة والتلافى فيلقى الله وهو عليه غضبان ، فترك ذلك كله واشتغل بعلم السلم والإجارة والظهار واللعان والجراحات والديات والدعاوى والبينات وبكتاب الحيض وهو لا يحتاج إلى شىء من ذلك قط فى عمره لنفسه ، وإذا احتاج غيره كان فى المفتين كثرة فيشتغل بذلك ويحرص عليه لما فيه من الجاه والرياسة والمال ، وقد دهاه الشيطان وما يشعر ، إذ يظن المغرور بنفسه أنه مشغول بفرض دينه وليس يدرى أن الاشتغال بفرض الكفاية قبل الفراغ من فرض العين معصية . هذا لو كانت نيته صحيحة كما قال وقد كان قصد بالفقه وجه الله تعالى ، فإنه وإن قصد وجه الله فهو باشتغاله به معرض عن فرض عينه فى جوارحه وقلبه فهذا غروره من حيث العمل .

وأما غروره من حيث العلم : فحيث اقتصر على علم الفتاوى وظن أنه علم الدين وترك كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وربما طعن فى المحدثين وقال : إنهم نقلة أخبار وحملة أسفار لا يفقهون ، وترك أيضا علم تهذيب الأخلاق وترك الفقه عن الله تعالى بإدراك جلاله وعظمته وهو العلم الذى يورث الخوف والهيبة والخشوع ويحمل على التقوى ، فتراه آمنا من الله مغترا به متكلا على أنه لا بد وأن يرحمه فإنه قوام دينه ، وأنه لو لم يشتغل بالفتاوى لتعطل الحلال والحرام فقد ترك العلوم التى هى اهم وهو غافل مغرور ، وسبب غروره ماسمع فى الشرع من تعظيم الفقه ولم يدر أن ذلك الفقه هو الفقه عن الله ومعرفة صفاته المخوفة والمرجوة ليستشعر القلب الخوف ويلازم التقوى ، إذ قال تعالى ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا

إليهم لعلهم يحذرون ﴾ والذى يحصل به الإنذار غير هذا العلم ، فإن مقصود هذا العلم : حفظ الأموال بشروط المعاملات وحفظ الأبدان بالأموال وبدفع القتل والجراحات ، والمال فى طريق الله آلة والبدن مركب . وإنما العلم المهم هو معرفة سلوك الطريق وقطع عقبات القلب التى هى الصفات المذمومة فهى الحجاب بين العبد وبين الله تعالى ، وإذا مات ملوثا بتلك الصفات كان محجوبا عن الله . فمثاله فى الاقتصار على علم الفقه مثال من اقتصر من سلوك طريق الحج على علم خرز الراوية والخف ، ولا شك فى أنه لو لم يكن لتعطل الحج ، ولكن المقتصر عليه ليس من الحج فى شىء ولا بسبيله ـ وقد ذكرنا شرح ذلك فى كتاب العلم ـ ومن هؤلاء من اقتصر من علم الفقه على الخلافيات ولم يهمه إلا تعلم طريق المجادلة والإلزام وإفحام الخصوم ودفع الحق لأجل الغلبة والمباهاة ، فهو طول الليل والنهار فى التفتيش عن مناقضات أرباب المذاهب والتفقد لعيوب الأقران والتلقف لأنواع التسبيبات المؤذية ، وهؤلاء هم سباع الإنس طبعهم الإيذاء وهمهم السفه ، ولا يقصدون العلم إلا لضرورة مايلزمهم لمباهاة الأقران ، فكل علم لايحتاجون إليه فى المباهاة كعلم القلب وعلم سلوك الطريق إلى الله تعالى بمحو الصفات المذمومة وتبديلها بالمحمودة فإنهم يستحقرونه ويسمونه التزويق وكلام الوعاظ ، وإنما التحقيق عندهم معرفة تفاصيل العربدة التى تجرى بين المتصارعين فى الجدل . وهؤلاء قد جمعوا ماجمعه الذين من قبلهم فى علم الفتاوى لكن زادوا إذ اشتغلوا بما ليس من فروض الكفايات أيضا ، بل جميع دقائق الجدل فى الفقه بدعة لم يعرفها السلف ، وأما أدلة الأحكام فيشتمل عليها علم المذهب وهو كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفهم معانيهما . وأما حيل الجدل من الكسر والقلب وفساد الوضع والتركيب والتعدية فإنما أبدعت لإظهار الغلبة والإفحام وإقامة سوق الجدل بها فغرور هؤلاء أشد كثيراً وأقبح من غرور من قبلهم .

(وفرقة أخرى) اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة فى الأهواء والرد على المخالفين وتتبع مناقضاتهم ، واستكثروا من معرفة المقالات المختلفة واشتغلوا بتعلم الطرق فى مناظرة أولئك وإفحامهم ، وافترقوا فى ذلك فرقا كثيرة ، واعتقدوا أنه لا يكون لعبد عمل إلا بإيمان ولا يصح إيمان إلا بأن يتعلم جدلهم وما سموه أدلة عقائدهم ، وظنوا أنه لا أحد أعرف بالله وبصفاته منهم ، وأنه لا إيمان لمن لم يعتقد مذهبهم ولم يتعلم علمهم ، ودعت كل فرقة منهم إلى نفسها .

ثم هم فرقتان : ضالة ومحقة : فالضالة هى التى تدعو إلى غير السنة ، والمحقة هى التى تدعو إلى السنة والغرور شامل لجميعهم . أما الضالة : فلغفلتها عن ضلالها وظنها بنفسها النجاة ، وهم فرق كثيرة يكفر بعضهم بعضا ، وإنما أتيت من حيث إنها لم تتهم رأيها ولم تحكم أولا شروط الأدلة ومنهاجها ، فرأى أحدهم الشبهة دليلا والدليل شبهة . وأما الفرقه المحقة : فإنما اغترارها من حيث إنها ظنت بالجدل أنه أهم الأمور وأفضل القربات فى دين الله وزعمت أنه لا يتم لأحد دينه ما لم يفحص ويبحث ، وأن من صدق الله ورسوله من غير بحث وتحرير دليل فليس بمؤمن أو ليس كامل الإيمان ولا مقرب عند الله

فلهذا الظن الفاسد قطعت أعمارها فى تعلم الجدل والبحث عن المقالات وهذيانات المبتدعة ومناقضاتهم ، وأهملوا أنفسهم وقلوبهم حتى عميت عليهم ذنوبهم وخطاياهم الظاهرة والباطنة ، وأحدهم يظن أن اشتغاله بالجدل أولى وأقرب عند الله وأفضل ، ولكنه لالتذاذه بالغلبة والإفحام ولذة الرياسة وعز الانتماء إلى الذب عن دين الله تعالى عميت بصيرته فلم يلتفت إلى القرن الأول ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم شهد لهم بأنهم خير الخلق ، وأنهم قد

أدركوا كثيرا من أهل البدع والهوى فما جعلوا أعمارهم ودينهم غرضا للخصومات والمجادلات وما اشتغلوا بذلك عن تفقد قلوبهم وجوارحهم وأحوالهم ، بل لم يتكلموا فيه إلا من حيث رأوا حاجة وتوسموا مخايل قبول فذكروا بقدر الحاجة ما يدل الضال على ضلالته ، وإذا رأوا مصرا على ضلالة هجروه وأعرضوا عنه وأبغضوه فى الله ولم يلزموا الملاحاة معه طول العمر ، بل قالوا : إنّ الحق هو الدعوة إلى السنة ومن السنة ترك الجدل فى الدعوة إلى السنة . إذ روى أبو أمامة الباهلى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما ضل قوم قط بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل [1] » وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما على أصحابه وهم يتجادلون ويختصمون فغضب عليهم حتى كأنه فقئ فى وجهه حب الرمان [2] ـ حمرة من الغضب ـ فقال « ألهذا بعثتم أبهذا أمرتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض انظروا إلى ما أمرتم به فاعملوا وما نهيتم عنه فانتهوا » فقد زجرهم عن ذلك وكانوا أولى خلق الله بالحجاج والجدال . ثم إنهم رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بعث إلى كافة أهل الملل فلم يقعد معهم فى مجلس مجادلة لإلزام وإفحام وتحقيق حجة ودفع سؤال وإيراد إلزام ، فما جادلهم إلا بتلاوة القرآن المنزل عليهم ولم يزد فى المجادلة عليه لأنّ ذلك يشوش القلوب ويستخرج منها الإشكالات والشبه ثم لا يقدر على محوها من قلوبهم ، وما كان يعجز عن مجادلتهم بالتقسيمات ودقائق الأقيسة وأن يعلم أصحابه كيفيه الجدل والإلزام، ولكن الأكياس وأهل الحزم لم يغتروا بهذا وقالوا لو نجا أهل الأرض وهلكنا لم تنفعنا نجاتهم ولو نجونا وهلكوا لم يضرنا هلاكهم ، وليس علينا فى المجادلة أكثر مما كان على الصحابة مع اليهود والنصارى وأهل الملل ، وما ضيعوا العمر بتحرير مجادلاتهم فما لنا نضيع العمر ولا نصرفه إلى ما ينفعنا فى يوم فقرنا وفاقتنا ؟ ولم نخوض فيما لا نأمن على انفسنا الخطأ فى تفاصيله ؟ ثم نرى أن المبتدع ليس يترك بدعته بجداله بل يزيده التعصب والخصومة تشددا فى بدعته ، فاشتغالى بمخاصمة نفسى ومجادلتها ومجاهدتها لتترك الدنيا للآخرة أولى ، هذا لو كنت لم أنه عن الجدل والخصومة فكيف وقد نهيت عنه ؟ وكيف أدعو إلى السنة بترك السنة ؟ فالأولى أتفقد نفسى وأنظر من صفاتها ما يبغضه الله تعالى وما يحبه لأتنزه عما يبغضه وأتمسك بما يحبه .

(وفرقة أخرى) اشتغلوا بالوعظ والتذكير ، وأعلاهم رتبة من يتكلم فى أخلاق النفس وصفات القلب من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد واليقين والإخلاص والصدق ونظائره ، وهم مغرورون يظنون بأنفسهم أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات ودعوا الخلق إليها فقد صاروا موصوفين بهذه الصفات وهم منفكون عنها عند الله إلا عن قدر يسير لاينفك عنه عوام المسلمين ، وغرور هؤلاء أشد الغرور لأنهم يعجبون بأنفسهم غاية الإعجاب ويظنون أنهم ما تبحروا فى علم المحبة إلا وهم محبون لله ، وما قدروا على تحقيق دقائق الإخلاص إلا وهم مخلصون ، وما وقعوا على خفايا عيوب النفس إلاوهم عنها منزهون : ولولا أنه مقرب عند الله لما عرفه معنى القرب والبعد وعلم السلوك إلى الله وكيفية قطع المنازل فى طريق الله ! فالمسكين بهذه الظنون يرى أنه من الخائفين وهو آمن من الله تعالى ، ويرى أنه من الراجين وهو من المغترين المضيعين ، ويرى أنه من الراضين بقضاء الله وهو من الساخطين ، ويرى أنه من المتوكلين على الله وهو من المتكلين على العز والجاه والمال والأسباب ، ويرى أنه من المخلصين وهو من المرائين . بل يصف الإخلاص فيترك الإخلاص فى الوصف ، ويصف الرياء ويذكره وهو يرائى بذكره ليعتقد فيه أنه لولا أنه مخلص لما اهتدى إلى دقائق الرياء ، ويصف الزهد فى الدنيا لشدة حرصه على الدنيا وقوة رغبته فيها

---

(١) حديث « ماضل قوم بعد هدى كانوا عليه الا أوتوا الجدل » تقدم فى العلم وفى آفات اللسان . (٢) حديث : خرج يوما على أصحابه وهم يجادلون ويختصمون ، فغضب حتى كأنه فقئ فى وجهه حب الرمان ... الحديث » تقدم .

فهو يظهر الدعاء إلى الله وهو منه فار ويخوف بالله تعالى وهو منه آمن . ويذكر بالله تعالى وهو له ناس ، ويقرب إلى الله وهو منه متباعد ، ويحث على الإخلاص وهو غير مخلص ، ويذم الصفات المذمومة وهو بها متصف ، ويصرف الناس عن الخلق وهو على الخلق أشد حرصا - لو منع عن مجلسه الذى يدعو الناس فيه إلى الله لضاقت عليه الأرض بما رحبت - ويزعم أن غرضه إصلاح الخلق ولو ظهر من أقرانه من أقبل الخلق عليه وصلحوا على يديه لمات غما وحسدا ، ولو أثنى أحد من المترددين إليه على بعض أقرانه لكان أبغض خلق الله إليه . فهؤلاء أعظم الناس غرة وأبعدهم عن التنبه والرجوع إلى السداد ، لأن المرغب فى الأخلاق المحمودة والمنفر عن المذمومة هو العلم بغوائلها وفوائدها ، وهذا قد علم ذلك ولم ينفعه وشغله حب دعوة الخلق عن العمل به . فبعد ذلك بماذا يعالج وكيف سبيل تخويفه ؟ وإنما الخوف ما يتلوه على عباد الله فيخافون وهو ليس بخائف نعم إن ظن نفسه أنه موصوف بهذه الصفات المحمودة يمكن أن يدل على طريق الامتحان والتجربة ، وهو أن يدعى مثلا حب الله فما الذى تركه من محاب نفسه لأجله ؟ ويدعى الخوف فما الذى امتنع منه بالخوف ؟ ويدعى الزهد فما الذى تركه مع القدرة عليه لوجه الله تعالى؟ ويدعى الأنس بالله فمتى طابت له الخلوة ! ومتى استوحش من مشاهدة الخلق لا بل يرى قلبه يمتلئ بالحلاوة إذا أحدق به المريدون وتراه يستوحش إذا خلا بالله تعالى فهل رأيت محبا يستوحش من محبوبه ويستروح منه إلى غيره فالأكياس يمتحنون أنفسهم بهذه الصفات ويطالبونها بالحقيقة ولا يقنعون منها بالتزويق بل بموثق من الله غليظ والمغترون يحسنون بأنفسهم الظنون وإذا كشف الغطاء عنهم فى الآخرة يفتضحون بل يطرحون فى النار فتندلق أقتابهم فيدور بها أحدهم كما يدور الحمار بالرحى كما ورد به الخبر لأنهم يأمرون بالخير ولا يأتونه وينهون عن الشر ويأتونه وإنما وقع الغرور لهؤلاء من حيث إنهم يصادفون فى قلوبهم شيئا ضعيفا من أصول هذه المعانى وهو حب الله والخوف منه والرضا بفعله ثم قدروا مع ذلك على وصف المنازل العالية فى هذه المعانى فظنوا أنهم ماقدروا على وصف ذلك وما رزقهم الله علمه وما نفع الناس بكلامهم فيها إلا لاتصافهم بها وذهب عليهم أن القبول للكلام والكلام للمعرفة وجريان اللسان والمعرفة للعلم وأن كل ذلك غير الاتصاف بالصفة فلم يفارق آحاد المسلمين فى الاتصاف بصفة الحب والخوف بل فى القدرة على الوصف ، بل ربما زاد أمنه وقل خوفه وظهر إلى الخلق ميله وضعف فى قلبه حب الله تعالى ؛ وإنما مثاله مثال مريض يصف المرض ويصف دواءه بفصاحته ، ويصف الصحة والشفاء ، وغيره من المرضى لا يقدر على وصف الصحة والشفاء وأسبابه ودرجاته وأصنافه ، فهو لا يفارقهم فى صفة المرض والاتصاف به وإنما يفارقهم فى الوصف والعلم بالطب ، فظنه عند علمه بحقيقة الصحة أنه صحيح غاية الجهل ، فكذلك العلم بالخوف والحب والتوكل والزهد وسائر هذه الصفات غير الاتصاف بحقائقها . ومن التبس عليه وصف الحقائق بالاتصاف بالحقائق فهو مغرور فهذه حالة الوعاظ الذين لا عيب فى كلامهم بل منهاج وعظهم منهاج وعظ القرآن والأخبار ووعظ الحسن البصرى وأمثاله رحمة الله عليهم .

(وفرقة أخرى) منهم عدلوا عن المنهاج الواجب فى الوعظ وهم وعاظ أهل هذا الزمان كافة إلا من عصمه الله ، على الندور فى بعض أطراف البلاد إن كان ولسنا نعرفه ، فاشتغلوا بالطامات والشطح وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل طلبا للإغراب . وطائفة شغفوا بطيارات النكت وتسجيع الألفاظ وتلفيقها فأكثر همهم بالأسجاع والاستشهاد بأشعار الوصال والفراق ، وغرضهم أن تكثر فى مجالستهم الزعقات والتواجد ولو على أغراض فاسدة ، فهؤلاء شياطين الإنس ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل ، فإن الأولين وإن لم يصلحوا أنفسهم فقد

أصلحوا غيرهم وصححوا كلامهم ووعظهم . وأما هؤلاء فإنهم يصدّون عن سبيل الله ويجرون الخلق إلى الغرور بالله بلفظ الرجاء فيزيدهم كلامهم جراءة على المعاصي ورغبة في الدنيا ، لاسيما إذا كان الواعظ متزينا بالثياب والخيل والمراكب فإنه تشهد هيئته من فرقه إلى قدمه بشدة حرصه على الدنيا فما يفسده هذا المغرور أكثر مما يصلحه بل لايصلح أصلا ويضل خلقا كثيرا ولايخفى وجه كونه مغرورا .

(وفرقة أخرى) منهم قنعوا بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم فى ذم الدنيا فهم يحفظون الكلمات على وجهها ويؤدونها من غير إحاطة بمعانيها فبعضهم يفعل ذلك على المنابر ، وبعضهم فى المحاريب ، وبعضهم فى الأسواق مع الجلساء وكل منهم يظن أنه إذا تميز بهذا القدر عن السوقة والجندية ، إذ حفظ كلام الزهاد وأهل الدين دونهم فقد أفلح ونال الغرض ، وصار مغفورا له وأمن عقاب الله من غير أن يحفظ ظاهره وباطنه عن الآثام ، ولكنه يظن أن حفظه لكلام أهل الدين يكفيه . وغرور هؤلاء أظهر من غرور من قبلهم .

(وفرقة أخرى) استغرقوا أوقاتهم فى علم الحديث أعنى فى سماعه وجمع الروايات الكثيرة منه وطلب الأسانيد الغريبة العالية فهمة أحدهم أن يدور فى البلاد ويرى الشيوخ ليقول : أنا أروى عن فلان ولقد رأيت فلانا ومعى من الإسناد ماليس مع غيرى . وغرورهم من وجوه : منها أنهم كحملة الأسفار فإنهم لايصرفون العناية إلى فهم معانى السنة فعلمهم قاصر وليس معهم إلا النقل ويظنون أنّ ذلك يكفيهم ومنها أنهم إذا لم يفهموا معانيها ولايعملون بها وقد يفهمون بعضها أيضا ولايعملون به . ومنها أنهم يتركون العلم الذى هو فرض عين وهو معرفة علاج القلب ويشتغلون بتكثير الأسانيد وطلب العالى منها ولا حاجة بهم إلى شىء من ذلك ومنها وهو الذى أكب عليه أهل الزمان أنهم أيضا لايقيمون بشرط السماع فإن السماع بمجرده وإن لم تكن له فائدة ولكنه مهم فى نفسه للوصول إلا إثبات الحديث إذ التفهم بعد الإثبات والعمل بعد التفهم ، فالأول السماع ثم التفهم ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر وهؤلاء اقتصروا من الجملة على السماع ثم تركوا حقيقة السماع ، فترى الصبى يحضر فى مجلس الشيخ والحديث يقرأ والشيخ ينام والصبى يلعب ، ثم يكتب اسم الصبى فى السماع فإذا كبر تصدّى ليسمع منه والبالغ الذى يحضر ربما يغفل ولايسمع ولايصغى ولايضبط وربما يشتغل بحديث أو نسخ ، والشيخ الذى يقرأ عليه لو صحف وغير مايقرأ عليه لم يشعر به ولم يعرفه ، وكل ذلك جهل وغرور . إذ الأصل فى الحديث أن يسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحفظه كما سمعه ، ويرويه كما حفظه ، فتكون الرواية عن الحفظ والحفظ عن السماع . فإن عجزت عن سماعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعته من الصحابة أو التابعين وصار سماعك عن الراوى كسماع من سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أن تصغى لتسمع فتحفظ وتروى كما حفظت ، وتحفظ كما سمعت بحيث لاتغير منه حرفا ولو غير غيرك منه حرفا أو أخطأ علمت خطأه .

ولحفظك طريقان (أحدهما) أن تحفظ بالقلب وتستديمه بالذكر والتكرار كما تحفظ ماجرى على سمعك فى مجارى الأحوال . (والثانى) أن تكتب كما تسمع وتصحح المكتوب وتحفظه حتى لاتصل إليه يد من يغيره ، ويكون حفظك للكتاب معك وفى خزانتك ، فإنه لو امتدت إليه يد غيرك ربما غيره ، فإذا لم تحفظه لم تشعر بتغييره فيكون محفوظا بقلبك أو بكتابك فيكون كتابك مذكرا لما سمعته وتأمن فيه من التغيير والتحريف .

فإذا لم تحفظ لا بالقلب ولا بالكتاب وجرى على سمعك صوت غفل وفارقت المجلس ، ثم رأيت نسخة لذلك الشيخ وجوزت أن يكون ما فيه مغيرا أو يفارق حرف منه للنسخة التى سمعتها لم يجز لك أن تقول : سمعت هذا الكتاب ، فإنك لاتدرى لعلك لم تسمع مافيه بل سمعت شيئا يخالف مافيه ولو فى كلمة . فإذا لم يكن معك حفظ

بقلبك ولا نسخة صحيحة استوثقت عليها اتقابل بها فمن أين تعلم أنك سمعت ذلك ؟ وقد قال الله تعالى ﴿ ولا تقف ماليس لك به علم ﴾ وقول الشيوخ كلهم فى هذا الزمان إنا سمعنا مافى هـذا الكتاب إذا لم يوجد الشرط الذى ذكرناه فهو كذب صريح . وأقل شروط السماع أن يجرى الجميع على السمع مع نوع من الحفظ يشعر معه بالتغيير ولو جاز أن يكتب سماع الصبي والغافل والنائم والذى ينسخ لجاز أن يكتب سماع المجنون والصبي فى المهد ، ثم إذا بلغ الصبي وأفاق المجنون يسمع عليه ولا خلاف فى عدم جوازه ، ولو جاز ذلك لجاز أن يكتب سماع الجنين فى البطن فإن كان لا يكتب سماع الصبي فى المهد لأنه لا يفهم ولا يحفظ ، فالصبي الذى لا يلعب والغافل والمشغول بالنسخ عن السماع ليس بينهم ولا يحفظ ، وإن استجرأ جاهل فقال : يكتب سماع الصبي فى المهد فليكتب سماع الجنين فى البطن ، فإن فرق بينهما بأن الجنين لا يسمع الصوت وهذا يسمع الصوت فما ينفع هذا وهو إنما ينقل الحديث دون الصوت ، فليقتصر إذا صار شيخا على أن يقول : سمعت بعد بلوغى أنى فى صباى حضرت مجلسا يروى فيه حديث كان يقرع سمعى صوته ولا أدرى ما هو ؟ فلا خلاف فى أن الرواية كذلك لا تصح وما زاد عليه فهو كذب صريح ولو جاز إثبات سماع التركى الذى لا يفهم العربية لأنه سمع صوتا غفلا لجاز إثبات سماع صبي فى المهد وذلك غاية الجهل . ومن أين يأخذ هذا ؟ وهل للسماع مستند إلا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « نضر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها فأداها كما سمعها »[1] ، وكيف يؤدى كما سمع من لا يدرى ما سمع فهذا أفحش أنواع الغرور . وقد بلى بهذا أهل الزمان ولو احتاط أهل الزمان لم يجدوا شيوخا إلا الذين سمعوه فى الصبا على هذا الوجه مع الغفلة ، إلا أن للمحدثين فى ذلك جاها وقبولا ، فخاف المساكين أن يشترطوا ذلك فيقل من يجتمع لذلك فى حلقهم فينقص جاههم ، وتقل أيضا أحاديثهم التى قد سمعوها بهذا الشرط بل ربما عدموا ذلك وافتضحوا ، فاصطلحوا على أنه ليس يشترط إلا أن يقرع سمعه دمدمة وإن كان لا يدرى ما يجرى ؟ وصحة السماع لا تعرف من قول المحدثين لأنه ليس من علمهم بل من علم علماء الأصول بالفقه وما ذكرناه مقطوع به فى قوانين أصول الفقه فهذا غرور هؤلاء ، ولو سمعوا على الشرط لكانوا أيضا مغرورين فى اقتصارهم على النقل وإفناء أعمارهم فى جمع الروايات والأسانيد وإعراضهم عن مهمات الدين ومعرفة معانى الأخبار ، بل الذى يقصد من الحديث سلوك طريق الآخرة وسالك طريقها ربما يكفيه الحديث الواحد عمره ، كما روى عن بعض الشيوخ أنه حضر مجلس السماع فكان أول حديث روى قوله عليه الصلاة والسلام « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »[2] ، فقام وقال : يكفينى هذا حتى أفرغ منه ثم أسمع غيره . فهكذا يكون سماع الأكياس الذين يحذرون الغرور .

(وفرقة أخرى) اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر وغريب اللغة واغتروا به وزعموا أنهم قد غفر لهم وأنهم من علماء الأمة ، إذ قوام الدين بالكتاب والسنة ، وقوام الكتاب والسنة بعلم اللغة والنحو فأفنى هؤلاء أعمارهم فى دقائق النحو وفى صناعة الشعر وفى غريب اللغة ، ومثالهم كمن يفنى جميع العمر فى تعلم الخط وتصحيح الحروف وتحسينها ويزعم أن العلوم لا يمكن حفظها إلا بالكتابة فلا بد من تعلمها وتصحيحها ، ولو عقل لعلم أنه يكفيه أن يتعلم أصل الخط بحيث يمكن أن يقرأ كيفما كان والباقى زيادة على الكفاية ، وكذلك الأديب لو عقل لعرف أن لغة العرب كلغة الترك والمضيع عمره فى معرفة لغة العرب كالمضيع له فى معرفة لغة الترك والهند ، وإنما فارقتها لغة

---

(١) حديث « نضر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها . الحديث » أخرجه أصحاب السنن وابن حبان من حديث زيد بن ثابت والترمذى وابن ماجه من حديث ابن مسعود وقال الترمذى حديث حسن صحيح وابن ماجه فقط من حديث جبير بن مطعم وأنس
(٢) حديث من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » أخرجه الترمذى وقال غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة وهو عند مالك من رواية على بن الحسين مرسلا وقد تقدم .

العرب لأجل ورود الشريعة بها ، فيكفى من اللغة علم الغريبين فى الأحاديث والكتاب ، ومن النحو ما يتعلق بالحديث والكتاب فأما التعمق فيه إلى درجات لا تتناهى فهو فضول مستغنى عنه ، ثم لو اقتصر عليه وأعرض عن معرفة معانى الشريعة والعمل بها فهذا أيضا مغرور ، بل مثاله مثاله مثال من ضيع عمره فى تصحيح مخارج الحروف فى القرآن واقتصر عليه وهو غرور ، إذ المقصود من الحروف المعانى وإنما الحروف ظروف وأدوات ، ومن احتاج إلى أن يشرب السكنجبين ليزول مابه من الصفراء وضيع أوقاته فى تحسين القدح الذى يشرب فيه السكنجبين فهو من الجهال المغرورين ، فكذلك غرور أهل النحو واللغة والأدب والقراءات والتدقيق فى مخارج الحروف مهما تعمقوا فيها وتجردوا لها وعرجوا عليها ـ أكثر مما يحتاج إليه فى تعلم العلوم التى هى فرض عين ـ فاللب الأقصى هو العمل والذى فوقه هو معرفة العمل ، وهو كالقشر للعمل وكاللب بالإضافة إلى ما فوقه وما فوقه هو سماع الألفاظ وحفظها بطريق الرواية ، وهو قشر بطريق الإضافة إلى المعرفة ولب بالإضافة إلى ما فوقه ، وما فوقه هو العلم باللغة والنحو وفوق ذلك وهو القشر الأعلى العلم بمخارج الحروف ، والقانعون بهذه الدرجات كلهم مغترون إلا من اتخذ هذه الدرجات منازل فلم يعرج عليها إلا بقدر حاجته ، فتجاوز إلى ماوراء ذلك حتى وصل إلى لباب العمل فطالب بحقيقة العمل قلبه وجوارحه ورجى عمره فى حمل النفس عليه وتصحيح الأعمال وتصفيتها عن الشوائب والآفات . فهذا هو المقصود المخدوم من جملة علوم الشرع وسائر العلوم خدم له ووسائل إليه وقشور له ومنازل بالإضافة إليه ، وكل من لم يبلغ المقصد فقد خاب سواء كان فى المنزل القريب أو فى المنزل البعيد . وهذه العلوم لما كانت متعلقة بعلوم الشرع اغتر بها أربابها . فأما علم الطب والحساب والصناعات وما يعلم أنه ليس من علوم الشرع فلا يعتقد أصحابها أنهم ينالون المغفرة بها من حيث إنها علوم فكان الغرور بها أقل من الغرور بعلوم الشرع ، لأن العلوم الشرعية مشتركة فى أنها محمودة كما يشارك القشر اللب فى كونه محمودا ولكن المحمود منه لعينه هو المنتهى . والثانى محمود للوصول به إلى المقصود الأقصى فمن اتخذ القشر مقصودا وعرج عليه فقد اغتر به .

(وفرقة أخرى) عظم غرورهم فى فن الفقه فظنوا أن حكم العبد بينه وبين الله يتبع حكمه فى مجلس القضاء فوضعوا الحيل فى دفع الحقوق وأساءوا تأويل الألفاظ المبهمة واغتروا بالظواهر وأخطئوا فيها . وهذا من قبيل الخطأ فى الفتوى والغرور فيه والخطأ فى الفتاوى مما يكثر . ولكن هذا نوع عم الكافة إلا الأكياس منهم فنشير إلى أمثلة : فمن ذلك فتواهم بأن المرأة متى أبرأت من الصدق برئ الزوج بينه وبين الله تعالى ، وذلك خطأ بل الزوج قد يسيء إلى الزوجة بحيث يضيق عليها الأمور بسوء الخلق فتضطر إلى طلب الخلاص فتبرئ الزوج لتتخلص منه فهو إبراء لا على طيبة نفس وقد قال تعالى ﴿ فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا ﴾ وطيبة النفس غير طيبة القلب ، فقد يريد الإنسان بقلبه ما لا تطيب به نفسه فإنه يريد الحجامة بقلبه ولكن تكرهها نفسه ، وإنما طيبة النفس أن تسمح نفسها بالإبراء لا عن ضرورة تقابله حتى إذا رددت بين ضررين اختارت أهونهما فهذه مصادرة على التحقيق بإكراه الباطن . نعم القاضى فى الدنيا لا يطلع على القلوب والأغراض ، فينظر إلى الإبراء الظاهر وأنها لم تكره بسبب ظاهر والإكراه الباطن ليس يطلع الخلق عليه ، ولكن مهما تصدى القاضى الأكبر فى صعيد القيامة للقضاء لم يكن هذا محسوبا ولا مفيدا فى تحصيل الإبراء ، ولذلك لا يحل أن يؤخذ مال إنسان إلا بطيب نفس منه ، فلو طلب من الإنسان مالا على ملأ من الناس فاستحيا من الناس أن لا يعطيه وكان يود أن يكون سؤاله فى خلوة حتى لا يعطيه ، ولكن خاف ألم مذمة الناس وخاف ألم تسليم المال ، وردد نفسه بينهما

فاختار أهون الألمين وهو ألم التسليم فسلمه ، فلا فرق بين هذا وبين المصادرة إذ معنى المصادرة إيلام البدن بالسوط حتى يصير ذلك أقوى من ألم القلب ببذل المال فيختار أهون الألمين ، والسؤال فى مظنة الحياء والرياء ضرب للقلب بالسوط ، ولا فرق بين ضرب الباطن وضرب الظاهر عند الله تعالى فإن الباطن عند الله تعالى ظاهر ، وإنما حاكم الدنيا هو الذى يحكم بالملك بظاهر قوله وهبت لأنه لا يمكنه الوقوف على ما فى القلب ، وكذلك من يعطى اتقاء لشر لسانه أو لشر سعايته فهو حرام عليه ، وكذلك كل مال يؤخذ على هذا الوجه فهو حرام . ألا ترى ما جاء فى قصة داود عليه السلام حيث قال — بعد أن غفر له — يارب كيف لى بخصمى ؟ فأمر بالاستحلال منه وكان ميتا فأمر بندائه فى صخرة بيت المقدس ، فنادى : يا أوريا ، فأجابه : لبيك يانبى الله أخرجتنى من الجنة فماذا تريد ؟ فقال : إنى أسأت إليك فى أمر فهبه لى ، قال : قد فعلت ذلك يا نبى الله ، فانصرف وقد ركن إلى ذلك فقال له جبريل عليه السلام : هل ذكرت له ما فعلت ؟ قال : لا ، قال : فارجع فبين له ، فرجع فناداه فقال : لبيك يا نبى الله ، فقال : إنى أذنبت إليك ذنبا ، قال : ألم أهبه لك ؟ قال : ألا تسألنى ماذلك الذنب ؟ قال : ماهو يانبى الله ؟ قال : كذا وكذا ، وذكر شأن المرأة فانقطع الجواب ، فقال ياأوريا ألا تجيبنى ؟ قال : يانبى الله ماهكذا يفعل الأنبياء حتى أقف معك بين يدى الله ، فاستقبل داود البكاء والصراخ من الرأس حتى وعده الله أن يستوهبه منه فى الآخرة . فهكذا ينبهك أن الهبة من غير طيبة قلب لا تفيد ، وأن طيبة القلب لا تحصل إلا بالمعرفة ، فكذلك طيبة القلب لا تكون فى الإبراء والهبة وغيرهما إلا إذا خلى الإنسان واختياره ، حتى تنبعث الدواعى من ذات نفسه لا أن تضطر بواعثه إلى الحركة بالحيل والإلزام . ومن ذلك هبة الرجل مال الزكاة فى آخر الحول من زوجته واتهابه مالها لإسقاط الزكاة ، فالفقيه يقول : سقطت الزكاة ، فإن أراد به أن مطالبة السلطان والساعى سقطت عنه فقد صدق فإن مطمح نظرهم ظاهر الملك وقد زال ، وإن ظن أنه يسلم فى القيامة ويكون كمن لم يملك المال ، أو كمن باع لحاجته إلى المبيع لا على هذا القصد فما أعظم جهله بفقه الدين وسر الزكاة ، فإن سر الزكاة تطهير القلب عن رذيلة البخل فإن البخل مهلك قال صلى الله عليه وسلم « ثلاث مهلكات شح مطاع (١) » وإنما صار شحه مطاعا بما فعله وقبله لم يكن مطاعا . فقد تم هلاكه بما يظن أن فيه خلاصه فإن الله مطلع على قلبه وحبه المال وحرصه عليه ، وأنه بلغ من حرصه على المال أن استنبط الحيل حتى يسد على نفسه طريق الخلاص من البخل بالجهل والغرور ، ومن ذلك إباحة الله مال المصالح للفقيه وغيره بقدر الحاجة ، والفقهاء المغرورون لا يميزون بين الأمانى والفضول والشهوات وبين الحاجات ، بل كل مالا تتم رعونتهم إلا به يرونه حاجة وهو محض الغرور ، بل الدنيا خلقت لحاجة العباد إليها فى العبادة وسلوك طريق الآخرة ، فكل ماتناوله العبد للاستعانة به على الدين والعبادة فهو حاجته وماعدا ذلك فهو فضوله وشهوته ، ولو ذهبنا نصف غرور الفقهاء فى أمثال هذا لملأنا فيه مجلدات والغرض من ذلك التنبيه على أمثلة تعرف الأجناس دون الاستيعاب فإن ذلك يطول .

الصنف الثانى : أرباب العبادة والعمل والمغرورون منهم فرق كثيرة فمنهم من غروره فى الصلاة . ومنهم من غروره فى تلاوة القرآن . ومنهم فى الحج . ومنهم فى الغزو . ومنهم فى الزهد وكذلك كل مشغول بمنهج من مناهج العمل فليس خاليا عن غرور إلا الأكياس وقليل ماهم .

(فمنهم فرقة) أهملوا الفرائض واشتغلوا بالفضائل والنوافل وربما تعمقوا فى الفضائل حتى خرجوا إلى العدوان

---

(١) حديث « ثلاث مهلكات ... الحديث » تقدم غير مرة

والسرف ، كالذى تغلب عليه الوسوسة فى الوضوء فيبالغ فيه ولا يرضى الماء المحكوم بطهارته فى فتوى الشرع ، ويقدر الاحتمالات البعيدة قريبة فى النجاسة ، وإذا آل الأمر إلى أكل الحلال قدر الاحتمالات القريبة بعيدة وربما أكل الحرام المحض ، ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى الطعام لكان أشبه بسيرة الصحابة ، إذ توضأ عمر رضى الله عنه بماء فى جرة نصرانية مع ظهور احتمال النجاسة وكان مع هذا يدع أبوابا من الحلال مخافة من الوقوع فى الحرام . ثم من هؤلاء من يخرج إلى الإسراف فى صب الماء وذلك منهى عنه[1] ، وقد يطول الأمر حتى يضيع الصلاة ويخرجها عن وقتها ، وإن لم يخرجها أيضاً عن وقتها فهو مغرور لما فاته من فضيلة أول الوقت ، وإن لم يفته فهو مغرور لإسرافه فى الماء ، وإن لم يسرف فهو مغرور لتضييعه العمر الذى هو أعز الأشياء فيما له مندوحة عنه ، إلا أن الشيطان يصد الخلق عن الله بطريق شتى ، ولا يقدر على صد العباد إلا بما يخيل إليهم أنه عبادة فيبعدهم عن الله بمثل ذلك .

(وفرقة أخرى) غلب عليها الوسوسة فى نية الصلاة فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة بل يشوش عليه حتى تفوته الجماعة ويخرج الصلاة عن الوقت ، وإن تم تكبيره فيكون فى قلبه بعد تردد فى صحة نيته ، وقد يوسوسون فى التكبير حتى قد يغيرون صيغة التكبير لشدة الاحتياط فيه ، يفعلون ذلك فى أول الصلاة ثم يغفلون فى جميع الصلاة فلا يحضرون قلوبهم ، ويغترون بذلك ويظنون أنهم إذا أتعبوا أنفسهم فى تصحيح النية فى أول الصلاة وتميزوا عن العامة بهذا الجهد والاحتياط فهم على خير عند ربهم .

(وفرقة أخرى) تغلب عليهم الوسوسة فى إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها فلا يزال يحتاط فى التشديدات والفرق بين الضاد والظاء وتصحيح مخارج الحروف فى جميع صلاته ، لا يهمه غيره ولا يتفكر فيما سواه ذاهلا عن معنى القرآن والاتعاظ به وصرف الفهم إلى أسراره . وهذا من أقبح أنواع الغرور فإنه لم يكلف الخلق فى تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلا بما جرت به عادتهم فى الكلام .

ومثال هؤلاء مثال من حمل رسالة إلى مجلس سلطان وأمر أن يؤديها على وجهها ، فأخذ يؤدى الرسالة ويتأنق فى مخارج الحروف ويكررها ويعيدها مرة بعد أخرى وهو فى ذلك غافل عن مقصود الرسالة ومراعاة حرمة المجلس فما أحراه بأن تقام عليه السياسة ويرد إلى دار المجانين ويحكم عليه بفقد العقل .

(وفرقة أخرى) اغتروا بقراءة القرآن فيهذونه هذا وربما يختمونه فى اليوم والليل مرة ، ولسان أحدهم يجرى به وقلبه يتردد فى أودية الأمانى إذ لا يتفكر فى معانى القرآن لينزجر بزواجره ويتعظ بمواعظه ويقف عند أوامره ونواهيه ويعتبر بمواضع الاعتبار فيه إلى غير ذلك مما ذكرناه فى كتاب تلاوة القرآن من مقاصد التلاوة - فهو مغرور يظن أن المقصود من إنزال القرآن الهمهمة به مع الغفلة عنه .

ومثاله : مثال عبد كتب إليه مولاه ومالكه كتاباً وأشار عليه فيه بالأوامر والنواهى ، فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به ولكن اقتصر على حفظه فهو مستمر على خلاف ما أمره به مولاه ، إلا أنه يكرر الكتاب بصوته ونغمته كل يوم مائة مرة فهو مستحق للعقوبة ، ومهما ظن أن ذلك هو المراد منه فهو مغرور . نعم تلاوته إنما تراد لكيلا ينسى بعد حفظه وحفظه يراد لمعناه ومعناه يراد للعمل به والانتفاع بمعانيه ، وقد يكون له صوت طيب فهو يقرؤه ويلتذ به ويغتر باستلذاذه ويظن أن ذلك لذة مناجاة الله تعالى وسماع كلامه وإنما هى لذته فى صوته ،

---

(١) حديث : النهى عن الإسراف فى الوضوء . أخرجه الترمذى وضعفه وابن ماجه من حديث أبى بن كعب « ان للوضوء شيطانا يقال له الولهان ... الحديث » وتقدم فى عجائب القلب .

ولو ردد ألحانه بشعر أو كلام آخر لالتذ به ذلك الالتذاذ ، فهو مغرور إذ لم يتفقد قلبه فيعرفه أن لذته بكلام الله تعالى من حيث حسن نظمه ومعانيه أو بصوته .

(وفرقة أخرى) اغتروا بالصوم وربما صاموا الدهر أو صاموا الأيام الشريفة وهم فيها لايحفظون ألسنتهم عن الغيبة وخواطرهم عن الرياء وبطونهم عن الحرام عند الإفطار وألسنتهم عن الهذيان بأنواع الفضول طول النهار ، وهو مع ذلك يظن بنفسه الخير فيهمل الفرائض ويطلب النفل ثم لايقوم بحقه وذلك غاية الغرور .

(وفرقة أخرى) اغتروا بالحج فيخرجون إلى الحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون واسترضاء الوالدين وطلب الزاد الحلال ، وقد يفعلون ذلك بعد سقوط حجة الإسلام ويضيعون فى الطريق الصلاة والفرائض ويعجزون عن طهارة الثوب والبدن ويتعرضون لمكس الظلمة حتى يؤخذ منهم ، ولايحذرون فى الطريق من الرفث والخصام ، وربما جمع بعضهم الحرام وأنفقه على الرفقاء فى الطريق وهو يطلب به السمعة والرياء فيعصى الله تعالى فى كسب الحرام أولا وفى إنفاقه بالرياء ثانيا فلا هو أخذه من حله ولا هو وضعه فى حقه ، ثم يحضر البيت بقلب ملوث برذائل الأخلاق وذميم الصفات لم يقدّم تطهيره على حضوره وهو مع ذلك يظن أنه على خير من ربه فهو مغرور .

(وفرقة أخرى) أخذت فى طريق الحسبة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ينكر على الناس ويأمرهم بالخير وينسى نفسه ، وإذا أمرهم بالخير عنف وطلب الرياسة والعزة وإذا باشر منكرا ورد عليه غضب وقال: أنا المحتسب فكيف تنكر على ؟ وقد يجمع الناس إلى مسجده ومن تأخر عنه أغلظ القول عليه وإنما غرضه الرياء والرياسة ، ولو قام بتعهد المسجد غيره لحرد عليه ، بل منهم من يؤذن ويظن أنه يؤذن لله ولو جاء غيره وأذن فى وقت غيبته قامت عليه القيامة وقال : لم أخذ حقى وزوحمت على مرتبتى ، وكذلك قد يتقلد إمامة مسجد ويظن أنه على خير وإنما غرضه أن يقال إنه إمام مسجد فلو تقدّم غيره وان كان أورع وأعلم منه ثقل عليه .

(وفرقة أخرى) جاوروا بمكة أو المدينة واغتروا بمكة ولم يراقبوا قلوبهم ولم يطهروا ظاهرهم وباطنهم فقلوبهم معلقة ببلادهم ملتفتة إلى قول من يعرفه أنّ فلانا مجاور بذلك ، وتراه يتحدّى ويقول : قد جاورت بمكة كذا كذا سنة ، وإذا سمع أنّ ذلك قبيح ترك صريح التحدى وأحب أن يعرفه الناس بذلك ثم إنه قد يجاور ويمدّ عين طمعه إلى أوساخ أموال الناس وإذا جمع من ذلك شيئا شح به وأمسكه لم تسمح نفسه بلقمة يتصدّق بها على فقير فيظهر فيه الرياء والبخل والطمع وجملة من المهلكات كان عنها بمعزل لو ترك المجاورة ، ولكن حب المحمدة وأن يقال إنه من المجاورين ألزمه المجاورة مع التضمخ بهذه الرذائل فهو أيضاً مغرور ، وما من عمل من الأعمال وعبادة من العبادات إلا وفيها آفات فمن لم يعرف مداخل آفاتها واعتمد عليها فهو مغرور ، ولايعرف شرح ذلك إلا من جملة كتب إحياء علوم الدين ، فيعرف مداخل الغرور فى الصلاة من كتاب الصلاة ، وفى الحج من كتاب الحج ، والزكاة والتلاوة وسائر القربات من الكتب التى رتبناها فيها ، وإنما الغرض الآن الإشارة إلى مجامع ما سبق فى الكتب .

(وفرقة أخرى) زهدت فى المال وقنعت من اللباس والطعام بالدون ومن المسكن بالمساجد وظنت أنها أدركت رتبة الزهاد ، وهو مع ذلك راغب فى الرياسة والجاه إما بالعلم أو بالوعظ أو بمجرّد الزهد ، فقد ترك أهون الأمرين وباء بأعظم المهلكين ، فإنّ الجاه أعظم من المال ولو ترك الجاه وأخذ المال كان إلى السلامة أقرب فهذا

مغرور إذ ظن أنه من الزهاد فى الدنيا وهو لم يفهم معنى الدنيا ، ولم يدر أنّ منتهى لذاتها لرياسة وأنّ الراغب فيها لابدّ وأن يكون منافقا وحسودا ومتكبرا ومرائيا ومتصفا بجميع خبائث الأخلاق . نعم وقد يترك الرياسة ويؤثر الخلوة والعزلة وهو مع ذلك مغرور إذ يتطول بذلك على الأغنياء ويخشن معهم الكلام وينظر إليهم بعين الاستحقار ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم ويعجب بعمله ويتصف بجملة من خبائث القلوب وهو لايدرى ، وربما يعطى المال فلا يأخذه خيفة من أن يقال بطل زهده ، ولو قيل له إنه حلال فخذه فى الظاهر ورده فى الخفية لم تسمح به نفسه خوفا من ذم الناس ، فهو راغب فى حمد الناس وهو من ألذ أبواب الدنيا ، ويرى نفسه أنه زاهد فى الدنيا وهو مغرور ومع ذلك فربما لايخلو من توقير الأغنياء وتقديمهم على الفقراء والميل إلى المريدين له والمثنين عليه والنفرة عن المائلين إلى غيره من الزهاد ، وكل ذلك خدعة وغرور من الشيطان نعوذ بالله منه . وفى العباد من يشدّد على نفسه فى أعمال الجوارح حتى ربما يصلى فى اليوم والليلة مثلا ألف ركعة ويختم القرآن وهو فى جميع ذلك لا يخطر له مراعاة القلب وتفقده وتطهيره من الرياء والكبر والعجب وسائر المهلكات فلا يدرى أنّ ذلك مهلك ، وإن علم ذلك فلا يظن بنفسه ذلك ، وإن ظن بنفسه ذلك توهم أنه مغفور له لعمله الظاهر وأنه غير مؤاخذ بأحوال القلب ، وإن توهم فيظن أن العبادات الظاهرة تترجح بها كفة حسناته وهيهات ! وذرة من ذى تقوى وخلق واحد من أخلاق الأكياس أفضل من أمثال الجبال عملا بالجوارح ، ثم لايخلو هذا المغرور - مع سوء خلقه مع الناس وخشونته وتلوث باطنه - عن الرياء وحب الثناء ، فإذا قيل له أنت من أوتاد الأرض وأولياء الله وأحبابه فرح المغرور بذلك وصدق به وزاده ذلك غرورا ، وظن أن تزكية الناس له دليل على كونه مرضيا عند الله ولا يدرى أن ذلك لجهل الناس بخبائث باطنه .

(وفرقة أخرى) حرصت على النوافل ولم يعظم اعتدادها بالفرائض ، ترى أحدهم يفرح بصلاة الضحى وبصلاة الليل وأمثال هذه النوافل ولا يجد للفريضة لذة ولا يشتدّ حرصه على المبادرة بها فى أوّل الوقت ، وينسى قوله صلى الله عليه وآله وسلم فيما يرويه عن ربه « ماتقرب المتقربون إلى بمثل أداء ما افترضت عليهم »(١) ، وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور . بل قد يتعين فى الإنسان فرضان : أحدهما يفوت والآخر لا يفوت ، أو فضلان أحدهما يضيق وقته والآخر يتسع وقته . فإن لم يحفظ الترتيب فيه كان مغرورا . ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى ، فإن المعصية ظاهرة والطاعة ظاهرة وإنما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض ، كتقديم الفرائض كلها على النوافل ، وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفاية ، وتقديم فرض كفاية لا قائم به على ما قام به غيره ، وتقديم الأهم من فروض الأعيان على مادونه ، وتقديم مايفوت على ما لا يفوت ، وهذا كما يجب تقديم حاجة الوالدة على حاجة الوالد إذ سئل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقيل له : من أبر يارسول الله ؟ قال « أمك » ، قال : ثم من ؟ قال « أمك » ، قال : ثم من ؟ قال « أمك » ، قال : ثم من ؟ قال « أباك » ، قال : ثم من ؟ قال « أدناك فأدناك »(٢) ، فينبغى أن يبدأ فى الصلة بالأقرب ، فإن استويا فبالأحوج ، فإن استويا فبالأتقى والأورع . وكذلك من لايفى ماله بنفقة الوالدين والحج فربما يحج وهو مغرور بل ينبغى أن يقدّم حقهما على الحج ، وهذا من تقديم فرض أهم على فرض هو دونه . وكذلك إذا كان على العبد ميعاد ودخل وقت الجمعة فالجمعة تفوت والاشتغال

---

(١) حديث « ماتقرب المتقربون الى بمثل أداء ما افترضت عليهم » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة بلفظ « ما تقرب الى عبدى » . (٢) حديث : من أبر ؟ قال « أمك ... الحديث » أخرجه الترمذى والحاكم وصححه من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده وقد تقدم فى آداب الصحبة .

بالوفاء بالوعد معصية وإن كان هو طاعة فى نفسه . وكذلك قد تصيب ثوبه النجاسة فيغلظ القول على أبويه وأهله بسبب ذلك فالنجاسة محذورة وإيذاؤهما محذور ، والحذر من الإيذاء أهم من الحذر من النجاسة . وأمثلة تقابل المحذورات والطاعات لاتنحصر . ومن ترك الترتيب فى جميع ذلك فهو مغرور . وهذا غرور فى غاية الغموض لأنّ المغرور فيه فى طاعة إلا أنه لايفطن لصيرورة الطاعة معصية حيث ترك بها طاعة واجبة هى أهم منها . ومن جملته الاشتغال بالمذهب والخلاف من الفقه فى حق من بقى عليه شغل من الطاعات والمعاصى الظاهرة والباطنة المتعلقة بالجوارح والمتعلقة بالقلب لأن مقصود الفقه معرفة مايحتاج إليه غيره فى حوائجه . فمعرفة مايحتاج هو إليه فى قلبه أولى به إلا أن حب الرياسة والجاه ولذة المباهاة وقهر الأقران والتقدم عليهم يعمى عليه حتى يغترّ به مع نفسه ويظنّ أنه مشغول بهم دينه .

الصنف الثالث : المتصوّفة وماأغلب الغرور عليهم والمغترون منهم فرق كثيرة .

(ففرقة منهم) وهم متصوّفة أهل الزمان إلا من عصمه الله اغتروا بالزى والهيئة والمنطق ، فساعدوا الصادقين من الصوفية فى زيهم وهيئتهم وفى ألفاظهم وفى آدابهم ومراسمهم واصطلاحاتهم ، وفى أحوالهم الظاهرة فى السماع والرقص والطهارة والصلاة والجلوس على السجادات مع إطراق الرأس وإدخاله فى الجيب كالمتفكر وفى تنفس الصعداء وفى خفض الصوت فى الحديث إلى غير ذلك من الشمائل والهيئات ، فلما تكلفوا هذه الأمور وتشبهوا بهم فيها ظنوا أنهم أيضا صوفية ولم يتعبوا أنفسهم قط فى المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب ، وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية، وكل ذلك من أوائل منازل التصوف ،ولوفرغوا عن جميعها لما جاز لهم أن يعدوا أنفسهم فى الصوفية ؟ كيف ولم يحوموا قط حولها ولم يسوموا أنفسهم شيئا منها ؟ بل يتكالبون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين ويتنافسون فى الرغيف والفلس والحبة ويتحاسدون على النقير والقطمير ويمزق بعضهم أعراض بعض مهما خالفه فى شىء من غرضه . وهؤلاء غرورهم ظاهر ومثالهم مثال امرأة عجوز سمعت أن الشجعان والأبطال من المقاتلين ثبت أسماؤهم فى الديوان ويقطع لكل واحد منهم قطر من أقطار المملكة ، فتاقت نفسها إلى أن يقطع لها مملكة فلبست درعا ووضعت على رأسها مغفرا وتعلمت من رجز الأبطال أبياتاً وتعودت إيراد تلك الأبيات بنغماتهم حتى تيسرت عليها وتعلمت كيفية تبخترهم فى الميدان وكيف تحريكهم الأيدى وتلقفت جميع شمائلهم فى الزى والمنطق والحركات والسكنات ، ثم توجهت إلى المعسكر ليثبت اسمها فى ديوان الشجعان فلما وصلت إلى المعسكر أنفذت إلى ديوان العرض وأمر بأن تجرد عن المغفر والدرع وينظر ماتحته وتمتحن بالمبارزة مع بعض الشجعان ليعرف قدر عنائها فى الشجاعة ، فلما جردت عن المغفر والدرع فإذا هى عجوز ضعيفة زمنة لاتطيق حمل الدرع والمغفر؟ فقيل لها أجئت للاستهزاء بالملك والاستخفاف بأهل حضرته والتلبيس عليهم خذوها فألقوها قدام الفيل لسخفها فألقيت إلى الفيل . فكهذا يكون حال المدعين للتصوف فى القيامة إذا كشف عنهم الغطاء وعرضوا على القاضى الأكبر الذى لا ينظر إلى الزى والمرقع بل إلى القلب .

(وفرقة أخرى) زادت على هؤلاء فى الغرور إذ شق عليها الاقتداء بهم فى بذاذة الثياب والرضا بالدون ، فأرادت أن تتظاهر بالتصوف ولم تجد بدًا من التزين بزيهم فتركوا الحرير والإبريسم وطلبوا المرقعات النفيسة والفوط الرقيقة والسجادات المصبغة ولبسوا من الثياب ماهو أرفع قيمة من الحرير والإبريسم ، وظن أحدهم مع ذلك أنه متصوف بمجرّد لون الثوب وكونه مرقعا ، ونسى أنهم إنما لونوا الثياب لئلا يطول عليهم غسلها كل ساعة

لإزالة الوسخ ، وإنما لبسوا المرقعات إذ كانت ثيابهم مخرقة فكانوا يرقعونها ولا يلبسون الجديد فأما تقطيع الفوط الرقيقة قطعة قطعة وخياطة المرقعات منها فمن أين يشبه ما اعتادوه ؟ فهؤلاء أظهر حماقة من كافة المغرورين ، فإنهم يتنعمون بنفيس الثياب ولذيذ الأطعمة ويطلبون رغد العيش ويأكلون أموال السلاطين ولا يجتنبون المعاصي الظاهرة فضلا عن الباطنة وهم مع ذلك يظنون بأنفسهم الخير وشر هؤلاء مما يتعدى إلى الخلق إذ يهلك من يقتدي بهم ، ومن لا يقتدي بهم تفسد عقيدته في أهل التصوف كافة ويظن أن جميعهم كانوا من جنسه فيطول اللسان في الصادقين منهم ، وكل ذلك من شؤم المتشبهين وشرهم .

(وفرقة أخرى) ادعت علم المعرفة ومشاهدة الحق ومجاوزة المقامات والأحوال والملازمة في عين الشهود والوصول إلى القرب ، ولا يعرف هذه الأمور إلا بالأسامي والألفاظ لأنه تلقف من ألفاظ الطامات كلمات فهو يرددها ويظن أن ذلك أعلى من علم الأولين والآخرين ، فهو ينظر إلى الفقهاء والمفسرين والمحدثين وأصناف العلماء بعين الإزراء فضلا عن العوام ، حتى إن الفلاح ليترك فلاحته والحائك يترك حياكته ويلازمهم أياما معدودة ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيفة فيرددها كأنه يتكلم عن الوحي ويخبر عن سر الأسرار . ويستحقر بذلك جميع العباد والعلماء ، فيقول في العباد إنهم أجراء متعبون ، ويقول في العلماء إنهم بالحديث عن الله محجوبون ؛ ويدعى لنفسه أنه الواصل إلى الحق وأنه من المقربين ، وهو عند الله من الفجار المنافقين ، وعند أرباب القلوب من الحمق الجاهلين لم يحكم قط علما ولم يهذب خلقا ولم يرتب عملا ولم يراقب قلبا سوى اتباع الهوى وتلقف الهذيان وحفظه .

(وفرقه أخرى) وقعت في الإباحة وطووا بساط الشرع ورفضوا الأحكام وسووا بين الحلال والحرام فبعضهم يزعم أن الله مستغن عن عملي فلم أتعب نفسي ؟ وبعضهم يقول: قد كلف الناس تطهير القلوب عن الشهوات وعن حب الدنيا وذلك محال فقد كلفوا ما لا يمكن ، وإنما يغتر به من لم يجرب ، وأما نحن فقد جربنا وأدركنا أن ذلك محال . ولا يعلم الأحمق أن الناس لم يكلفوا قلع الشهوة والغضب من أصلهما بل إنما كلفوا قلع مادتهما بحيث ينقاد كل واحد منهما لحكم العقل والشرع . وبعضهم يقول : الأعمال بالجوارح لا وزن لها ، وإنما النظر إلى القلوب وقلوبنا والهة بحب الله وواصلة إلى معرفة الله وإنما نخوض في الدنيا بأبداننا وقلوبنا عاكفة في حضرة الربوبية فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب ، ويزعمون إنهم قد ترقوا عن رتبة العوام واستغنوا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية وأن الشهوات لا تصدهم عن طريق الله لقوتهم فيها ، ويرفعون درجة أنفسهم على درجة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذ كانت تصدهم عن طريق الله خطيئة واحدة حتى كانوا يبكون عليها وينوحون سنين متوالية ، وأصناف غرور أهل الإباحة من المتشبهين بالصوفية لا تحصى ، وكل ذلك بناء على أغاليط ووساوس يخدعهم الشيطان بها لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم ومن غير اقتداء بشيخ متقن في الدين والعلم صالح للاقتداء به وإحصاء أصنافهم يطول .

(وفرقة أخرى) : جاوزت حد هؤلاء واجتنبت الأعمال وطلبت الحلال واشتغلت بتفقد القلب وصار أحدهم يدعى المقامات من الزهد والتوكل والرضا والحب من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات وشروطها وعلاماتها وآفاتها . فمنهم من يدعى الوجد والحب لله تعالى ويزعم أنه واله بالله ولعله قد تخيل في الله خيالات هي بدعة أو كفر فيدعى حب الله قبل معرفته ، ثم إنه لا يخلو عن مقارفة ما يكره الله عز وجل وعن إيثار هوى نفسه على أمر الله وعن ترك بعض الأمور حياء من الخلق ، ولو خلا لما تركه حياء من الله تعالى . وليس يدرى أن كل ذلك يناقض

الحب وبعضهم ربما يميل إلى القناعة والتوكل فيخوض البوادى من غير زاد ليصحح دعوى التوكل ، وليس يدرى أن ذلك بدعة لم تنقل عن السلف والصحابة وقد كانوا أعرف بالتوكل منه ، فما فهموا أن التوكل المخاطرة بالروح وترك الزاد بل كانوا يأخذون الزاد وهم متوكلون على الله تعالى لا على الزاد ، وهذا ربما يترك الزاد وهو متوكل على سبب من الأسباب واثق به ، وما من مقام من المقامات المنجيات إلا وفيه غرور وقد اغتر به قوم وقد ذكرنا مداخل الآفات فى ربع المنجيات من الكتاب فلا يمكن إعادتها .

(وفرقة أخرى) ضيقت على نفسها فى أمر القوت حتى طلبت منه الحلال الخالص وأهملوا تفقد القلب والجوارح فى غير هذه الخصلة الواحدة ومنهم من أهمل الحلال فى مطعمه وملبسه ومسكنه وأخذ يتعمق فى غير ذلك ، وليس يدرى المسكين أن الله تعالى لم يرض من عبد بطلب الحلال فقط ولا يرضى بسائر الأعمال دون طلب الحلال ، بل لا يرضيه إلا تفقد جميع الطاعات والمعاصى . فمن ظن أن بعض هذه الأمور يكفيه وينجيه فهو مغرور .

(وفرقة أخرى) ادعوا حسن الخلق والتواضع والسماحة فتصدوا لخدمة الصوفية فجمعوا قوما وتكلفوا بخدمتهم واتخذوا ذلك للرياسة وجمع المال ، وإنما غرضهم التكبر ، وهم يظهرون الخدمة والتواضع وغرضهم الارتفاع ، وهم يظهرون أن غرضهم الإرفاق وغرضهم الاستتباع ، وهم يظهرون أن غرضهم الخدمة والتبعية ثم إنهم يجمعون من الحرام والشبهات وينفقون عليهم لتكثر أتباعهم وينشر بالخدمة اسمهم ، وبعضهم يأخذ أموال السلاطين ينفق عليهم ، وبعضهم يأخذها لينفق فى طريق الحج على الصوفية ويزعم أن غرضه البر والإنفاق ، وباعث جميعهم الرياء والسمعة ، وآية ذلك إهمالهم لجميع أوامر الله تعالى عليهم ظاهرا وباطنا ورضاهم بأخذ الحرام والإنفاق منه . ومثال من ينفق الحرام فى طريق الحج لإرادة الخير كمن يعمر مساجد الله فيطينها بالعذرة ويزعم أن قصده العمارة .

(وفرقة أخرى) اشتغلوا بالمجاهدة وتهذيب الأخلاق وتطهير النفس من عيوبها وصاروا يتعمقون فيها فاتخذوا البحث عن عيوب النفس ومعرفة خدعها علما وحرفة ، فهم فى جميع أحوالهم مشغولون بالفحص عن عيوب النفس واستنباط دقيق الكلام فى آفاتها ، فيقولون هذا فى النفس عيب والغفلة عن كونه عيبا عيب ، والالتفات إلى كونه عيبا عيب ، ويشغفون فيه بكلمات مسلسلة تضيع الأوقات فى تلفيقها ومن جعل طول عمره فى التفتيش عن عيوب النفس وتحرير علم علاجها كان كمن اشتغل بالتفتيش عن عوائق الحج وآفاته ولم يسلك طريق الحج فذلك لا يغنيه .

(وفرقة أخرى) جاوزوا هذه الرتبة وابتدءوا سلوك الطريق وانفتح لهم أبواب المعرفة ، فكلما تشمموا من مبادئ المعرفة رائحة تعجبوا منها وفرحوا بها وأعجبتهم غرابتها فتقيدت قلوبهم بالالتفات إليها والتفكر فيها ، وفى كيفية انفتاح بابها عليهم وانسداده على غيرهم ، وكل ذلك غرور لأن عجائب طريق الله ليس لها نهاية ، فلو وقف مع كل أعجوبة وتقيد بها قصرت خطاه وحرم الوصول إلى المقصد وكان مثاله مثال من قصد ملكا فرأى على باب ميدانه روضة فيها أزهار وأنوار لم يكن قد رأى قبل ذلك مثلها ، فوقف ينظر إليها ويتعجب حتى فاته الوقت الذى يمكن فيه لقاء الملك .

(وفرقة أخرى) جاوزوا هؤلاء ولم يلتفتوا إلى ما يفيض عليهم من الأنوار فى الطريق ولا إلى ما تيسر لهم من العطايا الجزيلة ولم يعرجوا على الفرح بها والالتفات إليها جادين فى السير حتى قاربوا فوصلوا إلى حد القربة إلى الله تعالى ، فظنوا أنهم قد وصلوا إلى الله فوقفوا وغلطوا فإن لله تعالى سبعين حجابا من نور لا يصل السالك إلى حجاب من تلك الحجب فى الطريق إلا ويظن أنه قد وصل . وإليه الإشارة بقول إبراهيم عليه السلام إذ قال الله تعالى

إخبارا عنه ﴿ فلما جنّ عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى ﴾ وليس المعنى به هذه الأجسام المضيئة فإنه كان يراها فى الصغر ويعلم أنها ليست آلهة وهى كثيرة وليست واحدا ، والجهال يعلمون أن الكوكب ليس بإله فمثل إبراهيم عليه السلام لا يغرّه الكوكب الذى لا يغرّ السوادية . ولكن المراد به أنه نور من الأنوار التى هى من حجب الله عز وجل وهى على طريق السالكين ، ولا يتصور الوصول إلى الله تعالى إلا بالوصول إلى هذه الحجب ، وهى حجب من نور بعضها أكبر من بعض وأصغر النيرات الكوكب فاستعير له لفظه وأعظمها الشمس وبينهما رتبة القمر ، فلم يزل إبراهيم عليه السلام لما رأى ملكوت السموات حيث قال تعالى ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ﴾ يصل إلى نور بعد نور ويتخيل إليه فى أوّل ما كان يلقاه أنه قد وصل ، ثم كان يكشف له أن وراءه أمرا فيترقى إليه ويقول : قد وصلت فيكشف له ما وراءه حتى وصل إلى الحجاب الأقرب الذى لا وصول إلا بعده، فقال ﴿ هذا أكبر ﴾ فلما ظهر له أنه مع عظمه غير خال عن الهوى فى حضيض النقص والانحطاط عن ذروة الكمال ﴿ قال لا أحب الآفلين ـ إلى أن قال ـ إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض ﴾ وسالك هذه الطريق قد يغتر فى الوقوف على بعض هذه الحجب وقد يغتر بالحجاب الأول ، وأوّل الحجب بين الله وبين العبد هو نفسه فإنه أيضا أمر ربانى وهو نور من أنوار الله تعالى ؛ أعنى سر القلب الذى تتجلى فيه حقيقة الحق كله حتى إنه ليتسع لجملة العالم ويحيط به وتتجلى فيه صورة الكل ، وعند ذلك يشرق نوره إشراقا عظيما إذ يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه وهو فى أوّل الأمر محجوب بمشكاة هى كالساتر له فإذا تجلى نوره وانكشف جمال القلب بعد إشراق نور الله عليه ربما التفت صاحب القلب إلى القلب فيرى من جماله الفائق مايدهشه ، وربما يسبق لسانه فى هذه الدهشة فيقول : أنا الحق فإن لم يتضح له ما وراء ذلك اغتر به ووقف عليه وهلك ، وكان قد اغتر بكوكب صغير من أنوار الحضرة الإلهية ولم يصل بعد إلى القمر فضلا عن الشمس فهو مغرور وهذا محل الالتباس ، إذ المتجلى يلتبس بالمتجلى فيه كما يلتبس لون ما يتراءى فى المرآة بالمرآة فيظن أنه لون المرآة ، وكما يلتبس ما فى الزجاج بالزجاج كما قيل :

رق الزجاج ورقت الخمر　　فتشابها فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح　　وكأنما قدح ولا خمر

وبهذه العين نظر النصارى إلى المسيح فرأوا إشراق نور الله قد تلألأ فيه فغلطوا فيه كمن يرى كوكبا فى مرآة أو فى ماء فيظن أن الكوكب فى المرآة أو فى الماء فيمدّ يده إليه ليأخذه وهو مغرور ، وأنواع الغرور فى طريق السلوك إلى الله تعالى لا تحصى فى مجلدات ولا تستقصى إلا بعد شرح جميع علوم المكاشفة ، وذلك مما لا رخصة فى ذكره ، ولعل القدر الذى ذكرناه أيضا كان الأولى تركه إذ السالك لهذا الطريق لا يحتاج إلى أن يسمعه من غيره ، والذى لم يسلكه لا ينتفع بسماعه بل ربما يستضر به إذ يورثه ذلك دهشة من حيث يسمع مالا يفهم ، ولكن فيه فائدة وهو إخراجه من الغرور الذى هو فيه بل ربما يصدّق بأنّ الأمر أعظم مما يظنه ومما يتخيله بذهنه المختصر وخياله القاصر وجدله المزخرف ويصدق أيضا بما يحكى له من المكاشفات التى أخبر عنها أولياء الله ، ومن عظم غروره ربما أصر مكذبا بما يسمعه الآن كما يكذب بما سمعه من قبل .

الصنف الرابع : أرباب الأموال ؛ والمغترون منهم فرق : (ففرقة منهم) يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وما يظهر للناس كافة ويكتبون أساميهم بالآجر عليها ليتخلد ذكرهم ويبقى بعد الموت أثرهم ، وهم يظنون أنهم قد استحقوا المغفرة بذلك . وقد اغتروا فيه من وجهين :

أحدهما : أنهم يبنونها من أموال اكتسبوها من الظلم والنهب والرشا والجهات المحظورة ، فهم قد تعرضوا لسخط الله في كسبها وتعرضوا لسخطه في إنفاقها وكان الواجب عليهم الامتناع عن كسبها ، فإذن قد عصوا الله بكسبها فالواجب عليهم التوبة والرجوع إلى الله وردها إلى ملاكها إما بأعيانها وإما بردبدلها عند العجز ، فإن عجزوا عن الملاك كان الواجب ردها إلى الورثة فإن لم يبق للمظلوم وارث فالواجب صرفها إلى أهم المصالح ، وربما يكون الأهم التفرقة على المساكين ، وهم لايفعلون ذلك خيفة من أن لايظهر ذلك للناس فيبنون الأبنية بالآجر وغرضهم من بنائها الرياء وجلب الثناء وحرصهم على بقائها لبقاء أسمائهم المكتوبة فيها لالبقاء الخير .

والوجه الثاني : أنهم يظنون بأنفسهم الإخلاص وقصد الخير في الإنفاق على الأبنية ولو كلف واحد منهم أن ينفق دينارا ولايكتب اسمه على الموضع الذي أنفق عليه لشق عليه ذلك ولم تسمح به نفسه ، والله مطلع عليه كتب اسمه أو لم يكتب ، ولولا أنه يريد به وجه الناس لاوجه الله لما افتقر إلى ذلك ،

(وفرقة أخرى) ربما اكتسبت المال من الحلال وأنفقت على المساجد وهي أيضا مغرورة من وجهين :

أحدهما . الرياء وطلب الثناء فإنه ربما يكون في جواره أو بلده فقراء وصرف المال إليهم أهم وأفضل وأولى من الصرف إلى بناء المساجد وزينتها ، وإنما يخف عليهم الصرف إلى المساجد ليظهر ذلك بين الناس .

والثاني أنه يصرف إلى زخرفة المسجد وتزيينه بالنقوش التي هي منهي عنها وشاغلة قلوب المصلين ومختطفة أبصارهم (١) والمقصود من الصلاة الخشوع وحضور القلب ، وذلك يفسد قلوب المصلين ويحبط ثوابهم بذلك ، ووبال ذلك كله يرجع إليه وهو مع ذلك يغتر به ويرى أنه من الخيرات ويعد ذلك وسيلة إلى الله تعالى ، وهو مع ذلك قد تعرض لسخط الله تعالى وهو يظن أنه مطيع له وممتثل لأمره ، وقد شوش قلوب عباد الله بما زخرفه من المسجد وربما شوقهم به إلى زخارف الدنيا ، فيشتهون مثل ذلك في بيوتهم ويشتغلون بطلبه ووبال ذلك كله في رقبته ؛ إذ المسجد للتواضع ولحضور القلب مع الله تعالى . قال مالك بن دينار : أتى رجلان مسجداً فوقف أحدهما على الباب وقال : مثلي لايدخل بيت الله ، فكتبه الملكان عند الله صديقا . فهكذا ينبغي أن تعظم المساجد وهو أن يرى تلويث المسجد بدخوله فيه بنفسه جناية على المسجد لاأن يرى تلويث المسجد بالحرام أو بزخرف الدنيا منة على الله تعالى . وقال الحواريون للمسيح عليه السلام : انظر إلى هذا المسجد ما أحسنه ! فقال : أمتي أمتي بحق أقول لكم لايترك الله من هذا المسجد حجرا قائما على حجر إلا أهلكه بذنوب أهله ، إن الله لايعبأ بالذهب والفضة ولا بهذه الحجارة التي تعجبكم شيئا ، وإن أحب الأشياء إلى الله تعالى القلوب الصالحة بها يعمر الله الأرض وبها يخرب إذا كانت على غير ذلك وقال أبو الدرداء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا زخرفتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم فالدمار عليكم (٢) » وقال الحسن « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يبني مسجد المدينة أتاه جبريل عليه السلام فقال له : ابنه سبعة أذرع طولا في السماء لاتزخرفه ولا تنقشه (٣) » فغرور هذا من حيث أنه رأى المنكر واتكل عليه .

(وفرقة أخرى) ينفقون الأموال في الصدقات على الفقراء والمساكين ويطلبون به المحافل الجامعة ، ومن

(١) حديث : النهي عن زخرفة المساجد وتزيينها بالنقوش . أخرجه البخاري من قول عمر بن الخطاب : أكن الناس ولاتحمر ولاتصفر (٢) حديث « إذا زخرفتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم فالدمار عليكم » أخرجه ابن المبارك في الزهد وأبو بكر ابن أبي داود في كتاب المصاحف موقوفا على أبي الدرداء (٣) حديث الحسن مرسلا : لما أراد أن يبني مسجد المدينة أتاه جبريل فقال ابنه سبعة أذرع طولا في السماء ولاتزخرفه ولاتنقشه لم أجده .

الفقراء من عادته الشكر والإفشاء للمعروف ويكرهون التصدق فى السر ، ويرون إخفاء الفقير لما يأخذ منهم جناية عليهم وكفرانا ، وربما يحرصون على إنفاق المال فى الحج فيحجون مرة بعد أخرى ، وربما تركوا جيرانهم جياعا ولذلك قال ابن مسعود : فى آخر الزمان يكثر الحاج بلا سبب ، يهون عليهم السفر ويبسط لهم فى الرزق ويرجعون محرومين مسلوبين ، يهوى بأحدهم بعيره بين الرمال والقفار وجاره مأسور إلى جنبه لايواسيه . وقال أبو نصر التمار : إن رجلا جاء يودع بشر بن الحارث وقال : قد عزمت على الحج فتأمرنى بشىء ؟ فقال له : كم أعددت للنفقة ؟ فقال : ألفى درهم . قال بشر : فأى شىء تبتغى بحجك ؟ تزهدا أو اشتياقا إلى البيت أو ابتغاء مرضاة الله ؟ قال : ابتغاء مرضاة الله ، قال : فإن أصبت مرضاة الله تعالى وأنت فى منزلك وتنفق ألفى درهم وتكون على يقين من مرضاة الله تعالى أتفعل ذلك ؟ قال : نعم ، قال : اذهب فأعطها عشرة أنفس : مديون يقضى دينه ، وفقير يرم شعثه ، ومعيل يغنى عياله ، ومربى يتيم يفرحه ، وإن قوى قلبك تعطها واحدا فافعل فإن إدخالك السرور على قلب المسلم وإغاثة اللهفان وكشف الضر وإعانة الضعيف أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام ، قم فأخرجها كما أمرناك وإلا فقل لنا مافى قلبك ؟ فقال : ياأبا نصر سفرى أقوى فى قلبى ، فتبسم بشر رحمه الله وأقبل عليه وقال له : المال إذا جمع من وسخ التجارات والشبهات اقتضت النفس أن تقضى به وطرا فأظهرت الأعمال الصالحات وقد آلى الله على نفسه أن لا يقبل إلا عمل المتقين .

(وفرقة أخرى) من أرباب الأموال اشتغلوا بها يحفظون الأموال ويمسكونها بحكم البخل ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التى لايحتاج فيها إلى نفقة ، كصيام النهار وقيام الليل وختم القرآن ، وهم مغرورون لأن البخل المهلك قد استولى على بواطنهم فهو يحتاج إلى قمعه بإخراج المال ، فقد اشتغل بطلب فضائل هو مستغن عنها ، ومثاله مثال من دخل فى ثوبه حية وقد أشرف على الهلاك وهو مشغول بطبخ السكنجبين ليسكن به الصفراء ، ومن قتلته الحية متى يحتاج إلى السكنجبين ؟ ولذلك قيل لبشر : إن فلانا الغنى كثير الصوم والصلاة فقال : المسكين ترك حاله ودخل فى حال غيره وإنما حال هذا إطعام الطعام للجياع والإنفاق على المساكين ، فهذا أفضل له من تجويعه نفسه ومن صلاته لنفسه من جمعه للدنيا ومنعه للفقراء .

(وفرقة أخرى) غلبهم البخل فلا تسمح نفوسهم إلا بأداء الزكاة فقط ، ثم إنهم يخرجون من المال الخبيث الردىء الذى يرغبون عنه ويطلبون من الفقراء من يخدمهم ويتردد فى حاجاتهم ، ومن يحتاجون إليه فى المستقبل للاستسخار فى خدمة أو من لهم فيه على الجملة غرض ، أو يسلمون ذلك إلى من يعينه واحد من الأكابر ممن يستظهر بحشمه لينال بذلك عنده منزلة فيقوم بحاجاته . وكل ذلك مفسدات للنية ومحبطات للعمل وصاحبه مغرور ، ويظن أنه مطيع لله تعالى وهو فاجر إذ طلب بعبادة الله عوضا من غيره ، فهذا وأمثاله من غرور أصحاب الأموال أيضا لايحصى وإنما ذكرنا هذا القدر للتنبيه على أجناس الغرور .

(وفرقة أخرى) من عوام الخلق وأرباب الأموال والفقراء اغتروا بحضور مجالس الذكر واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم واتخذوا ذلك عادة ، ويظنون أن لهم على مجرد سماع الوعظ دون العمل ودون الاتعاظ أجرا ، وهم مغرورون لأن فضل مجلس الذكر لكونه مرغبا فى الخير فإن لم يهيج الرغبة فلا خير فيه ، والرغبة محمودة لأنها تبعث على العمل فإن ضعفت عن الحمل على العمل فلا خير فيها ، ومايراد لغيره فإذا قصر عن الأداء إلى ذلك الغير فلا قيمة له ، وربما يغتر بما يسمعه من الواعظ من فضل حضور المجلس وفضل البكاء وربما تدخله رقة كرقة

النساء فيبكى ولا عزم ، وربما يسمع كلاما مخوفا فلا يزيد على أن يصفق بيديه ويقول : ياسلام سلم ! أو نعوذ بالله أو سبحان الله ! ويظن أنه قد أتى بالخير كله وهو مغرور . وإنما مثاله مثال المريض الذى يحضر مجالس الأطباء فيسمع ما يجرى ، أو الجائع الذى يحضر عنده من يصف له الأطعمة اللذيذة الشهية ثم ينصرف ، وذلك لايغنى عنه من مرضه وجوعه شيئا . فكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل بها لايغنى من الله شيئا . فكل وعظ لم يغير منك صفة تغييرا يغير افعالك حتى تقبل على الله تعالى إقبالا قويا أو ضعيفا وتعرض عن الدنيا فذلك الوعظ زيادة حجة عليك ، فإذا رأيته وسيلة لك كنت مغرورا .

فإن قلت : فما ذكرته من مداخل الغرور أمر لا يتخلص منه أحد ولا يمكن الاحتراز منه ، وهذ يوجب اليأس إذ لايقوى أحد من البشر على الحذر من خفايا هذه الآفات ؟ فأقول : الإنسان إذا افترقت همته فى شىء أظهر اليأس منه واستعظم الأمر واستوعر الطريق ، وإذا صح منه الهوى اهتدى إلى الحيل واستنبط بدقيق النظر خفايا الطرق فى الوصول إلى الغرض ، حتى إن الإنسان إذا أراد أن يستنزل الطير المحلق فى جو السماء مع بعده منه استنزله وإذا أراد أن يخرج الحوت من أعماق البحار استخرجه ، وإذا أراد أن يستخرج الذهب أو الفضه من تحت الجبال استخرجه ، وإذا أراد أن يقنص الوحوش المطلقة فى البرارى والصحارى اقتنصها ، وإذا أراد أن يستسخر السباع والفيلة وعظيم الحيوانات استسخرها وإذا أراد أن يأخذ الحيات والأفاعى ويعبث بها أخذها واستخرج الدرياق من أجوافها ، وإذا أراد أن يتخذ الديباج الملون المنقش من ورق التوت اتخذه ، وإذا أراد أن يعرف مقادير الكواكب وطولها وعرضها استخراج بدقيق الهندسة ذلك وهو مستقر على الأرض ، وكل ذلك باستنباط الحيل وإعداد الآلات ، فسخر الفرس للركوب والكلب للصيد وسخر البازى لاقتناص الطيور وهيأ الشبكة لاصطياد السمك ، إلى غير ذلك من دقائق حيل الآدمى . كل ذلك لأن همه أمر دنياه وذلك معين له على دنياه، فلو همه أمر آخرته فليس عليه إلا شغل واحد وهو تقويم قلبه فعجز عن تقويم قلبه وتخاذل ، وقال هذا محال ومن الذى يقدر عليه ؟ وليس ذلك بمحال لو أصبح وهمه هذا الهم الواحد بل هو كما يقال « لو صح منك الهوى ارشدت للحيل » فهذا شىء لم يعجز عنه السلف الصالحون ومن اتبعهم بإحسان . فلا يعجز عنه أيضا من صدقت إرادته وقويت همته ، بل لا يحتاج إلى عشر تعب الخلق فى استنباط حيل الدنيا ونظم أسبابها .

فإن قلت : قد قربت الأمر فيه مع أنك أكثرت فى ذكر مداخل الغرور فبم ينجو العبد من الغرور؟ فاعلم أنه ينجو منه بثلاثة أمور : بالفعل والعلم والمعرفة . فهذه ثلاثة أمور لا بد منها . أما العقل : فأعنى به الفطرة الغريزية والنور الأصلى الذى به يدرك الإنسان حقائق الأشياء فالفطنة والكيس فطرة ، والحق واالادة فطرة والبليد لا يقدر على التحفظ عن الغرور ، فصفاء العقل وذكاء الفهم لابدّ منه فى أصل الفطرة ، فهذا إن لم يفطر عليه الإنسان فاكتسابه غير ممكن . نعم إذا حصل أصله أمكن تقويته بالممارسة فأساس السعادات كلها العقل والكياسة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تبارك الله الذى قسم العقل بين عباده أشتاتا [1] » إن الرجلين ليستوى عملهما وبرهما وصومهما وصلاتهما ولكنهما يتفاوتان فى العقل كالذرة فى جنب احد ، وماقسم الله لخلقه حظاهو أفضل من العقل واليقين . وعن أبى الدرداء أنه قيل : يارسول الله أرأيت الرجل يصوم النهار ويقوم الليل ويحج ويعتمر ويتصدق

---

(١) حديث « تبارك الذى قسم العقل بين عباده ... الحديث » أخرجه الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول من رواية طاوس مرسلا وفى أوله قصة وإسناده ضعيف ورواه بنحوه من حديث أبى حميد وهو ضعيف أيضا .

ويغزو فى سبيل الله ويعود المريض ويشيع الجنائز ويعين الضعيف ولا يعلم منزلته عند الله يوم القيامة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما يجزى على قدر عقله (١) ، وقال أنس : أثنى على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا خيرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كيف عقله ؟ ، قالوا : يارسول الله نقول من عبادته وفضله وخلقه فقال « كيف عقله فإن الأحمق يصيب بحمقه أعظم من فجور الفاجر . وإنما يقترب الناس يوم القيامة على قدر عقولهم (٢) ، وقال أبو الدرداء : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بلغه عن رجل شدة عبادة سأل عن عقله فإذا قالوا حسن قال « أرجوه ، وإن قالوا غير ذلك قال « لن يبلغ (٣) ، وذكر له شدة عبادة رجل فقال « كيف عقله ، قالوا : ليس بشيء قال « لن يبلغ صاحبكم حيث تظنون ، فالذكاء صحيح وغريزة العقل نعمة من الله تعالى فى أصل الفطرة فإن فاتت ببلادة وحماقة فلا تدارك لها .

الثانى . المعرفة ؛ وأعنى بالمعرفة أن يعرف أربعة أمور : يعرف نفسه ، ويعرف ربه ، ويعرف الدنيا ، ويعرف الآخرة : فيعرف نفسه بالعبودية والذل وبكونه غريبا فى هذا العالم وأجنبيا من هذه الشهوات البهيمية ، وإنما الموافق له طبعا هو معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه فقط ، فلا يتصور أن يعرف هذا مالم يعرف نفسه ولم يعرف ربه فليستعن على هذا بما ذكرناه فى كتاب المحبة وفى كتاب شرح عجائب القلب وكتاب التفكر وكتاب الشكر ، إذ فيها إشارات إلى وصف النفس وإلى وصف جلال الله ، ويحصل به التنبه على الجملة وكمال المعرفة وراءه ، فإن هذا من علوم المكاشفة ، ولم نطنب فى هذا الكتاب إلا فى علوم المعاملة . وأما معرفة الدنيا والآخرة فيستعين عليها بما ذكرناه فى كتاب ذم الدنيا وكتاب ذكر الموت ليتبين له أن لانسبة للدنيا إلى الآخرة ، فإذا عرف نفسه وربه وعرف الدنيا والآخرة ثار من قلبه بمعرفة الله حب الله ، وبمعرفة الآخرة شدة الرغبة فيها ، وبمعرفة الدنيا الرغبة عنها ويصير أهم أموره مايوصله إلى الله تعالى وينفعه فى الآخرة ، وإذا غلبت هذه الإرادة على قلبه صحت نيته فى الأمور كلها ، فإن أكل مثلا أو اشتغل بقضاء الحاجة كان قصده منه الاستعانة على سلوك طريق الآخرة . وصحت نيته واندفع عنه كل غرور منشؤه تجاذب الأغراض والنزوع إلى الدنيا والجاه والمال فإن ذلك هو المفسد للنية . ومادامت الدنيا أحب إليه من الآخرة وهوى نفسه أحب إليه من رضا الله تعالى فلا يمكنه الخلاص من الغرور .

فإذا غلب حب الله على قلبه بمعرفته بالله وبنفسه الصادرة عن كمال عقله فيحتاج إلى المعنى الثالث وهو العلم : أعنى العلم بمعرفة كيفية سلوك الطريق إلى الله ، والعلم بما يقربه من الله ومايبعده عنه ، والعلم بآفات الطريق وعقباته وغوائله (وجميع ذلك قد أودعناه كتب إحياء علوم الدين ، فيعرف من ربع العبادات شروطها فيراعيها وآفاتها فيتقيها ، ومن ربع العادات أسرار المعايش وما هو مضطر إليه فيأخذه بأدب الشرع وما هو مستغن عنه فيعرض عنه ، ومن ربع المهلكات يعلم جميع العقبات المانعة فى طريق الله فإن المانع من الله الصفات المذمومة فى الخلق فيعلم المذموم ويعلم طريق علاجه ، ويعرف من ربع المنجيات الصفات المحمودة التى لابد وأن توضع خلفا عن المذمومة بعد محوها) فإذا أحاط بجميع ذلك أمكنه الحذر من الأنواع التى أشرنا إليها من الغرور ، وأصل ذلك كله أن يغلب

---

(١) حديث أبى الدرداء « أرأيت الرجل يصوم النهار ويقوم الليل ... الحديث » وفيه « إنما يجزى على قدر عقله » أخرجه الخطيب فى التاريخ وفى أسماء من روى عن مالك من حديث ابن عمر وضعفه ولم أره من حديث أبى الدرداء

(٢) حديث أنس : أثنى على رجل عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال « كيف عقله ؟ » . الحديث » أخرجه داود بن المحبر فى كتاب العقل وهو ضعيف وتقدم فى العلم (٣) حديث أبى الدرداء : كان إذا بلغه عن رجل شدة عبادة ، سأل عن عقله .. الحديث . أخرجه الترمذى الحكيم فى النوادر وابن عدى ومن طريقه البيهقى فى الشعب وضعفه .

حب الله على القلب يسقط حب الدنيا منه حتى تقوى به الإرادة وتصح به النية ، ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة التى ذكرناها .

فإن قلت : فإذا فعل جميع ذلك فما الذى يخاف عليه ؟ فأقول يخاف عليه أن يخدعه الشيطان ويدعوه إلى نصح الخلق او نشر العلم ودعوته الناس إلى ماعرفه من دين الله ، فإن المريد المخلص إذا فرغ من تهذيب نفسه وأخلاقه وراقب القلب حتى صفاه من جميع المكدرات واستوى على الصراط المستقيم وصغرت الدنيا فى عينه فتركها ، وانقطع طمعه عن الخلق فلم يلتفت إليهم ، ولم يبق إلا هم واحد وهو الله تعالى والتلذذ بذكره ومناجاته والشوق إلى لقائه ، وقد عجز الشيطان عن إغوائه إذ يأتيه من جهة الدنيا وشهوات النفس فلا يطيعه فيأتيه من جهة الدين ويدعوه إلى الرحمة على خلق الله والشفقة على دينهم والنصح لهم والدعاء إلى الله ، فينظر العبد برحمته إلى العبيد فيراهم حيارى فى أمرهم سكارى فى دينهم صما عميا قد استولى عليهم المرض وهم لا يشعرون وفقدوا الطبيب وأشرفوا على العطب ، فغلب على قلبه الرحمة لهم وقد كان عنده حقيقة المعرفة بما يهديهم ويبين لهم ضلالهم ويرشدهم إلى سعادتهم وهو يقدر على ذكرها من غير تعب ومؤنة ولزوم غرامة ، فكان مثله كمثل رجل كان به داء عظيم لا يطاق ألمه ، وقد كان لذلك يسهر ليله ويقلق نهاره لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك ولا يتصرف لشدة ضربان الألم فوجد له دواء عفوا صفوا من غير ثمن ولا تعب ولا مرارة فى تناوله فاستعمله فبرئ وصح فطاب نومه بالليل بعد طول سهره وهدأ بالنهار بعد شدة القلق وطاب عيشه بعد نهاية الكدر وأصاب لذة العافية بعد طول السقام ، ثم نظر إلى عدد كثير من المسلمين وإذا بهم تلك العلة بعينها وقد طال سهرهم واشتد قلقهم وارتفع إلى السماء أنينهم فتذكر أن دواءهم هو الذى يعرفه ويقدر على شفائهم بأسهل ما يكون وفى أرجى زمان ، فأخذته الرحمة والرأفة ولم يجد فسحة من نفسه فى التراخى عن الاشتغال بعلاجهم فكذلك العبد المخلص بعد أن اهتدى إلى الطريق وشفى من أمراض القلوب شاهد الخلق وقد مرضت قلوبهم وأعضل داؤهم وقرب هلاكهم وإشفاؤهم ، وسهل عليه دواؤهم فانبعث من ذات نفسه عزم جازم فى الاشتغال بنصحهم وحرضه الشيطان على ذلك رجاء أن يجد مجالا للفتنة ، فلما اشتغل بذلك وجد الشيطان مجالا للفتنة فدعاه إلى الرياسة دعاء خفيا أخفى من دبيب النمل لا يشعر به المريد ، فلم يزل ذلك الدبيب فى قلبه حتى دعاه إلى التصنع والتزين للخلق بتحسين الألفاظ والنغمات والحركات والتصنع فى الزى والهيئة ، فأقبل الناس إليه يعظمونه ويبجلونه ويوقرونه توقيرا يزيد على توقير الملوك إذ رأوه شافيا لأدوائهم بمحض الشفقة والرحمة من غير طمع فصار أحب إليهم من آبائهم وأمهاتهم وأقاربهم ، فآثروه بأبدانهم وأموالهم وصاروا له خولا كالعبيد والخدم فخدموه وقدموه فى المحافل وحكموه على الملوك والسلاطين ، فعند ذلك انتشر الطبع وارتاحت النفس وذاقت لذة يالها من لذة أصابت من الدنيا شهوة يستحقر معها كل شهوة ، فكان قد ترك الدنيا فوقع فى أعظم لذاتها ، فعند ذلك وجد الشيطان فرصة وامتدت إلى قلبه يده فهو يستعمله فى كل ما يحفظ عليه تلك اللذة . وأمارة انتشار الطبع وركون النفس إلى الشيطان أنه لو أخطأ فرد عليه بين يدى الخلق غضب ، فإذا أنكر على نفسه ماوجده من الغضب بادر الشيطان فخيل إليه أن ذلك غضب لله لأنه إذا لم يحسن اعتقاد المريدين فيه انقطعوا عن طريق الله فوقع فى الغرور ، فربما أخرجه ذلك إلى الوقيعة فيمن رد عليه فوقع فى الغيبة المحظورة بعد ترك الحلال المتسع ، ووقع فى الكبر الذى هو تمرد عن قبول الحق والشكر عليه بعد أن يحذر من طوارق الخطرات ، وكذلك إذا سبقه الضحك أو فتر عن بعض الأوراد جزعت النفس أن يطلع عليه فيسقط قبوله فأتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء ،

وربما زاد فى الأعمال والأوراد لأجل ذلك والشيطان يخيل إليه إنك إنما تفعل ذلك كيلا يفتر رأيهم عن طريق الله فيتركون الطريق بتركه ، وإنما ذلك خدعة وغرور بل هو جزع من النفس خيفة فوت الرياسة ، ولذلك لا تجزع نفسه من اطلاع الناس على مثل ذلك من أقرانه ، بل ربما يحب ذلك ويستبشر به ، ولو ظهر من أقرانه من مالت القلوب إلى قبوله وزاد أثر كلامه فى القبول على كلامه شق ذلك عليه ولولا أن النفس قد استبشرت واستلذت الرياسة لكان يغتنم ذلك ، إذ مثاله أن يرى الرجل جماعة من إخوانه قد وقعوا فى بئر وتغطى رأس البئر بحجر كبير فعجزوا عن الرقى من البئر بسببه ، فرق قلبه لإخوانه فجاء ليرفع الحجر من رأس البئر فشق عليه فجاءه من أعانه على ذلك حتى تيسر عليه أو كفاه ذلك ونحاه بنفسه ، فيعظم بذلك فرحه لا محالة إذ غرضه خلاص إخوانه من البئر ، فإن كان غرض الناصح خلاص إخوانه المسلمين من النار فإذا ظهر من أعانه أو كفاه ذلك لم يثقل عليه ، أرأيت لو اهتدوا جميعهم من أنفسهم أكان ينبغى أنه يثقل ذلك عليه إن كان غرضه هدايتهم ؟ فإذا اهتدوا بغيره فلم يثقل عليه ؟ ومهما وجد ذلك فى نفسه دعاه الشيطان إلى جميع كبائر القلوب وفواحش الجوارح وأهلكه فنعوذ بالله من زيغ القلوب بعد الهدى ومن أعوجاج النفس بعد الاستواء .

فإن قلت : فتى يصح له أن يشتغل بنصح الناس ؟ فأقول إذا لم يكن له قصد إلا هدايتهم لله تعالى وكان يود لو وجد من يعينه ، أو لو اهتدوا بأنفسهم وانقطع بالكلية طمعه عن ثنائهم وعن أموالهم ، فاستوى عنده حمدهم وذمهم فلم يبال بذمهم إذا كان الله يحمده ولم يفرح بحمدهم إذا لم يقترن به حمد الله تعالى ، ونظر إليهم كما ينظر إلى السادات وإلى البهائم . أما إلى السادات : فمن حيث إنه لا يتكبر عليهم ويرى كلهم خيرا منه لجهله بالخاتمة . وأما إلى البهائم فمن حيث انقطاع طمعه عن طلب المنزلة فى قلوبهم فإنه لا يبالى كيف تراه البهائم فلا يتزين لها ولا يتصنع ! بل راعى الماشية إنما غرضه رعاية الماشية ودفع الذئب عنها دون نظر الماشية إليه . فما لم ير سائر الناس كالماشية التى لا يلتفت إلى نظرها ولا يبالى بها لا يسلم من الاشتغال بإصلاحهم . نعم ربما يصلحهم ولكن يفسد نفسه بإصلاحهم فيكون كالسراج يضىء لغيره ويحترق فى نفسه .

فإن قلت : فلو ترك الوعاظ الوعظ إلا عند نيل هذه الدرجة لخلت الدنيا عن الوعظ وخربت القلوب ؟ فأقول قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حب الدنيا رأس كل خطيئة [1] » ولو لم يحب الناس الدنيا لهلك العالم وبطلت المعايش وهلكت القلوب والأبدان جميعا ، إلا أنه صلى الله عليه وسلم علم أن حب الدنيا مهلك وأن ذكر كونه مهلكا لا ينزع الحب من قلوب الأكثرين لا الأقلين الذين لا تخرب الدنيا بتركهم ، فلم يترك النصح وذكر ما فى حب الدنيا من الخطر ولم يترك ذكره خوفا من أن يترك نفسه بالشهوات المهلكة التى سلطها الله على عباده ليسوقهم بها إلى جهنم تصديقا لقوله تعالى ﴿ ولكن حق القول منى لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ فكذلك لا تزال ألسنة الوعاظ مطلقة لحب الرياسة ولا يدعونها بقول من يقول : إنّ الوعظ لحب الرياسة حرام ، كما لا يدع الخلق الشرب والزنا والسرقة والرياء والظلم وسائر المعاصى بقول الله تعالى ورسوله إنّ ذلك حرام ، فانظر لنفسك وكن فارغ القلب من حديث الناس ، فإنّ الله تعالى يصلح خلقا كثيرا بإفساد شخص واحد وأشخاص ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾ وإنّ الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم ،

---

(١) حديث «حب الدنيا رأس كل خطيئة» أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث الحسن مرسلا وقد تقدم فى كتاب ذم الدنيا .

فإنما يخشى أن يفسد طريق الاتعاظ ، فأما أن تخرس ألسنة الوعاظ ووراءهم باعث الرياسة وحب الدنيا فلا يكون ذلك أبدا .

فإن قلت : فإن علم المريد هذه المكيدة من الشيطان فاشتغل بنفسه وترك النصح أو نصح وراعى شرط الصدق والإخلاص فيه فما الذى يخاف عليه وما الذى بقى بين يديه من الأخطار وحبائل الاغترار ؟ فاعلم أنه بقى عليه أعظمه وهو أن الشيطان يقول له : قد أعجزتنى وأفلت منى بذكائك وكمال عقلك وقد قدرت على جملة من الأولياء والكبراء وما قدرت عليك فما أصبرك ! وما أعظم عند الله قدرك ومحلك إذ قواك على قهرى ومكنك من التفطن لجميع مداخل غرورى ! فيصغى إليه ويصدقه ويعجب بنفسه فى فراره من الغرور كله ، فيكون إعجابه بنفسه غاية الغرور وهو المهلك الأكبر ، فالعجب أعظم من كل ذنب ولذلك قال الشيطان : يا ابن آدم إذا ظننت أنك بعلمك تخلصت منى فبجهلك قد وقعت فى حبائلى .

فإن قلت : فلو لم يعجب بنفسه إذ علم أن ذلك من الله تعالى لا منه وإن مثله لا يقوى على دفع الشيطان إلا بتوفيق الله ومعونته ، ومن عرف ضعف نفسه وعجزه عن أقل القليل فإذا قدر على مثل هذا الأمر العظيم علم أنه لم يقو عليه بنفسه بل بالله تعالى فما الذى يخاف عليه بعد نفى العجب ؟ فأقول : يخاف عليه الغرور بفضل الله والثقة بكرمه والأمن من مكره حتى يظن أنه يبقى على هذه الوتيرة فى المستقبل ولا يخاف من الفترة والانقلاب ، فيكون حاله الاتكال على فضل الله فقط دون أن يقارنه الخوف من مكره ، ومن أمن مكر الله فهو خاسر جدا ، بل سبيله أن يكون مشاهدا جملة ذلك من فضل الله ثم خائفا على نفسه أن يكون قد سدت عليه صفة من صفات قلبه من حب دنيا ورياء وسوء خلق والتفات إلى عز وهو غافل عنه ، ويكون خائفا أن يسلب حاله فى كل طرفة عين غير آمن من مكر الله ولا غافل عن خطر الخاتمة . وهذا خطر لا محيص عنه وخوف لا نجاة منه إلا بعد مجاوزة الصراط . ولذلك لما ظهر الشيطان لبعض الأولياء فى وقت النزع وكان قد بقى له نفس فقال : أفلت منى يا فلان ؟ فقال : لا ، بعد . ولذلك قيل : الناس كلهم هلكى إلا العالمون ، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون ، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم . فإذن المغرور هالك والمخلص الفار من الغرور على خطر فلذلك لا يفارق الخوف والحذر قلوب أولياء الله أبدا .

فنسأل الله تعالى العون والتوفيق وحسن الخاتمة ، فإن الأمور بخواتيمها .

تم كتاب ذم الغرور ، وبه تم ربع المهلكات ، ويتلوه فى أول ربع المنجيات « كتاب التوبة » والحمد لله أولا وآخرا وصلى الله وسلم على من لا نبى بعده وهو حسبى ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

تم الجزء الثالث من كتاب إحياء علوم الدين
ويليه الجزء الرابع ، وأوله : كتاب التوبة

فهرس

الجزء الثالث من إحياء علوم الدين

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

﴿ تم فهرست الجزء الثالث ﴾








Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السلام « اغتبتيها [١] » ومن ذلك المحاكاة يمشى متعارجا أوكما يمشى فهو غيبة بل هو أشد من الغيبة لأنه أعظم فى التصوير والتفهيم ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة حاكت امرأة قال « مايسرنى أنى حاكيت إنسانا ولى كذا وكذا [٢] » . وكذلك الغيبة بالكتابة فإن القلم أحد اللسانين . وذكر المصنف شخصا معينا وتهجين كلامه فى الكتاب غيبة إلا أن يقترن به شىء من الأعذار المحوجة إلى ذكره ـ كما سيأتى بيانه ـ وأماقوله : قال قوم كذا : فليس ذلك غيبة ، وإنما الغيبة التعرض لشخص معين إما حى وإما ميت . ومن الغيبة أن تقول : بعض من مر بنا اليوم ، أوبعض من رأيناه ؛ إذا كان المخاطب يفهم منه شخصاً معيناً ؛ لأن المحذور تفهيمه دون مابه التفهيم فأما إذا لم يفهم عينه جاز . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كره من إنسان شيئا قال « ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا [٣] » فكان لايعين . وقولك : بعض من قدم من السفر ، أو بعض من يدعى العلم ، إن كان معه قرينة تفهم عين الشخص فهى غيبة .

وأخبث أنواع الغيبة غيبة القراء المرائين فإنهم يفهمون المقصود على صيغة أهل الصلاح ليظهروا من أنفسهم التعفف عن الغيبة ويفهمون المقصود ، ولا يدرون بجهلهم أنهم جمعوا بين فاحشتين الغيبة والرياء ، وذلك مثل أن يذكر عنده إنسان فيقول : الحمد لله الذى لم يبتلنا بالدخول على السلطان والتبذل فى طلب الحطام ، أويقول : نعوذ بالله من قلة الحياء نسأل الله أن يعصمنا منها ، وإنما قصده أن يفهم عيب الغير فيذكره بصيغة الدعاء ، وكذلك قد يقدم مدح من يريد غيبته فيقول : ماأحسن أحوال فلان : ماكان يقصر فى العبادات ولكن قد اعتراه فتور وابتلى بما يبتلى به كلنا وهو قلة الصبر . فيذكر نفسه ومقصوده أن يذم غيره فى ضمن ذلك ويمدح نفسه بالتشبه بالصالحين بأن يذم نفسه ، فيكون مغتابا ومرائيا ومزكيا نفسه ، فيجمع بين ثلاث فواحش وهو بجهله يظن أنه من الصالحين المتعففين عن الغيبة . ولذلك يلعب الشيطان بأهل الجهل إذا اشتغلوا بالعبادة من غير علم فإنه يتبعهم ويحبط بمكايده عملهم ويضحك عليهم ويسخر منهم . ومن ذلك أن يذكر عيب إنسان فلا يتنبه له بعض الحاضرين فيقول : سبحان الله ماأعجب هذا ! حتى يصغى إليه ويعلم مايقول ، فيذكر الله تعالى ويستعمل الاسم آلة فى تحقيق خبثه ، وهو يمتن على الله عز وجل بذكره جهلا منه وغرورا ، وكذلك يقول : ساءنى ماجرى على صديقنا من الاستخفاف به نسأل الله أن يروح نفسه ، فيكون كاذبا فى دعوى الاغتمام وفى إظهار الدعاء له ، بل لوقصد الدعاء لأخفاه فى خلوته عقيب صلاته ، ولو كان يغتم به لاغتم أيضا بإظهار ما يكرهه . وكذلك يقول : ذلك المسكين قد بلى بآفة عظيمة تاب الله علينا وعليه ، فهو فى كل ذلك يظهر الدعاء والله مطلع على خبث ضميره وخفى قصده ، وهو لجهله لايدرى أنه قد تعرض لمقت أعظم مما تعرض له الجهال إذا جاهروا .

ومن ذلك الإصغاء إلى الغيبة على سبيل التعجب فإنه إنما تظهر التعجب ليزيد نشاط المغتاب فى الغيبة فيندفع فيها وكأنه يستخرج الغيبة منه بهذا الطريق فيقول : عجب ماعلمت أنه كذلك ! ماعرفته إلى الآن إلا بالخير : وكنت أحسب فيه غير هذا ، عافانا الله من بلائه ، فإن كل ذلك تصديق للمغتاب والتصديق بالغيبة غيبة بل الساكت شريك

---

(١) حديث عائشة : دخلت علينا امرأة فأومأت بيدى أى قصيرة فقال النبى صلى الله عليه وسلم « قد اغتبتيها » أخرجه ابن أبى الدنيا وابن مردويه من رواية حسان بن مخارق عنها وحسان وثقه ابن حبان وباقيهم ثقات (٢) حديث « مايسرنى أنى حكيت ولى كذا وكذا » تقدم فى الآفة الحادية عشرة (٣) حديث كان إذا كره من إنسان شيئا قال « مابال أقوام يفعلون كذا وكذا ... الحديث » أخرجه أبو داود من حديث عائشة دون قوله « وكان لا يعينه » ورجاله رجال الصحيح .


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)